



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عيد ميلاد
عمر الکرمان

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

السلامة القوية

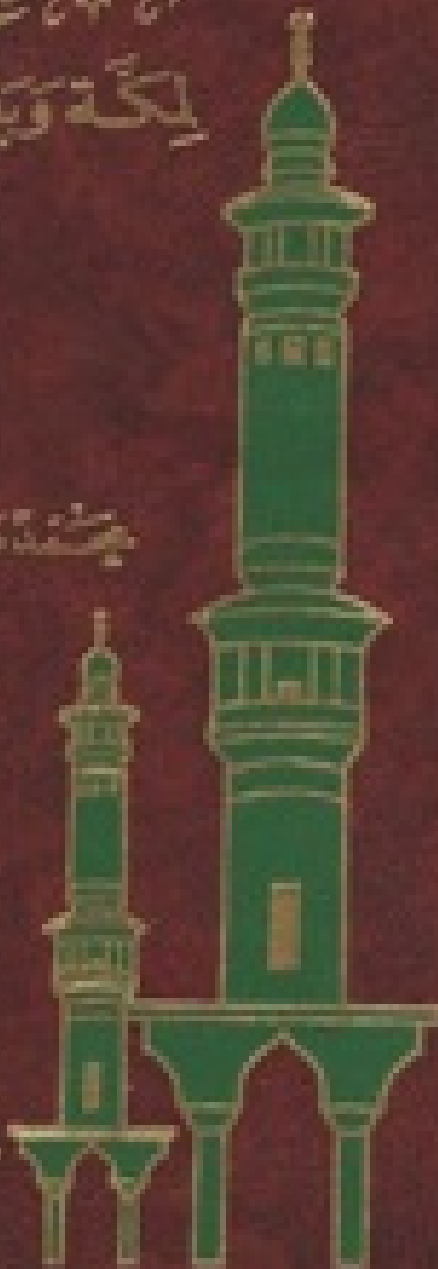
بركة وبيت الله الكريم

تأليف

مفتي مكة المكرمة
عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب

المجلد الاول

توزيع مطبعة
مكة المكرمة
مكة المكرمة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم

كاتب:

محمد طاهر الكردي المكي

نشرت في الطباعة:

دار خضر

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢٨	التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم المجلد ١
٢٨	اشارة
٢٨	المجلد الأول
٢٨	[الجزء الاول]
٢٨	مقدمة الطبعة الثانية
٢٩	التعريف بالمؤلف
٢٩	اشارة
٢٩	[١] الشيخ محمد طاهر الكردي
٢٩	اشارة
٣٠	مصحف مكة المكرمة
٣٣	طاهر كردي الخطاط
٣٤	تاريخ الخط العربي و آدابه
٣٥	طاهر كردي المؤلف
٣٦	طاهر كردي المؤرخ
٣٧	التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم
٣٧	مؤلفاته الأخرى
٣٨	بقية التاريخ القويم
٣٨	[٢] رسالة إلى الراحل الشيخ محمد طاهر الكردي بقلم الأديب السعودي الكبير الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
٤١	[٣] محمد طاهر الكردي المكي الخطاط بقلم الأستاذ الأديب يوسف ذنون
٤٥	[٤] مؤرخ مكة الكبير و كاتب مصحفها إلى رحمة الله بقلم الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان
٤٧	[٥] ملحق التراث يشاطر العالم الإسلامي في مصابه بالخطاط المكي محمد طاهر الكردي - كاتب مصحف مكة المكرمة
٥١	تقديم الكتاب

- ٥١ خطبة الكتاب
- ٥١ اشارة
- ٥٦ بعض أسماء الكتب التي ألفت في تاريخ مكة المشرفة و وقفنا عليها و ربما هناك غيرها في بعض البلدان لم نطلع عليها
- ٥٧ تراجم مؤرخي مكة المشرفة في عصرنا الحاضر و كلهم من أهل مكة المكرمة
- ٥٧ اشارة
- ٥٨ ترجمة الإمام الأزرقى المكى من أهل القرن الثانى للهجرة و هو عربى صميم
- ٥٩ ترجمة حسين بن عبد الله باسلامة المكى الحضرمى
- ٦٠ ترجمة الشيخ عبد الله الغازى المكى
- ٦١ ترجمة الأستاذ أحمد السباعى المكى
- ٦٣ ترجمة محمد طاهر الكردى المكى الخطاط
- ٦٣ ذكر أسماء مكة المكرمة
- ٦٤ جدول بيان قياسات بعض جبال مكة و بعض أماكنها
- ٦٤ قياسات بعض الأماكن بمكة
- ٦٤ المسافات بين بعض المساجد
- ٦٥ مقدمة الكتاب
- ٦٥ بلاد الحجاز
- ٦٥ طبيعة الحجاز
- ٦٦ جو الحجاز
- ٦٦ اشارة
- ٦٦ الأقاليم الشمالية
- ٦٦ المنطقة الوسطى
- ٦٦ القسم الجنوبى
- ٦٦ أهم مدن الحجاز
- ٦٧ [١] مكة المكرمة

- ٦٧ [٢] ا لمدينة المنورة
- ٦٨ [٣] جدة
- ٦٨ [٤] الطائف
- ٦٩ [٥] عسير
- ٦٩ فضل الحجاز
- ٧٠ جغرافية بلاد العرب
- ٧١ منظومة فريدة في علم الجغرافيا
- ٧٣ تاريخ الاكتشاف الجغرافي لبلاد العرب
- ٧٤ اشارة
- ٧٤ العصر القديم أى ما قبل الإسلام
- ٧٤ العصر الإسلامى
- ٧٥ العصر الأوروبى
- ٧٥ تقسيم بلاد العرب من حيث الأخلاق و العادات
- ٧٧ تاريخ العرب قبل الإسلام
- ٧٧ تقسيم العرب إلى عاربة و مستعربة
- ٧٧ اشارة
- ٧٧ العرب العاربة
- ٧٨ العرب المستعربة
- ٧٨ أول تسمية للبلاد العربية السعودية
- ٧٩ فضل العرب على سائر الأجناس
- ٧٩ مكانة العرب بين الأمم الإسلامية
- ٨٢ مناظرة بين النعمان بن المنذر و كسرى أنوشروان فى شأن العرب
- ٨٥ نبذة من سيرة النبي صلى الله عليه و سلم
- ٨٥ اشارة

- ٨٧ نسب رسول الله صلى الله عليه و سلم
- ٨٩ [توحيد آباؤه صلى الله عليه و سلم]
- ٩٠ ترجمة عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه و سلم
- ٩٢ نبذة يسيرة عن أحوال رسول الله صلى الله عليه و سلم من ولادته إلى وفاته
- ٩٣ وفاة والده صلى الله عليه و سلم
- ٩٣ تاريخ ولادته صلى الله عليه و سلم
- ٩٣ نجاة عبد الله أب النبي صلى الله عليه و سلم من الذبح
- ٩٥ تزوج عبد الله بن عبد المطلب
- ٩٦ موت عبد الله بن عبد المطلب أب النبي صلى الله عليه و سلم
- ٩٦ ولادة النبي صلى الله عليه و سلم
- ٩٦ اشارة
- ٩٨ محل ولادته صلى الله عليه و سلم و تسميته يوم السابع
- ٩٩ رضاعته صلى الله عليه و سلم و مرضعاته
- ٩٩ اشارة
- ١٠٠ قصة رضاعة حليلة السعدية له صلى الله عليه و سلم
- ١٠١ قصة شق صدره صلى الله عليه و سلم
- ١٠٢ موت أمه صلى الله عليه و سلم بالأبواء
- ١٠٢ اشارة
- ١٠٤ محل مدفن أم النبي صلى الله عليه و سلم
- ١٠٥ نجاة أبوي النبي صلى الله عليه و سلم
- ١٠٥ اشارة
- ١٠٦ الاستدلال على نجاتهما
- ١٠٩ الحديث الصحيح الوارد في زيارته صلى الله عليه و سلم لأمه
- ١١٠ و يعجبنا ما قاله بعضهم عن زيارة أمه صلى الله عليه و سلم

- ١١١ الكلام على قرية الأبواء و قرية مستورة
- ١١٥ كفالته عمه له صلى الله عليه و سلم
- ١١٦ رحلته مع عمه صلى الله عليه و سلم إلى الشام للمرة الأولى
- ١١٦ سفره صلى الله عليه و سلم إلى الشام للمرة الثانية
- ١١٧ تزوجه صلى الله عليه و سلم بخديجة
- ١١٨ محبة خديجة لرسول الله صلى الله عليه و سلم و محبته لها
- ١١٨ عدد أزواجه و سراريه صلى الله عليه و سلم
- ١١٩ عدد أولاده صلى الله عليه و سلم
- ١١٩ كيفية بدء الوحي
- ١٢٠ كيفية نزول الوحي و نزول القرآن
- ١٢٢ دعوة النبي صلى الله عليه و سلم لعبادة الله تعالى سرا
- ١٢٣ الجهر بالدعوة
- ١٢٤ حصار النبي صلى الله عليه و سلم بشعب على بسوق الليل بمكة
- ١٢٥ نقض الصحيفة التي كتبها كفار قريش
- ١٢٥ بعض ما لقيه رسول الله صلى الله عليه و سلم من التعب و المشقة في سبيل الدعوة إلى الله تعالى
- ١٢٧ القصيدة الشعبية
- ١٢٩ جدول الحوادث الواقعة في سنوات الهجرة
- ١٣٠ ابتداء مرضه صلى الله عليه و سلم
- ١٣١ وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم
- ١٣٢ سورة النصر و نزولها بمنى في حجة الوداع
- ١٣٣ فصل في وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم
- ١٣٤ ابتداء مرضه صلى الله عليه و سلم الذي قبض فيه
- ١٣٩ [حالة الصحابة حينما سمعوا بموت رسول الله صلى الله عليه و سلم]
- ١٤١ [اشتغال الناس بإقامة خليفة ثم بغسل رسول الله صلى الله عليه و سلم و دفنه]

- ١٤٤ حكمه دفنه صلى الله عليه و سلم فى اللحد
- ١٤٦ [بعض ما قاله الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى رثائه صلى الله عليه و سلم]
- ١٤٧ رثاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه و سلم
- ١٤٨ حزن الصحابة رضى الله تعالى عنهم و بكائهم من غير صوت و لا نواح على رسول الله صلى الله عليه و سلم حين موته
- ١٥٢ ما يؤخذ من مرضه و وفاته صلى الله عليه و سلم من الأمور
- ١٥٤ حكمه تأخير دفنه صلى الله عليه و سلم
- ١٥٤ نبذة عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه و سلم العظيمة و سيرته العطرة
- ١٥٦ ما يمتاز به نبينا محمد صلى الله عليه و سلم عن باقى الأنبياء عليهم الصلاة و السلام
- ١٥٩ معجزاته صلى الله عليه و سلم
- ١٦٠ نبذة من أخلاقه صلى الله عليه و سلم
- ١٦٢ ذكر شىء مما اختص به رسول الله صلى الله عليه و سلم
- ١٦٤ نبذة من صفاته و شمائله صلى الله عليه و سلم
- ١٦٦ معنى بعض الألفاظ الواردة هنا:
- ١٦٦ اشارة
- ١٦٧ ما قاله الأستاذ الرافعى فى صفته صلى الله عليه و سلم
- ١٦٧ ما قاله الأستاذ الرافعى فى بلاغته صلى الله عليه و سلم
- ١٦٨ تواضع النبى صلى الله عليه و سلم فى مزاحه مع أصحابه
- ١٧٢ حسن معاشره النبى صلى الله عليه و سلم لأهله (و فيه حديث أم زرع)
- ١٧٥ مقصورة قبر النبى صلى الله عليه و سلم
- ١٧٧ الروضة الشريفة
- ١٧٨ صفة بيته صلى الله عليه و سلم
- ١٧٩ إشراق الدنيا بولادته صلى الله عليه و سلم
- ١٨٢ تحقيق ميلاد النبى صلى الله عليه و سلم
- ١٨٨ وصف رضاعته صلى الله عليه و سلم

- ١٩٣ محمد صلى الله عليه و سلم المثل الأعلى فى الأنبياء
- ١٩٨ تعبد النبى صلى الله عليه و سلم قبل البعث
- ٢٠٠ موضع ولادة النبى صلى الله عليه و سلم
- ٢٠١ ترجمة الشيخ عباس القطان
- ٢٠٢ موضع ولادة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة
- ٢٠٣ تكية السيدة فاطمة رضى الله عنها
- ٢٠٣ موضع ولادة على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه
- ٢٠٣ انشقاق القمر
- ٢٠٦ قصة أصحاب الفيل
- ٢٠٦ صفة بناء كنيسة القليس
- ٢٠٨ خروج أبرهة بالفيل لهدم الكعبة
- ٢١٤ بيت برمك
- ٢١٤ بيت غطفان
- ٢١٤ وصف قصة الفيل
- ٢١٧ نطق فيل أبرهة لعبد المطلب
- ٢١٩ مسرحية شعرية فى هلاك أصحاب الفيل
- ٢١٩ اشارة
- ٢١٩ المشهد الأول
- ٢٢١ المشهد الثانى
- ٢٢١ تراجم بعض من تقدم ذكرهم فى السيرة النبوية
- ٢٢١ اشارة
- ٢٢١ وفاة عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه و سلم
- ٢٢٢ ترجمة أبى طالب و أولاده
- ٢٢٢ اشارة

- ٢٢٢ كفالة أبي طالب لرسول الله صلى الله عليه و سلم
- ٢٢٣ وفاة أبي طالب
- ٢٢٤ ترجمة أم هانئ بنت أبي طالب
- ٢٢٤ ترجمة عقيل بن أبي طالب
- ٢٢٤ ترجمة العباس بن عبد المطلب
- ٢٢٨ ترجمة أبي جهم بن حذيفة القرشي
- ٢٢٩ ترجمة حكيم بن حزام
- ٢٣٠ الإسراء و المعراج
- ٢٣٠ اشارة
- ٢٣٤ قصة الإسراء و المعراج "نقلا من تاريخ الخميس"
- ٢٣٤ عام الإسراء
- ٢٣٥ شهر الإسراء و يومه و ليلته
- ٢٣٥ الموضوع الذي كان منه الإسراء
- ٢٣٦ الاختلاف في الإسراء هل كان بالروح أو بالجسد
- ٢٣٧ شق صدر النبي صلى الله عليه و سلم
- ٢٣٨ وصف البراق الذي ركبته صلى الله عليه و سلم ليلة الإسراء
- ٢٣٨ ركوب النبي صلى الله عليه و سلم البراق و وصوله بيت المقدس
- ٢٣٩ عروج النبي صلى الله عليه و سلم إلى السماء
- ٢٤٠ وصول النبي صلى الله عليه و سلم إلى البيت المعمور
- ٢٤١ وصول النبي صلى الله عليه و سلم إلى الحجاب
- ٢٤١ [عدد مراكزه صلى الله عليه و سلم ليلة الإسراء]
- ٢٤٢ مناجاة الله تعالى مع عبده و رسوله
- ٢٤٢ رؤية النبي صلى الله عليه و سلم ربه تعالى عز و جل
- ٢٤٣ مراجعة موسى لنبينا محمد عليهما الصلاة و السلام بشأن الصلوات التي فرضت

- ٢٤٤ مقدار مدة غيابه صلى الله عليه و سلم فى الإسراء و المعراج
- ٢٤٥ إنكار المشركين للإسراء و المعراج
- ٢٤٥ سؤال قريش النبى صلى الله عليه و سلم عما رآه فى طريق الإسراء
- ٢٤٦ تحقيق موضع دار أم هانئ بمكة
- ٢٤٩ فضل سيدنا إبراهيم و سيدنا موسى على الأمة المحمدية
- ٢٥٠ ترجمة خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و السلام
- ٢٥٠ ترجمة موسى عليه الصلاة و السلام
- ٢٥١ ما بين موسى عليه السلام و فرعون
- ٢٥٢ ذكر حج موسى عليه الصلاة و السلام
- ٢٥٣ معرفة كيفية الصلوات الخمس
- ٢٥٤ الاستنتاج من قصة الإسراء و المعراج
- ٢٦٠ الكلام على رؤية النبى صلى الله عليه و سلم ربه عز و جل
- ٢٦٣ خلاصة ما ورد فى كتاب الشفاء من الأقوال فى الرؤية
- ٢٦٣ هجرة النبى صلى الله عليه و سلم من مكة إلى المدينة
- ٢٦٧ ترجمة أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها
- ٢٦٨ عود إلى هجرة النبى صلى الله عليه و سلم
- ٢٧١ ما لقيه رسول الله صلى الله عليه و سلم من التعب فى طريقه إلى الغار
- ٢٧٢ وقت الخروج من الغار و السفر إلى المدينة
- ٢٧٣ خروج النبى صلى الله عليه و سلم و أبى بكر من الغار
- ٢٧٦ [قصتهما مع أم معبد]
- ٢٧٩ استقبال أهل المدينة رسول الله صلى الله عليه و سلم
- ٢٨٠ تاريخ الهجرة
- ٢٨٣ انتقاله صلى الله عليه و سلم من قباء إلى داخل المدينة
- ٢٨٦ [نزوله صلى الله عليه و سلم فى دار أبى أيوب الأنصارى] رضى الله تعالى عنه

- ٢٨٧ ترجمة أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه
- ٢٨٨ إتيان رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى مسجد قباء و فضل الصلاة فيه
- ٢٩٠ أحكام الهجرة
- ٢٩٠ اشارة
- ٢٩٦ حكم إقامة المهاجر بمكة بعد انقضاء النسك
- ٢٩٩ ترجمة أبى بكر الصديق رضى الله عنه
- ٣٠١ فضل أبى بكر رضى الله عنه
- ٣٠٤ فتح مكة المكرمة و هو الفتح الأعظم
- ٣١٩ ترجمة عتاب بن أسيد رضى الله عنه
- ٣١٩ ذكر من أهدر النبى صلى الله عليه و سلم دمهم يوم الفتح
- ٣١٩ جدول أسماء الرجال الذين أهدر النبى صلى الله عليه و سلم دمهم يوم الفتح
- ٣٢٢ ذكر النساء الست اللاتى أهدر دمهن
- ٣٢٢ منزل النبى صلى الله عليه و سلم بمكة عام الفتح بعد الهجرة
- ٣٢٣ موضع نزول النبى صلى الله عليه و سلم بمكة و منى و مزدلفة و عرفات
- ٣٢٧ معنى حديث: «و هل ترك لنا عقيل منزلا»
- ٣٢٩ ترجمة عقيل بن أبى طالب
- ٣٣٠ فضل مكة المشرفة
- ٣٣١ امتياز مكة عن سائر البلدان
- ٣٣٢ الآيات و الأخبار الواردة فى فضل مكة
- ٣٣٦ أهل مكة أدرى بشعابها
- ٣٣٧ أهل مكة أهل الله عز شأنه
- ٣٣٩ فضل مكة المكرمة على المدينة المنورة
- ٣٤٠ فضل مكة لمؤلف هذا الكتاب
- ٣٤٢ مكانة أهل مكة بين جميع الأمم

- ٣٤٢ مكانة المساجد الثلاثة لدى المسلمين
- ٣٤٣ بعض ما قيل في المساجد الثلاثة
- ٣٤٣ أول من لقب بخادم الحرمين
- ٣٤٤ عادة العرب في إصلاح ذات البين في الحجاز
- ٣٤٥ أول من عمل مواسير المياه من العرب بمكة المكرمة
- ٣٤٥ معنى مكة و معنى بكة
- ٣٤٦ المراد بوادى إبراهيم
- ٣٤٦ الكلام على قوله تعالى: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... الآية
- ٣٤٩ بيان فضل أهل مكة من الآية الآتية
- ٣٥٠ حكمه جعل مكة كثيرة الألبان و اللحوم
- ٣٥٢ دعاء إبراهيم عليه الصلاة و السلام لأهل مكة بالرزق
- ٣٥٤ مكة و ما فيها من الخيرات
- ٣٥٦ ما يزرع في الحجاز
- ٣٥٧ لماذا لم تكن مكة من أجل البلدان و أغناها
- ٣٥٨ نشأة عبادة الأصنام بمكة
- ٣٦١ مسح إساف و نائلة في الكعبة و عبادتهما
- ٣٦٣ أول من نصب الأصنام في الكعبة
- ٣٦٤ الكلام على أصنام قريش التي كانت حول الكعبة
- ٣٧١ عبادة الأصنام و بيوتها لدى بعض الأمم
- ٣٧٤ المحتويات
- ٣٨١ [الجزء الثاني]
- ٣٨١ اشارة
- ٣٨١ مكة في عهد إبراهيم عليه الصلاة و السلام
- ٣٨٢ مكة في الجاهلية و الإسلام

- ٣٨٣ مكة في عهد قريش
- ٣٨٣ اشارة
- ٣٨٤ بناء البيوت و تبويبها:
- ٣٩١ مكة في عهد النبي صلى الله عليه و سلم
- ٣٩١ اشارة
- ٣٩٢ النواحي العامة بمكة في العهد النبوى
- ٣٩٤ بعض ما قيل في حق مكة و المشاعر
- ٤٠٦ تذكرو النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه مكة بعد الهجرة
- ٤٠٦ الوطن، لشوقى بك
- ٤١١ مدخل مكة المشرفة
- ٤١٦ سور مكة قديما
- ٤١٨ تقسيم قصى أمور مكة
- ٤٢١ دار الندوة
- ٤٢١ اشارة
- ٤٢١ بناء دار الندوة
- ٤٢٤ التحقيق عن موضع دار الندوة
- ٤٢٥ أول دار بنيت بمكة
- ٤٢٦ بدء بناء البيوت بمكة
- ٤٢٦ اشارة
- ٤٢٨ دار العباس بن عبد المطلب
- ٤٢٨ دار أبى سفيان بمكة
- ٤٢٩ اتخاذ دار أبى سفيان مستشفى
- ٤٣٠ دار الأرقم
- ٤٣٣ [قصة إسلام عمر]

- ٤٣٥ ترجمة الخيزران أم الرشيد
- ٤٣٦ حرم مكة و أنصابه
- ٤٣٨ وضع أنصاب الحرم
- ٤٣٩ أسماء من وضع أنصاب الحرم و أعلامها
- ٤٤١ جدول بأسماء من جدد أنصاب الحرم
- ٤٤٢ أعلام حدود الحرم
- ٤٤٢ المسافات بين المسجد الحرام و أنصاب الحرم
- ٤٤٦ فضل الحرم و خصائصه و تعظيمه
- ٤٤٩ تعظيم الحرم الشريف
- ٤٥٣ بعض ما ورد فى القرآن الكريم فى فضل المسجد الحرام
- ٤٥٣ اشارة
- ٤٥٥ الكلام على قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ... الآية
- ٤٥٧ زيادة التأمل
- ٤٥٨ فائدة مهمة
- ٤٥٨ حساب أوائل الشهور العربية
- ٤٥٩ مواقيت الصلاة و ارتباطها باليوم العربى و اليوم الإفرنجى
- ٤٥٩ (مثال اليوم العربى): يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هجرية
- ٤٥٩ اشارة
- ٤٦٠ (مثال اليوم الإفرنجى): يوم الاثنين ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٤ ميلادية
- ٤٦٠ علّة تسمية الجهات الأربعة
- ٤٦٢ جهات المصلين إلى القبلة فى جميع البلدان
- ٤٦٣ أول ظهور بعض الأشياء بمكة المكرمة
- ٤٦٥ تجارة قريش فى الجاهلية و صدر الإسلام
- ٤٦٥ النهوض بالصناعات بمكة المكرمة

- ٤٦٦ اشارة
- ٤٦٦ الحياة الاقتصادية لمكة المكرمة
- ٤٦٨ مصانع الحجاز للصاج
- ٤٦٨ مصنع البوقرى للبلاستيك
- ٤٦٨ صناعات أخرى
- ٤٦٩ الغرفة التجارية
- ٤٦٩ الحرف و الصناعات بمكة المكرمة
- ٤٧٢ صناعة النجارة الفنية بمكة
- ٤٧٢ صناعة التنجيد بمكة
- ٤٧٣ صناعة الحصر و الزنابيل و المراوح الخوص بمكة
- ٤٧٣ صناعة الشراب أى القلل
- ٤٧٣ صناعة الحلاوة الطحينية بمكة
- ٤٧٤ استخراج زيت السمسم بمكة
- ٤٧٤ طحن الحبوب بالرحى بمكة
- ٤٧٤ وجود الأفران لعمل الخبز بمكة
- ٤٧٥ صناعة القدور و الأواني النحاسية بمكة
- ٤٧٥ تجار الساعات بمكة المكرمة
- ٤٧٧ الكتيبة بمكة المكرمة
- ٤٧٧ منجر الأخشاب بمكة المكرمة
- ٤٧٩ المصوراتية بمكة المكرمة
- ٤٨٠ الآلات الكاتبة بمكة المكرمة
- ٤٨٠ مصانع الثلج بمكة المكرمة
- ٤٨١ الكاكولا بمكة المكرمة و غيرها من المشروبات الحلوة اللذيذة
- ٤٨٢ مصنع الحلويات بمكة المكرمة

- ٤٨٢ الصياغة بمكة المكرمة
- ٤٨٣ مزارع الدواجن بمكة المكرمة
- ٤٨٣ زيت المازولا بمكة المكرمة
- ٤٨٤ صالونات الحلاقة بمكة المكرمة
- ٤٨٤ الدجاج الخارجى بمكة المكرمة
- ٤٨٥ الحوت و السمك الطرى بمكة المكرمة
- ٤٨٦ كثرة الأسفار إلى خارج بلادنا
- ٤٨٧ المكتبات العامة بمكة المكرمة
- ٤٨٧ الأربطة بمكة المكرمة
- ٤٨٨ الحمامات بمكة المكرمة
- ٤٨٨ القهاوى التى بمكة
- ٤٩٠ نقل الحلقة التى بالمعلا إلى جهة جروول
- ٤٩١ بدء ظهور المطابع و وجودها بمكة المكرمة
- ٤٩٣ الجرائد و المجلات بمكة المكرمة
- ٤٩٧ إنارة مكة المكرمة بالكهرباء
- ٤٩٧ ظهور بوليس النجدة بمكة المكرمة
- ٤٩٧ الإطفاء بمكة المكرمة
- ٤٩٨ البريد و التلغراف و التليفون بمكة المكرمة
- ٤٩٨ البريد و تطوره بمكة المكرمة
- ٥٠١ البريد فى مكة
- ٥٠٢ التلغراف بمكة المكرمة
- ٥٠٣ التليفونات بمكة المكرمة
- ٥٠٤ عدد التليفونات بمكة المكرمة
- ٥٠٤ البنوك بمكة المكرمة

- ٥٠٥ اشارة
- ٥٠٥ عدد البنوك
- ٥٠٥ أعمال هذا البنك:
- ٥٠٦ عدد نزول المطر فى سنة ١٣٨٥ بمكة
- ٥٠٧ الأمطار بمكة فى سنة ١٣٨٦ هجرية
- ٥٠٧ جوازات السفر و رخص الإقامات و إحصاء النفوس بمكة المكرمة
- ٥٠٩ استعمال الحطب و الفحم و غيرهما بمكة
- ٥٠٩ أول مصحف يطبع بمكة المكرمة
- ٥١٠ الفنادق فى الحجاز
- ٥١٠ الفنادق بمكة المكرمة
- ٥١٢ أسماء الحارات و المحلات بمكة قديما و حديثا
- ٥١٣ استعمال أقلام الجيب فى الحجاز
- ٥١٣ استعمال الآلات الكاتبة فى الحجاز
- ٥١٤ أول من فرض العشور بمكة
- ٥١٤ ذكر المكوس و العشور و إبطالها
- ٥١٩ إحصاء الحجاج القادمين إلى مكة المشرفة فى بعض الأعوام
- ٥١٩ اشارة
- ٥٢٠ إحصاء الحجاج لعام ١٣١٥ هـ
- ٥٢١ إحصاء الحجاج لعام ١٣١٦ هـ
- ٥٢٥ إحصاء الحجاج فى سنة (١٣٧٣) هجرية
- ٥٢٧ أسباب قلة الحجاج و كثرتهم
- ٥٢٩ إقامة المظلات و القهاوى فى طريق الحج
- ٥٢٩ سيول مكة العظيمة
- ٥٢٩ اشارة

- ٥٣٠ جدول سيول مكة
- ٥٣٥ مجرى السيل بمكة
- ٥٣٦ عمل السدود بمكة
- ٥٣٦ اشارة
- ٥٣٧ ١- سد خزاعة
- ٥٣٧ ٢- سد عمر رضى الله عنه
- ٥٣٨ ٣- سد ابن الزبير
- ٥٣٨ ٤- سد معاوية بن أبى سفيان
- ٥٣٨ ٥- سد عبد الملك بن مروان
- ٥٣٩ ٦- سد الحجاج بن يوسف
- ٥٣٩ ٧- سد خالد بن عبد الله القسرى
- ٥٤٠ ٨- سد أجياد
- ٥٤٠ المدغا و فيه ردم عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمنع السيول عن المسجد الحرام
- ٥٤٢ ذكر بعض البساتين الموجودة بمكة المكرمة
- ٥٤٣ وصف بستان الشريف عون بمكة
- ٥٤٥ الحجارات الطوال التى كانت بباب السلام سابقا
- ٥٤٦ حمام الحرم
- ٥٤٦ اشارة
- ٥٤٨ ما جاء فى كتاب الرحلة الحجازية عن حمام الحرم أيضا
- ٥٥٠ وقوع الحمام على الكعبة المعظمة
- ٥٥١ تنظيف المسجد الحرام من الحمام
- ٥٥٣ رمز الحمام
- ٥٥٤ عدد المستشفيات بمكة المكرمة
- ٥٥٥ جمعية الإسعاف بمكة المكرمة

- ٥٥٥ اشارة
- ٥٥٥ نبذة تاريخية
- ٥٥٦ المحجر الصحى و الكورنتينات
- ٥٦٢ أول ظهور الجدرى و الحصبة بأرض الحجاز
- ٥٦٢ التقارير الصحية بنظافة الحج
- ٥٦٣ الجمال و السيارات بمكة المكرمة
- ٥٦٦ المشقات التى كانت تعترض الحجاج سابقا و بيان مسافات الطرق
- ٥٦٧ الطريق من مكة إلى المدينة سابقا
- ٥٦٧ اشارة
- ٥٦٨ الطريق الفرعى
- ٥٦٩ طريق الغاير
- ٥٦٩ الطريق الشرقى
- ٥٧٠ نظام القوافل
- ٥٧١ الطريق المسلوک من مصر إلى مكة
- ٥٧٢ معرفة مراحل الحجاز الموصله إلى مكة المشرفة و المدينة النبوية
- ٥٧٤ الطريق من مصر إلى الحرمين قديما و حديثا
- ٥٨٢ كيفية مسير الحجاج من الشام إلى مكة قبل إنشاء الخط الحديدى
- ٥٨٣ سفر الحجيج من المدينة المنورة إلى مصر
- ٥٨٧ المسافات بين مكة و المدن الإسلامية الكبرى
- ٥٨٧ اشارة
- ٥٨٧ جدول المسافات بين مكة و أمهات المدن الإسلامية
- ٥٩٠ بناء البيوت و المقاولات عليها بمكة
- ٥٩٢ بناء الصنادق و العشاش بمكة
- ٥٩٢ من علامات الساعة ظهور بناء البيوت على الجبال المحيطة بالكعبة المعظمة و كثرة وجود المياه بمكة المشرفة

- ٥٩٣ نحت الحجارات من جبال مكة لبناء المنازل
- ٥٩٤ منجم النورة البلدية بمكة المكرمة
- ٥٩٤ صناعة الآجر و مراكن الزرع بمكة
- ٥٩٤ إنارة شوارع مكة بالكهرباء
- ٥٩٥ عدم مرور الطائرات من هواء مكة
- ٥٩٥ مكة المكرمة و ما فيها من النعم و البضائع
- ٥٩٦ صلاة الجمعة في المسجد الحرام
- ٥٩٨ الصلاة في الطابق الأعلى من المسجد الحرام
- ٥٩٩ افتتاح طريق الطائف من جبل كرا بعد إصلاحه و سفلته لأول مرة في التاريخ
- ٦٠٠ تاريخ الإذاعة السعودية
- ٦٠٠ اشارة
- ٦٠٢ قصيدة في تحية دار الإذاعة
- ٦٠٣ وصف الحاكي أي "الفنوغراف"
- ٦٠٤ ظهور التلفزيون
- ٦٠٤ الميكرفون في المسجد الحرام
- ٦٠٥ الجبال و فوائدها و ألوانها
- ٦٠٦ وصف الصحراء
- ٦٠٨ ذكر بعض أشهر جبال مكة
- ٦٠٨ اشارة
- ٦١٠ جبل أبي قبيس و ارتفاعه ٤٢٠ مترا
- ٦١٢ جبل قعيقعان (أى جبل هندي)
- ٦١٣ الدور التي بقعيقعان لابن الزبير
- ٦١٤ جبل عمر
- ٦١٤ جبل ثور

- ٦١٤ اشارة
- ٦٢٠ باب غار ثور و توسيعه
- ٦٢٤ جبل ثبير
- ٦٢٤ جبل خندمة
- ٦٢٧ ثنية كداء
- ٦٢٨ ثنية كدى
- ٦٣٠ جبل حراء
- ٦٣٤ عدد السماوات و الأرضين
- ٦٣٨ خلق موضع الكعبة
- ٦٣٩ بنايات الكعبة المعظمة
- ٦٣٩ الدليل على بناء الكعبة قبل إبراهيم عليه الصلاة و السلام
- ٦٣٩ اشارة
- ٦٤١ البناية الأولى: بناء الملائكة عليهم السلام الكعبة
- ٦٤٢ البناية الثانية: بناء آدم عليه السلام الكعبة
- ٦٤٢ اشارة
- ٦٤٥ ما جاء فى حج آدم عليه الصلاة و السلام
- ٦٤٦ مقدار طول آدم عليه السلام
- ٦٤٨ قبر أمنا حواء بجدة
- ٦٤٩ أمر الكعبة بين نوح و إبراهيم عليهما الصلاة و السلام
- ٦٥٠ نبذة عن ترجمة إبراهيم خليل الله عليه الصلاة و السلام
- ٦٥١ فضل إبراهيم الخليل على الأمة المحمدية
- ٦٥١ نسب إبراهيم عليه السلام و موطنه
- ٦٦١ البناية الثالثة: بناء شيث عليه الصلاة و السلام الكعبة
- ٦٦١ البناية الرابعة: بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة

- ٦٦١ اشارة
- ٦٦٢ هجرة إبراهيم إلى مكة لأول مرة
- ٦٦٣ إكرام إبراهيم عليه السلام لزوجته سارة
- ٦٦٤ قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام و بناء الكعبة
- ٦٧٢ دعاء إبراهيم لأهل مكة بالأمن و الرزق
- ٦٧٣ ذكر حج إبراهيم عليه الصلاة والسلام
- ٦٧٤ الخلاصة في كيفية بناء إبراهيم عليه السلام
- ٦٧٥ ارتفاع أرض مكة عما كانت عليه قديما
- ٦٧٦ مميزات بناء إبراهيم الكعبة
- ٦٧٦ ذكر الأنبياء الذين ربتهم أمهاتهم
- ٦٧٩ الكلام على زمزم و خروجه لإسماعيل و أمه عليهما الصلاة والسلام
- ٦٧٩ اشارة
- ٦٨١ الكلام على بئر زمزم
- ٦٨٤ حفر عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه و سلم زمزم
- ٦٨٧ أن لا تواليها مع الأقوام
- ٦٨٧ مسرحية شعرية تمثيلية في قصة عبد المطلب عند إرادته لذبح ولده
- ٦٨٨ اشارة
- ٦٨٨ المشهد الثالث
- ٦٨٩ المشهد الرابع
- ٦٩٠ المشهد الخامس
- ٦٩٠ العيون التي في قعر زمزم
- ٦٩١ فضل ماء زمزم و ميزته
- ٦٩٢ ما جاء في تاريخ الأزرقي عن زمزم
- ٦٩٤ ماء زمزم لا تؤثر فيه الجراثيم و الميكروبات

- ٦٩٦ التطلع من ماء زمزم
- ٦٩٩ بقاء ماء زمزم إلى يوم القيامة
- ٦٩٩ تحريم العباس رضى الله تعالى عنه الاغتسال بماء زمزم
- ٧٠٠ سقاية العباس
- ٧٠٢ أول من عمل بابا لزمزم و أعطى مفتاحه لبيت الريس
- ٧٠٣ خلاصة أمر السقاية
- ٧٠٣ تعمير فم بئر زمزم و وضع الشباك فى داخلها بناء تنور بئر زمزم
- ٧٠٥ تعمير فم البئر و وضع شباك فى داخلها
- ٧٠٦ أول من عمل الرخام فى زمزم
- ٧٠٦ قبة بئر زمزم
- ٧٠٧ الغرفة التى بجوار زمزم
- ٧٠٨ وصف بئر زمزم فى عصرنا
- ٧٠٩ ما جاء من الأحاديث فى زمزم
- ٧١١ طعم ماء زمزم
- ٧١٢ كيفية شرب النبي صلى الله عليه و سلم من ماء زمزم
- ٧١٤ ميزة ماء زمزم
- ٧١٤ الحكايات الواردة عن بعض الناس عن شربهم لماء زمزم
- ٧١٦ إهداء ماء زمزم
- ٧١٦ أسماء زمزم
- ٧١٧ غور زمزم و قياس ذرعه
- ٧١٨ ذرع بئر زمزم
- ٧١٩ الحفر فى قعر زمزم إذا قل ماؤها
- ٧٢٠ حوض زمزم فى عهد ابن عباس
- ٧٢٠ حلاوة زمزم

- ٧٢٢ عدم فيض زمزم ليلة نصف شعبان
- ٧٢٣ حكم بئر زمزم و حريمها هل هي من المسجد الحرام أم لا
- ٧٢٣ اشارة
- ٧٢٣ جواب الشيخ محمد بن عبد الله الطبرى الشافعى
- ٧٢٣ جواب الشيخ عبد العزيز الزمزمى الشافعى
- ٧٢٤ جواب الشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد الحنفى
- ٧٢٤ جواب الشيخ أبى السعود بن على الزمزمى المالكى
- ٧٢٤ جواب مفتى الأحناف الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن سراج
- ٧٢٥ جواب مفتى الشافعية السيد عبد الله بن السيد محمد صالح الزواوى
- ٧٢٦ جواب مفتى المالكية الشيخ عابد بن حسين المالكى
- ٧٢٧ حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام
- ٧٢٧ اشارة
- ٧٣٠ حكم حجر إسماعيل فى الطواف
- ٧٣١ الجلوس فى الحجر و فى المطاف
- ٧٣١ قياس حجر إسماعيل بالأمتار
- ٧٣٢ قياس حجر إسماعيل بالأذرع
- ٧٣٢ كسوة حجر إسماعيل
- ٧٣٣ فرش حجر إسماعيل بالبلاط
- ٧٣٣ المدفونون فى حجر إسماعيل
- ٧٣٥ مكان الدفن فى الحجر
- ٧٣٦ قبر إسماعيل عليه الصلاة و السلام فى الحجر
- ٧٣٧ المحتويات
- ٧٤٥ ملحق الصور
- ٧٤٥ تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم المجلد ١

إشارة

سرشناسه : كردى، محمد طاهر، ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م.

عنوان و نام پديد آور : التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم / تاليف محمد طاهر الكردى المكى.

تاريخ وفات مؤلف: ١٤٠٠ هـ. ق

مشخصات نشر : بيروت : دارخضر، ٢٠٠٠ م. ١٣٧٩ =

مشخصات ظاهري : ج ٦ (در سه مجلد).

يادداشت : كتابنامه.

موضوع : كعبه -- تاريخ.

موضوع : مسجد الحرام، مكة -- تاريخ.

موضوع : حج.

موضوع : مكة -- تاريخ.

رده بندي كنگره : DS٢٤٨/م٧ك٤٣

رده بندي ديويى : ٩٥٣/٨

شماره كتابشناسى ملي : م ٨١-٩٨٥-٣٠

نام كتاب: التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم

نويسنده: كردى، محمد طاهر

زبان: عربى

تعداد جلد: ٣

سال چاپ: ١٤٢٠ هـ. ق

نوبت چاپ: اول

المجلد الأول

[الجزء الاول]

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، و صلوات الله و سلامه على أشرف الأنبياء و المرسلين سيدنا و نبينا محمد و على آله و صحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن مكة المكرمة في نفوس المسلمين مكانة بارزة، فإليها تتجه أفئدة الناس، و يقصدونها للحج و العمرة بشكل دقيق و مرسوم وفق

مواقيت معيئة و محددة لأداء شعائر مفروضة.

وقد سعى كثير من علماء المسلمين إلى التأليف في تاريخ البلد الأمين، و ممن ألف في تاريخ مكة المكرمة الشيخ محمد طاهر الكردي المكي - رحمه الله - الذي ألف كتابا أسماه: «التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم» وقد ضمنه مباحث و مسائل شتى و مواضيع مهمة و تراجع لأهم الشخصيات و العلماء بمكة مؤيدا ذلك بصور فوتوغرافية و رسومات و لوحات من خطه، حيث كان - رحمه الله - خطاطا.

وقد يسر الله لى إعادة طبع هذا الكتاب محبة و إجلالا لمكة المكرمة، و ذلك بعد نفاذ طبعته الأولى التى طبعت عام ١٣٨٥ هـ. و قد رأيت أنه من الأفضل و الأيسر إعادة صف هذا الكتاب ليكون قطعه من المقاس المعتاد بدلا من القطع الكبير الذى كانت عليه الطبعة الأولى.

وقد جمعت صور و رسومات و لوحات هذا الكتاب فى ملحق خاص بآخر الكتاب مشيرا إلى أماكنها بثنايا الكتاب، كما ذيلت هذا الكتاب بكشافين مهمين أحدهما للاعلام و الثانى للأماكن.

و أحمد الله كثيرا و أثنى عليه أن وفقنى إلى إتمام هذا العمل الذى أرجو أن ينفعنا به و يتقبل منا صالح الأعمال، إنه سميع مجيب. و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش غرة رمضان ١٤٢٠ هـ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥

التعريف بالمؤلف

إشارة

إعداد الأستاذ الدكتور: عبد الوهاب أبو سليمان عضو هيئة كبار العلماء

[١] الشيخ محمد طاهر الكردي

إشارة

بقلم الأديب السعودى الكبير الأستاذ محمد على مغربى

قصير القامة معتدل الجسم، ناتى الجبهة تشوب بياضه صفرة خفيفة، تزين وجهه لحيه سوداء حليق شعر العارضين، فى عينيه حول خفيف تستره نظارة للقراءة، يرتدى الجبة الحجازية و يعتّم بعمامة تستر الرأس و الأذنين و هو بهذا يتخذ سيماء العلماء المكيين.

ولد بمكة المكرمة فى عام ١٣٢١ للهجرة و تلقى تعليمه بمدرسة الفلاح بمكة و تخرج منها فى عام ١٣٣٩ هـ و سافر بصحبة والده الشيخ عبد القادر الكردي إلى القاهرة حيث التحق بالأزهر الشريف و يقول الشيخ طاهر فى ترجمته التى كتبها عن نفسه فاشتغل هناك بالعلوم الدينية و العربية كما اشتغل بتعلم الخطوط العربية بأنواعها و ما يتعلق بها من الرسم و الزخرفة و التذهيب بعد أن التحق بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية، و لما عاد من القاهرة اشتغل بتعليم الخط العربى بالمدارس و لذلك يعرف بالخطاط. انتهى ما كتبه

الشيخ طاهر عن نفسه نقلا عن كتابه "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم."

عرفت الشيخ طاهر الكردي فى النصف الثانى من الخمسينات بمكة المكرمة، و كان صديقا حميما لعمى الشيخ عبد الله مغربى - رحمه الله - و كنت أعرف أنه اشتهر بجمال الخط، و كان يحضر إلى متجر عمى و إلى داره بصورة يومية تقريبا، كما كان يصاحبه

إلى الحج كل عام، و كان مظهر الشيخ طاهر مترمما متوقرا و لكنه إذا خلا بأصحابه تحول إلى شخص آخر كثير الدعابة و المرح.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦

و كان الشيخ طاهر قد عاد من القاهرة بعد أن أكمل دراسته في الأزهر الشريف و لكنه لم يعمل فقد كانت الأعمال شحيحة و الوظائف محدودة و الركود يسود الحالة الاقتصادية.

مصحف مكة المكرمة

و في أواخر الخمسينات أو أوائل الستينات حضر الشيخ محمد طاهر الكردي إلى مكتب المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان بالطائف و طلب مقابلة الشيخ محمد سرور ليتحدث إليه في أمر ما، فطلبت منه الانتظار قليلا حتى حضر الشيخ فقدمته إليه، و قلت فيما قلته أنه بارع في الخط براعة فائقة.

قال الشيخ طاهر للشيخ محمد سرور: إنني عزمت على كتابة القرآن الكريم بخط يدي، و أريد أن أقدم هذا المصحف إذا انتهيت منه إلى جلاله الملك عبد العزيز.

قال الشيخ محمد سرور: إنها فكرة حسنة و لكن لي رأيا في الموضوع أقوله لك. إنك لو قدمت هذا المصحف المخطوط بعد إتمامه إلى جلاله الملك عبد العزيز فسيكون له الوقع الحسن لدى جلالته و سيكافئك عليه مكافأة حسنة، و لكن الفكرة أن هذا المصحف سيبقى مخطوطا في خزنة الملك عبد العزيز أمدًا طويلا، و لديك هنا شركة تأسست حديثا لتقوم بشئون الطباعة و النشر و أشار الشيخ محمد سرور إلى كاتب هذه الترجمة، فلماذا لا تتفق مع هذه الشركة على شراء هذا المصحف الذي تنوي كتابته لتقوم هذه الشركة بطبعه و نشره بين الناس؟.

و أبديت موافقتي على الفكرة كما أبدى الشيخ طاهر- رحمه الله- ترحيبه بها و واعدته الاجتماع في داري بعد الغروب. و كنت أنا و المرحوم الصديق عبد الله باحمدين قد اشترينا مطبعة الشركة العربية للطبع و النشر و موجودات الشركة من الورق و ما إليه بعد أن تعرضت للخسارة شهورا عديدة، و بحثت الموضوع مع المرحوم الشيخ عبد الله باحمدين و اتفق الرأي على أن كتابة المصحف ستكون بداية لعمل عظيم فهو أول مصحف يكتب في مكة المكرمة، و يطبع فيها و ينشر فيها، حيث نزل القرآن أول ما نزل في مهبط الوحي في مكة المكرمة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧

و حضر الشيخ طاهر إلّى بعد الغروب و تم الاتفاق بينه و بيني على كتابة المصحف الشريف، و كان الاختلاف الوحيد بيننا هو أنه حدّد المدّة اللازمة لإتمام كتابة المصحف في حدود عامين، و كنت أنا متعجلا أرغب إتمام هذا العمل خلال عام واحد، و لما رأى الشيخ طاهر- رحمه الله- إلحاحي قال لي إن هذا عمل بالغ الدقة، و إنني لا أستطيع الإقدام عليه إلا و أنا في حالة نفسية متهيئة له التهيأ الكامل ثم أردف قد أبدأ بالكتابة و أستمر فيها أياما أو أسابيع و لكن قد يطرأ ما يمنعني عن الإمساك بالقلم أياما و أسابيع أخرى، فدعني أتصرف بما يمليه عليّ مزاجي و لا تنس أن الخط عمل فني، مثل الرسم، و الشعر و الكتابة، و الفنان لا يقدم على ممارسة فنه إلا إذا تهيأت له الأسباب النفسية أولا، و كنت أعرف أن ما يقوله الأستاذ طاهر صحيح كل الصحة فوافقت عليه.

هذا و قد طلب الشيخ طاهر و رقا معينا و أقلاما و أحبارا معينة، و كان الزمان زمن حرب و لكن الله تعالى يسر الأمر فوجدنا كل ما طلبه في مكة المكرمة.

و بدأ العمل و اتفقنا أن يكون المصحف موافقا للرسم العثماني، و مضت الشهور و كنت كلما رأيت الشيخ طاهر سألته ماذا فعل؟ فيجيب أنه مستمر في عمله، و كان قد أحضر لي بعض الصفحات من أوائل ما كتب و أطلعني عليها، ثم عاد بعد أسابيع و أطلعني على

نفس هذه الصفحات و قد كتبت مرة أخرى بخط أحسن و قال: إن هذا هو الفارق بالنسبة لمزاج الخطاط حينما يكتب. و لا- أريد الإطالة على القارئ فقد انتهى الشيخ طاهر من كتابة القرآن الكريم بعد ما يقرب من ثلاثة أعوام، و قبل الانتهاء كنا قد تقدمنا إلى الحكومة نطلب تأليف لجنة لتصحيح المصحف الذي قام بكتابته الشيخ طاهر- رحمه الله- فألفت الحكومة لجنة كبيرة مكونة من الشيخ عبد الظاهر أبو السمح إمام المسجد الحرام في ذلك الوقت و الشيخ صالح حجازي شيخ القراء بمكة المكرمة، و المرحومين السيد محمد شطا و السيد إبراهيم النوري من وزارة المعارف، و قد باشرت اللجنة عملها، و للتاريخ فإن الشخص الوحيد من بين أعضاء هذه اللجنة الذي تفرغ للمراجعة و التصحيح و أعطى هذا العمل جهده و كامل اهتمامه هو المرحوم السيد إبراهيم النوري من وزارة المعارف، و حينما عرضنا عليه مكافأة مقابل هذا الجهد اعتذر عن قبولها فاعتبرناه مساهما في الشركة التي تألفت لهذا الغرض بنسبة معينة و قد ألفتنا شركة خاصة لطبع القرآن و نشره في مكة المكرمة أسميناها شركة مصحف التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨

مكة المكرمة و استوردنا لها مطبعة خاصة من أمريكا و لا تزال الشركة تحمل هذا الاسم حتى اليوم. أوشك العمل في كتابة المصحف على الانتهاء كما أوشك التصحيح أن ينتهي و ذات يوم اتصل بي المرحوم الشيخ عبد الله باحمدين تلفونيا و طلب مني الحضور إلى مكة المكرمة حيث يجري عرض المصحف على صاحب السمو الملكي الأمير فيصل النائب العام لجلالة الملك المعظم لأول مرة، و ذهبا لمقابلة سموه في قصره بالمعابدة في ظاهر مكة و تقدم السيد إبراهيم النوري- رحمه الله- بتقديم نسخة المصحف إلى سمو الأمير فيصل و كان المرحوم عبد الله باحمدين و أنا نقف معه، و أبدى سموه إعجاباه و قال: إنه عمل عظيم، ثم اقترح سموه أن يعرض هذا المصحف على جلالته المغفور له الملك عبد العزيز و قال: إنني سأحدث إلى رئيس الحرس الملكي و أظن أن اسمه كان إبراهيم جودت ليدخلكم على جلالته الملك عبد العزيز. عدت إلى جدة و بعد عدة أيام أبلغني المرحوم الشيخ عبد الله باحمدين أنهم دعوا على عجل للحضور إلى القصر و أنهم عرضوا المصحف على جلالته الملك عبد العزيز فسرّ جلالته به كثيرا، و أثنى على القائمين بالأمر، و نفح كلا منهم مبلغا من المال تعبيرا عن تقدير جلالته.

كانت الحرب العالمية الثانية تقترب من نهايتها، و كنت مضطرا لظروف صحية عائلية أن أسافر إلى مصر و أبقى بها بضعة شهور، و كنت حريصا أن أصطحب المصحف معي لعمل إكليشيات له من النحاس و الزنك توطئة لطبعه، و لم يكن عمل الإكليشيات متوفرا في البلاد في ذلك الزمان، و وضعت المسودة المخطوطة للمصحف في حقيبة خاصة حملتها معي إلى مصر، و كان لابد من أخذ رخصة من الأزهر الشريف بطبع المصحف ليكون معتمدا في جميع البلاد الإسلامية في ذلك الوقت. اتصلت في مصر بصديقنا الأستاذ صادق سعيد بازرع و أسرته من كبار التجار الحضارمة الذين أقاموا السنوات الطوال في مصر و أصبحوا مصريين بحكم الإقامة الطويلة لأبائهم و بحكم الميلاد لهم و لأبنائهم و كانت الأسرة تعمل في تجارة الصابون و البن و البهارات التي يستوردونها من فلسطين و عدن و إفريقيا و الهند و كانت لهم وكالة كبيرة في الجمالية كما كانوا يتمتعون بسمعة عالية في الوسط

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٩

التجاري في مصر. قال صديقنا الأستاذ صادق بازرع: هذه المسألة لا يصلح لها إلا السيد محمد عرفة شيخ المسجد الحسيني، كان ذلك في رمضان و جامع سيدنا الحسين قريب من وكالة بازرع فذهبنا و أدينا صلاة العصر و شرحنا الموضوع للسيد محمد عرفة، و كان يحضر للحج و كنت أراه في مكة المكرمة، و هو رجل يجمع بين وقار العلم و حدة الذكاء و كانت صلواته بطبقات المجتمع المختلفة قوية و متينة، فتجد في غرفته الملحقة بالجامع الحسيني العلية من الناس من الباشوات و البكوات إلى عامة الناس و أوساطهم، استدعى السيد محمد عرفة ابنه و كان موظفا بوزارة الأوقاف و قال له: أريدك أن تحضر لي غدا الشيخ محمد علي الضباع شيخ

المقارئ المصرية ليصلى العصر هنا، و التفت إلى قائلا و ستصلى العصر معنا هنا يا حاج .. فشكرته و اجتمعنا فى صلاة العصر فى اليوم الثانى، الشيخ الضباع و أنا و صادق سعيد بازرعة، و أخير السيد عرفه الشيخ الضباع بالعرض الذى دعاه من أجله، و أوصاه بنا خيرا، و اتفقنا مع الشيخ الضباع على الأجر الخاص بالتصحيح كما جرى الاتفاق مع المصنع الذى يعمل الإكليسيهات حيث ترسل الصفحات التى يتم تصحيحها من الشيخ الضباع إلى المصنع فإذا تم عمل الزنكات طبعت عليها نماذج و أرسلت للشيخ مرة أخرى ليعيد تصحيحها، و تستمر هذه العملية إلى أن يتم عليها التصحيح النهائى للمصحف مع إتمام صنع الإكليسيهات، ثم تصدر الرخصة من مشيخة المقارئ المصرية بالطبع. مكثت بضعة شهور فى مصر و أنا أتردد أسبوعيا و بعض الأحيان فى كل ثلاثة أيام على الشيخ الضباع فى بيته بالجيزة و على المصنع الذى يصنع الإكليسيهات فى شارع عبد العزيز و كان صاحب المصنع أرمينيا شهيرا بصناعة الحفر و قد جعلنا الإكليسيهات بحجمين أحدهما المقاس المتوسط العادى و الثانى المقاس الصغير و تم التصحيح النهائى أخيرا بعد أن كادت إطارات السيارة الصغيرة الهيلمان التى تقلنى إلى الجيزة و تعيدنى منها كادت إطاراتها تذوب من كثرة الغدو و الرواح، و كانت السيارات كما كانت الإطارات عزيزة فى أيام الحرب العالمية الثانية و غالبية الأثمان. انتهت الإكليسيهات و بدأت أفكر فى الطريقة التى يمكن بها تصديرها من القاهرة إلى الحجاز و كانت القيود على التصدير بالغه الشده و أدركت أنى لو اتبعت الطرق المعتادة لتعبت بالغ التعب دون نتائج مفيدة.

و فى ذلك الوقت بالذات وصل جلاله المغفور له الملك عبد العزيز فى زيارته الرسمية إلى مصر و كان بصحبته معالى الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية الأسبق،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠

و كذلك المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان و رأيت أن الله تعالى قد هيا الأسباب بهذه الزيارة الملكية لتصدير إكليسيهات المصحف دون عناء شرحت الأمر لمعالى الشيخ محمد سرور - رحمه الله - فقال لى: اكتب ما تريد من الكتب بالتوصية على هذا الأمر و هاتها لتوقيعها، كان الشيخ محمد سرور الصبان تربطه صلة صداقة عظيمة بالسياسى المصرى المعروف إبراهيم عبد الهادى باشا و كان وزيرا من أبرز وزراء الوفد فى ذلك العهد، و كتبت الكتاب المطلوب لإبراهيم باشا بلسان الشيخ محمد سرور أشرح له الوضعية، كما كتبت كتابا آخر بنفس المعنى إلى مكرم عبيد باشا وزير المالية، و كان هو الوزير المختص الذى تتبعه الجمارك و التراخيص الخاصة بالتصدير، و ذهبت أولا إلى إبراهيم عبد الهادى باشا و أخذ سكرتيره الرسالة و دخل بها إلى الوزير.

و عاد ليتصل أمامى تلفونيا بسكرتير وزير المالية و كان اسمه الأستاذ حسن الأعور و يوصيه بلسان الباشا بالاهتمام بالأمر، و قابلت الأستاذ حسن الأعور فى وزارة المالية و سلمته كتاب الشيخ محمد سرور، فعاد ليتصل أمامى بصندوق النقد الذى كان يقع فى ميدان الأوبرا و يبلغهم توصية مكرم باشا وزير المالية بعمل كل التسهيلات لتصدير الإكليسيهات الخاصة بالقرآن الكريم.

حصلت على الترخيص المطلوب فى مدى ثلاثة أيام و لو لم يهئ الله الأسباب بزيارة المغفور له جلاله الملك عبد العزيز و حضور معالى الشيخ محمد سرور لربما استغرق الحصول على الترخيص الشهور الطوال.

إنه القرآن الكريم، و إنه تيسير الله تعالى للقائمين على نشره بين الناس، و حينما كنت أفكر فى إجراءات التصدير خطر لى أن أختصر الوقت، وضعت الإكليسيهات فى حقيبة خاصة و أرسلت هذه الحقيبة ضمن حقائب الشيخ محمد سرور الذى كان من القائمين على ترتيب شؤون الرحلة الملكية إلى مصر، و وصلت الحقيبة إلى مكة بسلام و أصبحت الإكليسيهات جاهزة للطبع، و كان المرحوم عبد الله باحمدين قد سافر إلى أمريكا و تعاقد لشركة المصحف على شراء المطبعة الأولى التى سيطبع عليها القرآن الكريم فى مكة المكرمة.

و وصلت المطبعة، و حدث أن السيد إبراهيم النورى - رحمه الله - أحيل إلى المعاش بناء على طلبه فوجدنا أنه أصلح الناس للقيام على إدارة شركة مصحف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١

مكة المكرمة و هو الذى بذل جهدا مشكورا فى تصحيح النسخة الخطية التى كتبها الشيخ طاهر كردى.

وهكذا سلمت مقاليد الشركة إلى السيد إبراهيم النورى - رحمه الله - بعد أن تم تأسيس الشركة بصورة قانونية، و كانت باكورة أعمالها طبع القرآن الكريم و نشره لأول مره فى مكة المكرمة بعد أن تمت كتابته فيها، و هذه السابقة التاريخية العظيمة هى التى اختص بها الله الشيخ محمد طاهر الكردى لأنه كان الخطاط الذى كتب القرآن الكريم فى مكة المكرمة و هيا الله تعالى لهذه النسخة التى كتبها أن تطبع فى مكة المكرمة و تنشر منها لا فى مكة وحدها و لا فى المملكة العربية السعودية فحسب، و إنما فى سائر بلاد الإسلام، فمصحف مكة المكرمة أصبح يطلب فى جميع البلاد الإسلامية من إندونيسيا و باكستان و الشرق الأقصى كله، إلى إفريقيا كلها.

إن الشيخ طاهر كردى رجل محظوظ فالمصاحف التى كتبت فى مكة المكرمة كثيرة و بعضها محفوظ فى مكتبات مكة المكرمة و المدينة المنورة، و كثير منها أجمل خطأ من المصحف الذى كتبه الشيخ طاهر الكردى و لكن الله تعالى إذا أراد أمرا هيا له الأسباب ... و قد هيا الله للمصحف الذى خطه الشيخ طاهر الكردى أسباب الذيوع و الانتشار فتأسست له شركة خاصة قام أصحابها على إعداده للنشر و اتخذوا الأسباب الكفيلة بهذا النشر حتى تم لهم الأمر بعد الجهد و النصب.

و لقد مضى على تأسيس شركة مصحف مكة المكرمة ما يقرب من أربعين عاما و هى توالى نشر الكتاب الكريم من مكة المكرمة و تستورد له المطابع الواحدة تلو الأخرى مسaire تطور الطباعة فى العصر الحديث، و لعل لا أذيع سرا حينما أذكر أن شركة مصحف مكة المكرمة، لم تكتف بالمصحف الذى كتبه الشيخ طاهر الكردى و إنما عمدت إلى طبع مصاحف أخرى بخط أجمل كثيرا من خط الشيخ طاهر - رحمه الله - كما استكتبت خطا شهيرا بجمال الخط و إتقانه لكتابة مصحف لها، و لكن المصحف الذى كتبه الشيخ طاهر لا يزال يحتل مكانة فى قلوب الناس، و يكفى أن نذكر أن شركة مصحف مكة قد قامت بطبع كمية من المصحف الذى كتبه الشيخ طاهر فى حجم كبير جدا و جلدته تجليدا فاخرا و كانت هذه الطبعة و لا تزال تقدم هدية لجميع الملوك و الرؤساء و كبار الزوار المسلمين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢

القادمين إلى المملكة كما أنه يقدم من ضمن الهدايا الممتازة لكبار المسئولين السعوديين فى زيارتهم للبلاد الإسلامية.

طاهر كردى الخطاط

و ما دنا بصدد الحديث عن حسن كتابة الشيخ طاهر الكردى وجوده خطه فلا بد أن نتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصيته الكثيرة الجوانب فالرجل كان ممن تلقوا تعليمهم فى الأزهر الشريف، ثم التحق بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية و تتلمذ على كبار الخطاطين فيها، حتى أتقن الخط بأنواعه المختلفة و حينما عاد إلى المملكة كان مدرسا للخط بمدارسها، بل الأستاذ الأول للخط فيها، و له كراريس مطبوعة كما يظهر ذلك من ثبت مولفاته التى كانت توزع على التلاميذ من ضمن الكتب المدرسية لينسجوا على منوالها فى تعلمهم لفن الخط، و لقد بلغ من إتقان الشيخ طاهر لفنون الخط أنه كان يكتب بعض قصار السور مثل سورة الإخلاص على حبة من الأرز و قد أهدانى بعض هذه الحبات من الأرز المكتوب عليها بعض قصار السور، و قد فقدت ضمن ما فقد من أوراقى و لكن صديقنا الشيخ محمد نور مجموع رجل الأعمال المعروف لا يزال يحتفظ بحبة من الأرز بكتابة طاهر الكردى - رحمه الله - و قد أطلعنى عليها فى هذه الأيام و لعل عمرها يزيد عن الأربعين عاما.

و للشيخ طاهر - رحمه الله - لوحات فنية من كتاباته و لحسن الحظ أنه صورها فى كتابه الكبير خ التاريخ القويم لمكة وبيت الله

الكريم، و الذى سنتحدث عنه بعد و أكتفى هنا بذكر ما نشر من مؤلفاته فى فن الخط نقلا عن ثبت مؤلفاته المنشورة فى كتابه خ أدبيات الشاى و القهوة:

- ١- تاريخ الخط العربى و آدابه.
 - ٢- الهندسة المدرسية- و يقول الشيخ طاهر إنه كان مقررا فى مدارس المملكة.
 - ٣- رساله فى الدفاع عن الكتابة العربيه فى الحروف و الحركات.
 - ٤- كراسه الحرمين فى تعليم خط الرقعة (سبعة أجزاء).
 - ٥- حسن الدعابة فيما ورد فى الخط و أدوات الكتابة.
 - ٦- مجموعة الحرمين فى تعليم النسخ (جزء واحد).
 - ٧- لوحة فنية جميلة فيها صور الكعبة المشرفة لأشهر بناياتها.
 - التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣
 - ٨- لوحات فى الخطوط العربيه.
 - ٩- نفحة الحرمين فى تعليم النسخ و الثلث.
- و إذا تأملنا فى أسماء هذه المؤلفات وجدنا أن الرجل عالم خط إذا صح هذا التعبير.

تاريخ الخط العربى و آدابه

و سنتحدث هنا قليلا عن كتابه خ تاريخ الخط العربى و آدابه و هو أهم مؤلفات الشيخ طاهر الكردى فى فن الخط و قد طبع الطبعة الأولى فى شهر محرم من سنة سبع و خمسين و ثلاثمائة و ألف ثم أعادت الجمعية العربيه السعوديه للثقافة و الفنون طبعة مرة أخرى فى هذا العام ١٤٠٢ هـ و حسنا فعلت فإن الكتاب يكاد أن يكون موسوعه عن الخط العربى و كل ما يتعلق به.

تحدث فيه المؤلف عن نشأة الخط و تطوره مدعما ذلك بالصور و المراجع التى استقى منها المعلومات التى توصل إليها، و من أطرف ما أورده المؤلف فى هذا الشأن أن التعبير بالكتابة بدأ بطريقة التصوير قبل الكتابة بالحروف المعروفة و كانت الكتابة الصورية تقوم على الرمز و يقوم المؤلف فى شرح ذلك، و مثال الكتابة الصورية أنك إذا أردت تدوين واقعة حرب مثلا فترسم أرضا ذات أغراس و إلى جانبها صور النقود و ما أشبه ذلك و هذا ما جرى عليه أكثر الأمم التى كانت قديما فى مصر و آشور و غيرها، و لما اتسعت عمارتهم اصطلحوا على بعض الرسوم للدلالة على معان كليه ليس لها صورة فى الخارج.

وقد أثبت المؤلف صور هذه الرسومات التى اصطلح عليها و قد تحدث المؤلف عن الخطوط فى اللغات الهندية و ما تفرع عنها من الخط الآرامى و السنسكرىتى و السريانى كما تحدث عن الخط الهير و غلوفى موضحا كل ما يكتبه فى هذا المجال بصور لهذه الخطوط و ترجمة للحروف و الكلمات إلى اللغة العربيه.

كما تحدث عن الخط الأشورى و الكلدانى و أول المكتشفين لهذه الخطوط و أثبت صوراً للصخور التى تحمل هذه الخطوط من المسند الآرامى و أنواع الخطوط المختلفة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤

كما وضع سلسلة تبين تطور الخط العربى من بدء ظهوره حتى وصوله إلينا بشكله الحاضر و هو يبدأ كالتالى:

الخط المصرى- الفينيقى- الآرامى- المسند- الصفوى- الثمودى- اللحيانى- الحميرى- الكندى- النبطى- الحيرى- الأنبارى- الحجازى .

ثم يتحدث المؤلف عن اللغات التي تكتب في الوقت الحاضر بالخط العربي وقد عدّ اثنتي عشرة لغةً تدرج كلها تحت اسم اللغات التركية و سبع لغات تدرج تحت اسم اللغات الهندية و أربع لغات تدرج تحت اسم اللغات الفارسية، و سبع لغات تدرج تحت اسم اللغات الإفريقية.

و لا شك أن بعض هذه اللغات التي أشار إليها المؤلف و خاصة في تركيا الحديثة قد غيروا كتابتهم إلى الحروف اللاتينية منذ عهد مصطفى كمال بعد انتهاء دولة الخلافة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى و إعلان الجمهورية التركية الأولى و لكن يبقى بعد ذلك أن عدد من يكتبون بالحروف العربية في العالم كبير.

و قد قدّر المؤلف في كتابه المطبوع قبل ما يقرب من نصف قرن عدد من يكتبون من غير العرب بالحروف العربية بأكثر من مائتين و خمسين مليوناً من البشر فليت شعري ما هو مقدار من يكتبون بها في الوقت الحاضر من العرب و غيرهم، إن التعداد يصل فيما أظن إلى خمسمائة مليون من البشر.

ثم تحدث المؤلف عن كتابة الرسائل في عهد النبي صلوات الله و سلامه عليه و أورد أسماء كتابه و نقش خاتمه الذي كانت تختتم به رسائله كما تحدث بمثل ذلك عن الخلفاء الأربعة و غيرهم من خلفاء المسلمين، و تحدث كذلك عن المشهورين من الخطاطين في أيام الأمويين و العباسيين ثم تحدث عن بدء ظهور التشكيل في الخط و تطوره، كما تحدث عن المواد التي كانت تستعمل في الكتابة من الجلد و القراطيس و أنواع الأقلام و أسمائها، و أنواع الخطوط المعروفة من النسخ و الرقعة و الثلث الكوفي و الديواني و ما إلى ذلك، و أثبت نماذج جميلة لكل هذه الخطوط بعضها بقلم المؤلف و الكثير منها بقلم الخطاطين المشهورين الذين ينسب إليهم هذا الفن.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥

ثم تحدث المؤلف عن اشتهر بالكتابة على الجوب و البيض و لقد ذكرت أن الشيخ طاهر الكردي كان ممن يتقن الكتابة على الجوب في صدر هذا البحث، ثم تحدث عن الآثار و الكتابات التي عليها و النقود و العملات التي ظهرت في عهود الخلفاء الراشدين و ما تلاهم و أورد صوراً فوتوغرافية للنقود في عهد الخلفاء الراشدين و عهد صلاح الدين و عهد هارون الرشيد و في عهد الدولة الفاطمية، كما أورد جداول بأسماء الخطاطين المشهورين مرتبة على الحروف الهجائية.

و من أمتع فصول الكتابة الفصل الخاص بتراجم السلاطين الخطاطين و قد ذكر من بينهم الخليفة المستظهر بالله و الخليفة المسترشد بالله و هما من خلفاء الدولة العباسية ثم سلاطين آل عثمان ثم سلاطين المسلمين الآخرين في شتى بقاع العالم الإسلامي، و أورد ذلك بتراجم الوزراء و الباشوات من الخطاطين ثم بتراجم العلماء الخطاطين.

ثم تحدث عن النساء اللواتي اشتهرن بجودة الخط و إتقانه. و ذكر فيما ذكره أن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب تعلمت الكتابة من الشفاء بنت عبد الله العدوية التي تعلمت الكتابة من معاوية و يزيد ابنا أبي سفيان، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

كما أورد المؤلف تراجم للخطاطين القدماء و المحدثين و سجلاً بأسمائهم و الكتاب مزين بكثير من لوحات الخطوط الجميلة للخطاطين المختلفين و هو يقع في أكثر من خمسمائة و خمسين صفحة و تزيد تعداد اللوحات و الصور المثبتة فيه على مائة و خمسين لوحة و صورة.

إنه ليس كتاباً عن الخط العربي و آدابه و لكنه يكاد أن يكون موسوعة تختص بالخط و الكتابة و ما يتفرع عنهما و هو عمل عظيم جاء نتيجةً لجهود متواصلة و أبحاث تتصف بالدأب و المثابرة و هو مرجع من أهم المراجع في هذا الفن العظيم.

نعود لتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصيته المتعددة الجوانب فلقد كان الرجل مؤلفا مكثرا و قد أثبت في كتابه خ خ أدبيات الشاي و القهوة أسماء اثنين و عشرين كتابا مطبوعا عدا الكتب المخطوطة و أهمها التفسير المكي و هو في أربع مجلدات و غيرها مما لم يذكر شيئا عنه، و قد أوردنا أسماء مؤلفاته الخاصة بالخط

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦

و ثبت هنا أسماء المؤلفات الأخرى التي وردت في هذا الثبت و هي المؤلفات المطبوعه:

١- تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه.

٢- إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة.

٣- مقام إبراهيم عليه السلام.

٤- منظومة في صفة أشهر بنايات الكعبة المشرفة.

٥- تحفة العباد في حقوق الزوجين و الوالد و الأولاد.

٦- دعاء عرفه.

٧- تعليق مختصر على تاريخ مكة للقطبي.

٨- صورة حجر مقام إبراهيم عليه السلام.

٩- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم.

١٠- النسب الطاهر الشريف.

١١- الأدعية المختارة.

١٢- تبرك الصحابة بآثار رسول الله صلى الله عليه و سلم.

١٣- أدبيات الشاي و القهوة.

و لقد ذكر الشيخ طاهر أن مؤلفاته تبلغ اثنين و أربعين مؤلفا طبع نصفها تقريبا و نستطيع أن نقسم هذه المؤلفات حسب أسمائها إلى الأقسام الآتية:

(أ) كتب تاريخية و هي الصفة الغالبة على المؤلف.

(ب) كتب دينية.

(ج) كتب فنية و هي التي تتعلق بالخط و فنونه.

(د) كتب أدبية طريفة.

و لقد تحدثنا عن الخط و ما يتعلق به بما يكفي للتعريف بشخصية الشيخ طاهر- رحمه الله- في هذه الناحية.

طاهر كردى المؤرخ

و نتحدث الآن عن طاهر كردى المؤرخ فإن المستعرض لأسماء كتبه يجد أن المؤلفات التاريخية هي الصفة الغالبة على الرجل، و لعل تعمقه في هذه الناحية هو

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧

الذى ساعده على تأليف الكتب الدينية و طالما أن أهم كتبه الدينية و هو التفسير المكي لم يظهر إلى النور بعد فإن الحديث عن هذه الناحية من شخصية المؤلف لا يعتبر كاملا و حسبنا الإشارة إليها.

لقد تفضل الصديق أحمد مجاهد فبعث إليّ الأربعة أجزاء التي ظهرت على نفقته من أهم كتب الشيخ طاهر التاريخي و هو كتابه المسمى:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم

و الكتاب موسوعه ضخمة عن مكة المكرمة و هو في أربعة أجزاء كل جزء يزيد عن الثلاثمائة صفحة من القطع الكبير الذي يساوي ضعفى حجم الكتب الكبيرة المعتادة، و هو يحتوى على صور كثيرة كما تتسم المعلومات التي أوردها المؤلف عن كل المواضع التي عالجه بالشمول و الإحاطة مستعينا في ذلك بما ورد في مؤلفات المؤرخين السابقين الذين ذكر أسماءهم و تراجمهم و تحدث عنهم و مدعما ما يصل إليه من آراء بالكتب الكثيرة التي رجع إليها و التي ذكر أسماءها و مواضع الاستشهاد منها.

و أهم من هذا و ذاك أن المؤلف أتيح له ما لم يتح لغيره من المؤلفين فلقد عاصر الإصلاح الذي تم للكعبة المعظمة في عام ١٣٧٧ هـ كما عاصر التوسعة العظيمة للمسجد الحرام في العهد السعودي و التي بدأت في عام ١٣٧٥ هـ و لم يكن المؤلف معاصرا لهذه الأحداث التاريخية فحسب فما أكثر من عاصرها و إنما كان عضوا في اللجان الرسمية التي تألفت لهذه الإصلاحات و ذلك لسابق اهتمامه بالمباحث التاريخية المتعلقة بالمسجد الحرام فلقد ألفت قبل هذه الأحداث كتابا عن تاريخ مقام إبراهيم - عليه السلام - و حصل على إذن بفتح مقام إبراهيم ليطلع بنفسه على المقام من الداخل و ألفت رسالة وافية في صفة المقام و ذرعه و أقوال المؤرخين عنه و موضعه و كل ما يتعلق به.

هذه الاهتمامات للمؤلف كما ذكرنا هيأت الفرصة لاختياره عضوا في الهيئات الرسمية الخاصة أولا بإصلاح الخراب الذي حدث في الكعبة المشرفة كما ذكرنا ثم في الهيئة التي ألفت للتوسعة العظيمة للمسجد الحرام فيما بعد، و قد أتاح له هذا الاختيار أن يطلع على الكثير من المعلومات الدقيقة التي لم تتح لغيره من المؤرخين، فهو يقدم لنا وصفا دقيقا للآثار الدينية و المعمارية في المسجد الحرام التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨

مزودة بالمقاسات الدقيقة و الصور الشمسية و ذلك بعد استعراض المراحل التاريخية التي مر بها الأثر المذكور إذا صح هذا التعبير، بل إننا نجد بالنسبة لمقام الخليل إبراهيم على سبيل المثال يقدم لنا وصفا يوميا دقيقا للكيفية التي سار عليها العمل في نقل المقام من موضعه السابق إلى الموضع الحالي بعد أن وضع في الصندوق الزجاجي الحالي و يتحدث عن الموضوع بتفصيل يشمل جميع التطورات التي صاحبت الفكرة من بدء تنفيذها إلى حين إتمامها.

إن كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم هو موسوعة تاريخية و هامة لمكة المكرمة و للمسجد الحرام بما حواه من الكعبة المعظمة و مقام إبراهيم و كل ما يتعلق بالمسجد الحرام و أماكن المناسك و هو يضم كل ما أورده المؤرخين السابقون ثم يضيف إليه الجديد في عصر المؤلف و هو بهذه المثابة مرجع شامل عظيم القيمة لمن أراد التحقيق و البحث.

و بعد فإن الكتاب كما ذكرت يحتل مكانة قيمة بين الكتب التي تؤرخ للبلد الكريم و للبيت الحرام و هو مرجع هام لهذه الآثار المقدسة و تطوراتها التاريخية و هو يمتاز بالإحاطة و الشمول و الدقة المبنية على المشاهدة و البحث و هو جهد مشكور للمؤلف - رحمه الله تعالى - يسلكه في عداد المؤرخين لآثار مكة المكرمة و البيت الحرام فجزاه الله عن ذلك خير الجزاء.

مؤلفاته الأخرى

إن الشيخ طاهر كردى رجل متعدد الجوانب و قد تحدثنا عن أهم جوانبه في هذه الصفحات و لقد اطلعت على كتاب مطبوع له اسمه

خ خ أدبيات الشاي و القهوة و عجبت كيف يتفرغ الرجل للتأليف في هذه الأمور فالكتاب يذكر تاريخ الشاي و القهوة و ما قيل فيهما من الشعر و كيف يصنع الشاي و أدواته و ما إلى ذلك، و لا شك أن جمع هذه الطرائف فيه كثير من الجهد و لكن الشيخ طاهر الكردي هو الشيخ طاهر الكردي الذي استطاع أن يعبر عن جانب آخر من جوانب شخصيته الاجتماعية التي ذكرتها في صدر هذه الصفحات.

و هناك ناحية أخرى في الرجل هي الناحية الشعرية فكتابه التاريخ القويم يتضمن أرجوزة نظمها في تاريخ بناء الكعبة المعظمة و أراجيز أخرى في مواضيع تتعلق بكتابه هذا، و إذا كان لا بد من التعليق عليها فأقول أن هذه الأراجيز تشبه التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩

أراجيز المتون التي كنا نحفظها كأرجوزة ابن مالك في النحو و الخريفة في التوحيد، و التي كانت تفرض علينا في المدارس و هي كلام منظوم لا يمت إلى الشعر بأدنى صلة و الشيخ طاهر - رحمه الله - إنما يعبر عن ناحية أخرى من نواحي شخصيته المتعددة الجوانب كما سبق أن ذكرنا، فلنأخذ كما أراد الله له أن يكون، هناك الكتب الدينية التي ألفها الشيخ طاهر الكردي و أهمها كما ذكرت هو كتاب التفسير المكي في أربعة أجزاء و هذا الكتاب لا يزال مخطوطا و لم يتح لي الاطلاع عليه و لهذا لا أستطيع الحديث عنه، و حبذا لو عنت بالبحث عنه و عن مؤلفات الشيخ طاهر الأخرى إحدى الجهات المعنية في بلادنا بنشر الكتب كالنوادى الأدبية و غيرها و عهدت إلى المختصين بالموضوعات التي تعالجها هذه المؤلفات بدراستها و نشر ما يستحق النشر منها إفادة للناس و إحياء لذكرى الرجل الذي قضى حياته منكبا على التأليف.

بقية التاريخ القويم

لقد ذكرت أنني اطلعت على أربعة أجزاء من كتابه القيم الجامع خ التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم و الذي تحدثت عنه بما فيه الكفاية في الصفحات السابقة و الكتاب كما يظهر لم يتم و لقد ذكر المؤلف أن الجزء الخامس يتحدث عن الحج و هذا الجزء لم يطبع بعد و لست أدري إن كان لدى صديقنا الشيخ أحمد مجاهد الذي طبع الأجزاء الأربعة على نفقته جزاءه الله عن العلم و أهله خير الجزاء، لست أدري إن كان هذا الجزء الخامس و ربما غيره مما يكمل به الكتاب موجودا لدى صديقنا الشيخ أحمد مجاهد و هو يعترم إصدار هذه البقية إكمالاً للمكرمة العظيمة التي قام بها أم أن هذه الكتب لا تزال ضمن مخطوطات الشيخ طاهر - رحمه الله - و على أي حال فإن نشر ما بقي من كتاب التاريخ القويم فيه من الفائدة ما يكمل العمل الطيب الذي بدأ به الرجل و الذي يعتبر مع كتابته للمصحف الكريم من أجل الأعمال التي أداها و التي تسلكه في عداد الأعلام من الرجال.

و قد توفي الشيخ طاهر الكردي في ليلة الاثنين بتاريخ ٢٣ ربيع الثاني من عام ١٤٠٠ هـ بمستشفى بخش بجده، و نقل في اليوم التالي إلى مكة المكرمة، رحمه الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠

و أحسن جزاءه لقاء ما بذل من الجهد في كتابة كتابه الكريم و العناية بتاريخ البلد الأمين و بيت الله الحرام إنه لا يضيع أجر من أحسن عملا.

[٢] رسالة إلى الراحل الشيخ محمد طاهر الكردي بقلم الأديب السعودي الكبير الأستاذ عبد العزيز الرفاعي

لم أضع اسمك مسبقاً بألقاب ... فلا زلت أذكر احتجاجك عليّ، و اعتراضك بشدة و حزم على بعض ما كنت أحرص على أن أنتعك به من نعوت و ألقاب، كلما كتبت إليك، معتقداً في قرارة نفسي صحة إضفائها عليك ...

لأنك أهل لها فعلا ...

لم أفعل الآن .. احتراما لذلك الشعور الذى كنت أحرص عليه تجاهك، و أنت تدب مع من نسميهم الأحياء على هذه (البسيطة) ... و لقد كنت قبل أن أخط هذه الرسالة .. أعد نفسي لأكتب شيئا آخر، أردته أنت لى و لم أرده- أنا- لنفسى ... كنت بسبيل أن أكتب الكلمة التى أتقمص فيها شخصيتك لأتحدث بالنيابة عنك، إلى أولئك الذين فكروا جديا أن يحتفلوا بتكريمك و كان اسمك أول الأسماء العديدة التى ازدحمت على ذاكرتهم ... فاختاروا أن يبدأوا بك، لأنك تجمع فى شخصيتك المتواضعة سمه الفنان، و سمه العالم، و سمه الأديب، و هى سمات قلما تجتمع فى رجل. فحسبوا أنهم إذ يبدأون بك إنما يكرمون فى شخصك، شخصيات متعددة تتميز كل منها بميزة خاصة ... و كنت أنا أوشك أن أكتب كلمتك .. فى حفل تكريمك الذى كان معتزما ... أدير فى نفسى ... كيف يا ترى يسعنى أن أعتبر عن أحاسيسك فى مناسبة كتلك. و لا أقول (كهذه)؟ فكيف أروض قلمى، لكى يلتزم حدود ما أخذت نفسك به من تواضع جم، و من نكران كبير للذات. إلا من ذلك الاعتداد الذى يحرص عليه الفنانون ... و يأباه العلماء؟

فلقد كنت تجمع فى نفسك بين طموح الفنان، و بين تواضع العلماء ... و هو صراع بين طرفى نقيض التأمنا فى ذاتك ... ثم اصطلحا بحكم المعاشرة و المزامنة و انحناء السنين ... أما لو تركتني آخذ من الاختيار ما أريد، لكنت أفضل أن أتكلم معرفا بك. أو محاولا أن أعرف بك بل بالحرى متحدثا من خلال علاقتى بك منذ عرفتك فى أوائل الستينات الهجرية ...

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١

كان بودى- حقا- أن أفعل ذلك، و أنت حى، تعبيرا عن عمق مودتى، و صادق صحبتي و لكن الله تعالى أراد أن لا أفعل ذلك إلا بعد أن تطوى صحيفتك من دنيانا الفانية ... إلى العالم الآخر.

أذكر جيدا آخر رسائلك إلى و أنت تستعجل الأيام، و تضيف قائمة أحبابك الذين تحرص على مشاركتهم بالحضور فى حفل تكريمك- تضيف أسماء جديدة يملئها عليك و فائك المعهود، كلما تذكرت منهم أحدا و تستعجل أيضا- العمل على نشر مؤلفاتك لتراها ماثلة بين أيدى القراء، لتكون عاملا- فى إسعادك تقر به عينك. و تقول لى فى إحدى رسائلك تلك: (قبل أن أموت). و برغم أن الموت أكبر ما نواجه من حقائق الحياة الدنيا، إلا أن البشر اعتادوا أن يغفلوه من حياتهم ... أو تراهم ينسون هذه الحقيقة العظمى، أو أنهم يتناسونها، كنت- من جانبى- أشعر بشعورك، و أحس عمق أحاسيسك ... و لكن الأيام- كعادتها- كانت تجرى مهرولة متسارعة متتابعة. لنصل من خلالها جميعا ذات يوم إلى ذلك الشاطئ العجيب المجهول.

لا عليك أحسب أن الإخوة، الذين اهتموا بالإعداد لتكريمك ... سيلتمسون الوسائل لتكريم ذكراك. كما اعتاد الناس أن يفعلوا كلما فقدوا علما من أعلامهم، فاتهم أن يدخلوا السعادة إلى قلبه بتكريمه و هو حى ... و لم أكن لأرشح نفسى للحديث عنك لولا أننى عرفتك عن كثب، و وقفت على بعض أمرك و لا- أقول كله ... فإن تعارفنا لم يزد عمره عن ثلاثين عاما بينما أعرف من أصدقائك الأحياء من هم أكثر صحبة و أعمق معرفة و ألصق بك. و إننى لأمل أن يتفضلوا بالكتابة عنك، ليجمع من تاريخ حياتك ما هو جدير أن يظل فى ذاكرة التاريخ.

و إن لك من أمجادك ما هو حرى أن تعيه حقا ذاكرة التاريخ. و إننى لأعلم علم اليقين أنهم جميعا يكتنون لك الحب كله و الإعزاز كله ... و الإعجاب كله ..

أحاول أن أستذكر لقاءنا الأول .. أو الذى أجزم أنه التعارف الأول ... كان ذلك فى مبنى المدرسة العزيزة الابتدائية بمكة المكرمة فقد عدت أنا إليها مدرسا بها بعد غيبة سنوات ثلاث كنت قبلها طالبا فيها فقد كنت أنت بها مدرس الخط.

أما أنا فقد كنت، مدرس الرياضيات ... و لم نكد نتعارف حتى اتصلت بيننا أسباب المودة التى ظلت عامرة و وثيقة حتى الأيام الأخيرة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢

و عبر هذه السنوات الطويلة، عرفت جوانب من حياتك هي التي أحاول أن أستذكر الآن أطرافاً منها. كنت يا صديقي إبانها تشارف الأربعين ... ناصر المنظر أنيق الملبس، تعتمر عمه حجازية كان يحتفظ بمثلها بعض من كان من جيلك. أميل إلى القصر لطيف المعشر، فكه الحديث حلو النادرة، يجمع على حبك تلامذتك و زملاؤك تعامل الجميع - كلهم - أصدقاء حميمون.

كانوا - جميعهم - مع جهم لك، يتقون غضبك، فقد كنت متى غضبت، تبدو كالبركان يتقى الناس حممه و لكن البركان متى همد أعطى الخصب و النضارة و النماء. و كذلك أنت، فسرعان ما تهمد تأثرتك، و يذهب غضبك خاصة إذا اعتذر الطرف الآخر عن خطأه أو ما ينبغي عليه أن يعترف به من خطأ، مهما كان الأمر و إلا فالقطيعة. و كان أولئك الذين عرفوا حقيقة قلبك الأبيض ... يعرفون كيف يحتفظون بصداقتهم لك ليظل ما بينك و بينهم من بيت الودّ عامراً.

لا- تزعزع الرياح، أو صخب البراكين. و إذا فاء إليك حلمك بالغت في الكرم، و اللطف، و أغدقت من برك ما يزيل سخط الساخطين ...

كنت آنذاك تعيش أعزب لم تتزوج بعد، فقد كنت شديد الحذر من الزواج تخشى أن يضطرب به ما تعودت من هدوء و ركون إلى الكتب و الفن ... أعنى فن الخط ... الذي أولعت به و كنت تسكن في دار مستقلة، في مصعد جبل هندي (قعيقعان) في الطريق إلى القلعة ... و كنت تدعو إلى هذه الدار من مصطفى من أصدقائك و أودائك ... و قلما كان يمر عليك يوم دون أن تدعو أحدا ... على ما تيسر من طعامك غداء أو عشاء. و كانت شهرتك في إجادة الطبخ مستفيضة ..

حتى ليروى الرواة، أنك طبخت في دارك بالطائف مرة طبخة لذيذة دعوت إليها نفرا من كبار رجال مديرية المعارف أيام كانت مديرية. فأكلوا و استزادوك ثم استزادوك لطعامتها و جودتها ... ثم اتضح بعد أن امتلأت الحقائق أنها كانت أكلة برسيم أخضر ... و كانت نادرة طريفة من نوادرك، ظل الوسط التعليمي في مكة المكرمة يضحك منها أياماً.

و لقد كنت أحظى بشيء من دعواتك المنزلية غير البرسيمية. و كنت أشهد عن كذب ما تعانیه في وحدتك، إلا من خادم أسود صغير يرعى بعض شؤونك و يؤمن لك حاجيات السوق ... و كنت أرتاح إلى غذائك ... غذاء الجسم من طعامك الشهى اللذيذ ... و غذاء الفكر فيما تحدثني عن فنك و علمك و مؤلفاتك.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣

و لقد شهدت مولد بعض أعمالك الفنية و العلمية. و كان أعظمها في نظري من ناحية فنك الأول أعنى الخط كتابة المصحف الشريف (مصحف مكة) فقد كنت تطلعني على النماذج الأولى منه و على التصحيحات و التصويبات التي كان يهتم بها كل من الأستاذ السيد إبراهيم النوري - رحمه الله - و الأستاذ السيد محمد شطا - شافاه الله - و غيرهما ممن كان يهتم بهذا الأمر الجليل ... الذي هيا الله له الإنجاز في حياتك.

شهدت ما كتبت من كراريس الخط و بعض تشكيلاتك الفنية و أطلعنتي على بعض لوحاتك البارعة في الخط و منها ما يعتمد على خداع البصر و الحركة ...

و اهتمامك بالكتابة، على البيضة و الرزة الأمر الذي كان يتطلب دقة متناهية و براعة بالغة ... و لم تكن تعوزك الدقة و لا البراعة و لا الإبداع.

كان كتابك في تاريخ الخط العربي من مفاخرك، و كنت به شديد الاعتزاز و لك الحق في ذلك لأولويته و جمال لوحاته و لاهتمام دار الهلال منذ زمن بعيد بطبعه و إخراجه و الحفاوة به.

كما كنت تعد كتابك في خ خ تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه من الأولويات في هذا الميدان في العربية إلا كتاب خ خ نولديه المستشرق و كنت تعترف بريادته و لكن ريادتك لهذا الجانب كانت ريادة المختص المطلع المتصلع من لغته و تراثه

المتخصص في فنه.

وقد اطلعت على شىء من نظمك و نثرك و كنت تركز فيهما على الحكمة و الزهد ... فقد كنت وثيق الصلة بالله عميق الإيمان إن لم أر من حياتك إلا ما يدل على حب نقاء السريرة و السيرة.

و لا زلت أذكر كيف فاجأتني بعد أن عدت من إحدى زيارتك للمدينة المنورة ... فوجدت في حياتك بعض الاختلاف ... و إذا بك تعلمنى أنك قد تزوجت من المدينة و أتيت بعروسك إلى دارك. هكذا في هدوء كبير ... كما هي عادتك. ثم أخذت الحياة الزوجية تجرّك رويدا رويدا إلى شواغلها، فإذا أنت أب لعبد الرحمن و لعدد من البنات، أصهر بهن إليك عددا من خيرة الناس.

و باعدت ظروف الحياة بيننا، فانتقلت أنا إلى جدة ثم إلى الرياض ..

و تباعدت الزيارات و لكنها ظلت. و ظلت الرسائل تتصل. تقاعدت عن عملك بوزارة المعارف ثم تخليت عن صلتك بلجنه بناء الحرم المكي و كانت لك فيها آراء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤

و جهود .. كان بعضها محل الارتياح و الترحيب ثم أقعدك المرض لفترة كنت بعدها و إن تم لك فيها الشفاء على و هن و ضعف و لكنك حمدت الله كثيرا أن استعدت قدرتك على الكلام و المشى و الحركة و إن كان ذلك على و هن شديد.

حجبت عن الناس إلا من زائرين قليلين و حال بينك و بين الخروج من صومعتك إلا لأمر شديد شديد ... حتى لقد اشترطت على ... بعد أن فاتحتك في حرص الرئاسة العامة لرعاية الشباب على إقامة حفل تكريم لك عن طريق جمعية الثقافة و الفنون - اشترطت أن لا تحضر إلا ساعة أو بعض ساعة من حفلة الافتتاح ..

معتذرا بأن ذلك يتطلب منك جهدا غير يسير. و حتى هذه الساعة التي كنا نتطلع إليها في شوق، لم تتح لنا فكان الأجل أسبق. أذكر المرات القليلة التي قدر لي أن أراك فيها بعد علتك ... و قد شهدت مدى و هنك و لكن المرض لم يغيّر من خلقك شيئا و لا من لطفك و بشاشه استقبالك.

و بعد، فإن من حقك على التاريخ أن يذكرك عالما درس في الأزهر (في الرواق العباسي كما حدثتني) و فنانا خطاطا، من مدرسة الفنون بالقاهرة، و معنيّ بالتاريخ كما تدل على ذلك مؤلفاتك فيه، و أديبا شاعرا، تكتب في طرائف الأدب و تنظم في الحكمة و تجارب الدهر.

و لقد كانت لك اهتمامات تدخل في باب الاختراعات و لا يبعد عن الخاطر تفكيرك في حل مشكلة ازدحام المطاف، بمطاف علوى، (دور ثان) يجرى تركيبه أيام الموسم، ثم يزال ليعاد استعماله كلما حلّ موسم جديد ... و قد جعلت لهذا الأمر تصميمًا بارعا اطلع عليه - فيما أعلم - بعض المسئولين ... و لك في هذا الباب أكثر من بادرة، منها بلورة مقام إبراهيم .. و أحسب أن الحديث معك و عنك يطول بي، لو أردت أن أستعرض تلك الجوانب الكثيرة التي أعلمها من خلالك الخيرة - و كلها خيرة - و لكنني أجتزئ اليوم من الحديث ما أستطيعه عسى أن أتحدث عنك في يوم آخر قريب، حديثا مستفيضا.

و سلام عليك في جنات واسعة إن شاء الله، و في نعيم مقيم مع الصالحين و الصديقين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥

[٣] محمد طاهر الكردي المكي الخطاط بقلم الأستاذ الأديب يوسف ذنون

شهدت ربوع الحجاز تطور حركة الخط العربي في المراحل المبكرة قبل النضوج و الانتشار الذي تحقق بعد ظهور الإسلام و قد عرف الأقدمون الأساليب المكية و المدنية، و شخصوا بعض الظواهر التي تميزها فكانت شهادة حيه عاشت في المكاتبات و الخطوط التي أعقبتها، بالرغم من التحوّل الذي طرأ على ميدان التطورات التي حصلت في الخط و انتقاله إلى بلاد الشام ثم العراق و بعده إلى البلاد

الأخرى.

و لم يتخلف الحجاز عن مواكبة هذه التطورات و المشاركة الفردية فيها بفاعلية ملفتة للنظر، فنرى مباركا المكي يفرض نفسه في القرن الثالث الهجري كعلم فرد يذكره دارسو النقوش بأساليبه المبتكرة، كما يبرز عبد الرحمن بن حرمي المكي في القرن السادس الهجري ليعطي طريقة ابن البواب نموذجها الحجازي.

و أما ما تلى ذلك من قرون فإن كتب الإخباريين لم تغفل البارزين من خطاطي الحجاز، و قد تتبع بعضا منهم مستقيم زاده في كتابه خ خ تحفة الخطاطين نذكر منهم على سبيل المثال الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المكي في القرن السابع الهجري و أحمد بن محمد بن سليمان بن حمائل المكي في القرن الثامن الهجري، و شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن صدقة المكي في القرن التاسع الهجري و محمد بن إسماعيل المكي في القرن الثاني عشر الهجري.

و يبرز في هذا العصر الخطاط محمد طاهر الكردي المكي ليؤكد أن الحجاز بقدسيته الإسلامية شكّل نقطة تجتمع لمختلف الأفراد من الشعوب المسلمة، و لذلك من الأمور الطبيعية أن نرى بعض الأشخاص فيه، عندهم أكثر من انتساب و منهم الخطاطون مثل الخطاط أحمد النابلسي المكي (ت ١٠١٤ هـ) و المترجم له أبو عبد الرحمن محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود الكردي المكي الخطاط، الذي يشكّل توأصلا حضاريا بين الحجاز و العراق يعيد إلى الأذهان الصلة الخطية بينهما قبل الإسلام بانتقال الكتابة من الحيرة و الأنبار و استمرارها بعده مما يؤكد عمق

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦

العلاقات و تواترها على مرّ العصور، و ما الخط إلا أحد المظاهر الحضارية المتأصلة في النفوس و الوجدان.

و حينما تتواصل المسيرة و تتهيا الأداة و تتحكم القدوة الصالحة و تتحفز الاستعدادات الفنية بأصاله و اقتدار، تتحرك النفوس الطموحة لتجسد ذلك نماذج تظهر و كأنها شعله من الحيوية و النشاط، فترقد المجال بدفق غزير من النتاجات المنوعة على الأصعدة المختلفة في الاتجاهات المتعلقة بالخط - على كثرتها - باعتباره عنصرا فاعلا في صلب الحياة الحضارية لهذه الأمة، يبرز بخصوصية في اللغة و الفن و التاريخ و الآثار.

و من هذا المنطلق يقيم المرحوم العلامة محمد طاهر الكردي المكي الخطاط الذي يشكّل لبنة وهاجئة في صرح الثقافة و الفن و الآداب و التاريخ في السعودية و في العراق و قد تخطى ذلك إلى آفاق أرحب، فكان له فضل الريادة و لا نستطيع بهذه العجالة تغطية فضل الرجل الذي كان غزيرا في إنتاجاته إلى أن داهمه مرض عضال عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) أقعده عن نشاطاته المختلفة حتى وفاته في ٢٣ ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ (آذار ١٩٨٠ م) إلا من تحركات محدودة في المتابعات الثقافية و اللقاءات الشخصية و بعض المراجعات لمؤلفاته و خاصة في تاريخ الخط.

إن ما سنعرضه هنا - للقارئ الكريم - من جوانب حياته الجمية النشاط لا يتجاوز التعريف بمشاركاته في المجالات المختلفة بالقدر الذي يسمح به المقام و التركيز على نشاطاته في مجال الخط استقيناها من ثنايا بعض مؤلفاته و المراسلات المتبادلة بيننا نتيجة العلاقة الحميمة التي ربطتني به خلال العقد الأخير من حياته.

ولد الشيخ محمد طاهر سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) في وسط ديني فقد كان أبوه عبد القادر بن محمود الكردي قد ترك أربيل في شمال العراق ليسكن في مكة المكرمة و يجاور فيها، و تلك سنّه درج عليها الناس منذ القديم، تقربا إلى الله و اجتهادا في العبادة، و قد اهتم الوالد بتربيته و ولده بشكل يحقق طموحه الديني، فرعاه بخنان، خاصة بعد أن فقد والدته أوائل سنة ١٣٣٤ هـ.

نشأ الطفل النجيب في مكة المكرمة و دخل مدرسة الفلاح فيها و قد تخرج منها سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) عندها صحبه والده إلى مصر و أدخله الأزهر لمواصلة طلب العلم سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) و هكذا استمر اهتمام الوالد به

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧

و رعايته له حتى وفاته في ٩ رجب ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) عن عمر بلغ تسعين سنة و دفن في الطائف.

تبلورت شخصية المترجم أثناء تواجده في مصر، فواصل دراسته في الأزهر و استغل أوقات الفترة المسائية لتعلم الخط العربي بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية سنة افتتاحها ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) و قد قضى فيها ست سنوات. أربع منها لدراسة الخط تخرج منها سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) و سنتان في قسم التخصيص و التذهيب، و قد كان أساتذتها من أساطين الخط في تركيا و مصر و على رأسهم الشيخ عبد العزيز الرفاعي التركي و محمد إبراهيم الأندلي و الشيخ علي بدرى و الشيخ محمد غريب العربي و الأستاذ محمد رضوان من المصريين.

و تعتبر هذه المدرسة من الركائز الأساسية التي بعثت الحياة في فنون الخط و الزخرفة في البلاد العربية في أوائل هذا القرن، بعد أن أصابها ركود في القرون السابقة، و قد استفاد المرحوم محمد طاهر من هذه الدراسة فائدة جعلت منه الخطاط الأول في الحجاز حينما عاد إليها سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م).

في الحجاز دخل المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة موظفا، و لكنه لم يبق فيها طويلا فطلبت منه مدرسة الفلاح بجدة أول عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) لتدريس مادة الخط العربي، فاستمر فيها أربع سنوات بلورت خلالها مسيرته الحياتية نحو الخط و التأليف فدفعته هو لحسنه و تطلعاته و قلق الفن الأبدى للعودة إلى مصر سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) لطبع نتاجاته في الخط و خاصة خ خ كراسه الحرمين في خط الرقعة بأجزائها السبعة، و العمل على تأليف كتاب عن الخط أتمه في سنوات ثلاث قضاها في القاهرة و الإسكندرية، فكان كتاب خ خ تاريخ الخط العربي و آدابه و قد صدر في مصر سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) و يعتبر من الكتب الفريدة في حينها في مادته الخاصة و المترجمة عن المصادر التركية.

إن السنين التي تلت كانت مفعمة بالنشاط في مجال الخط و الزخرفة و التذهيب و الرسم و النظم و التأليف و التنقل. فقدم إلى العراق في منتصف سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) فمر ببغداد و التقى بخطاطيها، و قد دون ذلك في متن إجازته للخطاط محمد صالح الشيخ علي الموصلى (١٨٩٤ هـ - ١٩٧٥ م) المؤرخة في صفر ١٣٦٦ هـ و الساكن آنذاك في بغداد، و قد كتبها في الحجاز بعد عودته و أرسلها بريديا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨

إن نشاطه الواضح قد أكسبه تجارب واسعة و خبرة جمعة و شهرة مميزة و مكانة في بلده أهلتة لكي ينتخب عضوا في اللجنة التنفيذية لتوسعة و عمارة المسجد الحرام التي بدأت العمل سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) و صار أيضا رئيس قسم التأليف و الآثار التاريخية لمكتب مشروع التوسعة و قد استمر فيها حتى إحالته على التقاعد حسب رغبته لكي يتفرغ لإتمام مؤلفاته التي تربو على الأربعين مؤلفا بين مطبوع و مخطوط، و قد قررت الحكومة السعودية طبع جميع مؤلفاته سنة ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) فأحالتها إلى لجنة خاصة لدراساتها و لكنها لم تطبع لكثيرتها و قد عوض عن ذلك بمكافأة نقدية، و قد تأثر من ذلك و انتابه شعور بالإحباط، خاصة و أنه لم يكن في عمر و لا حالة صحية تمكنه من الاهتمام بها، و أن نشاطه المعتاد قد تحدد فترك مواصلة الخط بشكل نهائي و أهدى جميع أدواته و مواده إلى أصدقائه في مصر، انقطع بعدها للعبادة و بعض المراجعات لما ألفه و خاصة كتابه تاريخ الخط الذي توفرت له مادة جديدة فيه، و لقاءات الخطاطين الذين يفدون حججا أو معتمرين إلى مكة المكرمة من كافة أرجاء العالم الإسلامي و محبيه ممن جذبتهم كتاباته، يتبادل معهم المخطوط و المعلومات و الهدايا.

و هكذا عاش سنواته الأخيرة في دفء العلاقات الحميمة مع الأفراد الذين تعرف عليهم و استمرت صلته بهم بإخلاص و محبة متبادلة عن طريق اللقاءات في المناسبات و مواصلة ذلك بالمراسلات، و قد كانت طبيته و بساطته المحببة و وفاؤه النادر و طبيعته الودودة و نوازه الخيرة تعطى الديمومة لهذه العلاقات حتى وفاته.

و قد جرى اقتراح بإقامة حفل تكريمي له قبيل وفاته عن طريق الجمعية العربية السعودية للثقافة و الفنون باعتباره أول مفكر سعودي و

أول خطاط في المملكة و أنه قام بتأليف عدد كبير من الكتب في مختلف ألوان الأدب و الفنون، و هذه لا شك التفاتة كريمة، و إن جاءت متأخرة، فقد كان- رحمه الله- متعدد الآفاق متنوع الاتجاهات، و قد ترك في الخط نتاجات تخلده، في مقدمتها خطه المصحف الكريم الذي أطلق عليه خ خ مصحف مكة المكرمة و هو أول مصحف طبع في مكة المشرفة، و كتب بيده كثيرا على حبوب القمح و الرز كتابات دقيقة من سور القرآن الكريم و بعض الأشعار، و كذلك رسم خريطة مفصلة للأقطار العربية بحجم طابع البريد و قد أهدى من كل ذلك للمتاحف و دور الكتب في مختلف الأقطار. و أصدر كراريس لتعليم الخط بدأ بإعدادها حينما كان يدرس هذه المادة في مدرسة الفلاح

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٩

بجدة و هي خ خ كراسه الحرمين في تعليم خط الرقعة في سبعة أجزاء، خ خ نفحة الحرمين في تعليم خطي النسخ و الثلث، خ خ مجموعة الحرمين في تعليم خط النسخ و اشتغل بإعداد اللوحات الخطية الفنية منها خ خ تحفة الحرمين في بدائع الخطوط العربية و خ خ لوحة أخرى في الخطوط العربية و جميعها مطبوعه.

أما آثاره في تاريخ الخط و الدفاع عنه فقد طبع منها خ خ تاريخ الخط العربي و آدابه و خ خ حسن الدعاية فيما ورد في الخط و أدوات الكتابة و خ خ رسالة في الدفاع عن الكتابة العربية في الحروف و الحركات.

و لم يقتصر نشاطه التأليفى على الخط و تاريخه بل طرق مجالات أخرى كالتاريخ و الآثار فطبع له خ خ التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم في خمسة أجزاء و خ خ مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام و خ خ منظومة في أشهر بنايات الكعبة المعظمة و خ خ تعليق مختصر على تاريخ مكة للقطبي و خ خ النسب الطاهر الشريف و خ خ تبرك الصحابة بآثار رسول الله صلى الله عليه و سلم و خ خ رسالة انتقال رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الرفيق الأعلى و خ خ كتاب عيش رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه الكرام و خ خ صورة حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام.

و في تفسير صدر له خ خ التفسير المكي في أربعة مجلدات و خ خ زهرة التفاسير في ثلاثة أجزاء، و في العلوم القرآنية صدر له خ خ تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه و معه خ خ رسالة حفظ التنزيل من التغيير و التبديل.

و في أغراض مختلفة طبعت له عدة كتب تلقى الضوء على جوانب لشخصية متعددة المواهب و الاهتمامات تحتاج وقفه متأنية للتعريف بها و هي: خ خ بدائع الشعر و لطائف الفن، خ خ تحفة العباد في حقوق الزوجين و الوالدين و الأولاد و خ خ الأحاديث النبوية في الآداب الدينية و التربية الإسلامية و خ خ ثلاث رسائل في المناسك و دعاء عرفه و الأدعية المكية و خ خ إرشاد الزمره لمناسك الحج و العمرة و خ خ دعاء عرفه و خ خ الأدعية المختارة و خ خ أدبيات الشاي و القهوة و خ خ الهندسة المدرسية و خ خ استحالة الإقامة في القمر و الكواكب و خ خ لوحة فنية فيها صور الكعبة المشرفة لأشهر بناياتها، و خ خ لوحة قدمي سيدنا إبراهيم عليه السلام.

و قد طبع بعضها أكثر من طبعة مثل خ خ تاريخ القرآن و خ خ أدبيات الشاي و القهوة و خ خ تبرك الصحابة بآثار رسول الله صلى الله عليه و سلم و تداخل البعض منها في أكثر من كتاب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠

و على الرغم من كثرة ما طبع من نتاجاته- كما مر- إلا أنه لا زالت هناك مجموعة من النتاجات لا زالت مخطوطة و هي:

خ خ مختصر المصباح و المختار في اللغة خ خ المقارنة بين خط المصحف العثماني و اصطلاحنا في الإملاء خ خ الاستحسان في وضع علامات الترقيم في القرآن خ خ حسن البساط في ديوان محمد طاهر الكردي الخطاط خ خ منظومة في التعاريف الفقهية خ خ عجائب ما رواه التاريخ خ خ تراجم من له قوة الحافظة خ خ الموعظة الحسنة في عدم اليأس و في الصبر و التفويض خ خ المحفوظات الأدبية المختارة خ خ البحث و التحقيق في معرفة معنى الصديق و خ خ الشوق و الرغبة في معرفة ما حصل في الكعبة في العهد

السعودي.

إن مؤلفاته المتقدمة قد ثبتها في الصفحات الأخيرة من الطبعة الثانية في كتاب خ خ تيرك الصحافه و هو آخر كتاب طبع له سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) وقد كان الشيخ محمد طاهر يؤمل أن يعيد طبع كتبه أو إعادة بعضها مع ما هو مخطوط و لكن ذلك لم يتحقق. ترجم الشيخ لنفسه في كتابه خ خ تاريخ الخط العربي و آدابه و في الجزء الأول أيضا من كتابه خ خ التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم و مع ذلك فإن جوانب كثيرة من حياته لم تتضح، و ترجم له حبيب الله فضائلي في كتابه خ خ أطلس خط (١٩٧١ م) ص ٣٨٢ و الأستاذ فوزى سالم عفيفي - الذي صحبه فترة من الزمن و كانت صلته به وثيقة - في كتابه خ خ نشأة و تطوير الكتابة الخطية العربية ١٩٨٠ م ص ٢٧٧، و كتب عنه الشاعر الخطاط وليد الأعظمي في نشرة المصلحة (حزيران ١٩٦٣ م) و غيرها، و قد حاول السيد إبراهيم باجلان التعريف به من خلال كتابه خ خ تاريخ الخط العربي و آدابه في جريدة خ خ العراق في العدين ١٣٥١ و ١٣٦٨ لسنة ١٩٨٠ م.

يضاف إلى ذلك كتابات أخرى من بعض معارفه لم تطبع، و مع ذلك فإن مجال الكتابة عنه لا زال بحاجة إلى مزيد من تسليط الضوء على جوانب نشاطاته المتعددة، و خاصة من تلامذته و محبيه و من اتصل بهم و هم كثير - لا يسع المقام لذكر من أعرفه منهم - فقد كان بيته - رحمه الله - في محلة السليمانية في مكة المكرمة محفلا لمعارفه من الخطاطين و المثقفين من مختلف أنحاء الوطن العربي و العالم الإسلامي.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١

[٤] مؤرخ مكة الكبير و كاتب مصحفها إلى رحمة الله بقلم الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان

في الساعة الثالثة و النصف صباحا، التوقيت الزوالي من يوم الاثنين الموافق ٢٣ ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ الموافق ١٠ مارس سنة ١٩٨٠ م - انتقل المؤرخ الكبير العلامة الشيخ محمد طاهر بن عبد القادر الكردي إلى رحمة الله، بعد مرض أسلمه الفراش لمدة عشرين يوما. و بوفاته تفقد البلد رائدا من رواد التعليم و الفكر في العصر الحاضر، الذي قامت على أكتافهم، و بجهودهم، النهضة العلمية الحديثة في المملكة العربية السعودية، فخرجوا أفواجا و أجيالا، من المتعلمين، أصبحت بأيديهم قيادة البلاد. و قد كان الفقيد - رحمه الله تعالى - إلى جانب اشتغاله بالتعليم ذا اهتمامات و تخصصات متعددة، أبرزها و أهمها: اهتمامه بتاريخ مكة المكرمة، و تحقيق كل ما يتصل بها من آثار و أولى الحرم المكي من إنتاجه العلمي و الفكري عناية خاصة - ندر أن يكون لها مثل - فوثق كل ما يتصل به من دراسات، سواء بطريق الرواية، أو الصورة الفوتوغرافية.

و لم يغب عنه الاهتمام و التوثيق التاريخي لمكة المكرمة حتى في أخرج الظروف و الأوقات.

و بعد أن نخر مرض السكر عظامه الذي تمكّن منه ما يقارب العشرين عاما، فأصاب جسمه بشلل نصفي، كان - رحمه الله - يطلب من أولاده تدوين ما يحدث - مما يروى له أو يقرأ - حتى الأمور البسيطة، بحاسة المؤرخ، و فحص الخير.

عاصر حادث الحرم، و ما فعلته الفئة الخارجة، في بداية عامنا هذا، و كان يتمنى أن تساعد قواه على تدوينه، و يأمل - و قد أصبح عاجزا - أن تهتم الحكومة السنوية بإصدار كتاب مفصل، توضح فيه كافة الجوانب، و الملابس، و الأحداث لهذا الحادث الذي يعدّ من بين الأحداث التاريخية المعدودة فيما يتصل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٢

بالمسجد الحرام، فيكون وثيقة تاريخية صادقة أمينة، تقف عليها الأجيال، بدلا من الروايات المتعددة و الإشاعات الرائجة التي قد لا يكون لها جانب من الصدق.

و كتابه خ خ التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم موسوعة تاريخية و اجتماعية و أدبية عن مكة المكرمة، جمع فيه معارف شتى،

يقع في ستة أجزاء، طبع منه أربعة أجزاء، على نفقة السيد أحمد هاشم مجاهد، وكيل وزارة الحج والأوقاف سابقاً، والجزءان الآخران يقوم مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، بدراسته، لإعداده للطبع.

وهذه المدونة التاريخية، بالطريقة التي سلكها المؤلف - رحمه الله - هي مادة علمية جيدة، أُرِخَ فيها ما أغفله التاريخ، وهي صالحة لأن يستخرج منها رسائل علمية متعددة الجوانب، خصوصاً في النواحي الاجتماعية، في هذا البلد الكريم. ذكر في تقديم الكتاب هذه العبارة:

خ خ هذا الكتاب أعظم تاريخ ظهر إلى اليوم، في الوجود، لبلد الله الأمين، مكة المكرمة، وبيته المطهر الشريف، ولكل ما له تعلق بالمشاعر العظام وغيرها، منذ عهد إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - إلى اليوم، وهو كتاب مزين بالخرايط المهمة، والصور الفوتوغرافية، والرسوم اللطيفة، للأماكن المقدسة، والمواضع الأثرية، والرجال البارزين، والعلماء المؤرخين، وتراجم كل منهم، وفيه من المباحث والمسائل ما لم يذكر في أي تاريخ، وفيه من مسائل الحج، والمواضيع المتنوعة الشيقة... وفيه من التحقيقات والتدقيقات... ولم نترك شيئاً من المسائل إلا ما يتعلق بالحروب والفتن التي وقعت فيما مضى من الأزمان، وسيصبح هذا الكتاب - إن شاء الله - قاموس التواريخ، يرجع إليه العلماء والفضلاء، في كل ما يتعلق ببلد الله الأمين وبيته المقدس، وجوهرة عزيزة فاخرة، فالحمد لله على إتمامه، والشكر له على إنعامه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وقد زخر كتابه بنماذج فنية رائعة لبعض الأشكال، والخطوط، وصور بعض العلماء والأعيان والحكام المعاصرين.

ومن آثار اهتمامه الخاص بالحرم المكي الشريف قيامه برسم سطح حجر مقام إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وفيه أثر القدمين.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣

يتحدث الدكتور عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش في بحثه خ خ الشيخ محمد طاهر بن عبد القادر الكردي - حياته ومؤلفاته عن أعماله في مجال الخط العربي، والزخرفة الإسلامية، عن رسمه سطح حجر المقام.

لوحة فنية نادرة لمقام إبراهيم - عليه السلام - ومقاس اللوحة الأصلية هو ٥، ٢٢* ٢، ١٦ سم، وهذا العمل لم يسبق لأحد أن قام به، في العالم الإسلامي قاطبة، وعلى مَرَّ عصور التاريخ الإسلامي المجيد، ويظهر لنا من هذه اللوحة الدقة، وحسن التصميم، مما يدل على براعة الشيخ محمد طاهر الكردي، وحسن اختياره. ولقد طبعت هذه اللوحة في عام ١٣٨٢ هـ الموافق ١٩٦٢ م.

وأخرج رسوماً خاصة لأشكال بناية الكعبة المشرفة، على مر العصور، ومنظومة في صفة أشهر بنايات الكعبة، وألف كتاباً في مناسك الحج بعنوان خ خ إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة.

فكانت مكة المكرمة بلدة تعيش في روحه ودمه، وكان من بين الذين شاركوا في وضع الحجر الأساس لتوسعة الحرم الشريف، وكان أحد المسؤولين عنها، كما كان له شرف وضع الإطار الفضي للحجر الأسود، والإشراف والمشاركة في ترميم الكعبة، وتحديد سقفها في التسعينات.

كما كان من أبرز اهتماماته العلمية فن الخط والزخرفة الإسلامية، فله - في هذا المجال - آثار هامة متعددة، توجهها بكتابته للقرآن الكريم، ويعتبر هذا الأثر مفخرة البلاد، ولقى انتشاراً وإقبالا، وأطلق عليه خ خ مصحف مكة وهو يشهد له بالدقة والكفاءة العالية، في هذا المجال، حتى أصبحت نسخ هذا المصحف نادرة، بل معدومة من الأسواق.

ومن أهم ما قام به، في هذا المجال، كتاب خ خ تاريخ الخط العربي وآدابه وهو كتاب ذو قيمة علمية كبيرة جمعه من أهم المصادر، وحلّه بأنواع الخطوط العربية، وضم فيه تراجم أشهر الخطاطين.

وليس هذا مجال عرض أعماله العلمية، وإنما أحيل القارئ الكريم إلى البحث العلمي الذي قام بدراسة أعماله عميد شؤون المكتبات بجامعة الملك عبد العزيز بمكة الدكتور عبد اللطيف بن دهيش.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٤

أما حياته العلمية و الوظيفية، فقد ولد- رحمه الله- عام ١٣٢١ هـ الموافق ١٩٠٣ م بمكة المكرمة، و تخرّج من مدرسة الفلاح بمكة المكرمة، ثم سافر إلى مصر سنة ١٣٤٠ هـ، لطلب العلم بالأزهر الشريف، ثم التحق بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية، في سنة افتتاحها، عام ١٣٤١ هـ.

و يتحدث الفقيه- رحمه الله- عن تعلمه فن الخط بقوله: خ خ و لم يخطر ببالي أن أكون يوماً ما معدوداً في مصاف الخطاطين، و لكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً، فأخذت في المدرسة المذكورة خط الثلث، و النسخ، و الرقعة، و جلي ... و كذلك أخذت الخطوط المذكورة مع الخط الفارسي، و الخط الديواني، و فن التذهيب، و الرسم، و الزخرفة ...

ثم عاد إلى البلاد فعين موظفاً بالمحكمة الشرعية الكبرى عام ١٣٤٨ هـ، و في بداية عام ١٣٤٩ هـ انتقل إلى حقل التعليم، فعين مدرساً بمدرسة الفلاح بجدة.

و في سنة ١٣٥٣ هـ سافر إلى مصر، ثانياً، فأقام بالقاهرة عاماً كاملاً، و بالإسكندرية عاماً آخر، و كانت فترة حافلة بالنشاط العلمي و التأليف و الاتصال بالعلماء.

و في سنة ١٣٥٥ هـ عاد إلى المملكة، و عمل بمدرسة الفلاح بجدة، لفترة قصيرة، ثم اختارته مديرية المعارف- آنذاك- للتدريس بمدارسها، فدرس في المدرسة السعودية، أولاً، ثم العزيرية الابتدائية، ثانياً.

و عندما قامت مديرية المعارف بفتح مدرسة لتحسين الخط و تعليم الآلة الكاتبة- عين مديراً لها- و علاوة على ذلك فإنه كان يعمل خطاطاً بمديرية المعارف، ثم اختير مستشاراً في الجهاز الإداري لمشروع توسعة الحرم المكي الشريف، فكان نعم المعين، لمعرفته بتاريخ مكة المكرمة و الحرم الشريف.

و في عام ١٣٨٣ هـ أصيب بمرض ألزيمه الفراش، فأثر على حواسه، و ظلّ معه سنين، ثم منّ الله عليه بالشفاء منه، و لكن مع اعتلال و ملازمة للعلاج، و كان مصاباً بمرض السكر الذي لازمه حتى الموت.

و لم ينقطع المرحوم عن القراءة و التأليف، خلال فترة مرضه، ما استطاع و قد فقد بصر إحدى عينيه- عاماً- قبل وفاته.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٥

اشتهر- رحمه الله- بعقّة النفس، و الاعتزاز و كرم الطبع و السخاء، مع حدة في الطبع.

غادر الفقيه الحياة، و قد عاشها عيشة الزاهدين المتقشفين، مثله مثل جيله من علماء هذه البلاد الذين انصرفوا عن الدنيا، رغم الفرص الكثيرة التي أتاحت لهم، فتركوا الحياة، و لم يملكو شبراً من أرض.

و يذكر في هذا بقول الشاعر:

كم عالم يسكن بيتاً بالكري و جاهل له قصور و قري

رحمهم الله رحمة الأبرار، و عوّض عنهم من يخلفهم من أبناء هذه البلاد، و يملأ- مراكزهم العلمية، يقتفون آثارهم، و يخلدون ذكراهم، و يحملون رسالتهم في أمانة و وفاء.

[٥] ملحق التراث يشاطر العالم الإسلامي في مصابه بالخطاط المكي محمد طاهر الكردي - كاتب مصحف مكة المكرمة

كان علماً من علماء العهد الماضي، و رائداً من رواد العلم، و حملة القرآن الكريم، و داعياً من دعاة الشريعة و الحق و الخير، قضى حياته- راضياً مطمئناً- في النفع، و الثقيف، و نشر العلم، و بذل وقته و جهده و ماله- بلا- نصب و لا- تعب- قارئاً مستقراً، كاتباً مستكتباً، لا يريد مالا و جاهاً و لا رياءً و لا سمعة، كفاء ما يقرأ، أو يكتب، أو ينشر من العلم و التقوى و القدوة الصالحة، و إنما يتبع وجه الله تعالى، و يطلب أن ينفع الله بما يعمل، و يكتبه به من العلماء المخلصين المقبولين، و يحشره مع الذين أنعم عليهم من النبيين

و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا.

و لم يزل على هذه الحال موردا عذبا للظالمين من طلبه العلم، و معنا لا ينضب بعلمه الغزير و سلوكه القويم، و نبراسا لشباب هذا الجيل الصاعد و ما يليه في الصمود على الحق، و الجدل في طلب العلم، و الصبر على مشكلات الحياة و صحة العزيمة على فعل الخير، و إسداء النفع للآخرين، حتى لقي وجه الله تعالى،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦

في جده، مساء يوم الأحد، قبل الفات، و دفن- في مكة المكرمة- بعد صلاة العصر من اليوم التالي.

إنه المرحوم الشيخ محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط، كاتب مصحف مكة المكرمة، و الخطاط بمديرية المعارف العامة بمكة المكرمة- سابقا- و الشاعر المبدع صانع المنظومة المشهورة للكعبة الشريفة، و وصفها، في مائة و تسعة و ثلاثين بيتا، و المؤلف الفذ صاحب التصانيف الكثيرة في فنون متعددة، من أظهرها فن الخط، و رسم القرآن الكريم، و تاريخه، و حكمه، و جمعه، و كتابته، و ترتيب آياته، و سوره، و ضبطه و تصحيحه، و هي فنون دقيقة فتح الله- سبحانه و تعالى- بها عليه، بعدما تجرد لكتابة المصحف الشريف، فكانت هذه الفنون جميعها- بحق- من بركة هذه الكتابة.

من أعماله المشهورة- رحمه الله- أن وفقه الله تعالى لكتابة القرآن الكريم، بخط يده، كاملا كتبه على وفاق رسم المصحف العثماني، نقلا عن المصحف الذي طبعته الحكومة المصرية، سنة ألف و ثلاثمائة و اثنتين و أربعين للهجرة، تحت إشراف مشيخة الأزهر و مشيخة المقارئ العمومية.

و قد انتهى- رحمه الله- من كتابة هذا المصحف الشريف، في ختام عام ألف و ثلاثمائة و اثنين و ستين للهجرة، فتألفت لجنة من العلماء، في المملكة، للعناية بتصحيحه، و هم السيد أحمد حامد التيجي، و الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، و السيد محمد أحمد شطا، و السيد إبراهيم سليمان النوري، و الشيخ علي محمد الضباع، فطبع باسم خ خ مصحف مكة المكرمة، فكان أول مصحف يكتب، في مكة المكرمة، في العصر الحديث، و أول مصحف يطبع- أيضا- في مكة المكرمة، أوائل سنة ١٣٦٩ هـ. و من مؤلفاته:

تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه، و هو يبحث في التعريف بالقرآن الكريم، و ما يتضمنه من الإعجاز و الشمول في الأحكام و الآيات، و في جمعه، و كتابته، و ترتيب آياته و سوره، و ضبطه، و تصحيحه، و في غرائب رسم كلماته، و حكم اتباع رسمه، و سبب نقط حروفه و تشكيلها، و هل رسمه توقيفي أم لا؟

و قد طبع هذا الكتاب طبعتين، في شركة مصطفى الحلبي للطباعة في مصر، غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ هـ و صيف عام ١٣٧٢ هـ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧

مقام إبراهيم- عليه السلام- و يتناول بناء البيت الحرام، في أدواره الأربعة:

بناء إبراهيم الخليل- عليه السلام- و بناء قريش، و بناء عبد الله بن الزبير- رضى الله عنهما- و بناء الحجاج بن يوسف الثقفي، مزدانا بصور مبتكرة للكعبة المشرفة، في هذه البناءات الأربعة وفق ما ورد في كتب التاريخ المعتمدة.

و قد طبع الكتاب، في القاهرة، طبعة واحدة، سنة ١٣٦٧ هـ.

منظومة في بناء الكعبة المشرفة، و هي منظومة لطيفة في وصف بناء البيت الحرام، في أدواره الأربعة: بناء إبراهيم الخليل- عليه السلام- و بناء قريش، و بناء عبد الله بن الزبير- رضى الله عنهما- و بناء الحجاج بن يوسف الثقفي، وضعها المؤلف لاعتقاده بأن النفوس المهذبة تستحلى سماع الشعر و إنشاد القريض، و أن الطلاب الأذكياء ترسخ- في عقولهم- الأبيات الشعرية أكثر من الثريات، و بخاصة ما كان منها سهل الوزن لطيف المعنى.

و قد نشر المؤلف هذه المنظومة مرتين، مرة في الهند أوائل سنة ١٣٦٧ هـ، و مرة في القاهرة سنة ١٣٧١ هـ. حسن الدعاية فيما ورد في الخط و أدوات الكتابة، و هو تأليف مستقل في الخط و أدوات الكتابة، يأتي على أنواع الخط، و أشكاله، و ما ورد فيها من أقوال للسلف الصالح، و في وصفها، و ذكر محاسنها، نثرًا و شعرا، و يأتي على أدوات الكتابة المختلفة، ظهورها، و تطورها و ما جاء فيها، من شعر و نثر، في أقوال السابقين. و قد طبع الكتاب في مصر، سنة ١٣٧٠ هـ. مجموعة الحرمين - كراسات في تعليم خط النسخ، كان المرحوم الشيخ محمد طاهر الكردي قد وضعها للناشئين و الراغبين في تعلم الخط النسخي، استجابة لرغبة المعارف العامة بمكة المكرمة. و قد طبعت هذه الكراسات في مصر، غير مرة.

و له - رحمه الله - عدد آخر من المؤلفات المخطوطة، التي ما تزال رهن مخاطرها في انتظار دورها في الطبع و النشر، منها: الموعظة الحسنه في عدم اليأس و الصبر و التفويض.

إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة.

تحفة العباد في حقوق الزوجين و الوالدين و الأولاد.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨

و من شعره، قوله:

كم عاقل فاضل تلقاه مضطربا و جاهل خامل تلقى به طربا
هذا له الحظ في الدنيا و ذاك له عز من الله في أخراه قد وجبا

و قوله:

لقد استراح من الحياة و كدها من الهموم و رؤية الأهوال
من مات أو من جن أو متبتل لزم القناعة صادق الأحوال

و قوله:

دع الأمر تحت القضا و القدر فما ينفع العقل لا و الحذر
فمنه رام سخطا على ما جرى فذاك الكفور و شرّ البشر

و من سلم الأمر نال المنى و ما يبتغيه و نال الظفر

فصبوا جميلا على ما قضاة الإله عساه يزيل الضرر

و لا تترك الدعاء و الطلب فإن اللطيف به قد أمر

و لا تركن بحار الهوى فإن المعاصي قرين الخطر

و قوله:

زدني بفرط الابتلاء تصبرا و الطف بما قدرته فيما جرى

يا من له عنت الوجوه جميعها حماك فالعبد الدليل تحيرا

إن لم يكن لم منك لطف شامل أو فضل إحسان عليّ مكررا

فمن الذي أرجو لكشف بليتي أو من إليه أميل من بين الوري

و الكل مفتقر إليك و سائل من فيض جودك نقطة أن تقطرا

لا أرتجى أحدا سواك و أنت لي نعم الملاذ و من رجاك استبشرا

إني سألتك و الهموم تراكمت و الدهر عاند و الزمان تنكرا

حاشا تخيب من رجاك مؤلامهما جنى أو كان فيك مقصرا
و له - رحمه الله - فى باب النثر، حكم و أمثال مبتكرة، منها:

* حركات المرء تدل على عقله.

* حفظ المعروف من المروءة.

* لا تهد شيئا لمن لا يقدره.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٩

* تقدير الأعمال يزيد نشاط العمال.

* مراعاة إحساس الأصدقاء تقوى حبل الصداقة.

* العزيز إذا افتقر هان.

* دوام العزلة يميم النشاط و الهمة.

* الاعتراف بالإحسان من كمال الإنسان.

* إذا افتقر العاقل تعرض للزلل.

* الاستبداد و القسوة يورثان البلادة و الجفوة.

* هضم الحقوق موجب للعقوق.

* لا ينهض المرء بفقره.

* الكريم إذا ضاقت به الأحوال لم يختلط بالناس.

* المال أساس النجاح.

* المال يستر العيوب.

* الكريم بلا مال كالشجاع بلا سلاح.

* الأحمق و اللئيم يضيع معهما المعروف.

* كثرة الخضوع نفاق.

* لا يشقى من حالفه الحظ.

* لا تحتقر ضعيف اليوم فقد يصبح غدا عظيما.

* لا تتودد إلى من لا يعتبرك.

* الفوضى عاقبتها الفشل.

* الصبور إذا انتقم بطش.

* الانهماك فى العمل يؤدي إلى الملل.

* من احترم غيره فقد احترم نفسه.

* الوظائف تكيف الرجال، و الرجال تنهض بها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٠

فله هذه النفس العالية، و فضائلها الجليلة، و لله هذا التكوين الموسوعى المحبب فى ثقافة الرجل، و لله هذه الهمة الأدبية، و الجلد العجيب فى خدمة كتاب الله الكريم، و لغته، فرحمه الله تعالى، رحمة واسعة، و تغمده بفضله و إحسانه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤١

تقديم الكتاب

هذا الكتاب هو تاريخ لبلد الله الأمين مكة المكرمة وبيته المطهر الشريف و لكل ما له تعلق بالمشاعر العظام و غيرها منذ عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إلى اليوم، و هو كتاب مزين بالخرائط و الصور الفوتوغرافية و الرسوم للأماكن المقدسة و الرجال البارزين و العلماء المؤرخين و تراجم كل منهم و فيه من المباحث و المسائل ما لم يذكر في أى تاريخ و فيه من مسائل الحج و المواضيع المتنوعة الشيقة ما يجذب القواد. و الحاصل أن هذا الكتاب يحتوى على المسائل التى وقعت فيما مضى من الأزمان و هو قاموس التواريخ يرجع إليه العلماء و الفضلاء فى كل ما يتعلق ببلد الله الأمين و بيته المقدس، إنه لدره ثمينه نادره فالحمد لله على إتمامه و الشكر له على إنعامه و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم.

و رحم الله تعالى من يقول:

فالبلد الأمين أعنى "مكة" أم القرى و قد يقال "بكة"

أجدر ما يخدم من بلاد لأنها شريفه التلاد

قد اعتنى بها كثير الناس من خلفا و من ملوك الناس

و كيف لا و من أتاها أمانا و من أقام مخلصا له الهنا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢

خطبة الكتاب

إشارة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم و الحليم الكريم. ربنا و رب السموات و الأرض و رب العرش العظيم، القائل فى كتابه المبين: وَ التَّيْنِ وَ الزَّيْتُونِ* وَ طُورِ سَيْنِينَ* وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ - يقسم الله تعالى عز و جل ببعض الأشياء المخلوقة القيمة، و من ضمنها هذا البلد الأمين، و المراد به مكة المكرمة شرفها الله تعالى و أدام أمنها و أمانها و خيرها و رخاءها آمين، لما فيها من بيت الله الحرام، و من الآيات البينات و المشاعر العظام.

و الصلاة و السلام المباركان الدائمان إلى يوم الدين، على شفيح الأمة و نبى الرحمة الذى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، سيدنا و نبينا "محمد" خاتم الأنبياء و المرسلين، الذى سعدت الحجاز كلها بوطء أقدامه الشريفة عليها فى سهولها و جبالها و براريها، و استأنست دوابها و وحوشها إلى شفقتة و إحسانه و مراعاته، و اطمأن أهلها و سكانها إلى لطفه و حلمه و حكمه و عدله و وفائه و دعائه، و استظلوا بظل فضله و كرمه و عظيم أخلاقه، و على آله و أمته و أصحابه الذين اختارهم الله تعالى و اصطفاهم من الخلق و زكاهم و طهرهم و رضى عنهم و وفقهم لاتباع الحق.

أما بعد، فيقول مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر بن عبد القادر الكردى المكى الخطاط عفا الله تعالى عنه و غفر له و لوالديه و للمسلمين آمين - اعلم أن التاريخ علم عظيم الفائدة كبير النفع، يطلع الإنسان على أحوال السابقين، من الأمم و الأفراد المعبرين، فيقف على حقائق الحوادث و الأمور، و يزداد فهما و علما كلما تأمل فيما بين السطور، و إلى هذا المعنى يشير بعض العلماء بقوله:

و بعد فالتاريخ علم شرفه عالية بين الأنام غرفه

و فيه ما فيه من المنافع حتى لقد قال الإمام الشافعى

فى خبر قد صح عنه نقله من حفظ التاريخ زاد عقله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٣ و هو كلام ظاهر لا شك فى صحته و سره غير خفى

فالتاريخ هو ترجمان العصور، ولسان الدهور، فالأمة التي لا تاريخ لها لا قيمة لها، ولا شك أن خير أجناس الأمم العرب، وأفضل العرب عرب الحجاز، وأفضل الحجاز الحرميين الشريفين، لأن فيهما وفي أطرافهما قریش، فليس على وجه الأرض بلدة مستقلة بدين واحد، إلا مكة والمدينة، فمنهما انتشر الإسلام وإليهما يارز الإيمان، فمكة محل ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم والمدينة موضع موته، وهما يمتازان على جميع البلدان والأقطار بما سنذكره إن شاء الله، ولا شك أن لهما من التاريخ المجيد ما هو حافل بكل طارف وتليد، وما من مسلم إلا وهو يفضلهما معترف وعارف، فكم ألفت في تاريخ هاتين البلديتين الطاهرتين من العلماء الأجلاء كتباً وأسفاراً، وكم وضعوا في فضلهما ومكانتهما مؤلفات شتى حازت قبولاً وإكباراً، من سابق الأعوام والأزمان، إلى هذا العصر والأوان.

ولقد كان من أجل نعم الله عليّ، وكل نعمائه عظيمة وجليلة، أن وفقني سبحانه وتعالى لتأليف تاريخ قيم ثمين لهذه البلدة الطاهرة مهبط الوحي الأمين، مكة المكرمة شرفها الله تعالى وحماها، بعد أن جعلني من أهلها وأدخلني في حماها، وقد سميت هذا التاريخ المبارك "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم" وقد ابتدأت في تأليف هذا التاريخ من شهر شعبان سنة ١٣٧٥ خمس وسبعين و ثلاثمائة وألف من الهجرة، وهي السنة التي ابتدأوا فيها بتوسعة المسجد الحرام في زماننا هذا وهي التوسعة السعودية.

ومن عجيب الأمور والإشارات، ما كنت أراه في المنام مراراً عديدة، وذلك قبل تألفي لهذا التاريخ بأكثر من عشر سنوات، بأني دخلت الكعبة المشرفة، أو طفت بها، أو وقفت أمام نفس حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو أنني أنظر إلى ما في الكعبة من كتابات ونقوش، أو أراني أنزل إلى جوفها تحت الأرض، وأحياناً أرى أنني بعد طوافي بالكعبة أرجع إلى ما بين زمزم والمقام أتأمل الكعبة وما حولها، وليلة أرى على الكعبة المعظمة كسوة جديدة طريفة من داخلها وخارجها، وأرى بابها قد جدد بالذهب والفضة وقد زيد في عرضها كثيراً.

وهكذا كانت رؤياي في مدة السنوات المذكورة عن المسجد الحرام وعن الكعبة المشرفة والمطاف وزمزم والمقام على هيئات مختلفة وصور وأشكال متنوعة، و كنت أتأولها خيراً وأخذ منها الفأل الحسن برضاء الله تعالى وتوفيقاته المتواليه، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٤

وبالفعل فقد وفقني الله تعالى لتأليف كتابي المطبوع بمصر المسمى "مقام إبراهيم عليه السلام" وذلك سنة (١٣٦٧) سبع وستين و ثلاثمائة وألف هجرية، وأعتقد أنه هو الكتاب الأول الذي ألف عن المقام الكريم الذي هو أمام الكعبة المعظمة.

ولم يكن يطرأ ببالي قط أنني أشتغل بتأليف تاريخ عن مكة المشرفة وخدمة بيت الله المطهر، وإذا هجس بقلبي ذلك كنت أستبعد وقوعه لما في ذلك من المشقة الكبرى والتعب العظيم؛ لأنه ليس من السهل وضع تاريخ مفصل عن هذه البلدة المقدسة الطاهرة العريقة في المجد والشرف والخير والبركة.

فلما مضت ثمان سنوات على تألفي كتاب "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام" إذا بنا نسمع أن حكومتنا السعودية قد عزمت على توسعة المسجد الحرام بمكة المشرفة، وإذا أنا قد انتخبت رسمياً أن أكون عضواً في اللجنة التنفيذية لتوسعة وعمارمة المسجد الحرام، فقلت الحمد لله وعلى بركة الله ولا بد أن يكون لي في هذا الأمر شأن يذكر، فلما كان في شهر شعبان (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس وسبعين، شرح الله تعالى صدرى لتأليف تاريخ عظيم من بلد الله الأمين (مكة المكرمة) وعن بيته المطهر (الكعبة الغراء) وعن المشاعر العظام وعن طرق الحج ومسالكه، وكلما مر يوم من شعبان ازدادت رغبتي في الاشتغال بوضع التاريخ، وإذا بي أجدني في يوم من الأيام أخذت في أسباب التأليف، وسألت الله تعالى العون والإمداد في هذا العمل المجيد، وتوكلت على الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، فكتبت أول ما كتبت من التاريخ مبحثاً عن كسوة الكعبة الداخلية والخارجية بإسهاب وترتيب مبتكر، فكنت موفقاً ولله الحمد إلى أقصى حد، وقد أتممت هذا المبحث بعد ثلاثة أشهر وهي: شعبان، ورمضان، وشوال. ولقد سررت جداً بإتمامه كما ينبغي وإن تعبت في ذلك تعباً عظيماً لا يعرفه إلا من مارس التأليف، كما قال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها

فالتأليف أمر لا يستهان به، و رب قائل يقول: ما سبب بدئك بالكتابة عن مبحث الكسوة؟ فأقول: ليس له سبب علمي ولا سبب فني وإنما هكذا جاء مبحث الكسوة من ابتداء الأمر فمشيت فيه حتى أتممتها، ولقد جرت عادتي في تأليف الكتب، أننى أكتب مباحث الكتاب و فصوله و أبوابه، حتى إذا ما انتهيت منه أرتبها ترتيبا حسنا، فالمؤلف يجب عليه أن يتبع الفتوحات الإلهية، و أن ينتهز

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥

فرصة انشراح صدره لأى مسألة من المسائل و أى مبحث من المباحث، و بهذا الترتيب لا يضيع عليه شىء من مسائل الكتاب؛ لأنه حريص على تدوين ما يفتح الله به عليه أولا فأولا، و الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

و مما يجب أن أقر و أعترف به إيماننا بتوحيد الله الحليم العظيم رب العرش العظيم، هو أن تأليفى لهذا الكتاب لم يكن إلا بمحض فضل الله تعالى و إرادته لا- بحولى ولا- بقوتى ولا بإرادتى، فإنه تعالى إذا أراد شيئا هيا أسبابه، و أعان عباده على الأمور التى أراد إظهارها، تنفيذاً لمشيئته الأزلية، و تحقيقاً لقضائه و قدره لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

و تحدثنا بنعمة الله تعالى علىّ أقول: إننى صنت كتابى هذا من كل مسألة ليست لها صحه، و من كل حادثة فيها شك أو ريب، و أننى ابتعدت عن ذكر الأمور الخرافية و الدجل كل البعد، كما أننى التزمت ذكر الحوادث بدون مبالغه و لا تزييف، فإن ذلك مما ينفى الثقة من المؤلف و يذهب من بهاء الكتاب و قيمته، و قد أعانى الله على كل ذلك بفضل و منته.

و لقد جعلت فى هذا الكتاب من الخرائط و الرسوم و الصور، ما يوضح مبهمات المسائل و الأمور، و يضىفى عليه حسن المنظر و الجمال و إنها لجديرة بالعناية و حسن الالتفات، حيث لا يوجد فى تاريخ من الصور و الرسوم ما فى هذا التاريخ العظيم منها و الحمد لله على التوفيق.

و لقد وضعت فى الكتاب أيضا كثيرا من الاقتراحات التى تتناسب مع بعض المباحث و تتفق مع مكانه هذه البلده الطاهرة، رجاء العمل بها إن شاء الله تعالى.

أما مصادر كتابى هذا، فمتعدده، فقد نقلت من الكتب المعتمده فى شتى العلوم و الفنون، ككتب التفسير، و الحديث، و التاريخ، و الأدب، و غير ذلك، و إذا نقلت شيئا نسبته إلى الكتاب الذى نقلته منه بصريح القول و العبارة، فهذا العمل أفضل و أسلم كما هو عادة العلماء من قديم الزمان. و لم أنس و لله الحمد وضع ترجمه كل من له تعلق بتاريخ مكة فى كتابى هذا، عند ذكر اسمه فى المناسبات القوية التاريخية.

فكتابى هذا قد استوعب ما وقفت عليه من تاريخ مكة، فقد جمعت فيه كل المسائل و الأبحاث القيمة المتعلقة بها، ما عدا ذكر الحروب التى وقعت بمكة، شرفها الله تعالى و حفظها من الفتن ما ظهر منها و ما بطن، فى العصور السابقة إلى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦

أن استولى عليها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله تعالى فى عصرنا الحاضر سنة (١٣٤٣ هـ) ألف و ثلاثمائة و ثلاث و أربعين، فانتشر الأمن و الأمان فيها و فى جميع المملكة، بما لم يكن فى سالف الأزمان، و لله الحمد و الشكر.

و السبب الذى من أجله تركت ذكر حوادث الحروب بمكة، هو أن ذلك يعرضنى إلى ذكر مساوى من سبقنى بالإيمان من أموات المسلمين و هم قد قدموا إلى ما عملوا، و قد قال صلى الله عليه و سلم: «اذكروا محاسن موتاكم و كفوا عن مساوئهم».

و أيضا لا بد إذا ذكرت ما وقع بين فلان و فلان أن أقع فى غيبتهم، و الغيبة حرام للأحياء و الأموات قال الله تعالى: وَلَا يَغْتَبَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

ثم إن ذكر الحروب من اختصاص المؤرخين السياسيين، و أنا لا أعرف فى السياسة شيئا منذ الصغر، فالحمد لله الذى عافانى منها لأشتغل بما هو أنفع و أصلح لمثلى، ففى الصحيحين: «كل ميسر لما خلق له». و فى المثل: للتين قوم و للجميز أقوام. فالسياسة مطلوبة

بل واجبة لكن على طبقة خاصة، و هي طبقة الملوك و الوزراء و الأمراء، الذين بيدهم الحل و العقد، ليوجهوا العباد إلى طريق الخير و السداد، و يجنبوا البلاد ويلات الحروب و الفساد، ففي الصحيحين: «كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته».

إن من ينظر في تاريخ مكة للإمام الأزرقى رحمه الله تعالى و غفر لنا و له و هو يعد أعظم تاريخ مهم لمكة المشرفة في صدر الإسلام، فالإمام الأزرقى توفى إما في أواخر القرن الثاني أو أوائل القرن الثالث للهجرة، إن من ينظر في تاريخه يجده تاريخاً مهماً محترماً محرراً في مباحثه، و ما ذكر فيه من قياس أطوال بعض الأماكن مهم جداً كقياس ما بين الكعبة و الصفا أو ما بين الصفا و المروة أو ما بين الكعبة و عرفات، و غير ذلك من الأماكن و المشاعر العظام، و كل ذلك مبين بالأدع بياناً تاماً وافياً، و لا ندرى كيف تمكن الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى و أثابه على أعماله العظيمة من تحرير كل ذلك، و الذى نعتقده أن جميع أهل هذه البلدة الطاهرة من أميرها و علمائها و أفرادها العوام و الخواص كانوا يقومون بخدمته و يساعدونه في جميع ما يطلب.

هذا و قد تحملنا الكثير من التعب و المشاق في إبراز هذا التاريخ و نرجو من الله الكبير أعظم المساعدة و المعونة، فالحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلاله و عظمته.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٧

و ختام القول: أنى أحمد الله عز و جل على توفيقاته المتواليه، و نعمائه المتتاليه، و توجيه قلبى للاشتغال بالعلوم النافعه مع ما أنا عليه من الغفلة، و التقصير في طاعة الله الملك الديان.

و الله أسأل و هو أكرم مسؤول، أن لا يحرمنى من الأجر و الثواب، فيما تركته بعدى من التأليف النافعه و بالأخص كتابتى لمصحف مكة المكرمة الذى اشتهر و عم في الآفاق، تحقيقاً لقول نبيه و رسوله محمد صلى الله عليه و سلم المروى في صحيح مسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

كما أسأله سبحانه و تعالى أن يجعل لى في الدارين اسماً طاهراً، و ذكراً مباركاً حسناً، و عملاً متقبلاً، فالإنسان تاريخ نفسه، فإنه يموت و يفنى و يبقى ذكره و آثاره، و قصصه و أخباره، و ما أحلى قول الشاعر:

إن المآثر في الورى ذرية يفنى مؤثرها و يبقى ذكرها

فترى الكريم كشمعة من عنبر ضاءت فإن طفئت تظوع نشرها

إملاً الدنيا بما تستطيع من عمل يبقى إذا العمر ذهب

إنما الأعمال تاريخ الفتى تقرأ الأجيال فيه ما كتب

و قول الآخر:

ما تنسج الأيدى يبيد و إنما يبقى لنا ما تنسج الأقلام

و قال بعضهم:

ليس للإنسان إلا ما سعى و جزاء المرء من جنس العمل

و إنى بحمد الله تعالى قد اشتغلت بالتأليف في مختلف العلوم و الفنون، منذ أربعين سنة حتى بلغت مؤلفاتى نحو أربعين كتاباً أجلاًها و أعظمها كتابتى لمصحف مكة المكرمة و هو مطبوع منتشر، و تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه و هو مطبوع أيضاً، و التفسير المكي و سيطبع قريباً إن شاء الله تعالى، و غير ذلك من المؤلفات التى سنينها في آخر هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، و إنه ليحق لى أن أتمثل بقول الشاعر:

صرفت زماناً في فنون جمعتها و أفرغت جهدى و الجنون فنون

فلما تجلى الأمر و انكشف الغطاءتين لى أن الفنون جنون

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٨

هذا وقد اعتنى كثير من العلماء الفضلاء بوضع تاريخ لمكة المكرمة منذ العصور الأولى إلى زماننا هذا كالشيخ سلامة و الشيخ الغازي و الأستاذ أحمد السباعي، و من المتقدمين الإمام الأزرقى و الإمام الفاكهى و العلامة الفاسى و العلامة القطبى و غيرهم رحمهم الله تعالى جميعا، كما سنذكر أسماء المؤلفات بعد هذه الخطبة، فالحمد لله الذى ألحقنى بهم و وفقنى لخدمه هذه البلاد المقدسه، و إلى هذا نشير بقولنا:

فالبلد الأمين أعنى "مكة" أم القرى و قد يقال "بكة"

أجدر ما يخدم من بلاد لأنها شريفه التلاد

قد اعتنى بها كثير الناس من خلفا و من ملوك الناس

و كيف لا و من أتاها أمانا من أقام مخلصا له الهنا

و لقد سافرت إلى مصر من مكة المشرفة مرارا عديدة، و تسجيلا لإحدى هذه الزيارات لمصر أضع صورتى المأخوذة هناك عام ١٣٦٧ هـ للذكرى و الاعتبار و طلبا لدعاء إخوانى المسلمين بالمغفرة و الرحمة فى الحياء و بعد الممات و هى هنا تحت صورة والدى.

هذا و إن من الواجب على الإنسان أن يشكر من أسدى إليه معروفا و أن يكافئه و يدعو له بخير، و أولى الناس بالشكر و الدعاء أب الإنسان و أمه، كما قال تعالى فى كتابه العزيز فى سورة لقمان: وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَ لِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ و قال عز شأنه فى سورة الإسراء عن الوالدين و معاملتهما بالإحسان: وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا.

فإنى لا أنسى والدى من الدعاء بالمغفرة و الرحمة فى كل وقت، أما والدى التى توفيت فى أوائل عام (١٣٣٤) هجرية و دفنت بمكة بمقبرة المعلا- و أنا دون البلوغ، فإنى لا أنسى حنانها و محبتها و بالغ خدمتها و رعايتها، فقد كانت من الصالحات و فضليات النساء حقا. و أما والدى الشيخ عبد القادر الكردى الذى توفى فى اليوم التاسع من شهر رجب عام (١٣٦٥) هجرية و دفن بالطائف بالمقبرة التى بجوار مسجد ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، و قد بلغ التسعين عاما و كان صالحا فى غاية الاستقامة، فإنى لا أنسى حسن تربيته و رعايته و عظيم عنايته بتعليمى، فلقد أدخلنى رحمه الله تعالى مدرسة الفلاح بمكة المشرفة منذ نعومة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩

أطفارى، فلما تخرجت منها أخذنى بنفسه فى أول سنة (١٣٤٠) ألف و ثلاثمائة و أربعين هجرية إلى مصر و أدخلنى الأزهر الشريف لأتعلم العلم فيه، ثم تركنى و رجع إلى مكة المكرمة بعد شهرين- فهناك تعلمت العلم و المعرفة و تربيت بين الرجال البارزين فى العلم و الصلاح- و إليك صورة و الذى أضعها هنا تخليدا لذكره و تسجيلا لأيامه البيضاء على- و إنى لا أنسى و الذى لا و والدى من الدعاء عقب الصلوات فى كل يوم، اللهم ارحمهما رحمة الأبرار، و ألحقنى بهما على الإيمان الكامل بطهارة و نظافة و راحة تامه، و اجعل موتى فى بلدك الأمين فى أشرف الأوقات و أشرف الساعات أمين يا رب العالمين. و صلى الله و سلم على النبى الأمين و على آله و صحبه أجمعين.

انظر: صورة رقم ١، الشيخ عبد القادر الكردى المتوفى سنة ١٢٦٥ هـ

انظر: صورة رقم ٢، لمؤلف الكتاب الشيخ محمد طاهر كردى الخطاط

و نختم كلامنا هذا بالدعاء الآتى: نسأل الله الحليم العظيم رب العرش العظيم أن يتقبل منا صالح الأعمال، و أن يعاملنا بما هو أهله من الرحمة و الإحسان و العفو و الغفران، و أن يحشرنا فى زمرة النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا، اللهم يا حليم يا عظيم يا رب العرش العظيم، أمتعننى بسمعى و بصرى و عقلى و قوتى و احفظ على إيمانى و عقيدتى، و احفظنى فى أهلى و أولادى، و استرنا فى الدارين بستر ك الجميل، و ارزقنا رزقا حلالا و اسعنا مع التوفيق فى الإنفاق منه بدون طغيان و لا عصيان، و لا تشمت بنا الأعداء، و توفنى مسلما و أنت عنى راض براحه تامه و طهارة و نظافة، و تلقنى يوم ألقاك بالعفو و الغفران، و الرحمة و

الإحسان فأنت العزيز الحكيم و الكريم الرحيم، و أنت على كل شىء قدير. اللهم صل على نبيك و عبدك و صفوتك من خلقك، نبي الرحمة و شفيع الأمة سيدنا و مولانا "محمد" و على آله و أصحابه و أزواجه و ذريته، و سلم تسليما كثيرا، و الحمد لله رب العالمين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، و سلام على المرسلين. و الحمد لله رب العالمين.

كتبه مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط عفا الله عنه و غفر له و لوالديه و للمسلمين آمين التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٠

بعض أسماء الكتب التي ألفت في تاريخ مكة المشرفة و وقفنا عليها و ربما هناك غيرها في بعض البلدان لم نطلع عليها

عدد/ اسم الكتاب/ اسم المؤلف ١ و ٢/ تاريخ الكعبة المعظمة، و تاريخ عمارة المسجد الحرام. و مؤلفهما من أهل عصرنا، و هذان الكتابان مطبوعان. / كلاهما للشيخ حسين عبد الله باسلامة
٣/ إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، و هو غير مطبوع. / للشيخ عبد الله الغازي
٤/ تاريخ مكة، و هو كتاب مطبوع. / للأستاذ أحمد السباعي
٥/ التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، و هو هذا الكتاب.
قدمنا هذه المؤلفات لأن مؤلفيها كانوا في عصر واحد. / للشيخ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط
٦/ أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار و هو كتاب مطبوع و مؤلفه من أهل القرن الثاني أو الثالث. / للإمام أبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى

٧/ شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام، و هو كتاب مطبوع. / للعلامة تقي الدين الفاسي
٨/ الجامع اللطيف في فضل مكة و أهلها و بناء البيت الشريف. / للعلامة ابن ظهيرة القرشي
٩/ كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام و هو (التاريخ القطبي) و هو كتاب مطبوع. / للعلامة قطب الدين الحنفى
١٠/ مرآة الحرمين، و هو كتاب / لإبراهيم رفعت باشا المصرى
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١
مطبوع باللغة العربية. /

١١/ مرآة الحرمين، و هو كتاب مطبوع باللغة التركية. / لأيوب صبرى باشا التركى
١٢/ إتحاف الورى بأخبار أم القرى. / للعلامة نجم الدين عمر بن فهد
١٣/ إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ و لاية ابن الحسن. / للشيخ محمد بن فضل الطبرى
١٤/ الإنعام على أعلام الأنام. / للشيخ حسن بن عبد القادر الشيبى
١٥/ إثارة الشجون لزيارة الحجون. / للعلامة الفيروز آبادى
١٦/ إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام. /
١٧/ إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام. / للشيخ محمد صالح الشيبى
١٨/ بلوغ القرى فى ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى. / للعلامة الشيخ عبد العزيز بن عمر بن فهد المكى.
١٩/ تحصيل المرام فى أخبار البيت الحرام و المشاعر العظام. / للشيخ محمد بن أحمد الصباغ المكى
٢٠/ خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام. / للعلامة السيد أحمد دحلان
٢١/ درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج و طريق مكة المعظمة. / للشيخ عبد القادر بن محمد الأنصارى الجزائرى

٢٢/ دليل الحج للوارد إلى مكة و المدينة من كل فج. / لمحمد باشا صادق

٢٣/ الخلاصة المفيدة لأحوال عين زبيدة. / للشيخ عبد القادر ملا قلندر

٢٤/ الرحلة الحجازية. / لمحمد سليم

٢٥/ سمط النجوم العوالى فى أبناء الأوائل و التوالى، و هو كتاب مطبوع. / للعلامة عبد الملك بن حسين العصامى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٢

٢٦/ منائح الكرم بأخبار مكة و ولاية الحرم. / للعلامة الشيخ على السنجارى

٢٧/ القرى لقاصد أم القرى، و هو كتاب مطبوع. / للعلامة الطبرى

٢٨/ نشر النور و الزهور فى تراجم أهل مكة المشرفة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر. / للشيخ عبد الله بن أحمد أبى الخير

٢٩/ نشر الآس فى فضائل زمزم و سقاية العباس. / للشيخ خليفة ابن فرج البيضاوى

٣٠/ كتاب الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف. / للأمر شكيب أرسلان

٣١/ العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين / لابن عبد ربه

٣٢/ تحفة اللطائف فى فضائل الجد ابن عباس و الطائف. / للعلامة محمد جار الدين بن فهد

٣٣/ كتاب إهداء اللطائف من أخبار الطائف. / للشيخ حسن بن على العجمى المكى

٣٤/ كتاب نشر اللطائف فى قطر الطائف. / للشيخ نور الدين على بن محمد الشامى

٣٥/ رسالة فى فضائل ابن عباس و الطائف. / للشيخ محمد بن عبد الكريم القنوى

٣٦/ الجواهر المعدة فى فضائل جدة. / للشيخ أحمد الحضراوى

٣٧/ السلاح و العدة فى تاريخ جدة. / للشيخ عبد القادر أحمد الخطيب

٣٨/ تاريخ جدة، و هو مطبوع سنة ١٣٨٣. / للأستاذ عبد القدوس الأنصارى

هذه بعض المؤلفات التى وقفنا عليها فى تاريخ مكة المشرفة، و هناك مؤلفات أخرى لها منتشرة فى مكتبات العالم الإسلامى لم نقف

عليها، بل إن بعض البلاد الإفرنجية يعتنى مستشرقوهم بالتأليف عن مكة المشرفة، فإنه قد طبع تاريخ مكة فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٣

أربع مجلدات فى مدينة (لييسك). فالناس من أقدم العصور يعتنون ببلد الله الحرام أشد الاعتناء و هذا هو الواجب الدينى نحو مكة

المكرمة كما قلنا فيما تقدم:

أجدر ما يخدم من بلاد لأنها شريفة التلاد

قد اعتنى بها كثير الناس من خلفا و من ملوك الناس

و قد ذكرنا هنا بعض المؤلفات فى تاريخ جدة و تاريخ الطائف زيادة فى الفائدة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤

تراجم مؤرخى مكة المشرفة فى عصرنا الحاضر و كلهم من أهل مكة المكرمة

إشارة

هنا يجب أن نذكر تراجم مؤرخى مكة المكرمة فى عصرنا الحاضر، وفاء بحقهم و احتراماً لذكورهم و تسجيلاً لعملهم المجيد الباقى،

راجين من الله الكبير المتعال أن يجزل لهم الثواب، وأن يجعلهم من سعداء الدارين، وأن يدخلهم الجنة بسلام آمين، بفضلته ورحمته آمين، ولنا مع جميعهم صحبة و صداقة ما عدا الشيخ حسين عبد الله باسلامة الذي اجتمعنا به مرة أو مرتين اجتماعا خفيفا قبل وفاته.

ولابد أن نتشرف بذكر شيخ المؤرخين و أقدمهم استطرادا، فإنه من أهل القرون الثلاثة الأولى الذين هم خير القرون، وهو الإمام الأزرقى صاحب تاريخ مكة، عامله الله تعالى و إيانا بلطفه و رحمته، فنقول و بالله التوفيق و هو نعم المولى و نعم المصير. و ربما نذكر أيضا بعض المؤرخين فى أواخر الكتاب.

ترجمة الإمام الأزرقى المكى من أهل القرن الثانى للهجرة و هو عربى صميم

كتب صاحب المعالى البحاثة المحقق الأستاذ رشدى الصالح ملحق رحمة الله تعالى فى مقدمته تاريخ الأزرقى المسمى "أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار" المطبوع بالمطبعة الماجدية بمكة المشرفة فى عام ١٣٥٣ من الهجرة- ترجمة وافية قيمة للإمام فى بضعة أوراق- نلخصها فيما يأتى:

هو أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى الغسانى المكى- ولد رحمه الله تعالى فى مكة المكرمة فى القرن الثانى و لم يعرف بالضبط تاريخ ولادته، و قد اختلف فى تاريخ وفاته و لا نريد إكثار الكلام بذكر روايات الاختلاف، و إنما نجمل القول فى أنه توفى فى منتصف القرن الثالث للهجرة، أى فى سنة (٢٤٥) خمس و أربعين و مائتين تقريبا.

و يعد كتابه المذكور "أخبار مكة" من أهم ما ألف فى هذا الشأن و من أقدم كتب التاريخ عن مكة المكرمة، و كثير من المؤرخين يستند إلى كتابه المذكور، و كان من عناية الأقدمين به أن بعضهم اختصره و بعضهم نظمه. فالإسفرائلى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥

المكى أحد علماء القرن الثامن للهجرة اختصر تاريخ الأزرقى و سمي هذا المختصر "زبد الأعمال و خلاصة الأفعال" و يوجد من هذا المختصر ثلاث نسخ، (إحداها) بمكتبة الحرم المكى (تاريخ رقم ٦٤-٢٣٤) و تقع فى ١٩٦ ورقة (و ثانيها) توجد فى المتحف البريطانى بلندن (و ثالثها) توجد فى باريس.

و اختصر تاريخ الأزرقى الكرمانى المصرى من علماء القرن التاسع، و سمي هذا المختصر "تاريخ مكة المشرفة" و توجد من هذا المختصر نسخة واحدة فى برلين.

أما الذى نظم تاريخ الأزرقى "أخبار مكة" عبد الملك بن أحمد الأنصارى الأرماتى المولود بأرمنت و المتوفى بقوص بمصر سنة (٧٢٢).

و كان من فقهاء الشافعية، شاعرا أدبيا خفيف الروح، و قد سمي منظومته هذه "نظم تاريخ مكة للأزرقى فى أرجوزة" و هذه المنظومة مفقودة، و حبذا لو عثرنا عليها.

أما تاريخ طبع الأزرقى "أخبار مكة" فقد طبع مرتين (الأولى) الطبعة الأوروبية طبعه المستشرق الألمانى "فردينان و ستفيلد" فى ليبسك بألمانيا. فى عام ١٨٥٨ للميلاد (الموافق) لعام ١٢٧٥ للهجرة.

(الثانية) الطبعة المكية. و ذلك بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة فى سنة "١٣٥٢" هجرية، و قد صحح هذه الطبعة و علق حواشيه و وضع فهرسها معالى الأستاذ رشدى ملحق المذكور، و الحقيقة أنه لقي عناء شديدا فى تصحيحه و تهميشه لهذا الكتاب الفريد، حتى أخرجته للأمم الإسلامية بهذا الثوب القشيب، جزاه الله خير الجزاء و أكثر من أمثاله العاملين المخلصين.

و هنا نقطة دقيقة فى فضل الإمام الأزرقى قل من يتبته لها، يجب أن نذكرها بالإعجاب و الدعاء له رحمه الله تعالى و ألحقنا به على

الإيمان الكامل غير فائتين ولا مفتونين بفضلته ورحمته. وهي:

إن الأزرقى يذكر الأماكن المهمة والمواضع المقدسة والمشاعر العظام، يذكرها بدقة تامة مع تفاصيل قياساتها محررة مضبوطة - فهو يذكر ذراع الكعبة المشرفة من داخلها وخارجها، وذراع ما فيها من الأسطوانات وذراع ما بين كل منها، وصفة درجاتها الموصلة إلى سطحها، وصفة المسامير التي بداخل الكعبة وعددها، وعدد الرخامات المفروشة بأرض الكعبة، وكم رخامة في كل جهة وكم رخامة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦

بين كل أسطوانة وأسطوانة، وصفة باب الكعبة وعدد مساميرها الملبسة بالذهب وصفة كل ذلك، وصفة شاذروان الكعبة وعدده، وصفة حجر إسماعيل وذراعها، وذراع طوق الحجر الأسود.

وكذلك ذراع مقام إبراهيم وصفته، وذراع بئر زمزم وحجرتها، وذراع المسجد الحرام وعدد أساطينه وصفة الأساطين، وعدد طاقاته وصفته وذراعها، وعدد أبواب المسجد الحرام وصفته وذراعها، وعدد شرافاته وذراع جدرانها، وعدد مناراتها وصفته، وعدد قناديل المسجد الحرام والثريات التي فيه، وذراع ما بين الركن الأسود إلى الصفا، وذراع ما بين الصفا والمروة، وصفة مسجد منى وذراعها وأبوابها، وذراع منى والجمار ومأزمية منى إلى حد محسّر، وذراع ما بين مزدلفة إلى منى، وذراع مسجد مزدلفة وصفة أبوابها، وذراع ما بين مزدلفة إلى عرفات، ومأزمية عرفة، ومسجد عرفة وأبوابه والحرم والموقف، وعدد الأميال من المسجد الحرام إلى موقف الإمام بعرفة وذكر مواضعها. إلى غير ذلك مما يتعذر علينا استقصاؤه - هذا غير ما في تاريخه من الأمور والمسائل المهمة التي لا تعد ولا تحصى.

هذا وإن المتأمل في تاريخ الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى ليقف حيران كيف قام بتحقيق هذه المسائل صغيرها وجليها، ومن أين أتى بكل هذه المعلومات القيمة التي نرجع إليها الآن وقد مضى على وفاته أكثر من ألف عام ولا تزال المرجع الأول والدليل الذي عليه المعول إلى قيام الساعة.

فهل كان مع الإمام الأزرقى لجنة من بضعة من العلماء يشاركونه التأليف - كلا - فلو كان كذلك لذكره الأزرقى بدون شك، وكيف كان رحمه الله يأخذ قياسات الأماكن في أطراف مكة بل في أطراف الحرم، ولئن خفّ عليه أخذ قياس الكعبة والمسجد الحرام، فهل خفّ عليه أيضا ذراع ما بين المسجد الحرام إلى منى فمزدلفة فعرفات وما بين كل ذلك من المساجد والأماكن، وكيف كان يذرع هذه المسافات الطويلة ولم تكن في زمنه سيارات ولا أمتار مطبوعة منظمه، ولا آلات مقربة للمسافات وأخذة للقياسات. إن المتأمل في كل ذلك يقف حائرا معجبا داعيا له رحمه الله تعالى بالعفو والغفران، والثواب على عمله والإحسان، وأن يدخله الله تعالى فسيح جناته إنه بعباده لطيف خبير.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٧

وختم الكلام نقول: إن تاريخ الإمام الأزرقى "أخبار مكة" كتاب كالموسم المحيط فيه من الفوائد والمسائل المهمة ما لا يعد ولا يحصى، وعليه يعتمد العلماء المحققون والمؤرخون الباحثون - فحبذا لو أن بعض الجهات العلمية وضعت جوائز سخية لمن يتقدم بتلخيصه وتهذيبه وحذف أسانيده ورواياته المتكررة في معنى واحد، ثم تبويبه وترتيب فصوله وأبحاثه، على أحدث طرق التأليف في عصرنا الحاضر، وبذلك تكون الفائدة أعم والنفع شامل، وتجتمع المسائل المتفرقة في مبحث واحد، وتنضم الأمور المشتتة في باب واحد.

فنرجو الله تعالى أن يجعل في اقتراحنا هذا قبولا في المستقبل القريب بفضلته وتوفيقه آمين.

الشيخ حسين بن عبد الله باسلامة الحضرمي المكي كان عضوا في مجلس الشورى بمكة المشرفة في العهد السعودي و توفي بالطائف سنة (١٣٥٦) هجرية.

كان عالما فاضلا نزيها، له عدة مؤلفات، منها كتاب تاريخ الكعبة المعظمة، و منها كتاب عمارة المسجد الحرام، و منها كتاب حياة سيد العرب، و منها كتاب الإسلام في نظر أعلام الغرب، و منها كتاب الجواهر اللامع جمع فيه حكم الإمام الشافعي. رحمه الله تعالى و أحسن مثواه و جعل الجنة مأوانا و مأواه آمين.
انظر: صورة رقم ٣، الشيخ حسين بن عبد الله باسلامه

ترجمة الشيخ عبد الله الغازي المكي

الشيخ عبد الله بن محمد الغازي الهندي المكي. هو عالم فاضل و صالح كامل، و كان جارنا بمكة المشرفة، و كان يسكن برباط محمد باشا الذي هدمته الحكومة السعودية، و كان قد اتخذ بأسفل هذا الرباط أي عند بابه و درجته دكانا صغيرا يبيع فيه أدوات الكتابة من الورق و الأقلام و الحبر و الكحل و الصباغ و نحوها، و كان هذا دأبه و حرفته قانعا باليسير من الرزق، و كان يعمل أمينا لمكتبة مدرسة الصولتية التي بحارة الباب، إلى أن توفي رحمه الله تعالى بمكة في الخامس من شهر شعبان سنة (١٣٦٥) خمس و ستين و ثلاثمائة و ألف هجرية و دفن بمقبرة المعلا رحمه الله تعالى، و قد خلف ثلاثة من الذكور هم الشيخ عبد الرحمن و هذا أكبرهم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٨

و أصلحهم و أحسنهم ثم صالح ثم عبد اللطيف، و لقد توفي الأول و الثاني و لهما ذرية، و الثالث الأخير على قيد الحياة حفظه الله تعالى و رحم الله من مات منهم، و لقد كان والدهم أحسن الله مثواه دائم الاشتغال بالتأليف ليلا و نهارا كما شاهدناه بأنفسنا، و للشيخ عبد الله غازي المذكور رحمه الله تعالى مؤلفات قيمة منها: إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، و هو أربع مجلدات، و منها مجموع الأفكار من أحاديث النبي المختار، و منها رسالة في ذم اللعب و الملاهي المسماة "بكشف ما يجب من اللهو و اللعب" و منها رسالة في الفرائض، و منها كتاب في تراجم العلماء من المكيين و غيرهم من الذين ماتوا بمكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر. و منها رسالة ذيل الدرر، و هي تتمه تراجم العلماء في قرنه ليكون ذيلا للكتاب المتقدم، إلى غير ذلك من المؤلفات النافعة.

رحمه الله تعالى و أحسن جزاءه آمين، و وفق بعض الفضلاء لطبع تاريخه القيم النادر، فتاريخه مهم جدا لا يوجد مثله، فنسأل الله أن يقيض من يطبعه و ينشره بين المسلمين؛ لأن كثرة التواريخ و كثرة تنوعها لمكة المكرمة دليل على شرفها العظيم و مكانتها السامية، و رحم الله القائل:

واعلم بأن كثرة التاريخ لمكة شديدة الشموخ

دلالة أن لها من الشرف ما قد يجبل وصفه لمن عرف

هذا و لقد سمعنا من الثقات أن الأمريكان المقيمين "بالظهران" بالظاء المعجمة بالمملكة العربية السعودية، قد أخذوا لتاريخ الغازي صوراً فوتوغرافية لجميع التاريخ، أخذوا لكل صحيفة صورة مصغرة بحجم علبة الكبريت، و ذلك بعد وفاة مؤلفه الشيخ عبد الله غازي رحمه الله تعالى، و بعد استئذان أولاده الذين كانوا يشتغلون عندهم في الظهران و بعد إعطائهم مكافأة سخية.

كما سمعنا من الثقات أيضا أن بعض من لا- ضمير عندهم هنا، استنسخوا تاريخ الغازي ثم حرقوا بعض مباحثه و علقوا عليها ما يشتهون، و لا يخفى أن هذا يسمى خيانة علمية لا تغتفر، و هذه الخيانات العلمية تقع في كل عصر، و قد رأينا من تبّه على هذه المسألة

من كبار العلماء الأجلاء المتقدمين، و حذروا العقلاء و ألفتوا نظرهم إلى تمييز الخبيث من الطيب في مؤلفاتهم، فلا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم، فالسرقات الشعرية و السرقات الأدبية أخف بكثير من السرقات العلمية و التاريخية، نسأل الله تعالى الهداية و الحفظ من الغواية آمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٩
انظر: صورة رقم ٤، الشيخ عبد الله الغازي المكي

ترجمة الأستاذ أحمد السباعي المكي

صديقنا الأستاذ أحمد السباعي أديب كبير و مؤرخ شهير و إنه من أديب عصره و نبغاء دهره، ولد حفظه الله تعالى عام (١٣٢٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاثة و عشرين من الهجرة، و درس و حفظ القرآن الكريم في عدة كتاتيب و مدارس بمكة شرفها الله تعالى ككتاب الشيخ محمد الخياط التي كانت بالقناب و المدرسة الخيرية الهاشمية التي كانت أمام باب السلام، و أخيرا المدرسة الراقية التي كانت بجبل هندی و قد تخرج منها.

ثم تعين أستاذاً لتحفيظ القرآن الكريم بالمدرسة الخيرية، ثم تعين مديراً لمدرسة دار الفائزين بالمسيال، ثم اشتغل بوظيفة التدريس بعدة مدارس، و في أثناء ذلك تعلق بالأدب فنشر عدة مقالات بالجرائد المحلية، و قد اشتغل محرراً بجريدة "صوت الحجاز" ثم أسندت إليه إدارتها، و شغل في صدر شبابه بعض الوظائف الشرفية، و أخيراً انتقل منها إلى وزارة المالية مفتشاً بها، و قد ترقى الآن إلى وظيفة ممثل مالي.

و قد أسس المذكور من بضع سنوات مطبعة تسمى "مطبعة الحرم" بمحلة أجياد، و قد أعطى امتيازاً بإخراج جريدة يومية في أول عام (١٣٧٦) باسم "جريدة الندوة" و قد صدر أول عدد منها في اليوم الثامن من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) و لا زالت تصدر و تؤدي رسالتها و واجباتها على أكمل وجه.

و لا يزال قلم الأستاذ السباعي يجول في ميادين العلم و الأدب حتى أخرج لنا من المؤلفات المطبوعة ما يأتي:

١- تاريخ مكة- و هو كتاب قيم ألفه بأسلوبه الأدبي على نمط لم يسبقه إليه أحد، و ذكر فيه أشهر بيوتات مكة، و قبائل العرب و بعض النواحي السياسية.

٢- المرشد إلى الحج و الزيارة.

٣- سلسلة سلم القراء- ستة أجزاء.

٤- مطوفون و حجاج "قصة".

٥- فلسفة الجن "قصة".

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦٠

٦- أبو زامل "قصة".

٧- فكرة "قصة".

٨- صحيفة السوابق "قصة".

٩- يوميات مجنون.

١٠- دعونا نمشي.

هذه نبذة صغيرة عن ترجمة الأستاذ السباعي، نسأل الله تعالى لنا و له التوفيق لكل ما فيه الخير آمين.

و بعد أن ذكرنا ما تقدم عن صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد السباعي، طلبنا منه أن يكتب لنا نبذة عن حياته العامرة بالأعمال، فكتب لنا ما يأتي:

ولدت عام ١٣٢٣ هـ. بمكة و نشأت فيها، و درجت إلى أول (كتاب) في زقاق (الشيش)، ثم التحقت بكتاب آخر في القبان، ثم ثالث في باب الدريية، و رابع في جبل هندی، و ظلت معارفی في كل هذه الكتابيب لا تتخطى (الألف باء).

و لما أسس الشريف الحسين بن علي أول مدرسة بعد نهضته المعروفة سنة ١٣٣٤ هـ و هي المدرسة الخيرية التحضيرية الهاشمية التحقت بها و ظلت فيها إلى أن انتهيت من القسم التحضيري. ثم اختار لي والدي أن ألتحق بقسم حفاظ القرآن الكريم بنفس المدرسة، فمكثت فيه نحو ٣ سنوات حفظت أثناءها القرآن كأجود ما يكون الحفظ على يد فضيلة الشيخ أحمد زهر الليالي، و التحقت بعد ذلك بالمدرسة الراقية الهاشمية التي كان الحسين بن علي قد أسسها قبل ذلك بسنوات قليلة. و ظلت فيها إلى أن توفي والدي سنة ١٣٣٧ هـ، فاضطرت إلى ترك الدراسة فيها قبل السنة النهائية، و اختلطت بأعمال السوق بحثا عما يسدعوز عائلتي بعد وفاة والدي. و في عام ١٣٣٨ هـ اختارتني مديرية المعارف الهاشمية للتدريس في المدرسة الخيرية الهاشمية، و سني لا يتجاوز آنذاك السابعة عشر عاما، ثم عينت فيها معلما لصف الحفاظ و بقيت في مهنة التدريس أنقل من مدرسة إلى أخرى نحو ١٣ سنة حيث أدركتني خلال هذه المدة هوية الأدب و أنا شاب كامل الاستواء، فتعشقت القراءة في سائر ألوانها و نهلت من معارف الكتب ما لا يوفيه حصر. و استطعت أن أختلط بأكثر الأفكار جده في الحياة و أدب علي مناقشتها في فصول طوال كانت تنشرها صحف بلادى المحلية، و قبل أن أترك الدراسة بنحو

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦١

عامين اشتغلت محررا في جريدة (صوت الحجاز) تحت إدارة الشيخ محمد نصيف، و بانتقال الجريدة إلى الشركة العربية للطبع و النشر سنة ١٣٥٢ هـ برئاسة الشيخ محمد سرور الصبان اختارني رئيس الشركة مديرا للجريدة. فتركت فن التدريس و اشتغلت بالصحافة مديرا للجريدة ثم رئيسا لتحريرها و قد ظلت كذلك إلى نهاية عام ١٣٥٩.

و تقلبت في تضاعيف ذلك بين عدة وظائف خيرية فاشتغلت عضوا و سكرتيرا في عدة جمعيات من أهمها جمعية (تشجيع الطيران) و جمعية الإسعاف ثم عضوا في لجنة وضع المناهج بوزارة المعارف و عضوا في لجنة تنسيق مكتبة الحرم.

ثم زاوت أعمالا تجارية نحو سنتين تركت بعدها التجارة إلى العمل الحكومي مرة أخرى كمفتش بوزارة المالية أول عام ١٣٦١ هـ. و عندما أسست الحكومة دار الإذاعة في جدة عام ١٣٦٨ هـ نددتني وزارة المالية بالاشتراك مع بعض الشباب لتأسيس الإذاعة بوظيفة سكرتير عام بالإذاعة، فزاوت العمل فيها أشهر، ثم عدت إلى وزارة المالية لأفكر في تأسيس مطبعة لحسابي أسميتها مطبعة الحرم فأنشأتها عام ١٣٧٠ هـ و لم تمض سنتان على نشأتها حتى رقيت إلى وظيفة ممثل مالي أحلت بعدها بشهور إلى التقاعد. و تقدمت بطلب إلى الجهات المختصة بمنحى امتياز إصدار جريدة يومية باسم (الندوة) و بذلك تبدل اسم مطبعة الحرم إلى مطبعة (الندوة). و صدرت الندوة عام ١٣٧٧ هـ مرتين في الأسبوع، ثم ثلاث مرات، و فيما أنا أفكر في إصدارها يومية: إذا بالحكومة تصدر قرارا بإدماج الصحف في بعضها البعض بحيث لا تصدر أكثر من جريدة واحدة في كل مدينة من مدن المملكة.

و دمجت جريدة الندوة بموجب هذا القرار في جريدة حراء لصاحبها محمد جمال، و أصبحتا تصدران في صحيفة واحدة أسميناها الندوة، و بعد مرور بضعة شهور بعث حصتي في الشركة الجديدة و أصبحت جريدة الندوة ملكا للأستاذ صالح جمال.

و مضى على ذلك نحو سنة و نصف السنة استأذنت بعدها في إصدار مجلة باسم (قريش)، فصدرت الأوامر بالموافقة و ظهر أول عدد منها في غرة جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ هـ و ظلت على ذلك حتى دخلت في سنتها الخامسة، ثم صدرت الأوامر بنقل امتيازات الصحف إلى مؤسسات أهلية و بذلك وقعت عن الصدور.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦٢

وقد زاولت التأليف المدرسى أول ما علقت التأليف. فكانت سلسلتى (سلم القراءة العربية) أول مؤلف وطنى عرفته مدارس بلادنا. ثم أنشأت فى التاريخ و الأدب و القصة مؤلفات عديدة. ثم بعد هذا كتب لنا حفظه الله تعالى أسماء مؤلفاته و هى التى ذكرناها، نرجو الله تعالى لنا و له العفو و العافية و التوفيق لصالح الأعمال آمين. انظر: صورة رقم ٥، الشيخ أحمد السباعى.

ترجمة محمد طاهر الكردى المكى الخطاط

هو محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود الكردى المكى الخطاط، من مكة المشرفة، ولد سنة (١٣٢١ هـ)، و طبع هذا التاريخ سنة (١٣٨٥ هـ). تعلم فى مدرسة الفلاح بمكة المشرفة منذ صغره بعد تأسيسها ببضع سنوات، و لم يدخل فى كتابت و لا مدارس أخرى غيرها، و تخرج منها فى عام (١٣٣٩) من الهجرة، ثم فى أول عام (١٣٤٠ هـ) أخذه والده رحمه الله تعالى إلى القاهرة ليتعلم العلم فى الأزهر الشريف، فاشتغل هناك بالعلوم الدينيه و العربيه، و لم يتعلم شيئا من اللغات الأجنبية قط، كما اشتغل بتعلم الخطوط العربيه بأنواعها و ما يتعلق بها من الرسم و الزخرفة و التذهيب، و ذلك بمدرسه تحسين الخطوط العربيه الملكيه، فلما رجع من مصر إلى مكة المشرفة اشتغل بتعليم الخط العربى بالمدارس و لذلك يعرف "بالخطاط". و بتوفيق العزيز الحكيم انقطع المذكور إلى الاشتغال بتأليف الكتب النافعه من مختلف العلوم و الفنون، فقد ألف نحو أربعين كتابا طبع منها نصفها تقريبا.

أعظمها: التفسير المكى و هو فى أربع مجلدات، ثم التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم و هو فى مجلدين، ثم تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه، ثم تاريخ الخط العربى و آدابه، إلى غير ذلك. التى ذكرناها بآخر هذا الكتاب، و إن أعظم شىء عمله المذكور هو كتابته لمصحف مكة المكرمة و طبعه بها، إنه ليرجو الله تبارك و تعالى أن يجعله عملا مبرورا خالصا لوجهه الكريم، و أن يتقبل منا صالح الأعمال، و أن يعاملنا بما هو أهله لا بما نحن أهله بفضلله و رحمته، إنه كريم حلیم و غفور رحيم، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وَ تَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا، أَنْتَ التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦٣. مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، آمين يا رب العالمين، يا حى يا قيوم (يا الله).

ذكر أسماء مكة المكرمة

اعلم أن لمكة المشرفة أسماء كثيرة أكثر من ثلاثين اسما، و ذلك بحسب الصفات المقتضية للتسمية كما قاله الإمام النووى، ذكرها بالتفصيل العلامة ابن ظهيرة رحمه الله تعالى فى كتابه "الجامع اللطيف"، و لكن الشائع على الألسنة و المعروف منها أربعة: "مكة و بكة و أم القرى و البلد الأمين" و يسمى الهنود الأقدمون مكة مكشيشا أو موكشيشانا، كما ذكره البتوني فى رحلته- و بالأسماء الأربعة الشهيرة ورد القرآن الكريم بها صريحا. قال الله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ و قال عز شأنه: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ و قال جل و علا: وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَ مَنْ حَوْلَهَا و قال جل جلاله: وَ التَّيْنِ وَ الزُّيْتُونِ وَ طُورِ سَيْنِينَ وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ. و لا يخفى أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى. قال الشاعر:

و اعلم بأن كثرة الأسماء دلالة أن المسمى سامى

و نحن لا- نريد سرد و شرح جميع ما أطلق على مكة من الأسماء خوف التطويل، و لكن نأتى بها مجموعة فى سبعة أبيات نظمها القاضى أبو البقاء ابن الضياء الحنفى رحمه الله تعالى و هى:

لمكة أسماء ثلاثون عددت و من بعد ذاك اثنان منها اسم بكه
 صلاح و كوئى و الحرام و قادس و حاطمة البلد العريش بقرية
 و معطشة أم القرى رحم ناسه و ناسه رأس بفتح لهمزة
 مقدسه و القادسه و ناسه و رأس و تاج أم كوئى كبره
 سبوحة عرش أم رحمان عرشنا كذا حرم البلد الأمين كبلده
 كذاك اسمها البلد الحرام لأمنها و بالمسجد الأسنى الحرام تسمت
 و ما كثرة الأسماء إلا لفضلها حباها به الرحمن من أجل كعبه
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦٤
 و من أراد زيادة البحث و الوقوف على أسمائها فليراجع كتاب "الجامع اللطيف فى فضل مكة و أهلها و بناء البيت الشريف" أو غيره.

جدول بيان قياسات بعض جبال مكة و بعض أماكنها

اسم البلده/ درجة/ دقيقة/ ثانية خط طول مكة المكرمة/ ٣٩ / ٤٩ / ٣٠
 و خط عرض مكة المكرمة/ ٢١ / ٢٥ / ٠٠

قياسات بعض الأماكن بمكة

المكان/ متر ارتفاع محلة المعابدة بمكة المشرفة عن سطح البحر هو/ ٣١١
 ارتفاع موقع باب جدة الذى بأول جروول عن سطح البحر/ ٢٧٨
 ارتفاع جبل أبى قبيس/ ٤٢٠
 ارتفاع جبل قعيقعان "أى جبل هندی" / ٤٣٠
 ارتفاع جبل حراء بأعلا مكة/ ٦٣٤
 ارتفاع جبل ثور بأسفل مكة/ ٧٥٩
 ارتفاع جبل ثقبه و هو جبل الرخم بأعلا مكة/ ٨٨٣
 ارتفاع جبل الرحمة بعرفات الذى يقف عليه الحجاج/ ٣٤٠
 ارتفاع جبل سعد و هو فى شرق شمال عرفات/ ٨٣٦
 المسافة بين الصفا و المروة "المسعى" / ٣٧٥
 أخذنا جميع هذه القياسات من المهندسين المصريين التابعين للجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام بمكة المشرفة سنة (١٣٧٧ هـ) هذه الارتفاعات المذكورة هى بالنسبة لمنسوب البحر الأحمر بجده "صفر".

المسافات بين بعض المساجد

المسافة بين المسجد الحرام إلى مسجد الخيف بمنى/ ٩٠٠٠

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦٥
 المسافة من مسجد الخيف إلى مسجد مزدلفة / ٥٠٠٠
 المسافة من مسجد مزدلفة إلى مسجد نمرة / ٧٠٠٠
 المسافة من مسجد نمرة إلى مسجد الصخرات عند جبل الرحمة / ٣٠٠٠
 المسافة بين مسجد نمرة و جبل الرحمة بعرفات / ١٧٥٠
 المسافة من مكة إلى المدينة المنورة / ٧٥٠٠
 المسافة من مكة إلى المدينة المنورة / ٥٠٠٠٠
 و سذكر إن شاء الله تعالى قياسات الكعبة المشرفة و ما حولها، و قياسات مكة المكرمة و حياها و نواحيها في محله.
 التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦٦

مقدمة الكتاب

بلاد الحجاز

جاء في الكتاب الذي أخرجه وزارة التجارة السعودية عن "المملكة العربية السعودية" عن الحجاز ما نصه:
 و لا يقل الحجاز أهمية عن نجد لما فيه من مدن مقدسة تهوى إليها أفئدة المسلمين خمس مرات في اليوم. و جلاله الملك أيده الله
 يقسم أوقاته بين الرياض و الحجاز، يقضى أشهراً من السنة في الرياض و أشهراً في الحجاز، و يقع الحجاز من الجزيرة في ناحيتها
 الشمالية الغربية تقريباً، و هو يمتد على شاطئ البحر الأحمر.

طبيعة الحجاز

يتكون الحجاز من عدة مناطق طبيعية يحاذي بعضها البعض:

- ١- المنطقة الساحلية بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر (تهامة) و تحفها شعاب مرجانية.
 - ٢- منطقة جبلية عالية تأخذ في الانخفاض التدريجي حتى إلى ما بين جدة و مكة، إذ لا يزيد ارتفاعها هنالك عن ألف قدم.
 - ٣- منطقة نجدية (واقعة بين جبال) مرتفعة جدا في الشمال و مغطاة بالحمام من العويرض، و لكنها تأخذ في الانخفاض في اتجاهها للجنوب فيصل ارتفاعها في غربي مكة و الطائف إلى نحو ألف قدم.
 - ٤- الأخدود الرئيسي، الأجزاء المرتفعة منه مغطاة بالحمام كما هو الحال في الخرمة و العويرض و خيبر (٦٠٠٠-٧٠٠٠) قدم و لكنه لا يزال محتفظاً بارتفاع لا يقل عن خمسة آلاف قدم خلف مكة.
 - ٥- المنطقة الأخيرة، و هي على حافة المنحدر الشرقي في اتجاه قلب الجزيرة، و في قلب المنطقة الأولى و الثالثة تقع المدن الآهلة بالسكان: فالمويلح، و الوجه، و أفلاج، و ينبع، و رابغ، و جدة، واقعة في المنطقة الأولى.
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦٧
 و العلا، و المدينة، و مكة، واقعة في المنطقة الثالثة. و يوجد في الحجاز واحات خصبة متفرقة هنا و هناك و هي على الأغلب واقعة على خط بين المنطقة الرابعة و الخامسة.
 و منها: الحائط، و الحويط (فدك)، و خيبر، و الحناكية، و الطائف، و وادي فاطمة، و الصفراء.

جو الحجاز

إشارة

إن كميات المطر التي تنزل في الحجاز قليلة و غير كافية، و لهذا فإنه قاحل في كثير من المواقع إلا حيث توجد الواحات. و درجة الحرارة في أجزاء الحجاز المنخفضة أخف منها في تهامة اليمن، و متوسطها من (٢٦-٣٣) سنتيجراد، و الهواء رطب و نظرا لأن مكة منخفضة الارتفاع (٧٠٠-٨٥٠ قدما) و محاطة بمرتفعات صخرية جرداء فإنها شديدة الحر صيفا، بخلاف المدينة فإن درجة الحرارة لا تزيد عن (٣٢) و هي بلد صحى.

و الطائف من حيث المناخ أحسن بلاد الحجاز قاطبة فهو جاف الهواء، و المرتفعات فيما وراء مكة و الطائف جوها بارد.

الأقاليم الشمالية

ينحصر هذا القسم في شمال الحجاز ما بين خط العرض ٣٠-٢٧ شمالا و هو قسم جبلى و يمر به خط سكة الحديد الحجازية، و في القسم لا يوجد مدن في المحيطات الواقعة ضمنه، فمن معان إلى دار الحمراء (٢٥٠ ميلا تقريبا) لا يوجد إلا تبوك، و مدائن صالح. و الساحل في هذا الجزء عبارة عن أرض منبسطة عرضها من ٧ أميال إلى ١٥ ميلا، و ليس به مزروعات كما في حوافى الوديان، و في بعض الأماكن يوجد مياه جوفية يمكن أن تقوم عليها زراعات منظمة كما هو الحال في تبوك.

و أهم المدن و القرى: المويلح، و مقنا، و حقل، و ضبا، و تبوك، و ذات الحاج.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦٨

المنطقة الوسطى

يقع هذا الجزء بين خطى عرض ٧-٢٤ شمالا و يمتد مائتى ميل. و جميع الوديان و مجارى المياه في هذه المنطقة تنفذ إلى البحر الأحمر بواسطة منفذ واحد و هو وادى الحمض، الذى يقع فمه إلى جنوب الوجه بثلاثين ميلا، و هذا الجزء غنى بالثروة المعدنية و الزراعية و الحيوانية. و أهم المدن: الوجه، و أملج، و ينبع البحر، و ينبع النخل، و العلا، و خيبر، و الحناكية، و المدينة. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ١-١؛ ص ٦٨

القسم الجنوبي

يمتد هذا القسم بين خطى عرض ٢٤-٢٠ شمالا، حيث تبتدئ حدود عسير من هذا الخط. و هذا القسم يحتوى على كثير من الوديان و الواحات، و توجد فيه زراعة الفاكهة و النخيل و الحبوب. و هناك دلائل على وجود الثروة المعدنية في هذا القسم و أشهر مدنه: مكة، و جدة، و الليث، و الطائف.

انظر: صورة رقم ٦، خريطة مكة المكرمة.

أهم مدن الحجاز

[١] مكة المكرمة

جاء في الكتاب الذي أخرجه وزارة التجارة السعودية عن "المملكة العربية السعودية" عن أهم مدن الحجاز ما يأتي:
 مكة المكرمة: عرفت مكة من القدم منذ أخذ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يضع قواعد البيت الحرام، وفيها ولد الرسول الكريم محمد، وفيها بدأت الدعوة إلى الحق والهدى. و كما كانت مكة معروفة منذ القدم بمكانتها الدينية فقد كانت لها إلى جانب ذلك مكانة تجارية عظيمة بما كان يجلب إليها من عروض التجارة من الشام و من جهات بعيدة أخرى، و بما كان يصدر عنها من التجارة إلى مختلف بقاع الأرض، و بخاصة ما يحمله الحجاج من أسواقها من صنوف الحاجيات و البضائع و التحف المجلوبة. و تقع مكة في واد ضيق هو وادي إبراهيم، و هذا الودي تحوطه جبال شاهقة حارة في الصيف معتدلة في الشتاء. و قد كانت مكة، تمتاز عن مدن الجزيرة منذ القدم بأنها ذات اتصال بالخارج، و كانت تتطور في

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٦٩

التجارة و العمران بتطور الزمن. و في العهد السعودي الزاهر امتدت مكة خارج الجبال المحيطة بها، و عملت حكومة صاحب الجلالة على إيصال الماء لكل محلة من محلات مكة. و ازدهرت بالنهضة العمرانية و التجارية و العلمية، و أصبحت كخليئة النحل، و أضيئت لأول مرة في تاريخها بالتيار الكهربائي، و رصفت شوارعها و نسقت على جوانبها الأشجار، و فيها مقر لكثير من الوزارات، و فيها يقيم جلالة الملك المعظم حين تشريفه لمقاطعة الحجاز، و لقد أصبح الوافدون على بيت الله الحرام من مختلف بقاع الأرض و أمصارها يلمسون التطور في مكة و يشاهدون النهضة العلمية و الصحية: من مدارس كثيرة و مستشفيات ضخمة. على أن جلالة الملك سعود كان قد أصدر أمره الكريم إلى وزارة المالية برصد مبلغ ضخم لتوسعة الشوارع و إزالة الحوانيت بالمشعر الحرام و إيجاد كل ما من شأنه راحة حجاج بيت الله الحرام.

[٢] المدينة المنورة

هي المدينة الثانية في القداسة بالحجاز، و بها قبر الرسول الكريم حيث هاجر إليها صلى الله عليه و سلم لينشر الدين الإسلامي آمناً مطمئناً بين قوم يؤثرونه على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة، و كانت مقر الخلافة الإسلامية و مصدر السلطات الدينية و السياسية في الماضي، و تكتنفها ستة أودية أشهرها: وادي العقيق و هو واد جميل، هواؤه عذب، و تربته خصبة، و كانت به الدور و القصور العامرة و الحدائق الغناء قديماً. و هواء المدينة بارد شديد البرودة في الشتاء، و حار شديد الحرارة في الصيف، و معتدل في الخريف. و بها عيون كثيرة، فأينما احتفرت نبع لك ماء، و المدينة بلد النخيل من قديم، و هي كذلك بلد زراعي و لا تزال حقول القمح و الخضراوات و الفواكه و الشعير منتشرة بضواحيها.

و قد أفادت فائدة ملموسة من الخط الحديدي الذي ربط بينها و بين الشام قديماً، فكثر سكانها و تطورت في النهضة، و لكن هذه الجذوة انطفت بعد انقطاع الخط الحديدي و بعد الحرب العظمى. إلا أن الملك سعود، منذ أن أولى البلاد عنايته، منح المدينة قسطاً عظيماً من حظ الرعاية، فكان اهتمامه بنهضتها يستغرق وقته. و أول تبشير هذه الرعاية إعادة سكة الحديد، و قد باشرت اللجان دراسة هذا الموضوع و واصلت العمل فيه، و تأكيداً لمظاهر هذه العناية رصد جلالته مبلغ مليوني ريال كدفعة أولى لهذا المشروع الخطير. و الخط الحديدي بلا شك شريان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧٠

الحياة بالنسبة للمدينة، فيه تستطيع أن تقفز بسرعة إلى مصاف المدن الراقية. و من المآثر الخالدة لجلالة الملك إعادة بناء المسجد النبوي و توسعته ليجعله متفقا مع ما له من الهيبة والجلال.

و المدينة غنية بالآثار الصناعية و العمرانية و الكتابية، و لا عجب فقد كانت ملتقى مدنيت و مجمع أقوام وفدوا إليها من آفاق الأرض تباعا، و لكل منهم مدينته و عمرانه و آثاره، فقد كانت مهاجر بعض المصريين القدماء قبل التاريخ، و كان بها العمالقة، و باسم أحدهم سميت يثرب قديما، و جاء إليها بعدهم من اليمن بنو قيلة و نقلوا إليها حضارتهم، فهي بلد الآثار في المملكة كما أنها كانت مركز الخلفاء الراشدين.

[٣] جدة

هي المدينة الثالثة بالحجاز، و تقع على البحر الأحمر. و هي أكبر الموانئ السعودية بالحجاز. و هذا الميناء يستقبل مئات الألوف من الحجاج جوا و بحرا كل عام، و قد تعهد لها ساكن الجنان الملك عبد العزيز فأوصل إليها الماء من مئات الأميال بعد أن كان أهلها يعتمدون على مياه الآبار و الصهاريج التي تملئ بماء المطر، و على المياه المقطرة بواسطة الآلات. و لكن إيصال الماء من الوديان البعيدة بالمواسير و الأساليب الحديثة جعلها تزدهر كثيرا، فتكاثر سكانها و زادت حركتها التجارية و تمت و تعالت البناءات الشاهقة تشق الفضاء، و أنشئ بها ميناء بحري يضاهي ميناء الدمام، و هما يعدان من أكبر موانئ الشرق الأوسط، كما أن ميناءها الجوي يعد من الموانئ المشهورة في الجزيرة العربية. و قامت بجدة نهضة صناعية عظيمة مختلفة الألوان و نهضة إنشائية كبيرة، و بها مكاتب لمعظم الوزارات و الإنشاءات. و قد تكلفت الحكومة السنية لإيجاد الميناء البحري كثيرا، و ليس أدل على ذلك من أنها صرفت في أعمال الردم مبالغ باهظة. و يبلغ طول الطريق المردوم ٥٥٠٠ قدم، و المسافة الحديدية على جوانب الرصيف تبلغ ٢٢٤٣ قدما، و قد أصبحت جدة الآن غنية بالفنادق الكاملة الاستعداد لاستقبال الوافدين من مختلف الجهات. و مدينة جدة تضاء بالكهرباء و قد قامت بمشروعه شركة سعودية بأموال سعودية. و في جدة تقوم دور السفارات و المفوضيات و القنصليات العربية و الإسلامية و الأجنبية- لهذا فهي تعتبر المركز الرسمي للتمثيل السياسي العربي.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧١

كما أن جدة اليوم هي المدينة التالية لمكة في الحجاز، من ناحية النشاط التجاري. لذلك تقوم فيها المراكز الرئيسية للبنوك و المؤسسات المالية و الأجنبية و الأهلية و تتفرع فروعها في المدن الأخرى. هذه هي جدة المدينة التي ينتظر لها مستقبل باهر في الصناعة و التجارة.

[٤] الطائف

الطائف مدينة تاريخية قديمة، و كان يسكنها في الجاهلية ثقيف و هي مجموعة قبائل عربية، و الطائف مصيف الحجازيين لبرودة المناخ و جمال الهواء و كثرة الحدائق الغناء و توفر المياه، و هي ترتفع عن سطح البحر مقدار ألف و ثمانمائة قدم، و قد مر على الطائف كما مر على غيرها من المدن الحجازية، الاهتمام و الكتب فأنزل كيانها و أوشكت على العدم، و لكنها اليوم أصبحت مدينة عامرة شامخة، و يعود الفضل الأكبر في إصلاحها و رقيها إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ولي العهد. فقد اتخذها مصيفا رسميا له منذ تولى نيابة الحكم على الحجاز، و قد أزهرت الطائف خلال هذين العامين في عهد الملك سعود، فنطاق العمران قد اتسع فيها بشكل يلفت الأنظار كما أن وزارة الدفاع و الطيران قد جعلت مقرها الرسمي بها، و أحدثت فيها المستشفيات و غيرها، و

نتيجة لهذا نشطت الحركة التجارية و كثر عدد السكان فيها، و قد أخذ في أسباب تعبيد الطريق بين الطائف و مكة، و لا شك أنه متى تم ذلك، فإن الطائف تصبح أزهر مما هي عليه الآن، كما أن بلدية الطائف قد أتمت تنفيذ عدة مشروعات نافعة منها بناء مقر للبلدية و تخطيط الأراضي المحيطة بالمدينة و توزيعها على الأهلين، و أنشأت مذبحا لذبح الماشية على أحدث النظم، و وسعت الشارع العام إلى قروة و نزعت ملكيات بعض المباني لتوسعة الشوارع الرئيسية.

[٥] عسير

يطلق اسم عسير على الجهة الغربية من بلاد العرب الواقعة إلى جنوب الحجاز و شمال اليمن، و تشمل سهلا ساحليا (تهامة) يحاذي البحر الأحمر على طول ٢٠٠ ميل و عرض ٤٥ ميلا، و هذه المنطقة مأهولة بالسكان في السهول الزراعية التي تغمرها السيول، و تصل الصخور البركانية (الحرّة) في بعض المواقع للبحر كالرقبة و الجهمّة و خور البرك. و جبال الجهة الشرقية من تهامة، كما هو الحال بالحجاز،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧٢

و عرة جدا و ترتفع إلى علو أكثر من ٩٠٠٠ قدم، و ليس في عسير طرق مطروقة و الجبال إذ تميل برفق إلى الشرق فقد شكلت حاجزا لمنع تفتت التربة مما يجعل الأرض صالحة للزراعة.

و عسير من أجمل بقاع المملكة ففيه من المناظر الطبيعية الجذابة ما يشبه بعض المواقع الطبيعية الخلابة الفاتنة في كل من قبرص و إيطاليا و القسم الجنوبي من اليمن، و إننا إذا أردنا أن نحكم بما نرى من خضرة وافرّة و فائضة نستنتج أن معدل سقوط الأمطار فيها لا يقل عن ١٠ إلى ١٣ بوصة في السنة، و هذه النسبة العالية نسبيا قد تأيدت بالفعل، و يدل عليها نموذج بناء العاصمة (أبها). و على بعد ٨٠ ميلا- من الشاطئ توجد سلسلة مرتفعات يبلغ ارتفاعها بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ قدم، و نجد بساتين ذات مساحات جيدة تقع محاذية للجبال و تمتد مخضرة إلى الأودية حتى تصل إلى نجران و الربع الخالي. و تستمر هذه السلسلة في هبوطها حتى يبشء بالقرب من زاوية عسير الشمالية الشرقية.

و نظرا لما يصيب بلاد اليمن من المطر الموسمي في الخريف، و نظرا لقرب عسير منها فإن نصيبها من هذا المطر غير قليل، و لذا فإن واديانها الكثيرة الشاسعة تعتبر من الدرجة الأولى في الخصوبة، و أهم هذه الوديان وادي رانية و وادي يبشء، و وادي شهران و وادي عقيق، و أغلب الوديان الكبيرة تجري فيها المياه إما فوق سطحها أو قريبا منه.

تجري الوديان الرئيسية في اتجاه وادي الدواسر الواقع في جنوب نجد، و البلاد الداخلية في غاية الخصوبة و خصوصا من تنومة إلى تيننة، و هي تضارع أحسن و أخصب البلاد العالية في اليمن، و المزروعات على اختلاف أنواعها من حبوب و بقول و فاكهة تجود في الوديان. و الجزء المجاور لشاطئ البحر و إن كان رمليا فإنه أحسن بكثير من نظيره في الحجاز، ففي أجزاء كثيرة منه تنبت المزروعات و يعيش كثير من السكان عليها، و ينزل المطر غير غزير في جنوبي تهامة، و تهامة الوسطى، في شهر فبراير، و مارس، و في شهر يونية تنزل عليها أمطار غزيرة، أما في الشمال- سواء في الداخل أو في البلاد الساحلية- فإن المطر غير غزير فيها.

و أشهر مدن عسير: يبشء، و تربة، و أبها، و محایل، و خميس مشيط، و أبو عريش، و صيبا، و حلى، و جيزان.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧٣

فضل الحجاز

قال القلقشندی في كتابه صبح الأعشى في الجزء الرابع صحيفة ٢٤٣ عند الكلام على فضل الحجاز و خواصه و عجائبه ما نصه: أما

فضله ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «غلظ القلوب و الجفاء في المشرق، و الإيمان في أهل الحجاز».

قلت: و في ذلك دليل صريح لفضل الحجاز نفسه، و ذلك أن هواء كل بلد يؤثر في أهله بحسب ما يقتضيه الهواء، و لذلك تجد لأهل كل بلد صفات و أحوالا تخصهم، و قد أخبر صلى الله عليه وسلم عن أهل الحجاز بالرقه كما أخبر عن أهل المشرق بالغلظ و الجفاء، و ناهيك بفضل الحجاز و شرفه أن به مهبط الوحي و منبع الرسالة و به مكة و المدينة اللتين هما أشرف بلاد الله تعالى و أجل بقاع الأرض، و لكل منهما فضل يخصه يأتي الكلام عليه عند ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ثم بعد أن ذكر القلقشندى خواص الحجاز ذكر حدوده و ابتداء عمارته و تسميته حجازا فقال ما نصه: أما حدوده فاعلم أن الحجاز عبارة عن مكة و المدينة و اليمامة و مخاليفها على خلاف في بعض ذلك يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى، و هو بجملته من جزيرة العرب، و هي ما بين بحر القلزم أى البحر الأحمر و بحر الهند و بحر فارس و الفرات و بعض بادية الشام.

قال المدائنى: جزيرة العرب خمسة أقسام: تهامة و نجد و الحجاز و العروض و اليمن، و زاد ابن حوقل في أقسامها بادية العراق و بادية الجزيرة فيما بين دجلة و الفرات و بادية الشام، و فيها خلاف يطول ذكره.

ثم ذكر القلقشندى كلام الإمام النووي عن حدود جبل السراء الذى هو عبارة عن الحجاز لم نذكره لأن ما تقدم يغنى عنه و حتى لا يطول الكلام، و قد قال: سميت جزيرة العرب "جزيرة" لا نجزار الماء عنها حيث لم يمد عليها و إن كان مطيفا بها.

قال القلقشندى: أما ابتداء عمارة الحجاز فإنه لما انبث أولاد سام بن نوح عليه السلام و هم العرب في أقطار هذه الجزيرة حين قسم نوح الأرض بين بنيه - نزل الحجاز منهم من العرب البادية طسم و جديس (و منزلهم) اليمامة، و نزلت جرهم على القرب من مكة، فكان ذلك أول عمارة الحجاز بعد الطوفان، ثم بادت هذه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧٤

العرب و هلكوا عن آخرهم، و درست أخبارهم و انقطعت آثارهم. و عمّر الحجاز بعدهم جرهم الثانية، و هم بنو جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. و لما أسكن إبراهيم الخليل عليه السلام ولده إسماعيل بمكة كما أخبر تعالى عنه بقوله: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَكْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ كَانَتْ جَرْمُ الثَّانِيَةَ نَازِلِينَ بِالْقَرْبِ مِنْ مَكَّةَ فَاتَّصَلُوا بِإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ تَزَوَّجَ مِنْهُمْ وَ كَثُرَ وَلَدُهُ وَ تَنَاسَلُوا، فَعَمَرُوا الْحِجَازَ إِلَى الْآنَ. انتهى من صبح الأعشى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧٥

جغرافية بلاد العرب

نحب أن ننقل هنا بعض ما يتعلق بتاريخ العرب من كتاب "تاريخ العرب و آدابهم" المطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق بمصر القاهرة سنة (١٣١٠) من الهجرة الموافق لسنة (١٨٩٣) من الميلاد و هو تأليف إدوارد فاندريك و قسطنطين فيليبيدس.

و ربما يعجب البعض لاختيارنا النقل من هذا الكتاب بالذات و هو تأليف بعض أساتذة الإفرنج - فنقول: إن هذا الكتاب وقع في يدنا بالمصادفة، فتصفحناه جيدا فلم نجد فيه ما يمس الدين الإسلامى قط، كما لم نجد فيه أى شىء محرفا، بل وجدناه كتابا متين الأسلوب قوى الأدلة، كل ما فيه صواب و كل مسائله محققة، لذلك قررت نظارة المعارف العمومية المصرية تدريسه بالمدارس بعد أن التزمت طبعه على نفقتها.

نعم - وجدنا فيه غلظة غير مقصودة من المؤلفين المذكورين و هي قولهما بأول صحيفة (٤٩) "و الحجر الأسود كان يعبد في الجاهلية" هذه الجملة غلط واضح، و الصحيح الذى لا شك فيه أن الحجر الأسود لم يعبد قط لا في الجاهلية و لا في الإسلام، كما أن الكعبة كذلك لم تعبد قط.

و القارئ في هذا الكتاب يخرج منه بفوائد كثيرة صحيحة، و ليس من المعقول و العدل أن نرمى بكتاب لمجرد أن مؤلفه غير مسلم، ففي الأثر «الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها» لهذا نحن ننقل من الكتاب لتحققنا من صحته ما جاء فيه- و على الله الاعتماد و التكلان، فقد جاء في جغرافية بلاد العرب ما يأتي:

هذه البلاد شبه جزيرة، و تتصل بقارة آسيا من الشمال، يحدها شمالا بلاد مصر و فلسطين و بادية الشام و وادي الفرات، و جنوبا البحر الهندي، و غربا البحر الأحمر، و من الشمال الشرقي خليج فارس، و هي محصورة بين الدرجة ١٢ و الدقيقة ٤٥ و الدرجة ٣٠ و الدقيقة ٢٥ من العرض الشمالي، و بين الدرجة ٣٢ و الدقيقة ٣٠ و الدرجة ٦٠ من الطول الشرقي من كرين و تش، و طول الشط الشرقي من مصب نهر الفرات إلى رأس مسندم إلى رأس الحد ستمائة كيلو متر مربع، و من رأس الحد إلى باب المنذب ألفان و مائتا كيلو متر، و من باب المنذب

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧٦

إلى السويس ألف و تسعمائة كيلو متر، و طول الحد الشمالي الوهمي من السويس إلى مدينة البصرة ألف و خمسمائة كيلو متر، فتكون إذا مساحة جزيرة العرب مضمومة إليها شبه جزيرة طور سيناء ٥٥٨، ١٥٦، ٣ كيلو مترا مربعا و ذلك خمسة أضعاف مساحة مملكة فرنسا.

انظر: صورة رقم ٧، خريطة بلاد العرب

منظومة فريدة في علم الجغرافيا

هذا و بمناسبة ذكرنا جغرافية بلاد العرب، أحببنا هنا إثبات منظومة فريدة لطيفة في علم الجغرافيا، و هي من نظم بعض العلماء الفضلاء بمصر، لكن زدنا عليها بعض الأبيات من نظمنا على وفق بحرنا زيادة في الإيضاح و تكملة للفائدة العامة، و ذلك منذ سنوات مضت، لكن نسينا أن نميز الأبيات الأصلية من الأبيات التي زدناها عليها، و الآن لا يمكننا تمييزها لمضى سنوات عديدة عليها، و المقصود من إثبات هذه المنظومة في تاريخنا، هو المحافظة على آثار المسلمين في شتى العلوم و الفنون، و هذه المنظومة فريدة طريفة قل أن يوجد مثله. فرحم الله تعالى ناظمها و قارئها و سامعها آمين، و الله تعالى هو موفق للصواب و إليه المرجع و المآب- و إليك المنظومة المذكورة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على الإيمان و الحمد لله على العرفان

يا أيها الإخوان و الأصحاب و الأصدقاء و كذا الطلاب

أهديكمو قلائد العقيان في علم تقويم لذي البلدان

فحده علم بسطح الأرض و ما حوت من طولها و العرض

و ما عليها من بلاد عامرة و من جبال و بحار زاخرة

موضوعه السطح و ما عليه من كل شيء ثابت عليه

و اسمه التقويم للبلدان تعريب جغرافية يوناني

فالأرض قالوا إنها لدائرة عظيمة الجرم على شكل الكرة

دليلهم سياحة عديدة قد استمرت مدة مديدة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧٧ فرجعوا فيها لمبدأ السفر فذا دليل عندهم قد استقر

و رؤية للأرض في وجه القمر عند الخسوف مستديرة الأثر
و نظر الشخص إلى أعلى الشبح من قبل أدناه دليل اتضح

و الأرض قالوا إنها موصوفة بحركات عندهم معروفة
يومية و الليل و النهار من هذه كل له انتشار
سنوية تدور حول الشمس في كل عام مرة بالحدس
فصل الشتاء منها مع الخريف فصل الربيع ثم فصل الصيف
و الشمس حقا مثل أضعاف القمرو مثل أضعاف الأراضي في الكبر

إن الجهات أربع أصلياً و أربع جزئية فرعية
فقابل الجنوب بالشمال و الغرب بالشرق على التوالي
و أربع فرعية معلومة في غاية الضبط أتت منظومة
ما كان بين الشرق و الشمال يدعى شمال الشرق في ذا الحال
ثم شمال الغرب ما كان على يسار غرب و الشمال قد تلا
كذا الجنوب عندهم قسماً مثل الشمال عند ذى الإتقان

جزء من القماش و الأوراق خريطة سموه باتفاق
مرسومه فيها البلاد و البحار كذا الجبال و البوادي و القفار
شمالها ما كان من أعلاها ثم الجنوب ما بها تناها
و الشرق فيها عن يمين الناظرو الغرب فيها عن يسار الباصر

و قسموا ذى الكرة الأرضية قسمين عندهم بذى الكيفية
ثلاثة الأرباع منها الماء و الربع يابس له انتهاء
و كل بحر في وجود مالح و كل نهر مستساغ صالح
كبحر الأحمر و نهر النيل يعرف بالأسفار و الرحيل
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧٨

جزيرة هي قطعة أرضية محاطة باللجة البحرية
و عكسها بحيرة محاطة بالأرض فاعرف هذه الإحاطة
ثم الخليج و هو جزء مائي و داخل في الأرض بانحناء
و الأرخيل و هو مجموع جزر في جهة من الجهات قد كثر
و الجبل الكثير الارتفاع عن سطح أرض في قفار القاع
و التل ما كان قليل الرفع من التراب و هو يدعى التلعة

و عدة الجبال تدعى سلسلة موصولة ببعضها فى المنزلة
و ما استوى فى الأرض فهو السهل من ارتفاع و انخفاض يخلو
و النجد و الهضبة سهل مرتفع بغير ذا التعريف فيها ممتنع
و المرج أرض ذات زرع و نبات و القفر أرض ليس فيها من نبات
ثم البراكين جبال النار تقذف بالدخان و الأحجار

أما المحيطات فخمس ذكر و المحيط الهادى و هذا أكبر
و الأطلسى و هو الأطلانطيقى و الثالث الهندى بالتحقيق
و الرابع المتجمد الشمالى و الخامس المتجمد الجنوبى

و قسموا القارات أيضا خمسا فاحفظها حفظا جيدا لا تنسى

أفريقيا و آسيا و أوروبا و أستراليا و قيت الكريا
و أمريكا خامس الأقسام فاحفظ هداك بارى الأنام
مصر بلاد النوب ثم الحبش طرابلس و تونس مراکش
و غيرها فهذه إفريقيا و الشام و الحجاز هذى آسيا
و يمن و نجد و التهامه و غيرها فافهم تكن علامه
أما أوروبا فبلاد إنكلترا كذا فرنسا و كذا سويسرا
و دانمرك و كذا بلجيكا و غيرها مفصلا يأتىكا
و أمريكا فبلاد كندا و هى ولايات ترى متحدا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٧٩ منها البرازيل و مكسيك و كم قد ذكروا من البلاد بالقلم
أما أستراليا فتحتوى على عدة بلدان فلا تستجهلا

فهذه منظومه فريده و هى على اختصارها مفيدة
فرحمه الله على ناظمها و أحسن الله إلى سامعها
نظمها من علماء الأزهر من معهد العلم القديم الأنور
اعرفه و قد نسيت اسمه لكنه مات و ذاب جسمه
و الطاهر الكردى قد زاد على أبياته شيئا قليلا للملا
حتى تكون هذه المنظومه كامله مفيدة مختومه
فالحمد لله على التمام فإنه ذو الفضل و الإنعام
ثم صلاة الله مع سلامه على النبى "محمد" و آله
ثم على أصحابه العظام و التابعين الأصفياء الكرام

إشارة

و جاء في الكتاب المذكور أيضا ما يأتي: إنه مع كون جزيرة العرب كانت فيما مر من الدهر معروفة عند الأمم الشرقية القديمة و عند الرومان و اليونان إلا أن معرفتهم لها كانت بالاسم فقط ليس إلا. و قد أجمع أرباب البحث على أن كل خبر رواه الغربيون عن جزيرة العرب قبل القرن الثامن عشر ميلادية غير حري بالوثوق و لا بارز عن ظل الشبهة، و هذا ما ألجأ أهل الجغرافية الحديثين منهم إلى البحث و التنقيب و الرحلات المتتابعة حتى وقفوا على معرفة الكثير من أحوالها و شؤونها، و جزموا بكثير منها على روية لأنهم رأوا حقيقتها بالعيان، غير أن هذا الفوز العظيم لم يكن وافيا بما كان يتوقع منه من النتائج الكبيرة فإنهم استوضحوا باكتشافاتهم أشياء و بقي من دون ما استوضحوه مشاكل جمه و معميات شتى لم يهتدوا إلى جلائها و كشفها، و قد قسم أهل التحقيق كلام الكتاب شبه جزيرة العرب إلى ثلاث أقسام سموها عصورا فقالوا العصر القديم أى عصر ما قبل الإسلام، و عصر الإسلام، و العصر الأوروبي.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨٠

العصر القديم أى ما قبل الإسلام

و جاء في الكتاب المذكور ما يأتي: إن أقدم ما سطر في صحائف التاريخ عن بلاد العرب هو ما ورد الإيماء إليه في برنامج الأمم المدرج في الفصل العاشر من سفر الخلائق، ثم أتى على ذكرها استرابون الجغرافي في تأليفه و بلينيوس في جغرافيته، و أول من ذكرها على حقيقتها بطليموس الفلكي المشهور، و هو من أعلام القرن الثاني للميلاد في كتابه المعروف بالمجسطى، قال: و تقسم بلاد العرب إلى ثلاث أقسام عربية: بطرا (بترا) نسبة إلى مدينة بطرا الكائنة في وادي موسى، و هى التى كانت عاصمه مملكة أدوم، و عربية البادية في الشمال، و العربية السعيدة أى المخصبة بالجنوب. اه. و هذا القسم الأخير فيما قال بعض المحققين هو بلاد اليمن.

العصر الإسلامى

و جاء في الكتاب المذكور ما يأتي: و فيه نبغ كثير من كتاب العرب، فدوّنوا في أسفارهم الجغرافية معلومات نفيسة جدا عن بلاد العرب منبع الإسلام، و أشهر كتاب الجغرافية منهم الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ هجرية (سنة ٩٤٥ ميلادية، و قدامه المتوفى سنة ٣٣٧ هجرية (سنة ٩٤٨ ميلادية، و ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٧ هجرية (سنة ١٢٢٩ ميلادية، و أخصهم في الذكر المقدسى الذى نبغ في أواخر القرن العاشر سنة ٣٧٥ هجرية (سنة ٩٨٥ ميلادية. و طبعت جغرافية الهمداني بالعربية في مدينة ليدن سنة ١٨٨٤ ميلادية، و مما دونوه في كتبهم تقسيمهم بلاد العرب إلى خمسة أقسام و هى:

(اليمن) و فيه حضرموت و مهرت و عمان و شحر و نجران. و سمي باليمن؛ لوقوعه عن يمين الكعبة.

(الحجاز) و فيه مكة و يثرب و سمي حجازا؛ لأنه حاجز بين تهامة و نجد.

(و تهامة) و هى بين اليمن جنوبا و الحجاز شمالا.

(و نجد) و هى ما يتصل بالشام شمالا و العراق شرقا و الحجاز غربا و اليمامة جنوبا. و هى أطيب أرض في بلاد العرب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨١

(و اليمامة) و هى بين نجد و اليمن. و تسمى العروض أيضا؛ لاعتراضها بين نجد و اليمن، و من جبالها سيناء و حوريب، حيث أنزل الله الشريعة على موسى الكليم و قاران و هارون، و إلى جهة الشرق من هارون وادى موسى، و هو موقع مدينة بطرا القديمة قصبه العربية

الصخرية عند الرومان و اليونان.

و من أشهر مدن اليمن صنعاء عاصمة تلك البلاد قديما، و مقر والى الحكومة العثمانية حاليا- قيل إنها تشبه دمشق؛ لكثرة مياهها و أشجارها، و هى معتدلة الهواء حسنة الأسواق واسعة التجارة، و كانت فيما مر من الدهر عاصمة ملوك اليمن و لهم بها قصر عظيم يقال له غمدان، و إلى الجنوب الشرقى من صنعاء موقع مدينة مأرب و بقربها وجد أهل البحث من الفرنسيس و الإنكليز سنة ١٨٧٥ ميلادية الآثار المسطرة على الصخور بالخط المسند المعروف بالخط الحميرى. من بلاد اليمن مدينة نجران، و فيها كانت كعبة نجران و هى قبة عظيمة يقال إنها كانت تظلل ألف رجل، و كان إذا نزل بها مستجير أجير، أو خائف أمن، أو جائع أشبع، أو طالب حاجة قضيت، أو مسترفد أعطى ما يريد، و كانت هذه القبة لعبد المسيح بن دارس بن عدى مصنوعة من ثلاثمائة جلد، و كان عبد المسيح ينفق فيها كل سنة عشرة آلاف دينار، و كانت العرب تسميها كعبة نجران لأنهم كانوا يقصدون زيارتها كما يقصدون زيارة الكعبة، و كانت هذه القبة بجانب نهر، و إلى نجران ينسب قس بن ساعدة خطيب العرب المشهور.

و من أشهر مدن الحجاز مكة، و تسمى أم القرى. و لا يدخلها أحد من غير الإسلام لأن فيها المسجد الحرام الذى فى وسطه الكعبة. و فى نجد أرض العالية و جبل عكاد التى لم تثبت العربية الفصيحة بعد تمادى زمان الإسلام إلا فى أهليه. انظر: صورة رقم ٨، خريطة العالم الإسلامى

العصر الأوروبى

و جاء فى الكتاب المذكور ما يأتى: إن أول من باشر البحث عن جزيرة العرب من الأوربيين هو نيبور المشهور رئيس الإرسالية الدانمركية، و ذلك فى سنة ١٧٦٢ إلى ١٧٦٣ ميلادية، و اقتفى أثر هذه الإرسالية ثلاثة و عشرون شخصا من سياح الإفرنج على اختلاف أجناسهم و دولهم قصد الاكتشاف و ذلك من سنة ١٨٠٧

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨٢

إلى سنة ١٨٨٤ ميلادية، و دونوا فى رحلاتهم ما أمكنهم الوصول إليه و الوقوف عليه، و أول من ذهب من هؤلاء السياح إليها على بك، و هو رجل من الإسبانيول أتى بلاد مصر أولا و دخل فى دين الإسلام، و من ثم قدم إليها سنة ١٨٠٧ ميلادية، و هذه أسماء باقى الجماعة الذين سافروا إلى جزيرة العرب مع تعيين تواريخ رحلاتهم:

ستسن الذى قتل سنة ١٨١١، و بورك هارت من سنة ١٨١٤-١٨١٦، و الفرنساوى سادليه سنة ١٨١٩، و ولستد سنة ١٨٣٠، و تامينيه و فرنسل و أرنود سنة ١٨٤٣، و فون فريد سنة ١٨٤٣، و والين سنة ١٨٤٥ و ١٨٤٨، و ريتشرد برتن من سنة ١٨٥٣ إلى ١٨٥٤، و فى بلاد مدين سنة ٨٧٧، و مالتان سنة ١٨٦٠ و سنة ١٨٧١، و وبلتكرف سنة ١٨٦٢، و كوارامى سنة ١٨٦٤، و بلى سنة ١٨٦٥، و وتس ستاين سنة ١٨٦٠، و هالفى سنة ١٨٧٠، و ماتسونى من سنة ١٨٧٧ إلى ١٨٨٠، و شارل داوتى من سنة ١٨٧٦ إلى ١٨٧٨، و كين سنة ١٨٧٧، و بلونت سنة ١٨٧٩، و لنفر الذى قتل سنة ١٨٨٢، و أويتنج سنة ١٨٨٣، و هوبر الذى قتل سنة ١٨٤٤. انتهى من كتاب "تاريخ العرب و آدابهم" المذكور.

تقسيم بلاد العرب من حيث الأخلاق و العادات

جاء فى كتاب "تاريخ العرب و آدابهم" المتقدم ذكره ما يأتى:

و قد تقسم بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام- من حيث الأخلاق و العوائد و الأقدام و التهذيب و اللغة و المعارف. و هم البدو، و البدو المتحضرين، و الحضرة.

أما البدو فهم أقوام رحالة يسكنون في بيوت من الشعر، إذ لا يبنون لهم بيوتا ثابتا بل يهيمون في كل واد حيث طاب لهم العيش، ذاهبين ببيوتهم على ظهور مطاياهم ينصبونها حيث اعتمدوا الإقامة. وهم يعولون في معيشتهم على ماشيتهم التي يغذونها بما تنبت الأرض من كلاً الطبيعة و يغتذون بلحومها و ألبانها و يتخذون ما زاد منها و من صوفها و شعرها و وبرها لسد ما بقى من احتياجاتهم من مطعم و ملبس و مسكن و اكتساب درهم يستعينون به لدى الحاجة، و أكثر ما يسكنون السهول يراقبون فيها سير الفصول، فإذا اشتد بهم الحر طلبوا الأنهر و مجارى المياه و الأراضي النضرة، و إذا نزل الغيث و ارتوت و أنبت ربيعها توغلوا في القفار

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨٣

مستصحبين ماشيتهم و بيوتهم، و هم على كلتا الحالتين لا ينقطعون عن مخالطة الحضر لبيع ما لديهم و شراء ما احتاجوا إليه من مأكول و ملبوس، و البدو من أحرص الناس على ما ورثوه من العرف و العادات إذ ما فتثوا على فطرتهم بما اتصفوا به قبل الإسلام من الحسنات و السيئات، و قد أصاب بورك هارك في وصفه البدو إذ قال: يمتاز البدو بحب الضيافة و الكرم و حفظ الدمام و رعاية الغريب، و الشهامة و الحماسة و الذكاء و خفة الروح و القناعة، و حب البدو للحرية يحمله على احتقار أهل الحضر فإنه بمعاملتهم قد تعلم منهم الخداع و المكر. ٥١.

و مع أن البدوى موصوف بخشونة الطباع و العناد، فهو جامع لرقعة الإحساس و دقة الإدراك، و لا يزال بين البدو حتى الآن بقية يدينون بدين أسلافهم، و يعبدون الحجارة و الأشجار و الأفلاك، و ملابس البدو خرقه شبيهة بالمنديل تعرف بالكوفية و العقال للرأس، و القميص الطويل يشده بحبل على وسطه، و لبس العباءة فوق الثوب، أما البدويات فهن في البادية أكثر عددا من الرجال، و بالطبع ألين جانبا و أرف طبعا، و لسن مع ذلك دون الرجال نخوة و شهامة، و أخلاقهن بالجملة حسنة، و خير ما يزينهن عزة النفس و أنفة الحمية و قيامهن مقام الرجال في أكثر الأعمال. و أخذ الثأر عند البدو مشهور من قبل الإسلام، و هو لا يزال حتى الآن و كثيرا ما يكون السبب في العداوة بين قبيلة و أخرى بحيث يفضى بينهما الأمر إلى الحرب إلا إنه يعوض عن الدم بالدية في بعض الأحيان.

و من البدو عدد ليس بقليل يتعاطون السلب و النهب، و كثيرا ما يسلبون قوافل الحجاج أو يلزمونهم بدفع العوض، و يستعملون في غزواتهم و حروبهم السيف و الطير و الرمح، و أكثر اعتمادهم على الرماح، و قد كثر الآن استعمال البنادق عندهم. أما الأحكام في البادية فموكولة إلى الشيوخ و الأمراء و هي تمثل مبادئ الحكم الفطرى، فالقوة لمن غلب، و تتبعها الثروة و النفوذ. يرضون بما يشاؤون معتمدين على الشرع المعروف و العرف المشروع، و ليس لهم قوانين مكتوبة و مجالس معقودة، و مع ذلك يقوم العرف أحيانا مقام القانون النافذ، فيرجعون بالتقاضى إليه، و إن اختلفوا في أمر أشكل عليهم رفعوا أمرهم إلى العرفاء، و العريف عندهم بمنزلة القاضى يحكم بما عرفه بالاختبار مما جرى عليه العرب في كل زمان، و هو مقام الفيصل أو الفاروق في العهد القديم و له عنده منزلة كبرى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨٤

أما اللغة فهي في انحطاط عظيم عن ذى قبل، و إن كان الكلام في عامة البدو أصح منه في سائر البلاد التي غلبت فيها اللغة العربية، فاللفظ أضبط و الكلام نقى من خليط الألفاظ الأعجمية.

القسم الثانى: البدو المتحضرون، و يقال فيهم ما قيل عن البدو، غير أن حظهم من سعة العيش أوفر، فلا تحوجهم قلة المياه إلى الرحيل بل ينزلون على مجارى الأنهر الكبيرة و يقيمون في بيوتهم الشعرية أو أكواخهم المصنوعة من القصب و جريد النخل و البردى، يزرعون ما جاورهم من الأرض، و الذين قدم عهدهم بالزراعة كادوا يتحضرون و تحضر منهم كثيرون فيما مر من الأيام فتدرجوا من سكنى الخيام إلى الطرف المبنية من سعف النخل و غيره، و منها إلى بيوت الآجر.

القسم الثالث: الحضر، و هم أهل الأمصار و المدن منهم، و يصح فيهم الآن ما قاله عنهم ابن خلدون منذ سنين من أنهم قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق و الشر، و بعدت عليهم طرق الخير و مسالكه بقدر ما حصل لهم من فنون الملاذ و عوائد الترف و

الإقبال على الدنيا والعكوف على حب المال والكذب والشهوات حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم، فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم و بين كبرائهم و أهل محارمهم لا يصددهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء من التظاهر بالفواحش قولاً و عملاً، و بالجملة فهم أهل غدر و مكر و خديعة و نقض عهد. اهـ.

على أن هذا الوصف لا ينطبق على كل أهل المدن و الأمصار، فإن المسلم الورع منهم على غير ما ذكر، فهو ذو صفات حميدة: منها أنه كثير الصدقات و الزكاة، مواظب على العمل، عفيف النفس، طاهر الذيل، قائم بشعائر الدين.

تاريخ العرب قبل الإسلام

جاء في كتاب "تاريخ العرب و آدابهم" المتقدم ذكره ما يأتي:

العصر الأول- تاريخ العرب قبل الإسلام: لا تزال الأخبار عما تقادم من ذلك التاريخ مستتره وراء حجاب القدم، إذ لا يكاد يوقف منها على حقيقة يوثق بها و لا سيما ما كان منها أبعد عهداً، و المؤرخون من اليونان و الرومان لم يوردوا من أخبارها إلا لمعة خفيفة عن المعاملات التجارية و الحروب التي كانت بينهم و بين التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨٥

العرب المجاورين لممالكهم، و البعض الآخر من المؤرخين ذكروا محاولة بعض الملوك الأجانب افتتاح البلاد العربية كغزوات ملوك آشور و حملة الإسكندر و البطالسة و اتينوخوس ملك سورية على النبطيين، و حملة العامل الروماني في مصر سنة ٢٤ قبل الميلاد على نجران و مأرب، و حملة القيصر تراجان.

أما ما جمعه مؤرخوا الإسلام من الأخبار المنقولة عن ما تقادم من تلك العصور فقد تطرق إليه الخلل، حتى أصبح من الصعب تمييز الوقائع الحقيقية من غيرها، و قد قسم أهل التاريخ العرب إلى فرقتين: بائدة و باقية. انتهى.

ثم فصل المؤلفان في كتابهما المذكور الفرقتين المذكورتين، ما أحببنا نقل ذلك حتى لا يطول بنا الكلام.

تقسيم العرب إلى عاربة و مستعربة

إشارة

جاء في كتاب "تاريخ العرب و آدابهم" المتقدم ذكره ما يأتي:

و قد قسم النسابون أمة العرب إلى قسمين: العرب العاربة، و العرب المستعربة.

العرب العاربة

فالعرب العاربة: هم أولئك الأقوام الذين ينتهون بنسبهم إلى قحطان، أول جد العرب و رئيس ملوك اليمن الذي يقال عنه أنه أول من تكلم بالعربية من أهل هذه الطبقة، تعلمها من العرب البائدة الذين كان معاصراً لهم، و بحسب الأنساب المسطورة شجراتها في كتب العرب، تنقسم ذرية قحطان إلى شطرين: أحدهما ابنه يعرب الذي أسس مملكة اليمن الأولى، و كان من أعظم ملوكها، و ثانيهما ابنه جرهيم الذي أسس مملكة الحجاز. و لعلهما هدورام و يارح الذين ذكرهما موسى في جملة الثلاثة عشر رئيساً، الذين توالدت منهم العرب (انظر سفر الخلائق- الفصل العاشر و العدد ٢٦).

و انقسام أمه العرب إلى قبائل يشبه انقسام اليهود إلى أسباط، و قد حافظ العرب و اليهود منذ القدم على هذا التقسيم و التمييز بين قبيلة و أخرى، و بين بطن و بطن، و هذا التقسيم كان السبب المانع لعدم إجماع الكلمة بين القبائل و العيال من التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨٦

كل أمه منهم، و قد ساعد هذا التمييز أهل البحث و التحقيق على معرفة أحوال تلك القبائل و شؤونهم. أما ذرية يعرب فتكاثرت و انقسمت إلى بطون عديدة، حتى أن سيل الإنكليزي و السيد أحمد خان قد جمعا أسماء ستين قبيلة من قبائل العرب العاربة الذين اشتهر منهم عدد غير قليل أيام الجاهلية، و لا يزال العدد الكبير منهم محافظا على أسمائه إلى يومنا هذا. ٥١.

العرب المستعربة

أما العرب المستعربة فهم من ولد عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل، ولدوا لإسماعيل من زوجة ابنة المضاض ملك الحجاز، و بين المضاض و جرحهم تسعة جدد، و قال مؤرخوا العرب: إن إسماعيل بن إبراهيم اتخذ الحجاز له و طنا، و كانت مكة يوم ذاك قفرا، و أن إبراهيم عندما أمره الله تعالى أن يذبح ابنه قربانا قدم إسماعيل، و كان المحل الذي أراد ذبحه فيه بالقرب من مكة. و من أقوالهم أيضا أنه عندما ألحت سارة على إبراهيم بطرد هاجر من منزلها أن هاجر ذهبت مع طفلها إسماعيل إلى الوادي الذي هو الآن مدينة مكة، و أنه عندما عطشت هي و ابنها أنبع الله لهما عين ماء سميت زمزم، إلا أنهم لا يذكرون تزوجه بالمرأة المصرية التي ولدت له الاثني عشر ولدا الذين صاروا أمراء اثنتي عشرة قبيلة، و تملكوا مدنا مختلفة في ما جاء في الفصل ٢٥ عدد ١٢ و ١٨ من سفر الخلاق، مع أن عوائد العرب و اليهود لا تمنع من أن يكون للرجل الواحد أكثر من زوجة واحدة، و عدنان الجد الحادي و العشرون للنبي صلى الله عليه و سلم هو من نسل إسماعيل، فيكون إذا نسب النبي صلى الله عليه و سلم من إسماعيل إلى العرب المستعربة، و من زوجة إسماعيل التي بنت المضاض إلى العرب العاربة، و أن انتساب النبي صلى الله عليه و سلم إلى جده عدنان الذي هو من نسل إسماعيل بن إبراهيم الخليل، كان السبب لاعتناء مؤرخي العرب في حفظ أنساب المستعربة أكثر منه في حفظ أنساب العرب العاربة، و لهذا عددوا في كتابتهم ١٦٠ قبيلة من قبائل العرب المستعربة. و مما ذكره مؤرخوا الإسلام أن بين بناء الكعبة و ولادة النبي ٢٧٤٠ سنة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨٧

و تعرف قبائل قحطان في الجنوب بالسبائين و الحميريين و اليميين و الكلبين، و تعرف قبائل الإسماعيليين في الشمال بالعدنانيين و المعديين و المضريين و القيسيين، و من هذه الطبقة المناذرة ملوك الحيرة و العراق و أمراء الحجاز. انتهى.

ثم قال المؤلفان في موضع آخر من الكتاب: تقسيم العرب إلى عاربة و مستعربة، لا يدل على تمييز في الجنس و النسب، بل هو دال على اختلاف المعيشة من حيث الحضارة و البداوة و ما بينهما، و من أراد زيادة بيان عن مواطن قبائل العرب و مهاجراتهم، فعليه مراجعة المعجم للبكري من صحيفة ١ إلى صحيفة ٥٨، و هذا الكتاب طبع سنة ١٨٦٩ في مدينة غوتنجن من أعمال ألمانيا. انتهى من الكتاب المذكور.

أول تسمية للبلاد العربية السعودية

كان من قديم الزمان بلاد الحجاز وحدها و بلاد نجد وحدها، لم ترتبط ببعضها إلا منذ أن استولى سلطان نجد الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود على الحجاز، و ذلك سنة (١٣٤٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاث و أربعين هجرية، فلما استتب الأمر لعبد العزيز المذكور نودي به ملكا عاما على البلاد الحجازية و البلاد النجدية، فسمى من يومئذ (ملك الحجاز و نجد و ملحقاتها) و كان يطبع هذا على الأوراق الرسمية، و على العملة المتداولة بين الناس من العملة الفضية و أجزاءها و من القروش النيكل و أجزاءها أيضا.

ثم لما كان سنة (١٣٥٢ هـ) أو قبلها بسنة أو بعدها بسنة صدر أمر جلالة الملك عبد العزيز المذكور رحمه الله تعالى بتسمية البلاد الحجازية و البلاد النجدية باسم واحد، فيطلق عليهما "المملكة العربية السعودية" و منذ هذا الوقت صارت العملة تطبع بهذا الاسم و كذلك الأوراق الحكومية، و إذا طبعت الخرائط الجغرافية بعد هذا التاريخ يضعون فيها اسم المملكة العربية السعودية، فسبحان مدبر الأمور و مقلبها، و مجرى الرياح و مسيرها، بيده الأمر كله و إليه ترجعون، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

و إليك صورة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي هو أول ملك لقب بالاسم المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨٨

فضل العرب على سائر الأجناس

الكلام على فضل العرب كثير نذكر هنا نبذة صغيرة للذكرى فإن الذكرى تنفع المؤمنين، فنقول و بالله تعالى التوفيق:

يطلق العرب على كل من يتكلم اللغة العربية بالطبيعة و السليقة و كان من نفس بلاد العرب، و العرب أجناس مختلفة فمنهم الحجازي و المصري و الشامي و اليمنى و العراقي و غير ذلك. و من نظر بعين الحقيقة و التأمل و الإنصاف إلى عادات جميع أجناس البشر و أحوالهم وجد أحوال العرب و عاداتهم أحسن و أفضل من جميع الأجناس على الإطلاق فى كل زمان و مكان- و لندكر شيئاً مما ورد فى حق العرب فى القرآن الكريم و ما ورد فىهم فى الأحاديث النبوية الكريمة.

قال الله تعالى فى كتابه العزيز فى أول سورة يوسف: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

و قال فى سورة الأحقاف: وَ هَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بَشِّرِ لِلْمُحْسِنِينَ. و قال فى أواخر سورة الشعراء: وَإِنَّهُ لَكُنزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ. و قال صلى الله عليه و سلم: «أحب العرب ثلاث: لأنى عربى و القرآن عربى و كلام أهل الجنة عربى» رواه الطبرانى و البيهقى و غيرهما. و قال أيضاً: «أحبوا قريشا فإن من أحبهم أحبه الله تعالى» رواه الإمام مالك فى الموطأ و الإمام أحمد و غيرهما.

و قال أيضاً: «إن الله عز و جل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل و اصطفى قريشا من كنانة و اصطفى من قريش بنى هاشم و اصطفانى من بنى هاشم» رواه مسلم فى صحيحه.

فمما تقدم من قول الله تبارك و تعالى، و من قول رسوله صلى الله عليه و سلم، يعلم فضل العرب على سائر أجناس البشر، و لا عبرة بمن يقول أننا وجدنا فى بعض الأجناس؛ كالفرس و العجم و الهند و جاوة و هولندا و إنغلترا و أمريكا و فرنسا مثلاً- أفراداً أحسن من العرب- نقول: لا- عبرة بمثل هذا القول؛ لأن وجود أفراد فى بعض الأجناس نادر و النادر لا حكم له، فمجموع الأمة العربية أفضل و أحسن من مجموع أية أمة من الأمم الأخرى، فالله عز و جل قد خص الأمة العربية بفضائل كثير منها: الكرم و الشجاعة و المروءة و الإنسانية و الشهامة و حسن الخلق و لطيف

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٨٩

الشمائل. فإن وجد شيء من ذلك فى بقية الأمم الأخرى فإنما هو بنسبة معينة.

فالأمة العربية يأخذون من حسن الشمائل و حميد الخصال بقسط وافر، و لو وجدوا عناية و رعاية فى مسائل التعليم بمختلف أنواعه لدانت لهم جميع الأمم، فلديهم من العقل و الذكاء و سرعة الخاطر و الفهم ما يجعلهم فى مقدمة جميع الأمم و لله الحمد، و حيث إن الله تبارك و تعالى قد اختارهم و فضلهم على سائر الأمم فهنيئاً لهم هذه المنزلة الكبرى عند الله عز و جل.

و لقد ذكرت إحدى المجلات العربية عن فضل العرب نبذة لطيفة أحيينا ذكرها هنا و هذا نصها:

للعرب عند الله و عند الناس مكانة كبرى، ذكر الله مكانتهم في القرآن في مواضع متعددة و من أصدق من الله قيلا: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ يَكْفَى الْعَرَبَ فخرًا و مكانة أن جميع الرسالات السماوية نزلت في وطنهم و نبتت من أرضهم، و جميع الأنبياء و الرسل عاشوا و ماتوا و دفنوا في أرضهم، و الكعبة و بيت المقدس و طور سيناء و بيت لحم في وطنهم، و القرآن نزل بلغتهم و محمد العظيم منهم و لغه أهل الجنة يوم القيامة بلغتهم و لسان الله يوم القيامة عربى. فيالها من مفخرة و يالها من مكانة. و ليست هذه وحدها مفاخر العرب فقد كان لهم قبل الإسلام تاريخ فيه حضارة واسعة، و فيه مجد و عظمة في جزيرة العرب و ما يتصل بها من بابل و آشور و غيرهما.

و للعرب قبل الإسلام أخلاق و مكارم و مآثر و لكن تاريخ العرب الحق، و مجدهم الأعظم و مكانتهم في الإنسانية و آثارهم الخالدة .. كل أولئك يبدأ مع الإسلام و يعظم بالإسلام و يدوم و ينمو و يزداد عظمة و بهجة ما بقى في صحبة الإسلام و كفالتة.

و الإسلام دين إنسانى عظيم، جاء به خاتم النبيين الذى بعث رحمة للعالمين و هو دين يكره الحدود، حدود الأقوام و حدود الأوطان، و يدعو إلى أخوة البشر كلهم و تعاون الأمم جميعا، لا يخص قبيلة دون قبيل، و لا يميز أمة على أمة. و لكن الله اختار لرسالته نبيا من العرب فأدوا أمانته و بلغوا رسالته و جاهدوا لحمل الأمانة و تبليغ الرسالة فى الشرق و الغرب، و احتملوا من النصب و العناء، و الاغتراب و لقوا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٩٠

من السيوف و الحتوف، ما كانوا أكفاه بل أكبر منه فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله، و ما ضَعُفُوا و ما اسْتَكْتَبُوا.

حملوا هذه الرسالة العظيمة ما بين الصين فى الشرق و فرنسا فى الغرب و بلغوا فى الشمال و الجنوب بلادا قاصية و فيافى نائية. و لم يعرف التاريخ لغير الإسلام و لم يشهد لغير العرب المسلمين هذه الهمة التى لا تحد و هذه العزيمة التى لا تقهر و هذا الجهاد الذى لا يفتر و هذا الإخلاص فى الحق، و الاستشهاد فى سبيله، و ما عرف العالم دعوة كالإسلام خلطت الأمم أمة واحدة، و جعلت الأوطان و طنا واحدا، و لا عرف كالعرب دعاء جمعوا الأمم فى عدل الله و أخوة الحق، لا يفرقون بين قبيل و قبيل و لا يميزون لونا من لون، بل شعارهم قول القرآن الكريم: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ.

خالطوا الأمم، فخلطوا بعضها ببعض فجعلوها أمة واحدة تنتشر من أقصى الشرق إلى أقصى المغرب شعارها وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَوَجْهُ اللَّهِ وَ إِن فى الإسلام و العروبة لمثلا عاليا للمذاهب و الأمم، يرى فيهما البشر كيف يسير الحق القوى، و المذهب القويم، فى حضانه أمة قوية قويمه مخلصه، فتغير سير الزمان، و تبدل مجرى التاريخ، و تعلق على الحدود و القيود إلى المثل العليا التى لا تخص جيلا و لا قبيلة بل تعم الناس جميعا.

حفظ المسلمون للعرب أنهم سبقوا إلى حمل الأمانة و أداء الرسالة، فقرنوا ذكرهم بذكر الإسلام و عظموهم و أحبوهم و اتخذوهم مثلا عاليا و أسوة حسنة، و مع كل هذه المكانة و كل هذا الفضل نرى فئة من الناس من المسلمين قد تنكروا لفضل العرب و مكانتهم. و هنا أنقل للقارئ الكريم رأى أحد أئمة الإسلام فى فضل العرب و عظمتهم ليكون الدليل أقوى و الحجة أعظم على هؤلاء الذين تنكروا للحقائق و تنكروا للعروبة و مكانتها بين الأمم الإسلامية. و هذا الإمام هو شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد جاء فى كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) ما يلى بالحرف الواحد:

فإن الله تعالى خص العرب و لسانهم بأحكام تميزوا. ثم خص قريشا على سائر العرب بما جعل فيهم من خلافة النبوة، و غير ذلك من الخصائص ثم خص بنى هاشم بتحريم الصدقة و استحقاق قسط من الفىء، إلى غير ذلك من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٩١

الخصائص. فأعطى الله سبحانه كل درجة من الفضل بحسبها. والله عليم حكيم الله يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ وَ قَدْ قَالَ النَّاسُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّهُ لَدِكِّرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ فِي قَوْلِهِ: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ.

و من الأحاديث التي تذكر في هذا المعنى: ما روينا من طرق معروفة إلى محمد بن إسحاق الصنعاني، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي
حدثنا يزيد بن عوانة عن محمد بن ذكوان- خال حماد بن زيد- عن عمرو بن دينار، عن ابن عمر رضی الله عنهما قال: «إنا لنعوذ
بفناء النبي صلى الله عليه و سلم إذ مرت بنا امرأة. فقال بعض القوم:

هذه ابنة رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال أبو سفيان: مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط التنن. فانطلقت المرأة
فأخبرت النبي صلى الله عليه و سلم، فجاء النبي صلى الله عليه و سلم في وجهه الغضب فقال: ما بال أقوال تبلغني عن أقوام؟ إن الله
خلق السموات سبعة. فاختار العليا منها، و أسكنها من شاء من خلقه، ثم خلق الخلق. فاختار من الخلق بني آدم و اختار من بني آدم
العرب، و اختار من العرب مضر و اختار من مضر قريشا، و اختار من قريش بني هاشم و اختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار.
فمن أحب العرب فبحبي أحبهم و من أبغض العرب فببغضي أبغضهم».

و أيضا في المسألة ما رواه الترمذي و غيره من حديث أبي بدر شجاع بن الوليد، عن قابوس ابن أبي ظبيان، عن أبيه، عن سلمان رضی
الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «يا سلمان! لا تبغضني فتفارق دينك. قلت: يا رسول الله! كيف أبغضك و بك هداني
الله؟ قال: تبغض العرب فتبغضني» قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا يعرف إلا من حديث أبي بدر شجاع بن الوليد.
فقد جعل النبي صلى الله عليه و سلم بغض العرب سببا لفراق الدين. و جعل بغضهم مقتضيا لبغضه.

و يشبه أن يكون النبي صلى الله عليه و سلم خاطب بهذا سلمان- و هو سابق الفرس ذو الفضائل المأثورة- تنبيها لغيره من سائر الفرس
لما أعلمه الله من أن الشيطان قد يدعو النفوس إلى شيء من هذا كما أنه صلى الله عليه و سلم لما قال: «يا فاطمة بنت محمد لا أغني
عنك من الله شيئا. يا عباس عم رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمه رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئا سلوني
من مالي ما شئتم»

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٩٢

كأن في هذا تنبيه لمن انتسب لهؤلاء الثلاثة: أن لا يغتروا بالنسب و يتركوا الكلم الطيب و العمل الصالح.
و هذا دليل أن بغض جنس العرب و معاداتهم كفر. أو سبب للكفر.

و مقتضاه: أنهم أفضل من غيرهم و أن محبتهم سبب قوة الإيمان؛ لأنه لو كان تحريم بغضهم كتحريم بغض سائر الطوائف: لم يكن
ذلك سببا لفراق الدين و لا- لبغض الرسول بل كان يكون نوع عدوان. فلما جعله سببا لفراق الدين و بغض الرسول: دل على أن
بغضهم أعظم من بغض غيرهم. و ذلك دليل على أنهم أفضل؛ لأن الحب و البغض يتبع الفضل فمن كان بغضه أعظم: دل على أنه
أفضل و دل حينئذ على أن محبته دين لأجل ما فيه من زيادة الفضل، و لأن ذلك ضد البغض و من كان بغضه سببا للعذاب لخصوصه
كان حبه سببا للثواب و ذلك دليل على الفضل.

و قد جاء ذلك مصرحا به في حديث آخر رواه أبو طاهر السلفي في فضل العرب من حديث أبي بكر بن أبي داود، حدثنا عيسى بن
حماد زغبة، حدثنا علي بن الحسن الشامي، حدثنا خليل بن دعلج، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال
رسول الله صلى الله عليه و سلم: «حب أبي بكر و عمر من الإيمان و بغضهما من الكفر، و حب العرب من الإيمان و بغضهم من
الكفر».

و قد احتج حرب الكرماني و غيره بهذا الحديث و ذكروا لفظه: «حب العرب إيمان و بغضهم نفاق و كفر». انتهى ما ذكره ابن تيمية
في كتابه و فيه كفاية و عظة لكل متعظ.

و ذكر العلامة الكبير السيد محمود شكرى الآلوسى في كتابه (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) ما نصه:

روى أبو العيناء الهاشمي عن القحذمي عن شبيب بن شبة قال: كنا وقوفا بالمربد موضع بالبصرة، وكان المربد مألّف الأشراف إذ أقبل ابن المقفع فبشبننا به و بدأناه بالسلام. فرد علينا السلام ثم قال: لو ملتم إلى نيروز و ظلها الظليل، و سورها المديد و نسيمها العجيب، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض و أرحتم دوابكم من جهد الثقل، فإن الذي تطلبونه لم تفلتوه، و مهما قضى الله لكم من شيء تنالوه، فقبلناه و ملنا، فلما استقر بنا المكان قال لنا: أي الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا: لعله أراد أصله من فارس فقلنا: فارس. فقال: ليسوا بذلك،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٩٣

إنهم ملكوا كثيرا من الأرض ... و وجدوا عظيما من الملك، و غلبوا على كثير من الخلق، و لبث فيهم عقد الأمر فما استنبطوا شيئا بقولهم و لا- ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم. قلنا: فالروم. قال أصحاب صنعة. قلنا: فالصين. قال: أصحاب طرفه. قلنا فالهند. قال: أصحاب فلسفة. فقلنا: السودان. قال: شر خلق الله.

قلنا: الترك. قال: كلاب مختلصة. قلنا: الخزر قال: بقر سائمة قلنا: فقل. قال:

العرب. قال فضحكنا قال: أما إني ما أردت موافقتكم، و لكن إذ فاتني حظي من النسبة، فلا- يفوتني حظي من المعرفة. إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها و لا آثار أثرت، أصحاب إبل و غنم و سكان شعر و آدم يجود أحدهم بقوته، و يتفضل بمجوده و يشارك في مسوره و معسوره، و يصف الشيء بعقله فيكون قدوة، و يفعله فيصير حجة، و يحسن ما شاء فيحسن، و يقيح ما شاء فيقيح.

أدبتهم أنفسهم، و رفعتهم همهم، و أعلتهم قلوبهم و ألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم و جباؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر و خلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم و لهم. فقال سبحانه: إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ فمن وضع حقهم خسر، و من أنكر فضلهم خصم، و دفع الحق باللسان، أكبت للجنان.

هذا قليل من كثير من الأدلة على فضل العرب و مكاتبتهم بين الأمم الإسلامية. انتهى من المجلة المذكورة.

مناظرة بين النعمان بن المنذر و كسرى أنوشروان في شأن العرب

جاء في جواهر الأدب المناظرة التي وقعت فيما بين النعمان بن المنذر و كسرى أنوشروان- في شأن العرب و هي مناظرة تظهر فضل العرب تستحق تسجيلها في تاريخنا هذا- و إليك نصها:

روى ابن القطامي عن الكلبي قال: قدم النعمان بن المنذر على كسرى، و عنده وفود الروم، و الهند، و الصين، فذكروا من ملوكهم و بلادهم- فافتخر النعمان بالعرب و فضلهم على جميع الأمم، لا يستثنى فارس و لا غيرها.

فقال كسرى و أخذته عزة الملك: يا نعمان، لقد فكرت في أمر العرب و غيرهم من الأمم، و نظرت في حالة من يقدم على من وفود الأمم- فوجدت للروم حظا في اجتماع ألفتها، و عظم سلطانتها، و كثرة مدائناتها، و وثيق بنيانها،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٩٤

و أن لها ديناً بين حلالها و حرامها، و يرد سفيهاها و يقيم جاهلها- و رأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها و طبها، مع كثرة أنهار بلادها و ثمارها، و عجيب صناعاتها، و طيب أشجارها، و دقيق حسابها، و كثرة عددها، و كذلك الصين في اجتماعها، و كثرة صناعات أيديها، و فروسيتها في آلة الحرب و صناعة الحديد و أن لها ملكاً يجمعها- و الترك و الخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش، و قلة الريف و الثمار و الحصون، و ما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن و الملابس لهم ملوك تضم قواصيمهم و تدبر أمرهم- و لم أر للعرب شيئا من خصال الخير في أمر دين و لا دنيا، و لا حزم و لا قوة، و مع أن مما يدل على مهانتها و ذلها، و صغر همتها، محلثهم التي هم بها مع الوحوش النافرة، و الطير الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة، و يأكل بعضهم بعضاً من الحاجة، قد خرجوا من مطامع

الدنيا و ملابسها و مشاربها و لهوها و لذاتها. فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها، و سوء طعمها، و خوف دائها، و إن قرى أحدهم ضيفا عدها مكرمة، و إن أطعم أكلة عدها غنيمته، تنطق بذلك أشعارهم، و تفتخر بذلك رجالهم (ما خلا هذه التلوخيئة التي أسس جدى اجتماعها و شد مملكتها، و منعها من عدوها، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، و إن لها مع ذلك آثارا و لبوسا و قرى و حصونا و أمورا تشبه بعض أمور الناس). يعنى: اليمن.

ثم لا أراكم تستكبنون على ما بكم من المذلة، و القلة، و الفاقة، و البؤس حتى تفتخروا، و تريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس. قال النعمان: أصلح لله الملك. حق لأمة، الملك منها أن يسمو فضلها، و يعظم خطبها، و تعلق درجتها، إلا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه، و لا تكذيب له، فإن أمنى من غضبه نطقت به. قال كسرى: قل فأنت آمن.

قال النعمان: أما أمتك أيها الملك: فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به، من عقولها و أحلامها و بسطة محلها، و بحبوحة عزها، و ما أكرمها الله به من ولاية آبائك و ولايتك، و أما الأمم التي ذكرت فأية أمة تفرنها بالعرب إلا فضلها. قال كسرى: بماذا؟

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٩٥

قال النعمان: بعزها و منعته، و حسن وجوها و بأسها و سخائها و حكمته ألسنتها، و شدة عقولها و أنفتها و وفائها. فأما عزها و منعته، فإنها لم تنزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد، و وطدوا الملك، و قادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، و لم ينلهم نائل، حصونهم ظهور خيلهم و مهادهم الأرض، و سقوفهم السماء، و جنتهم السيوف، و عدتهم الصبر - إذ غيرها من الأمم، إنما عزها الحجارة و الطين و جزائر البحور.

و أما حسن وجوها و ألوانها، فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة، و الصين المنحفة، و الترك المشوهة، و الروم المقشرة.

و أما أنسابها و أحسابها، فليست أمة من الأمم إلا و قد جهلت آباءها و أصولها و كثيرا من أولها، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه و لا يعرفه، و ليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا. حاطوا بذلك أحسابهم، و حفظوا به أنسابهم، فلا يدخل فى غير قومه، و لا ينتسب إلى غير نسبه، و لا يدعى إلى غير أبيه.

و أما سخاؤها: فإن أديانهم رجلا الذى تكون عنده البكرة و الثاب، عليها بلاغه فى حمولة، و شبعه و ربه، فيطرقة الطارق الذى يكتفى بالفلذة و يجتزئ بالشربة، فيعقرها له، و يرضى أن يخرج عن دنياه كلها، فيما يكسبه حسن الأحداث و طيب الذكر.

و أما حكمته ألسنتهم: فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم و رونق كلامهم و حسنه و وزنه، و قوافيه، مع معرفتهم بالأشياء و ضربهم للأمثال و إبلاغهم من الصفات ما ليس لشيء من السنة الأجناس - ثم خيلهم أفضل الخيل، و نساؤهم أعف النساء، و لباسهم أفضل اللباس، و معادنهم الذهب و الفضة، و حجارة جبالهم الجزع، و مطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفر، و لا يقطع بمثلها بلد قفر.

و أما دينها و شريعتها: فإنهم متمسكون به، حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً محرماً، و بيتاً محجوجاً، ينسكون فيه مناسكهم و يذبحون فيه ذبائحهم، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه، و هو قادر على أخذ ثاره و إدراك رغبته منه، فيحجزه كرمه، و يمنع دينه عن تناوله بأذى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٩٦

و أما وفاؤها: فإن أحدهم يلحظ اللحظة، و يومئ الإيماء، و هى ولى (أى عهد) و عقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، و إن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدينه، فلا يغلق رهنه، و لا تخفر ذمته، و إن أحدهم ليلبغ أن رجلا استجار به، و عسى أن يكون نائيا عن داره فيصاب، فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، و إنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من

غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه، و أموالهم دون ماله.

و أما قولك أيها الملك: يثدون أولادهم فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيره من الأزواج.

و أما قولك: إن أفضل طعامهم من لحوم الإبل على ما وصفت منها، فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له، فعمدوا إلى أجلها و أفضلها، فكانت مراكبهم و طعامهم، مع أنها أكثر البهائم شحوما، و أطيبها لحوما، و أرقها ألبانا، و أقلها غائله، و أحلاها مضغته، و إنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه.

و أما تحاربهم و أكل بعضهم و تركهم الانقياد لرجل يسوسهم و يجمعهم فإنما يفعل ذلك من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفا، و تخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف، و إنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم، و ينقادون لهم بأزمتهم.

و أما العرب فإن ذلك كثير فيهم، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج و الوط (أي الضرب الشديد بالرجل على الأرض) بالعسف.

و أما اليمن التي وصفها الملك، فإنما أتى جد الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الجيش له على ملك متسق، و أمر مجتمع، فأتاه مسلوبا طريدا مستصرخا، و لو ما وتر به من يليه من العرب لمال إلى مجال، و لوجد من يجيد الطعان، و يغضب للأحرار، من غلبة العبيد الأشرار.

قال: فعجب كسرى لما أجابه النعمان به، و قال: إنك لأهل لموضعك من الرئاسة في أهل إقليمك. ثم كساه من كسوته و سرحه إلى موضعه من الحيرة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 97

فلما قدم النعمان الحيرة و في نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب و تهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفى، و حاجب بن زرارة التميميين، و إلى الحارث بن ظالم، و قيس بن مسعود البكرين، و إلى خالد بن جعفر، و علقمة بن علاثة، و عامر بن الطفيل العامريين، و إلى عمرو بن الشريد السلمى، و عمرو بن معد يكرب الزبيدى، و الحارث بن ظالم المرى. فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم، و قرب جوار العرب منها، و قد سمعت من كسرى مقالات، تخوفت أن يكون لها غور، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولا- كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله- فاقصص عليهم مقالات كسرى، و ما رد عليه فقالوا: أيها الملك وفقك الله ما أحسن ما رددت، و أبلغ ما حججته، فمرنا بأمرك، و ادعنا إلى ما شئت.

قال: إنما أنا رجل منكم، و إنما ملكت و عززت بمكانكم و ما يتخوف من ناحيتكم، و ليس شيء أحب مما سدد الله به أمركم، و أصلح به شأنكم و أدام به عزكم- و الرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط، و تنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم: نطق كل رجل منكم بما حضره، ليعلم أن العرب على غير ما ظن، أو حدثته نفسه، و لا- ينطق رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان، كثير الأعداء، مترف معجب بنفسه، و لا- تنخذلوا له انخذال الخاضع الدليل، و ليكن أمر بين ذلك، تظهر به دماثة حلومكم، و فضل منزلتكم، و عظيم أخطاركم، و ليكن أول من يبدأ منكم بالكلام (أكثم بن صيفى) ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم علمى بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه، فلا يكون ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعنا، فإنه ملك مترف، و قادر متسلط. ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملوك، و أعطى كل رجل منهم حلة، و عممه عمامة، و ختمه بياقوته، و أمر لكل رجل منهم بنجيبه مهريه، و فرس نجيبه.

و كتب معهم كتابا هذا نصه:

أما بعد، فإن الملك ألقى إلى من أمر العرب ما قد علم، و أجبته بما قد فهم مما أحببت أن يكون منه على علم، و لا يتلجلج في نفسه

أن أمه من الأمم التي احتجرت دونه بمملكته، و حمت ما يليها بفضل قوتها، تبلغها من الأمور التي

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٩٨

يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيده- وقد أفدت أيها الملك رهطاً من العرب، لهم فضل في أحسابهم و أنسابهم، و عقولهم و آدابهم، فليسمع الملك و ليغمض لا عن جفاء إن ظهر من منطقتهم، و ليكرمني بإكرامهم، و تعجيل سراحهم و قد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرتهم.

فخرج القوم في أهبتهم: حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان، فقرأه و أمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم- فلما أن كان بعد ذلك بأيام، أمر مرزبته، و وجوه أهل مملكته فحضروا و جلسوا على كراسي عن يمينه و شماله، ثم دعا بهم على الولاء، و المراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه و أقام الترجمان ليؤدي إليه كلامهم، ثم أذن لهم في الكلام. فقام أكتهم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، و أعلا الرجال ملوكها، و أفضل الملوك أعمها نفعاً، و خير الأزمنة أخصبها، و أفضل الخطباء أصدقها ... (إلى آخر كلامه الذي لا نحسب نقله و سرده خوف التويل).

ثم قام كل واحد من رفقاءه التسعة فخطب أمام كسرى خطبةً بليغةً قيمةً، أظهرت ما للعرب من الفضل و الكرم و البلاغة و الفصاحة، حتى أن كسرى تأثر من خطبة كل واحد منهم خطبها أمامه من شعر أو نثر.

فلما فرغوا من خطبهم و كلامهم- قال كسرى حينئذ: ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه، ثم أعظم صلاتهم أجمعين و ردهم إلى أقوامهم معظمين.

انتهى كل ذلك نقلاً- عن كتاب جواهر الأدب للهاشمي. و كان بودنا ذكر نص خطبة كل واحد منهم لكن ذلك يؤدي بنا إلى التويل.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٩٩

نبذة من سيرة النبي صلى الله عليه و سلم

إشارة

لما كان بلد الله الأمين (مكة المكرمة) محل ولادة خاتم النبيين، سيدنا و نبينا (محمد) صلاة الله و سلامه عليه، و على آله و صحبه أجمعين، كان من الأفضل أن نتشرف بذكر نبذة من سيرته العطرة، و نبذة من هجرته المباركة إلى المدينة المنورة، و نبذة من كل ما يتعلق بسيرته صلى الله عليه و سلم، للذكرى و العظة، و التفكير و الاعتبار، نتشرف بذكر كل ذلك كالمقدمة تكون أمام المقصود، فرحم الله تعالى من يقول:

و إن أولى ما تحلى المسلم بعد كتاب الله بل يحتم

علم بأيام رسول الله من لدن النشأ إلى التناهي

و حفظ ما يحق أن لا يجهل من أمره و حاله مفصلاً

و بعد الانتهاء من كل هذا إن شاء الله تعالى، نبدأ الكلام عن تاريخ بلد الله الحرام، ذلك البلد الأمين الذي أقسم الله تعالى في كتابه العزيز فقال عز شأنه:

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَقَالَ أَيْضاً تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَاللَّيْلِ وَالرَّيُّوتِ * وَطُورِ سَيْنِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَقْسِمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ إِلَّا بِأَفْضَلِ الْأَشْيَاءِ وَأَشْرَفِهَا، وَمَكَّةُ الْمَكْرَمَةُ أَشْرَفُ بَقْعَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَأَفْضَلُ مَكَانٍ تَحْتَ قَبَةِ السَّمَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ، وَفِيهَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَالمشاعر العظام، و لا يكون أداء فريضة الحج الذي

هو خامس أركان الإسلام إلا فيها.

فمكة بلد الله الحرام، و مهبط الوحي و الملائكة الكرام، و مأوى الأولياء و الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، إنها لخليقة بكل رعاية، و جديرة بكل عناية، حسا و معنا، فهنيئا لمن عظم أمرها و أكرم أهلها، و أخلص لله و رسوله فيها.

اللهم وفقنا لمرضاتك، و عاملنا بما أنت أهله، لا بما نحن أهله آمين يا رب العالمين يا الله.

لا ندرى و الله كيف نكتب عن ترجمة حياة سيدنا و مولانا "محمد" رسول الله صلى الله عليه و سلم، الذى أرسله الله رحمة للعالمين، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، ماذا نكتب عن سيد ولد آدم و خاتم الأنبياء و المرسلين، ماذا يمكن لعاجز اللسان و القلم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠٠

أن يكتب عن اختاره الله و اصطفاه، فأرسله إلى الناس كافة بشيرا و نذيرا، ماذا يمكن أن يكتب هذا العاجز عن أراه الله تعالى ملكوت السموات و الأرض و يجتمع به ملائكة الله المقربون، ماذا يكتب هذا الضعيف العاجز عن أسرى به إلى السموات السبع، بل إلى ما فوق ذلك و كلمه ربه.

الحقيقة أن المؤمن الصادق الممتلى حبا و معرفة برسول الله صلى الله عليه و سلم ليقف حيران فى ناحية الكتابة عن هذا النبى العربى الأسمى الذى تربى يتيما، و قام بالدعوة إلى الله تعالى وحده، حتى تغلب على جاهلية العرب، و قلب معتقداتهم الشركية إلى عبادة الله وحده لا شريك له، و أضاء ما جاء به من الدين القويم ما بين المشرق و المغرب، و لا يزال هذا الدين الحنيف قائما إلى أن تقوم الساعة.

كيف لا- يحتار الإنسان فى الكتابة عن ينزل عليه الوحي من السماء فلا- ينطق عن الهوى، فيستقى معلوماته عن الروح الأمين عليه السلام، و ماذا يكتب مثلنا أعمى القلب و البصر عن تمام عيناه و لا ينم قلبه، و عن يرى من خلفه كما يرى من أمامه، و عن أطلعه الله تعالى على ملكوت السموات و الأرض، و عن عرج به إلى ما فوق السموات السبع حتى سمع صريف الأقلام و رأى من آيات ربه الكبرى ما رأى، و إذا كنا نحن لا نعرف عن أنفسنا و لا نحيط بها علما فكيف يمكننا أن نعرف رسول الله صلى الله عليه و سلم فنكتب عنه- و رحم الله من قال:

روى السيوطى فى كبرى الخصائص عن طه عن الروح عن ذى العرش سبحانه
لا يعرف الله إلا الله جل كمالا يعرف المصطفى إياه عرفانه
و ما أحلى هذا البيت:

إذا الله أثنى بالذى هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى

على أنه لا بد لنا أن نتشرف بذكر نبذة قصيرة عن حياته الشخصية المباركة صلى الله عليه و سلم، حيث إننا فى صدد وضع تاريخ منقح عن البلدة التى أشرقت بولادته عليه الصلاة و السلام، و هى بلد الله الأمين "مكة"، و إن توسعنا فى الحديث عما يتعلق به صلى الله عليه و سلم فإنما يكون ذلك فى ثلاثة مباحث:

(الأول): قصة الإسراء و المعراج، (الثانى): قصة الهجرة إلى المدينة المنورة، (الثالث): قصة فتح مكة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠١

فغير هذه المباحث الثلاثة لا- نتوسع فيها، و لو أردنا استيفاء الكلام عن تاريخه صلى الله عليه و سلم من جميع النواحي لاحتجنا إلى وضع مجلدات ضخمة، و رضى الله عن علمائنا الأعلام فقد أتوا بالكلام الشافى الوافى عن سيرة رسول الله صلى الله عليه و سلم من جميع النواحي.

و هنا نتشرف بالبدء بجزء يسير عن ترجمته صلى الله عليه و سلم، فنقول و بالله التوفيق و منه تعالى نستمد العون فى كل صغيرة و كبيرة
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ:

نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن نبينا "محمدًا" صلى الله عليه وسلم ينتهي نسبه الشريف إلى خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فهو من ذريته بدون شك، ولقد أجمع العلماء إلى أن نسبه الشريف يقف إلى عدنان كما سيأتي بيانه، وما فوق عدنان لا يصح فيه طريق. وأنه صلى الله عليه وسلم لم يزل ينتقل من أصلاب آباء طاهرين إلى أرحام أمهات طاهرات، وكلهم من سادات العرب وكرام القوم، ولم يكن في نسبه صلى الله عليه وسلم شيء من سفاح الجاهلية، فقد طهره الله عز شأنه من كل شائبة، كما هو اللائق بنسب سيد ولد آدم خاتم النبيين وإمام المتقين وشفيع الأمة يوم الدين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين. روى مسلم في صحيحه عن واثله بن الأسقع رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم». وروى الترمذى عن العباس بن عبد المطلب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم، ثم تخير القبائل فجعلني في خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا». ١٥. و إلى معنى الأحاديث المتقدمة أشار بعضهم بقوله:

محمد خير بنى هاشم فمن تميم و بنو دارم

و هاشم خير قريش و مامثل قريش في بنى آدم

و لبعضهم:

قريش خيار بنى آدم و خير قريش بنو هاشم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠٢ و خير بنى هاشم أحمد رسول الإله إلى العالم

و لبعضهم:

لله مما قد برا صفوة و صفوة الخلق بنو هاشم

و صفوة الصفوة من بينهم محمد و النور و أبو القاسم

و من لطيف ما يحكى: أن معاوية رضى الله عنه كان جالسا و عنده جماعة من الأشراف- فقال معاوية: "من أكرم الناس أبا و أما، و جدا و جدة، و عما و عمه، و خالا و خالة؟" فقال النعمان بن العجلان الزرقى بعدما أخذ بيد الحسن فقال: هذا، أبوه على بن أبى طالب، و أمه فاطمة، و جده رسول الله صلى الله عليه وسلم، و جدته خديجة، و عمه جعفر، و عمته أم هانئ ابنة أبى طالب، و خاله القاسم، و خالته زينب- فهذا هو الشرف الذى لا يدانى و الفضل الذى لا يبارى- انتهى من صبح الأعشى. فنسبه صلى الله عليه وسلم من جهة أمه هو كما يأتى:

محمد بن آمنه الزهرية بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، فيجتمع نسب أبيه و أمه في كلاب.

و أما نسبه صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه فهو كما يأتى في هذا الجدول:

عدد/ النسب الشريف/ نبذة عن أحوال آباءه الكرام /١/ محمد صلى الله عليه وسلم/ ولد عام الفيل، و توفي في ربيع من السنة الحادية عشرة من الهجرة، و عمره ثلاث و ستون سنة.

٢/ ابن عبد الله/ تزوج عبد الله بآمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم و هو ابن ثلاثين سنة، و قيل أقل- و توفي عبد الله بعد أن حملت آمنة بالنبي صلى الله عليه وسلم بشهرين، و دفن بالمدينة عند أخواله بنى عدى بن النجار، و من دقائق لطف الله عز وجل أن يكون اسم والد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم اسما كريما محبوبا، مع ندره التسمية به في ذلك الزمن الجاهلى و هو "عبد الله" حتى إذا انتسب صلى الله عليه وسلم إلى أبيه كان انتسابا صحيحا حسا و معنى، فلم يكن اسم أبيه عبد العزى، و لا- عبد هبل، و لا ابن

كلاب، ولا ابن مرة، و أمثالها من أسماء الجاهلية، حقا إنه صلى الله عليه و سلم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠٣

// عبد الله و رسوله.

٣/ ابن عبد المطلب / و اسمه شيبه الحمد، كان حسن الخلقة، و كان سيد قريش و شريفها و حلیمها و هو الذى حفر بئر زمزم، و أخرج منها الغزاليين الذهب و الأسياف و الدروع التى دفنتها فيها جرهم.

٤/ ابن هاشم / و اسمه عبد العلاء، كان يهشم الثريد لقومه فى الجذب و يصنع الطعام للحاج و يملأ الأحواض بالمسجد بالماء لسقاية الحاج.

٥/ ابن عبد مناف / و اسمه المغيرة، تولى ولاية مكة بعد أبيه قصي، و ورث منه شرف القيادة و دار الندوة و السقاية.

٦/ ابن قصي / و اسمه زيد، و يقال له: مجمع لأنه جمع قبائل قريش بعد تفرقها، و كان بيده أمر مكة و ولاية البيت.

٧/ ابن كلاب / و اسمه حكيم، و هو أول من أهدى إلى الكعبة سيفين محلايين بالذهب جعلهما فى خزانتها.

٨/ ابن مرة / و اسمه محشيه و كنيته أبو يقظة، و مرة منقول من وصف الحنظلة و العلقمة.

٩/ ابن كعب / سمي كعبا لعلو قدره و ارتفاع منزلته عند قريش، و هو أول من قال "أما بعد" كان بينه و بين مبعث النبي صلى الله عليه و سلم خمسمائة و ستون سنة، كان يعظ قومه و يبشرهم بمبعث النبي صلى الله عليه و سلم و أنه من ولده، و كان العرب بعد موته يؤرخون بوفاته إلى عام الفيل.

١٠/ ابن لؤي / و يكنى أبا كعب، كان حلیمًا حكيمًا، نطق بالحكمة و هو صغير، و كان التقدم فى بنيه على قبائل قريش.

١١/ ابن غالب / و كنيته أبو تيم.

١٢/ ابن فهر / و كنيته أبو غالب، و كان يسد حاجة المحتاج من ماله، و كان بنوه يتفقدون الحاج فى الموسم و يسألونهم عن حوائجهم فيرفدونهم و يسدون

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠٤

// عوزهم.

١٣/ ابن مالك / و يكنى أبا الحارث، سمي مالكا لأنه ملك العرب فى زمانه.

١٤/ ابن النضر / و اسمه قيس و يكنى أبا مخلد، و لقب بالنضر لنضارته و حسنه و جماله.

١٥/ ابن كنانة / سمي بكنانة؛ لمحافظة على أسرار قومه، و كان عظيم القدر، تحج إليه العرب لعلمه و فضله، و كان يبشر قومه بخروج نبي من مكة يدعى "أحمد" صلى الله عليه و سلم.

١٦/ ابن خزيمه / و يكنى أبا أسد، خلف من الولد خمسة، و من هؤلاء تفرعت بطون بأسمائهم.

١٧/ ابن مدركة / و اسمه عمرو، سمي بمدركة لأنه أدرك كل عز و فخر كان فى آبائه.

١٨/ ابن إلياس / و يكنى أبا عمر، كان أمره عظيما عند العرب بعد أبيه، فكانوا يدعونه بسيد عشيرته، و كان فيهم مثل لقمان الحكيم فى قومه، و كانوا لا يقطعون أمرا دونه، و هو أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام.

١٩/ ابن مضر / و اسمه عمرو، و كانت له الغلبة بالحجاز على سائر بنى عدنان و الرياسة بمكة المكرمة و الحرم.

٢٠/ ابن نزار / و اسمه خلدان، و يكنى أبو إيد، و هو أول من اتكأ على العصا فى الخطبة، قيل هو أول من قال "أما بعد" و هو صاحب الخطبة العظيمة التى رواها صاحب السيرة الشامية.

٢١/ ابن معد / و يكنى أبا قضاة و منه بطون عدنان بأجمعها، و لم يحارب أحدا إلا انتصر عليه.

٢٢/ ابن عدنان / و إلى عدنان هذا ينتهى نسب النبي صلى الله عليه و سلم كما رواه البخارى فى صحيحه، قيل كان عدنان فى زمن

موسى عليه الصلاة والسلام، والله تعالى أعلم، فأنت ترى أن آباءه صلى الله عليه وسلم من أشرف العرب

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠٥

// و ساداتها، و أمه من أفضل نساء قريش نسبا و موضعا- اللهم صل و سلم على عبدك و نبيك سيدنا "محمد" و على آله الطاهرين و أصحابه الطيبين، و ارض عنا معهم بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين.

[توحيد آباءه صلى الله عليه وسلم]

و اعلم، أن آباءه صلى الله عليه وسلم موحدون و ناجون؛ لأنهم كانوا يتعبدون على مله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، و كانوا من أهل الفترة- جاء في شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم ما نصه: قال في شرح نظم عمود النسب: قال ابن حجر الهيثمي: إن الأحاديث مصرحة لفظا و معنى أن آباءه صلى الله عليه وسلم غير الأنبياء و أمهاته إلى آدم و حواء ليس فيهم كافر، لأن الكافر لا يقال في حقه مختار و لا كريم و لا طاهر بل نجس. و قد جاء في الحديث أن آباءه مختارون و أنهم كرام، و أن أمهاته طاهرات، و أيضا فهم إلى إسماعيل من أهل الفترة، و هم في حكم المسلمين بنص قوله تعالى: وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا انتهى كلامه. روى أبو نعيم: «لم يلتق أبواى قط على سفاح، لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا، لا تشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما».

جاء فى كتاب الأبرج أن القاضى أبا بكر بن العربى سئل عن رجل قال: إن أبوى النبى صلى الله عليه وسلم فى النار- فأجاب بأنه ملعون؛ لأن الله تعالى قال: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا. قال: و لا أذى أعظم من أن يقال عن أبويه صلى الله عليه وسلم فى النار. انتهى كلامه.

و لقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال:

من يقل فى النار والد النبى فهو لعين قاله ابن العربى

و من يقل بالنار ربى يحرق أم النبى كافر يحرق

انتهى من شرح زاد المسلم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠٦

و انظر ما جبل عليه صلى الله عليه وسلم من مكارم الأخلاق، فقد جاء فى الجزء الأول من تاريخ الخميس ما نصه: "و لما وصل عكرمة بن أبى جهل قريبا من مكة ليسلم، قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه: يأتىكم عكرمة بن أبى جهل مؤمنا فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذى الحى و لا يلحق الميت." انتهى.

إذا علمت ما تقدم فهل يطيب قلب المؤمن الصادق المحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يقول إن أبوى النبى عليه الصلاة والسلام ماتا كافرين- كلا و الله.

و إذا كان رجل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أين أبى فقال: إن أبى و أباك فى النار، كما فى صحيح مسلم تواضعا منه صلى الله عليه وسلم، و جبرا لخاطر هذا الرجل السائل، فهل يليق بنا من باب الأدب على الأقل أن نقول نحن ذلك- كلا و الله.

و إذا كان صلى الله عليه وسلم، قال عن نفسه للرجل الذى دخل عليه فأخذته رعدة من هيبتة: هوّن عليك فإنى لست بملك و لا جبار، و إنما أنا ابن امرأه من قريش تأكل القديد بمكة. فنطق الرجل بحاجته- فهل يليق بنا أن نقول نحن إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ابن آكلة القديد- كلا و الله.

و إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فى عمه أبى طالب الذى هو شقيق أبىه عبد الله: "لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة، فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلى منه دماغه" كما ورد فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.

و جاء فيهما أيضا عن العباس رضى الله عنه، قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أغنيت عن عمك أبى طالب، فإنه كان يحوطك و يغضب لك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هو فى ضحضاح من نار، و لولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار».

و الضحضاح بفتح الضاضين المعجمتين، قال ابن الأثير: هو ما رق من الماء على وجه الأرض قدر ما يبلغ الكعبين فاستعير للنار-١٥. فهل نقول بموجب هذين الحديثين: إن أبى طالب أحسن حالا من أبوى النبى صلى الله عليه وسلم، من حيث إن النار تبلغ إلى كعبيه بشفاعه النبى صلى الله عليه وسلم له يوم القيامة مع أنه مات كافرا، فقد دعاه صلى الله عليه وسلم فى مرض موته إلى الإسلام فأبى. أما والد النبى صلى الله عليه وسلم فقد مات أبوه و هو فى بطن أمه، و ماتت أمه و هو فى السادسة من عمره، فكيف نحكم بكفرهما إذا، و الله تعالى أكرم من أن يجعل والدى رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم فى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠٧

النار، و هو الذى قد خرج من بينهما فأرسله الله تعالى رحمة للعالمين، و إذا قال الله تعالى له زيادة فى إكرامه و رفعة فى مقامه: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى فمما لا شك فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يرضى فى الآخرة أن يتنعم بنفسه فى الجنة و أبواه فى النار.

هذا و إن اختلف العلماء فى نجاة آباءه صلى الله عليه وسلم، فالقول الأصح السديد أنهم ناجون.

و نحن نرى أن الجدل و الخوض فى عدم نجاة أبويه صلى الله عليه وسلم فيه من المجازفة و المخاطرة ما فيه، و الصمت و السكوت عن ذلك أحسن و أفضل، و أسلم و أكمل، تأدبا و احتراما لمقام النبوة، بل إن من يقرأ سير آباءه صلى الله عليه وسلم فى كتب التاريخ يامعان و تدقيق، ينكشف له أنهم من أشرف الناس و قاداتهم، و أنهم أعرف بالله من غيرهم، و كانوا يتعبدون على مله إبراهيم عليه الصلاة و السلام، و كانوا يأمرن بمكارم الأخلاق، و يتصفون بأفضل الصفات، كما كانوا يعرفون أنه سيبعث منهم نبى يأمر بالمعروف و يدعو إلى عبادة الله تعالى.

و هذا عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم لما جاء أبرهه بفيله ليهدم الكعبة شرفها الله تعالى و أخذ لعبد المطلب مائتى بعير، ذهب إليه عبد المطلب ليأمر برد إبله إليه، فقال له أبرهه: لقد زهدت فيك، جئت لأهدم بيتا هو دينك و دين آباءك، فلم تكلمنى فيه و تكلمنى فى مائتى بعير؟

فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل، و البيت له رب يمنعه منك.

فلما رجع عبد المطلب أمر قريشا أن يتفرقوا فى الشعاب و يتحرزوا فى رؤوس الجبال ففعلوا، ثم أتى عبد المطلب إلى البيت الحرام و أخذ بحلقه الباب و جعل يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنع منهمو حماكا

إن عدو البيت من عادا كافامنعمو أن يخربوا قراكا

فانظر أيها القارئ الكريم بعين التحقيق و الإنصاف إلى قول عبد المطلب الجد الأول للنبى صلى الله عليه وسلم. أليس معرفته بالله واضحة فى قوله كالشمس؟ و النبى صلى الله عليه وسلم لم يولد إلا بعد هذه الحادثة بنحو شهرين أو ثلاثة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠٨

ترجمة عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم

عبد المطلب هو الجد الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم،" فلعبد المطلب مناقب عظيمة و مآثر عديدة لا تنحصر فى كتاب، و نحن هنا نأتى بترجمة مختصرة له فنقول:

عبد المطلب اسمه شيبه الحمد، سمي بذلك؛ لأنه ولد فى رأسه الشيب، و إنما سمي عبد المطلب لأن والده هاشم تزوج سلمى بنت

عمر بالمدينة في بنى عدى بن النجار، فولد له شيبه، فتركه عند أمه حتى صار غلاما، فلما مات هاشم خرج أخوه "المطلب بن عبد مناف" إليه فأخذه من أمه فاحتلمه و أردفه على بعير و دخل مكة فقالت قريش: هذا عبد ابتاعه المطلب فسمى بعد ذلك بعبد المطلب.

كان عبد المطلب جسيما و سيما أبيض فصيحاً، ما رآه أحد إلا أحبه، و كان قاضى العرب و سيد قريش و شريفها و حليمها، و كان يعبد الله تعالى على مله إبراهيم عليه السلام، و كان إذا دخل شهر رمضان يصعد على جبل حراء و يتعبد فيه جميع الشهر، و أطعم المساكين، و لقد كان يحث الناس على مكارم الأخلاق، و قد حرّم الخمر و نكاح المحارم و الزنا و وأد البنات و هو دفنهن أحياء، و كان يأمر أولاده بترك البغى و الظلم.

و كان يقال له: الفياض؛ لجوده و كرمه، و كان يطعم الناس بالسهل و الجبل، و يطعم الوحوش في رؤوس الجبال، و هو الذى حفر بئر زمزم و أخرجه بعد أن درس موضعه و عفى أثره، فهداه الله تعالى إلى مكانه كما تقدم بيان ذلك بالتفصيل في محله، و هو أول من جعل الحليّة على الكعبة المشرفة حيث ضرب الأسياف و الغزالين من الذهب التى استخرجها من بئر زمزم فى الكعبة.

و لعبد المطلب مع أبرهه صاحب الفيل الذى جاء لهدم الكعبة قصة شهيرة، و كان أبرهه قد أصاب أموال قريش و غيرهم، و أخذ مائتى بعير لعبد المطلب، فلما ردها إليه إكراما له انصرف عبد المطلب من عنده إلى قريش، و أمرهم بالخروج من مكة و التحرز فى شعف الجبال، خوفا عليهم من جيش أبرهه، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة و قام معه نفر من قريش يدعون الله تعالى عز و جل و يستنصرونه على أبرهه و جنده، فقال عبد المطلب و هو آخذ بحلقة باب الكعبة:

يا رب إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٠٩ لا يغلبن صليبههم و محالهم عدوا محالك

إن كنت تاركهم و قبلتنا فأمر ما بدالك

و لئن فعلت فإنه أمر يتم به فعالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة و انطلق هو و من معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما يفعل أبرهه بمكة إذا دخلها. و قال عبد المطلب ستة أبيات، منها:

نحن أهل الله فى بلدته لم يزل ذاك على عهد إبراهيم

نعبد الله و فينا شيمه صلته القربى و إيفاء الذمم

إن للبيت لربا مانعاً من يرد به آثام يصطلم

فلما أصبح أبرهه تهيأ لدخول مكة و هدم الكعبة، فمنعه الله عز شأنه و عظمت قدرته من ذلك و أرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول.

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه و عن أبيه قال: سمعت أبى يقول:

كان عبد المطلب أطول الناس قامه، و أحسنهم وجهاً، ما رآه قط شىء إلا أحبه.

و كانت له مفرش فى الحجر لا يجلس عليه غيره، و لا يجلس معه عليه أحد، و كان الندى من قريش حرب بن أمية فمن دونه يجلسون حوله دون المفرش، فجاء رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو غلام يدرج ليجلس على المفرش، فاجذوه فبكى، فقال عبد المطلب - و ذلك بعد ما حجج بصره - ما لابنى يبكى؟

قالوا له: إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه.

فقال عبد المطلب: دعوا ابنى فإنه يحس بشرف أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربى قط.

قال: و توفى عبد المطلب و النبى صلى الله عليه و سلم ابن ثمان سنين، و كان خلف جنازته يبكى حتى دفن بالحجون. انتهى، ملخصاً

من الأزرقى.

وقد عاش عبد المطلب مائة و أربعين سنة. هذه ترجمته مختصرة لجد النبي صلى الله عليه و سلم، فلو توسعنا فى ترجمته لطلال بنا الكلام، فإن كل أجداد رسول الله صلى الله عليه و سلم لهم مناقب و ميزات خصّهم الله تعالى بها لا توجد فى غيرهم، فكل من ينتمى إليه سعيد شريف.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١٠

و انظر أيضا إلى قول أحد شعراء العرب و هو أبو الصلت الثقفى من أهل الجاهليّة، حيث يقول عن حادثه الفيل:

إن آيات ربنا بينات ما يمارى فيهن إلا كفور

حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور

واضعا حلقة الجران كما قطر صخر من كبكب محدود

و ليكن هذا مسك الختام، فمن لم يقتنع بما ذكرناه فليقل ما شاء، فكل شاء معلقة برجلها.

جاء فى شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم ما يأتى:

قال صاحب نظم عمود النسب، مشيرا لمضمن الأحاديث فى إسلام آبائه صلى الله عليه و سلم ما يأتى:

خير الشعوب شعبه لآدم و قرنه خير قرون العالم

من مؤمنين متناكحينا خرج لا من متسافحينا

ينقل من أصلاب طاهرين لطاهرات من لدن أئينا

و كيف لا و المشركون نجس و من أذى نبينا مقدس

من ساجد لساجد تقبلا صلى عليه الله ما هب الصبا

و جعل الدين عمود نسبه كلمة باقية قى عقبه

و فيه ربه له تقبلادعاءه من كل بر سألأ

كترك الأصنام و ترك الموبقات و كل ما يزرى بمنصب الثقات

و قال عبد الله حين استعصام من دعتة إذ تبيع الأدمأ

أما الحرام فالممات دونه و الحل لا حل فاستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغينه يحمى الكريم عرضه و دينه

و العذر بالفترة و الإحياء فيؤمنوا ورد فى الأنباء

و لعن الإله من آذاه فى هذه الدار و فى أخراه

من عهد نوح ما خلت ذى الأرض إسلام سبعة لكيما تظمن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١١

نبذة يسيرة عن أحوال رسول الله صلى الله عليه و سلم من ولادته إلى وفاته

قدّمنا نسب نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم الذى هو أشرف أنساب العالم و أقومها و أكملها بالإجماع، و هنا نتشرف بذكر نبذة يسيرة عن أحوال رسول الله صلى الله عليه و سلم منذ أن أشرقت الدنيا بولادته إلى أن ذهب إلى جوار ربه الكريم العلى الأعلى، و كما قلنا سابقا لا نريد الإطالة فى ذلك، فالسيرة النبوية العطرة مشهورة معروفة، و لكننا نأتى بجملته مختصرة مفيدة تبصرة للمبتدئ، و تذكرة للقارئ فنقول و بالله التوفيق و هو حسبنا و نعم الوكيل و لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم:

وفاء والده صلى الله عليه وسلم

لما دخل عبد الله بن عبد المطلب على زوجته آمنه بنت وهب، حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم توفي عبد الله بعد الحمل بشهرين، ودفن بالمدينة المنورة عند أخواله بنى عدى بن النجار، حيث كان قد ذهب بتجارة إلى الشام، فلما رجع أدركته منيته بالمدينة.

تاريخ ولادته صلى الله عليه وسلم

ولما تم حمله صلى الله عليه وسلم في بطن أمه تسعة أشهر قمرية، جاءها المخاض، فوضعتة صلى الله عليه وسلم في ثاني عشر ربيع الأول على المشهور، وذلك عام الفيل.

جاء في كتاب نور اليقين أن محمود باشا الفلكي حقق ذلك فكان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من إبريل سنة (٥٧١) إحدى وسبعين وخمسائة من الميلاد- والله تعالى أعلم.

وفي تاريخ الخميس تفصيل تام عن تاريخ ولادته صلى الله عليه وسلم.

كانت ولادته صلى الله عليه وسلم بمكة في دار أبي طالب بشعب بنى هاشم، وكانت قابلته الشفاء أم عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه، ولما ولدته أمه أرسلت لجدته عبد المطلب تبشره بولادته، فأقبل عبد المطلب مسرورا، وأخذه ودخل به إلى الكعبة، وقام يدعو الله تعالى ويشكره على ما أعطاه، وسماه "محمد".

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١٢

و كانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أم أبيه عبد الله، وأول من أرضعته ثوبية أمه عمه أبي لهب.

وقد رأت أمه الكريمة الشريفة السعيدة به صلى الله عليه وسلم كثيرا من البشائر و خوارق العادات خلال حمله، وعند ولادته عليه الصلاة والسلام، المذكورة في تاريخ الخميس، وكل ذلك جائز غير مستغرب على من تشرف الكون بوجوده، وأشرقت الدنيا بنور وجهه، الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، وجعله خاتم النبيين، والذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى الطريق المستقيم بإذن ربه- صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه وسلم تسليما كثيرا.

وإن شاء الله تعالى سيأتى في نهاية هذه الترجمة الشريفة مبحثان (الأول) في تحقيق ميلاده صلى الله عليه وسلم، (والثاني) مقالة أدبية ممتازة عن ولادته عليه الصلاة والسلام.

نجاه عبد الله أب النبي صلى الله عليه وسلم من الذبح

لقد ذكرنا قصة عبد المطلب وإخراجه ماء زمزم بالتفصيل، وهنا نذكرها موجزة مختصرة لنعرج على ذكر عبد الله بن عبد المطلب والد النبي صلى الله عليه وسلم فنقول:

كان عبد المطلب نذر لله تعالى حين أمر بحفر بئر زمزم في المنام، لئن حفرها وتم له أمرها وصار له من الأولاد الذكور عشرة لينحرن أحدهم لله عز وجل، فبلغه الله تعالى مراده، فأعطاه عشرة من الأولاد الذكور، ووفقه لحفر زمزم وإخراج الماء لسقاية الناس. فعندئذ أراد عبد المطلب أن يوفى بنذره، فأقرع بين أولاده أيهم يذبح، فخرجت القرعة على أحب أولاده إليه وهو عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عمره حينئذ نحو خمس وعشرين سنة، فقام إليه ليذبحه، فقام له أخواله بنو مخزوم وعظماء قريش وأهل الرأي منهم، وقالوا له: والله لا تذبحه، فإنك إن تفعل تكن سنة علينا في أولادنا وسنة علينا في العرب، وقامت بنوه مع قريش

فى ذلك.

ثم قالت له قريش: إن بالحجاز عرافة لها تابع فسلها، ثم أنت على رأس أمرك، إن أمرتك بذبحه ذبحته، و إن أمرتك بأمر لك فيه فرج قبلته.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدوا المرأة فيها يقال لها تخيير، فسألوها، و قص عليها عبد المطلب خبره، فقالت: ارجع اليوم عنى حتى يأتينى تابعى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١٣

فأسأله. فرجعوا عنها حتى كان الغد، ثم غدوا عليها، فقالت: نعم قد جاءنى الخبر كم الدية فيكم، قالوا: عشر من الإبل، قالت: فارجعوا إلى بلادكم، و قربوا عشرا من الإبل، ثم اضربوا عليها و على صاحبكم بالقداح، فإن خرجت على الإبل فانحروها، و إن خرجت على صاحبكم فريدوا من الإبل عشرا، ثم اضربوا بالقداح عليها و على صاحبكم حتى يرضى ربكم، فإذا خرجت على الإبل فانحروها فقد رضى ربكم و نجا صاحبكم.

فرجعوا إلى مكة، فأقرع عبد المطلب على ابنه عبد الله و على عشر من الإبل، فخرجت القرعة على عبد الله، فقالت قريش لعبد المطلب: يا عبد المطلب زد ربك حتى يرضى، فلم يزل يزيد عشرا عشرا و تخرج القرعة على عبد الله، و تقول قريش: زد ربك حتى يرضى، ففعل حتى بلغ مائة من الإبل. فخرجت القداح على الإبل، فقالت قريش لعبد المطلب: انحرها فقد رضى ربك و قرعت، فقال: لم أنصف إذا ربي حتى تخرج القرعة على الإبل ثلاثا. فأقرع عبد المطلب على ابنه عبد الله و على المائة من الإبل ثلاثا، كل ذلك تخرج القرعة على الإبل.

فلما خرجت ثلاث مرات نحر الإبل فى بطون الأودية و الشعاب و على رؤوس الجبال، لم يصد عنها إنسان و لا طائر و لا سبع، و لم يأكل منها هو و لا أحد من ولده شيئا، و تجلبت لها الأعراب من حول مكة و أغارت السباع على بقايا بقيت منها، فكان ذلك أول ما كانت الدية مائة من الإبل، ثم جاء الله بالإسلام فثبتت الدية عليه.

و لما انصرف عبد المطلب ذلك اليوم إلى منزله، مر بوهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب و هو جالس فى المسجد، و هو يومئذ من أشرف أهل مكة، فزوج ابنته آمنه لعبد الله بن عبد المطلب-٥١. باختصار من تاريخ الأزرقي.

فعلم مما تقدم أن عبد الله بن عبد المطلب أبا النبي صلى الله عليه و سلم يسمى ذبيحا، و أن أحد ابني إبراهيم الخليل إسماعيل أو إسحاق يسمى ذبيحا أيضا على جميعهم الصلاة و السلام، و إن لم يحصل لهما ذبح حقيقى لوقوع الفداء لهذا و لذاك، و من هنا قال نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم: «أنا ابن الذبيحين».

و علم مما تقدم أيضا: أن عدد أعمام رسول الله صلى الله عليه و سلم عشرة، و قيل اثنا عشر على افتراض أنه ولد لعبد المطلب اثنان بعد قصة النذر و هم: الحارث و هو أكبرهم، و الزبير، و أبو طالب، و أبو لهب، و حمزة، و العباس، و الغيداق،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١٤

و المقوم، و ضرار، و قثم، و حجل و اسمه المغيرة، و عبد الله و هذا لا يحسب من أعمام النبي صلى الله عليه و سلم و لكنه أبوه و أخو أعمامه.

و عدد عماته ست و هن: عاتكة، و أروى، و صفية، و أميمة، و برة، و البيضاء، و هى أم حكيم.

و لم يدرك الإسلام من الذكور إلا أربعة: حمزة و العباس و قد أسلما. و أبو طالب، و أبو لهب، و لم يسلم، و لم تسلم من الإناث إلا صفية و عاتكة و أروى.

و لم يكن لرسول الله صلى الله عليه و سلم خال و لا خالة، لأن أمه آمنه بنت وهب لم يكن لها أخ و لا أخت، و إنما بنو زهرة يقولون نحن أخواله، لأن أمه آمنه منهم- و كذلك لم يكن لرسول الله صلى الله عليه و سلم أخ و لا أخت شقيق من أبيه و أمه، حيث لم

يولد لهما ولد غيره، فأبوه عبد الله مات و هو جنين في بطن أمه، و ماتت أمه و هو في السادسة من عمره- لكن له صلى الله عليه و سلم ذلك من الرضاعة، فأخوته من مرضعته حليلة السعدية رضى الله تعالى عنها هم: عبد الله، و أنيسة، و حذافة، و تعرف بالشيماء، و كلهم من زوج حليلة السعدية الحارث بن العزى- و كذلك له صلى الله عليه و سلم إخوة من مرضعته ثوبية جارية عمه أبى لهب، و هم ابنها مسروح، و حمزة بن عبد المطلب، و أبا سلمة بن عبد الأسد، فيكون حمزة رضى الله تعالى عنه عمه صلى الله عليه و سلم و أخاه من الرضاعة، و يكون أبو سلمة أخاه من الرضاعة و ابن عمته برة بنت عبد المطلب، و هو مشهور بكنيته أكثر من اسمه، و اسمه عبد الله بن عبد الأسد، و كان رضى الله تعالى عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام- أما مسروح بن ثوبية فقد قال ابن حجر رحمه الله تعالى عنه في كتابه "الإصابة في تمييز الصحابة": "لم أقف على شىء من الطرق على إسلام ابنها مسروح و هو محتمل- ١٥.

تزوج عبد الله بن عبد المطلب

تقدم أن عبد المطلب كاد أن يذبح ولده الحبيب "عبد الله" وفاء بنذره، لولا أن الله تعالى أنقذه من هذه المحنة بخروج القرعة على المائة الإبل، فنحراها و تصدق بلحومها، و شكر الله تعالى على هذه المنة، فكان طيبعا أن يعرض على ابنه "عبد الله" عقب هذا البلاء العظيم بفرح عظيم و سرور شامل عميم، ألا و هو تزويجه لتقر عينه و عين أسرته و قومه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١٥

فخطب عبد المطلب لابنه عبد الله "آمنة بنت وهب" فرضى أبوها وهب بن عبد مناف و زوجته إياها برغبة و قبول، و قال: لن يستقيم لابنتى آمنة زوج غير عبد الله بن عبد المطلب، و قد كان خطبها أشرف قريش فكانت آمنة تأبى ذلك و تقول: يا أبت لم يأن لى التزويج، حتى صارت من نصيب عبد الله بن عبد المطلب كان ذلك في الكتاب مسطوراً.

قالوا: و كان عمر عبد الله حينئذ خمساً و عشرين سنة و قيل ثلاثين سنة، و نحن نميل إلى القول الأول، لأن عادة العرب في الغالب التزوج في سن الخامسة و العشرين أو قبله، و لأن النبى صلى الله عليه و سلم تزوج لأول مرة خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها و هو في الخامسة و العشرين، فلا يبعد أن يكون توافقهما فى السن حين زواجهما قدرا مقدورا- و الله تعالى أعلم- هذا و لم يذكروا عمر آمنة حين زواجها، و لا شك أنها أصغر من زوجها عبد الله، و الذى نراه أنها كانت فى سن الاستواء و النضوج، أى كانت فى الخامسة عشر من عمرها أو فى الثامنة عشر.

و الله تعالى أعلم.

و كان والد عبد الله عبد المطلب سيد قريش و شريفها و حلیمها و جوادها، كما كان والد آمنة وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة نسبا و شرفا. و بنو زهرة قبيلة من قريش تنسب لزهرة بن كلاب و هو أخ قصى بن كلاب- فرسول الله صلى الله عليه و سلم يجتمع نسب أبيه و أمه فى كلاب.

فنسبه صلى الله عليه و سلم من جهة أمه كما يأتى: محمد بن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب. و أما نسبه صلى الله عليه و سلم من جهة أبيه فهو كما يأتى: محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصى، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤى، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار "بالزاي" بن معد بن عدنان- و هذا هو النسب الصحيح المتفق عليه عند علماء الحديث و أهل التاريخ و ما فوق ذلك مختلف فيه، مع إجماعهم على أن نسب رسول الله صلى الله عليه و سلم ينتهى إلى إسماعيل بن خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة و السلام، فإن إسماعيل عليه السلام أبو العرب المستعربة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١٦

موت عبد الله بن عبد المطلب أب النبي صلى الله عليه وسلم

فلما تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنه بنت وهب وبنى بها حملت برسول الله، ثم لم يلبث عبد الله بعد الحمل بنحو شهرين على أرجح الأقوال أن سافر مع رفقة من مكة إلى المدينة للتجارة يمتار تمرًا و ليزور أخواله بنى عدى بن النجار، سافر وحده و ترك زوجته آمنه؛ لثلا يشق عليها السفر بالجمال و هى حامل.

وصل عبد الله إلى المدينة فنزل عند أخواله، ثم مرض لديهم شهرا، فرجع رفقاؤه إلى مكة و أخبروا أباه عبد المطلب بمرضه، فبعث إليه ولده الحارث أو الزبير، فوجده قد مات بالمدينة و دفنه أخواله فى دار من دورهم، و هى دار النابغة و ما زال قبره بالمدينة معروفا إلى اليوم.

فرجع الحارث و هو أكبر أولاد عبد المطلب فأخبر أباه بموت عبد الله، فحزن عليه عبد المطلب حزنا شديدا؛ لأنه أحب أولاده إليه و عريس جديد، كما حزن عليه زوجته آمنه بنت وهب أشد الحزن؛ لأنها عروس حامل لم تتمتع بزوجها إلا قليلا.

مات عبد الله سريعا غريبا فى دار الهجرة و هو فى عنفوان شبابه، مات و ابنه "محمد" صلى الله عليه وسلم جنين فى بطن أمه، ليخرج ابنه الذى سيكون خاتم النبيين و الذى سيرسله الله تعالى رحمة للعالمين، إلى الدنيا يتيما كما اقتضته الحكمة الإلهية- فما أبلغها من حكمة و ما أدق أسرارها- أنه ما رأى والده و ما رآه والده، فقد مات و هو فى بطن أمه بعد زواجه بها بشهرين، كما أن هذا اليتيم الكريم، عليه الصلاة و التسليم، لم يتمتع كثيرا بمعاشرة أمه الحبيبة، فقد نشأ منذ رضاعته فى البادية عند مرضعته حليلة السعدية رضى الله تعالى عنها حتى بلغ الخامسة، ثم سلمته لأمه آمنه بنت وهب، فمكث معها عاما واحدا، و إذا المنية تدركها فتلحق بزوجها و تموت فى الأبناء، و هى فى ريعان شبابها و زهرة جمالها كما سيأتى بيان ذلك، فيبقى هذا اليتيم الكريم الذى أصبح فيما بعد، رائد الأيتام و رسول الأنام عليه أفضل الصلاة و أتم السلام، وحيدا فريدا من غير أب و لا أم، و لا أخ و لا أخت، و لا خال و لا خالة، و عمره ست سنوات تماما، فكان وحيد أبويه اللذين لم يتزوجا إلا مرة واحدة فقط.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١٧

لقد صار هذا اليتيم الكريم الحبيب وحيدا فريدا، حتى يكون فى كنف الله عز و جل و فى حفظه و رعايته، و لينزل عليه بعد بعثته: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى فَالمنه و الفضل و الإحسان كلها لله عز و جل، فلقد قبض الله تبارك و تعالى بعظيم لطفه و رحمته جده عبد المطلب، و هو عظيم قومه و سيد قريش، ليتولى كفالته و تربيته، فكفله جده عبد المطلب منذ وفاة أمه آمنه، و هو فى أول السابعة من عمره الشريف، كفالته تامة، و رعاه رعاية بالغه حتى مات، ثم خلفه فى الكفالة عمه أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب، لأن أبا طالب و عبد الله أب النبي صلى الله عليه وسلم كانا من أم واحدة و هى فاطمة بنت عمرو، فبذل أبو طالب فى رعايته و تربيته كل جهده فكان يحبه أكثر من أولاده كما سيأتى بيان كل ذلك.

ولادة النبي صلى الله عليه وسلم**إشارة**

قلنا فيما تقدم أن عبد الله بن عبد المطلب أب النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن تزوج بآمنه بنت وهب أم النبي عليه الصلاة و السلام بنحو شهرين، مات بالمدينة المنورة و ابنه "محمد" صلى الله عليه وسلم جنين فى بطن أمه، و كلاهما كانا وقتئذ بمكة المكرمة، حزن آمنه عاملها الله تعالى بفضله و رحمته و إحسانه و منته، على زوجها الحبيب حزنا شديدا، لكنها تذرعت بصبر جميل يليق بمكانتها السامية، صبرت على القضاء و القدر فعوضها الله تعالى بولد كالقمر.

مكثت آمنه في دارها بمكة صابرة مستسلمة حتى أتمت مدة الحمل و هي تسعة أشهر، فوضعت ابنها "محمدًا" صلى الله عليه و سلم في أبرك الساعات و الأيام، و هو يوم الاثنين عند طلوع الفجر، و قيل في أول النهار أى بعد طلوع الشمس، من عام الفيل باتفاق العلماء، و لم تجد آمنه في حمله و وضعه صلى الله عليه و سلم ألما و لا تعباً و لا مشقة كما تجده النساء؛ لأن "محمدًا" رسول الله، فهو خفيف لطيف ليس فيه غلظة و لا كثافة مثلنا، و إن كان من لحم و دم، إنه بشر لا كالبشر فهو كالياقوت بين الحجر، إنه نبي حبيب نوراني مبارك، إنه كريم على الله تعالى منذ الأزل، فلا بد أن تصاحبه الأسرار و البركات منذ حمله و ولادته، بل منذ تنقله في الأصلاب، و ترافقه البشائر و الخيرات و الخوارق و المعجزات من طفولته إلى بعثته إلى مماته، فلو أراد أحد حصر فضائله و شمائله و معجزاته "قضى و لم يقض من إحصائها وطرا" إنه صلى الله عليه و سلم، نبي

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١٨

الرحمة و نبي الهدى، و وجه الخيرات و فيض البركات، و رضى الله تعالى عن عبد الله بن رواحة حيث يقول في رسول الله صلى الله عليه و سلم:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينيك عن خطر

اللهم صل على سيدنا "محمد" و على آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا.

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: و في الصفوة روى عن يزيد بن عبد الله ابن وهب بن زمعة عن عمته قالت: كنا نسمع أن آمنه لما حملت برسول صلى الله عليه و سلم كانت تقول: ما شعرت أنى حملت و لا-وجدت له ثقلا- و لا-وحما كما تجد النساء، إلا أنى أنكرت رفع حيضتى، و أتانى آت و أنا بين النوم و اليقظة- أو قالت بين النائمة و اليقظة، فقال: هل شعرت بأنك حملت، فكأنى أقول: ما أدرى، قال: إنك حملت بسيد هذه الأمة و نبيها.

كذا ذكر ابن إسحاق في كتاب المغازى- و في روايته بسيد الأنام- قالت:

و ذلك يوم الاثنين فكان ذلك مما يقن أو حقق عندى الحمل، ثم أمهلنى حتى إذا دنا وقت ولادتى أتانى ذلك الآتى فقال: قولى أعيذه بالصمد الواحد، من شر كل حاسد- و فى المواهب اللدنية بغير لفظ الصمد- ثم سمى "محمدًا" قالت: فكنت أقول ذلك.

و جاء فيه أيضا: و من حوادث ليلة مولده صلى الله عليه و سلم: ما وقع من زيادة حراسة السماء بالشهب، و منع الشياطين من استراق السمع، و انشقاق إيوان كسرى و بقاءه إلى القرن الثامن الهجرى، و خمود نار فارس مع أنها لم تخدم قبل ذلك بألف سنة، و غاضت بحيرة ساوة و هى بين الرى و همذان و كانت أكثر من سته فراسخ فى الطول و العرض تعبر فيها السفن، فلما يبست هذه البحيرة بنيت موضعها مدينة ساوة المعروفة اليوم- و رحم الله القائل:

ضاعت لمولده الآفاق و اتصلت بشرى الهواتف فى الإشراق و الطفل

و صرح كسرى تداعى من قواعده و انقض منكسر الأرجاء ذا ميل

و نار فارس لم توقد و ما حمدت مذ ألف عام و نهر القوم لم يسلم

خرت لمبعثه الأوثان و انبعثت ثواقب الشهب ترمى الجن بالشعل

انتهى من تاريخ الخميس ملخصا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١١٩

قال الشيخ الخضرى رحمه الله تعالى فى كتابه "نور اليقين": "إن المرحوم محمود باشا الفلكى قد حقق تاريخ ولادة النبي صلى الله عليه و سلم فقال: إن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول لليوم العشرين من شهر إبريل سنة (٥٧١) من الميلاد خمسمائة و إحدى و سبعين، و هو يوافق السنة الأولى من حادثه الفيل-١ه كلامه.

محل ولادته صلى الله عليه وسلم وتسميته يوم السابع

كانت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم بمكة في دار أبي طالب، بشعب بنى هاشم، بقرب المسجد الحرام و يسمى الآن بشعب على أى علي بن أبي طالب، ولا زال محل ولادته صلى الله عليه وسلم معروفا إلى اليوم. وكانت قابله الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف، جاء في تاريخ الخميس ما نصه: وأخرج أبو نعيم، عن عبد الرحمن بن عوف، عن أمه الشفاء قالت: لما ولدت آمنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على يدي، فاستهل، فسمعت قائلا يقول: رحمك الله، وأضاءت لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الروم. قالت: ثم ألبنته وأضجعتة، فلم أنشب أن غشيتني ظلمة و رعب وقشعريرة، ثم غيب عني، فسمعت قائلا يقول: أين ذهبت به؟ قال: إلى المشرق. قالت: فلم يزل الحديث مني على بال حتى بعته الله فكننت أول الناس إسلاما، ذكره في المواهب اللدنية- ١٥.

ثم بعد الولادة أرسلت آمنه أم النبي صلى الله عليه وسلم لجده عبد المطلب، وهو جالس في الحجر عند البيت الحرام ومعه رجال من قومه تبشروه، فأقبل إليها مسرورا، ثم أخذه منها فأدخله الكعبة المعظمة و صار يدعو الله تعالى ويشكره على ما أعطاه و وهبه، وهو يقول:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد في المهدي على الغلمان أعيده بالبيت ذى الأركان

حتى أراه بالغ البيان أعيده من شر ذى شأن

من حاسد مضطرب العينان التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢٠

ثم إن عبد المطلب في يوم سابعه نحر جزوا و دعى رجالا من قريش فحضرُوا و طعموا، ثم سماه "محمدا" و لم يكن هذا الاسم شائعا عند العرب يومئذ، و لكن شاء الله تعالى أن يلهم عبد المطلب هذا الاسم ليقع الأمر كما قضاه في الأزل، و لقد سألته قريش لم سميت "محمدا" و رغبت عن أسماء آبائك؟ فقال عبد المطلب: أردت أن يكون محمودا في السماء لله و في الأرض لخلقه.

ثم إن ثوبية جارية أبي لهب لما بشرته بأن آمنه بنت وهب قد ولدت "محمدا" صلى الله عليه وسلم، أعتقها من شدة سروره كما في المواهب اللدنية، و هذا يدل على كثرة حب أبي لهب لأخيه عبد الله أب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم بعد أيام من ولادته صلى الله عليه وسلم، أرضعت ثوبية رسول الله صلى الله عليه وسلم، و في بعض الروايات أن أبا لهب أعتق ثوبية بعد الهجرة، و نحن نرجح الرواية الأولى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد رضع من حرة لا من جارية- و الله تعالى أعلم.

أحب عبد المطلب "محمدا" صلى الله عليه وسلم لأمرين:

(الأمر الأول): أنه ولد ابنه الحبيب عبد الله الذي مات عقب زواجه بنحو شهرين و هو في عنفوان شبابه، و للحفيد رتبة و منزلة بالغة في قلب جده خصوصا إذا كان يتيما.

(و الأمر الثاني): لقد رأى في هذا الطفل المبارك آثار النور المعنوي، و علامات الفلاح و الصلاح، و الهداية و النجاة، و النبوغ و الكمال، علاوة على ما سمعه من أمه ما رآته من عجائب الأمور حين الولادة، فهو وليد فريد لا يشبه المواليد في أحواله و أطواره، و في الحقيقة أن الله تبارك و تعالى قد ألقى محبة نبيه الكريم في قلب جده و أقاربه و جميع من رآه من من طفولته إلى حين وفاته، صلى الله عليه وسلم و على آله و صحبه و سلم تسليمًا كثيرا.

و لقد بلغ من محبة عبد المطلب لحفيده الكريم "محمد" صلى الله عليه وسلم عندما كبر قليلا، أنه كان يجلسه على فراشه مع أنه ما كان يجلس معه أحد عليه؛ لعظم مكانته عند قريش كما ذكرنا من قبل.

و عندما بلغ عمره صلى الله عليه و سلم ثمانى سنوات توفى جده عبد المطلب، فكفله عمه أبو طالب شقيق أبيه، فكان يحبه حبا جما و يبلغ فى إكرامه، و يقدمه على أولاده، و عندما بعثه الله تعالى و جهر بالدعوة كان عمه أبو طالب يحميه من قومه المشركين إلى أن مات.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢١

رضاعته صلى الله عليه و سلم و مرضعته

إشارة

لما ولدت آمنه الكريمة ابنها العزيز "محمدا" صلى الله عليه و سلم، أرضعته ثلاثة أيام و قيل سبعة أيام، ثم أرضعته ثوبية الأسلمية جارية عمه أبى لهب أياما، ثم قدمت حليلة السعدية بنت أبى ذؤيب عبد الله بن الحارث من البادية إلى مكة فى نسوة من بنى سعد بن بكر يلتصقن الرضعاء، فكان "محمدا" ذلك الطفل المبارك المنور الأغر الذى صار فيما بعد نبى آخر الزمان و خاتم النبيين صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين، من نصيب حليلة السعدية السعيدة رضى الله تعالى عنها، فأخذته، و رحلت به إلى قومها فى البادية بجهة الطائف ليكمل رضاعته عندهم، فمكث الحبيب "محمد" صلى الله عليه و سلم فى البادية عند حليلة رضى الله تعالى عنها خمس سنين، ثم ردت به إلى أمه آمنه بنت وهب و قد أكمل رضاعته و اشتد عوده صلى الله عليه و سلم كما سيأتى بيان ذلك بالتفصيل، و لابد أن حليلة كانت تأتى به صلى الله عليه و سلم إلى مكة فى بعض الأحيان لزيارة أمه آمنه بنت وهب، حتى يطمئن قلبها و تتمتع برؤيته، ثم ترجع به بعد أيام إلى منزلها- فلقد كانت عادة عظماء قريش و أشرافهم فى ذلك العصر، أن يدفعوا أولادهم بعد الولادة إلى المراضع القاطنين فى البادية، ليطمئنوا رضى الله تعالى عنهم، و لينشأوا نشأة عربية خالصة، فإن للبادية تأثيرا عظيما فى التربية الجسمانية لطيب الهواء و عذوبة الماء و جودة الغذاء، كما أن لها تأثيرا أعظم فى الفصاحة و البلاغة، و الجود و الكرم، و الشهامة و الشجاعة، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق و جوامع الشرف- و ما زال العرب الذين لم يختلطوا بمعاشره أهل المدن، يحبون عيشة البادية إلى عصرنا الحاضر، فإنهم يحبون الزراعة و تربية المواشى، و غالب قوتهم على الدوام التمر و اللحم و اللبن، بل إنهم يعتمدون فى معيشتهم على التمر و اللبن صباحا و مساء، و الميسورون منهم يصنعون الخبز من دقيق الدخن و الذرة و الحنطة، و يطبخون الأرز باللحم و السممن و يحبون العسل جدا، و لا يأكلون الخضار إلا نادرا- و الحق يقال أن عيشة البادية بين الرمال و الجبال جميلة منعشة ناعمة صحية مدهشة، لكن كما يقال "لكل امرئ من دهره ما تعودا."

هذا و كانت أم أيمن بركة الحبشية حاضنته صلى الله عليه و سلم حتى كبر، و أم أيمن كانت أمه أبيه عبد الله بن عبد المطلب، فلما مات و رثتها أم النبى صلى الله عليه و سلم، فلما ماتت أمه صارت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢٢

لرسول الله صلى الله عليه و سلم، فكان يقول عنها "أم أيمن أمى بعد أمى." ثم أعتقها و قد أسلمت و زوجها يزيد بن حارثة. و أول من أرضع النبى صلى الله عليه و سلم، ثوبية أمه عمه أبى لهب فقد أرضعته مع ابنها مسروح أياما قبل قدوم حليلة السعدية، و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكرمها، و كانت تدخل على النبى صلى الله عليه و سلم بعدما تزوج خديجة فكانت خديجة تكرمها، ثم بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المدينة أعتقها أبو لهب، فكان النبى صلى الله عليه و سلم يبعث إليها من المدينة بكسوة و صلة حتى ماتت بعد فتح خيبر، و لم يصرح أحد من العلماء بإسلامها و لا يبعد أن تكون أسلمت و الله تعالى أعلم. قال أبو نعيم: اختلف فى إسلامها، و فى تاريخ الخميس و فى سيرة مغلطاي قال أبو نعيم: لا أعلم أحدا أثبت إسلامها غير ابن مند-ا

وكان من عادة العرب أن يطلبوا المراضع لمواليدهم في البوادي حتى يكون الولد فصيحا نجيبا و شهما كريما و شجاعا بطلا، لذلك كانت نساء البوادي يأتين مكة في فترات و أوقات مختلفة، فجاءت إلى مكة بعد مولد النبي صلى الله عليه و سلم من جهة الطائف نسوة من بني سعد بن بكر بن هوازن يطلبن المواليد ليرضعنهم، و كان من بينهن حليلة بنت أبي ذؤيب زوجة أبي كبشة الحارث بن عبد العزى السعدى، فكان "محمد" هذا المولود المبارك الميمون صلى الله عليه و سلم من نصيبها، فسعدت به هي و زوجها و أولادها و أهل بلديها. قال الشاعر:

لقد بلغت بالهاشمى حليلة مقاما علا في ذروة العز و المجد
و زادت مواشيها و أخصب ربعهاو قد عم هذا السعد كل بني سعد

قصة رضاعة حليلة السعدية له صلى الله عليه و سلم

و لنذكر قصة حليلة السعدية في أخذها رسول الله صلى الله عليه و سلم لرضاعته، فقد جاء في تاريخ الخميس ما نصه: و فى المواهب اللدنية قالت حليلة فيما رواه ابن إسحاق و ابن راهويه و أبو يعلى و الطبرانى و البيهقى و أبو نعيم: قدمت مكة فى نسوة من بنى سعد بن بكر نلتمس الرضعاء فى سنة شهباء، فقدمت على أتان لى و معى صبى لى و شارف لنا، و الله ما تبض بقطرة لبن و ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، لا يجد فى ثديى ما يغنيه و لا فى شارفنا ما يغذيه، فقدما مكة فو الله ما علمت منا امرأة إلا و قد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه و سلم فتأباه إذا قيل يتيم، فو الله ما بقى من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢٣

صواحبى امرأة إلا- أخذت رضيعا غيرى فلم أجد غيره، قلت لزوجى: و الله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه، فذهبت فإذا به مدرج فى ثوب صوف أبيض من اللبن يفوح منه رائحة المسك، و تحته حريرة خضراء و هو راقد على قفاه يغط، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه و جماله، فدنوت منه رويدا فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكا، و فتح عينيه ينظر إلى فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء و أنا أنظر إليه، فقبلته بين عينيه و أعطيته ثديى الأيمن فأقبل عليه بما شاء من اللبن، فحولته إلى الأيسر فأبى و كانت بعد عاداته، ثم أخذته فما هو إلا أن جئت به رحلى فقام صاحبى، تعنى زوجها، إلى شارفنا تلك فإذا أنها لحافل، فحلب منها ما شرب و شربت حتى روينا و بتنا بخير ليلة، فقال صاحبى، يا حليلة و الله إنى لأراك أخذت نسمة مباركة، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير و البركة حين أخذناه فلم يزل الله يزيدنا خيرا.

و فيه أيضا قالت حليلة: فودعت النساء بعضهن بعضا و ودعت أنا أم النبى صلى الله عليه و سلم، ثم ركبت أتانى و أخذت محمدا صلى الله عليه و سلم بين يدي، قالت: فنظرت إلى الأتان و قد سجدت نحو الكعبة ثلاث سجديات و رفعت رأسها إلى السماء ثم مشت حتى سبقت دواب الناس الذين كانوا معى، و صار الناس يتعجبون منى و تقول النساء لى و هن ورائى: يا بنت أبى ذؤيب أهذه أتانك التى كنت عليها و أنت جائئة معنا تخفضك طورا و ترفعك أخرى، فأقول: تالله إنها هى، فيتعجبن منها و يقلن: إن لها لشأنا عظيما.

و فيه أيضا قالت حليلة: ثم قدمنا منازل بنى سعد و لا أعلم أرضا من أرض الله أجذب منها، فكانت غنيمتى تروح على حين قدمنا به شباعا لبنا، فنحلب و نشرب ما يحلب إنسان قطرة لبن و لا يجدها فى ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعاتهم: ويلكم ما بال أغنام حليلة تحمل و تحلب و أغنامنا لا تحمل و لا تضع و لا تأتى بخير، اسرحوا حيث يسرح راعى غنم بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن و تروح أغنامى شباعا لبنا، حتى إننا نتفضل على قومنا و كانوا يعيشون على أكنافنا.

و فيه أيضا: و فى المواهب اللدنية أخرج البيهقى و ابن عساكر عن ابن عباس قال: كانت حليلة تحدث أنها أول ما فطمت رسول الله صلى الله عليه و سلم تكلم فقال: الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢٤

أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً. وفي المواهب اللدنية:

فلما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم. وفي المنتقى: و كان أخواه من الرضاعة يخرجان فيمران بالغللمان فيلعبان معهم، فإذا رأهم محمد صلى الله عليه وسلم اجتنبهم وأخذ بيد أخويه وقال لهما: إنا لم نخلق لهذا. وفي كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" أن الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة وتسمى أيضاً حذافة، كانت تحضن النبي صلى الله عليه وسلم مع أمها وتوركه، وكانت ترقصه وهو صغير وتقول:

يا ربنا أبق لنا "محمدًا" حتى نراه يافعا وأمردا

ثم نراه سيدا مسوداوا اكبت أعاديه معا والحسدا

و أعطه عزا يدوم أبدا و تقول الشيماء أيضا حينما ترقصه صلى الله عليه وسلم:

هذا أخي لم تلده أمي ولي من نسل أبي وعمي

فديته من مخول معم فانمه اللهم فيما تنمي

انتهى منه باختصار، ولقد جعله الله تعالى بفضل له وكرمه سيد الناس بل سيد الكونين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وفي تاريخ الخميس أيضا: وفي المواهب اللدنية وقد روى ابن سعد وأبو نعيم وابن عساکر عن ابن عباس قال: كانت حلیمة لا تدع "محمدًا" صلى الله عليه وسلم يذهب مكانا بعيدا، فغفلت عنه مع أخته الشيماء في الظهيرة إلى البهم، فخرجت حلیمة تطلبه حتى وجدته مع أخته، فقالت: تخرجين به في هذا الحر، فقالت أخته: يا أمه ما وجد أخى حرا، رأيت غمامة تظل عليه إذا وقف ووقفت، وإذا سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع، وكان صلى الله عليه وسلم يشب شبابا لا يشبه الغلمان حتى كان غلاما جفرا في سنتين.

قصة شق صدره صلى الله عليه وسلم

وفي السنة الثالثة من مولده صلى الله عليه وسلم وقع شق الصدر، قالت حلیمة: فلما مضت سنتاه وفصلته قدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكته فينا لما نرى من بركته، وكلمنا أمه وقلنا لو تركته عندنا حتى يغلظ فإننا نخشى عليه وباء مكة، ولم نزل بها حتى ردت معنا فرجعنا به، فوالله إنه لبعده مقدمنا بشهرين أو ثلاثة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢٥

خرج مع أخيه من الرضاعة لفي بهم لنا وقد بعدا قدر غلوة سهم خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد في عدوه فقال: ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا وشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشدت نحوه فوجدناه قائما منتقعا لونه، فاعتنقه أبوه وقال: أى بنى، ما شأنك، قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني، فشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه، ثم رداه كما كان فرجعنا به معنا. فقال أبوه: يا حلیمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب، فانطلقى نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف.

قالت حلیمة: فاحتملناه، حتى قدمنا به إلى أمه، فقالت: ما رد كما به، فقد كنتما حريصين عليه، قلنا: نخشى عليه الإتلاف والأحداث.

فقالت: ماذا بكما فاصدقاني ما شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره.

فقالت: أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابنى هذا شأن فدعاه عنكما.

وفي رواية قالت حلیمة: فخرجت أنا وأبوه ونسوة من الحى فإذا أنا به صلى الله عليه وسلم قائما ينظر إلى السماء كأن الشمس تطلع من وجهه، فالترمه أبوه والله لكأنما غمس في المسك غمسه، وقال له أبوه: يا بنى ما لك؟ قال: خير يا أبت، أتانى رجلان انقضا على من السماء كما ينقض الطائر، فأضجعاني وشقا بطني وحثوا بشيء كان معهما، ما رأيت ألين منه ولا أطيبر ريحا، ومسحا على

بطني فعدت كما كنت (و قد جاءت هذه القصة بروايات عديدة و المعنى واحد) فنكتفى بما تقدم- انتهى جميع ذلك من الجزء الأول من تاريخ الخميس.

و اعلم بأن أمه صلى الله عليه و سلم من الرضاعة حلیمة السعدیة قد أسلمت، و أسلم كذلك أبوه من الرضاعة الحارث بن عبد العزی و یکنى أبا ذؤیب و یعرف بأبی كبشة.

(و اعلم) بأن شق صدره صلى الله عليه و سلم بواسطة الملائكة الكرام، عليهم السلام، قد وقع أربع مرات (١) عندما كان عمره عليه الصلاة و السلام نحو ثلاث سنين، (٢) عندما كان عمره عشر سنين، (٣) عند أول البعثة، (٤) فى ليلة الإسراء.

و قد أشار بعض العلماء إلى الثلاث المرات بقوله:

و شق صدر أشرف الأنام و هو ابن عامين و سدس عام

و شق للبعث و للإسراء أيضا كما قد جاء فى الأنباء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢٦

و نحن زدنا عليهما هذه الآيات:

و شق أيضا صدره للربعة و هو ابن عشر فاحتفظ يا سامعه

و لم يقع عليه سوء و ألم بل قام فى الحال سليما ما انثلم

و من تكن عنايه الله به فأمره متصل بربه

و قد تولى الشق جبرائيل ذاك الأمين الطاهر الخليل

إن شق صدر رسول الله صلى الله عليه و سلم يشبه ما نسميه اليوم بالعمليّة الجراحية لكن مع الفارق العظيم، فالعمليات التي تجرى بيننا اليوم فى المستشفيات هى بواسطة أطباء البشر و التبنيج و الآلات و السكاكين الجراحية و أدواتها، و قد تنجح العمليّة و قد لا تنجح، و هذا أمر موكول إلى الله عز و جل ثم إلى مهارة الأطباء، أما شق صدره صلى الله عليه و سلم فقد حصل بإرادة الله تبارك و تعالى، و بواسطة جبريل الأمين عليه السلام الذى صار فيما بعد خليله و صاحب وحيه- إنها عمليّة جراحية حسيّة و معنويّة معا، بدون ألم و لا وجع و لا خوف و لا وجل، إنها عمليّة ملائكية نورانية غسلوا قلبه صلى الله عليه و سلم بماء زمزم فى طست من ذهب، و ملؤه إيماناً و حكمه و رأفة و رحمة ثم أعادوه كما كان، فكانت هذه العمليّة الملائكية فى خلاء و فضاء بغتة بلا تبنيج، لم يشعر صاحبها عليه الصلاة و السلام بألم و لا خوف، فكان الشق و الغسل و الشفاء و السلامة و القيام منها فى لحظة واحدة، و من يقدر أن يمس بمبضعه رسول رب العالمين إلا ملك رسول أمين، صلى الله عليه و على آله و صحبه و سلم، هذه حادثه شق الصدر الشريف.

موت أمه صلى الله عليه و سلم بالأبواء

إشارة

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه و سلم ست سنين على أرجح الأقوال، خرجت به أمه آمنه بنت وهب من مكة إلى المدينة لزيارة أحوال أبيه بنى عدى بن النجار، و لتقف على قبر زوجها الحبيب عبد الله بن عبد المطلب الذى مات بالمدينة و ابنه "محمد" صلى الله عليه و سلم لم يولد بعد، مات بعد زواجه بآمنه بشهرين و بعد حملها كما تقدم بيانه، لذلك لم يكن "لمحمد" صلى الله عليه و سلم أخ و لا أخت شقيق من أبيه و أمه حيث لم يولد لهما ولد غيره، و أيضا لم يكن له صلى الله عليه و سلم، خال و لا خالة، و لكن كان له أعمام و إخوة من الرضاعة و قد بينا أسماءهم فى أول المبحث بالتفصيل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢٧

خرجت آمنه بنت وهب مع ابنها "محمد" صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة و عمره ست سنوات لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار ليعرفوه و يعرفهم، و لتقف على قبر زوجها الحبيب عبد الله بن عبد المطلب الذى مات بالمدينة قبل أن يولد ابنه "محمد" صلى الله عليه وسلم، و أخذت آمنه معها أيضا أمتها أم أيمن بركة الحبشية حاضنة النبي صلى الله عليه وسلم لتخدمهما فى السفر، قالوا: و كان معها عبد المطلب أو أبو طالب، و نحن نرجح أن الذى خرج معها أبو طالب؛ لأن عبد المطلب كان قد حجب بصره و كبرت سنه حتى تجاوزت المائة، و مات و محمد صلى الله عليه وسلم عمره ثمان سنين - و الله تعالى أعلم - فوصلت آمنه إلى المدينة فنزلت فى دار النابغة و هو رجل من بنى عدى ابن النجار، و كان قبر زوجها عبد الله أبى النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه الدار كما تقدم بيانه فى أول هذا المبحث، فأقامت آمنه بالمدينة عند أخوال زوجها بنى عدى بن النجار شهرا واحدا، مع ابنها "محمد" صلى الله عليه وسلم الذى بلغ ست سنين يعقل و يفهم جميع الأمور لا يضيع عنه ما يراه و يسمع، فهو طفل لا كالأطفال، إن جسمه ظاهره و باطنه نورانى طاهر نظيف، أليست الملائكة شقت صدره و هو فى الثالثة من عمره، فغسلت قلبه فى طست من ذهب ثم ملأته إيماننا و يقينا و علما و حكمة استعدادا لنبوته و بعثته عند بلوغه أشده، إنه رسول الله و كفى - فلذلك كان صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة يذكر أمورا عندما كان مع أمه بالمدينة، فإنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى تلك الدار بعد الهجرة، أى بعد خمسين سنة تقريبا من سفره مع أمه، فقال: ههنا نزلت بى أمى، و أحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار، و كان قوم من اليهود يختلفون على ينظرون، قالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو نبي هذه الأمة، و هذه دار هجرته، فوعيت ذلك كله من كلامهم - فانظر، رحمتنا الله تعالى و إياك إلى قوة ذاكرته صلى الله عليه وسلم و لا عجب فى ذلك أنها ذاكرة نبوة، و انظر أيضا إلى حكمة نزول آمنه بنت وهب مع ابنها "محمد" صلى الله عليه وسلم عند أخوال أبيه بنى عدى بن النجار بالمدينة، و ذلك ليعرفوه و يعرفهم من صغره، فإنه صلى الله عليه وسلم لما بعثه الله تعالى ثم هاجر إلى المدينة و أقام بقباء أياما قليلة و بنى مسجد بقاء، أراد التحول من بقاء إلى باطن المدينة، فركب ناقته و سار حتى وصل إلى دور الأنصار، فكان صلى الله عليه وسلم كلما مر على دار من دورهم تضرع إليه أهلها أن ينزل عندهم، و كانوا يأخذون بزمام ناقته صلى الله عليه وسلم، فكان يقول لهم: دعوها فإنها مأمورة، فلم تزل الناقه سائرة به صلى الله عليه وسلم حتى أتت بفناء بنى عدى بن النجار، فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبى أيوب الأنصارى و اسمه خالد بن زيد، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، و قال: ههنا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢٨

المنزل إن شاء الله، فاحتمل أبو أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه رحله و وضعه فى بيته - فتأمل دقائق حكمة الله عز و جل . بعد أن أقامت آمنه مع ابنها "محمد" صلى الله عليه وسلم و مع أمتها أم أيمن، شهرا بالمدينة عند أخوال أبيه رجعت به إلى مكة، فلما وصلوا إلى قرية الأبواء، و هى فى منتصف الطريق بين مكة و المدينة، أدركتها المنية، فتوفيت بالأبواء و دفنت بها على رأس جبل قصير رخو يمكن الحفر فيه بسهولة كما ستتكلم عليه قريبا، فقد ذهبنا إلى قرية الأبواء فى سنة (١٣٨٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاث و ثمانين هجرية، و وقفنا على قبر آمنه أم النبي صلى الله عليه وسلم على مكان عال فوق قمة الجبل، و هو قبر ظاهر مرتفع عن سطح الجبل ليس هناك قبر غيره، و لقد صدق عليها قول الشاعر:

علو فى الحياة و فى الممات لحق تلك إحدى المكرمات

فهل هناك شرف أعلى من أن تكون آمنه بنت وهب العربية القرشية أما لمن أرسله الله تعالى رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم، و هل فى الدنيا قبر مرتفع فوق رأس الجبل ظاهر كالعلم، لم يعف أثره و لم تدرس معالمه مع مرور الأجيال العديدة عليه، و سيبقى إلى ما شاء الله تعالى مرفوع الرأس عالى القدر، حتى يبعث صاحبه يوم القيامة سعيدا ناجيا فائزا مسرورا بفضل الله و رحمته، فيدخل الجنة بسلام آمنين مع ابنها سيد الخلائق أجمعين صلى الله عليه وسلم و على آله و صحبه و سلم - أليس هذا علو فى الحياة و علو فى الممات، و علو فى الآخرة إن شاء الله تعالى.

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: روى أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت: شهدت آمنه أم النبي صلى الله عليه وسلم في علتها التي ماتت بها، و محمد صلى الله عليه وسلم غلام يفع له خمس سنين، فنظرت إلى وجهه ثم قالت:

بارك فيه الله من غلام يا ابن الذي من حومة الحمام

نجا بعون الملك العلام فودي غداة الضرب بالسهام

بمائه من إبل سوام إن صح ما أبصرت في المنام

فأنت مبعوث إلى الأنام من عند ذي الجلال والإكرام

تبعث في الحل وفي الحرام تبعث في التحقيق والإسلام

دين أبيك البر إبراهيم فالله أنهاك عن الأصنام

أن لا توالياها مع الأقوام التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٢٩

ثم قالت: كل حي ميت و كل جديد بال و كل كبير يفنى، و أنا ميتة و ذكرى باق تركت خيرا و ولدت طهرا، ثم ماتت - قالت أم أسماء: فكنا نسمع نوح الجن عليها فحفظنا من ذلك هذه الآيات:

نبكى الفتاة البرة الأمانة ذات الجمال العفة الرزينة

زوجة عبد الله و القرينة أم نبي الله ذى السكينة

و صاحب المنبر بالمدينة صارت لدى حفرتها رهينة

قال في تاريخ الخميس: ثم قدمت به صلى الله عليه وسلم أم أيمن رضى الله تعالى عنها إلى مكة بعد موت أمه بخمسة أيام - ١٥ - فالذى يظهر لنا والله تعالى أعلم: أن أم النبي صلى الله عليه وسلم لم تمرض كثيرا في طريقها إلى مكة، بل إنها وصلت إلى الأبواء في هودجها سالمة ثم مرضت بها يوما أو يومين ثم ماتت، فلو مرضت كثيرا في قرية الأبواء، لحصل لها و لابنها "محمد" صلى الله عليه وسلم و هو طفل صغير و لحاضنته أم أيمن رضى الله تعالى عنها، تعب عظيم و حزن عميق و إرهاق شديد، و لأرسل جده عبد المطلب من مكة من يتعقب أخبارهم، فالله سبحانه و تعالى كريم رحيم، لطيف حكيم، خير عليم.

و حيث ماتت أم هذا الطفل النبي الكريم عليه الصلاة و السلام بالأبواء و دفنت بها، سارعت حاضنته أم أيمن بمواصله السفر من الأبواء، فقدمت بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد خمسة أيام من موت أمه، فكفله جده عبد المطلب و ضمه إليه ورق عليه رقة شديدة لم يرقها على أولاده، و كان يقربه منه و يدخل عليه إذا خلا و إذا نام، و كان عبد المطلب لا يأكل طعاما إلا قال: على بابنى. فيؤتى به إليه، و لقد قال يوما لحاضنته أم أيمن: لا تغفلى عن ابني فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبي هذه الأمة، ثم لما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمما تقدم يعلم أن الأبواء هي منتصف ما بين مكة و المدينة، فإن المسافة بين البلدين بالجمال عشرة أيام، و الأبواء كانت هي طريق القوافل بين مكة و المدينة من قديم الزمان، ثم في عصرنا الحاضر أى منذ (١٣٥٤) ألف و ثلاثمائة و أربع و خمسين هجرية تقريبا هجرت طريق الأبواء، و اتخذ الناس وادى "مستورة" المسمى بوادى "ودان" طريقا لهم بين البلدين الحرامين، و ذلك منذ امتداد خط الإسفلت فيه للسيارات أى الأوتومبيلات، و هذا الوادى هو فى محاذاة الأبواء بينهما أقل من أربعين كيلو مترا كما سيأتى بيان ذلك.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣٠

محل مدفن أم النبي صلى الله عليه وسلم

و قد اختلف الناس فى موضع دفن آمنه بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم على قولين:

فبعضهم يقول إنها ماتت بمكة و دفنت بها بمقبرة الحجون، فقد جاء في تاريخ الخميس: و في ذخائر العقبي قال ابن سعد: دفنت أمه صلى الله عليه و سلم بمكة، و أن أهل مكة يزعمون أن قبرها في مقابر أهل مكة من الشعب المعروف بشعب أبي ذئب رجل من سراة بنى عمرو، و قيل: قبرها في دار رابعة في المعلاة بئنية أذاخر عند حائط حلما-١٥.

و يقول بعضهم إن أم النبي صلى الله عليه و سلم ماتت بالأبواء و دفنت بها، و هذا أرجح الأقوال و عليه غالب المؤرخين، و لكل من أصحاب القولين حجة- قال مؤلف تاريخ الخميس: قيل التوفيق بين دفن أمه صلى الله عليه و سلم بالأبواء و كون قبرها بها و بين قبرها بمكة على تقدير صحة الحديثين: أن يقال يحتمل أن تكون دفنت بالأبواء أولا و كان قبرها هناك، ثم نبشت و نقلت إلى مكة و الله تعالى أعلم-١٥.

و نحن نقول: إن دفنها بالأبواء أصح و أرجح، و لكن نستبعد نبش قبرها و نقلها إلى مكة، في ذلك العصر الذي لم تكن فيه إلا وسيلة واحدة للانتقال و الأسفار، و هي الجمال و البغال و الحمير، فنقل الميت بوسيلة ركوب الجمال و المشى بها من الأبواء إلى مكة في خمسة أيام أمر شاق جدا بل متعذر، و يؤدي ذلك إلى تكسر الجثة و تعفنها لعدم معرفة العرب لطرق تحنيط الأموات، و لم يكن نقل الأموات في ذلك الزمن من بلدة إلى بلدة أمرا معروفا- أما نقل الأموات في زماننا هذا فقد جرى عليه عضاء الناس و إن لم يرد ذلك في الشرع، و هذا لتيسر أسباب النقل من الطائرات و السيارات التي اخترعت في عصرنا، و لمعرفتنا لطرق تحنيط الأموات صيانه لهم من التعفن و التفسخ.

و نحن لا- يمكننا أن نوفق بين القولين إلا بأمر معنوي، و ذلك بأن نقول: إن أم النبي صلى الله عليه و سلم ماتت بالأبواء و دفنت بها، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم من المدينة في غزوة الحديبية و مر في طريقه بالأبواء، تذكر أمه العزيزة الكريمة فاستأذن ربه عز و جل في زيارتها، فأذن له فجاء إلى قبرها- و نقول بناء على ما جاء في بعض الأحاديث الدالة على وقوع زيارتها بمكة: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما وصل إلى مكة في حجة الوداع و هي آخر حجاته و مر على عقبه الحجون، تذكر أمه الحبيبة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣١

فاشفاق إليها، و استأذن ربه العزيز الغفار في زيارتها، فأذن الله تعالى له في ذلك و أمر الملائكة بنقلها إلى مقبرة الحجون من الأبواء، تطيبا لقلب نبيه الكريم و معجزة له عليه الصلاة و التسليم، و لتكون زيارته لها في أسرع وقت و أقرب لحظة، كما وقع ذلك في اجتماعه صلى الله عليه و سلم بالأنبياء عليهم الصلاة و السلام في بيت المقدس و في السموات السبع ليلة الإسراء و المعراج، و الله تعالى أعلم بما كان بينه صلى الله عليه و سلم و بين أمه من الأمور و المشاهدات في هذه الزيارة، فزيارة رسول الله صلى الله عليه و سلم للأموات ليست كزيارة عامة الناس، فإنه صلى الله عليه و سلم يكشف له من الأمور و المشاهدات ما لا يكشف لغيره.

هذا و لقد رأينا قبر آمنه بنت وهب أم النبي صلى الله عليه و سلم بمقبرة المعلا بالحجون بمكة، و كانت عليه قبة جميلة، و كذلك رأينا قبرها بالأبواء، و كانت عليه قبة لطيفة أيضا، و هاتان القبتان بنتهما الحكومة التركية حينما كانت تحكم الحجاز و البلدان العربية، فلما دخلت الحكومة السعودية إلى الحجاز في سنة (١٣٤٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاث و أربعين هجرية، هدمت القبتين المذكورتين و هدمت جميع القباب التي كانت على القبور، و ستتكلم بعد المبحث الآتي عن قرية الأبواء و موقعها.

نجاه أبوي النبي صلى الله عليه و سلم

إشارة

اعلم أن العرب قبل ظهور الإسلام كانوا أهل شرك يعبدون الأصنام، و لكن عقلاءهم و فضلاءهم و منهم آباء النبي صلى الله تعالى عليه و سلم موحدون يعبدون الله تعالى على دين الخليل إبراهيم و ابنه إسماعيل عليهما الصلاة و السلام، و إن كانوا على بعد العهد لا

يعرفون تفاصيل دينه الحنيف، و يكفى أنهم يعتقدون بوجود الله تعالى و ببعثة الرسل و الأنبياء إلى الأمم السابقة، و أنهم يعترضون على قومهم فى عبادة الأوثان و فى سفاسف الأمور الشركية، لأن العقل السليم لا يقر العادات المستهجنة القبيحة، فليس ببعيد أن يمن الله تبارك و تعالى على بعض عباده من أهل الفترة بالفكر الثاقب و العقل السليم، ليهتدى إلى الخلاق العظيم و ينبذ عبادة الأصنام و يجتنب قبيح الآثام؛ كقس بن ساعدة الإيادى حكيم العرب و غيره كما سنذكرهم بعد قليل.

فمن أسعدهم الله تعالى بالهداية بفضلله و رحمته آباؤه صلى الله عليه و سلم ذكورا و إناثا، فإنهم لم يسجدوا لصنم و لم يرتكبوا جرما و كلهم من سادات قريش، ليخرج

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣٢

رسول الله صلى الله عليه و سلم الذى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، من آباء طاهرين و أمهات طاهرات، و لسنا نذهب بعيدا و نحصر الأدلة على ذلك حتى لا يطول بنا الكلام، و لكن يكفى أن نذكر ما كان عليه الجد الأول القريب لرسول الله صلى الله عليه و سلم و هو "عبد المطلب" فلقد كان على ملء إبراهيم عليه الصلاة و السلام يعتقد بالبعث و الجزاء، و كان قد حرّم الخمر، و نكاح المحارم و الزنا، و منع و أد البنات، و كان يأمر أولاده بترك الظلم و البغى، و يحثهم على مكارم الأخلاق، و كان كريما يطعم المساكين، بل يطعم حتى الطير و الوحش فى رؤوس الجبال، و لقد هداه الله تعالى إلى موضع بئر زمزم بعلامات رآها فى المنام، فحفرها و أخرج منها الغزالين الذهب و السيوف و الدروع التى دفنتها جرهم فى البئر- و من تأمل قصة عبد المطلب مع أصحاب الفيل علم قوة إيمانه بالله تعالى و يقينه، فإنه لما أخذ رجال أبرهه مائتى إبل لعبد المطلب استاقوها من الحرم، و راجع عبد المطلب أبرهه ليأمر برد إبله إليه، فقال له أبرهه ملك الحبشة: أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك و تترك بيتا هو دينك و دين آباءك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه، فأجابه عتبد المطلب: أنا رب الإبل و إن للبيت ربا سيمنعه، قال أبرهه: ما كان ليمنع منى، قال: أنت و ذاك، ثم أمر أبرهه برد إبل عبد المطلب إليه، ثم رجع عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، و أمرهم بالخروج من مكة و التحرز فى الجبال و الشعوب- ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة الكعبة و صار يدعو ربه الكبير المتعال و يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عادا كافامنعمهم أن يخبوا قراكا

فتأمل رحمتنا الله تعالى و إياك كيف أن عبد المطلب التجأ إلى الله تعالى رب هذا البيت العظيم، و لم يلتجأ إلى صنم و لا وثن، فحفظ الله بيته و حرمة و أهله و دمر أصحاب الفيل شر تدمير.

و هذا عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله صلى الله عليه و سلم، إنه على دين أبيه و أخلاقه كأخلاق أبيه، لا يقرب الحرام و لا يقترف الآثام، و أعظم دليل على ذلك قصة الخنعمية معه، فإنه مر يوما على فاطمة بنت مرة الخنعمية و كانت من أجمل النساء، فدعته إلى نفسها فامتنع عنها و قال:

أما الحرام فالممات دونه و الحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغينه يحمى الكريم عرضه و دينه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣٣

و من تأمل ما قالته آمنه بنت وهب عند موتها فى ابنها "محمد" صلى الله عليه و سلم، و ما كان يتراءى لها من البشائر و الكرامات عند ولادته، و قولها لمرضعته حلیمه و زوجها عندما رجعا به إليها بعد حادثه شق صدره صلى الله عليه و سلم: أخشيتما عليه الشيطان، كلا و الله، ما للشيطان عليه سبيل، و إنه لكائن لابنى هذا شأن فدعاه عنكما- إن من تأمل أقوال آمنه و ما رآته من البشائر و الكرامات، ظهر له إيمانها و يقينها برب العزة و الجلال الذى له ملك السموات و الأرض.

و إذا تأملت قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما حكى الله تعالى عنه فى سورة الزخرف: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ* إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ* وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فالكلمة الباقية فى عقبه هى كلمة الشهادة والإخلاص، فلا يزال ذلك فى ذريته من بعده- وقوله فى سورة إبراهيم: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ قَالَ ابن جرير: فلن يزال من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ناس على الفطرة يعبدون الله تعالى- وقوله فى سورة إبراهيم أيضا: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ* رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* رَبَّنَا إِنِّي أَسِيءْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

أخرج ابن جرير عن مجاهد، قال: استجاب الله تعالى لإبراهيم دعوته فى ولده فلم يعبد أحد من ولده صنما، واستجاب الله تعالى دعوته فجعل هذا البلد آمنا و رزق أهله من الثمرات وجعله إماما وجعل من ذريته من يقيم الصلاة- ا.هـ.

وقد اتفق العلماء على أن العرب من بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام كلهم على دينه لم يكفر منهم أحد قط ولم يعبد صنما إلى عهد عمرو بن لحي الخزاعى فإنه أول من غير دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعبد الأصنام وسيب السوائب- ففى الصحيحين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار كان أول من سيب السوائب» أى أمر بعدم منع النياق التى تسبب فى الجاهلية لنذر أو نحوه من الرعى، فترك رعى من أى مرعى تمر عليها،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣٤

وعمر بن عامر هو المعروف بعمر بن لحي بن قمع بن إلياس بن مضر، جاء فى شرح العزير على الجامع الصغير: وعمر بن عامر الخزاعى قد بلغت الدعوة، وأهل الفترة الذين لا يعذبون هم من لم يرسل إليهم عيسى ابن مريم ولا أدركوا محمدا عليهما الصلاة والسلام. ا.هـ.

قال الحافظ ابن كثير: كانت العرب على دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم إلى أن ولى عمرو بن عامر الخزاعى مكة وانتزع ولاية البيت من أجداد النبی صلى الله عليه وسلم، فأحدث عمرو المذكور عبادة الأوثان و شرع للعرب الضلالت. ا.هـ.

ولقد ذكر الأزرقى أيضا قصة عمرو بن لحي المذكور فى أوائل كتابه تاريخ مكة (نقول): ولو أن عمرو بن عامر المذكور قد أحدث للعرب عبادة الأصنام، فإنه ما زال بعضهم من العقلاء على التوحيد على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ كزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وعمر بن حبيب الجهنى، وعمر بن عنبسه، وغيرهم. ومن نظر إلى قول خديجة رضى الله تعالى عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول نزول الوحي عندما دخل عليها وقال:

زملونى زملونى، فبعد أن زملوه و ذهب عنه الروح وأخبرها ما وقع له فى غار حراء قالت له: والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام، ولا مرأ أن الله اختارك لهداية قومك، ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان شيخا كبيرا يعرف مسائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فبشره بأنه نبي هذه الأمة، إن من تأمل قول خديجة بنت خويلد الزوجة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم علم يقينا أنها ممن يعرف الله تعالى ولم تسجد لصنم قط- ولا شك إذا أن آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هؤلاء على التوحيد لا يعرفون الشرك ولم يسجدوا لصنم، يؤيده قوله صلى الله عليه وسلم: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» وفى رواية: «لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصطفى مهذبا ما تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما»، ولا يخفى أن المشركين نجس بنص القرآن الكريم.

جاء فى شرح نظم عمود النسب، قال ابن حجر الهيتمى: إن الأحاديث مصرحة لفظا ومعنى أن آباءه صلى الله عليه وسلم غير الأنبياء و

أمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣٥

كافر، لأن الكافر لا يقال في حقه مختار ولا كريم ولا طاهر بل نجس، وقد جاء في الأحاديث أن آباءه مختارون وأنهم كرام وأن أمهاته طاهرات-١ هـ.

وما أحلى قول صاحب نظم عمود النسب رحمه الله تعالى حيث يقول:

خير الشعوب شعبه لآدم وقرنه خير قرون العالم

من مؤمنين متناكحيناخرج لا من متسافحينا

ينقل من أصلاب طاهرينالطاهرات من لدن أئبنا

و كيف لا و المشركون نجس و من أذى نبينا مقدس

من ساجد لساجد تقبلاصلى عليه الله ما هب الصبا

و جعل الدين عمود نسبه كلمة باقية في عقبه

و فيه ربه له تقبلادعاه من كل بر سألأ

كثر ك الأصنام و ترك الموبقات و كل ما يزرى بمنصب الثقات

و قال عبد الله حين استعصم ممن دعتة إذ تبع الأدمأ

أما الحرام فالممات دونه و الحل لا حل فأستيبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمى الكريم عرضه و دينه

و العذر بالفترة و الإحياء فيؤمنوا و رد في الأنباء

و لعن الإله من آذاه في هذه الدار و في أخراه

و يشير الناظم بالبيتين الأخيرين إلى أن أهل الفترة ناجون لعذرهم بعدم بعث رسول إليهم، وقوله "و الإحياء" إلى أن الله تعالى أحيا أبوى النبي صلى الله عليه وسلم بعد بعثه فأما به ثم ماتا كما ورد في بعض الأحاديث، و لا يشترط في إحيائهما خروجهما من القبر، بل يجوز أن الله تبارك و تعالى أحياهما في قبريهما كما يحصل في سؤال القبر فأما به ثم أماتهما و رسول الله صلى الله عليه وسلم يراهما و يخاطبهما و الله على كل شئ قدير، وقوله "و لعن الإله من آذاه" إشارة إلى قول الله تبارك و تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا، و لا أذى أعظم من الحكم على أبوى النبي صلى الله عليه وسلم بالكفر و أنهما في النار، و إذا كان شرعا يطلب درء الحدود بالشبهات، أفلا- يجب في هذه المسألة الخطيرة الحكم بحسن الظن أو عدم الخوض فيهما إكراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم و تأدبا معه و مع أبويه الكريمين، خصوصا و قد ذهب كثير من الأئمة الأعلام إلى أنهما ناجيان سعيدان،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣٦

فيجب تقليد هؤلاء الأئمة الكرام؛ لأنه أسلم و أولى- فلقد جاء في تاريخ الخميس ما نصه: قال الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في رسالته المسماة "بالدرجة المنيفة في الآباء الشريفة" و ذهب جمع كثير من الأئمة الأعلام إلى أن أبوى النبي صلى الله عليه وسلم ناجيان محكوم لهما بالنجاة في الآخرة، و هو أعلم الناس بأقوال من خالفهم و قال بغير ذلك و لا يقصرون عنهم في الدرجة، و من أحفظ الناس للأحاديث و الآثار، و أنقذ الناس بالأدلة التي استدلت بها أولئك، فإنهم جامعون لأنواع العلوم و متضلعون من الفنون ... الخ كلامه-١ هـ.

و نحن لا ندرى إذا حكم الإنسان على أبوى النبي صلى الله عليه وسلم بالكفر، ثم يظهر له يوم القيامة خلاف ذلك بأى وجه يلقي

رسول الله صلى الله عليه وسلم هنالك، أما لو سكت فلا خطر في السكوت، و من تأمل و دقق في قول الله تبارك و تعالى: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى اعتقد اعتقادا جازما بأن أبوى النبي صلى الله عليه وسلم ناجيان يتنعمان في الجنة في أعلا الدرجات بفضل الله و رحمته، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى يومئذ أن يكونا في النار يعذبان، و هما الجوهرتان المتعلقةتان به و الصدفتان اللتان خرج من بينهما، نسأل الله تعالى الرضا و التوفيق و الهداية لأقوم طريق آمين.

و من أراد زيادة البحث في نجاه أبوى النبي صلى الله عليه وسلم فليراجع الكتب الموضوعه في ذلك، و في تاريخ الخميس للعلامة الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكرى الكردى رحمه الله تعالى مبحث طويل قيم جدا في هذا الموضوع.

الحديث الصحيح الوارد في زيارته صلى الله عليه وسلم لأمه

فعلم مما تقدم أن آباءه صلى الله عليه وسلم من جهة الرجال و النساء أطهار كرماء لم يمسههم دناءة الشرك و قبيح العادات، لأن المشركين نجس كما أخبر الله تعالى بذلك في سورة التوبة، و يكفي في نجاه أهل الفترة إن شاء الله تعالى أن يؤمنوا بوجود الله تعالى و وحدانيته مع ابتعادهم عن عبادة الأصنام، أما معرفة أحكام دينه الحنيف فلا يشترط فيهم، لأن أحكام الشريعة لا تعرف إلا برسول يأتى من عند الله تعالى و لذلك قال تبارك و تعالى في سورة الإسراء: وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا. و قال في سورة القصص: وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَ أَهْلِهَا ظَالِمُونَ، فالفترة التي كانت بين عيسى بن مريم و نبينا محمد عليه الصلاة و السلام هي ستمائة سنة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣٧

كما في صحيح البخارى، و هذه المدة كافية لمحو معالم الديانة و انتشار الجهل و الفوضى في العقائد.

(فإن قيل): فما معنى ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه، قال: «زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى و أبكى من حوله، فقال: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، و استأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكرو الموت».

(نقول): لقد فهمنا هذا الحديث كما يأتى: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسئول من بعد بعثته عن أمته فقط، و أمه ماتت قبل بعثته بأربعين عاما و هو طفل في السادسة من عمره، و هى من أهل الفترة على دين إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام فى أساس التوحيد و إن لم تعرف معالم دينه للفترة الطويلة، فهى إذا ليست من أمته لأنها لم تدرك الإسلام، و من لم يدرك الإسلام فأمره مفوض إلى الله عز و جل، و الله تعالى لا يشقى أمه حيث كانت مع بعض عقلاء قومها على التوحيد و لم تعبد صنما، و رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطب بعد بعثته بقومه و مسئول عن أمته، لا- تعلق له دينيا بمن مات قبل البعثه حتى يستغفر له تِلْكَ أُمُّ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فعليه ليس هو مكلفا بالاستغفار لأمه حتى يزورها ليستغفر لها، فسوف يقر الله تعالى عينه يوم القيامة بنجاتها من النار و إدخالها الجنة مع السابقين بفضلله و رحمته- و ما قررناه فى أمه العزيزة صلى الله تعالى عليه وسلم نقررره فى أبيه الكريم.

أما زيارته لها صلى الله عليه وسلم فى قبرها شوقا و حينا فلا بأس من ذلك، فقد أذن الله تعالى له فى زيارتها، فزارها و بكى و أبكى من حوله، فبكاؤه صلى الله تعالى عليه وسلم كان رحمة و شفقة و حينا و شوقا، و لتذكره أحوال طفولته معها و كونها ماتت و عمره ست سنين، أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يعتريه ما يعترى البشر، فزيارته صلى الله عليه وسلم لأمه ليست كزيارتنا، إنه يكشف له و يرى ما لا نراه.

(فإن قيل): لم استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عز و جل فى زيارة أمه و لم يستأذن لزيارة أبيه؟

(نقول): لأنه صلى الله عليه وسلم لا يعرف أباه و لم يره فقد مات و هو فى بطن أمه، أما أمه فقد رآها و يعرفها و يتذكرها فقد ماتت

و عمره ست سنين، و الإنسان يحن إلى أمه و يشفق إليها أكثر، و رسول الله صلى الله عليه و سلم بشر في أحواله العادية- و الله تعالى أعلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣٨

و هذه الزيارة قيل كانت في الأبواء في عمره الحديبية سنة ست من الهجرة، و قيل كانت بمكة في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة- و الله تعالى أعلم- أى أن هذه الزيارة كانت بعد وفاة أمه صلى الله عليه و سلم بستين سنة تقريباً، سواء كان جسدها سليماً صحيحاً في قبرها أم ذاب و فنى في التراب، فإن الله عز و جل قادر على أن يحييها بكامل جسمها و عقلها و حواسها كما يحيى الأموات بعد دفنهم في قبورهم للسؤال و حين البعث، فيخاطبها صلى الله عليه و سلم و تخاطبه معجزة و كرامة له عليه الصلاة و السلام و الله على كل شىء قدير- فعن أبي جرير عن علقمة بن مرثد عن سليمان عن أبيه: «أن النبي صلى الله عليه و سلم لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً فقلنا: يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت ... إلخ».

و روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن عبد الله بن مسعود «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أتى إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فواجه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام، فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا، فقال: ما أبكاكم، قلنا: بكينا لبكائك، فقال: إن القبر الذى جلست عنده قبر آمنه و إنى استأذنت ربي في زيارتها فأذن لى ... إلخ»-٥.

فالذى نذهب إليه عن حسن ظن و تعقل: أنه لو كانت أمه صلى الله عليه و سلم في النار لكانت معذبة في قبرها، و لو كانت معذبة في قبرها لما أذن الله تعالى لنبيه الكريم عليه أفضل الصلاة و التسليم في زيارتها، حتى لا يراها معذبة في قبرها محاطة بالنار، فإن ذلك مما يزيد في حزنه و بلائه مدة حياته، فإنه صلى الله عليه و سلم في زيارته لقبر أمه كشف له عن حالتها فرآها و رآته و خاطبها و خاطبته في أمور لا يعلمها إلا الله سبحانه و تعالى- أما بكاءه صلى الله عليه و سلم عندما قام من قبرها، فلذلك و التفكير في يتمه و كونها ماتت و تركته طفلاً صغيراً في السادسة من عمره فبقى يتيماً من غير أب و لا أم، و بكى عندها رحمةً و حناناً إليها، و كان يتمنى لو شاركته في حياته السعيدة، حياة النبوة و الرسالة، و لترى ما أكرمه الله تعالى من العز و السؤدد و النصر و الكرامة- هذا ما نراه و نعتقد- و الله سبحانه و تعالى أعلم و هو بعباده أرحم، و جميع من في السموات و الأرض عبيده و ملكه يفعل فيهم ما يشاء و يحكم ما يريد- اللهم صل و سلم على عبدك و نبيك "محمد" و أفر عينيه بنجاة أبويه حتى يرضى رضاه تاماً، و أدخلهما الجنة معه بسلام آمين، مع خادمهم محمد طاهر الكردى مؤلف هذا الكتاب آمين، بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٣٩

و يعجبنا ما قاله بعضهم عن زيارة أمه صلى الله عليه و سلم

السلام عليك يا آمنه بنت وهب، السلام عليك يا أم رسول الله صلى الله عليه و سلم، جئناك زائرين لك حبا في رضاء الله عز و جل و رضاء ابنك خاتم النبيين محمد صلى الله عليه و سلم، فإننا نعتقد بفوزك و سعادتك، و حاشا أن الله تبارك و تعالى يشقيك و قد أخرجت من بطنك من أرسله الله رحمة للعالمين، و حويت في أضلاعك خليل الرحمن، فلم تجدى في حمله و وضعه عناء و لا مشقة فحاشا أن تمسك نار جهنم، إذا أنت لم تدخل الجنة فهل نحن ندخلها، إنك لو بقيت و عشت إلى بعثته صلى الله عليه و سلم لكنت أول من آمن به على الإطلاق أنت و والده عبد الله، لما كنتما تريان منه من بشائر النبوة و أمارات الرسالة، و لكنكما تركتماه يتيماً لحكمه يعلمها الله عز و جل، يا آمنه بنت وهب: أنت صدفة قيمة ضمنت في جوفك الطاهر أعظم درة ثمينة لا يوجد مثلها في الدارين، فرضى الله عنك و أرضاك و جمعنا معك في جنات النعيم، مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا آمين، فهنيئاً لك ثم هنيئاً لك ثم هنيئاً لك يا زينة النساء.

اللهم صل على سيدنا "محمد" و على آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم و على آل إبراهيم، و بارك على سيدنا محمد

و على آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم و على آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.
سبحانك ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين. هذا ما قاله بعض الفضلاء عند زيارة آمنه بنت وهب أم نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم و هو كلام صادر عن قلب مؤمن مملوء بحسن الظن بالله عز و جل و برحمته و فضله و مملوء أيضا بحب رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصوله و فروعه. و الله الموفق للصواب و إليه المرجع و المآب.

الكلام على قرية الأبواء و قرية مستورة

قرية الأبواء: هي من القرى الحجازية القديمة، لولا جاء ذكرها في التاريخ لم يكن لها شأن يذكر، فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم مر بها و هو طفل صغير نحو ست سنين من عمره حين ذهابه من مكة إلى المدينة ثم رجوعه مع أمه و حاضنته أم أيمن رضى الله تعالى عنها، و قد كان برفقتها عبد المطلب و قيل أبو طالب و نحن نرى الأراجح

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤٠

هو أبو طالب لأن عبد المطلب كان في ذلك الوقت قد حجب بصره و كبر سنه فتجاوز المائة و الله تعالى أعلم، فلما و صلوا إليها ماتت أمه آمنه بالأبواء و دفنت بأعلى جبل من جبالها الغربية كما سيأتي بيانه، و كذلك وقعت في الأبواء غزوة في أول السنة الثانية من الهجرة، و هي أول مغازيه صلى الله عليه و سلم، فقد خرج إليها في ستين رجلا من أصحابه بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة يريد عيرا لقريش، و لم يحصل حرب لأن العير كانت قد سبقته، ثم هناك صالح سيد بنى ضمره رسول الله صلى الله عليه و سلم على أن ينصر المسلمين و لا يعين عدوهم، فرجع النبي عليه الصلاة و السلام المدينة بعد مضي خمسة عشرة ليلة.

انظر: صورة رقم ٩، قبر السيدة آمنه بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه و سلم فوق جبل بالأبواء

و تقع الأبواء في منتصف طريق مكة و المدينة تقريبا، و هي قريبة من وادي ودان بينهما ستة أميال أو ثمانية، و لتقاربهما يطلق على غزوة الأبواء غزوة ودان، و لا يبعد أن تكون قرية مستورة هي من وادي ودان؛ لأن وادي ودان واقع بين مستورة و الأبواء، فبين مستورة و بين قرية الأبواء نحو ثلاثين كيلو مترا في طريق ذات حجارة ممهدة بالإسفلت و هذه الحجورة يسمونها الصّمد "بفتح فسكون" أي ليست حرة و ليست صخورا.

لقد كانت لنا رغبة شديدة منذ سنوات في زيارة قرية الأبواء و مشاهدتها و الكتابة عنها في كتابنا "التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم"، و لما تيسرت الأمور بفضل الله تعالى و حصلت معرفة و صداقة بيننا و بين أحد فضلائها و وجهائها و هو الشيخ عبيد الله بن عابد الأنصاري، توجهنا من مكة المشرفة قاصدين المدينة المنورة عن طريق الأبواء لزيارتها بدعوة من الشيخ عبيد الله المذكور، و ذلك في اليوم الثامن من ربيع الثاني سنة (١٣٨٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاثة و ثمانين هجرية، خرجنا من مكة شرفها الله تعالى بالسيارة في ضحى يوم الاثنين يرافقتنا أحد أبناء الشيخ عبيد الله المذكور ليدلنا على الأبواء، فوصلنا إلى جدة في الساعة الرابعة فاسترحنا فيها إلى بعد العصر، ثم سرنا حتى وصلنا إلى مستورة ليلا وقت العشاء و بين جدة و مستورة "١٩٦" كيلو مترا، فوجدنا هناك في انتظارنا الابن الثاني للشيخ عبيد الله المذكور جاءنا بسيارته الجيب ليأخذنا إلى الأبواء موفدا من قبل أبيه، فبتنا تلك الليلة في مستورة بقهوة نظيفة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤١

فلما أصبحنا ذهب الإخوان لزيارة خالهما المقيم بمستورة، فدعانا خالهما الشيخ محمد نور بن مثنى المحمدي للغداء عنده و دعا معنا سعادة أمير مستورة الشيخ مبارك بن سليمان. و هو مع احتفاظه بهيئته العربية رجل كريم و قور ذكي عاقل، يعرف القراءة و الكتابة و يدرك الأمور بالإشارة، قضينا ذلك اليوم في مستورة و أردنا السفر إلى الأبواء و لكن دعانا سعادة أمير مستورة للغداء عنده في اليوم الثاني و اعتذرنا فلم يقبل، فمكثنا يوما آخر بمستورة إجابة لدعوته و قد طفنا حولها قليلا، فإذا هي واسعة فسيحة يسكن أهلها في

بطونها ووديانها في بيوت من العشاش، وفيها مركز لخفر السواحل قرب البحر به ضابط و جنود. وقد أخذنا الشيخ محمد نور المحمدى المذكور إلى البحر في زورق شرعى فمكثنا في لجة البحر نحو ثلاث ساعات نصيد الحوت. فمستورة مشهورة بكثرة الحوت و جودة الهواء، و من الطريف أن ولدنا عبد الرحمن الكردى كان خائفا كثيرا من ركوب البحر و ما اطمأن إلا بعد أن أكل حوتا مشويا في وسط البحر، و ما ألد الأكل بعد الخوف و الجوع و الاطمئنان.

يبلغ عدد سكان مستورة أكثر من ثلاثة آلاف نسمة يشتغلون بصيد الأسماك و بالزراعة في الشتاء عند نزول الأمطار، و أهل مستورة أهل صدق و أمانة و دين و استقامة، و هم أبعد الناس عن الفسق و الفجور و شرب المسكرات و ارتكاب المحظور، و إذا حصلت بينهم مشاحنات و مخاصمات فإن عقلاء القرية يصلحون بينهم.

و أرض مستورة ما كان منها منخفضا فتربتها صالحه للزراعة عند نزول الأمطار يزرعون فيها الحبوب و الخبز و القثاء و غيرها، و ما كان منها مرتفعا فأرضها مفروشة بالحجارة الملساء السوداء بحجم البطاطس يسمونها (الصمد) أى أنها ليست حرة و لا صخورا، و نظن أن أصلها (الصلد) باللام أى الصلب كما فى اللغة فحرفت و نطقوها بالميم- و فى مستورة عدة آبار ماؤها فيه ملححة قليلة و الماء الحلو العذب يأتى إليها من رابع بالسيارات الوايتات، يعطى لهم مجانا من قبل الحكومة.

و لقد أخبرنا سعادة أمير مستورة الشيخ مبارك بن سليمان أنه سمع بوجود بئر قديمة بمستورة لكنها أطبت بالحجارة العظيمة و لا يعرفون مكانها، فأتى بأهل المعرفة من البدو فما زالوا يبحثون عنها حتى عثروا على مكانها، فقام الأمير

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤٢

بحفرها و إزالة الأطباق عنها حتى ظهر الماء، و لقد وقفنا على هذه البئر فوجدنا بين سطح الأرض و بين الأطباق نحو قمتين بل أكثر، فجزى الله تعالى من كان السبب فى ذلك خير الجزاء، و جزى من أطبق البئر بالحجارة و لم يطمرها أحسن الجزاء حيث قد انتفع بها الناس اليوم.

فحبذا أن المسؤولين بمكة أطبقوا الآبار القديمة بها و جعلوا عليها علامات لمعرفة بدلها من ردمها و طمرها و إعفاء آثارها، فقد يأتى يوم يحتاج أهل مكة إلى ماء الآبار و لو كانت مالحة، كما احتاجوها فى عام ١٣٦٠ عند نزول الأمطار القوية و تخريب السيل العظيم دبول عين زبيدة، و يعرف هذا السيل عندنا بسيل "يوم الأربعاء" الذى دخل المسجد الحرام و وصل إلى باب الكعبة المعظمة و كلنا شاهدنا ذلك.

هذا و سيل مستورة و الأبواء يجرى من مسيل واحد و هو المسمى بوادى "ودان" هذا ما يقولونه اليوم و ليس ذلك بعيد لاتصالها و قربها من بعض، كما نقول أن سيل مكة يأتى إليها من منى و عرفات.

قال صاحب وفاء الوفاق: ودان قرية من نواحي الفرع لضمرة و غفار و كنانة على ثلاثة أميال من الأبواء-١هـ. و الفرع، و قال بعضهم: ودان من الجحفة على مرحلة، بينها و بين الأبواء ستة أميال-١هـ. و الميل ستة آلاف ذراع بذراع اليد، و الفرسخ ثلاثة أميال، فعليه تكون المسافة بين وادى ودان و الأبواء فرسخين أى نحو عشرة كيلو متر.

و فى ودان يقول بعض القدماء:

قفوا أخبرونى عن سليمان أننى لمعرفه من أهل "ودان" راغب

فمما تقدم يعلم أن الأبواء و ودان و مستورة كلها منطقة واحدة تدخل فى نواحي الفرع لضمرة و غفار و كنانة- و لكن الأبواء أهمها و أعظمها- و الله تعالى أعلم.

فافهم هذا المبحث الفريد فإنك لا تجده فى كتاب، و لقد جزنا الكلام على قرية مستورة؛ لأنها هى الطريق المسلوكة إلى الأبواء و إلى المدينة المنورة، فمستورة واقعة فى منتصف طريق جدة و المدينة تقريبا، فهى محطة شهيرة فى خط الاسفلت تمر بها اليوم جميع قوافل السيارات.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤٣

أما قرية الأبواء فنصفها بعد مشاهدتنا كما يأتي:

في صباح يوم الخميس بعد شروق الشمس قمنا من مستورة متوجهين إلى الأبواء في سيارة الشيخ عبيد الله بن عابد الأنصاري التي أرسلها لنا لتكون في ضيافته بالأبواء يصحبنا ولداه "الشيخ يحيى و الشيخ أحمد" و هما أكبر أولاده، سرنا من مستورة نحو مشرق الشمس بالسيارة الجيب في خبت واسع، في أرض غير مسفلتة و إنما هي ذات حجارة سوداء ملساء بقدر حجم البطاطس يطلقون عليها "الصمد" كما ذكرناها في مستورة، و المسافة بينها و بين الأبواء نحو (٢٨) كيلو مترا أى أقرب مما بين (مكة و بحرة) فالأبواء واقعة في شرق مستورة.

و يطلقون اليوم على الأبواء اسما آخر و هو "خريبة" لأن سيلا عظيما أتى عليها قديما فخر بها ثم عمرت من جديد.

سرنا في أرض واسعة لا يكتنفها الجبال، فيها العشب و أشجار السلم التي تصلح لرعى المواشى، فمررنا في طريقنا بالبئر التي طويت بالصخور الكبار و التي اكتشفها و أظهرها أمير مستورة، كما مررنا ببئر أخرى واسعة جدا غزيرة الماء في جانب منها درج من الصخر كالسلاسل للتزول إلى قاع البئر، إنها درج عجيبة الابتكار، فرحم الله بانيها، و هذه البئر كانت قديما محطة سابقة للقوافل المارة بمستورة، و من وسط هذا الوادي كانت القوافل تمر منه قديما إلى بدر فالمدينة المنورة، فمن أتى من رابغ يريد المدينة أمامه طريقان، طريق يؤدي إلى مستورة و طريق يؤدي إلى هرشى "على وزن سكرى" ثم يتفرع بعد هرشى إلى طريقين، طريق يمر على بير ميريك و القاحا و طريق يمر على الأبواء و على المصفرة من آخر الأبواء من جهة الغرب مما يلي الجبل المدفونة عليه أم النبي صلى الله عليه و سلم، و كل هذه الطرق تجتمع في محطة المسيجيد. و هرشى هضبة في أرض مستوية لا تنبت شيئا ينسب إليها بنبته هرشى، و فيها يقول الشاعر:

خذا أنف هرشى أو قفاها فإنما كلا جانبي هرشى لهن طريق

و من غرب هرشى تمتد حرة و تنتهي قبيل مستورة جنوبا تسمى حرة "كلهف".

سرنا في طريقنا في أرض واسعة مستوية حتى قاربنا الأبواء، و إذا هي محاطة من جميع الجهات بسلسلة من الجبال الصغيرة، و في أول مدخل الأبواء، على يسار الذهاب إليها، جبل غير مرتفع عليه قبر آمنه بنت وهب أم النبي صلى الله عليه و سلم و يظهر القبر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤٤

فوق الجبل من الطريق لأنه مرتفع نحو نصف قامه محاط بالأحجار، و الجبل مسطح من أصل الخلقة و ليس فوق الجبل و لا في أسفل الوادي قبر غير قبرها، يصدق عليه قول القائل:

و قبر حرب بمكان قفرو ليس قرب قبر حرب قبر

و قد بنت الأتراك أيام حكمهم للحجاز على هذا القبر قبة قوية بالأحجار و النورة البلدية، هدمتها الحكومة السعودية عند دخولها الحجاز، و حول هذه الجبال يوجد كثير من نبات الإذخر و هو نبت كروي الشكل كالحجرب "البطيخ" عطرى الرائحة يبيس في الصيف عند اشتداد الحر ثم يخضر في الربيع عند نزول الأمطار و لا يموت شيء منه إذا يبيس، و هذا الوادي لما كان مطروقا من قديم الزمان كانت الآبار فيها متعددة، فقد كانت القوافل تمر مع جبال الأبواء من عند قبر أم النبي صلى الله عليه و سلم.

و لقد سألنا العرب هناك عن سبب دفن أم النبي صلى الله عليه و سلم فوق الجبل، فقالوا: إن هذا الموضع لم يكن محطة لتزول القوافل لعدم وجود سكان به قديما و حديثا، لذلك لم تكن به قبور حتى تدفن في أحدها، و لقد دفنوها فوق الجبل خوفا عليها من السيول و السباع و اختاروا لدفنها هذا الجبل بالذات؛ لأنه هش سهل التكرس و الحفر، و لأنه غير مرتفع و غير مسنم بل أعلاه عريض مسطح.

فوجدنا كلامهم مقبولا- معقولا واضحا كالشمس- فاستنتجنا من ذلك أن أم النبي صلى الله عليه و سلم لم تمرض بالمدينة حين

إقامتها بها وإلا- لم تخرج منها، و أنها أيضا لم تمرض في الطريق وإلا- للبت في إحدى القرى و المحطات حتى تتماثل للشفاء، خصوصا و أنه يستحيل على المريض السفر أياما على الجمال في ذلك العهد، إذا فيكون موتها بغتة في مدخل الأبواء بقرب ذلك الجبل، كانت في الاحتضار نحو ساعة أو ساعتين ثم ماتت فغسلها المسافرون معها من بئر الرعاء القريبة منهم و دفنوها فوق ذلك الجبل.

و لا شك أن موتها بغتة و هي في حالة السفر رحمة و كرامة لها و لابنها الصغير الذي لم يتجاوز السادسة "محمد" ذلك النبي الكريم صلى الله عليه و سلم، فلو مرضت في الطريق لتعب ابنها الطفل الصغير و حاضنته أم أيمن رضى الله تعالى عنها كانت معهم أشد التعب و الله رؤف بالعباد.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤٥

و بعد دفنها قدمت أم أيمن "بمحمد" صلى الله عليه و سلم إلى مكة في خمسة أيام، و ما بين الأبواء و المدينة خمسة أيام أيضا، فتكون المسافة بين مكة و المدينة بالجمال عشرة أيام. و في رواية أن قبر آمنه بنت وهب بمكة.

ثم سرنا من جبل أم النبي صلى الله عليه و سلم متوجهين إلى داخل قرية الأبواء فاستقبلنا في منزله مضيفنا الشيخ عبيد الله بن عابد الأنصاري. و هو رجل صالح فاضل كريم عاقل من أعيان أهل الأبواء و وجهائها. فجلسنا في ضيافته ثلاثة أيام، و دعانا أخوه الشيخ عبد القادر الأنصاري للغداء في اليوم الثاني أحسن الله إليهما و جزاهما عنا خير الجزاء.

لقد تجولنا بالأبواء بسيارة الجيب الخاصة بمضيفنا العزيز الشيخ عبيد الله المذكور، فإذا هي قرية واسعة كبيرة زراعية، لها أمير كريم محترم اسمه الشيخ يوسف بن عطية أبو جلى، و لقد سمعنا عنه الثناء الحسن و أنه يتحلى بحميد الخصال و كريم الأخلاق، كنا نود زيارته و التشرف بمقابلته لولا ضيق الوقت و سرعه سفرنا.

يبلغ عدد سكان الأبواء نحو خمسة آلاف نسمة، بل أكثرهم يسكنون بين جبالها و وديانها و مزارعها، و كلهم يشتغلون بتربية المواشى و بالزراعة و الفلاحة صيفا و شتاء.

و أهل الأبواء كأهل مستورة أهل دين و أمانة و صدق و استقامة بعيدون عن الفسق و الفجور و قريون من الخير، و إذا حصلت بينهم مخاصمات و مشاحنات يحضرمهم عقلاء القرية ليصلحوا بينهم، و لمضيفنا الكريم الشيخ عبيد الله الأنصاري منزله خاصة بينهم، فيبته مفتوح لهم و يصلح بينهم إذا اختلفوا و يؤمهم في مسجده الخاص، لذلك يطلقون عليه "الشيخ عبيد الله الشيخ".

و في الأبواء مدرسة ابتدائية مديرها ابن مضيفنا المذكور و اسمه "الأستاذ أحمد عبيد الله الأنصاري" و هو مثقف متخرج من مدارس مكة المكرمة، و في هذه المدرسة كثير من أبناء الأبواء، و بناء المدرسة من اللبن و هي تحتاج إلى إصلاح كثير، فحبذا لو أن وزارة المعارف جددت بناء هذه المدرسة بالإسمنت المسلح و ساعدتها بكثير من الإعانات لأن أبناء الأبواء فيهم ذكاء مفرط كما يدل على

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤٦

ذلك نتيجة الاختبار العمومي في السنة الماضية، و الحق أن مدير المدرسة المذكور رجل نشيط مخلص لعمله.

و طول الأبواء اثنا عشر كيلو مترا و عرضها ثلاث كيلو مترات، و قد يضيق و قد يتسع، تحيط بها الجبال من جهة الشمال، و تحيط بها حرة سوداء من جهة الجنوب، و هذه الحرة ممتدة كالخيط من أولها إلى آخرها، عرضها نحو خمسمائة متر أى نصف كيلو متر. و أعلا هذه مسطح ليس فيه تعاريج و فيه بركة تجتمع فيها مياه الأمطار، لذلك يسكن بعضهم في أعلى هذه الحرة. و في الأبواء يزرع النخل و الدخن و الذرة و الطماطم و الفاصوليا و الباذنجان الأسود و الباميا و الدباء و القرع الأبيض و القثاء و الحبوب و الخربز و غير ذلك، و عندهم البقر و الغنم و الدجاج، و لهم ولع بصيد الأرنب و الغزلان و الطيور.

و في موسم الأمطار تكثر الزراعات، و في غيرها يسقون الأراضي من مياه الآبار يركبون عليها مكائن سحب المياه، ففي الأبواء مائة و

خمسون موتورا يسقون بها البساتين و الأراضي الزراعية، و مياه الآبار فيها نوع ملوحة لا تصلح للشرب، لذلك هم في حاجة شديدة للماء العذب، و في بعض الأوقات تأتيهم الوايتات بالماء الحلو من بلدة رابغ فيستعملونه للأكل و الشرب فقط، فحبذا لو أن الحكومة أمنت لأهل الأبواء الماء العذب كما أمنتها لأهل مستورة، خصوصا و أن سكان الأبواء يبلغ ضعف سكان مستورة، و قد لا حظنا على زراعة الأبواء عامة الضعف و الهزل خصوصا سنابل الدخن و الذرة، و الزارع الذي ينتظر بفارغ الصبر نضوج ثمره و حوبه، ثم يخيب أمله بفساد الحبوب و هزال الثمر، يحزن بعد طول صبره أشد الحزن و يعتره هبوط و كسل.

فحبذا لو أن وزارة الزراعة راعت هذه المنطقه و عملت بالوسائل التي لديها على حفظ مصالحهم و رفع مستوى الزراعة في جميع القرى.

و ذكر صاحب "وفاء الوفا" نقلا عن الأسدى: أن في وسط الأبواء مسجدا لرسول الله صلى الله عليه و سلم، و ذكر بها آبارا و بركا منها بركة بقرب القصر، ثم ذكر ودان و ثنية هرشى، و قال: لقد أمر المتوكل بعمل أعلام و أميال لهذه الطرق. اهـ.

نقول: لم يبق أثر للمسجد المذكور و لا للأعلام و الأميال، فسبحان مغير الأحوال. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ١-١؛ ص ١٤٧

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤٧

ثم رحلنا من الأبواء في اليوم الثالث قاصدين المدينة المنورة عن طريق مستورة، و أقمنا بها ثلاثة أيام ثم رجعنا بالسلامة إلى مكة شرفها الله تعالى و أدام أمنها و أمانها و خيرها و رخاءها آمين.

و مما يستأنس و تؤخذ منه الإشارة على وفاة و الديه صلى الله عليه و سلم على التوحيد، أن أباه اسمه (عبد الله) و هو إرادة الله تعالى بتسميته بهذا الاسم الشريف، و ما كان اسمه كأسماء أهل الجاهلية؛ كعبد العزى و عبد قيس و عبد ياليل أو كلب أو كليب أو كلاب أو فهر و نحو ذلك، حتى لا ينتسب رسول الله صلى الله عليه و سلم لأب له اسم يمثل هذه الأسماء، فكون اسم أبيه (عبد الله) هو من أشرف الأسماء، فإذا قيل: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم هو (محمد بن عبد الله) كان له وقع عظيم عند جميع الملل و النحل؛ لأنه أشرف الأسماء.

فهكذا أسماه جده عبد المطلب بعبد الله، فلو لم يعرف الله عز و جل بالفطرة لم يسمه بعبد الله، فتوحيد آباءه صلى الله عليه و سلم و إيمانهم بوجود الله عز و جل هذا كاف بإيمانهم بربهم الخلاق العظيم لأنه صادر بالفطرة الإلهية و بتوفيق الله عز و جل، بالعقل و التفكير، فلا يطلب منهم معرفة شروط الإيمان بالتفصيل كما يطلب منا حيث لم يكن في زمانهم نبي مرسل إليهم ليعلمهم أمور دينهم و يشرح لهم وسائل شريعتهم، فإيمان بعضهم بوجود الله تعالى كاف بنجاتهم إن شاء الله تعالى، و إنه لعز و مفخرة بربهم الخلاق العظيم خالق كل شيء، و هم في وسط بيئه موبوءة بالكفر و الإشراك و عبادة الأصنام.

و أيضا أن كون اسم أمه عليه الصلاة و السلام (آمنة بنت وهب) يؤخذ منه أنها آمنة من عذاب الله و غضبه لتوحيدها و معرفتها بالله عز و جل بالفطرة، و لا شك أن تسمية أمه (آمنة)، أو تسمية أبيه (عبد الله)، هي من قضاء الله تعالى و قدره، فقد وافقت التسمية لهما على ما كتب في اللوح المحفوظ من الأزل، و هذه عناية إلهية بعبد و نبيه المصطفى المختار صلى الله عليه و سلم، و في المثل العربي (لكل مسمى من اسمه نصيب)، و لا يخفى أن الأدب و الحب و الاحترام لرسول الله صلى الله عليه و سلم الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، أن نظن و نعتقد خيرا بآبائه الكرام ذوى الشرف و المقام السامى عند قومهم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤٨

كفالة عمه له صلى الله عليه و سلم

بعد وفاة عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه و سلم كفله عمه شقيق أبيه أبو طالب حسب وصاية عبد المطلب له، فكان أبو طالب

يحب النبي صلى الله عليه وسلم حبا شديدا أكثر من أولاده، فكان ينام بجنبه ويطعمه أطيب الطعام، وكان يبائع في إكراهه وبيعته و يقدمه على كل شيء.

ولما حصل الجذب والقحط جاءت قريش أبا طالب وقالت له: أما ترى ما نحن فيه، قم فاستق، فخرج أبو طالب ومع النبي صلى الله عليه وسلم حتى أتى الكعبة، فألصق ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكعبة فلاذ بإصبعه، فأقبلت السحب من كل الجهات، وسقوا وأخصبت الأرض من بعد جذبها، ولذلك قال أبو طالب فيه، صلى الله عليه وسلم: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة الأراذل

رحلته مع عمه صلى الله عليه وسلم إلى الشام للمرة الأولى

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم اثنتي عشر سنة، أراد عمه وكفيله أبو طالب السفر بتجارة إلى الشام، فاستعظم محمد صلى الله عليه وسلم فراق عمه، فأخذه معه، وهي الرحلة الأولى له صلى الله عليه وسلم، فلما بلغوا "بصرى" بأرض الشام رأه بحيرا الراهب واسمه "جرجيس" وكان من أحبار اليهود، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم من صفته الموضحة في كتبهم فأضاف قريشا، وجعل يلحظ النبي صلى الله عليه وسلم لحظا شديدا، وسأله عن أشياء فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم عما سأله عنه، فقال بحيرا الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال: ما هو ابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه، قال: مات وأمه حيلي به، قال: صدقت، فما فعلت أمه، قال:

توفيت قريبا، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لبيغينه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، لما نجدته في كتبنا وروينا عن آبائنا، واعلم أني قد أدت إليك النصيحة فأسرع به إلى بلده، فرده أبو طالب إلى مكة واشتد تحفظه عليه، وازداد له حبا وتكريما.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٤٩

سفره صلى الله عليه وسلم إلى الشام للمرة الثانية

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة، سافر إلى الشام للمرة الثانية في تجارة لخديجة بنت خويلد الأسديّة، وكانت سيده تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها، فأرسلت إلى "محمد" صلى الله عليه وسلم وقالت له: إني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظيم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك. ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبر عمه أبا طالب بذلك، فقال له أبو طالب: إن هذا الرزق ساقه الله إليك فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يريد الشام مع ميسرة غلام خديجة، وقد أوصلت خديجة غلامها ميسرة أن لا يعصى لمحمد صلى الله عليه وسلم أمرا ولا يخالف له رأيا.

فلما وصل محمد عليه الصلاة والسلام سوق بصرى نزل تحت ظل شجرة قريبة من صومعة "نسطورا الراهب" وكان نسطورا يعرف ميسرة، فقال: يا ميسرة من هذا الذي تحت هذه الشجرة، فقال: رجل من قريش من أهل الحرم، فقال نسطورا: ما نزل تحت هذه الشجرة بعد عيسى عليه السلام إلا نبي، فأتى نسطورا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها الدالة على نبوتك المذكورة في الكتب القديمة، خلا خصله واحدة فأوضح لي عن كتفك، فأوضح له رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كتفه، فإذا بخاتم النبوة يتلأأ، فأقبل نسطورا عليه يقبله، ويقول: أشهد أنك رسول الله النبي الأمي الذي بشر بك عيسى.

ثم إن محمدا صلى الله عليه وسلم حضر سوق بصرى، فباع سلعته وبيع ربعا عظيما، ثم رجع إلى مكة وقد أحبه ميسرة حبا شديدا لما ظهر له من بركاته وأحواله الكريمة، ودخل صلى الله عليه وسلم على خديجة وأخبرها بما ربحوا فسرت بذلك، وأعطت النبي

صلى الله عليه وسلم، ضعف ما اتفقا عليه من الأجرة، وقد أخبرها غلامها ميسرة بما سمعه من نسطورا الراهب و ما رآه عليه من علامات النبوة، فأحبهته كثيرا.

تزوج صلى الله عليه وسلم بخديجة

و بعد مجيء النبي صلى الله عليه وسلم من الشام بشهرين، تزوج بخديجة رضى الله تعالى عنها- و ذلك أن خديجة بعد أن رأت من "محمد" صلى الله عليه وسلم الريح العظيم في تجارتها، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥٠

و علمت من أمانته و صدق حديثه و مكارم أخلاقه، و سمعت من غلامها ما ظهر منه من علامات النبوة، أخبرت بذلك ابن عمها "ورقة بن نوفل" و كان قد تنصر و علم بما فى الكتب القديمة، فقال ورقة لخديجة: لئن كان هذا حقا يا خديجة فإن "محمدًا" النبي هذه الأمة، و قد علمت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه.

و كانت خديجة امرأة عاقله صاحبه دراية و حزم و عزم، و كانت تدعى فى الجاهلية الطاهرة و هى يومئذ أفضلهم نسبا، و أعظمهم شرفا و أكثرهم مالا، فرغبت فى النبي صلى الله عليه وسلم و أرسلت الوسائط إليه، أرسلت نفيسه بنت منبه دسيسا تعرض نكاحها على "محمد" صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع من الشام، قالت له نفيسه: ما يمنعك أن تتزوج، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فى يدى ما أتزوج به، قالت: فإن كفيت و دعيت إلى المال و الجمال و الكفاءة و الشرف ألا تجيب؟ قال: فمن هى، قالت: خديجة، قال: و كيف لى بذلك، قالت: على، قال: افعلى.

فذهبت نفيسه فأخبرت خديجة بذلك، فأرسلت إليه خديجة و قالت له: يا ابن عم إنى قد رغبت فيك لقرابتك و أمانتك و حسن خلقك و صدق حديثك، ثم أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لأعمامه، فقام معه حمزة و أبو طالب حتى دخلوا على عمها عمرو بن أسد، فخطبها إليه أبو طالب، فقال عمرو بن أسد: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يخطب خديجة بنت خويلد، هذا الفحل لا يقدر أنفه، فحضر أبو بكر الصديق و رؤساء مضر العقدة.

فقام عندئذ أبو طالب و خطب فقال: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم و زرع إسماعيل، و ضئضى معد، و عنصر مضر، و جعلنا حضنه بيته، و سواس حرمة، و جعله لنا بيتا محجوبا، و حرما آمنا، و جعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخى هذا "محمد بن عبد الله" لا يوزن به رجل شرفا و نبلا و فضلا، و إن كان فى المال قل، فإن المال ظل زائل، و أمر حائل، و عارية مستردة و هو و الله بعد هذا له نبأ عظيم و خطر جليل، و قد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم "خديجة" و قد بذل لها من الصداق (كذا).

فأجابته ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت، و فضلنا على ما عدت، فنحن سادات العرب و قاداتها، و أنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، و لا أحد من الناس فخركم و شرفكم، و قد رغبتنا فى الاتصال

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥١

بجلبكم و شرفكم، فاشهدوا على معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد محمد بن عبد الله، على كذا.

فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشر كك عمها عمرو بن أسد، فقال عمرو بن أسد: اشهدوا علىى يا معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد- فقبل النبي صلى الله عليه وسلم النكاح و أشهد على ذلك صناديد قريش، و أصدقها اثني عشرة أوقية و نشا، و النش نصف أوقية، و الأوقية أربعون درهما.

فتزوج "محمد" صلى الله عليه وسلم لأول مرة فى حياته بخديجة رضى الله تعالى عنها، و كان ذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، و عمره إذ ذاك خمسة و عشرون سنة، و عمر خديجة أربعون سنة، فلم يتزوج صلى الله عليه وسلم قبل خديجة و لا عليها حتى ماتت. و كانت خديجة قد تزوجت قبله النباش و يكنى بأبى هالة، فولدت له هندًا و هو من الصحابة و هالة- و هما ذكران- و مات النباش فى

الجاهلية، ثم بعد موته تزوجت خديجة عتيق بن عائذ المخزومي فولدت له بنتا اسمها "هند" فأسلمت و تزوجت، ثم مات عتيق، وقيل تزوجت خديجة أولاً بعتيق ثم بالنباش والله تعالى أعلم.

محبة خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبه لها

كانت خديجة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها تحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق الحب، فعاشته أحسن عشرة، و كانت تقوم بخدمته و رعايته خير قيام و أفضل رعايه، فلا ترى منه ميلا إلى شىء إلا بادرت به إليه، و كانت إذا رأته تأخر عن الغذاء تلتسمه بأعلا مكة و معها غذاؤه.

و كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبها كثيرا، و يسكن إليها، و يثنى عليها، و يقول: "و الله ما أبدلنى الله خيرا منها، آمنت بى إذ كفر الناس، و صدقتنى إذ كذبنى الناس، و واستنى بمالها إذ حرمنى الناس، و رزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء،" و كان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا إلى أصدقاء خديجة.

لقد كانت خديجة رضى الله تعالى عنها تعرف الكثير من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم و تحقق نبوته، لذلك كانت أول من آمنت به، و انظر إلى ثباتها و حكمه كلامها للنبي صلى الله عليه وسلم عند بدء الوحي، عند أول ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥٢

حراء و قال له: أَقْرَأُ بِإِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ فَرَجَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجِفُ فَوَادِهِ، وَ دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ وَ قَالَ: زَمَلُونِي - زَمَلُونِي، فَلَمَّا غَطَوْهُ وَ سَكَنَ رَوْعَهُ أَخْبَرَ خَدِيجَةَ بِمَا كَانَ، فَقَالَتْ لَهُ: كَلَا وَ اللَّهُ مَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ، وَ تَحْمِلُ الْكَلَّ، وَ تَكْسِي الْمَعْدَمَ، وَ تَقْرَى الضَّيْفَ، وَ تَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَلَا يَسْلُطُ اللَّهُ عَلَيْكَ الشَّيْطَانُ وَ الْأَوْهَامَ، وَ لَا مَرَاءَ إِنْ اللَّهُ اخْتَارَكَ لِهَدَايَةِ قَوْمِكَ.

ثم انطلقت خديجة به صلى الله عليه وسلم إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، و كان عالما يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، و كان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال: يا ابن أخى ماذا ترى، فأخبره صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزل الله على موسى فجبriel رسول الله إلى أنبيائه، ثم قال ورقة للنبي صلى الله عليه وسلم: يا ليتنى فيها جذعا "أى شابا جلدا" إذ يخرجك قومك من بلادك ... الخ ما قال.

فانظر إلى قوة إيمان خديجة رضى الله تعالى عنها بنبوته رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يعلم الناس عنه ذلك، لهذا كله كان عليه الصلاة و السلام يحب خديجة حبا جما، و قد ورد فى فضلها شىء كثير، نذكر من ذلك حديثا واحدا، فقد جاء فى الصحيحين «بشروا خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه و لا نصب».

فهنيئا لأم المؤمنين "خديجة" رضى الله تعالى عنها بما فازت بالقرب و الاتصال بسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم. و توفيت خديجة رضى الله تعالى عنها قبل الهجرة بثلاث سنين فحزن عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا، لما رأى من قوة إيمانها و صدق محبتها و قيامها بخدمته و مؤازرتها له عند الشدائد - اللهم صل و سلم على سيدنا "محمد" و على آله و أزواجه و أصحابه الطيبين الطاهرين أجمعين.

عدد أزواجه و سرايه صلى الله عليه وسلم

و عدد أزواجه صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة: (١) خديجة بنت خويلد، (٢) و عائشة بنت أبى بكر، (٣) و حفصة بنت عمر، (٤) و أم سلمة بنت أبى أمية، (٥) و سودة بنت زمعة، (٦) و زينب بنت جحش، (٧) و ميمونة بنت الحارث، (٨) و زينب بنت خزيمة، (٩) و

جويرية بنت الحارث و تسمى بريرة، (١٠) و صفيّة
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥٣
بنت حبي، (١١) و أم حبيبة رملّة بنت أبي سفيان. ماتت عنده اثنتان: خديجة بنت خويلد، و زينب بنت خزيمة، و توفى عن التسع
الباقيات.

و أما سراريه فأربع: (١) مارية القبطية أم ولده إبراهيم، (٢) و ريحانة القرظية، (٣) و واحدة وهبتها له زينب بنت جحش، (٤) و الرابعة
أصابها من بعض السبي.

عدد أولاده صلى الله عليه و سلم

و عدد أولاده صلى الله عليه و سلم سبع: أربع من الإناث و ثلاثة من الذكور، كلهم من أم المؤمنين "خديجة" رضى الله عنها، إلا
إبراهيم فإنه من مارية القبطية، و ترتيبهم فى الولادة هكذا: (١) القاسم. و به يكنى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هو أول مولود
له، و أول من مات من أولاده، فإنه مات و عمره نحو سنتين، (٢) فزينب. و هى أكبر بناته و أول من تزوج منهن، و ماتت سنة ثمان من
الهجرة، (٣) فرقية. تزوجت بعثمان بن عفان رضى الله عنه، و ماتت فى أواخر رمضان سنة اثنتين من الهجرة، (٤) ففاطمة. و هى سيدة
نساء العالمين، ولدت قبل الهجرة باثنتى عشرة سنة تزوجها على بن أبى طالب فى أوائل المحرم سنة اثنتين من الهجرة، و هى أم
الحسن و الحسين رضى الله عنهم جميعاً، و توفيت ثالث رمضان سنة إحدى عشر من الهجرة، أى توفيت فاطمة بعد وفاة أبيها رسول
الله صلى الله عليه و سلم بستة أشهر على الأصح، (٥) فأم كلثوم. تزوجها عثمان بن عفان رضى الله عنه بعد موت أختها رقية سنة
ثلاث من الهجرة، و لذلك يلقب عثمان بذى النورين، و توفيت فى شعبان سنة تسع من الهجرة، (٦) فعبدة الله. ولد بمكة و مات
صغيراً، و يلقب بالطيب و الطاهر، (٧) فإبراهيم. و هو من مارية القبطية، ولد فى ذى الحجة من السنة الثامنة للهجرة، و حين ولادته قال
صلى الله عليه و سلم: «ولد لى الليلة غلام فسميته باسم أبى إبراهيم، و توفى إبراهيم لعشر ليال خلون من ربيع الأول فى السنة العاشرة
من الهجرة و دفن بالقيع، فكان عمره نحو ثمانية عشر شهراً»، و لما توفى قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن إبراهيم ابنى و إنه
مات فى الثدى، و إن له لظئرين يكملان رضاعه فى الجنة»، رواه مسلم فى صحيحه.

و قال عليه الصلاة و السلام: «و إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، رواه الشيخان. و سبب ذلك كما فى الصحيحين و اللفظ للبخارى
عن رواية أنس بن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥٤

مالك رضى الله عنه قال: «دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم على أبى سيف القين و كان ظئراً لإبراهيم، فأخذ رسول الله صلى
الله عليه و سلم إبراهيم قبله و شمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك و إبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه و سلم
تذرفان، فقال عبد الرحمن بن عوف: و أنت يا رسول الله، فقال: يا ابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى، فقال: صلى الله عليه و سلم:
إن العين تدمع و القلب يحزن و لا نقول إلا ما يرضى ربنا، و إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

كيفية بدء الوحي

ننقل هنا ما ذكرناه عن بدء الوحي فى كتابنا "تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه" المطبوع للمرة الثانية بمطبعة و مكتبة مصطفى
البابى الحلبي و أولاده بمصر القاهرة- فقد ذكرنا فيه ما نصه:

جاء فى صحيح البخارى فى أول الجزء الأول منه ما نصه:- عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول
الله صلى الله عليه و سلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حيب إليه الخلاء، و كان

يخلو بغار حراء فيتحنث فيه و هو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله و يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق و هو فى غار حراء، فجاء الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقرأ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه و سلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، فقال: زملونى، زملونى - فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة و أخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى، فقالت خديجة: كلا و الله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، و تحمل الكل، و تكسب المعدوم، و تقرى الضيف، و تعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، و كان امرأ تنصر فى الجاهلية، و كان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب و كان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥٥

خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى، فأخبره رسول الله صلى الله عليه و سلم، خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزل الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعا ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أو مخرجى هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، و إن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفى، و فتر الوحي» ا.ه. من البخارى.

(أما تاريخ بدء الوحي) فإنه صلى الله عليه و سلم بينما كان يتعبد بغار حراء بمكة، إذ جاءه الوحي فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية و الأربعين من ميلاد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هو يوافق ٦ اغسطس سنة ٦١٠ ميلادية، فيكون عمره إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية و ستة أشهر و ثمانية أيام. و ذلك نحو ٣٩ سنة شمسية و ثلاثة أشهر و ثمانية أيام- انتهى من كتابنا " تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه."

كيفية نزول الوحي و نزول القرآن

ذكرنا فى كتابنا "تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه" المطبوع بمطبعة مصطفى البابى الحلبي و أولاده بمصر- ما يأتى: كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه و سلم فى مكة و المدينة و فى غيرهما و فى أوقات مختلفة من ليل أو نهار، و فى الحالات كلها راكبا و جالسا، و فى بيته و فى غير بيته، و على فراش زوجته أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها. و لقد كان صلى الله عليه و سلم إذا نزل عليه الوحي يجد له مشقة و كرها لثقل ما يلقي عليه، قال تعالى: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا- قال العلامة العيني فى أول شرحه على البخارى: و لذلك كان يعتربه مثل حال المحموم، كما روى أنه كان يأخذه عند الوحي الرخصاء، أى البهر و العرق من الشدة، و لذلك كان جبينه يتفصد عرقا كما يفصد، و قد ذكر البخارى فى حديث يعلى بن أمية " فأدخل رأسه- فإذا رسول الله صلى الله عليه و سلم محمر الوجه و هو يغطى ثم سرى عنه. " و منه فى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: «كان نبي الله عليه الصلاة و السلام إذا أنزل عليه كرب لذلك و تربد وجهه»، و فى حديث الإفك قالت عائشة رضى الله عنها:

«فأخذه ما كان يأخذه فى البرحاء عند الوحي، حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥٦

من العرق فى اليوم الشاتى، من ثقل القول الذى أنزل عليه»، و فى الخبر: «إن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا أوحى إليه و هو على ناقته وضعت جرائنها- يعنى صدرها- على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه». و أوحى إليه صلى الله عليه و سلم و

فخذه على فخذ زيد بن ثابت فكادت أن ترض فخذ زيد.

و جاء في أول صحيح البخارى فى باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقول الله جل ذكره: **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ** و بعد حديث: **«إنما الأعمال بالنيات ... الخ»** ما نصه:

حدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس و هو أشده على فيفصم عنى و قد وعيت عنه ما قال: و أحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول، قالت عائشة رضى الله عنها: و لقد رأيتة ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، و إن جبينه ليتفصد عرقا^١ ه. قال العلامة العيني فى شرحه على صحيح البخارى عند هذا الحديث، عند بيان إتيان الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نصه:

قوله الوحي قد فسرناه فيما مضى، و لنذكر ههنا أقسامه و صورته.

(أما أقسامه) فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فعلى ثلاثة أضرب:

(أحدها) سماع الكلام القديم؛ كسماع موسى عليه السلام بنص القرآن، و نبينا صلى الله عليه وسلم بصحيح الآثار. (الثانى) وحي رسالة بواسطة الملك.

(الثالث) وحي تلق بالقلب لقوله عليه الصلاة و السلام: **إن روح القدس نفث فى روعى: أى فى نفسى.** و قيل كان هذا حال داود عليه السلام. و الوحي إلى غير الأنبياء عليهم الصلاة و السلام بمعنى الإلهام؛ كالوحي إلى النحل. (و أما صورته) على ما ذكره السهيلي فسبعة:

(الأولى) المنام كما جاء فى الحديث.

(الثانية) أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس كما جاء فيه أيضا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥٧

(الثالثة) أن ينث فى روعه بالوحي.

(الرابعة) أن يتمثل له الملك رجلا كما فى هذا الحديث، و قد كان يأتيه فى صورة دحية، قلت: اختصاص تمثله بصورة دحية دون غيره من الصحابة؛ لكونه أحسن أهل زمانه صورة، و لهذا كان يمشى مثلثا خوفا أن يفتتن به النساء.

(الخامسة) أن يترائى له جبريل عليه السلام فى صورته التى خلقها الله تعالى له بستمائه جناح ينتشر منها اللؤلؤ و الياقوت.

(السادسة) أن يكلمه الله تعالى من وراء حجاب، إما فى اليقظة كليله الإسراء، أو فى النوم كما جاء فى الترمذى مرفوعا: **«أتانى ربي فى أحسن صورة، فقال: فيم يختصم الملاء الأعلى»** الحديث. و حديث عائشة الآتى ذكره:

«فجاء الملك فقال: اقرأ» ظاهره أن ذلك كان يقظة، و فى السيرة: **«فأتانى و أنا نائم»**، و يمكن الجمع بأنه جاء أولا مناما توطئة و تيسيرا عليه و ترفقا به. و فى صحيح مسلم من حديث ابن عباس رضى الله عنهما: **«مكث عليه الصلاة و السلام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت و يرى الضوء سبع سنين و لا يرى شيئا، و ثمان سنين يوحى إليه»**.

(السابعة) وحي إسرافيل عليه السلام كما جاء عن الشعبي **«أن النبي صلى الله عليه وسلم و كل به إسرافيل عليه السلام فكان يترائى له ثلاث سنين، و يأتيه بالكلمة من الوحي و الشىء، ثم و كل به جبريل عليه السلام»**.

و فى مسند أحمد بإسناد صحيح عن الشعبي **«أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه النبوة و هو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة و الشىء و لم ينزل القرآن، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه**

السلام، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشرا بمكة و عشرا بالمدينة، فمات وهو ابن ثلاث و ستين سنة». و أنكر الواقدي وغيره كونه و كل به غير جبريل عليه السلام.

و قال أحمد بن محمد البغدادي: أكثر ما كان في الشريعة مما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم على لسان جبريل عليه السلام، انتهى من شرح العيني.

و لقد نظم هذه الصور السبعة العلامة الإمام ابن المختار الجكني الشنقيطي أحد علماء القرن الثاني عشر للهجرة فقال:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥٨ قد أنزل الوحي على سبع صور على النبي من منزل السور

منهن أولاهن و هي الرؤيا أو أن أنشا يتلقى الوحي

منها ترائي ملكك الصور الرضى منها ترائي جبرئيل المرتضى

في الصورة التي عليها برأه باريه ذا أجنحة ستمائة

ينتشر اللؤلؤ و الياقوت منها و تعي دونها النعوت

منهن تكليم الإله من وراحجاب النبي أشرف الوري

و النفث في الروح و مثل الصلصلة ثتان من صور هذه السلسلة

تمثل الروح الأمين رجلا للمصطفى العد بها قد كملا

جاء السهيلي بكل صوره منهن عن خير الوري مأثوره

جمعها في روضة الروض الأنف فيلقطفها من هناك المقتطف

و أما نزول القرآن، فقد جاء في تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ آيَةً مَلْخُصَةً. روى الإمام أحمد بن حنبل أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، و أنزلت التوراة لست مضين من رمضان، و الإنجيل ثلاث عشرة خلت من رمضان، و أنزل القرآن لأربع و عشرين خلت من رمضان»، و في حديث جابر بن عبد الله: «إن الزبور أنزل لثنتي عشرة خلت من رمضان، و الإنجيل لثمان عشرة»، و الباقي كما تقدم.

و قال إسرائيل عن السدي عن محمد بن أبي المجالد عن مقسم، عن ابن عباس، أنه سأل عطية الأسود فقال: وقع في قلبي الشك في قول الله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، و قوله: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ، و قوله:

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، و قد أنزل في شوال و في ذي القعدة و في ذي الحجة و في المحرم و صفر و شهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أنزل في ليلة القدر و ليلة و في ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيبا في الشهور و الأيام، و في روايه سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: «أنزل القرآن في النصف الثاني من شهر رمضان إلى سماء الدنيا، فجعل في بيت العزة، ثم أنزل على رسول الله صلى الله عليه و سلم في عشرين سنة لجواب كلام الناس».

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٥٩

و في روايه عكرمة عن ابن عباس، قال: «نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، و كان الله يحدث لنيه ما يشاء، و لا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه و ذلك قوله: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا* وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا» هـ. من تفسير ابن كثير.

انتهى نقل ما تقدم من كتابنا "تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه"، و نكتفي بما ذكرناه هنا عن كل ما يتعلق بالقرآن العظيم من جميع النواحي، حتى لا يطول بنا المقام، و من أراد زيادة البحث فعليه بكتابنا المذكور ففيه ما يشفي الفؤاد.

لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ، قام صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى عبادة الله أولاً سرا.

فكان أول من أسلم زوجته خديجة، وابن عمه على بن أبي طالب، فقد كان مقيماً عنده يطعمه و يسقيه و يقيم بأمره، و مولاه زيد بن حارثة و يقال له زيد بن محمد، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتراه أعتقه و تبناه، و حاضنته صلى الله عليه وسلم أم أيمن التي زوجها لمولاه زيد، و أول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر الصديق، و كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة. و قد دعا أبو بكر إلى الإسلام من يثق به من رجال قريش، فأجابه جمع (منهم): عثمان بن عفان، و الزبير بن العوام، و عبد الرحمن بن عوف، و سعد بن أبي وقاص، و طلحة بن عبيد الله، و صهيب الرومي، و عمار بن ياسر، و أبوه و أمه، و عبد الله بن مسعود، و أبو ذر الغفاري، و سعيد بن العدوى القرشي و زوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، و أم الفضل لبابته بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب، و عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، و أبو سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد ابن عمه النبي صلى الله عليه وسلم و زوجته أم سلمة، و عثمان بن مظعون الجمحي القرشي، و أخواه قدامة و عبد الله، و الأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي القرشي، و خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، و أخوه عمر بن سعيد، و غيرهم رضى الله تعالى عنهم أجمعين، و أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى دار الأرقم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦٠

و لما كان هؤلاء السعداء لا بد لهم من تعليمهم و إرشادهم، فقد اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم المذكور هنا للاجتماع بهم، و كانت هذه الدار بأول الصفا، و سنتكلم عنها إن شاء الله تعالى.

الجهر بالدعوة

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو سرا إلى عبادة الله تعالى فى أول الأمر، و لا يظهر الدعوة فى مجامع قريش، حتى نزل عليه قوله تعالى: فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَاَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فعندئذ جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة، فصعد على الصفا و جعل ينادى: يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج بنفسه أرسل رسولا لينظر له الخبر، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب و غيره من قريش، فقال عليه الصلاة و السلام: أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي. قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك، ألهذا جمعتنا، فأنزل الله تعالى فى شأنه: نَبِّئْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَا مَا كَسَبَ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ.

ثم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ و هم (بنو هاشم، و بنو المطلب، و بنو نوفل، و بنو عبد شمس أولاد عبد مناف) فجمعهم النبي صلى الله عليه وسلم، و قال لهم: إن الرائد لا يكذب أهله، و الله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، و لو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، و الله الذى لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة و إلى الناس كافة، و لتجزون بالإحسان إحساناً و بالسوء سوءاً، و إنها لجنه أبداً أو لنار أبداً. فتكلم القوم كلاماً لنا غير عمه أبي لهب فإنه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب، فإن سلمتموه إذا ذلتم، و إن منعموه قتلتم، فقال أبو طالب: و الله لنمنعه ما بقينا. ثم انصرف الجمع.

و بسبب الجهر بالدعوة لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش أذى كثيراً، و كان بعض هذا الأذى سبباً فى إسلام عمه حمزة بن عبد المطلب، فكان يناصر المسلمين و يشتد على أعداء الدين.

فلما ازداد الأذى من المشركين بسبب الدعوة، أذن الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة المنورة، بعد أن مكث بمكة ثلاثة عشر سنة يدعو إلى الله

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦١

تعالى، ولا نريد إطالة البحث والكلام فيما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون من أذى قريش بالتفصيل، فإن كل ذلك يعلم من السيرة النبوية، وإنما نأتى بتفصيل الهجرة إلى المدينة المنورة إن شاء الله تعالى؛ لما فى ذلك من الفوائد الجمّة.

حصار النبي صلى الله عليه وسلم بشعب على بسوق الليل بمكة

قال الخضرى رحمه الله تعالى فى كتابه "نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين" صلى الله عليه وسلم ما يأتى: لما ضاقت الحيل بكفار قريش عرضوا على بنى عبد مناف الذين منهم الرسول عليه السلام دية مضاعفة و يسلمونه فأبوا عليهم ذلك، ثم عرضوا على أبى طالب أن يعطوه سيدا من شبانهم يتبناه و يسلم إليهم ابن أخيه، فقال: عجا لكم تعطونى ابنكم أغذوه لكم و أعطىكم ابنى تقتلونه؟.

فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بنى هاشم و بنى المطلب ولدى عبد مناف و إخراجهم من مكة و التضيق عليهم فلا يبيعونهم شيئا و لا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمدا للقتل. و كتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك فى شعب أبى طالب و دخل معهم بنو المطلب سواء فى ذلك مسلمهم و كافرهم ما عدا أبا لهب، فإنه كان مع قريش، و انخزل عنهم بنو عميهم عبد شمس و نوفل ابنى عبد مناف، فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، و كان أعداؤهم يمنعون التجار من مبيعاتهم و فى مقدمة المانعين أبو لهب. انتهى من نور اليقين.

و لما قال أشرف مكة لأبى طالب: إما أن تخلى بيننا و بينه فنكفيكه، فإنك على مثل ما نحن عليه، أو اجمع لحربنا، فإننا لسنا بتاركى ابن أخيك على هذا، حتى نهلكه أو يكف عنا، فقد طلبنا التخلص من حربك بكل ما نظن أنه يخلص.

بعث أبو طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا ابن أخى، إن قومك جاؤنى و قالوا كذا و كذا، فأبق على و على نفسك و لا تحملنى ما لا أطيق أنا و لا أنت، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك، فقال صلى الله عليه وسلم: «و الله لو وضعوا الشمس فى يمينى و القمر فى يسارى، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه» فقال: امض على أمرك، فو الله لا أسلمك أبدا.

و دعا أبو طالب أقرابه إلى نصرته فأجابوه بنو هاشم، و بنو المطلب، غير أبى لهب، و قال أبو طالب:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦٢ و الله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة و أبشر وقر بذاك منك عيونا

و دعوتنى و عرفت أنك ناصحى و لقد صدقت و كنت ثم أمينا

و عرضت دينا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتنى سمحا بذاك مينا

و قال أبو طالب أيضا فى حصارهم قصيدته اللامية المشهورة التى أولها:

و لما رأيت القوم لا ود فيهمو و قد قطعوا كل العرى و الوسائل

و قد صارحونا بالعداوة و الأذى و قد طاعوا أمر العدو المزاول

صبرت لهم نفسى بسراء سمحة و أبيض غضب من تراث المقاول

و أحضرت عند البيت رهطى و أسرته و أمسكت من أثوابه بالوسائل

أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوء أو ملح بباطل

إلى آخر هذه القصيدة الطويلة الشهيرة.

نقض الصحيفة التي كتبها كفار قريش

ثم قال الخضرى فى كتابه "نور اليقين" ما يأتى: و قد قام خمسة من أشرف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة و هم (هشام بن عمرو بن الحارث العامرى و هو أعظمهم فى ذلك بلاء، و زهير بن أبى أمية المخزومى ابن عمه الرسول عاتكه، و المطعم بن عدى النوفلى، و أبو البخترى ابن هشام الأسدى، و زمعة بن الأسود الأسدى)، و اتفقوا على ذلك ليلا، فلما أصبحوا غدا زهير و عليه حلة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة أأكل الطعام و نلبس الثياب و بنو هاشم و المطلب هلكى لا يبيعون و لا يبتاعون! و الله لا أقعد حتى تشق الصحيفة الظالمة القاطعة. فقال أبو جهل: كذبت، فقال زمعة لأبى جهل: أنت و الله أكذب! ما رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البخترى:

صدق زمعة، و قال المطعم بن عدى: صدقتما و كذب من قال غير ذلك. و صدق على ما قال هشام بن عمرو، فقام إليه المطعم بن عدى فشقاها. و كانت الأرضة قد أكلتها فلم يبق فيها إلا ما فيه اسم الله، و قد أخبر النبى عليه السلام عمه أبا التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦٣

طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر، فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة.

انتهى من نور اليقين.

جاء فى شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم عند حديث: «لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلى منه دماغه- يعنى أبا طالب» رواه البخارى و مسلم- ما نصه:

قوله: «لعله تنفعه شفاعتى ... الخ»- الضمير فيه لأبى طالب عم النبى صلى الله عليه و سلم كما بيناه بقولنا: يعنى أبا طالب و اسم أبى طالب عبد مناف و هو شقيق عبد الله والد النبى صلى الله عليه و سلم، و هو كافل النبى صلى الله عليه و سلم بعد موت جده عبد المطلب، و أما والده عبد الله فتوفى عنه فى بطن أمه آمنة بنت وهب على الصحيح، فلما ولد النبى عليه و على آله و أصحابه الصلاة و السلام كفله جده عبد المطلب إلى أن توفى، فكفله أبو طالب و كان يحبه و يحوطه إلى أن بعثه الله تعالى فنصره و أجاره ممن يريد إساءته، و عادى فيه قريشا و العرب، و ناصبه كى يسلمه إليهم فأبى، فتحالت قريش و كنانة على بنى هاشم و بنى المطلب، أن لا يناكحوهم و لا- يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبى صلى الله عليه و سلم، و فى السيرة و كتبوا بذلك كتابا بخط بغيض بن عامر بن هاشم، و علقوه فى جوف الكعبة و تمادوا على العمل بما فيه من ذلك ثلاث سنين، و اشتد البلاء على بنى هاشم فى شعبهم و على كل من معهم، فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم قوم من قصى ممن ولدتهم بنو هاشم و من سواهم، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر و البراءة، و بعث الله على صحيفتهم الأرضة، فأكلت و لحست ما فيها من ميثاق و عهد، و بقى ما كان فيها من ذكر الله عز و جل، و أطلع الله تعالى نبيه على ذلك فأخبر عمه أبا طالب بذلك، فقال: أربك أخبرك بذلك، قال: نعم، فقال أبو طالب: لا- و الثواب ما كذبتنى، ثم خرج أبو طالب، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخى أخبرنى أن الله عز و جل قد سلط على صحيفتكم الأرضة فإن كان كما يقول، فو الله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، و إن كان الذى يقول باطلا دفعا إليكم صاحبنا قتلتم أو استحييتم، فقالوا: قد رضينا بالذى تقول. ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر، فقالوا: هذا سحر ابن أخيك، و زادهم ذلك بغيا و عدوانا، فنقض الله سبحانه أمر الصحيفة و أظهر أمر نبيه عليه الصلاة و السلام على ما هو مذكور فى كتب الحديث و السير.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦٤

بعض ما لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من التعب والمشقة فى سبيل الدعوة إلى الله تعالى

لما بعث الله تبارك و تعالى نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم ليدعو الناس إلى عبادة الله تعالى و هجر الأصنام و نبذها، قام بامثال

أمر ربه خير قيام، فجهر بالدعوة و دعا الناس إلى الإيمان و الإسلام، و دعاهم بقلب ثابت و جنان قوى، لأن الله تعالى قد شرح صدره لذلك فلا يبالي بالعقبات التي تعترضه و كيف يبالي بشيء و هو المؤيد من الله العزيز الحكيم.

لما قام رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعو قريشا إلى عبادة الله تعالى و ترك عبادة الأصنام، تظاهروا له بالعداوة الشديدة، و صاروا يؤذونه بمختلف أنواع الإيذاء و العداء من قول أو فعل، و لسنا الآن فى صدد بيان كل ذلك بالتفصيل، و لكن نذكر حادثه واحده من ذلك فنقول و بالله التوفيق:

لما جهر رسول الله صلى الله عليه و سلم بالدعوة قامت قريش فى وجهه يردون عليه و يأذونه أشد الإيذاء، و أحيانا يعرضون عليه الرئاسة و الأموال ليرتدع و لا يبطل اعتقاداتهم و لا يسب آلهتهم، لكنه صلى الله عليه و سلم كان صلبا قويا فى الدعوة، لا تغره الرئاسة و الأموال، و لا يخشى عداوة قومه، بل يمضى فى الدعوة بهمة و عزم، لا يطرقة الكلل و لا الملل.

لما رأى المشركون أنه صلى الله عليه و سلم لا تلين قناته و لا يخشى بأسه و لا يرغب فى الأموال و الرئاسة، أرادوا أن يضيقوا عليه و على آله أشد الضيق، فذهبوا إلى عمه أبى طالب الذى أخذ على نفسه حمايته من أعدائه و هو يومئذ سيد بنى هاشم، فطلبوا منه إما أن يكف ابن أخيه عنهم، و إما أن يخلى بينهم و بينه، فردهم أبو طالب ردا جميلا، فانصرفوا عنه، ثم إن أبى طالب قال لابن أخيه "محمد" صلى الله عليه و سلم: يا ابن أخى إن القوم جاءونى فقالوا لى كذا، فابق على نفسك و لا تحملنى من الأمر ما لا أطيق. فظن الرسول أن عمه خاذله فقال: و الله يا عم لو وضعا الشمس فى يمينى و القمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ثم بكى و لى، فقال أبو طالب: أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه فقال:

أذهب فقل ما أحببت و الله لا أسلمك. ١٥.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦٥

هذا و لما رأت قريش أنهم عجزوا عن رد رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الدعوة، أجمعوا أمرهم على منابذة بنى هاشم و بنى المطلب و لى عبد مناف، و إخراجهم من بطن مكة و التضيق عليهم فلا يتعاملون معهم بشيء، فلا يبيعونهم شيئا و لا يتعاونون منهم حتى يسلموا "محمد" صلى الله عليه و سلم للقتل، و كتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة المعظمة، فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك فى شعب أبى طالب، و هو المعروف اليوم "بشعب على"، و دخل معهم بنو المطلب سواء فى ذلك مسلمهم و كافرهم ما عدا أبى لهب، فإنه كان مع قريش، فلما انفصلوا عن قريش بالشعب المذكور، جهد القوم جهدا عظيما و تعبوا تعباً شديدا حتى أكلوا أوراق الأشجار، لأن قريشا شددوا الحصار عليهم، و كان ذلك فى السنة السابعة من البعثة، و مكثوا على هذا الحال من الضيق و التعب الشديد ثلاث سنوات.

ثم قام خمسة من أشرف قريش و عقلائهم يطالبون بنقض هذه الصحيفة منهم زهير ابن أبى أمية المخزومى ابن عاتكة عمه رسول الله صلى الله عليه و سلم، فغدا من الصباح إلى المسجد الحرام و قد لبس حلته الجميلة، فطاف بالبيت ثم أقبل على قريش، فقال:

يا أهل مكة، أناكل الطعام و نلبس الثياب و بنو هاشم و بنو المطلب هلكى لا- يبيعون و لا يتعاونون، و الله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة "أى قاطعة للرحمة و المحبة". فقال أبو جهل: كذبت، فقال زمعة لأبى جهل: أنت و الله أكذب، إننا ما رضينا حين كتابتها، فقال أبو البخترى: صدق زمعة، و قال المطعم بن عدى: صدقتما و كذب من قال غير ذلك. و صدق على ما قال هشام ابن عمرو، فقام إليها المطعم بن عدى فشقها، و كانت الأرضة قد أكلتها فلم يبق فيها إلا ما فيه اسم الله، و قد أخبر النبى صلى الله عليه و سلم عمه أبى طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر. فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة، و جاء الفرج و النصر من الله عز و جل.

فانظر رحمة الله تعالى و إياك إلى ما لقيه رسول الله صلى الله عليه و سلم من الإيذاء و البلاء و التعب و الشدة، فى سبيل الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، و هو أكرم على الله عز و جل الذى له ملك السموات و الأرض، فهل نحن لقينا من الشدة و البلاء، ما أكلنا فى يوم من الأيام أوراق الشجر، أو نمنا فى العراء على الحجر؟ كلا و الله. فالأنبياء عليهم الصلاة و السلام لهم من

المنزلة السامية و المكانة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦٦

الرفيعة عند الله عز و جل ما لا تدركة عقولنا المحدودة، اللهم صل على عبدك و نبيك "محمد" و على آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا، و الحمد لله رب العالمين.

و لقد قال أبو طالب حينما كان هو و صحبه بالشعب مع رسول الله صلى الله عليه و سلم قصيدة عصماء ذكرها صاحب مرآة الحرمين إبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى بعنوان "القصيدة الشعبية" بكسر الشين المعجمة نسبة إلى شعب علي و نحب أن نقل نص ما ذكره في كتابه المذكور و هو هذا:

القصيدة الشعبية

قال هذه القصيدة أبو طالب عم النبي صلى الله عليه و سلم في الشعب و هو شعب أبي طالب الذي آوى إليه بنو المطلب و بنو هاشم مع رسول الله صلى الله عليه و سلم لما تحالفت عليهم قريش و كتبوا الصحيفة، تعاقدت فيها على مقاطعتهم حتى يسلموا لهم محمدا صلى الله عليه و سلم، و ذلك سنة سبع من النبوة، و علقوا هذه الصحيفة في الكعبة، و كتب هذه الصحيفة منصور بن عكرمة بن هشام فشلت يده.

فمكثوا بالشعب سنتين أو أكثر لا يصل إليهم شيء إلا سرا، و لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم أبا طالب بأن الله تعالى قد أوحى إليه أنه سلب الأرضة على الصحيفة، فأكلت جميع ما فيها من الظلم و القطيعة و لم تدع غير اسم الله، فوجدوها كذلك و خرجوا من الشعب.

و اسم أبي طالب عبد مناف و اشتهر بكنيته، و قد كفل رسول الله صلى الله عليه و سلم و ضمه إليه و عمره الشريف ثمان سنين، بوصاية جده عبد المطلب، و سافر به إلى الشام و هو في الثالثة عشرة من عمره، و لما بعث عليه الصلاة و السلام قام بنصرتة و ذب عنه و مدحه عدة مدائح. فمن قوله:

و دعوتني و زعمت أنك صادق و لقد صدقت و كنت قبل أمينا
و لقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
و مما قاله في الشعب:

ألا أبلغا عنى على ذات بيننا لؤيا و خصا من لؤي بنى كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدانينا كموسى خط فى أول الكتب
و إليك قصيدة أبي طالب التي قالها حينما كانوا في الشعب:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦٧ خليلي ما إذنى لأول عاذل بصغواء فى حق و لا عند باطل

خليلي إن رأى ليس بشركه و لا نهنه عند الأمور البلايل
رأيت القوم لا ودّ عندهم و قد قطعوا كل العرى و الوسائل
و قد صارحونا بالعداوة و الأذى و قد طاوعوا أمر العدو المزابل
و قد حالقوا قوما علينا أظنه يعضون غيظا خلفنا بالأنامل

صبرت لهم نفسى بسمرء سمحة و أبيض غضب من تراث المقاول
و أحضرت عند البيت رهطى و إخوتى و أمسكت من أثوابه بالوصلات
قياما معا مستقبلين رتاجه لى حيث يقضى خلفه كل نافل

أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوء أو ملح بباطل
و من كاشح يسعى لنا بمعيبته و من ملحق في الدين ما لم نحاول
و ثور و من أرسى ثبيراً مكانه و راق لبر في حراء و نازل
و بالبيت حق البيت من بطن مكة و بالله: إن الله ليس بغافل
و بالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحي و الأصائل
و موطن إبراهيم في الصخر رطبه على قدميه حافيا غير ناعل
و أشواط بين المروتين إلى الصفا ما فيهما من صورة و تماثل
و من حج بيت الله من كل راكب و من كل ذي نذر و من كل راجل
فهل بعد هذا من معاذ لعائذو هل من معيذ يتقى الله عادل
يطاع بنا الأعداء و ودوا لو أناتسد أبواب ترك و كابل
كذبتهم و بيت الله نبزى محمدا و لما نطاعن دونه و نناضل
و نسلمه حتى نصرع حوله و نذهل عن أبائنا و الحلائل
و ينهض قوم في الحديد إليكم نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
و حتى نرى ذا الضغن يركب رده من الطعن فعل الأنكب المتحامل
و إنا لعمر الله إن جد ما أرى لتلتبس أسيفنا بالأمانل
بكفى فتى مثل الشهاب سميذع أخى ثقة حامى الحقيقة باسل
و ما ترك قوم لا أباً لك سيدا يحوط الذمار غير ذرب مواكل
و أبيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمه للأرامل
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦٨ يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة و فواضل
جزى الله عنا عبد شمس و نوفلا عقوبة شر عاجل غير آجل
بميزان قسط لا يخس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل
و نحن الصميم من ذؤابة هاشم و آل قصى في الخطوب الأوائل
و كل صديق و ابن أخت نعهده لعمري وجدنا غبه غير طائل
سوى أن رهطاً من كلاب بن مرة براء إلينا من معقة خاذل
و نعم ابن اخت القوم غير مكذب زهير حساما مفردا من حمائل
أشم من الشم البهليل ينتمى إلى حسب في حومة المجد فاضل
لعمري لقد كلفت و جدا بأحمد و إخواته دأب المحب المواصل
فلا زال في الدنيا جمالا لأهلها و زينا لمن ولاه ذب المشاكل
فمن مثله في الناس أى مؤمل إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش يوالى إليها ليس عنه بغافل
فأيده رب العالمين بنصرة و أظهر دينا حقه غير ناصل
فو الله لولا أن أجيء بسببة تجر على أشياخنا في القبائل
لكننا اتبعناه على كل حالة من الدهر جدا غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل فأصبح فينا أحمد في أرومة يقصر عنها سورة المتناول حديث بنفسى دونه وحميته و دافعت عنه بالذرى و الكلاكل انتهى من كتاب مرآة الحرمين، و من أراد شرح بعض ألفاظ هذه القصيدة البليغة فليظنر فى الكتاب المذكور صحيفه (٦٤) من الجزء الثانى.

قال ابن كثير عن هذه القصيدة الشعبية: إنها قصيدة بليغة جدا لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهى أفحل من المعلقات السبع و أبلغ فى تأديته المعنى. ١٥.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٦٩

جدول الحوادث الواقعة فى سنوات الهجرة

فى بيان أشهر الحوادث التى وقعت من السنة الأولى لهجرة رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى حين وفاته. أما الإسراء و المعراج فكان قبل الهجرة و فيه فرضت الصلوات الخمس.

سنة الهجرة/ ذكر أشهر الحوادث الواقعة باختصار السنة الأولى/ بناء مسجده صلى الله عليه و سلم بالمدينة، و بدأ الأذان، و مشروعية القتال و بدؤه، و وفاة عثمان بن مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه و سلم و غيره، و فى شوال من هذه السنة بنى رسول الله صلى الله عليه و سلم بعائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهما، و كان سنهما تسع سنين، و كان قد تزوجها و عمرها ست سنين أو سبع، و فى هذه السنة أسلم سلمان الفارسى رضى الله عنه.

السنة الثانية/ غزوة بدر الكبرى، و تحويل القبلة، و جوب صوم رمضان و زكاة الفطر، و جوب زكاة الأموال، و مشروعية صلاة العيد، و زواج على بفاطمة رضى الله تعالى عنهما، و ماتت رقية بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم زوجة عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهما.

السنة الثالثة/ غزوة أحد، و فيها استشهاد حمزة رضى الله عنه، و حرمت الخمر، و زوج النبي صلى الله عليه و سلم بنته أم كلثوم لعثمان بن عفان رضى الله عنهما، و تزوج رسول الله صلى الله عليه و سلم حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، و تزوج عليه الصلاة و السلام أيضا زينب بنت خزيمة الهلالية رضى الله عنها، و ولد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما.

السنة الرابعة/ ولد الحسين بن على رضى الله عنهما، و توفيت أم المؤمنين زينب بن خزيمة، و تزوج صلى الله عليه و سلم أم سلمة هنداً بعد وفاة زوجها أبى سلمة، و فى ذى القعدة من هذه السنة رجم رسول الله صلى الله عليه و سلم اليهود و اليهودية بالزنا.

السنة الخامسة/ مشروعية فريضة الحج، و حصل حديث الإفك، و غزوة دومة الجندل، و غزوة بنى المصطلق، و غزوة الخندق، و غزوة بنى قريظة، و تزوج عليه الصلاة و السلام زينب بنت جحش،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧٠

و نزلت آية الحجاب، و تزوج صلى الله عليه و سلم أيضا بريرة بنت الحارث سيد بنى المصطلق و سماها "جويرة" و نزلت آية التيمم. السنة السادسة/ غزوة الحديبية، و بيعه الرضوان، و صلح الحديبية، و مكاتبة النبي صلى الله عليه و سلم ملوك الأرض، و زيارة النبي صلى الله عليه و سلم قبر أمه، و استسقى رسول الله صلى الله عليه و سلم لما أجذب الناس فمطروا سبعة أيام بلياليهن.

السنة السابعة/ غزوة خيبر، و تزوج صلى الله عليه و سلم صفية بنت حبي سيد بنى النضير، و النهى عن نكاح المتعة، و النهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية، و رجع من هاجر إلى الحبشة و كان مع من رجع أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان و هى زوجة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و زوجته إياها خالد بن سعيد بن العاص بالحبشة، و أصدقها النجاشى عنه أربعمائة دينار، و هو الذى خطبها للنبي صلى الله

عليه و سلم، و أسلم خالد بن الوليد و عمرو بن العاص السهمي، و عثمان بن أبي طلحة العبدري، و حصل عمرة القضاء. و تزوج عليه الصلاة و السلام و هو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية و لم يدخل بها إلا بعد خروجه من مكة في موضع يقال له سرف بين عسفان و قديد. و في هذه السنة اتخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم لنفسه خاتماً من فضة و نقش فيه محمد رسول الله و ذلك ليختتم به رسائل الملوك، و أسلم أبو هريرة رضى الله عنه.

و في هذه السنة أهدى المقوقس ملك الاسكندرية و مصر إلى النبي صلى الله عليه و سلم جملة أشياء - منها مارية و سيرين أختها و جارتان أخريان و خصى يقال له مأبور و ثياب و ألف مثقال من الذهب و فرس و بغلة يقال لها الدلال و حمار يقال له يعفور و غير ذلك.

السنة الثامنة/ فتح مكة شرفها الله تعالى - و ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان و غزوة حنين، و غزوة الطائف، و ماتت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أسلم حكيم بن حزام الذى ولد في الكعبة، و ولد لرسول الله صلى الله عليه و سلم إبراهيم من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧١

مارية القبطية و ذلك في ذى الحجة من هذه السنة.

السنة التاسعة/ غزوة تبوك، أرسل النبي صلى الله عليه و سلم أبا بكر رضى الله عنه في أواخر ذى القعدة ليحج بالناس - و نادى: أن لا يحج بعد هذا العام مشرك و لا يطوف بالبيت عريان، وفاة أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم و زوجة عثمان رضى الله عنه، و في هذه السنة ابتدأت قدوم وفود العرب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم ليبايعوه على الإسلام، و في هذه السنة هجر النبي صلى الله عليه و سلم نساء شهراً.

السنة العاشرة/ حجة الوداع، وفاة إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه و سلم، و في هذه السنة كثرت وفود العرب على رسول الله صلى الله عليه و سلم و دخل الناس في دين الله أفواجا، و في هذه السنة طلع جبريل مجلس النبي صلى الله عليه و سلم في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، طيب الرائحة، حسن الوجه، رآه كل من في المجلس، و سأل النبي صلى الله عليه و سلم عن الإيمان و الإسلام و الإحسان و القيامة و علامات الساعة.

السنة الحادية عشرة/ مرض رسول الله صلى الله عليه و سلم في أواخر شهر صفر، وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم في اليوم الثالث عشر من ربيع الأول، و ماتت بعده بستة أشهر على الأصح ابنته فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها، و بويع بالخليفة أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه و ذلك يوم قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم.

ابتداء مرضه صلى الله عليه و سلم

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه و سلم رسالته ربه إلى العالمين كافة، و لما أتم الله أحكام شريعته و أكمل دينه كما قال عز شأنه و جل جلاله هذه الآية التى أنزلت يوم عرفه في حجة الوداع: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا** - كان من الفهم أن يرتاح هذا النبي العربي الكريم من تعب هذه الدنيا الفانية و عنائها، و أن يتنعم بجوار ربه العلى الأعلى و يحظى برضائه و جناته.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧٢

فحينما نزلت هذه الآية، و نزلت بعدها سورة: **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ**، عرف رسول الله صلى الله عليه و سلم أن حياته قد انتهت لم يبق منها إلا أيام قلائل، و قد عرض بذلك في إحدى خطبه، فقال: **«إن عبدا خيره الله بين أن يؤتاه زهرة الدنيا و بين ما عنده فاختر ما عنده، فبكى أبو بكر و قال: يا رسول الله فديناك بآبائنا و أمهاتنا»**.

فإذا كتب الموت على خير خلق الله سيد ولد آدم، فمن نكون نحن؟ اللهم اختم حياتنا بخير على ما تحبه وترضى، على الإيمان الكامل وراحة تامة و نظافة كاملة بغير تعب ولا نصب بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

كان ابتداء مرضه صلى الله عليه وسلم في أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت زوجته ميمونة، واستمر مريضا ثلاثة عشر يوما كان في خلالها ينتقل إلى بيوت أزواجه، ولما اشتد عليه المرض استأذن منهن أن يمرض في بيت زوجته عائشة بنت أبي بكر فأذن له، ولما دخل بيتها واشتد عليه الوجع، قال: «هريقوا عليّ من سبع قرب لم تحللن أو كيتهن لعلى أعهد إلى الناس فأجلس صلى الله عليه وسلم وصب عليه الماء لتخفيف حرارة الحمى».

ولما تعذر على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج إلى الصلاة، قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، ولما رأى الأنصار اشتداد وجع صلى الله عليه وسلم أطافوا بالمسجد، فدخل العباس وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، فخرج صلى الله عليه وسلم متوكئا على علي والفضل، وتقدم العباس أمامهم والنبي معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر، وثار الناس إليه فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث الله فأخلد فيكم، ألا إنى لا حق برى وإنكم لاحقون بى، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا، وأوصى المهاجرين فيما بينهم...» إلى آخر خطبته العظيمة صلى الله عليه وسلم.

وبينما المسلمون في صلاة الفجر يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة يصلى بهم أبو بكر رضى الله تعالى عنه، إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم، قد كشف سجف حجره عائشة رضى الله عنها فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم فنكص أبو بكر رضى الله عنه على عقبه ليصل الصف، وظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧٣

يفتتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجره وأرخى الستر.

وفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفي ضحى يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة توفي رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، أى في مثل الوقت الذى دخل فيه المدينة المنورة، وقبض صلى الله عليه وسلم في كساء ملبد، قال أبو بردة: أخرجت إلينا عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا، فقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين.

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم دهش الناس وطاشت عقولهم، فمنهم من خبل ومنهم من أصمت، ومنهم من أقعد إلى الأرض، فكان عمر بن الخطاب ممن خبل، فجعل يصيح ويقول: إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات.

وأما عثمان بن عفان فأخرس حتى يذهب به ويجاء ولا يتكلم إلا بعد الغد، وأقعد على بن أبي طالب فلم يستطع حراكا، وأضنى عبد الله بن أنيس، ولم يكن فهم أثبت وأحزم من أبي بكر والعباس.

وكان أبو بكر غائبا بالسنح وهى منازل بنى الحارث من الخزرج بعوالى المدينة بينه وبين منزل النبي صلى الله عليه وسلم ميل، فأقبل على فرس، فلما أخبر الخبر دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجثا يقبله ويبكى ويقول: توفي الذى نفسى بيده، صلوات الله عليك يا رسول الله ما أطيبك حيا وميتا، بأبى أنت وأمى لا يجمع الله عليك موتتين، ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "ألا- من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت،" ثم تلا قوله

تعالى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ، وقوله عز شأنه: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧٤

قال عمر: فكأنى لم أتل هذه الآية قط، ودفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قبض في حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها، و أنزله في القبر على و العباس و ولداه الفضل و قثم، ورش بلال قبره بالماء. فيكون عمره عليه الصلاة و السلام ثلاثا و ستين سنة. اللهم صل على محمد و على آل محمد، كما صليت على إبراهيم و على آل إبراهيم، و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر و من عذاب النار و من فتنة المحيا و الممات، و من فتنة المسيح الدجال، اللهم اختم حياتنا بالأعمال الصالحات، و استرنا فى الحياة و بعد الممات، و ارزقنا علما غزيرا نافعا، و رزقا حلالا واسعا بلا طغيان بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين. هذا خلاصة الكلام عن مرضه صلى الله عليه وسلم و وفاته و انظر تفصيل ذلك فيما يأتى.

سورة النصر و نزولها بمنى فى حجة الوداع

نزلت بمنى فى حجة الوداع فتعد مدنية و هى آخر ما نزل من السور و آياتها (٣) نزلت بعد سورة (التوبة).

بسم الله الرحمن الرحيم، إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا.

قيل: إن هذه السورة آخر سورة نزلت يوم النحر، و النبي صلى الله عليه وسلم بمنى فى حجة الوداع- و للطبرانى من حديث جابر: «لما نزلت هذه السورة قال النبي صلى الله عليه وسلم:

نعيت إلى نفسى: فقال له جبريل: و للآخرة خير لك من الأولى. قالت أم سلمة رضى الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم فى آخر أمره لا يقوم و لا يقعد و لا يذهب و لا يجىء، إلا قال: سبحان الله و بحمده أستغفر الله و أتوب إليه. فقلت له: إنك تدعو بدعاء لم تكن تدعو به قبل اليوم. فقال: إن ربي أخبرنى سأرى علما فى أمتى، و أنى إذا رأيت أسبح بحمده و أستغفره، ثم تلا هذه السورة»- رواه ابن جرير و غيره.

لقد اتفق الصحابة رضى الله عنهم على أن هذه السورة دلت على نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أنها حين نزلت قال عليه الصلاة و السلام: «نعيت إلى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧٥

نفسى». و قال فى خطبته: «إن عبدا خيره الله تعالى بين الدنيا و بين لقائه فاختر لقاء الله تعالى- فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: فديناك بأنفسنا و أموالنا و آباءنا و أولادنا».

و معنى الآيات: إذا جاء نصر الله و الفتح لك "يا محمد" و دانت لك العرب- و تابعت الفتوحات عليك التى منها الفتح الأعظم، فتح مكة و بلدتك التى أخرجوك منها- و إذا رأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا و جماعات رغبة و حبا فى الإسلام، فاعلم أنه قد علا شأنك و انتشر دينك و جاء الحق و زهق الباطل- و بهذا تكون مهمتك النبوية قد انتهت- و تكون أنت قد أدت الأمانة و بلغت الرسالة، فلا خوف بعد موتك على دين الله تعالى أبدا- فلا يزال ينتشر فى جميع البلدان و يزحف على جميع البقاع و الأطراف، و يتتابع الناس فى الدخول فى دين الله أفواجا أفواجا إلى قيام الساعة- فحينئذ تفرغ لعبادة الله تعالى أكثر من حالتك الأولى استعدادا للقاء ربك- فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا حيث قد قرب أجلك و دنا ذهابك إلى الرفيق الأعلى.

و فى الصحيحين عن عائشة رضى الله تعالى عنها، قالت: «ما صلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة: إذا

جاءَ نَصِيرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ - إلا يقول: أستغفر الله و أتوب إليه- قال: فإني أمرت بها- ثم قرأ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ إِلَى آخِرِهَا- و قال عكرمة: لم يكن النبي صلى الله عليه و سلم قط أشد اجتهادا في أمور الآخرة ما كان عند نزولها. و قال مقاتل: لما نزلت قرأها النبي صلى الله عليه و سلم على أصحابه و فيهم أبو بكر و عمر و سعد بن أبي وقاص و العباس، ففرحوا و استبشروا، و بكى العباس، فقال له النبي، صلى الله عليه و سلم: ما يبكيك يا عم؟ قال: نعت إليك نفسك، قال: إنه كما قلت، فعاش بعدها ستون يوما ما رؤى فيها ضاحكا. اهـ.

و قيل: عاش صلى الله عليه و سلم بعدها ثمانين يوما. انتهى.

و المعقول أنه صلى الله عليه و سلم عاش بعد نزول هذه السورة اثنين و تسعين يوما، و ذلك من عاشر ذى الحجة، و هو تاريخ نزول هذه السورة إلى يوم وفاته صلى الله عليه و سلم في الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

و يؤخذ من هذه السورة المباركة الكريمة التي نزلت في حجة الوداع أن الناس قد دخلوا بالفعل في دين الله أفواجا أفواجا، فإن النصر العظيم لرسول الله صلى الله عليه و سلم في الفتح الأعظم و هو فتح مكة شرفها الله تعالى و أدام أمنها و خيرها و رخاءها-

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧٦

الذي كان في رمضان في السنة الثامنة للهجرة، فلقد أقبل الناس من قريش و غيرهم يبائعون رسول الله صلى الله عليه و سلم و يدخلون في دين الله أفواجا أفواجا- و عندما نزلت هذه السورة في يوم النحر بمنى، و هو اليوم العاشر من ذى الحجة، و هو يوم عيد الأضحى المبارك، في حجة الوداع، كان عدد من حج من المسلمين مع رسول الله صلى الله عليه و سلم، في هذه الحجة مائة و عشرين ألفا و قيل أكثر من ذلك- و لم يكن معهم أحد من المشركين أبدا- ثم عقب هذه الحجة بنحو ثلاثة أشهر توفى رسول الله، صلى الله عليه و سلم. أليس هذا هو النصر المبين و الفتح الأعظم لنبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم، بعد أن كانت مكة و جميع البقاع ممتلئة بالمشركين و الكفار؟ بلا و الله- فسبحانه القادر على كل شيء الذي بيده ملكوت كل شيء.

كما يؤخذ من هذه السورة الكريمة و من حالة رسول الله صلى الله عليه و سلم، بعد نزولها عليه أنه ينبغي على كل مؤمن إذا كبرت سنه و بلغ حد الشيخوخة، أن لا يغفل عن ذكر الله سبحانه و تعالى، و أن يكثر من التسييح و الاستغفار في جميع حالاته، إذا تحرك أو سكن أو قام أو مشى أو أكثر من الكلام الفارغ- لأنه لا يدري متى تأتي منيته، فإذا ألف لسانه على ذكر الله تعالى، و على التسييح و التهليل و الاستغفار و الإنابة، فربما تأتي منيته و هو على هذه الحالة، فيكون سعيدا، فائزا برضاء الله عز و جل، و ما أبرك أن تأتي منية الإنسان و هو على أفضل حالة من الاشتغال بالتسييح و الاستغفار و العبادة- القلبية أو البدنية- نسأل الله تعالى أن يمتينا على أحسن الحالات على طهارة و نظافة و راحة تامة، و على الإيمان الكامل و اليقين التام- إنه سبحانه و تعالى أكرم مسئول و أعظم مأمول جل جلاله و لا إله غيره و الله أكبر.

و إليك مبحثا خاصا بالتفصيل في وفاته صلى الله عليه و سلم.

فصل في وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم

إن في وفاة الأنبياء عليهم الصلاة و السلام لعبرة و أى عبرة خصوصا في وفاة نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم و في دفنه و الصلاة عليه- فإذا كان خيار الخلق و صفوة الناس ذاقوا الموت و دفنوا تحت الثرى فهل مثلنا يبقى على وجه الأرض؟ كلا و الله كل من عليها فإن* و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الأكرام فكل واحد منا يعيش إلى أجل معلوم فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة و لا يستقدمون التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧٧

فسبحان من تفرد بالبقاء و سبحان من تعزز بالقدرة و سبحان من قهر العباد بالموت.

و إليك الكلام بالتفصيل عن وفاة نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم، فنقول و بالله التوفيق و نسأل الله الراحة عند الموت و العفو عند

الحساب إنه بعباده لطيف خبير.

(اعلم) رحمتنا الله و إياك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم حج حجة الوداع- بفتح الواو، فى السنة العاشرة من الهجرة و خرج لها من المدينة لخمس بقين من ذى القعدة، و مكث فى الطريق ثمان ليال- و هى المسافة الوسطى بالجمال بين مكة و المدينة- و خرج معه صلى الله عليه و سلم تسعون ألفا و قيل مائة ألف و أربعة عشر ألفا و قيل أكثر- كما حكاه البيهقى- و كان وقوفه بعرفة يوم الجمعة كما ثبت و تواتر.

ثم بعد أن أدى صلى الله عليه و سلم مناسك الحج، و أقام بمكة عشرة أيام رجع إلى المدينة- و سميت حجة الوداع؛ لأنه صلى الله عليه و سلم توفى فلم يحج بعدها- و لقد كان عليه الصلاة و السلام عارفا بذلك- فإنه قال فى خطبته يوم عرفة: «أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا...»، إلى آخر خطبته العظيمة الشهيرة- و فى صحيح البخارى عن زيد بن أرقم أن النبى صلى الله عليه و سلم حج بعد ما هاجر حجة واحدة لم يحج بعدها و هى حجة الوداع. ١٥٠. و قد فرض الحج فى أواخر السنة الخامسة و قيل فرض فى السنة السادسة.

ثم استقبل رسول الله صلى الله عليه و سلم العام الحادى عشر من الهجرة فى المدينة، و فى اليوم السادس و العشرين من شهر صفر جهز رسول الله صلى الله عليه و سلم جيشا لغزو الشام و فيهم كبار المهاجرين و الأنصار، منهم أبو بكر و عمر و أبو عبيدة و سعد رضى الله تعالى عنهم- و ولى على هذا الجيش أسامة بن زيد و هو يومئذ فى السابعة عشرة من عمره رضى الله تعالى عنه- و لكن هذا الجيش لم يخرج فى عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم من المدينة بسبب بدء مرضه بل خرج بعد وفاته صلى الله عليه و سلم و بعد تولية أبى بكر رضى الله عنه، فإن أول عمل عمله أبو بكر بعد توليته أن سير جيش أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما، و خرج بنفسه يشيعه ماشيا و أسامة راكب- فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن، فقال أبو بكر: و الله ما نزلت و لا ركبت، و ما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله، فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له و سبعمائة درجة ترفع له و سبعمائة سيئة تمحى عنه- ثم أوصاه و أصحابه- ثم قال أبو بكر لأسامة: رأيت أن تأذن لعمر بالمقام

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧٨

عندى استأنس به و أستعين برأيه، فقال أسامة: قد فعلت. ثم سار أسامة رضى الله عنه لوجهه، فقاتل الروم و انتصر و هو وجيشه عليهم و رجعوا سالمين.

ابتداء مرضه صلى الله عليه و سلم الذى قبض فيه

لا- يخفى أن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام هم من البشر يعرض عليهم ما يعرض على جميع الناس من الأمور العادية؛ كالأكل و الشرب و النوم و النكاح و الهم و الحزن و الفقر و المرض و الفرح و الغنى و الغضب و الرضا، و إنهم صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين يموتون كما يموت سائر الناس بعد أن يؤدوا رسالات ربهم على الوجه الأكمل.

غير أن الله عز و جل ميزهم عن الخلق بحفظهم من الحالات المزرية و من العاهات المنفرة و الأمراض الخبيثة، لأنهم من عباده الأخيار الذين اصطفاهم من العالمين. و كيف لا يكونون كذلك و هم سفراء الله الكبير المتعال بين خلقه أرسلهم مبشرين و منذرين ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور. و انظر إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم حينما اشتد به وجعه و هو فى بيت عائشة فخافوا عليه أن يكون به ذات الجنب فلدوه و قد نهاهم عنه فلما أفاق قال لهم: «من صنع هذا؟ فقلن عمك العباس أمر بذلك و تخوفنا أن يكون بك ذات الجنب، فقال: إنها من الشيطان و لم يكن الله عز و جل ليسلطها على و لا ليرمىنى بها». فمن هنا تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام محفوظون من الأمراض الخبيثة و العلل المستعصية، فإذا كان سفراء الدول و الحكومات يمتازون بجمال الخلق و الأخلاق، و العلم و الثقافة و المكارم و النبيل- فرسل الله تعالى يمتازون عن سائر المخلوقات بكل الأوصاف الحميدة و الأخلاق النبيلة و الخلقة

التي لا تشوبها شائبة من باب أولى - وإنهم ليتقبلون في نعم الله و يتحصنون بحفظ الله، و يعتصمون بقوة الله و رعايته و عنايته. فمن أطفاف الله عز و جل بهم أنه إذا اختارهم للقاءه جعل لموتهم، عليهم الصلاة و السلام، أسبابا خفيفة و نزع عن قلوبهم رهبة الموت، فلا يبالون في أى وقت جائهم بل إنهم يحبون الموت و يختارون لقاء الله تعالى على هذه الحياة الدنيا الفانية الخسيسة - ففي صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخير». فانظر إلى قوله صلى الله عليه و سلم: «إن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٧٩

عبدا خيره الله بين أن يؤتیه من زهرة الدنيا ما شاء و بين ما عنده، فاختار ما عنده» - إلى آخر ما جاء في صحيح البخارى فى أوائل باب الهجرة. و انظر أيضا إلى قوله عليه السلام حينما نزلت سورة النصر: «نعت إلى نفسى» كما تقدم.

و انظر إلى قوله عليه الصلاة و السلام لمولاه أبا مويهبة كان يزور معه أهل مقابر البقيع فى ليلة قبيل موته بأيام فإنه صلى الله عليه و سلم قال له: «يا أبا مويهبة: إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا و الخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك و بين لقاء ربى و الجنة - قال أبو مويهبة: بأبى أنت و أمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا و الخلد فيها ثم الجنة - قال: لا و الله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى و الجنة. ثم استغفر لأهل البقيع و انصرف عليه الصلاة و السلام عائدا إلى بيته، فبدأ يشعر بالوجع».

كما رواه ابن إسحاق - و أبو مويهبة من مولدى مزينة اشتراه رسول الله صلى الله عليه و سلم فأعتقه و قد شهد غزوة (المريسيح). فمما تقدم و من بعض إشارات القرآن يعرف أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، كان عالما بقرب أجله مترقبا بشوق و رغبة، لأنه سينتقل إلى الرفيق الأعلى، خصوصا و قد رأى الجنة و منزلته فيها بعينى رأسه ليلة الإسراء و المعراج، و يرى على الدوام الملائكة الكرام و فى مقدمتهم أمين الوحي روح القدس عليه السلام.

و إذا تأملت فى قوله، صلى الله عليه و سلم و سلم لابنته فاطمة، رضى الله عنها، فى مرضه إذ أسر إليها: «إن جبريل كان يعارضنى القرآن فى كل عام و إنه عارضنى العام مرتين و لا أراه إلا قد حضر أجلى ... الحديث» و أنه أسر إليها أيضا أنه يقبض فى وجعه الذى توفى فيه كما جاء فى الصحيح. إذا تأملت هذا و غيره علمت أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، ما كان ليخفى عليه أمر موته بل لقد أشار، عليه الصلاة و السلام، إلى اقتراب أجله و موته فى حجة الوداع حين خطب الناس خطبته المشهورة فكان مما قال: «أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ...»، و لقد كان كما قال، صلى الله عليه و سلم.

و من هنا، اقتداء بنبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم، نرى الصالحين من أمته لا يخافون من الموت بل يتلقونه بغاية الرضا و الاستسلام لحسن ظنهم بالله عز و جل، و لاعتقادهم أنه تعالى سيتلقاهم بعظيم رحمته و فضله و إحسانه - و أن من يخشى الموت لا يخشاه لذاته و قد علم أنه حق مكتوب و لكنه يخشى ما بعد الموت من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨٠

الحساب و العقاب إن لم يتداركه الله برحمته الواسعة - و هو عز شأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم.

هذا و لم نر من بين ما بين مرضه و موته عليه الصلاة و السلام، من الأيام كما بينه و فصله العلامة الشيخ حسين الديار بكرى رحمه الله تعالى فى كتابه القيم (تاريخ الخميس). و نحن نذكر هنا ذلك بالتفصيل بما يفتح الله تعالى علينا من فضله الواسع. فنقول و بالله التوفيق: و كما بينه السمهودى رحمه الله تعالى فى كتابه النفيس (وفاء الوفا)، قال الحافظ ابن رجب: كان ابتداء مرضه صلى الله عليه و سلم فى أواخر شهر صفر - و كانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوما على المشهور.

مما لا يخفى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، قد توفى ضحى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة - و لم يطل مرضه بل كان أياما معدودة - و جاء فى صحيح البخارى فى باب مرض النبى صلى الله عليه و سلم، و وفاته - و فى صحيح مسلم فى كتاب الوصية، عن ابن عباس، رضى الله عنهما أنه فى يوم الخميس اشتد مرضه عليه الصلاة و السلام، و قد ذكرنا

قريبا زيارته ليلا لأهل البقيع مع مولاه أبي مويهبة ليستغفر لهم- وأنه عليه الصلاة والسلام، عاد من زيارته هذه إلى بيته فبدأ يشعر بالوجع- و ذكرنا قريبا أيضا أنه في السادس والعشرين من صفر جهّز عليه الصلاة والسلام جيشا بقيادة أسامة بن زيد، رضى الله تعالى عنهما- فعليه يكون بدء مرضه صلى الله عليه وسلم من ليلة زيارته المذكورة للبقيع مع مولاه أبي مويهبة رضى الله تعالى عنه، كما هو صريح رواية ابن إسحاق- والظاهر، والله تعالى أعلم، أن هذه الليلة التي بدأ يشعر بالوجع فيها، هي ليلة الخميس، غرة شهر ربيع الأول على القول بأن مدة علته صلى الله عليه وسلم اثنا عشر يوما، وهذا القول هو الذى نميل إلى اختياره- وأما يوم الخميس الذى ذكره عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، فهو اليوم الذى اشتد فيه مرضه صلى الله عليه وسلم وهو يوافق الثامن من ربيع الأول- ثم فى يوم الاثنين الثانى عشر منه توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحق بالرفيق الأعلى- هذا ما نراه بعد التأمل والتحقق والله تعالى أعلم بالحقيقة. وكان ابتداء مرضه صلى الله عليه وسلم فى بيت ميمونة وقيل فى بيت زينب بنت جحش وقيل فى بيت ريحانة- وأما وفاته صلى الله عليه وسلم، فكانت فى بيت عائشة وفى يومها وبين سحرها ونحرها كما هو ثابت فى الصحيح- ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل وهو مريض ويطاف به على نسائه يقسم بينهن حتى استقر فى بيت ميمونة، فاجتمع

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨١

نساؤه صلى الله عليه وسلم به عندها، فلما رأوا ما به اجتمع رأى من فى البيت على أن يلدوه وتخوفوا أن يكون به ذات الجنب ففعلوا (و اللد: صب الدواء فى أحد شقى القدم)، ثم إنه صلى الله عليه وسلم استأذن نساءه فى أن يمرض فى بيت عائشة رضى الله تعالى عن الجميع فأذن له- فخرج صلى الله عليه وسلم عاصبا رأسه يمشى بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس والثانى على بن أبى طالب، تخط قدماه، حتى دخل بيت عائشة رضى الله عنها- وعنها أيضا كما هو فى الصحيح، قالت: لدنناه فى مرضه صلى الله عليه وسلم، فجعل يشير إلينا أن لا- تلدونى، فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلما أفاق، قال: ألم أنهكم أن تلدونى؟ قلنا: كراهية المريض للدواء، فقال: لا تبقى أحد فى البيت إلا لد، وأنا انظر إلا العباس فإنه لم يشهدكم- رواه البخارى فى باب مرض النبى صلى الله عليه وسلم ووفاته.

وعن عائشة، قالت: كانت تأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، الخاصرة، فأخذته يوما فأغمى عليه حتى ظننا أنه قد هلك، فلدنناه ثم فرج عن النبى صلى الله عليه وسلم وقد لدوه، فقال: من صنع هذا؟ فهبته، فاعتلن بالعباس، واتخذ جميع من فى البيت العباس سببا ولم يكن له فى ذلك رأى، وتخوفنا أن يكون بك ذات الجنب، فقال: إنها من الشيطان ولم يكن الله عز وجل ليسلطها على ولا ليرمىنى بها، ولكن هذا عمل النساء. لا يبقى أحد فى البيت إلا لد، إلا عمى العباس فإن يمينى لا تناله، فلدوا كلهم ولدت ميمونة وكانت صائمة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت عائشة، وكان يومها- بين العباس وعلى والفضل ممسك بظهره ورجلاه تخطان فى الأرض- حتى دخل على عائشة رضى الله تعالى عنها، فلم يزل عندها لا يقدر على الخروج من بيتها إلى غيره حتى توفى صلى الله عليه وسلم.

قالت عائشة: ما رأيت أحدا كان أشد عليه الوجع من رسول الله صلى الله عليه وسلم- روى أنه كان لا يكاد تقر يد أحد عليه من شدة الحمى، فقال: ليس أحد أشد بلاء من الأنبياء، كما يشتد علينا البلاء كذلك يضاعف لنا الأجر.

وعن عبد الله بن مسعود، رضى الله تعالى عنه قال: دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يوعك فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا، قال: أجل إنى أوعك كما يوعك رجلا منكم، قلت: ذلك بأن لك أجرين. قال: أجل ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها. كما جاء ذلك فى الصحيح. والوعك: الحمى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨٢

وعن ابن عمر جاء أبو بكر إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله ائذن لى فأمرضك وأكون الذى يقوم عليك، فقال صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر إن لم أحمل أزواجى وبناتى وأهل بيتى علاجى ازدادت- مصيبتى عليهم عظما، وقد وقع أجرك

على الله- وفي صحيح البخارى عن عروة أن عائشة أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات و مسح عنه يده، فلما اشتكى وجعه الذى توفى فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التى كان ينثف و أمسح بيد النبى صلى الله عليه وسلم عنه- وفي صحيح البخارى أيضا عن عائشة رضى الله عنها، تحدث: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما دخل بيتى و اشتد به وجعه قال: هريقوا على من سبع قرب لم تحلل أو كيتهن لعلى أعهد إلى الناس، فأجلسناه فى مخضب لحفصه زوج النبى صلى الله عليه وسلم ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن، قالت: ثم خرج إلى الناس فضلى لهم و خطبهم. ٥١.

قال العلامة صاحب تاريخ الخميس: و كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس فى مدة مرضه، إنما انقطع ثلاثة أيام و قيل سبع عشرة صلاة، فلما أذن بالصلاة فى أول ما امتنع و هى صلاة العشاء، قال: مروا أبابكر فليصل بالناس. ٥١.

ثم قال فيه أيضا و عن عائشة قالت: لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء بلال يؤذن بالصلاة، فقال: مروا أبابكر فليصل بالناس، قلت: يا رسول الله إن أبابكر رجل أسيف و إنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر. فقال: مروا أبابكر فليصل بالناس. قالت: فقلت لحفصه قولى له. فقالت له حفصه: يا رسول الله أبو بكر رجل أسيف و إنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر، فقال: إنكن صواحب يوسف مروا أبابكر فليصل بالناس، قالت: فأمرنا أبو بكر. فلما دخل الصلاة وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه خفة فقام يتهادى بين رجلين و رجلاه تخطان فى الأرض حتى دخل المسجد، فلما سمع أبو بكر حسه ذهب ليتأخر فأوما إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قم كما أنت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جلس عن يسار أبى بكر، و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس قاعدا و أبو بكر قائما يقتدى أبو بكر بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، و الناس يقتدون بصلاة أبى بكر.

ثم قال: و فى سيرة ابن هشام: فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرج الناس فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنكص عن مصلاه فدفع

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨٣

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظهره، و قال: صل بالناس و جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه فضلى قاعدا عن يمين أبى بكر، فلما فرغوا من الصلاة، قال له أبو بكر: يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله و فضل كما تحب، و اليوم يوم بنت خارجة فأتيتها، قال: نعم، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم و خرج أبو بكر إلى أهله بالسنة. ٥١. و السنة بضم السين و سكون النون: منازل بنى الحارث من الخزرج بعوالى المدينة بينه و بين منزل النبى صلى الله عليه وسلم ميل- و كان أبو بكر رضى الله عنه بالسنة- و بنت خارجة هى زوجته و اسمها حبيبة بنت خارجة بن زيد.

و فى صحيح البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه حدث أن المسلمين بينما هم فى صلاة الفجر من يوم الاثنين و أبو بكر يصلى لهم لم يفاجأهم إلا- رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم و هم فى صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف و ظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: و هم المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحا برسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إليهم بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة و أرخى الستر. ٥١. قال النبهانى فى كتابه "الأنوار المحمدية" نقل الدمياطى، أن الصديق رضى الله عنه صلى بالناس سبع عشرة صلاة.

جاء فى صحيح البخارى عن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصارى أن عبد الله بن عباس أخبره أن على بن أبى طالب رضى الله عنه، خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجعه الذى توفى فيه- فقال الناس: يا أبا حسن كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئنا. فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال له: أنت و الله بعد ثلاثة عبد العصا، و إنى و الله

لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف يتوفى في وجعه هذا- إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت. اذهب بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلنسأله فيمن هذا الأمر إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا، فقال على: إنا والله لئن سألتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فممنعناها لا يعطينها الناس بعده- وإنى والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ١٥.

وجاء فيه أيضا، أن عائشة و عبد الله بن عباس قالوا: لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم، طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو كذلك

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨٤

يقول: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا. ١٥.

وجاء فيه أيضا، أن عائشة قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي صلى الله عليه وسلم وأنا مسندته إلى صدرى ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأبده رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره فأخذت السواك فقصمته ونغضته وطيبته ثم دفعته إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فاستن به فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، استن استنانا قط أحسن منه فما عدا أن فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، رفع يده أو إصبغه، ثم قال فى الرفيق الأعلى ثلاثا ثم قضى.

و كانت تقول: مات بين حاقتى و ذاقتى. ١٥.

وجاء فيه أيضا، أن عائشة كانت تقول: إن من نعم الله على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى فى بيتى و فى يومى و بين سحرى و نحرى، و أن الله جمع بين ريقى و ريقه عند موته- دخل على عبد الرحمن و بيده السواك و أنا مسندة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيت ينظر إليه و عرفت أنه يحب السواك- فقلت: آخذه لك، فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتد عليه فقلت: أليته لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليتنه و بين يديه ركوة أو علبه يشك عمر فيها ماء، فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه و يقول: لا إله إلا الله إن للموت سكرات، ثم نصب يده فجعل يقول: فى الرفيق الأعلى، حتى قبض و مالت يده. ١٥.

وجاء فيه أيضا أن عائشة قالت: كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخير بين الدنيا والآخرة، فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى مرضه الذى مات فيه و أخذته بحه يقول: مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ... الآية فظننت أنه خير. ١٥.

و قالت أيضا رضى الله تعالى عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، و هو صحيح يقول: إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخير. فلما اشتكى و حضره القبض و رأسه على فخذ عائشة غشى عليه، فلما أفاق شخص ببصره نحو سقف البيت، ثم قال: اللهم فى الرفيق الأعلى. فقلت: إذا لا يجاورنا.

فعرفت أنه حديثه الذى كان يحدثنا و هو صحيح. ١٥.

و قالت أيضا رضى الله تعالى عنها أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم و أصغت إليه قبل أن يموت و هو مسند إلى ظهره يقول: «اللهم اغفر لى و ارحمنى و ألحقنى بالرفيق الأعلى». ١٥.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨٥

فكانت آخر كلمة تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم الرفيق الأعلى)، قالت عائشة، رضى الله تعالى عنها: مات النبي صلى الله عليه وسلم، و إنه لبين حاقتى و ذاقتى، فلا أكره شدة الموت لأحد أبدا بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ١٥. (الحاقنة) هى النقرة بين الترقوة و جبل العاتق. (و الذاقنة) طرف الحلقوم، أى مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجر عائشة و رأسه الشريف فى أعلى صدرها عند ذقنها فى جانب خدها الأيمن، و فى هذا الدليل الأعظم لشدة حبه صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها، و ليس فى ذلك من غرابه فهى بنت صاحبه فى الغار أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، و إن جبريل أقرأها السلام مع النبي صلى الله عليه وسلم، كما ثبت فى الصحيح. و عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «يا أم سلمة لا تؤذينى فى عائشة، فإنه و الله ما

نزل على الوحي و أنا في لحاف امرأة منكن غيرها». رواه البخارى في صحيحه. فرضى الله تعالى عن عائشة و عن جميع أمهات المؤمنين و غفر لنا بفضلته و رحمته.

و عن عمرو بن الحارث، رضى الله عنه، قال: «ما ترك رسول الله صلى الله عليه و سلم دينارا و لا درهما و لا عبدا و لا أمة إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها و سلاحه و أرضا جعلها لابن السبيل صدقة». انتهى كل ذلك من صحيح البخارى. و فى صحيح مسلم مثل ذلك أيضا. روى «أنه استأذن على رسول الله صلى الله عليه و سلم ملك الموت و عنده جبريل، فقال جبريل: يا محمد، هذا ملك الموت يستأذن عليك، و لم يستأذن على آدمى كان قبلك، و لا يستأذن على آدمى بعدك، قال: ائذن له، فدخل ملك الموت فوقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله يا أحمد، إن الله أرسلنى إليك و أمرنى أن أطيعك فى كل ما تأمرنى به، إن أمرتنى أن أقبض نفسك قبضتها و إن أمرتنى أن أتركها تركتها، قال: و تفعل يا ملك الموت؟ قال:

بذلك أمرت أن أطيعك فى كل ما تأمرنى، فقال جبريل: إن الله قد اشتاق إليك، قال: فامض يا ملك الموت لما أمرت به، قال جبريل: يا رسول الله هذا آخر موطنى الأرض إذ كنت حاجتى من الدنيا. فتوفى رسول الله، صلى الله عليه و سلم. ١٠٥. من تاريخ الخميس.

توفى عليه الصلاة و السلام فى ضحى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشر من الهجرة و هو ابن ثلاث و ستين سنة.

قال العلامة الخضرى فى كتابه (نور اليقين): كانت وفاته صلى الله عليه و سلم يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشر و هو يوافق اليوم الثامن من شهر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨٦

يونية سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة ميلادية- و لم نر من قال يوم الوفاة هو الثالث عشر من ربيع الأول غيره- و قد ذكر هذا التاريخ أيضا الأستاذ محمد سيد كيلانى فى كتابه (عين اليقين) ناقلا عن الخضرى رحمه الله تعالى.

[حالة الصحابة حينما سمعوا بموت رسول الله صلى الله عليه و سلم]

فلما توفى خاتم النبيين سيدنا "محمد" صلى الله عليه و سلم و تسامع الناس هذا الخبر دهشوا و بكوا، و طاشت عقول الصحابة، رضى الله تعالى عنهم أجمعين. فقد جاء فى صحيح البخارى عن أنس، قال: «لما ثقل النبي صلى الله عليه و سلم، جعل يتغشاها، فقالت فاطمة، عليها السلام، و اكرب أباه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات، قالت: يا أبتاه أجب ربا دعاه- يا أبتاه من جتته الفردوس مأواه- يا أبتاه إلى جبريل ننعاه. فلما دفن، قالت فاطمة، عليها السلام: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه و سلم التراب» ١٠٥. منه. و لما سمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ذلك أصابه الخبل و سل سيفه، فجعل يصيح و يتوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه، فلما خطب أبو بكر و تلا قوله تعالى: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ الْآيَةَ. قال عمر، كما فى صحيح البخارى:

«و الله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلى و حتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها أن النبي صلى الله عليه و سلم قد مات» ١٠٥.

و أما عثمان، رضى الله تعالى عنه، فقد أخرج حتى يذهب به و يجاء، و ما تكلم إلا بعد غد. و أما على، رضى الله تعالى عنه، فلم يستطع حراكا. و أضنى عبد الله بن أنيس. و الله تعالى أعلم بما أصاب الناس من الحزن و الذهول، و كيف لا يستولى عليهم الحزن و الذهول و رسول الله صلى الله عليه و سلم أحب إليهم من أنفسهم و أولادهم- إنه صلى الله عليه و سلم هو النور العظيم و السراج المنير و الخير و البركة المجسمة بين أظهرهم- فلم يكن من الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أثبت و أحزم من أبى بكر و

العباس، رضى الله تعالى عنهما- وذلك من فضل الله تعالى على الناس ليعودوا إلى صوابهم.

فأبو بكر، رضى الله عنه و أرضاه، لما أقبل من مسكنه بالسنع وأخبر الخبر- دخل إلى بيت عائشة و كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه و سلم فجثا يقبله و يبكى - فقد جاء فى صحيح البخارى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، ما نصه، قالت: »

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨٧

إن أبا بكر، رضى الله تعالى عنه، أقبل على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة، فتييم رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه و بكى - ثم قال:

بأبى أنت و أمى، و الله لا يجمع عليك موتتين، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها- قال الزهرى: و حدثنى أبو سلمى عن عبد الله بن عباس أن أبا بكر خرج و عمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه و تركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، و من كان منكم يعبد الله فإن الله حى لا يموت- قال الله: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ- إلى قوله: الشَّاكِرِينَ و قال: و الله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها- فأخبرنى سعيد بن المسيب أن عمر قال: و الله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى، و حتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها أن النبى صلى الله عليه و سلم قد مات-«-هـ. من البخارى.

روى عن أبى ذؤيب الهذلى، قال: إنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم عليل.

فأوجس أهل الحى خيفة عليه. فبت بلبلة ثابتة النجوم طويلة الأناة لا ينجاب ديجورها و لا يطلع نورها حتى إذا قرب السحر غفوت فهتف لى هاتف يقول:

خطب أجل أناخ بالإسلام، و بين النخيل و مقعد الآطام قبض النبى محمد، فعيوننا تذرى الدموع عليه بالتجمام. قال أبو ذؤيب: فوثبت من نومى فزعا فنظرت إلى السماء فلم أر إلا سعد الذابح، فتفاءلت به ذبحا يقع فى العرب، و علمت أن النبى صلى الله عليه و سلم، قد مات أو هو ميت من علته، فركبت ناقتى و سرت حتى أصبحت، فطلبت شيئا أزجره فعن لى شيهم قد أرم على صل و هو يتلوى عليه و الشيهم يقضمه حتى أكله، فزجرت ذلك شيئا مهما، فقلت: تلوى الصل انفتال الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله، صلى الله عليه و سلم- ثم أولت أكل الشيهم إياه غلبت القائم على الأمر. فحشث ناقتى حتى إذا كنت بالعلية زجرت الطير فأخبرنى بوفاته و نعب غراب سانحا بمثل ذلك، فتعودت من شر ما عن لى فى طريقي، ثم قدمت المدينة و لأهلها ضجيج كضجيج الحجيج أهلوا جميعا بالإحرام، فقلت:

ماذا جرى، قالوا: قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم، فجثت المسجد فأصبته خاليا فأتيت رسول صلى الله عليه و سلم فأصبته بابه مرتجا و قد خلا به أهله، فقلت: أين الناس، فقيل: فى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨٨

سقيفة بنى ساعدة صاروا إلى الأنصار، فجثت السقيفة فوجدت أبا بكر و عمر، رضى الله عنهما، و أبا عبيدة و سالما و جماعته من قريش، و رأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة و معهم شعراؤهم، و أمامهم حسان بن ثابت و كعب فى ملاء منهم، فأويت إلى الأنصار فتكلموا فأكثروا، و تكلم أبو بكر فله من رجل لا يطيل الكلام و يعلم مواضع الفصل- و الله لتكلم بكلام لم يسمعه سامع إلا انقاد له و مال إليه، و تكلم بعده عمر، رضى الله عنه، بكلام دون كلامه و مد يده فبايعه و رجع أبو بكر، رضى الله عنه، و رجعت معه فشهدت الصلاة على النبى صلى الله عليه و سلم و شهدت دفنه. ثم أنشد أبو ذؤيب يبكى رسول الله، صلى الله عليه و سلم:

لما رأيت الناس فى علاتهم ما بين ملحد له و مضرح

فهناك صرت إلى الهموم و من بيت جار الهموم بيت غير مروح

كسفت لمصرعه النجوم و بدرهاو تزعزعت آطام بطن الأبطح
و تزعزعت أجبال يثرب كلهاو نخيلها لخلو خطب مفدح ... الخ
فمعنى قوله: فعن لى شيهم قد أرم على صل: الشيهم ذكر القنفذ، و الصل:
الحيه، و أرم بمعنى: عض.

[اشتغال الناس بإقامة خليفة ثم بغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم و دفنه]

فلما مات رسول صلى الله عليه وسلم و عرف الناس ذلك و رجع إليهم صوابهم و نزلت السكينه عليهم أغلق أهله دونه الباب ليتفرغ
الناس أولاً من إقامة خليفه عليهم، فمكث صلى الله عليه وسلم فى بيته بقية يوم الاثنين الذى توفى فيه، و ليلة الثلاثاء و يومه و ليلة
الأربعاء، فلما انتهى المسلمون من أمر الخليفة و جمعهم الله تعالى على أبى بكر الصديق و فرغوا من بيعته- و كانت البيعة أول الأمر
يوم الاثنين، يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سقيفة بنى ساعدة، ثم كانت البيعة العامة من الغد فى المسجد يوم الثلاثاء.
فلما انتصب أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، خليفة على المسلمين- أقبلوا على تجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم و الاشتغال بأمره
ليلة الأربعاء.

فإذا نظرنا بإمعان وجدنا أن أمر إقامة الخليفة أهم من الاشتغال بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الشيطان ينتهز فرصة الغفلة
فيوقع الشقاق و الاختلاف بين المسلمين- و رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفظ الله و أمانه و رعاية الملائكة الكرام لن يمسه
سوء، و لقد كاد الخلاف و النزاع أن يستولى على المسلمين، و لكن الله تعالى تداركهم برحمته

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٨٩

فصرف عنهم كيد الشيطان فجمع كلمتهم على أبى بكر، رضى الله تعالى عنه و عنهم أجمعين.

فلما انتهت البيعة العامة يوم الثلاثاء فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذى بلصق بيته- أقبلوا على تجهيزه و دفنه عليه الصلاة
و السلام. فقام على غسله صلى الله عليه وسلم عمه العباس و ابنه الفضل و قثم و على بن أبى طالب و أسامة بن زيد و شقران مولى
رسول الله صلى الله عليه وسلم، و ضرب العباس كله من ثياب يمانية لغسله عليه الصلاة و السلام، ثم أذن لرجال بنى هاشم فقعدها
بين الحيطان و الكلة، ثم دخل هؤلاء الذين ذكرناهم الكلة ليتولوا غسله صلى الله عليه وسلم فغسلوه حسب السنة، و هو الطاهر المطهر
فى ثيابه من غير أن يجردوه منها، يصبون الماء فوق القميص و يدلكونه بالقميص خشية أن تظهر عورته، و كان على هو الذى يتولى
غسله كما أوصاه عليه الصلاة و السلام بذلك، و لم ير من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يرى من الميت و كان على يقول:

بأبى أنت و أمى يا رسول الله، ما أطيبك حيا و ميتا- جاء فى الموطأ أنه صلى الله عليه وسلم لما كان عند غسله أرادوا نزع قميصه،
فسمعوا صوتا يقول: لا تنزعوا القميص، فلم ينزع القميص- و غسل و هو عليه، صلى الله عليه وسلم. ٥١. و بعد أن غسلوه و جففوه
أدرجوه فى أكفانه فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص و لا عمامة، و طيبوه و جمروه بالعود و الند، ثم احتملوه حتى وضعوه على سريره
فى بيته و سجوه. ثم صلى عليه على و العباس و بنو هاشم ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الناس، ثم النساء، ثم الغلمان، يصلون عليه
أفذاذا لا يؤمهم أحد- يدخل المسلمون زمرا فيصلون عليه و يخرجون، و كان الناس يدخلون للصلاة عليه صلى الله عليه وسلم من
باب و يخرجون من باب آخر- فلما صلى عليه نادى عمر: خلوا الجنازة و أهلها، ثم دفنوه فى منتصف ليلة الأربعاء.

و قد اختلفوا فى موضع دفنه أيدفونه بمكة أو بالمدينة أو بالقدس أو عند منبره أو فى البقيع، فقال لهم أبو بكر، رضى الله عنه: سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض.

نقول: و هذا كما لا يخفى كرامة عظيمة له، حتى يتميزوا عن جميع الناس لما لهم من المكانة و المنزلة السامية عند الله عز و جل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩٠

فرفعوا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي توفي عليه وحفروا له القبر تحته ثم دفنوه ليلة الأربعاء. قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل، ليلة الأربعاء. ١٥.

وفي الموطأ، أن عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم قالت: رأيت ثلاثة أقمار سقطن في حجرتي، فقصصت رؤياي على أبي بكر الصديق، قالت: فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفن في بيتها، قال لها أبو بكر: هذا أحد أقمارك وهو خيرها. ١٥.

وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب والفضل بن عباس وقثم بن عباس وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحين وضع شقران رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره وضع معه قطيفته الحمراء الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها ويفترشها فدفنها في القبر وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبدا. ففي صحيح مسلم عن ابن عباس، قال: جعل في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيفة حمراء. وقد جعلوا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، لحدوا ونصبوا فيه اللين - يقال بنى في قبره صلى الله عليه وسلم تسع لبنات (و اللحد هو الشق في جانب القبر) ففي صحيح مسلم أن سعد بن أبي وقاص قال في مرضه الذي هلك فيه: «ألحدوا لي لحدًا وانصبوا عليّ اللبان نصبا كما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم» ١٥.

وروى أن أوس بن خولي الأنصاري، وكان بدريا سأل على بن أبي طالب أن يكون معهم في غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي النزول في قبره، فأذن له بذلك - ثم هالوا التراب على لحده صلى الله عليه وسلم وجعلوا قبره مسطحا - ورش بلال بن رباح قبره بقرية من الماء، بدأ من قبل رأسه الشريف حتى انتهى إلى رجله، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما رش قبر ابنه إبراهيم ووضع عليه الحصى بعد الفراغ من دفنه.

واعلم أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم، قاموا بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن انتهوا من أمر ببيعة أبي بكر، رضي الله عنه، في آخر يوم الثلاثاء وانتظروا حتى يصلى بهم الخليفة صلاة المغرب وصلاة العشاء جماعة من ليلة الأربعاء، ثم يتفرغوا للتجهيز من الغسل والصلاة والدفن - وبالطبع إن ذلك يستغرق بضع ساعات لذلك كان دفنه صلى الله عليه وسلم في منتصف ليلة الأربعاء - ولم يكن حمل ولا موكب في جنازة رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ لأن قبره صلى الله عليه وسلم هو في نفس بيته وفي نفس الموضع الذي مات فيه - غاية الأمر أنهم زحزحوا فراشه صلى الله عليه وسلم الذي قبض فوقه، ثم حفروا له قبره تحت الفراش - مع العلم بأن بيته ملاصق بمسجده صلى الله عليه وسلم فباب بيته مفتوح إلى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩١

المسجد. إننا فصلنا هذه المسألة تفصيلا لتكون واضحة كالشمس لجميع المسلمين في جميع الأقطار ولم نجد من أوضحها توضيحا مثلنا والحمد لله رب العالمين - اللهم صل وسلم وبارك عليه.

ولما انتهوا من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت فاطمة، رضي الله تعالى عنها: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟ وقالت لعلني: يا أبا الحسن دفتهم رسول الله؟ قال: نعم. قالت: كيف طابت قلوبكم أن تحثوا التراب عليه، أليس كان نبي الرحمة؟ قال: نعم، ولكن لا مرد لأمر الله.

جاء في تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك في كتاب الجنائز عند قول الإمام مالك (و صلى الناس عليه أفذاذا لا يؤمهم أحد) ما نصه:

قال ابن كثير: وهو أمر مجمع عليه لا خلاف فيه - قال: واختلف في تعليقه فقيل هو من باب التعبد الذي يعسر تعقل معناه - وقيل ليياشر كل واحد الصلاة عليه منه إليه. وقال السهيلي: إن الله أخبر أنه وملائكته يصلون عليه وأمر كل واحد من المؤمنين أن يصلى عليه، فوجب على كل واحد أن يياشر الصلاة عليه منه إليه - والصلاة عليه بعد موته من هذا القبيل. قال: وأيضا فإن الملائكة لنا في ذلك أئمة. ١٥. وقال الشافعي في (الأم) ذلك لعظم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنافسهم فيمن يتولى الصلاة عليه وصلوا عليه مرة بعد مرة. وروى ابن سعد عن عبد الله بن عمر بن علي بن أبي طالب عن علي أنه قال: لما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم

سلم على السرير لا يقوم عليه أحد هو إمامكم حيا وميتا، فكان يدخل الناس رسلا رسلا، فيصلون عليه صفا صفا ليس لهم إمام و يكبرون- و على قائم بحيال رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله و بركاته- اللهم إنا نشهد أن قد بلغ ما أنزل إليه، و نصح لأمته و جاهد في سبيل الله، حتى أعز الله دينه و تمت كلمته، اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل إليه و ثبتنا بعده و اجمع بيننا و بينه، فيقول الناس آمين، حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان- و ظاهر هذا أن المراد بقوله:

(و صلى الناس عليه)، ذهب إليه جماعة أنه صلى الله عليه و سلم لم يصل عليه الصلاة المعتادة، و إنما كان الناس يأتون فيدعون و يترحمون- قال الباجي: و وجهه أنه صلى الله عليه و سلم أفضل من كل شهيد و الشهيد يغنيه فضله عن الصلاة عليه، فهو صلى الله عليه و سلم أولى. قال: و إنما فارق الشهيد في الغسل لأن الشهيد حذر من غسله إزالة الدم عنه و هو مطلوب بقاؤه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩٢

لطيبه، و لأنه عنوان بشهادته في الآخرة، و ليس على النبي صلى الله عليه و سلم ما يكره إزالته عنه فافترقا.

و قال ابن سعد أيضا: أنبأنا محمد بن عمر، حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي، قال: وجدت هذا في صحيفة بخط أبي فيها: لما كفن النبي صلى الله عليه و سلم و وضع على سريره دخل أبو بكر و عمر فقالا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله و بركاته، و معهما نفر من المهاجرين و الأنصار قدر ما يسع البيت، فسلموا كما سلم أبو بكر و عمر و هما في الصف الأول حيا رسول الله، صلى الله عليه و سلم:

اللهم إنا نشهد أن قد بلغ ما أنزل إليه و نصح لأمته و جاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه و تمت كلماته فأؤمن به وحده لا شريك له- فاجعلنا يا إلهنا ممن يتبع القول الذي أنزل معه و اجمع بيننا و بينه حتى يعرفنا و تعرفه بنا فإنه كان بالمؤمنين رؤوفا رحيفا، لا نبغى بالإيمان بدلا- و لا نشترى به ثمنا أبدا، فيقول الناس:

آمين، آمين. ثم يخرجون و يدخل آخرون، حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان، فلما فرغوا من من الصلاة تكلموا في موضع قبره- و أخرج ابن عبد البر من حديث سالم بن عبيد أنهم قالوا لأبي بكر: هل يصلى على الأنبياء؟ قال:

يجيء قوم فيكبرون و يدعون و يجيء آخرون حتى يفرغ الناس، فقال ناس: يدفن عند المنبر، و قال آخرون: يدفن بالبقيع، فجاء أبو بكر الصديق فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه. فحفر له فيه.

ثم قال شارح الموطأ رحمه الله تعالى بعد بضعة أسطر: و أخرج عن أبي طلحة، قال: اختلفوا في الشق و اللحد للنبي صلى الله عليه و سلم فقال المهاجرون: شقوا كما يحفر أهل مكة، و قالت الأنصار: لحدوا كما نحفر بأرضنا، فلما اختلفوا في ذلك قالوا:

اللهم خر لنبيك، ابعثوا إلى أبي عبيدة و إلى أبي طلحة فأيهما جاء قبل الآخر فليعمل عمله، فجاء أبو طلحة، فقال: و الله إنى لأرجو أن يكون الله قد خار لنبيه إنه كان يرى اللحد فيعجبه.

و أخرج ابن سعد و ابن ماجه عن ابن عباس، قال: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله صلى الله عليه و سلم كان بالمدينة رجلان- كان أبو عبيدة بن الجراح يصرح كحفر أهل مكة، و كان أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري هو الذي يحفر لأهل المدينة و كان يلحد- فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة، و قال للآخر:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩٣

اذهب إلى أبي طلحة، اللهم خر لرسولك، فوجد صاحب أبي طلحة فجاء به فألحد له. انتهى ما ذكرنا من شرح الموطأ.

و الذي يظهر لنا، و الله تعالى أعلم، أن الذين حضروا في جنازته صلى الله عليه و سلم من الصحابة رضی الله تعالى عنهم لم يبلغهم قوله الشريف: (الحدوا و لا تشقوا، فإن اللحد لنا و الشق لغيرنا) رواه الإمام أحمد. فإنه لو بلغهم هذا القول لما اختلفوا هل يلحدوا له صلى الله عليه و سلم أم لا. فالحمد لله الذي اختار له أفضل الأمرين و هو اللحد- ثم إن عائشة رضی الله تعالى عنها، بعد ما مات عمر بن الخطاب رضی الله تعالى عنه و دفن عند صاحبيه، بنت جدارا بينها و بين القبور الثلاثة- فقد روى ابن زبالة عن عائشة، ما زلت

أضع خمارى و أتفضل فى ثيابى حتى دفن عمر، فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى و بين القبور جدارا. اه. و الخمار بالكسر: غطاء الوجه. و معنى أتفضل فى ثيابى أى أقتصر فى لباسى. فكان بيت عائشة رضى الله تعالى عنها، قسمن، قسم كانت فيه القبور الشريفه، و قسم كانت فيه عائشة رضى الله تعالى عنها، و بينهما الحائط.

حكمة دفنه صلى الله عليه و سلم فى اللحد

اعلم أن الدفن فى اللحد أفضل من الشق. و اللحد هو ما يحفر فى أسفل جانب القبر- أى يحفر القبر أولا بقدر قامه و بسطه، ثم يحفر فى جانب أسفل القبر طولاً- من جهة القبلة بقدر ما يسع الميت و يستره فيوضع الميت فى هذا الجانب المحفور على جنبه الأيمن، مستقبل القبلة و يسند ظهره بشىء من تراب أو لبنه، ثم يسد الجانب المحفور بلبن أو حجارة حتى لا يظهر من الميت شىء، ثم يهال التراب على القبر حتى تملأ القامة و البسطه. و أما الشق فهو عبارة عن حفر القبر بقدر قامه و بسطه ثم يوضع الميت فى هذا الشق على جانبه الأيمن أيضا ثم يسقف القبر.

فدفن الأموات فى اللحد أفضل إن صلبت الأرض و اشتدت، أما إذا كانت رخوة غير متماسكة فالدفن فى الشق أفضل من اللحد- فلو عمل اللحد فى أرض رخوة و دفن الميت فيه تنهار الأرض و تسقط عليه، فأهل المدينة و بعض الجهات يدفنون فى اللحد لأن أرضهم قوية متماسكة- و أهل مكة و بعض الجهات يدفنون فى الشق لرخاوة أرضهم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩٤

و الحكمة فى دفن رسول الله صلى الله عليه و سلم فى اللحد دون الشق و الله تعالى أعلم هى:

صون جتته و حفظ حرمة صلى الله عليه و سلم من أن يعلو عليه أحد حين الدفن لإهالة التراب عليه؛ لأنه عليه الصلاة و السلام، مدفون مندرج فى جانب القبر- إهاله التراب تكون فى نفس حفرة القبر المشقوق، فلا يقف من يهيل التراب فوق جتته الشريفه، صلى الله عليه و سلم. أما إذا دفن الميت فى الشق بوسط القبر فإن الحفار يضطر أن يقف على سقف القبر ليهيل التراب فيكون وقوفه على جتته الميت- فالله عز و جل اختار لنبيه صلى الله عليه و سلم أشرف كيفية الدفن و خير حالاته.

إن (محمدا) صلى الله عليه و سلم، هو رسول الله و خاتم النبيين و خير الخلائق، أجمعين، فله حرمة عظيمة و مكانة كريمة و الصحابة رضى الله تعالى عنهم، كانوا معه صلى الله عليه و سلم على آداب عالية جدا حتى إنهم ما كانوا يرفعون أصواتهم عنده و لا يجهرون له كجهر بعضهم لبعض، بل ما كانوا يرفعون أصواتهم عند منبره بعد مماته صلى الله عليه و سلم فكيف يقدر أحدهم أن يعلو قبره الشريف حين الدفن؟ إنه فى حياته صلى الله عليه و سلم لم يعل أحد فوق بيته- و هذا أبو أيوب الأنصارى، رضى الله تعالى عنه، لما هاجر صلى الله عليه و سلم من مكة إلى المدينة و نزل فى داره فى الدور الأسفل ليكون أريح لزائريه- لم يرض أبو أيوب بذلك إكراما و تأدبا له و قال له: يا نبي الله، بأبى أنت و أمى، إنى أكره و أعظم أن أكون فوقك و تكون تحتى. فإظهار أنت فكن فى العلو و ننزل نحن و نكون فى السفلى- فقال عليه الصلاة و السلام: يا أبا أيوب، إن الأرقق بنا و بمن يغشانا أن نكون فى سفلى البيت، فما زال أبو أيوب الأنصارى، رضى الله تعالى عنه، يستعطف رسول الله صلى الله عليه و سلم و يقول له: لا أعلو سقيفة و أنت تحتها، حتى صعد رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى العلو و تحول أبو أيوب فى السفلى.

إذا علمت ما تقدم، ظهر لك حكمة دفن رسول الله صلى الله عليه و سلم فى اللحد- و الله سبحانه و تعالى، أعلم بسر ذلك و حكمته، فإنه جل جلاله يختار لأنبيائه و رسله فى حياتهم و فى مماتهم أفضل الحالات و أشرفها- إنهم من عباده المكرمين، صلوات الله و سلامه عليهم و على آلهم و أصحابهم أجمعين- سبحانه ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

جاء فى الأنوار المحمدية ما نصه- ذكر الواحدى بسند وصله بعبد الله بن مسعود: نعى لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم نفسه قبل

موته بشهر، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت عائشة، فقال: حياكم الله بالسلام رحمكم الله، جبركم الله، رزقكم الله،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩٥

نصركم الله، رفعكم الله، آواكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأستخلفه عليكم وأحذركم الله، إني لكم منه نذير مبين، أن لا تلوا على الله في بلاده وعباده فإنه قال لي و لكم: تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فسادًا وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ وقال: أليس في جهنم مثوى للمتكبرين. قلنا: يا رسول الله، متى أجلك؟ قال: دنا الفراق والمنقلب إلى الله وإلى جنه المأوى- قلنا: يا رسول الله! من يغسلك؟ قال: رجال من أهل بيتي فالأدنى. قلنا: يا رسول الله فيم نكفك؟ قال: في ثيابي هذه، وإن شئتم في ثياب بياض مصر أو حلة يمنية. قلنا: يا رسول الله، من يصلى عليك؟ قال: إذا أتمت غسلتموني و كفتتموني فضعوني على سريري هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلى عليّ جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت و معه جنود من الملائكة، ثم ادخلوا عليّ فوجا فوجا، فصلوا علي و سلموا تسليمًا، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي ثم نساؤهم، ثم أنتم، و اقروا السلام علي من غاب من أصحابي و من تبعني علي ديني من يومى هذا إلى يوم القيامة. قلنا: يا رسول الله، و من يدخلك قبرك؟ قال: أهلى مع ملائكة ربي و كذا رواه الطبراني. ١٥.

منه.

و جاء فيه أيضًا: و روى ابن ماجه بسند جيد عن علي يرفعه إلى النبي صلى الله عليه و سلم إذا أنا مت فاغسلوني بسبع قرب من بثرى بئر غرس. و غسل صلى الله عليه و سلم ثلاثة غسلات:

الأولى بالماء القراح، و الثانية بالماء و السدر، و الثالثة بالماء و الكافور. و غسله علي و العباس و ابنه الفضل يعينانه و قثم و أسامه و شقران مولاه صلى الله عليه و سلم يصبون الماء و أعينهم معصوبه من وراء الستر. لحديث علي: «لا يغسلنى إلا أنت، فإنه لا يرى أحد عورتى إلا طمست عيناه». رواه البزار و البيهقى.

و أخرج البيهقى عن الشعبي، قال: «غسل علي النبي صلى الله عليه و سلم فكان يقول و هو يغسله صلى الله عليه و سلم بأبي أنت و أمى، طبت حيا و ميتا». و أخرج أبو داود و صححه الحاكم عن علي، رضى الله عنه، قال: «غسلته صلى الله عليه و سلم فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أر شيئا و كان طيبا حيا و ميتا». و فى رواية ابن سعد: «و سطعت ريح طيبة لم يجدوا مثلها قط». قيل و جعل علي يده خرقة و أدخلها تحت القميص، ثم اعتصروا قميصه و حنطوا مساجده و مفاصله و وضئوا منه ذراعيه و وجهه و كفيه و قدميه، و جمروه عودا و ندا. ثم قال صاحب الأنوار المحمدية، رحمه الله تعالى:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩٦

و قد اختلف فيمن أدخله قبره صلى الله عليه و سلم و أصح ما روى أنه نزل فى قبره صلى الله عليه و سلم علي و عمه العباس و ابنه الفضل و قثم، و كان قثم آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه و سلم ثم قال صاحب الكتاب المذكور أيضا- قال رزين: ورش قبره الشريف صلى الله عليه و سلم رشه بلال بن رباح بقربة بدأ من قبل رأسه. حكاه ابن عساکر- و جعل علي من حصباء حمراء و بياض و رفع قبره عن الأرض قدر شبر. ثم قال صاحب الكتاب أيضا- و روى أبو داود و الحاكم من طريق القاسم بن محمد أبى بكر، قال: دخلت علي عائشة فقلت: يا أمه، اكشفي لى عن قبر النبي صلى الله عليه و سلم فكشفت لى عن ثلاثة قبور لا مشرفة و لا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء. زاد الحاكم: فرأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم مقدا و أبو بكر رأسه بين كتفى النبي صلى الله عليه و سلم و عمر رأسه عند رجلى النبي صلى الله عليه و سلم.

و هذا كان فى خلافة معاوية، فكانها كانت فى الأول مسطحة ثم لما بنى جدار القبور فى إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك صيروها مرتفعة ١٥. من الكتاب المذكور.

و اعلم بأنه يسن بعد دفن الميت رش قبره بالماء الطاهر البارد أخذًا من فعله صلى الله عليه و سلم فإنه لما مات بالمدينة فى السنة

الأولى من الهجرة عثمان بن مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه و سلم من الرضاع أمر بعد دفنه أن يرش قبره بالماء، و كذلك لما مات ابنه إبراهيم في السنة العاشرة أمر بعد دفنه برش قبره بالماء. و هذا بلال، رضى الله تعالى عنه، رش قبر رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد دفنه. و الله تعالى أعلم بحكمته ذلك.

[بعض ما قاله الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى رثائه صلى الله عليه و سلم]

روى أن فاطمة رضى الله تعالى عنها بعد أن انتهوا من دفن رسول الله صلى الله عليه و سلم أخذت تربة من تراب قبر أبيها صلى الله عليه و سلم فشمته ثم أنشأت تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا

و قالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هى عمته:

ألا يا رسول الله إن كنت رجاءناو كنت بنا برا و لم تك جافيا

و كنت رحيمًا هاديا و معلمًا ليك عليك اليوم من كان باكيا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩٧

إلى أن قالت:

عليك من الله السلام تحية و أدخلت جنات من العدن راضيا

و مما قالت فى رثائه صلى الله عليه و سلم أيضا:

إن يوما أتى عليك ليوم كورت شمسه و كان مضيئا

لفقد رسول الله إذ حان يومه فى عين جودى بالدموع السواجم

ورثته أيضا عاتكة بنت عبد المطلب و أختها أروى بنت عبد المطلب. و رثاه أيضا أبو بكر و عمر و أبو سفيان و غيرهم من الصحابة،

رضى الله تعالى عن الجميع. و رثاه أيضا حسان بن ثابت، رضى الله تعالى عنه، بقصائد كثيرة تقتطف منها ما يأتى:

بطيبة رسم للرسول و معهد منير و قد تعفو الرسوم و تمهد

و لا تمنحى الآيات من دار حرمة بها منبر الهادى الذى كان يصعد

و أوضح آيات و باقى معالم و ربع له فيها مصلى و مسجد

بها حجرات كان ينزل وسطها من الله نور يستضاء و يوقد

ثم قال:

فبوركت يا قبر الرسول و بوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد

و بوركت لحد منك ضمن طيباعليه مدى الدنيا صفيح منضد

تهيل عليه التراب أيد و أعين عليه و قد غارت بذلك أسعد

و راحوا بحزن ليس فيهم نبيهم و قد وهنت منهم ظهور و أعضد

فيكون من تبكى السماء لموته و من قد بكته الأرض فالناس أكمد

و هل عدلت يوما رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد

إلى أن قال:

و ما فقد الماضون مثل محمد و لا مثله حتى القيامة يفقد

و ليس هواى نازعا عن ثنائه لعلى به فى جنه الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جوارهو فى نيل ذاك اليوم أسعى و أجهد
وقال عامر بن الطفيل:

بكت الأرض و السماء على النور الذى كان للعباد سراجا
من هدينا به إلى سبيل الحق و كنا لا نعرف المنهاجا
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩٨

رثاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم

جاء فى مجلة الاعتصام التى تصدر بمصر، بتاريخ ربيع الثانى سنه ١٣٧١ هجرية ما يأتى:

روى أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، سمع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى و يقول: بأبى أنت و أمى يا رسول
الله، لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم، فلما حن الجذع لفراقك جعلت يدك عليه فسكن،
فأمتك كانت بالحنين إليك لما فارقتهم أولى.

بأبى أنت و أمى، يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن جعل طاعتك طاعته فقال عز و جل: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ.
بأبى أنت و أمى يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب، فقال تعالى: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ
لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ.

بأبى أنت و أمى يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء و ذكرك فى أولهم، فقال عز و جل: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ
النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ.

بأبى أنت و أمى يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك و هم بين أطباقها يعذبون و
يقولون: يا ليتنا أطعنا الله و أطعنا الرسولا.

بأبى أنت و أمى يا رسول الله! لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا فتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها
الماء صلى الله عليك.

بأبى أنت و أمى يا رسول الله! لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر و رواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين
سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك.

بأبى أنت و أمى يا رسول الله! لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى، فماذا بأعجب من الشاء المسمومة حين كلمتك و هى
مشوية، فقالت لك الذراع: لا تأكلنى فإنى مسمومة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ١٩٩

بأبى أنت و أمى يا رسول الله! لقد دعا نوح على قومه فقال: رب لا- تذر على الأرض من الكافرين ديارا. و لو دعوت علينا بمثلها
لهلكنا كلنا، فقد وطئ ظهرك و أدمى وجهك و كسرت ربايعتك فأبيت أن تقول إلا- خيرا فقلت: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا
يعلمون».

بأبى أنت و أمى يا رسول الله! لقد اتبعك فى قلة سنك و قصر عمرك ما لم يتبع نوحا فى كثرة سنه و طول عمره، و لقد آمن بك
الكثير و ما آمن معه إلا القليل.

بأبى أنت و أمى يا رسول الله! لو لم تجالس إلا كفؤا لك ما جالستنا، و لو لم تنكح إلا كفؤا لك ما نكحت إلينا، و لو لم تؤاكل إلا
كفؤا لك ما واكلناك.

فلقد والله جالستنا و نكحت إيلنا و واكلتنا و لبست الصوف و ركبت الحمار و أردفت خلفك و وضعت طعامك على الأرض و لعقت أصابعك تواضعا منك، صلى الله عليه و سلم. انتهى من المجلة المذكورة.

حزن الصحابة رضى الله تعالى عنهم و بكأؤهم من غير صوت و لا نواح على رسول الله صلى الله عليه و سلم حين موته

لا يخفى أن الموت هو من أعظم مصائب الدنيا و على قدر منزلة الميت عند أهله و أصحابه يكون حزنهم على موته و فراقه- فحزن الصحابة رضى الله تعالى عنهم، على موت رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هم الذين شاهدوا نور نبوته و نشأوا تحت تربيته- هو أعظم حزن مرّ على البشرية عامة و على الأمة الإسلامية خاصة، و كيف لا يكون كذلك و هم الذين عاصروه و عاشروه و شاهدوا نزول الوحي عليه و مشوا فى ركابه.

و الحزن أنواع مختلفة فقد يكون بالصمت و قد يكون بالذهول و قد يكون بالهذيان و قد يكون بالبكاء الصامت و نزول الدموع و قد يكون بالبكاء و النياحة و لطم الخدود و شق الجيوب، و قد أصاب الصحابة رضى الله تعالى عنهم، عندما سمعوا بموت رسول الله صلى الله عليه و سلم جميع أنواع الحزن ما عدا النوع الأخير من النياحة و لطم الخدود و شق الجيوب، فإنه من عادة أهل الجاهلية و هو حرام بالإجماع على كل ميت فضلا عن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة و التسليم، الذى جاءنا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠٠

بالنور المبين. أما البكاء و نزول الدموع فهو أمر قهرى على الإنسان لا يؤاخذ به؛ لأنه من رقة القلب فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم دخل على ابنه إبراهيم و هو يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه و سلم تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: و أنت يا رسول الله. فقال: يا ابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى، فقال: إن العين تدمع، و القلب يحزن، و لا نقول إلا ما يرضى ربنا، و إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون- كما جاء ذلك فى البخارى و مسلم.

فالصحابة رضى الله تعالى عنهم حين سمعوا بموت رسول الله صلى الله عليه و سلم اعترتهم حالات شديدة من الحزن العميق- لقد دهشوا و طاشت عقولهم و بكت عيونهم و قلوبهم و هم صامتون حيارى، نساء و رجالا، أينما كانوا، فى منازلهم أو فى أسواقهم أو فى أشغالهم، و لولا عصمة الإسلام و سماحته و حسن تعاليمه لظهرت منهم أفعال عجيبه من شدة التأثر و عظيم الحزن. و لنذكر هنا ما أصاب بعضهم مما روته الأخبار على سبيل المثال لا الحصر، فنقول، و لا حول و لا قوة إلا بالله العظيم:

١- ففاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم قالت عند موته رضى الله تعالى عنها: يا أبتاه أجب ربا دعاه- يا أبتاه، من جنه الفردوس مأواه- يا أبتاه: إلى جبريل نعاه- فلما دفنوه صلى الله عليه و سلم، أخذت تربة من تراب قبر أبيها، رسول الله صلى الله عليه و سلم فشمته ثم أنشأت تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا

ثم قالت لأنس: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه و سلم التراب؟ و قالت: رضى الله تعالى عنها، لعلى: يا أبا الحسن دفتتم رسول الله؟

قال: نعم. قالت: كيف طابت قلوبكم أن تحثوا التراب عليه، أليس كان نبى الرحمة؟ قال: نعم، و لكن لا مردّ لأمر الله. هكذا قالت سيده نساء العالمين، رضى الله تعالى عنها فى والدها الكريم عليه أفضل الصلاة و التسليم، الذى لم يأت على وجه الدنيا أفضل منه- إنها كانت تبكى صامتة تجتر حزنها، و لا تقول كلمة تغضب الله عز و جل- و لقد عاشت رضى الله تعالى عنها، بعد أبيها رسول الله صلى الله عليه و سلم ستة أشهر ما ضحكت فى تلك المدة أبدا و حق لها ذلك، فأبوها رسول الله صلى الله عليه و سلم رسول رب العالمين و خاتم النبيين صلى الله عليه و سلم و على آله و صحبه أجمعين:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠١ من مثله و إله الخلق فضله والإنس و الجن ترجو شفاعته فأعظم الله أجرها في أبيها المصطفى المختار صلى الله عليه و سلم و على آله و أصحابه الأخيار.

٢- و عائشة زوج النبي صلى الله عليه و سلم الذى مات فى بيتها بين سحرها و نحرها و كان عمرها وقتئذ ثمان عشرة- فقد جاء فى تاريخ الخميس نقلا- عن الاكتفاء، قالت رضى الله تعالى عنها: توفى رسول الله بين سحرى و نحرى و فى دولتى لم أظلم فيه أحدا، فمن سفاهة رأبى و حدائثه سنى، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قبض و هو فى حجرى ثم وضعت رأسه على و سادة و قمت ألتدم مع النساء، و أضرب وجهى. و لم توفى جاء التعزية يسمعون الصوت و الحس و لا يرون الشخص: السلام عليكم يا أهل البيت، و رحمة الله و بركاته، كل نفس ذائقة الموت و إنما توفون أجوركم يوم القيامة- إن فى الله عزاء من كل مصيبة، و خلفا من كل هالك، و دركا من كل فائت، فبالله فتقوا و إياه فارجو، فإنما المصاب من حرم الثواب و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته. فقال على: أتدرون من هذا، هو الخضر عليه السلام (كذا فى المشكاة نقلا عن دلائل النبوة) ٥. من التاريخ المذكور.

و معنى ألتدم: أضرب صدرى- و ليس ضرب عائشة، رضى الله تعالى عنها، صدرها و وجهه كضرب عامة الناس و إنما هو ضرب بالتخفيف مرتين أو ثلاثا عن غفلة و دهشة ثم رجعت لصوابها- كما اعتذرت عن ذلك بقولها: فمن سفاهة رأبى و حدائثه سنى- و هذا إن صح و ثبت عنها و الله تعالى أعلم بما أصاب أزواجه صلى الله عليه و سلم فجميعهن بيوتهن متلاصقات فى بقعه صغيرة من مسجده صلى الله عليه و سلم يعرفن كل ما يقع و كيف صارت حالتهن و هن ألتصق الناس برسول الله صلى الله عليه و سلم.

٣- و أبو بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، فإنه لما جاءه الخبر، دخل على رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو مسجى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه عليه الصلاة و السلام و جثا يقبله و يبكى. و قد ثبته الله تعالى، فكان من الراسخين، ثم خرج إلى المسجد يسكن الناس حيث كانوا يبيكون، ثم خطب فيهم كما سيأتى فى مسألة عمر- فلم يكن أثبت و أحزم من أبى بكر و العباس كما سيأتى عنه.

٤- و عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فإنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه و سلم خبل فجعل يصيح و يتوعد المنافقين- قال سالم بن عبيد الله الأشجعي: لما مات رسول الله صلى الله عليه و سلم، كان أجزع الناس عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه- فأخذ بقائم سيفه و قال: لا أسمع أحدا يقول: مات رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا ضربته

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠٢

بسيفى هذا. و قال أنس: لما توفى النبي صلى الله عليه و سلم، بكى الناس، فقام عمر بن الخطاب فى المسجد خطيبا فقال: لا أسمعن أحدا يقول إن محمدا قد مات، و لكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عمران فلبث عن قومه أربعين ليلة- و الله لأرجو أن يقطع أيدي رجال و أرجلهم يزعمون أنه قد مات- قال عكرمة: ما زال عمر يتكلم و يوعد المنافقين حتى أزيد شدقه- فقال العباس: إن رسول الله يأسن كما يأسن الناس، و إنه قد مات فادفونوا صاحبكم. و معنى يأسن كما يأسن الناس أن يحصل لرسول الله صلى الله عليه و سلم تغير من العلل و الأمراض و الموت كما يحصل لجميع الناس؛ لأنه بشر.

قال الزهرى: و حدثنى أبو سلمة عن عبد الله بن عباس أن أبى بكر خرج و عمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس. فأقبل الناس إليه و تركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، و من كان منكم يعبد الله فإن الله حتى لا يموت.

قال الله تعالى: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى قَوْلِهِ:

الشَّاكِرِينَ. و قال: و الله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها فأخبرنى سعيد بن المسيب أن عمر قال: و الله ما هو إلا أن سمعت أبى بكر تلاها فعقرت، حتى ما تقلنى رجلاى و حتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها أن النبي صلى الله عليه و سلم، قد مات. ٥. انتهى من صحيح البخارى.

٥- و عثمان بن عفان، رضى الله تعالى عنه، فقد أحرص حتى يذهب به و يجاء، و ما تكلم إلا بعد الغد.

٦- و علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه أقعد فلم يستطع حراكا.

٧- وأضنى عبد الله بن أنيس، رضى الله تعالى عنه، فمات كمدا.

٨- و أما العباس، رضى الله تعالى عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان هو و أبو بكر أثبت الناس و أحزمهم- و قد تقدم أن العباس قال حين سمع كلام عمر و هو يتوعد المنافقين: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأسن كما يأسن الناس و إنه قد مات فادفونوا صاحبكم- فمثل هذا الكلام لا يصدر إلا من الراسخين و قليل ما هم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠٣

و انظر إلى قول العباس لعلى بن أبي طالب رضى الله تعالى عنهما، كما فى صحيح البخارى: إني و الله لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف يتوفى من وجعه هذا- إني لأعرف وجه بنى عبد المطلب عند الموت ... الخ- و قد تقدم كلامه بالتفصيل قريبا- فانظر إلى فراسته العظيمة و صدق حدسه، رضى الله تعالى عنه.

٩- جاء فى كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة- عند ترجمه أم أيمن، رضى الله تعالى عنها أمه رسول الله صلى الله عليه وسلم و حاضنته- عن أنس قال: لما كان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر لعمر: انطلق بنا نزر أم أيمن كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها. فلما دخلا عليها بكت، فقالا: ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله قالت: أبكى أن وحى السماء انقطع، فهيجتهما على البكاء فجعلت تبكى و يبكيان معها. و أخرجه مسلم و أحمد و أبو يعلى من هذا الوجه و فيه: و لكنى أبكى على الوحي الذى رفع عنا. و أخرج ابن سعد بسند صحيح عن طارق بن شهاب، قال: لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم، بكت أم أيمن، فقيل لها، فقالت: اليوم و هن الإسلام. و عن أنس أيضا أن أم أيمن بكت حين مات النبي صلى الله عليه وسلم فقيل لها، فقالت:

إني و الله لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يموت، و لكن إنما أبكى على الوحي إذ انقطع عنا من السماء. هـ. باختصار.

١٠- جاء فى تاريخ الخميس فى ترجمه بلال بن رباح، رضى الله تعالى عنه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم و كان من السابقين الأولين و ممن شهد صلى الله عليه وسلم له بالجنة، أنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن بلال و رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبر. فكان إذا قال: أشهد أن محمدا رسول الله انتحب الناس فى المسجد. فلما دفن صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر لبلال: أذن، قال: إن كنت إنما أعتقتنى لأن أكون معك فسيبلى ذلك، و إن كنت إنما أعتقتنى لله فخلنى و من أعتقنى له. قال أبو بكر: ما أعتقتك إلا لله. قال بلال:

فإني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فذاك إليك. فخرج بلال إلى الشام و مات بها، رضى الله تعالى عنه.

مكث بلال، رضى الله تعالى عنه بالشام زمانا، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام يقول له: يا بلال جفوتنا، و خرجت من جوارنا فاقصد إلى زيارتنا. فانتبه بلال، و قصد المدينة و ذلك بقرى من موت فاطمة، رضى الله تعالى عنها، فلما انتهى إلى المدينة تلقاه الناس، فأخبر بموت فاطمة، فصاح و قال: بضعة النبي ما أسرع ما لحقت بالنبي، صلى الله عليه وسلم. ثم قال له الناس: اصعد فأذن. فقال: لا أفعل بعد ما أذنت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠٤

لمحمد صلى الله عليه وسلم فألحوا عليه فصعد، فاجتمع أهل المدينة رجالهم و نساؤهم و صغارهم و كبارهم، و قالوا: هذا بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يؤذن لنسمع إلى أذانه، فلما قال: الله أكبر الله أكبر صاحوا و بكوا جميعا، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ضجوا جميعا، فلما قال: أشهد أن محمدا رسول الله، لم يبق فى المدينة ذو روح إلا بكى و صاح. و خرجت العذارى و الأبقار من خدورهن يبكين و صار كيوم موت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ الناس من أذانه، فقال: أبشركم أنه لا تمس النار عينا بكت على النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ثم انصرف إلى الشام و كان يرجع فى كل سنة مرة، فينادى بالأذان إلى أن مات رضى الله تعالى عنه. هـ. منه.

١١- و جاء في صحيح البخارى فى أواخر كتاب الجهاد فى باب جوائز الوفد، عن ابن عباس رضى الله عنهما، أنه قال: يوم الخميس و ما يوم الخميس، ثم بكى حتى خضب دمه الحصباء. فقال: اشتد برسول الله صلى الله عليه و سلم، وجعه يوم الخميس، فقال: اتتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا ... الحديث و جاء مثله فى صحيح مسلم عنه أيضا و لفظه: قال ابن عباس: يوم الخميس و ما يوم الخميس، ثم بكى حتى بل دمه الحصى فقلت: يا ابن عباس و ما يوم الخميس، قال: اشتد برسول الله صلى الله عليه و سلم وجعه فقال: اتتوني ... الحديث. جاء فى رواية الدارمى عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: ما رأيت يوما كان أحسن و لا أضوأ من يوم دخل فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة، و ما رأيت يوما كان أقبح و لا أظلم من يوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم. ١٥.

هذا و لقد بكى كبار الصحابة بل و جميعهم، رضى الله تعالى عنهم، فى كل وقت يتذكرون فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم و ما كان له معهم من شأن- إنهم لا ينسونه و لا تذهب صورته الشريفة و هيئته اللطيفة من ذاكرتهم و مخيلتهم مدة حياتهم. روى أن عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، لما تحقق موته صلى الله عليه و سلم قال: و هو يبكى: بأبى أنت و أمى يا رسول الله، لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه، فلما كثروا، اتخذت منبرا لتسمعهم، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم. ١٥.

إن الإنسان إذا تذكر من مات من أقاربه كأمه و أبيه و ابنه و أخيه، يبكى بكاء مرا و لا يساهم أبدا، فكيف هؤلاء الصحابة الكرام الذين كانوا يفدون رسول الله صلى الله عليه و سلم بأموالهم و أنفسهم و أولادهم، ينسون هذا النبى الكريم الذى كان بينهم التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠٥

كقطعته من نور يعاشرهم و يؤانسهم و ينظر فى شؤونهم الدينية و الدنيوية، و الذى أخرجهم من ظلمات الجهل و الشرك إلى نور العلم و الإيمان، و كان لهم بمنزلة الوالد يعلمهم الدين و الأخلاق و الآداب الاجتماعية. إن هؤلاء الصحابة الكرام ليحق لهم أن يسكبوا دموعهم مدرارا عليه، فلقد كانوا يشاهدون فيه نور النبوة، و حكمه الرسالة، و عين الاستقامة، و نموذج العبادة، و العدالة، و مثال الطهر و الحياء، و الكرم، و العفاف، و الشجاعة و الرحمة، مع ما كان ينزل من بركات السماء، و نزول الوحي و الملائكة.

إن هؤلاء الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لو لم يعلموا أن النياح على الميت و ضرب الخدود و شق الجيوب حرام لفعلوا كل ذلك و أشد من ذلك يوم موت رسول الله صلى الله عليه و سلم، حتى يصل ضجيجهم إلى السماء أياما عديدة، بل لقتل بعضهم أنفسهم من عظيم الأسى و شدة الحزن. إن حب رسول الله صلى الله عليه و سلم متأصل فى قلوب جميع المؤمنين، من الصحابة و التابعين و من بعدهم إلى يوم الدين، فلا يذكره أحد من المسلمين إلا بالتعظيم و بالصلاة و التسليم، و ما قرأ أحد خبر موته صلى الله عليه و سلم إلا حزن و بكى و رجف قلبه، و ما ذاك إلا لتغلغل حبه فى شغاف قلوبهم و هذا من الإيمان الصحيح و الحمد لله.

و هذا الناس فى زمان أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك رحمه الله تعالى، لما جاء أمره بهدم حجرات أمهات المؤمنين أزواج رسول الله صلى الله عليه و سلم لتوسعة المسجد النبوى، بكوا بكاء عظيما فى ذلك اليوم. قال عطاء الخراسانى: حضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ يأمرنا بهدم حجرات أزواج النبى صلى الله عليه و سلم فما رأيت يوما كان باكيا من ذلك اليوم. ١٥.

فانظر رحمتنا الله و إياك كيف كان حب الناس لرسول الله صلى الله عليه و سلم و لجميع آله و أزواجه و أصحابه الكرام، رضى الله تعالى عنهم أجمعين. إن حبه صلى الله عليه و سلم متغلغل فى قلوب المؤمنين كتغلغل الإيمان و اليقين. إنه فى الدارين هو السراج الوهاج صاحب الإسراء و المعراج، فلئن ذهب إلى الرفيق الأعلى و سعد بقاء ربه، عز و جل، فقد تركنا على دين قويم عظيم، و على شريعة بيضاء غراء يضىء نورها وجه الأرض، و يسرى ضوءها إلى عنان السماء، لا يخبو هذا النور المبين إلى قيام الساعة. اللهم صل

على سيدنا محمد و على آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم و على

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠٦

آل سيدنا إبراهيم، و بارك على سيدنا محمد و على آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم و على آل سيدنا إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد.

ما يؤخذ من مرضه و وفاته صلى الله عليه و سلم من الأمور

اعلم، رحمننا الله تعالى و إياك، و ختم حياتنا بالإيمان الكامل و الأعمال الصالحة، و أماتنا على شهادة و طهارة و نظافة براحة تامة بدون مرض و لا تعب، و تلقانا بلطفه و رحمته الواسعة و عفوه و غفرانه عند الحساب، و أدخلنا الجنة بسلام آمنين مع الذين أنعم الله عليهم مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا، آمين.

إنه يؤخذ من مرض رسول الله صلى الله عليه و سلم و وفاته عدة أمور مهمة نذكر منها ما ظهر لنا منها:

١- أنه صلى الله عليه و سلم حينما بدأ به المرض كان يوعك كما يوعك رجلان منا، فالبلاء يتضاعف على الأنبياء عليهم الصلاة و السلام كما يتضاعف لهم الأجر و الثواب.

٢- أنه صلى الله عليه و سلم عند اقتراب أجله اشتد به المرض و الوجع حتى لا تكاد تقرير أحد عليه من شدة الحمى.

٣- أنه صلى الله عليه و سلم كان يعلم أنه يموت فى مرضه هذا كما أخبر به ابنته فاطمة رضى الله تعالى عنها.

٤- أنه صلى الله عليه و سلم استاك عند موته و كان بين يديه إناء فيه ماء فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه و يقوم: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات. ثم قال عند القبض: فى الرفيق الأعلى.

٥- لم يترك صلى الله عليه و سلم صلاته بالناس أبدا حتى فى مرض موته، فلما اشتد به المرض و لا يقدر على المشى و الوقوف أمر عليه الصلاة و السلام أبا بكر أن يصلى بالناس ثم توفى بعد ذلك بيوم أو يومين.

٦- لقد أوصى رسول الله صلى الله عليه و سلم فى مرض موته بالنساء و الأرقاء و المحافظة على الصلوات، و بإخراج المشركين من جزيرة العرب، و قال: «لعنة الله على اليهود و النصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠٧

٧- قبض صلى الله عليه و سلم و هو خاتم النبيين مستندا على صدر عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما، و هى أحب زوجاته إليه. و كان عمرها ثمان عشرة سنة وقتئذ.

٨- قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو بتمام وعيه و كمال عقله- لم يرتبط لسانه- فإنه قال فى آخر لحظته بعد أن استن بالسواك و أشخص ببصره إلى سقف البيت:

اللهم الرفيق الأعلى، ثم قبض فكان هذا آخر كلامه عند موته عليه أفضل الصلاة و السلام- فولادته و حياته و موته صلى الله عليه و سلم كانت على أكمل الحالات و أحسن الصفات مغايرة لعادات الناس- إنه أفضل الخلائق أجمعين.

٩- قبض صلى الله عليه و سلم على فراشه فى بيت عائشة، رضى الله تعالى عنها فى وقت الضحى من يوم الاثنين من السنة الحادية عشرة للهجرة.

١٠- دفن صلى الله عليه و سلم فى موضع فراشه فى بيت عائشة رضى الله تعالى عنها- و بيته ملاصق لمسجده الشريف، و أُلحد له فى قبره، و اللحد أفضل كما تقدم بيانه.

١١- مكث صلى الله عليه و سلم بعد موته مسجى على فراشه فى بيته يوم الاثنين و يوم الثلاثاء ثم دفن فى منتصف ليلة الأربعاء و ذلك لاشتغال الناس بإقامة خليفته و بيعتهم لأبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، و قيل دفن يوم الثلاثاء، و الأول أشهر.

١٢- غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الطاهر المطهر في ثيابه من غير أن يجردوه منها، وكان على بن أبي طالب، رضى الله تعالى عنه، هو الذى تولى غسله بتوصية منه صلى الله عليه وسلم ثم أدرجوه فى أكفانه و طيبوه و جمروه بالعود و الند ثم وضعوه على سريره فى بيته و سجوه.

١٣- صلى الناس فرادى على رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمهم أحد، صلى عليه أولاً أقاربه و كبار الصحابة، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الرجال ثم النساء، ثم الغلمان أفضاذا. و الذى نراه أن هذا الأمر لم يجمع عليه الصحابة إلا بإيعاز من النبى صلى الله عليه وسلم. فربما أنه أمر بذلك سرا بعض كبار الصحابة؛ كأبى بكر و عمه العباس، رضى الله تعالى عن الجميع، فهو صلى الله عليه وسلم إمامهم حيا و ميتا- و فى هذا تمييز له صلى الله عليه وسلم، عن كافة الأموات. و الله تعالى أعلم بحكمة ذلك.

١٤- كان تجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم من غسله و الصلاة عليه و دفنه بعد الثلث الأول من ليلة الأربعاء الثانى عشر ربيع الأول.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠٨

١٥- كان دفنه صلى الله عليه وسلم بالليل ذلك تقدير العزيز العليم- و لم يحمل أحد جنازته صلى الله عليه وسلم؛ لأنه مات فى بيته و غسل عند جدار بيته، و صلى الناس عليه فرادى فى بيته، و دفن فى بيته فى موضع فراشه الذى مات عليه صلى الله عليه وسلم فلم تكن له جنازة يحملها الناس و يسيرون بها إلى المقبرة كان ذلك فى الكتاب مسطوراً إنه صلى الله عليه وسلم بشر لا كالبشر، فأحوال الأنبياء لا تحيط بها عقول البشر.

١٦- لقد وقعت بعض الأمور و الإشارات فى مرض موته صلى الله عليه وسلم كإسراجه لابنته فاطمة رضى الله تعالى عنها، أنه يقبض فى مرضه هذا، و أنها أول أهل بيته يتبعه، فتوفيت بعده بستة أشهر. و كأمره أن يقدموا أبا بكر، رضى الله تعالى عنه ليصلى بالناس إشارة إلى استخلافه بعده، و قد كان ذلك، فقد بايعه الناس كافة بالخلافة- إلى غير ذلك من الأمور التى لو أردنا ذكرها لطلال بنا الكلام- تدل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من جنس البشر و لكن عاداته خلاف عادات البشر. إنه ملحوظ بعناية الله، مشمول برعاية الله، معصوم بعصمة الله، فحركاته و سكناته، و أقواله، و أفعاله بتقدير العزيز العليم و تدبيره، فإذا تدبرت قوله عز و جل فى آخر سورة الطور: **وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ظهر لك المعنى بوضوح تام، فمن كان ملحوظا بعين العناية الربانية، لا تكون أحواله كأحوال عامة الناس.

روى الإمام أحمد عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: كنت أدخل بيتى الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم و إنى واضعة ثوبى و أقول: إنما هو زوجى و أبى- فلما دفن عمر معهما فو الله ما دخلته إلا و أنا مشدودة على ثيابى حياء من عمر. هـ.

فتأمل رحمك الله فى قولها ليظهر لك معان دقيقة تخفى على كثير من المؤمنين.

و كذلك تأمل فيما جاء فى صحيح مسلم فى فضل فاطمة رضى الله تعالى عنها، الذى خلاصته: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاها فى مرض موته فسارها فبكت، ثم سارها فضحكت، فلما سألتها عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: سارنى فأخبرنى بموته فبكيت، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول من يتبعه من أهله فضحكت.

إذا تأملت رحمتنا الله و إياك كل ذلك علمت أن الموت ما هو إلا انتقال من دار الفناء إلى دار البقاء. و علمت أمورا أخرى كلما تعمقت فى التأمل، و لولا خوف الإطالة لبينا ذلك بالتفصيل و العاقل تكفيه الإشارة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠٩

اللهم صل على سيدنا محمد و على آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم و على آل إبراهيم، و بارك على سيدنا محمد و على آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم، و على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم اختم حياتنا بالأعمال الصالحة و توفنا على الإيمان الكامل على طهارة و نظافة و راحة تامة بدون تعب و لا مشقة و ثبتنا بالقول

الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة و عاملنا بما أنت أهله برحمتك و فضلك و إحسانك يا أرحم الراحمين (يا الله) آمين آمين آمين.

حكمة تأخير دفنه صلى الله عليه و سلم

اعلم أن الحكمة في تأخير دفنه صلى الله عليه و سلم، كما يظن لنا و الله أعلم هي، أولاً: النظر في تنصيب خليفه للمسلمين، لأنهم إذا اطمأنوا على جمع كلمتهم هان كل شيء و تيسر، فلما أقاموا أبا بكر، رضى الله تعالى عنه خليفه أقبلوا على تجهيز رسول الله صلى الله عليه و سلم و ثانياً: لما مات رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم الاثنين وقت الضحى العالى، أى قبيل الظهر دهش الناس لهذا الخبر و طاشت عقولهم و اجتمعوا فى مسجده صلى الله عليه و سلم يكون و بيته بلصق مسجده، لقد ذهل الناس و أصاب كبار الصحابة رضى الله تعالى عنهم ما أصاب. و لم يثبت على حاله إلا أبو بكر و العباس فقط، رضى الله تعالى عنهما، أما عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، فقد خبل فجعل يصيح و يتوعد المنافقين الذين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد مات حتى أزيد شدقه- فلما قام أبو بكر يخطب فى الناس و تلا قوله تعالى فى سورة المائدة: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزَى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ، أفاق عمر، رضى الله تعالى عنه، حين سمع هذه الآية لكنه أهوى إلى الأرض ما ثقله رجلاه من شدة حزنه على رسول الله، صلى الله عليه و سلم.

و أما عثمان بن عفان، رضى الله تعالى عنه، فقد أحرص حتى أنه يذهب به و يجاء و لم يتكلم إلا بعد الغد.

و أما على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، فقد أقعد فلم يستطع حراكاً.

هؤلاء هم كبار الصحابة رضى الله تعالى عنهم، أصابهم ما شل حركاتهم فكيف يتمكنون من تجهيز رسول الله صلى الله عليه و سلم من غسله و تكفينه و الصلاة عليه و دفنه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١٠

و هم فى هذه الحالة المحزنة خصوصاً و لا بد من حضور بعضهم فى تجهيزه صلى الله عليه و سلم، فعلى، رضى الله تعالى عنه، كان ممن قام على غسله و نزول قبره صلى الله عليه و سلم كما تقدم تفصيله، فلا بد إذا من التريث و الصبر حتى تنكشف هذه الغمة من الناس و تنقش عنهم سحابة الحزن نوعاً ما و تنزل عليهم السكينة و الطمأنينة و يرجع إليهم صوابهم. إن مصيبة الموت ما بعدها من مصيبة تخرس الألسنة و تشل الحركات خصوصاً موت أشرف الخلق على الإطلاق السراج الوهاج صاحب الإسراء و المعراج رسول رب العالمين و خاتم النبيين محمد صلى الله عليه و على آله و صحبه أجمعين.

إذا علمت ما تقدم فهمت حكمة تأخير دفنه صلى الله عليه و سلم من ضحى يوم الاثنين إلى ليلة الأربعاء، و لا ضير فى ذلك، فهو الطيب المطيب الطاهر حياً و ميتاً لا يطرأ عليه تغيير و لا تبادل- اللهم صل و سلم و بارك عليه- و إذا تأملت فيما سبق علمت عذر الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى دفنه صلى الله عليه و سلم بعد صلاة العشاء من ليلة الأربعاء.

مات صلى الله عليه و سلم بالمدينة المنورة و عمره ثلاث و ستون سنة- و ولد بمكة المكرمة و بعث بها حينما بلغ أربعين سنة- فمكث بعد البعثة بمكة ثلاث عشر سنة- ثم هاجر إلى المدينة المنورة و مكث بها عشرة سنين ثم توفى فى السنة الحادية عشر من الهجرة بعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا- توفى و ليس فى رأسه و لحيته عشرون شعرة بيضاء كما فى صحيح مسلم. صلى الله عليه و سلم و على آله و أزواجه و أصحابه و أتباعه و سلم تسليمًا كثيرًا. و الحمد لله رب العالمين.

نبذة عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه و سلم العظيمة و سيرته العطرة

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ترك لأمتة المرحومة كتزين لا ينفدان ولا يخلقان ولا يهجران هما كتاب الله العزيز وسنته المطهرة. من استمسك بهما فقد هدى إلى صراط مستقيم.

لقد تشرفنا بذكر شيء عن صفاته الكريمة وشمائله الحميدة صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ، ولا نرى بأساً في تكرار ذلك عند كل مناسبة بل يندب ذلك ويسن لما فيه من الذكرى والاعتبار. عسى أن يوفقنا الله تبارك

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١١

و تعالی للاقتداء والاتساء به صلى الله عليه وسلم، في أقواله وأفعاله وأحواله. فقد قال تعالى في سورة الأحزاب: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.

ولا ندري ماذا نكتب عن أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، عن سيرتهم العطرة وأخلاقهم الزكية وهم صفوة الخلق وأفضل البشر. إن الحكومات والدول إذا أرادت تعيين سفراء وإرسالهم إلى الممالك لأجل أن يمثلوا حكوماتهم تختارهم من فضلاء الناس وأرقاهم علما وأدبا وذكاء ونباهة وأجملهم خلقا وأحسنهم خلقا، فإذا كانت هذه العادة هي الجارية بين الملوك والسلطين فكيف لا يكون الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين أرسلهم رب العالمين ذو العزة والجبروت والملوك والملكات إلى الناس كافة من أفضل البشر و صفوة الخلق وعلى أخلاق عظيمة و صفات عالية و شمائل سامية حميدة.

إن جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، هم على أكمل الأحوال وأسمى المراتب وأرفع الصفات في الخلق والخلق والأقوال والأفعال، بل وفي الحسب والنسب والشرف الرفيع، ذلك لأنهم أتوا يدعون الناس إلى عبادة الله تعالى وترك الأصنام والآثام ويرشدونهم إلى الخير والبر ومكارم الأخلاق، فالناس يقتدون بهم في جميع الأحوال فلا بد أن يكونوا، عليهم الصلاة والسلام مبرئين من كل عيب سليمين من كل شائبة. هذا هو المعقول والواقع في أنبياء الله تعالى ورسله الكرام، عليهم الصلاة والسلام، تؤيده الشرائع السماوية وتوازره جميع التواريخ البشرية لا يختلف في ذلك اثنان، إنه لو كان هناك أحد أفضل منهم وأحسن وأكمل منهم وأعقل لكانوا تحت الانتقاد والاعتراض، وحاشا أن يكون رسل الله تعالى، وأنبيأؤه الكرام، عليهم الصلاة والسلام، محلا للانتقاد والاعتراض، إنهم في أشرف المراتب وأعلا المقامات حسا ومعنى. إن الله تبارك وتعالى، قد اصطفاهم من خلقه واختارهم من عباده، فهم خيار من خيار من خيار.

هذا وما دام هذا المبحث خاص بنبينا (محمد) خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين فلنتبرك بذكر شيء من سيرته العطرة ونبذة من أخلاقه الكريمة الممتازة العالية حبا في سنته ورغبة في اتباعه فنقول وبالله التوفيق:

جاء في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، و اصطفى قريشا من كنانة و اصطفى من قريش بنى هاشم و اصطفاني من بنى هاشم».

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١٢

وجاء فيه أيضا أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع» وجاء فيه أيضا: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض مليحا مقصدا» (أى مقصدا ليس بجسيم ولا نحيف ولا طويل ولا قصير). وجاء في الترمذي: «كان أبيض كأنما صيغ من فضة رجل الشعر». وجاء في الصحيحين: «كان أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا ليس بالطويل البائن ولا بالقصير». وفيهما أيضا: «كان أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس».

وفيها أيضا: «كان أشد حياء من العذراء في خدرها». وفي صحيح مسلم:

«كان أزهر اللون كأن عرقه اللؤلؤ إذا مشى تكفأ». وفيه أيضا عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: «ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل». وفيه أيضا عن أنس بن مالك، قال: «ما شممت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح

رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مسست شيئاً قط، ديباجا ولا حريرا ألين مسا من رسول الله صلى الله عليه وسلم» وفيه أيضا عن أنس بن مالك قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها و ليست فيه، قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فأثيت فقيل لها: هذا النبي صلى الله عليه وسلم نام في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدتها فجلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ففرغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: ما تصنعين يا أم سليم؟ فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا. قال: أصبت».

وفي سنن أبي داود «كان كلامه صلى الله عليه وسلم فضلا يفهمه كل من سمعه».

وفي صحيح مسلم عن أنس، قال: «أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم غنما بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أى قوم أسلموا فوالله إن محمدا ليعطى عطاء ما يخاف الفقر. فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها».

وعن أنس أيضا، رضى الله تعالى عنه، قال: «ما مسست ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لى قط أف ولا قال لشيء فعلته لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله إلا فعلت كذا»- رواه الشيخان.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١٣

والحاصل: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنبل الصفات وأكمل الحالات فى جميع الحركات والسكنات. ولو أردنا تعداد شمائله الشريفة لمألنا مئات الصفحات وما وقينا حقه. وكتب الحديث والسير مشحونة بفضائله صلى الله عليه وسلم، وإذا كان الله تبارك وتعالى، قد أثنى عليه وعلى إخوانه النبيين فى كتابه العزيز فما قيمة ما يمدحهم الورى به- اللهم إلا أن يعود على هؤلاء الورى الأجر والثواب. كل على مقدار حبه وبحسب نيته- فالله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ما يمتاز به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن باقى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إن نبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم، يمتاز عن جميع الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام بكثير من الأمور، ولا غرابة فى ذلك، وقد قال الله تبارك وتعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ، ولو استقصينا هذه الأمور لطل بنا الكلام ولم نقدر على حصرها، غير أننا نذكر هنا نبذة صغيرة مما يناسب هذا المبحث وهى كما يأتى:

(الأول) أن الأنبياء السابقين، عليهم الصلاة والسلام، كانت أعمارهم المباركة طويلة مديدة تعد بمئات السنين حتى أن بعضهم تجاوز الألف؛ كنوح عليه الصلاة والسلام، فمن حكمه الله تعالى أن جعل أعمار الأمم السابقة طويلة، ثم ما زالت أعمار الخلق تنقص شيئا فشيئا حتى الآن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك». رواه الترمذى. وهذا هو الواقع فىنا، وكذلك كانت أجساد الأمم الماضية طويلة عريضة ضخمة. قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراع، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحيه ذريتك. قال: فذهب، فقال: السلام عليكم. فقالوا:

السلام عليك ورحمة الله. قال: فزادوه ورحمة الله. قال: فكل من يدخل الجنة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١٤

على صورة آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن». رواه البخارى ومسلم واللفظ له.

فمن الحديثين الشريفين يعلم أن الأمم السابقة وأهل القرون الأولى كانوا ضخام الأجسام طوال الأعمار، فأنبياءهم، عليهم الصلاة والسلام

السلام، مع طول أعمارهم و دعوتهم المستمرة لم يؤمن بهم من قومهم إلا القليل حتى أن بعضهم لم يؤمن به من قومه إلا رجل واحد. ففى الحديث: «ما صدق نبى ما صدقت، إن من الأنبياء من لم يصدقه من أمته إلا رجل واحد».

أما نبينا (محمد) صلى الله عليه وسلم فإنه مع قصر عمره الشريف الذى كان ثلاثا و ستين سنة قد آمن به قومه كلهم إلا من كتب عليه الشقاء و هم قليلون- و لقد دخل الناس أخيرا فى دين الله أفواجا عن حب و رغبة و اعتقاد صادق، و ما زال المسلمون يتزايدون فى كل زمان و مكان حتى قيام الساعة، و لم نقف على عدد من آمن به صلى الله عليه وسلم منذ بعثته إلى حين وفاته، و لكنه حينما حج عليه الصلاة و السلام حجة الوداع خرج معه مائة ألف و أربعة عشر ألفا و قيل أكثر من ذلك.

و الله تعالى أعلم بعدد من تخلف عنه صلى الله عليه وسلم من المسلمين رجالا و نساء فى حجة الوداع التى أعقبها وفاته، عليه الصلاة و السلام، و لا يتخلف أحد عن هذه الحجة إلا من عذر قوى قهرى.

(الثانية) أن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، إذا ماتوا و مات أصحابهم الذين آمنوا بهم انقطعت شريعتهم و هجرت ملتهم و رجع الناس إلى عبادة الأوثان، أما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، و هو خاتم الأنبياء، فإنه لما مات لم تنقطع ملته و شريعته بل قام الناس باتباع معالم دينه على أكمل وجه- فإن أبا بكر، رضى الله تعالى عنه، قام يومئذ على المنبر و خطب فى الناس فكان من جملة ما قال: أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، و من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم قام الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، بالدعوة إلى الله تعالى و جهاد الكفار فى جميع الممالك و الأمصار، حتى انتشر الدين الإسلامى الحنيف فى ربوع الأرض و رسخت راياته فى الخافقين، و لا يزال هذا الدين القويم ثابتا قائما إلى قيام الساعة، و لا تزال طائفة من الأمة المحمدية ظاهرين على الحق قوامين على أمر الله و لا يضرها من خالفها حتى تقوم الساعة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١٥

(الثالثة) لم تبق للأنبياء عليهم الصلاة و السلام كتبهم و صحفهم التى أنزلها الله تعالى عليهم بعد موتهم و إن بقى منها شىء و هو التوراة و الإنجيل، فإن اليهود و النصارى حرفوهما و بدلوا فيهما بحسب أهوائهم كما صرح بذلك القرآن الكريم. أما كتاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنزله الله تعالى عليه و هو القرآن العظيم فإنه باق على صحته و سلامته كما أنزل إلى اليوم بل و إلى قيام الساعة. و إنه لم يحصل عليه شىء من التغيير و التحريف لا فى حرف و لا فى كلمة و لا فى تقديم و لا فى تأخير، فلقد تكفل الله عز و جل بحفظه كما أخبرنا به فى أوائل سورة (الحجر) بقوله: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** فما أعظمها من آية بينة و ما أعظمها من تشريف و حكمة.

(الرابعة) أن جميع الأنبياء، عليهم الصلاة و السلام، لم تحفظ أقوالهم و سننهم و لم تدون أحوالهم و تواريخهم- اللهم إلا النزر القليل الذى لا يغنى الباحث المحب و لا ينفع غلة الغليل- و غالب ما جاء فيهم إنما هو من أخبار خاتم النبيين عليه و عليهم الصلاة و السلام أجمعين- أما أقوال نبينا الكريم "محمد" صلى الله عليه وسلم، و أحواله و أفعاله و سننه و عبادته و صفاته و شمائله و أخلاقه و مكارمه و حروبه و غزواته و فتوحاته و تاريخ حياته الشريفة، بل و حياة أصحابه الكرام، فإن كل ذلك ثابت و مدون بالتفصيل التام و التحقيق الدقيق فى كتب الحديث و التفسير و المناقب و السير بالأسانيد الصحيحة، عن الثقات العدول الذين لا يتطرق إليهم الشك و لا- تحوم حولهم الريب. و ما أعظم كتب الأحاديث الصحاح الحاوية لأقوال و أحوال خاتم رسل الله، صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين.

و ما أكثر كتب السير المعتمدة الخاصة بتاريخ حياة نبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم، نثرا و نظما و بتاريخ الصحابة و التابعين و غيرهم.

لم يوضع شىء من مثل ذلك عن الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة و السلام، فإنه بموتهم و موت أصحابهم و حوارهم اندرست سيرهم العطرة و تاريخ حياتهم الشريفة- ما عدا بعض الأمور الحقيقية الصادقة التى أخبر الله عز و جل بها فى كتابه العزيز أو أخبر بها نبينا

الكريم صلى الله عليه وسلم، نعم قد توجد نبذ قصيرة و شذرات صغيرة و نتف قليلة عند اليهود و النصارى عن النبيين العظيمين موسى و عيسى عليهما الصلاة و السلام، لكن لا يعول عليها لاحتمالها الصدق و الكذب، فإذا كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه في الكتب السماوية، فهم لغيرها أكثر جراً

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١٦

بالتحريف، و أيضاً إنهم لا يعنون بصحة الأخبار عن بعضهم كما يعتنى المسلمون بنقل الأحاديث و الأخبار النبوية بصحة الإسناد و قوة النقل عن الثقات العدول.

(الخامسة) أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان يخبر بتعليم الله تعالى له بكثير من المغيبات عن بعض الأمور التي تقع في زمانه و في غير زمانه و تقع لبعض أصحابه بل و التي ستقع في أزمان مختلفة حتى قيام الساعة من علاماتها و غيرها. فكانت تلك الأمور تقع كما أخبر به صلى الله عليه وسلم تماما. كما هو مذكور في كتب الحديث و معلوم في كتب التواريخ. و كما نحن نشاهد من ظهور بعض علامات الساعة في زماننا الشيء الكثير، و قد مضى على مبعثه صلى الله عليه وسلم أكثر من ألف و أربعمائة عام، فلو أردنا حصر ذلك لطال بنا الكلام، و لا شك أن ذلك من جملة معجزاته صلى الله عليه وسلم الكثيرة التي لا تعد و لا تحصى. قال بعض العلماء:

فكم من المغيبات ذكرافبعضها مضى و بعض سيرى

و معجزات المصطفى ليست تعدو في الشفا منها كثير قد ورد

أما الأنبياء السابقون عليهم الصلاة و السلام، فلم ينقل عنهم أنهم أخبروا بجملة من الأمور تقع في مستقبل الأزمان. نعم لا يسلم أنهم أخبروا ببعض أشياء تقع في زمانهم و على بعض أقوامهم فيقع كما أخبروا؛ لأنهم أنبياء أصحاب معجزات و لكن ذلك نادر و قليل. و لقد أخبر الله تعالى عن بعضهم في كتابه العزيز بما وقع لهم من المعجزات و الإخبار بالمغيبات؛ كخليفة إبراهيم عليه الصلاة و السلام، فله أمور عجيبة مع قومه مذكورة في بعض السور. و كلمه موسى عليه الصلاة و السلام، و هذا له شأن عظيم مع بنى إسرائيل كما جاء ذكره في كثير من السور، و نبيه يعقوب و ولده يوسف كما هو مذكور في سورتها، و نبيه عيسى بن مريم الذي كان يخبر قومه بما يأكلون و يدخرون في بيوتهم، كما جاء ذلك في آية (٤٩) من سورة آل عمران.

و لكن كل ما جاء عن الأنبياء، أنبياء الله سبحانه و تعالى من المعجزات و الإخبار بالمغيبات و هو قليل جدا بالنسبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم و على جميع الأنبياء و المرسلين و آل كل واحد منهم و أصحابه أجمعين - فمعجزات نبينا الكريم ما زالت مستمرة إلى اليوم و إلى قيام الساعة، و كلها ظاهرة محسومة مشاهدة كالشمس لا تحتاج إلى برهان.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١٧

هذه نبذة صغيرة عن مميزات نبينا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، المناسبة للمبحث المذكور. و لو أردنا حصر مميزات و فضائله لقضينا الحياة و ما قضينا معشار حقه صلى الله عليه وسلم إنه صلى الله عليه وسلم رسول مكمل و نبي مفضل - مكمل بالذات في خلق و في خلق و في صفات فلا تحصى فضائله - هذا و قد ذكرنا شيئا من ذلك في مواضع شتى من تفسيرنا هذا، و في بطون الكتب و الأسفار الشيء الكثير. و رحم الله من يقول:

أرى كل مدح في النبي مقصرا وإن بالغ المثنى عليه و أكثرا

إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى

نعم، ماذا نقول فيمن اختاره الله عز و جل و اصطفاه و قال له في آخر سورة الطور: **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**، ماذا نقول فيمن نطقه و أحواله و حركاته و سكناته عن الله و بالله و من الله. ماذا نقول فيمن شقت الملائكة صدره و غسلته و ملأته إيمانا و حكمة و علما و نورا. ماذا نقول فيمن أراه الله ملكوت السموات و الأرض و عرج به إلى السموات العلى. ماذا نقول فيمن تنام عيناه و لا ينام

قلبه فلا سبيل للشيطان عليه، ماذا نقول فيمن رب العز والجلال يعصمه و يحفظه و الملائكة تحرسه و جبريل يؤنسه- اللهم صل و سلم على هذا النبي الكريم و على آله و صحبه أجمعين صلاة و سلاما دائمين إلى يوم الدين.

هذا، و لئن ذكرنا نبينا محمد صلى الله عليه و سلم، بالمناسبة فإننا لا ننسى فضائل جميع الأنبياء، أنبياء الله تعالى و مناقب كافة الرسل الكرام عليهم الصلاة و السلام- فإن لكل واحد منهم فضائل لا تعد و مزايا لا تحد. فإنهم خيار الخلق و صفوتهم فمن منا يحيط بفضلهم، و شأنهم بعيد مرتفع.

و كفاهم سعادة و فوزا و شرفا و فخرا كونهم رسل الله ينزل الوحي عليهم من السماء- فنحن إذا ذكرنا فضل أحد منهم فإننا نوفي حقه بقدر معرفتنا من غير أن يؤدي ذلك إلى غمط حق أحدهم و لا بكلمة. إننا مأمورون بالإيمان بهم و بما أنزل عليهم و باحترامهم و تعظيمهم و الصلاة و السلام عليهم، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين- اللهم اغفر لنا و ارحمنا و عافنا و ارزقنا و أدخلنا الجنة بسلام آمين مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا. آمين آمين آمين و الحمد لله رب العالمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١٨

هذا و لقد قلنا في زيارتنا لرسول الله صلى الله عليه و سلم، ليلة الثاني و العشرين من شهر رجب سنة (١٣٨٢ هـ) ألف و ثلاثمائة و اثنتين و ثمانين هجرية هذه الأبيات للعتبة و الاعتبار:

هنا منبع الهدى هنا منزل التقى هنا خير خلق الله يثوى و يرقد

رسول إله العالمين (محمد) شفيع الملا يوم القيامة أحمد

قفوا أمة الإسلام في خير بقعة أمام رسول الله و النور فاشهدوا

قفوا وقفه الإجلال يا خير أمة أمام شفيع المذنبين لتسعدوا

و صلوا عليه كل حين و سلموا كما أمر الله العزيز الممجّد

و ولوا إلى شطر الشريعة و جهكم و قوا صفوف المسلمين و وحدوا

و توبوا بصدق و ارجعوا بعزيمة و قوموا بنصر الله حقا و سدّدوا

عسى ربنا أن ينزل النصر فيكم و أن يخذل الكفار ما دام ألدّوا

عسى ربنا أن يبذل الحال حاله بأحسن منها إنه هو منجد

حبذا لو كتبت هذه الأبيات في لوحة كبيرة و تعلق بالمسجد النبوي للعتبة و الاعتبار، و حبذا لو كتبت الأبيات الثلاثة الأولى مع البيت الخامس في لوحة أيضا بحروف معدنية بارزة كبيرة بخط جميل و تعلق في مواجهة قبر رسول الله صلى الله عليه و سلم.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباع سنته الغراء و شريعته البيضاء و يسعدنا في الدارين، و يدخلنا الجنة بسلام آمين مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين.

آمين يا رب العالمين.

معجزاته صلى الله عليه و سلم

أما معجزاته عليه الصلاة و السلام، فحصرها ليس في الإمكان، و الذي عددها فإنما هذا التعداد كان بحسب المعجزات الظاهرات كالشمس للخواص و العوام، و لكن هنالك معجزات لا- تظهر إلا- لأولى الألباب الذين يدققون في الأمور و يحققون المسائل، من أقواله و أفعاله و إشارات صلى الله عليه و سلم و من هنا نقول إنها كثيرة و كثيرة جدا، فمنها ما وقع و منها ما سيقع، و إلى هذا أشار الناظم بقوله:

فكم من المغيبات ذكرا فبعضها مضي و بعض سيرد
و معجزات المصطفى ليست تعدو في الشفا منها كثير قد ورد
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١٩

و إن من أعظم معجزاته صلى الله عليه و سلم، القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.
هذا القرآن العظيم الذي عجز الإنس و الجن عن الإتيان بأصغر سورة من مثله، كما قال تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ
يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا.

و هل يمكن للمخلوق الضعيف أن يأتي بما يأتي به الخالق جل و علا- كلا و الله- و الحمد لله إن المستشرقين اليوم يقرون بأن
القرآن الكريم كلام الله تعالى ليس في ذلك شك، كما بينا أقوالهم في كتابنا "تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه" المطبوع
بمطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده بمصر القاهرة.

و لقد تكلم كثير من فطاحل العلماء عن معنى إعجاز القرآن، ذكرنا بعض ذلك في كتابنا المذكور، فمن أراد الاطلاع في كل ما
يتعلق بالقرآن العظيم فليرجع إلى كتابنا المذكور، كما أن من أراد زيادة البحث عن معجزاته صلى الله عليه و سلم، فليرجع إلى كتب
التاريخ و السير.

نبذة من أخلاقه صلى الله عليه و سلم

هنا ننقل ما ذكرناه سابقا في كتابنا "تحفة العباد في حقوق الزوجين و الوالدين و الأولاد" و هذا نص ما ذكرناه:

(كان) صلى الله عليه و سلم، ما ضرب بيده أحدا قط، إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى، و ما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن
تنتهك حرمة الله، و ما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعده الناس من ذلك، و ما
كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته.

و قال أنس رضى الله عنه: (و الذى بعته بالحق ما قال لى فى شىء قط كرهه لم فعلته، و لا لامنى نساؤه إلا قال: دعوه إنما كان هذا
بكتاب و قدر).

(و كان) صلى الله عليه و سلم، يبدأ من لقى بالسلام، و من قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف.

(و كان) صلى الله عليه و سلم، إذا لقى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة.

(و كان) صلى الله عليه و سلم، لا يقوم و لا يجلس إلا على ذكر الله.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢٠

(و كان) صلى الله عليه و سلم، إذا قام من مجلسه قال: سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك و أتوب إليك.

(و كان) صلى الله عليه و سلم، لا يجلس إليه أحد و هو يصلى إلا خفف صلاته و أقبل عليه فقال: ألك حاجة، و لم يكن يعرف
مجلس من مجلس أصحابه، لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس.

(و كان) صلى الله عليه و سلم، يكرم من دخل عليه، حتى ربما بسط له ثوبه يجلس عليه.

(و كان) صلى الله عليه و سلم، يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته.

(و كان) صلى الله عليه و سلم، يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه و سمعه و حديثه و لطيف مجلسه و توجهه
للجالس إليه، و لم تكن ترفع فى مجلسه الأصوات.

(و كان) صلى الله عليه و سلم، أرحم الناس بالصبيان و العيال.

(و كان) صلى الله عليه و سلم، أرف الناس بالناس، و خير الناس للناس، و انفع الناس للناس.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، أصبر الناس على أقدر الناس.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلان يقول كذا، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون كذا و كذا.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، لا يضحك إلا تبسما.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السلام

عليكم - السلام عليكم.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائبا دعا له، وإن كان شاهدا زاره وإن كان

مريضا عاده.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، إذا أتى مريضا أو أتى به قال: أذهب الباس رب الناس، اشف و أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء

لا يغادر سقما.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف عنه، و

إذا لقيه أحد من أصحابه، فتناول يده ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده منه، و إذا لقي أحدا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢١

من أصحابه فتناول إذنه ناوله إياها ثم لم ينزعها عنه، حتى يكون الرجل هو الذى ينزعها عنه. قوله: فتناول إذنه أى: قرب منه ليكلمه

سرا لم ينزعها صلى الله عليه وسلم حتى يفرغ الرجل من حديثه.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، لا يدفع عنه الناس و لا يضربون عنه.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، لا يطرق أهله ليلا.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، لا يقرأ القرآن فى أقل من ثلاث.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، لا ينزل منزلا إلا ودعه بركتين.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، لا يواجه أحدا فى وجهه بشيء يكرهه.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، يأتى ضعفاء المسلمين و يزورهم، و يعود مرضاهم، و يشهد جنازتهم.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، يخطط ثوبه، و يخصف نعله، و يعمل ما يعمل الرجال فى بيوتهم.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه، و خفض بها صوته.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، يركب الحمار، و يخصف النعل، و يرقع القميص، و يلبس الصوف و يقول: من رغب عن سنتى فليس

منى.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، يقبل الهدية و يثيب عليها.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، أكثر لباسه البياض، و كانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، أحلم الناس و أرغبهم فى العفو مع القدرة.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، يقول: لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا، فإنى أحب أن أخرج إليكم و أنا سليم الصدر.

(و كان) صلى الله عليه وسلم، أجود الناس و أسخاهم، فقد حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير، ثم مال إليها فقسماها،

فما رد سائلا حتى فرغ منها.

و جاءه رجل فسأله فقال: ما عندى شيء و لكن ابتع على فإذا جاءنا شيء قضيناها، فقال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر

عليه، فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال الرجل: أنفق و لا تخش من ذى العرش إقلالا، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم و

عرض السرور في وجهه. و لما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢٢

اضطروه إلى شجرة فخطف رداءه. فوقف رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قال: أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً و لا كذاباً و لا جباناً.

و في صحيح مسلم، عن سفيان ابن عيينه، عن ابن المنكدر أنه سمع جابر بن عبد الله قال: «ما سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم شيئاً قط فقال لا».

و في صحيحه أيضاً عن موسى بن أنس، عن أبيه قال: «ما سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة».

و عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم أجود الناس بالخير و كان أجود ما يكون في شهر رمضان، إن جبريل عليه السلام كان يلقاه في كل سنة في رمضان حتى ينسلخ فيعرض عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان رسول الله صلى الله عليه و سلم أجود بالخير من الريح المرسلة».

و كان على كرم الله وجهه إذا وصف النبي صلى الله عليه و سلم قال: كان أجود الناس كفاً، و أوسع الناس صدراً، و أصدق الناس لهجةً، و أوفاهم ذمّةً، و أئینهم عريكةً، و أكرمهم عشرةً، من رآه بديهة هابه، و من خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله و لا بعده مثله.

انتهى من كتاب "تحفة العباد في حقوق الزوجين و الوالدين و الأولاد."

ذكر شيء مما اختص به رسول الله صلى الله عليه و سلم

الحقيقية أن ما اختص الله به عبده و نبيه شفيعنا "محمداً" صلى الله عليه و سلم شيء كثير قد لا يمكن عدده و حصره، و لنذكر هنا نبذة من ذلك نقلاً عن الجزء الأول من تاريخ الخميس، هذا التاريخ العظيم الذي جمع فأوعى - فقد جاء فيه ما يأتي:

قد جمع بعض خصائصه عليه الصلاة و السلام الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في رسالته سماها "أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب" و قال: و هي منحصرة في قسمين:

(القسم الأول) في الخصائص التي اختص بها عن جميع الأنبياء و لم يؤتها نبى قبله - و هي أربعة أنواع: التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ١-١؛ ص ٢٢٣

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢٣

١- النوع الأول: ما اختص به في ذاته في الدنيا.

٢- النوع الثاني: ما اختص به في شرعه و أمته في الدنيا.

٣- النوع الثالث: ما اختص به في ذاته في الآخرة.

٤- النوع الرابع: ما اختص به في أمته في الآخرة.

(و القسم الثاني) في الخصائص التي اختص بها عن أمته، منها ما علم مشاركة الأنبياء له فيها، و منها ما لم يعلم - و هو أربعة أنواع:

١- النوع الأول: ما اختص به من الواجبات و الحكمة في زيادة الزلفى و الدرجات.

٢- النوع الثاني: ما اختص به من المحرمات.

٣- النوع الثالث: ما اختص به من المباحات.

٤- النوع الرابع: ما اختص به من الكرامات و الفضائل.

ثم بين صاحب تاريخ الخميس رحمه الله تعالى كل نوع من الأنواع المتقدمة مما يدخل في القسمين المذكورين - كما ذكر معجزاته صلى الله عليه وسلم بعد كل هذه الأنواع.

ولقد أحببنا نقل جميع أنواع القسمين المذكورين في تاريخ الخميس، ولكن رأينا أنه يطول بنا المقام، لذلك رأينا أن نقتصر على النوع الأول من القسم الأول فقط، تبركا بذكر أحواله صلى الله عليه وسلم، فقد جاء فيه ما نصه النوع الأول ما اختص به في ذاته في الدنيا:

اختص صلى الله عليه وسلم بأنه أول النبيين خلقا، وبتقدم نبوته، فكان نبيًا و آدم منجدل في طينته، وتقدم أخذ الميثاق عليه، وأنه أول من قال بلى يوم ألت بربكم، وخلق آدم وجميع المخلوقات لأجله، وكتابة اسمه الشريف على العرش و كل سماء و الجنان و ما فيها و سائر ما في الملكوت، و ذكر الملائكة له في كل ساعة و ذكر اسمه في الأذان في عهد آدم و في الملكوت الأعلى، و أخذ الميثاق على النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به و ينصروه، و التبشير به في الكتب السابقة و نعته فيها و نعت أصحابه و خلفائه و أمته، و حجب إبليس من السموات لمولده، و شق صدره في أحد القولين و هو الأصح، و جعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان، و سائر الأنبياء كان الخاتم في يمينهم، و بأن له ألف اسم، و باشتقاق اسمه من اسم الله، و بأنه سمي من أسماء الله بنحو سبعين اسما، و بأنه سمي أحمد و لم يسم به أحد قبله،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢٤

و قد عدت هذه من الخصائص في حديث مسلم، و بإضلال الملائكة في سفره، و بأنه أرجح الناس عقلا، و بأنه أوتي كل الحسن و لم يؤت يوسف إلا- الشطر، و بغطه ثلاثا عند ابتداء الوحي، و برؤيته جبريل في صورته التي خلق عليها، عد هذه البيهقي، و بانقطاع الكهانة لمبعثه، و حراسة السماء من استراق السمع و الرمي بالشهب، عد هذه ابن سبع، و بإحياء أبويه له حتى آمنوا به، و قد مر في ذكر نسبه، و بوعده بالعصمة من الناس، و بالإسراء و ما تضمنه من اختراق السموات السبع و العلو إلى قاب قوسين، و بوطنه مكانا ما وطئه نبي مرسل و لا ملك مقرب، و إحياء الأنبياء له و صلواته إماما بهم و بالملائكة، و باطلاعه على الجنة و النار، عد هذه البيهقي، و رؤيته من آيات ربه الكبرى، و حفظه حتى ما زاغ البصر و ما طغى، و رؤيته للباري تعالى مرتين، و قتال الملائكة معه، و سيرهم معه حيث سار يمشون خلف ظهره، و بإيتائه الكتاب و هو أمي لا يقرأ و لا يكتب، و بأن كتابه معجز و محفوظ من التبديل و التحريف على ممر الدهور، و مشتمل على ما اشتمل عليه جميع الكتب و زيادة، و جامع لكل شيء و مستغن عن غيره، و ميسر للحفظ، و نزل منجما، و على سبعة أحرف من سبعة أحرف من سبعة أبواب و بكل لغة، عد هذه ابن النقيب، و أعطى من كنز العرش و لم يعط منه أحد، و خص بالبسملة و الفاتحة و آية الكرسي و خواتيم سورة البقرة و السبع الطوال و المفصل، و بأن معجزته مستمرة إلى يوم القيامة و هو القرآن، و معجزات سائر الأنبياء انقضت لوقتها، و بأنه أكثر الأنبياء معجزات، فقد قيل إنها تبلغ ألفا و قيل ثلاثة آلاف سوى القرآن فإن فيه ستين ألف معجزة تقريبا.

قال الحلیمی: و فيها مع كثرتها معنى آخر، و هو أنه ليس في شيء من معجزات غيره ما ينحو نحو اختراع الأجسام، و إنما ذلك في معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، و بأنه جمع له كل ما أوتيته الأنبياء من معجزات و فضائل، و لم يجمع ذلك لغيره بل اختص كل بنوع، و أوتي انشقاق القمر، و تسليم الحجر، و حنين الجذع، و نبع الماء من بين الأصابع، و لم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك، ذكره ابن عبد السلام، و بأنه خاتم النبيين و آخرهم بعثا فلا نبي بعده، و شرعه مؤيد إلى يوم القيامة لا ينسخ و ناسخ لجميع الشرائع قبله، و لو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، و في كتابه النسخ و المنسوخ، و بعموم الدعوة للناس كافة، و أنه أكثر الأنبياء تابعاء، و أرسل إلى الجن بالإجماع و إلى الملائكة في أحد القولين، و رجحه السبكي، و بعثه رحمة للعالمين حتى للكافر بتأخير العذاب و لم يعاجلوا بالعقوبة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢٥

كسائر الأمم المكذبة، ولأن الله أقسم بحياته وأقسم على رسالته، وتولى الرد على أعدائه عنه، وخاطبه بألفاظ ما خاطب به الأنبياء، وقرن اسمه باسمه في كتابه، وفرض على العالم طاعته والتأسي به فرضاً مطلقاً لا شرط فيه ولا استثناء، ووصفه في كتابه عضواً عضواً: قلبه بقوله: ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى، وقوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ، ولسانه بقوله: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، وقوله: فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ لِبَلْسَانِكَ، وبصره بقوله: مَا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمَا طَغَى، ووجهه بقوله: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ، ويده و عنقه بقوله: وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ، وظهره و صدره بقوله: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ، كذا في المواهب اللدنية، و لم يخاطبه في القرآن باسمه بل بأبيها النبي، يا أيها الرسول، و حرم على الأمة نداءه باسمه، و فرض على من ناجاه أن يقدم بين يدي نجواه صدقة ثم نسخ ذلك، و لم يره في أمته شيئاً يسوءه حتى قبضه بخلاف سائر الأنبياء، و أنه حبيب الرحمن و جمع له بين المحبة و الخلقة و بين الكلام و الرؤية و كلمه عند سدرة المنتهى و كلم موسى بالجبل، عد هذه ابن عبد السلام، و جمع بين القبلتين و الهجرتين، و جمعت له الشريعة و الحقيقة و لم يكن للأنبياء إلا إحداهما، بدليل قصة موسى مع الخضر، و قوله: إني على علم لا ينبغي لك أن تعلمه و أنت على علم لا ينبغي أن أعلمه، و نصر بالرعب مسيرة شهر أمامه و شهر خلفه، و أوتى جوامع الكلم، و أوتى مفاتيح خزائن الأرض، و لقيه الخازن على فرس أبلق عليه قطيفة من سندس، و كلم بأصناف جميع الوحي، عد هذه ابن عبد السلام، و هبط إسرافيل عليه و لم يهبط على نبي قبله، عد هذه ابن سبيح، و جمع له بين النبوة و السلطنة و لم يجمع لنبي قبله، عد هذه الغزالي في الإحياء، و أوتى علم كل شيء إلا الخمس التي في آية:

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، و قيل إنه أوتيها أيضاً، و أمر بكنمها، و الخلاف جار في الروح أيضاً، و بين له في أمر الدجال ما لم يبين لأحد، و وعد بالمغفرة و هو يمشى حيا صحيحا، و رفع ذكره فلا يذكر الله جل جلاله في أذان و لا خطبة و لا تشهد إلا ذكر معه، و عرض عليه أمته بأسرهم حتى رآهم، و عرض عليه ما هو كائن في أمته حتى تقوم الساعة، و هو سيد ولد آدم و أكرم الخلق على الله، فهو أفضل من المرسلين و جميع الملائكة المقربين، و أيد بأربعة وزراء جبريل و ميكائيل و أبي بكر و عمر، و أعطى من أصحابه أربعة عشر نجيباً و كل نبي أعطى سبعة، و أسلم قرينه و كانت أزواجه عوناً له، و بناته و زوجاته أفضل نساء العالمين،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢٦

و ثواب أزواجه و عقابهن مضاعف، و أصحابه أفضل العالمين إلا النبيين، و مسجده أفضل المساجد، و بلده أفضل البلاد بالإجماع ما عدا مكة و على أحد القولين فيها و هو المختار، و يسأل عنه الميت في قبره، و استأذن ملك الموت عليه و لم يستأذن على نبي قبله، و حرم نكاح أزواجه من بعده و أمه و وطنها، و البقعة التي دفن فيها أفضل من الكعبة و من العرش، و يحرم التكني بكنيته، و لم تر عورته قط و لو رآها أحد طمست عيناه، و لا يجوز عليه الخطأ، عد هذه ابن أبي هريرة و الماوردي، قال قوم و لا النسيان حكاة النووى فى شرح مسلم.

انتهى من تاريخ الخميس - و من أراد الاطلاع على بقية الأنواع فعليه بمطالعة التاريخ المذكور.

نبذة من صفاته و شمائله صلى الله عليه و سلم

هنا ننقل ما ذكرناه سابقاً في كتابنا "تحفة العباد في حقوق الزوجين و الوالدين و الأولاد" و هذا نص ما ذكرناه: كان صلى الله عليه و سلم أبيض كأنما صيغ من فضة، رجل الشعر. و كان صلى الله عليه و سلم أبيض مشرباً بياضه بحمرة، و كان أسود الحدقة، أهدب الأشفار. و كان صلى الله عليه و سلم أحسن الناس وجهاً، و أحسنهم خلقاً، ليس بالطويل البائن و لا بالقصير. و كان صلى الله عليه و سلم أحسن الناس، و أجود الناس، و أشجع الناس. و كان صلى الله عليه و سلم أزهر اللون كأن عرقه اللؤلؤ إذا مشى تكفاً. و كان صلى الله عليه و سلم أفصح الثنيتين إذا تكلم رثى كالنور. و كان صلى الله عليه و سلم وجهه مثل الشمس و القمر، و كان مستديراً. و كان صلى الله عليه و سلم ضخم الهامة عظيم اللحية. و كان صلى الله عليه و سلم شبيه نحو عشرين شعرة. و كان صلى

الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها. و كان صلى الله عليه وسلم كلامه كلاماً فصلاً. و كان صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة في ظهره بضعة ناشزة. و كانت عيناه تنام و قلبه لا ينام. و كان صلى الله عليه وسلم أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه. و كان صلى الله عليه وسلم إذا أتى بطعام سأل عنه، فإن قيل هدية أكل منها، و إن قيل صدقة لم يأكل منها. و كان صلى الله عليه وسلم لا يرد الطيب، و كان صلى الله عليه وسلم يحب التيامن ما استطاع في طهوره و تنعله و ترجله و في شأنه كله. و كان صلى الله عليه وسلم يمر بالصبيان فيسلم عليهم. و كان صلى الله عليه وسلم يقوم بالليل حتى تتفطر قدماه. و كان صلى الله عليه وسلم يغتسل بالصباح و يتوضأ بالمد. و كان صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة. و كان صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة جاءه خدم أهل المدينة بآنتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه. و كان صلى الله عليه وسلم يؤتى بالصبيان

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢٧

فيبرك عليهم و يحنكهم و يدعو لهم. و كان صلى الله عليه وسلم يدعو عند الكرب لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات و رب الأرض و رب العرش الكريم. و كان صلى الله عليه وسلم يتعوذ من جهد البلاء، و درك الشقاء، و سوء القضاء و شماتة الأعداء. و كان صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: باسمك اللهم أحياء، و باسمك أموت، و إذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا و إليه النشور. و كان صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال: اللهم أسلمت نفسي إليك، و وجهت وجهي إليك، و فوضت أمري إليك، و ألتجأت ظهري إليك رغبة و رهبة إليك، لا ملجأ و لا منجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، و نبيتك الذي أرسلت. و كان صلى الله عليه وسلم يكره النوم قبل العشاء و الحديث بعدها.

و عن الأسود قال: «سألت عائشة رضي الله عنها كيف صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بالليل؟ قالت: كان ينام أوله و يقوم آخره فيصلى ثم يرجع إلى فراشه، فإذا أذن المؤذن وثب، فإن كان به حاجة اغتسل و إلا توضأ و خرج».

و في صحيح البخارى عن الحكم بن عتيبة قال: سمعت أبا جحيفة قال:

«خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة إلى البطحاء فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين و العصر ركعتين و بين يديه عنزة» و زاد فيه عون عن أبيه أبي جحيفة قال: «كان يمر من ورائها المارة و قام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم، قال: فأخذت بيده فوضعتها على وجهي. فإذا هي أبرد من الثلج و أطيب رائحة من المسك» و روى أبو نعيم و البزار بإسناد صحيح: «إذا مر في طريق من طرق المدينة و جدوا منه رائحة الطيب و قالوا: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الطريق» و روى أبو نعيم عن عائشة قالت: «كان عرقه في وجهه مثل الجمان أطيب من المسك الإذفر»، و في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: «صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الأولى ثم خرج إلى أهله و خرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدي أحدهم واحداً واحداً، قال: و أما أنا فمسح خدي قال: فوجدت ليد برداً و ريحاً كأنما أخرجها من جوائه عطاراً». و عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، قال: سألت هند بن أبي هالة عن حليته رسول الله صلى الله عليه وسلم و كان و صافاً و أنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به فقال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخماً مفخماً يتلألاً و وجهه تلاًلؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربع و أقصر من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢٨

المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر إن انفرت عقيقته فرق و إلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحاجبين، سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العينين، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادناً، متماسكاً، سواء البطن و الصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة و السرة بشعر يجرى كالخط، عارى الثديين و البطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين و المنكبين و أعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحه، سبط

العصب، شثن الكفين و القدمين، سائل الأطراف، خمصان الأخصمين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زال تقلعا، و يخطو تكفيا، و يمشى هونا، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صلب، و إذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، و يبدأ من لقيه بالسلام.

قلت: صف لى منطقته، قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم متواصل الأحران، دائم الفكرة، ليست له راحة، و لا يتكلم فى غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام و يختمه بأشداقه و يتكلم بجوامع الكلام فصلا لا فضول فيه و لا تقصير، دمثا ليس بالجافى و لا المهين، يعظم النعمة و إن دقت لا يذم شيئا، لم يكن ذواقا و لا يمدحه، و لا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، و لا يغضب لنفسه و لا- ينتصر لها، و إذا أشار أشار بكفه كلها، و إذا تعجب قلبها، و إذا تحدث اتصل بها فضرب يابهامه اليمنى راحته اليسرى، و إذا غضب أعرض و أشاح، و إذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التيسم، و يفتر عن مثل حب الغمام). اهـ.

معنى بعض الألفاظ الواردة هنا:

إشارة

قوله: المشذب هو: البائن الطويل مع نحافة. و قوله: عقيقته أى: شعر الرأس.
 و قوله: فرق أى: جعل شعره نصفين نصفًا عن يمينه و نصفًا عن يساره. و قوله:
 أزهر اللون أى: نير اللون و مشرقه فى كل أجزاء بدنه عليه الصلاة و السلام.
 و قوله: أزج الزجاج دقة الحاجبين و سبوغهما إلى محاذاه آخر العين. و قوله: سوابغ أى: غزيرة الشعر حتى أن من لم يتأملها رآه أقرن،
 و لذا قال فى غير قرن، و قوله:

يدره أى: يحركه و يظهره، و قوله: ألقى العرين أى: أن أعلى أنفه مرتفع و وسطه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٢٩

كذلك، و قوله: أشم أى: مرتفع قصبه الأنف، و قوله: كث اللحية أى: كثير شعرها مع استدارة، و قوله: سهل الخدين أى: ليس فيهما تنؤ و لا ارتفاع، و قوله: ضليع الفم أى: واسع؛ لأن سعته تدل على الفصاحة، و قوله: أشنب أى: أبيض الأسنان مع بريق و تحديد فيها،
 و قوله: مفلج أى: مفرج، و قوله:

المسربة هى: ما دق من شعر الصدر كالخيط سائلا إلى السرة، و قوله: دمية هى:

الصورة المنقوشة من نحو عاج أو رخام، و قوله: ضخم الكراديس أى: عظيم كل فرد من سائر عظام بدنه، و قوله: أنور المتجرد، ما كشف عنه الثوب من البدن، و قوله: اللبة بتشديد اللام و فتحها المنحر، و هى المتطامن الذى فوق الصدر و أسفل الحلق. و قوله: الزندين قال العلقمى: هو عظم الذراعين، و قوله: رحب الراحة قال العلقمى: أى واسع الكف، و قوله: سبط القصب هو جمع قصبه، و هى كل عظم أجوف فيه مخ أى: ليس فى قصبه تنؤ و لا- تقعد، و قوله: شثن هو: الذى فى أنامله غلظ بلا قصر، و قوله: خمصان الأخصمين قال فى النهاية: الأخصم من القدم الموضع الذى لا يلصق بالأرض منها عند الوطاء، و قوله: مسيح القدمين أى: أملسهما من ظهرهما لوجود الخموصة فى بطنهما، و قوله: إذا زال تقلعا أى:

إذا اتقل زال تقلعا بهمة، و قوله: يخطو تكفيا أى: يميل إلى قدام، و قوله: يسوق أصحابه أى: يقدمهم أمامه و يمشى خلفهم ليخلى ظهره للملائكة صلى الله عليه و على آله و صحبه و سلم.

و قوله: بأشداقه أى: يستعمل جميع فمه للتكلم، لا يقتصر على تحريك الشفتين، و ذلك من قوة المنطق و الصوت و المعنى، و حضور الذهن و اجتماعه.

و الدماثة: سهولة الأخلاق، و الجفاء: غلظه. و قوله: ذواقا هو: ما يتذوق من الطعام.

ما قاله الأستاذ الرافعى فى صفته صلى الله عليه و سلم

قال الأستاذ الكبير، وحيد دهره و فريد عصره، الأستاذ مصطفى صادق الرافعى المصرى، المتوفى فى زماننا هذا فى كتابه الشهير "عجاز القرآن" فى صفته صلى الله عليه و سلم ما نصه:
و لقد أفاضوا فى تحقيق أوصافه صلى الله عليه و سلم بأكثر من ذلك ألقاظا و معانى، و نقلوا الكثير الطيب من هذه الأوصاف الكريمة فى كل باب من محاسن الأخلاق مما يتسع التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣٠
هذا الموضوع لبسطه، فتأمل أنت هذه الصفات و اعتبر بعضها ببعض فى جملتها و تفصيلها فإنك متوسم منها أروع ما عسى أن تدل عليه دلائل الحكمة، و سمة الفضيلة، و شدة النفس، و بعد الهمة، و نفاذ العزيمة، و إحكام خطة الرأى، و إحراز جانب الخلق الإنسانى الكريم، و انظر كيف يكون الإنسان الذى تسع نفسه ما بين الأرض و سمائها، و تجمع الإنسانية بمعانيها و أسمائها، فهو فى صلته بالسماء كأنه ملك من الملائك، و فى صلته بالأرض كأنه فلك من الأفلاك، و ما خص بتلك الصفات إلا ليملاً بها الكون و يعمه، و لا كان فردا فى أخلاقه إلا لتكون من أخلاقه روح الأمة. انتهى من كتاب عجاز القرآن للرافعى.

هذا و قد نظم بعضهم جملة من خصائصه صلى الله عليه و آله و سلم فقال:

لقد خص النبى طه بعشرو من يحفظ لها جمع الخصالا
فما وقع الذباب له بجسم و ما خالوا لقامته الظلالا
كذا الفضلات قد خفيت بأرض فلم يك فى الكمال له مثالا
و لم يتشاءب المختار يوما ما احتلم احتلاما و انفعالا
تمام المقتتان و لم يخالطمنام قلبه أبدا محالا
يرى من خلفه أو من أمام و من حاذاه فى كيف تعالا
و يظهر نوره فى كل واد و ما هربت دواب منه حالا
و قد ولدته آمنه نظيفا و مختونا بقدرته تعالى
على طه صلاة مع سلام تعم الصحب و الخلفا و آلا

ما قاله الأستاذ الرافعى فى بلاغته صلى الله عليه و سلم

قال الأستاذ الكبير، وحيد دهره و فريد عصره، الأستاذ مصطفى صادق الرافعى المصرى المتوفى فى زماننا هذا فى كتابه الشهير "عجاز القرآن" فى بلاغته رسول الله صلى الله عليه و سلم ما نصه:

هذه هى البلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآيتها، و حسرت العقول دون غايتها، لم تصنع و هى من الإحكام كأنها مصنوعة، و لم يتكلف لها و هى على السهولة بعيدة ممنوعة، ألقاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، و يصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهى إن لم تكن من الوحى، و لكنها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣١

جاءت من سبيله، و إن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة، محدوفة الفضول

حتى ليس فيها كلمة مفضولة، و كأنما هي في اختصارها و إفادتها نبض قلب يتكلم، و إنما هي في سموها و إجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه و سلم، إن خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح، و إن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح، في مترع يلين فينفر بالدموع، و يشتد فينزو بالدماء، و إذا أراك القرآن إنه خطاب السماء للأرض، أراك هذا إنه كلام الأرض بعد السماء، و هي البلاغة النبوية، تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليفة، و تجيء بالمجاز الغريب فترى من غرابته أنه مجاز في حقيقة، و هي من البيان في إيجاز تتردد فيه (عين) البليغ فتعرفه مع إيجاز القرآن فرعين، فمن رآه غير قريب من ذلك الإعجاز فليعلم أنه لم يلحق به هذه "العين" أى فليعلم هذا الناظر أنه غير بليغ، و إذا جعلت من الياء في لفظ (الإيجاز) عينا صار (الإعجاز) فالتورية ظاهرة في "العين" - على أنه سواء في سهولة أطماعه، و في صعوبة امتناعه، إن أخذ أبلغ الناس في ناحيته، لم يأخذ بناصيته، و إن أقدم على غير نظر فيه رجع مبصرا، و إن جرى في معارضته انتهى مقصرا، إلى أن قال في فصاحته صلى الله عليه و سلم ما نصه: و أن كلامه صلى الله عليه و سلم لكما قال الجاحظ: هو الكلام الذى قل عدد حروفه، و كثر عدد معانيه، و جل عن الصنعة، و نزه عن التكلف، استعمل المبسوط فى موضع البسط، و المقصور فى موضع القصر، و هجر الغريب الوحشى و رغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه، و لم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، و شد بالتأييد و يسر بالتوفيق، و هذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه و غشاه بالقبول، و جمع له بين المهابة و الحلاوة، و بين حسن الإفهام، و قلته عدد الكلام، و هو مع استغنائه عن إعادته، و قلته حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، و لا زلت له قدم، و لا بارت له حجة، و لم يقم له خصم، و لا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، و لا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، و لا يحتج إلا بالصدق، و لا يطلب الفلج إلا بالحق، و لا يستعين بالخلابة، و لا يستعمل المؤاربة، و لا يهمز و لا يلمز، و لا يبطئ و لا يعجل، و لا يسهب و لا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً و لا أصدق لفظاً، و لا أعدل وزناً و لا أجمل مذهبا، و لا أكرم مطلبا و لا أحسن موقعا، و لا أسهل مخرجا، و لا أفصح عن معناه، و لا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه و سلم. اهـ.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣٢

و هنا نمسك عنان القلم عن وصف أفضل الخلق على الإطلاق، نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم، فإننا لا نقدر قدره العظيم، و لا ندرك ما يليق به من الاحترام و التعظيم، و إنما ذكرنا زبدة من صفاته و شمائله صلى الله عليه و آله و سلم على حد قول الشاعر:

إن فاتكم أن تروه بالعيون فمايفوتكم وصفه هذى شمائله
مكمل الذات فى خلق و فى خلق و فى صفات فلا تحصى فضائله

صلى الله عليه و على آله و أصحابه و سلم، و لا يمكن حصر أوصافه السنية، و أخلاقه المرضية كما قال بعضهم رحمه الله تعالى:

و على تفنن و اصفيه بوصفه يفنى الزمان و فيه ما لم يوصف
و قال آخر:

أرى كل مدح فى النبى مقصراو إن بالغ المثنى عليه و أكثرا
إذا الله أثنى بالذى هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى

لكن مدحه صلى الله عليه و سلم يقصد به رجاء التقرب و الثواب و إظهار الحب له و الشوق إليه. قال فى الدر المنظم:

و من بعضهم جاء فى الذكر وصفه أيدرك معناه ذوو العجز و البلوى
و لكننا مداحه يمدحونه على قدرهم يرجون من فضله عفوا

تواضع النبى صلى الله عليه و سلم فى مزاحه مع أصحابه

بمناسبة ما ذكرناه عن أخلاقه صلى الله عليه و سلم السامية العالية، و عن شمائله و خصاله الكريمة الحميدة، نتشرف هنا بذكر نبذة من

تواضعه عليه الصلاة والسلام في مزاحه مع أصحابه رضى الله عنهم أجمعين، للاقتداء والعبرة، وترويحاً للنفس، و جلباً للسرور والنشاط، فقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: أجموا هذه القلوب و التمسوا لها طرائف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان و قال الشاعر:

و روح القلب بذكر الطرف فإن ذلك صنيع السلف

و لقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم من أضحك الناس و أطيبهم نفساً، و كان لا يضحك إلا تبسماً، و كان يمزح و لا يقول إلا حقاً.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣٣

جاء فى كتاب الأذكياء لابن الجوزى ما نصه: أخبرنا ابن المسيب أن عائشة رضى الله عنها سئلت هل كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يمزح؟ قالت: نعم- كان عندى عجوز، فدخل رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقالت: ادع الله أن يجعلنى من أهل الجنة، قال: إن الجنة لا يدخلها العجائز. و سمع النداء فخرج، و دخل و هى تبكى، فقال: ما لها؟ قالوا: إنك حدثتها أن الجنة لا يدخلها العجائز، قال: إن الله يحولهن أبكاراً عرباً أتراباً.

و جاء فيه أيضاً: حدثنى القرشى قال: دخلت امرأة على رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال: من زوجك؟ فسمته له، فقال: الذى فى عينيه بياض؟ فرجعت تنظر إلى زوجها، فقال: ما لك؟ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم زوجك فلان، قلت: نعم، قال: الذى فى عينيه بياض؟ قال: أو ليس البياض فى عينى أكثر من السواد.

و جاء فيه أيضاً: حدثنا أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه و سلم ليستحمله، فقال: أنا حاملك على ولد ناقه، قال: يا رسول الله، و ما أصنع بولد ناقه؟ قال: و هل تلد الإبل إلا النوق؟ انتهى من الكتاب المذكور.

و جاء فى أوائل الجزء الأول من كتاب "الترايب الإدارية" للحافظ المحدث الشيخ عبد الحى الكتانى الفاسى، عند مبحث "مضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم" ما نصه:

ترجم فى الإصابة حمار، فذكر عن الصحيح أن اسمه عبد الله و يلقب بحمار.

و كان يضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و عن أبى يعلى، عن زيد بن أسلم أنه كان يهدى لرسول الله صلى الله عليه و سلم العكة من السمن أو العسل، ثم يجىء بصاحبها فيقول: أعطه الثمن.

و ترجم فى الإصابة أيضاً لسويط حرمله العبرى، و ذكر قضايا من أفعاله، فذكر أن النبى صلى الله عليه و سلم ضحك هو و أصحابه منها حولاً.

و فى فوائد الدرر و فرائد الفكر فى شرح مختصر السير، للفقير المحدث القاضى أبى على حسن بن بلقاسم، بن باديس القسطنطينى، لما ترجم لسودة زوجة عليه السلام، قال: و كانت تضحك النبى صلى الله عليه و سلم، قالت له: صليت البارحة خلفك يا رسول الله، فركعت فأمسكت بأنفى مخافة الدم أن يقطر. فضحك هو منه.

انتهى من الكتاب المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣٤

و جاء أيضاً فى الكتاب المذكور فى الجزء الثانى منه، عند مبحث "المضحكون و المضحكات فى الزمن النبوى" - "ما يأتى:

و منهم نعيان بن عمرو بن رفاعه الأنصارى ممن شهد العقبة و بدر و المشاهد بعدها، قال ابن الأثير، فى ترجمته من أسد الغابة: كان كثير المزاح يضحك النبى صلى الله عليه و سلم من مزاحه، و هو صاحب سويط بن حرمله.

و كان من حديثهما أن أباً بكر خرج إلى الشام و معه نعيان و سويط بن حرمله و كلاهما بدرى، و كان سويط على الزاد، فجاءه

نعيمان فقال: أطمعنى، فقال: لا، حتى يجيء أبو بكر، و كان نعيمان رجلا مضاحكا. فقال:

لأغظنك، فجاء إلى أناس جلبوا ظهرا، فقال: ابتاعوا منى غلاما عربيا فارها و هو ذو لسان، و لعله يقول: أنا حر فإن كنتم تاركونه لذلك فدعوه لا- تفسدوا على غلامى، فقالوا: بلى بل نبتاعه منك بعشر قلائص، فأقبل بها يسوقها و أقبل بالقوم حتى عقلها، ثم قال: دونكم هو هذا، فجاء القوم فقالوا: قم قد اشتريناك، فقال سويبط: هو كذاب أنا رجل حر، فقالوا: قد أخبرنا خبرك. فطرحوا الجبل فى رقبته و ذهبوا به، فجاء أبو بكر فأخبر فذهب هو و أصحاب له فردوا القلائص و أخذوه، فلما عادوا إلى النبى صلى الله عليه و سلم و أخبروه الخبر ضحك النبى صلى الله عليه و سلم حولا و أصحابه.

و روى عياد بن مصعب من طريق ربيعة بن عثمان قال: أتى أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فدخل المسجد و أناخ ناقته بفنائها، فقال بعض أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم لنعيمان: لو نحرتها فأكلناها فإننا قد قرمنا إلى اللحم، و يقرم رسول الله صلى الله عليه و سلم ثمنها، قال: فحرها نعيمان، ثم خرج الأعرابى فرأى راحلته فصاح: و اعقراه يا محمد، فخرج النبى صلى الله عليه و سلم، فقال: من فعل هذا؟ فقالوا: نعيمان، فأتبعه يسأل عنه فوجدوه فى دار ضباعه بنت زبير بن عبد المطلب مستخفيا، فأشار إليه رجل و رفع صوته و يقول: ما رأيته يا رسول الله، و أشار بإصبعه حيث هو، فأخرجه رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قال له: ما حملك على هذا؟ قال: الذين دلوك على يا رسول الله هم الذين أمروني، فجعل رسول الله صلى الله عليه و سلم يمسح وجهه و يضحك و غرم ثمنها.

و أخباره فى المزاح مشهورة، و كان يشرب الخمر فيؤتى به النبى صلى الله عليه و سلم فيضربه بنعله و يأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم و يحثون عليه التراب، فلما كثر ذلك منه قال

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣٥

له رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم: لعنك الله، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: لا تفعل فإنه يحب الله و رسوله. قال الحافظ السيوطى فى قوت المغتذى على جامع الترمذى: الصحابة خصوا فى باب الحدود بما لا يخص به غيرهم و لهذا لا يفسقون بما يفسق به غيرهم خصوصية لهم، ثم أورد هذه القصة قائلا: علم النبى صلى الله عليه و سلم من باطنه صدق محبته لله و رسوله فأكرمه بترك القتل و له صلى الله عليه و سلم أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام. ٥١.

و فى الإصابة، قال الزبير بن بكار: و كان لا يدخل المدينة إلا اشترى منها ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه و سلم فيقول: هذا أهديته لك، فإذا جاء صاحبه يطلب نعيمان بثمنه أحضره إلى النبى صلى الله عليه و سلم، و قال: أعط هذا ثمن متاعه، فيقول: أو لم تهده لى، فيقول: و الله إنه لم يكن عندى ثمنه و لقد أحببت أن تأكله، فيضحك و يأمر لصاحبه بثمنه.

و أخرج الزبير قصة البعير بسياق آخر من طريق ربيعة بن عثمان، قال: دخل أعرابى على النبى صلى الله عليه و سلم و أناخ ناقته، فقال بعض الصحابة لنعيمان الأنصارى: لو عقرتها فأكلناها فإننا قد قرمنا إلى اللحم، ففعل، و خرج الأعرابى و صاح: و اعقراه يا محمد، فخرج النبى صلى الله عليه و سلم و قال: من فعل هذا؟ فقالوا: نعيمان، فأتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعه بنت الزبير بن عبد المطلب و استخفى تحت سرب لها فوقه جريد، فأشار رجل إلى النبى صلى الله عليه و سلم حيث هو، فأخرجه فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: الذين دلوك على يا رسول الله هم الذين أمروني بذلك، فجعل يمسح التراب عن وجهه و يضحك ثم غرمها للأعرابى.

و قال الزبير أيضا: حدثنى عمى عن جدى قال: كان مخرمه بن نوفل قد بلغ مائة و خمس عشرة سنة، فقام فى المسجد يريد أن يبول فصاح به الناس: المسجد، المسجد، فأخذه نعيمان بيده و تنحى به ثم أجلسه ناحية أخرى من المسجد و قال له: بل هاهنا، قال: فصاح به الناس فقال: و يحكمم و من أتى بى إلى هذا الموضع؟

فقالوا: نعيمان، فقال: أما إن لله على إن ظفرت به أن أضربه بعصاى هذه ضربة تبلغ به ما بلغت، فبلغ ذلك نعيمان فمكث ما شاء الله،

ثم رآه يوما و عثمان قائم يصلى فى ناحية المسجد، فقال لمخرمة: هل لك فى نعيمان، قال: نعم، فأخذه بيده حتى أوقفه على عثمان، و كان إذا صلى لا يلتفت، فقال: دونك هذا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣٦

نعيمان، فجمع يده بعصاه و ضرب عثمان فشججه، فصاحوا به: ضربت أمير المؤمنين فذكر بقية القصة.

و قال الزبير: حدثنى على بن صالح عن جدى عبد الله بن مصعب قال: لقي نعيمان أبا سفيان بن حرب فقال له: يا عدو الله أنت الذى تهجو سيد الأنصار نعيمان ابن عمرو فاعتذر إليه، فلما ولى قيل لأبى سفيان إن نعيمان هو الذى قال ذلك، فعجب منه، و قصته مع سويبط بن حرملة تقدمت.

و قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن أيوب، عن عمر بن سرين، أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم نزلوا بماء، و كان نعيمان بن عمرو يقول لأهل الماء:

يكون كذا أو كذا فيأتونه باللبن و الطعام فيرسله إلى أصحابه، فبلغ أبا بكر خبره، قال: أرانى آكل من كهانة نعيمان منذ اليوم و استقاء ما فى بطنه.

و أخرج ابن عساكر عن عكرمة مولى ابن عباس، أن عبد الله ابن رباح كان مضطجعا إلى جنب امرأته، فخرج إلى الحجرة فواقع جارية له، فانتبهت المرأة فلم تره فخرجت فإذا هو على بطن الجارية، فرجعت و أخذت الشفرة، فلقبها و معها الشفرة، فقال لها: مهيم، فقالت: مهيم، أما إنى لو وجدتتك حيث كنت لوجأتك بها، قال: و أين كنت، قالت: على بطن الجارية، قال: ما كنت:

قالت: بلى، قال: فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم نهى أن يقرأ أحدنا القرآن و هو جنب، فقالت: اقرأه، فقال:

أتانا رسول الله يتلو كتابه كما لاح مسطوره من الصبح طالع

أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

يبىب يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قالت: آمنت بالله و كذبت بصرى، قال: فغدوت على النبى صلى الله عليه و سلم فأخبرته فضحك حتى بدت نواجذه.

و أخرج ابن عساكر عن الزهرى قال: شكى عبد بن حذافة إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه صاحب مزاح و باطل، فقال: اتركوه فإن له بطانة تحب الله و رسوله.

و مما جاء عن المضحكات فى الزمن النبوى بالمدينة المنورة و مكة المعظمة، ما روينا فى سنن أبى داود بسنده إلى الليث بن عمرة قالت: كانت امرأة مكية بطالة تضحك النساء، و كانت بالمدينة امرأة مثلها، فقدمت المكية المدينة فتعارفتا فدخلتا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣٧

على عائشة فتعجبت من اتفاقهما، فقالت عائشة للمكية: عرفت هذه، قالت: لا و لكننا التقينا فتعارفتا فضحكت عائشة و قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف و ما تناكر منها اختلف.

و عن الزبير بن بكار فى كتاب المزاح و الفكاهة من حديث بن شهاب عن عروة، عن عائشة: أن امرأة كانت بمكة تدخل على نساء قريش تضحكن، فلما هاجرن و وسع الله دخلتا المدينة، قالت عائشة: فدخلت على، فقلت فلانة ما أقدمك، قالت: إيلكن، قلت: فأين نزلت، قالت: على فلانة امرأة كانت تضحك بالمدينة، قالت: و دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال: فلانة المضحكة عندكم؟

قالت عائشة: نعم، قال: فعلى من نزلت، قالت: على فلانة المضحكة، قال:

الحمد لله إن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف و ما تناكر منها اختلف.

انظر المقاصد الحسنة للحافظ السخاوى، و عروس الأفراح فى معنى حديث الأرواح للمحدث الشمس محمد بن عقيلة المكي.

و قصة خوات بن جبير مع ذات النخيين فى الجاهلية شهيرة، و هو القائل:

فشدت على التَّحِينِ كفاً صحيحةً فأعجلتها وفتك من فعلاتي

قال في الاستبصار: و هي امرأة من بنى فتح الله بن ثعلبة كانت تباع السمن في الجاهلية و بها يضرب المثل فيقال: أشغل من ذات التَّحِينِ، روى أن النبي صلى الله عليه و سلم سأله عنها و تبسم، فقال: يا رسول الله قد رزق الله خيراً و أعوذ بالله من الجور بعد الكور، و كان خواتا شاعراً. ١٥.

و أخرج جمع عن خوات المذكور، قال: نزلت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم بحر الظهران، فخرجت من خبائي فإذا نسوة يتحدثن فأعجبني، فرجعت فأخرجت حله من عييتي فلبستها ثم جلست إليها، و خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم من قبته فقال: يا عبد الله ما يجلسك إليهن، فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه و سلم جمل لي شرد أبتغى له قيذاً، فمضى و تبعته فألقى رداءه و دخل فقضى حاجته و توضأ ثم جاء، فقال: ما فعل جملك الشارد ثم ارتحل، فجعل لا يلقاني في منزل إلا قال: يا عبد الله ما فعل جملك الشارد، إلى أن قلت: فو الله لأعتذرني إليه و لأبردن صدره، فقال لي يوماً فقلت: و الذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت. انتهى كل ذلك من كتاب التراتيب الإدارية المطبوع بالمغرب الأقصى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣٨

حسن معاشره النبي صلى الله عليه و سلم لأهله (و فيه حديث أم زرع)

حسن المعاشره دليل على حسن الخلق، و هو دليل السعادة و يؤدي إلى الجنة، فقد ورد في الصحيحين: «خيركم أحاسنكم أخلاقاً». و روى الطبراني: «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، و الخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل». فالخلق الحسن مع عامه الناس ممدوح محمود، و هو مع الأهل و الأولاد أعظم محمده و أكبر مبره، قال صلى الله عليه و سلم: «خيركم خيركم لأهله و أنا خيركم لأهلي»، رواه الترمذي و غيره، و قد ذكر مبحثاً خاصاً في حسن المعاشره في كتابنا المطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي و شركاه بمصر المسمى "تحفة العباد في حقوق الزوجين و الوالدين و الأولاد" فيراجعه من شاء. و نحن نتشرف بذكر حديث واحد فقط و هو حديث "أم زرع" الخاص بكمال حسن معاشره النبي صلى الله عليه و سلم لأهله، و حديث أم زرع لا نذكره للاستدلال بحسن معاشرته صلى الله عليه و سلم لأهله بل و لأمته، و هو الذي بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق، و الذي يقول الله عز و جل في حقه: وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ - و إنما نذكر هذا الحديث المشهور في البخاري و مسلم و غيره؛ لما فيه من الفوائد المتعدده التي لا تخفى على أولى الألباب، و لقد ألف القاضي عياض رحمه الله تعالى رساله خاصه في شرح هذا الحديث سماها "بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد".

جاء في كتاب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري و مسلم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لعائشه رضي الله عنها: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع». و حديث أم زرع طويل، فقد جاء في الصحيحين عن عائشه رضي الله عنها و اللفظ للبخاري، قالت: «جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن و تعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

قالت الأولى: زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل، لا سهل فيرتقى، و لا سمين فينتقل. قالت الثانية: زوجي لا أبت خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذره أذكر عجره و بجره.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣٩

قالت الثالثة: زوجي العشيق، إن أنطق أطلق، و إن أسكت أعلق.

قالت الرابعة: زوجي كليل تهامة، لا حر و لا قر، و لا مخافه و لا سامة.

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد، و إن خرج أسد، و لا يسأل عما عهد.

قالت السادسة: زوجي إن أكل لف و إن شرب اشتف و إن اضطجع التف و لا يولج الكف ليعلم البث.

قالت السابعة: زوجى غيايأ أو عيايأ طباقأ، كل داء له داء، شجك أو فلك أو جمع كلالك.

قالت الثامنة: زوجى المس مس أرنب، و الريح ريح زرنب.

قالت التاسعة: زوجى رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد.

قالت العاشرة: زوجى مالك، و ما مالك، مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، و إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك.

قالت الحادية عشرة: زوجى أبو زرع فما أبو زرع، أناس من حلى أذنى، و ملأ من شحم عضدى، و بجحنى فبجحت إلى نفسى، وجدنى فى أهل غنيمه بشق، فجعلنى فى أهل سهيل و أطيظ، و دائس و منق، فعنده أقول فلا أقبح، و أرقد فأصبح، و أشرب فأتنح، أم أبى زرع فما أم أبى زرع علومها رداح و بيتها فساح، ابن أبى زرع فما ابن أبى زرع، مضجعه كمثل شطبة، و يشبعه ذراع الجفرة، بنت أبى زرع فما بنت أبى زرع، طوع أبيها و طوع أمها، و ملء كسائها، و غيظ جاريتها، جارية أبى زرع فما جارية أبى زرع، لا تبث حديثنا تبثها، و لا- تنقت ميراثنا تنقتنا و لا- تملأ- بيتنا تعشيشا، قالت خرج أبو زرع و الأوطاب تمخض، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين، فطلقنى و نكحها، فنكحت بعده رجلا ثريا ركب شريا، و أخذ خطيا، و أراح على نعما ثريا، و أعطانى من كل رائحة زوجا، و قال كلى أم زرع، و ميرى أهلك، قالت: فلو جمعت كل شىء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبى زرع- قالت عائشة: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: كنت لك كأبى زرع لأم زرع».

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤٠

(رواه الشيخان) عن عائشة رضى الله عنها، و ظاهرهما أنه موقوف عليها، و إنما المرفوع منه قوله: «كنت لك كأبى زرع لأم زرع» كما قدمنا بيان رفعه. اهـ.

أخرج هذا الحديث البخارى مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه و سلم من كتاب النكاح من باب حسن المعاشرة مع الأهل - و أخرجه مسلم كذلك فى كتاب فضائل الصحابة فى باب ذكر حديث أم زرع، و كذا أخرجا قصته المذكورة بطولها عن عائشة رضى الله عنها فى الموضوعين المذكورين.

و لما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لعائشة رضى الله عنها: «كنت لك كأبى زرع لأم زرع» أجابت إجابة تليق بمثلها فى فضلها و علمها فقالت كما عند النسائى و الطبرانى: «يا رسول الله صلى الله عليه و سلم، بل أنت خير من أبى زرع». و فى رواية الزبير: «بأبى و أمى لأنت خير لى من أبى زرع لأم زرع».

و أبى زرع المذكور هو زوج المرأة الحادية عشرة من المذكورات، و هى التى أُنبت فى مدحه و بالغت فى ذكر أوصافه الحسنه، و من اطلع على هذا الحديث علم أن الذمات منهن لأزواجهن خمس: الأولى و الثانية و الثالثة و السادسة و السابعة، و المادحات لأزواجهن ست: الرابعة و الخامسة و الثامنة و التاسعة و العاشرة و الحادية عشرة، و هى أم زرع التى اشتهر الحديث بها.

و لقد نظم شيخنا العلامة المحدث الشهير محمد بن حبيب الله الشنقى رحمه الله تعالى فى شرحه لكتابه " زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم " ما وصفت به كل واحدة من النسوة المذكورات فى الحديث زوجها من الذم و المدح، فنأتى به هنا لما فيه من الطرافة و الفائدة- فقال رحمه الله ما لفظه:

و من عجب نادرة النساء فى وصف أزواج بالاستقصاء

فى خبر الفتاة أم زرع من ذكرت فى قول حلف الشرع

عليه أكمل الصلاة و على أزواجه و آله أولى العلى

أولى النساء قالت و قولها جليل فى ذم زوجها بشر ما فعل

زوجى فى الشر كلحم من جمل غث بلا نفع على رأس جبل

ثانية من لا تبث خبره لأنها تخاف أن لا تدره

إن ذكرته قد أبانت عجره كما تبين مع ذاك بجره

ثالثة من زوجها العشتق بكلمة خفيفة تطلق

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤١ رابعة من لم تخف سأمه إذ زوجها كالليل في تهامه

خامسة من مدحت من قد فهدو ليس يسأل عن الذى عهد

سادسة من رزئت بمن كلف بخبث أكل لا بها بدا عرف

سابعة زوج العياياء الذى جمع كل الداء والقول البذى

ثامنة من زوجها كالأرنب فى المسر و الريح كريح الزرنب

ثم ربيعة لعماد بسبب رفع عماد زوجها الذى انتخب

تاسعة النسوة ثم العاشرة من لمفاخر الحليل ناشره

حادية العشرة أم زرع مادحة الزوجين ثم الفرع

لكنها مشرفة بالأول أى بأبى زرع كريم العمل

قد استفا العلم مما ارتسم عنها فوائد بها الشرع حكم

ولقد شرح معانى ألفاظ الحديث شيخنا المذكور فى كتابه زاد المسلم لم نقله هنا خوف التطويل، لكن لا بد لنا أن نذكر نبذة صغيرة

مفيدة من الكتاب المذكور، فقد جاء فيه "تممة مفيدة" قال القاضى عياض: فى كلام أم زرع من الفصاحة والبلاغة ما لا مزيد عليه

فإنه مع كثرة فصوله وقله فضوله، مختار الكلمات، واضح السمات، نير القسما، قد قدرن ألفاظه قدر معانيه، وقررت قواعده و

شيدت مبانيه، وجعلت لبعضه فى البلاغة موضعا، وأودعته من البديع بدعا، وإذا لمحت كلام التاسعة، صاحبة العماد والنجاد ألفيتها

لأفانين البلاغة جامعة، فلا شىء أسلس من كلامها، ولا أربط من نظامها، ولا أطبع من سجعها، ولا أغرب من طبعها، وكأنما فقرها

مفرغة فى قالب واحد، ومحدوة على مثال واحد، وإذا اعتبرت كلام الأولى وجدته مع صدق تشبيهه، وصقاله وجوهه، قد جمع من

حسن الكلام أنواعا، وكشف عن محيا البلاغة قناعا، بل كلهن حسان الأسجاع، متفقات الطباع، غريبات الأبداع.

قال شيخنا رحمه الله تعالى فى كتابه المذكور: وقد استنبط العلماء من حديث أم زرع فوائد ذكرها الحافظ ابن حجر وغيره ولتقتصر

على ما ذكره الإمام النووى من ذلك فى شرحه لصحيح مسلم عند هذا الحديث والشيخ محمد جسوس فى شرح الشمانل عنده أيضا

ولفظ الإمام النووى، قال العلماء فى حديث أم زرع هذا فوائد:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤٢

(منها) استحباب حسن المعاشرة للأهل وجواز الإخبار عن الأمم الخالية وأن المشبه بالشىء لا يلزم كونه مثله فى كل شىء.

(و منها) أن كنايات الطلاق لا يقع بها طلاق إلا بالنية لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: كنت لك كأبى زرع لأم زرع، ومن

جملة أفعال أبى زرع أنه طلق امرأته أم زرع كما سبق ولم يقع من النبى صلى الله عليه وسلم طلاق بتشبيهه لكونه لم ينو الطلاق.

قال المازرى: قال بعضهم وفيه أن هؤلاء النسوة ذكر بعضهن أزواجهن بما يكره ولم يكن ذلك غيبه لكونهم لا يعرفون بأعيانهم أو

أسمائهم وإنما الغيبة المحرمة أن يذكر إنسان بعينه أو جماعة بأعيانهم.

قال المازرى: وإنما يحتاج إلى هذا الاعتذار لو كان النبى صلى الله عليه وسلم سمع امرأة تغتاب زوجها وهو مجهول فأقرها على

ذلك وأما هذه القضية فإنما حكمتها عائشة عن نسوة مجهولات غائبات لكن لو وصفت اليوم امرأة زوجها بما يكرهه وهو معروف

عند السامعين كان غيبه محرمة فإن كان مجهولا لا يعرف بعد البحث فهذا لا حرج فيه عند بعضهم كما قدمناه ويجعله كمن قال فى

العالم من يشرب أو يسرق.

قال المازري: وفيما قاله هذا القائل احتمال، قال القاضي عياض: صدق القائل المذكور، فإنه إذا كان مجهولا عند السامع و من يبلغه الحديث عنه لم يكن غيبه لأنه لا يتأذى إلا بتعيينه، قال: وقد قال إبراهيم: لا يكون غيبه ما لم يسم صاحبها باسمه أو ينبه عليه بما يفهم به عينه و هؤلاء النسوة مجهولات الأعيان و الأزواج لم يثبت لهن إسلام فيحكم فيهن بالغيبه لو تعين فكيف مع الجهالة و الله أعلم. اهـ. بلفظه.

انتهى من زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم.

اللهم صل و سلم و بارك على من قلت فى حقه: وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ نبينا و شفيعنا و حبيبا المصطفى المختار، سيدنا "محمد" و على آله و أزواجه الأطهار، و صحابته النجباء الأبرار.

انظر: صورة رقم ١٠، مقصورة قبر الرسول صلى الله عليه و سلم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤٣

مقصورة قبر النبي صلى الله عليه و سلم

قال البتوني رحمه الله تعالى فى كتابه "الرحلة الحجازية" عنها ما يأتى:

و المقصورة الشريفه من نحاس أصفر غاية فى حسن الصنائه، عملت فى مدة العمارة التى قام بها قايتباى فى سنة ٨٨٨، و لها باب على الروضة الشريفه يسمى باب الرحمه أو باب الوفود، و إلى جانبه من جهه الجنوب شباك يفتح عليها يسميه الحجاج شباك التوبه، و لها أيضا منفذ إلى جهه القبلة فى المواجهه الشريفه و يفتح عند الأمور الهامه للدعاء و الاستغاثه.

و يتصل بهذه المقصورة من جهه الشمال مقصورة السيدة فاطمه، و هى على استقامتها من الغرب و تدخل عنها بمسافه متر و نصف من الشرق.

و طول المقصورة النبويه الشريفه من ضلعها الجنوبي و الشمالى ١٦ مترا، و من الشرقى و الغربى ١٥ مترا. و فى زواياها الأربع أعمده مزويه عظيمه، بنيت من الحجر الصلد على ارتفاع السقف، و عليها ترتكز قواعد القبه الشريفه. أما مقصورة السيدة فاطمه الزهراء فطولها من الجنوب ١٤ مترا و نصف، و من الشمال ١٤ مترا فقط، و من الشرق و الغرب نحو سبعة أمتار و نصف، و هى تتصل بالمقصورة الكبرى من الداخل ببايين: أحدهما إلى الشرق و الآخر إلى الغرب، قد أقيم فيما بينهما ضريح على المكان الذى دفنت فيه السيدة فاطمه على قول الكثيرين، و فى داخل المقصورة الكبرى الحجرة الشريفه و هى المكان الذى توفى به رسول الله صلى الله عليه و سلم فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ للهجرة و دفن فيه عليه الصلاة و السلام فى اليوم التالى، لقوله صلى الله عليه و سلم: «ما قبض نبى إلا دفن حيث قبض»، و رأسه عليه الصلاة و السلام إلى الغرب.

و لما توفى أبو بكر فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة دفن إلى جانبه من جهه الشمال و رأسه إلى قدمى الرسول عليه الصلاة و السلام.

و لما طعن عمر، رضى الله عنه استأذن من عائشه أن يدفن مع صاحبيه، فأذنت له، فلما مات يوم الأربعاء ٢٧ ذى الحجه سنة ٢٣ للهجرة دفن إلى جوارهما، و رأسه محاذية لمنكبى أبى بكر رضى الله عنهما، و قد أقيمت على هذه القبور الثلاثه مقصورة من البناء على شكل ذى خمسه أضلاع ارتفاعه أكثر من ستة أمتار.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤٤

و أول من بنى هذه المقصورة عمر بن عبد العزيز فى عمارته للمسجد، و نزل بأساسها إلى غور بعيد، و جعلها على الشكل المزور المتقدم حتى لا تكون مثل الكعبه فى ترييعها، خوفا من أن يتخذها الناس قبله لهم، و كانت الحجرة الشريفه تسع قبرا رابعا. و يزعمون أنه مكان قبر عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء فى آخر الزمان.

وقد قيل فيه لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة: لو أتيت المدينة وأقمت بها، فإن مت دفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضى الله عنهما، فقال والله لأن يعذبني الله عز وجل بكل عذاب إلا النار أحب إلي من أن يعلم أنى أرى نفسى لذلك أهلا. فانظر إلى درجة أدب الرجل وتنكسه مع ما كان فيه من سعة الملك الذى خلق على أطراف المعمورة بأجمعها رضى الله عنه. وفى سنة ٥٥٧ بلغ نور الدين زنكى أن الصليبيين الذين كان مشتغلا بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقه الجثة الشريفة، فأمر بإحاطة الحجره الشريفة ببناء آخر، نزل بأساسه إلى منابع الماء، ثم صب الرصاص على دائره حتى صار بحيث لا يمكن أن تتناوله يد الزمان، و قد وضع على هذا البناء ستر من الحرير الأخضر مكتوب فيه "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، يحيط بها أحجبه مكتوب فيها قوله تعالى: ما كان مُحَمَّدٌ أبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ.

وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، ويحيط بهذا الستر (على ارتفاع مترين ونصف تقريبا) حزام من الحرير الأحمر عرضه نحو ثلاثين سنتيمترا مكتوب فيه بقصب الذهب اسم السلطان الذى أمر بعمل الستر الشريفة، وهذه الكسوة ترسل من الدولة العلية عند تولية كل ملك من ملوكها، والكسوة الحالية وصلت إلى الحجره الشريفة بعد إعلان الدستور. وأول من كسا الحجره الشريفة الخيزران أم هارون الرشيد، عندما قدمت فى حجها لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم. وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين.

وبين بناء المقصورة والشبكة النحاسية الخارجة طرقة متوسطة سعتها نحو ثلاثة أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبليّة، وفى زاوية هذه الطرقة، من الجنوب، كرسى موضوع عليه مصحف شريف كبير، أهدها إلى الحجره الشريفة الحجاج بن يوسف الثقفى، ويقولون إنه من المصاحف الستة التى كتبها عثمان بن عفان.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤٥

وسماء هذه الطرقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة، وخصوصا فى الجهة الجنوبية فيما يقابل الوجه الشريفة: فإن فيها كثيرا من المشاكي الذهبية، منها إحدى وثلاثون مشكاه مرصعة بالماس والزمرد والياقوت، ومعلقه بسلاسل النضار، ومجموع مصابيح الحجره الشريفة مائة مصباح وستة.

وفى مقابلة الوجه الشريفة على جدار المقصورة حجر من الماس البرلانتى، فى حجم بيضة الحمام الصغيرة، يحيط به إطار من الذهب المرصع، ويقدرون ثمنه فى ذاته بثمانمائة ألف جنيه. أما فى شرف نسبه إلى الحجره الشريفة فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن، و يسمونه بالكوكب الدرى لشدته تألقه وعظيم ثنائه وبهائه، وهو مثبت فى لوحه من الذهب، و رصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينه، وهذا الكوكب أهدها للحجره الشريفة السلطان أحمد خان الأول ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان، فى مبادئ القرن الحادى عشر هجرى.

وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجواهر، وفى وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى، أهدها إليها السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول فى سنة سبع وأربعين وألف للهجرة.

وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جدا بحجاره الماس البرلانتى: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" أهدها إليها صاحبه السمو والعصمه عادله سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين وإحدى وتسعين هجرية.

وفى هذه الحجره الشريفة غير هذا، كثير من الجواهر الفاخرة التى لا تقدر بثمن: منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمه الزهراء، وهى موضوعة على مقصورتها الداخلية فى الجانب الشرقى، وإلى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم، لا يماثله شىء فى عظمه وجوهره، وعقود أخرى من المرجان النادر المثل.

ويوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين، أهدهما إليها السلطان عبد المجيد خان فى سنة أربع وسبعين ومائتين وألف، وشمعدانان آخران أهدهما السلطان محمود، وإلى جانب هذه

الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ و مراوح مرصعة بالأحجار الكريمة، و عقاصى و مباخر مرصعة، و هذا عدا ما يوجد فى خزائن الحجرة الشريفة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤٦

من المصاحف المجوهرة و التحف الفاخرة، و كثير من الأحجار الكريمة، و الجواهر الثمينه التى لم تكن مشغولة، و غير ذلك من الأساور و الأقراط و خلافها. و بالجملة فقد قدر ثمن ما للحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات. و لقد كانت الملوك و الكبراء و العظماء يهدون لها فى كل الأزمان كثيرا من الجواهر الفاخرة و الذخائر الثمينه. و كثيرا ما كانت تتناول إليها يد الأشرار من ولاة المدينة مثل جماز بن هبة الذى نهب فى سنة إحدى عشرة و ثمانمائة من ذخائر الحرم المدنى ما قدره السهمودى بعشرين قنطارا من الذهب. و تبعه فى ذلك الشريف حسن بن زبير المنصورى سنة ٩٠١ هجرية فأخذ منه شيئا كثيرا. و فى مبدأ القرن الثالث عشر الهجرى كانت الحجرة الشريفة عامرة بما لا يحصى من الذخائر الثمينه، فنهبها الوهابى سنة إحدى و عشرين و مائتين و ألف، و باع بعضها إلى الشريف غالب بمبلغ خمسين ألف ريال، و بعد تميم الصلح بين ابن سعود و طوسون باشا اشترى منه هذا الأخير ما نهبه أبوه من آثارها الذهبية بمبلغ ألفى جنيه مصرى، و ردها للحجرة الشريفة، و كذلك رد إليها محمد على ما أعطاه إليه الوهابى من ذخائرها و أهدى إليها هو بشمعدان كبير من الذهب الخالص و شمعدانين من الفضة مكتوب عليها "العبد المذنب محمد على والى مصر سنة ١٢٢٨".

و أهداها عباس باشا الأول شمعدانات من الفضة و ثريتين (نجفتين) من الفضة:

واحدة ذات ٣٦ شمعة معلقة فى المحراب العثمانى، و الأخرى ذات ثلاثين شمعة معلقة تجاه الوجه الشريف، و ثريات و شمعدانات أخرى من البلور.

و لسعيد باشا و بعض كريمات العائلة الخديوية بالحرم الشريف هدايا أخرى.

و آخر ما قدم للحجرة الشريفة لهذا العهد دواليب ثمينه جدا قدمت إليها دولة و الدة الجناب العالى الخديوى لتحفظ فيها هذه الآثار الكريمة جزاها الله خيرا.

و خدمة الحجرة الشريفة يغسلونها فى السنة ثلاث مرات: واحدة فى يوم ٩ ربيع الأول، و الثانية فى أول رجب، و الثالثة فى الثامن عشر من ذى القعدة، و يكون لذلك احتفالا كبيرا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤٧

الروضة الشريفة

قال البتونى رحمه الله تعالى فى كتابه "الرحلة الحجازية" عن الروضة المباركة بالمسجد النبوى الشريف ما يأتى:

و الروضة الشريفة فى غرب المقصورة الشريفة- و هى مسافة ما بين القبر الشريف و منبر الرسول صلوات الله و سلامه عليه لقوله: «ما بين قبرى و منبرى روضة من رياض الجنة»، و فى رواية: «ما بين بيتى و منبرى ... الخ» و هى تبلغ (٢٢) مترا طولاً فى نحو ١٥ عرضاً. و يفصل الروضة عن زيادتى عمر و عثمان رضى الله عنهما اللتين فى جنوبها درابزين من النحاس الأصفر ارتفاعه نحو متر.

و الروضة على الدوام غاصة بالناس لشرف مكانتها، و فيها مما يلى هذا الدرابزين ربعات قرآنية كثيرة، و عدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم، منها ما هو بحرف الطبع، و منها ما هو بخط اليد الجميل، و كل ذلك موقوف عليها للقارئ من الزوار. و فى غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه و سلم، و هى آية من آيات الله فى كمال بهجتها، و جمال صنعتها، و هى على استقامة المقصورة من جهة القبلة، و وضعها عليه الصلاة و السلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المكرمة. و إلى غرب القبلة المنبر الشريف، و هو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة، و على غاية فى الجمال و دقة

الصناعة، أرسل هدية من السلطان مراد الثالث العثماني إلى الحرم سنة ثمان و تسعين و تسعمائة للهجرة، فوضع في مكان المنبر الذي كان به لقايتباي، و هو نفس المكان الذي كان به منبر رسول الله صلى الله عليه و سلم. انتهى كلام البتونى فى كتابه المذكور، و إن شاء الله نحن سنتكلم عن الروضة و مساحتها فى مبحث مستقل بتفصيل تام عند ذكر نبذة من تاريخ المدينة المنورة فى آخر هذا الكتاب، فقف على مبحث الروضة الآتى لأنه مبحث مهم.

صفة بيته صلى الله عليه و سلم

قال البتونى فى كتابه "الرحلة الحجازية" عن ذلك ما نصه:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤٨

إن من ينظر إلى المقصورة الشريفة الحالية، و يعلم أنها أقيمت على مكان بيت النبي صلى الله عليه و سلم (المشهور ببيت عائشة)، و يفكر فى أبوابها، و تسمية كل باب باسم مخصوص، و يضيف إلى ذلك أن بيت السيدة فاطمة كان بجانب بيته صلى الله عليه و سلم، و أنه كان فيه شباك يطل على بيت أبيها، و كان صلى الله عليه و سلم يستطلع أمرها منه حتى سده محبة فى استقلال كل بيت عن الآخر، يحكم معى بأن وضع بيته مدة وجوده صلى الله عليه و سلم كان على الشكل الآتى:

و الذى ساعدنى على هذا الوضع ما ورد عن مالك رضى الله عنه "قسم بيت عائشة باثنين، قسم كان به القبر، و قسم كانت تكون فيه عائشة، و بينهما حائط، و كانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فضلا (يعنى سافرا)، فلما دفن عمر رضى الله عنه لم تدخله إلا و هى جامعة عليها ثيابها."

و من ذلك تعلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم كان به حجرتان. أما بابه فقد قال بعضهم إنه للشمال، و قال آخرون أنه للغرب و لكن يستتج من رواية ابن سعد أن له بايين حيث قال "لما قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم قالوا (الصحابه) كيف نصلى عليه؟

قالوا: ادخلوا من ذا الباب أرسالا، فصلوا عليه و اخرجوا من الباب الآخر،" و مما ورد أيضا أن بيت السيدة عائشة كان به صفة إلى منزل فاطمة، و كان به فتحة إلى القبلة، يؤيد ذلك قول ابن ذبالة: كان بين بيت حفصة و منزل عائشة الذى فيه القبر الشريف طريق، و كانتا تتهاديان الكلام و هما فى منزليهما من قرب ما بينهما. و حفصة زوج رسول الله صلى الله عليه و سلم و بنت عمر بن الخطاب، و كان بيتها كما لا يخفى على يمين خوخة آل عمر، أى فى جنوب بيت عائشة إلى الشرق.

و إنى لم أجسر على هذا الوضع إلا بعد تدقيق شديد فى أقوال الصحابة و التابعين الذين كانوا يتحرون كل مواقفه عليه الصلاة و السلام، و خصوصا فى بيته الذى أجمع المسلمون على أن موضع قبره صلى الله عليه و سلم فيه أشرف بقعة على سطح الأرض. و على كل حال فهذا استنتاج لى أورده لك و أنت حر فى تحسينه أو توهينه، و لو بدون دليل تقيمه عليه.

و عليه فيكون بيت السيد الرسول مدة حياته فى المدينة على الرسم (الموضوع فى جنوب المقصورة الشريفة) و هو أكثر بساطة من مسكنه فى مكة. و كان من دونه كما سبق منازل أزواجه رضى الله عنهن، و كان محيطها مع منزل عائشة مبنيا باللبن، و قواطعها الداخلة من الجريد المكسو بالطين و المسوح الصوفية: و من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤٩

ذلك يمكنك أن تحكم على مقدار بساطته صلى الله عليه و سلم فى مسكنه- بحيث إنه ما كان يتعدى فى أى حال من الأحوال الضرورى لحياته و حياة أزواجه. و قد ورد عن عطاء الخراسانى أنه قال "أدركت حجر أزواج النبي صلى الله عليه و سلم، فحضرت كتاب الوليد يقرأ يأمر بإدخالها فى المسجد فما رأيت يوما كان أكثر باكيا من ذلك اليوم، فسمعت سعيد بن المسيب يقول "و الله لو ددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناس من المدينة و يقدم قادم من الآفاق فترى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه و سلم فى

حياته، و يكون ذلك مما يزهّد الناس في التكاثر و التفاخر بها."

و مع هذا فإنك إذا أنعمت النظر في هيئة المكان على بساطته، و فكرت في وضعه الصحي، و كيف كانت منافذه منقية للهواء، و أبوابه داعية إلى السهولة في الدخول و الخروج و خفة الحركة مع وفرة الزمن و السرعة إلى المقصد، مما شرع فيه الآن في العمارات الكمالية، عرفت ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم من القناعة، و الزهد، و حسن الذوق. و من يتأمل في ذلك يرفيه خير درس للناس يتعلمون منه كمال وضع الأمور في مواضعها، من غير زيادة عن الحاجة و لا نقص عن الضروري، و هنالك يرى الغنى في ماله فضله يساعد بها الفقراء من عيال الله، فتبادل عاطفة الحنو و الشفقة فيما بينهم، و تثبت قدم المحبة في أفئدتهم، فيصبح الكل بين محب و محبوب، و شاكر و مشكور، و حامد و محمود، و هنالك تزول عوامل الحسد، و تموت شياطين التنافر و البغضاء، و يتحد الكل على العمل، بل يعمل الكل للكل، و يكون الناس على اختلاف طبائعهم و عوائدهم كأعضاء جسم واحد تعمل كلها لحياته و وجوده، و إذا يكونون قد قاموا بالمأمورية التي وجدوا من أجلها، و هي خدمة الإنسانية.

إشراق الدنيا بولادته صلى الله عليه و سلم

لا نريد هنا بسط الكلام على كيفية ولادة نبينا (محمد) صلى الله عليه و سلم، فإن ذلك معروف في كتب التاريخ و السير، و لكن نريد هنا ذكر شيء من ذلك بلون من الأدب الرفيع، و ذلك مما كتبه أديب مصر و كاتب العصر الأستاذ العظيم (الدكتور طه حسين) وزير المعارف الأسبق بمصر في زماننا، كما جاء في الجزء الأول من كتابه الشهير (على هامش السيرة) فإنه حفظه الله تعالى بعد أن ذكر حزن عبد المطلب بن هاشم على موت ابنه (عبد الله) قال ما يأتي:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥٠

و كان الشيخ يضحك في نفسه ضحكا حزينا يوشك أن يكون بأسا مهلكا و ثورة جامحة، لولا أنه كان ذا قلب تعلم كيف يطمئن للأحداث و يذعن للخطوب، و يصبر على النائبات. كان الشيخ يضحك في نفسه ضحكا حزينا حين كان يفكر في غرور قريش، و تقديرها أن الله قد رد طاغية الحبشة، و أرسل عليه و على جيشه ما أرسل من الطير الأبايل تكريما لها و إثارة، و حين كان يفكر في غروره هو حين كان يقدر أن الله قد أنقذ ابنه من مديته و فداه بمائة من الإبل إيثارة له بالعافية، و اختصاصا له بالكرامة. كلا. كلا. لم يهزم الفيل و أصحاب الفيل إكراما لقريش، و إنما هي آية أجراها الله لأمر يعلمه هو، و لا يعلم الناس منه شيئا. و لم ينقذ الله عبد الله من الموت و يفاده بمائة من الإبل إكراما له أو إكراما لأبيه، و إنما أنقذه من الموت و فداه بالإبل لأمر يريد به هو، و لا يعلم الناس منه شيئا. و إلا ففيم نجا هذا الفتى من الموت ليموت بعد ذلك بقليل، أليس غريبا أن ينجو من الموت ليتخذ له زوجا لا يقيم معها إلا وقتا قصيرا، ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ليعود إليها كما يعود الناس إلى أزواجهم، و لكن رفاقه يعودون و هو لا يعود، إنما يتخلف في يثرب ليموت عند أخواله من بني النجار، و قد عرفت زوجه بعد أن ارتحل عنها أنه قد حملها أمانة ما زالت تحملها في جوانحها، حتى إذا جاء أمر الله أدت هذه الأمانة. و من يدرى لعل عبد الله لم يوجد إلا ليودع هذه الأمانة عند زوجه، و من يدرى لعل آمنة لم توجد إلا لتؤدي هذه الأمانة إلى الناس، و كان الشيخ إذا فكر في هذا كله لم يملك نفسه أن يرى ابنه شديد النشاط، عظيم القوة، رائع الشباب، بارع الجمال، يستقبل السفر بأمل لا حد له ثم يراه نحيلًا، هزيلًا، شاحبًا، متهالكًا، محزونًا، يمرض على فراشه عند بني النجار، ثم يراه و قد دنا منه الموت مكابرا مكابرا، فاستله من الحياة أو استل الحياة منه، كأنما يثار لنفسه من تلك الهزيمة التي أصابته يوم الفداء، فكان الشيخ يستسلم لحزن عميق لا يخرج منه إلا اضطراب الناس من حوله، و إلحاح الناس عليه، و فيهم أبناءه و بناته، فيما كان يشغلهم من الأمور.

و كانت آمنة ترى نساء قريش و نساء بني هاشم من حولها، بيتسمنن للأيام و بيتهجن للحياة، فيعجبها ذلك منهن، و لا يداخلها حسد لهن أو ميل إلى مشاركتهن. كانت تحس إحساسا قويا، و لكنه غامض، بأن الأيام قد وفتها حظها من الغبطة و قسطها من النعيم في

ذلك الوقت القصير الذى قضته مع زوجها منذ لقيته بعد الفداء إلى الرحيل. و كانت تريد أن تسعد بالتفكير فى هذا الجين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥١

الذى تحسه يضطرب فى أحشائها، ولكنها لا تلبث أن تذكر زوجها، وأنه قد حرم السعادة بهذه النعمة، ففكره أن تستأثر من دونه بالخير، و تتحدث إلى نفسها بأن الاستمتاع بالأبناء و البنات لذة لا يستبد بها الفرد و إنما هى مشتركة بين اثنين فإذا ذهب أحدهما ثقلت على الآخر و شق احتمالها عليه، و كانت له مصدر ألم و حزن. لكنها مع ذلك لم تكن تجد هذا الألم الممض الذى كانت تقدره و تنتظره كأنما خلقت نفسها مدعنه، و كأنما فطر قلبها على الرضا، و كأنما استيقنت أن حياة الأحياء عبء يجب أن يحمل رضى الناس أو سخطوا، و أن احتمالها مع الرضا و الاطمئنان خير من السخط الذى لا يجدى، و الثورة التى لا تفيد.

على أن الأيام لم تكن تتقدم بآمنه نحو ذلك اليوم المشهود، حتى يغمرها شىء يشبه نسيان النفس و الانصراف عن الشعور الواضح بالحياة و التفكير الجلى فيها.

و كانت تنفق نهارها ذاهلة أو كالذاهلة، و تنفق ليلها فى نوم هادئ حلو الأحلام.

و ما أكثر ما كان يزورها من حلم، و ما أكثر ما كان يلم بها من طيف أو ما أكثرها ما كان يلقي إليها من حديث. حتى إذا كانت ذات ليله تنهياً للخروج من ذهول النهار و الدخول فى هدوء الليل، أحست بعض ما يحس النساء حين يدنو منهن المخاض. هنالك دعت إليها من حضرها من نساء بنى هاشم، فأسرعن إليها و قضين معها ليله لا كالليالى أنكرن فيها كل شىء و أعجبين فيها بكل شىء، أنكرن حتى أنفسهن، فقد رأين ما لم ير أحد، و سمعن ما لم يسمع أحد، و أحسسن ما لم يحس أحد. و لم تكن آمنة أقلهن إنكارا و إكبارا و إعجابا، فقد كانت ترى، و هى يقظة غير نائمة، أن نورا ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها و يزيل الحجب عن عيناها. و كانت تنظر فترى قصور بصرى فى أطراف الشام.

و كانت تنظر فترى أعناق الإبل تردى فى أقصى الصحراء. و كانت لا تتحدث إلى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول، و أن يظنن بها الظنون و كانت هذه من صاحباتها لا تمد طرفها إلى شىء حتى تراه نورا كله لا ظلمة فيه، و إنما هو مشرق مضىء، أو هو الإشراق الخالص. و كانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض و تمد إليها أشعة قوية نقيه باهرة ساحرة و إنها لتدنو و تدنو حتى يخيل إلى الرائية أنها توشك أن تمسها و تقع عليها. و كانت هذه الأخرى من صاحباتها ترى ظلمة مظلمة قاتمة و تأخذها رعدة قوية ناهكة، و يلم بها شىء كأنه النوم، تسمع أثناءه صوتا مهيبا رهيبا يسأل: (إلى أين ذهبت به؟) فيجيبه صوت مهيب رهيب إلى المشرق ثم ينجلي عنها ما ألم بها فتفتيق. ثم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥٢

يعاودها ما كانت فيه فإذا ظلمة قاتمة، و إذا رعدة قوية ناهكة، و إذا غاش يغشاها كأنه النوم، و إذا هى تسمع الصوت المهيب الرهيب يسأل: (أين ذهبت به؟) فيجيبه صوت مهيب رهيب: (إلى المغرب). ثم ينجلي عنها ما هى فيه فتفتيق و كذلك لم تدن السماء من الأرض كما دنت فى هذه الليلة. و كذلك لم ير الناس من الأعاجيب كما رأى هؤلاء النساء فى هذه الليلة. و لم تكن آمنة على هذا كله تجد ألما قليلا أو كثيرا و إنما كشف عنها كل حجاب، و رفع عنها كل غشاء، و خلى بينها و بين عالم من الجمال الذى يرى و من الجمال الذى لا يسمع لا عهد للناس بمثله. ثم ترى و ترى صاحباتها كأن شهابا انبعث منها فملأ الأرض و من حولها نورا يبهير الأبصار، ثم ترى فإذا ابناها قد مس الأرض يتيقها بيديه رافعا رأسه إلى السماء، محدقا ببصره إليها كأنما يلتمس عندها شيئا ثم تسرع صاحباتها إليه ليؤدين له و لها ما تحتاج إليه الأم حين تمنح الحياة، و ما يحتاج إليه الابن حين يستقبل الحياة. فإذا هى لا تحتاج إلى شىء و إذا هو لا يحتاج إلى شىء، و إذا هن يتناولن أجمل صبي، و أروع صبي، و أبرع صبي، و إذا قلوبهن قد امتلأت بأن الأرض قد استقبلت وليدا لا كالولدان.

ثم يشرق الفجر و تبسط الشمس رداءها النقى على بطحاء مكة و ما يحيط بها من الجبال، و يرتفع الضحى و يضطرب الناس فى

أمورهم و قد قضوا ليلا- جاهلا غافلا، لم يشعروا فيه بشيء، كأن لم يكن فيه شيء و لو قد كشف عنهم الغطاء، و لو قد أزيلت عن قلوبهم الحجب لرأوا و سمعوا و لكن الله قد جعل لكل شيء قدرا، فهو يظهر آياته لمن يشاء، و يخفي آياته على من يشاء. و عبد المطلب جالس في الحجر و حوله أبناؤه و جماعة من قريش، قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث. و هو يسمع إليهم بأذنيه و يعرض عنهم بنفسه، يفكر في فقيدته الذي لا يستطيع أن ينساه و إنه لفي ذلك و إذا البشير يقبل عليه مسرعا، حتى إذا انتهى إليه حياه و قال: لقد ولد لك غلام، فهلم فانظر إليه، فلا يسمع هذه البشرية حتى يحس أن الله قد أخلفه من فقيدته و رفق به في مصابه، و ادخر له عزاءه عن محنته فيسأل: أهو ابن عبد الله؟ فيجيبه البشير: نعم. فينهض مسرعا و ينهض معه بنوه و يمضون لا- يلوون على شيء حتى يبلغوا بيت آمنه فإذا دخل الشيخ و رأى الغلام أحس كأن الله قد أنزل على قلبه السكينه و جلا عن قلبه الحزن، و رده إلى غبطة و سرور بعد عهده بهما.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥٣

ثم يسمع حديث النساء فلا ينكر منه شيئا، كأنما كان ينتظره، و كأنما كان منه على ميعاد. ثم يرفع الصبي إليه فيقبله و يقول: لأسمينه محمدا، قالت آمنه: لقد أتاني في النوم فأمرني أن أسميه أحمد. قال عبد المطلب: فهو محمد و هو أحمد، و ما أرى إلا أنهما بعض أسمائه.

قلت لمحدثي: فقد زعموا أن عبد المطلب خرج بعد ذلك فنحر الإبل لأهل مكة، و نحر الإبل لأهل الشعاب، و نحر الإبل على رؤوس الجبال، ليطعم الناس و ليطعم الوحش. قال: و هل كان عبد المطلب إلا نعمة للناس و نعمة على الإبل.

و لكن عبد المطلب لم يفرغ من شأنه ذاك، و لم يعد إلى المسجد مع العصر حتى رأى أندمة قريش متجمعة فيه، تلهج كلها بحديث غريب و نبأ طريف أذاعه في مكة رجل من أهل الظواهر، فشغل به الناس و تناقلوه. و كان هذا الرجل طلبه أهل المسجد، ينتقل بحديثه من ندى إلى ندى، فلا يكاد يتم حديثه إلى قوم حتى يدعو إليهم قوم آخرون ليسمعوا منه و يسألوه. و كان يستجيب لمن يدعوه و لا يزهده في أن يعيد قصته مرة مرة، و كأنه قد أحس لنفسه خطرا، و كأنه قد رأى نفسه مطلوبا بعد أن لم يكن من قبل إلا طالبا و كأنه قد كبر في نفسه، فكان يقول و يطيل في القول و كان يفصل و يغرق في التفصيل. و كانت أفناء قريش تسمع له، فمنها من يعجب و منها من يرتاع، و منها من يلقي الحديث بالإغراق في الضحك، و منها من يلقي الحديث بهز الرؤوس.

و كان هذا الرجل يقص قصصه فيقول: ما كنت أعلم أن ليل أسرار ليست للنهار. و ما كنت أعلم أن للصحراء أبناء ليست للمدن و الأرض العامرة. و ما كنت أحسب أن في هذا الهواء الذي تنسمه و في هذا الفضاء الذي يحيط بنا أرواحا تتناجى، و أحياء تتجاذب الحديث، حتى رأيت ما رأيت، و سمعت ما سمعت، فتبينت أن حياتنا غرور، و أن علمنا جهل، و أن أحاديثنا لهو و هراء.

و الناس يتعجلونه فيقولون له: هات ما عندك من النبأ، حتى إذا فرغت من قصته فقل ما شئت، و هو يقول: لقد جنني الليل و إنني لفي طريق من الطائف إلى مكة فلا أحفل بذلك و لا أبه له، و لا أفكر في أن أوى إلى حى من هذه الأحياء التي تنتشر بيوتها في الطريق لأنتظر مشرق الشمس، و لكنني أمضى أمامي لا ألوى على شيء و لا أرهب شيئا، و ماذا أرهب و الطريق آمنه واضحة يسلكها الناس إذا أصبحوا و يسلكونها إذا أمسوا، يسرون فيها مع ضوء النهار، و يسرون فيها مع

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥٤

ظلمة الليل، قد عرفوها فهم لا يحتاجون إلى مرشد و لا دليل فأمضى أمامي مجدا في السرى، أريد أن أفجأ أهلى مع الصبح. و إنني لفي بعض الطريق و قد سكن من حولى كل شيء حتى لا أسمع إلا أخفاف مطيتي تمس الأرض مسافيقا، و إلا هذه الأناث التي ترسلها المطايا إذا جهدها السير و حنت إلى الراحة، و إلا ما كنت أناجى نفسى به من حديث أهلى إذ طلعت عليهم مع ضوء الشمس. و كان ضوء القمر قد انبسط على الفلاة هادئا نقياً فملاً نفسى أمنا و دعة و هدوءا و إنني لفي ذلك، و إذا غمغمة تصل إلي من بعيد، فلا أحفل بها و لا ألقى إليها بالا، و إنما أمضى فيما أنا فيه من الاستمتاع بلذة هذا السرى، و مس أخفاف مطيتي للأرض، و حينها إلى

ما بعد عهدها به من الراحة، و أحاديث نفسى عنم فارقت فى الطائف و عنم سألقى فى مكة و لكن الغمغمة تدنو منى أو أنا أدنو منها، و إذا هى تشتد شيئا فشيئا، و إذا أصواتها تمتاز و تستبين و إذا أنا أسمع أحاديث قوم يتهمسون، و إذا أنا أنظر فلا أرى أحدا و القمر مع ذلك مع ذلك مشرق مضىء، و الفلاة مع ذلك مبسوطه لا عوج فيها و لا ارتفاع، و الحديث مع ذلك من حولى واضح يملأ-الهواء و قلب مع ذلك يضطرب و يمشى فى صدرى رعبا و أنا أذهب بمطيتى إلى أمام و أرجع بها إلى وراء، و أذهب بها عن يمين و أذهب بها عن شمال، و أرفع بصرى إلى السماء و أخفض بصرى إلى الأرض، فلا أرى شيئا و لا أتبين شيئا إلا جمال هذا الضوء الرائع يغشى الأرض برداء نقى رقيق و هذه النجوم التى لا تحصى و قد تألقت فى السماء كأنها المصابيح، و انطلقت فى طريقها مسرعة كأنها تستبِق، و هذه الأحاديث الواضحة تتحدث بها جماعات لا أراها، و لكنها لا تستقر و إنما يمضى بعضها أثر بعض. و إنى لأسمع قائلا يقول "انظروا إلى السماء، فما أرى أنها كعهدنا بها من قبل. إن نجومنا لتتألق فى قوى لم نرها قط إنها لتستبِق فى سرعة لم نرها قط. إنها لتدنو من الأرض حتى أن نارها لتوشك أن تحرقنا. إن التصعيد فى السماء لعسير. و فيما نصعد إلى السماء و إن السماء لتهبط إلينا، إن البقاء على الأرض لعسير. و أنى لنا الثبات بهذا الضوء الذى لا يخفى عليه شىء، حتى أشباحنا الخفية التى لا تراها العيون (النجاء النجاء) إن للغيب لعجبا، و إن فى الأرض لحدثا، و إن الزمان ليستدير، و إننا لا ندرى أشد أريد بالناس أم خير، و إنى لأسمع ما أسمع و أرى ما أرى، فيبهرنى ما أسمع و يسحرنى ما أرى، و أشغل به حتى عن أن أسأل نفسى أين أكون و ما تكون هذه الأصوات،" و لكن أحس أصواتا أخرى كأنها تهيب بأهل تلك الأصوات التى كنت أسمعها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥٥

قائلة: (النجاء النجاء)، و لكن إلى أين إنكم لتفرون من مكة كأن شيئا أزعجكم عنها و قد كنتم فيها آمينين، و قد كنا نفر إليكم لأن شيئا أزعجنا عن دورنا، و أخرجنا من مأمننا، و اضطرنا إلى أن نهيم فى الأرض، لا ندرى ما هو، و لا ندرى من أين جاء، و إننا لتتسامع من أطراف الأرض بأن حدثا قد حدث، و بأن كائنا قد كان، إننا لتتسامع بأن إيوان كسرى قد اضطرب و مادت به الأرض فسقطت شرفاته و تهدم بنيانه. و إذا أصوات أخرى تصيح منتشرة فى الفضاء، و إننا لتتسامع بأن نار الفرس قد خبت فجأة لأول مرة منذ ألف سنة. و إذا أصوات أخرى تصيح. إننا لتتسامع بأن بحيرة ساوة قد جفت، و ما عهدناها إلا غزيرة جمه الماء. و إذا هذه الأصوات كلها تملأ الأرض، رقيقة خفيفة خائفة قلقة: (النجاء النجاء). إن للسماء لخبرا و إن الأرض لتستقبل يوما لم تستقبله من قبل، و إن لهذا اليوم فى حياة الأرض لشأنا لا ندرى أخير هو أم شر. (النجاء النجاء)، و لقد فقدت صوابى و أضللت عقلى فلا أحس شيئا، و لا أرى شيئا و لا أسمع شيئا، كأنما انتزعت من الحياة انتزاعا. ثم يمسنى برد السحر فأفوق و كأنما ثبت إلى نفسى من سفر بعيد. و أنظر حولى فأرى أصابع الفجر تمتد إلى الأشياء كأنما تريد أن تلمسها، و أرى الليل ينحسر عن الأشياء كأنما يودعها محزونا، و أرى النجوم تنهزم فى السماء كأنما تخاف جيشا منتصرا، و أرى ناقتى مدعنة لحكم السرى تمضى أمامها كأن شيئا لم يكن من حولها و أبلغ أهلى مع الصبح فيستقبلونى دهشين كما كنت أقدر و لكنى لا أستمتع بهذا الدهش كما كنت أريد.

و يتفرق الناس عن هذا الرجل و قد سمعوا منه، و إن بعضهم ليسأل بعضا: ماذا يقول و ماذا رأى؟ و إن بعضهم ليقول لبعض: لقد أخذه النوم فعبثت به الأحلام. و إن بعضهم ليقول لبعض: لقد مر بجماعة من جن الصحراء كانوا يسمرون. و يسمع عبد المطلب هذا كله فتثور فى نفسه خواطر لا ينكرها و لا يعرفها، و لكنه لا يطيل الوقوف عندها، لأنه مشغول عنها بمقدم حفيده اليتيم.

انتهى من كتاب على هامش السيرة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥٦

حينما كنا بمصر في عام ألف و ثلاثمائة و أربع و خمسين من الهجرة، اطلعنا على جريدة الأهرام التي صدرت هنالك في ١٢ ربيع الأول عام ١٣٥٤ هـ. الموافق ١٣ يونية سنة ١٩٣٥ م، و كان فيها مبحث قيم عن تحقيق تاريخ ميلاد رسول الله صلى الله عليه و سلم بقلم الفاضل الأستاذ عبد الحميد شكرى، فأثرنا نقله هنا لما فيه من الفوائد و هو هذا نصه:

قال الأستاذ المذكور: قادتني أبحاثي في كشف حقائق التوفيق بين الإسلام و النصرانية و هي التي قضيت فيها ٢٣ عاما إلى تحقيق تاريخ ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام. و تاريخ يوم نزول الإنجيل المقدس و تاريخ ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم. و تاريخ نزول القرآن الشريف. أما ميلاد السيد المسيح فقد كتبنا فيه تحقيقا في جريدة الأهرام في ٧ يناير سنة ١٩٣٠. و الآن و قد حققنا يوم ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم بغاية الضبط ننشر ملخصا لتفاصيله مؤيدا بالبراهين التاريخية و الدينية و العلمية. لتحقيق الحساب يجب فحص أقوال المؤرخين في السير النبوية و الأحاديث الصحيحة عن المدة من ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم إلى يوم نزول القرآن الشريف ثم إلى يوم هجرته ثم إلى يوم وفاته إلى أن تنظم التاريخ الهجرى.

و من الأهمية العظمى معرفة نوع التاريخ الذى كان مستعملا عند العرب لغاية يوم حجة الوداع التي فيها أصلح رسول الله صلى الله عليه و سلم التاريخ، و قد كانت طريقة النسئ بالشهور القمرية و السنين الشمسية فكل من أهمل في حسابه بحث هذه الطريقة كانت تحقيقاته عقيمة و يجب على الباحث أن يكون عالما بحركات الأرض و القمر حول الشمس؛ لأنها مقياس الزمان، بل يجب معرفة تطورات التواريخ من عربية و إفريقية و عبرانية لعمل المقارنة بينها لضبط الحساب.

فالتاريخ العبرى كان أول سنه شهر تشرين ثم صار شهر نيسان ثم أعيد في عصور مختلفة.

و التاريخ المسيحي صار إصلاحه في سنة ٣٢٥ ميلادية بواسطة مجمع نيقية.

ثم تعدل مرة أخرى في سنة ١٥٨٢ ميلادية بأمر البابا جيورجوس الثالث عشر و إليه ينسب الحساب الجريجورى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥٧

و التاريخ العربى كان من عهد إسماعيل عليه السلام بالشهور القمرية و السنين القمرية و كانوا يؤرخون ببناء الكعبة الشريفة إلى زمان عمر بن ربيعة الذى غير دين إبراهيم عليه السلام كما قيل ثم أرخوا بكعب بن لؤى الجد السابع للنبي عليه الصلاة و السلام، و ما زالوا يؤرخون به إلى عام الفيل فأرخوا به. و قد رجح المؤرخون أن هذا العام ولد فيه سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم، و ما زال العرب من عهد إسماعيل و إبراهيم عليهما السلام يحسبون التاريخ بالشهور القمرية و السنين القمرية و كانت أسماء الشهور تختلف عن أسماءها الحالية بنحو ٢٠٠ سنة كانت أسماؤها: المؤتمر، تاجر، خوان، صوان، حنين، زبا، الأصم، عادل، نافق، وغل، رنة، برك. و قد نظمها إسماعيل بن عباد في قوله:

أردت شهور العرب فى الجاهلية فخذها على سرد المحرم تشترك

فمؤتمر يأتى و من بعده تاجرو خوان مع صوان يجمع فى شرك

حنين و زبا و الأصم و عادل و نافق مع وغل و رنة مع برك

و كانوا يحجون إلى الكعبة فى شهر برك الثانى عشر و لما كان حجهم يقع أحيانا فى الصيف و أحيانا فى الشتاء أرادوا أن يجعلوا الحج فى أنسب المواسم التجارية و فى فصل الربيع حيث تكون الأرض مخضرة و الهواء معتدلا، ففى نحو سنة ٢٠٠ قبل الهجرة غيروا أسماء الشهور بأسماءها الحالية من محرم إلى ذى الحجة و استعملوا فى الحساب طريقة تماثل طريقة اليهود ليقع شهر الحج فى أول فصل الربيع، و هذه الطريقة تجعل السنة الشمسية كما يفعل اليهود.

فاليهود يكسبون أى يزيدون شهرا، ثالث عشر فى كل سنتين أو ثلاث سنوات- وفقا للحساب لأن الفرق بين السنة القمرية و السنة الشمسية ٨٧٥، ١٠ يوما أى نحو أحد عشر يوما و هو مقرب من ثلث شهر يصير هذا الفرق نحو شهر فى ثلاث سنوات و يسمونه شهر الكبس آذار الثانى فيقع شهر نيسان فى فصل الربيع كما أمر سيدنا موسى عليه السلام.

أما العرب فكانوا يستعملون طريقة أخرى تختلف قليلا عن حساب اليهود و تؤدي إلى نفس الغرض، و هي النسئ بدل الكبس أى الطرح بدل الزيادة، و ما زالوا على هذا الحساب الشمسى بالنسئ من سنه ٢٠٠ قبل الهجرة إلى سنه ١٠ بعد الهجرة يقع شهر الحج فى نحو شهر مارس ففى هذه المدة ٢١٠ سنه كان يقع حجهم إلى الكعبة فى فصل الربيع من كل عام حتى جاء النبى عليه الصلاة و السلام التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥٨

فى حجة الوداع سنه ١٠ هجرية فأبطل هذا الحساب و صحح التاريخ إلى حالته الأولى بالحساب القمري كما سيجىء مفصلا. ففى مدة حياته كلها كان العرب يحسبون الشهور قمريه و يسقطون شهرا ينسئوناه فى كل ثلاث سنوات أو سنتين وفقا للحساب ثم يزيدون شهرا ليجعلوا السنين شمسية- السنه ٢٤٢، ٣٦٥ يوما.

و هذا يخالف الحساب القمري- السنه ٣٦٧، ٣٥٤ يوما الذى أمر به رسول الله صلى الله عليه و سلم و صار عليه سيدنا عمر رضى الله عنه منظما من سنه ١٧ هجرية و استمر من سنه الهجرة إلى الآن.

فإننا وجدنا المؤرخين يقولون إن رسول الله صلى الله عليه و سلم ولد يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول عام الفيل، فيجب أن لا ننسى أن حسابهم بالنسئ الشمسى، و لما جاء علماء الفلك فى الإسلام وجدوا أن يوم الاثنين من ربيع الأول فى ذلك العام يوافق ٩ ربيع الأول و استمر الجدل بين الدين و العلم أى بين تمسك المتدينين بيوم ١٢ ربيع أول و بين علماء الفلك القائلين بأنه يوم ٩ ربيع الأول، و سأشرح كيف أن براهين العلم تؤيد صحة ما تمسك به أرباب الدين و هو أن يوم الاثنين كان يوافق ١٢ ربيع الأول.

اتفق معظم المؤرخين على أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ولد يوم الاثنين الواقع فى ١٢ ربيع الأول عام الفيل، و قليل منهم قال غير ذلك و ليس بينهم خلاف فى أنه عاش ٦٣ سنه قمريه منها ٥٣ سنه قبل الهجرة و ١٠ سنوات بعد الهجرة، فمولده كان فى سنه ٥٣ قبل الهجرة حسابا قمريا على التحقيق، و بما أن العالم الاسلامى متفق إلى الآن على أنه كان فى ١٢ ربيع الأول و بما أن الدول و الأمم و الملوك الإسلامية تحتفل به على هذا الأساس و لا داعى لتكرار ما ورد فى ذلك من كثير من الأقوال.

أما تعيين يوم الاثنين فيكفى فى تحقيقه الحديث المأثور عن النبى صلى الله عليه و سلم: (ولدت يوم الاثنين).

أما علماء الميقات و الفلك فحققوا أن الميلاد كان فى سنه ٥٣ قمريه قبل الهجرة و لكنهم وجدوا فى الحساب أن يوم الاثنين من ربيع الأول فى هذا العام يقع فى ٩ منه، و ليس فى ١٢ منه. فأرادوا أن يصحح المسلمون فى مشارق الأرض و مغاربها تاريخ الميلاد و يعتبروه يوم ٩ منه و لكنهم نسوا عنصر النسئ الشمسى الذى أدخله العرب على الحساب القمري.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٥٩

قال محمود باشا الفلكى فى كتابه نتائج الإفهام نسخة عربية فى صحيفه ٣٠ بعد بحث طويل- يتلخص من هذا أن سيدنا محمدا صلى الله عليه و سلم ولد فى يوم الاثنين ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ إبريل سنه ٥٧١ مسيحية: و هذا العام يوافق سنه ٥٣ قمريه قبل الهجرة. ورد فى كتاب الغازى أحمد مختار باشا أن محمدا صلى الله عليه و سلم ولد فى يوم الاثنين ٩ ربيع الأول سنه ٥٣ قبل الهجرة الموافق ٢٠ إبريل سنه ٥٧١ مسيحية.

و جاء فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى مجلد ٢٣ صفحه ١١٧٤ ما ترجمته:

إن محمدا ولد فى ٢٠ إبريل سنه ٥٧١ ميلادية، و هو يوافق ٩ ربيع أول سنه ٥٣ قبل الهجرة.

سجل الأستاذ فريد و جدى فى دائرة معارفه ما يأتى: ولد رسول الله صلى الله عليه و سلم فى صبيحة يوم الاثنين ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ إبريل سنه ٥٧١ ميلادية.

سجل الأستاذ محمود ناجى فى تقاويم الحكومة: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم ولد يوم الاثنين ٩ ربيع الأول سنه ٥٣ قمريه قبل الهجرة.

أما أبحاث علماء الفلك و الحساب الذين توصلوا إلى أن محمدا صلى الله عليه و سلم ولد يوم الاثنين ٩ ربيع الأول ترى أن المسألة

من الدقة بمكان.

إن حساب أولئك الأفاضل المحققين قمرى و هذا الحساب لم يكن العرب يستعملونه أبدا فكيف يحاسبونهم بما لا يستعملون و لست أدرى كيف فاتهم أن العرب فى عهد الرسول عليه الصلاة و السلام، كانوا يستعملون تاريخ النسب يشهد الله فى قرآنه و كفى بالله شهيدا، و يشهد الرسول و قوله الحق، و يشهد المؤرخون بأن العرب كانوا يحسبون الزمان بالنسب الشمسى.

فنستعرض على القارئ أولا أقوال المؤرخين: يستدل من كتاب الخطط للمقريزى جزء أول صفحة ٢٨٢ على أن العرب فى مدة حياة الرسول عليه الصلاة و السلام كانوا يحسبون التاريخ بالنسب، و ورد فى كتاب العبر لابن خلدون صفحة ٣٢١ قوله: و بنو عامر بن ثعلبة ابن الحارث بن مالك بن كنانة منهم نساء الشهور فى الجاهلية، و كل من صارت إليه هذه الطريقة يسمى القلمس، و أول من نسا الشهور سمير بن ثعلبة بن الحارث، و فى تفسير الطبرى مجلد ١٠ صفحة ١٠٢: و كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام فى الموسم على حمار له فيقول:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦٠

أيها الناس إني لا- أعاب و لا- أجاب و لا مرد لما أقول إنا قد حررنا المحرم و أخرنا صفر، ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، و يقول: إنا قد حررنا صفر و أخرنا المحرم فهو قوله: لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ قَالَ: يعنى الأربعة الحرم فيحلوا ما حرم الله لتأخير هذا الشهر الحرام، إلى أن قال: حدثنا عن مجاهد فى قوله تعالى: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ، قال: فرض الله الحج فى ذى الحجة، قال: و كان المشركون يسمون الأشهر ذو الحجة و المحرم و صفر و ربيع و جمادى و جمادى و رجب و شعبان و رمضان و شوال و ذو القعدة و ذو الحجة فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفر صفر ثم يسمون رجب جمادى الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان ثم يسمون رمضان شوال ثم يسمون ذو القعدة شوالا ثم يسمون ذى الحجة ذا القعدة ثم يسمون المحرم ذى الحجة ثم عادوا بمثل هذه القصة فكانوا يحجون فى كل عامين حتى وافقت حجة أبى بكر رضى الله عنه الآخر من العامين فى ذى القعدة ثم حج النبى صلى الله عليه و سلم حجته التى حج فوافق ذى الحجة فذلك حين يقول النبى صلى الله عليه و سلم فى خطبته: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض).

و ورد فى تفسير روح المعانى للآلوسى (مجلد ٤ صفحة ٣٠٥): و كان فى السنة التاسعة من الهجرة التى حج بها أبو بكر رضى الله عنه بالناس فى ذى القعدة، أن الحج كان دائما فى ذى الحجة و لكن بسبب النسب وقع شهر ذى الحجة مكان ذى القعدة، و ورد مثل ذلك فى صحيح البخارى و تاريخ الطبرى و تاريخ العبر لابن خلدون.

و فى تفسير الطبرى فى صحيفه ٩٣: حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال ابن زيدون فى قوله تعالى: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْآيَةَ. قال: هذا كان رجل من بنى كنانة يقال له التلمس كان فى الجاهلية و كانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه فلا يمد يده إليه، فلما كان هو قال: اخرجوا بنا، قالوا له: هذا المحرم، فقال: ننسئه العام هما لعام صفران فإذا كان عام قابل، قال: لا تغزوا فى صفر حرموه مع المحرم هما محرمان المحرم أنسأناه عاما أول و نقضيه ذلك الإنساء إلى أن قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهرا فيجعلون المحرم صفر فيستحلون فيه الحرمات، فأنزل الله: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦١

و فى صبح الأعشى جزء ٢ صفحة ٦٦ قوله: إلى أن حدث فىهم النسب فكانوا ينسئون المحرم فيؤخرونه إلى صفر فيحرمونه مكانه و ينسئون ربيعا و يؤخرونه إلى شعبان فيحرمونه مكانه ليستيحوا القتال فى الأشهر الحرم.

و فى تفسير النيسابورى مثل هذه التفصيلات حيث قال ما معناه: إن النسب هو تغيير السنة من ٣٥٤ يوما و كسور إلى ٣٦٥ يوما و كسور. و جاء فى السير الحلبية جزء ٣ فى باب حجة الوداع: إن أهل الجاهلية كانوا يؤخرون الحج فى كل عام أحد عشر يوما حتى يدور

الدور إلى ٣٣ سنة فيعود إلى وقته، و لذلك قال عليه الصلاة و السلام في هذه الحجّة: الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض فإن هذه الحجّة كانت في السنة التي عاد فيها الحج إلى وقته و كانت سنة عشرة بعد الهجرة.

و نجد في دائرة المعارف الفرنسية مجلد ٨ صحيفة ٩٠١ ما ترجمته: في سنة ٤١٢ بعد المسيح غير العرب أسماء الشهور إلى الشهور المعلومة الآن و كانوا ينسئون في شهر برك و هو الشهر الثاني عشر حتى أصلح محمد التاريخ في سنة ١٠ هجرية فصارت السنة قمرية أى قصر ١١ يوما.

و من الغريب بعد كل ما ذكرنا أن يقع الغازي أحمد مختار باشا الفلكي في الخطأ فيعتبر النسئ كبسا، فقد دون في صحيفة ٤٢ من كتابه إصلاح التقاويم ما يأتي:

إن سنة العرب في عهد سيدنا إبراهيم و سيدنا إسماعيل عليهما السلام كانت اثني عشر شهرا قمريا تضبط من رؤية الهلال إلى رؤيته ثانيا، و كانت أربعة منها حرم تسمى بالأشهر الحرم و كانوا يمتنعون فيها عن الجدل و القتال و يشتغلون فيها بزيارة الكعبة و بأمور راحتهم و قبل ظهور الإسلام بنحو ٢٠٠ سنة بالتخمين استعملوا سنة مختلفة ما بين شمسية و قمرية كالطريقة العبرية و هي أنه كل ما صار الفرق بين السنة الشمسية و السنة القمرية و هو ١١ يوما بالتقريب مساويا لشهر واحد أضافوه إلى السنة فتصير مركبة من ثلاثة عشر شهرا: فهو يقول بالزيادة لا بالنقصان.

أورد بالصحائف ٤٨-٥١ جدولاً عن العشر سنوات التي بعد سنة الهجرة مبينا فيه كيفية الكبس عن السنين العربية الشمسية في تلك المدة على طريقة اليهود، ظن أن النسئ معناه الكبس فاعتقد أن العرب في الجاهلية كانوا يزيدون

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦٢

شهرا ثالث عشر مثل اليهود و لو كان كذلك لسمى هذا الحساب كبسا لا نسيئا.

و الحقيقة: أنهم كانوا يتركون شهرا و يجعلون التالي له مكانه في كل ثلاث سنوات أو سنتين و يحجون في الشهر الثالث عشر، و كان هذا الفلكي الكبير يستند في ذلك إلى كتاب الآثار الباقية لأبي الريحان البيروني الفلكي الجليل و لكن إذا نظرنا إلى ما قاله البيروني نجد أنه يبين طريقة النسئ على خلاف ما استنتجه مختار باشا.

و البيروني أبو الريحان أحمد هو المهندس الفلكي أكبر مشاهير الفلكيين المحققين في العالم في زمانه المولود يوم الخميس ٣ ذي الحجّة سنة ٣٦٢ هجرية و كان علماء أوروبا يسترشدون بمؤلفاته القيمة و كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية مطبوع بالعربي في ليزج بألمانيا، جاء به في صحيفة ٣٤: و كبنى إسماعيل من العرب فإنهم كانوا يؤرخون ببناء إبراهيم و إسماعيل حتى تفرقوا و خرجوا من تهامة فكان الخارجون يؤرخون بخروجهم و الباقون يؤرخون بآخر الخارجين منهم حتى طال الأمد فأرخوا بعام رئاسة عمرو بن ربيعة المعروف بعمر بن يحيى و هو الذي يقال إنه بدل دين إبراهيم و حمل من مدينة البلقاء صنم هبل و عمل إسافا و نائلة ...

ثم أرخوا لعام موت كعب بن لؤى ... ثم أرخوا بعام القدر إلى عام الفيل ثم أرخوا به إلى تاريخ الهجرة، و في صحائف ٦٠-٦٢ ذكر أسماء الشهور عند العرب الجاهلية و تغييرها إلى الشهور الحالية إلى أن قال: و كانوا في الجاهلية يستعملونها على نحو ما يستعمله أهل الإسلام و كان حجهم يدور في الأزمنة الأربعة ثم أرادوا أن يحجوا وقت إدراكهم سلمهم من الأدم و الجلود و الثمار و غير ذلك و أن يثبت ذلك على حالة واحدة و في أطيب الأزمنة و أخصبها فتعلموا الكبس من اليهود المجاورين لهم و ذلك قبل الهجرة بقریب من ٢٠٠ سنة فأخذوا يعملون بها ما يشاكل فعل اليهود من إلحاق فضل ما بين سنينهم و سنة الشمس شهرا بشهورها و يتولى الغلامى من بنى كنانة بعد ذلك أن يقوموا بعد انقضاء الحج و يخطب في الموسم و ينسئون الشهر و يسموا التالي له باسمه فيتفق العرب على ذلك فيقبلون قوله و يسمون هذا من فعلهم النسئ لأنهم كانوا ينسئون أول السنة في كل سنتين أو ثلاثة شهرا على حسب ما يستحقه التقدم، قال قائلهم:

لنا ناسئ تمشون تحت لوائه يحل إذا شاء الشهور و يحرم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦٣

و كان النسئ الأول للمحرم و سمي صفر به و شهر ربيع الأول باسم صفر ثم والوا بين أسماء الشهور، و كان النسئ الثاني للصفر و سمي الذي كان يتلوه بصفر أيضا و كذلك حتى دار النسئ دورته في الشهور الاثنى عشر و عاد إلى المحرم فأعادوا بها فعلهم الأول و كانوا يعدون النسئ و يحددون به الأزمنة فيقولون قد دارت السنون من زمان كذا إلى زمان كذا دورة فإن ظهر لهم مع ذلك فقدم شهر عن فصله من الفصول الأربعة لما يجتمع كسور سنه الشمس الذي أحقوه بها كبسوها كبسا ثانيا و كان يتبين لهم ذلك بطولع منازل القمر و بسقوطها حتى هاجر النبي عليه الصلاة و السلام كانت نوبه النسئ كما ذكرت بلغت شعبان و سمي محرما شهر رمضان صفر فانظر النبي صلى الله عليه و سلم حينئذ حجة الوداع و خطب للناس و قال فيها: «ألا و إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض»، عنى بذلك أن الشهور قد عادت إلى مواضعها و زال عنها فعل العرب بها، و لذا سميت حجة الوداع الحج الأقوم، ثم حرم ذلك و أهمل أصلا. انتهى.

هذا الفلكي الجليل هو أعظم الشارحين بيانا و تفصيلا لذلك قد اتخذناه إماما و المؤرخون أجمعوا على أن العرب مدة حياة النبي صلى الله عليه و سلم كانوا يستعملون النسئ الشمسي في حساب تواريخهم. كلما ذكر المؤرخون العرب يوم ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم، أو يوم نزول القرآن الشريف أو يوم الهجرة أو يوم خطبة الوداع كانوا يذكرونه على حساب التاريخ الذي كانوا يستعملونه في ذاك الزمان بالنسئ، فجميع المؤرخين الميقاتيين و غيرهم الذين حسبوا تاريخ مولد سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم و تاريخ نزول القرآن الشريف بالحساب القمري أنهم يحسبون على ما لم يكن العرب يستعملونه.

شهد الله أن التاريخ بالنسئ ما زال قائما في الحج و في حساب العرب بدليل قوله تعالى في سورة التوبة: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ، يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يُحَرِّمُونَهُ عَامًا، لِيُؤَاظِمُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ، وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦٤

أمر الله تعالى أن تعتبر السنة اثني عشر شهرا قمريا ليس فيها شهر ناقص يتغير، و لا كبس شهر زائد ثالث عشر، و لا تواطؤ و لا اختلاس و لا ضلال، لأنه تعالى رسم في الطبيعة ١٢ شهرا كما يعدها القمر في دورانه حول الأرض لتتبع حسابا صحيحا لا يخطئ ذلك الدين القيم سليم من الخطأ، و قد نزلت سورة التوبة التي فيها آية النسئ في سنة ٩ هجرية بدليل ما ورد في تفسير الطبري عن الآية الشريفة في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعِيدَ عَمِهِمْ هَذَا أَى: بعد العام الذي نادى فيه على كرم الله وجهه ببراءة و ذلك عام حج أبو بكر بالناس سنة ٩ و كانت حجة الوداع سنة ١٠.

هذا دليل قاطع على أن العرب كانوا يحسبون تاريخهم بالنسئ الشمسي حتى سنة ٩ هجرية و ما زال العمل به قائما حتى لغاه سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم و أصلح التاريخ في خطبة الوداع يوم الجمعة ٩ ذى الحجة سنة ١٠ هجرية الموافق الجمعة ٩ آذار الثاني سنة ٤٣٩٢ عبرية، الموافق الجمعة ٩ مارس سنة ٦٣٢ مسيحية. و هذا الاتفاق في تواريخ دين الله كله كان عجيبا جديرا بالنظر و الاعتبار.

فمن قال من الميقاتيين أن سيدنا محمدا صلى الله عليه و سلم ولد يوم ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة حسابا قمريا الموافق الاثنى ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ مسيحية لم يكن على الحق مهما كان حسابه فلكيا صحيحا لأن هذا التاريخ على الحساب القمري و لكنه غير ما كان يستعمله العرب من حساب النسئ الشمسي بدليل قول الله تعالى في كتابه الكريم. و قد ثبت بالبرهان العلمي أن سيدنا محمدا صلى الله عليه و سلم ولد يوم الاثنى ١٢ ربيع الأول.

وصف رضاعته صلى الله عليه وسلم

لا نريد هنا بسط الكلام على رضاعه نبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك معروف في كتب التاريخ والسير، و لكننا نحب هنا ذكر قصة الرضاعة بلغة أهل الأدب، فإن لذلك طعما غير طعم عبارة التواريخ، فإليك القصة بقلم عميد الأدب في زماننا هذا (الدكتور طه حسين) وزير المعارف المصرية سابقا، فقد قال حفظه الله تعالى في الجزء الأول من كتابه "على هامش السيرة" ما يأتي:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦٥

أقبل المراضع إلى مكة عجافا نحافا، تحملهن حمر عجاف نحاف، ويصحبهن أزواجهن قد مسهم الضر، وأعياهم الكسب، واشتدت عليهم السنة، وأجدبت بهم الأرض، فما يجدون إلى أمن ولا دعة ولا حياة سيلا. وقد أقبلوا كدأب أهل البادية إلى مكة يلتمسون الرضعاء أبناء السادة والمترفين في قريش، و يبتغون بذلك فضلا من مال و نافله من نعيم، و حظا من هذا البر الذي تطمع فيه المراضع عند أهل الرضعاء. فلما ألقوا رحالهم، انحدر المراضع إلى مكة يعرضن أنفسهن على دور الأغنياء وأهل الثراء، و منازل السادة و أصحاب الشرف من أهل البطحاء و أسرع أزواجهن إلى المسجد يطوفون و يلقون سراة الناس من قريش، فيسمعون منهم و يتحدثون إليهم و يستعينون بهم على احتمال أثقال الحياة في تلك البادية النائية، بادية بنى سعد بن بكر. و ما هي إلا طوفة في الضحى على بعض المنازل و الدور حتى آب المراضع موفورات مجبورات، و قد وجدت كل واحدة منهن رضيعا من أسرة كريمة موسرة، فامتلات يدها بالمال، و نفسها بالأمل، و قلبها بالغبطة و الأمن على قوت العيال، إلا- حليمة بنت أبي ذؤيب، فإنها عادت إلى زوجها كئيبة محزونة، لا تحمل إلا ابنتها الهزيل النحيل الذي يصيح في غير انقطاع، و يبكي في غير هدوء، لشدة ما مسه من ألم الظمأ و الجوع. و لقي الأعرابي امرأته الشابة محزونا مثلها، كئيبا مثلها لا يؤذيه ما يحس من الجوع و الظمأ، كما يؤذيه ما يسمع و يرى من بكاء الطفل و توجع أمه البائسة.

قال: إنى لأرى أترابك من المراضع يرجعن موفورات مجبورات يحملن الرضعاء، فما بالك تعودين لا تحملين رضيعا إلا هذا الطفل؟ ألعلك قد دلت الناس على مكاننا من البؤس و حظنا من الفاقة حين احتملت هذا الطفل الذي لا ينقطع له صياح؟ ألعلك قد أياست الأمهات و أخفت الآباء ألا يلقي أبناؤهم عندك ما يرويههم من ظمأ أو يشبعهم من جوع؟ ليتنى لم انحدر مع الناس إلى المسجد و ليتنى بقيت هنا أحفظ عليك هذا الطفل، حتى لا يسمع الأمهات و الآباء له بكاء و لا شكاة، و حتى لا يرى الآباء و الأمهات عليه بؤسا و لا ضرا.

قالت: و الله ما صد عنى الآباء و الأمهات، و لقد أسكت هذا الطفل فما بكى و لا شكى، و ما أحس أحد عنى و لا عليه ضرا أو شرا، و إنما صددت أنا عن رضيع صد عنه الأتراب من قبلى.

قال الأعرابي: و فيم صد كن عنه و اجتنابكن له.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦٦

قالت: يتيم ليس له أب يرعاه أو يكلؤه، إنما هو إلى أمه و جدته. و ما تصنع أمه و ما يصنع جده، و ماذا تنتظر من بر الأمهات بالمراضع و من بر الجدود بالحفدة، و إنهم لكثير.

قال: صدقت، و ما لإرضاع اليتامى و المساكين أقبلنا من ديار بنى سعد.

و إنى لأجد في نفسى إشفاقا على هذا اليتيم رحمة له، و لكن ماذا نصنع به في تلك الأرض النائية إذا لم يصل إليه و إلينا من بر أهله ما يقيمه و يقيمنا، و يصلح من حاله و من حالنا؟

قالت: لقد رأيت فأحبته، و نظرت إليه فرققت له. و لقد أنست من أمه دعة و لينا، و لقد نازعتنى نفسى إلى أن أحمله لولا أنى أشفقت مما تقول، و لولا أنى ذكرت الجدب و شدة السنة و انقطاع المادة و أشفقت عليه مما نحن فيه.

قال الأعرابي: فستقفل إذا كما أقبلنا، و يقفل القوم راضين. و إني و الله يا ابنه أبا ذؤيب ما أدري أتبلغنا أتاننا و شارفنا ديار بني سعد، و إنك لتعلمين أن أتاننا منهوكة مكدورة، و أن شارفنا ما تبض قطرة من لبن.

قالت: فلنقم، فإن الأطفال يولدون، و لعل الله أن يرزقنا بين اليوم و غد رضيعا نجد عند أهله ما يرضينا.

و همّ المراضع بالقفول، و أخذت بنت أبي ذؤيب تنظر إليهن محزونة مكلومة يؤديها ما ترى من إنجاحهن و إخفاقها، و من قفولهن و تخلفها، و أخذ الأعرابي ينظر إلى رفاقة يشدون الرحال على المطايا، و يحملون النساء على الأتن فيؤذيه ذلك و يغیظه، و لكنه يخفي ما يجد من الغیظ، و يظهر التجلد و الصبر. حتى إذا مضى اليوم و أمعنوا في الطريق و بعدوا عن مرمى العين، نظر الرجل إلى امرأته و نظرت المرأة إلى زوجها، و نظر الزوجان إلى ابنيهما و استمعا لبكائه، و إذا هي تقول لزوجها: ما أدري. لعلی لم أحسن حين جاريت أترابي و أعرضت عن هذا اليتيم، و إن نفسي لتنازعني إليه، و إن قلب ليعطفني عليه، و إني لأحس كأنه يدعوني، و إني لأشعر كأنني لا أستطيع عنه صبرا، و إني لأرجو إن استجبت لهذا الدعاء الخفي أن يكون الله قد قدر لنا خيرا و آثرنا ببعض ما نحب. قال: فلا عليك يا ابنه أبا ذؤيب، اذهبي إلى يتيملك فخذيه، فإني أكره أن يرحل القوم و نبقي، و أن يصلوا إلى ديار بني سعد فيتحدث المراضع أنهم قد ظفروا بالرضعاء و أن نفوس الآباء و الأمهات قد انصرفت عنك و زهدت فيك.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦٧

فتنهض بنت أبي ذؤيب فتعود إلى آمنة فتعرض عليها إرضاع الطفل، و إذا آمنة تأبى و قد آذاها ما رأت من إعراض المراضع و انصرافهن، و على وجهها آيات حزن عميق، و في صوتها بقية من بكاء، و أمتها بركة تعينها على الإباء و تحرضها على الامتناع. و لكن ابنه أبا ذؤيب تنظر إلى الطفل فإذا قلبها يمتلئ حبا له، و إذا هي تحس أنها مدفوعة إليه دفعا، و إذا هي تسرع إلى الطفل فترفعه بين يديها و تدنيه من صدرها، و إذا الطفل يلتمس الثدي كأنما كان منه على ميعاد، و إذ هو يشرب حتى يروى، و إذا بنت أبي ذؤيب تجد من اللبن ما لم تكن تجد من قبل، و إذا آمنة تستجيب لها، كيف تأبى عليه و قد رأت من حبا للطفل و من إقبال الطفل عليها و من إرضاعها له ما رأت. لقد أصبحت هذه الظئر له أما. قالت آمنة: خذيه و لا تراعي، فإني لأرجو ألا تجدى منه إلا خيرا، فلقد حملته فما وجدت له ثقلا، و لقد انتظرتة تسعة أشهر فما أحسست مما يحس النساء قليلا و لا كثيرا، و لولا غاشية الحزن التي غشيتنا بفقد أبيه لكانت هذه الأشهر أسعد ما تظفر به امرأة من دهرها. و لكن الحوادث تحدث و الخطوب تلم و الآمال تقطع و قد كان يرجى أن تتصل. و السحب تتراكم فتحجب ضوء الشمس. و لقد وضعت هذا الصبي فما عرف صاحباتي على و عليه شيئا مما تعودن أن يعرفن على الأمهات و الولدان. و إنك لتنكرين يا ظئر لو تسمعين. قالت حليلة: و ماذا أسمع و ماذا أنكر؟ قالت آمنة: لم أكن تلك الليلة في دار من دور قريش، و إنما كنت في مكان لم يألفه الناس: كنت في بحر من النور كله رحمة و بر و رضوان. و ما لك لا تنكرين هذا يا ظئر و قد أنكرته أنا و أنكرته صواحيبي؟ و ما لك لا تعجبين يا ظئر و قد عجبت و عجبت صواحيبي و عجب جده الشيخ. سلى حاضنته هذه تنبئك بما رأت و ما سمعت. سلى من شئت من نساء بني هاشم و رجالهم تعلمي أن لابني هذا اليتيم شأننا ليس لغيره من أبناء الأغنياء و أهل اليسار. لا تراعي يا ظئر، فإنك تحملين وليدا كريما لأب كريم وجد كريم. ثم انهلت من عينها دموع غزار و قالت في صوت يقطعه البكاء: لا- تياسى يا ظئر، فإن معروفنا على قلته سيصل إليك، و رب قليل خير من كثير. قالت حليلة، و قد رق قلبها و جادت عيناها ببعض الدمع على غير عادة الأعرابيات: لا بأس عليك يا ابنه و هب، فإني و الله ما استطعت صبرا على هذا الصبي منذ رأيتة. و إني و الله ما أدري ما الذي عطفني عليه حتى رجعت إليك آخذة منك. و قد كنت أستطيع القفول، و قد كنت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦٨

أستطيع المكث في بلدكم هذا يوما أو أياما، فالأطفال يولدون، و سراه قريش في حاجة إلى المراضع كل يوم، و لكنه و الله أمر يراد. و انصرفت حليلة بابنها الجديد راضية مسرورة، قانعة بما زودتها به آمنة من البر و المعروف، حتى إذا انتهت إلى زوجها الأعرابي لقيها باسم الثغر، مشرق الوجه، سعيدا أن لا تعود إليه صفر اليدين. و لم يكد ينظر إلى الطفل حتى انطلق لسانه، و إذا هو يقول لامرأته: إيه

با ابنه أبي ذؤيب، ما رأيت كالأيوم وجها مشرقا يفيض منه البشر، إني والله لأرجو أن يكون لنا من هذا الغلام خير. وينهض الأعرابي إلى شارفه يلتمس في ضرعها الجاف قطرات من لبن يبل بها ظمأ امرأته و ينقع بها بعض غلاته فما أسرع ما يأخذه عجب لا ينفضى حين يرى شارفه حافلة تمنحه من اللبن ما يريد و ما تريد امرأته، و فوق ما يريد و ما تريد امرأته. و ينظر الأعرابي فإذا ابنه الأول يجد عند أمه ما يرويه و يرضيه، و إذا وجهه الكالح المظلم قد أخذ يشرق و يضىء، و إذا ابتسامه حلوة طاهرة قد ارتسمت على ثغره البرىء، و إذا هو يقول لامرأته: تعلمى يا بنت أبى ذؤيب إنك قد حملت نسمة مباركة.

و تنهض الظئر إلى أتانها فتركبها، و تضع الرضيع بين يديها، و ينهض الأعرابي إلى شارفه فيمتطيها، و يرميان بنفسيهما فى الطريق يلتمسان الركب من بنى سعد، و الركب بعيد قد دفع به فى الطريق طويلة نائية. و لكن الأعرابية تجد من أتانها نشاطا و حدة، و لكن الأعرابي يجد فى شارفه قوة و مرحا، و هما يمضيان و كأنهما تطوى لهما الأرض طيا. ثم يقول الأعرابي لامرأته: مدى عينيك يا ابنه ذؤيب، أترين شيئا؟ قالت: إى و الله، إنى لأراهم، و إنهم لأدنى من مرمى العين. و ما هى إلا- أن يبلغ الأعرابي جماعة بنى سعد، فيعجب الناس بأمر حلیمه و قد أدركتهم فى غير جهد و لا كد، و الأمد بعيد، و الطريق شاقه. و يسأل النساء حلیمه عن هذا الرضيع الذى تحمله، فإذا أنبأتهن بنبته أظهرن لها الرقة و الرثاء، و أضمرن التيه و الكبرياء. و يمضى الركب أخذا بأطراف الحديث، و إن حلیمه لتسبق أترابها حتى تعيهن، و إن أترابها ليقنن لها: أهذه أتانك يا ابنه أبى ذؤيب التى أقبلت بك إلى مكة؟ فتقول: هى و الله أتانى ما غيرتها. فيقلن: اربعى علينا يا بنت أبى ذؤيب، فما رأينا كالأيوم مرحا و لا عدوا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٦٩

و يبلغ الركب ديار بنى سعد، و يثوب المراضع إلى بيوتهن و يستأنفن حياة أهل البادية فى أرض مجدبة قلّ فيها الرعى و الماء، و كثر فيها البؤس و الشقاء، و غنم حلیمه ترعى كما ترعى الغنم، و لكنها تروح ملا- حفلا- لا- يظمأ أصحابها و لا- يجوعون، تروح غنم السعديين مهزولة نحيلة ناضية، لا تكاد تبض بما يبيل الريق، و هم يقولون لرعاتهم: ويلكم ارعوا حيث ترعى غنم ابنه ذؤيب. فيقول الرعاة:

و الله إن لرعى حيث ترعى، و إنها و الله لا- تجد أكثر مما نجد، و لكنها تروح ملا- و نروح بغنمنا كما ترون، لا تغنى من ظمأ و لا جوع. فيقولون: إن لابنة أبى ذؤيب لشأنا.

و تنعم حلیمه و ينعم أبناؤها بحياة راضية هادئة و ينمو رضيعها و يزكو. و تقضى هذه الأسرة عامين راضين لا تعرف فيها مشقة و لا جهدا، و لا تجد فيهما ألما و لا سقما، و إنما هى أيام و ليال تطرد و يمضى بعضها فى أثر بعض، لا كدر فيها، حتى إذا آن للرضيع أن يثوب إلى أمه نظرت حلیمه و زوجها، فإذا الطفل قد نما و زكا كأحسن ما ينمو الأطفال و يزكون، لم يكد يتم الثانية و كأنه ابن الأربع، و القوم عليه حراص، و لكنهم يؤدونه على ذلك إلى أمه كارهين. ثم تهمل حلیمه أن ترجع و قد أرضت آمنه و عبد المطلب و أرضتها آمنه و عبد المطلب، و لكنها لا تستطيع فراق الطفل حبا له و حدبا عليه، و رغبة فى استبقاء ما وجدت فى استصحابه من خير، فتلح على آمنه أن ترده معها إلى البادية حيث الهواء النقى، و السماء الصافية، و الحياة الهادئة البريئة، هناك حيث لا مرض و لا وباء و لا فساد. و تجيبها آمنه إلى ما أرادت و قد آثرت الطفل على نفسها، وضحت بلذة الأمومة فى سبيل تنشئء ابنها تنشئئا صالحا. و هل عرفت آمنه إلا التضحية؟ و تمضى حلیمه بالصبي راضية، و تبقى آمنه فى مكة محزونة، و تنظر بركة إلى حلیمه نظرات فيهن الحسد. و تنظر بركة إلى آمنه نظرات فيهن اللوم.

قلت لمحدثى: فكيف قضى الصبى أيامه بعد ذلك فى البادية، و كم أقام عند ظئره فى ديار بنى سعد؟ قال: إن لهذا لحديثا عجيبا مهما أبلغ من البراعة و قوة البيان فلن أقصه عليك فى تلك السذاجة الحلوة الأخاذة التى كان يقصها مكحول على أهل الشام. فاسمع حديث مكحول فإنك واجد فيه مثل ما وجدت من اللذة و العظة و العبرة و المتاع.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧٠

قال مكحول: حدثني سداد بن أوس قال: «بيننا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل شيخ من بني عامر وهو مدره قومه وسيدهم، شيخ كبير يتوكأ على عصا، فمثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قائما، ونسبه إلى جده فقال: يا ابن عبد المطلب إني أنبئك أنك تزعم أنك رسول الله إلى الناس، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ألا وإنك فوهت بعظيم. وإنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل وأنت ممن يعبد هذه الحجاره والأوثان، فما لك وللنبوة، و لكن لكل قول حقيقة، فأبنتني بحقيقه قولك و بدء شأنك. قال:

فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم بمسألته، ثم قال: يا أخا بني عامر إن لهذا الحديث الذي تسألني عنه نبأ ومجلسا، فاجلس، فثنى رجليه ثم برك كما يبرك البعير. فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث فقال: يا أخا بني عامر، إن حقيقة قولى و بدء شأنى أنى دعوة أبى إبراهيم، وبشرى أخى عيسى بن مريم، وأنى كنت بكر أمى، وإنها حملت بى كأثقل ما تحمل، وجعلت تشتكى إلى صواحبها ثقل ما تجدد. ثم إن أمى رأت فى المنام أن الذى فى بطنها نور. قالت: فجعلت أتبع بصرى النور والنور يسبق بصرى، حتى أضاءت مشارق الأرض ومغاربها. ثم إنها ولدتنى فنشأت. فلما أن نشأت بغضت إلى أوثان قريش، وبغض إلى الشعر. و كنت مسترضعا فى بنى ليث ابن بكر. فبينما أنا ذات يوم متبذ من أهلى فى بطن واد مع أتراب لى من الصبيان، نتقاذف بيننا بالجله، إذ أتانا رهط ثلاثة معهم طست من ذهب ملىء ثلجا، فأخذونى من بين أصحابى، فخرج أصحابى هربا حتى انتهوا إلى شفير الوادى، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا: ما أربكم إلى هذا الغلام، فإنه ليس منا، هذا ابن سيد قريش، وهو مسترضع فىنا، غلام يتيم ليس له أب، فماذا يرد عليكم قتله؟ وماذا تصيبون من ذلك، و لكن إن كنتم لا بد قاتليه فاخترأوا منا أينما شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه، و دعوا هذا الغلام فإنه يتيم.

فلما رأى الصبيان القوم لا يحيرون إليهم جوابا انطلقوا هربا مسرعين إلى الحى يؤذنونهم و يستصرخونهم على القوم. فعمد أحدهم فأضجعنى على الأرض إضجاعا لطيفا، ثم شق ما بين مفرقى صدرى إلى منتهى عانتى و أنا أنظر إليه لم أجد لذلك مسا، ثم أخرج أحشاء بطنى، ثم غسلها بذلك الثلج، فأنعم غسلها، ثم أعادها مكانها، ثم قام الثانى منهم فقال لصاحبه: تنح فنحاه عنى، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى و أنا أنظر إليه. فصدعه، ثم أخرج منه مضغه سوداء فرمى بها، ثم مال بيده يمينا منه كأنه يتناول شيئا، فإذا أنا بخاتم فى يده من نور

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧١

يحار الناظرون دونه، فختم به قلبى فامتأ نورا، و ذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه، فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهرا. ثم قال الثالث لصاحبه:

تنح، فتنحى عنى، فأمر يده ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى فالتئم ذلك الشق بإذن الله ثم أخذ بيدي فأنهضنى من مكانى إنهاضا لطيفا، ثم قال للأول الذى شق بطنى: زنه بعشرة من أمته، فوزنونى بهم فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنونى بهم فرجحتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنونى بهم فرجحتهم. فقال: دعوه فلو و زتموه بأتمته كلها لرجحهم. قال: ثم ضمونى إلى صدورهم و قبلوا رأسى و ما بين عينى. ثم قالوا: يا حبيب لا ترع، إنك لو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عيناك. قال: فبينما نحن كذلك إذا أنا بالحى قد جاءوا بحذافيرهم، و إذا أمى و هى ظئر أمام الحى تهتف بأعلى صوتها و تقول: يا ضعيفاه! فانكبوا على فقبلوا رأسى و ما بين عينى. فقالوا: حبذا أنت من ضعيف.

ثم قالت ظئرى: يا وحيداه، فانكبوا على فضمونى إلى صدورهم و قبلوا رأسى و ما بين عينى، ثم قالوا: حبذا أنت من وحيد. و ما أنت بوحيد إن الله معك و ملائكته و المؤمنين من أهل الأرض. ثم قالت ظئرى: يا يتيماه، استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك، فانكبوا على فضمونى إلى صدورهم، و قبلوا رأسى و ما بين عينى، و قالوا: حبذا أنت من يتيم ما أكرمك على الله، لو تعلم ماذا يراد بك من الخير.

فوصلوا بي إلى شفير الوادي. فلما بصرت بي أمي، و هي ظئري، قالت: يا بني ألا أراك حيا بعد فجاءت حتى انكبت على و ضمتني إلى صدرها. فوالذي نفسي بيده إنني لفي حجرها و قد ضمتني إليها، و إن يدي في يد بعضهم، فجعلت ألتفت إليهم، و ظننت أن القوم يبصرونهم، فإذا هم لا- يبصرونهم. يقول بعض القوم: إن هذا الغلام قد أصابه لمم أو طائف من الجن، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه و يداويه. فقلت: يا هذا ما بي شيء مما تذكر، إن إرادتي سليمة و فؤادي صحيح ليس بي قلبه. فقال أبي- و هو زوج ظئري-: ألا ترون كلامه كلام صحيح، إنني لأرجو ألا يكون بابني بأس. فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن، فاحتملوني حتى ذهبوا بي إليه فلما قصوا عليه قصتي، قال: اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم. فسألني فاقصصت عليه أمرى ما بين أوله و آخره. فلما سمع قولي وثب إلى و ضمنى إلى صدره، ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب يا للعرب، اقتلوا هذا الغلام و اقتلوني معه، فواللات و العزى لئن تركتموه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧٢

و أدرك ليدلن دينكم و ليسفهن عقولكم و عقول آبائكم، و ليخالفن أمركم، و ليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط. فعمدت ظئري فانترعتني من حجره و قالت:

لأنت أعته و أجن من ابني هذا، فلو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به، و اطلب لنفسك من يقتلك، فإننا غير قاتلي هذا الغلام. ثم احتملوني فأدوني إلى أهلي. فأصبحت مفزعا مما فعل بي، و أصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عانتى كأنه الشراك، فذلك حقيقة قولي و بدء شأني يا أبا بني عامر.

فقال العامري: أشهد بالله الذي لا إله غيره أن أمرك حق. فأبنتني بأشياء أسألك عنها. قال: سل عنك- و كان النبي صلى الله عليه و سلم قبل ذلك يقول للسائل: سل عما شئت و عما بدا لك. فقال للعامري يومئذ: "سل عنك" لأنها لغه بني عامر، و كلمه بما علم- فقال له العامري: أخبرني يا ابن عبد المطلب ما يزيد في العلم؟

قال: التعلم. قال: فأخبرني ما يدل على العلم؟ قال النبي صلى الله عليه و سلم: السؤال. قال:

فأخبرني ماذا يزيد في الشر، قال: التماذي. قال: فأخبرني هل ينفع البر بعد الفجور، قال: نعم التوبة تغسل الحوبه، و الحسنات يذهبن السيئات، و إذا ذكر العبد ربه عند الرخاء أغاثه عند البلاء.

قال العامري: و كيف ذلك يا ابن عبد المطلب؟ قال: ذلك بأن الله يقول:

لا و عزتي و جلالتي، لا أجمع لعبدي أمين، و لا أجمع له أبدا خوفين: إن هو خافني في الدنيا أمنني يوم أجمع فيه عبادي عندي في حظيرة القدس فيدوم له أمنه، و لا أمحقه فيمن أمحق، و إن هو أمنني في الدنيا خافني يوم أجمع فيه عبادي لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفه.

قال: يا ابن عبد المطلب، أخبرني إلام تدعو، قال: أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، و أن تخلع الأنداد و تكفر باللات و العزى، و تقر بما جاء من الله من كتاب أو رسول، و تصلي الصلوات الخمس بحقائقهن، و تصوم شهرا من السنة، و تؤدي زكاة مالك يطهرك الله بها و يطيب لك مالك، و تحج البيت إذا وجدت إليه سبيلا، و تغتسل من الجنابه، و تؤمن بالموت و بالبعث بعد الموت و بالجنة و النار.

قال: يا ابن عبد المطلب، فإذا فعلت ذلك فما لي، قال النبي صلى الله عليه و سلم: جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدن فيها و ذلك جزاء من تزكى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧٣

قال: يا ابن عبد المطلب، هل مع هذا من الدنيا شيء فإنه يعجبني الوطأة من العيش، قال النبي صلى الله عليه و سلم: نعم النصر و التمكّن في البلاد. قال: فأجاب و أناب.

قلت لمحدثي: إن هذا النبأ ليعجب، فمن لهذا الشيخ العامري بما كان يعلم من أمر إبراهيم و موسى و عيسى و غيرهم من الأنبياء، قال: كان كثير من هؤلاء العرب يلقون اليهود و يلقون النصارى فيعلمون منهم علم الأنبياء، و ينتهون إلى نفور من دينهم القديم في غير اطمئنان إلى يهودية اليهود و نصرانية النصارى فأخرجهم الله بالإسلام من حيرتهم تلك.

قلت لمحدثي: فكيف انتهى حديث مكحول إلى أهل الشام؟ قال: أما علمت أن شداد بن أوس سكن فلسطين، و أنفق شطرا طويلا من حياته في بيت المقدس يعلم الناس و يحدثهم وعده بذلك النبي نفسه، فقد تحدثوا أنه كان عند رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هو يجود بنفسه فقال: مالك يا شداد، قالت: ضاقت بي الدنيا.

فقال: "ليس عليك، إن الشام سيفتح و بيت المقدس سيفتح و تكون أنت و ولدك من بعد أئمة فيهم إن شاء الله تعالى." انتهى من كتاب على هامش السيرة.

محمد صلى الله عليه و سلم المثل الأعلى في الأنبياء

عثرنا بالمصادفة على كتاب مطبوع بمصر اسمه "المثل الأعلى في الأنبياء" تأليف خ. كمال الدين، و عربه عن الإنكليزية الأستاذ أمين محمود الشريف، فرأيناه كتابا قيما بأسلوب بدیع شيق، يثبت المؤلف بأدلة عقلية قوية أن نبينا "محمدًا" صلى الله عليه و سلم هو المثل الأعلى في الأنبياء، و في الكتاب قليل من الأخطاء كان الواجب على المؤلف أن يتنبه لها جيدا، و لكنه يعذر بحسن نيته، و نحن لم نتعرض لهذه الأخطاء و تصحيحها لأننا لسنا في معرض نقد للكتاب، و لقد نقلنا منه ما يوافق غرضنا، و إليك بعض النبد التي جاءت فيه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم - فقد جاء في صحيفة (٣٨) ما يأتي:

فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة و السلام قد انطمت معالم صورهم الحقيقية بما أسبغ عليها من ألوان التبجيل و الإطراء، أما محمد صلى الله عليه و سلم، فهو شخصية تاريخية

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧٤

واضح المعالم، و كل أفعاله و أقواله قد أحصاها معاصروه في كتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة، بل هو النبي الفذ الذي يمكن أن يسمى شخصية تاريخية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، إذ أن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره، و لا سيما الفترة التي أدى فيها الرسالة. و لست أغالي إذا قلت أنني أعرفه أكثر مما أعرف أبوي، ثم أليس من العجيب أننا لا نجد فيما أثر عنه - على كثرته - إلا - كل ما يدعو إلى الاحترام و الإعجاب، و لست أدري ماذا يكون رأينا في غيره إذا أتيت لنا أن نعرف أكثر مما نعرف عنه، فإن سيرته غيره من الأنبياء مضروب عليها حجاب من الغموض و الأساطير، و لا نعرف من حياتهم اليومية إلا القليل. و ما يحكى عنهم يشبه كلام الكهان، حتى لا يتصور العقل أنهم أشخاص حقيقيون و لكن تاريخ النبي صلى الله عليه و سلم معروف أكثر من أية شخصية أخرى في التاريخ، و إنه لمن دواعي العجب أن العدو لا يجد وجها للنقد فيما روى عنه و هو كثير.

و هنا يظهر فضل النبي على غيره، و هذا أحد الأسباب الكثيرة التي تحملنا على القول بأنه المثل الأعلى في الأنبياء، فسجل أقواله و أفعاله كامل غير منقوص، و سننه القولية و الفعلية يتم بعضها بعضا، و كأن كل مطلب من المطالب الروحية قد قدر و عمل حسابه، فكل ما يعرض للإنسان مما دق أو جل يتجلى في مرآة حياته. لا - أستطيع أن أقول باعتباري مسلما أن غيره من الأنبياء لم يؤدوا رسالتهم كاملة، بل كل ما أريد أن أقوله أننا لا نجد في كل ما أثر عنهم إلا القليل مما يفي بحاجة البشر، و لا بد أنهم قد أدوا ما أرسلوا به، و لكن مؤرخهم لم يقوموا بحقهم. و لا يسعني إزاء قلة ما أثر عنهم إلا أن أقول، أنه لولا محمد صلى الله عليه و سلم ما استطعنا أن نفهم قدر النبوة، إذ لو كانت وظيفة النبي مقصورة على القول دون العمل، و إلقاء بعض العظات دون أن يعمل في حياته شيئا لرفعة الإنسانية، بل يكرر الدروس التي ألقاها غيره بعبارة أخرى، لما كان هناك معنى للرسالة الإلهية لأننا نستطيع أن نتعلم هذه

الدروس نفسها ممن لم يدع أنه مرسل من عند الله.

ثم جاء فيه أيضا بصحيفة (٤٢) ما نصه:

و إذا نظرنا في حال من تقدم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجدنا أنه لا يخلو من أمرين:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧٥

(الأول) أنهم لم يمارسوا جميع أحوال الحياة كما مارسها النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم لم تهيأ لهم الفرصة، و لو تهيأت لفعولهم. و لنضرب مثلا بالمسيح عليه السلام، كلنا نعلم أن كثيرا من سعادة المرء يتوقف على معاملته أهله بخلق حسن، فلو أن المسيح تزوج لكان مثال الزوج الكامل، و لكنه لم تتح له فرصة الزواج، و لذا فنحن لا نستطيع أن نقتدى به في هذه الناحية.

(الثاني) أن الذين منهم أتاحت لهم الفرصة و أدوا واجبهم على الوجه الأكمل، لم يصل إلينا من أخبارهم إلا النزر اليسير، و حتى هذا النزر اليسير لا يصور لنا الحقيقة كما هي، بل هو صورة ما انطبع في أذهان أصحابهم الذين دونوا تاريخهم فكتبوا ما راق لهم، هذان الأمران بالذات هما السبب في أن الإنسان يحاول عبثا أن يجد قبسا من النور و الهدى في حياة الأنبياء السابقين، و لكن محمدا صلى الله عليه وسلم هو العلم الفرد الذي يجد الباحث في تاريخه ما يروى غليله.

ليس كل ما في جعبة النبي هو الدعوات الصالحات، و إنزال اللعنات، و إلقاء العظات، و الإتيان بالمعجزات، بل إن منصب النبوة أسمى من ذلك و أجل، فالنبي يبعث لإحياء الإنسانية من الموت العقلي و الخلقى و الروحي الذي حل بها، و يبعث بالشرائع السامية ليعمل بها في خاصة نفسه، و يأمر الناس أن يهتدوا بهديه، و بذلك يحيى أرض القلوب بعد موتها.

و خلاصة القول أنه يبعث "لتكميل الإنسانية" و هي مشكلة من أعوص المشاكل، لأن للإنسان جوانب متعددة منها الناحية الجسمية و الناحية العاطفية و الشعورية و الاجتماعية و الخلقية و الروحية، و هذه النواحي كلها مشتبكة يكمل بعضها بعضا في وجودها و تطورها، كما أنها تتعاون في أداء وظائفها.

و قد اختلف الناس في شأنها، فمنهم من يذم الغرائز و الميول النفسية، و منهم من يشير بقمعها و سحقها، و هذا مخالف للطبائع البشرية؛ لأن هذه الغرائز قابلة للتطور و الارتقاء، و هي أساس الأخلاق العالية، و بذرة الرقى الروحي. و واجب النبي أن ينظر إليها جميعا بعين الاعتبار، و أن يرشد إلى وسيلة يمكن بها توجيه هذه الغرائز في الطريق القويم، و ضبط القوى العقلية على الوجه الذي يسمو بالإنسانية، و يمكن الإنسان من التخلق بالأخلاق الربانية، كما أشرت إلى ذلك في مكان آخر في هذه الصفحات.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧٦

و قد لخصت في مكان آخر بعض المناقب التي يختص بها النبي صلى الله عليه وسلم دون سواه، و اليد البيضاء التي أسداها للإنسانية بوصفه نبيا. و هذه المناقب هي من خصائص الأنبياء، و لا توجد في سيرة غيره من الأنبياء، و أكبر الظن أن مرد ذلك إلى السببين اللذين سلف ذكرهما.

و إذا كنا نحن معشر المسلمين نؤمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى في الأنبياء، فما ذلك إلا لأنه اجتمع فيه كل ما تفرق في غيره من الفضائل و الكمالات. و قد كان كل نبي من أنبياء الله مثلا أعلى، و كان قدوة للناس الذين بعث فيهم، و كان يمكن أن يكون قدوة لمن جاء بعده لو عرف تاريخ حياته على الوجه الأكمل، و أتاحت له كافة الفرص لإظهار الفضائل التي كان يتحلى بها قطعاً، لم يتمكن من إظهارها لأنه لم تتهيأ له الظروف المناسبة.

و الحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أكمل الأنبياء؛ لأنه تتوافر فيه جميع مقتضيات النبوة، كما يجتمع فيه كافة الكمالات التي تفرقت في غيره. و إذا تقرر ذلك، فليس من العسير أن نبين الصفات التي استحق بها أن يكون المثل الأعلى في الأنبياء و سنتحاشى المقارنة البغيضة ما أمكن، على أنه لا وجه للمقارنة بين اثنين نعرف عن أحدهما كل شيء و لا نعرف عن الآخر إلا القليل النادر.

و جاء فيه أيضا بصحيفة ٨٩ ما يأتي:

و من الفضائل التي انفرد بها صلى الله عليه و سلم و تدل على وصوله إلى أسمى مرتبة من الكمال، أعنى مرتبة التخلق بأخلاق الربانية، ثباته على العهد و المبدأ، بحيث لا- يتغير و لا- يتبدل تبعا للظروف و الأحوال. فهو هو في حالي العسر و اليسر، و الغنى و الفقر، و الهزيمة و النصر، مثله في ذلك كمثل كلمات الله و سنته. و لن تجد لسنة الله تبديلا. فمن ذلك فضيلة التواضع التي كان يمتاز بها في جميع أطوار حياته، و لكن "انتصاراته الحربية" كما قال واشنجتن إيرفنج: "لم تبعث في نفسه شيئا من الفخر و الزهو؛ لأنه لم يكن له فيها أى مأرب شخصي."

و عندما بلغ أوج سطوته و سلطانه، ظل محتفظا بالبساطة في مظهره و أخلاقه، كما كان في أيام الفقر و الشدة. و كان يكره أن يظهر بمظهر الملوك، و يستاء إذا بدرت من الناس حركة غير عادية تدل على الاحترام و التعظيم حين يدخل عليهم، و إذا كان هناك سلطان يطمع هو إليه، فسلطان الدين الذي جاء به. أما السلطان الدنيوي الذي كان يتمتع به في حياته، فقد كان مجردا من مظاهر الملك، و لم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧٧

يعمل هو على أن يكون وراثيا في آل بيته، و بعد أن صار سيد الجزيرة العربية، و ظل يعامل أصحابه كأنهم إخوة، لا يقوم دونه الحجاب، و لا يمشى بين يديه الحراس بل كان يمشى بينهم بلا كلفة، يصلح ذات بينهم، و يرشدهم إلى ما فيه خيرهم و يبذل وده لهم.

و يقول جيون: كان محمد لوفور عقله يحتقر أبهة الملك، و هو في أوج سلطانه الدنيوي، و كان رسول الله في مهنة أهله، يستوقد ناره، و يقم بيته، و يحلب شاته، و يخصف نعله، و يرقع ثوبه. و مع ذلك لم يفخر بأنه من الزهاد الذين يعذبون أنفسهم، بل كان يقاسى من شظف العيش ما يقاسيه كل عربي و جندي، فأكل ما وجد دون عناء أو تكلف. و كان يكرم أصحابه و يؤثرهم بلذائذ الأطعمة، و تمر الأسابيع الطوال ما يستوقد نارا في بيته، و أحب أن أضيف بهذه المناسبة خبرا عن السيدة عائشة رضی الله عنها تأييدا لما نقلته عمدا من كلام جيون و غيره عملا بالمثل العربي القائل: "و الفضل ما شهدت به الأعداء"، قالت:

(كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا، إنما هو التمر و الماء، إلا أن نوتى باللحم- ما شبع آل محمد صلى الله عليه و سلم من خبز الشعير يومين متتابعين).

هذه صفة عيش رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هذا هو تواضعه في وقت دانت له فيه جزيرة العرب، و صارت تحت قدميه، و قد زحرت المدينة بمظاهر الثراء في الأيام الأخيرة من حياته، فسالت بطاحها بالأموال من ذهب و فضة، إلا بيت ابنته فاطمة فقد خلا من أسباب الغنى، و أقفر من آثار النعيم، و كان كل ما يملكه يوم وفاته بضع دراهم ذهب بعضها في قضاء دين عليه و ما بقى أعطى لمسكين جاء يسأل شيئا من الصدقة، أما الملابس التي فاضت فيها روحه الشريفة فقد كانت ذات رقع، و بذلك صرف كل ما كان يملكه، و قد روى عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال:

«نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

و جاء فيه أيضا بصحيفة (١٠٤) ما يأتي:

و قبل أن أوصل الكتابة، أحب أن ألخص حياة النبي صلى الله عليه و سلم في مكة مؤثرا كلمات السيد أمير علي في كتابه "روح الإسلام" إذ أنه يصورها صورة رائعة في هذه الكلمات: "رأينا ذلك الرجل العجيب يتيما لم ينعم قط بمحبة الأب، محروما في نعومة أظفاره من حب الأم، و رأينا حياته الأولى تبعث الشجون، إذ نشأ طفلا كثير التأمل و التفكير، ثم صار شابا يافعا كثير التأمل و التفكير كذلك، و كان في

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧٨

شبابه زكى النفس صادق اللهجة كما كان في طفولته، و كان في كهولته زاهدا ورعا كما كان في شبابه يصغى إلى أنات الضعفاء و

آلام الفقراء، يفيض قلبه بالرحمة و الحنان على جميع الخلق، يمشى على الأرض هونا، تغشاه السكينه حتى ليشير الناس إليه بالبنان قائلين: (هذا هو الأمين الصادق الصدوق) - كان الصديق الحميم و الزوج الوفي، و المفكر الذى يتغلغل بذهنه فى أسرار الحياة و الموت، و يغوص بفكره فى سر القضاء و القدر، و الحكمة فى وجود الخلق، تكفل بإصلاح أمة و إنقاذها، لا بل بإصلاح العالم بأسره، و لا- عزاء له فيما يكابده سوى قلب يغمره الحب قد تعترضه الصعاب و لكن لا يعرفه اضطراب و قد يغلب على أمره و لكن لا يلم اليأس بصدره، بل تراه يكافح و يناضل بروح قوى لا- يغلب، ليؤدى الرسالة التى و كلت إليه، و قد جمعت حوله أخلاقه الكريمة الزكية، و إيمانه القوى بالرحمة الإلهية قلوبا مخلصه، و نفوسا صادقة.

و حين أذفت ساعة العسرة، تراه كالبهار الأمين، لا يبرح مكانه حتى يطمئن إلى وصول أصحابه إلى الساحل آمين، فإذا و صلوا إليه، توجه هو إلى الساحل الأمين، هكذا رأيناه فيما مضى. و الآن ستره الملك المسيطر على ذلك كله، فهو الفقير المتواضع، الذى لا يحيط نفسه بمظاهر العظمة و الفخامة، و من الآن فصاعدا، يغنى تاريخ الجماعة التى كان هو قطب رحاها، و من الآن فصاعدا نرى الداعى الذى يرقع ملابسه بيده، و يبيت الليالى المتتابعة طاويا، و قد أصبح أقوى من أقوى ملوك الأرض. ١٥.

كانت حياة النبى صلى الله عليه و سلم فى المدينة حلقه هامة فى سلسلة الخلق الإنسانى فى المدينة أتيحت له الفرصة لإبراز ما دعا إليه بالقول إلى حيز الفعل، و قد أكبر من شأن شريعته موسى عليه السلام و زاد عليها و حقق على الأرض ملكوت السموات الذى كان عيسى عليه السلام يدعو الله به، و سما بأخلاق قومه إلى مستوى القديسين و الملائكة، فحقق بذلك أحلام أرسطو و أفلاطون فى المساواة بين البشر، و أنشأ لأول مرة فى التاريخ مجتمعا اشتراكيا و مدينة فاضلة يسكنها و يديرها قوم تخلوا عن الرذيلة، قوم ليسوا بحاجة إلى رجال شرطة يتولون حفظ النظام بينهم، قد زالت بينهم الفروق فلا امتياز لأحد على أحد بسبب لونه أو جنسه أو قومه، قوم لا يفرق فيهم بين الحاكم و المحكوم، و الرئيس و المرؤوس، تلاشت بينهم جميع الفوارق القائمة على المذاهب و الطبقات و الألوان و الأنساب فالأبيض، و الأسود،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٧٩

و الأحمر، و الأصفر- كل أولئك سواء عند الله؛ لأنهم من معدن واحد، أبوهم آدم و أمهم حواء، و لكى يمحى التمييز بينهم بسبب الجنس، و الدم، و المال، قيل لهم إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

و لأول مرة فى التاريخ قرر الخليفة عمر رضى الله عنه، أن الحكومة التى لا تسمح لأى فرد من أفراد الرعية أن يبدى رأيه، و لا تحترم هذا الرأى، لا تعد جديرة بهذا الاسم، و لأول مرة فى التاريخ سمح لأدنى فرد من السوقة أن يبدى رأيه فى أية مسألة تمس الدولة أو الدين أو الحاكم نفسه، و لأول مرة فى التاريخ حل الانتخاب محل الوراثة فى تولى الحكم. و تقرر أن تكون وظيفة الحاكم - كائنا من كان - مقصورة على تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، و أن تكون جميع التشريعات التفصيلية متفقة مع الأصول العامة للشرع، الذى سنه المشرع الأعظم.

و كانت الرعية تدعى إلى بيان عيوب الحاكم فى سياسة الحكم، و كانت الدولة ملكا للجميع على السواء ذكورا و إناثا، و كانوا جميعا ملكا لإله واحد، يخضعون لقانون واحد، ليس من وضع البشر، بل أنزله الله الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء، و العدل الذى ملأ الأرض عدله - قانون واحد ينطبق على الغنى و الفقير على السواء.

كان عيسى عليه السلام يحلم بالمساواة، و لكن محمدا صلى الله عليه و سلم حقق هذا الحلم على أحسن وجه، و لا غرور، فقد كان يقدر العمل، و يعمل كل شىء بيده، و كان صلى الله عليه و سلم يكره أن يعمل الناس له شيئا، فكان يخدم نفسه، و كان فى بيته فى مهنة أهله، يلقى ثوبه، و يقم بيته، و يحمل بضاعته من السوق، و يخصف نعله، و يحضر الماء، و يعقل البعير، و يعلف ناضحه، و يعجن مع الخادم. و روى عن أنس أنه غدا إلى النبى صلى الله عليه و سلم فوجده يمسح جملا بالزيت، و فى حديث آخر أنه رآه يسم إبل الصدقة.

ولما بنيت الكعبة وهو صغير كان ينقل الحجارة، و في أثناء بناء المسجد النبوي في المدينة المنورة، كان يعمل في البناء كغيره من العمال، و كان ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه. و دانت له شبه الجزيرة العربية، و انهالت عليه الأموال من ذهب و فضة، و لكنه كان يقول: ليس لابن آدم حق فيما سوى هذه الخصال:

بيت يسكنه، و ثوب يوارى عورته، و جلف الخبز و الماء.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨٠

و قد دلت حياته في المدينة على أنه لم يسع قط إلى الملك و السلطان في الأرض، بل الملك هو الذي سعى إليه، فأتيح له أن يبين لملوك الأرض أن الأموال العامة أمانة مقدسة يجب صرفها في وجوه مصالح الرعية، لا في تحصيل الشهوات و اللذات الشخصية، إذ كان صلى الله عليه و سلم زاهدا في الدنيا، متقشفا في معيشته - يلبس ما وجد، و لا يسأل أهله طعاما إن أطعموه أكل، و ما أطعموه قبل، و ما سقوه شرب، و يجلس حيث ينتهي به المجلس، إما على حصير، أو على بساط، أو على الأرض، و كان يأكل الشعير غير منخول، و يلبس القميص مطلق الأزرار. و كان بطبعه يعرض عن زينة الحياة الدنيا، و يكره الشهرة في اللباس. و من المسلم به أنه لا رهبانية في الإسلام، و من أجل ذلك أحل النبي صلى الله عليه و سلم زينة الله، و الطيبات من الرزق، و كان هو نفسه يتمتع بهما تشريعا لأتمته، و لكنه مع ذلك كان لا يميل إلى رغد العيش و لا يرغب في النعيم و الترف، بل نهى الناس عنه؛ لأنه يدخل الوهن في قلوب الرجال.

يروى أن رجلا أضاف على بن أبي طالب، فصنع له طعاما، فقالت فاطمة:

«لو دعونا رسول الله صلى الله عليه و سلم فأكل معنا. فدعوه، فجاء، فوضع يده على عضادتي الباب، فرأى القرام قد ضرب به في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة: الحقه فانظر ما رجعه، فتبعته، فقلت: يا رسول الله ما ردك؟ فقال: «إنه ليس لنبى أن يدخل بيتا مزوقا»، و كان صلى الله عليه و سلم يقول: «فراش للرجل، و فراش لامرأته، و الثالث للضيف، و الرابع للشيطان». و كان صلى الله عليه و سلم يحب دائما ما خشن من الثياب، و ما غلظ من الكساء، و ما رث من اللباس، لما طبع عليه من التواضع و التذلل، و هضم حظوظ النفس. و كان من رأى عمر رضى الله عنه أن يلبس النبي صلى الله عليه و سلم الثياب الفاخرة عند استقبال الوفود و السفراء، و غيرهم من كبار الرجال، فوجد حلة استبرق تباع في السوق، فأتى بها رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله ابتع هذه الحلة، فتجمل بها للعيد و للوفود، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة، و كان يلبس عادة كساء ملبدا، صنع من الصوف، و فيه نزع روحه الشريف صلى الله عليه و سلم. و دخل عمر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هو معتزل في المشربة، فإذا هو متكئ على حصير ما بينه و بينه شيء، قد أثر في جنبه، و تحت رأسه و سادة من آدم، حشوها ليف، فأدنى على إزاره، و ليس عليه غيره، و نظر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨١

عمر ببصره في خزائه رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإذا هو بقبضة من شعير نحو الصاع، و مثلها قرظا في ناحية الغرفة، و عند رأسه أهب معلقة، فابتدرت عيناه، قال: ما بيكيك يا ابن الخطاب؟ قال: يا نبى الله، و ما لى لا أبكى، و هذا الحصير قد أثر في جنبك، و هذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، و ذلك قيصر و كسرى في الثمار و الأنهار و أنت رسول الله صلى الله عليه و سلم و صفوته، و هذه خزانتك، فقال: يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن يكون لنا الآخرة و لهم الدنيا.

و قال صلى الله عليه و سلم لعائشة رضى الله عنها: إن كنت تريدن الإسراع و اللحوق بى، فيكفيك من الدنيا كزاد الراكب.

و عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: اضطجع رسول الله صلى الله عليه و سلم على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، فقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نسط لك على هذا الحصير شيئا يقيك منه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

ما لى و للدنيا، ما أنا و الدنيا، إنما مثلى و مثل الدنيا كمثل راكب استظل تحت شجرة ثم راح و تركها.

و جاء فيه أيضا بصحيفة ١٢٢ ما يأتي:

لا ريب أن هذا النجاح الفريد في بابه، الذي لا مثيل له في التاريخ، دليل ناطق بما وصل إليه النبي صلى الله عليه وسلم من السمو الروحي. ومن المسلم به أنه لا يمكن أن يتم أى إصلاح فى أمة ما لم يشعر أفرادها بحب المصلح واحترامه، واستعدادهم لطاعته، و امتثال أمره و لن يستطيع أى مصلح بماله و سلطانه، بل و لا- بمعجزاته، أن يحمل الناس على حبه و احترامه و طاعته، فهذه أمور لا تتأتى للمرء إلا إذا كان على جانب كبير من السمو الروحي.

لم يكن محمد فى قومه ملكا مسلطا يملى عليهم أوامره، بل كان يتبرأ من وسائل الإغراء التى من شأنها أن تجلب له كثرة الأتباع و الأنصار، فكان يقول لهم على لسان القرآن: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ - و مع ذلك كان يحظى بطاعة أصحابه، و انقيادهم له إلى حد لا يتصوره العقل، فكان كلامه فيهم كلام المحبوب الذى يحترمه المحب و يصغى له، و إذا كان هذا هو حال أصحابه معه، فما أخلقه أن يكون "أعظم المصلحين الدينيين نجاحا" فى إصلاح الفرد و المجتمع، و لا يمكن أن يتسنى هذا النجاح للمرء إلا أن يبلغ أسمى درجة فى سلم الرقى الروحي.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨٢

ثم جاء فيه أيضا بصحيفة ٢٠٦ ما يأتي:

إن ضيق المقام يحول دون تفصيل القول فى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فى شتى مناحيها؛ لأنه الشخصية الفذة فى التاريخ التى اجتمع فيها ما تفرق فى أهل الفضل من الكمالات. فزهده، و مروءته، و كرمه، و قصده، و سعة صدره، و حلمه، و همته، و وفاؤه، و ثباته فى الشدائد، و تواضعه مع علو منصبه، و رفقته بالحيوان، و حبه للصبيان، و شجاعته، و إقدامه، و شهامته، و إقامته للعدل - كل أولئك يحتاج إلى مجلدات للوفاء بحق هذه الشخصية الخارقة للعادة.

انتهى كل ما تقدم عن النبي صلى الله عليه وسلم من كتاب "المثل الأعلى فى الأنبياء" و هو كتاب عربى عن الإنجليزىة الأستاذ أمين محمود شريف.

و الحق يقال أن هذا الكتاب، كتاب قيم فريد فى بابه، و لولا خوف التطويل لذكرنا منه شيئا كثيرا، فوصى القراء الكرام بشرائه و مطالعته.

انظر: صورة رقم ١١، كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط

تعبد النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعث

مما لا ريب فيه أن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام جميعهم معصومون عن الكفر و الزلل و سفاسف الأمور قبل أن يبعثهم الله تعالى للناس فلا يعصون الله تعالى و لا يهيمون بمعصية قط، فإن الله تعالى عز شأنه يتولاهم بعنايته و رعايته منذ ولادتهم إلى مماتهم، لتكون نشأتهم ممتازة منذ الصغر فيعرفون بالفضل و الكمال، حتى إذا قاموا بالدعوة إلى الله لا يقدر أحد أن يعيرهم بشيء غير لائق حال الصغر، و فرق بين من ينشأ فى رعايته و الديه و أهله، و بين من ينشأ فى رعايته الله تعالى و حفظه، و لم يقل أحد من أهل الإسلام و لا من أهل الكتاب أن نبيا من الأنبياء كان يعبد غير الله تعالى قبل أن يبعث و يوحى إليه. هذه مقدمة نرتب عليها الكلام الآتى:

اختلف العلماء هل كل رسول الله صلى الله عليه وسلم متعبدا بشريعة من كان قبله من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام أم لا؟. و قبل أن نسوق كلامهم، نذكر رأينا الخاص فى ذلك نسأل الله تعالى التوفيق فيه فنقول:

إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لم يتعبد بشريعة من كان قبله؛ لأن ذلك يستلزم ذهابه إلى أهل الكتاب ليتعلم منهم شريعة موسى أو عيسى أو غيرهما، فإن لم يتعلم من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨٣

غيره فكيف يعرف شريعته من كان قبله و لم ينزل عليه الوحي بعد؟ لكن لم يعرف عنه أنه ذهب ليتعلم عند أحد مطلقا و هو النبي الأُمى الذى لم يأخذ إلا عن جبريل عليه الصلاة و السلام.

فرسول الله صلى الله عليه و سلم كان يتعبد قبل بعثه فى غار حراء على الحق المبين بإلهام من الله سبحانه و تعالى فهو الهادى إلى سواء السبيل، و إذا كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام قد آتاه الله الهدى و الرشد قبل البلوغ كما جاء فى قوله تعالى فى سورة الأنبياء: **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ. و إذا كان أيضا يحيى عليه الصلاة و السلام آتاه الله الحكم و طبعه على التقوى و هو صبى كما جاء فى قوله تعالى فى سورة مريم: **يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا.

فإن نبينا محمدا سيد الرسل و خاتم الأنبياء صلى الله تعالى عليه و على إخوانه الأنبياء و المرسلين و سلم تسليمًا، قد آتاه الله الهدى و الرشد، و طبعه على التقوى و مكارم الأخلاق من حين الصبا، فقد ورد: «أدبنى ربي فأحسن تأديبي»، و لقد ظهرت عليه دلائل النبوة و بشائر البعث منذ الصغر، فقد روى عن على رضى الله عنه أنه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه و سلم: يا رسول الله هل عبت غير الله؟ قال: لا.

قيل: فهل شربت الخمر قط؟ قال: لا. ثم قال: ما زلت أعرف أن الذى هم عليه كفر و ما كنت أدرى ما الكتاب و لا الإيمان. و لقد كان عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه و سلم يتوسم فيه أن يكون له من الشرف و المكانة السامية ما لم يكن لأحد، فكان يحبه كثيرا حتى أنه لما جلس النبي صلى الله عليه و سلم و هو غلام صغير يدرج على مفروش جده و أرادوا منعه من الجلوس على المفروش بكى، فقال عبد المطلب: ما لابنى يبكى؟ قالوا له: إنه أراد أن يجلس على المفروش فمنعوه. فقال عبد المطلب: دعوا ابنى، فإنه يحس بشرف أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربى قط. ه. و قد كان ذلك بفضل الله و رحمته.

و حينما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم بينى مع قريش الكعبة قبل البعثة، و ينقل الحجاره معهم على رقبته و قد وضع على ظهره إزاره يتقى به فنودى: يا محمد عورتك،رمى بنفسه على الأرض من الفزع، فأخذه العباس عبد المطلب فضمه إليه، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إنى نهيت أن أتعرى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨٤

و لما أجدبت الأرض و حصل القحط و هلك المواشى، قالت قريش لأبى طالب: استسق لنا، فخرج أبو طالب بهم و معهم محمد صلى الله عليه و سلم و هو غلام، فلما صار بإزاء الكعبة ألقى النبي صلى الله عليه و سلم ظهره بالكعبة و صار يشير بإصبعه إلى السماء و ما زال كذلك حتى أقبل السحاب من كل جهة و جاء الله بالمطر حتى أخصبت الأرض، فأنشأ أبو طالب قصيدة طويلة فى مدحه صلى الله عليه و سلم. منها:

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأرامل
الشمال بالكسر: الملجأ و الغياث.

و لقد كان صلى الله عليه و سلم من صغره يبغض الأوثان و لا يحضر مع قومه أعيادهم و أصنامهم، قال عليه الصلاة و السلام: "لما نشأت بغضت إلى الأوثان و بغض إلى الشعر، و لم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين كل ذلك يحول الله بينى و بين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته- قلت لغلام كان يرعى معى: لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف و المزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس و لم أقض شيئا، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك."

و لم يكن بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم بخاف على أهل الكتاب من أحبار اليهود و رهبان النصارى و كان لهم فيه علامات، و قصة بحيرا الراهب "بفتح الباء و كسر الحاء و آخره راء مقصورة" معه شهيرة فى كتب السير نلخصها فيما يأتى:

لما بلغ عليه الصلاة والسلام اثنتي عشرة سنة أراد عمه شقيق أبيه أبو طالب السفر إلى الشام للتجارة، فخرج به معه للمرة الأولى فسار الراكب حتى وصلوا قرية من قرى الشام وكان يسكنها راهب وهو بحيرا وكان ذا علم في النصرانية، فنزلوا قريبا من صومعته واستظل النبي صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فاخضرت أغصانها وجاءت غمامة تظل رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم، فلما رأى بحيرا الراهب ذلك نزل من صومعته وصنع لجميع الراكب طعاما، ثم أخذ بيد محمد النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما لديه من العلم، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على الصفة التي عنده، فقبل موضع الخاتم، ثم قال: هذا رسول رب

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨٥

العالمين، وقال لعمه أبي طالب: ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من اليهود، فإنه سيكون لابن أخيك هذا شأن عظيم، كما هو مذكور في كتبنا.

وهناك كثير من الأمور الخارقة للعادة وقعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صغره تدل على أن الله تعالى يصطفيه من بين الناس بالرسالة، ومن هنا نعلم أن تعبد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن تقليدا لشريعة من كان قبله من الأنبياء، وإنما كان بإلهام من الله تعالى يوجهه إلى عبادته الحق كما شاءت قدرته القوية، عبادة صحيحة مستقلة لا عبادة تقليد وتبعه حيث لم يتعلم من أحد شيئا قط، ونقصد بالعبادة هنا أساسها الثابت؛ كتوحيد الله تعالى ومعرفة وتقديسه وتسيحه والتفكير في آلائه ومخلوقاته التي تدل عليه وعلى وحدانيته وعظمته وقدرته سبحانه وتعالى، أما فروع العبادات وتفصيل أدائها بالكيفيات المخصوصة فلم يعرفه إلا بعد البعث وإنزال الوحي والقرآن عليه.

وإليك ما ذكره العلماء في تعبد النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله تعالى.

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: قال العلامة الدواني في تفسير: قل يا أيها الكافرون: اختلف الأصوليون في أن النبي صلى الله عليه وسلم هل كان متعبدا بشريعة من قبله أو لا؟، فقيل: إنه كان متعبدا بشريعة موسى، وقيل: بشريعة عيسى، وقيل: بشريعة إبراهيم، وقيل: بشريعة نوح عليهم السلام. وقيل: إنه لم يكن متعبدا فالمختار أنه كان متعبدا قبل البعث لما ثبت أنه كان متعبدا في غار حراء، والتعبد لا يكون إلا بشريعة، لأن الحاكم هو الشرع عند أهل الحق، وعلى مذهب المعتزلة القائلين بحكم العقل الأمر أظهر، إذ العبادة لا تتوقف على هذا التقدير على شريعة. والحاصل أنه كان يتحنث في غار حراء أي يتعبد الليالي ذوات العدد، فلا جرم تكون هذه العبادة لله تعالى لا غير إذ الأنبياء معصومون عن الكفر قبل البعثة بالاتفاق - انتهى من تاريخ الخميس.

موضع ولادة النبي صلى الله عليه وسلم

لقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار أبيه عبد الله بن عبد المطلب بمكة، فقد كان عبد المطلب قسم حقه بين أولاده ودفع إليهم ذلك في حياته حين ذهب بصره، فكان مولد النبي صلى الله عليه وسلم وما حوله لوالده عبد الله بن عبد المطلب. قال الأزرقى: فمن ثم صار للنبي صلى الله عليه وسلم حق أبيه عبد الله بن عبد المطلب.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨٦

جاء في تاريخ الأزرقى ما نصه: قال أبو الوليد: مولد النبي، أي البيت الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم وهو في دار محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف، كان عقيل بن أبي طالب أخذه حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وفي غيره يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع حين قيل له: أين تنزل يا رسول الله؟ وهل ترك لنا عقيل من ظل. فلم يزل بيده وبيد ولده حتى باعه ولده من محمد بن يوسف فأدخله في داره التي يقال لها البيضاء، وتعرف اليوم بابن يوسف، فلم يزل ذلك البيت في الدار حتى حجت الخيزران أم الخليفة موسى وهارون فجعلته مسجدا يصلى فيه، وأخرجته من الدار وأشرعته من الزقاق الذي في أصل

تلك الدار يقال له زقاق المولد.

حدثنا أبو الوليد قال: سمعت جدى يوسف بن محمد يثبتان أمر المولد و أنه ذلك البيت لا اختلاف فيه عند أهل مكة، حدثنا أبو الوليد، قال: حدثنى محمد بن يحيى عن أخيه، قال: حدثنى رجل من أهل مكة يقال له سليمان بن أبى مرحب مولى بنى ختم، قال: حدثنى ناس كانوا يسكنون ذلك البيت قبل أن تشرعه الخيزران من الدار ثم انتقلوا عنه حين جعل مسجدا قالوا: لا والله ما أصابتنا فيه جائحة و لا حاجة فأخرجنا منه فاشتد الزمان علينا. انتهى من الأزرقى.

قال الغازى فى تاريخه: قال ابن الأثير: قيل إن المصطفى صلى الله عليه و سلم وهب الدار لعقيل بن أبى طالب، فلم تزل حتى توفى عنها فباعها ولده لمحمد بن يوسف، وقيل: إن عقيلًا باعها بعد الهجرة تبعا لقريش حين باعوا دور المهاجرين. انتهى.

نقول: لقد وقعت عمارات كثيرة فى مولد النبى صلى الله عليه و سلم و جعل مسجدا يصلى فيه، و كان له إمام و مؤذن و أوقاف فى البلاد الرومية، ثم هدم هذا المكان فى سنة (١٣٤٣) ثلاث و أربعين و ثلاثمائة و ألف فأصبح سوحا، و لا نرى ضرورة فى ذكر أسماء من بناه و عمّره فى الأزمان السابقة فذلك مذکور فى كتاب التاريخ، لكن من الواجب أن نشير إلى آخر بنايه حصلت فى موضعه فى وقتنا هذا و إليك بيان ذلك.

إن موضع ولادة النبى صلى الله عليه و سلم بمكة بسوق الليل، و هو شعب على قد بنيت فيه الآن عمارة لطيفة بناها أمين العاصمة الأسبق الشيخ عباس بن يوسف القطان الذى توفى فى ١٦ رجب سنة ألف و ثلاثمائة و سبعين رحمه الله رحمة الأبرار، فقد بناها التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨٧

على حسابه الخاص لتكون مكتبة عامة يتردد إليها العلماء و الطلبة، و قد ابتدأ فى عمارة هذه الدار قبل وفاته بشهرين، فلما مات أتمها ابنه الفاضل الشيخ أمين- و قد اتفق الشيخ عباس المذكور قبل وفاته مع المرحوم الشيخ كامل بن ماجد الكردى و إخوانه على نقل مكتبته الماجدية المعروفة إلى عمارته التى جعلها مكتبة عامة "أى دار الكتب" و إن شاء الله تعالى عما قريب سيعمل الشيخ أمين المذكور على إنجاز هذه المكتبة على أحسن حال، تنفيذًا لوصية والده و رغبة فى إحياء ذكره، جزاه الله تعالى خير الجزاء. و إليك صورة الشيخ عباس قطان و صورة الدار.

انظر: صورة رقم ١٢، الشيخ عباس القطان و هو من أعيان مكة

ترجمة الشيخ عباس القطان

هو الشيخ عباس بن يوسف قطان، ولد عام (١٣١٢) ألف و ثلاثمائة و اثنى عشر من الهجرة، كان والده الشيخ يوسف قطان شيخا لمشايخ الجاوة فى عهد الشريف عون الرفيق، ثم تولى فى عهد ملك الحجاز الأسبق الشريف حسين بن على رئاسة البلدية أى "أمانة العاصمة" بمكة، ثم تولى فى أوائل عهد الحكومة السعودية رئاسة شؤون الحج، و صار وزير النافعة، و توفى فى آخر ذى القعدة سنة (١٣٥٠) ألف و ثلاثمائة و خمسين و قد بلغ خمسا و ثمانين سنة.

و أما ابنه الشيخ عباس القطان فقد كان أمينًا للعاصمة بمكة المكرمة فى عهد جلاله ملك المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالى، فمكث فى وظيفته المذكورة ثمانية عشر عاما من عام (١٣٤٧) إلى عام (١٣٦٤) هـ. و كانت الحكومة تنتدبه أحيانا لبعض الأمور المهمة، فكان محبوبا من كافة الطبقات، يقصدونه فى المهمات، و حيث أنه كان من أثرياء البلاد ما كان يأخذ راتبًا على وظيفته، و الحقيقة أنه أدى للبلدة خدمات تذكّر فثشكر، و كان ينزل الناس منازلهم يعرف لكل شخص قيمته.

و الخلاصة أنه كان شهما كريما مضيافا، يحب أهل العلم و أهل الخير و الاستقامة، و كان قبيل وفاته لازم صلاة الجماعة فى المسجد الحرام- توفى فى اليوم السادس عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٠) سبعين و ثلاثمائة و ألف.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨٨

ذكرنا ترجمته بمناسبة طبعه كتاب القرى لقاصد أم القرى للطبري، وبنائه مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم في مكان دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها، وبنائه دار خاصة تكون مكتبة عامة لمراجعة أهل العلم في مكان مولد النبي صلى الله عليه وسلم كل ذلك على حسابه الخاص، فرحمه الله تعالى وجزاه عنا خير الجزاء آمين.

انظر: صورة رقم ١٣ المنزل الذي بناه الشيخ عباس قطان في موضع ولادة النبي صلى الله عليه وسلم

انظر: صورة رقم ١٤، موضع ولادة النبي صلى الله عليه وسلم بعد بنائه

موضع ولادة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة

كانت ولادة السيدة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار أمها السيدة خديجة بنت خويلد بمكة بزقاق الحجر، وهذه الدار تقع خلف دار أبي سفيان. قال الأزرقى: إن معاوية رضى الله عنه اشترى منزل خديجة من عقيل بن أبي طالب وهو خليفه فجعله مسجداً وفتح فيه باباً من دار أبي سفيان ابن حرب - وإليك نص ما جاء في تاريخ الأزرقى:

ومنزل خديجة ابنة خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وهو البيت الذي كان يسكنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخديجة وفيه ابنتي بخديجة وولدت فيه خديجة أولادها جميعاً وفيه توفيت خديجة فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم ساكناً فيه حتى خرج إلى المدينة مهاجراً فأخذه عقيل بن أبي طالب ثم اشتراه منه معاوية وهو خليفه فجعله مسجداً يصلى فيه وبناه بناء هذا وحدد الحدود التي كانت لبيت خديجة لم تغير فيما ذكر عن من يوثق به من المكيين وفتح معاوية فيه باباً من دار أبي سفيان بن حرب هو قائم إلى اليوم وهي الدار التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وهي الدار التي يقال لها اليوم دار ربطة بنت أبي العباس أمير المؤمنين، وفي بيت خديجة هذا صفيحة من حجارة مبنى عليها من الجدار جدر البيت الذي كان يسكنه النبي صلى الله عليه وسلم قد اتخذ قدام الصفيحة مسجداً، وهذه الصفيحة مستقبلة في الجدر من الأرض قدر ما يجلس تحتها الرجل وذرعا ذراع في ذراع وشبر.

وقال أبو الوليد: سألت جدى أحمد بن محمد ويوسف بن محمد بن إبراهيم وغيرهما من أهل العلم من أهل مكة عن هذه الصفيحة ولم جعلت هنالك وقلت لهم أو لبعضهم: إنى أسمع الناس يقولون إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس تحت تلك الصفيحة فيستدرى بها من الرمي بالحجارة إذا جاءته من دار أبي لهب ودار عدى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٨٩

بن أبي الحمراء الثقفى، فأذكروا ذلك وقالوا: لم نسمع بهذا من ثبت ولقد سمعنا من يذكرها من أهل العلم فأصح ما انتهى إلينا من خبر ذلك أن أهل مكة كانوا يتخذون في بيوتهم صفائح من حجارة تكون شبه الرفاف توضع عليها المتاع والشىء من الصينى والداجن يكون فى البيت فقل بيت يخلو من تلك الرفاف، قال جدى: وأنا أدركت بعض بيوت المكيين القديمة فيها رفاف من حجارة يكون عليها بعض متاع البيت، قال: فيقولون إن تلك الصفيحة التي فى بيت خديجة من ذلك.

ولقد وقعت عمارات كثيرة فى موضع ولادتها رضى الله عنها لا نرى ضرورة لذكرها، لكن من الواجب أن نشير إلى آخر بناية حصلت فى موضعه فى وقتنا هذا، وإليك بيان ذلك:

إن موضع ولادة السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة المعروفة بدار السيدة خديجة رضى الله تعالى عنهما، قد بنيت الآن فيه عمارة حسنة، بناها أمين العاصمة الأسبق الشيخ عباس بن يوسف القطان المتوفى عام (١٣٧٠) فابتدأ فى بنائها سنة ألف و ثلاثمائة وثمان و ستين هجرية لتكون مدرسة خاصة لتحفيظ القرآن الكريم، فكم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن وهو فى هذه الدار، دار خديجة رضى الله تعالى عنها، ثم إنه بعد وفاة الشيخ عباس المذكور وتكملة عمارة الدار سلمت لوزارة المعارف لإدارتها مدرسة للغرض المذكور، والآن هذه الدار عامرة بالطلبة الذين يحفظون القرآن الكريم فجزى الله الشيخ

عباس المذكور خير الجزاء.

تكية السيدة فاطمة رضى الله عنها

أول ما جعلت هذه التكية فى سنة (١٢٦٥) خمس و ستين و مائتين و ألف، فقد ذكر الغازى فى الجزء الثالث من تاريخه عند ترجمه و تولية الحاج محمد حسيب باشا مكة ما نصه: ثم إن الباشا المذكور بنى تكية بجانبها "أى بجانب دار أبى سفيان "للفقراء، و التى تعرف الآن "بتكية فاطمة رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم " و هى بجوار دار أبى سفيان و هى دار أم المؤمنين خديجة الكبرى التى كان يسكنها النبى صلى الله عليه و سلم، و جعل لها بابين بابا من جهة المحل المعروف بزقاق الحجر، التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٩٠

و الباب الثانى من جهة المسعى فى أوائل المحنطة. ثم ذكر الغازى بعض ما عمله الباشا المذكور بمكة لم ننقله لعدم احتياجنا إليه، و اكتفينا بما ذكرناه هنا.

و قد نسبت التكية إلى السيدة فاطمة رضى الله تعالى عنها و عن أمها و إخوانها؛ لأن هذه التكية تقع فى دار أمها السيدة خديجة رضى الله عنها و فاطمة رضى الله عنها قد ولدت فى هذه الدار التى هى ملاصقة لدار أبى سفيان رضى الله عنه، ثم لم تبق فى عصرنا هذا التكية المذكورة بل صار موضعها مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم.

موضع ولادة على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه

كانت موضع ولادة على بن أبى طالب تعالى عنه بمكة بسوق الليل بأعلى الشعب، و موضع ولادة على بقرب موضع ولادة النبى صلى الله عليه و سلم بينهما أقل من مائتى متر.

و لقد حصلت عمارات كثيرة فى هذا الموضع لا نرى ضرورة لذكرها، لكن من الواجب أن نشير إلى آخر بناية حصلت فيه فى وقتنا هذا بعد أن أصبحت هذه البقعة ميدانا لا بناية فيه مطلقا. و إليك بيان ذلك:

فإنه فى أوائل سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف ابتدأوا فى بناية دار فى هذا الموضع لتكون مدرسة تسمى "مدرسة النجاح الليلية" تكون لتحفيظ القرآن الكريم و تعليم فن التجويد، و أنواع العلوم العربية إن شاء الله تعالى، و الذى سعى فى ذلك هو الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الله خوجة العامل النشط لمحو الأمية و تهذيب العوام بمكة المشرفة الذى قام بأمر التعليم نحو ربع قرن حتى تخرج من مدرسته كثير من المتعلمين الذين نفخوا أنفسهم و خدموا بلادهم، فإنه التمس من جلاله مليكنا المعظم الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود أرض مولد على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه التى بسوق الليل ليبنى عليها مدرسة للغرض المذكور فأمر جلاله الملك حفظه الله تعالى بمنحه تلك الأرض، فلما سمع بذلك المحسن الكبير السيد حسن الشربتلى من أهل جدة تكفل ببناء المدرسة و بجميع ما يلزم لها على حسابه الخاص - فجزاهم الله تعالى خير الجزاء، و إن شاء الله سنرى هذه المدرسة مزدهرة عامرة بحفظه القرآن و طلاب العلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٩١

و بمكة مواضع ولد فيها كثير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ذكر أشهرها فى بعض كتب التاريخ؛ كمولد عمر بن الخطاب و مولد جعفر الصادق و غيرهما. و كل ذلك لا يعلم على التحقيق، و لا يترتب على معرفتها أو جهلها أمر شرعى مطلقا، لهذا لم نتعرض لذكرها.

قال الله تعالى: **أَفْتَرَبَتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ** من معجزاته صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر وذلك لما قال له كفار قريش: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين فسأل ربه فانشق، وما يشاع إلى اليوم على ألسنة بعض الناس أنه في جبل أبي قبيس موضع خاص لانشقاق القمر يسمى "مشق القمر" فهذا لا أصل له.

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: وفي السنة التاسعة من المبعث كان انشقاق القمر - في المواهب اللدنية أن انشقاق القمر كان بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين، قال العلامة ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب: الصحيح عندى أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن مروى في الصحيحين وغيرهما من طرق حديث شعبة بن سليمان عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود ثم قال: وله طرق أخر شتى بحيث لا يمتري في تواتره. انتهى.

وجاءت أحاديث انشقاق القمر في روايات صحيحة من جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود و علي و حذيفة بن جبير بن مطعم و ابن عمر و أنس و ابن عباس وغيرهم.

وفي الصحيحين من حديث أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. قوله: شقتين بكسر الشين المعجمة أى: نصفين. وأنس وإن لم يشاهد القصة لأنه إذ ذاك كان ابن أربع سنين أو خمس بالمدينة، لكن يجوز أن يكون حمل الحديث عن شاهدها و من حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل و فرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا.

وفي رواية الترمذى من حديث ابن عمر في قوله تعالى: **أَفْتَرَبَتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**، قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشق فلتقتين فلقه دون الجبل و فلقه خلف الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا. و قال مجاهد:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 292

انشق القمر فبقيت فرقة و ذهب فرقة من وراء الجبل. و قال ابن زيد: لما انشق القمر كان يرى نصفه على قيعقان و النصف الآخر على أبي قبيس، كذا في دلائل النبوة و عند الإمام أحمد من حديث جبير بن مطعم: فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل و فرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس. و عن عبد الله بن مسعود أنه قال: فقال كفار قريش:

هذا سحر ابن أبي كبشة. قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السفار فأخبروهم بذلك. رواه أبو داود الطيالسى و رواه البيهقى - بلفظ: انشق القمر بمكة فقالوا: أسحركم ابن أبي كبشة فسألوا السفار و قد قدموا من كل وجه. فقالوا: رأيناه. و عند أبي نعيم عن ابن عباس قال: لما اجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة و أبو جهل ابن هشام و العاص بن وائل و الأسود بن المطلب و النضر بن الحارث و نظراؤهم فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فسأل ربه فانشق.

و عند البخارى مختصراً من حديث ابن عباس بلفظ: إن القمر انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و ابن عباس و إن لم يشاهد القصة؛ لأنه لم يولد إذ ذاك ففى بعض طرقه أنه حمل الحديث عن ابن مسعود و عند مسلم من حديث شعبة عن قتادة بلفظ: فأراهم انشقاق القمر مرتين، و كذا في مصنف عبد الرزاق عن معمر بلفظ:

مرتين، و اتفق الشيخان عليه من رواية شعبة عن قتادة بلفظ: فرقتين كما في حديث جبير عند أحمد و فى حديث ابن عمر فلتقتين باللام كما مر، و فى لفظ فى حديث جبير فانشق باثنتين.

و فى رواية عن ابن عباس عند أبي نعيم فى الدلائل فصار قمرين. و وقع فى نظم السيرة للحافظ أبى الفضل العراقى: و انشق مرتين بالإجماع.

قال الحافظ ابن حجر: و أظن قوله بالإجماع يتعلق بالشق لا بمرتين فإنى لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق فى زمنه

صلى الله عليه و سلم و لعل قائل مرتين أراد فرقتين. و قد وقع في رواية البخارى من حديث ابن مسعود و نحن بمنى و هذا لا يعارض قول أنس أن ذلك كان بمكة؛ لأنه لم يصرح بأنه عليه السلام كان ليتنذ بمكة فالمراد أن الانشقاق كان و هم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة هذا ما وقع في المواهب اللدنية و في شواهد النبوة انشق القمر بحيث كان فلقه منه على أبي

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٩٣

قيس و فلقه على الجبل الآخر، و في المواهب اللدنية: و ما يذكره بعض القصاص أن القمر دخل في جيب النبي صلى الله عليه و سلم و خرج من كفه فليس له أصل كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشى عن شيخه العماد بن كثير، نقول إنما يزعمه بعض الناس من العوام أن موضع انشقاق القمر في محل فوق جبل أبي قيس لا أصل له أبدا و هذا من الدجل و الكذب؛ لأنه لا يعلم في أى موضع وقف رسول الله صلى الله عليه و سلم في جبل أبي قيس يطلب من ربه عز و جل انشقاق القمر، و لا يعقل أنه صلى الله عليه و سلم يتكلف التعب و المشقة في الصعود إلى الجبل لهذا الأمر أو غيره في وقت لم يكن على الجبل أحد من قريش يسكنه. و الله تعالى أعلم. و مما يستحسن ذكر شيء مما قيل في وصف القمر و الهلال قديما و حديثا.

فلإمام جلال الدين السيوطى رسالة في ذلك تسمى "رصف اللال في وصف الهلال" و هى مطبوعة بالقسطنطينية بمطبعة الجوائب ضمن كتاب "التحفة البهية و الطرفة الشهية" و لصاح الدين الصفدى رسالة تسمى "رشف الزلال في وصف الهلال". و لنقتطف هنا شيئا مما ورد في الهلال:

قال بعضهم:

و هلال في الأفق قد لاح غربا و تبدى لأعين النظار
كسوار أو دملج أو كطوق أو كصدغ أو حاجب أو عذار
و قال بعضهم:

و بدا هلال الأفق و الأقوام بين مكذب في أمره و مصدق
فكأنما هو شعرة بيضاء قد علقت بحاشية الرداء الأزرق
و قال بعضهم:

كأن الهلال المستنير و قد بدا و نجم الثريا واقف فوق هالته
مليك على أعلاه تاج مرصع و يزهى على من دونه بجلالته
و قال بعضهم:

أنظر إلى حسن هلال بدايهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا
و قال بعضهم:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٩٤ أهلا بفطر قد أتاك هلاله فالآن فاغد إلى الصلاة و بكر
فكأنما من زورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
و قال بعضهم:

بالله يا مصباح بيت الدجى و يا أنيس المعشر الساهدين
حدث بوجدى كل أهل الهوى و اقرأ تحياتى على العاشقين
و قال بعضهم:

يبشر في الهلال بنقص عمرى و أفرح كلما هل الهلال

قصة أصحاب الفيل

لقد جاء ذكر أصحاب الفيل مجملا في القرآن الكريم، فقال عز و شأنه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَّ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ لِكَيْدِهِمْ فِي تَضَلُّلٍ * وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَزِمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ .

قال صاحب مرآة الحرمين: كانت واقعة الفيل سنة (٥٧١) ميلادية، و كانت ولادة النبي صلى الله عليه و سلم عام الفيل.

أما قصتهم فرأينا أن ننقلها من تاريخ الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى فقد جاء في الجزء الأول منه ما نصه:

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى، قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن محمد بن إسحاق أنه قال: لما ظهرت الحبشة على أرض اليمن كان ملكهم إلى أرياط و أبرهه، و كان أرياط فوق أبرهه، فأقام أرياط باليمن سنتين فى سلطانه لا ينازعه أحد، ثم نازعه أبرهه الحبشى الملك و كان فى جند من الحبشة، فانحاز إلى كل واحد منهما إلى الحبشة طائفة، ثم سار أحدهما إلى الآخر، فكان أرياط يقوم بصنعاء و مخاليفها، و كان أبرهه يكون بالجند و مخاليفها، فلما تقارب الناس و دنى بعضهم من بعض، أرسل أبرهه إلى أرياط: إنك لا تصنع بأن تلقى الحبشة بعضهم ببعض فتفنيها بيننا، فبرز لى و أبرز لك، فأينا ما أصاب صاحبه انصرف إليه جنده.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٩٥

فأرسل إليه أرياط: قد أنصفت، فخرج إليه أرياط و كان رجلا عظيما طويلا و سيما و فى يده حربه له، و خرج له أبرهه و كان رجلا قصيرا حادرا لحيما دحداحا و كان ذا دين فى النصرانية، و خلف أبرهه عبدا له يحمى ظهره له يقال له "عتودة" فلما دنى أحدهما من صاحبه، رفع أرياط الحربه فضرب بها رأس أبرهه يريد يافوخه فوقعت الحربه على جبهة أبرهه فشرمت حاجبه و عينه و أنفه و شفقيه، فبذلك سمى "أبرهه الأشرم" و حمل غلام أبرهه عتودة على أرياط من خلف أبرهه فزرقه بالحربة فقتله، فانصرف جند أرياط إلى أبرهه فاجتمعت عليه الحبشة باليمن، و كان ما صنع أبرهه من قتله أرياط بغير علم النجاشى ملك الحبشة بأرض أكسوم من بلاد الحبش.

فلما بلغه ذلك غضب غضبا شديدا و قال: عدا على أمير بغير أمرى فقتله، ثم حلف النجاشى ألا يدع أبرهه حتى يظأ أرضه و يجز ناصيته، فلما بلغ ذلك أبرهه حلق رأسه ثم ملأ جرابه من تراب أرض اليمن ثم بعث به إلى النجاشى و كتب إليه: أيها الملك إنما كان أرياط عبدك و أنا عبدك اختلفنا فى أمرك، و كلنا طاعة لك إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة منه، و أضبط و أسوس لهم منه و قد حلقت رأسى كله حين بلغنى قسم الملك و بعثت به إليه مع جراب من تراب أرضى ليضعه تحت قدميه فيبر بذلك قسمه. فلما انتهى ذلك إلى النجاشى رضى عنه و كتب له أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتىك أمرى فأقام أبرهه باليمن، و بنى أبرهه عند ذلك "القليس"، بصنعاء إلى جنب غمدان فبنى كنيسة و أحكمها و سماها القليس و كتب إلى النجاشى ملك الحبشة: أنى قد بنيت لك كنيسة لم بين مثلها لملك كان قبلك و لست بمنتته حتى أصرف حاج العرب إليها، قال أبو الوليد: أخبرنى محمد بن يحيى قال: حدثنى من أثق به من مشيخه أهل اليمن بصنعاء أن يوسف ذا نواس - و هو صاحب الأخدود الذى حرق أهل الكتاب بنجران - لما غرقه الله عز و جل و جاءت الحبشة إلى أرض اليمن فعبروا من دهلك حتى دخلوا صنعاء و حرقوا غمدان و كان أعظم قصر يعلم فى الأرض و غلبوا على اليمن و بنى أبرهه الحبشى القليس للنجاشى و كتب إليه أنى قد بنيت لك بصنعاء بيتا لم تبين العرب و لا العجم مثله و لن أنتهى حتى أصرف حاج العرب إليه و يتركون الحج إلى بيتهم. فبنى القليس بحجارة قصر بلقيس الذى بمأرب. و بلقيس صاحبة الصرح الذى ذكره الله فى القرآن فى قصة سليمان و كان سليمان حين تزوجها ينزل عليها فيه إذا جاءها. انتهى من الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٩٦

قال الإمام الأزرقى بعد أن ساق قصة الفيل المتقدمة، و أن أبرهه الحبشى لما بنى كنيسة القليس بصنعاء إلى جنب غمدان كتب إلى النجاشى ملك الحبشة: إني قد بنيت لك كنيسة لم تبني العرب ولا العجم مثلها، و لن أنتهى حتى أصرف حاج العرب إليها و يتركوا الحج إلى بيتهم.

و كان بناء "القليس" بحجارة قصر "بليس" الذى بمأرب، فوضع الرجال نسقا يناول بعضهم بعضا الحجارة و الآله، حتى نقل ما كان فى قصر "بليس" مما احتاج إليه من حجر أو رخام أو آله للبناء و جد فى بناءه، و أنه كان مربعا مستوى التريبع، و جعل طوله فى السماء ستين ذراعا، و كبسه من داخله عشرة أذرع فى السماء، و كان يصعد إليه بدرج الرخام، و حوله سور بينه و بين القليس مائتا ذراع، مطيف به من كل جانب، و جعل بين ذلك كله بحجارة تسميها أهل اليمن الجروب، منقوشة مطابقة لا يدخل بين أطباقها الإبرة مطبقة به، و جعل طول ما بنى به من الجروب عشرين ذراعا فى السماء، ثم فصل ما بين حجارة الجروب بحجارة مثلثة تشبه الشرف مداخله بعضها ببعض، حجرا أخضر، و حجرا أحمر، و حجرا أبيض، و حجرا أصفر، و حجرا أسود، و فيما بين كل سافين خشب ساسم مدور الرأس، غلظ الخشبة حزن الرجل ناتئة على البناء، فكان مفصلا بهذا البناء على هذه الصفة، ثم فصل بإفريز من رخام منقوش طوله فى السماء ذراعان، و كان الرخام ناتئا على البناء ذراعا، ثم فصل فوق الرخام بحجارة سود لها بريق من حجارة نغم جبل صنعاء المشرف عليها ثم وضع فوقها حجارة صفر لها بريق، ثم وضع فوقها حجارة بيض لها بريق، فكان هذا ظاهر حايط القليس و كان عرض حايط القليس ستة أذرع.

و ذكروا أنهم لا- يحفظون ذراع طول القليس و لا- عرضه، و كان له باب من نحاس عشرة أذرع طولاً- فى أربعة أذرع عرضاً، و كان المدخل منه إلى بيت فى جوفه، طوله ثمانون ذراعا فى أربعين ذراعا، معلق العمل بالساج المنقوش و مسامير الذهب و الفضة، ثم يدخل من البيت إلى إيوان طوله أربعون ذراعا عن يمينه و عن يساره، و عقوده مضروبة بالفسيفساء مشجرة بين أضعافها كواكب الذهب ظاهرة، ثم يدخل من الإيوان إلى قبة ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ذراعا، جدرها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٩٧

بالفسيفساء و فيها صلب منقوشة بالفسيفساء و الذهب و الفضة، و فيها رخامة مما يلي مطلع الشمس من البلق مربعه عشرة أذرع فى عشرة أذرع، تغشى عين من نظر إليها من بطن القبة تؤدى ضوء الشمس و القمر إلى داخل القبة، و كان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ- و هو عندهم الأبنوس- مفصل بالعاج الأبيض و درج المنبر من خشب الساج ملبسة ذها و فضة، و كان فى القبة سلاسل فضة و كان فى القبة أو فى البيت خشبة ساج منقوشة طولها ستون ذراعا يقال لها:

كعيب، و خشبة من ساج نحوها فى الطول يقال لها: امرأة كعيب، كانوا يتبركون بهما فى الجاهلية و كان يقال لكعيب: الأحوزى- و الأحوزى بلسانهم الحر-.

و كان أبرهه عند بناء القليس قد أخذ العمال بالعمل أخذاً شديداً و كان آلى أن لا تطلع الشمس على عامل لم يضع يده فى عمله فيؤتى به إلا قطع يده. قال:

فتخلف رجل ممن كان يعمل فيه حتى طلعت الشمس، و كانت له أم عجوز فذهب بها معه لتستويهه من أبرهه، فأنته و هو بارز للناس، فذكرت له علة ابنها و استوهبه منه، فقال: لا أكذب نفسى و لا أفسد على عمالى فأمر بقطع يده، فقالت له أمه: اضرب بمعولك ساعى بهر، اليوم لك، و غدا لغيرك ليس كل الدهر لك. فقال: ادنوها، فقال لها: إن هذا الملك أكون لغيرى، قالت: نعم، و كان أبرهه قد أجمع أن يبنى القليس حتى يظهر على ظهره فيرى منه بحر عدن، فقال: لا- أبني حجرا على حجر بعد يومى هذا، و أعفا الناس من العمل. و تفسير قولها ساعى بهر، تقول: اضرب بمعولك ما كان حديداً.

فانتشر خبر بناء أبرهه هذا البيت فى العرب، فدعا رجل من النساء من بنى مالك بن كنانة فبين منهم، فأمرهما أن يذهبا إلى ذلك البيت الذى بناه أبرهه بصنعاء فيحدثا فيه، فذهب بهما ففعلا ذلك، فدخل أبرهه البيت فرأى أثرهما فيه فقال: من فعل هذا؟ فقيل:

رجلان من العرب، فغضب من ذلك و قال: لا أنتهى حتى أهدم بيتهم الذى بمكة، قال: فساق الفيل إلى بيت الله الحرام ليهدمه فكان من أمر الفيل ما كان. ١٥.

فلم يزل القليس على ما كان عليه، حتى ولى أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين العباس بن الربيع بن عبيد الله الحارثى اليمن، فذكر العباس ما فى القليس من النقض و الذهب و الفضه، و عظم ذلك عنده و قيل له: إنك تصيب فيه مالا كثيرا التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٩٨

و كترًا، فتاقت نفسه إلى هدمه و أخذ ما فيه فبعث إلى ابن وهب بن منبه فاستشاره فى هدمه و قال: إن غير واحد من أهل اليمن قد أشاروا على أن لا أهدمه و عظم على أمر كعيب، و ذكر أن أهل الجاهلية كانوا يتركون به و أنه كان يكلمهم و يخبرهم بأشياء مما يحبون و يكرهون، قال ابن وهب: كلما بلغك باطل و إنما كعيب صنم من أصنام الجاهلية فتتوا به، فمر بالدهل " و هو الطبل " و بمزمار فليكونا قريبا ثم أعله الهدامين ثم امرهم بالهدم، فإن الدهل و المزمار أنشط لهم و أطيب لأنفسهم، و أنت مصيب من نقضه مالا عظيما مع أنك تثاب من الفسقة الذين حرقوا غمدان، و تكون قد محوت عن قومك اسم بناء الحبش و قطعت ذكرهم. و كان بصنعاء يهودى عالم، قال: فجاء قبل ذلك إلى العباس بن الربيع يتقرب إليه فقال له: إن ملكا يهدم القليس يلى اليمن أربعين سنة.

قال: فلما اجتمع له قول اليهودى و مشورة ابن وهب بن منبه أجمع على هدمه، قال أبو الوليد: فحدثنى الثقة قال: شهدت العباس و هو يهدمه فأصاب منه مالا عظيما، ثم رأيت دعا بالسلاسل فعلقها فى كعيب و الخشبة التى معه، فاحتملها الرجال فلم يقربها أحد مخافة لما كان أهل اليمن يقولون فيها، فدعا بالوردين " و هى العجل " فأعلق فيها السلاسل، ثم جذها الثيران و جذها الناس معها حتى أبرزوها من السور، فلما لم ير الناس شيئا مما كانوا يخافون من مضرتها، و ثب رجل من أهل العراق كان تاجرا بصنعاء فاشترى الخشبة و قطعها لدار له فلم يلبث العراقى أن جذم فقال رعاع الناس: هذا لشرائه كعيبا، قال: ثم رأيت أهل صنعاء بعد ذلك يطوفون بالقليس فيلتقطون منه قطع الذهب و الفضه - انتهى من الأزرقى.

خروج أبرهة بالفيل لهدم الكعبة

ثم قال الإمام الأزرقى: ثم رجع إلى حديث ابن إسحاق قال: فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة بذلك إلى النجاشى غضب رجل من النساء أحد بنى فقيم من بنى مالك بن كنانة فخرج حتى أتى القليس فقعد فيها - أى أحدث فيها - ثم خرج حتى لحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل له: صنعه رجل من العرب من أهل البيت الذى تحج العرب إليه بمكة، لما سمع بقولك:

أصرف إليها حاج العرب، فغضب فجاءها فقعد فيها، أى أنها ليست لذلك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٩٩

بأهل، فغضب عند ذلك أبرهة و حلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، ثم أمر الحبشة فتهيأت و تجهزت، ثم سار و خرج بالفيل معه فسمعت بذلك العرب فأعظموه و قطعوا به و رأوا أن جهاده حق عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة - بيت الله الحرام - فخرج إليه رجل من أشرف اليمن و ملوكهم يقال له: ذو نفر، فدعا قومه و من أجا به من سائر العرب إلى حرب أبرهة و إلى مجاهدته عن بيت الله الحرام و ما يريد من هدمه و إخرابه فأجاب من أجا به إلى ذلك ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر فأتى به أسيرا فلما أراد قتله، قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلنى فعسى أن يكون مقامى معك خيرا لك من قتلى، فتركه من القتل و حبسه عنده فى وثاق، و كان أبرهة رجلا - حليما ورعا ذا دين فى النصرانية، و مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج إليه، حتى إذا كان فى أرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبائل خثعم شهران و ناهس و من اتبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة و أخذ له نفيل أسيرا فأتى به فقال له نفيل: أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب و هاتان يداى على قبائل خثعم شهران و ناهس بالسمع و الطاعة، فأعفاه

و خلى سبيله و خرج معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب فى رجال ثقيف فقالوا له: أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون و ليس لك عندنا خلاف و ليس بيتنا هذا بالبيت الذى تريد- يعنون اللات- إنما تريد البيت الذى بمكة و نحن نبعث معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم، و بعثوا معه أبا رغال يدله على مكة، فخرج أبرهه و معه أبو رغال حتى أنزلهم بالمغمس فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجعت العرب قبره، فهو قبره الذى يرحم بالمغمس و هو الذى يقول فيه جرير بن الخطفى:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبى رغال

فلما نزل أبرهه المغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على فيل له حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش و غيرهم فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم و هو يومئذ كبير قريش و سيدها، فهمت قريش و خزاعة و كنانة و هذيل و من كان فى الحرم بقتاله ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك.

و بعث أبرهه حناطة الحميرى إلى مكة فقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد و شريفهم ثم قل لهم إن الملك يقول لكم: إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠٠

البيت فإن لم تعرضوا لى بقتال فلا حاجة لى بدمائكم، فإن هو لم يرد حربى فأتنى به، فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش و شريفها فقيل له عبد المطلب، فأرسل إلى عبد المطلب فقال له بما قال أبرهه، فقال عبد المطلب: و الله ما نريد حربته و ما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام و بيت إبراهيم خليله عليه السلام أو كما قال. فإن يمنعه منه فهو بيته و حرمة و إن يخل بيته و بينه فو الله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فانطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتية بك.

فانطلق معه عبد المطلب و معه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر و كان له صديقا حتى دخل عليه و هو فى محبسه فقال: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ قال ذو نفر: و ما غناء رجل أسير فى يدي ملك ينتظر أن يقتله بكرة أو عشيء ما عندى غناء فى شىء مما نزل بك إلا أن أنيسا سايس الفيل صديق لى فسأرسل إليه فأوصيه بك و أعظم عليه حقك و أسأله أن يستأذن لك على الملك و تكلمه فيما بدا لك و يشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. قال: حسبى، فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش و صاحب غير مكة يطعم الناس بالسهل و الجبل و الوحوش فى رؤوس الجبال و قد أصاب الملك له مائتى بعير فاستأذن له عليه و انفعه عنده بما استطعت فقال: أفعل.

فكلم أنيس أبرهه فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك و هو صاحب غير مكة و هو يطعم الناس بالسهل و الجبل و الوحوش فى رؤوس الجبال فأذن له عليك فليكلمك فى حاجته، فأذن له أبرهه، و كان عبد المطلب أوسم الناس و أعظمهم و أجملهم فلما رآه أبرهه أجله و أكرمه عن أن يجلسه تحته و كره أن تراه الحبشة معه على سريره فنزل أبرهه عن سريره فجلس على بساطه و أجلسه معه عليه إلى جنبه ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك، قال له الترجمان:

إن الملك يقول لك ما حاجتك؟ قال: حاجتى أن يرد الملك على مائتى بعير أصابها لى.

فلما قال له ذلك قال أبرهه لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى، تكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك و تترك بيتا هو دينك و دين آبائك و قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه، قال عبد المطلب: إنى أنا رب إبلى و إن للبيت ربا سيمنعه، قال: ما كان ليمنع منى، قال: أنت و ذاك، قال ابن إسحاق: و قد كان فيما يزعم بعض أهل العلم قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠١

حين بعثه إليه حناطة الحميرى بعمر بن نفاثة بن عدى بن الذيل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، و هو يومئذ سيد بنى بكر و خويلد ابن

واثلة الهدلى و هو يومئذ سيد هذيل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم، و لا يهدم البيت فأبى عليهم، و الله أعلم أكان ذلك أم لا، و قد كان أبرهة رد على عبد المطلب الإبل التي كان أصاب.

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر و أمرهم بالخروج من مكة و التحرز في شعف الجبال خوفا عليهم من معرفة الجيش ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقه باب الكعبة، و قام معه نفر من قريش يدعون الله عز و جل و يستنصرونه على أبرهة و جنده، فقال عبد المطلب و هو آخذ بحلقه باب الكعبة:

يا رب إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صلييهم و محالهم عدوا محالك
إن كنت تاركهم و قبلتنا فأمر ما بدا لك
و لئن فعلت فإنه أمر يتم به فعالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة و انطلق هو و من معه من قريش إلى شعف الجبال فتنحروا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. و قال عبد المطلب أيضا:

قلت و الأشرم تردى خيله إن ذا الأشرم غر بالحرم
كاده تبع فيما جندت حمير و الحى من آل قدم
فانشى عنه و فى أوداجه حارج أمسك منه بالكظم
نحن أهل الله فى بلدته لم يزل ذاك على عهد إبراهيم
نعبد الله و فىنا شيمه صلة القربى و إيفاء الذمم
إن للبيت لربا مانع من يرده بآثام يصطلم
يعنى إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.

و لما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة و هيا فيله و عبأ جيشه و كان اسم الفيل محمودا، و أبرهة مجمع لهدم الكعبة ثم الانصراف إلى اليمن، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب الخثعمى حتى قام إلى جنب الفيل فالتغم أذنه فقال: ابرك التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠٢

محمود و ارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل.

و خرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل و ضربوا الفيل ليقوم فأبى، ف ضربوا رأسه بالطبرزين فأبى، فأدخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول، و وجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، و وجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، فوجهوه إلى مكة فبرك، فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف و البلسان، مع كل طير منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر فى منقاره و حجران فى رجليه أمثال الحمص و العدس لا تصيب أحدا منهم إلا هلك و ليس كلهم أصابت و خرجوا هارين بيتدرون الطريق التي منها جاءوا و يسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نعمته:

أين المفر و الإله الطالب و الأشرم المغلوب غير الغالب
و قال نفيل أيضا حين و لّوا و عاينوا ما نزل بهم:

ألا حبيت عنا يا ردينانعمناكم مع الإصباح عينا
ردينة لو رأيت و لن تربه لدا جنب المحصب ما رأينا
إذا لعذرتنى و حمدت أمرى و لم تأسى على ما فات بينا

حمدت الله إذ عاينت طيراو خفت حجارة تلقى علينا

و كل القوم يسأل عن نفيل كان على للحبشان دينا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق و يهلكون بكل مهلك على كل منهل، و أصيب أبرهه في جسده و خرجوا به معهم تسقط أنملة أنملة كلما سقطت منه أنملة اتبعها منه مده تمث قيحا و دما حتى قدموا به صنعاء و هو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون و أقام بمكة فلال من الجيش و عسفاه و بعض من ضمه العسكر، فكانوا بمكة يعتملون و يرعون لأهل مكة.

قال ابن إسحاق: و حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة و الجدرى بأرض العرب في ذلك العام، و أنه أول ما رؤى بها من مراير الشجر الحرمل و الحنظل و العشب من ذلك العام.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠٣

قال أبو الوليد: و قال بعض المكيين: إنه أول ما كانت بمكة حمام اليمام، حمام مكة الحرمية ذلك الزمان، يقال إنها من نسل الطير التي رمت أصحاب الفيل حين خرجت من البحر من جدة، و لما هلك أبرهه ملك الحبشة ابنه يكسوم بن أبرهه و به كان يكنى، ثم ملك بعد يكسوم أخوه مسروق بن أبرهه، و هو الذي قتله الفرس حين جاءهم سيف بن ذى يزن و كان آخر ملوك الحبشة و كانوا أربعة فجميع ما ملكوا أرض اليمن من حين دخلوها إلى أن قتلوا ثلاثين سنة.

و لما رد الله سبحانه عن مكة الحبشة و أصابهم ما أصابهم من النقمة أعظمت العرب قريشا و قالوا: أهل الله قاتل عنهم و كفاهم مؤنة عدوهم، فجعلوا يقولون في ذلك الأشعار يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة و ما دفع عن قريش من كيدهم و يذكرون الأشرم و الفيل و مساقه إلى الحرم، و ما أراد من هدم البيت و استحلال حرمة.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن عائشة أم المؤمنين، قالت: رأيت قائد الفيل و سائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. قال ابن إسحاق: فلما قتلت الحبش و رجع الملك إلى حمير سرت بذلك جميع العرب لرجوع الملك فيها و هلاك الحبشة، فخرجت وفود العرب جميعها لتنهته سيف بن ذى يزن، فخرج وفد قريش، و وفد ثقيف، و عجز هوازن و هم نصر و جشم و سعد بن بكر و معهم وفود عدوان و فهم ابني عمرو بن قيس فيهم مسعود بن معتب، و وفد غطفان، و وفد تميم، و أسد، و وفد قبائل قضاة و الأزدي، فأجازهم و أكرمهم و فضل قريشا عليهم في الجائزة لمكانهم في الحرم و جوارهم بيت الله تعالى.

قال أبو الوليد: و حدثني عبد الله بن شبيب الربعي قال: حدثنا عمرو بن بكر بن بكار قال: حدثني أحمد بن القاسم الربعي مولى قيس بن ثعلبة عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة و ذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه و سلم بستين آتاه وفود العرب و أشرافها لتنهته و تمدحه و تذكر ما كان من بلائه و طلبه بتأثر قومه، فأتاه وفد قريش و فيهم عبد المطلب بن هاشم و أمية بن عبد شمس، و خويلد بن أسد في ناس من وجوه قريش من أهل مكة، فأتوه بصنعاء و هو في قصر له يقال له: غمدان، و هو الذي يقول فيه الشاعر أبو الصلت الثقفي أبو أمية بن أبي الصلت:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠٤ لا تطلب الثأر إلا كابن ذى يزن خيم في البحر للأعداء أحوالا

أتى هر قلا و قد شالت نعامتهم فلم يجد عنده النصر الذي سالا

ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشره من السنين يهين النفس و المالا

حتى أتى بني الأحرار يقدمهم تخالهم فوق متن الأرض أجيالا

بيض مرابزة غلب أساوره أسد يربين في الغيضاة أشبالا

لله درهم من فتية صبرما إن رأيت لهم في الناس أمثالا

لا يضبجرون و إن حزت مغافرهم و لا نرى منهم في الطعن ميالا

أرسلت أسدا على سود الطلاب أضحى شريدهم فى الناس فللا

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعافى رأس غمدان دارا منك محلا

تلك المكارم لا قعبان من لبن شييا بماء فعادا بعد أبوالا

فالتط بالمسك إذا شالت نعمتهم وأسبل اليوم فى برديك إسبالا

فاستأذنوا عليه فأذن لهم فإذا الملك متضمخ بالعنبر يلصف و وميض المسك من مفرقه إلى قدمه و سيفه بين يديه، و عن يمينه و عن يساره الملوك و أبناء الملوك، فدنا عبد المطلب فاستأذن فى الكلام فقال له سيف بن ذى يزن: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملك فقد أذنا لك، فقال له عبد المطلب: إن الله عز و جل قد أحلك أيها الملك محلا رفيعا، صعبا، منيعا، شامخا، باذخا، و أنتك منبتا طابت أرومته، و عزت جرثومته، و ثبت أصله، و بسق فرعه، فى أكرم معدن، و أطيّب موطن، و أنت أبيت اللعن رأس العرب، و ربيعها الذى تخصب به و أنت أيها الملك رأس العرب الذى له تنقاد و عمودها الذى عليه العماد، و معلقها الذى تلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، و أنت لنا منهم خير خلف، فلن يخمد ذكر من أنت سلفه، و لن يهلك من أنت خلفه، أيها الملك نحن أهل حرم الله و سدنة بيته أشخصنا إليك الذى أبهجنا لكشفك الكرب الذى فدحنا فنحن وفد التهنة لا وفد المرزئة.

قال: و أيهم أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف.

قال: ابن أختنا، قال: نعم، قال: ادن، فأدناه ثم أقبل عليه و على القوم، فقال:

مرحبا و أهلا- و ناقه و رحلا- و مستناخا سهلا، و ملكا ربحلا يعطى عطاء جزلا، قد سمع الملك مقاتكم، و عرف قرابتكم، و قبل وسيلتكم فأنتم أهل الليل و النهار، و لكم الكرامة ما أقمتهم، و الحباء إذا ظعنتم، قال: ثم قال: انهضوا إلى دار الضيافة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠٥

و الوفود، فأقاموا شهرا لا يصلون إليه و لا يأذن لهم فى الانصراف، قال: و أجرى عليهم الإنزال.

ثم انتبه لهم انتباهه فأرسل إلى عبد المطلب فأدناه و أخلا- مجلسه ثم قال: يا عبد المطلب إنى مفوض إليك من سر علمى أمرا لو غيرك يكون لم أبح به له، و لكنى وجدتك معدنه فأطلعتك طلعه و ليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ فيه أمره، إنى أجد فى الكتاب المكنون، و العلم المخزون، الذى اخترناه لأنفسنا و احتجناه دون غيرنا خبرا جسيما و خطرا عظيما فيه شرف للحياة و فضيلة للناس عامة و لرهطك كافة و لك خاصة. قال: أيها الملك مثلك سر و بر فما فداك أهل الوبر و الكدر زمرا بعد زمر. قال: فإذا أولد بتهامة غلام به علامة كانت له الإمامة، و لكم به الزعامة، إلى يوم القيامة، فقال له عبد المطلب: أبيت اللعن لقد أتيت بخبر ما أب بمثله وافد قوم، و لولا- هيبة الملك و إعظامه و إجلاله لسألته من سارة آبائى ما أزداد به سرورا، فإن رأى الملك أن يخبرنى بإفصاح فقد أوضح لى بعض الإيضاح، قال: هذا حينه الذى يولد فيه و قد ولد اسمه محمد بين كتفيه شامة، يموت أبوه و أمه و يكفله جده و عمه، و قد ولدناه مرارا و الله باعته جهارا و جاعل له منا أنصارا، يعز بهم أوليائه، و يذل بهم أعداءه و يضرب بهم الناس عن عرض، و يستبيح بهم كرائم الأرض، يعبد الرحمن و يدحر الشيطان، و يكسر الأوثان و يخمد النيران، قوله فصل و حكمه عدل، يأمر بالمعروف و يفعل، و ينهى عن المنكر و يبطله، قال: فخر عبد المطلب ساجدا، فقال له: ارفع رأسك، تلج صدرك، و علا كعبك، فهل أحسست من أمره شيئا؟ قال: نعم أيها الملك، كان لى ابن و كنت به معجبا و عليه رفيفا فزوجته كريمة من كرائم قومه، آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فجاءت بغلام سميته محمدا، مات أبوه و أمه و كفلته أنا و عمه، بين كتفيه شامة، و فيه كل ما ذكرت من علامة.

قال له: و البيت ذى الحجب، و العلامات على النصب، إنك يا عبد المطلب، لجده غير الكذب، و إن الذى قلت، لكما قلت فاحتفظ بابنك و احذر عليه من اليهود فإنهم له أعداء و لن يجعل الله تعالى لهم عليه سيلا، فاطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإنى لست آمن أن تدخلهم النفاسة، من أن تكون لك الرئاسة فيبتغون لك الغوائل، و ينصبون لك الجبال، و هم فاعلون أو

أبناءؤهم و لولا أن الموت محتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى و رجلى، حتى أصير

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠٦

يثرب مملكته فإنى أجد فى الكتاب الناطق و العلم السابق، أن ييثرب استحكام أمره، و أهل نصره، و موضع قبره، و لولا- أنى أقيه الآفات، و أحذر عليه العاهات، لأوطأت أسنان العرب كعبه، و لأعليت على حدائثه سنه ذكره، و لكنى صارف ذلك إليك، عن غير تقصير بمن معك، ثم أمر لكل رجل منهم بمائة من الإبل و عشرة أعبد، و عشر إماء و عشرة أرتال ذهب، و عشرة أرتال فضة و كرش مملوءة عنبرا، و أمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، ثم قال له: اثنتى بخبره، و ما يكون من أمره عند رأس الحول، فمات سيف بن ذى يزن من قبل أن يحول الحول.

و كان عبد المطلب يقول: أيها الناس لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاذ، و لكن ليغبطنى بما يبقى لى و لعقبى شرفه و ذكره و فخره، فإذا قيل له: و ما ذاك؟ يقول: ستعلمن و لو بعد حين، و فى ذلك يقول أمية بن عبد شمس:

جلبنا النصح نحقبها المطايا إلى أكوار أجمال و نوق

مفلفلة مراتعها تعالى إلى صنعاء من فج عميق

تؤم بنا ابن ذى يزن و تغرى ذوات بطونها أم الطريق

و نرعى من مخايلها بروقا موافقة الوميص إلى بروق

و لما وافقت صنعاء صارت بدار الملك و الحسب العريق التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ١-١؛ ص ٣٠٦

ل أبو الوليد: و قد ذكر الله تعالى الفيل و ما صنع بأصحابه، فقال: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ إِلَى آخِرِهَا، و لو لم ينطق القرآن به لكان فى الأخبار المتواطئة و الأشعار المتظاهرة فى الجاهلية و الإسلام حجة و بيان لشهرته و ما كانت العرب تؤرخ به فكانوا يؤرخون فى كتبهم و ديونهم من سنه الفيل، و فيها ولد رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلم تزل قريش و العرب بمكة جميعا تؤرخ بعام الفيل، ثم أرخت بعام الفجار، ثم أرخت بينان الكعبة، فلم تزل تؤرخ به حتى جاء الله بالإسلام فأرخ المسلمون من عام الهجرة، و لقد بلغ من شهرة أمر الفيل و صنع الله بأصحابه و استفاضة ذلك فيهم حتى قالت عائشة رضى الله عنها على حدائثه سنها: لقد رأيت قائد الفيل و سايسه أعميين بطن مكة يستطعمان. و قد ذكر غير واحد من أحداث قريش أنه رآهما أعميين، انتهى من الأزرقى. و سنعيد هنا فى الصحيفة الآتية قصة الفيل فى قالب أدبى إن شاء الله تعالى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠٧

نقول: و بعد هلاك جيش أبرهه بالمغمس أرسل الله عليهم سيلا جارفا ألقاهم فى البحر كما ذكر ذلك بعض المؤرخين و هذا معقول حتى لا ينتشر الوباء من جث الموتى بجهة عرفات، و تصل إلى مكة و ما حولها، و المقصود بالبحر بحر جدة، فإن المغمس به مسيل يسيل منه السيل إلى اليوم، يمر بعرفات ثم ينزل منها إلى مزدلفة فمنى و ينزل منها إلى جهة حراء إلى شعبة أذاخر ثم يمر إلى جهة بحرة بطريق جدة إلى أن يصب فى البحر الأحمر، هذا إذا كان السيل قويا، و بالضرورة كان السيل الذى جرف جيش أبرهه قويا جدا.

و تأمل فى كلام نفيل بن حبيب الخثعمى مع فيل أبرهه الذى يسمونه "محمود" الذى ذكره، و ذلك حينما وجهوا الفيل محمود إلى مكة حينما أراد أبرهه دخول مكة، فإن نفيل بن حبيب أقبل حتى قام إلى جنب الفيل فالتقم أذنه فقال له: "أبرك محمود و ارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام" ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل، و خرج نفيل بن حبيب يشند حتى أصعد فى الجبل، فضرىوا الفيل فأبى ... إلى آخر القصة المذكورة.

فمن هو نفيل بن حبيب، و كيف يخاطب الفيل و هو حيوان لا يعقل، ثم كيف أن الفيل استمع إليه و أطاع أمره فلم يتوجه إلى مكة مهما ضربوه، لكنه كان يهرول إلى جهة المشرق أو المغرب أو اليمن. لا شك أن كل ذلك بإلهام من الله سبحانه و تعالى كرامة لبيته

المعظم و بلده الأمين.

قال بعض فضلاء عصرنا عن حادثة الفيل ما يأتي:

بعث الرسول لأمة أمية لا حاكمون بها و لا حكماء

ما عندهم جيش يصد عدوهم و لذاك يوم الفيل عز لقاء

فروا من الميدان و انسحبوا بلا حرب فقامت فتنة عمياء

قالوا: لهذا البيت رب قادر يحميه مما رامه الأعداء

فإذا برب البيت يصدر أمره للطائرات فيستحر بلاء

ألقت قذائفها فنالت مقتلاتهم و أصحاب الحمى شهداء

قد كان هذا حال أمة يعرب لكنهم بعد الهدى سعداء

تركوا الهوى و توحدا في دولة قد نظمت و يديرها رؤساء

الذكر دستور و فيها حاكم و لها جيوش قادها بسلاء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠٨ هزوا عروش الفرس و الروم الآلى كانت لهم مدينة زهراء

بيت برمك

ذكر الغازي في تاريخه نقلا عن السنجاري: أن الزمخشري ذكر في كتابه "ربيع الأبرار" و نوبهار بلخ قال: بناه أحد أجداد خالد بن برمك عارض به الكعبة، و كانوا يطوفون به و يحججه أهل مملكتهم و يلبسونه الحرير، و كان بيتا حول أروقتة ثلاثمائة و ستون مقصورة، يسكنها خدامه و قوامه، و كان من يليه يسمى "برمكا"، و انتهت البرامكة إلى خالد بن برمك فأسلم على يد عثمان و سماه عبد الله. انتهى.

بيت غطفان

و ذكر الغازي في تاريخه: قال السنجاري، قلت: و في القاموس "و بس" بالضم بيت لغطفان بناها ظالم بن أسعد لما رأى قريشا يطوفون بالكعبة و يسعون بين الصفا و المروة، فذرع البيت الحرام و أخذ حجرا من الصفا و حجرا من المروة و رجع إلى قومه، فبنى بيتا على قدر البيت و وضع الحجرين و قال: هذان الصفا و المروة، فاجتزؤا به عن الحج، فأغار زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالما و هدم بناءه. انتهى.

وصف قصة الفيل

بقلم الدكتور طه حسين انتهينا من قصة الفيل التي ذكرها الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى. و الآن نحب أن نعيد هذه القصة لا على لغة المؤرخين، و إنما على لغة أهل الأدب، لحلو ذوقها و تنوع طعمها. على حد قوله صلى الله عليه و سلم كما في البخارى و غيره: «إن من البيان لسحرا». فإليك القصة بقلم أديب مصر و كاتب العصر الأستاذ العظيم "الدكتور طه حسين" وزير المعارف الأسبق بمصر في زماننا، كما جاءت في الجزء الأول من كتابه "على هامش السيرة" عند كلامه على راهب الإسكندرية، فقد صاغ الدكتور طه حسين على لسان هذا الراهب لرئيس الدير و أهله، حكاية النجاشي

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٠٩

و أبرهه حتى وصل إلى عزم أبرهه على هدم بيت الله الحرام. و من هنا نحن ننقل من كلامه ما يأتي:

قال حفظه الله تعالى: وفي ذات يوم رفع إلى أبرهة أمران ضاق بهما أشد الضيق، وخرج لهما عما قد ألف من الحلم والأناة. أصبح سدنة الكنيسة فرأوا أنفسهم أمام أمر عظيم: رأوا كنيستهم قد لطخت بالقاذورات، وألقيت فيها الجيف، وانتهدت حرمتها، فثاروا بذلك ورفعوه إلى أبرهة، وزعموا له أن هذا الإثم لا يمكن أن يجنيه إلا رجل من هؤلاء العرب الذين يأتون من تهامة، حيث يقوم لهم بيت هناك يقدسونه و يحجون إليه و يسمونه الكعبة و العرب كلها تحج إليه و تعظم أمره، و تعظم الذين يعيشون حوله من هذا الحى الذى يسمى قريشا، و الذى يتجر بين بلادنا و بلاد الشام. فلما سمع الملك ذلك غضب أشد الغضب، و أقسم ليهد من هذا البيت و ليحملن العرب على أن يحجوا إلى كنيسة بالسيف، بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق و اللين. و لم يكد النهار يتقدم حتى رفعت الأنباء إلى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذى أرسله إليهم ملكا، فطار طائرته، و ثار ثائرته، و أذن من فوره بالتجهز للحرب و الاستعداد للرحيل، و أرسل إلى النجاشى ينبئه بذلك، و يسأله أن يمده بالجنود و الفيلة. و ما هى إلا أيام حتى تهيأ له جيش ضخيم قوى، و حتى فصلنا عن صنعاء يملؤنا الأمل و تزهينا الكبرياء. و كنت أتحدث إلى أبرهة بأننا سنقطع هذه الطريق على طولها فى غير مشقة و لا جهد، و بأننا سنصل بين الشام و اليمن، و بأنى سأسقبله ضيفا فى بلاد القيصر، كما استقبلنى ضيفا فى بلاد النجاشى. و كان جيشنا يعظم و يضحخ كلما تقدمنا فى الطريق بمن كان ينضم إلينا من أذواء اليمن و أقبالها.

و لكن طريقنا لم تخل مع ذلك من العقاب و لم تكن آمنة كلها، فقد نصب لنا الحرب جماعة من أقبال اليمن على رأسهم رجل يقال له ذو نفر، غيره على وثيتهم، و حفيظة لبيتهم ذلك، و دفاعا عن حلفائهم من قريش، و لكننا هزمناهم فى غير مشقة، و أخذنا رئيسهم أسيرا. و هم الملك أن يقتله، ثم رق له و عفا عنه، و استبقاه فى أسره. و مضينا أمامنا لا نلقى كيدا حتى كدنا نبلغ تهامة اليمن، و إذا حى من أحيائها قوى عظيم البأس مسلط على الأرض، متحكم فى الطريق و فى القوافل التى تقطعها، يقال له خثعم، قد جمع لحربنا، و غره عدده فخيلى إليه أنه سيقهرنا كما تعود أن يقهر الناس من قبل. و لكن قهرناه فى أقصر وقت و أيسر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١٠

جهد، و أخذنا رئيسه رجلا يقال له نفيل بن حبيب أسيرا و هم الملك أن يقتله و لكنه استعطف و غلا فى الاستعطاف حتى ظفر بعفو الملك، و تقدم مع الأدلاء ليسلكوا بنا طريق هذا البيت الذى كنا نقصد إليه. و نمضى فى طريقنا لا نلقى كيدا، و قد هابتنا العرب و خلت لنا الطريق، و أعظمت أمرنا إعظاما حتى إذا دنونا من مكة، و بلغنا مدينة عظيمة هناك يقال لها الطائف، تقوم على مرتفع من الأرض عظيم، و من حولها النخيل و الكروم و الحدائق، فيها أنواع الفاكهة و الثمر كأنها مدينة من مدن الساحل الشامى قد نقلت إلى تلك الأرض المقفرة المجدبة فأقامت فيها مشرفة زاهية كأنها الابتسامة الجميلة فى الوجه المظلم الكئيب، خرج إلينا هنالك أهل هذه المدينة فقدموا الطاعة و أظهروا الخضوع، و بعثوا معنا رجلا منهم يسلك بنا إلى مكة أقرب طريق و نمضى أمامنا حتى نبلغ مكة، فبينخ الجيش يستريح قبل أن يأخذ فى الهجوم. و يأتى سفراء القبائل إلى الملك من كل مكان يقدمون إليه طاعتهم و يعرضون عليه ثلث أموالهم، و يطلبون إليه أن يدع بيتهم هذا لا يمسه بسوء، فلا يسمع الملك منهم و لا يحفل بهم. ثم يرسل الملك طلائعه فتغير على ما حول مكة من الأرض و تستاق كل ما تجد فيه من مال. حتى إذا كان الغد أرسل الملك جماعة من أصحابه إلى مكة و كلفهم أن يسألوا عن سيدها و عظيمها، فإذا لقوه أنبئوه بأن الملك لا يريد قتالهم و لا حربهم، و إنما يريد أن يهدم هذا البيت فإن خلوا بينه و بين البيت فهم آمنون، و إلا- فليأذونا بحرب تسحقهم سحقا و أمر الملك سفراءه أن يأتوا بعظيم قريش إن أظهر الموادعة و الميل إلى السلم. و يمضى السفراء ثم يعودون و معهم رجل عظيم، و سيم جسيم، لم أرقط أجمل منه، و لا أملا للعين، و لا أوقع فى القلب، و لا أشد مهابة و جلالا.

حتى إذا بلغوا به سرادق الملك دخلوا يستأذنون له. و يسأل الملك عنه فيقال له:

هذا عبد المطلب سيد قريش و صاحب غيرها، أعظمها شرفا، و أعلاها مكانة، و أكرمها نفسا، و أسخاها يدا، يطعم الناس فى السهل و يطعم الوحوش فى رؤوس الجبال و كنت عند الملك حين أدخل عليه هذا الرجل، و رأيت الملك ينظر إليه فيكبره و يعظمه، و يلقاه

بالتجلة و الكرامة، و يهم أن يجلسه معه على السرير، و لكنه يشفق أن تنكر الحبشة ذلك، فينزل عن سريره و يجلس مع هذا الرجل على البساط. ثم يكلف الترجمان أن يسأله حاجته. فما أشد ما عجب الملك حين فسر الترجمان له جواب سيد قريش. قال: حاجتي أن ترد إليّ مائتين من الإبل أخذتها طلائعك فيما أخذت أمس من المال. قال الملك مستهزئا: لقد أعظمتك حين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١١

رأيتك، فإنني لأصغر من شأنك الآن. لقد كنت أظن أنك ستحدثني في بيتك هذا الذي أريد أن أهدمه، و الذي هو دينك و دين آباءك و شرفك و شرف آباءك، فإذا أنت تحدثني في مائتين من الإبل. قال سيد قريش في صوت الهادئ الواثق المطمئن: أنا رب الإبل، فلا أحدثك فيها، فأما البيت فإن له ربا سيمنعه. قال الملك: لن يمنعه مني. قال سيد قريش: فأنت و ذاك. و أمر الملك أن ترد إلى الشيخ إبله، فردت إليه.

و لكني تبعته لأمرى ما يكون من شأنه، فإذا هو لا يقبض هذه الإبل إلا ليرسلها هديا إلى هذا البيت، الذي لم يرد أن يتحدث إلى الملك فيه و يمضى هذا الشيخ إلى قومه من قريش، فأمرهم أن يفرقوا في الشعاب و على رؤوس الجبال هربا من الملك، و إشفافا من معرفة الجيش، و يقوم أمام بيته هذا الذي يعظمه و قد أخذ بحلقة بابه، و من حوله نفر من قومه و يقول كلاما حسن الانسجام شديد الوقع في النفس، سمعته فأحبيته و لكني لم أفهمه، على أني كنت قد أخذت أحسن هذه اللغاة. ثم يرسل حلقة الباب، و يمضى مع من كان يصحبه من قومه فيتحصن في شعب من الشعاب. و أنظر أنا إلى هذه المدينة فإذا هي قد خلت من أهلها، و قامت بيوتها هادئة ساكنة، يظلمها حزن عميق فيه هيبه و جلال. قامت بظلمها هذا الحزن، و لم أكن أرى في هذا الحزن خوفا و لا- إشفافا من معاول الهادمين.

و أصبحنا و قد أمر الملك بدخول المدينة، فيم؟؟؟ الجيش أن يتحرك و في مقدمته فيل عظيم، و لكني أرى دليلا نفيلا بن حبيب الخثعمي يدنو من الفيل فيأخذ أذنه و يسر فيها كلاما. ثم يرسلها و يشتد هاربا في الجبل. و تثير حركة هذا الرجل في نفسي شيئا من العجب، فما علمت أنه يعرف منطق الفيلة، و ما علمت أن الفيلة تعرف منطق العرب. و عجبت، و لبت عجبى لم يتجاوز هذه القصة، و لكني رأيت بعد ذلك ما يقضى على كل عجب. رأيت بعد ذلك أشياء ما قدرت قط أنى سأرى بعضها. رأيت بعد ذلك أشياء وددت لو لم أرها قط.

و إنى على ذلك لسعيد أشد السعادة، معتبط أشد الغبطة، لأنى رأيتها، فهي التي هدتني إلى الحق، و هي التي كشفت عن نفسى الغطاء. رأيت الفيل قد برك، حتى إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم، حتى إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد. و يجد ساسته بعد ذلك في إنهاضه فلا يبلغون منه شيئا، يحثونه و يؤذونه و يضربونه، و يبلغون به أقصى ما يهيج الفيل فلا ينهض و لا يهم بالنهوض. حتى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١٢

إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض و مضى مهرولا، فإذا أداروا رأسه نحو مكة برك و لم يتقدم أمامه إصبعا، و نحن ننظر إلى هذا و قد ملأنا العجب، و أخذ الدهش من نفوسنا كل مأخذ، و بدأ الخوف يلعب بقلوبنا، و بدأ الذعر يطلق بعض الألسنة بالرغبة عن دخول المدينة و الانصراف عن هذا البيت، و إنا لفي ذلك ننظر إلى الساسة و هم يعالجون الفيل، و إذا الجو يظلم شيئا فشيئا، و إذا سحب كثيف يبدو لنا من بعيد، قد أقبل إلينا مسرعا من ناحية البحر، فلا نكاد نزيل النظر إليه حتى نتبين، و يا هول ما نتبين، لسنا نرى سحبا كالسحاب، و لا غماما كالغمام، و إنما نرى سحبا حيا يخفق بأجنحته خفقا، و يبعث منظره في نفوسنا روعا يخرجنا عن أطوارنا و ينتهي بنا إلى شيء يشبه الذهول. إنى لأرى الآن السحاب حين كان يقبل علينا أسرابا من طير صغار، لها مناقير الطير و أكف الكلاب، حتى إذا دنت منا أخذت تحصب الجيش بحجارة دقاق كانت تحملها في مناقيرها و أرجلها. و لم تكن هذه الحجارة تبلغ دقة العدسة و لا عظم الحمصة، و إنما كانت شيئا بين بين، و كانت على دقتها لا تمس شيئا إلا هشمته تهشما، و لا

تمس رجلا-إلا- ألقته صريعا و سلوا ما شتتم عن خوف الخائفين و ذعر المذعورين و انصراف أصحاب الفيل عن الفيل، و تحول الجيش عن مكة إلى غيرها من الوجوه جادا في الهرب، و هذه الأسراب من الطير تتبعه، تحصبه بهذه الحجارة و تملأ الجو من حوله بصياح مخيف.

و لست أدري كيف انتهى أمرنا، و لا- كيف نجونا من هذه الطير و لكنى أرانى مجددا في الهرب، و من حولي قوم يجدون مثلي في الهرب، و قد حملوا رجلا مريضا سىء الحال. حتى إذا انقطعت أصوات الطير، و نظرنا فلم نر في السماء شيئا، أخذت أسأل عن نفسى و عن حولي و عن الجيش، و أخذت أسأل عن هذا المريض الذى أراه محمولا- يتأذى، فإذا هو أبرهه، قد مسه حجر من تلك الحجارة فصرع، و ظهر على جسمه بلاء عظيم، و أخذت أجزاء جسمه تتساقط قليلا قليلا، لا يسقط جزء منها إلا تبعه صديد منكر قبيح. كم تأذى هذا الرجل أو كم احتمل من ألم في نفسه و جسمه، و كم ذاق من مرارة الندم و لذع الحسرة و اللوعة. إنى لأراه حين بلغنا صنعاء، و أدخل إلى قصره ليمرض فيه و قد هزل و مسه الضر، حتى لكأنه فرخ من فراخ الطير. على أن حياته لم تمتد في قصره، و إنما ألح الألم عليه إلحاحا شديدا و أقبل أحد بنيه صباح يوم فنعاه إلى، فلما سألت كيف مات، علمت أن صدره انفجر عن قلبه انفجارا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١٣

و كان حديث الشيخ قد ملك على هؤلاء السمار نفوسهم و قلوبهم، فأغرقوا في شىء من الوجوم لم يحسوا معه أن صاحبهم قد قطع الحديث و اندفع في تفكير عميق بعيد و لست أدري كم أنفقوا من الوقت في هذا الوجوم الصامت، و لكنى أعلم أن رجلا منهم شابا لم تكن قد تقدمت به السن بعد، خرج من هذا الصمت و أخرجهم منه حين قال بصوت متهدج تقطعه العبرات تقطيعا: إن لهذا البيت في مكة لشأنا. قال الشيخ: نعم، إن لهذا البيت في مكة لشأنا، و إن هذا الشأن هو الذى اضطرني إلى أن أعود من اليمن مسرعا ما وسعتنى السرعة حتى أبلغ مصر و أنتهى إلى الإسكندرية و أقسم ما حفلت بأهلى و لا بوطنى و لا بشركائى فى التجارة و لا أتحت لأحد منهم أن يسألنى من أمرى عن قليل أو كثير، و إنما فرقت فيهم مالى تفريقا، و حملت منه ما استطعت حملة، و مضيت إلى الشام يحسبنى الناس تاجرا يتغى الربح، و إنما كنت سائحا أبتغى هذا الدير لأدخله، فأخرج من الحياة و لذاتها، و آمالها و غرورها، و أفرغ للعبادة و طاعة الله.

و إنى لأرجو لو امتدت بى الحياة أن أعود إلى هذا البيت فى مكة لا غازيا و لا باغيا و لا قاصدا إلى شر، بل تائبا تائبا منيبا مستغفرا من هذا الإثم الذى شاركت فيه. و إلى أن يتيح الله لى هذه الأوبة إلى مكة، إن كان قد قدر لى أن أراها مرة أخرى، فسأقيم معكم ألقى من تلقون من هؤلاء الذين يأتون من مكة، و يعودون إليها، فأحدث إليهم و أسمع منهم، و أنا لهم بما أستطيع أن أنالهم به من إحسان.

و أذن مؤذن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى حجراتهم، فتفرقوا و ما فى نفوسهم رغبة فى سمر و لا ميل إلى حديث، و ما منهم إلا من يفكر فى هذا البيت الذى أحجم عنه الفيل، و رجمته طير أبابيل، ترمى عدوه بحجارة من سجيل، فإذا هم كعصف مأكول. انتهى من كتاب على هامش السيرة.

نطق فيل أبرهه لعبد المطلب

و مما يناسب قصة الفيل، الحكاية الواردة فى كتاب "النطق المفهوم من أهل الصمت المعلوم" المطبوع سنة (١٣٠٨) هجرية بمطبعة الحلبي بمصر، و هى هذه و الله تعالى أعلم بصحتها:

الفصل السادس فى نطق الفيل: لما بلغ عبد المطلب قدوم أبرهه لهدم بيت الله الحرام، قال: يا معشر قريش، لا يصل إلى هدم هذا البيت لأن لهذا البيت ربا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١٤

يحميه و يحفظه. ثم جاء أبرهه فاستاق إبل قريش و غنمهم و ساق لعبد المطلب أربعمائهُ ناقةً فركب عبد المطلب في قريش حتى بلغ ثبير و استدارت دائرة غرة رسول الله صلى الله عليه و سلم على جبينه أى جبين عبد المطلب كالهلال، و انتشر شعاعها على البيت الحرام مثل السراج فلما نظر عبد المطلب إلى ذلك قال: يا معشر قريش ارجعوا قد كفيتم هذا الأمر فوالله ما استدار هذا النور منى إلا كان الظفر لنا فرجعوا متفرقين.

فبلغ ذلك أبرهه فبعث إليه رجلا من قومه، فأقبل الرجل حتى دخل مكة، فسأل عن كبير الناس فقبل له عليك بعبد المطلب فلما دخل و نظر وجهه ذعر و خضع و تلجلج لسانه و خر مغشيا عليه فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه، فلما أفاق خر ساجدا لعبد المطلب و قال: أشهد أنك سيد قريش حقا. و ذلك أنه لم يكن أحد من الناس يدخل مكة إلا خر ساجدا إكراما من الله عز و جل لمحمد صلى الله عليه و سلم، فلما بلغ الرسول رساله أبرهه ركب عبد المطلب في نفر من قريش و سبقه الرسول حتى دخل على أبرهه و قال له: يا سيده و يا مولاه، قد جاءك اليوم سيد قريش حقا قال له: ويلك كيف علمت ذلك؟ قال: لأنى لم أر فى الآدميين أتم جمالا منه و ما أشبه لونه إلا-باللؤلؤ المكنون و أعلم أنه لا يمر على شىء إلا خر له ساجدا. قال: فأخذ الملك أحسن زينتته ثم أذن له فى الدخول فدخل عليه و هو قاعد على سرير ملكه، فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قام قائما و أخذ بيده و أقعده على سرير ملكه، و أقبل أبرهه ينظر فى وجه عبد المطلب، ثم قال له: يا عبد المطلب هل كان أحد من آبائك له مثل هذا النور و الجمال؟ فقال له عبد المطلب:

نعم أيها الملك كل آبائى كان لهم مثل هذا النور و البهاء. فقال له الملك: و أنتم قوم فاخرتم الملوك فخرا و شرفا و بهذا حق لك أن تكون سيد قومك ثم التفت الملك أبرهه إلى سائس الفيل و كان له فيل عظيم أبيض و كان ذلك الفيل لا يسجد للملك أبرهه كما تسجد سائر الفيلة، فقال الملك لسائس الفيل: أخرجه، فأخرجه و قد زين بكل زينة على وجه الأرض فلما نظر الفيل إلى وجه عبد المطلب برك كما يبرك البعير و خر ساجدا و نادى الفيل بلسان الآدميين السلام على النور الذى يخرج من ظهرك يا عبد المطلب، معك العز و الشرف لا تذلل و لا تغلب أبدا. فلما نظر الملك رجف و ارتعد و ظن أن ذلك كله سحر فبعث فى تلك الساعة إلى السحرة الذين فى عسكره فجمعهم و قال لهم: الويل لكم حدثونى عن هذا الفيل و شأنه لا يسجد لى و يسجد لعبد المطلب. فقال السحرة: أيها الملك إن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١٥

الفيل لم يسجد لعبد المطلب و لكنه سجد لنور يخرج من ظهره فى آخر الزمان يقال له محمد يملك الدنيا و تذلل له ملوك الأرض و لا يدين إلا بدين صاحب هذا البيت يعنون بذلك إبراهيم و ملكه أعظم من ملكك و ملك أهل الدنيا، فأذن لنا أيها الملك أن نقبل يديه و رجليه. فأذن لهم، فقامت السحرة يقبلون يدي عبد المطلب و رجليه، و قام الملك وحيدا متواضعا و قبل رأس عبد المطلب و أمر له بجائزة عظيمة و قال: سل حاجتك. فقال: إبلى التى أخذت. فأمر بردها عليه من ساعتها، ثم قال أبرهه: قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم ذهلت فيك حين كلمتك و عملت أقصى مذهبك فى طلبك إياى أن أرد عليك إبلا أصبتها و تركت بيتا هو دينك و دين آبائك قد جئت لهدمه و لا- تكلمنى فيه. فقال عبد المطلب: إن الإبل هى لى و أنا ربها و أنت أخذتها فأطلب منك ردها إذ صارت فى ملكك و حكمك و أما البيت فإن له ربا و هو ربنا و رب كل شىء و سيمنعك عنه. فرد أبرهه عليه إبله، ثم انصرف عبد المطلب. انتهى من الكتاب المذكور.

انتهت هذه الحكاية نقلا من كتاب النطق المفهوم المذكور، لمؤلفه الحافظ الهمام أحمد بن طغر بك رحمه الله تعالى، و هو كتاب عجيب قيم، يبحث عن نطق بنى آدم و نطق الحيوان، و الحشرات و النباتات، و الجمادات من كل جنس و نوع، و نعتقد أن هذا الكتاب فريد فى باب لم يؤلف مثله أحد على منواله. و هو مطبوع بمصر. و قد نقلنا عنه الحكاية المذكورة لظرافتها، و قد تكون موضوعة، و قد تكون صحيحة، و لله خرق العوائد، و ليس ببعيد أن لا يسمع كلام الفيل أحد سوى عبد المطلب تكرمه له.

و فى الحقيقة أن نطق الفيل، أو الحيوان الأعجم، أو الجمادات ليس ممنوع شرعا، فقد يقع كل ذلك على سبيل المعجزة و الكرامة. و

هذا هدهد سليمان عليه السلام مذكور في القرآن الكريم في سورة النمل، وهذا الحجر الذي كان يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث، كما جاء في صحيح مسلم وغيره: «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىي قبل أن أبعث».

وهذه بقرة بنى إسرائيل والذئب اللذان تكلمتا، فقد ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت: إني لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحرث، فإني أؤمن بهذا أنا و أبو بكر و عمر، و بينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١٦

فطلبه حتى استنقذها منه، فقال له الذئب: هنا استنقذتها مني، فمن لها يوم السبع يوم لا راعى لها غيري، فإني أؤمن بهذا أنا و أبو بكر و عمر».

و أمثال هذه الأمور كثيرة وردت في معجزات الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، و قد ورد أمثالها بكثرة لنبينا "محمد" صلوات الله و سلامه عليه و على جميع الأنبياء و المرسلين و آل كل منهم و صحابتهم أجمعين.

و إن كلام فيل أبرهة لجد النبي صلى الله عليه وسلم عبد المطلب، إنما هو كرامة له و بشارته بقرب ميلاده عليه الصلاة و السلام، و ليتيقن قلبه أن أبرهة لن يقدر على هدم بيت الله الحرام. و سيأتي إن شاء الله تعالى في أواخر الكتاب مبحث خاص بهذا الأمر.

مسرحية شعريه في هلاك أصحاب الفيل

إشارة

عثرنا في إحدى مجلات الإذاعة السورية لسنة (١٣٧٧) هجرية، على مسرحية شعريه تمثيلية للأستاذ محيي الدين الدرويش، و هي تقع في فصل واحد و خمس مآاهد، تتضمن كيفية هلاك أصحاب الفيل، و نذر عبد المطلب بذبح أحد أولاده العشرة.

فرأينا أن ننقل هنا من المجلة المذكورة ما يختص بقصة أصحاب الفيل فقط، أما فيما يختص بقصة عبد المطلب لذبح أحد أولاده و هو "عبد الله" و"والد نبينا" محمد "صلى الله عليه وسلم، فقد ذكرناه في مبحث حفر عبد المطلب لزمن. يعني أننا قسمنا المسرحية إلى قسمين فما يختص بأصحاب الفيل و هو القسم الأول ذكرناه هنا، و ما يختص بقصة عبد المطلب و هو القسم الثاني ذكرناه هنالك. و إليك ما يختص بأصحاب الفيل:

المشهد الأول

على أحد سفوح جبل أبي قبيس يبدو عبد المطلب و أقاربه و أبناء عمه و أولاده العشرة و أمهاتهم الأربع و قد أخذوا يتربعون وصول الغزاة الأحباش بقيادة (أبرهة) و قد استعانوا بالفيلة لهدم الكعبة و الاستيلاء على مكة:

عبد المطلب منتحبا متوسلا:

"يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنع منهم حماكا"

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١٧ "إن عدو البيت من عاداكا منعهم أن يخربوا قراكا

قد أجمعوا أمرهم دراكا و أزمعوا للكعبة انتهاكا

فحشدوا جيشا لهم سفاكا و أشرعوا سلاحهم فتاكا

زئيرهم قد طبق الأفلاك و شغل العقول و الإدراكا

و الفيل طود مائج و أفاك عيناه قد أنذرتا هلاكا

يا رب لا تذر لهم أفاكافإنهم وحدهم عداكا

هاتف:

أبشر فقد نلت الأرب لا مجد إلا للعرب

سوف يلاقون الردى و يحرقون باللهب

إرادة الله قضت للظلم شر منقلب

أمر جرى به القضاو نور عبد المطلب

عبد المطلب لقومه:

أيها القوم أبشروا قد تناءت عن حمانا الخطوب و الأرزاء

هاتف من جوانب الغيب وافى و تهدات بوحيه الصحراء

أذن الله أن يصون حماناما لما يأذن الإله انتهاء

إن للظالمين يوما عبوسايتغنى من جانبيه الفناء

أمطرى يا سماء فوق الأعادى حمم الغيظ، أمطرى يا سماء

تسمع ضجة الغزاة فيصرخ أحد أتباع عبد المطلب:

الطواغيت أقبلت ما لنا اليوم عاصم

و المذاكى تدافعت أين منها القوائم

آخر:

و الفيل إذ يختال فوق الأرض كجبل على الثرى منقض

و قد تساوى طوله بالعرض عيناه مثل الشرر المرفض

آخر:

و للحديد جلجلة و للسيوف صلصلة

جلبة كأنهاقد استحالت زلزلة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١٨

عبد المطلب مؤنبا:

ما لى أرى الروع قد جنت نوازيه و العزم منكم قد انهارت صياصيه

أتجزعون و قد وافت بشائرنواو النور أشرق فى الأكوان هاديه

أحد أبنائه:

و البيت من يدرأ الأخطار عنه؟

عبد المطلب:

كفى فإن للبيت رباً سوف يحميه و قد نذرت سأفديه بخيركم.

عبد الله:

لييك، والدنا، بالروح نفديه رمز الكرامة مأوى العز كعبتنا

لا خير فى العيش إن ديست معاليه

المشهد الثاني

يقرب الغزاة، و تبرد السماء بطيور كأنها السحب المترافدة يتبع بعضها بعضا و في منسر كل طير حجر.
عبد المطلب:

أرى السماء قد أربدت معالمها و الطير تنقض في آفاقها زمرا
و ما شهدت لها فيما مضى شهباء و في مناسرها قد حملت حجرا
لا تعجبوا هو أمر الله قد سبقت به المشيئة كان الله مقتدرا
هو القضاء و قد حمت عجائبه من ذا يرد قضاء الله و القدرا
أبو طالب:

قد حومت و دومت و همهمت و دمدمت

و هذه أحجار أم شهب و نار

تحمل للأعداء رسالة الفناء

فغادرتهم صرعى لم يستطيعوا دفعا

فملأوا الأغوارا و أصبحوا أخبارا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣١٩

عبد المطلب لابنه عبد الله:

بنى أرى في الغيب نورا سيشرق و أنسامه في كل أرض ستعقب

هو الأمل المرجو

عبد الله:

بوركت يا أباي كأنك من نفسى تقول و تنطق

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٢٠

تراجع بعض من تقدم ذكرهم في السيرة النبوية**إشارة**

نذكر هنا بعض تراجع من تقدم ذكرهم في أثناء السيرة النبوية لمعرفةهم و للاطلاع على أخبارهم.

وفاء عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه و سلم

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: و من وقائع السنة الثامنة "أى من ولادته صلى الله عليه و سلم" وفاء عبد المطلب، و اختلف في سن عبد المطلب حين مات، فقال السهيلي: إن عبد المطلب مات و عمره مائة و عشرون سنة، و قال ابن جبير: عمره خمس و تسعون سنة، و قيل مائة و عشر سنين، و قيل مائة و أربعون سنة، و قيل اثنتان و ثمانون سنة، ذكر هذه الأقاويل الأربعة الأخيرة مغلطى في سيرته و قد عمى قبل موته و دفن على ما ذكره ابن عساكر بالحجون، كذا في شفاء الغرام و رسول الله صلى الله عليه و سلم يومئذ ابن ثمان سنين و شهر و عشرة أيام، كذا في نور العيون لليعمري، و في سيرة مغلطى، و قيل ثمان سنين و سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم،

أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: نعم أنا يومئذ ابن ثمان سنين، و في المواهب اللدنية و سيره مغلاى قيل كان ابن تسع سنين، و قيل عشر، و قيل ست، و قيل ثلاث و فيه نظر. قالت أم أيمن: رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يبكي خلف جنازة عبد المطلب. و في المنتقى توفي عبد المطلب في ملك كسرى هرمز بن أنوشروان. انتهى من تاريخ الخميس.

ترجمة أبي طالب و أولاده

إشارة

قال مؤلف تاريخ الخميس: أبو طالب اسمه عبد مناف و جملة أولاده ستة، أربعة ذكور، طالب و مات كافرا في غزوة بدر حين وجه المشركون إلى حرب المسلمين و هو أكبر ولده و به كان يكنى، و عقيل و جعفر و على، و بنتان أم هانئ و جمانة، أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، و كان على أصغرهم، و كان جعفر أسن منه بعشر سنين، و عقيل أسن من جعفر بعشر سنين، و طالب التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٢١

أسن من عقيل بعشر سنين، ذكره ابن قتيبة و أبو سعيد و أبو عمرو، و أما على فسيجيء ذكره في الخاتمة في ذكر الخلفاء، و أما جعفر فقد تقدم ذكر أمه و يكنى أبا عبد الله أسلم قديما و هاجر إلى الحبشة الثانية و معه زوجته أسماء بنت عميس و ولدت ثمة بنيه عبد الله و محمدا و عوناً فلم يزل هنالك حتى قدم على النبي صلى الله عليه و سلم و هو بخير سنة سبع فحصلت له الهجرتان، و أما ذكر جواره في أرض الحبشة و ما جرى له مع النجاشي فسيجيء في الركن الثاني من حوادث السنة الخامسة من النبوة، و سيجيء ذكر وفاته و بعض أحواله في الموطن الثامن في سرية مؤتة إن شاء الله تعالى. انتهى من تاريخ الخميس.

كفالة أبي طالب لرسول الله صلى الله عليه و سلم

جاء في تاريخ الخميس ما نصه:

و من وقائع السنة الثامنة "أى من ولادته صلى الله عليه و سلم" كفالة أبي طالب لرسول الله صلى الله عليه و سلم روى أنه لما مات عبد المطلب كفل أبو طالب رسول الله صلى الله عليه و سلم و ضمه إليه و ذلك لأن أبا طالب و عبد الله أبا النبي صلى الله عليه و سلم كانا من أم واحدة و هى فاطمة بنت عمرو، و كان الزبير عم رسول الله صلى الله عليه و سلم أيضا من أمهما، لكن كفالة أبي طالب إما بوصية عبد المطلب و إما لأن الزبير و أبا طالب اقترعا فخرجا القرعة لأبى طالب، و إما لأن رسول الله صلى الله عليه و سلم اختار أبا طالب لكثرة مؤانسته و شفقتة، قيل بل كفله الزبير حتى مات ثم كفله أبو طالب و هذا غلط لأن الزبير شهد حلف الفضول بعد موت عبد المطلب و لرسول الله صلى الله عليه و سلم نيف و عشرون سنة و أجمع العلماء أن رسول الله صلى الله عليه و سلم شخص مع عمه أبو طالب إلى الشام بعد موت عبد المطلب بأقل من خمس سنين، فهذا يدل على أن أبا طالب كفله، ذكره ابن الأثير في أسد الغابة و روى أن أبا طالب كان فقيرا و كان يحبه حبا شديدا و كان لا يحب أولاده كذلك و كان لا ينام إلا إلى جنبه و يخرج معه متى يخرج. و في المواهب اللدنية و قد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفة قال: قدمت مكة و هم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادى و أجذب العيال و هلكت المواشى فهلّم استسق فخرج أبو طالب و معه غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتما و ما زال يسعى و الغلام معه، فلما صار بإزاء الكعبة و حوله أغيلمه، فألصق الغلام ظهره بالكعبة و لا زال يشير بإصبعه و ما فى

السماء قرعة فأقبل السحاب من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٢٢

هاهنا و هاهنا و أغدق و اغدودق و انفجر الوادى و أخصب النادى و البادى، و فى ذلك يقول أبو طالب:

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

الثمال: بكسر المثلثة الملجأ و الغياث، و عصمة الأرامل أى: يمنعهم من الضياع و الحاجة، و الأرامل المساكين من الرجال و النساء، و يقال لكل واحد من الفريقين على انفراده أرمل و هو بالنساء أخص و أكثر استعمالا و الواحد أرمل و أرملة. و هذا البيت من أبيات قصيدة لأبى طالب ذكرها ابن إسحاق بطولها و هى أكثر من ثمانين بيتا، انتهى.

و أنشأ أبو طالب فى مدح النبى صلى الله عليه و سلم أبياتا منها هذا البيت:

و شق له من اسمه ليحمله فذو العرش محمود و هذا محمد

و حسان بن ثابت ضمن شعره هذا البيت:

ألم تر أن أرسل عبده بآياته و الله أعلى و أمجد

أغر عليه للنسوة خاتم من الله مشهود يلوح و يشهد

و ضم الإله اسم النبى إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد

و شق له من اسمه ليحمله فذو العرش محمود و هذا محمد

نبى أتانا بعد يأس و فترة من الدين و الأوثان فى الأرض تعبد

و أرسله ضوءا منيرا و هاديا يلوح كما لاح الصقيل المهند

و كان إذا أكل عيال أبى طالب جميعا أو فرادى لم يشبعوا و إذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه و سلم شبعوا، و كان الصبيان يصبحون رمضا شعثا و يصبح رسول الله صلى الله عليه و سلم صقيلا دهينا كحिला و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يغض حضور الأصنام و الأعياد مع قومه، روى أن بوائه كانت صنما يحضره قريش فى كل سنة يوما و يعظمونه و يعبدونه و يجعلونه عيدا، و تنسك له النسائك و يحلقون رؤوسهم عنده و يعكفون عنده إلى الليل، و كان أبو طالب يحضره مع قومه و كان يكلم النبى صلى الله عليه و سلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فغضب أبو طالب و أعمامه عليه فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إليهم مرعوبا فرعا فقالوا له:

ما الذى رأيت؟ قال: إنى كل ما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى: وراءك يا محمد لا تمسه، فأعاد إلى

عيدهم بعد ذلك و كان لم يأكل مما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٢٣

ذبح على النصب و هذا يدل على أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يعبد الله وحده قبل أن يوحى إليه؛ لأنه كان من ورثة دعوة إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام.

انتهى من تاريخ الخميس.

وفاء أبى طالب

جاء فى تاريخ الخميس: و فى السنة العاشرة من النبوة أول ذى القعدة و قيل للنصف من شوال السنة الثامنة كذا فى الاستيعاب، مات أبو طالب بعدما خرج من الحصار بالشعب بثمانية أشهر و أحد و عشرين يوما، كذا فى سيرة اليعمرى، و فى حياة الحيوان مات أبو

طالب و كان النبي صلى الله عليه و سلم ابن تسع و أربعين سنة و ثمانية أشهر و أحد عشر يوما و أبو طالب ابن بضع و ثمانين سنة. و فى المواهب اللدنية ابن سبع و ثمانين سنة و قيل مات فى نصف شوال من السنة العاشرة، و قال ابن الجوزى قبل هجرته عليه السلام بثلاث سنين. انتهى من تاريخ الخميس.

ترجمة أم هانئ بنت أبي طالب

قال مؤلف تاريخ الخميس: و أما أم هانئ فاسمها فاختة و قيل هند، أسلمت يوم الفتح، حكاها أبو عمرو و تزوجها هبيرة بن أبى وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم و ولدت له أولادا و هرب إلى نجران و مات مشركا، و هى التى صلى النبي صلى الله عليه و سلم فى بيتها عام الفتح الضحى ثمان ركعات فى ثوب واحد مخالفا بين طرفيه و قال لها: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، متفق عليه. و عن ابن عباس: دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم على أم هانئ بنت أبى طالب يوم الفتح و كان جائعا فقالت: يا رسول الله إن أصهارا لى قد لجأوا إلى و إن على بن أبى طالب لا تأخذه فى الله لومة لائم و إنى أخاف أن يعلم بهم فيقتلهم فاجعل من دخل دار أم هانئ آمنا حتى يسمع كلام الله، فأمنهم رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قال: أجرنا من أجرت أم هانئ، فقال: هل عندك من طعام نأكله؟ فقالت: ليس عندى إلا كسرة يابسة و إنى لأستحي أن أقدمها إليك، قال: هلميه، فكسره فى ماء و ملح، فقال: هل من إدام؟

فقالت: ما عندى يا رسول الله إلا شىء من خلّ، فقال: هلميه، فصبه على طعامه فأكل منه ثم حمد الله ثم قال: نعم الإدام الخل يا أم هانئ لا يفقر بيت فيه خل. خرجه بهذا السياق الطبرانى و جماعة. انتهى من تاريخ الخميس.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٢٤

ترجمة عقيل بن أبى طالب

قال مؤلف تاريخ الخميس: و أما عقيل بن أبى طالب فلم يزل اسمه فى الجاهلية و الإسلام عقيلًا و يكنى أبا يزيد، أمه فاطمة بنت أسد. قال العذرى: و كان عقيل قد خرج مع كفار قريش يوم بدر فأسر ففداه عمه العباس، ثم أتى مسلما قبل الحديبية و شهد غزوة مؤتة، ذكره أبو عمرو و روى أن النبي صلى الله عليه و سلم قال له: يا أبا يزيد إنى أحبك حبين، حبا لقرابتك منى و حبا لما كنت أعلم من حب عمى إياك، خرجه أبو عمرو و البغوى. و كان عقيل أنسب قريش و أعلم بأيامها و لكنه كان مبغضا إليهم؛ لأنه كان يعد مساوئهم و كانت له قطيفة تفرش له فى مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم يصلى عليها و يجتمع إليه فى علم النسب و أيام العرب و كان أسرع الناس جوابا و أحضرهم مراجعة فى القول و أبلغهم فى ذلك، خرجه أبو عمرو.

و عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عقيلًا جاء إلى على بالعراق فسأله فقال له:

إن أحببت أن أكتب لك إلى مالى بينع فأعطيك منه، فقال عقيل: لأذهبن إلى رجل هو أوصل لى منك، فذهب إلى معاوية فصرف ذلك له، خرجه البغوى.

قال أبو عمرو: و كان عقيل غاضب عليا و خرج إلى معاوية و أقام عنده فزعموا أن معاوية قال يوما بحضرته: هذا أبو يزيد لولا علمه بأنى خير له من أخيه لما أقام عندنا و تركه، فقال عقيل: أخى خير لى فى دينى و أنت خير لى فى دنيائى و قد آثرت دنيائى و أسأل الله خاتمة خير. و توفى عقيل فى خلافة معاوية و لم يوقف على السنة التى مات فيها، ذكره ابن الضحاك.

ترجمة العباس بن عبد المطلب

قال فى شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم فى ترجمته ما يأتى:

هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه و سلم ابن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى، يكنى أبا الفضل، و أمه تينيلة بنت جناب بن كلب، ولد قبل رسول الله صلى الله عليه و سلم بستين، و ضاع و هو صغير فنذرت أمه إن وجدتته أن تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير، فهى أول من كساه ذلك.

و كان إليه فى الجاهلية السقاية و العمارة، أما السقاية فمعروفة، و أما العمارة فهى عمارة المسجد الحرام فإنه كان لا يدع أحدا يشبب فى المسجد الحرام و لا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٢٥

يقول فيه هجرا، لا- يستطيعون لذلك امتناعا لأن قريشا كانوا قد اجتمعوا و تعاهدوا على ذلك فكانوا له أعوانا عليه كما ذكره علماء النسب، و حضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم للتوثق لابن أخيه رسول الله صلى الله عليه و سلم، و شهد بدرا مع المشركين مكرها فأسر فافتدى نفسه و ابني أخويه عقيل بن أبى طالب و نوفل بن الحارث.

و لما أسر يوم بدر فيمن أسر كان قد شد وثاقه، فسهر النبى صلى الله عليه و سلم تلك الليلة و لم ينم، فقال بعض أصحابه: ما يسهرك يا نبى الله؟ فقال: أسهر لأنين العباس، فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: مالى لا أسمع أنين العباس؟ فقال الرجل: أنا أرخيت من وثاقه. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فافعل ذلك بالأسرى كلهم. و أسلم عقيب ذلك. و قيل أن سبب إسلامه أنه لما أرسلت قريش فداء أسراها و بقى العباس و ابنا أخويه المذكورين أمره رسول الله صلى الله عليه و سلم بدفع الفداء عن نفسه و عن ابني أخويه، فاعتذر بأن لا شىء عنده يفتدى به، فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: عندك المال الذى أوصيت عليه أم الفضل آخر الليل و قلت لها ادفينيه فى موضع كذا، فإن مت انتفعتم به بعد موتى و إن رجعت رجعت إليه أو كما قال، فقال له العباس: و من أخبرك بهذا؟ فقال: أخبرنى به جبريل آنفا، فقال العباس:

أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله فو الله ما علم به أحد غيرى و غير أم الفضل آخر الليل، فلما تشهد و ثب أبو بكر الصديق عليه و حل الوثاق عنه.

و الروايات فى وقت إسلامه مختلفة، قيل إنه أسلم قبل الهجرة و كان يكتنم إسلامه، قال ابن عبد البر: أسلم العباس قبل فتح خيبر و كان يكتنم إسلامه ثم ظهر إسلامه يوم فتح مكة. و قيل إن إسلامه كان قبل بدر. و كان رضى الله عنه يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و كان المسلمون يتقوون به بمكة، و كان يحب أن يقدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن مقامك بمكة خير. فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم بدر: من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنما أخرج كارها، و كان العباس رضى الله عنه أشد الناس نصرة لرسول الله صلى الله عليه و سلم بعد أبى طالب، و قال له النبى صلى الله عليه و سلم: أنت آخر المهاجرين كما أننى آخر الأنبياء، ثم قال له لما استأذنه فى الهجرة: يا عم أقم مكانك الذى أنت به فإن الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوة، كما أخرجه أبو يعلى الموصلى من رواية سهل بن سعد الساعدي، ثم هاجر إلى النبى صلى الله عليه و سلم. و شهد معه فتح مكة و انقطعت الهجرة الواجبة إليه صلى الله عليه و سلم التى كانت شرطا فى الإسلام لا يقبل دونها، لا الهجرة عن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٢٦

محل حكم عليه الكافر فلا ينقطع وجوبها أبدا حتى تنقطع التوبة، كما رواه أبو داود فى سننه عن معاوية، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: لا- تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة و لا- تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها. رواه فى باب الهجرة هل انقطعت فى صدر كتاب الجهاد من سننه.

و شهد حيننا و ثبت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم لما انهزم الناس بحنين كما ثبت معه فيه أبو سفيان بن الحارث فى عدد سمي

ابن إسحاق منهم سبعة، وكذلك شهد فتح مكة و الطائف و تبوك كما صرح به الحافظ ابن عبد البر فى الاستيعاب، و من شعره رضى الله عنه لما ثبت يوم حنين قوله:

ألا هل أتى عرس مكرى و موقفى بواد حنين و الأسنة تشرع

و قولى إذا ما النفس جاشت لها قدى و هام تدهدى و السواعد تقطع

و كيف رددت الخيل و هى مغيرة بزوراء تعطى باليدى و تمنع

نصرنا رسول الله فى الحرب سبعة و قد فر من قد فر عنه فأقشعوا

و ثامننا لا قى الحمام بسيفه بما مسه فى الله لا يتوجع

و قد تقدم ذكر الأبيات الأربعة الأول من هذه الأبيات فيما ذكرناه من أشعار الصحابة فى الجزء الثانى عند حديث، لأن يمتلى جوف رجل قيحا يريه خير له من أن يمتلى شعرا فذكرتها هنا مع زيادة البيت الخامس فى محل ترجمه صاحبها.

و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعظمه و يكرمه بعد إسلامه، و كان وصولا لأرحام قريش محسنا إليهم ذا رأى سديد و عقل

غزير، و قال النبى صلى الله عليه و سلم له: هذا العباس بن عبد المطلب أجود قريش كفا و أوصلها رحما، و قال: هذا بقيه آبائى، و قد

دخل العباس على النبى صلى الله عليه و سلم يوما مغضبا فقال: ما أغضبك؟ فقال: يا رسول الله ما لنا و لقريش إذا تلاقوا بينهم تلاقوا

بوجوه مبشرة و إذا لقونا لقونا بغير تلك، قال:

فغضب رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى احمر وجهه ثم قال: و الذى نفسى بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحكمم لله و

لرسوله، ثم قال: أيها الناس من آذى عمى فقد آذانى فإنما عم الرجل صنو أبيه، و روى عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله صلى

الله عليه و سلم: إن الله اتخذنى خليلا- كما اتخذ إبراهيم خليلا- و منزلى و منزل إبراهيم تجاهين فى الجنة و منزل العباس بن عبد

المطلب بيننا مؤمن بين خليلين، و روى أن النبى صلى الله عليه و سلم قال فيه: «العباس منى و أنا منه»، و روى عن العباس قال:

أتيت رسول الله صلى الله عليه و سلم فقلت: علمنى يا رسول الله شيئا أدعو به، قال: فقال:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 327

سل الله العافية، ثم أتيت مرة أخرى، فقلت: يا رسول الله علمنى شيئا أدعو به، يا عم رسول الله سل الله العافية فى الدنيا و الآخرة، و عنه

أيضا رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا و بالإسلام دينا و بمحمد

رسولا.

و روى ابن الزناد عن أبيه عن الثقة أن العباس بن عبد المطلب لم يمر بعمر و لا بعثمان و هما راكبان إلا نزلا حتى يجوز العباس

إجلالا- له و يقولان: عم النبى صلى الله عليه و سلم، و روى أن عمر بن الخطاب كان إذا قحط أهل المدينة استسقى بالعباس، فقد

أخرج البخارى فى أبواب الاستسقاء و فى كتاب المناقب فى ذكر العباس بن عبد المطلب عن أنس رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب

كان إذا قحطوا استسقى بالعباس فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا ففسقنا و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال فيسقون، اه.

بلفظه فى الموضوعين.

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: و كان سبب ذلك أن الأرض أجذبت إجدابا شديدا على عهد عمر زمن الرمادة و ذلك سنة سبع

عشرة، فقال كعب: يا أمير المؤمنين إن بنى اسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة الأنبياء، فقال عمر: هذا عم رسول الله

صلى الله عليه و سلم و صنو أبيه و سيد بنى هاشم، فمشى إليه عمر و شكاه إليه ما فيه الناس من القحط ثم صعد المنبر و معه العباس،

فقال: اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا و صنو أبيه فاسقنا الغيث و لا تجعلنا من القانطين، الخ ما رواه ابن عبد البر، ثم قال: و روينا

من وجوه عن عمر أنه خرج يستسقى و خرج معه العباس، فقال: اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك صلى الله عليه و سلم و نستشفع به

فاحفظ فيه لنبيك صلى الله عليه و سلم كما حفظت الغلامين لصالح أبيهما و أتيناك مستغفرين و مستشفعين الخ ما رواه.

و قد افتخر الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب بسقيا الله لأهل الحجاز بعمه العباس في قوله:

بعمى سقا الله الحجاز و أهله عشية يستسقى بشيئته عمر

توجه بالعباس في الجذب راغبافما كثر حتى جاد بالديممة المطر

و قال حسان بن ثابت:

سأل الإمام و قد تتابع جدبنا فسقى الغمام بغيره العباس

عم النبي و صنو والده الذي ورث النبي بذاك دون الناس

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٢٨ أحيأ الإله به البلاد فأصبحت مخضرة الأجانب بعد الياس

قال ابن عبد البر في الاستيعاب بعد ذكره روايات لحديث توسل عمر بالعباس مؤداها واحد مع اختلاف قليل في ألفاظها ما نصه: و هذه الألفاظ كلها لم تجئ في حديث واحد و لكنها جاءت في أحاديث جمعتها و اختصرتها و لم أخالف شيئا منها و في بعضها فسقوا و الحمد لله. و في بعضها قال: فأرخت السماء عزاليها فجاءت بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالأكام و أخضبت الأرض و عاش الناس، فقال عمر رضى الله عنه: هذا و الله الوسيلة إلى الله عز و جل و المكان، ثم قال: و طفق الناس بالعباس يمحون أركانه و يقولون هنيئا لك ساقى الحرمين.

قال ابن شهاب: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم يعرفون للعباس فضله و يقدمونه و يشاورونه و يأخذون برأيه. قال ابن الأثير في أسد الغابة: و كفاه شرفا و فضلا أنه يعزى بالنبي صلى الله عليه و سلم لما مات و لم يخلف من عصباته أقرب منه، و كان له من الولد عشرة ذكور منهم الفضل و عبيد الله و قثم و عبد الرحمن و معبد و الحارث و كثير و عون و تمام و كان أصغر ولد أبيه و له من الأحاديث خمسة و ثلاثون حديثا اتفق البخارى و مسلم على حديث واحد منها و هو حديث المتن عندنا، و انفرد البخارى بحديث و مسلم بثلاثة روى عنه بنوه عبد الله و هو أبو ملوك بنى العباس و كثير و عبيد الله و عامر بن سعد و أضمر العباس في آخر عمره، و توفي بالمدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب و قيل بل رمضان سنة اثنتين و ثلاثين على أكثر الرويات، و قيل سنة ثلاث و ثلاثين أو أربع و ثلاثين، و كانت وفاته قبل قتل عثمان بسنتين و صلى عليه عثمان و دفن بالبقيع و هو ابن ثمان و ثمانين سنة و كان طويلا جميلا أبيض ذا ضفيرتين و لما أسر يوم بدر لم يجدوا قميصا يصلح عليه إلا قميص عبد الله بن أبي بن سلول فألبسوه إياه و لهذا لما مات عبد الله بن أبي كفته رسول الله صلى الله عليه و سلم في قميصه، و قد أعتق العباس سبعين عبدا كما وردت به الأحاديث، و دخل قبره ابنه عبد الله بن عباس كما صرح به ابن عبد البر في الاستيعاب و بالله تعالى التوفيق. و هو الهادى إلى سواء الطريق.

انتهى من شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم.

و جاء في تاريخ الخميس ما نصه: العباس بن عبد المطلب أمه تنيلة و يقال لها تنلة، و قد تقدم ذكرها و يقال إنها أول عريضة كست البيت الحرام الديباج و أصناف

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٢٩

الكسوة و ذلك أن العباس ضل و هو صبى فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت الحرام فوجدته ففعلت و يكنى أبا الفضل.

(ذكر صفته)، و كان رضى الله عنه جميلا جسيما أبيض له ضفيران معتدل القامة، و قيل كان طوالا. عن جابر أن الأنصار لما أرادوا أن يكسوا العباس حين أسر يوم بدر فلم يصلح عليه إلا قميص عبد الله بن أبي بن سلول فكساه إياه فلما مات عبد الله بن أبي بن سلول ألبسه النبي صلى الله عليه و سلم قميصه و تفل عليه من ريقه، قال سفیان: فظن أنه مكافأة لقميص العباس، خرجه ابن الضحاك و أبو عمرو و كان مولده قبل الفيل بثلاث سنين و كان أسن من النبي صلى الله عليه و سلم بسنتين و قيل بثلاث.

و عن أبي رزين قال: قيل للعباس أيكما أكبر أنت أو النبي صلى الله عليه و سلم؟ قال: هو أكبر منى و أنا ولدت قبله، خرجه ابن

الضحاك و هو أصغر أولاد عبد المطلب غير عبد الله، كذا في المواهب اللدنية. و عن ابن عمر مثله خرج البغوى فى معجمه و غيره. و كان العباس فى الجاهلية رئيسا فى قريش و إليه عمارة المسجد الحرام و السقاية بعد أبى طالب، أما السقاية فمعروفة و أما عمارة المسجد الحرام فكان لا يدع أحدا يشب فيه و لا يقول فيه هجرا و كانت قريش قد اجتمعت و تعاهدت على ذلك، فكانوا له عوناً عليه و أسلموا ذلك إليه. ذكره الزبير ابن بكار و غيره من علماء النسب، حكاه أبو عمرو، و التشبيب ترقيق الشعر بذكر النساء و كأنه أراد إنشاد ذلك فى المسجد، و الهجر بالضم الهديان و القول الباطل و يطلق على الكلام الفاحش و ذكر شهوده بيعه العقبة سيجىء فى الركن الثانى.

(ذكر إسلامه) قال أهل العلم بالتاريخ: كان إسلام العباس قديماً و كان يكتنم إسلامه و خرج مع المشركين يوم بدر، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: من لقي العباس فلا يقتله فإنه خرج مستكرها فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو ففادى نفسه و رجع إلى مكة ثم أقبل إلى المدينة مهاجراً، قاله أبو سعيد و قيل إنه أسلم يوم بدر فاستقبل النبي صلى الله عليه و سلم يوم الفتح بالأبواء و كان معه يوم فتح مكة و به ختمت الهجرة. و قال أبو عمرو: أسلم قبل فتح خيبر و كان يكتنم إسلامه و يسر بما يفتح الله على المسلمين و أظهر إسلامه يوم فتح مكة و شهد حنيناً و الطائف و تبوك و يقال إن إسلامه كان قبل بدر، و كان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و كان المسلمون بمكة يثقون به، و كان يحب القدوم على رسول الله صلى الله عليه و سلم فكتب إليه رسول الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣٠

صلى الله عليه و سلم أن مقامك بمكة خير لك و عن شرحبيل ابن سعد قال: لما بشر أبو رافع رسول الله صلى الله عليه و سلم بإسلام العباس بن عبد المطلب أعتقه، خرج أبو القاسم السهمى فى الفضائل.

و فى المواهب اللدنية قال عليه الصلاة و السلام للعباس: يا عم لا ترم منزلك أنت و بنوك غدا حتى آتيك فإن لى فيكم حاجة، فلما أتاهم اشتمل عليهم بملاءته ثم قال: يا رب هذا عمى و صنو أبى و هؤلاء أهل بيتى فاسترهم من النار كسترى إياهم بملاءتى هذه، قال: فأمنت أسكفة الباب و حوائط البيت، فقالت: آمين آمين آمين. رواه ابن غيلان و أبو القاسم حمزة و السهمى و رواه ابن السرى و فيه:

فما بقى فى البيت مدره و لا باب إلا أمن.

(و ذكر وفاته) توفى رضى الله عنه فى خلافة عثمان قبل مقتله بسنتين بالمدينة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة، و قيل: لأربع عشرة ليلة خلت من رجب، و لم يذكر صاحب الصفوة غيره، و قيل: من رمضان سنة اثنتين و ثلاثين، و قيل:

ثلاث و ثلاثين و هو ابن ثمان و ثمانين سنة، و قيل: سبع و ثمانين سنة بعد أن كف بصره أدرك فى الإسلام اثنتين و ثلاثين سنة، و صلى عليه عثمان، و دفن بالبقيع، و دخل فى قبره ابنه عبد الله، مروياته فى كتب الحديث خمسة و ثلاثون حديثاً. انتهى من تاريخ الخميس.

ترجمة أبى جهم بن حذيفة القرشى

ترجمة أبى جهم "بفتح الجيم و سكون الهاء" كما فى الجزء الرابع من كتاب الإصابة بصحيفة ٣٥ هو أبو جهم بن حذيفة ابن غانم القرشى العدوى، قيل اسمه عامر و قيل عبيد الله هو من مسلمة الفتح و هو أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسب و هو أيضاً أحد الأربعة الذين تولوا دفن عثمان و لما أصيب عثمان أرادوا الصلاة عليه فمنعوا فقال أبو جهم دعوه فقد صلى الله عليه و رسوله كان من معمرى قريش و من مشيختهم حضر بناء الكعبة مرتين حين بنتها قريش و حين بناها ابن الزبير، روى ابن أخى الأصمعى فى النوادر عن عمه عن عيسى بن عمر قال: وفد أبو جهم على معاوية ثم على يزيد ثم ذكر قصة له مع ابن الزبير و ثبت

ذكره في الصحيحين من طريق عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت:

صلى النبي صلى الله عليه وسلم في خميصه لها أعلام فقال: اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣١

و اتنوني بأبجانية أبي جهم فإنها ألهنتي أنفا عن صلاتي. انتهى من كتاب الإصابة. الخميصة قيل هي كساء مربع من صوف، و الأبنجانية هي بفتح الهمزة و كسرهما و بفتح الباء و كسرهما و بتشديد الياء و تخفيفها. انتهى من الإصابة.

و في الصحيحين أو في صحيح مسلم فقط عن فاطمة بنت قيس رضى الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، و أما معاوية فصعلوك لا مال له. انكحى أسامة». قاله لها لما طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص البتة، فخطبها أبو جهم و معاوية بن أبي سفيان.

قوله: صعلوك بضم الصاد أى: فقير. و المعنى: أن أبا جهم يضرب زوجته كثيرا، و قيل: هو كناية عن كثرة مسافرتة لكن الوجه الأول أولى لما جاء في بعض الروايات: «أما أبو جهم فرجل ضراب للنساء».

انتهى من كتاب مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار.

ترجمة حكيم بن حزام

حكيم بن حزام هو الذى أرسلته قريش مع أبى سفيان بن حرب إلى مّر الظهران يستطلعون خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قدم لفتح مكة. كما سبق الكلام عنه.

جاء في تاريخ الخميس عنه ما يأتى: و فى هذه السنة "أى السنة الثامنة" أيام فتح مكة أسلم حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى و يكنى أبا خالد.

و عن أم مصعب بن عثمان قالت: دخلت أم حكيم بن حزام الكعبة مع نسوة من قريش و هى حامل متم بحكيم بن حزام، فضربها المخاض فى الكعبة فأتيت بنطح حيث أعجلتها الولادة فولدت حكيم بن حزام فى الكعبة على النطح، و كان حكيم من سادات قريش و جوهها فى الجاهلية و الإسلام.

و عن مصعب بن عبد الله قال: جاء الإسلام و دار الندوة بيد حكيم بن حزام فباعها بعد من معاوية بن أبى سفيان بمائة ألف درهم، فقال له عبد الله بن الزبير:

بع مكرمة قريش. فقال حكيم: ذهبت المكارم إلا التقوى يا ابن أخى إنى اشتريت بها دارا فى الجنة أشهدك أنى جعلتها فى سبيل الله عز و جل.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣٢

و عن أبى بكر بن أبى سليمان، قال: حج حكيم بن حزام معه مائة بدنة قد أهداها و جللها الحبرة و كفها عن أعجازها و وقف مائة و صيف يوم عرفه و فى أعناقهم أطواق الفضة نقش فى رؤوسها عتقاء الله عن حكيم بن حزام و أعتقهم و أهدى ألف شاء.

و عن هشام بن عروة عن أبيه أن حكيم بن حزام أعتق فى الجاهلية مائة رقبة و فى الإسلام مائة رقبة و حمل على مائة بعير، قال حكيم: نجوت يوم بدر و يوم أحد فلما غزا النبي صلى الله عليه وسلم مكة خرجت أنا و أبو سفيان نستروح الخبر، فلقي العباس أبا سفيان فذهب به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فرجعت و دخلت بيتى فأغلقتة على، و دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة فأمن الناس فجيته فأسلمت و خرجت معه إلى حنين.

و عن محمد بن عمر قال: قدم حكيم بن حزام المدينة و نزلها و بنى بها دارا و مات بها سنة أربع و خمسين و هو ابن مائة و عشرون سنة، كذا فى الصفوة و سيجىء فى الخاتمة. انتهى من تاريخ الخميس.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣٣

الإسراء والمعراج

إشارة

قال الله تعالى: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

فالإسراء خاص بذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج خاص بعروجه عليه الصلاة والسلام من المسجد الأقصى إلى السموات العلاء فما فوقها، وقد يكون الإسراء والمعراج بمعنى واحد. ونحن هنا نذكر أولا بعض الأحاديث الصحيحة الواردة في الصحيحين عن الإسراء والمعراج، ثم نذكر قصة ذلك بالتفصيل التام من التواريخ المعتمدة فنقول وبالله التوفيق:

جاء في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينما أنا في الحطيم مضطجعا إذ أتاني آت فقد ما بين هذه إلى هذه فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا فغسل قلبي بماء زمزم ثم حشى ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يقال له البراق يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح قيل من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خاله، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فردته، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به ونعم المجيء جاء. ففتح فلما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣٤

خلصت إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء، جاء ففتح فلما خلصت إذا هارون قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل:

ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت إذا موسى قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له:

ما يبكيك؟ قال: أبكى لأدن غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي. ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال:

جبريل، قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل:

مرحبا به فنعلم المجرىء جاء. ففتح فلما خلصت إذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، فقال: مرحبا بالابن الصالح و النبي الصالح.

ثم رفعت إلى سدره المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر و إذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدره المنتهى و إذا أربعة أنهار نهران باطنان و نهران ظاهران، قلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة و أما الظاهران فالنيل و الفرات، ثم رفع لى البيت المعمور، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه، ثم أتيت بإناء من خمر و إناء من لبن و إناء من عسل فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها و أمتك، ثم فرض عليّ خمسون صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم و إنى و الله قد جربت الناس قبلك و عالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عنى عشرا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فوضع عنى عشرا. فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عنى عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عنى عشرا. فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت:

بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم و إنى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣٥

قد جربت الناس قبلك و عالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، قلت: سألت ربي حتى استحيت منه و لكنى أرضى و أسلم، فلما جاوزت نادنى مناد: أمضيت فريضتى و خفت عن عبادى.

(رواه) البخارى و مسلم عن مالك بن صعصعة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم.

معنى قوله صلى الله عليه و سلم فى أول الحديث المذكور: «فقد ما بين هذه إلى هذه» الإشارة من نقره نحره إلى ما تحت سترته، و القد بتشديد الدال الشق طولاً، و المراد بلفظ "هجر" قرية قريبة من المدينة و ليست هجر البحرين و كانت تعمل بها القلال، و قوله: «فأخذت اللبن» قالوا: يحتمل أنه عرضت عليه صلى الله عليه و سلم آنية اللبن مرتين مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس و مرة عند وصوله إلى سدره المنتهى، و فى مسلم أن إتيانه بالآنية كان ببيت المقدس قبل المعراج، و قوله صلى الله عليه و سلم فى آخر الحديث: «فلما جاوزت نادنى مناد أمضيت فريضتى و خفت عن عبادى» قالوا إن هذا من أقوى ما يستدل به على أنه صلى الله عليه و سلم كلمه ربه ليلة الإسراء بغير واسطة.

و أيضا يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه و سلم: «قلت سألت ربي حتى استحيت منه» كما يؤخذ ذلك أيضا من الحديث الآتى «فراجعت ربي ... الخ».

و جاء فى الصحيحين أيضا عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: فرج سقف بيتى و أنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلى حكمة و إيماناً فأفرغها فى صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بى إلى السماء الدنيا فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح، قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل، قال: هل معك أحد؟

قال: نعم معى محمد، قال: فأرسل إليه؟ قال: نعم، ففتح فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة و عن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، و إذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحبا بالنبي الصالح و الابن الصالح، قلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا آدم و هذه الأسودة عن يمينه و عن شماله نسمة بنيه فأهل اليمين أهل الجنة، و الأسودة التى عن شماله أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك و إذا نظر قبل شماله بكى، ثم عرج بى جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا

ففتح قال أنس:

فذكر أنه وجد في السموات آدم و إدريس و موسى و عيسى و ابراهيم صلوات الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣٦

عليهم. و لم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه قد وجد آدم في السماء الدنيا و ابراهيم في السماء السادسة. فلما مرتت بإدريس قال:

مرحبا بالنبي الصالح و الأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس، ثم مرتت بموسى، قال:

مرحبا بالنبي الصالح و الأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مرتت بعيسى، فقال: مرحبا بالنبي الصالح و الأخ الصالح،

قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى بن مريم، ثم مرتت بإبراهيم، فقال: مرحبا بالنبي الصالح و الابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا

إبراهيم. ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام ففرض الله عز و جل على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك

حتى مرتت على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض على خمسين صلاة، قال لى موسى: فراجع ربك فإن

أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت ربي فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت

ربي فقال: هي خمس و هن خمسون لا يبدل القول لدى، فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك فقلت: قد استحيت من ربي، ثم انطلق

بي حتى انتهى بي إلى سدره المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ و إذا ترابها المسك.

رواه البخارى و مسلم عن أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا قوله: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع

فيه صريف الأقدام فإنه عن ابن عباس و أبي حبة البدرى رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه و سلم.

المراد بكلمة "الأسودة" الواردة في أول الحديث المذكور هو الجماعة من بنى آدم، و النسب بفتحيتين جمع نسمه و هى الروح أى

أرواح بنى آدم عليه السلام، و قوله صلى الله عليه و سلم في آخر الحديث: «ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ» الجنابذ جمع جنبد

بضم الجيم و الباء و هو ما ارتفع من الشيء و استدار كالثقب.

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى في شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و

مسلم" عند حديث «بينما أنا فى الحطيم مضطجعا إذ أتانى آت ... الخ» ما نصه:

(تنبيه) لا يخفى على من وفقه الله تعالى لفهم كتابه العزيز و سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم أن النبى عليه الصلاة و السلام أسرى

بجسده الشريف إلى المسجد الأقصى ثم عرج بجسده أيضا إلى سدره المنتهى بل فوقها كما فى الأحاديث الصحاح بروايات

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣٧

متعدده و يكفى من كون الإسراء و المعراج كانا بجسده الشريف قوله تعالى:

سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى و قوله تعالى: وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَهُ أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *

عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَ مَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى.

فهاتان الآيتان صريحتان فى الإسراء بجسده الشريف و العروج به أيضا لأن آية الإسراء مبدأ الإسراء و آية النجم ذكرت منتهاه الذى

هو صريح فى المعراج بجسده الشريف و حديث المعراج الثابت فى الصحيحين و غيرهما المشتمل على ركوبه على البراق الصريح فى

كون المعراج بجسده الشريف بينما تضمنه القرآن من أول الإسراء إلى منتهى المعراج و نعم البيان الذى أرشد إليه القرآن بقوله

تعالى: لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ فلم يبق لمن عاند من الجهال إلا تكذيب القرآن و تكذيب النبى عليه الصلاة و السلام المبين للقرآن

أتم بيان و هو كفر صريح أعادنا الله منه و مما يجر إليه. انتهى من شرح زاد المسلم.

قال الشاعر البليغ فى الإسراء و المعراج:

سريت من حرم ليلا إلى حرم كما سرى البدر فى داج من الظلم

و بت ترقى إلى أن نلت منزله من قاب قوسين لم تدر ك و لم ترم

وقدمتكم جميع الأنبياء بهوا الرسل تقديم مخدوم على خدم
و أنت تخترق السبع الطباق بهم في موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأوا لمستبق من الدنو ولا مرقى لمستتم
خفضت كل مقام بالإضافة إذنوديت بالرفع مثل المفرد العلم
كيما تفوز بوصل أى مستتر عن العيون و سر أى مكتتم
فحزت كل فخار غير مشترك و جزت كل مقام غير مزدحم
و جل مقدار ما وليت من رتب و عز إدراك ما أوليت من نعم
بشرى لنا معشر الإسلام أن لنا من العناية ركنا غير منهدم
لما دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم
و قال أيضا في الإسراء و المعراج:

فطوى الأرض سائرا و السموات العلا فوقها له إسراء
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣٨ فصف الليلة التي كان للمختار فيها على البراق استواء
و ترقى به إلى قاب قوسين و تلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأمانى حسرى دونها ما وراءهن وراء
ثم وافى يحدث الناس شكرا إذ أتته من ربه النعماء
و تحدى فارتاب كل مريب أو يبقى مع السيول الغناء
و هو يدعو إلى الإله و إن شق عليه كفر به و ازدراء
و يدل الورى على الله بالتوحيد و هو المحجج البيضاء
و جاء فى شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم" عند حديث:

«لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر فجلى الله لى بيت المقدس ... الخ» أن العراقى قال فى ألفية السيرة عن الإسراء و تكذيب قريش ما
يأتى:

و بعد عام مع نصف أسريابه إلى السماء حتى حظيا
من مكة الغرا إلى القدس علاظهر البراق راكبا ثم علا
إلى السماء معه جبريل فاستفتح الباب له يقول
مجيبا إذ قيل له من ذا معك محمد معى فرحب الملك
ثم تلاقى مع الأنبياء و كل واحد لدى سماء
ثم علا لمستوى قد سمعاصريف الأقلام بما قد وقعا
ثم دنا حتى رأى الإلهابيعينه مخاطبا شفاهها
أوحى له سبحانه ما أوحى فلا تسل عن ما جرى تصريحها
و فرض الصلاة خمسين على أمته حتى لخمس نزلا
و الأجر خمسون كما قد كانا و زاده من فضله إحسانا
فصدق الصديق ذو الوفاء و كذب الكفار بالإسراء
و سألوه عن صفات القدس رفعه إليه روح القدس

جبريل حتى حقق الأوصافه فما طاقوا له خلافا
لكنهم قد كذبوا و جحدوا فأهلكوا و فى العذاب أخلدوا
و قوله: "و بعد عام مع نصف أسريا ... الخ "أى بعد عام و نصف من تاريخ وفد جن نصيبين المذكور فى الألفية. انتهى من زاد
المسلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٣٩
و يروى أن النبى صلى الله عليه و سلم أسرى به و هو فى بيت أم هانئ رضى الله تعالى عنها بمكة و سنحقق إن شاء الله تعالى موضع
دار أم هانئ و نضعه فى آخر هذا المبحث لمعرفة.

قصة الإسراء و المعراج "نقلا من تاريخ الخميس"

يحلو للمؤمن أن يقرأ بالتفصيل و يفهم بالتدقيق كل لنا تطويل الشرح فيها و الإسهاب فى وصفها، و رأينا أن الله تعالى رحمة للعالمين،
نيننا و شفيعنا "محمد" صلى الله عليه و آله و صحبه و سلم، و لما كان قصة الإسراء و المعراج من أهم حالات و أخباره عليه الصلاة و
السلام، فإنه يطيب حالة من حالات خاتم الأنبياء و المرسلين، الذى أرسله ننقل ذلك من كتاب "تاريخ الخميس" لما فيه من التفصيل
الوافى و البيان الكافى، و لم نتصرف فى عباراته بشىء غير أننا بوبنا الأبحاث فجعلنا لكل مسألة عنوانا، فنقول و بالله التوفيق و عليه
الاعتماد و التكلان، و هو حسنا و نعم الوكيل نعم المولى و نعم النصير، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم:

جاء فى الجزء الأول من تاريخ الخميس ما نصه: و فى السنة الثانية عشر من النبوة وقع المعراج و ما تضمنه و فرضت الصلوات الخمس
فى الإسراء و ستجىء كيفيتها، و فى الاستيعاب و سيرة مغلطاي بعد سنة و نصف من حين رجوعه من الطائف. قاله ابن قتيبة. و قال ابن
شهاب عن ابن المسيب: قبل خروجه إلى المدينة بسنة.

و فى المواهب اللدنية: لما كان فى شهر ربيع الأول أسرى بروحه و جسده يقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به
من المسجد الأقصى إلى فوق سبع سموات، و رأى ربه بعين رأسه و أوحى إليه ما أوحى و فرض عليه الصلوات الخمس، ثم انصرف
فى ليلته إلى مكة فأخبر بذلك فصدقه الصديق و كل من آمن بالله و كذبه الكفار و استوصفوه مسجد بيت المقدس فمثله الله له
فجعل ينظر إليه و يصفه و سيجىء تفصيل ذلك كله.

اختلف العلماء فى الإسراء هل هو إسراء واحد فى ليلة واحدة يقظة أو مناما أو إسراءان كل واحد فى ليلة مرة بروحه و بدنه و مرة مناما
أو يقظة بروحه و جسده

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٤٠
من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم مناما من المسجد الأقصى إلى العرش أو هى أربع إسراءات.
و فى سيرة مغلطاي اختلف فى المعراج و الإسراء هل كانا فى ليلة واحدة أم لا، و هل كانا أو أحدهما يقظة أو مناما، و هل كان
المعراج مرة أو مرات و الصحيح أن الإسراء كان فى اليقظة بجسده و أنه مرات متعددة و أنه رأى ربه بعين رأسه صلى الله عليه و سلم.

عام الإسراء

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: و اختلف فى تاريخ الإسراء فى أى سنة كان و فى أى شهر و فى أى يوم من الشهر و فى أى ليلة من
الأسبوع، فأما سنة الإسراء فقال الزهرى: كان ذلك بعد المبعث بخمس سنين، حكاه القاضى عياض و رجحه القرطبي و النووى، و
قيل: قبل الهجرة بسنة، قاله ابن حزم و ادعى فيه الإجماع، رواه ابن الأثير فى أسد الغابة عن ابن عباس و أنس و حكاه البغوى فى معالم

التزليل عن مقاتل، وقيل: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر. قاله السدي، وأخرجه من طريق الطبري والبيهقي. فعلى هذا يكون في شوال، وفي أسد الغابة قال السدي قبل الهجرة بستة أشهر وقيل كانا قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر فعلى هذا يكون في ذي الحجة و به جزم ابن فارس، وقيل قبل الهجرة بثلاث سنين ذكره ابن الأثير. كذا في المواهب اللدنية.

شهر الإسراء ويومه وليلته

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: و أما شهر الإسراء فقبل ربيع الأول قاله ابن الأثير والنووي في شرح مسلم، وقيل: ربيع الآخر. قاله الحربى والنووي في فتاويه، وقيل: رجب. حكاه ابن عبد البر وقيل ابن قتيبة و به جزم النووي في الروضة، وعن الواقدي رمضان، وعن السدي والماوردي شوال، وعن ابن فارس ذو الحجة كما مر.

و أما أن الإسراء في أى يوم من الشهر كان. فعن ابن الأثير ليلة سبع من ربيع الأول، وعن الحربى في ثالث عشر من ربيع الآخر، وقيل: ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر وعن الواقدي في سابع عشر من رمضان.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 341

و أما ليلة الإسراء فليلة الجمعة وقيل ليلة السبت، وعن ابن الأثير ليلة الاثنين، وقال ابن دحية: إن شاء الله يكون ليلة الاثنين ليوافق المولد والمبعث والمعراج والهجرة والوفاء، فإن هذه أطوار الانتقالات وجودا ونبوة ومعراجا وهجرة ووفاء، كذا في المواهب اللدنية.

و في سيرة اليعمرى: و لما بلغ إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر، أسرى به من بين زمزم والمقام وكذلك في حياة الحيوان، وإنما كان ليلا لتظهر الخصوصية بين جليس الملك ليلا وجليسه نهارا. انتهى من تاريخ الخميس.

جاء في كتاب "الكلمات الطيبات في المأثور عن الإسراء والمعراج من الروايات وفيما وقع ليلتئذ من الآيات الباهرات" تأليف العلامة الكبير الشيخ محمد بن بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقا، والمتوفى في عصرنا الحاضر، رحمه الله تعالى ما نصه:

و إنما أسرى به صلى الله عليه وسلم ليلا لمزيد الاحتفال به عليه الصلاة والسلام، فإن الليل وقت الخلوة والاختصاص ومجالسة الملوك، ولا يكاد يدعو الملك لحضرته ليلا إلا من هو خاص عنده، وقد أكرم الله تعالى فيه قوما من أنبيائه بأنواع الكرامات، وهو كأصل للنهار، وأيضا الاهتداء فيه للمقصد أبلغ من الاهتداء في النهار، وأيضا قالوا: إن المسافر يقطع في الليل ما لا يقطع في النهار، و من هنا جاء:

عليكم بالدلجة، فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار، وأيضا أسرى به ليلا ليكون ما يعرج إليه من عالم النور المحض، أبعد عن الشبه بما يعرج منه من عالم الظلمة وذلك أبلغ في الإعجاب.

وقال ابن الجوزي في ذلك: إن النبي صلى الله عليه وسلم سراج، والسراج لا يوقد إلا ليلا، و بدر، وكذا مسير البدر في الظلم إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ولم تنص الآية على دخوله صلى الله عليه وسلم في المسجد الأقصى، إلا أن الأخبار الصحيحة نصت على ذلك.

الموضع الذى كان منه الإسراء

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: و اختلف في الموضع الذى أسرى به منه صلى الله عليه وسلم، فقيل: أسرى به من بيته، وقيل: من بيت أم هانئ بنت أبي طالب، لما روى أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته

و قصص

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٤٢

القصّة عليها وقال: مثل لى النبيون فصليت بهم، وبيتها بين الصفا و المروة، و من قال هذين القولين قال: الحرم كله مسجد، و المراد بالمسجد الحرم فى الآية الحرم، و عن ابن عباس الحرم كله مسجد، و قيل: أسرى به من المسجد الحرم و المراد بالمسجد فى الآية هو المسجد نفسه و هو ظاهر، فقد قال صلى الله عليه و سلم: بينا أنا فى المسجد الحرم فى الحجر عند البيت بين النائم و اليقظان إذ أتانى جبريل بالبراق و قد عرج بى إلى السماء فى تلك الليلة، قيل: الحكمة فى المعراج أن الله تعالى أراد أن يشرف بأنوار محمد صلى الله عليه و سلم السموات كما شرف بركاته الأرضين فسرى به إلى المعراج، و سئل أبو العباس الدينورى: لم أسرى بالنبي صلى الله عليه و سلم إلى بيت المقدس قبل أن يعرج به إلى السماء؟ فقال: لأن الله تعالى كان يعلم أن كفار قريش كانوا يكذبونه فيما يخبرهم به من أخبار السموات فأراد أن يخبرهم من الأرض التى قد بلغوها و عاينوها و علموا أن النبي صلى الله عليه و سلم لم يدخل بيت المقدس قط فلما أخبرهم بأخبار بيت المقدس على ما هو عليه لم يمكنهم أن يكذبوه فى أخبار السماء بعد أن صدقوه فى أخبار الأرض.

نقول: إن بيت أم هانئ رضى الله عنها المذكور هنا، فقد قال عنه الإمام الأزرقى فى تاريخه ما يأتى:

و دار أم هانئ بنت أبى طالب و هى أخت على رضى الله عنه، كانت بالحزورة "أى عند باب الوداع،" و فى دار أم هانئ حفر قصى بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم بئرا و هى أول بئر حفرت بمكة، ثم لما زاد أمير المؤمنين محمد المهدي العباسى سنة ١٦٤ هجرية زيادته العظيمة فى المسجد الحرم دخلت هذه الدار و البئر فيه فعلى هذا كانت دار أم هانئ التى كان النبي فيها ليلة أسرى به بجوار المسجد الحرم فى ذلك الوقت، فىكون محلها اليوم حصوة باب الوداع، فىكون بين دار أم هانئ و بين الكعبة المشرفة نحو أربعين مترا تقريبا. و الله تعالى أعلم.

الاختلاف فى الإسراء هل كان بالروح أو بالجسد

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: و اختلف السلف و العلماء فى أنه هل كان إسراء بروحه أو جسده؟ على ثلاثة أقوال:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٤٣

(أحدها) أنه ذهب طائفة إلى أنه إسراء بالروح و أنه رؤيا منام مع اتفاقهم على أن رؤيا الأنبياء و حى و حق و إلى هذا ذهب معاوية، و حكى عن الحسن فى غير المشهور و حجتهم قوله تعالى: وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ الْآيَةَ، و ما حكوا عن عائشة: ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قوله صلى الله عليه و سلم: بينا أنا نائم، و قول أنس: و هو نائم فى المسجد الحرم و ذكر القصّة ثم قال فى آخرها: فاستيقظت و أنا بالمسجد الحرم، و فى العروة الوثقى و حديث عائشة صحيح فى المعراج الذى اتفق للنبي صلى الله عليه و سلم، على فراشها فى المدينة و قالت: ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قول ابن عباس أيضا صحيح فى المعراج المكى الذى أخبر به نص التنزيل بقوله:

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ الْآيَةَ، لقوله تعالى: ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى.

(و الثانى) أنه ذهب معظم السلف و المسلمين إلى أنه أسرى بروحه و جسده و فى اليقظة و هذا هو الحق، و هو قول ابن عباس، و جابر، و أنس، و حذيفة، و عمر، و أبى هريرة، و مالك بن صعصعة، و أبى حبة البدرى، و ابن مسعود، و الضحاک، و سعيد بن جبیر، و قتادة، و ابن المسيب، و ابن شهاب، و ابن زيد، و الحسن فى المشهور، و إبراهيم، و مسروق، و مجاهد، و عكرمة، و ابن جرير، و هو قول الطبرى، و ابن حنبل، و جماعة عظيمة من المسلمين، و هذا قول أكثر المتأخرين من الفقهاء و المحدثين و المتكلمين و المفسرين. (و الثالث) أنه فى المنام، قالت طائفة كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس و إلى السماء بالروح فى المنام، قال القاضى عياض:

الحق والصحيح أنه إسرائ بالجسد و الروح في القصة كلها و عليه تدل الآيه و صحيح الأخبار، و لا يعدل عن الظاهر و الحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، و ليس في الإسرائ بجسده و حال يقظته استحالة، إذ لو كان مناما لقال بروح عبده و لم يقل: بَعْبِدِهِ و قوله: ما زاعَ البَصْرُ و ما طَعَى، و لو كان مناما لما كان فيه آيه و لا معجزه، و لما استبعده الكفار و لا كذبوه فيه، و لا ارتد به ضعفاء من أسلم و افتتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن ذلك منهم إلا و قد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه و حاله يقظته، إلى ما ذكر في الحديث من ذكر صلواته بالأنبياء بيت المقدس في رواية أنس أو في السماء على ما روى غيره، و ذكر مجيء جبريل له بالبراق، و خبر المعراج و استفتاح السماء فيقال: من معك؟ فيقول: محمد،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٤٤

و لقاءه الأنبياء فيها و خبرهم معه و ترحيبهم به، و شأنه في فرض الصلاة و مراجعته مع موسى في ذلك، و وصوله إلى سدره المنتهى و دخوله الجنة و رؤيته فيها ما ذكره. قال ابن عباس: هي رؤيا عين رآها النبي صلى الله عليه و سلم لا رؤيا منام. و عن الحسن: بينا أنا جالس في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه فقممت فجلست فلم أر شيئا فعدت لمضجعي فذكر ذلك ثلاثا، فقال في الثالثة: فأخذ بعضدى فجرني إلى باب المسجد فإذا بدابه و ذكر خبر البراق. و عن أم هانئ قالت: ما أسرى برسول الله صلى الله عليه و سلم إلا و هو في بيتي تلك الليلة صلى العشاء الآخرة و نام فلما كان قبيل الفجر أهدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلما صلى الصبح و صلينا معه قال: يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس و صليت فيه، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون، فهذا كله بين في أنه بجسمه صلى الله عليه و سلم. و عن أبي بكر من رواية شداد بن أوس عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه و سلم ليلة أسرى به:

طلبتك يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجدك، فأجابته: إن جبريل حمله إلى المسجد الأقصى، و عن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: صليت ليلة أسرى بي مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة فإذا بملك قائم معه آنية ثلاث و ذكر الحديث. و هذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة فتحمل على ظواهرها، و عن أبي ذر عنه صلى الله عليه و سلم: فرج سقف بيتي و أنا بمكة فنزل جبريل فشرح صدرى ثم غسله بماء زمزم إلى آخر القصة، ثم أخذ بيدي فخرج بي، قيل: الحق أن المعراج مرتان، مرة في النوم و أخرى في اليقظة، قال محي السنة: و ما أراه الله في النوم قبل الوحي ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي بسنة تحقيقا لرؤياه كما أنه رأى فتح مكة في المنام سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقه سنة ثمان، كذا في شرح المشكاة للطيبى.

شق صدر النبي صلى الله عليه و سلم

لقد شق صدره عليه الصلاة و السلام ثلاث مرات كما ورد في الأحاديث و إلى ذلك أشار صاحب قره الأبصار بقوله:

و شق صدر أشرف الأنام و هو ابن عامين و سدس عام

و شق للبعث و للإسرائ أيضا كما قد جاء في الأنبياء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٤٥

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: روى أن النبي صلى الله عليه و سلم حدث عن ليلة أسرى به قال: بينا هو يصلى في الحطيم أو في الحجر مضطجعا إذ أتاه آت فشق ما بين ثغرة نحره إلى شعر عاتقه فاستخرج قلبه ثم أتى بطست من ذهب مملوءة إيمانا فغسل قلبه ثم حشى ثم أعيد إلى مكانه.

قيل: الحكمة في شق الصدر مرتين أما في الصغر فليصير قلبه كقلوب الأنبياء في الانشراح، و أما في الإسرائ فليصير حاله كحال الملائكة، و قيل شرح الصدر في صباه لاستخراج الهوى منه و في الإسرائ لاستدخال الإيمان فيه، ثم أتى بدابه طويلاً بيضاء تسمى البراق.

وصف البراق الذي ركب عليه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: وفي حياة الحيوان: كان البراق أبيض وبغلتة شهباء وهي التي أكثرها بياض، إشارة إلى تخصيصه بأشرف الألوان، وسمى براقا لنصوع لونه وشدته بريقه، وقيل لسرعة حركته تشبيها ببرق السحاب، وقال القاضي عياض لكونها ذات لونين، وفي الصحيح أنه دابة دون البغل و فوق الحمار أبيض يضع خطوه عند أقصى طرفه.

قال صاحب المنتقى: الحكمة في كونه على هيئة بغل ولم يكن على هيئة فرس التنبيه على أن الركوب في سلم وأمن لا في حرب و خوف أو لإظهار الآية في الإسراع العجيب في دابة لا يوصف شكلها بالإسراع و يؤخذ من قوله: (يضع خطوه عند أقصى طرفه) أنه أخذ من الأرض إلى السماء في خطوة واحدة، و إلى السموات في سبع خطوات، و به يرد على من استبعد من المتكلمين إحضار عرش بلقيس في لحظة واحدة، و قال إنه أعدم ثم أوجد، و علله بأن المسافة البعيدة لا يمكن قطعها في هذه اللحظة، و هذا أوضح دليل على الرد عليه، و كانت مضطربة الأذنين، و جهها كوجه الإنسان و جسدها كجسد الفرس، ناصيتها من ياقوت أحمر، عيناها كالزهرة، أذناها من زمرد أخضر. و في رواية: أذناها كأذن الفيل، و عنقها كعنق البعير و صدرها كصدر البغل. و في رواية: و صدرها كأنه من ياقوت أحمر، و ظهرها كأنه صفرة البيضه يبرق من غاية صفائه، لها جناحان كجناح النسر فيهما من كل لون، نصفها الأول من كافور، و الآخر من مسك، و قوائمها كقوائم الثور. و في رواية كقوائم الفرس. و في رواية كقوائم البعير و حوافرها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٤٦

كحوافر الثور. و في رواية أظلافها كظلف البقر، و ذنبها كذنب البقر. و في رواية كذنب البعير. و في رواية كذنب الغزال، لا ذكر و لا أنثى، عدوها كالريح و خطوها كالبرق، لجامها و سرجها من در مضروب على سرجها حجلة من نور كأنها ياقوت أحمر. و في رواية عليها سرج من سروج الجنة. و في رواية و على فخذيها ريشتان يستران ساقيهما. و في زبده الأعمال لها جناحان في فخذيها قيل هي البراق التي ركبها جبريل و الأنبياء عليهم السلام يركبونها. انتهى من تاريخ الخميس.

قال العلامة الكبير الشيخ محمد بخت المطيعي مفتي الديار المصرية سابقا، المتوفى في منتصف القرن الرابع عشر للهجرة رحمه الله تعالى في كتابه "الكلمات الطيبات في المأثور على الإسراء و المعراج من الروايات، و ما وقع ليلتذ من الآيات الباهرات" قال فيه ما نصه:

وقد ذكر الثعالبي في تفسيره في وصف البراق، أنه كان إذا أتى على واد، طالت يدها و قصرت رجلاه، و إذا أتى على عقبه، طالت رجلاه و قصرت يدها، و كانت المسافة في غاية الطول. ففي حقائق الحقائق: كانت المسافة من مكة إلى المقام الذي أوحى الله تعالى فيه إلى نبيه عليه الصلاة و السلام ما أوحى قدر ثلاثمائة ألف سنة، و قيل خمسين ألفا، و قيل غير ذلك، و كيف يمكن أن يكون أدنى اشتباه في ذلك فضلا عن الاستحالة، و قد كان معه صلى الله عليه وسلم جبريل، و هو الذي كان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام و صعوده في أسرع من رجعة الطرف، فهو لعمري أسرع من حركة ضياء الشمس على ما قرره في الحكمة الجديدة و إنما يستغرب و يستبعد لو كان صلى الله عليه وسلم ماشيا على قدميه، أما إذا كان محمولا على البراق و هو من الملائكة و معه جبريل و هو منهم، و قد علمت مقدار مدة هبوطه إلى الأنبياء و رجوعه إلى السماء. و الملائكة أنوار إلهية أقوى من ضياء الشمس فهم أسرع سيرا منه كما لا يخفى. انتهى من الكتاب المذكور.

ركوب النبي صلى الله عليه وسلم البراق و وصوله بيت المقدس

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: وفي حياة الحيوان روى أن إبراهيم عليه الصلاة و السلام كان يزور ولده إسماعيل على البراق، و أنه

ركب هو وإسماعيل وهاجر حين أتى بهما إلى البيت الحرام، و من غاية سرعته و خفة مشيه يضع قدميه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٤٧

أو خطوه عند أقصى طرفه، و فى رواية يقع حافره عند أقصى طرفه. و فى رواية عند منتهى طرفه. و فى رواية خطوها عند منتهى البصر، لا تمر بشيء و لا يجد ريحها شيء إلا جبي، ثم إن البراق و إن كان يركبها الأنبياء لكن لم تتصف بوضع الحفر عند منتهى طرفها إلا عند ركوب النبي صلى الله عليه و سلم كذا فى المنتقى. و فى رواية: أتاه جبريل و معه خمسون ألف ملك لهم زجل بالتسيح و رسول الله صلى الله عليه و سلم فى بيت أم هانئ و معه ميكائيل، فقال قم يا محمد فإن الجبار يدعوك، و أخذ جبريل بيده و أخرجه من المسجد الحرام فإذا هو بالبراق واقف بين الصفا و المروة، فقال له جبريل: اركب يا محمد هذه براق إبراهيم التى يجيء عليها إلى طواف الكعبة، فأخذ جبريل ركبها و ميكائيل عنانها فأراد النبي صلى الله عليه و سلم أن يركبها، و فى رواية فذهب يركبها فاستصعبت عليه، قيل استصعابها بعد العهد بالأنبياء لطول الفترة بين عيسى و محمد، و هذا مبنى على أن الأنبياء عليهم السلام ركبوها و فيه خلاف، و قيل لأنها لم تذلل قبل ذلك و لم يركبها أحد، و قيل تيتها و زهوا بركوب النبي صلى الله عليه و سلم كذا فى مزيل الخفاء، فقال لها جبريل: اسكنى فو الله ما ركبك عبد أكرم على الله من محمد، و فى رواية قال لها جبريل: أبعثك تفعلنى هذا فارفض عرقا، كذا فى الشفاء. فركبها النبي صلى الله عليه و سلم. و فى حياة الحيوان اختلف الناس هل ركب جبريل معه عليه، فقيل نعم كان رديفه صلى الله عليه و سلم، و قيل لا؛ لأن النبي صلى الله عليه و سلم المخصوص بشرف الإسراء، و انطلق به جبريل حتى أتى به بيت المقدس فربطها بالحلقة التى ربط بها الأنبياء دوابهم، ثم دخل المسجد الأقصى فصلى بهم ركعتين، فانطلق به جبريل إلى الصخرة فصعد به عليها فإذا معراج إلى السماء لم ير مثله حسنا و منه تعرج الملائكة، و قيل تعرج منه الأرواح إذا قبضت، فليس شيء أحسن منه إذا رآه أرواح المؤمنين لم تتمالك أن تخرج، و هو الذى يمد إليه ميتكم عينه إذا احتضر، كذا فى سيرة ابن هشام أصله، و فى رواية: أحد طرفيه على صخرة بيت المقدس و أعلاه ملصق، و فى رواية: و الآخر ملصق بالسماء، إحدى جنيبه ياقوته حمراء و الأخرى زبرجدة خضراء، درجة له من فضة و درجة من ذهب و درجة من زمرد مكلل بالدر و اليواقيت. انتهى من تاريخ الخميس.

و جاء فى كتاب "الكلمات الطيبات فى المأثور عن الإسراء و المعراج من الروايات" فقد صح أنه عليه الصلاة و السلام قد عرج به من صخرة بيت المقدس، و اجتمع فى كل سماء مع نبي من الأنبياء عليهم السلام كما فى صحيح البخارى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٤٨

و غيره، و اطلع عليه الصلاة و السلام على أحوال الجنة و النار و رأى من الملائكة ما لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى. انتهى من الكتاب المذكور.

عروج النبي صلى الله عليه و سلم إلى السماء

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: و فى كيفية عروجه صلى الله عليه و سلم إلى السماء اختلاف، قيل عرج به إلى السماء على البراق إظهارا لكرامته و لم يزل راكبا إظهارا لقدرته تعالى، و قيل نزل أيضا راكبا على البراق كما روى عن حذيفة ما زایل ظهر البراق حتى رجع، و قيل احتمله جبريل على جناحه، ثم ارتفع به إلى السماء من ذلك المعراج حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا فنعم المجيء جاء. ففتح، فلما دخل فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة و على يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك و إذا نظر قبل يساره بكى، فقال جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلم فرد عليه السلام، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح و النبي الصالح، ثم قال جبريل: هذا آدم و هذه الأسودة عن يمينه و شماله نسمة بنيه، فأهل اليمين هم أهل الجنة و الأسودة التى عن شماله أهل النار، ثم صعد إلى السماء الثانية، و هكذا كان يستفتح جبريل فى كل سماء فيفتح فيدخل فيرى فيها نبيا، ففى الثانية يحيى و عيسى و هما ابنا خاله، و فى الثالثة يوسف، و فى الرابعة إدريس، و فى الخامسة

هارون، و في السادسة موسى، فلما اجتاز عنه النبي صلى الله عليه و سلم بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاما بعث بعدى يدخل الله الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد إلى السماء السابعة فرأى فيها إبراهيم، ثم رفعت له سدره المنتهى فإذا نبقها مثلاً لقال هجر و ورقها كأذان الفيلة، فإذا أربعة أنهار نهران باطنان و نهران ظاهران، قال جبريل: أما الباطنان فنهران في الجنة و أما الظاهران فالنيل و الفرات.

و في الكشاف: سدره المنتهى هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر و ورقها كأذان الفيول، تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله في كتابه يسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها. و في المدارك:

وجه تسميتها كأنها في منتهى الجنة و آخرها، و قيل لم يجاوزها أحد و إليها ينتهي

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٤٩

علم الملائكة و غيرهم و لا يعلم أحد ما وراءها، و قيل تنتهي إليها أرواح الشهداء.

و في بعض الروايات أنها في السماء السادسة.

قال القاضي عياض: كونها في السابعة هو الأصح، و قال النووي يمكن الجمع بأن أصلها في السادسة و معظمها في السابعة. انتهى من تاريخ الخميس.

قال العلامة الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعي، مفتي الديار المصرية سابقا، المتوفى في منتصف القرن الرابع عشر للهجرة رحمه الله تعالى في كتابه "الكلمات الطيبات في المأثور عن الإسراء و المعراج من الروايات، و ما وقع ليلتئذ من الآيات الباهرات" قال فيه ما نصه:

و منها ما قيل: كيف رأى النبي صلى الله عليه و سلم من رآه من الأنبياء في السماء مع أن مقرهم في الأرض؟ و الجواب: أن الله تعالى شكل أرواحهم على هيئة أجسامهم كما ذكره ابن عقيل. و كذا ذكره ابن التين و قال: و إنما تعود الأرواح إلى الأجساد يوم البعث كما قدمناه، إلا عيسى عليه الصلاة و السلام فإنه حي لم يموت و ينزل إلى الأرض، و قال بعضهم: إن الأنبياء أحياء في قبورهم، و قد رآهم النبي صلى الله عليه و سلم حقيقة، و قد مر على موسى عليه السلام، و هو قائم يصلي في قبره، و رآه في السماء السادسة. و لا يخفى أن هذا لا ينافي ما قاله ابن التين من أن الأرواح إنما تعود إلى الأجسام يوم البعث، لأن عود الروح إلى الأجساد يوم البعث، هو الذي يقتضى أن تعود الأجسام إلى الحياة المشاهدة التي يترتب عليها الحركات و السكنات و جميع الأفعال الاختيارية بأقوى مما كانت عليه في الحياة الدنيا.

و أما حياة الأنبياء في قبورهم، فهي حياة ملكوتية، بها يقدر على حركات و سكنات، و أفعال ملكوتية لا يشاهدها و لا يراها إلا من يشاهد عالم الملكوت، مثل نبينا صلى الله عليه و سلم. فما ذكره ابن التين شيء، و ما قاله هذا البعض شيء آخر، و بالجملة فما قاله ذلك البعض حياة برزخية، و هي للأنبياء فوق حياة الشهداء، و للشهداء فوق حياة الأولياء غير الشهداء، و للأولياء غير الشهداء فوق حياة من عداهم من الناس أجمعين من أهل البرزخ. انتهى من الكتاب المذكور.

وصول النبي صلى الله عليه و سلم إلى البيت المعمور

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: ثم رفع له البيت المعمور و هو بيت في السماء السابعة محاذ للكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك و لا يعودون إليه، هكذا في

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٥٠

الصحيحين و غيرهما من كتب الأحاديث بذكر البيت المعمور بعد سدره المنتهى، و أما في الكشاف و غيره من كتب التفاسير فالبيت المعمور الضراح في السماء الرابعة حيال الكعبة، و قيل: في الأولى، و قيل: في السادسة، و لمسلم في صحيحه بعد صعوده إلى السماء

السابعة رأى فيها إبراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور و سلم على كل منهم إذا رآهم و هو يرد ثم يقول: مرحبا بالأخ الصالح و النبي الصالح، إلا آدم و إبراهيم فإنهما قالا بالابن الصالح كما مر فى السماء الدنيا. و فى رواية عن طريق ابن عباس ثم عرج به حتى ظهر مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ثم أتى بإناء من خمر و إناء من عسل و إناء من لبن، فأخذ اللبن فقال جبريل: هى الفطرة التى أنت عليها و أمتك.

وصول النبي صلى الله عليه و سلم إلى الحجاب

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: و فى رواية بعد استصعاب البراق فركبها حتى أتى الحجاب الذى يلى الرحمن تعالى، فبينا هو كذلك إذ خرج ملك من الحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يا جبريل من هذا؟ قال: و الذى بعثك بالحق إنى لأقرب الخلق مكانا و إن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتى هذه، و لما جاوز سدره المنتهى قال له جبريل: تقدم يا محمد، فقال له النبي صلى الله عليه و سلم: تقدم أنت يا جبريل، أو كما قال، قال جبريل: يا محمد تقدم فإنك أكرم على الله منى، فتقدم النبي صلى الله عليه و سلم و جبريل على أثره حتى بلغه إلى حجاب منسوج بالذهب فحركه جبريل فقبل:

من هذا؟ قال: جبريل، قيل: و من معه؟ قال: محمد، قال ملك من وراء الحجاب: الله أكبر الله أكبر، قيل من وراء الحجاب: صدق عبدى أنا أكبر أنا أكبر، فقال ملك: أشهد أن لا إله إلا الله، فقبل من وراء الحجاب: صدق عبدى أنا الله لا إله إلا أنا، فقال ملك: أشهد أن محمدا رسول الله، فقبل من وراء الحجاب: صدق عبدى أنا أرسلت محمدا، فقال ملك: حتى على الصلاة حتى على الفلاح، فقبل من وراء الحجاب: صدق عبدى دعا إلى عبدى، فأخرج ملك يده من وراء الحجاب فرفعه فتخلف جبريل عنه هناك. و فى رواية: فما زال يقطع مقاما بعد مقام و حجابا بعد حجاب حتى انتهى إلى مقام تخلف عنه فيه جبريل، فقال: يا جبريل لم تخلفت عنى؟ قال: يا محمد و ما منا إلا له مقام معلوم لو دنوت أنملة لاحتقرت، و فى هذه الليلة بسبب احترامك وصلت إلى هذا المقام

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٥١

و إلا فمقامى المعهود عند السدره، فمضى النبي صلى الله عليه و سلم وحده و كان يقطع الحجب الظلمانية حتى جاوز سبعين ألف حجاب، غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة سنة، و ما بين كل حجاب أيضا مسيرة خمسمائة سنة، فوقف البراق عن المسير فظهر له رفر ف أخضر غلب نوره على نور الشمس فرفع النبي صلى الله عليه و سلم على ذلك الرفرف و ذهب به إلى قرب العرش. و فى رواية كان يقال له: ادن منى حتى قيل له فى تلك الليلة ألف مرة يا محمد ادن منى، ففى كل مرة منها كان يترقى حتى بلغ مرتبة دنا، و منها ترقى إلى مرتبة فتدلى، و منها ترقى حتى وصل إلى منزلة قاب قوسين أو أدنى، كما قال تعالى: ثُمَّ دَنَا إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى أَي قَرَبَ بِالْمَنْزِلَةِ وَ الْمَرْتَبَةِ لَا بِالْمَكَانِ فَإِنَّهُ تَعَالَى مَنْزَهُ عَنْهُ، وَ إِنَّمَا هُوَ قَرَبَ الْمَنْزِلَةَ وَ الدَّرَجَةَ وَ الْكِرَامَةَ وَ الرَّأْفَةَ، فَتَدَلَّى أَي سَجَدَ لَهُ تَعَالَى لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ وَجَدَ تِلْكَ الْمَرْتَبَةَ بِالْخِدْمَةِ فَزَادَ فِي الْخِدْمَةِ، وَ فِي السَّجْدَةِ عِدَّةَ الْقَرَبِ وَ لِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَكُونَ سَاجِدًا. انتهى من تاريخ الخميس.

[عدد مراكبه صلى الله عليه و سلم ليلة الإسراء]

قال العلامة الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعى، مفتى الديار المصرية سابقا، المتوفى فى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة رحمه الله تعالى. فى كتابه "الكلمات الطيبات، فى المأثور عن الإسراء و المعراج من الروايات، و ما وقع ليلتشد من الآيات الباهرات" قال فيه ما نصه:

و من الآيات التى رآها فى عروجه على بعض الروايات كما ذكره العلائى فى تفسيره، أنه كان للنبي صلى الله عليه و سلم ليلة الإسراء

خمسة مراكب:

الأول: البراق إلى بيت المقدس، الثاني: المعراج منه إلى السماء الدنيا، الثالث: أجنحة الملائكة منها إلى السماء السابعة، الرابع: جناح جبريل عليه السلام منها إلى سدره المنتهى، الخامس: الرفرف منها إلى قاب قوسين و على رواية أنه لم يكن إلا البراق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم المعراج إلى ما شاء الله تعالى. و منها أن المعراج كان له عشر مراقى: سبعة إلى السماوات، و الثامن إلى السدره، و التاسع إلى المستوى الذى سمع فيه صريف الأقلام، و العاشر إلى العرش. انتهى من الكتاب المذكور.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-1، ص: ٣٥٢

مناجاة الله تعالى مع عبده ورسوله

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: و اختلف فى مناجاته تعالى و كلامه مع النبى صلى الله عليه و سلم: فقوله تعالى: فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ إِلَىٰ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْأَحَادِيثُ، فأكثر الفسرين على أن الموحى الله إلى جبريل و جبريل إلى محمد. و ذكر عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: أوحى الله إليه بلا واسطة و نحوه عن الواسطى، و على هذا ذهب بعض المتكلمين إلى أن محمدا صلى الله عليه و سلم كلم ربه فى الإسراء، و حكى عن الأشعرى و عن ابن مسعود و ذكر النقاش عن ابن عباس فى قصة الإسراء عنه صلى الله عليه و سلم فى قوله: دَنَا فَتَدَلَّى، قال: فارقنى جبريل فانقطعت الأصوات عنى، فسمعت كلام ربه و هو يقول: ليهدأ روعك يا محمد ادن ادن، و فى قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ الْآيَةَ. قالوا: هى على ثلاثة أقسام، من وراء حجاب كتكليم موسى، و بإرسال الملائكة كحال جميع الأنبياء و أكثر أحوال نبينا عليه و عليهم السلام. الثالث قوله: وَحِيًّا و لم يبق من أقسام الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة. ثم إنه تعالى أخفى من الخلق كل ما نسب إليه فى تلك الليلة إشارة إلى أنه حبيبه الخاص، فقال فى حال مشاهدته لسدره المنتهى: إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى، و فى الآيات التى أراه: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى، و فى التكلم معه: فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ أَي أوحى إلى عبده محمد فى ذلك المقام.

و للعلماء فى بيان ما أوحى خلاف: قال بعضهم و هم أهل الاحتياط الأقرب إلى الصواب أن لا- يعين؛ لأنه لو كانت الحكمة و المصلحة فى إظهاره و تعيينه لما أبهمه، و قال الآخرون: لا بأس بذكر ما بلغنا فى خير أو أثر أو من جهة الاستدلال و الاستنباط، و من ذلك ما ورد فى حديث صحيح ثلاثة أشياء أحدها فريضة الصلوات الخمس، و هذا دليل على أن أفضل الأعمال الصلوات الخمس؛ لأنها فرضت فى ليلة المعراج بغير واسطة جبريل، و الثانى خواتيم سورة البقرة و الثالث أن يغفر لأمه محمد صلى الله عليه و سلم كل الذنوب غير الشرك.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-1، ص: ٣٥٣

رؤية النبى صلى الله عليه و سلم ربه تعالى عز و جل

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: و اختلف أيضا فى رؤية النبى صلى الله عليه و سلم ربه تعالى، فأنكرتها عائشة، روى عن مسروق أنه قال لعائشة: يا أم المؤمنين هل رأى محمد صلى الله عليه و سلم ربه؟ قالت: لقد قف شعرى مما قلت، ثم قرأت: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، الْآيَةَ.

و قال جماعة بقول عائشة و هو المشهور عن ابن مسعود و مثله عن أبى هريرة فى قوله: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَنَّهُ رَأَىٰ جَبْرِيْلَ لَهُ سِتْمَائَةَ جَنَاحَ، و يؤيد ذلك ما قال أبو ذر: سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم هل رأيت ربك؟ قال: نور أنى أراه، و فى العروة

الوثقى قال أبو ذر: سألته عن رؤية ربه ليلة المعراج، قال: لا بل نورا أرى، وفي معالم التنزيل والمدارك أن جبريل كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة الآدميين كما كان يأتي النبيين، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها فأراه نفسه مرتين، مرة في الأرض ومرة في السماء، أما في الأرض ففي الأفق الأعلى والمراد بالأعلى جانب المشرق، وفي المشكاة برواية الترمذى ومرة في أجياد، وفي نهاية الجزرى: الأجياد موضع بأسفل مكة معروف من شعابها، انتهى. وذلك أى بيان رؤيته في الأفق الأعلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان بحراء فطلع له جبريل من المشرق وله ستمائة جناح فسد الأفق إلى المغرب، فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله: **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**، وأما ما في السماء فعند سدره المنتهى ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي المدارك وذلك ليلة المعراج، وقال بامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، وعن ابن عباس أنه رآه سبحانه بعين رأسه وروى عطاء عنه أنه رآه بقلبه كذا ذكرهما في المدارك، وعن أبي العالیه أنه رآه بفؤاده مرتين، و ذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس يسأله هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم، والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه، قال الماوردى: قيل إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد فرآه محمد مرتين وكلمه موسى مرتين، قال عبد الله بن الحارث: اجتمع ابن عباس وكعب بعرفة فقال ابن عباس: أما نحن بنى هاشم فنقول: إن محمدا رأى ربه مرتين فكعب حتى جاوبته الجبال وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى فكلمه موسى ورآه محمد بقلبه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٥٤

وروى شريك عن أبي ذر في تفسير الآية: **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**، قال: رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه، وحكى السمرقندى عن محمد بن كعب القرظى وربيعة بن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: هل رأيت ربك؟ قال: رأيت بفؤادى ولم أره بعينى، وحكى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه، وحكى ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم، وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس بعينه رآه حتى انقطع نفسه يعنى نفس أحمد، وقال سعيد بن جبیر: لا أقول رآه ولا لم يره، وقال أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري وجماعة من أصحابه: أنه رأى الله ببصره وعينى رأسه ووقف بعض المشايخ فى هذا كما وقف ابن جبیر وقال: ليس عليه دليل واضح ولكنه جائز، قال القاضى أبو الفضل: و الحق الذى لا-امترأ فيه أن رؤيته تعالى فى الدنيا جائزة عقلا إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة وليس فى الشرع دليل قاطع على استحالتها ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذى لا يعلمه إلا من علمه الله تعالى.

مراجعة موسى لنبينا محمد عليهما الصلاة والسلام بشأن الصلوات التي فرضت

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: ثم بعد ما فرضت عليه خمسون صلاة أذن له بالرجوع فرجع من حيث جاء حتى بلغ منزل جبريل، فقال له جبريل: أبشر يا محمد فإنك خير خلق الله ومصطفاه، بلغك الليلة إلى مرتبة لم يبلغها أحد من خلقه قط، لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلًا هنيئا لك هذه الكرامة، ثم ذهب به جبريل إلى الجنة والنار وأراه منازلها وما فى الجنة من الحور والقصور والغلمان والولدان والأشجار والأثمار والأزهار والأنهار والبساتين والرياحين والرياض والحياض والغرف والشرف، وما فى النار من السلاسل والأغلال والأنكال والحيات والعقارب، والزفير والشهيق والفساق واليحموم وتفاصيلها تؤدى إلى التطويل.

ثم رجع فمر بموسى فسأله بما أمرت، قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: إن أمتك لا تستطيع وإنى والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٥٥

إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، فرجع وقال: يا رب خفف عن أمتى فوضع عنه ربه عشرة، فرجع إلى

موسى فقال مثله، فرجع إلى ربه فوضع عنه عشرا، فلم يزل يرجع بين ربه و موسى حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم و ليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، و من هم بحسنه فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا و من هم بسيئته فلم يعملها لم تكتب له شيئا فإن عملها كتبت سيئته واحدة.

فرجع إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قال: بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات فارجع إلى ربك فسله التخفيف، قال: سألت ربي حتى استحييت و لكنى أرضى و أسلم، و لما جاوز عن موسى سمع مناديا ينادى فيقول: أمضيت فريضتي و خفت عن عبادى و هى خمس و هن خمسون، ثم يقول: يا محمد قد جعلت صلاتك و صلاة أمتك قياما و ركوعا و سجودا و تشهدا و قراءة و تسيحا و تهليلا، تشمل عبادته على سائر عبادات الملائكة من لدن عرشى إلى منتهى الثرى، فيكون لهم بالقيام ثواب القائمين، و بالركوع ثواب الراكعين، و بالسجود ثواب الساجدين، و بالتشهد ثواب المتشهدين، و لهم فى القراءة و التسيح ثواب المسبحين و القارئين، و بالتهليل ثواب المهللين ولدى مزيد، كذا فى المنتقى. انتهى من تاريخ الخميس، و سيأتى قريبا ترجمة موسى الكليم و ترجمة الخليل إبراهيم عليهما الصلاة و السلام فى آخر هذا المبحث، لما لهما من الفضل على الأمة المحمدية، و بالأخص على الأمة العربية.

نقول: إن موسى الكليم عليه الصلاة و التسليم له فضل عظيم على الأمة المحمدية قاطبة، حيث طلب من نبينا محمد صلى الله عليه و سلم أن يراجع ربه عز و جل فى تخفيف الصلوات التى فرضها على أمته ليلة الإسراء و قال له: إن أمتك لا تطيق ذلك. فلم يزل نبينا عليه الصلاة و السلام يراجع ربه تعالى حتى بلغ التخفيف عنا إلى خمس صلوات بعد أن كانت خمسين صلاة.

فكليم الله موسى عليه أفضل الصلاة و أتم التسليم قد أحسن إلى جميع المؤمنين و المؤمنات فى هذه المسألة إحسانا كبيرا و قد رأى من بنى إسرائيل العجب العجاب. و الحق أننا وصلنا فى هذا الزمان إلى حالة من العجز و الكسل و التقصير و الخمول لا نقدر معها أن نقوم بأداء هذه الصلوات الخمس حق أدائها، بل لقد تهاون الكثير بها فى غير قطرنا حتى تركوها بتاتا و العياذ بالله تعالى. فكيف لو لم التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٥٦

يتداركنا الله عز و جل بالتخفيف عنا بفضلته و رحمته، فجزى الله عنا كليمه موسى و صفته محمدا صلوات الله و سلامه عليهما بما هو أهله.

مقدار مدة غيابه صلى الله عليه و سلم فى الإسراء و المعراج

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: و روى أنه صلى الله عليه و سلم لما رجع كان جبريل عليه السلام رفيقه حتى دخل بيت أم هانئ، و روى عمر بن الخطاب عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال: ثم رجعت إلى خديجة و ما تحولت عن جانبها، و فى رواية: عاد صلى الله عليه و سلم إلى بيت المقدس و معه جبريل حتى أتى به مكة إلى فراشه و بقيت من الليل ساعات، و فى زين القصص عن عمار: كان زمان ذهابه و مجيئه ثلاث ساعات، و عن وهب بن منبه و محمد بن إسحاق أربع ساعات و الله أعلم، و عن عائشة أنها قالت: لما أسرى بالنبى صلى الله عليه و سلم أصبح يحدث بذلك فارتد ناس ممن كان آمن به و ضعف إيمانهم، و إليه أشار قوله تعالى: وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ. فسبب ارتدادهم أنهم كانوا يرون العير تذهب شهرا من مكة إلى الشام مدبرة و تجيء شهرا مقبلة، فاستحالوا عند عقولهم القاصرة قطع تلك المسافة البعيدة فى زمان قليل ببعض الليل فارتدوا، و الاستحالة مدفوعة لما ثبت فى الهندسة أن ما بين طرفى قرص الشمس ضعف ما بين طرف كرة الأرض مائة و نيفا و ستين مرة، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى فى أقل من ثانية، و قد برهن فى الكلام أن الأجسام متساوية فى قبول الأعراض و الله تعالى قادر على الممكنات، فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة فى بدن النبى صلى الله عليه و سلم أو فى ما يحمله و التعجب من لوازم المعجزات كذا فى أنوار التنزيل، و أيضا قال أهل الهيئة إن الفلك الأعظم فى مقدار زمان يتلفظ الإنسان بلفظة واحدة يقطع ألفا و اثنين و ثلاثين فرسخا.

إنكار المشركين للإسراء والمعراج

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: وروى أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به و كان بنى طوى قال: يا جبريل إن قومي لا يصدقوني، قال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق، و عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح جلس في الحجر معتزلاً حزينا لما أنه كان يعلم أن قومه يكذبونه، فبينما هو جالس كذلك إذ مر به أبو جهل فجلس إليه فقال له كالمستهزئ: يا محمد هل استفدت من شيء جديد؟

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٥٧

قال: نعم سافرت البارحة، و في رواية: أسرى بي الليلة إلى بيت المقدس و منه إلى السموات، و قال أبو جهل: سافرت الليلة إلى بيت المقدس و أصبحت بين أظهرنا بمكة؟ قال: نعم، فلم ير أبو جهل أن ينكر ذلك مخافة أن يجحده الحديث، قال: أتحدث قومك كما حدثتني؟ قال: نعم، فصاح أبو جهل: يا معشر بنى كعب بن لؤى هلموا، فانتقضت المجالس، فجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: فحدث قومك بما حدثتني، قال: نعم أسرى بي الليلة، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم، فوقعوا في التعجب و الاستغراب و قالوا: إن هذا لشيء عجاب، و بعضهم من كثرة إنكارهم يصفقون، و بعضهم من قلة اعتبارهم يضحكون، و بعضهم يضعون أيديهم على رؤوسهم تعجبا، فإن هذا الأمر يرى عندهم محالاً و عجبا، و ارتد ناس ممن كان قد آمن به و صدقه. و عن عائشة رضي الله عنها: سعى رجال من المشركين و هم أبو جهل و أتباعه إلى أبي بكر فقالوا له: هل لك في صاحبك يزعم أنه أسرى به إلى بيت المقدس و منه إلى السموات؟ فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه أنه ذهب إلى الشام و رجع قبل أن يصبح، قال: نعم إنني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة و روحه، قال بعضهم: و من ذلك اليوم سمي أبو بكر صديقا.

سؤال قريش النبي صلى الله عليه وسلم عما رآه في طريق الإسراء

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: و عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد رأيتني في الحجر و قريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كريبا ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، فما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم، و نحوه عن جابر، كذا في الشفاء، و عن عائشة قالوا: يا محمد هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الأقصى، فشرع ينعت حتى إذا التبس قال: فجيء بالمسجد و أنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد و أنا أنظر إليه، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه، و هذا أبلغ في المعجزة و لا استحالة فيه فقد أحضر عرش بلقيس في طرفه عين، فقالوا: أخبرنا عن غير فهي أهم إلينا من ذلك هل لقيت منها شيئا؟ قال: نعم مررت على عير بنى فلان و هي بالروحاء و قد أضلوا بعيرا لهم و هم في طلبه، و في رحالهم قدح من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٥٨

ماء فعضت فأخذته و شربته ثم وضعته، فسلوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا، قالوا: هذه آية، قال: و مررت بعير بنى فلان و فلان راكبان قلوصلهما.

و في رواية قعودا لهما بنى مر فنفر البعير مني فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهم عن ذلك، فقالوا: هذه آية أخرى، قالوا: أخبرنا عن عيرنا، قال: مررت بها بالتنعيم، قالوا: فما عدتها و أحمالها و هيئتها، فقال: كنت في شغل عن ذلك ثم مثل لي بعدتها و أحمالها و من كان فيها و كانوا بالحزورة، قال: نعم هيئتها كذا كذا و فيها فلان و فلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخططان يطلع عند طلوع

الشمس، و في المواهب اللدنية: يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود و غرارتان سوداوان، قالوا هذه آية أخرى، ثم خرجوا نحو ثنية كداء حتى يكذبونه فإذا بقائل يقول: هذه الشمس قد طلعت، و قال الآخر: هذه العير قد أقبلت كما قال محمد يقدمها فلان و فلان كذا في المنتقى، و في رواية البيهقي: أشرف الناس ينتظرون حتى إذا كان قريب من نصف النهار أقبلت العير فلم يؤمنوا و قالوا: ما سمعنا بمثل هذا قط إن هذا إلا سحر مبین، و في رواية سألوه أيضا عن عير الشام ليستدل به على تكذيبه و تصديقه فيما قال عليه السلام فوصفهم و قال: يقدمون يوم الأربعاء فكان ذلك اليوم، و ما قدموا حتى كادت الشمس أن تغرب فدعا الله تعالى فحبسها حتى قدموا مكة، فعلموا صدقه و مع ذلك لم يصدقوه في الخبر و ما آمنوا، كذا في سيرة مغلطاي.

و في حياة الحيوان: حبست الشمس مرتين لنبينا صلى الله عليه و سلم، إحداهما يوم الخندق حين شغلوا عن صلاة العصر حتى غربت الشمس فردها الله عليه كما رواه الطحاوي و غيره، و الثانية صبيحة الإسراء حين انتظروا العير التي أخبر بوصولها مع شروق الشمس، ذكره القاضي عياض في غير الشفاء.

و حبست ليوشع بن نون، و حبست لداود و ذكره الخطيب في كتاب النجوم و ضعف روايته، و حبست لسليمان ذكره البغوي في معالم التنزيل في سورة "ص" كذا في مزيل الخفاء، و في سيرة مغلطاي ذكر الطحاوي أن الشمس ردت له في بيت أسماء بنى عميس حين شغل عن صلاة العصر.

اعلم أنه ليس لأحد من أهل القبلة اختلاف في وقوع المعراج للنبي صلى الله عليه و سلم فمن أنكر الإسراء يكفر؛ لأنه إنكار لنص القرآن، قال الله تعالى: **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى،** و أيضا ورد في التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٥٩

الأحاديث الصريحة المشهورة القريبة من حد التواتر و أما منكر المعراج إلى السموات فمبتدع ضال عند أئمة الدين.

تحقيق موضع دار أم هانئ بمكة

الذى دعانا إلى العناية بتحقيق موضع دار أم هانئ أخت على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما، هو اختلاف العلماء في أن النبي صلى الله عليه و سلم هل أسرى به من المسجد الحرام أو من بيت أم هانئ بنت أبى طالب رضى الله تعالى عنها، فقد جاءت أحاديث صحيحة في هذا و ذاك.

فأردنا أن نتحقق موقع بيت أم هانئ بمكة و بعده عن المسجد الحرام في زمنه صلى الله عليه و سلم الذى مساحته هي مساحة دائر المطاف الذى حول الكعبة المشرفة، فإن في معرفة مكان دارها جملة فوائد. فنقول و بالله تعالى التوفيق، و منه المعونة و السداد، و هو حسبنا و نعم الوكيل نعم المولى و نعم النصير:

لم يذكر أحد من المؤرخين مكان بيت أم هانئ بالضبط، لكن اتفقت كلمتهم على أن دارها كانت جهة باب الوداع، و أدخلت في التوسعة القديمة، و نحن أيضا مثلهم لا نعرف موقع دارها، لكن شرح الله تعالى صدرنا في الليلة العاشرة من شهر جمادى الثانية سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة، فى النظر إلى تاريخ الإمام الأزرقى المولود فى القرن الثانى للهجرة، عسانا نهتدى بالتأمل فى عباراته المختلفة المتكررة فى كثير من أبواب تاريخه، فإن تاريخه جامع لمئات المسائل و الأبحاث القيمة، لكنها متفرقة و مبعثرة فى الكتاب بدون ترتيب منتظم، فكتابه أشبه بد كان عطار فيه من جميع الأدوية و العقاقير، لكنها مبعثرة فى الدكان، فعلى المحتاج أن يفتش و يبحث بنفسه عن ما يريد من الدواء.

و ها نحن قد فتشنا فى كثير من صحائف تاريخ الأزرقى حتى عثرنا على ضالتنا المنشودة، و اهتدينا لمسألتنا التى نبحت عنها، و لله الحمد و المنه.

و إليك ما جاء فى تاريخه المطبوع فى مكة سنة (١٣٥٢) هجرية.

فلقد راجعنا فيه أكثر من ثلاثين صحيفة، جاء في جميعها ذكر دار أم هانئ و الحزورة، و بئر العجول، و باب البقالين، و باب الحنطين، و باب بنى حكيم.

و كل ذلك دائر حول بيت أم هانئ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦٠

و لكن لم نقدر من هذه الصحائف على أن نستنتج موضع دار أم هانئ رضى الله تعالى عنها استنتاجا مضبوطا، و إنما قاربنا فى الوصول إلى الحقيقة، بعد الاطلاع فى الجزء الثانى من الصحائف الآتية و هى (٤٩ و ٥٠ و ١٨٨ و ٢٣٨) و إليك تفصيل ذلك:

قال الأزرقى فى صحيفة ٤٩ ما نصه: عن على الأزدى، قال: سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول: "إننا لنجد فى كتاب الله تعالى عز و جل أن حدّ المسجد الحرام من الحزورة إلى المسعى" انتهى.

و الظاهر: أن المراد من كتاب الله تعالى هنا ليس القرآن الكريم، و إنما ربما كان المراد به التوراة أو الإنجيل. و الله تعالى أعلم.

ثم روى الأزرقى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: "أساس المسجد الحرام الذى وضعه إبراهيم عليه السلام من الحزورة إلى المسعى إلى مخرج سيل أجياد. قال: و المهدي وضع المسجد على المسعى." انتهى.

و قال فى صحيفة ١٨٨ ما نصه: و لهم أيضا دار أم هانئ بنت أبى طالب التى كانت عند الحنطين، عند المنارة، فدخلت فى المسجد الحرام حين وسعه المهدي فى الهدم الآخر سنة سبع و ستين و مائة. انتهى.

و قال فى صحيفة ٢٣٨ ما نصه: قال أبو الوليد: الحزورة و هى كانت سوق مكة، كانت بفناء دار أم هانئ ابنة أبى طالب التى كانت عند الحنطين فدخلت فى المسجد الحرام، كانت فى أصل المنارة إلى الحثمة و الجاور و الجبابب الأسواق.

و قال بعض المكيين: بل كانت الحزورة فى موضع السقاية التى عملت الخيزران بفناء دار الأرقم. و قال بعضهم: كانت بحذاء الردم فى الوادى، و الأول أنها كانت عند الحنطين أثبت و أشهر عند أهل مكة.

و روى سفيان عن ابن شهاب: قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو بالحزورة: أما و الله إنك لأحب البلاد إلى الله سبحانه، و لولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت" و هذا الخطاب لبلدة مكة. "قال سفيان: و قد دخلت الحزورة فى المسجد الحرام. انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦١

بقى علينا أن نعرف موضع الحزورة فإننا إذا عرفنا موضعها تماما عرفنا موضع دار أم هانئ، لأن دارها كانت عندها. و الحزورة هى الأكمة، و هى التل، و إن شاء الله تعالى سنهتدى أيضا إلى مكان الحزورة بما يأتى:

قال الأزرقى فى الجزء الأول من تاريخه بصحيفة ٦٤ ما نصه: و قد كان قصى بن كلاب حفر بمكة آبارا و كان الماء بمكة عزيزا إنما يشرب الناس من آبار خارجة من الحرم، فأول ما حفر قصى بمكة حفر بئرا يقال لها العجول، كان موضعها فى دار أم هانئ بنت أبى طالب بالحزورة، و كانت العرب إذا قدمت مكة يردونها فيسقون منها و يتراجزون عليها. انتهى.

نقول: إن هذه البئر مع دار أم هانئ قد دخلتا فى المسجد الحرام فى توسعة المهدي رحمه الله تعالى سنة (١٦٧) مائة و سبع و ستين من الهجرة.

و قال الأزرقى فى الجزء الثانى بصحيفة ٣٣ عند الكلام على حفر عبد المطلب زمزم ما نصه: فأتى عبد المطلب فى المنام فقيل له: احفر زمزم خبيثة الشيخ الأعظم، فاستيقظ فقال: اللهم بين لى، فأتى فى المنام مرة أخرى فقيل له: احفر زمزم بين الفرت و الدم، عند نقرة الغراب فى قرية النمل مستقبلة الأنصاب الحمر، فقام عبد المطلب فمشى حتى جلس فى الحرم ينظر ما سمي له من الآيات فحفر بقره بالحزورة فانفلتت من جازرها بحشاشة نفسها، حتى غلبها الموت فى المسجد فى موضع زمزم، فجزرت تلك البقرة فى مكانها حتى احتمل لحمها، فأقبل غراب يهوى حتى وقع فى الفرت فبحث عن قرية النمل، فقام عبد المطلب فحفر هنالك ... إلى آخر القصة. قال فى مختار الصحاح "الفرت" بوزن الفلس السرجين ما دام فى الكرش، و الجمع فروث كفلوس. اهـ.

وقال الفاسى فى كتابه "شفاء الغرام" عن الحزورة فى الباب الخامس من الجزء الأول. ما نصه: و الحزورة- بحاء مهملة مفتوحة و زاي معجمة- و عوام مكة يصحفون الحزورة فيقولون "عزورة" بعين مهملة، و هذا التصحيف من قديم، لأنى رأيت ذلك مكتوبا فى حجر رباط رامشت بمكة و تاريخه سنة تسع و عشرين و خمسمائة، و الحزورة الرابية الصغيرة و الجمع الحزاور، و كان عندها سوق الحناتين بمكة، و هى فى أسفلها عند منارة المسجد الحرام التى تلى أجياد. و ما وقع للطبرانى من أن الحزورة فى "شرقى مكة" تصحيف صوابه "سوق مكة" كما وقع

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦٢

مصرحاً به فى مسند أحمد بن حنبل من حديث عبد الله بن عدى بن الحمراء، و ما ذكرناه فى موضع الحزورة هو المشهور المعروف على ما ذكره الأزرقى. انتهى.

ثم ذكر الفاسى سبب تسمية الحزورة بعد أربعة أسطر من الكلام المذكور ما نصه: و أفاد الفاكهى سبب تسمية الحزورة لأنه قال: لما ذكر ولاية ابن نزار للكعبة، فكان أمر البيت إلى رجل منهم يقال له و كيع بن سلمة بن زهير بن إيداد، فبنى صرحاً بأسفل مكة عند الحناتين اليوم و جعل فيه أمه له يقال لها الحازورة فيها سميت حازورة مكة. هـ. انتهى من شفاء الغرام.

إلى هنا انتهينا من نقل ما يهمننا للوصول إلى معرفة موضع دار أم هانئ بنت أبى طالب رضى الله عنه و موضع الحزورة، و بعد التأمل فيما نقلناه هنا من الكلام، و مراجعة ما طالعناه من الأبحاث العديدة، عرفنا موقع دار أم هانئ مما يأتى:

(١) من قول الإمام الأزرقى المتقدم رحمه الله تعالى فى الجزء الثانى من تاريخه بصحيفة ١٨٨ حيث يقول "و لهم أيضاً دار أم هانئ بنت أبى طالب التى كانت عند الحناتين عند المنارة، فدخلت فى المسجد الحرام حين وسعه المهدي فى الهدم الآخر سنة سبع و ستين و مائة" انتهى كلامه.

(٢) و من قول الفاسى رحمه الله تعالى المتقدم، فى الجزء الأول من كتابه شفاء الغرام، حيث يقول عن الحزورة "و كان عندها سوق الحناتين بمكة و هى فى أسفلها عند منارة المسجد الحرام التى تلى أجياد" انتهى كلامه.

(٣) و من الخريطة التى وضعناها فى بيان الزيادات التى حصلت فى المسجد الحرام، المطبوعة فى كتابنا "مقام إبراهيم عليه السلام" بصحيفة ٩١ من الطبعة الأولى.

فمن هذه الأمور الثلاثة ظهر لنا تماماً ما لا يقبل الشك أن دار أم هانئ رضى الله تعالى عنها واقعة بالضبط عند منارة باب الوداع فى عصرنا الحاضر؛ لأنها هى المنارة المعنية فى العبارة المتقدمة، فمحلها فى ذلك الزمن هو محلها اليوم لم يتغير، و الحزورة واقعة عندها و كذلك سوق الحناتين.

و من نظر إلى خريطة زيادات المسجد الحرام الموجودة بكتابنا المذكور "مقام إبراهيم عليه السلام" و الموجودة أيضاً فى هذا التاريخ، علم يقيناً أن المنارة المذكورة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦٣

تقع فى آخر توسعة المهدي رحمه الله تعالى من ركن المسجد الحرام الجنوبى المقابل لأجياد، فدار أم هانئ كانت عند هذا الركن، ثم دخلت فى توسعة المهدي المذكور سنة (١٦٤) مائة و أربع و ستين من الهجرة.

و فى محل المنارة، أى فى موضع دار أم هانئ، حفر قصى بن كلاب البئر التى يقال لها العجول، كما أنه من هذا الموضع انفلتت البقرة التى نحررت عنده من الجزار و جرت نفسها حتى وصلت إلى موضع زمزم فماتت، فسلخوها فى هذا المكان و فرقوا لحمها، ثم أقبل غراب فوق فى فرثها، فعندئذ قام عبد المطلب يحفر زمزم فى الموضع الذى وصلت إليه البقرة و ماتت. كما تقدم ذلك فى عبارة الأزرقى.

و المسافة من الركن اليمانى فى الكعبة المشرفة إلى منارة باب الوداع التى تقابل أجياد هى (١٢٠) مائة و عشرون متراً، أى نحو

خمسین و مائتین ذراعاً.

فتكون المسافة بين الكعبة شرفها الله تعالى و بين دار أم هانئ بنت أبي طالب رضى الله تعالى عنها هي (١٢٠) متراً بالضبط على التحقيق الذى عملناه. و هي نفس المسافة بين الكعبة و بين الحزورة، و هي نفس المسافة أيضا بينها و بين البئر التى كان حفرها قصى بن كلاب ثم دفنت و دخلت مع دار أم هانئ فى توسعة المهدي رحمه الله تعالى.

فالحمد لله على ما وفقنا لتحقيق هذه المسألة، و الحمد لله على توفيقاته المتواليه، و على نعمائه المتتاليه التى لا تنقطع عنا طرفه عين بواسع فضله و عظيم إحسانه. و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

فضل سيدنا إبراهيم و سيدنا موسى على الأمة المحمدية

لئن جمعنا فى هذا الفصل بين النبيين الكريمين: خليل الله، و كلیم الله "إبراهيم و موسى" عليهما الصلاة و السلام فى أياديهما البيضاء على الأمة المحمدية، فقد جمع الله بينهما فى قوله: إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ ذَلِكَ أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَشْرَةَ صُحُفٍ كَانَتْ كُلُّهَا أَمْثَالًا، وَ أَنْزَلَ عَلَى سَيِّدِنَا مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَةِ عَشْرَ صُحُفٍ كَانَتْ كُلُّهَا عِبْرًا، فَقَدْ تَسَاوَا فِي مِقْدَارِ إِنْزَالِ الصُّحُفِ عَلَيْهِمَا، كَمَا تَقَارَبَا مَضْمُونِ صِحَافِهِمَا فِي مَعَانِيهِمَا، مِنَ الْأَمْثَالِ وَ الْعِبَرِ، وَ الْإِعَاظِ وَ الذِّكْرِ، وَ قَدْ تَشَابَهَا أَيْضًا فِي الْإِبْتِلَاءِ وَ الْإِخْتِبَارِ، فإبراهيم نجاه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦٤

الله فى صغره من قتل نمرود، كما نجاه من النار حين ألقى فيها، و موسى نجاه الله من قتل فرعون فى صغره، كما نجاه من الغرق حينما ألقى فى اليم و هو رضيع.

و لنذكر هنا ما لكل منهما علينا من الفضل: فسيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام له فضل عام على العرب و الأمة المحمدية، و فضل خاص على أهل مكة، فأما الفضل العام على العرب و الأمة المحمدية فدعاؤه لهم بالهداية و التوفيق كما فى القرآن الكريم: رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَ فى آية أخرى: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.

و أما الفضل الخاص على أهل مكة: فإنه أول من اكتشفها و نزل بها و عمرها، و أسكن فيها ابنه إسماعيل و أمه هاجر، اللذين بسبيهما ظهر ماء زمزم، و على يدي إبراهيم و إسماعيل بنيت الكعبة المعظمة، و أن إبراهيم ترك لديهم مقامه الكريم المحترم، و حرّم مكة و صيرها مأمنا، و دعا لأهلها بالرزق و البركة فيما كان عندهم من ماء و لحم و لبن، و هو الذى أذن فى الناس بالحج و دعاهم إليه، فصاروا يقصدون مكة فى أيام معلومات من كل فج عميق، و بذلك اتسعت عمرانها و كثرت أرزاقها و خيراتها كما أتى كل ذلك صريحا فى القرآن الكريم.

ففى سورة البقرة: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ، وَ فى سورة إبراهيم: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلْنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، و لقد استجاب الله تعالى منه جميع دعائه بفضله و رحمته، فجزاه الله عنا ما هو أهله.

أما موسى الكليم عليه الصلاة و السلام: فأحسانه عظيم أيضا على الأمة المحمدية قاطبة. حيث طلب من نبينا محمد صلى الله عليه و سلم ليلة عرج به و اجتمع معه فى السماء السادسة أن يراجع ربه عز و جل فى تخفيف الصلاة عن أمته التى فرضها الله تعالى عليهم أولاء و قال له: إن أمتك لا تطيق ذلك، فلم يزل رسول الله يرجع بين ربه عز و جل و بين موسى عليه السلام حتى بلغ التخفيف عنا إلى خمس صلوات كل يوم و ليلة بعد أن كانت خمسين صلاة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦٥

فموسى عليه السلام قد أحسن إلى جميع المؤمنين و المؤمنات في هذه المسألة إحسانا كبيرا و وفق فيها أعظم توفيق، كيف لا، و هو الذى رأى من أحوال بنى إسرائيل العجب العجائب، و لذلك قال نبينا محمد صلى الله عليه و سلم: «أكثرنا من الصلاة على موسى فما رأيت أحدا من الأنبياء أحوط على أمتى منه» رواه ابن عساکر عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

و الحق أننا قد وصلنا فى هذا الزمان إلى حالة من العجز و التقصير، لا نقدر بأن نقوم بأداء هذه الصلوات الخمس حق أدائها، بل تهاون الكثير بها فى غير قطرنا حتى تركوه بتاتا و العياد بالله، فكيف لو لم يخفف الله عنا بفضلته و رحمته، فجزى الله موسى و إبراهيم و نبينا محمدا عنا ما هو أهله. اللهم صل و سلم على جميع الأنبياء و المرسلين و آل كل منهم أجمعين.

ترجمة خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و السلام

لما كان إبراهيم الخليل صلوات الله و سلامه عليه و على جميع الأنبياء و المرسلين، له فضل عام على العرب و الأمة المحمدية، بنص القرآن الكريم، حيث يقول: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يَزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، و يقول فى آية أخرى: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.

كما له فضل خاص على أهل مكة من الدعاء لهم بنص الآية الكريمة حيث يقول: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيءْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، و غير ذلك من الآيات، فاستجاب الله تعالى منه جميع دعواته بفضلته و رحمته، فجزاه الله عنا بما هو أهله.

رأينا أن نتشرف بذكر شيء من ترجمته النفيسة، فكتبنا عنه ترجمة لطيفة وافية، و قد قدمناها فى أول الكتاب و لم نذكرها هنا، لمناسبة أنه هو أول مكتشف لمكة شرفها الله تعالى، و رافع قواعد بيت الله الحرام.

فناسب أن تكون ترجمته فى أول الكتاب، صلى الله عليه و على آله و أصحابه و سلم تسليما كثيرا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦٦

ترجمة موسى عليه الصلاة و السلام

نتشرف الآن بذكر ترجمة موسى عليه السلام لما له من الفضل على الأمة المحمدية قاطبة، حيث طلب من نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم ليلة أن عرج به و اجتمع معه فى السماء السادسة، أن يراجع ربه عز و جل فى تخفيف الصلاة التى فرضها على أمتة أولا.

هو موسى كلیم الله، أبوه رجل عبرانى يقال له "عمران" بن قاهت ابن لاوى بن يعقوب عليه السلام، و أمه "يوكابد" بنت لاوى، و أخوه "هارون" و هو شقيقه من أبيه و أمه.

لما ولد موسى خبأته أمه عن عيون من يطلبون أطفال بنى إسرائيل لقتل ذكرانهم، فمكث موسى عند أمه ثلاثة أشهر، فلما خافت افتضاح أمرها أعلمها الله تعالى و علمها أن تصنع له ما يشبه الصندوق و تطلية بالقطران و الزفت و تلقيه فى اليم، ففعلت و ناطت بأخته أن تتبع أثره و تعلم علمه، و أن الله تعالى قد أعلمها أنه راده إليها و جاعله من المرسلين.

فلم تزل أخته ترقب أخباره حتى علمت أنه التقط و أدخل دار فرعون، و أن الله تعالى ألقى محبة موسى فى قلب زوجة فرعون حينما وقعت عينها عليه، فأبقتة ليكون قره عينها و عين فرعون راجية أن ينفعهما أو يتخذاه ولدا.

و كانت أخته تقص أثره و تتبعه أينما سير به فرأته لا يقبل ثدى المراضع، فعرضت على آل فرعون أن تدعو لهم امرأة عبرانية ترضعه و تكفله و تقوم له مقام الأم، و كان اسم أخته مريم، فبعثوا فى طلبها فجاءت بأمرها و أمه على التحقيق، فأقبل موسى على ثديها فتولت

شؤونه و فرحت به فرحا شديدا.

فترى موسى فى بيت فرعون تربية بحسب تقاليد البلاط الفرعونى و كان ذا قوة و بأس، و كان طبيعى أن يعرف أنه من بنى إسرائيل ذلك الشعب المضطهد من فرعون و آله، فكان ظهيرا للعبرانيين قومه يلجأ إليه المظلومون منهم، فلما بلغ أشده آتاه الله العلم و الحكمة.

انتهى ملخصا من كتاب "قصص الأنبياء" للأستاذ عبد الوهاب النجار.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦٧

و نحن لا نريد إطالة الكلام عن ترجمة موسى عليه السلام و تاريخ حياته من كافة الوجوه حتى لا نخرج عن المقصود، و إنما تشرفنا بذكر هذه النبذة عنه لما له من الفضل على كافة الأمة المحمدية.

و هنا يحلو لنا أن نأتى ببعض الآيات الواردة فى القرآن العظيم عنه صلى الله عليه و سلم:

فقد قال الله عز شأنه فى سورة القصص: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَفَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَ قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَيْلٌ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

ما بين موسى عليه السلام و فرعون

قال الله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة الشعراء: قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَيْسَ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَآتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ * فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَيْلٌ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلْنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ إِنَّ لَنَا لَمَأْجِرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦٨

وَ عَصَاهُمْ * قَالُوا بِعِزَّتِكَ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأَلْقَىٰ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ.

و يستنتج من قصة موسى عليه الصلاة و السلام جملة أمور. ذكرها الأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه "قصص الأنبياء" و نحن نلخصها منه كما يأتى:

(١) إذا ابتلى الإنسان فى الدنيا يجب عليه أن يقابل ذلك بالرضا، فقد يكون فى هذا الابتلاء خير كبير.

(٢) من توكل على الله فى أموره لا بد أن يقبض الله من ينقذه و يخلصه.

(٣) من استمسك بالحق لا يبالي بمن خالفه فى رأيه و طريقته مهما بلغت رتبته.

(٤) لا يعدم الحق أن يجد له نصيرا و لو بعد حين.

(٥) من ذاق لذة الإيمان بالله لا يبالي بما يصيبه في سبيل ذلك.

(٦) عاقبة الصبر حميدة. قال تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا.

(٧) حلم موسى عليه السلام على بني إسرائيل. انتهى ملخصا من الكتاب المذكور.

صلوات الله و سلامه عليه و على جميع الأنبياء و المرسلين آمين.

و في الصحيحين و اللفظ للبخارى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: حَاجَّ موسى آدم عليهما السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنبيك من الجنة و أشقيتهم، قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته و بكلامه أتولمنى على أمر قد كتبه على قبل أن يخلقني أو قدره على قبل أن يخلقني، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فحجَّ آدم موسى.

و روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال:

أحجَّ آدم و موسى فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقتك الله بيده و نفخ فيك من روحه أغويت الناس و أخرجتهم من الجنة، قال: فقال آدم: و أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه تلومنى على عمل أعمله كتبه الله على قبل أن يخلق السموات و الأرض، قال: فحجَّ آدم موسى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٦٩

و قد ورد هذا الحديث بجملة روايات اكتفينا بما ذكر.

إلى هنا نكتفى بهذه النبذة اللطيفة، و مهما أطنبنا و أثبتنا على سيدنا موسى عليه السلام، فما قيمة قولنا بجانب من اصطفاه الله تعالى برسالته و كلامه، و قال في حقه عز شأنه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آدَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا.

اللهم صل و سلم عليه و على أخيه هارون و على نبينا "محمد" و على جميع الأنبياء و المرسلين و آل كل منهم و صحابتهم أجمعين.

ذكر حج موسى عليه الصلاة و السلام

جاء في تاريخ ابن كثير رحمه الله تعالى عن حجة كلیم الله تعالى موسى عليه الصلاة و السلام ما نصه: قال الإمام أحمد: حدثنا هشام، حدثنا داود بن أبي هند، عن أبي عالية، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم مر بوادى الأزرق، فقال: أی واد هذا. قالوا: وادى الأزرق. قال: كأنى أنظر إلى موسى و هو هابط من الثنية، و له جوار إلى الله عز و جل بالتلبية، حتى أتى على ثنية هرشاء. فقال: أی ثنية هذه؟ قالوا: هذه ثنية هر شاء. قال: كأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقه حمراء عليه جبة من صوف حطام ناقته خلبة. قال هشيم: يعنى ليفا و هو يلبي.

أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هندبة. و رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعا أن موسى حج على ثور أحمر. و هذا غريب جدا. و قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدى، عن ابن عون، عن مجاهد قال: كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال فقال: إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال: ما يقولون؟ قال: يقولون مكتوب بين عينيه (ك ف ر) فقال ابن عباس: لم أسمع قال ذلك، و لكن قال: أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم. و أما موسى فرجل آدم جعد الشعر، على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأنى أنظر إليه و قد انحدر من الوادى يلبي. قال هشيم: الخلبة الليف.

ثم رواه الإمام أحمد عن أسود عن إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: رأيت عيسى بن مريم و موسى و إبراهيم. فأما عيسى فأبيض جعد عريض الصدر، فأما موسى فأدم جسيم. قال: فأبراهيم؟ قال: انظروا إلى صاحبكم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧٠

و قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا شيبان قال حدث قتادة، عن أبي العالية حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال: قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران رجل طوالا جدا كأنه من رجال شنوءة و رأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق الحمرة و البياض سبط الرأس. و أخرجه من حديث قتادة به.

و قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، قال الزهري، و أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسرى به:

لقيت موسى فقلت فقال رجل قال حسبته قال مضطرب رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة، و لقيت عيسى فقلت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعني حماما. قال: و رأيت إبراهيم و أنا أشبه ولد به. الحديث. و قد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل.

معرفة كيفية الصلوات الخمس

تقدم هنا أن الصلوات الخمس فرضها الله عز و جل ليلة الإسراء و المعراج، لكن بقي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم أوقاتها و كيفيتها حتى يبين كل ذلك لأمة التي هي خير الأمم فهبط عليه جبريل صبيحة الإسراء ليعلمه صلى الله عليه وسلم كيفيتها و إليك تفصيل ذلك:

جاء في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نزل جبريل عليه السلام فأمنى فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، يحسب بأصابعه خمس صلوات» رواه أبو مسعود الأنصاري رضى الله عنه.

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في الجزء الرابع من شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري و مسلم" عند هذا الحديث ما يأتي:

قال ابن عبد البر: لم يختلف أن جبريل هبط صبيحة الإسراء عند الزوال فعلم النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة و مواعيتها و هيئتها. اهـ. قوله: «فأمنى» بتشديد الميم بعد الهمزة المفتوحة أي كان إماما لي في أول الصلوات المفروضة ليلة الإسراء. و قوله: «فصليت معه» أي صلاة الظهر؛ لأن نزوله كان حينما زاغت الشمس، فصلاة الظهر هي أولى الصلوات الخمس،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧١

و قوله: «ثم صليت معه» أي صلاة العصر. و قوله: «ثم صليت معه» أي صلاة المغرب. و قوله: «ثم صليت معه» أي صلاة العشاء. و قوله: «ثم صليت معه» أي صلاة الصبح.

قال شيخنا رحمه الله تعالى: و حديث المتن يوضح معناه ما نسبه الحافظ في فتح الباري و غيره لعبد الرزاق، قال عبد الرزاق عن ابن جريج قال نافع بن جبير و غيره: لما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم من الليلة التي أسرى به لم يرعه إلا جبريل نزل حين زاغت الشمس و لذلك سميت الأولى أي صلاة الظهر فأمر فصيح بأصحابه الصلاة جماعة فاجتمعوا فصلى به جبريل و صلى النبي صلى الله عليه وسلم بالناس طول الركعتين الأولين ثم قصر الباقيتين ثم سلم جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، و سلم النبي على الناس ثم نزل في العصر على مثل ذلك ففعلوا كما فعلوا في الظهر، ثم نزل في أول الليل فصيح:

الصلاة جماعة فصلى جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم و صلى النبي بالناس طول في الأوليين و قصر في الثالثة ثم سلم جبريل على النبي و سلم النبي على الناس، ثم لما ذهب ثلث الليل صيح: الصلاة جماعة فاجتمعوا فصلى جبريل بالنبي و صلى النبي للناس فقرا في الأوليين فطول فيهما و قصر في الأخيرتين ثم سلم جبريل على النبي و سلم النبي على الناس، فلما طلع الفجر صيح: الصلاة جماعة فصلى جبريل بالنبي و صلى النبي للناس و قرأ فيهما فجهر و طول و رفع صوته و سلم جبريل على النبي و سلم النبي على الناس.

قال الحافظ في فتح الباري: و فيه رد على من زعم أن بيان الأوقات إنما وقع بعد الهجرة، و الحق أن ذلك وقع قبلها ببيان جبريل و

بعدها بيان النبي صلى الله عليه وسلم، قال السيوطي في تنوير الحوالك: وهو صريح حديث ابن عباس: أمنى جبريل عند البيت، رواه أبو داود و الترمذى وغيرهما و فى رواية الشافعى عند باب البيت و حديث المتن رواه البخارى و مسلم من رواية أبى مسعود الأنصارى أيضا بغير هذا اللفظ الذى سقناه فى المتن باتفاق الشيخين.

و قد بينت فى المعلم محل تخريجهما له و ذكرت أن البخارى أخرجه فى أول كتاب مواقيت الصلاة و أن مسلما أخرجه فى كتاب المساجد و مواضع الصلاة فى باب أوقات الصلوات الخمس و هو أول حديث فى موطأ مالك و لفظه: عن أبى مسعود أليس قد علمت أن جبريل نزل فصلى، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صلى، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صلى، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صلى،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧٢

فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صلى، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: بهذا أمرت، الحديث، و قوله: أمرت روى بفتح التاء و بضمها، قال مغلطاي: و الفتح هو الأقوى أى أن الذى أمرت به من الصلاة البارحة مجملا هذا تفسيره اليوم مفصلا، قال ابن العربى: نزل جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم مأمورا مكلفا بتعليم النبي لا بأصل الصلاة. و قوله فى هذا الحديث: نزل فصلى، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخ قال فيه عياض: ظاهره أن صلاته كانت بعد صلاة جبريل و لكن المنصوص فى غيره أن جبريل أم النبي صلى الله عليه وسلم فيحمل قوله: صلى فصلى على أن جبريل كان كلما فعل جزءا من الصلاة تابعه النبي صلى الله عليه وسلم بفعله. اهـ.

و بهذا جزم النووى و قال غيره الفاء بمعنى الواو. و اعترض بأنه يلزم عليه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم كان يتقدم فى بعض الأركان على جبريل على ما يقتضيه مطلق الجمع. و أوجب بمراعاة الحيثية و هى التبيين فكان لأجل ذلك يتراخى عنه، و قيل: الفاء للسببية كقوله تعالى: فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ و إنما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة بقوله: الصلاة جامعة، فيما قدمناه عن نافع بن جبير وغيره؛ لأن الأذان لم يكن شرع حينئذ.

و استدل بهذا الحديث على جواز الائتمام بمن يأتى بغيره. و يجاب عنه بما يجاب به عن قصة أبى بكر رضى الله عنه فى صلاته خلف النبي صلى الله عليه وسلم و صلاة الناس خلفه فإنه محمول على أنه كان مبلغا فقط و تحقيق وجوب الصلوات كان معلقا ببيان جبريل فلم يتحقق الوجوب إلا بعده و حديث أبى مسعود أفاد أن أصل بيان الأوقات كان بتعليم جبريل عليه السلام على الروایتين المتفتتى المعنى و إن اختلفت ألفاظهما و أصل هذا الحديث أخرجه أبو داود فى الصلاة من سننه و كذا أخرجه النسائى و ابن ماجه و بالله تعالى التوفيق و هو الهادى إلى سواء الطريق. انتهى من زاد المسلم.

الاستنتاج من قصة الإسراء و المعراج

إن قصة الإسراء و المعراج قصة حقها أن تكتب بالذهب و أن تنقش فى القلوب، كيف و هى قصة تتضمن الرحلة النبوية المحمدية فيما بين السموات و الأرض، رحلة رأى فيها نبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم من ربه عز و جل منتهى الإكرام و الإحسان، و كانت نتيجة هذه الرحلة الميمونة المباركة للمؤمنين خيرا كثيرا. لهذا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧٣

رأينا أن نتأمل فى هذه القصة الشريفة و نكتب مبحثا خاصا عما نستنتجه منها.

فنقول و بالله التوفيق:

(١) يؤخذ من شق صدره صلى الله عليه وسلم و غسل قلبه فى ليلة الإسراء و المعراج أنه لا بد للإنسان إذا أراد مقابلة الملوك و ذوى الشأن أو حضور الاجتماعات أن يتهيا و يتنظف و يلبس أحسن الثياب.

(٢) يؤخذ من غسل قلبه صلى الله عليه وسلم بماء زمزم. أنه أفضل مياه الدنيا مطلقا وكيف لا يكون كذلك وهو بجوار بيت الله الحرام، و همزة جبريل لإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

(٣) وفي شق صدره صلى الله عليه وسلم وغسله ليلئ الإسرائء والمعراج وملئه حكمة وإيماناً والتثامه بدون ألم وفي لحظة واحدة، معجزة وأى معجزة، بل فيه ثلاث معجزات: شق الصدر وغسله وملؤه بالإيمان والحكمة.

(٤) يؤخذ من إحضار البراق صبحه جبريل ليلئ الإسرائء والمعراج: أن الملوك والكبراء إذا طلبوا بعض الناس لتكريمه أن يهينوا له أسباب السفر والوصول ويرسلوا إليه من قبلهم من يدلهم ويستأنس بهم.

(٥) ويؤخذ من صلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في بيت المقدس أن نبينا محمداً مقدم عليهم وهو أفضلهم صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، وهذا يوافق الآية الكريمة في سورة آل عمران: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِضْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ، جاء في تفسير ابن كثير ما يأتي: قال على بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق؛ لأن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته؛ لأن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. انتهى.

(٦) ويؤخذ من اجتماع الأنبياء معه في الصلاة: تعرفه عليهم واثناسه بهم حال الإسرائء، ويؤخذ من رؤيته لبعضهم في كل سماء وسلامه عليهم وترحيبهم به أن هذا اجتماع خاص للاستئناس به وزيادة في تكريمه صلى الله عليه وسلم في السموات حتى لا يستوحش فإنه إذا رأى في الملاء الأعلى بعض إخوانه من النبيين من جنسه من البشر استكن واطمئن.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧٤

(٧) ويؤخذ من صلاة نبينا محمد بإخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بيت المقدس أنهم صلوا جميعاً إلى صخرة بيت المقدس وهي القبلة الأولى؛ لأن تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة كان في السنة الثانية من الهجرة، والإسرائء كان قبل الهجرة، وفي هذه الصلاة إشارة إلى ما سيفرضه الله تعالى على نبينا صلوات الله وسلامه عليه وعلى أمته من الصلوات الخمس.

(٨) ولإسرائئه صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس أولاً قبل عروجه إلى السماء جملة فوائد.

منها ما ذكرناه هنا، ومنها أنه صلى الله عليه وسلم عند وصفه بيت المقدس لقريش عند إنكارهم للإسرائء يكون أدعى لتصديقهم له لمعرفتهم بيت المقدس، أما لو بدأهم بخبر صعوده إلى السماء في بدء الحديث لاشتد إنكارهم وتكذيبهم له.

(٩) وقوله صلى الله عليه وسلم: «ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد قال: فأرسل إليه قال: نعم ففتح...» وهكذا مع كل خازن من خزنة السموات السبع: يؤخذ منه أن السموات محروسة وأن لكل منها خازناً على بابه، لا يفتحون باب السماء إلا لمن أذن له الرحمن جل جلاله ولا إله غيره، كما يؤخذ منه أن أهل كل سماء لا يختلطون بأهل سماء أخرى، وأن من عرج منهم إلى سماء أو نزل منها لا بد وأن يكون ذلك بإذن.

(١٠) ويؤخذ من قول جبريل لنبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم: (هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه) أن نبينا محمداً من نسل إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام، فقد انعقد إجماع الأمة على ذلك. ولقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا في الحديث الذي رواه مسلم (و أنا أشبه ولده به) يعني إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

(١١) ويؤخذ من سلام رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل نبي وجدته في السماء كما جاء في الحديث جملة أمور. منها:

١- أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لما صلى بالأنبياء في بيت المقدس لم يتعرف عليهم، لذلك كان جبريل يعرفه بالنبي الذي في كل سماء.

- ٢- يسن أن يتعرف الإنسان بمن يجتمع معه.
- ٣- يسن أن يسلم القادم على من يقدم عليه.
- ٤- يسن على صاحب المكان أن يرحب بالقادم و يبش في وجهه.
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧٥
- ٥- لا بد أن يصحب ضيوف الملوك و الكبراء من يدلهم على الطريق و يعرفهم بمن يستقبلونهم و يجتمعون بهم- فمصاحب ضيوف الملوك يسمى في عرف زماننا "بالشريفاتي".
- (١٢) و يؤخذ من حديث الإسراء أن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء و المعراج، و أما كيفيتها و عدد الركعات بأوقاتها فقد نزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه و سلم فعلمه كل ذلك. كما ذكرنا تفصيله في المبحث الخاص.
- (١٣) و يؤخذ من قوله صلى الله عليه و سلم «... فراجعت ربي فقال: هي خمس و هن خمسون لا يبدل القول لدى» أنه صلى الله عليه و سلم كلم ربه تعالى بلا واسطة و سمع كلامه سبحانه عز و جل.
- (١٤) و يؤخذ من الإسراء و المعراج أن رسول الله صلى الله عليه و سلم رأى ربه عز و جل فقد روى الحاكم في المستدرک عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «رأيت ربي عز و جل».
- (١٥) و يؤخذ من قوله صلى الله عليه و سلم: «ثم أدخلت الجنة» أن الجنة و النار كانتا مخلوقتين حينئذ.
- (١٦) و في وصف رسول الله صلى الله عليه و سلم بيت المقدس لقريش معجزة أخرى أيضا، ففي الصحيحين: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته و أنا أنظر إليه» رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنهما.
- (١٧) و يؤخذ منها أيضا معجزة أخرى و هي: أنه صلى الله عليه و سلم مر في طريقه للإسراء على غير بنى فلان و هي بالروحاء و قد أضلوا بعيرا لهم و هم في طلبه، و في رحالهم قدح من ماء فعطش فأخذه و شربه ثم وضعه، و مر أيضا بعير بنى فلان و فلان راكبان قلوفا أو بعيرا لهما بذى مر فنفر البعير منه صلى الله عليه و سلم فرمى بفلان فانكسرت يده، و هذه الأمور كلها أخبر بها النبي عليه الصلاة و السلام قريشا حينما سألوه:
- هل لقي في طريقه غيرهم.
- فهذه الأمور لو رآها الإنسان العادى في طريقه على دابته لما كان موضع استغراب، أما و قد رآها رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو راكب البراق الذى يضع خطوه عند أقصى طرفه، و الذى عدوها كالريح، و خطوها كالبرق، و الذى قد يكون أنه قطع المسافة بين الأرض و السماء في خطوة واحدة- فهنا موضع الاستغراب- إذ
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧٦
- كيف يتمكن رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو سائر ليلا في هذه الحالة أن يرى أحوال العير و يصفها لقريش، هذه كلها معجزات كل معجزة تلو الأخرى لتكون آيات بينات على صدقه و الله تعالى قادر على كل شيء.
- (١٨) و يؤخذ من بعض الروايات أن طريقه صلى الله عليه و سلم في رجوعه ليلة الإسراء كان من جهة التنعيم و مر الظهران. و الله تعالى أعلم بالغيب و الأسرار.
- (١٩) و يؤخذ من قصة الإسراء و المعراج معجزة أخرى " و كلها معجزات " و هي: أنه صلى الله عليه و سلم ذهب تلك الليلة إلى بيت المقدس و عرج به إلى السموات العلا بل و فوق ذلك و رأى ما رأى، في مدة و جيزة فقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: ثم رجعت إلى خديجة و ما تحولت عن جانبها.
- (٢٠) و يؤخذ من كيفية الإسراء و المعراج لبيت المقدس و السموات العلا و ما فوقها في مدة قصيرة من الليل و هو راكب البراق الذى يضع خطوه في منتهى طرفه و الذى يقطع المسافة بين السماء و الأرض في خطوة واحدة و لحظة واحدة: أن الله سبحانه و تعالى القادر

على كل شىء قد خلق في عبده ورسوله "محمد" صلى الله عليه وسلم من القوة والاستعداد ما يمكنه أن يتحمل كل ما يتعرض فيه في عروجه من الأحوال الكونية المانعة من وصول البشر إلى تلك الحدود السماوية فهو صلى الله عليه وسلم قد خرق الله له العادات و سخر له الطبيعات، فليس هو كالبشر العادى فلو كان كذلك لا يقدر على رؤية جبريل في كل مرة ولا يمكنه الاجتماع بالملائم الأعلى ليلة الإسراء والمعراج.

و انظر في زماننا هذا مع تقدم صناعة الطيران، لا- يقدر إنسان على الطيران في الهواء إلا- إلى طبقات محدودة، وذلك أيضا بعد الاستعدادات الكافية من الثياب الخاصة واستعمال الأوكسيجين والمكيفيات، وهو مع ذلك معرض للأخطار.

فأين هذا الحال من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى طويت له الأرض و اخترقت السموات السبع و رجع من عند ربه الكبير المتعال بكل خير و مزيد الإكرام. صلى الله عليه وسلم و على آله و أزواجه و أصحابه و ذريته صلاة و سلاما دائمين إلى يوم الدين.

اللهم اجعلنا من سعداء الدارين. آمين.

(٢١) و يؤخذ من الإسراء والمعراج، حكمه دقيقة و سر لطيف جليل و هو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيني رأسه الملائم الأعلى في السموات كما رأى عوالم الأرض، و أن يرى ما أعد الله له و للمؤمنين مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧٧

خطر على قلب بشر، و ليطمئن قلبه إلى ما له عند الله تعالى من المنزل السامية و المكانة الرفيعة، و ليعلم معاني الآيات القرآنية التى نزلت و تنزل عليه في مسائل السموات و الملكوت و أمور الآخرة و القيامة علم مشاهدة و يقين، و هذا الحال أبلغ و أقوى من حال الإيمان بالغيب لذلك قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام:

رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيُطْمَئِنَّ قَلْبِي.

ثم تأمل كيف تكون حال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من المعراج و قد رأى ما في السموات بل و ما فوق السموات و دخل الجنة و رأى نعيمها و هو حى لم يموت، فهل يركن إلى هذه الدنيا الفانية الخسيسة التى لا تساوى عند الله جناح بعوضة؟ كلا و الله.

لذلك كان صلى الله عليه وسلم لم يتمتع نفسه في الحاة الدنيا قط، و هو الذى مقامه في أمته أعظم من مقام الملوك لدى شعوبهم بكثير و كثير مما لا نسبة. و لقد كان زهده صلى الله عليه وسلم في الدنيا مضرب الأمثال فهو لم يشبع قط من الأكل و كان يقول: «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه» قالت عائشة رضی الله عنها: لم يمتلى جوف النبى صلى الله عليه وسلم شبعاً قط و أنه كان فى أهله لا يسألهم طعاما و لا يتشهاه إن أطعموه أكل و ما أطعموه قبل و ما سقوه شرب.

و كان ينام على الحصى حتى يؤثر فى أضلاعه و قد بكى عمر رضی الله عنه لما رأى عليه ذلك الأثر صلى الله عليه وسلم، و لم يلبس من ثياب الخز و الحرير، و كان يرى نفسه كراكب استظل فى طريقه فى شجرة فعما قليل سيرحل، نعم كان صلى الله عليه وسلم يجتهد فى عبادة ربه فيصلى حتى تتورم قدماه، و يصوم حتى يقال إنه لا- يفطر و يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، و كان يعطى من العطايا ما لا تطيب بها إلا نفس نبى مرسل، فكان أجود بالخير من الريح المرسله و هو الذى يقول: «لو كان لى مثل أحد ذهباً لسرنى أن لا تمر على ثلاث ليال و عندى منه إلا شيتا أرسده لدين».

نعم كيف يطمئن إلى هذه الدنيا الفانية نبينا "محمد" و هو رسول الله و قد دخل الجنة ليلة المعراج و رأى من نعيمها ما أسقط الدنيا من عينيه، و رأى ما رأى من إكرام الله عز و جل له ما زهده فى الخلق أجمعين. و لذلك كان ختم كلامه عند الموت: «رب اغفر لى و ألقنى بالرفيق الأعلى» اللهم صل و سلم و بارك عليه و على آله و صحبه أجمعين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧٨

(و اعلم) أنه صلى الله عليه وسلم يتجدد عليه ذكرى الإسراء و المعراج كلما قرأ الآيات التى أنزلت عليه فى ذلك، خصوصا حينما

كان يعرض القرآن على رفيقه في الإسراء والمعراج جبريل عليه السلام في كل سنة مرة، و عرضه عليه عام موته صلى الله عليه وسلم مرتين.

فما أحلى هذه الذكرى المباركة الشريفة، ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار و أدخلنا الجنة مع الأبرار بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين.

(٢٢) و يؤخذ مما تقدم أن بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قال إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ربه ليلة المعراج و تبعهم بعض العلماء، و بعض الصحابة رضى الله عنهم قال رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه ليلة المعراج، و تبعهم بعض العلماء. فقال فى هذا الشيخ أحمد المقرئ المصرى:

و قد رأى خير الورى الديتاليلة أسرى به عيانا

فى المذهب المصحح المشهور و هو الذى ينمى إلى الجمهور

فستتج من هذا أن من أثبت رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لا- حرج عليه، و من نفاها لا- حرج عليه؛ لأن كلا- من الفريقين يتبع قول بعض الصحابة.

و أما كيفية الرؤيا فهذا لا سبيل إلى الخوض فيه و الله تعالى أعلم، و سيأتى بعد هذا المبحث الكلام على الرؤية مفصلا من كتاب الشفاء للقاضى عياض رحمه الله تعالى.

(٢٣) و يؤخذ من وجود بعض الأنبياء عليهم الصلاة و السلام فى السموات السبع معان سامية لم نعرفها، و إنما فهمنا أن وجود أبينا آدم عليه الصلاة و السلام فى السماء الأولى؛ لأنه أول الأنبياء و أبو البشر فكان جميلا أن يكون هو أول من استقبل نبينا "محمدا" صلى الله عليه وسلم فى السماء الأولى.

أما وجود خليل الله عليه الصلاة و السلام فى السماء السابعة، فمعناه أنه أقرب الأنبياء إلى الله عز شأنه و جل جلاله، كيف و هو خليله و صفيه لكن مع ذلك له مقام معلوم لا- يتعداه، و معنى مرور نبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم و ذهابه بعد ذلك إلى سدره المنتهى، أن رتبة نبينا "محمد" فوق رتبة خليل الله إبراهيم، و مقامه أعلا من مقامه عند الله عز و جل الذى لا يسأل عما يفعل و هم يسألون.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٧٩

و أما وجود كلیم الله موسى عليه الصلاة و السلام فى السماء السادسة فمعناه أن فضل كلیم الله موسى دون فضل خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة و السلام، و ليكون الخليل و الكلیم فى سماءين متجاورين لا يفصل بينهما نبى آخر، لأن كلا منهما اختصه الله بشيء لم يختص به غيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، و أنه قد ذكر كلاهما فى آية واحدة فى قوله عز شأنه: إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى، ثم إن وجود موسى فى السماء السادسة فيه حكمة أخرى، و هى إذا رجع نبينا "محمد" عليهما الصلاة و السلام من المناجاة و مرّ بموسى و هذا طلب منه أن يراجع ربه فى تخفيف الصلوات عن أمته، كانت المراجعة من السماء السادسة أقرب مسافة من السموات التى بعده.

(٢٤) و يؤخذ مما فى صحيح مسلم من أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد صعوده إلى السماء السابعة رأى فيها إبراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور، يؤخذ من هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم فى عروجه إلى السماء وصل فيها إلى ما يقابل مكة المشرفة؛ لأن البيت المعمور كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه حيال الكعبة بحيث لو سقط سقط عليها.

و البيت المعمور هو بيت فى السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة، كما أخرج ذلك ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم، و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن أنس مرفوعا.

نقول: إن ما ذكرناه هنا عن بعض الأنبياء عليهم الصلاة و السلام دليل على تفضيل بعضهم على بعض- و هو كذلك- فقد قال الله

تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَقَالَ عز شأنه: وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ.

والحقيقة أن كل نبي له مقام معلوم و منقبة مخصوصة و لهذا فضلوا أولى العزم منهم على غيرهم.

و نحن إذا فضلنا بعض الأنبياء يجب أن يكون التفضيل بالاعتدال و بمقدار ما ورد في الكتاب و السنة، فلا نغلو فيهم و لا نتعدى الحدود في تفضيلهم، حتى لا نقع في محذور، و من هنا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لا تطروني كما أطرى عيسى بن مريم و قولوا عبد الله و رسوله» رواه البخاري في صحيحه. و قال عليه الصلاة و السلام: «لا تخيروا بين الأنبياء» رواه البخاري و مسلم. و قال صلى الله عليه و سلم: «لا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨٠

تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور» رواه البخاري و مسلم أيضا.

و قد جاء هذا الحديث اللطيف بروايات أخرى في الصحيحين و كلها بمعنى واحد و سبب هذا الحديث كما في الصحيحين و اللفظ للبخاري عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس جاء يهودى فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهى رجل من أصحابك، فقال من؟ قال: رجل من الأنصار، قال: ادعوه، فقال: أضربت، فقال: سمعته في السوق يحلف و الذى اصطفى موسى على البشر، قلت: أى خبيث على محمد صلى الله تعالى عليه و سلم فأخذتني غضبة ضربت وجهه، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: لا تخيروني من بين الأنبياء...».

فتفضيل بعض الأنبياء على بعض بما جاء في الكتاب و السنة لا بأس به و لا حرج، و المحذور إنما هو تفضيل بعضهم بما يؤدي إلى نقص بعضهم، هذا هو الممنوع بل هذا قد يؤدي إلى الكفر و العياذ بالله تعالى.

و إلى هذا يشير العلامة المختار بن بون الشنقيطى بقوله:

مثل النصارى أفرطوا فى عيسى فيما ادعوا و فرطوا فى موسى

محمد الحائز الارتفاع أفضل خلق الله بالإجماع

و عكسهم معاشر اليهود و فرط الجميع فى المحمود

عليه أركى صلوات البارى ما كور الليل على النهار

و لما نزل قول الله تعالى فى حق خليله إبراهيم عليه الصلاة و السلام: أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَتْ طَائِفَةٌ: شك إبراهيم عليه السلام و لم يشك نبينا، فقال صلى الله عليه و سلم: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحبى الموتى قال: أو لم تؤمن، قال: بلى و لكن ليطمئن قلبى، و يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، و لو لبث فى السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعى» رواه البخاري و مسلم عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه.

قوله: «لأجبت الداعى» أى داعى الملك. و مثل هذه الأحاديث الصحيحة الصادرة من رسول الله صلى الله عليه و سلم تدل على تواضعه صلى الله عليه و سلم و مدحه لهم، فهو لا يصرح أنه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨١

أفضل من إخوانه الأنبياء و أنه هو كذلك فى حقيقة الأمر، و فضله عليهم واضح كالشمس و يؤخذ ذلك من الكتب و السنة صريحا و تلويحا، فهو سيد ولد آدم بصريح الأحاديث، قد أجمعت الأمة المحمدية التى لا تجتمع على ضلالة على ذلك.

و انعقد الإجماع أن المصطفى: أفضل خلق الله و الخلف انتفى و لولا خوف التطويل لبسطنا الأدلة على ذلك بالتفصيل التام.

اللهم صل و سلم على سيدنا "محمد" عبدك و نبيك و رسولك و على آله الطيبين الطاهرين و صحابته الأتقياء أجمعين.

(٢٥) و يؤخذ من قصة الإسراء والمعراج: أنها تدل دلالة صريحة واضحة أن الله سبحانه وتعالى اختص ذلك بعبد ورسوله "محمد" دون غيره من الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، ليرى ملكوت السموات والأرض، وهذا دليل على ما لبينا صلى الله عليه وسلم من المنزلة العظمى والمقام المحمود عند ربه الكبير المتعال ذى الجلال والإكرام الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. فيزداد رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك شكراً ويكون من الموقنين ظاهراً وباطناً حساً ومعنى، فرؤية نبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم فى الإسراء والمعراج ملكوت السموات والأرض بالمشاهدة الحسية يعنى بعينى رأسه، غير رؤية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ذلك كما فى قوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ.

ومن أراد بيان الأدلة الشرعية على تفضيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء فليراجع شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم" عند حديث: «نحن أحق بالشك من إبراهيم... الخ»، بأواخر الجزء الرابع، فنحن مع يقيننا بهذا التفضيل لنبينا "محمد" نؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين ما علمناهم وما لم نعلمهم، ونحبهم ونحترمهم ونصلى ونسلم عليهم، من أبينا "آدم" أول الأنبياء إلى نبينا "محمد" خاتم الأنبياء.

ولكن لا يعلم هذا الفارق إلا الله سبحانه وتعالى الذى يعلم السر وأخفى.

هذا بعض ما استنتجناه من قصة الإسراء والمعراج بحسب فهمنا القليل وإدراكنا القاصر، فإذا أمعن فيها ذوى الفكر والنظر والبصيرة والبصر، لظهر له من الأمور الدقيقة أكثر وأكثر، فقصة الإسراء والمعراج تشمل كلها على عظيم المعجزات كل معجزة أكبر من أختها، وهى من أولها إلى آخرها صريحة بمزيد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨٢

إكرام الله تعالى وإحسانه لعبده ورسوله خاتم الأنبياء "محمد" صلى الله عليه وسلم بحيث بلغ الإكرام منتهاه، وهى بعد قوله تعالى: ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى مَقَامَ أَسْمَى مِنْ هَذَا.

اللهم صل وسلم على عبدك ونيبك "محمد" المختار، وعلى آله وذريته المباركين الأطهار، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وصحابته الأجلاء البررة المتقين.

اللهم إنا نسألك وأنت خير المسئولين، ونطلب منك وأنت أكرم الأكرمين أن تعرج بنا إلى العلا دواما بفضلك ورحمتك وإن لم نسهر الليالى بالعمل، وأن تملأ قلوبنا بالإيمان والحكمة، وأن تنور بصائرنا وتشرح صدورنا، وأن ترزقنا العفو والعافية والصحة والسلامة، وأن ترزقنا من برك وإحسانك رزقا حلالا واسعا عظيما هنيئا بدون عسيان ولا طغيان، وأن تثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وأن تميّتنا على الإيمان الكامل على طهارة ونظافة وفى أفضل يوم وأشرف ساعة وأبرك بقعة بدون تعب ولا مرض ولا نصب، وأن تدخلنا جنتك المفضلة بسلام آمنين، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وأن تجعلنا من الذين لا-خوف عليهم ولا-هم يحزنون، سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الكلام على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل

لما اختلفوا هل رأى نبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم ربه سبحانه وتعالى ليلة المعراج أم لا، رأينا من اللازم أن نشجع الكلام عن هذا الموضوع، ولا بد أن نقل من أوثق الكتب المعتمدة فنقلنا ما يأتى من كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" صلى الله عليه وسلم، تأليف العلامة القاضى عياض وهو من علماء القرن السادس الهجرى. وإليك ما جاء فيه حرفيا وهو:

(فصل) وأما رؤيته صلى الله عليه وسلم لربه عز وجل فاختلف السلف فيها، فأنكرته عائشة رضى الله عنها. حدثنا أبو الحسين سراج

بن عبد الملك الحافظ بقراءته عليه، قال: حدثني أبي و أبو عبد الله بن عتاب الفقيه قالاً: حدثنا القاضي يونس بن مغيث، حدثنا أبو الفضل الصقلي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت عن أبيه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨٣

و جده، قالاً: حدثنا عبد الله بن علي، حدثنا محمود بن آدم، حدثنا وكيع عن ابن أبي خالد عن عامر عن مسروق أنه قال لعائشة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، ثلاث من حدثك بهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ الْآيَةُ. وذكر الحديث.

وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها وهو المشهور عن ابن مسعود، ومثله عن أبي هريرة أنه قال: إنما رأى جبريل واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه رآه بعينه، وروى عطاء أنه رآه بقلبه، وعن أبي العالية عنه: رآه بفؤاده مرتين، وذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم. والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه، روى ذلك عنه من طرق، وقال: إن الله تعالى اختص موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلعة، ومحمداً بالرؤية، وحجته قوله تعالى: مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُؤْمَرُونَ عَلَىٰ مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى.

قال الماوردي: قيل إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، رآه محمد مرتين وكلمه موسى مرتين.

وحكى أبو الفتح الرازي وأبو الليث السمرقندي الحكاية عن كعب، وروى عبد الله بن الحارث قال: اجتمع ابن عباس وكعب، فقال ابن عباس: أما نحن بنو هاشم فنقول: إن محمداً قد رأى ربه مرتين، فكبر كعب حتى جاوبته الجبال، وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلمه موسى و رآه محمد بقلبه، وروى شريك عن أبي ذر رضي الله عنه في تفسير الآية قال: رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه.

وحكى السمرقندي عن محمد بن كعب القرظي و ربيع بن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: هل رأيت ربك؟ قال: رأيت بفؤادي ولم أره بعيني، وروى مالك بن يخامر عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: رأيت ربي وذكر كلمته، فقال: يا محمد فيم يختصم الملاء الأعلى، الحديث.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨٤

وحكى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه، وحكاها أبو عمر الطلمنكي عن عكرمة، وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم؛ ج ١-١؛ ص ٣٨٤

حكى ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة هل رأى محمد ربه؟ فقال:

نعم، وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس بعينه:

رآه رآه حتى انقطع نفسه، يعنى نفس أحمد. وقال أبو عمر، قال أحمد بن حنبل:

رآه بقلبه وجبن عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار. وقال سعيد بن جبیر: لا أقول رآه ولا لم يره.

وقد اختلف في تأويل الآية عن ابن عباس وعكرمة والحسن وابن مسعود، فحكى عن ابن عباس وعكرمة رآه بقلبه، وعن الحسن وابن مسعود رأى جبريل، وحكى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال: رآه، وعن ابن عطاء في قوله تعالى: أَلَمْ نُشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، قال: شرح صدره للرؤية، وشرح صدر موسى للكلام.

وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه وجماعة من أصحابه: أنه رأى الله تعالى يبصره وعيني رأسه، وقال: كل آية أوتيتها نبي من الأنبياء عليهم السلام، فقد أوتى مثلها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وخص من بينهم بتفضيل الرؤية. ووقف

بعض مشايخنا في هذا وقال: ليس عليه دليل واضح، ولكنه جائز أن يكون.

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله: والحق الذي لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلا وليس في العقل ما يحيل، والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى عليه السلام لها، ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جازها غير مستحيل ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا من علمه الله فقال له الله تعالى: لَنْ تَرَانِي أَى لَنْ تَطِيقَ وَلَا تَحْتَمِلَ رُؤْيِي، ثم ضرب له مثلا مما هو أقوى من بنية موسى وأثبت وهو الجبل. وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا بل فيه جوازها على الجملة، وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ لِاخْتِلَافِ التَّأْوِيلَاتِ فِي الْآيَةِ، وإذ ليس يقتضى قول من قال في الدنيا الاستحالة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨٥

وقد استدل بعضهم بهذه الآية نفسها على جواز الرؤية وعدم استحالتها على الجملة، وقد قيل لا تدركه أبصار الكفار، وقيل لا تدركه الأبصار لا تحيط به، وهو قول ابن عباس، وقد قيل لا تدركه الأبصار وإنما يدركه المبصرون. وكل هذه التأويلات لا تقتضى منع الرؤية ولا استحالتها.

وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى: لَنْ تَرَانِي وقوله: تَبَّتْ إِلَيْكَ لما قدمناه ولأنها ليست على العموم، ولأن من قال أن معناها لن ترانى في الدنيا إنما هو تأويل، وأيضا فليس فيه نص الامتناع، وإنما جاءت في حق موسى.

وحيث تتطرق التأويلات وتتسلط الاحتمالات فليس للقطع إليه سبيل. وقوله تعالى: تَبَّتْ إِلَيْكَ أَى من سؤالي ما لم تقدره لى. وقد قال أبو بكر الهذلي في قوله: لَنْ تَرَانِي أَى ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إلى في الدنيا وأنه من نظر إلى مات.

وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه: أن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنع لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة عرضا للآفات والفناء فلم تكن لهم قوة على الرؤية، فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيبا آخر ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم قوا بها على الرؤية.

وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس رحمه الله، قال: لم ير في الدنيا؛ لأنه باق ولا يرى الباقي بالفانى، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارا باقية رؤى الباقي بالباقي.

وهذا كلام حسن مليح وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه. وقد تقدم ما ذكر في قوة بصر موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ونفذ إدراكهما بقوة إلهية منحها لإدراك ما أدركاه ورؤية ما رأياه، والله أعلم.

وقد ذكر القاضي أبو بكر في أثناء أجوبته عن الآيتين ما معناه: أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خرّ صاعقا، وأن الجبل رأى ربه فصار دكا بإدراك خلقه الله له، واستنبت ذلك والله أعلم من قوله: وَلَكِنْ أَنْظَرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَيْقَرَ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي، ثم قال: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ هُوَ ظُهُورُهُ لَهُ حَتَّى رَأَاهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ. وقال جعفر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨٦

بن محمد: شغله بالجبل حتى تجلى و لولا ذلك لمات صاعقا بلا إفاقه، وقوله هذا يدل على أن موسى رآه.

وقد وقع لبعض المفسرين في الجبل أنه رآه ورؤية الجبل له استدل من قال برؤية محمد نبينا له إذ جعله دليلا على الجواز ولا مرية في الجواز إذ ليس في الآيات نص في المنع.

وأما وجوبه لنبينا صلى الله عليه وسلم، والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع أيضا ولا نص، إذ المعول فيه على آيتي النجم، والتنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن، ولا أثر قاطع متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده لم يسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيجب العمل باعتقاد مضمونه، ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية، وحديث معاذ محتمل

للتأويل و هو مضطرب الإسناد و المتن، و حديث أبي ذر الآخر مختلف محتمل مشكل، فروى: نور أنى أراه.

و حكى بعض شيوخنا أنه روى: نورانى أراه، و فى حديثه الآخر سألته فقال:

رأيت نورا، و ليس يمكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية، فإن كان الصحيح رأيت نورا، فهو قد أخبر أنه لم ير الله تعالى، و إنما رأى نورا منعه و حجه عن رؤية الله تعالى، و إلى هذا يرجع قوله: نور أنى أراه، أى كيف أراه مع حجاب النور المغشى للبصر، و هذا مثل ما فى الحديث الآخر حجاب النور، و فى الحديث الآخر: لم أره بعينى و لكن رأيت بقلبي مرتين، و تلا: ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، و الله تعالى قادر على خلق الإدراك الذى فى البصر فى القلب أو كيف شاء لا إله غيره، فإن ورد حديث نص بين فى الباب اعتقد و وجب المصير إليه، إذ لا استحالة فيه و لا مانع قطعى رده، و الله الموفق للصواب.

ثم قال القاضى عياض بعد ذلك ما يأتى:

و كلام الله تعالى لمحمد صلى الله عليه و سلم و من اختصه من أنبيائه جائز، غير ممتنع عقلا، و لا ورد فى الشرع قاطع يمنع، فإن صح فى ذلك خبر اعتمد عليه، و كلامه تعالى لموسى كائن حق مقطوع به، نص على ذلك فى الكتاب، و أكده بالمصدر دلالة على الحقيقة و رفع مكانه على ما ورد فى الحديث فى السماء السابعة بسبب كلامه، و رفع محمداً فوق هذا كله، حتى بلغ مستوى سمع فيه صريف الأقدام، فكيف يستحيل فى حق هذا أو يبعد سماع الكلام، فسبحان من خص من شاء بما شاء و جعل بعضهم فوق بعض درجات.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨٧

خلاصة ما ورد فى كتاب الشفاء من الأقوال فى الرؤية

تقدم تفصيل الكلام على رؤية نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم ربه عز و جل ليلة المعراج.

و الآن نحب أن نلخص الأقوال الواردة فى ذلك مما ذكره القاضى عياض رحمه الله تعالى فى كتابه "الشفاء" و هو فيما يأتى:

(١) أن عائشة رضى الله تعالى عنها قد أنكرت الرؤية. و قال بعضهم بقولها.

(٢) و أن ابن عباس رضى الله عنه أثبت الرؤية و قال: رآه بعينه.

(٣) و أن أبا ذر رضى الله عنه قال: رأى النبى صلى الله عليه و سلم ربه.

(٤) و أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه.

(٥) و أن أبا الحسن على بن إسماعيل الأشعري رضى الله عنه و جماعة من أصحابه أنه رأى الله تعالى ببصره و عينى رأسه.

(٦) و أن أحمد بن حنبل تبع ابن عباس و قال بحديثه: بعينه رآه رآه، و فى رواية عنه عن أحمد بن حنبل قال: رآه بقلبه.

(٧) و أن أبا هريرة و ابن مسعود قالوا إنما رأى جبريل، و روى عن أبى هريرة رأى محمد ربه.

(٨) و أن سعيد بن جبير قال: لا أقول رآه و لا لم يره.

هذه خلاصة الأقوال الواردة فى كتاب الشفاء، و لا حرج فى اتباع أى قول من هذه الأقوال و الحق يقال: أن رؤية النبى صلى الله عليه و سلم فى الدنيا جائزة عقلا، و ليس هناك نص فى المنع، و أما الوجوب و القول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع أيضاً و لا نص.

اللهم اغفر لنا و ارحمنا و اعف عنا و طهرنا من المعاصى و الذنوب، حتى نلقى بالنظر إلى وجهك الكريم يوم القيامة، و الاجتماع بنبيك الكريم محمد صلى الله عليه و سلم بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين. آمين.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨٨

لما سمعت قريش مبايعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم يدافعون عنه ويمنعونه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، ساءهم ذلك جدا. فاجتمع عظاماؤهم ورؤساؤهم في دار الندوة، للتشاور فيما بينهم ووضع خطة محكمة توقف النبي صلى الله عليه وسلم عن الدعوة إلى الإسلام، وبعد أن أدلى كل منهم رأيه أجمعوا على قتله بكيفية لا يقدر بها بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم بل يرضون بالديء، وذلك بأن يأتي من كل قبيلة شاب قوى شجاع ثم يجتمعوا أمام داره، فإذا خرج محمد صلى الله عليه وسلم ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل.

فعندئذ أعلم الله عز وجل نبيه الكريم بما دبره له أعداؤه، وأمره بالهجرة إلى المدينة المنورة، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه في وقت الظهيرة، وأخبره بأن الله تعالى قد أذن له بالهجرة. فسأله أبو بكر الصحبة، فقال: نعم. ثم اتفقا على المقابلة ليلا خارج مكة، وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد شباب قريش لتنفيذ الخطة التي رسموها لقتله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا حول باب داره ورسول الله داخلها، فلما أراد الخروج أمر ابن عمه على بن أبي طالب أن يبيت مكانه على فراشه، وقال له: إنهم لن يضروك، فألقى الله على أعدائه النوم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم من الدار، ووضع على رأس كل واحد منه التراب وهو يقرأ قوله تعالى: وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ولم يزل عليه الصلاة والسلام سائر حتى تقابل مع أبي بكر الصديق فسارا معا حتى بلغا غار ثور فاختميا فيه.

أما المشركون فحينما استيقظوا وجدوا التراب على رؤوسهم علموا أن محمدا قد خرج من الدار، فدخلوها فوجدوا عليا على الفراش فلم يتعرضوا له، ثم خرجوا يطلبونه صلى الله عليه وسلم في كل جهات مكة وجعلوا الجوائز لمن يأتي به أو يدلهم عليه، ولقد وصلوا إلى الغار الذي اختفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر بجبل ثور، فحين رآهم أبو بكر اشتد خوفه على النبي صلى الله عليه وسلم وبكى وقال له: إن قتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة. فحينئذ قال له صلى الله عليه وسلم: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَعْمَى اللَّهُ أَبْصَارَ الْمُشْرِكِينَ فلم يروهما في ذلك الغار وإلى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٨٩

هذا تشير الآية الكريمة: فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا. أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشر سنة يوحى إليه ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين.

وهنا يحلو للمؤمن أن يقف على مسألة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وحديث الغار مفصلا، لذلك نحب أن نسترسل في الكلام ونقل ما ورد عن ذلك من الكتب المعتمدة في الحديث والتاريخ، فنقول وبالله تعالى التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم:

قال شيخنا المحدث الشهير محمد حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى فى كتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم" فى الجزء الخامس عند حديث:

«يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ما نصه:

وسبب هذا الحديث كما فى الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن فى الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه. فقال: يا أبا بكر وما ظنك باثنين الله ثالثهما. فقوله عليه الصلاة والسلام: ما ظنك باثنين الله ثالثهما جواب لأبى بكر رضى الله تعالى عنه. وبيان أنه جواب أن لازم الحالة التى قال فيها أبو بكر رضى الله عنه: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه الخ الخوف، ولازم قوله صلى الله عليه وسلم هذا أن لا خوف.

قال القرطبي: والحديث ظاهر فى قوة توكله صلى الله عليه وسلم وعظم منزلة أبى بكر رضى الله عنه بهذا القول. والغار المذكور فى القرآن وفى قول الصديق ونحن فى الغار هو كما قاله السهيلي وغيره غار بجبل ثور أحد جبال مكة شرفها الله.

وقد زرته وبت فيه بعض الليالي تبركا بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم على عادة السلف الصالح؛ كابن عمر رضی الله عنهما، وقرأت فيه تفسير قوله تعالى: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** الخ الآية. وحديث الهجرة من صحيح البخارى بطوله و سآذكره هنا للمناسبة عن قريب إن شاء الله تعالى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٩٠

وكان من حديث الغار كما قاله عياض وغيره أن المشركين اجتمعوا لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيتوه، فأمر عليا أن يرقد على فراشه، وقال: **إنهم لن يضروك.**

فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم على الباب ولم يروه، ووضع على رأس كل واحد التراب، وانصرف عنهم إلى غار ثور فاختموا فيه. وأخبروا أنه قد خرج عليهم ووضع التراب على رؤوسهم فمدوا أيديهم إلى رؤوسهم فوجدوا التراب، فدخلوا الدار فوجدوا عليا على الفراش فلم يتعرضوا له، ثم خرجوا من كل وجه يطلبون النبي صلى الله عليه وسلم ويقتفون أثره بقائف معهم إلى أن وصلوا الغار، فوجدوا العنكبوت قد نسجت عليه. وما أحلى قول بعضهم في هذا المعنى:

ودود القز إن نسجت حريرا يحمل لبسه في كل شيء

فإن العنكبوت أجل منها بما نسجت على غار النبي

(قال الأبي) قال السهيلي: ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار تقدم أبو بكر رضی الله عنه في الدخول ليقية بنفسه، ورأى فيه حجرا فألقمه عقبه لثلا يخرج منه ما يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ثابت في الدلائل: ولما دخلاه أنبت الله سبحانه وتعالى علي بابة الرءاء بالمد، وهي شجرة من غلاة الشجر تكون مثل قامة الإنسان لها خيطان وزهر أبيض يحشى به المخاد؛ كالريش في خفته ولينه. وفي سند البزار أن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار وأرسل حمامتين وحشيتين فعششتا على فم الغار، وأن ذلك مما صد المشركين عنه، وأن حمام مكة من نسل تينك الحمامتين، وأن قريشا لما انتهى بهم القائف إلى فم الغار وجدوا ما ذكر على فم الغار، فحين رآهم أبو بكر رضی الله عنه اشتد خوفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: **إن قتلت فإنما أنا رجل، وإن قتلت أنت هلكت الأمة.** فحينئذ قال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: لا تحزن إن الله معنا أى بالحفظ والكلاءة ه. وقولى واللفظ له أى لمسلم.

وأما البخارى فلفظه في باب مناقب المهاجرين وفضلهم: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما. ولفظه من كتاب التفسير في باب قوله تعالى: **ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا.** ما ظنك باثنين الله ثالثهما. ولفظه في الهجرة: اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما. فهذا لفظ البخارى في رواياته الثلاث وفي قوله تعالى: **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ مِنْ أَنْكَرَ صَاحِبَهُ أَبِي بَكْرٍ** رضی الله عنه كفر لتكذيبه القرآن (فإن قلت): لا دلالة في

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٩١

لفظ لصاحبه على خصوص أبي بكر (أجيب): بأن الإجماع منعقد على أنه أبو بكر رضی الله عنه.

أما حديث الهجرة فيناسب أن أذكر قبله ما أخرجه البخارى عن ابن عباس رضی الله عنهما قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين.

وحديث الهجرة الطويل هو ما أخرجه البخارى بلفظ حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة رضی الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشية. فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد لفيه ابن الدغنة، وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم وتحمل الكل، و

تقرى الضيف، و تعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع و اعبد ربك ببلدك.

فرجع و ارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله و لا يخرج. أخرجون رجلا يكسب للمعدوم و يصل الرحم و يحمل الكل و يقرى الضيف و يعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، و قالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها و ليقراً ما شاء الله، و لا يؤذينا بذلك، و لا يستعلن به فإننا نخشى أن يفتن نساءنا و أبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر. فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره و لا يستعلن بصلاته، و لا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، و كان يصلى فيه و يقرأ القرآن فينقذ عليه نساء المشركين و أبناءهم و هم يعجبون منه و ينظرون إليه. و كان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، و أفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرتنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة و القراءة فيه. و إنا قد خشينا أن يفتن نساءنا و أبناءنا، فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 392

و إن أبا إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فإننا قد كرهنا أن نخفرك و لسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، و إما أن ترجع إلى ذمتي، فإنني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك و أرضي بجوار الله عز و جل. و النبي صلى الله عليه و سلم يومئذ بمكة. فقال النبي صلى الله عليه و سلم للمسلمين: إني أريت دار هجرتكم ذات نخل، بين لابتين، و هما الحرثان. فهاجر من هاجر قبل المدينة، و رجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة. و تجهز أبو بكر قبل المدينة. فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: على رسلك، فإنني أرجو أن يؤذن لي. فقال أبو بكر: و هل ترجو ذلك- بأبي أنت و أمي- قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه و سلم ليصحبه، و علف راحلتين كانتا عنده ورق السمور و هو الخبط أربعة أشهر.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحو الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فدى له أبي و أمي، و الله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله صلى الله عليه و سلم فاستأذن، فأذن له، فدخل فقال النبي صلى الله عليه و سلم لأبي بكر: اخرج من عندك. فقال: أبو بكر: إنما هم أهلك- بأبي أنت يا رسول الله- قال: فإنني قد أذن لي في الخروج. فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: نعم. قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله أحد راحلتى هاتين. قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: بالثمن. قالت عائشة:

فجهزناهما أحسن الجهاز وضعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق، قالت: ثم لحق رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر و هو غلام شاب ثقف لحن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا- دعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. و يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيربحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل و هو لبن منحتهما و رصيفتهما، حتى ينقع بها عامر بن فهيرة بفلس.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 393

يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. و استأجر رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر رجلاً من بنى الدليل، و هو من بنى عبد بن عدى هاديا خريتا،- و الخريت الماهر بالهداية- قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي و هو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعنا إليه راحلتيهما و وعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، و انطلق معهما عامر بن فهيرة و الدليل فأخذ

بهم طريق الساحل.

فإن قيل: فما حكمة ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبل ثور والاختفاء في غاره عند هجرته إلى المدينة المنورة؟ نقول: إن ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبل ثور للاختفاء في غاره، إنما هو بتوجيه من ربه عز وجل، إن هذا الجبل يقع في أسفل مكة وبعده عن الكعبة بنحو ثلاث كيلو مترات، وهو جبل لا يقع على طريق المسافر إلى جدة أو الطائف، وإنما جبل بين جبال مكة لا يصلح أن يلجأ إليه أحد. وربما كان اختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لتضليل كفار قريش عن اقتفاء أثره، فإن الإنسان إذا هرب من بلدة إلى أخرى يسلك جادة الطريق، وفي ذلك العصر الطريق إلى هذا الجبل وعر، صعب، مليئاً بأشجار الشوك والأحجار، بخلافها في زماننا الحاضر فإنها نظيفة معبدة بالإسفلت تسير فيها السيارات، ومع ذلك فقد بحث عنه صلى الله عليه وسلم كفار قريش في كل الجهات، حتى توصلوا إلى هذا الجبل ووقفوا على باب الغار، ولكن الله تبارك وتعالى حجب عنه أعينهم معجزة له صلى الله عليه وسلم.

فجبل ثور وغاره مبارك لاختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر رضى الله تعالى عنه فيه، بل مكة كلها مقدسة مباركة، منذ أن اكتشفها خليل الله إبراهيم وأسكن فيها ابنه إسماعيل وأمه هاجر عليهم الصلاة والسلام.

ترجمة أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها

جاء في الجزء السادس من شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم" عن ترجمة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما عند حديث: «لا توعى فيوعى الله عليك، ارضخى ما استطعت». قاله عليه الصلاة والسلام لذات النطاقين. رواه البخارى ومسلم عن أسماء المذكورة رضى الله عنها.

فبعد أن شرح المؤلف شيخنا رحمه الله تعالى الحديث المذكور قال عن ترجمة أسماء رضى الله تعالى عنها ما يأتي:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٩٤

وأما راوى الحديث هنا: فأسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما، وأما قتلته أو قتيله بنت عبد العزى، قرشية من بنى عامر ابن لؤى، وقد أسلمت أسماء قديماً بمكة. قال ابن إسحاق: بعد سبعة عشر نفساً، وتزوجها الزبير بن العوام، وهاجرت وهي حامل منه بولده عبد الله فوضعت بقاء، وهو أول مولود ولد للمهاجرين، وعاشت أسماء إلى أن ولي ابنها الخلافة، ثم إلى أن قتل ومات بعده بقليل على ما سيأتى.

وكانت تلقب بذات النطاقين. قال أبو عمر: سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات النطاقين؛ لأنها هيأت له لما أراد الهجرة سفره، فاحتاجت إلى ما تشدها به، فشقت خمارها نصفين فشدت بنصفه السفره وانتطقت النصف الثانى، فسامها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات النطاقين. قال: هكذا ذكر ابن إسحاق وغيره.

قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة: وأصل القصة فى صحيح مسلم دون التصريح برفع ذلك إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أسند ذلك أبو عمر من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب قال: قالت أسماء للحجاج: كيف تعيره بذات النطاقين؟ تعنى ابنها، أجل قد كان لى نطاق أعطى به طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم من النمل، و نطاق لا بد للنساء منه، قال أبو عمر لما بلغ ابن الزبير أن الحجاج يعيره بابن ذات النطاقين أنشد قول الهذلى متمثلاً:

وعيرها الواشون أنى أحبهاو تلك شكاء نازح عنك عارها

فإن اعتذر منها فإنى مكذب وإن تعتذر يردد عليك اعتذارها

وقال ابن سعد: أخبرنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه وفاطمة بنت المنذر، عن أسماء قالت: صنعت سفره للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فى بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، فلم نجد لسفرتة ولا لسقائه من تربطهما به، فقلت لأبى بكر: ما أجد

إلا نطاق، قال: شقيه باثنين، فاربطى بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة. و سنده صحيح.

وبهذه السند عن عروة عن أسماء قالت: تزوجني الزبير و ما له في الأرض مال و لا مملوك و لا شيء غير فرسه، قالت: فكنت أعلف فرسه و أكفيه مؤنته و أسومه و أدق النوى لناضحته، و كنت أنقل النوى من أرض الزبير الحديث، و فيه حتى أرسل إلى أبو بكر بعد ذلك خادما فكفتني سياسة الفرس. قال: و قال الزبير بن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٩٥

بكار في هذه القصة قال لها رسول الله صلى الله عليه و سلم: أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة، فقيل لها "ذات النطاقين." و قد روت أسماء عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عدة أحاديث و هي في الصحيحين و السنن. قاله الحافظ ابن حجر في الإصابة. و قال الخزرجي في الخلاصة: لها ستة و خمسون حديثا، اتفق البخاري و مسلم على أربعة عشرة منها، و انفرد البخاري بأربعة، و مسلم بمثلها، و روى عنها ابنها عبد الله و عروة، و أحفادها عباد بن عبد الله، و عبد الله بن عروة، و فاطمة بنت المنذر بن الزبير، و عباد بن حمزة بن عبد الله ابن الزبير، و مولاها عبد الله بن كيسان، و ابن عباس، و صفية بنت شيبة، و جماعة. قالت فاطمة بنت المنذر: كانت أسماء تمرض المرضة فتعتق كل مملوك لها، و أخرج ابن السكن من طريق أبي المحيية يحيى ابن يعلى التميمي عن أبيه، قال:

دخلت مكة بعد أن قتل ابن الزبير فرأيت مصلوبا، و رأيت أمه أسماء عجوزا طواله مكفوفة، فدخلت حتى وقفت على الحجاج، فقالت: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ قال "المنافق!" قالت: لا و الله ما كان منافقا، و قد كان صواما قواما.

قال: اذهبي، فإنك عجوز قد خرفت، فقالت: لا- و الله، ما خرفت، سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: يخرج من ثقيف كذاب و مبير، فأما الكذاب فقد رأيناه، و أما المبير فأنت هو، فقال الحجاج: منه المنافقون.

و أخرج ابن سعد بسند حسن عن ابن أبي مليكة: كانت تصدع فتضع يدها على رأسها و تقول: بذنبي و ما يغفر الله أكثر.

و قال هشام بن عروة عن أبيه: بلغت أسماء مائة سنة لم تسقط لها سن و لم ينكر لها عقل.

و قال أبو نعيم الأصبهاني: ولدت قبل الهجرة بسبعة و عشرين سنة، و عاشت إلى أوائل سنة أربع و عشرين، و اختلف في مكثها بعد ابنها عبد الله، فقيل عاشت بعده عشر ليال، و قيل عشرين يوما، و قيل بضعا و عشرين يوما، حتى أتى جواب عبد الملك بإنزال ابنها عن الخشبة و ماتت و قد بلغت مائة سنة، قال ابن إسحاق:

توفيت بمكة سنة ثلاث و سبعين. قال الذهبي: و هي آخر المهاجرات وفاة. و بالله تعالى التوفيق و هو الهادي إلى سواء الطريق. انتهى من الكتاب المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٩٦

عود إلى هجرة النبي صلى الله عليه و سلم

قال ابن شهاب: و أخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي و هو ابن أخي سراقه بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقه بن جعشم يقول: جاءنا رسل قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبي بكر دية كل واحد منهما من قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا و نحن جلوس، فقال: يا سراقه إني قد رأيت آنفا أسودة الساحل آراها محمدا و أصحابه. قال سراقه، فصدقت أنهم هم، فقلت لهم: إنهم ليسوا بهم، و لكنك رأيت فلانا و فلانا انطلقوا بأعبيتنا يبعون ضالاهم لهم. ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت، فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، و هي من وراء أكمة فتحبسها علي، و أخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض، و خفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعرثت بي فرسي، فخررت عنها، فقامت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزام، فاستقسمت بها

آخرهم أم لا؟ فخرج الذي أكرهه، فركبت فرسى و عصيت الأزام تقرب بى. حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو لا يلتفت و أبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع فى السماء مثل الدخان، فاستقسم بالأزلام، فخرج الذى أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم و وقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديء، و أخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، و عرضت عليهم الزاد و المتاع فلم يرزأنى، و لم يسألانى، إلا- أن قال: أخف عنا. فسألته أن يكتب لى كتاب أمن، فأمر ابن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن شهاب: فأخبرنى عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام، فكسى الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبا بكر ثياب بيض. و سمع المسلمون بالمدينة فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، فكانوا يفتدون كل غداة إلى الحرّة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعد ما أطلوا انتظاره، فلما آووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٩٧

آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه مبشرين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب! هذا جدكم الذى تنتظرونه. فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرّة، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف. و ذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول.

فقام أبو بكر، و جلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا. فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك.

فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة و أسس المسجد الذى أسس على التقوى، و صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ركب راحلته فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، و هو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين. و كان مربدا للتمر لسهيل و سهل، غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل. ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذ مسجدا.

فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدا. و طفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنيانه و يقول و هو ينقل اللبن:

هذا الحمال لا حمال خبير هذا أبر ربنا و أظهر

و يقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار و المهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى.

قال ابن شهاب: و لم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببیت شعر تام غير هذا البيت ا ه. بطوله بلفظ البخارى فى صحيحه.

و قوله: قال ابن شهاب فى المواضع الثلاث فى هذا الحديث الطويل هو متصل بإسناد حديث عائشة المذكور، كما صرح به الحافظ فى فتح البارى.

وأخرج البخارى أيضا فى مناقب المهاجرين وفضلهم، و فى علامات النبوة قصة حديث الهجرة مختصرة من رواية البراء بن عازب رضى الله عنه قال: اشترى أبو بكر رضى الله عنه من عازب رحلا بثلاثة عشر درهما، فقال أبو بكر التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٩٨

لعازب: مر البراء فليحمل إلى رحلى. فقال عازب: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم.

قال: ارتحلنا من مكة فأحيينا أو سرنا ليلتنا ويومنا، حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة فرميت ببصرى هل أرى من ظل فأوى إليه، فإذا صخرة أتيتها، فنظرت بقبه ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي صلى الله عليه وسلم فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله. فاضطجع النبي صلى الله عليه وسلم. ثم انطلقت أنظر ما حولى هل أرى من الطلب أحدا. فإذا أنا براعى غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذى أردنا. فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش سماه عرفته. فقلت: هل فى غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: فهل أنت حالب لبنا؟ قال: نعم. فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه. فقال:

هكذا. ضرب إحدى كفيه بالأخرى. فحلب لى كئبه من لبن. وقد جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوافقته قد استيقظ. فقلت له: اشرب يا رسول الله. فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله. قال: بلى. فارتحلنا والقوم يطلبوننا. فلم يدركنا أحد منهم غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له. فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله. فقال: لا تحزن إن الله معنا.

زاد فى علامات النبوة. فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم فارتطمت به فرسه إلى بطنها أرى فى جلد من الأرض - شك زهير - فقال: إني أراكما قد دعوتما على، فادعوا لى فالله لكما أن أرد عنكما الطلب، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم فنجأ، فجعل لا يلقى أحدا إلا قال: كفيتمكم ما هنا فلا يلقى أحدا إلا رده. قال: ووفى لنا اه.

و فى حديث المتن كما قدمنا ظهور قوة توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعظم منزله أبى بكر رضى الله عنه حيث جعله الله مع نبيه، و كان تعالى ثالثهما.

و فى قصة حديث الهجرة الطويل فوائد منها: خدمة التابع الحر للمتبوع فى يقظته، والذب عنه عند نومه، وخدمة التلميذ لشيخه، و ما تثمره من المزايى فى المال لما حصل للصدىق من الفضل فى الدنيا والآخرة. أما الدنيا فلا فضل فيها أعظم من إجماع المسلمين على أنه هو الأحق بخلافه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعتهم له بعد النزاع أولا. و أما الآخرة فقد دلت الأدلة على أنه فيها من أعظم هذه الأمة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٣٩٩

منزله عند الله لما ثبت فى الصحيحين من أنه يدخل الجنة من جميع أبوابها كما تقدم لنا فى هذا الكتاب مع تبشيره بالجنة كسائر من بشر بها، و دفنه مع النبي صلى الله عليه وسلم فى مكان واحد، و منها محبة أبى بكر للنبي صلى الله عليه وسلم و أدبه معه و إيثاره له على نفسه، و منها أدب الأكل و الشرب و استحباب التنظيف لما يؤكل و يشرب. و منها استصحاب آله السفر كالإداوة و السفره و لا يقدح ذلك فى التوكل. و منها جواز شرب اللبن الذى يحلبه الراعى للمسافر إذا جرت العادة بالمسامحة فيه كما هو عادة العرب فى ذلك الزمن. و فى فتح البارى قال المهلب بن أبى صفرة: إنما شرب النبي صلى الله عليه وسلم من لبن تلك الغنم؛ لأنه كان حينئذ فى زمن المكارمة، و لا يعارضه حديث:

«لا- يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه»؛ لأن ذلك وقع فى زمن التشاح، أو الثانى محمول على التسور و الاختلاس، و الأول لم يقع فيه

ذلك، بل قدم أبو بكر سؤال الراعى: هل أنت حالب؟ فقال: نعم. كأنه سأله هل أذن لك صاحب الغنم فى حلبها لمن يرد عليك؟ فقال: نعم. أو جرى على العادة المألوفة للعرب فى إباحة ذلك، و الإذن فى الحلب على المار، و لابن السبيل. فكأن كل راع مأذونا له فى ذلك.

و قال الداودى: إنما شرب من ذلك على أنه ابن سبيل و له شرب ذلك إذا احتاج، و لا سيما النبى صلى الله عليه و سلم. و أبعد من قال إنما استجازه؛ لأنه مال حربى؛ لأن القتال لم يكن فرض بعد، و لا أبيحت الغنائم. و للمالكية فى هذه المسألة تفصيل منسوب للخمى نظمه صاحب سلم القضاء إلى منازل نوازل الرعاة. من علماء قطرنا بقوله:

سقى الرعاة من لقوا من لبن مرعيهم مالك لا يعجبين

يريد يكره إذا ما غلبا إباحة الناس لما قد حلبا

و ليس يكره و لكن يحرم إن كان لا يبيح أكثرهم

و إن أباحوا لبن المرعى لم يكره التفصيل للخمى

و حديث المتن كما أخرجه الشيخان أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير من سننه. انتهى كل ذلك من زاد المسلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٠٠

ما لقيه رسول الله صلى الله عليه و سلم من التعب فى طريقه إلى الغار

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد خلع نعليه فى طريق الغار، و كان يمشى على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثرهما على الأرض، حتى حفيت رجلاه "أى رقنا من كثرة المشى،" فلما رآه أبو بكر و قد حفيت رجلاه حمله على كاهله و جعل يشند حتى أتى الغار. كذا فى دلائل النبوة.

ثم جاء فيه بعد هذا ببضعه أسطر من هذا الكلام ما يأتى: و روى عن أبى بكر أنه قال لعائشة: لو رأيتنى و رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ سعدنا الغار، فأما قدما رسول الله صلى الله عليه و سلم فتفطرتا، و أما قدماى فعادتا كأنهما صفوان، قالت عائشة: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يتعود الحفية و لا الرعية.

و روى عن أبى بكر أنه قال: نظرت إلى قدمى رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الغار و قد قطرتا دما، فاستبكت، فعلمت أنه صلى الله عليه و سلم لم يتعود الحفاء و لا الحفوة.

قال ابن هشام: و حدثنى بعض أهل العلم أن الحسن البصرى قال: انتهى رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر إلى الغار ليلا، فدخل أبو بكر إلى الغار قبل رسول الله صلى الله عليه و سلم فلمس الغار لينظر فيه سبع أو حية ليقى رسول الله صلى الله عليه و سلم بنفسه.

و فى معالم التنزيل: قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى أستبرئ الغار، و كان الغار مشهورا بكونه مسكن الهوام و الوحوش، قال: ادخل.

فدخل، فرأى غارا مظلمًا، فجلس و جعل يلتمس بيده، كلما وجد جحرا أدخل فيه إصبعه حتى انتهى إلى جحر كبير فأدخل رجله إلى فخذه فأجرحه.

و فى رواية: كلما وجد جحرا شق ثوبه فألقمه إياه حتى فعل ذلك بثوبه كله، فبقى جحر فألقمه عقبه.

و فى الرياض النضرة: فجعل الحيات و الأفاعى يضربنه و يلسعنه انتهى. و على كل التقديرين لدغته الحية تلك الليلة. قال أبو بكر: فلما ألقت عقبى الجحر لدغتنى الحية، و إن كانت اللدغة أحب إليّ من أن يلدغ رسول الله صلى الله عليه و سلم، انتهى.

ثم قال أبو بكر: أدخل يا رسول الله، فإنى سويت لك مكانا. فدخل فاضطجع رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أما أبو بكر فكان

متألما من لدغة الحية، و لما أصبحا رأى النبي صلى الله عليه و سلم على أبي بكر أثر الورم، فسأله عنه، فقال: من لدغة الحية. فقال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٠١

النبي صلى الله عليه و سلم: هلا أخبرتنى؟ قال: كرهت أن أوقظك. فمسحه النبي صلى الله عليه و سلم فذهب ما به من الورم و الألم. ثم قال: فأين ثوبك يا أبا بكر؟ فأخبره بما فعل، فعند ذلك رفع النبي صلى الله عليه و سلم يده فقال: اللهم اجعل أبا بكر فى درجتى يوم القيامة. فأوحى الله إليه قد استجاب لك. كذا فى المنتقى خرجه الحافظ أبو الحسين بن بشر و الملا فى سيرته عن ميمون بن مهران عن ضبة بن محصن الغنوى.

و عن ابن عباس: قال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: رحمك الله صدقتنى حين كذبنى الناس، و نصرتنى حين خذلى الناس، و آمنت بى حين كفر بى الناس، و آنستنى فى وحشتى فأى منه لأحد على مثلك. خرجه فى فضائله، ذكره فى الرياض النضرة. و فى معالم التنزيل قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لأبى بكر: أنت صاحبى فى الغار و صاحبى على الحوض. قال الحسن بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم فهو كافر لإنكاره نص القرآن، و فى سائر الصحابة إذا أنكروا يكون مبتدعا لا كافرا. انتهى من تاريخ الخميس.

وقت الخروج من الغار و السفر إلى المدينة

جاء فى تاريخ الخميس فى الجزء الأول منه عن وقت خروجه صلى الله عليه و سلم من غار ثور و عن وقت وصوله إلى المدينة المنورة ما نصه:

و فى الاستيعاب: أذن الله له فى الهجرة إلى المدينة يوم الاثنين، و كانت هجرته فى ربيع الأول و هو ابن ثلاث و خمسين سنة، و قدم المدينة يوم الاثنين قريبا من نصف النهار، فى الضحى الأعلى لاثنى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. هذا قول ابن إسحاق، و كذا قال غيره، إلا أنه قال: كان مخرجه إلى المدينة لهلال ربيع الأول.

و قال أبو عمرو و قد روى عن ابن شهاب أنه قدم المدينة لهلال ربيع الأول.

و قال عبد الرحمن ابن المغيرة: قدم المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول.

و قال الكلبي: خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول و قدم المدينة يوم الجمعة لاثنى عشرة ليلة خلت منه، قال أبو عمرو و هو قول ابن إسحاق إلا فى تسمية اليوم فإن ابن إسحاق يقول يوم الاثنين و الكلبي يقول يوم الجمعة، و اتفقا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٠٢

لاثنى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، و غيرهما يقول لثمان خلت منه، و الاختلاف أيضا فى تاريخ قدومه المدينة كما ترى.

و فى الصفوة قال يزيد بن حبيب: خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم من مكة فى صفر، و قدم المدينة فى ربيع الأول. و فى الوفاء ذكر موسى بن عقبه عن الزهرى أن الخروج كان فى بقية تلك الليلة، و كان ذلك بعد العقبة بشهرين و ليال. و قال الحاكم بثلاثة أشهر أو قريبا منها و يرجح الأول ما جزم به ابن إسحاق من أنه خرج أول يوم من ربيع الأول، فيكون بعد العقبة بشهرين و بضعة عشر يوما، و كذا جزم به الأموى فقال: خرج لهلال ربيع الأول و قدم المدينة لاثنى عشرة ليلة خلت منه.

قال فى فتح البارى: و على هذا كان خروجه يوم الخميس و هو الذى ذكره محمد بن موسى الخوارزمي، لكن قال الحاكم: تواترت الأخبار بأن الخروج كان يوم الاثنين، و الدخول يوم الاثنين، و جمع الحافظ ابن حجر بينهما بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس، أى فى أثناء ليلته لما قدمناه، و خروجه من الغار يعنى غار ثور ليلة الاثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليال: ليلة الجمعة و ليلة السبت و ليلة الأحد و خرج فى أثناء ليلة الاثنين. كذا فى المواهب اللدنية. و من روى لليلتين لعله لم يحسب أول ليلة.

و كانت مدة إقامته صلى الله عليه و سلم بمكة بعد النبوة بضع عشرة سنة، و يدل عليه قول صرمه:

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة يذكر لو ألفى صديقا مؤاتيا

وقال عروة: عشرا، وقال ابن عباس: خمسة عشرة سنة. وفى رواية عنه عشر سنين ولم يعلم بخروجه الا على و آل أبى بكر. وفى سيرة اليعمرى: ولما بلغ ثلاثا وخمسين سنة هاجر من مكة إلى المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول، وأقام المشركون ساعة، فجعلوا يتحدثون فأتاهم آت وقال: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أن نصبح فنقتل محمدا. قال: قبحكم الله وخيكم، أو ليس قد خرج عليكم وجعل على رؤوسكم التراب؟ قال أبو جهل: أو ليس ذاك مسجى بردة و الآن كلمنا. فلما أصبحوا قام على عن الفراش، فقال أبو جهل: صدقنا ذلك الخير.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٠٣

فاجتمعت قريش و أخذت الطرق، وجعلت العجائل لمن جاء به. فانصرت عيونهم ولم يجدوا شيئا، وفى رواية لما قال القائل قد خرج و نثر على رؤوسكم التراب فما ترون ما بكم؟ وضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا فيه التراب. ثم جعلوا يتطلعون و ينظرون من شق الباب فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبونه النبى صلى الله عليه وسلم فيحرسونه، و يقولون: إن هذا لمحمد، نائم عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فوثبوا عليه، فقام على من الفراش، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا علم لى. قيل إنهم ضربوا عليا و حبسوه ساعة، ثم تركوه و اقتصوا أثر النبى صلى الله عليه وسلم. فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم.

و روى أنه لم يبق أحد من الذين وضع على رؤوسهم التراب إلا قتل يوم بدر، و أنشأ على فى بيتوته فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم هذه الأبيات:

وقيت بنفسى خير من وطى الثرى و من طاف بالبيت العتيق و بالحجر

رسول إله خاف أن يمكروا به فجاه ذو الطول الإله من المكر

و بات رسول الله فى الغار آمناموقى و فى حفظ الإله و فى ستر

و بت أراعاهم و ما يتشبتونى و قد وطنت نفسى على القتل و الأسر

انتهى من تاريخ الخميس.

انظر: صورة رقم ١٥، جبل ثور. و صورة رقم ١٦، مدخل جبل ثور

خروج النبى صلى الله عليه وسلم و أبى بكر من الغار

جاء فى تاريخ الخميس عند الكلام على ذكر خروجهما من الغار و توجههما إلى المدينة و ما وقع لهما فى الطريق: ما خلاصته:

و لما مضت ثلاث ليال و سكن عنهما الناس جاء الدليل بالراحلتين صبح ثلاث بالسحر إلى باب الغار كما وعده.

قال أبو الحسن بن البراء: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغار ليلة الاثنين لغرة شهر ربيع الأول.

و ذكر محمد بن سعد أنه خرج من الغار ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من ربيع الأول، كما مر. كذا فى سيرة مغلطاي و دلائل النبوة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٠٤

و فى سيرة ابن هشام: آتاها صاحبهما الذى استأجره ببعيريهما و بعير له و أتهما أسماء بنت أبى بكر بسفرتيهما و نسيت أن تجعل لها عصاما فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفره، فإذا ليس فيها عصام، فحلت نطاقها فجعلته عصاما علقتهما به. فكان يقال لأسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين لذلك.

قال ابن هشام سمعت غير واحد من أهل العلم يقول: ذات النطاقين و تفسيره أنها لما أرادت تعليق السفره شقت نطاقها باثنتين، فعلقت السفره بواحدة، و انتطقت بالأخرى، كما مر فى أوائل الفصل الأول. و جاء عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق.

و في سيرة ابن هشام قال ابن إسحاق: فلما قرب أبو بكر الراجلتين إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم قدم له أفضلهما، ثم قال: اركب فداك أبي و أمي. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إنى لا أركب بعيرا ليس لى. قال: فهى لك يا رسول الله، بأبى أنت و أمي. قال: لا، و لكن بالثمن ابتعتها به. قال: أخذتها بكذا و كذا. قال: قد أخذتها بذلك؟ قال: هى لك يا رسول الله. و قد مر أن ثمنها ثمانمائة درهم.

قيل: الحكمة فى أنه صلى الله عليه و سلم أحب أن لا- تكون هجرته إلا- بمال نفسه. فركبا و انطلقا و أردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاة ليخدمهما فى الطريق.

و فى سيرة ابن هشام قال ابن إسحاق: و لما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقد، و كان ماهرا بالطريق، فسلك بهما أسفل مكة ثم مضى بهما على الساحل من عسفان، ثم سلك بهما على أسفل أمج.

و فى رواية: ثم عارض الطريق على أمج، ثم نزل من قديد خيام أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية من بنى كعب.

قال ابن إسحاق: ثم اجتاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن أجاز قديدا، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الحرار، ثم سلك بهما ثنية المرة، ثم سلك بهما لقفا.

قال ابن هشام: لفتا. قال ابن إسحاق: ثم أجاز بهما مدلجة لقف ثم استبطن بها مدلجة محاج، و يقال لجاج فيما قال ابن هشام، ثم سلك بهما مرجح مجاح، ثم تبطن بهما مرجح من ذى العضوين، بفتح العين المهملة و سكون الصاد المعجمة، و يقال بسكون الصاد المهملة فيما قاله ابن هشام، ثم بطن بهما ذى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٠٥

كشر، ثم أخذ بهما على الجدادج، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تعهن، ثم على العبايد، قال ابن هشام: و يقال العبايب، و يقال العثيانة. قال ابن هشام: ثم أجاز بهما الفاجية و يقال القاحه، فيما قال ابن هشام، ثم هبط بهما العرج و قد أبطأ عليهما بعض ظهرهم، فحمل رسول الله صلى الله عليه و سلم رجل من أسلم يقال له أوس بن حجر على جمل، و قيل يقال له ابن الرداء، و فى نسخة ابن الرдах إلى المدينة، و بعث معه غلاما له يقال له مسعود بن هنيذة، ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبة، و يقال ثنية الغائر فيما قال ابن هشام، حتى هبط بهما على بطن رثم ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتد الضحى و كادت الشمس تعتدل، كما سيجىء. و اتفق فى سيرة قصة سرافة عارضهم يوم الثلاثاء بتعديد ذكره ابن سعد كما سيجىء.

قال أبو بكر: فأدلجنا- يعنى من الغار- فأحشنا يومنا و ليلتنا حتى أظهرنا، و قام قائم الظهيرة فضربت ببصرى هل أرى ظلاناوى إليه، فإذا أنا بصخرة، فأهويت إليها، فإذا بقبة ظلها مديد، فدخلت إليها فسويته لرسول الله صلى الله عليه و سلم، و فرشت فروه و قلت: اضطجع يا رسول. فاضطجع، ثم خرجت أنظر هل أرى أحدا من الطلب، فإذا أنا براعى غنم لرجل من قريش كنت أعرفه، فحلب شيئا من اللبن، ثم أتيت به رسول الله فشرب حتى رضيت.

و فى المواهب اللدنية: و اجتاز صلى الله عليه و سلم فى وجهه ذلك بعبد يرعى غنما، فكان من شأنه ما روينا من طريق البيهقى بسنده، عن قيس بن النعمان قال: فلما انطلق النبي صلى الله عليه و سلم و أبو بكر مستخفين مرا بعبد يرعى غنما، فاستسقىاه اللبن، فقال: ما عندى شاه تحلب، غير أن هاهنا عناقا حملت أول، و ما بقى لها لبن. فقال: ادع بها. فاعتقلها صلى الله عليه و سلم، و مسح ضرعها و دعى حتى أنزلت. و جاء أبو بكر بمجن فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعى، ثم حلب فشرب، فقال الراعى: بالله من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك. فقال: أو تراك تكتم على حتى أخبرك؟ قال:

نعم. قال: فإنى محمد رسول الله. قال: فأنت الذى تزعم قريش أنه صابى؟

قال: إنهم ليقولون ذلك. قال: فأشهد أنك نبي، و أن ما جئت به حق، و أنه لا- يفعل ما فعلت إلا نبي، و أنا متبعك. قال: إنك لن

تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٠٦

و أورد في المواهب اللدنية قصة العبد الراعى بعد قصة أم معبد.

قال أبو بكر: ثم قلت: آن الرحيل، فارتحلنا و القوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم إلا سراقه بن مالك بن جعشم. فقلت: يا رسول الله، هذا الطلب قد لحقنا. قال: لا تحزن إن الله معنا. حتى إذا دنا منا و كان بيننا و بينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا و بكيت، قال: لم تبكى؟ قلت: أما و الله ما على نفسى أبكى، و لكنى أبكى عليك. فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: اللهم اكفناه بما شئت. فساخت قوائم فرسه إلى بطنها فى أرض صلد، فوثب عنها و قال: يا محمد قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه، فو الله لأعمين على من ورائى من الطلب، و هذه كنانتى فخذ منها سهماً فإنك ستمر بإبلى و غنمى فى موضع كذا و كذا، فخذ منها حاجتك.

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لا حاجة لى بها. فأطلق، فرجع إلى أصحابه و جعل لا يلقى أحداً إلا قال: كفيته ما هاهنا، و لا يلقى أحداً إلا رده كذا فى المنتقى.

و فى رواية: دعا عليه فقال: اللهم اصرعه. فصرعت فرسه، ثم قامت تحمحم. و فى مزيل الخفاء اسم هذه الفرسة العود. و قيل كانت أنثى.

و فى سيرة مغلطاي: فلما راحوا من قديد تعرض لهما سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى.

و فى المواهب اللدنية: ثم تعرض لهما بقديد سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى.

و فى رواية عن سراقه أنه قال: جاءنا رسل قريش أنهم جعلوا فى رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبى بكر ديه، فى كل واحد منهما مائة إبل لمن قتله أو أسره. فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى أقبل رجل حتى قام علينا، فقال: يا سراقه إنى قد رأيت أنفاً أسودة بالساحل أظنها محمداً و أصحابه.

و فى سيرة ابن هشام قال: و الله لقد رأيت ركبته ثلاثة مروا على أنفا، إنى لأراهم محمداً و أصحابه. قال: فأومأت إليه بعينى أن اسكت. قال سراقه:

فعرفت أنهم هم، فقلت: إنهم ليسوا بهم، و لكنك رأيت فلانا و فلانا و فلانا انطلقوا بأعيننا. ثم لبثت فى المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى، و هى من وراء أكمة فتحبسها على، و أخذت رمحى فخرجت به

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٠٧

من ظهر البيت، فخطت برحة الأرض و خفضت عالية الرمح حتى أتيت فرسى.

و فى سيرة ابن هشام: قال سراقه: و كنت أرجو أن أرده على قريش و آخذ المائة. قال: فركبتها فدفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم، فعثرت بى، فخررت عنها، فقامت فأهويت يدي إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذى أكره، فركبت فرسى و عصيت الأزلام، و لم أزل أجد فى الطلب تقرب بى حتى سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو لا يلتفت، و أبو بكر كثير الإلتفات، ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكذب فخرج يديها، فلما استوت قائمه ظهر لأثر يديها غبار ساطع إلى السماء مثل الدخان.

و فى سيرة ابن هشام: كالإعصار، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره فنادت بالأمان، فوقفوا. فركبت فرسى حتى جئتهم، و وقع فى نفسى حين لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر محمد صلى الله عليه و سلم. فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديه، فأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، و عرضت عليهم الزاد و المتاع، فلم يرزأنى و لم يسألانى شيئاً، إلا أن قال: أخف عنا. فسألت أن يكتب لى كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من آدم ثم مضى رسول الله صلى الله عليه و سلم. كذا فى المنتقى.

و في سيره ابن هشام: قال ابن إسحاق، قال سراقه: عرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني و أنه ظاهر. قال: فناديت القوم فقلت: أنا سراقه بن جعشم انظروني أكلمكم، فوالله لا أريكم و لا يأتيكم مني شيء تكرهونه. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لأبي بكر: قل له: ما تبغى منا؟ قال: فقال لي ذلك أبو بكر، فقلت:

تكتب لي كتابا يكون آية بيني و بينكم. قال: اكتب له يا أبا بكر. قال: فكتب لي كتابا في عظم أو في رقعة أو في خرقة، ثم ألقاه إلي فأخذته فجعلته في كنانتي، ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئا مما كان، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه و سلم و فرغ من حنين و الطائف خرجت و معي الكتاب لألقاه. فلقيته بالجعرانة.

قال: فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرمح و يقولون: إليك إليك ما تريد؟ قال: فدنوت من رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو على

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٠٨

ناقته، و الله لكأنني أنظر إلى ساقه في غرزه، فكأنما جماره. قال: فرفعت يدي بالكتاب، ثم قلت: يا رسول الله هذا كتابك لي، أنا سراقه بن جعشم. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يوم وفاء وبر، أدن مني. قال: فدنوت منه و أسلمت.

و أورد في المواهب اللدنية قصة سراقه بعد قصة أم معبد. روى أن أبا جهل لما سمع قصة سراقه أنشأ هذين البيتين و بعث بهما إليه:

بنى مدلج إنى أخاف سفيهم سراقه يستغوى بنصر محمد

عليكم به أن لا يفرق جمعكم فيصبح شتى بعد عز و سؤدد

و سراقه أيضا أنشأ هذين البيتين و بعث بهما إلى أبي جهل:

أبا حكم و اللات إن كنت شاهد الأمر جوادى إذ تسيح قوائمه

عجبت و لم تشكك بأن محمدانبي ببرهان فمن ذا يكاتمه؟

و في الاكتفاء: و سراقه بن مالك هذا الذي أظهر الله فيه أثرا من الآثار الشاهدة له عليه الصلاة و السلام بأن الله أطلعه من الغيب في حياته على ما ظهر مصداقه بعد وفاته. و ذلك أنه روى سفيان بن عيينه، عن أبي موسى، عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لسراقه بن مالك: كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟

قال: فلما أتى عمر بسواري كسرى و منطقتة و تاجه دعا سراقه بن مالك فألبسه إياهما. و كان سراقه رجلا أذب كثير شعر الساعدين. فقال له: ارفع يديك، فقل: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس، و ألبسهما سراقه بن مالك بن جعشم أعرابيا من بنى مدلج. و رفع عمر بها صوته.

[قصتهما مع أم معبد]

و مما وقع لهم في الطريق مرورهم بخيمتى أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية.

و في المشكاة أن النبي صلى الله عليه و سلم لما خرج من مكة مهاجرا إلى المدينة هو و أبو بكر و مولى أبي بكر عامر بن فهيرة و دليلهما عبد الله الليثي مروا على خيمتى أم معبد الخزاعية انتهى. و كانت بقديد. و في معجم ما استعجم: من قديد إلى المشلل ثلاثة أميال بينهما خيمتى أم معبد.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٠٩

و في خلاصة الوفاء: قديد- كزبير- قرية جامعته بطريق مكة، كثيرة المياه.

و كانت أم معبد امرأة برزة جلدة، تحبى بقاء الخيمة تسقى و تطعم. فسألوها تمرا و لحما ليشتروا منها. فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك. و كان القوم مرملين مستنين، فقال: و الله لو كان عندنا ما أعوزتكم القرى. فنظر رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الشاة في

كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. قال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك. قال: أتأذنين لى أن أحلبها؟ قالت: نعم بأبى أنت و أمى، إن رأيت بها حلبا فاحلبها. فدعا بها رسول الله صلى الله عليه و سلم فمسح بيده المباركة ضرعها و سمى الله عز و جل، و دعا لها فى شاتها فتفاجت عليه و درت و اجترت، و دعا بإناء يربض الرهط فحلب ثجا حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت و سقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب رسول الله صلى الله عليه و سلم آخرهم، ثم أراضوا، ثم حلب ثانيا بعد بدء حتى امتلأ- الإناء، ثم غادروه عندها، ثم بايعها و ارتحلوا عنها. كذا ذكره البغوى فى شرح السنه و ابن عبد البر فى الاستيعاب.

و قال ابن الجوزى فى الوفاء: قال لها: هات قدحا فجاءت بقدرح فحلب فيه حتى امتلأ، فأمر أبا بكر أن يشرب فقال أبو بكر: بل أنت اشرب يا رسول الله.

قال: ساقى القوم آخرهم شربا. فشرب أبو بكر، ثم حلب فشرب رسول الله صلى الله عليه و سلم، ثم حلب فشربت أم معبد، ثم حلب فقال: ارفعى هذا لأبى معبد إذا جاءك. ثم ركبوا و ساروا، و قل ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا، يتساوكن هزالا مخهن قليل. فلما رأى أبو معبد اللبن عجب، و قال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، و الشاء عازب حيال لا حلوب بالبيت. قالت: لا و الله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك، من حاله كذا و كذا. قال: صفيه لى يا أم معبد. قالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاء، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبته تجلة، و فى رواية نحلة و لم تزريه صعلة، و فى رواية صقلة، و سيم قسيم، فى عينيه دعج، و فى أشفاره عطف، و فى صوته صحل، و فى عنقه سطح، و فى لحيته كثائته، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، و إن تكلم سما و علاه البهاء، أجمل الناس و أبهاه من بعيد، و أحسنه و أعلاه من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نزر و لا هذر، كأن منطقهم خرزات نظمن يتحدرون، ربعة لا تشنؤه من طول و لا تقتحمه العين من قصر، غصن بين غصنين، و هو أنضر الثلاثة منظرا و أحسنهم قدرا، له

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤١٠

رفقاء يحفونه، إن قال أنصتوا لقوله، و إن أمر تبادروا لأمره، محفود محشود، لا عابس و لا مفند.

قال أبو معبد: هذا و الله صاحب قریش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، و لقد هممت أن أصحبه، و لأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا. ثم هاجرت هى و زوجها فأسلما. و كان أهلها يؤرخون بيوم الرجل المبارك. كذا فى شرح السنه لمحيى السنه. و فى خلاصة الوفاء: خرج أبو معبد فى أثرهم ليسلم، فيقال أدر كهم بطن ريم فبايعوه و انصرف.

(قوله): تفاجت أى: فتحت ما بين رجليها. (قوله): يربض الرهط أى يرويههم. (قوله): البهاء هو لمعان رغو اللب (قوله): يتساوكن أى: يسرن سيرا ضعيفا، (قوله): عازب أى: بعيدة عن المرعى، و حيال جمع حائل، و هى غير الحامل، (قوله): تجلة أى: عظم بطن، (قوله): نحلة أى نحول و دقة جسم، أى: ليس سمينا مفرطا و لا نحिला مفرطا، (قوله): صعلة هى صغر الرأس، (قوله): عطف أى: طول. (قوله): صحل هو كالبحة، (قوله): محفود أى: مخدوم، (قوله): محشود أى: له حشد أى: جماعة، (قوله): و لا مفند أى: ليس كثير اللوم على من وقع منه ذنب.

و فى الصفوة: قال عبد الملك: فبلغنا أن أم معبد هاجرت إلى النبى صلى الله عليه و سلم و أسلمت.

قال رزين: أقامت قریش أياما ما يدرون أن رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أى جهة توجه، و أى طريق سلك، حتى سمعوا بعد ذهابهما من مكة بأيام فى صباح هاتفا أقبل من أسفل مكة بأبيات، و يغنى بغناء العرب عاليا بين السماء و الأرض، و الناس يسمعون الصوت و يتبعونه و لا يدرون صاحبه حتى خرج من أعلا مكة و هو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد

هما نزلا بالهدى ثم اهتدت به فقد فاز من أمسى رفيق محمد

ما حملت من ناقة فوق رحلها أبر و أوفى ذمه من محمد

فيا لقصى ما زوى الله عنكم به من فعال لا تجارى و سؤدد
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤١١ ليهن بنى كعب مكان فتاتهم و معقدها للمؤمنين بمرصد
 سلوا أختكم عن شاتها و إنائها فإنكم إن تسألوا الشاء تشهد
 دعاها بشاء حائل فتحلبت عليه صريحا ضرة الشاء مزبد
 فغادرها رهنا لديها لحالب يرددها فى مصدر ثم مورد
 و قيل: سمعوا هاتفا على أبى قبيس بصوت جهورى يقول هذه الأبيات. و لما سمع حسان بن ثابت قال فى جوابه هذه الأبيات:
 لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم و قدس من يسرى إليه و يغتدى
 ترحل عن قوم فزال عقولهم و حل على قوم بنور مجدد
 هداهم به بعد الضلالة ربهم و أرشدهم، من يتبع الحق يرشد
 و هل يستوى ضلال قوم تسفهوا عما يتهم، هاد به كل يهتدون مهتد
 لقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
 نبى يرى ما لا يرى الناس حوله و يتلو كتاب الله فى كل مشهد
 و إن قال فى يوم مقالة غائب فتصديقها فى اليوم أو فى ضحى غد
 ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته من يسعد الله يسعد

و فى رواية عن أم معبد أنها قالت: طلعت علينا أربعة على راحلتين فنزلوا بى، فجئت رسول الله صلى الله عليه و سلم بشاء أريد ذبحها
 فإذا هى ذات در، فأدنيتهما منه، فلمس ضرعها و قال: لا تدبجها. فأرسلتها و جئت بأخرى، فذبحتها و طبختها لهم، فأكل هو و أصحابه
 و ملأت سفرتهم منها ما وسعت، و بقى عندنا لحمها أو أكثر، و بقيت الشاء التى لمس رسول الله صلى الله عليه و سلم ضرعها عندنا
 إلى زمان عمر، و هى السنة الثامنة عشر من الهجرة، و كنا نحلبها صبوحا و غبوقا و ما فى الأرض لبن.

و روى الزمخشري فى ربيع الأبرار عن هند بنت الجون: نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم خيمه خالته أم معبد، فقام من رقدته
 فدعا بماء فغسل يديه، ثم تمضمض و مج فى عوسجة إلى جانب الخيمه، فأصبحنا و هى كأعظم دوحه، و جاءت بتمر كأعظم ما
 يكون فى لون الورس و رائحة العنبر و طعم الشهد، ما أكل منها جائع إلا شبع، و لا ظمان إلا روى، و لا سقيم إلا برى، و لا أكل من
 ورقها بعير و لا شاء إلا درّ لبنها، فكنا نسميها المباركة، و يتابنا من البوادي من يستشفى بها و يتزود منها، حتى أصبحنا ذات يوم و قد
 تساقط ثمرها و صفر ورقها، ففرعنا. فما راعنا إلا نعى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤١٢

رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم إنها بعد ثلاثين سنة أصبحت ذات شوكة من أسفلها إلى أعلاها، و تساقط ثمرها، و ذهبت
 نضرتها، فما شعرنا إلا بقتل أمير المؤمنين على رضى الله عنه، فما أثمرت بعد ذلك. و كنا ننتفع بورقها ثم أصبحنا و إذا بها قد نبع من
 ساقها دم غبيط و قد ذبل ورقها، فبيننا نحن فزعون مهمومون إذ أتانا خبر مقتل الحسين بن على، و بيست الشجرة على إثر ذلك، و
 ذهبت. و العجب كيف لم يشتهر أمر هذه الشجرة كما شهر أمر الشاء فى قصة هى أعلى القصص.

و مما وقع لهم فى الطريق أنه أقبل النبى صلى الله عليه و سلم إلى المدينة، و هو مردف أبا بكر و هو شيخ يعرف، و النبى صلى الله
 عليه و سلم شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا بين يديك؟ فيقول: هذا الذى يهدىنى السبيل. فيحسب
 السائل أنه يعنى به الطريق، و إنما يعنى سبيل الخير.

و فى نهاية ابن الأثير، لقيهما فى الهجرة رجل بكراع، فقال: من أنتم؟ فقال أبو بكر: باغ و هاد عرض ببناء الإبل، أى طلبه و هداية
 الطريق، و هو يريد طلب الدين و الهداية من الضلالة.

و مما وقع لهم في الطريق أنه لقيهم بريده بن الخصيب الأسلمي. و في الوفاء روى ابن الجوزي في شرف المصطفى، من طريق البيهقي موصلا إلى بريده، أنه لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن أخذ النبي صلى الله عليه و سلم، و يرده عليهم حين توجه إلى المدينة، سمع بريده بذلك، فحمله الطمع على الخروج لقصده صلى الله عليه و سلم. فركب في سبعين من أهل بيته من بني سهم فتلقى رسول الله، و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يتطير، و كان يتفاءل، فقال: من أنت؟ فقال: أنا بريده بن الخصيب. فالتفت النبي صلى الله عليه و سلم إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر برد أمرنا و صلح. ثم قال: ممن أنت؟

قال: من أسلم. قال صلى الله عليه و سلم: سلمنا. قال: ممن: من بني سهم. قال: خرج سهمك يا أبا بكر. فقال بريده للنبي صلى الله عليه و سلم: من أنت؟ قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله. فقال بريده: أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله. فأسلم بريده و أسلم من كان معه جميعا. قال بريده: الحمد لله أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين. فلما أصبح قال بريده: يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا معك لواء، فحل عمامته، ثم شدها في رمح، ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة فقال: يا نبي الله نزل على من؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن ناقتي هذه مأمورة أين تنزل. كذا في شرف المصطفى لابن الجوزي.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤١٣

استقبال أهل المدينة رسول الله صلى الله عليه و سلم

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت:

سمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله صلى الله عليه و سلم من مكة، فكانوا يقدون كل غداة إلى الحرّة فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة.

قال ابن إسحاق: و ذلك في أيام حارة، فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من اليهود على أطم من الآطام لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، و في روايته يا بني قبيلة، يعني الأنصار، هذا جدكم، يعني، يعني حظكم، و في روايته: صاحبكم الذي تنتظرونه. و في روايته: بعث النبي صلى الله عليه و سلم إلى الأنصار من يخبرهم بقدمه، كما سيجيء.

فتأثر المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه و سلم بظهر الحرّة، فعدل بهم ذات اليمين نحو قباء، حتى نزل أعلا المدينة في حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف، و هم أهل قباء.

و في الوفاء: قباء معدود من العالية و كان حكمته التفاؤل له و لدينه بالعلو، و ذلك يوم الاثنين من ربيع الأول نهارا عند الأكثر.

و في سيرة أبي محمد عبد الملك بن هشام، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن إسحاق المطلبي، قال: قدم علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة يوم الاثنين حين اشتد الضحى، و كادت الشمس تعتدل لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، و هو التاريخ فيما قال ابن هشام. قال ابن إسحاق: و رسول الله صلى الله عليه و سلم ابن ثلاث و خمسين سنة، و ذلك بعد أن بعثه الله بثلاث عشرة سنة. و في أسد الغابة: كان مقامه بمكة عشر سنين، و قيل: ثلاث عشرة سنة، و قيل: خمس عشرة سنة، و الأكثر ثلاث عشرة سنة.

و قال ابن الكلبي: خرج من الغار أول ربيع الأول، و قدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت منه يوم الجمعة.

و في المنتقى: تنازع القوم أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أنزل الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب لأكرمهم بذلك، فلما أصبح غدا حيث أمر.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤١٤

و في الوفاء روى رزين عن أنس، قال: كنت إذ قدم رسول الله المدينة ابن تسع سنين، فأسمع الغلمان و الولائد يقولون: جاء رسول الله صلى الله عليه و سلم فنذهب فلا نرى شيئا، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر، فمكثنا في خرب في طرف المدينة.

و في رواية: فنزلا- جانب الحره، فأرسلا رجلا من أهل البادية يؤذن بهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما.

و في خلاصة الوفاء: فنزل في بني عمرو بن عوف بقاء على كلثوم ابن الهدم، و كان يومئذ مشركا، و به جزم ابن زباله. و لرزين: نزل في ظل نخلة، ثم انتقل إلى دار كلثوم أخي بني عمرو بن عوف. و في رواية: نزل على سعد بن خيثمة. وجه الجمع بين الروايتين، أن يقال إنه كان نزل على كلثوم بن الهدم، و لكن عينوا له مسكنا في دار سعد بن خيثمة يكون للناس فيه، و ذلك لأن سعد كان عزبلا لأهل له، و يسمى منزل العزباء.

قال المطري: و بيت سعد بن خيثمة، أحد الدور التي قبلي مسجد قباء، و هي التي تلي المسجد في قبلته، يدخلها الناس إذا زاروا مسجد قباء و يصلون فيها.

و هناك أيضا دار كلثوم بن الهدم، و في تلك العرصة كان رسول الله صلى الله عليه و سلم نازلا قبل خروجه إلى المدينة، و كذلك أهله و أهل أبي بكر حين قدموا بعد خروج رسول الله صلى الله عليه و سلم من مكة و هن: سوده، و عائشه، و أمها أم رومان، و أختها أسماء و هي حامل بعبد الله بن الزبير فولدته بقاء قبل نزولهم المدينة، انتهى. و نزل أبو بكر بالسنح على حبيب بن إساف، أحد بني الحارث بن الخزرج. و قيل: على خارجة بن زيد بن أبي زهير. روى مجمع بن يعقوب، عن أبيه، و عن سعيد بن عبد الرحمن بن رقيش، عن عبد الرحمن بن زيد بن حارثة، قال: نزل النبي صلى الله عليه و سلم بظهر حرتنا، ثم ركب فأناخ على غدق عند بئر غرس، قبل أن تبرز الشمس. (قوله):

عند بئر غرس الظاهر أنه تصحيف، و لعله بئر غدق، لبعده بئر غرس عن منزله صلى الله عليه و سلم بقاء بخلاف بئر غدق. قيل: كان أول ما سمع من النبي صلى الله عليه و سلم: أفشوا السلام، و أطعموا الطعام، و صلوا الأرحام، و صلوا بالليل و الناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام. و أكثر أهل السير على أن ذلك اليوم كان يوم الاثنين و شد من قال يوم الجمعة من ربيع الأول في الضحوة الكبرى قريبا من نصف النهار.

و في نسخة طاهر بن يحيى، أن قدومه كان قبل أن تبرز الشمس. و ما يعرف رسول الله صلى الله عليه و سلم من أبي بكر عليهما ثياب بيض متشابهة، فجعل الناس يقفون

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢١٥

عليهم حتى بزغت الشمس من ناحية أطمهم، الذي يقال له شنف، فأمهل أبو بكر ساعة، ثم قام فستر رسول الله صلى الله عليه و سلم بردائه، فعرف القوم رسول الله صلى الله عليه و سلم.

قال محمد بن معاذ: قلت لمجمع بن يعقوب، إن الناس يرون أنه جاء بعد ما ارتفع النهار و أحرقتهم الشمس. قال مجمع: هكذا أخبرني أبي و سعيد بن عبد الرحمن، يريد أنهما قالوا: ما بزغت الشمس إلا و هو في منزله صلى الله عليه و سلم.

و في مسلم: أن قدومهم كان ليلا، و الذي قاله الأكثر نهارا.

و في الصفوة، قال ابن إسحاق: دخلها حين ارتفع الضحى و كادت الشمس تعتدل. كما مر في قول ابن هشام، حيث قال: و هو التاريخ. و في الصحيح أنهم لما قدموا جلس النبي صلى الله عليه و سلم تحت شجرة صامتا، و قام أبو بكر لأمر الناس، أي يتلقاهم، فطفق من جاء من الأنصار، ممن لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم يحيى أبا بكر و يرحبه، يحسب أنه النبي صلى الله عليه و سلم، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه و سلم فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله.

تاريخ الهجرة

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: و اختلفوا في أن يوم نزوله أي يوم من الشهر، فبعضهم على أنه أول الشهر على ما روى موسى بن

عقبه، عن ابن شهاب. وقيل: ليلتين خلتا من شهر ربيع الأول ونحوه، عن أبي معشر لكن قال: ليلة الاثنين، ومثله عن ابن البرقي. وثبت ذلك في أواخر صحيح مسلم.

وقيل: لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، حكاه ابن الجوزي في شرف المصطفى، عن الزهري فقال: قال الزهري: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. وبه جزم النووي، وكذا ابن النجار.

وفي شرف المصطفى لابن الجوزي، عن ابن عباس: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، واستنبت يوم الاثنين، ورفع الحجر يوم الاثنين، وخرج مهاجرا يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وقبض يوم الاثنين.

وفي روضة الأقيسهري، قال ابن الكلبي: خرج من الغار يوم الاثنين، أول يوم من ربيع الأول، وقدم المدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت منه. قال أبو عمرو: وهو قول ابن إسحاق، إلا في تسمية اليوم. وعن أبي بكر بن حزم:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤١٦

لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. ويجمع بين هذا وبين الذي قبله بالحمل على الاختلاف في رؤية الهلال. ونقل ابن زبالة، عن ابن شهاب: أن نزوله على بني عمرو بن عوف كان في النصف من ربيع الأول. وقيل: كان قدومه في سابعه. ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر بن الخطاب، قال لمولى له: يا نجيج أطعمنا رطبا. فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم نجيج التفت إلى أبي بكر وقال: أنججت أو أنجحننا؟ فأتوا بقنو من أم جردان فيه رطب منصف وفيه زهو، فقال: ما هذا؟ فقال: غدق أم جردان. فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم بارك في أم جردان.

واختلف في أنه صلى الله عليه وسلم كم يوما أقام في بني عمرو بن عوف، فعن قوم من بني عمرو بن عوف أنه قام فيهم اثنين وعشرين يوما. حكاه ابن زبالة.

وفي البخاري من حديث أنس: أقام فيهم أربع عشرة ليلة وهو المراد بما في رواية عائشة بقولها بضع عشرة ليلة. وقال موسى بن عقبة: ثلاثا. وقال عروة:

ثلاث ليال، الثلاثاء والأربعاء والخميس، كما جزم به ابن حبان. وقال ابن إسحاق: أقام فيهم خمسا. وفي ذخائر العقبى: لم يقيم إلا ليلة أو ليلتين. قال الحافظ ابن حجر: أنس ليس من بني عمرو بن عوف، فإنه من الخزرج، وقد جزم بأربع عشرة ليلة، فهو أولى بالقبول. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتاريخ فكتب من حين الهجرة في ربيع الأول، رواه الحاكم في الإكليل. قال ابن الجزار: وتعرف بعام الإذن، وهو معضل والمشهور أن ذلك كان في خلافه عمر، وأن عمر قال:

الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخ بها وابتدأ من المحرم بعد إشارة علي وعثمان بذلك. وأفاد السهيلي أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى:

لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ.

وفي الاستيعاب: ومن مقدمه إلى المدينة أرخ التاريخ في زمان عمر، وأقام على بمكة بعد مخرجه، عليه السلام، ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى للناس ودائعهم التي كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم وخلفه لردّها. ثم خرج فلحق النبي صلى الله عليه وسلم بقباء فنزل على كلثوم بن الهدم، وإنما كانت إقامة على بقاء مع النبي ليلة أو ليلتين.

وفي روضة الأحباب: وكان على يسير بالليل ويختفي بالنهار، وقد نقتب قدماه فمسحهما النبي صلى الله عليه وسلم ودعا له بالشفاء فبرئتا في الحال، وما اشتكاهما بعد اليوم قط.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤١٧

وفي الوفاء: وكان لكلثوم بن الهدم بقاء مريدا، والمراد الموضع الذي يبسط فيه التمر ليبيس، فأخذه منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسسه و بناه مسجدا، كما رواه ابن زبالة وغيره.

و في الصحيح عن عروة: فلبث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، و أسس المسجد الذي أسس على التقوى. و في رواية عبد الرزاق، قال: الذين بنى فيهم المسجد الذي أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف. و كذا في حديث ابن عباس، عن ابن عائذ و لفظه، و مكث في بني عمرو بن عوف ثلاث ليال، و اتخذ مكانه مسجدا و كان يصلي فيه، ثم بناه عمرو بن عوف، فهو المسجد الذي أسس على التقوى. و روى ابن أبي شيبه، عن جابر، قال: لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم سنتين نعلم المساجد، و نقيم الصلاة، و لذا قيل: المتقدمون في الهجرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و الأنصار بقاء قد بنوا مسجدا يصلون فيه، يعني هذا المسجد.

فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه و سلم و ورد قباء صلى بهم فيه إلى بيت المقدس و لم يحدث فيه شيئا، أى في مبدأ الأمر لأن ابن أبي شيبه روى ذلك، ثم روى أنه صلى الله عليه و سلم بنى مسجدا بقاء و قدم القبلة إلى موضعها اليوم، و قال: جبريل يؤم بي البيت. و قد اختلف في المراد بقوله تعالى: لَمْ يَجِدْ أَسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ. فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء، و لا ينافيه قوله صلى الله عليه و سلم: لمسجد المدينة هو مسجدكم هذا، إذ كل منهما أسس على التقوى.

و في الكبير عن جابر بن سمرة، قال: لما سأل أهل قباء النبي صلى الله عليه و سلم أن يبنى لهم مسجدا، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ليقيم بعضكم فيركب الناقة، فقام أبو بكر فركبها فحركها فلم تنبعث، فرجع ففقد فقام عمر فركبها فلم تنبعث، فرجع فقعد فقام عمر فركبها فلم تنبعث، فرجع فقعد. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ليقيم بعضكم فيركب الناقة، فقام على، فلما وضع رجله في غرز الركاب و ثبت به، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ارجع زمامها و ابتنوا على مدارها فإنها مأمورة.

و روى الطبري عن جابر، قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة، قال لأصحابه: انطلقوا إلى أهل قباء نسلم عليهم، فرحبوا به، ثم قال: يا أهل قباء ائتوني بأحجار من الحرة. فجمعت عنده أحجار كثيرة و معه عنزة فخبط قبلتهم فأخذ حجرا فوضعه ثم قال: يا أبا بكر خذ حجرا فضعه إلى جنب حجرى. ثم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤١٨

قال: يا عمر خذ حجرا فضعه إلى جنب حجر أبي بكر ثم قال: يا عثمان خذ حجرا فضعه إلى جنب حجر عمر. كأنه أشار إلى ترتيب الخلافة كما سيجيء في بناء مسجد المدينة. ثم التفت إلى الناس فقال: وضع رجل حجره حيث أحب على ذلك الخط. و روى الترمذى، عن أسيد بن ظهير، عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: الصلاة في مسجد قباء كعمرة. و عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: سمعت أبي يقول: لأن أصلى في مسجد قباء ركعتين أحب إلى من أن آتى بيت المقدس مرتين، لو يعلمون ما فى قباء لضربوا إليه أكباد الإبل. و ورد فى الصحيحين عن ابن عمر أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يزور قباء، أو يأتى قباء راكبا أو ماشيا. و عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: من صلى فيه كان كعدل عمرة.

و عن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة. أخرجه ابن ماجه. و عن عمرو بن شيبه بسند جيد و رواه أحمد و الحاكم و قال صحيح الإسناد. و للبخارى و النسائي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يأتى مسجد قباء كل سبت راكبا أو ماشيا، و كان عبد الله يفعل.

و روى ابن زباله: أن النبي صلى الله عليه و سلم صلى إلى الأستوانة الثالثة فى مسجد قباء التى فى فى الرحبة. و عن سعيد بن عبد الرحمن قال: كان المسجد فى موضع الأستوانة المخلفة الخارجة فى رحبة المسجد.

قال ابن رقيش: حدثنى نافع أن ابن عمر كان إذا جاء مسجد قباء، صلى إلى الأستوانة المخلفة، يقصد بذلك مسجد النبي صلى الله عليه و سلم الأول.

و روى ابن زباله، عن عبد الملك بن بكير، عن ابن أبي ليلى، عن أبيه: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم صلى إلى الأستوانة الثالثة فى الرحبة إذا دخلت من الباب الذى بقاء دار سعد بن أبي خيثمة.

قلت: الباب المذكور هو المسدود اليوم يظهر رسمه من خارج المسجد في جهة المغرب، و كان شارعا في الرواق الذى يلي الرحبة من السقف القبلى، فالاسطوانة الثالثة فى الرحبة، هى الاسطوانة التى عندها اليوم محراب فى رحبة المسجد لانطباق الوصف المذكور عليها، فهى المرادة بقول الواقدي: كان المسجد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤١٩

فى موضع الاسطوانة المخلفة الخارجة فى رحبة المسجد، و هى التى كان ابن عمر يصلى إليها. ذكر ذلك كله فى الوفاء.

انظر: صورة رقم ١٧، مسجد قباء. و صورة رقم ١٨، محراب مسجد قباء

انتقاله صلى الله عليه وسلم من قباء إلى داخل المدينة

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: فى الصحيح عن أنس بعد ما ذكر من إقامته ببني عمرو ابن عوف، ثم أرسل إلى بني النجار فجاؤوا متقلدين السيوف و كانوا أخواله، يعنى أخوال جده عبد المطلب.

و فى رواية: فجاؤوا فسلموا على النبى صلى الله عليه وسلم و على أبى بكر و قالوا: اركبا آمنين مطاعين. فركب يوم الجمعة حتى نزل جانب دار أبى أيوب، و سيجىء أنه صلى الله عليه وسلم لما شخص أى خرج من قباء، اجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا: أخرجت ملالا منا، أم تريد دارا خيرا من دارنا؟ قال: إني أمرت بقرية تأكل القرى فخلوها، أى ناقته، فإنها مأمورة، حتى أدركته الجمعة فى بنى سالم فصلاها فى بطن الوادى، وادى ذى صلت.

و فى سيرة ابن هشام، عن إسحاق، وادى رانونا. و فى غيره كانوا أربعين، و قيل مئة. و كانت هذه أول جمعة جمعها فى الإسلام حين قدم المدينة و خطب يومئذ خطبة بليغة و هى أول خطبة فى الإسلام. و قيل: إنه كان يصلى الجمعة فى مسجد قباء فى إقامته هناك، و الله أعلم.

(ذكر تلك الخطبة) روى عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحى، أنه بلغه عن خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول جمعة صلاها فى المدينة فى بنى سالم بن عوف: الحمد لله أحمدته و أستعينه و أستغفره و أستهديه و أومن به و لا أكفره، و أعادى من يكفره، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أن محمدا عبده و رسوله، أرسله بالهدى و النور و الموعظة على فترة من الرسل و قلته من العلم و ضلالة من الناس، و انقطاع من الزمان و دنو من الساعة، و قرب من الأجل، من يطع الله و رسوله فقد رشد، و من يعصى الله و رسوله فقد غوى و فرط و ضل ضلالا بعيدا، أوصيكم بتقوى الله، فإن خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، و أن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، و لا أفضل من ذلك ذكر، و أن تقوى الله لمن عمل به على و جل و مخافة من ربه عون صدق

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢٠

على ما تبغون من أمر الآخرة، و من يصلح الذى بينه و بين الله من أمره فى السر و العلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكرا فى عاجل أمره و ذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم و ما كان سوى ذلك يود لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا، و يحذركم الله نفسه و الله رؤف بالعباد، و الذى صدق قوله و أنجز وعده لا خلف لذلك فإنه يقول: ما يبدل القول لمدى و ما أنا بظلام للعبيد، فاتقوا الله فى عاجل أمركم و آجله فى السر و العلانية فإن من يتق الله يكفر عنه سيئاته و يعظم له أجرا و من يتق الله فقد فاز فوزا عظيما، و أن تقوى الله توقى مقتته و عقوبته و سخطه و تبيض الوجوه و ترضى الرب و ترفع الدرجة، خذوا بحظكم و لا تفرطوا فى جنب الله فقد علمكم الله كتابه و نهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا و ليعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، و عادوا أعداءه و جاهدوا فى الله حق جهاده، هو اجتباكم و سماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينه و يحيى من حى عن بينه، و لا قوة إلا بالله، و أكثروا ذكر الله و اعلموا أنه خير من الدنيا و ما فيها، و اعملوا لما بعد الموت فإنه من يصلح ما بينه و بين الله يكفه الله ما بينه و بين

الناس، ذلك بأن الله يقضى الحق على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون عليه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. كذا أوردها في المنتقى وفي خلاصة الوفاء. ويحیی عن عمارة بن خزيمه أنه صلى الله عليه وسلم دعا براحلته يوم الجمعة وحشد المسلمون ولبسوا السلاح وركب صلى الله عليه وسلم ناقته القصوى والناس عن يمينه وشماله وخلفه، منهم الماشى والراكب. فاعترضت الأنصار فما يمر بدار إلا قالوا: هلم إلى العز والمنعة والثروة، فيقول لهم خيرا، ويدعو فيقول: إنها مأمورة خلوا سبيلها. فمر بنى سالم فقام إليه عتبان بن مالك و نوفل بن عبد الله بن مالك العجلاني وهو أخذ بزمام راحلته يقول: يا رسول الله انزل فينا، فإن فينا العدد والعدة والحلقة ونحن أصحاب الفضاء والحداثق والدرك، يا رسول الله كان الرجل من العرب يدخل هذه البحرة خائفا فيلجأ إلينا فنقول له: قل حيث شئت. فجعل يتبسم ويقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. وقام إليه عبادة بن الصامت وعباس بن الصامت بن نضلة بن عجلان فجعل يقولان: يا رسول الله انزل فينا. فيقول: إنها مأمورة. ثم أخذ عن يمين الطريق، حتى جاء بنى الحبلبي وأراد أن ينزل على عبد الله بن أبي بن سلول، فلما رآه وهو عند مزاحم، أى الأطم، محتبسا قال: اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم. فقال سعد بن عبادة: لا تجد يا رسول الله في نفسك من قوله، فقد قدمت علينا والخزرج

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢١

تريد أن تملكه عليها، ولكن هذه دارى فمر بنى ساعدة. فقال له سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دجانه: هلم يا رسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد.

وسعد يقول: يا رسول الله ليس فى قومي أكثر عزا منى مع الثروة والجلد والعدد والحلقة. فيقول صلى الله عليه وسلم: بارك الله عليكم. ويقول: يا أبا ثابت خل سبيلها فإنها مأمورة. فمضى واعترضه سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة وبشير بن سعد، أى من بنى الحارث بن الخزرج فقالوا: يا رسول الله، لا تجاوزنا فإننا أهل عدد وثروة وحلقة. فقال: بارك الله فيكم، خلوا سبيلها فإنها مأمورة. واعترضه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو، أى من بنى بياضة يقولان: يا رسول الله، هلم إلى المواساة والعز والثروة والعدد والقوة، نحن أهل الدرك. فقال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

ثم مر بنى عدى بن النجار، وهم أخواله، فقام إليه أبو سليط وصرمة بن أبى أنيس فى قومهما فقالا: يا رسول الله، نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة والقوة مع القرابة، لا- تجاوزنا إلى غيرنا، ليس لأحد من قومنا أولى بك منا لقربتنا لك فقال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. أو يقال: أول الأنصار اعترضه بنو بياضة ثم بنو سالم، ثم مال إلى ابن أبى ثم مر على بنى عدى بن النجار، حتى انتهى إلى بنى مالك بن النجار. ولابن إسحاق: اعترض بنى سالم أولا، ثم وازت راحلته بنى بياضة واعترضوه، ثم وازت دار الحارث كذلك، ثم مرت بدار بنى عدى وهم أخواله، لأذن سلمى بنت عمرو إحدى بنى عدى بن النجار كانت أم جده عبد المطلب، و بنو مالك بن النجار إخوتهم، ومنزله صلى الله عليه وسلم بدار بنى غنم منهم.

وجاء فى رواية: أن القوم لما تنازعوا أنه صلى الله عليه وسلم على أيهم ينزل وكل منهم على أن يكون داره له المنزل، قال: إني أنزل على أخوال عبد المطلب وأكرمهم بذلك.

قيل يشبه أن يكون هذا فى أول قدومه من مكة قبل نزوله بقاء، لا فى قدومه باطن المدينة.

وعن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال: دعوا الناقة فإنها مأمورة. فبركت على باب أبى أيوب.

وفى سيرة مغلطاي: نزل برحله على أبى أيوب لكونه من أخوال عبد المطلب.

وعند البعض: أن الناقة استناخت به أولا، فجاءه ناس فقالوا: المنزل يا رسول الله. فقال: دعوها. فانبعثت حتى استناخت عند موضع

المنبر من المسجد، ثم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢٢

تحلحلت فنزل عنها، فأتاه أبو أيوب فقال: منزلى أقرب المنازل، فائذن لى أن أنقل رحلك. قال: نعم. فنقل رحله وأناخ الناقة فى منزله.

و قال الواقدي: أخذ أسعد بن زرارة بزمامها فكانت عنده.

و عن مالك بن أنس: أن الناقة، لما أتت موضع المسجد، بركت و هو عليها، و أخذه صلى الله عليه و سلم الذى كان يأخذه عند الوحى، ثم ثارت من غير أن تزجر، و سارت غير بعيد، ثم التفتت فعادت إلى المكان الذى بركت فيه أول مرة، فبركت فيه فسرى عنه، فأمر أن يحط رحله.

و فى رواية: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم على راحلته و أبو بكر ردفه و ملأ من بنى النجار حوله حتى ألقى بفناء أبى أيوب، و هو موضع مسجده اليوم، و هو يومئذ مربد للتمر لغلامين يتيمين من بنى النجار كانا فى حجر معاذ بن عفراء، أو أبى أيوب أو أسعد بن زرارة، و الأخير هو الأصح، اسمهما سهل و سهيل ابنا عمرو ابن عماره.

و فى رواية رافع بن عمرو: فبركت عند باب المسجد فلم ينزل عنها النبى صلى الله عليه و سلم ثم انبعثت و سارت غير بعيد و رسول الله صلى الله عليه و سلم مرخ لها زمامها، ثم التفتت خلفها ثم رجعت إلى مبركها الأول و بركت فيه، و وضعت جرائها على الأرض و نزل عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: هذا إن شاء الله المنزل. فاحتمل أبو أيوب رحله و وضعه فى بيته بعدما استأذنه صلى الله عليه و سلم فدعته الأنصار إلى النزول عليهم فقال صلى الله عليه و سلم: المرء مع رحله.

و فى الوداع: فنزل رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: أى الدور أقرب؟ فقال أبو أيوب:

دارى، هذا بابى و قد حططنا رحلك فيها. فقال: المرء مع رحله. فمضت مثلاً، فنزل على أبى أيوب خالد بن زيد، و سأل عن المربد فقال معاذ: هو ليتيمين لى و سأرضيهما. فاشتره النبى صلى الله عليه و سلم.

و فى شرف المصطفى: لما بركت الناقة على باب أبى أيوب، خرج جوار من بنى النجار يضربن بالدف و يقلن:

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

فقال النبى عليه الصلاة و السلام: أتحببني؟ قلنا: نعم يا رسول الله. فقال:

و الله و أنا أحبكن. قالها ثلاثاً. و فى رواية: يعلم الله أنى أحبكن.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢٣

و فى رواية الطبرى فى الصغير، فقال عليه السلام: الله يعلم أن قلبى يحبكن.

و فى المواهب اللدنية: فرح أهل المدينة بقدومه، عليه الصلاة و السلام، و أشرقت المدينة بحلوله فيها و سرى السرور إلى القلوب.

قال أنس بن مالك: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه الصلاة و السلام المدينة أضاء منها كل شىء، و لما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء. رواه ابن ماجه. قال رزين: صعدت ذوات الخدور على الأجاجير، يعنى السطوح، عند قدومه صلى الله عليه و سلم يقلن.

و فى الرياض النضرة: لما قدم النبى صلى الله عليه و سلم المدينة جعل الصبيان و النساء و الولائد يقولون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

و جب الشكر علينا ما دعا لله داعى

و فى رواية:

أيها المبعوث فيناجتت بالأمر المطاع

قال الطبرى: تفرق الغلمان و الخدم فى الطرق ينادون: جاء محمد، جاء رسول الله. و فى الرياض النضرة: خرج أهل المدينة حتى أن العواتق لفوق البيوت يقلن: أيهم هو، أيهم هو.

و فى خلاصة الوداع: ثنية الوداع، بفتح الواو، معروف شامى المدينة خلف سوقها القديمة، بين مسجد الراية و مشهد النفس الزكية قرب سلع.

وقال عياض: هي موضع بالمدينة بطريق مكة. وقيل واد بمكة، و الأول أصح.

وفي المواهب اللدنية: أنشئ هذا الشعر عند قدومه. رواه البيهقي في الدلائل، و أبو الحسن بن مقرئ في كتاب الشمائل له، عن ابن عائشة. و ذكره الطبري في الرياض النضرة عن الفضل بن الجمحي قال: سمعت ابن عائشة يقول أراه عن أبيه، فذكر و قال. خرج الحلواني على شرط الشيخين. و سميت ثنية الوداع، لأن المسافر من المدينة كان يشيع إليها و يودع عندها قديما.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢٤

و صحح القاضي عياض هذا، و استدلل عليه بقول نساء الأنصار حين قدم، عليه الصلاة و السلام- طلع البدر علينا- من ثنيات الوداع. فدل على أنه اسم قديم.

وقال شيخ الإسلام، الولي ابن العراقي: ففي صحيح البخاري، و سنن أبي داود، و الترمذي، عن السائب بن يزيد قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم من تبوك خرج الناس يتلقونه من ثنية الوداع. قال: و هذا صريح بأنها من جهة الشام. و قال ابن القيم في الهدى النبوي: هذا و هم من بعض الرواة، فإن ثنية الوداع إنما هي من جهة الشام، لا يراها القادم من مكة و لا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام، و إنما وقع ذلك عند قدومه من تبوك، انتهى. لكن، قال زين الدين العراقي: يحتمل أن تكون الثنية التي من كل جهة يصل إليها المشيعون يسمونها ثنية الوداع، انتهى.

قال مؤلف الكتاب: يشبه أن يكون هذا هو الحق، و يؤيده جمع الثنيات، إذ لو كان المراد بها الموضع الذي هو من جهة الشام، لم يجمع، و لا مانع من تعدد وقوع هذا الشعر، مرة عند قومه، عليه الصلاة و السلام، من مكة، و مرة عند قدومه من تبوك، فلا ينافي ما في صحيح البخاري و غيره، و لا ما قاله ابن القيم عن جابر، أنه كان لا يدخل أحد المدينة إلا من ثنية الوداع، فإن لم يعشر بها مات قبل أن يخرج، فإذا وقف على الثنية قيل قد ودع، فسميت ثنية الوداع، حتى قدم عروة بن الورد فلم يعشر ثم دخل فقال: يا معشر يهود ما لكم و للتعشير. قالوا: لا يدخلها أحد من غير أهلها فلم يعشر بها إلا مات، و لا يدخلها أحد من ثنية الوداع إلا قتله الهزال. فلما ترك عروة التعشير تركه الناس و دخلوا من كل ناحية. كذا في الوفاء.

و عن أنس: لما قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم، لعبت الحبشة بحرابهم فرحا بقدومه صلى الله عليه و سلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢٥

[نزوله صلى الله عليه و سلم في دار أبي أيوب الأنصاري] رضى الله تعالى عنه

و لابن إسحاق عن أبي أيوب الأنصاري: لما نزل على رسول الله صلى الله عليه و سلم في بيتي نزل في السفلى، و أنا و أم أيوب في العلو فقلت: يا نبي الله، بأبي أنت و أمي، إنى أكره و أعظم أن أكون فوقك و تكون تحتي، فظهر أنت فكن في العلو و نزل نحن و نكون في السفلى. فقال: يا أبا أيوب، إن الأرقق بنا و بمن يغشانا أن نكون في سفلى البيت. قال: فكان رسول الله صلى الله عليه و سلم في سفله و كنا فوقه في المسكن فلقد انكسر حب لنا فيه ماء، فقامت أنا و أم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رأس رسول الله صلى الله عليه و سلم منه شيء فيؤذيه. و ذكر غيره أن أبا أيوب لم يزل يتضرع للنبي، عليه الصلاة و السلام، حتى تحول إلى العلو و أبو أيوب في السفلى.

و في الصفوة: عن أفلح، مولى أبي أيوب، أن رسول الله صلى الله عليه و السلام، لما نزل عليه نزل أسفل و أبو أيوب في العلو، فانتبه أبو أيوب ذات ليلة، فقال: نمشى فوق رأس رسول الله، عليه الصلاة و السلام، فتحول فباتوا في جانب. فلما أصبح ذكر ذلك للنبي، عليه الصلاة و السلام، فقال النبي، عليه الصلاة و السلام، الأسفل أرقق بي. فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت تحتها.

فتحول أبو أيوب في السفلى، و النبي، عليه الصلاة و السلام، في العلو. و سيجيء وفاته في الخاتمة في خلافة معاوية. و أفاد ابن سعد أن إقامته عليه الصلاة و السلام، بهذه الدار سبعة أشهر، بتقديم السين، و قيل إلى صفر من السنة الثانية.

وقال الدولابي: شهرا. كذا في سيرة مغلطاي. وقد ابتاع داره هذه وبيته المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث، من ابن أبي أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري بألف دينار فتصدق بها و هو في شرقي المسجد المقدس، ثم بيعت فاشتراها الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب بن شادي، أي عرصه دار أبي أيوب هذه، و بناها مدرسة للمذاهب الأربعة تعرف اليوم بالمدرسة الشهابية، و في إيوان قاعتها الصغرى الغربى خزانه صغيرة جدا مما يلي القبلة فيها محراب يقال إنها مبرك ناقته، عليه الصلاة والسلام.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢٦

قال ابن إسحاق: إن هذا البيت بناه تبع الأول لما مر بالمدينة للنبي عليه الصلاة والسلام، ينزله إذا قدم المدينة، و ترك فيها أربعمائة عالم و كتب كتابا للنبي عليه الصلاة والسلام، و دفعه إلى كبيرهم و سأله أن يدفعه للنبي، عليه الصلاة والسلام، فتداول البيت الملاك إلى أن صار إلى أبي أيوب، و أن أبا أيوب من ذرية الحبر الذي أسلمه تبع كتابه. و في رواية: أرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام، إلى ملأ- بنى النجار، فقال: يا بنى النجار ثامنوني بحائطكم. قالوا: و الله لا نطلب ثمنه إلا من الله عز و جل.

و في خلاصة الوفاء: قال الغلامان: بل نهبه لك يا رسول الله. فأبى رسول الله، عليه الصلاة والسلام، أن يقبله هبة حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ذهباً و دفعها أبو بكر الصديق.

و في رواية: أداها من مال أبي بكر و كان قد خرج من مكة بماله كله. كذا في المواهب اللدنية.

و عن النوار بنت مالك، أم زيد بن ثابت، أنها رأت أسعد بن زرارة قبل أن يقدم رسول الله عليه الصلاة والسلام، يصلى بالناس الصلوات الخمس و يجمع بهم في مسجد بناه في مبرد سهل و سهيل ابني رافع بن عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار. قالت: فأنظر إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، لما قدم صلى بهم في ذلك المسجد و بناه فهو مسجده اليوم. و نقل ابن سيد الناس، عن ابن إسحاق: أن الناقة بركت على باب مسجده، عليه الصلاة والسلام، و هو يومئذ ليتيمين من بنى مالك بن النجار، في حجر معاذ بن عفراء، سهل و سهيل ابني عمرو.

انظر: صورة رقم ١٩، القبة الخضراء

و قال أحمد بن يحيى البلاذري: فنزل رسول الله عليه الصلاة والسلام، عند أبي أيوب، و وهب له الأنصار كل فضل كان في خطتها. و قالوا: يا نبي الله، إن شئت فخذ منازلنا. فقال لهم خيرا. و كان أبو أمامة أسعد بن زرارة يجمع بمن يليه في مسجد له، فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام، يصلى بهم، ثم إنه سأل أسعد أن يبيع أرضا متصلة بذلك المسجد كان في يده ليتيمين في حجره يقال

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢٧

لهما سهل و سهيل ابنا رافع. انتهى كل ذلك من تاريخ الخميس. و إليك ترجمة أبي أيوب الأنصاري رضى الله تعالى عنه.

ترجمة أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه

بمناسبة نزول رسول الله صلى الله عليه و سلم عند أبي أيوب الأنصاري، رضى الله عنه، حين وصوله من مكة الى المدينة، نعقد هنا فصلا لترجمته فنقول:

جاء في شرح " زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم " في الجزء الخامس عند حديث «يهود تعذب في قبورها» ما نصه:

و أما راوى الحديث فهو أبو أيوب الأنصاري، و هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن كعب أبو أيوب النجارى، من بنى غنم بن مالك بن النجار، غلبت عليه كنيته أمه هند بنت سعد بن عمرو الأنصارية الخزرجية، شهد العقبة و بدر و سائر المشاهد، و عليه نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم في خروجه من بنى عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجرا من مكة، فلم يزل عنده حتى بنى مسجده

الشريف في تلك السنة، وبنى مساكن أمهات المؤمنين، ثم انتقل صلى الله عليه وسلم إلى مسكنه و آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين مصعب بن عمير.

وأخرج ابن عبد البر في الاستيعاب بإسناده إلى أبي رهم السماعي أن أبا أيوب الأنصاري حدثه قال: نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا الأسفل و كنت في الغرفة، فأهريق ماء في الغرفة ففقت أنا و أم أيوب بقطيفه تتبع الماء شفقه أن يخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم و أنا مشفق، فقلت: يا رسول الله، إنه ليس ينبغي أن نكون فوقك، انتقل إلى الغرفة. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمتاعه أن ينقل، و متاعه قليل. و ذكر تمام الحديث.

ولأبي أيوب الأنصاري من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة و خمسون حديثاً اتفق البخاري و مسلم على سبعة منها، و انفرد البخاري بحديث و مسلم بخمسة، و روى أيضا عن أبي بن كعب. و روى عنه البراء بن عازب، و زيد بن خالد، و المقدم بن معدى كرب، و ابن عباس، و جابر بن سمرة، و أنس، و عروة، و عطاء الليثي، و غيرهم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢٨

و روى عن سعيد بن المسيب، أن أبا أيوب أخذ من لحيه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فقال: لا يصيبك سوء يا أبا أيوب. و أخرج أبو بكر بن أبي شيبة، و ابن أبي عاصم من طريق أبي الخير، عن أبي رهم في حديث عن أبي أيوب أنه قال: قلت يا رسول الله كنت ترسل إلى الطعام فأنظر فأضع أصابعي حيث أرى أثر أصابعك حتى كان هذا الطعام. قال: أجل، إن فيه بصلا، فكرهت أن آكل من أجل الملك، و أما أنتم فكلوا.

و كان أبو أيوب مع علي بن أبي طالب في حروبه كلها، ثم مات بالقسطنطينية من بلاد الروم زمن معاوية، و كانت غزاته تلك تحت راية يزيد بن معاوية، و هو كان أميرهم يومئذ، و ذلك سنة خمسين أو إحدى و خمسين، و قيل سنة اثنتين و خمسين و هو الأكثر. و قد أسند ابن عبد البر في الاستيعاب، عن أبي ظبيان، عن أشياخه أن أبا أيوب خرج غازيا في زمن معاوية، فمرض فلما ثقل قال لأصحابه: إذا أنا مت فاحملوني، فإذا صافتم العدو فادفوني تحت أقدامكم، ففعلوا. و لما ولي معاوية يزيد على الجيش إلى القسطنطينية جعل أبو أيوب يقول:

و ما على إن أمر علينا شاب. فمرض في غزوته تلك، فدخل عليه يزيد يعوده فقال له: أوصني. قال: إذا مت فكفوني ثم مر الناس أن يركبوا ثم يسيروا في أرض العدو حتى إذا لم تجدوا مساعا فادفوني. قال: ففعلوا.

و كان أبو أيوب يقول: قال الله عز و جل: انْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا، فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً. و نقل نحو هذا عن المقداد بن الأسود. و قال ابن القاسم، عن مالك: بلغني عن قبر أبي أيوب أن الروم يستصحون به و يستسقون و قبر أبي أيوب قرب سور القسطنطينية و هو معلوم إلى اليوم معظم يستسقون به فيسقون، ولأبي أيوب عقب.

و قيل إن يزيد بن معاوية أمر بالخيل بعد دفنه، فجعلت تدبر و تقبل على قبره، حتى عفى أثر قبره، روى هذا عن مجاهد. و قيل إن الروم قالت للمسلمين في صبيحة دفنهم لأبي أيوب: لقد كان لكم الليلة شأن. فقالوا: هذا رجل من أكابر أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم و أقدمهم إسلاما، و قد دفناه حيث رأيتم، و الله لئن نبش لأضرب لكم ناقوس في أرض العرب ما كانت لنا مملكة. روى هذا المعنى، عن مجاهد. و قال مجاهد أيضا: كانوا إذا أمحلوا كشفوا عن قبره فمطروا، رضى الله عنه و أرضاه، و مناقبه جمه، و قد وقفت على تأليف لبعض علماء عصرنا فيه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٢٩

انتهى من كتاب زاد المسلم.

إتيان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مسجد قباء و فضل الصلاة فيه

قال في شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم: قباء بضم القاف ممدودا و قد يقصر، و يذكر على أنه اسم موضع فيصرف، و على أنه اسم بقعة يؤنث و لا يصرف، و الأشهر مده و صرفه و تذكيره. انتهى.

ورد في الصحيحين و اللفظ للبخارى «كان النبي صلى الله عليه و سلم، يأتي مسجد قباء كل سبت ماشيا و راكبا، و كان عبد الله بن عمر يفعله» رواه عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما.

و لنقل مما ورد في ذلك نبذة من الأحاديث من كتاب "وفاء الوفا" للسهمودي، رحمه الله تعالى، فقد جاء فيه: روي في الصحيحين عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، قال: «كان النبي صلى الله عليه و سلم يزور قباء- أو يأتي قباء- راكبا و ماشيا».

زاد في رواية لهما: «فيصلى فيه ركعتين».

و روى ابن شبة، عن سعيد بن عمرو بن سليم مرسلا: «أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يطرح له على حمار أنبجاني لكل سبت ثم يركب إلى قباء».

و رواه ابن زباله بنحوه- و زاد:- «و يمشى حوله أصحابه».

و عن محمد بن المنكدر مرسلا قال: «كان النبي صلى الله عليه و سلم يأتي قباء صبيحة سبع عشرة من رمضان».

و في كتاب رزين، عن ابن المنكدر قال: أدركت الناس يأتون مسجد قباء صبيحة سبع عشرة من رمضان.

و روى ابن شبة، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر مرسلا: «أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يأتي قباء يوم الاثنين».

و عن أبي غزية قال: كان عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، يأتي قباء يوم الاثنين و يوم الخميس، فجاء يوما من تلك الأيام فلم يجد فيه أحدا من أهله،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٣٠

فقال: و الذى نفسى بيده، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبا بكر فى أصحابه نقل حجارتهم على بطوننا، يؤسس رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده ... الخ.

و روى ابن زباله، عن زيد بن أسلم قال: الحمد لله الذى قرب منا مسجد قباء، و لو كان بأفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد الإبل.

و قال ابن النجار: كان النبي صلى الله عليه و سلم نزل بقباء فى منزل كلثوم بن الهدم، و أخذ مرابه فأسس مسجدا و صلى فيه، و لم يزل ذلك المسجد يزوره صلى الله عليه و سلم و يصلى فيه أهل قباء، فلما توفى صلى الله عليه و سلم لم تزل الصحابة تزوره و تعظمه.

انتهى ما تقدم باختصار من كتاب وفاء الوفا.

جاء فى شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم" عند حديث:

«كان النبي صلى الله عليه و سلم يأتي مسجد قباء كل سبت ماشيا و راكبا ... الخ» ما ملخصه:

و مسجد قباء بينه و بين المدينة المنورة ثلاثة أميال أو ميلان، و هو أول مسجد بناه رسول الله صلى الله عليه و سلم و كان يحمل الحجارة بنفسه الشريفه إعانة للعملة على بنائه.

و قال جماعة من السلف، منهم ابن عباس: إنه المسجد المؤسس على التقوى، و هو مسجد بنى عمرو بن عوف، و قد سمي باسم بئر هناك، و فى وسطه مبرك ناقه رسول الله صلى الله عليه و سلم و فى صحنه مما يلي القبلة شبه محراب، هو أول موضع ركع فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم هناك.

ثم قال: و فى هذا الحديث فضل مسجد قباء و فضل الصلاة فيه اقتداء بالنبي صلى الله عليه و سلم و كذلك فيه استحباب أن يكون ذلك فى يوم السبت، ثم قال: و لا يخفى أن المسجد الأقصى و مسجد قباء أفضل من سائر المساجد غير المسجد الحرام و مسجد المدينة المنورة. انتهى من الكتاب المذكور.

و مما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء، ما أخرجه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص، قال: لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إلي من أن آتي بيت المقدس مرتين، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل.

و روى النسائي حديث سهل بن حنيف مرفوعاً: «من خرج حتى يأتي مسجد قباء فيصلي فيه، كان له عدل عمره». و عند الترمذي من حديث أسيد بن حضير، رضى الله تعالى عنه، رفعه: «الصلاة في مسجد قباء كعمره». قال

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٣١

شيخنا مؤلف زاد المسلم رحمه الله تعالى عند هذا الحديث: لكنه لم يثبت فيه تضعيف كالمساجد الثلاثة. اهـ.

و أخرج ابن ماجه و عمر بن شبة بسند جيد عن سهل بن حنيف، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلي فيه صلاة كان له كأجر عمره». رواه أحمد و الحاكم و قال: صحيح الإسناد.

و قال عمر بن شبة: حدثنا سويد بن سعيد، قال: حدثنا أيوب بن صيام، عن سعيد بن الرقيش الأسدي، قال: جاءنا أنيس بن مالك إلى مسجد قباء فصلي ركعتين إلى بعض هذه السورى، ثم سلم و جلس و جلسنا حوله، فقال:

سبحان الله ما أعظم حق هذا المسجد، لو كان على مسيرة شهر كان أهلاً أن يؤتى، من خرج من بيته يريد معتمداً إليه ليصلي فيه أربع ركعات، أقره الله بأجر عمره.

نقول: كيف لا يكون حق مسجد قباء عظيماً، و هو المسجد الذى أسس على التقوى، و قد بناه رسول الله صلى الله عليه و سلم و كان يحمل الحجارة بنفسه الكريمة لبنائه.

و الحقيقة أن ناحية قباء من أنفس نواحي المدينة المنورة و أجملها.

إن هذه الناحية تشرح الصدر، و تبسط النفس و تسر الناظرين، تمتد في أطرافها كلها البساتين و الزروع، و الثمار، مع وفرة المياه العذبة الصافية، و الجو البديع اللطيف، و المنظر الساحر الخلاب.

و ما أحلى قول القائل:

إذا كنت في أرض العوالي تشوقت لأرض "قبا" نفسى و فيها المؤمل

و إن كنت فيها قالت النفس ليت لى بأرض العوالي يا خليلي منزل

فيا ليت أنى كنت شخصين فيهماو يا ليت فى التحقيق أن لا تعلق

اللهم صل و سلم على محمد و على آل محمد كما صليت على إبراهيم و على آل إبراهيم، و بارك على محمد و على آل محمد، كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٣٢

أحكام الهجرة

إشارة

جاء فى الصحيحين، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «لا هجرة بعد الفتح و لكن جهاد و نية و إذا استنفرتم فانفروا ... الخ».

و جاء فيهما: «مضت الهجرة لأهلها أبايعه على الإسلام و الجهاد (يعنى أبا مجاشع). و سبب هذا الحديث كما فى الصحيحين من راوية مجاشع رضى الله عنه، قال: انطلقت بأبى معبد إلى النبى صلى الله عليه و سلم ليايعة على الهجرة، قال: مضت الهجرة لأهلها أبايعه على الإسلام و الجهاد». اهـ. بلفظ البخارى.

و جاء فيهما أيضاً أنه صلى الله عليه و سلم قال لأعرابى سأله عن الهجرة: «و يحكك إن شأن الهجرة شديد. فهل لك من إبل؟ قال: نعم.

قال: فهل تؤدي صدقتها؟ قال:

نعم. قال: فاعمل من وراء البحار، فإن الله لن يترك من عملك شيئاً. رواه البخارى و مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه.

و معنى: لن يترك، بفتح الياء و كسر التاء و نصب الراء و فتح كاف الخطاب، أى لن ينقصك من ثواب عملك شيئاً، و فى رواية: لم يترك بالجازم بدل الناصب و سكون الراء للجزم.

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى، فى شرحه على كتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم" فى الجزء الخامس عند حديث: «و يحك إن شأن الهجرة شديد» الخ ما ملخصه:

(تنبيهات) تتعلق بالهجرة و أحكامها، و ما هو حكم تاركها؟ و التفصيل بين من تركها اختياراً و بين من تركها عجزاً و اضطراراً. "التنبيه الأول: "تجب الهجرة على كل من كان مقيماً ببلاد الكفر و لا يقدر على إظهار الدين، فيجب عليه أن يهاجر إلى دار الإسلام، لأن من خاف على دينه و جبت عليه الهجرة من موضعه و ترك أبويه و أولاده كما فعل المهاجرون رضى الله تعالى عنهم. كما نص عليه القرطبى و نقله الألبى فى شرح صحيح مسلم فى أول كتاب البر و الصلة، و نص عليه غيره من سائر فقهاء المالكية و غيرهم، و هو ظاهر نصوص القرآن العظيم و الأحاديث الشريفة الصحيحة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٣٣

ثم اعلم أيها الطالب للهجرة و السائل عن حقيقتها: أن الهجرة بكسر الهاء فعلة من الهجر و هو ضد الوصل، ثم غلب ذلك على الخروج من أرض إلى أرض و ترك الأولى للثانية قاله فى النهاية، فالهجرة لغو الترك لأن الهجرة إلى الشيء الانتقال إليه عن غيره و فى الشرع ترك ما نهى الله عنه، كذا قاله الحافظ ابن حجر، و قال العيني: و هى فى الشرع مفارقة دار الكفر إلى دار الإسلام خوف الفتنة، و طلب إقامة الدين، و فى الحقيقة مفارقة ما يكرهه الله تعالى إلى ما يحبه، و من ذلك سمي الذين تركوا وطن مكة و تحولوا إلى المدينة من الصحابة بالمهاجرين لذلك.

قال الحافظ ابن حجر: و قد وقعت فى الإسلام على وجهين:

الأول: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما فى هجرة الحبشة و ابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة.

الثانى: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان و ذلك بعد أن استقر النبى صلى الله عليه و سلم بالمدينة و هاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين، و كانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة، إلى أن فتحت مكة، فانقطع الاختصاص و بقى عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقياً. ١٥.

قوله: و بقى عموم الانتقال من دار الكفر الخ، أى و بقى عموم وجوب الانتقال من دار الكفر أو دار الإسلام التى جرى عليها حكم الكفر إلى بلد يسلم فيه دين المسلم من بلاد الإسلام، و يختار فى آخر الزمان أقلها إثماً و أحوطها لسلامة العرض و الدين و المال، ثم اعلم أن حديث المتن الذى هو: و يحك إن شأن الهجرة شديد المشعر بأن المسلم إذا كان يؤدي فرض الله تعالى فى ماله و نفسه، لا بأس بعدم هجرته لقوله، عليه الصلاة و السلام: فاعمل من وراء البحار الخ، فحاله فيمن لم يكن تحت حكم عدو الدين، أما من كان تحت سلطة الكفرة بحيث يخاف على دينه و أهله و ماله كما هو مشاهد اليوم فيمن بقى تحت حكمهم، فإن الهجرة لا تزال واجبة عليه إلى قيام الساعة، و لا حجة له فى حديث: لا هجرة بعد الفتح، لما قررناه سابقاً عند حديث: مضت الهجرة لأهلها، المذكور فى حرف الميم فى الجزء الثالث، من أن معنى: لا هجرة بعد الفتح، أى لا هجرة واجبة من مكة إلى المدينة، لأن مكة صارت دار إسلام بالفتح لانتفاء على الكفر الموجبة للهجرة منها، و هكذا الحكم فى كل بلد كان عليه حكم الكفر ثم زال عنه،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٣٤

لقوله صلى الله عليه و سلم للأعرابي الذى سأله عنها: و يحك إن شأن الهجرة شديد، الخ. أى فلا تجب عليك ما دمت غير جار

عليك حكم أهل الكفر، و من ذلك المعنى أيضا عدم أمره صلى الله عليه و سلم الوفود عليه قبل الفتح بأن يهاجروا، فقد تبين بما قررناه معنى حديث: لا هجرة بعد الفتح، و موضوع حديث: و يحك إن شأن الهجرة شديد.

قال الإمام النووي: و أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، فقال العلماء إنها واجبة إلى قيام الساعة، و تأولوا هذا الحديث بأن الهجرة المهمة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازاً ظاهراً انقطعت بفتح مكة و مضت لأهلها، أو أن معنى: لا هجرة، لا هجرة من مكة لأنها صارت دار إسلام. انتهى كلامه، و هو موافق لما ذكرناه لك آنفاً. قال القرطبي: و على هذا فلا يجوز لمسلم دخول بلد الكفر لتجر أو غيره، إلا لضرورة في الدين كالداخل لفداء مسلم: و قد أبطل مالك شهادة من دخل دار الحرب للتجارة. اهـ.

و مما يوضح لك أن محل حديث: لا هجرة بعد الفتح، و حديث: و يحك إن شأن الهجرة شديد، حيث لم يكن المسلم تحت حكم الكفر، و أما إن كان تحته، و خاف على دينه و أهله و ماله، فلا يزال وجوب الهجرة باقياً عليه: ما رواه البخاري: أن عبيد بن عمرو سأل عائشة، رضی الله عنها، عن الهجرة، فقالت:

لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله و إلى رسوله مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، و المؤمن يعبد ربه حيث شاء و لكن جهاد و نية، اهـ. فقولها: فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام الخ، دال على أن موضوع الحديثين المذكورين حيث كان المسلم مقيماً تحت حكم الإسلام، و مما هو بمعنى الحديثين المذكورين في أن المسلم ما دام متمكناً من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و غير ذلك من أمور دينه، مما لا يتأتى غالباً لمن كان تحت حكم الكفر. ما رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص، قال: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله أين الهجرة إليك حيث كنت، أم إلى أرض معلومة، أم لقوم خاصة، أم إذا مت انقطعت؟ قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه و سلم ساعة، ثم قال: أين السائل عن الهجرة؟ قال: ها أنا ذا يا رسول الله. قال: إذا أقمت الصلاة و آتيت الزكاة فأنت مهاجر و إن مت بالحضرة. قال: يعني أرضاً باليمامة. و في رواية له:

الهجرة، أن تهجر الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، و تقيم الصلاة، و تؤتي الزكاة، ثم أنت مهاجر و إن مت بالحضرة، اهـ. و فيه دليل على أن بلاد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٣٥

الحضرة من أحسن البلاد لمبالغته بها، و هو دليل للنهي عن سكنها اختياراً كما هو واضح.

(التنبيه الثاني): قد علمت مما بسطناه في التنبيه الأول، أن الهجرة لا تزال واجبة من كل بلد تجرى عليه أحكام الكفرة بحيث لا يتمكن المسلم فيه من إقامة دينه، و مما يدل على ذلك، ما رواه أبو داود و النسائي من حديث معاوية، رضی الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، و لا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها. و ما رواه أحمد في مسنده أيضاً من حديث عبد الرحمن بن عوف، و معاوية، و عبد الله بن عمرو بن العاص، رضی الله عنهم، أن النبي عليه الصلاة و السلام، قال: الهجرة خصلتان إحداهما تهجر السيئات، و الأخرى تهاجر إلى الله و إلى رسوله، و لا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، و لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه و كفى الناس العمل. و روى أحمد من حديث ابن السعدى مرفوعاً: لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل. و روى أحمد أيضاً من حديث جنادة بن أبي أمية مرفوعاً: إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد. و أخرج البغوي و غيره من طريق الوليد بن سليمان، عن بسر بن عبيد الله، عن ابن محيريز، عن عبد الله بن السعدى، عن محمد بن حبيب، قال: أتينا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقلنا: يا رسول الله، إن رجالاً يقولون قد انقطعت الهجرة، فقال: لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار. قال البغوي، رواه غير واحد عن ابن محيريز، عن عبد الله بن السعدى، و أن النسائي أخرجه من طريق أبي إدريس، عن عبد الله بن السعدى ليس فيه محمد بن حبيب اهـ. من ترجمة محمد بن حبيب النصرى في الجزء الثالث من الإصابة. و أخرج نحوه أبو حاتم، و ابن حبان من طريق عبد الله بن محيريز، عن عبد الله بن السعدى و لفظه، عن رسول الله صلى الله عليه و سلم: لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو، و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين.

قالوا: يا رسول الله و لم؟ قال: لا تترائى ناراهما، أخرجه الترمذى من رواية جرير بن عبد الله فى باب ما جاء فى كراهية المقام بين أظهر المشركين، و أخرجه أيضا أبو داود من روايته فى باب على ما يقاتل المشركون من سننه، و أخرج أبو داود فى آخر كتاب الجهاد من سننه عن سمرة بن جندب، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

من جامع المشرك و سكن معه فإنه مثله، و أخرجه الترمذى فى سننه من رواية سمرة بن جندب معلقا، و روى النسائى من طريق بهز بن حكيم بن معاوية، عن أبيه،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٣٦

عن جده مرفوعا: لا- يقبل الله من مشرك عملا- بعد ما أسلم أو يفارق المشركين، و من حديث أخرجه الطبرانى عن أبى هريرة: جاهدوا تغنموا و هاجروا تفلحوا.

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على دوام وجوب الهجرة و أنها لا تنقطع حتى تنقطع التوبة.

أما الآيات القرآنية الدالة على تحريم مساكنة أعداء الدين، و البقاء تحت حكمهم فهى كثيرة، جمع منها صاحب المعيار جملة وافرة، و هى شديدة جدا على القاطنين من المسلمين تحت حكم الكفرة مع قدرتهم على الهجرة عنهم، و لكثرتها، مع العلم بها، لم تعرض لنقلها فى هذا التنبيه و اكتفيت بتخريج الأحاديث الواردة فى وجوب الهجرة، و لو أردت نقل الآيات الدالة على ذلك لكان ذكرها قبل الأحاديث أولى، قال صاحب المعيار بعد ذكرها و ذكر جملة من الأحاديث فى هذا المعنى: فتعاضد هذه النصوص القرآنية و الأحاديث النبوية و الإجماعات القطعية على هذا النهى، فلا تجد فى تحريم هذه الإقامة و هذه الموالاة الكفرانية مخالفا عن أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه، و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فهو تحريم مقطوع به من الدين، كتحريم الميتة و الدم و لحم الخنزير و قتل النفس بغير حق، و أخواته من الكليات الخمس التى أطبق أرباب الملل و الأديان على تحريمها، و من خالف الآن فى ذلك، أو رام الخلاف من المقيمين معهم و الراكنين إليهم، فجوز هذه الإقامة و استخف أمرها و استسهل حكمها، فهو مارق من الدين و مفارق لجماعة المسلمين، و محجوج بما لا مدفع فيه لمسلم، و مسبوق بالإجماع الذى لا سبيل إلى مخالفته و حرق سبيله. اه كلام صاحب المعيار، الذى قال فيه ابن الإمام غازى: هو جبل من علم يمشى على وجه الأرض.

و قد روى أشهب عن مالك: لا يقيم أحد فى موضع يعمل فيه بغير الحق، و قال أبو الوليد بن رشد فى أول كتاب التجارة من مقدماته: فرض الهجرة غير ساقط بل الهجرة باقية لازمة إلى يوم القيامة، و قد كره مالك رحمه الله أن يسكن أحد ببلدة يسب فيها السلف، فكيف ببلد يكفر فيه بالرحمن، و تعبد فيه من دونه الأوثان، لا تستقر نفس أحد مسلم على هذا إلا مسلم مريض الإيمان. اه.

(التنبيه الثالث): لا يشترط شرعا فى صحة الهجرة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم أن تكون إلى المدينة المنورة خاصة، بل تعتبر شرعا و يعتد بحصولها و أداء فرضها من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٣٧

المسلم المهاجر عن بلد لم يتمكن فيه من إقامة دينه، أو بلد تسب فيه الصحابة، رضى الله عنهم، و من باب أخرى بلد يسب فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم أو يحتقر فيه و لا يعظم، لأن تعظيمه واجب بالكتاب و السنة و إجماع الأمة كما بسطناه فى غير هذا الموضع، و إن كان الأولى فى الهجرة و الأكمل أن تكون إلى المدينة المنورة مهما وجد المهاجر إلى ذلك سبيلا.

أما من لم يجد إليه سبيلا، فليس فى استيطانه غيرها نقص فى هجرته شرعا، و لا يعد بذلك كمن ترك المدينة رغبة عنها، بل يثبت له أجر القاطن بها، إن حبسه عذر شرعى عن دوام سكنائها مع عزمه على ذلك مهما أمكنه، لما رواه البخارى فى صحيحه فى باب نزول النبى صلى الله عليه و سلم الحجر من رواية أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: إن بالمدينة أقواما، ما سرتهم مسيرا و لا قطعتم واديا إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله و هم بالمدينة. قال: و هم بالمدينة حبسهم العذر اه. فقولته: حبسهم العذر، تعليل لكون الله تعالى أثبت لهم أجر المجاهدين و لو لم يسيروا معهم بأبدانهم فقد

بلغت بهم نيتهم وعزمهم مبلغ أولئك المجاهدين السائرين له بأبدانهم، وهم على فرشهم في بيوتهم، وهذا الحديث أصل عظيم في كون نية المؤمن كعمله، لا سيما إن كانت مع العزم الأكيد، وهو دليل أيضا، لأن كل من نوى خيرا و غلب عنه بعدر محقق كمرض و نحوه ثبت له أجر ذلك الخير الذي عزم عليه، كما أشار له صاحب روضة السرين بقوله:

و من نوى الخير لكن قد غلب عنه فأجر ما نوى له جلب

كغفلة و سفر و مرض و كبر و غير ذا من عرض

و قولى: أو بلد تسب فيه الصحابة الخ، أشرت به إلى ما صرح به الخطاب في أول فصل صلاة السفر بقوله: و كذلك يجب الهروب من بلد يسمع فيها سب الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، و لو كان مكة المكرمة و المدينة اه.

و قولى: و لا يعد بذلك كمن ترك المدينة رغبة عنها الخ، يؤيده ما ذكره السيوطى فى حاشيته المسماة بتنوير الحوالك على موطأ الإمام مالك، فى باب ما جاء فى سكنى المدينة و الخروج منها، عند حديث: لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرا منه، فقد قال هنا ما نصه عن ابن عبد البر، و الحديث عندى خاص بحياته صلى الله عليه و سلم و أما بعده فقد خرج منها جماعة من أصحابه و لم تعوض

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٣٨

المدينة بخير منهم، و قال الباجى: و المراد يخرج رغبة عن ثواب الساكن فيها، و أما من خرج لضرورة شدة زمان أو فتنه، فليس ممن يخرج رغبة عنها، قال: و المراد به من كان مستوطنا بها فرغب فى استيطان غيرها، و أما من كان مستوطنا غيرها فقدمها للقربة و رجع إلى وطنه، أو كان مستوطنا بها فخرج مسافرا لحاجته، فليس بخارج منها رغبة عنها، قال: و الإبدال إما بقدم خير منه من غيرها، أو مولود يولد فيها، اه. بلفظه. نسأل الله تبارك و تعالى أن يردنا لها آمين و يرزقنا بها الشهادة و الموت على الإيمان بجوار شفيع المدنيين، عليه و على آله و أصحابه الصلاة و السلام، و أن يجعلنا فى جواره فيها و فى الفردوس دار السلام و الإكرام.

(التنبية الرابع): قد تحرر مما أسلفناه فى التنبهات المذكورة أنه لا- خلاف فى وجوب الهجرة على غير المعذور بالاستضعاف المنصوص عليه فى القرآن بقوله تعالى: **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا** فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُرَ لَهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا.

و أن غير المعذور بالاستضعاف المذكور فى الآية، إن ترك الهجرة عمدا يكون عاصيا بتركها مصادما لنصوص القرآن و السنة كما تقدم، و قد أشار إليه شقيقنا و شيخنا العلامة المرحوم ذو المناقب الشيخ محمد العاقب فى منظومته فى أحكام الجهاد و الهجرة بقوله:

و هجرة من أرضهم ما اختلفا فى فرضها على امرئ ما استضعفا

و إن أباهما مسلم قد أخلصافهو على إسلامه و قد عصى

و أما المعذور بالاستضعاف المذكور، أو بتغلب الكفرة عليه بغته قبل أن يتمكن من الهجرة، فهو غير آثم شرعا، بشرط عزمه على الهجرة متى أمكنه فعلها بأى حيلة أمكنته شرعا، مع أن الحزم و الأحوط شرعا أن يبادر بها المعذور، فإن من تكلف و خرج مهاجرا و هو معذور شرعا يضاعف له الأجر كالأعرج و شبهه إذا تكلف فى الجهاد مع سقوطه عنه بنص الكتاب العزيز، فلا يكون آثما بل يضاعف له الأجر، كما فى "ضياء التأويل".

فالعاقل لا يتركها و هى فى إمكانه و لو عذر شرعا، لثلا يتمكن عدو الدين من منعه منها و من إقامة دينه، و يستولى على نسائه و أبنائه و يحول بينه و بينهم بالارتداد و أخس الاستعباد، و ربما ردوه عن دينه قهرا فى زمان ضعف أهل الإسلام، و لله در أخينا الشيخ محمد العاقب المذكور، رحمه الله، حيث يقول فى نصيحته لمن لم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٣٩

يهاجر من قطر شنقيط فى أو ان هجرتنا من تلك البلاد أعادها الله تعالى دار إسلام، و حرس ساكنيها من الشر و الآثام:

فالسرعَةُ السرعةُ قبل أن يهاض العظم أو يقص ريش الأجلد

قبل اللحاق ينفع الفرار لامن بعده فالحزم رأى العجل

و المهاجر في هذا الزمن الذي عم فيه استيلاء الكفرة على جميع بلاد الإسلام، لا يمكنه فعل الهجرة إلا بمحض التوكل على الله تعالى في أن يوفقه للهجرة إلى بلد يسلم له فيه دينه و لو على رأس جبل، فإن من توكل عليه تعالى في أى شىء هداه للرشاد فيه، و النجاح لقوله تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، و غيرها من آيات التوكل عليه تعالى، فإن هذا الزمان هو الزمان المشار له بحديث: يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر من شاهق إلى شاهق، و هو المشار له بحديث الصحيح و هو قوله عليه الصلاة و السلام: يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال و مواقع القطر يفر بدينه من الفتن. رواه البخارى فى مواضع من صحيحه، فقد أخرجه فى كتاب الإيمان، و فى كتاب الرقاق، و علامات النبوة، و كتاب الفتن، و أخرجه أبو داود و النسائى أيضا، فهو زمان الفتن الذى يكون المهاجر فيه إذا بدا بعد هجرته غير ملعون و لا آثم، بل يكون فاعلا ما هو خير له فى دينه، لما أخرجه الطبرانى من حديث جابر بن سمرة رفعه: لعن الله من بدا بعد هجرته إلا فى الفتنة فإن البدو خير من المقام فى الفتنة.

و قد نص صاحب "المعيار" و غيره، على أن الكفر إذا عم البلاد، يختار المرء المسلم لهجرته أقل البلاد إثما، و مثل لذلك بما يعلم بالوقوف عليه و تركنا ذكره خوف السامة و الإفراط فى التطويل، و ظواهر نصوص القرآن و الأحاديث، دالة على أن الله تعالى لا يبد أن يدبر للمهاجر أمره حتى يتم له هجرته و يوسع عليه لأنه ضمن له ذلك فى قوله تعالى: وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً... الخ. فعلى الامتثال لأمره تعالى، و هو تعالى ضامن لتدبير أمورنا و أمننا و سعة أرزاقنا و صدورنا حيث هاجرنا فى سبيله و مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا، و إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ الْآيَتِينَ.

(التنبية الخامس): أرجى ما وقفت عليه من الأدلة لعذر المستضعفين من أهل أقطار بلاد الإسلام اليوم عن الهجرة، كقطر شنقيط المعروف عند أهل الجغرافية بالصحراء الكبرى، و بمريتان باللسان الإفرنجى، حديث المتن و حديث الإمام أحمد التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٤٠

من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص المتقدم ذكره لقوله عليه الصلاة و السلام، فيه: إذا أقمت الصلاة و آتيت الزكاة فأنت مهاجر و إن مت فى الحضرمة، و كذا ما أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب التوحيد منه فى باب قول الله تعالى: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ. عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: من آمن بالله و رسوله، و أقام الصلاة، و صام رمضان، كان حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها. قالوا: يا رسول الله، أفلا ننبئ الناس بذلك؟ قال: إن فى الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين فى سبيله، كل درجتين بينهما كما بين السماء و الأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة و أعلى الجنة، و فوقه عرش الرحمن و منه تفجر أنهار الجنة ه.

و أخرجه أيضا فى باب درجات المجاهدين فى سبيل الله من كتاب الجهاد، و ليس فى البخارى فى الموضوعين و آتى الزكاة، قال القسطلانى فى كتاب الجهاد: فكان الاقتصار على ما ذكر إن كان محفوظا لأنه هو المتكرر غالبا، و أما الزكاة فلا تجب إلا على من له مال بشرطه، و الحج لا يجب إلا مرة على التراضى ه. و هذا الحديث أخرجه الترمذى أيضا فهو مع حديث المتن.

و حديث الإمام أحمد المذكور سابقا من أرجى الأدلة الصحيحة لعذر أهل بلادنا المعروفة بالصحراء الكبرى، لعجزهم غالبا عن الهجرة بالفقر و بسرعته تغلب العدو عليهم قبل التأهب للهجرة، و إن كان ظاهر هذه الأحاديث و ورودها بعد فتح مكة و هى بعد فتحها صارت دار إسلام، و كذلك غيرها من البلاد التى دخلها الإسلام فى حياة رسول الله عليه الصلاة و السلام، أو فتحت بعده على أيدي الصحابة رضوان الله عليهم.

و أما كل بلد تغلب عليه الكفرة من بلاد الإسلام و أجروا أحكامهم عليه، فلا تزال الهجرة واجبة منه إلى يوم القيامة كما تقدم، لأن الحكم يدور مع علته وجودا و عدما، و لكننا نسأل الله تعالى الذى سبقت رحمته غضبه، أن يمن علينا و على إخواننا الذين لم يهاجروا

بالغفران و يختم لنا بأكمل الإيمان بجوار سيد بنى عدنان رسولنا محمد، عليه و على آله و أصحابه الصلاة و السلام الأكملان. (و مما يؤيد عذر من تغلب عليه العدو فجأة) و منعه من الهجرة و هو عاجز عن قتاله و عن الهجرة دون إذنه، ما حققه الجلال السيوطى فى كتاب الإتقان، فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٤١

النوع السابع و الأربعين فى ناسخ القرآن و منسوخه، فى المسألة الرابعة من مسائل الناسخ و المنسوخ.

(و حاصل) ما حققه: أن ما أمر به لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف و القلة بالصبر و الصبح، ثم نسخ بإيجاب القتال ليس فى الحقيقة نسخاً، بل هو من قسم المنسأ كما قال تعالى: **أَوْ نُؤَيِّبُهَا، فَاَلْمَنَسَأُ هُوَ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ إِلَى أَنْ يَقْوَى الْمُسْلِمُونَ.** و فى حال الضعف يكون الحكم و جوب الصبر على الأذى، ثم ذكر أن كل أمر ورد يجب امتثاله فى وقت ما لعله تقتضى ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى الحكم آخر ليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله. و قال مكى: ذكر جماعة أن ما ورد فى الخطاب مشعراً بالتوقيت و الغاية، مثل قوله فى البقرة: **فَاعْتَفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ،** محكم غير منسوخ، لأنه مؤجل بأجل، و المؤجل بأجل لا نسخ فيه ا هـ.

ملخصاً منه مع تصرف يسير للإيضاح. فيؤخذ مما ذكره فى هذا القسم من النسخ، الذى هو فى الحقيقة قسم من المنسأ، أن صبر المسلمين على أذى الكفرة المحتلين لبلادهم إذا منعوهم من الهجرة، و الحال أنهم لا قدرة لهم على جهادهم لا يأثمون به، لعذرهم بالعجز و سرعة تغلب العدو عليهم بغتة قبل أن يستعدوا لجهادهم أو للهجرة عنهم، لا سيما مع اختلاف كلمتهم و تفرق آرائهم و إن كانوا مأمورين بعدم التنازع خوف الفشل، لأن التكليف بحسب الإمكان، و الإثم فى مثل هذه الصورة فى ترك الجهاد و الهجرة معا، إنما يتعلق بأهل الحل و العقد لا بالضعاف المغلوبين على أمرهم.

هذا ما تحرر عندى من خلاصة أحكام الهجرة فى هذا الزمان الذى عم الكفر فيه جميع بلاد الإسلام إلا ما لا يذكر لضعف شأنه، و قد كنت فى ابتداء هجرتنا من أوطاننا ألقت رسالته فى وجوبها و سميتها "مزملة الحرج فى رد ما عند من أسقط الهجرة من الحجج" تحريت فيها الحق غاية جهدى، و لم أكفر من تركها متأولاً، و لم أفت بإباحة أموالهم لمن يزعم أنه مجاهد، و إن خالفنى فى ذلك بعض مشايخى و إخوتى، رحم الله الجميع و غفر لهم، ثم جربت البلاد المشرقية بعد هجرتى للحرمين الشريفين، و اختبرت أحوال سائر البلاد و أحوال المهاجرين فى هذا الزمن، و المتوكل منهم كحال الصحابة فى بدء هجرتهم و غير المتوكل، فزدت لذلك فى رسالتى المذكورة مسائل دقيقة و فوائد نافعة، و لخصت فى هذه التنبيهات

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٤٢

الخمسة زبده أحكامها، و إنى أسأل الله تعالى أن يتقبل منا هجرتنا الأولى و الثانية، و يتجاوز عن كل من لم يهاجر من المسلمين، و يختم لى و لأقاربه و أحببى بالإيمان، بجوار رسول الله صلى الله عليه و سلم بدار الهجرة المدينة المنورة مع امتثال السنة فى هذا الزمان.

و إنما أطلت فى شرح هذا الحديث لمسييس الحاجة بذلك، و الله تعالى هو المرجو لما هنا و ما هنالك. و هذا الحديث كما أخرجه الشيخان، أخرجه أبو داود فى الجهاد من سننه، و أخرجه النسائى فى البيعة و فى السير من سننه أيضاً. انتهى من زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم.

حكم إقامة المهاجر بمكة بعد انقضاء النسك

نذكر هنا حكم إقامة المهاجرين، رضى الله تعالى عنهم، بمكة إذا أتوها للحج أو العمرة، فإن لهم حكماً غير حكم عامه المسلمين بسبب هجرتهم عن مكة إلى المدينة حبا فى نصره رسول الله صلى الله عليه و سلم. فلنذكر أولاً ما جاء فى الصحيحين عن ذلك، ثم

نذكر شرح الأحاديث من فتح الباري لابن حجر، و من شرح مسلم للنووي:

جاء في صحيح مسلم من كتاب الحج ما يأتي:

حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب، حدثنا سليمان، يعني ابن بلال، عن عبد الرحمن بن حميد، أنه سمع عمر بن عبد العزيز يسأل السائب بن يزيد يقول:

هل سمعت في الإقامة بمكة شيئاً؟ فقال السائب: سمعت العلاء بن الحضرمي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «للمهاجر إقامة ثلاث بعد الصدر بمكة» كأنه يقول: لا يزيد عليها.

حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن عبد الرحمن بن حميد، قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول لجلسائه: ما سمعتم في سكنى مكة؟ فقال السائب بن يزيد: سمعت العلاء، أو قال العلاء بن الحضرمي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثاً».

و حدثنا حسن الحلواني، و عبد بن حميد، جميعاً عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد، حدثنا أبي عن صالح، عن عبد الرحمن بن حميد، أنه سمع عمر بن عبد العزيز

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٤٣

يسأل السائب بن يزيد فقال السائب: سمعت العلاء بن الحضرمي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ثلاث ليال يمكنهن المهاجر بمكة بعد الصدر».

و حدثنا إسحاق بن إبراهيم: أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج و أملاه علينا إملاء، أخبرني إسماعيل بن محمد بن سعد، أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره أن السائب بن يزيد، أخبره أن العلاء بن الحضرمي، أخبره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثاً». انتهى من صحيح مسلم.

و جاء في صحيح البخاري في باب الإسراء: حدثني إبراهيم بن حمزة، حدثنا حاتم عن عبد الرحمن بن حميد الزهري قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يسأل السائب بن أخت النمر: ما سمعت في سكنى مكة؟ قال: سمعت العلاء بن الحضرمي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث للمهاجر بعد الصدر». انتهى من البخاري.

جاء في فتح الباري لابن حجر عند هذا الحديث المروي في البخاري ما نصه:

«قوله: بعد الصدر» بفتح المهملتين، أي بعد الرجوع من منى. وفقه هذا الحديث أن الإقامة بمكة كانت حراماً على من هاجر منها قبل الفتح، لكن أبيع لمن قصدها منهم بحج أو عمرة أن يقيم بعد قضاء نسكه ثلاثة أيام لا يزيد عليها، ولهذا رثى النبي، صلى الله عليه وسلم، لسعد بن خولة أن مات بمكة. و يستنبط من ذلك، أن إقامة ثلاثة لا تخرج صاحبها عن حكم المسافر، و في كلام الداودي اختصاص ذلك بالمهاجرين الأولين، و لا معنى لتقييده بالأولين، قال النووي: معنى هذا الحديث:

أن الذين هاجروا يحرم عليهم استيطان مكة، و حكى عياض أنه قول الجمهور قال: و أجازهم جماعة، يعني بعد الفتح، فحملوا هذا القول على الزمن الذي كانت الهجرة المذكورة واجبة فيه، قال: و اتفق الجميع على أن الهجرة قبل الفتح كانت واجبة عليهم، و أن سكنى المدينة كان واجباً لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم و مواساته بالنفس، و أما غير المهاجرين فيجوز له سكنى أي بلد أراد سواء مكة و غيرها بالاتفاق، انتهى كلام القاضي، و يستثنى من ذلك من أذن له النبي صلى الله عليه وسلم بالإقامة في غير المدينة، و استدلل بهذا الحديث على أن طواف الوداع عبادة مستقلة ليست من مناسك الحج، و هو أصح الوجهين في المذهب لقوله في هذا الحديث: بعد قضاء نسكه لأن طواف الوداع لا إقامة بعده، و متى أقام بعده خرج عن كونه طواف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٤٤

الوداع، و قد سماه قبله قاضياً لمناسكه فخرج طواف الوداع عن أن يكون من مناسك الحج. و الله أعلم.

وقال القرطبي: المراد بهذا الحديث من هاجر من مكة إلى المدينة لنصر النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعنى به من هاجر من غيرها لأنه خرج جوابا عن سؤالهم لما تخرجوا من الإقامة بمكة، إذ كانوا قد تركوها لله تعالى فأجابهم بذلك وأعلمهم أن إقامة الثلاث ليس بإقامة، قال: والخلاف الذى أشار إليه عياض كان فيمن مضى، و هل ينبى عليه خلاف فيمن فرّ بدينه من موضع يخاف أن يفتن فيه فى دينه، فهل له أن يرجع إليه بعد انقضاء تلك الفتنة، يمكن أن يقال إن كان تركها لله كما فعله المهاجرون، فليس له أن يرجع لشيء من ذلك، وإن كان تركها فرارا بدينه ليسلم له ولم يقصد إلى تركها لذاتها، فه الرجوع إلى ذلك، انتهى، وهو حسن متجه إلا أنه خص ذلك بمن ترك ربا أو دورا ولا حاجة إلى تخصيص المسألة بذلك.

والله أعلم. انتهى من فتح البارى.

وجاء فى شرح الإمام النووى على صحيح مسلم عند الأحاديث المتقدمة ما نصه:

قوله صلى الله عليه وسلم: «يقيم المهاجر بمكة بعد انقضاء نسكه ثلاثا». وفى الرواية الأخرى: مكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا، وفى رواية: للمهاجر إقامة ثلاث بعد الصدر بمكة فإنه يقول لا يزيد عليها. معنى الحديث: أن الذين هاجروا من مكة قبل الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حرم عليهم استيطان مكة والإقامة بها، ثم أبيع لهم إذا وصلوها بحج أو عمرة أو غيرهما أن يقيموا بعد فراغهم ثلاثة أيام ولا يزيدوا على الثلاثة واستدل أصحابنا وغيرهم بهذا الحديث على أن إقامة ثلاثة ليس لها حكم الإقامة، بل صاحبها فى حكم المسافر، قالوا: فإذا نوى المسافر الإقامة فى بلد ثلاثة أيام غير يوم الدخول ويوم الخروج، جاز له الترخص برخص السفر من القصر و الفطر وغيرهما من رخصه ولا يصير له حكم المقيم، والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم: «يقيم المهاجر بعد قضاء نسكه ثلاثة» أى بعد رجوعه من منى كما قال فى الرواية الأخرى: «بعد الصدر» أى الصدر من منى، وهذا كله قبل طواف الوداع، وفى هذا دلالة لأصح الوجهين عند أصحابنا أن طواف الوداع ليس من مناسك الحج، بل هو عبادة مستقلة أمر بها من أراد الخروج من مكة، لأنه نسك من مناسك الحج، ولهذا لا يؤمر به المكى ومن يقيم بها، وموضع الدلالة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٢٤٥

قوله صلى الله عليه وسلم بعد قضاء نسكه. والمراد قبل طواف الوداع كما ذكرنا، فإن طواف الوداع لا إقامة بعده، ومتى أقام بعده خرج عن كونه طواف وداع فسماه قبله قاضيا لمناسكه. والله أعلم.

قال القاضى عياض رحمه الله: فى هذا الحديث حجة لمن منع المهاجر قبل الفتح من المقام بمكة بعد الفتح، قال: وهو قول الجمهور، وأجاز لهم جماعة بعد الفتح من الاتفاق على وجوب الهجرة عليهم قبل الفتح، و وجوب سكنى المدينة لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم ومواساتهم له بأنفسهم، وأما غير المهاجر ومن آمن بعد ذلك فيجوز له سكنى أى بلد أراد سواء مكة وغيرها بالاتفاق، هذا كلام القاضى.

قوله صلى الله عليه وسلم: «مكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا» هكذا هو فى أكثر النسخ ثلاثا وفى بعضها ثلاث ووجه المنصوب أن يقدر فيه محذوف أى مكثه المباح أن يمكث ثلاثا، والله أعلم. انتهى من كتاب صحيح مسلم.

نقول: إن كثيرا من الناس لا يعرفون حرمة إقامة المهاجرين، رضى الله تعالى عنهم بمكة بعد انقضاء نسكهم أكثر من ثلاثة أيام لهذا كتبنا هذا المبحث، والحكمة فى ذلك، والله تعالى أعلم، هى أنهم لما هاجروا من مكة إلى المدينة حبا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرته وخدمته وعدم مفارقتها، حرم عليهم الإقامة ببلدتهم الأصلية التى هاجروا منها، وهى مكة، أكثر من ثلاثة أيام بعد أداء نسكهم من حج أو عمرة. فإنهم إن أقاموا بها أكثر من الثلاث، تباطؤوا فى الرجوع إلى المدينة وحنوا للإقامة بمسقط رأسهم ووطنهم الذى هاجروا منه لله ولرسوله، أما الثلاثة الأيام المرخص لهم بالإقامة فى مدتها بعد انقضاء نسكهم، فهى كافية لأداء حقوق أقاربهم وأصدقائهم وجيرانهم فى زيارتهم والائتناس بهم.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد اللهم وصححها وبارك لنا فى مدها و

صاعها و انقل حمّاهما فاجعلها بالجحفة»، رواه البخارى و مسلم. و الجحفة كان يسكنها اليهود.

و قال عليه الصلاة و السلام: «اللهم أمض لأصحابى هجرتهم و لا تردهم على أعقابهم».

و من هنا نرى أن جميع الصحابة، رضى الله عنهم، المهاجرين من مكة فقط لم يموتوا بها، و إنما ماتوا بالمدينة أو غيرها، ما عدا سعد

بن خولة، فقد رثى له رسول الله صلى الله عليه و سلم أن مات بمكة، و سعد المذكور صحابى جليل، و كان من مهاجرة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٤٦

الحبشة و ممن شهد بدرًا، مرض بمكة و توفى بها، و له ذكر فى الصحيحين فى حديث سبيعة بنت الحارث أنها كانت تحت سعد بن

خولة، فلما توفى عنها فى حجة الوداع و كانت حاملا، فولدت بعد وفاته بليال، أتت النبى صلى الله عليه و سلم فأخبرته، فقال لها عليه

الصلاة و السلام: «قد حللت فانكحى من شئت».

انظر ترجمته فى كتاب الإصابة و فى الاستيعاب.

و لما كان يوم فتح مكة قام رسول الله صلى الله عليه و سلم على الصفا يدعو ربه و قد أهدقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم: أترون

رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ فتح الله عليه أرضه و بلده يقيم بها. فلما فرغ صلى الله عليه و سلم من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا

شئ يا رسول الله.

فلم يزل بهم حتى أخبروه فقال: «معاذ الله المحيا محياكم و الممات مماتكم».

و بالفعل فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يزل مقيما بالمدينة حتى مات و قبر بها. فانظر إلى وفاته، عليه الصلاة و السلام،

للأنصار و كيف عاملهم باللطف و الفضل و الإحسان الشامل. اللهم صل على محمد و على آل محمد، و بارك على محمد، و على

آل محمد، كما صليت و باركت على إبراهيم، و على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

و لما أعطى رسول الله صلى الله عليه و سلم لقريش و قبائل العرب من الغنائم التى أخذها فى غزوة حنين، و قد ترك الأنصار غضب

بعضهم حتى قالوا: إن هذا لهو العجب يعطى قريشا و يتركنا و سيوفنا تقطر من دمائهم. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فأمر

بجمعهم و ليس معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قال لهم: يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتنى عنكم، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى، و عالة

فأغناكم الله بى، و أعداء فألف الله بين قلوبكم بى، إن قريشا حديثو عهد بكفر و مصيبة، و إنى أردت أن أجبرهم و أتألفهم، أغضبتهم

يا معشر الأنصار فى أنفسكم لشيء قليل من الدنيا ألفت به قوما ليسلموا، و وكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذى لا يزلزل، ألا ترضون يا

معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة و البعير و ترجعوا برسول الله إلى رحلكم، فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من

الأنصار، و لو سلك الناس شعبا و سلك الأنصار شعبا لسلك شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار و أبناء الأنصار.

فلما سمعوا كلامه صلى الله عليه و سلم بكى القوم حتى اخضلت لحاهم و قالوا: رضينا برسول الله قسما و حظا. ثم انصرف، عليه

الصلاة و السلام، و تفرق القوم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٤٧

فانظر رحمك الله تعالى إلى درر كلامه و وفاته صلى الله عليه و سلم و انظر إلى حب الأنصار و طاعتهم و انقيادهم له، عليه أفضل

الصلاة و أتم السلام. و يا ليتنا كنا فى ذلك الزمن المبارك العاطر حتى نسعد بمشاهدة نور محياه صلى الله عليه و سلم و نتشرف

بخدمته أقدامه الطاهرة، و لئن فاتنا ذلك العصر الزاهر نسأل الله تعالى أن ينور قلوبنا بحبه و أن يوفقنا للتمسك بشريعته و إحياء سننه،

صلى الله و سلم عليه و على آله و أزواجه و ذريته و صحابته أجمعين آمين.

و انظر إلى ترجمة أبى بكر رضى الله تعالى عنه، صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الغار.

قال صاحب كتاب "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم" عن ترجمته ما نصه: هو أبو بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، و هو عبد الله بن أبى قحافة القرشى التيمى. و اسم أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، يجتمع نسبه مع نسب النبى صلى الله عليه و سلم فى مرة بن كعب بن لؤى و عدد من آبائهما إلى مرة سواء، و هو صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو الصديق الأكبر و صاحبه فى الغار و فى الهجرة و الخليفة بعده، و كان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة، و كان يسمى أيضا عتيقا، و اختلف هل هو اسم له أصلى، أو قيل له ذلك لأنه ليس فى نسبه ما يعاب به أو لقدمه فى الخير و سبقه إلى الإسلام، أو قيل له ذلك لحسنه، أو لأن أمه كان لا يعيش لها ولد فلما ولد لها استقبلت به البيت فقالت: اللهم هذا عتيقك من الموت. أو أن النبى صلى الله عليه و سلم بشره بأن الله أعتقه من النار فقال له: أنت عتيق من النار، فيومئذ سمي عتيقا. و قد ورد فى هذا الأخير حديث عن عائشة عند الترمذى، و آخر عن عبد الله بن الزبير عند البزار، و صححه ابن حبان و زاد فيه.

و كان اسمه قبل ذلك عبد الله بن عثمان و لم يختلف فى أن عثمان اسم أبى قحافة، كما لم يختلف فى كنية الصديق. و لقد لقب الصديق لسبقه إلى تصديق النبى صلى الله عليه و سلم، قيل قد كان ابتداء تسميته بذلك صبيحة الإسراء. و روى الطبرانى من حديث على، رضى الله عنه، أنه كان يحلف أن الله أنزل اسم أبى بكر من السماء الصديق. و رجاله ثقات.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٤٨

و أم أبى بكر سلمى، و تكنى أم الخير بنت صخر بن مالك بن عامر بن عمرو المذكور فى نسبه السابق الذكر، أسلمت أمه و هاجرت و ذلك معدود من مناقبه لأنه انتظم إسلام أبويه و جميع أولاده، و قد ولد أبو بكر بعد الفيل بستين وستة أشهر. أخرج ابن البرقى من حديث عائشة: تذاكر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و أبو بكر ميلادهما عندى، فكان النبى صلى الله عليه و آله و سلم، أكبر.

و صحب النبى صلى الله عليه و آله و سلم، قبل البعثة و سبق إلى الإيمان به. و كان من أسباب إيمانه بالنبى صلى الله عليه و سلم قبل غيره من الرجال، ما أخرجه ابن الأثير فى أسد الغابة بإسناده إلى عبد الله بن مسعود قال: قال أبو بكر الصديق: إنى خرجت إلى اليمن قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه و سلم فنزلت على شيخ من الأزد عالم قد قرأ الكتب و علم من علم الناس علما كثيرا، فلما رآنى قال: أحسبك حرميا. قال أبو بكر: قلت نعم، أنا من أهل الحرم. قال: و أحسبك قرشيا. قال، قلت: نعم أنا من قريش.

و قال: أحسبك تيميا. قال قلت: نعم أنا من تيم بن مرة، أنا عبد الله بن عثمان من ولد كعب بن سعد بن تيم بن مرة. قال: بقيت لى فيك واحدة. قلت ما هى؟ قال: تكشف عن بطنك. قلت: لا أفعل أو تخبرنى لم ذاك. قال: أجد فى العلم الصحيح الصادق أن نبيا يبعث فى الحرم يعاونه على أمره فتى و كهل. فأما الفتى فخواض غمرات و دفاع معضلات. و أما الكهل فأبيض نحيف، على بطنه شامة و على فخذه اليسرى علامة، و ما عليك أن ترينى ما سألتك فقد تكاملت لى فيك الصفة إلا ما خفى على. قال أبو بكر: فكشفت له عن بطنى فرأى شامة سوداء فوق سرتى. فقال: أنت و رب الكعبة و إنى متقدم إليك فى أمر فاحذره.

قال أبو بكر: و ما هو. قال: إياك و الميل عن الهدى، و تمسك بالطريقة المثلى الوسطى، و خف الله فيما خولك و أعطاك. قال أبو بكر: ففضيت باليمن إربى ثم أتيت الشيخ لأودعه فقال: أحامل عنى أبياتا من الشعر قلتها فى ذلك النبى؟

قلت: نعم. فذكر أبياتا. قال أبو بكر: فقدمت مكة و قد بعث النبى صلى الله عليه و سلم فجاءنى عقبه بن أبى معيط و شيبه و ربيعه و أبو جهل و أبو البخترى و صنديد قريش، فقلت لهم: هل نابتكم نائبة أو ظهر فيكم أمر؟ قالوا: يا أبا بكر، أعظم الخطب، يتيم أبى طالب يزعم أنه نبى مرسل، و لولا أنت ما انتظرنا به، فإذا قد جئت فأنت الغاية و الكفاية. قال أبو بكر: فصرقتهم على أحسن مس، و سألت عن النبى صلى الله عليه و سلم فقيل فى منزل خديجة، فقرعت عليه الباب فخرج إلى فقالت: يا محمد فقدت من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٤٩

منازل أهلك و تركت دين آبائك و أجدادك. قال: يا أبا بكر، إنى رسول الله إليك و إلى الناس كلهم فآمن بالله. فقلت: و ما

دليلك على ذلك؟ قال: الشيخ الذى لقيته باليمن. قلت: وكم شيخ لقيت باليمن؟ قال: الشيخ الذى أفادك الآيات. قلت: ومن خبرك بهذا يا حبيبي؟ قال: الملك العظيم الذى يأتى الأنبياء قبلى. قلت: مد يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله. قال أبو بكر: فانصرفت و ما بين لابتيتها أشد سرورا من رسول الله صلى الله عليه و سلم بإسلامي اه. و قد استمر أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه و سلم منذ أسلم بمكة، و فى طريق الهجرة، و فى المدينة، إلى أن توفاه الله. و شهد المشاهد كلها و كانت الرأيه معه يوم تبوك.

و حج بالناس فى حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم سنة تسع، و لقبه المسلمون بعده خليفة رسول الله. و قد أسلم أبوه كأمه، و هو أفضل الصحابة كما تقدم فى شرح الحديث السابق لهذا.

و من خصائصه أنه لا يوجد فى الصحابة من يكنى أبا بكر غيره، إلا ما ذكره الحافظ فى الإصابه عن شداد بن الأسود بن شعوب أنه يكنى أبا بكر أيضا، و هو الذى رثى قتلى بدر من المشركين بالآيات المذكورة فى صحيح البخارى و هى التى أولها (و ماذا بالقلب قلب بدر) الخ الآيات. قال: ثم أسلم ابن شعوب بعد.

و أبو بكر بن شعوب هذا، هو الذى تزوج أم بكر الكلبييه زوج أبى بكر الصديق طلقها لما هاجر، فتزوجها ابن عمها هذا الشاعر الذى رثى قتلى بدر من المشركين بالآيات المشار إليها. و لعل وجه تكتيته بأبى بكر تزوجه بأبى بكر المذكورة نظير ما وقع للصديق إذ لم يعرف وجه تكتيته بأبى بكر إلا تزوجه بها كما حققه بالاستقراء التام.

و قد روى أبو بكر عن النبى صلى الله عليه و سلم مائة و اثنين و أربعين حديثا، اتفق البخارى و مسلم على ستة منها، و انفرد البخارى بأحد عشر و مسلم بحديث. روى عنه عمر و عثمان و على و عبد الرحمن بن عوف و ابن مسعود و ابن عمر و ابن عمرو و ابن عباس و حذيفه و زيد بن ثابت و عقبه بن عامر و معقل بن يسار و أنس و أبو هريره و أبو أمامه و أبو برزة و أبو موسى، و ابتناه عائشه و أسماء، و ابنه عبد الرحمن و غيرهم من الصحابة و خلق كثير من كبار التابعين. و كان أبيض نحيفا، خفيف العارضين، معروق الوجه، ناتئ الجبهه، مشرف الوركين، جميل الصورة (و قد رأيتة) فى النوم مره واحده بعد توطنى لمصر كأنه ذاهب بى أنا و بعض إخوانى إلى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥٠

المدينة المنوره، أماتنا الله على الإيمان بها. و قد وردت فى فضله أحاديث كثيره فى الصحيحين و غيرهما. منها قوله صلى الله عليه و سلم: سدوا كل خوخته إلا خوخته أبى بكر.

و منها غير ذلك اكتفينا عن ذكرها بشهرتها. و من أعظم مناقبه قول الله تعالى: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** فإن المراد بصاحبه أبو بكر بالإجماع لأنه انفرد بهذه المنقبه و كان يقيه بنفسه فى الغار و خارجه كما هو مشهور مروى بالأسانيد. و مناقبه رضى الله عنه كثيره جدا أفردا جماعة بالتصنيف. و ترجمته فى تاريخ ابن عساكر قدر مجلده، كما قاله الحافظ فى الإصابه. و لفظ الخزرجى فى الخلاصه: و ترجمته فى تاريخ الشام فى مجلد و نصف. و كانت وفاته يوم الاثنين فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشره من الهجرة و هو ابن ثلاث و ستين سنة. و ذكر ابن سعد من طريق الزهرى، أن أبا بكر و الحارث بن كلده أكلا- خزيره أهديت لأبى بكر و كان الحارث طبيبا، فقال لأبى بكر: ارفع يدك و الله إن فيها لسم سنة.

فلم يزالا عليين حتى ماتا عند انقضاء السنه فى يوم واحد. و بالله تعالى التوفيق و هو الهادى إلى سواء الطريق. انتهى من زاد المسلم.

فضل أبى بكر رضى الله عنه

و لقد جاءت أحاديث صحيحه كثيره فى فضل أبى بكر، رضى الله عنه، فى الصحيحين و غيرهما نقتصر على بعضها على سبيل

التبرك، لا على سبيل الحصر و التعداد.

جاء في صحيح البخارى فى أوائل فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم: عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: خطب رسول الله صلى الله عليه و سلم الناس و قال: إن الله خير عبدا بين الدنيا و بين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله. قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم عن عبد خير. فكان رسول الله صلى الله عليه و سلم هو المخير. و كان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن من آمن الناس علىّ فى صحبته و ماله أبا بكر، و لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي، لاتخذت أبا بكر، و لكن أخوة الإسلام و مودته، لا ييقين فى المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبى بكر. و جاء فيه أيضاً: عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: لو كنت متخذاً من أمتى خليلاً، لاتخذت أبا بكر و لكن أخى و صاحبى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥١

و جاء فيه أيضاً: عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: كنا نخير بين الناس فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم فنخير أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان رضى الله عنهم.

و جاء فيه أيضاً: عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: أتت امرأة النبى صلى الله عليه و سلم فأمرها أن ترجع إليه، قالت: رأيت إن جئت و لم أجدك، كأنها تقول الموت، قال عليه السلام، إن لم تجدني فأتى أبا بكر.

عن أبى الدرداء رضى الله عنه، قال: كنت جالسا عند النبى صلى الله عليه و سلم إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: أما صاحبكم فقد غامر فسلم.

و جاء فيه أيضاً: عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: من أنفق زوجين من شىء من الأشياء فى سبيل الله دعى من أبواب- يعنى الجنة-: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، و من كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، و من كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، و من كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام و باب الريان، فقال أبو بكر: ما على هذا الذى يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، و قال: هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم، و أجو أن تكون منهم يا أبا بكر.

و جاء فيه أيضاً: عن سعيد بن المسيب قال: أخبرنى أبا موسى الأشعري أنه توضع فى بيته ثم خرج، فقلت: لألزم من رسول الله صلى الله عليه و سلم و لأكونن معه يومى هذا، قال: فجاء المسجد فسأل عن النبى صلى الله عليه و سلم فقالوا: خرج و وجّه هاهنا. فخرجت على أثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس، فجلست عند الباب، و بابها من جريد، حتى قضى رسول الله صلى الله عليه و سلم حاجته فتوضأ، فقامت إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس و توسط قفّها، و كشف عن ساقيه و دلاهما فى البئر، فسلمت عليه، ثم انصرفت فجلست عند الباب فقلت: لأكونن بواب رسول الله صلى الله عليه و سلم اليوم. فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت من هذا؟ فقال: أبو بكر. فقلت: على رسلك، ثم ذهبت، فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن، فقال: ائذن له و بشره بالجنة، فأقبلت حتى قلت لأبى بكر: ادخل و رسول الله صلى الله عليه و سلم يبشرك بالجنة، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله صلى الله عليه و سلم معه فى القف و دلى رجله فى البئر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥٢

كما صنع النبى صلى الله عليه و سلم و كشف عن ساقيه، ثم رجعت فجلست و قد تركت أخى يتوضأ و يلحقنى فقلت: إن يرد الله بفلان خيراً- يريد أخاه- يأت به، فإذا إنسان يحرك الباب فقلت: من هذا؟ فقال: عمر بن الخطاب، فقلت: على رسلك، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فسلمت عليه، فقلت: هذا عمر بن الخطاب يستأذن، فقال: ائذن له و بشره بالجنة، فجلست فقلت: ادخل و بشرك رسول الله صلى الله عليه و سلم بالجنة. فدخل فجلس مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فى القف عن يساره و دلى رجله

فى البئر ثم رجعت فجلست، فقلت: إن يرد الله بفلان خيرا يأت به، فجاء إنسان يحرك الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فقلت: على رسلك، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: ائذن له و بشره بالجنة على بلوى تصيبه، فجنته فقلت له: أدخل و بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة على بلوى تصيبك، فدخل فوجد القف قد ملئ فجلس و جاهه من الشق الآخر. قال شريكك، قال سعيد بن المسيب: فأولتها قبورهم.

و جاء فيه أيضا: عن عائشة، رضى الله عنها، زوج النبى صلى الله عليه وسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات و أبو بكر بالسنة - قال إسماعيل: يعنى بالعالية - فقام عمر يقول:

و الله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: و قال عمر: و الله ما كان يقع فى نفسى إلا ذاك، و ليعثنه الله فليقطعن أيدي رجال و أرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله، قال: بأبى أنت و أمى طبت حيا و ميتا و الذى نفسى بيده لا يذيقك الله الموتين أبدا، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر و أثنى عليه و قال: ألا من كان يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم، فإن محمدا قد مات و من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، و قال: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ، و قال: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ. قال: فنشج الناس بكون، قال: و اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عباد فى سقيفة بنى ساعدة، فقالوا: منا أمير و منكم أمير.

فذهب إليهم أبو بكر و عمر بن الخطاب و أبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، و كان عمر يقول: و الله ما أردت بذلك، إلا- أنى قد هيات كلاما قد أعجبنى خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر، فتكلم أبلغ الناس، فقال فى كلامه: نحن الأمراء و أنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا و الله لا نفع، منا أمير، و منكم أمير، فقال أبو بكر: لا، و لكننا الأمراء، و أتم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥٣

الوزراء، هم أوسط العرب دارا، و أعربهم أحسابا، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا و خيرنا و أحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ عمر بيده فبايعه و بايعه الناس. فقال قائل: قتلت سعد بن عباد. فقال عمر: قتله الله. و قال عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، قال عبد الرحمن بن القاسم: أخبرنى القاسم أن عائشة، رضى الله عنها، قالت: شخص بصر النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال: فى الرفيق الأعلى ثلاثا و قص الحديث، قالت: فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها، لقد خوف عمر الناس و إن فيهم لنفاقا فردهم الله بذلك، ثم لقد بصير أبو بكر الناس الهدى و عرفهم الحق الذى عليهم و خرجوا به يتلون: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ - إلى - الشَّاكِرِينَ. انتهى من البخارى.

و نكتفى بهذا القدر، ففضل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم معروف، و ما من مسلم إلا و هو يحبهم محبة عظيمة أكثر من نفسه و أولاده، كيف و هم قد فازوا بمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم و سعدوا بخدمته و خدمة هذا الدين السمح الحنيف. اللهم صل على عبدك و نبيك " محمد " و على آله الأطهار و صحابته الأخيار و أزواجه المصونات الطاهرات أمهات المؤمنين و سلم تسليمًا كثيرًا.

يروى أن أربعة من الصحابة رأوا النبى صلى الله عليه وسلم: ابن و أبوه و جده و أبو جده و هم أبو عتيق و اسمه محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق بن أبى قحافة، رضى الله تعالى عنهم جميعًا.

و فى الصحيحين عن ابن عباس و ابن مسعود، رضى الله تعالى عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا و لكنه أخى و صاحبى. و قد اتخذ الله عز و جل صاحبكم خليلًا».

قال شارح زاد المسلم، أستاذنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى، رحمه الله تعالى، عند هذا الحديث ما نصه:

قلت: و قد بحثت غاية البحث عن سبب تكنيته بأبى بكر و لم أجد فى أبناءه من سمى بكرا، لا فى الجاهلية و لا فى الإسلام، و ما

رأيت لسبب تكنيته بذلك إلا قول صاحب المصباح المنير.

و البكر بالفتح: الفتى من الإبل و به كنى و منه أبو بكر الصديق ا هـ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥٤

و نظم معنى كلامه بعض الفضلاء بقوله:

و البكر بالفتح فتى الإبل و منه كنية أبي بكر العلى

و ليس فى عبارة صاحب المصباح تصريح بوجه تكنيته بأبى بكر و أنها بسبب بكر من الإبل كان ملابسا له مثلا حتى يصدق عليه أنه

كنى به. و رأيت للزمخشري كما نسبه له شارح المواهب اللدنية ما نصه:

و لعله كنى أبا بكر لابتكاره المكرمات، و هذا أيضا ليس بشيء، إذ لو كانت تكنيته من هذا المعنى لقليل له أبو الابتكار. ثم بعد هذا

كله فتح الله على باستنباط سبب تكنيته من حديث البخارى فى آخر باب هجرة النبى صلى الله عليه و سلم عن عائشة أن أبا بكر

رضى الله عنه، تزوج امرأة من كلب يقال لها أم بكر، فلما هاجر أبو بكر طلقها، فتزوجها ابن عمها الشاعر الذى قال هذه القصيدة رثى

بها كفار قريش:

و ما ذا بالقلب قلب بدر من الشيزى تزين بالسنام الخ

فعلت أن وجه تكنيته بأبى بكر من أجل كونه تزوج امرأة يقال لها أم بكر، فقليل له هو أبو بكر لكونه أبا لابن زوجته عرفا، إذ هو ابن

زوجته. و من الضرورى عند العرب تسمية زوج المرأة أبا لجميع أبنائها و لو من غيره، فهذا، و الله تعالى أعلم، هو سبب تكنيته بأبى

بكر و ما تحصلت عليه إلا بعد الاستقراء التام الذى يعلم منه أن لا وجه لتكنيته بأبى بكر إلا هذا الذى استنبطته من هذا الحديث.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ١-١؛ ص ٤٥٤

فتح مكة المكرمة و هو الفتح الأعظم

كان خروج رسول الله صلى الله عليه و سلم من المدينة قاصدا مكة يوم الأربعاء بعد العصر لعشر مضمين من رمضان من السنة الثامنة

للهجرة، فصام عليه الصلاة و السلام و صام الناس معه، حتى إذا وصل الكديد أظطر، و ما زال مفطرا حتى انسلخ الشهر. و كديد ما بين

عسفان و أمج، و عن ابن عباس الكديد الماء الذى بين قديد و عسفان ا هـ. و بين مكة و عسفان مرحلة واحدة عن طريق وادى فاطمة-

و كان دخول النبى صلى الله عليه و سلم مكة صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رمضان من السنة المذكورة، و دخل رسول الله

صلى الله عليه و سلم مكة و عليه عمامة سوداء من غير إحرام، و هو

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥٥

راكب راحلته، منح على الرحل حتى تكاد جبهته تمسه تواضعا و شكرا لله على هذه النعمة الكبرى، و أسامه بن زيد رديفه، فلما

وصل إلى موضع رايته بالحجون استراح قليلا فى القبّة التى نصبت له هناك، و كان فيها أم سلمة و ميمونة رضى الله تعالى عنهما، ثم

سار عليه الصلاة و السلام و بجانبه أبو بكر رضى الله عنه يحادثه و هو يقرأ سورة الفتح، حتى بلغ البيت و طاف سبعا على راحلته، و

استلم الحجر الأسود بمحجنه، ثم أقام صلى الله عليه و سلم بمكة خمسة عشر يوما و قيل: ثمانية عشر و قيل:

تسعة عشر و هو يقصر الصلاة. و بعد ذلك خرج إلى غزوة حنين " بالتصغير " و تسمى غزوة هوازن، و حنين واد وراء عرفات بين مكة

و الطائف.

روى ابن أبى شيبه بإسناد صحيح عن طاووس: لم يدخل النبى صلى الله عليه و سلم مكة إلا محرما إلا يوم فتح مكة. و روى مسلم من

حديث جابر: دخل النبى صلى الله عليه و سلم يوم فتح مكة و عليه عمامة سوداء من غير إحرام.

نقول: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لو دخل مكة للنسك لدخلها محرما، و لكنه يوم الفتح أتى إليها غازيا بجيشه مستعدا للقتال

إذا اضطر إليه، و دخول المقاتل الفاتح له حالة غير حالة الناسك المتعبد، لذلك لم يكن يوم الفتح محرماً و لم يكن صائماً بمكة مدة إقامته بها حتى انسلخ شهر رمضان.

وقصة فتح مكة شرفها الله تعالى شهيرة، و هذا الفتح من أعظم فتوح الإسلام، أعز الله به دينه و رسوله و جنده و حرمه، فدخل الناس في دين الله أفواجا، و إلى هذا الفتح تشير سورة النصر و هي: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَعِذْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. و قد فهم رسول الله صلى الله عليه و سلم من نزول هذه السورة أنه قد اقترب أجله، فكان يكثر من قول: سبحان الله و بحمده أستغفر الله و أتوب إليه.

و غزوة فتح مكة مذكورة في جميع كتب التفسير و الحديث و التاريخ و السير، و لقد أردنا أن نذكر خلاصتها، لكن رأينا الإتيان بتفصيل غزوة الفتح أولى و أفضل لما فيها من العبر و الفوائد الجمّة. كما رأينا أن ننقل ما جاء عنها من كتاب "تاريخ الخميس" لأنه كتاب شهير معتمد و نادر الوجود، و لأنه ينقل جميع الأقوال و المرويات بتفصيل تام. و إليك نص ما جاء فيه عن فتح مكة:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥٦

و في عشرين من رمضان هذه السنة "أى السنة الثامنة من الهجرة" يوم الجمعة و قيل في سادس عشر منه وقعت غزوة فتح مكة، و في البخارى على رأس ثمان و نصف من مقدمه المدينة. و في خلاصة السير: لسبع سنين و ثمانية أشهر و أحد عشر يوماً.

و في الاكتفاء: أقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد بعثه إلى مؤتة جمادى الآخرة و رجبا، ثم عدت بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة على خزاعة. قال أصحاب الأخبار إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما صالح قريشا عام الحديبية و اصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس و يكف بعضهم عن بعض، و أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه و سلم و عهده دخل فيه، و من أحب أن يدخل في عقد قريش و عهدهم دخل فيه، كما مر، فدخلت بنو بكر في عقد قريش و دخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم. و كان بينهما شر قديم، و لما دخل شعبان على رأس اثنين و عشرين شهرا من صلح الحديبية عدت بنو بكر على خزاعة و هم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير، فخرج نوفل بن معاوية الديلى في بنى ديل من بنى بكر و ليس كل بنى بكر تابعه. كذا في معالم التنزيل.

و في المنتقى: كلمت بنو نفاثة و هم من بنى بكر أشراف قريش أن يعينوهم على خزاعة بالرجال و السلاح، فوعدوهم و وافوهم و كان ممن أعان بنى بكر من قريش على خزاعة ليلتئذ متكرين صفوان بن أمية و عكرمة بن أبى جهل و سهيل بن عمرو و حويطب و مركز مع عبيدهم، فبيتوا خزاعة ليلا و هم غازون، فقتلوا منهم عشرين رجلا، ثم ندمت قريش على ما صنعت و علموا أن هذا نقض للعهد الذى بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه و سلم، و خرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبا حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة و كان ذلك مما هاج فتح مكة.

و روى عن ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه و سلم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بات عندها فى ليلتها، ثم قام و توضأ للصلاة، فسمعتة يقول: ليبيك ليبيك ثلاثا. فلما خرج من متوضئه قلت له: يا رسول الله، بأبى أنت و أمى، إنى سمعتك تكلم إنسانا، فهل كان معك أحد؟ قال: هذا راجز بنى كعب يستصرخنى و يزعم أن قريشا أعانت عليهم بنى بكر. قال: فأقمنا ثلاثة أيام، ثم صلى الصبح بالناس فسمعت راجزا ينشد على رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هو فى المسجد جالس بين ظهراى الناس و هو يقول:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥٧ لا هم إنى ناشد محمدا حلف أبينا و أبيه الأتلا

إنا ولدناك و كنت الولد ائمت أسلمنا فلم نترع يدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا و نقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيتونا بالوتير هجدا و قتلونا ركعا و سجدا

و جعلوا لى فى كداء رصداو زعموا أن لست أدعو أحدا

و هم أذل و أقل عددا فانصر هداك الله نصرنا أبدا

و ادع عباد الله يأتوك مددافيهم رسول الله قد تجردا

فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا أبيض كالبدر ينمى صعدا

إن سيم خسفا وجهه تربدا فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: قد نصرت يا عمرو بن سالم. و فى المنتقى: نصرت نصرت ثلاثا، أو لبيك لبيك ثلاثا. ثم عرض لرسول الله صلى الله عليه و سلم عنان من السماء فقال: إن هذه السحابة لتستهل لنصر بنى كعب و هم رهط عمرو بن سالم.

و فى المنتقى: فلما كان بالروحاء نظر إلى سحاب منصب، فقال: إن هذا السحاب لينصب لنصر بنى كعب. ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة قدموا على رسول الله فأخبروه بما أصيب منهم، و مظاهرة قريش بنى بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. و قد كان رسول الله قال للناس: كأنكم بأبى سفيان قد جاء ليشدد العقد و يزيد فى المدءة و مضى بديل بن ورقاء فلقى أبى سفيان بعسفان قد بعثه قريش إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ليشدد العقد و يزيد فى المدءة، و قد رهبوا الذى صنعوا. فلما لقى أبو سفيان بديلا قال: من أين أقبلت يا بديل؟

فظن أنه أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم. قال: سرت إلى خزاعة فى هذا الساحل و فى بطن هذا الوادى. قال: أو ما أتيت محمدا؟ قال: لا. فلما راح بديل مكة قال أبو سفيان: لئن كان بالمدينة لقد علف بها. فعمد إلى منزل ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى. فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا. ثم خرج أبو سفيان.

حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم، فدخل البيت- و هو بيت ابنته أم حبيبة ابنة أبى سفيان- فأتى ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم، فطوته عنه. قال: يا بنية أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟ قالت: بلى، هو فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أنت رجل مشرك نجس، و ما أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم. فقال: و الله لقد أصابك يا بنية بعدى شر. ثم خرج حتى أتى رسول الله التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥٨

صلى الله عليه و سلم فكلمه، فلم يرد عليه شيئا. ثم ذهب إلى أبى بكر و كلمه أن يكلم رسول الله صلى الله عليه و سلم. فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فأبى، ثم أتى على بن أبى طالب فأبى. ثم قال لفاطمه أن تأمر ابنها الحسين و هو غلام يدب بين يدى أبويه حتى يجير له فأبت. فقال: يا أبا حسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت على فاصحنى. قال: و الله ما أعلم شيئا يغنى عنك، و لكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. قال: و ترى ذلك مغنيا شيئا؟ قال: لا و الله، ما أظن و لكن لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان فى المسجد فقال: أيها الناس إنى قد أجزت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق فلما أن قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدا فكلمته فو الله ما رد على بشىء، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد عنده خيرا، و جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت على بن أبى طالب فوجدته ألين الناس، فقد أشار على بشىء صنعته، فو الله ما أدرى هل يغينى شيئا أم لا- قالوا: و ماذا أمرك؟ قال: أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت. قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: و الله إن زاد على إلا أن لعب بك الناس، فما يغنى عنا ما قلت. قال: لا و الله ما وجدت غير ذلك.

و أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بالجهاز، و أمر أهله أن يجهزوه و لم يعلموا به أحدا.

فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضى الله عنها و هى تصلح بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال: يا بنية ما هذا الجهاز؟ قالت: لا أدرى. قال: أمركم رسول الله صلى الله عليه و سلم بأن تجهزوه؟ قالت: نعم. فتنجهزه. قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: ما أدرى. قال: ما هذا زمان غزوة بنى الأصفر فأين يريد؟ قالت: لا أعلم لى. ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة

و قال: اللهم خذ العيون و الأخبار عن قريش حتى نسبقها في بلادها.

و في رواية قال: اللهم عمّ عليهم خبرنا حتى نأخذهم بعتة. فتجهز الناس فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا إلى أهل مكة و بعثه مع سارة مولاة بنى المطلب.

و في معالم التنزيل و المدارك: أن مولاة لأبي عمرو بن صيفى بن هاشم بن عبد مناف يقال لها سارة أتت المدينة من مكة و رسول الله صلى الله عليه و سلم يتجهز لفتح مكة.

فقال لها: أمسلمة جئت؟ قالت: لا. قال: أمهاجرة؟ قالت: لا. قال: فما جاء بك؟ قالت: قد ذهبت الموالي، و قد احتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني و تكسوني و تحملوني. فقال لها: و أين أنت من شباب مكة. و كانت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٥٩

مغنية نائحة. قالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر. فحث عليها رسول الله صلى الله عليه و سلم بنى عبد المطلب و بنى المطلب فأعطوها نفقة و كسوة و حملوها.

و في شفاء الغرام: حامل كتاب حاطب بن أبي بلتعة أم سارة مولاة لقريش، و فيه أيضا أم سارة هي التي أمر النبي صلى الله عليه و سلم بقتلها يوم فتح مكة، و أنها كانت مولاة لقريش. و بين الحافظ مغطاي اسم المرأة قال: كتب حاطب كتابا و أرسله مع أم سارة كنود المزنية. انتهى.

و لما علم حاطب بن أبي بلتعة حليف بنى أسد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم يغزو أهل مكة كتب إليهم كتابا و دفعه إلى سارة و أعطها عشرة دنانير، و كساها بردا على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة. و كتب في الكتاب، و في المدارك: و استحملها كتابا نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة. اعلموا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم يريدكم فخذوا حذركم. و في رواية كتب فيه: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل و أقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم فإنه منجز له وعده.

و في رواية كتب فيه: إن محمدا قد نفر فإما إليكم و إما إلى غيركم، فعليكم الحذر. ذكرهما السهيلي. فخرجت سارة و نزل جبريل بالخبر، فبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم عليا و عمارا و عمر و الزبير و طلحة و المقداد بن الأسود و أبا مرثد فرسانا. فقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها طعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين أو إلى أهل مكة فخذوه منها و خلوا سبيلها، فإن لم تدفعه إليكم أو قال: فإن أبت فاضربوا عنقها.

قال الواقدي: روضة خاخ بقرب ذى الحليفة على بريد من المدينة. فانطلقوا تعادى بهم خيلهم حتى أتوا الروضة فأدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله صلى الله عليه و سلم. فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها كتاب، فبحثوها و فتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتابا، فهموا بالرجوع فقال على: و الله ما كذبنا و لا كذبتنا. و سل سيفه و قال: أخرجى الكتاب و إلا لأجردنك أو لأضربن عنقك.

و في المدارك: أخرجى الكتاب أو تضعى رأسك.

و في رواية: لتخرجن الكتاب أو لتلقن الثياب. فلما رأت الجد أخرجته من عقيصتها قد خبأته في شعرها. فخلوا سبيلها و لم يتعرضوا لها و لا لما معها، فرجعوا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦٠

بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فأرسل رسول الله صلى الله عليه و سلم، إلى حاطب فأتاه. فقال:

هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم. قال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، و الله يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت و لا غششتك منذ صحبتك، أو قال: نصحتك و لا أجبته منذ فارقتهم و لكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا و له بمكة من

يمنع عشيرته.

و في رواية: و كان لمن معك من المهاجرين بمكة قرابات يحمون أهلهم و أموالهم و كنت غريبا فيهم. و في رواية: كنت امرءا ملصقا في قريش، يقول حليفا، و لم أكن من أنفسها، و ليس فيهم من يحمي أهلي، و كان أهلي بين ظهرائهم، فخشيت على أهلي فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي. و قد علمت بأن الله ينزل بهم بأسه، و أن كتابي لا يغني عنهم شيئا، و لم أفعل ذلك ارتدادا عن ديني و لا رضى بالكفر بعد الإسلام. فصدقه رسول الله صلى الله عليه و سلم و عذره، فقال: أما إنه قد صدقكم. فقام عمر بن الخطاب فقال:

دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال: إنه شهد بدرا، و ما يدريك لعل الله اطع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

ففاضت عينا عمر، فأنزل الله عز و جل في حاطب: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ... الآية و بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى من حوله من الأعراب فجلبهم، و هم أسلم و غفار و مزينة و جهينة و أشجع و سليم، فمنهم من وافاه بالمدينة و منهم من لحقه بالطريق و استخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن خلف الغفاري. و في المنتقى: عبد الله بن أم كلثوم.

و خرج عامدا إلى مكة يوم الأربعاء بعد العصر لعشر مضمين من رمضان السنة الثامنة من الهجرة، فصام صلى الله عليه و سلم و صام الناس، حتى إذا كان بالكديد ما بين عسفان و أمج. و عن ابن عباس. الكديد الماء الذي بين قديد و عسفان.

و في القاموس: الكديد ماء بين الحرمين. أظفر فلم يزل مفطرا حتى انسلخ الشهر، و قدم أمامه الزبير و قد كان ابن عمته، و أخوه من رضاع حليلة السعدية أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب و معه ولده جعفر بن أبي سفيان. و كان أبو سفيان يألف رسول الله، فلما بعث عاداه و هجاه. و ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة لقياه بنيق العقاب فيما بين مكة و المدينة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦١

و في المواهب اللدنية: كان لقاؤهما له عليه السلام بالأبواء، و قيل: بين السقيا و العرج، فالتمس الدخول عليه فأعرض صلى الله عليه و سلم عنهما لما كان يلقي منهما من شدة الأذى و الهجو. و كلمته أم سلمة و هب أخت عبد الله فيهما فقالت: يا رسول الله، لا يكن ابن عمك و ابن عمتك و صهرك أشقى الناس بك. قال: لا حاجة لي فيهما، فأما ابن عمي فهتك عرضي، و اما ابن عمتي و صهرى فهو الذي قال لي بمكة ما قال.

فلما خرج الخبر إليهما بذلك قال أبو سفيان و معه بنى له اسمه جعفر بن أبي سفيان: و الله ليأذن لي أو لأخذن بيد بنى هذا ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشا و جوعا. فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم رق لهما، ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما.

و في المواهب اللدنية: قال على لأبي سفيان فيما حكاه أبو عمرو و صاحب ذخائر العقبى: ائت رسول الله صلى الله عليه و سلم من قبل وجهه، فقل ما قال إخوة يوسف ليوسف: تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ إِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً. ففعل ذلك أبو سفيان. فقال له صلى الله عليه و سلم: لا تَتْرِبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

و قد مر في أولاد عبد المطلب في النسب، و يقال: إن أبا سفيان ما رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم حياء منه. قالوا: ثم سار رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلما كان بقديد عقد الألوية و الرايات و دفعها إلى القبائل، ثم سار حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين لم يتخلف عنه من المهاجرين و الأنصار أحد.

و في القاموس: ظهران واد بقرب مكة يضاف إليه مر، و مرّ الظهران موضع على مرحلة من مكة. و قال بعضهم: و منه إلى مكة أربعة فراسخ. قال ابن سعد:

نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران عشاء فأمر أصحابه فأوقدوا آلاف نار، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب. و قد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدرون ما هو فاعل و هم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم. و قد كان عباس بن عبد المطلب لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق، فخرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب و حكيم بن حزام و بديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار هل يجدون خبراً، و قد قال العباس ليلئذ: وا صباح قريش، و الله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يستأمنوا إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦٢

فخرج على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء و قال: أخرج إلى الأراك لعلى ألقى بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتونه فيستأمنونه قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال: فخرجت و إنى لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له إذ سمعت صوت أبي سفيان و بديل بن ورقاء و هما يتراجعان، فأبو سفيان يقول: و الله ما رأيت كالثيلة قط نيرانا. فقال بديل: و الله هذه نيران خزاعة حشيتها الحرب. فقال أبو سفيان: خزاعة و الله الأم و أذل من أن تكون هذه نيرانها و عسكرها. فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم.

قال: ما لك فداك أبي و أمي. فقلت: و يحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاءكم بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين، و اصباح قريش. قال:

فما الحيلة، فداك أبي و أمي؟ قلت: و الله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمنه لك. فردفني و رجع صاحبا. فحركت به بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا، فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: هذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى مررت بنار عمر، فقال: من هذا؟ و قام إلى. فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكنني منك بغير عقد و لا عهد. ثم اشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم و ركضت البغلة فسبقت بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، فاقترحت عن الغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم و دخل عمر فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله تعالى منه بغير عقد و لا عهد، فدعني أضرب عنقه. فقلت: يا رسول الله، إنى قد أجزته. ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه.

قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس بعد تنازع و تراجع في الكلام بينه و بين عمر:

أذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأنتى به. قال فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت و أمي، ما أحلمك و ما أكرمك و أوصلك، و الله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئاً. قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟

قال: بأبي أنت و أمي، ما أحلمك و ما أكرمك و أوصلك، أمّا هذه و الله كأن في

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦٣

النفس حتى الآن منها شيء. قال العباس: قلت ويحك يا أبا سفيان أسلم و اشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله قبل أن يضرب عنقك. فشهد شهادة الحق و أسلم. و في رواية عروة لما دخل أبو سفيان مع العباس على رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة أسلم.

قال أبو سفيان: يا محمد إنى قد استنصرت إلهي و استنصرت إلهك. فو الله ما لقيتك من مرة إلا ظهرت على، فلو كان إلهي محفوا و إلهك مبطلا لظهرت عليك.

فشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله. فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا. قال: نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، و من أغلق بابه فهو آمن، و من دخل المسجد فهو آمن. فلما ذهب لينصرف قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يا عباس احبس بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها. قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرنى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و مرّت به القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء يا عباس؟ فأقول: سليم. فيقول: ما لى و لسليم، ثم تمر القبيلة قال: من هؤلاء؟

فأقول: مزينة، فيقول: ما لى و لمزينة. حتى نفذت القبائل، لا تمر قبيلة إلا سألتنى عنها، فإذا أخبرته فيقول: ما لى و لبنى فلان، حتى مر رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الخضراء كتيبة رسول الله صلى الله عليه و سلم فيها المهاجرون و الأنصار لا يرى منهم إلا الحدق. قال:

سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم فى المهاجرين و الأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء من قبل، و الله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أحيك عظيما. قلت: ويحك يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعمة إذا. قلت: الحق بقومك فحذرهم. و فى الاكتفاء: التجيء إلى قومك. فخرج سريعا حتى إذا جاءهم فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. قالوا:

فمسه؟ قال: فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم.

قال: ويحكم لا تعرن هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، و ما تغنى دارك عنا شيئا.

قال: فمن أغلق عليه بابه فهو آمن، و من دخل المسجد فهو آمن، و من ألقى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦٤

السلح فهو آمن. و فى رواية نادى أبو سفيان: أسلموا تسلموا فتفرق الناس إلى دورهم و إلى المسجد.

و روى أن حكيم بن حزام و بديل بن ورقاء قدما على رسول الله صلى الله عليه و سلم بمر الظهران فأسلما فبايعاه، فبعثهما رسول الله صلى الله عليه و سلم بين يديه إلى قريش يدعونهم إلى الإسلام. و لما خرج أبو سفيان و حكيم من عند النبي صلى الله عليه و سلم راجعين إلى مكة بعث فى إثرهما الزبير بن العوام و أعطاه الراية و أمره على خيل المهاجرين و الأنصار، و أمره أن يسير من طريق كداء، و أن يركز رايته على الحجون، و قال له: لا تبرح من حيث أمرتك أن تركز رايته حتى آتيك. و فى الاكتفاء: و أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم حين فرق جيشه من ذى طوى الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض الناس من كداء، و كان على المجنبه اليسرى، و أمر سعد بن عبادة أن يدخل فى بعض الناس من كدى. فذكروا أن سعدا حين وجه داخل قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمه. فسمعها رجل من المهاجرين قيل هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يا رسول الله أسمع ما قال سعد؟ ما تأمن أن يكون له فى قريش صولة و صدمه. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لعلى بن أبى طالب: أدركه فخذ الراية، فكن أنت الذى تدخل بها. و يقال أخذت الراية من سعد و دفعت إلى ابنه قيس بن سعد، و يقال أمر الزبير بأخذ الراية و جعله مكان سعد على الأنصار مع المهاجرين. و فى المواهب اللدنية هذه الثلاثة الأقوال فيمن دفعت إليه الراية التى نزع من سعد، و الذى يظهر من الجميع أن عليا أرسل لينزعها من سعد و يدخل بها، ثم خشى من تغير خاطر سعد فأمر بدفعها إلى ابنه قيس، ثم إن سعدا خشى أن يقع من ابنه شيء ينكره النبي صلى الله عليه و سلم فسأل النبي صلى الله عليه و سلم أن يأخذها من قيس فحينئذ أخذها الزبير و جعل أبا عبيدة ابن الجراح على الحسر و البيادق كذا فى المواهب اللدنية و المنتقى.

فسار الزبير بالناس حتى وقف بالحجون و غرز هناك راية رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و أمر خالد بن الوليد و كان على المجنبه اليمنى أن يدخل فيمن أسلم من قضاة و بنى سليم و غفار و جهينه و مزينه و سائر القبائل. فدخل من الليط أسفل مكة، و بها بنو بكر و بنو الحارث بن عبد مناف و الأحابيش الذين استنفرتهم و استنصرتهم قريش و أمرتهم أن يكونوا بأسفل مكة. و أمر النبي صلى الله عليه و سلم خالدا أن يركز رايته عند منتهى البيوت و أدناها، و كان ذلك أول إمارة خالد، و قال النبي

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦٥

صلى الله عليه و سلم لخالد و الزبير حين بعثهما: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم. و لما انتهى رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى ذي طوى و وقف على راحلته معتجرا بشقة برد حمراء و إنه ليضع رأسه تواضعا لله و شكرا له حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى أن عثونه ليكاد يمس واسطة الرجل.

العثون- بالعين المهملة و التاء المثناة و النونين بينهما واو- اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين، أو نبت على الذقن و تحته سفلا، أو هو طولها و شعيرات طوال تحت حنك الإبل كذا في القاموس.

و لما وقف صلى الله عليه و سلم هناك قال أبو قحافة و قد كف بصره لابنة له من أصغر ولده، و هو على أبي قبيس مشرفا عليه: أي بنيه، ماذا ترين؟ قالت: أرى سودا مجتمعا.

قال: تلك الخيل. قالت: و أرى رجلا يسعى بين يدي ذلك السواد مقبلا و مدبرا. قال: أي بنيه، ذاك الوازع- يعنى الذى يأمر الخيل و يتقدم إليها. ثم قالت: قد و الله انتشر السواد. فقال: قد و الله إذا دفعت الخيل، فأسرعى بى إلى بيتى. فانحطت به، و تلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته، و فى عنق الجارية طوق من ورق فتلقاها رجل فقطعه من عنقها. قال: فلما دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم أتاه أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: هلا- تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتية فيه. فقال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه. قال: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: أسلم. فأسلم.

و رآه رسول الله صلى الله عليه و سلم و كأن رأسه ثغامة، فقال: غيروا هذا من شعره و سيجىء.

ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد الله و الإسلام طوق أختى، فلم يجبه أحد. فقال: أي أختى احتسبى طوقك فو الله إن الأمانة اليوم فى الناس قليل.

و لم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير قتال، و أما خالد بن الوليد فدخل من الليط أسفل مكة، فلقية قريش و بنو بكر، و الأحابيش فقاتلوه، فقتل منهم قريبا من عشرين رجلا، و من هذيل ثلاثة أو أربعة و انهزموا، و قتلوا بالحزورة حتى بلغ قتلهم باب المسجد، و قرب قضيضهم حتى دخلوا الدور، و ارتفعت طائفة منهم على الجبال، و اتبعهم المسلمون بالسيوف، و هربت طائفة منهم إلى البحر و إلى صوب اليمن، و أقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول الله صلى الله عليه و سلم، و دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم من أواخر المهاجرين حتى نزل بأعلى مكة و ضربت له هناك قبة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦٦

و روى مسلم من حديث جابر: دخل النبي صلى الله عليه و سلم يوم فتح مكة و عليه عمامة سوداء من غير إحرام. و روى ابن أبى شيبه بإسناد صحيح عن طاووس: لم يدخل النبي صلى الله عليه و سلم مكة إلا محرما، إلا يوم فتح مكة. و قد اختلف العلماء هل يجب على من دخل مكة الإحرام أم لا، فالمشهور من مذهب الشافعى عدم الوجوب مطلقا.

و فى قول يجب مطلقا، و فيمن يتكرر دخوله خلاف مرتب، فأولى بعدم الوجوب و المشهور عن الأئمة الثلاثة الوجوب كذا فى المواهب اللدنية.

و لما علا رسول الله صلى الله عليه و سلم ثنية كداء نظر إلى البارقة على الجبل مع فضض المشركين فقال: ما هذا؟ و قد نهيت عن القتال. فقال المهاجرون: نظن أن خالدا قوتل و بدئ بالقتال، فلم يكن بد أن يقاتل من قاتله، و ما كان يا رسول الله ليعصيك و لا

ليخالف أمرك. فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم من الثنية فأجاز على الحجون واندفع الزبير بن العوام حتى وقف بباب الكعبة. وفي الاكتفاء: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى أمراءه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نفر قد سماهم أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وسيجيء ذكرهم. وكان صفوان بن أمية و عكرمة بن أبي جهل و سهيل بن عمرو قد جمعوا ناسا بالخدمة ليقاتلوا، فيهم حماس أبي قيس بن خالد أخو بني بكر، وقد كان أعد سلاحا وأصلح منها، فقالت له امرأته: لم تعد سلاحك هذا؟ قال: لمحمد وأصحابه.

قالت: والله ما أراه يقوم لمحمد شيء. قال: والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم. ثم قال:

إن يقتلوا اليوم فمالى علة هذا سلاح كامل وآله

و ذو غرارين سريع السلة ثم شهد الخدمة فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد ناوشوهم شيئا من قتال، فقتل كرز بن جابر الفهري و خنيس بن خالد بن الأشقر - كانا في خيل خالد - فشذا عنه و سلكا طريقا غير طريقه، فقتلا جميعا، و أصيب سلمة بن الميلاء الجهني من خيل خالد، و أصيب من المشركين ناس ثم انهزموا فخرج حماس منهزما حتى دخل بيته و قال لامرأته: أغلقتى على بابي. قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخدمة إذ فر صفوان و فر عكرمة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦٧ و استقبلتهم بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد و جمجمة

ضربا فلا تسمع إلا غمغمة لهم نهيت خلفنا و همهمة

لم تنطقى في اللوم أدنى كلمه و قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد بعد أن اطمأن: لم قاتلت و قد نهيتك عن القتال؟ قال: هم بدأونا و وضعوا فينا السلاح و أشعرونا النبل، و قد كفت يدي ما استطعت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قضاء الله خير. و فرّ يومئذ صفوان بن أمية عامدا للبحر و عكرمة بن أبي جهل عامدا لليمن. و ستجيء قصتهما.

و في المنتقى: و كل الجنود لم يلقوا جنودا غير خالد، فإنه لقي صفوان بن أمية و سهيل بن عمرو و عكرمة بن أبي جهل في جمع من قريش، فمنعوه من الدخول و شهروا السلاح و رموا بالنبل، فصاح خالد في أصحابه فقاتلهم، فقتل أربعة و عشرون من قريش و أربعة من هذيل. فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم قال لخالد: ألم أنه عن القتال؟ فقيل: قوتل فقاتل كما مر.

و في شفاء الغرام عن عطاء ابن السائب قال: حدثني طاووس و عامر قال:

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم و قدم خالد بن الوليد فأناهم شيئا من قتل، فجاء رجل من قريش فقال: يا رسول الله، هذا خالد بن الوليد قد أسرع في القتل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل من الأنصار عنده: يا فلان، قال: لبيك يا رسول الله، قالت: خالد بن الوليد قل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن لا تقتل بمكة أحدا. فجاء الأنصاري فقال: يا خالد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تقتل من لقيت، فاندفع خالد فقتل سبعين رجلا من مكة. فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من قريش فقال: يا رسول الله، هلكت قريش، لا قريش بعد اليوم. قال: و لم؟ قال: هذا خالد لا يلقى أحدا من الناس إلا قتله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ادع لى خالدا، فلما أتى إليه خالد قال: يا خالد، ألم أرسل إليك أن لا تقتل أحدا. قال: بل أرسلت إلى أن أقتل من قدرت عليه. قال: ادع لى الأنصاري، فدعاه له. فقال: ألم أمرك أن تأمر خالدا أن لا يقتل أحدا. قال: بلى، و لكنك أردت أمرا و أراد الله غيره، فكان ما أراد الله. فسكت صلى الله عليه وسلم و لم يقل للأنصاري شيئا و قال: يا خالد، قال: لبيك يا رسول الله، قال: لا تقتل أحدا، قال: لا.

و في المواهب اللدنية و المنتقى: روى أحمد و مسلم و النسائي عن أبي هريرة قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم و قد بعث على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد، و بعث

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦٨

الزبير على الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحسر- بضم المهملة و تشديد السين المهملة- أى الذين بغير سلاح. فقال لى: يا أبا هريرة اهتف لى بالأنصار، فهتف بهم فجاءوا فأطافوا، فقال لهم: أترون إلى أوباش قريش و أتباعهم، ثم قال بإحدى يديه على الأخرى: احصدوهم حصدا حتى توافونى بالصفاء. قال أبو هريرة: فانطلقنا، فما نشاء أن نقتل أحدا منهم إلا قتلناه، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله أبحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم. فقال صلى الله عليه و سلم: من أغلق بابه فهو آمن.

وفى الاكتفاء: قالت أم هانئ بنت أبى طالب، و كانت عند هبيرة بن أبى وهب المخزومى: لما نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم بأعلى مكة فرز إلى رجلان من أحمائى من بنى مخزوم، فدخل على أخى على بن أبى طالب فقال: و الله لأقتلنهما. فأغلقت عليهما بيتى، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو بأعلى مكة فوجدته يغتسل من جفنه كان فيها أثر العجين، و فاطمة ابنته تستره بثوبه. فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثمان ركعات من الضحى، ثم انصرف إلى فقال: مرحبا و أهلا بأم هانئ. ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين و خبر على فقال: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، و أمنا من أمنت فلا يقتلنهما. قال ابن هشام: هما الحارث بن هشام و زهير بن أمية بن المغيرة. و فى رواية للبخارى: أنه صلى الله عليه و سلم يوم فتح مكة اغتسل فى بيت أم هانئ، ثم صلى الضحى ثمان ركعات، فقالت: لم أراه صلى صلاة أخف منها، غير أنه يتم الركوع و السجود، و ذكره فى المواهب اللدنية.

وفى رواية دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة حين ارتفعت الشمس على ناقته القصى بين أبى بكر و أسيد بن حضير، و قد أردف أسامة بن زيد، و قد طأ رأسه تواضعا لله و هو يقرأ سورة الفتح.

وفى الاكتفاء: و لما نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم و اطمأن خرج حتى أتى البيت، فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده. فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة و أخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله، صدق الله وعده، و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين، إلا سدانه البيت و سقاية الحج. يا معشر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٦٩

قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية و تعظمها بالآباء، الناس لآدم و آدم خلق من تراب. ثم تلا هذه الآية: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، الآية ثم قال: يا معشر قريش أو يا أهل مكة ماذا ترون أنى فاعل فيكم؟ قالوا:

خيرا، أخ كريم و ابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه و سلم. و قد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة فلذلك يسمى أهل مكة الطلقاء، أى الذين أطلقوا فلم يسترقوا و لم يؤسروا، و الطليق هو الأسير إذا أطلق.

قال: ثم جلس رسول الله صلى الله عليه و سلم فى المسجد، فقام إليه على بن أبى طالب و مفتاح الكعبة فى يده فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أين عثمان ابن طلحة؟ فدعى له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ و وفاء، و قال لعلى فيما حكى ابن هشام: إنما أعطيك ما تزرأون لا ما تزرأون.

وفى البحر العميق: دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة يوم الفتح فقبض السقاية من العباس بن عبد المطلب، و الحجابة من عثمان بن طلحة، فقام العباس بن عبد المطلب فبسط يده و قال: يا رسول الله: بأبى أنت و أمى، اجمع لى الحجابة مع السقاية. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أعطيك ما تزرأون فيه لا ما تزرأون منه. قال أبو على: معناه أنا أعطيك ما تمنون على السقاية التى تحتاج إلى مؤن، أى فأنتم تزرأون- بضم التاء و سكون الراء المهملة قبل الزاى المعجمة المفتوحة من الرزء بالضم و هو النقص- أى: يرزؤكم الناس أى: ينقصونكم بالأخذ لتموينكم إياهم بتموين السقاية المعدة لهم، و أما السدانه فيرزأونها الناس بالبعث إليها أى بعث كسوة البيت أى لا يليق أن تزرؤا، بفتح التاء و سكون الراء المهملة قبل المعجمة، أى: تنقصوا الناس بأخذ أموالهم و التعرض لذلك لشرفكم. و قيل: معنى تزرأون فيه بضم المثناة أى: تصيبون فيه الخير بصرف أموالكم فى مؤنات زمزم. و معنى:

ما تزرأون منه بفتح المثناة أى: تستجلبون به الأموال أى تأخذون منه أموال الناس كالحجابه. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عضادتي باب الكعبة فقال: ألا إن كل دم أو مآثره كانت فى الجاهلية فهى تحت قدمى هاتين، إلا السقاية و سدانة الكعبة، فإنى قد أمضيتهما لأهلها على ما كانت فى الجاهلية. فقبضها العباس و كانت فى يده حتى توفى، فوليها بعده عبد الله بن عباس فكان يفعل كفعله دون بنى عبد المطلب.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٧٠

و كان محمد بن الحنفية قد كلم فيها ابن عباس فقال له ابن عباس: ما لك و لها، نحن أولى بها فى الجاهلية و الإسلام. و قد كان أبوك تكلم فيها فأقمت البينة طلحة بن عبيد الله، و عامر بن ربيعة، و أزهر بن عبد عوف، و مخزومة بن نوفل أن العباس بن عبد المطلب كان يليها فى الجاهلية بعد عبد المطلب، وجدك أبو طالب فى إبله فى باديته بعرفة، و أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه العباس يوم الفتح دون بنى عبد المطلب، فعرف ذلك من حضر، و كانت بيد عبد الله بن عباس بتولية رسول الله صلى الله عليه وسلم و سلم دون غيره لا ينازعه فيها منازع و لا يتكلم فيها متكلم، حتى توفى فكانت فى يد على بن عبد الله بن عباس يفعل فيها كفعل أبيه و جده، و يأتيه الزبيب من ماله بالطائف و يبنده، حتى توفى فكانت فى يد ولده حتى الآن. قال الأزرقى: كان لزرم حوضان حوض بينها و بين الركن يشرب منه، و حوض من ورائها للوضوء له سرب يذهب فيه الماء.

و ذكر ابن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قضى طوافه نزل، فأخرجت الراحلة فركع ركعتين ثم انصرف إلى زمزم، فاطلع فيها و قال: لولا أن تغلب بنو عبد المطلب على سقائتهم لزرعت منها بيدي. ثم انصرف إلى ناحية المسجد قريبا من مقام إبراهيم، و كان المقام لاصقا بالكعبة فأخره رسول الله صلى الله عليه وسلم، و دعا صلى الله عليه وسلم بسجل من ماء فشرب و توشأ، و المسلمون يتدرون وضوءه و يصبونه على وجوههم و المشركون ينظرون إليهم و يتعجبون و يقولون: ما رأينا ملكا قط بلغ هذا و لا سمعنا به.

و ذكر ابن هشام أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة و غيرهم، فرأى إبراهيم مصورا فى يده الأزام يستقسم بها فقال:

قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام؟ ما شأن إبراهيم و الأزلام؟ ما كان إبراهيم يهوديا و لا نصرانيا و لكن كان حنيفا مسلما و ما كان من المشركين. ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست.

و عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت و فيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت و أخرجوا صورة إبراهيم و إسماعيل فى أيديهما الأزلام، فقال: قاتلهم الله، لقد علموا أنهما ما استقسما بها قط. ثم دخل البيت فكبر فى نواحي البيت و لم يصل، و فى رواية صلى فيه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٧١

و فى الاكتفاء عن ابن عباس قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها و حول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام و هو يقول: جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع ذلك الصنم لقفاه، و لا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع.

و فى رواية: يشير إلى الصنم بقوس فى يده و هو آخذ بسيتها و هو يقول: جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. و قل: جاء الحق و ما يبدئ الباطل و ما يعيد. فيقع الصنم لوجهه، و كان أعظمها هبل، و هو و جاه الكعبة حذاء مقام إبراهيم لاصقا بها. و قال تميم بن أسد الخزاعى:

و فى الأصنام معتبر و علم لمن يرجو الثواب أو العقابا

و في المواهب اللدنية: و كان حول البيت ثلاثمائة و ستون صنما. فكلما مر صلى الله عليه و سلم بصنم أشار إليه الخ، رواه البيهقي. و في رواية أبي نعيم قد أوثقها الشياطين بالرصاص و النحاس.

و في تفسير العلامة ابن النقيب المقدسي: أن الله تعالى أعلمه أنه قد أنجزه وعده بالنصر على أعدائه و فتح له مكة، و أعلى كلمته و دينه، و أمره إذا دخل مكة أن يقول: جاء الحق و زهق الباطل. فصار صلى الله عليه و سلم يطعن الأصنام التي حول الكعبة بمحجته و يقول: جاء الحق و زهق الباطل، فيخر الصنم ساقطا، مع أنها كلها كانت مثبتة بالحديد و الرصاص. و كانت ثلاثمائة و ستين صنما بعدد أيام السنة.

قال ابن عباس: و لما نزلت الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه و سلم: خذ مخصرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنما صنما و يطعن في عينه أو بطنه بمخصرته و يقول: جاء الحق و زهق الباطل. فينكب الصنم لوجهه، حتى ألقاها جميعا، و بقي صنم خزاعة فوق الكعبة، و كان من قوارير أو صفر و قال: يا على ارم به. فحمله عليه السلام حتى صعده، و رمى به و كسره، فجعل أهل مكة يتعجبون. انتهى كلام المواهب اللدنية.

و في الرياض النضرة: روى عن علي أنه قال: حين أتينا الكعبة قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم: اجلس. فجلست إلى جنب الكعبة فصعد على منكبى، فذهبت لأنهض به فرأى ضعفا منى تحته. قال لي: اجلس. فجلست، فنزل عني و جلس لي رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال لي: اصعد على منكبى، فصعدت على منكبى، فنهض بي و إنه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 472

يخيل إلى أنى لو شئت لثلت أفق السماء حتى صعدت البيت. و في شواهد النبوة:

سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عليا حين صعده منكبى: كيف تراك؟ قال علي: أرانى كأن الحجب قد ارتفعت، و يخيل إلى أنى لو شئت لثلت أفق السماء. فقال رسول الله: طوبى لك تعمل للحق و طوبى له أحمل للحق، أو كما قال انتهى. قال:

فصعدت البيت و كان عليه تمثال صفر أو نحاس، و هو أكبر أصنامهم، و تنحى رسول الله فقال لي: ألق صنمهم الأكبر، و كان موتدا على البيت بأوتاد حديد إلى الأرض. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ايه ايه عالجه، جاء الحق و زهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا. فجعلت أزاوله أو قال أعالجه عن يمينه و عن شماله و من بين يديه و من خلفه، حتى إذا استمكنك منه قال لي رسول الله: اقدف به. فقفدت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت. و زاد الحاكم: فما صعدت حتى الساعة. و يروى أنه كان من قوارير رواه الطبرانى و قال: خرج أحمد و رواه الزرندي و الصالحاني.

و في رواية: فجاء النبي صلى الله عليه و سلم إلى مقام إبراهيم فصلى ركعتين، ثم جلس ناحية، فبعث عليا إلى عثمان بن طلحة الحنظلي في طلب مفتاح الكعبة، فأبى دفعه إليه، و قال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه منه. فلوى على يده و أخذ المفتاح منهم قهرا و فتح الباب.

و في شفاء الغرام: كلام الواحدى أن عثمان لم يكن حين أخذ ذلك منه مسلما، يخالف ما ذكره العلماء من أنه كان مسلما. قال ابن ظفر في ينبوع الحياة: قوله لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه هذا وهم لأنه كان ممن أسلم فلو قال هذا لكان مرتدا.

و عن الكلبي: لما طلب عليه الصلاة و السلام المفتاح من عثمان بن طلحة مد يده إليه، فقال العباس: يا رسول الله اجعلها مع السقاية، فقبض عثمان يده بالمفتاح. فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن كنت يا عثمان تؤمن بالله و اليوم الآخر فهاته، فقال عثمان: فهাকে بالأمانة. فأعطاه إياه و نزلت الآية. قال ابن ظفر:

و هذا أولى بالقبول. و عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أقبل يوم الفتح من أعلا مكة على راحلته مردفا أسامة بن زيد، و معه بلال و عثمان بن طلحة من الحجبة، حتى أناخ بالمسجد. فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، ففتح و دخل معه أسامة بن زيد و عثمان بن طلحة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٧٣

و في شفاء الغرام: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة بعد هجرته أربع مرات يوم الفتح، و يوم ثاني الفتح، و في حجة الوداع، و في عمرة القضاء. و في كل هذه الدخالات خلاف، إلا الدخول الذي يوم فتح مكة.

و في شفاء الغرام: طاف النبي صلى الله عليه وسلم بالبيت يوم الفتح يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان. و في الاكتفاء: و أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي صلى الله عليه وسلم و هو بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضله؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: ماذا كنت تحدث نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: استغفر الله. ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. فكان يقول: و الله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلى منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا يأبى عليك الله و الإسلام

لو ما رأيت محمدا و قبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بينناو الشرك يغشى وجهه الإظلام

و أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل الكعبة عام الفتح بلالا أن يؤذن، و كان دخل معه، و أبو سفيان بن حرب و عتاب بن أسيد و الحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة. فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغضه. فقال الحارث: أما و الله لو أعلم أنه محق لا تبعته. و قال أبو سفيان: لا أقول شيئا، لو تكلمت لأخبرته عنى هذه الحصة. فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

لقد علمت الذى قلت، ثم ذكر ذلك لهم. فقال الحارث و عتاب: نشهد أنك رسول الله، و الله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

و فى المواهب اللدنية عن ابن عمر قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح على ناقته القصوى، و هو مردف أسامة بن زيد حتى أناخ بفناء الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة فقال له: ائتنى بالمفتاح. فذهب إلى أمه فأبت أن تعطيه. فقال: و الله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبى. فأعطته إياه، فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ففتح به الباب، رواه مسلم.

و روى الفاكهاني من طريق ضعيف عن ابن عمر أيضا قال: كان بنو طلحة يزعمون أنه لا يستطيع فتح الكعبة أحد غيرهم، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٧٤

ففتحها. و عثمان المذكور هو عثمان بن طلحة، و عثمان هذا لا ولد له، و له صحبة و روايته، و اسم أم عثمان سلافه بضم السين المهملة و تخفيف الفاء.

و فى الطبقات لابن سعد عن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين و الخميس، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت له و نلت منه. فحلم عنى ثم قال: يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت. فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ و ذلت.

فقال: بل عمرت و عزت يومئذ. و دخل الكعبة فوقعت كلمته منى موقعا ظننت يومئذ الأمر سيصير إلى ما قال. فلما كان يوم الفتح قال: ائتنى بالمفتاح يا عثمان، فأتيته به فأخذه منى ثم دفعه إلى. و قال: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف. كذا فى شفاء الغرام.

قال: فلما وليت نادانى، فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذى قلت لك؟ قال:

فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة: لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت. قلت: بلى أشهد أنك رسول الله.

وفي التفسير أن هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا نزلت في عثمان بن طلحة الحنظلي. أمره عليه السلام أن يأتي بمفتاح الكعبة فأبى عليه و أغلق عليه الباب و صعد البيت و قال: لو علمت أنه رسول الله صلى الله عليه و سلم لم أمنعه منه. فولى على يده و أخذ منه المفتاح و فتح الباب. فدخل صلى الله عليه و سلم، و لما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح و قال: بأبي أنت و أمي يا رسول الله، اجمع لي السدانة مع السقاية. و كان النبي صلى الله عليه و سلم يريد أن يدفعها إلى العباس، فأنزل الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا أَي سادنها، و هو عثمان بن طلحة. كذا في معالم التنزيل. فأمر النبي صلى الله عليه و سلم عليا أن يرده إلى عثمان و يعتذر إليه، و قال قل له:

خذوها يا بني طلحة بأمانة الله، فاعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة، لا ينزعها منكم أو من أيديكم أو لا يأخذها منكم إلا ظالم. فردها علي. فلما ردها قال:

أكرهت و آذيت ثم جئت ترفق، قال علي: لأن الله أمرنا برده عليك. كذا في معالم التنزيل.

و في المواهب اللدنية: قال علي: لقد أنزل الله في شأنك و قرأ عليه: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا فَأَتَى النبي صلى الله عليه و سلم فأسلم. كذا في العمدة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٧٥

و في المنتقى: أن إسلام عثمان بن طلحة كان قبل ذلك بالمدينة مع إسلام خالد بن الوليد و عمرو بن العاص كما مر، و في روضة الأحاب: في هذا الكلام مخالفة بين أهل التفسير و أهل السير لأنه إن كان المراد بعثمان سبط عبد الدار بلا واسطة فأبوه أبو طلحة لا طلحة، و هو باتفاق أهل السير كان صاحب لواء المشركين يوم أحد، فقتل في ذلك اليوم، كما ذكر في غزوة أحد. و إن كان المراد به عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد الدار الذي هو ابن أخي عثمان بن طلحة بن عبد الدار فهو أسلم قبل فتح مكة. و في المواهب اللدنية: فجاء جبريل عليه السلام فقال: ما دام هذا البيت أو لبنه من لبناته قائمة فإن المفتاح و السدانة في أولاد عثمان. و كان المفتاح معه، فلما مات دفعه إلى أخيه، فالمفتاح و السدانة في أولادهم إلى يوم القيامة.

و في رواية مسلم: دخل صلى الله عليه و سلم يعني يوم الفتح هو و أسامة بن زيد و بلال و عثمان بن طلحة الحنظلي، فأغلقوا عليهم الباب. قال ابن عمر: فلما فتحوا كنت أول من ولج، فلقيت بلال فسألته هل صلى فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ قال: نعم بين العمودين اليمانيين، و ذهب عنى أن أسأله كم صلى. و في رواية: جعل العمودين عن يساره و عمودا عن يمينه و ثلاثة أعمدة وراءه، و كان البيت يومئذ على ستة أعمدة. و قد بين موسى بن عقبه في روايته عن نافع أن بين موقفه صلى الله عليه و سلم و بين الجدار الذي استقبله قريبا من ثلاثة أذرع، و جزم برفع الزيادة مالك عن نافع فقال أخرجه الدار قطنى فى الغرائب، و لفظه: و صلى و بينه القبّة ثلاثة أذرع. و في رواية ابن عباس قال: أخبرنى أسامة أنه عليه السلام لما دخل البيت دعا فى نواحيه كلها، و لم يصل فيه حتى خرج، فلما خرج ركع فى قبل البيت ركعتين فقال: هذه القبلة. رواه مسلم.

و أفاد الأزرقى فى تاريخ مكة أن خالد بن الوليد كان على باب الكعبة يذب عنه صلى الله عليه و سلم الناس.

و فى شفاء الغرام: فخرج عثمان بن طلحة إلى هجرته مع النبي صلى الله عليه و سلم إلى المدينة، و أقام ابن عمه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة مقامه، و دفع المفتاح إليه، فلم يزل يحجب هو و ولده و ولد أخيه و هب بن عثمان حتى قدم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة و ولد مسافع بن طلحة بن أبي طلحة من المدينة، و كانوا بها دهرا طويلا. فلما قدموا حجوا مع بنى عمهم. و فى الصفوة قال الواقدي: كان عثمان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٧٦

بن طلحة بن أبي طلحة يلى فتح البيت إلى أن توفى، فدفع ذلك إلى شيبه بن عثمان بن أبي طلحة و هو ابن عمه، فبقيت الحجابة فى ولد شيبه، و بقى شيبه حتى أدرك يزيد بن معاوية و دفع السقاية إلى العباس، و أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة و كسرت الأصنام.

وفي الاكتفاء: وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة على الصفا يدعو، وقد أهدت به الأنصار فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قنتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله. فلم يزل بهم حتى أخبروه. فقال: معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم. ثم اجتمع الناس للبيعة فجلس لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا يبائع الناس وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس. فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

وفي المدارك: روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من بيعه الرجال أخذ في بيعه النساء وهو على الصفا، وعمر جالس أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه. فجاءت هند ابنة عتبة امرأة أبي سفيان وهي متكررة خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا. فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولا يسرقن. فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أصبت من ماله هنا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت فهو لك حلال. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وعرفها، وقال لها: وإنك لهند. فقالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله، عفا الله عنك. فقال: ولا يزينين. فقالت: أترنى الحرة؟ فقال: ولا يقتلن أولادهن. فقالت: ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا، فأنتم وهم أعلم. وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر. فضحك عمر حتى استلقى، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ولا يأتين بيهتان. فقالت: والله إن البيهتان أمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق. فقال: ولا يعصينك في معروف. فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

فلما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك في غرور. وسنجيء وفاة هند في الخاتمة في أوائل خلافة عمر، وفي معالم التنزيل: قال ابن إسحاق وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف. وفي شفاء الغرام عن التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 477

ابن عباس: من بنى سليم سبعمائئة وقيل ألف، ومن غفار أربعمائئة، ومن أسلم أربعمائئة، ومن مزينة ألف وثلثائة نفر، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من بنى تميم وقيس وأسد.

وفي الاكتفاء: وعدت خزاعة الغد من يوم الفتح على رجل من هذيل يقال له ابن الأبوع فقتلوه، وهو مشرك، برجل من أسلم يقال له أحمر باسا. وكان رجلا شجاعا قتله خراش بن أمية الخزاعي. ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع خراش بن أمية قال: إن خراشا لقتال. يعنفه بذلك. وقام صلى الله عليه وسلم في الناس خطيبا وقال: يا أيها الناس، إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، وأن يعصد فيها شجرة. لم تحل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضبا على أهلها. ألا قد رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاتل فيها فقولوا له:

إن الله قد أحلها لرسوله، ولم يحلها لكم. يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر القتل، لقد قتلتم قتيلا لأدينه فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين إن شأوا فدم قاتله وإن شأوا فعقله. ثم ودى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي قتلته خزاعة. وفي المواهب اللدنية: فإن ترخص أحد فيها بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب.

وفي معالم التنزيل: وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان السنة الثامنة من الهجرة، وأقام بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة. كذا في البخاري، وفي رواية تسع عشرة. وفي رواية أبي داود سبع عشرة، وعند الترمذي ثمان عشرة ليلة يصلى ركعتين. وفي الإكليل بضع عشرة يقصر الصلاة. قال ابن عباس: ونحن نقصر ما بيننا وبين تسع عشرة، فإذا زدنا أتممنا. وفي رواية أقام بمكة بقية الشهر وستة أيام من شوال، ثم خرج إلى هوازن وثقيف، وقد نزلوا حيننا.

و روى أن النبي صلى الله عليه و سلم عهد إلى أمراءه حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أحد عشر رجلا و ست نسوة، فإنه أمر بقتلهم أينما ثقفوا من الحل و الحرم، و إن وجدوا تحت أستار الكعبة. انتهى من تاريخ الخميس.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٧٨

هذا و فى غزوة الفتح الأعظم "غزوة فتح مكة" حصل للنبي صلى الله عليه و سلم كثير من المعجزات و الأمور الخارقة. و كنا نتمنى درس هذه الغزوة و التأمل فيها لعددها و حصرها و الكتابه عنها بالتفصيل التام، و لكن ليس لنا من الوقت و الفراغ ما نحقق هذه المسألة، فعسى الله أن يقيض من الفضلاء العلماء من يؤلف كتابا خاصا عن هذه الغزوة الفتحية المباركة. ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما أراد أن يسافر من مكة جعل عتاب بن أسيد رضى الله تعالى عنه أميرا على مكة، و أوصاه بأهلها خيرا، و إليك ترجمة عتاب بن أسيد أول أمير لمكة فى الإسلام.

ترجمة عتاب بن أسيد رضى الله عنه

عتاب بن أسيد بكسر السين رضى الله عنه، هو أول أمير لمكة بعد فتحها، و لاه رسول الله صلى الله عليه و سلم، و جعل رزقه كل يوم درهما، فكان عتاب رضى الله عنه يقول: لا أشبع الله بطنا جاع على درهم كل يوم. جاء فى الإصابة عنه ما ملخصه: عتاب بالتشديد ابن أسيد بفتح أوله، أسلم يوم الفتح، و استعلمه النبي صلى الله عليه و على آله و صحبه و سلم على مكة يوم سار إلى حنين و استمر، و قيل إنما استعمله بعد أن رجع من الطائف، و حج بالناس سنة الفتح، و أقره أبو بكر على مكة، و روى الطيالسى و البخارى فى تاريخه من طريق أيوب عن عبد الله بن يسار عن عمرة بن أبى عقرب: سمعت عتاب بن أسيد و هو مسند ظهره إلى بيت الله يقول: و الله ما أصبت فى عملى هذا الذى ولانى رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا ثوبين معقدين كسوتهما مولاي كيسان- و إسناده حسن- انتهى ملخصا.

ذكر من أهدر النبي صلى الله عليه و سلم دمهم يوم الفتح

جاء فى تاريخ الخميس: روى أن النبي صلى الله عليه و سلم عهد إلى أمراءه حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا أحد عشر رجلا و ست نسوة، فإنه أمر بقتلهم أينما ثقفوا من الحل و الحرم و إن وجدوا تحت أستار الكعبة. و إليك أسماءهم فى هذا الجدول نقلا من التاريخ المذكور باختصار:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٧٩

جدول أسماء الرجال الذين أهدر النبي صلى الله عليه و سلم دمهم يوم الفتح

عدد/ الأسماء/ نبذة عن أحوالهم ١/ عبد الله بن خطل / كان قدم المدينة قبل فتح مكة و أسلم، و اسمه عبد العزى، فلما أسلم سماه النبي صلى الله عليه و سلم عبد الله، ثم ارتد، و كان له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلما كان يوم فتح مكة استعاذ بالكعبة و تعلق بأستارها، فأمر عليه الصلاة و السلام بقتله فقتلوه و هو آخذ بثياب الكعبة يتعوذ بها.

٢/ عبد الله بن سعد بن أبى سرح/ كان أبا لعثمان بن عفان من الرضاعة، و أسلم قبل الفتح، و كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه و سلم فى سورة المؤمنين: و لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ - إلى قوله-: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فتعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله: فتبارك الله أحسن الخالقين، قبل إملائه. فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: اكتب، هكذا نزلت، فقال عبد الله: إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبي يوحى إلي، فارتد و هرب إلى مكة ثم إنه أسلم يوم فتح مكة.

٣/ عكرمة بن أبى جهل/ لما كان يوم فتح مكة ركب عكرمة بن أبى جهل إلى البحر هاربا، فجعل الصرارى و الملاحون و من فى

السفينه يدعون الله تعالى و يوحدونه، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله، و فى رواية: جاء ملاح إلى عكرمة و قال له: أخلص العمل، قال: ماذا أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله، فإن هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله، قال عكرمة: فهذا إله محمد الذى يدعوننا إليه التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٨٠

عدد/ الأسماء/ نبذة عن أحوالهم// فارجعوا بنا، فرجع فأسلم. و قيل كان سبب إسلامه امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، و كانت امرأه عاقله أسلمت قبله ذهبت عنده فدعته إلى الإسلام فأسلم و ثبتا على نكاحهما الأول، روى أنه لما بلغا قريبا من مكة قال النبي صلى الله عليه و سلم لأصحابه: يأتيكم عكرمة بن أبى جهل مؤمنا فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذى الحى و لا يلحق الميت، و لقد استعمله رسول الله صلى الله عليه و سلم على هوازن عام حج، قتل عكرمة شهيدا يوم اليرموك بأجنادين فى خلافة أبى بكر رضى الله عنهما.

٤/ حويرث بن نقيد بن وهب بن عبد قصي / كان كثير الأذى و الهجو لرسول الله صلى الله عليه و سلم، و لما سمع يوم الفتح أن النبي صلى الله عليه و سلم أهدر دمه أغلق بابه و استتر فى بيته، فجاء على بن أبى طالب إلى بابه يطلبه و يسأل عنه، فقيل له: قد خرج إلى البادية، فعلم حويرث أن المسلمين يطلبونه، فمكث حتى ذهب على عن بابه فخرج من بيته و أراد أن ينتقل إلى مكان آخر متكررا، فصادفه على رضى الله عنه فضرب عنقه.

٥/ المقيس بن صبابه الكندى / بكسر الميم و سكون القاف و فتح الياء، كان مقيس أسلم هو و أخوه هشام. فوجد أخاه هشاما قتيلا فى بنى النجار، فأتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فذكر ذلك له، فأرسل النبي عليه الصلاة و السلام معه رجلا من بنى فهر إلى بنى النجار أن رسول الله صلى الله عليه و سلم يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابه ادفعوه إلى مقيس فيقتص التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٨١

// منه، و إن لم تعلموا ادفعوا إليه ديتة. فأبلغهم الفهرى ذلك، فقالوا: سمعا و طاعة لله و لرسوله، و الله ما نعلم له قاتلا لكننا نعطي ديتة. فأعطوه مائة من الإبل و انصرفا راجعين نحو المدينة. فأتى الشيطان مقيسا فوسوس إليه فقال: تقبل دية أخيك فتكون عليك مسبة؟

اقتل الذى معك فتكون نفس بنفس، و فضل الدية. فتغفل الفهرى فرماه بصخرة فشدخه، ثم ركب بعيرا و ساق بقيتها راجعا إلى مكة كافرا. فنزلت هذه الآية: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَهُوَ الَّذِي اسْتَنَاهَ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ مِمَّنْ أَمَنَهُ فَقَتَلَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ. و فى شفاء الغرام:

أما مقيس فقتل عند الردم، و هو ردم بنى جمح الذى قيل إن النبي صلى الله عليه و سلم ولد فيه، و ليس الردم الذى هو بأعلا مكة، لأنه لم يكن إلا فى خلافة عمر عمله صونا للمسجد من السيل حين ذهب بالمقام.

٦/ هبار بن الأسود/ كان كثير الأذى لرسول الله صلى الله عليه و سلم، فمن جملة أذيته أن أبى العاص بن الربيع حين خلص من الأسر يوم بدر رجع إلى مكة و أرسل زينب بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم، كما شرط مع النبي صلى الله عليه و سلم يوم بدر. فعرض هبار مع جماعة لطريق زينب و منعها و ضرب زينب بالرمح، فسقطت من الإبل و كانت حاملا فألقت حملها و مرضت و ماتت بهذا المرض. فغضب عليه النبي صلى الله عليه و سلم غضبا شديدا و أهدر دمه، حتى بعث مرة سريه إلى نواحي مكة فقال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٨٢

// لأهل السرية: إن ظفرتم بهبار فأحرقوه. ثم قال: إنما يعذب بالنار رب النار، إن ظفرتم بهبار فاقطعوا يده و رجله ثم اقتلوه. و فى يوم الفتح، أى فتح مكة، اختفى و لم يدر مكانه.

و لما رجع رسول الله إلى المدينة جاء هبار رافعا صوته و قال: يا محمد، أنا جئت مقرا بالإسلام، و قد كنت قبل هذا مخدولا ضالا، و الآن قد هدانى الله للإسلام، و أنا أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله و اعتذر إليه معترفا بذنبه مظهرا لخبائله. فقبل

النبي صلى الله عليه وسلم إسلامه وقال: يا هبار، عفوت عنك، والإسلام يجب ما كان قبله أو كما قال.

٧/ صفوان بن أمية/ لما علم صفوان أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دمه يوم فتح مكة هرب مع عبد له اسمه يسار إلى جدة يريد أن يركب منها إلى اليمن. فقال عمير بن وهب الجمحي: يا نبي الله، إن صفوان بن أمية سيد قومي، وقد خرج هاربا منك ليقذف نفسه في البحر، فأمنه عليك. قال:

هو آمن. قال: يا رسول الله أعطني شيئا يعرف به أمانك. فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمامته التي دخل بها مكة. وفي المشكاة:

فبعث إليه ابن عمه وهب بن عمير برداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أمانا لصفوان انتهى. فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان، فداك أبي وأمي، اذكر الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جئتكم عدة. فقال:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٨٣

// ويلك اغرب عني، فلا يكلمه. فقال: أي صفوان، فداك أبي وأمي، أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس ابن عمك، وعزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك. قال: فإني أخاف على نفسي. قال: هو أحلم من ذلك وأكرم. فرجع معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صفوان: هذا يزعم أنك أمتني. قال: صدق. قال: فاجعلني في أمرى بالخيار شهرين. قال: أنت فيه بالخيار أربعة أشهر. كذا في معالم التنزيل، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين وهوازن كان صفوان مع كفرة رفيقه، واستعار منه النبي صلى الله عليه وسلم مائة درع، قال صفوان: أغصبا يا محمد؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

بل عارية مضمونة. وسيجيء. وحين قفل النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف إلى الجعرانة مر مع صفوان على شعب مملوء من الإبل والغنم وسائر أنعام الغنيمه، وكان صفوان يحد النظر إلى تلك الأموال ولم يرفع بصره منها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلاحظه فقال: يا أبا وهب أتعجبك هذه؟ قال: نعم. قال: وهبتها لك كلها.

فقال صفوان: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي. فأسلم هناك.

٨/ حارث بن طلاطة/ هو من جملة الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان يوم الفتح قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٩/ كعب بن زهير/ هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر الشهير صاحب القصيدة المشهورة "بانت سعاد"، وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٨٤

// وهو جالس في المسجد فدخل وأسلم وأنشأ قصيدته التي أولها: "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول" فلما بلغ قوله:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

أنبت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

قال النبي صلى الله عليه وسلم: اسمعوا ما يقول، وقيل: فرح النبي صلى الله عليه وسلم وكساه بردا جائزة له.

١٠/ وحشى بن حرب/ هو قاتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم، كان المسلمون يحرضون على قتله لكن لم يقدر عليه ذلك، فلما كان يوم الفتح هرب إلى الطائف وأقام هناك إلى زمان قدوم وفد الطائف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء معهم ودخل عليه وقال: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنت وحشى؟ قال: نعم. قال:

أأنت قتلت حمزة؟ قال: قد كان من الأمر ما بلغك يا رسول الله، قال: اجلس واحك لي كيف قتلته. ولما قص عليه قصة قتله قال: أما تستطيع أن تغيب وجهك عني، فكان وحشى بعد ذلك إذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم يفر منه ويختفي.

١١/ عبد الله بن الزبيرى/ كان من الشعراء و كان يهجو الصحابة رضى الله عنهم و يحرض المشركين على قتالهم، فلما سمع يوم الفتح أن النبي صلى الله عليه و سلم أهدر دمه هرب إلى نجران و سكنها، و بعد مدة وقع الإسلام فى قلبه فأتى النبي صلى الله عليه و سلم، فلما رآه من بعيد قال: هذا ابن الزبيرى، و لما دنا منه التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٨٥
// قال: السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أنك رسول الله.

ذكر النساء الست اللاتى أهدر دمهن

١٢/ هند بنت عتبة/ هى امرأة أبى سفيان، و قد اشتهرت بإيذائها للنبي صلى الله عليه و سلم، و هى التى بقرت عن كبد حمزة رضى الله تعالى عنه فى غزوة أحد. فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، فلما كان يوم فتح مكة جاءت إلى النبي صلى الله عليه و سلم و هى مستنكرة منتقبة فى النساء حين يبايع النساء على الصفا فأسلمت.
١٣ و ١٤/ مغنيتان لابن خطل / تقدم فى أول هذا الجدول أن عبد الله بن خطل أهدر النبي صلى الله عليه و سلم دمه مع من أهدر دمهم يوم فتح مكة، فقتل ابن خطل و هو متعلق بأستار الكعبة.
و كان لابن خطل قينتان "أى مغنيتان" تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه و سلم، فأمر عليه الصلاة و السلام بقتلهما مع ابن خطل. (فالأولى) اسمها قريبة بالتصغير، و قيل اسمها سارة، و هذه قتلت مصلوبة. (و الثانية) اسمها فرتنا بفتح الفاء و سكون الراء، و هذه فرت حتى استؤمن لها من رسول الله صلى الله عليه و سلم فأمنها فأمنت.
١٥/ مولاة بنى خطل / قتلت يوم فتح مكة.
١٦/ مولاة بنى عبد المطلب / و قيل مولاة عمر بن صيفى بن هاشم. و هى التى حملت كتاب حاطب بن أبى بلتعنة من المدينة ذاهبة إلى مكة إلى قريش. و كانت تؤذى رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة. تغيبت يوم الفتح حتى استؤمن لها، فعاشت حتى أوطأها التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٨٦
// رجل فرسا له فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالأبطح فقتلها، و نقل الحميدى أنها قتلت، و فى فتح البارى فى شرح صحيح البخارى أنها أسلمت. و الله تعالى أعلم.
١٧/ أم سعد أرنب / قتلت.
نقول: إننا نقلنا كل ما تقدم فى هذا الجدول من تاريخ الخميس باختصار.

منزل النبي صلى الله عليه و سلم بمكة عام الفتح بعد الهجرة

لقد كان لرسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة دار وورثها من أبيه عبد الله بن عبد المطلب و فيها ولد، و ذلك كما فى الأزرقى أن جده عبد المطلب كان قد قسم حقه بين أولاده و دفع إليهم ذلك فى حياته حين ذهب بصره، فمن ثم صار للنبي صلى الله عليه و سلم حق أبيه عبد الله بن عبد المطلب، و هذه الدار واقعة بسوق الليل، و هى مولده صلى الله عليه و سلم و ما حوله، فلما هاجر إلى المدينة باعها عقيل بن أبى طالب تبعاً لقريش حين باعوا دور المهاجرين، و قيل إن النبي صلى الله عليه و سلم وهبها له.
جاء فى تاريخ الأزرقى: حدثنا أبو الوليد، قال حدثنى جدى، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن محمد بن على قال: قيل للنبي صلى الله عليه و سلم: أين تنزل بمكة؟
قال: و هل ترك لنا عقيل بمكة من ظل. و سيأتى معنى هذا الحديث هنا قريباً.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى، عن مسلم بن خالد، عن ابن جريج قال: أخبرنى عطاء أن النبي صلى الله عليه و سلم بعد ما سكن

المدينة كان لا يدخل بيوت مكة.

قال: كان إذا طاف بالبيت انطلق إلى أعلا مكة فاضطرب به الأبنية، قال عطاء:

في حجته فعل ذلك أيضا، و نزل أعلا مكة قبل التعريف و ليلة النفر نزل أعلا الوادي.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى، عن محمد بن إدريس، عن محمد بن عمر، عن معاوية بن عبد الله بن عبيد الله، عن أبيه عن أبي

رافع قال: قيل للنبي صلى الله عليه و سلم يوم الفتح: ألا تنزل منزلك بالشعب؟ قال: و هل ترك لنا عقيل منزلا؟ قال:

و كان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه و سلم و منازل إخوته من الرجال و النساء بمكة حين هاجروا، و منزل

كل من هاجر من بنى هاشم. ففيل لرسول

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٨٧

الله صلى الله عليه و سلم: فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك، فأبى رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال:

لا أدخل البيوت. فلم يزل مضطربا بالحجون، لم يدخل بيتا، و كان يأتي المسجد من الحجون.

و به عن محمد بن إدريس، عن محمد بن عمر، عن أبي سبرة، عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده قال: رأيت

رسول الله صلى الله عليه و سلم مضطربا بالحجون في الفتح يأتي لكل صلاة.

ثم قال الأزرقى بعد بضعة أسطر:

حدثنا أبو الوليد قال حدثني جدى، عن الزنجى، عن أبي جريح، عن عثمان بن أبي سليمان، عن عبد الله أبى بكر قال: قال رسول الله

صلى الله عليه و سلم: إذا قدمنا مكة إن شاء الله تعالى نزلنا بالخيف الذى تحالفوا علينا فيه. قال ابن جريح: قلت لعثمان: أى حلف؟

قال: الأحزاب.

و به عن الزنجى، عن ابن جريح، عن عطاء: أن النبي صلى الله عليه و سلم لم ينزل بيوت مكة بعد أن سكن المدينة. قال: كان إذا

طاف بالبيت انطلق إلى أعلا مكة فضرب به الأبنية. قال عطاء: و فعل ذلك في حجته أيضا، نزل بأعلا مكة قبل التعريف، و ليلة الصدر

نزل بأعلا الوادى. انتهى من الأزرقى.

نقول: معنى قوله هنا: قبل التعريف ... الخ، أى: قبل طلوعه إلى عرفات للحج، و معنى قوله: و ليلة الصدر هو بفتح الصاد و الدال يطلق

على طواف الإفاضة، و يكون بعد الوقوف بعرفة و نصف ليلة النحر، فالمراد بليلة الصدر ليلة النحر. و ذلك أن رسول الله صلى الله

عليه و سلم لما قدم من المدينة في حجة الوداع وصل مكة صبح يوم الأحد رابع ذى الحجة بعد أن بات ليلته بذى طوى قرب مكة،

فدخلها من الثنية العليا التى تشرف على الحجون، و نزل بظاهر مكة و أعلاها أى نزل جهة الحجون، فأقام بمكة محرما بقصر الصلاة

أربعة أيام يوم الأحد و الاثنين و الثلاثاء و الأربعاء. فلما كان يوم التروية و هو اليوم الثامن من ذى الحجة و كان يوم الخميس توجه

ضحى صلى الله عليه و سلم بمن معه من المسلمين إلى منى محرما بذلك الإحرام، فنزل بها و صلى الظهر و العصر، و بات بها فلما

أصبح يوم الجمعة و طلعت الشمس سار منها إلى عرفة، و قد ذكرنا مفصلا خبر حجة وداعه صلى الله عليه و سلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٨٨

موضع نزول النبي صلى الله عليه و سلم بمكة و منى و مزدلفة و عرفات

نعقد هذا المبحث لمعرفة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد هجرته و إقامته بالمدينة المنورة إذا قدم إلى مكة لا يسكن في

بيوتها و دورها، و إنما تضرب قبتة بالأبطح أو بالحجون بأعلا مكة فينزل بها.

روى الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى و غفر لنا و له فى تاريخه: عن ابن جريح قال: أخبرنى عطاء أن النبي صلى الله عليه و سلم بعد ما

سكن المدينة كان لا يدخل بيوت مكة، قال: كان إذا طاف بالبيت انطلق إلى أعلا مكة فاضطرب به الأبنية. قال عطاء:

في حجته فعل ذلك أيضا و نزل بأعلا مكة قبل التعريف، و ليلة النفر نزل أعلا الوادى.

و روى أيضا عن أبى رافع قال: قيل للنبي صلى الله عليه و سلم يوم الفتح ألا تنزل منزلك بالشعب؟ قال: و هل ترك لنا عقيل منزلا؟ قال: و كان عقيل بن أبى طالب قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه و سلم و منازل إخوته من الرجال و النساء بمكة حين هاجروا، و نزل كل من هاجر من بنى هاشم، فقيل لرسول الله صلى الله عليه و سلم: فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك، فأبى رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: لا أدخل البيوت. فلم يزل مضطربا بالحجون لم يدخل بيتا، و كان يأتي المسجد من الحجون. و عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم مضطربا بالحجون في الفتح يأتي لكل صلاة.

و عن أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله أين منزلك غدا، قال: و ذلك في حجته، قال: و هل ترك لنا عقيل منزلا؟ قال: و نحن نازلون غدا إن شاء الله بخيف بنى كنانة، يعنى المحصب. انتهى من الأزرقى.

قال شيخنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى في شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم" عند حديث «منزلنا غدا إن شاء الله...» ما يأتي: أصل الخيف فى اللغة كل ما انحدر عن الجبل و ارتفع عن المسيل، و هو هنا المحصب - بفتح الحاء و الصاد المهملتين - و يقال له الحصبه بفتح الحاء و إسكان الصاد المهملتين، و الأبطح و البطحاء، و خيف بنى كنانة. فهذه أسماء مترادفة لشيء واحد، و فى المدونة قلت: أين هو الأبطح عند مالك؟ قال:

لم أسمع أين هو، و لكنه معروف هو حيث المقبرة. انتهى من الجزء الرابع من زاد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-1، ص: ٤٨٩

المسلم. هذا ما كان منزله صلى الله عليه و سلم بمكة، و إن شاء الله سنتكلم عن معنى حديث: (و هل ترك لنا عقيل منزلا) بعد الانتهاء من هذا المبحث.

و أما منزله عليه الصلاة و السلام بمنى فى الحج، فقد روى الإمام الأزرقى فى تاريخه عن طاووس قال: كان منزل رسول الله صلى الله عليه و سلم بمنى على يسار مصلى الامام، و كان ينزل أزواجه موضع دار الإمارة، و كان ينزل الأنصار خلف دار الإمارة، و أوما رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الناس أن انزلوا هاهنا و هاهنا.

و عن خالد بن مضرس أنه رأى أشياخا من الأنصار يتحرون مصلى رسول الله صلى الله عليه و سلم أمام المنارة قريبا منها، قال الأزرقى، قال جدى: الأحجار التى بين يدى المنارة هى موضع مصلى النبي صلى الله عليه و سلم، لم نزل نرى الناس و أهل العلم يصلون هنالك، و يقال له مسجد العيشومة و فيه عيشومة أبدا خضراء فى الجذب و الخصب بين حجرين من القبلة، و تلك العيشومة قديمة لم تزل ثم. انتهى من الأزرقى.

نقول: إن مصلى النبي صلى الله عليه و سلم فى مسجد الخيف بمنى هو مكان المحراب الذى تحت القبلة بوسط المسجد، كما بينا ذلك فى الكلام عن مسجد الخيف. فراجع إن شئت.

و أما منزله صلى الله عليه و سلم بمزدلفة بعد نزوله من عرفات، ففى موضع من مسجد مزدلفة على ما يظهر، أى عند المحراب الذى بوسط جدار المسجد القبلى كما هو صريح عبارة الأزرقى الآتية، فقد روى الأزرقى فى تاريخه عن ابن جريج قال: قال لى عطاء: بلغنى أن النبي صلى الله عليه و سلم كان ينزل ليلة جمع فى منزل الأئمة الآن ليلة جمع، يعنى دار الإمارة التى فى قبلة مسجد مزدلفة، انتهى من الأزرقى.

و معنى ليلة جمع: ليلة مزدلفة، و جمع يطلق على مزدلفة، و أما منزل الأئمة - أى دار الإمارة التى ذكرها الأزرقى - فلا وجود لها الآن مطلقا، و ما تراه اليوم من البنايات القليلة إنما حدثت فى زماننا، أى من بعد سنة (١٣٥٣) ثلاث و خمسين و ثلاثمائة و ألف، و قبل هذه السنة لم يكن بمزدلفة شيء من البنايات غير المسجد.

و أما منزله عليه الصلاة و السلام بعرفه إذا وصل إليها من منى ففى جبل نمرة، فقد روى الأزرقى عن ابن جريج قال: سألت عطاء أين كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ينزل يوم عرفه؟ قال: بنمرة، منزل الخلفاء، إلى الصخرة الساقطة بأصل الجبل عن يمينك و أنت ذاهب إلى عرفه، يلقي عليها ثوب، يستظل به صلى الله عليه و سلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩٠

قال الأزرقى: و تحت جبل نمرة غار أربعة أذرع فى خمسة أذرع، ذكروا أن النبى صلى الله عليه و سلم كان ينزل يوم عرفه حتى يروح إلى الموقف، و هو منزل الأئمة إلى اليوم، و الغار داخل فى جدار دار الإمارة فى بيت فى الدار، و من الغار إلى مسجد عرفه ألفا ذراع و أحد عشر ذراعاً، و من مسجد عرفه إلى موقف الإمام عشية عرفه ميل، يكون الميل خلف الإمام إذا وقف و هو حيال جبل المشاة. انتهى من الأزرقى.

نقول: أما موقفه صلى الله عليه و سلم عشية عرفه ففى مسجد الصخرات الذى هو بقرب جبل الرحمة و هو موضع معروف إلى اليوم. و أما كلام الإمام الأزرقى "أن الغار داخل فى جدار دار الإمارة فى بيت فى الدار" فهذا الوصف بحسب زمانه و قد مضى على وفاته رحمه الله تعالى إلى يومنا هذا أكثر من "ألف و مائة عام" فلم يبق للدار و الجدار و البيت أى أثر أو علامة مطلقاً، اللهم إلا الغار فإن الغيران لا تزول حتى تزول الجبال عن موضعها.

و لقد يسر الله تعالى لنا التجول فى بعض وادى عرفه "بالنون" و الجبال القريبة من مسجد نمرة، و العلمين القديمين لبيان حدود الحرم من الحل، للبحث عن الغار الذى نزل فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم عرفه قبل الزوال عند مجيئه من منى، و الذى ذكره الإمام الأزرقى هنا، فقد تجولنا ثلاث مرات فى المكان المذكور مع دليلين خبيرين من العرب يعرفان هذه الأماكن و الغيران الموجودة فيها، و ذلك بعد النصف الثانى من شهر شوال سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة، فوجدنا ما يأتى:

إذا وصل الإنسان من منى إلى قبيل مسجد نمرة بعرفات و سار مع الجبل الذى عن يمينه و هو جبل كثير الصخور و الحجارة بعضها فوق بعض من أصل الخلقة فمن ذلك تتكون المغارات "أى الغيران".

فقبل أن يصل الإنسان إلى منتهى الجبل الممتد كاللسان فى الرمل بنحو (١٦٠) متراً- مائة و ستين متراً- يجد على يمينه على ارتفاع نحو قمتين مغارة كبيرة فى أصل الجبل، من الصخور الكبار تسع نحو عشرة أشخاص بل أكثر، و فى وسط أرض الغار صخرة كبيرة و أخرى أصغر منها متصلتان ببعضهما، و للغار بابان إحدهما صغير و هو الذى يقابل القبلة و عرضه مائة و ثلاثون سنتيمتراً، و الباب الثانى كبير و هو الذى يقابل عرفات و عرضه متران، و أمام هذا الباب

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩١

صخرة كبيرة نازلة إلى الأرض بها ثلاث حفر طبيعية أو أربعة كل حفرة كدائرة رأس الإنسان، واحدة فوق الأخرى تشبه الدرج، و من هذه الحفر يسهل الطلوع إلى الغار. على أن الصعود إليه ميسور من البابين و إن لم تكن هذه الحفر، و سقف هذا الغار يتكون من صخرتين كبيرتين جدا متصلتان ببعضهما من وسط السقف كهيئة الجمelon على شكل مثلث، و طول هذا الغار ستة أمتار، و سيع من مدخله الكبير و ضيق من مدخله الصغير، و من وراء هذا الغار من الجهة المقابل للجبل غار آخر كبير طويل يسع نحو خمسة عشر شخصاً، و الفاصل بين هذا الغار و بين الغار المذكور إحدى صخرتى سقفه التى تلى الجبل و مدخل هذا الغار من المدخل الصغير للغار الذى تكلمنا عنه، فهذان الغاران بجوار بعضهما تماماً، و لا يوجد فى الجبل أكبر من هذين الغارين المتجاورين، و كلاهما يسع لنحو ثلاثين شخصاً.

و تحت هذا الغار مباشرة جهة الباب الكبير غار آخر صغير تتجه فتحته إلى عرفات، و هو غار على وجه الأرض غير مرتفع فى الجبل، و سقفه صخرة واحدة كبيرة، طوله أقل من ثلاثة أمتار و عرضه فتحته متران.

و فى هذا الجبل غيران كثيرة متعددة، و لا يعلم بالتحقيق التام نفس الغار الذى نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم عرفه فى هذا

الجبل، لكننا نظن غالب الظن الذى نظمثن إليه، أن الغار الكبير الذى ذكرناه هو الغار الذى نزله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عرفه لجملة أمور و هي:

(١) أن وصف هذا الغار الكبير يقرب من وصف الإمام الأزرقي له.

(٢) أن هذا الغار يقع تقريبا أمام العلمين القديمين الدالين على انتهاء حدود الحرم، و لا نستبعد أن ينزل النبي صلى الله عليه وسلم عند مفرق الحل من الحرم- أى عند حدودها- والله تعالى أعلم. و البعد بين هذا الغار و بين العلمين المذكورين (٤٣٠) مترا، أربعمائة و ثلاثون مترا.

و قد يزيد البعد و قد ينقص عن هذه الأمتار بحسب استقامة أخذ القياس أو انحرافه.

(٣) و البعد بين هذا الغار و بين مسجد نمرة القبلى (١١٣٠) مترا هو ألف و مائة و ثلاثون مترا، و هو قريب مما ذكره الأزرقي فإن المتر الواحد يساوى ذراعين تقريبا، فقد ذكروا أن ذراع اليد يساوى ثمانية و خمسون سنتيمترا. و قد يزيد البعد و قد ينقص عن الأمتار بحسب استقامة أخذ القياس أو انحرافه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩٢

(٤) أن الجالس فى هذا الغار يرى من مدخله الكبير أى بابه مسجد نمرة و جبل عرفات أى جبل الرحمة الذى يقف عليه الحجاج المسمى "بالقرين" و يرى مسجد الصخرات الذى تحته جبل الرحمة الذى وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفه، بل يرى ميدان عرفات كلها. فكأن النبي صلى الله عليه وسلم جلس فى هذا الغار ليشاهد جبل عرفات و مسجد نمرة و مسجد الصخرات و حدود الحل من الحرم.

(٥) أن هذا الغار الكبير هو أقرب الغيران إلى مسجد نمرة و هذا ما يوافق الرغبة النبوية. فإنه صلى الله عليه وسلم حينما زالت الشمس نزل من هذا الغار إلى موضع مسجد نمرة فصلى فيها الظهر و العصر، ثم ذهب إلى عرفات فوقف فى مسجد الصخرات حتى غربت الشمس ثم دفع إلى مزدلفه، و لذلك سمي هذا الجزء الأخير من الجبل بجبل نمرة لقربه من نمرة.

(٦) أن هذا الغار هو الغار الذى يلائم رسول الله صلى الله عليه وسلم، (أولا) أنه مرتفع مشرف على ساحة عرفات كلها (ثانيا) أن مدخله الكبير يقابل عرفات و هو بيت القصيد و منتهى الرحلة، و أن مدخله الصغير يقابل مكة و القبلة (ثالثا) أن الغار هو أوسع غار فى الجبل فإنه يأخذ فى جوفه نحو عشرة أنفس، و النبي صلى الله عليه وسلم لا بد و أن يكون معه نحو هذا العدد من كبار الصحابة لا يفارقونه فى السفر و يتشرفون بالقرب منه كالخلفاء الراشدين الأربعة و غيرهم من كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. (رابعا) أن بجوار هذا الغار غار آخر متصل به يفصل بينهما الصخرة التى بوسطهما و طولهما واحد و كل منهما يسع بقدر الآخر من الأشخاص، فلو كان مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثون من الصحابة لاستظلوا فيهما بغاية الراحة و بدون أن يتعدوا عن بعضهم.

و من عجيب أمر الغيران فى الجبال أنها تكون فى وقت الظهيرة باردة منعشة، لا يشتد على الجالس بداخلها و طأة الحر و القيظ. هذا رأينا فى الغار الذى نزله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عرفه قبل الظهر و هذه أدلتنا فى تحقيقه، و لا يعلم الغيب إلا الله الواحد الأحد سبحانه و تعالى، و نزوله صلى الله عليه وسلم فى الغار المذكور لا يمنع من أنه نزل أيضا فى قبة من شعر التى أمر أن تضرب له بنمرة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩٣

و ما نظن أن أحدا قبلنا طرق هذا الباب أو بحث عن هذه المسألة مع أنها لا دخل لها فى المناسك مطلقا، فالحمد لله رب العالمين أولا و آخر. هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شىء عليم.

فعلم من جميع ما تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن سكن المدينة إذا قدم مكة لا ينزل فى بيوتها و منازلها. وإنما ينزل بقبته التى تضرب له حيثما كان إلى أن يرجع إلى المدينة، أى أنه صلى الله عليه وسلم ينزل فى خبائه الذى يضرب له أينما نزل، سواء فى

بطحاء مكة بالحجون، أو في منى و مزدلفة و عرفات، فلا يستظل في بيت مبنى منذ خروجه من المدينة إلى أن رجح إليها من مكة. فقد تقدم في أول هذا المبحث أن الصحابة رضی الله تعالى عنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه و سلم يوم الفتح: فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك. فأبى رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: لا أدخل البيوت. فلم يزل مضطربا بالحجون لم يدخل بيتا، و كان يأتي المسجد من الحجون لكل صلاة.

فهذا أعظم دليل على زهده و تواضعه صلى الله عليه و سلم في بلد الله الأمين و مشاعر الحج، فإنه أتى إليها للنسك لا للإقامة، و النسك عبارة عن التجرد و مخالفة العادات المألوفة. و لو أمعنا النظر قليلا لوجدنا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم في حجته قد تعرض كثيرا للشمس بمكة و منى و عرفات، فأين عهدنا من ذلك العهد النبوي المشرق، و أين عصرنا من ذلك العصر المبارك الأنور.

ثم رأينا ما يؤيد كلامنا هذا في المجموع شرح المذهب للإمام النووي رحمه الله تعالى فإنه قال فيه بصحيفة ١١٧ من الجزء الثامن ما يأتي:

إن الأفضل للواقف أن لا يستظل بل يبرز للشمس، إلا للعدر بأن يتضرر أو ينقص دعاؤه أو اجتهاده في الأذكار، و لم ينقل أن النبي صلى الله عليه و سلم استظل بعرفات، مع ثبوت الحديث في صحيح مسلم و غيره عن أم الحصين أن النبي صلى الله عليه و سلم «ظل عليه بثوب و هو يرمى الجمر» و قد قدمنا بيان مذهبنا عند ما في استظلال المحرم بغير عرفات في باب الإحرام و الله تعالى أعلم. انتهى.

اللهم صل و سلم و بارك على هذا النبي الكريم، الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم، و على آله و ذريته و صحابته الطيبين الطاهرين، و اجزه عنا أفضل ما جازيت نبيا عن قومه و رسولا عن أمته، و أعطه الوسيلة و الفضيلة و الدرجة الرفيعة و المقام المحمود. و لا تحرمانا شفاعته الثابتة التي أتحتته و خصصته بها يوم لا ينفع مالٌ و لا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، و تداركنا في تلك الساعة و في ذلك اليوم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩٤

يوم يفرء المرء من أخيه و أمه و أبيه بلطفك الخفي، و استرنا بستر ك الذي لا ينكشف، و أظننا تحت ظل عرشك، و آمننا من غضبك و عذابك، و أدخلنا الجنة بسلام آمنين، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين، و حسن أولئك رفيقا، آمين يا أرحم الراحمين، بفضلك و إحسانك و رحمتك و كرمك، يا عظيم يا حلیم يا كريم يا رحيم، فإنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك، لا شريك لك، و أن محمدا عبدك و رسولك.

معنى حديث: «و هل ترك لنا عقيل منزلا»

جاء في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضی الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: «و هل ترك لنا عقيل من رباغ أو دور؟» و في رواية البخارى في كتاب المغازي: «من منزل».

روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن أبي رافع قال: قيل للنبي صلى الله عليه و سلم يوم الفتح: ألا تنزل منزلك بالشعب، قال: و هل ترك لنا عقيل منزلا؟ قال: و كان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه و سلم و منازل إخوته من الرجال و النساء بمكة حين هاجروا و منزل كل من هاجر من بني هاشم، فقيل لرسول الله صلى الله عليه و سلم: فانزل في بعض بيوت في غير منزلك. فأبى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قال: لا- أدخل البيوت، فلم يزل مضطربا بالحجون لم يدخل بيتا، و كان يأتي المسجد من الحجون. انتهى من كلام أبي رافع.

و عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده قال: رأيت رسول الله مضطربا بالحجون في الفتح، يأتي لكل صلاة. و عن

أسامة بن زيد قال: قلت رسول الله أين منزلك غدا؟ قال: و ذلك في حجته. قال: و هل ترك لنا عقيل منزلا، قال: و نحن نازلون غدا إن شاء الله بخيف بنى كنانة- يعني المحصب- انتهى كل ذلك من الأزرقى.

نقول: ليس معنى قوله عليه الصلاة و السلام: «و هل ترك لنا عقيل من ربيع أو دور» أنه صلى الله عليه و سلم يتحسر و يأسف على منزله الذى باعه عقيل بن أبى طالب- كالا- ثم كالا- فإن ذلك لا يليق بمقام النبوة، و هو صلى الله عليه و سلم لو شاء لجعل الله له الجبال ذهباً، و لكنه لا بد أن يرمى بقوله هذا إلى حكمه دقيقة، و لا يبعد أن يكون ذلك تأنيبا لعقيل بن أبى طالب عسى أن يكفر عن خطئه هذا بالإسلام، فإن عقيلاً أخ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩٥

لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه، و بالفعل فقد أسلم عقيل عام الفتح و قيل أسلم بعد الحديبية. و الله تعالى أعلم. و لا بد لنا أن نستوفى الكلام على معنى هذا الحديث الشريف فنقول و بالله التوفيق و هو الهادى إلى سواء السبيل:

ذكر أستاذنا العلامة المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى فى شرحه فى كتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم" عند حديث: «و هل ترك لنا عقيل من ربيع أو دور» فى صحيفة (١١٥) من الجزء الخامس ما يأتى:

قوله: «من ربيع» بكسر الراء جمع ربيع، بفتح الراء و سكون الموحدة، و هو المنزل المشتمل على أبيات، و قيل: هو الدار، فعلى هذا فقوله: «أو دور» إما للتوكيد أو من شك الراوى. و فى رواية فى الصحيح «من منزل» بدل من ربيع كما أشرنا إليه سابقا.

و أخرج هذا الحديث الفاكهى من طريق محمد بن أبى حفصة و قال فى آخره:

و يقال إن الدار التى أشار إليها عليه الصلاة و السلام كانت دار هاشم بن عبد مناف، ثم صارت لعبد المطلب ابنه فقسمها بين ولده حين عمر، فمن ثم صار للنبي صلى الله عليه و سلم حق أبيه عبد الله و فيها ولد النبي صلى الله عليه و سلم. و ظاهر قوله: و هل ترك لنا عقيل من ربيع، أنها كانت ملكه عليه الصلاة و السلام فأضافها إلى نفسه، فيحتمل أن عقيلاً تصرف فيها كما فعل أبو سفيان بدور المهاجرين و يحتمل غير ذلك.

و فى الصحيحين بعد حديث المتن ما نصه: و كان عقيل ورث أباً طالب، هو و طالب و لم يرثه جعفر و لا على رضى الله عنهما شيئاً لأنهما كانا مسلمين.

و كان عقيل و طالب كافرين. زاد البخارى فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: لا يرث المؤمن الكافر. قال ابن شهاب و كانوا يتأولون قول الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، الآية. و هذه الزيادة من تفسير الراوى.

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح بعدها ما نصه: محصل هذا أن النبي صلى الله عليه و سلم لما هاجر استولى عقيل و طالب على الدار كلها باعتبار ما ورثاه من أبيهما لكونهما كانا لم يسلموا و باعتبار ترك النبي صلى الله عليه و سلم لحقه منها بالهجرة و فقد طالب بيد فباع عقيل الدار كلها. و حكى الفاكهى أن الدار لم تزل بيد أولاد عقيل إلى أن باعوها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩٦

لمحمد بن يوسف أخى الحجاج بمائة ألف دينار. و فى نسخة ثمانية آلاف دينار، و زاد فى روايته من طريق محمد بن أبى حفصة فكان على بن الحسين يقول: من أجل ذلك تركنا نصيبنا من الشعب، أى حصه جدهم على من أبيه أبى طالب.

و قال الداودى و غيره: كان من هاجر من المؤمنين باع قريبه الكافر داره و أمضى النبي صلى الله عليه و سلم تصرفات الجاهلية تأليفاً لقلوب من أسلم منهم. ٥١.

(قلت) أى قال الشارح: و كما أمضى عليه السلام تصرفاتهم كذلك كان يصحح أنكحتهم. هذا و قد كان المهاجرون و الأنصار

يتوارثون بالهجرة و النصره دون الأقارب في صدر الإسلام، حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ الَّذِي يَفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ الْمَسْوُوقَةِ هُنَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرِثُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَرِثُ الْكَافِرَ، لَكِنَّهُ مُسْتَفَادٌ مِنْ بَقِيَّةِ الْآيَةِ الْمَشَارِإِلَيْهَا بِقَوْلِ الْبُخَارِيِّ الْآيَةُ وَ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا أَى مِنْ تَوَلَّيْتُمْ فِي الْمِيرَاثِ إِذِ الْهَجْرَةُ كَانَتْ فِي أَوَّلِ عَهْدِ الْبَعْتِ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُهَاجِرًا كَأَنَّهُ لَيْسَ مُؤْمِنًا. فَلِهَذَا لَمْ يَرِثِ الْمُؤْمِنُ الْمُهَاجِرَ مِنْهُ. وَ هَذَا الْحَدِيثُ كَمَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الْحَجِّ مِنْ سُنَنِهِ، وَ كَذَا أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِيهِ فِي سُنَنِهِ، وَ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِ فِيهِ وَ فِي الْفَرَايِضِ.

وَ يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَرِثُ الْكَافِرَ، وَ عَلَى ذَلِكَ فَفَهَاءُ الْأَمْصَارِ. وَ حَكَى عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَ إِسْحَاقَ أَنَّ الْمُسْلِمَ يَرِثُ الْكَافِرَ. وَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَرِثُ الْمُسْلِمَ. وَ يُسْتَفَادُ مِنْهُ أَيْضًا بَقَاءُ دَوْرِ مَكَّةَ لِأَرْبَابِهَا. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: اِحْتَجَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ الشَّافِعِيُّ عَلَى جَوَازِ بَيْعِ دَوْرِ مَكَّةَ، لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَجَازَ بَيْعَ عَقِيلِ الدَّوْرِ الَّتِي وَرَثَهَا، وَ كَانَ عَقِيلٌ وَ طَالِبٌ وَرَثًا إِيَّاهُمَا لِأَنَّهُمَا إِذْ ذَاكَ كَانَا كَافِرِينَ، فَوَرَثَاهُ، ثُمَّ أَسْلَمَ عَقِيلٌ فَبَاعَهَا. قَالَ الْخَطَّابِيُّ:

وَ عِنْدِي أَنَّ تِلْكَ الدَّوْرَ وَ إِنْ كَانَتْ قَائِمَةٌ عَلَى مَلِكٍ عَقِيلٍ لَمْ يَنْزِلْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، لِأَنَّهَا دَوْرٌ هَجَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَلَمْ يَرْجِعُوا فِيهَا تَرْكُوه. قَالَ الْحَافِظُ وَ تَعَقَّبَ أَنَّ سِيَاقَ الْحَدِيثِ يَقْتَضِي أَنَّ عَقِيلًا بَاعَهَا، وَ مَفْهُومُهُ أَنَّهُ لَوْ تَرَكَهَا لَهُ لَنْزَلَهَا. (قَالَ مَقِيدُهُ وَفَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى) أَى قَالَ الشَّارِحُ أَيْضًا: هَذَا التَّعَقُّبُ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ فِيمَا يَظْهَرُ وَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، بَلْ مَا قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ هُوَ الظَّاهِرُ، لِأَنَّ الْخَطَّابِيَّ قَالَ:

إِنْ كَانَتْ قَائِمَةٌ عَلَى مَلِكٍ عَقِيلٍ الْخُ فَهُوَ قَيْدٌ دَالٌ عَلَى أَنَّ كَلَامَهُ إِذَا نَزَلَ عَلَى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩٧

كَوْنِهِ إِذَا تَرَكَ نَزُولَهَا إِنْ كَانَتْ قَائِمَةٌ عَلَى مَلِكٍ عَقِيلٍ، وَ هُوَ قَدْ أَسْلَمَ، لِأَنَّهَا دَوْرٌ هَجَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَلَمْ يَرْجِعْ فِيهَا هِجْرَهُ لَهُ تَعَالَى. فَكَلَامُ الْخَطَّابِيِّ مَعَ هَذَا الْقَيْدِ لَا يَنْتَزِلُ إِلَّا عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ. وَ قَوْلُنَا وَ يُسْتَفَادُ مِنْهُ أَيْضًا بَقَاءُ دَوْرِ مَكَّةَ لِأَرْبَابِهَا قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَ مِمَّنْ قَالَهُ الْقَاضِي عِيَاضُ. وَ قَدْ اِخْتَلَفَ فِيهِ، وَ الْخِلَافُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْخِلَافِ هَلْ فَتَحَتْ عَنُودُهُ وَ هُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَ أَبِي حَنِيفَةَ لَكِنْ مَنْ عَلَى أَهْلِهَا بِدَوْرِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ، وَ لَمْ يَقْسِمْهَا بَيْنَ الْغَانِمِينَ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَ لَا نَعْلَمُ بِلَدَا تَشْبَهِ مَكَّةَ أَوْ فَتَحَتْ صِلْحًا، وَ هُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ، كَذَلِكَ اِخْتَلَفَ فِي بَيْعِ دَوْرِهَا وَ كَرَانِهَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ: لَا يَحِلُّ بَيْعُهَا وَ لَا كَرَاؤُهَا وَ لَا مَلِكٌ عَلَيْهَا لِأَحَدٍ، وَ أَجَازَهُ الشَّافِعِيُّ وَ أَبُو يُونُسَ، وَ كَرِهَهُ مَالِكٌ. وَ هُوَ أَيْضًا عَلَى الْخِلَافِ فِي فَتْحِهَا، وَ فِي الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ هَلْ هُوَ عَائِدٌ عَلَى الْبَلَدِ أَوْ عَلَى الْمَسْجِدِ، وَ عَلَى أَنَّهَا فَتَحَتْ عَنُودُهُ وَ أَقْرَتْ بِأَيْدِيهِمْ فَيَحْتَجُّ بِهِ عَلَى أَنَّ لِلْإِمَامِ إِبْقَاءُ مَا فَتَحَ عَنُودُهُ بِأَيْدِي أَرْبَابِهِ، أَسْلَمُوا أَوْ لَمْ يَسْلَمُوا، لَمَّا يَرَاهُ مِنْ اسْتِثْلَافِهِمْ إِنْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، أَوْ لِيَضْرِبَ الْجَزِيَّةَ عَلَيْهِمْ إِنْ بَقُوا عَلَى دِينِهِمْ، وَ يَكُونُ تَرْكُهَا بِطَيْبِ نَفْسٍ الْجَيْشِ كَمَا فَعَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ فِي سَبِيِّ هَوَازِنَ، أَوْ يَقُومُهَا مِنَ الْخَمْسِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ أَنَّهُ قَسَمَ مِنْ مَالِ أَهْلِ مَكَّةَ شَيْئًا، بَلْ كَانَ أَبْقَاهُ لَهُمْ لِقَرَابَتِهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْآخِرِ أَنَّ اللَّهَ عَوَّضَهُمْ مِنْ مَالِ هَوَازِنَ أَضْعَافَ ذَلِكَ. وَ فِيهِ حُجَّةٌ لِمَنْ يَقُولُ أَنَّ الْغَنِيمَةَ لَا يَمْلِكُهَا الْغَانِمِينَ بِالْحَوْزِ بَلْ بِتَمْلِيكِ الْإِمَامِ وَ قَسْمِهَا بَيْنَهُمْ، وَ لِذَلِكَ لَمْ يَخْتَلَفْ فِي قَطْعِ سَارِقِهَا مِنْهُمْ وَحَدِّ زَانِيهِمْ. اهـ. بَلْفُظِهِ. انْتَهَى مِنْ شَرْحِ "زَادَ الْمُسْلِمَ"، ثُمَّ ذَكَرَ الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانَ أَحْكَامِ بَيْعِ دَوْرِ مَكَّةَ وَ غَيْرِهَا مِنْ أَرْضِ الْحَرَمِ وَ إِجَارَتِهَا وَ رَهْنِهَا لَمْ تَرْضُورَةُ فِي نَقْلِهَا.

ترجمة عقيل بن أبي طالب

ذَكَرَ أَسْتَاذُنَا الْعَلَامَةُ الْمَحْدَثُ الشَّهِيرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ حَبِيبُ اللَّهِ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَرْحِهِ لِكِتَابِهِ "زَادَ الْمُسْلِمَ" فِيهِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْبُخَارِيُّ وَ الْمُسْلِمُ "عِنْدَ حَدِيثٍ: «وَ هَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دَوْرٍ» فِي صَحِيفَتِهِ (١١٤) مِنْ الْجِزَاءِ الْخَامِسِ مَا يَأْتِي:

وعقيل بفتح العين و كسر القاف مكبرا، هو عقيل بن أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه و سلم، يكنى أبا يزيد، و هو أخ على و جعفر، فهو أسن أبناء أبي طالب الثلاثة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩٨

الذين أسلموا. أما طالب أخوهم الذى فقد بيدرو و لم يكرمه الله بالإسلام فهو أسن أبناء أبي طالب جميعا، و لذلك كنى به. و من النوادر فى أبنائه الأربعة أن كل واحد منهم أسن من الذى يليه بعشر سنين فطالب أسن من عقيل و هو من جعفر و هو من على، و التفاوت بين كل واحد و الآخر عشر سنين، و هو من النوادر.

فبهذا الاعتبار يكون عقيل أكبر من على بعشرين سنة، و قد تأخر إسلام عقيل رضى الله عنه إلى عام الفتح، و قيل أسلم بعد الحديبية، و هاجر فى أول سنة ثمان، و كان أسيرا يوم بدر ففداه عمه العباس. و وقع ذكره فى الصحيح فى مواضع، و شهد غزوة مؤتة، و لم يسمع له بذكر فى الفتح و حنين كأنه كان مريضا أشار إلى ذلك ابن سعد، لكن روى الزبير من بكار بسنده إلى الحسن بن على رضى الله عنهما أن عقيلًا- كان ممن ثبت يوم حنين، و كان عالما بأنساب قريش و مآثرها و مثالبها و أيامها. و كان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة. كان سريع الجواب المسكت، و كان قد فارق عليا و وفد إلى معاوية فى دين لحقه. و قد روى أن النبى صلى الله عليه و سلم أعطاه من خبير كل سنة مائة و أربعين و سقا. و له أحاديث. و قال ابن حجر فى الإصابة: و لعقيل حديث كامل أخرجه له النسائى و ابن ماجه. قال ابن سعد: قالوا: مات فى خلافة معاوية. قال الحافظ: و فى تاريخ البخارى الأصغر بسند صحيح أنه مات فى أول خلافة يزيد قبل الحره، و روى عنه ابنه محمد، و الحسن البصرى، و عطاء. انتهى من شرح زاد المسلم.

فضل مكة المشرفة

اعلم أن الله تعالى لم يخلق جنسا من أجناس المخلوقات إلا و جعل بينها تفاوتا و تفاضلا، سواء كان ذلك فى الجمادات أو فى بنى آدم حتى فى النبيين، قال تعالى فى سورة الإسراء: **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا** و لقد قال العلماء: "ما من عامٍ إلا و قد خصص" و مما لا شك فيه أن أرضية جميع المساجد فى الدنيا أفضل من غيرها من البقاع لأنها بيوت الله يذكر فيها اسمه و محل لعبادته، بل إن بعض المساجد أفضل من بعض كالمساجد الثلاث. قال الشاعر:

إن البقاع إذا نظرت رأيتها تشقى كما تشقى الرجال و تسعد

فلا تتساوى بقعة خصصت للعبادة و العلم، و بقعة خصصت للهو و الفجور، فإذا علمنا أن البقاع تتفاضل فنقول: إن مكة المشرفة و المدينة المنورة أفضل بقاع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٤٩٩

الأرض بالإجماع و يليها بيت المقدس. ثم اختلف العلماء فى أن مكة أفضل أم المدينة: فعند جمهور العلماء أن مكة أفضل منها. و نحن نجنح إلى هذا القول أيضا لأن المدينة لم يعرف فضلها إلا بعد حلول نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم فيها، و أما مكة ففضلها معروف منذ العصور الأولى الغابرة من لدن آدم عليه السلام و بالأخص بعد أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام حيث بنى الكعبة بيت الله فيها، و أذن فى الناس بالحج فأتوا مكة من كل فج عميق، و الله أعلم بعدد من أتى مكة من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام و غيرهم من عامة الناس، و أن من ينظر فى أشهر الحج إلى مكة يأتى إليها الناس أفواجا أفواجا يوميا ليلا و نهارا، و قد علا ضجيجهم بالدعاء و التضرع فى كل محلة و زقاق حين دخولهم مكة و هم محرمون يذهبون مع مطوفهم إلى الطواف و السعى. آمن بعظمة الله سبحانه و تعالى و عرف فضل مكة على سائر البلدان، فإن هذه الحال لا توجد فى جميع أنحاء المعمورة سوى بمكة و فى كل عام إلى قيام الساعة. فالحمد لله الذى جعلنا من أهلها السعداء الآمنين من كل خوف و فزع فى الدنيا و الآخرة بفضلله و برحمته إنه واسع الفضل و الإحسان. و اعلم: أن مكة المشرفة ترتفع عن سطح البحر نحو (٣٣٠) متر و هى على عرض (٢١) درجة و (٣٨) دقيقة، و فى طول (٤٠)

درجة و (٩) دقائق.

امتياز مكة عن سائر البلدان

تمتاز مكة عن سائر البلدان على وجه الأرض بجملته أمور:

(منها): أنها مهبط الوحي و مركز نزول القرآن و ابتداء ظهور الإسلام.

(و منها): أن القادم إليها يجب عليه التجرد من ثيابه و دخولها بإحرام بنية العمرة أو الحج.

(و منها): أنه ليس فيها إلا دين واحد و هو الإسلام فليس فيها دينان.

(و منها): أنه يمنع شرعا دخول الكافر و دفنه فيها.

(و منها): أنه يحرم حمل السلاح فيها إلا لضرورة.

(و منها): أنه يحرم صيدها على جميع الناس سواء في ذلك أهل مكة و أهل الحرم و غيرهم و سواء المحرم منهم و الحلال.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٠٠

(و منها): أن دماء الهدايا و الجبرانات مختص بمكة و بالحرم و لا يجوز في غير ذلك من البقاع.

(و منها): أنه يحرم قطع شجره و يضمن ما يقطع منه.

(و منها): أنه يحرم إخراج شيء من ترابه أو حجاراته إلى الحل و إلى البلدان الأخرى.

(و منها): مضاعفة الحسنات فيها و بالأخص الصلوات في المسجد الحرام، فقد روى الإمام أحمد و البزار و ابن حبان في صحيحه عن

عبد الله بن الزبير رضی الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره

من المساجد إلا المسجد الحرام، و صلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة ألف صلاة».

(و منها): أنه يبعث من مقبرتها سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفا و جوههم كالقمر ليلة البدر

كما في الحديث.

(و منها): أن الدجال سيطر على جميع البلدان حين خروجه إلا مكة و المدينة و بيت المقدس.

(و منها): أنه ما من نبي من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام إذا كذبه قومه إلا و خرج إلى مكة يعبد الله تعالى حتى يأتيه اليقين و أن

حول الكعبة قبر ثلاثمائة نبي، و ما بين الركن اليماني و الركن الأسود قبر سبعين نبيا، و قبر إسماعيل و أمه هاجر في الحجر تحت

الميزاب، و أن ما بين زمزم و المقام قبر نوح و هود و شعيب و صالح.

و روى الأزرقي عن مجاهد أنه قال: حج خمسة و سبعون نبيا كلهم قد طاف بالبيت و صلى في مسجد مني، فإن استطعت أن لا

تفوتك صلاة في مسجد مني فافعل.

(و منها): أن أهل مكة يتجهون في صلاتهم إلى الكعبة من جميع الجهات الأربعة بخلاف بلدان العالم فكل بلدة تتجه إلى الكعبة من

جهة واحدة. و ما أبهج منظر المسجد الحرام حين الصلاة، فإن الجميع يصلون حول الكعبة من جميع الجهات على اتساعه، و لا يوجد

منظر يأخذ بمجامع القلوب و يشرح الصدور

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٠١

و يذهب الهم و الغم و يجلب السرور، كالصلاة في المسجد الحرام و الجلوس حول الكعبة المشرفة.

إلى غير ذلك من فضائل مكة التي لا توجد على وجه الأرض بلدة تدانيها، و كفى أنها بلد الله تعالى و بلد رسوله و مولده و بلد

أصحابه المهاجرين الكرام، و مأوى الأنبياء و المرسلين و الأتقياء و الصالحين و قبله جميع المؤمنين و فيها الموسم السنوي للحج يفد

إليها المسلمون من كل فج عميق ليقيموا خامس أركان الإسلام الحج الذي لا يمكن أداؤه إلا فيها لاحتوائها على جميع المشاعر.

اللهم صلى و سلم على نبيك و رسولك "محمد" الذي تشرفت مكة بظهوره فيها، و على آله و أصحابه الذين فازوا بتبليغ دعوة و اجتلاء نور طلعتة و تشرفوا بخدمته، فالوا رضاءك و عفوك و فضلك، صلاة و سلاما دائمين إلى يوم الدين، و ارض اللهم عنا معهم و ألقنا بهم و احفظنا و ذرياتنا من الفتن و توفنا مسلمين، بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

الآيات و الأخبار الواردة في فضل مكة

هذا و يطيب لنا التحدث عن فضل مكة زادها الله شرفا و رخاء و أمنا و أمانا، أكثر مما ذكرناه (و من أحب شيئا أكثر من ذكره) و لنذكر في فضلها ما جاء في كتاب (العقد الثمين في فضائل البلد الأمين) للشيخ أحمد بن محمد الحضرواي. قال رحمه الله تعالى في أوله ما نصه:

و يكفي من ذلك كله إنزال ذكرها في كتابه العزيز في مواضع عديدة:

(منها) قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ، و قوله تعالى: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، و قوله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْيِدَ رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّتِي حَرَّمَهَا، و قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا، الآية، و قوله تعالى: أَوْ لَمْ تَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا، و قوله تعالى: بَلَدَهُ طَيِّبَةٌ وَ رَبُّ غَفُورٌ عَلَى بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهَا مَكَّةُ. و قوله تعالى: وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّتِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ، و قوله تعالى: وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، و قوله تعالى: لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، و قوله تعالى: يَبْطِنُ مَكَّةً، و قوله تعالى: لَتُنذِرَ أُمَّ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٠٢

الْقُرَى وَ مَنْ حَوْلَهَا، و قوله تعالى: وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ، و قوله تعالى: وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ.

فهذه الآيات أنزلها الله سبحانه و تعالى في مكة خاصة و غيرها من الآيات البينات و لم تنزل في بلد سواها.

انظر: صورة رقم ٢٠، جانب من مكة المشرفة و بيوتها اللطيفة و منازلها الجميلة

(و أما الأخبار الواردة فيها) فمما روى عن عبد الله بن عدي بن حمراء رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو واقف على راحلته على الحزورة من مكة و هو يقول لمكة: و الله إنك لخير أرض الله و أحب أرض الله إلى الله و لولا أنى أخرجت منك ما خرجت، رواه سعيد بن منصور و الترمذى و قال: حديث حسن صحيح و النسائى و ابن ماجه و ابن حسان و هذا لفظه، (و رواه) أحمد واقف بالحزورة، انتهى.

و الحزورة كانت سوقا بمكة سابقا و قد دخل في المسجد الحرام فيما زيد فيه و هو محل المنارة المعروفة الآن بباب الوداع. (و فى حديث آخر): خير بلدة على وجه الأرض و أحبها إلى الله تعالى مكة. و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: دحيت الأرض من مكة فحدها الله تعالى من تحتها فسميت أم القرى. و أول جبل وضع فى الأرض أبو قبيس، و أول من طاف بالبيت الملائكة قبل أن يخلق الله تعالى آدم بألفى عام و ما من ملك يبعثه الله تعالى من السماء إلى الأرض فى حاجة إلا اغتسل من تحت العرش و انقضى محرما فيبدأ ببيت الله فيطوف به أسبوعا ثم يصلى خلف المقام ركعتين، ثم يمضى لحاجته و ما بعث إليه. و كل نبي من الأنبياء إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم إلى مكة، فعبد الله تعالى بها عند باب الكعبة حتى أتاه اليقين و هو الموت، و أن حول الكعبة قبر ثلاثمائة نبي، و ما بين الركن اليمانى و الركن الأسود قبر سبعين نبيا كلهم قتلهم الجوع و القمل، و قبر إسماعيل و أمه هاجر عليهما السلام فى الحجر تحت الميزاب، و قبر نوح و هود و شعيب و صالح، على نبينا و عليهم أفضل الصلاة و السلام، فيما بين زمزم و المقام، و ما على وجه الأرض بلدة وفد إليها جميع النبيين و المرسلين و الملائكة أجمعين. و صالح عباد الله الصالحين من أهل السموات و الأرضين و الجن إلا مكة. ذكره الحسن البصرى فى رسالته.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٠٣

(و عن عمرو بن الأحوص) قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في حجة الوداع: أى يوم هذا؟ قالوا: يوم الحج الأكبر. قال: فإن دماءكم و أموالكم و أعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا، ألا لا يجنى جان على نفسه ألا لا يجنى جان على ولده و لا- مولود على والده، و إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى بلدكم هذا أبدا و لكن ستكون له طاعة فيما تحقرون من أعمالكم فيرضى به، رواه ابن ماجه و الترمذى و صححه و فى الصحيح: أنه ليس من بلد إلا سيطؤها الدجال إلا مكة و المدينة و بيت المقدس ليس نقب من نقابها إلا و عليه الملائكة صافين يحرسونها. النقب بفتح النون و ضمها و سكون القاف: الباب، و قيل الطريق، و جمعه نقاب. (و عنه صلى الله عليه وسلم) أنه قال: إن الشيطان قد يئس من أن يعبد المصلون فى جزيرة العرب و لكن فى التحريش بينهم، رواه الهروى فى شرحه على المشكاة.

(و عن ابن عباس) رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة:

إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات و الأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لن يحل القتال فيه لأحد قبلى، و لم يحل لى إلا- ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة و لا ينفر صيده و لا يلتقط لقطه إلا من عرفها و لا يختلى خلاه. فقال العباس، رضى الله عنه: يا رسول الله إلا- الإذخر فإنه لقينهم و لبيوتهم. فقال: إلا الإذخر متفق عليه. قوله: لقينهم. القين الحداد و كذا الصياغ فإنهم يحرقونه بدل الحطب و الفحم. و فى رواية فقال العباس: إلا الإذخر فإنه لقبورنا و بيوتنا، انتهى. و قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن مكة حرمها الله و لم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يسفك بها دما و لا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له إن الله قد أذن لرسوله و لم يأذن لكم و إنما أذن لى فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، و ليبلغ الشاهد الغائب)، رواه البخارى و مسلم فى صحيحهما.

(و عن جابر) رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة سلاح. رواه مسلم.

(و كان ابن عمر) رضى الله عنهما يمنع ذلك فى أيام الحج، انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٠٤

و اتفق الجمهور أنه لا- يحل بلا ضرورة، و حجتة فى ذلك دخوله صلى الله عليه وسلم عام الفتح متهيأ للقتال، كذا ذكره القاضى عياض، و تبعه الطيبى و ابن حجر. و جزم الحسن أنه لا يجوز حمل السلاح بمكة مطلقا، و هو موافق لابن عمر رضى الله عنهما. و أما عام الفتح، فهو مستثنى من هذا الحكم، فإنه صلى الله عليه وسلم، كان أبيض له ما لم يبح لغيره من نحو حمل السلاح و ما يكون سببا لرعب مسلم أو أذى أحد، كما هو مشاهد اليوم.

(و عن ابن عباس) رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمكة: ما أطيبك من بلد و أحبك الى و لولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك. رواه الترمذى، و قال: حديث حسن صحيح، غريب إسنادا.

(و فى المشكاة) عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد و هو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لى أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغداة من يوم الفتح سمعته أذناى و وعاه قلبى و أبصرته عيناى، حين تكلم به حمد الله و أثنى عليه ثم قال: إن مكة حرمها الله و لم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يسفك بها دما و لا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له: إن الله قد أذن لرسوله و لم يأذن لكم و إنما أذن لى فيها ساعة من نهار، و قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس و ليبلغ الشاهد الغائب. فقيل لأبى شريح: ما قال لك عمر؟ و قال: قال إنه أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصيا و لا فارا بدم و لا فارا بخربة، متفق عليه، و فى البخارى الخربة: الجناية.

(و يروى عن على بن أبى طالب) رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم، عن الله تعالى أنه قال: إذا أردت أن أخرب الدنيا

بدأت بيتي فخرته ثم أخرج الدنيا على إثره. رواهما الغزالي في الإحياء.

(و يروى) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ليأرز فيما بين الحرمين، يعنى مكة و المدينة، ذكره أبو محمد المرجاني في الفتوحات الربانية.

(و روى) أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سار إلى المدينة مهاجرا تذكر مكة في طريقه فاشتاق إليها، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: أتشتاق إلى بلدك و مولدك؟ قال: نعم.

قال: فإن الله يقول: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ، أى مكة. ذكره القرشي في المناسك.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٠٥

(قال الحسن البصرى) في رسالته: ما أعلم اليوم على وجه الأرض بلدة ترفع فيها من الحسنات و أنواع البر كل واحدة منها بمائة ألف ما يرفع بمكة، و ما أعلم أنه ينزل في الدنيا كل يوم رائحة الجنة و روحها ما ينزل بمكة. و يقال إن ذلك للطائفين.

(و قال ابن عباس رضى الله عنهما): أصل طينة النبي صلى الله عليه وسلم من سره الأرض بمكة و من موضع الكعبة دحيت الأرض فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، الأصل في التكوين، و الكائنات تبع له، و قيل: لذلك سمي أميا، لأن مكة أم القرى و طينة أم الخليفة.

(فإن قيل): إن مدفن الإنسان بترته، و النبي صلى الله عليه وسلم دفن بالمدينة؟

(الجواب): أن الماء لما ماج في ذلك الوقت، رمى بتلك الطينة المباركة في ذاك الموضع من المدينة. ذكره صاحب عوارف المعارف.

(و عن مجاهد) قال: خلق الله موضع البيت الحرام قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفى عام. و أخرج ابن حاتم من طريق السدى، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لو أن إبراهيم حين دعا قال: اجعل أئدة الناس تهوى إليهم، لآزدمت عليه اليهود و النصارى، و لكنه خص حين قال: أئدة من الناس، فجعل ذلك للمؤمنين. (و أخرج عن مجاهد) قال: لو قال إبراهيم: فاجعل أئدة الناس تهوى إليهم لزامتهم عليه الروم و فارس، و هذا صريح في فهم الصحابة و التابعين التبعض من من.

(و عن محمد بن سوقة) قال: كنا جلوسا مع سعيد بن جبير في ظل الكعبة، فقال: أنتم في أكرم ظل على وجه الأرض. (و فى الحديث) عنه صلى الله عليه وسلم: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا و المسجد الحرام و المسجد الأقصى، و لم يذكر شيئا من المساجد غيرها. (و فى الخبر) عنه: صلى الله عليه وسلم، أنه قال: ما بين الركن اليمانى و الحجر الأسود روضة من رياض الجنة. انتهى من كتاب العقد الثمين.

و جاء فى كتاب الجامع اللطيف لابن ظهيرة، رحمه الله تعالى، بعد ما ذكر جزءا فى أفضلية مكة على غيرها من البلاد: ما نصه:

... (و منها) حديث أبى سلمة، عن عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهرى، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته واقفا بالحزورة يقول: و الله إنك لخير

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٠٦

أرض الله و أحب أرض الله إلى الله، و لولا- أنى أخرجت منك ما خرجت. و هو حديث حسن، أخرجه أصحاب السنن، و صححه جماعة، منهم الترمذى. و زاد الإمام أحمد: واقف بالحزورة فى سوق مكة، و قد دخل سوق مكة المذكور فى المسجد بعد ذلك، و فى رواية أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بالحزورة و قال: إنك لخير أرض الله و أحب أرض الله عز و جل، و لو تركت فيك ما خرجت منك. و فى أخرى عنه: و الله لقد عرفت أنك أحب البلاد إلى الله و أكرمها على الله، و لولا أن قومي أخرجوني، الحديث. و فى رواية ابن عباس: ما سكنت غيرك. قال بعض العلماء: الظاهر أن هذه المقالة كانت منه صلى الله

عليه و سلم في عمره القضية حين سألت قريش النبي صلى الله عليه و سلم أن يخرج من مكة بعد الثلاثة الأيام التي أقامها كما وقع الشرط. و لا يظن أحد أنه، عليه السلام، قال ذلك حال خروجه للهجرة إلى المدينة، لأنه لم يكن بهذه الصفة حين هاجر، و إنما كان خروجه إليها مستخفياً كما هو معلوم لا راكباً على راحلته، إذ لو كان كذلك لأشعره بسفره.

و في تاريخ الأزرقى أنه عليه السلام قال ذلك عام الفتح فيحمل على أنه قاله مرتين إذ لا تنافي، و يكون فيه من تعظيم مكة ما لا يخفى، و الحزورة بحاء مهملة مفتوحة و زاء معجمة، و عوام مكة يصحفونها و يقولون عزورة، بعين مهملة. و الحزورة هي الرابية الصغيرة، جمعها حزاور، و كان عندها سوق الحنطين بمكة قديماً، و هي مخففة على وزن قسورة، و المحدثون يشددون الحزورة و الحديدية، و الصواب التخفيف، كذا قال الشافعي و الدار قطنى.

(و منها) حديث ابن الزبير، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام و صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة في مسجدى»، رواه أحمد. قال ابن عبد البر في التمهيد: إنه ثابت لا يطعن فيه، أن مضاعفة الصلاة بالمسجد الحرام على مسجد النبي صلى الله عليه و سلم بمائة، مذهب عامة أهل الأثر. انتهى.

و ذهب الإمام مالك و جمهور أصحابه إلى تفضيل المدينة، و هو مذهب عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، و كثير من الصحابة و أكثر أهل المدينة، و استدلوا بقوله صلى الله عليه و سلم: ما بين قبرى و منبرى روضة من رياض الجنة. مع قوله عليه السلام: موضع سوط في الجنة، خير من الدنيا و ما فيها.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 507

قال ابن عبد البر: هذا استدلال بالخبر في غير ما ورد فيه و لا يقاوم النص الوارد في فضل مكة. ثم ساق حديث أبى سلمة، عن ابن العمراء المتقدم و قال: هذا نص في محل الخلاف، فلا ينبغى العدول عنه. و أما الحديث المروى: اللهم إنك تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد إلى، فأسكنى أحب البلاد إليك، لا يختلف أهل العلم في نكارتة و وضعه، و سئل عنه الإمام مالك، رضى الله عنه فقال: لا يحل لأحد أن ينسب الكذب الباطل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم. انتهى.

قال الطبرى: و على تقدير صحته فلا دلالة فيه لأن قوله: فأسكنى فى أحب البلاد يدل سياقه فى العرف على أن المراد به بعد مكة، فإن الإنسان لا يسأل ما أخرج منه فإنه قال: أخرجونى فأسكنى، فدل على إرادة غير المخرج منه فتكون مكة مسكوتاً عنها. انتهى.

و أما الحديث الذى فيه: المدينة خير من مكة لا يرد لأنه ضعيف، بل قيل موضوع. قال الجد رحمه الله: فإن قلت: ورد فى الصحيحين عن أنس، رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما بمكة من البركة، و دعوته صلى الله عليه و سلم، مستجابة بلا شك. و فيها أيضاً أن الملائكة يحرسونها لا يدخلها الطاعون و لا الدجال. قلت: هذه الأحاديث و نحوها تدل على فضيلة المدينة، لا أفضليتها على مكة كما لا يخفى، و قوله صلى الله عليه و سلم لهم: حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد. و فى رواية: و أشد لا دلالة فيه. أما على رواية: أو أشد، فظاهر لوجود الشك. و أما على رواية: و أشد، بدون ألف أو بها، و تكون بمعنى الواو، فلأن سؤاله عليه السلام حصول أشد الحب للمدينة بعد وجود المانع من سكناه مكة تسلياً عنها، لا يلزم منه تفضيل المدينة على مكة بعد استحضار ما تقدم من قوله، عليه السلام: لقد عرفت أنك أحب البلاد إلى الله و أكرمها على الله، بشهادة التأمل. انتهى. نقلنا هذا بنصه من الجامع اللطيف.

قال بعض الفضلاء فى التحذير من الظلم بمكة شرفها الله تعالى:

أبنى لا تظلم بمكة لا الصغير و لا الكبير

و احفظ محل مهابتى لا أن يغربك الغرور

أبنى من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور

أبني يضرب وجهه يلج بخديه السعير
 أبني قد جربت لها فوجدت ظالمها يبور
 التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٠٨ الله أمنها و ما بنيت بعرضتها قصور
 و لقد غزاها تبع فكسا بنايتها الحبير
 و أذل ربي ملكه فيها فأوفى بالندور
 و يظل يطعم أهلها لحم المهاري و الجذور
 يسقيهم العسل المصفى و الرحيق من الشعير
 و الفيل أهلك جيشه يرمون فيها فى الصخور
 و الملك فى أقصى البلادو فى الأعاجم و الجزور
 فاسمع إذا حدثت وافهم كيف عاقبه الأمور
 نقلنا هذه القصيدة من مرآة الحرمين لأيوب صبرى.

أهل مكة أدرى بشعابها

هذا مثل عربى قديم و هو مثل شائع إلى اليوم عند جميع الناس، نحن لم نقف على قائل هذا المثل اللطيف، و لكننا نحب أن نشرحه هنا بما يظهر معناه. فنقول:

إن مكة، شرفها الله تعالى، تحيطها الجبال من جميع الجهات، بل هى واقعة وسط الجبال، و كان العرب من قديم العصور، يسكنون حول الكعبة المعظمة بين شعاب هذه الجبال و ما أكثر هذه الشعاب، فالغريب فى مكة لا يعرف مساكن العرب بين هذه الشعاب، و إذا مشى وحده بين هذه الجبال الكثيرة، ضل و انقطع و هلك من العطش و الجوع، و أما العربى من أهل مكة فهو لا يضل فيها لمعرفة شعابها و مسالكها، بل إن بهائمهم من الغنم و الجمال إذا ذهبت إلى المرعى فى هذه الجبال، لتعرف كيف تعود وحدها بدون راع إلى منازلها و مراتبها.

إن مكة التى شرفها الله تعالى على سائر البقاع، لم تعرف فيها الشوارع الواسعة و المسالك السهلة العريضة، إلا بعد القرن التاسع للهجرة تقريبا، حيث كثر الناس فيها و صاروا يقطعون أشجار الشوك، و يقطعون الجبال الصغيرة الواقعة فى مسالكهم، و يرفعون الأحجار و الأتربة المتراكمة فى دروبهم من أثر السيول و الإعصار. و فى زماننا هذا سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، و هى سنة توسعة المسجد الحرام و توسعة شوارع مكة المكرمة، قد شاهد الناس كيف يزيلون الجبال و يقطعون الصخور، و يهدمون المنازل و البيوت فى أسرع

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٠٩

وقت، بواسطة الآلات الضخمة الجبارة التى تدار بالكهرباء و بالمكائن الأوتوماتيكية التى اخترعت فى هذا العصر العجيب، كما شاهدوا إقامة بناء البيوت و القصور الضخمة بالإسمنت المسلح فى أقصر زمن لا تتجاوز أشهرا قلائل.

و بمناسبة شعاب مكة نذكر الحكاية الآتية: لقد ذهبنا مع بعض الأصدقاء منذ عشر سنوات إلى بعض الجبال القريبة من مكة، و أخذنا معنا أكلنا و شربنا و جلسنا بين جبلين لا تأتية الشمس، و بعد أن تغدينا و شربنا الشاهى و صلينا صلاة العصر، قال بعض رفاقنا نحب أن نطلع فوق هذا الجبل لنرى ما وراءه، فذهب أربعة منهم إلى رأس الجبل بعد أن حذرناهم من التوغل بين الجبال خصوصا و أن الليل مقبل، لقد تسلقوا الجبل و نحن جالسون فى مكاننا نراهم، ثم هبطوا منه بين الجبال و أرادوا الرجوع فتأهوا فى ظلام الليل، و لقد قلنا عليهم أشد القلق و قد قرب أذان العشاء، فطلبنا من بعضنا أن يطلعوا إلى رأس الجبل و ينادوهم بأسمائهم و أن يرفعوا بأيديهم

الكشاف الكهريائي الذي عندهم، ثم بعد برهة سمعنا صوتهم، واهدوا إلى رأس الجبل بالكشاف الكهريائي، فحمدنا الله تعالى على رجوعهم بالسلامة.

فلو كان بدلهم بدوى من العرب لما تاه و ما ضاع عن رفاقه.

قال فى المصباح المنير: الشعب بالكسر الطريق وقيل الطريق فى الجبل و الجمع شعاب، و الشعب بالفتح ما انقسمت فيه قبائل العرب و الجمع شعوب، مثل فلس و فلوس، و يقال الشعب الحى العظيم. انتهى ملخصا منه.

أهل مكة الله عز شأنه

نذكر ملخص ما جاء فى تاريخ الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى فى هذا العنوان و هو: عن ابن جريج، عن عبد الله بن عبيد الله أنه كان يقول: "كان أهل مكة فيما مضى يلقون فيقال لهم يا أهل الله: وهذا من أهل الله." قال العلامة ابن ظهير، رحمه الله تعالى، فى كتابه الجامع اللطيف: المراد بأهل مكة قريش، و بما مضى حال شركهم و كفرهم كما ذكر أهل السير، فبالأولى أن يقال لهم بعد أن أكرمهم الله تعالى بدين الإسلام و أعزهم بنبيه، عليه أفضل الصلاة و السلام، فطوبى لأهل مكة ثم طوبى. انتهى منه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١٠

و عن ابن جريج قال: أخبرنى معاذ بن أبى الحارث أن النبى صلى الله عليه و سلم حين استعمل عتاب بن أسيد على مكة قال: «هل تدرى على من استعملتك، استعملتك على أهل الله».

و قال ابن أبى مليكة: أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «لقد رأيت أسيدا فى الجنة و أنى يدخل أسيد الجنة، فعرض له عتاب بن أسيد، فقال: هذا الذى رأيت، ادعوه لى، فدعا فاستعمله يومئذ على مكة. ثم قال لعتاب: أتدرى على من استعملتك، على أهل الله فاستوص بهم خيرا، يقولها ثلاثا» اه من الأزرقى.

قال الخضرى رحمه الله تعالى فى كتابه "نور اليقين" ما نصه: و أقام عليه الصلاة و السلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوما يقصر فيها الصلاة، و ولى عليها عتاب بن أسيد و جعل رزقه كل يوم درهما. فكان عتاب، رضى الله عنه، يقول: لا أشبع الله بطنا جاع على درهم كل يوم. اه.

فانظر رحمك الله البون الشاسع بين زمانهم و زماننا.

و فى الأزرقى أيضا: عن وهب بن منبه أنه قال فى حديث حدث به فى الحرم قال: «... و من أمن أهله استوجب بذلك أمانى، و من أخافهم فقد أخفنى فى ذمتى، و لكل ملك حيازة مما حوالية و بطن مكة حوزتى التى احتزت لنفسى دون خلقى، أنا الله ذو بكة أهلها خيرتى و جيران بيتى، و عمّارها و زوارها و فدى، و أضيافى فى كنفى و أمانى، ضامنون على فى ذمتى و جوارى». اه.

و هذا القدر هو جزء صغير من حديث وهب بن منبه الذى حدث به عن فضل البيت الحرام. و حديثه هذا طويل جدا يبلغ صحيفتين و قد ذكره كله الأزرقى فى أوائل كتابه "تاريخ مكة".

و عن الحسن بن مسلم المكى قال: استعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه نافع بن الحارث الخزاعى على مكة، قال: فلما قدم عمر استقبله، فقال عمر: من استخلفت على أهل مكة؟ فقال: ابن أبى. قال: استعملت على أهل مكة رجلا من الموالى. فغضب عمر حتى قام فى الغرز، قال: فقال: إنى وجدته أقرأهم لكتاب الله و أعلمهم بدين الله. قال: فتواضع عمر بن الخطاب حتى لصق بالرحل، ثم قال: لئن قلت ذلك لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: إن الله تعالى يرفع بهذا الدين أقواما و يضع به آخرين. اه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١١

و فى رواية بهذا القرآن. و ابن أبى اسمه عبد الرحمن. و نستنتج من هذه الرواية:

(الأول): من المستحسن اللائق استقبال الناس خلفاء المسلمين و ولاة الأمور و الملوك و كل ذى شأن، كالعلماء و الوالدين و الرؤساء

و الأصدقاء من خارج البلدة كما أن نافع بن الحارث، استقبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، بعسفان و هي واقعة بين مكة و المدينة فيما بين وادى فاطمة و خليص، أى مسيرة يومين من مكة بالجمال، و بها بئر يقال أن النبي صلى الله عليه و سلم شرب منه، و قد غزا النبي صلى الله عليه و سلم بنى لحيان بعسفان. و فى مرآة الحرمين أن رسول الله صلى الله عليه و سلم فى حجة الوداع، لما مر بوادى عسفان قال: يا أبا بكر أى واد هذا؟ قال: وادى عسفان. قال: مر به هود و صالح على بكرين أحمرين، خطمهم الليف و أزرهم العباء و أرديتهم النمار يلبن، يحجون البيت العتيق. ذكره الإمام فى المسند.

(الثانى): مبادرة عمر بن الخطاب فى سؤال عامله على مكة نافع بن عبد الحارث عن الرجل الذى جعله و كيلا عنه مدة غيابه عن مكة لاستقباله، و هذا دليل على حرصه على أمور المسلمين و عدم غفلته عن شؤونهم و لو كان فى السفر.

(الثالث): غضبه على عامله نافع لإقامته ابن أبزى أحد الموالى و كيلا عنه مدة غيابه، بينما يوجد فى أهل مكة من هو أفضل منه، و هذه من أدق المسائل الاجتماعية، فإن من موجبات التنافر و التباغض و العدا، تعيين صغار القوم و ضعفاء الرأى و الفكر و من لم يبلغ مبلغ الرجال من النبل و مكارم الأخلاق، فى المراكز الرئيسية و المناصب المهمة. و إلى هذا المعنى يشير النبي صلى الله عليه و سلم: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة». كما فى البخارى، لأن نتيجة ذلك انتشار الظلم و أخذ الرشوة و فساد الأمور و الفوضى فيها، و إهانة ذوى الفضل و الدين، و إكرام الجهلة و أهل الفسق. نسال الله السلامة و العافية من الفتن ما ظهر منها و ما بطن.

(الرابع): ذهاب غضب عمر و تواضعه و رضاؤه حينما أخبره عامله بأنه اختار ابن أبزى و كيلا عنه على أهل مكة لأنه أقرؤهم لكتاب الله و أعلمهم بدين الله.

و أهل العلم لهم مكانة سامية عند الله و عند خلقه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١٢

و فى الأزرقى، عن معمر، عن الزهرى، عن القاسم بن محمد، عن أسماء ابنة عميس، قالت: دخل رجل من المهاجرين على أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، و هو شاك، فقال: استخلفت علينا عمر و قد عتا علينا و لا سلطان له، فلو قد ملكنا كان أعتى و أعتى، فكيف تقول لله سبحانه إذا لقيته؟ فقال أبو بكر:

اجلسونى، فأجلسوه. فقال: هل تفرقنى إلا بالله عز و جل فإنى أقول إذا لقيته استخلفت عليهم خير أهلك. قال معمر: فقلت للزهرى: و ما قوله خير أهلك؟

قال: خير أهل مكة. انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقى ملخصا.

و فى الجامع اللطيف لابن ظهيره "و جاء فى الحديث أن سفهاء مكة حشو الجنة" كذا نقل عن أبى العباس الميورقى. و فيه أيضا: و عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، قال: وقف رسول الله صلى الله عليه و سلم على المقبرة، يعنى مقبرة مكة، و ليس فيها يومئذ مقبرة، قال: يبعث الله عز و جل من هذه البقعة أو من هذا الحرم سبعين ألف يدخلون الجنة بغير حساب، و يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفا، و جوههم كالقمر ليلة البدر. فقال أبو بكر، رضى الله عنه: و من هم يا رسول الله؟ قال: هم الغرباء. انتهى من الجامع اللطيف.

اللهم اجعلنا و ذرياتنا و أحبائنا من السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب و يشفعون لغيرهم بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين، اللهم إنك برحيم و كريم حلیم، اجعلنا لرضائك و عفوك أهلا و لا- تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، و اجعلنا لغيرنا من المسلمين قدوة صالحة حسنة فنحن جيران بيتك المعظم، و أهل بلدك الأمين، اللهم أصلح ولاتنا و أفراد قومنا و أمتنا و كبيرنا و صغيرنا و غنينا و فقيرنا، و أمنا من الخوف و الجوع و البلاء و الغلاء، و ارفع مقتك و غضبك عنا، و أمتنا فى بلدك الأمين هذا على دين الإسلام و أنت عنا راض براحه تامة و طهارة و نظافة بدون مشقة أو تعب بفضلك و رحمتك يا حى يا قيوم، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم آمين.

فضل مكة المكرمة على المدينة المنورة

إن بعض العلماء يفضل مكة على المدينة و بعضهم يفضل المدينة على مكة، و لكل طائفة وجهه معقولة و نية حسنة مقبولة، و كل منهم يقول عن حب و يقين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١٣

و إيمان و إخلاص لم يخرج عن حد الشرع الشريف و الصواب، فلهم على ذلك الأجر و الثواب.

و نحن نحب أن ندلى برأينا في هذا الاختيار فنقول و بالله تعالى و هو حسبنا و نعم الوكيل، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم: مما لا شك فيه أن مكة المكرمة عرفت منذ قديم الأزل، حيث فيها بيت الله الحرام و المشاعر العظام، و حيث إن إقامة الركن الخامس للإسلام و هو الحج لا تكون إلا بها و ذبح أنواع الهديا و الغديه لا تذبح إلا بها، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في سورة آل عمران في آية: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. و أن الله عز و جل قد ذكر في كتابه العزيز مكة و بين فضلها، و يكفى في ذلك قوله تعالى: وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ* وَ طُورِ سِينِينَ* وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ وَ قوله عز شأنه: لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ. و في مكة و أهلها يقول خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و التسليم كما جاء في القرآن الكريم في سورة إبراهيم: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. و جاء في سورة البقرة: وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بَشَسِ الْمُصْتَيرِ. إلى أن يقول إبراهيم خليل الله صلوات الله و سلامه عليه بعد آيتين من هذه الآية: رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. يدعو سيدنا خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و التسليم لأهل مكة بهذا الدعاء العظيم المبارك منذ خمسة آلاف سنة تقريبا بعد بنائه للبيت الحرام، فجزاه الله تعالى عن أهل مكة خاصة و عن المسلمين عامة خير الجزاء بما يليق بكرم الله عز و جل و مقام خليله الكريم عليه الصلاة و التسليم.

هذا بعض ما ورد في القرآن العظيم عن فضل مكة شرفها الله تعالى، و هذا غير ما ورد من الأحاديث الشريفة في فضلها، و كفاها فضلا قوله صلى الله صلى الله عليه و سلم:

(صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام) رواه البخاري و مسلم. و قوله صلى الله عليه و سلم: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١٤

غيره من المساجد إلا المسجد الحرام، و صلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة ألف صلاة) رواه الإمام أحمد و غيره. و روى بإسناد حسن (فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، و في مسجدي بألف صلاة و في مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة).

فمن هذا كله يعلم أن مكة أفضل من المدينة، علاوة على ما جاء في تاريخ الإمام الأزرقي رضي الله تعالى عنه في فضل مكة المكرمة، فإنه قال في أول تاريخه: عن ابن عباس أنه قال: لما كان العرض على الماء قبل أن يخلق الله السموات و الأرض، بعث الله تعالى ريحا هفافة فصفت الماء، فأبرزت عن خشفته في موضع هذا البيت كأنها قبة، فدحا الله الأرضين من تحتها، فمادت ثم ماد، فأوتدها الله تعالى بالجمال، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس، فلذلك سميت مكة أم القرى، انتهى منه. هذا مع العلم بأن كثيرا من أنبياء الله تعالى و رسله عليهم الصلاة و السلام قد أتوا إلى مكة المشرفة للحج و زيارة البيت الحرام.

أما المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة و أتم التسليم، فإنها لم تعرف و لم تشتهر إلا بعد أن هاجر إليها نبينا الحبيب محمدا

صلى الله عليه وسلم وازداد شرفها بموت رسول الله فيها ودفن بها، كما دفن فيها بعض أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثر زوجاته، وغالب كبار أصحابه الكرام رضى الله تعالى عن الجميع. ولما كانت المدينة المنورة محل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضع إقامته وإقامة أصحابه الكبار، كان لا بد أن يرد في فضلها بعض الأحاديث الشريفة.

فمن هنا يعلم أن فضل مكة معروف من آلاف السنين وفضل المدينة لم يعرف إلا بعد ظهور الإسلام أى بعد بعثته صلى الله عليه وسلم بثلاث عشرة سنة، مع العلم بأن أكثر الأعراب يقيمون بمكة المكرمة، فصار سكانها أكثر من سكان المدينة من قديم الزمن إلى اليوم، ومن هنا كانت مكة عاصمة بلاد الحجاز.

وكل من البلديتين الطاهرتين له مكانة سامية وشرف عظيم. أما ما يقوله بعضهم من أن التربة التي تضم جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف حتى من العرش، فهذا الحكم لا بد له أن يستند إلى الكتاب والسنة وليس فيهما شيء عن هذا.

فالكلام فى هذا الأمر يحتاج إلى دليل قطعى، ولا يجدى فيه شدة الحب والإخلاص، فالأفضل عدم الخوض فى مثل هذا الأمر، وإلى الله ترجع الأمور خصوصاً وأن هذه المسألة لم يتكلم عليها أحد من الأئمة المتقدمين وأهل القرون

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١٥

الثلاثة الأولى، فلا لزوم فى الغلو، وإذا علمنا أن الأفضلية راجعة إلى الله عز وجل، فلا لزوم فى الكلام على ما لم نطلع عليه.

فضل مكة لمؤلف هذا الكتاب

يقول مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي المكي الخطاط غفر الله تعالى له وللمسلمين أجمعين.

إننا كتبنا فى أوائل هذا الكتاب نبذة عن فضل بلد الله الأمين (مكة المكرمة) بما فيه الكفاية، و بعد أن قدمنا هذا الكتاب للمطبعة طراً فى بالننا هذه الأبيات فى فضل مكة المكرمة أيضاً، حرسها الله تعالى من كل سوء حسا ومعنى إلى قيام الساعة.

مكة أفضل بلاد البشر وإنها بلدة خير البشر

فلم يكن سواه مولودا بهامن أنبياء الله فافهم كنهها

عليه أفضل الصلاة و على جميعهم و آلهم و من تلا

ففضلها ليس بحسن المنظرو لا بكثرة النبات المثمر

بل فضلها قد جاء فى القرآن و فى أحاديث عظيم الشان

فى سورة التين و سورة البلدو غير ذلك كثيرا قد ورد

فأهل مكة لقد فضلهم رب العباد و كذا أمّتهم

من شدة الخوف من الأعداء أو شدة الحرمان من غذاء

فنعمة الله عليهم لا تعدو فضل مكة عظيم لا يجد

أليس فيها بيت رب الناس يقصده للحج كل الناس

ينزل الله عليه دائمارحمته و خيره من السما

يكفى لها فضلا و فخرا و شرف بأن كل الناس عنها قد عرف

يحرم فيها الصيد مع قطع الشجر كذلك السلاح حمله خطر

لكل فضل و لكل خير فافهم هديت لجميع الخير

و إنه لو جاءها المسافر يدخل بالإحرام و هو سافر

بمثل هذه الأمور البارزة تمتاز مكة فكانت حائزة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١٦ يلهج بالذكر و بالتلبية ما دام محرما بغير عجمة فأهل مكة إذا ما اغتربوا و طال اغتربهم ترقبوا رجوعهم بفارغ اصطبار يدعون رب البيت في الأسحار ليصلوا مكة في لمح البصر فيسعدوا برؤيته البيت الأغر و يرتووا من شرب ماء زمزم فهو شفاء المؤمن المتميم فهم يحنون إلى جبالها و يستريحون على رمالها فأرضها الطاهرة المقدسة مهما تكن قاحلة و يابسة أفضل من حدائق الثمار و من خضار الروض و الأزهار و كيف لا و الدين قام من هنا و الوحي جاء من هنا و من هنا و منبع الشريعة الغراء يمتد من مكة في الأرجاء و بيت ربنا الكبير المتعال في قلبها يقوم حولها الجبال و أن خير الخلق في أطرافها مشى فكان الخير في أعطافها و قد دعا لأهلها الخليل دعاء خير ما له مثل عليهم الصلاة و السلام ما دامت الأيام و الأعوام من كان حاكما على هذا البلد و سار بالعدل فقد فاز الأبد و من تجبر و كان ظالما قصمه الله و كان آثما و انظر أخي في سورة الحج ترى و من يرد فيه بالحد يرى و فاز من وفق للطاعات و فاز من وفق للخيرات و كل من أكرم أهل البيت أكرمه و الله رب البيت فهل هناك مثل هذا البلد و مثل هذا البيت بيت الصمد و مثل هذا المسجد الحرام و هذه المشاعر العظام كلا فلا يوجد فوق الأرض كمثلها في طولها و العرض فالحمد لله الذي جعلنا من أهله و بالنعيم خصصنا و كل ذا بفضل و رحمته يدخل من يريده في رحمته نحن أسأنا و عصينا ربنا فاغفر لنا يا ربنا ذنوبنا فأنت ربنا و لا رب لنا غيرك فاغفر ما جنينا علنا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١٧ و أنت ربنا غنى عنا فاغفر لنا جميع ما أسأنا و أنت أنت الملك الكريم و أنت ربى خالق عظيم يا حى يا قيوم يا عليم يا راحم الضعيف يا حلیم أنت عظيم الفضل و الإحسان و واسع الرحمة و الغفران فمنك نرجو الخير و الإحسانا و منك نرجو العفو و الغفرانا و الموت بالإيمان و الأمان من كل خوف يا عظيم الشأن و ندخل الجنان بالسلام و الحمد لله على الختام

ثم الصلاة والسلام السرمدي على النبي العربي الأحمدي
وآله وصحبه الأخيار وكلهم من صفوة الأخيار

مكانة أهل مكة بين جميع الأمم

كان لأهل مكة منذ عهد جدتهم الأول نبي الله إسماعيل بن خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة والسلام مكانة سامية في قلوب جميع الناس، فكانوا يحترمونها ويكرمونها أينما سافروا وأينما أقاموا تعظيماً لبيت الله الحرام، ودامت لهم هذه المكانة الرفيعة بين الناس إلى زمن الجاهلية بل إلى اليوم، فلما جاء الإسلام أقر لهم بذلك بل وزادهم رفعة على رفعة وعطف عليهم فضل أهل المدينة المنورة أيضاً، فكان لأهل الحرمين الشريفين المتزلة العليا والمكانة الرفيعة لدى جميع الأمم الإسلامية منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا. لقد كان أهل مكة وكذلك أهل المدينة إذا سافروا إلى جهة من الجهات كمصر والشام والعراق وجاوه وبلاد الأتراك مقر الخلافة أو إلى هندستان وباكستان وبخارى والأفغان وغيرها من البلدان، كانوا يكرمونها إكراماً عظيماً، حتى إنهم ليرتبون لهم مرتبات شهرية كافية يرسلونها إليهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة بواسطة وكلائهم من التجار والأعيان وبواسطة المحامل التي كانت تأتي في موسم الحج من كل عام، خصوصاً من الآستانة دار الخلافة الإسلامية ومن مصر والهند، هذا غير الصدقات والمساعدات التي كانت تأتي إليهم في موسم الحج من كل عام مع وفود الحجاج القادمين من جميع الجهات. فكان أهل الحرمين الشريفين في بحبوحة من العيش ويسر من الحال.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١٨

و دام هذا الحال عليهم على هذا المنوال اللطيف إلى أن زالت الخلافة الإسلامية من الوجود وذلك في سنة (١٣٣٤) ألف و ثلاثمائة وأربع و ثلاثين من الهجرة، و تعددت الحكومات و تغيرت الأوضاع في جميع الأقطار و البلدان، و استولت الحكومة السعودية على الحجاز في سنة (١٣٤٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاث و أربعين هجرية، و استقلت الممالك و البلدان بعضها عن بعض فلم تكن جميع البلدان الإسلامية تحت لواء الخلافة بعد زوالها، و بذلك تضعفت أحوال المسلمين و ضعفت شوكتهم. و منذ سنة (١٣٥٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و خمسين هجرية تقريباً أخذت تلك الأوقاف و المرتبات لأهل الحرمين في الانقطاع تدريجياً، حتى لم يكن يصل إليهم شيء يذكر في هذه الأيام و نحن في سنة (١٣٨٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و ثمانين من الهجرة، و بذلك ضعفت أحوال أهل الحرمين الشريفين و صاروا في ضيق من العيش، اللهم إلا القليل النادر، و النادر لا حكم له.

نسأل الله الكبير المتعال أن يبدل عسرهم يسراً و أن يصلح أحوالهم و أحوال كافة المسلمين من مشارق الأرض إلى مغاربها، و أن ينصرهم على أعداء الدين و أن يعيد إليهم مجدهم و عزهم الغابر و ما ذلك على الله بعزیز، آمين آمين آمين، و صلى الله على نبينا محمد خاتم النبيين و على آله و صحبه أجمعين.

مكانة المساجد الثلاثة لدى المسلمين

المساجد كلها بيوت الله تعالى، جعلت خاصة للعبادة، قال تعالى: **وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**. و أفضل هذه المساجد ثلاثة، و هي في أفضليتها أيضاً على الترتيب الآتي:

المسجد الحرام بمكة، و المسجد النبوي بالمدينة، و المسجد الأقصى بالقدس.

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدى هذا و المسجد الحرام و المسجد الأقصى». رواه الشيخان و اللفظ لمسلم، و أما البخارى فلفظه: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام و مسجد الرسول صلى الله عليه و سلم و مسجد الأقصى».

و روى بإسناد حسن: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، و في مسجدي بألف صلاة، و في مسجد بيت المقدس بخمسائة صلاة».

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥١٩

و سبب أفضلية هذه المساجد الثلاث لأنها من بناء الأنبياء، فالمسجد الحرام من بناء إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، أى أنه تابع لبناء الكعبة المشرفة، و المسجد النبوى من بناء نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم و المسجد الأقصى من بناء سليمان عليه الصلاة و السلام. و لهذه المساجد الثلاثة مكانة سامية و بالأخص المسجدين الحرامين بمكة و المدينة، فإليهما تهفو أفئدتهم و تحن جوارحهم لمشاهدتهما و العبادة فيهما، كيف لا- و فيهما منع الإيمان و نور العلم و العرفان، و إليهما يأتى الناس أفواجا فى كل عام من كل فج عميق.

لذلك كان المسلمون من قديم العصور، يهتمون بتصوير الكعبة المشرفة و المسجد الحرام و المسجد النبوى و المسجد الأقصى و المشاعر العظام، و يتخذون لها نماذج مصغرة من الفضة أو المعدن و الجص، و يحتفظون برسومها فى المتاحف و دور الآثار، بل لا يزالون إلى يومنا هذا يرسمون ذلك فى المنسوجات الحريرية و الأقمشة المتنوعة، كالسجاجيد و المناديل و المفارش، و يتهادونها فيما بينهم، و ذلك لتبقى ذكرى روحية ماثلة أمام أعينهم، و قد نشرت مجلة الهلال بتاريخ شهر يوليو عام ١٩٥٨ من الميلاد بعض هذه الرسوم.

بعض ما قيل فى المساجد الثلاثة

قال السيد محمد عبد الله الموسوى الشهير بكبريت المدني:
فارت مكة و الأشواق تجذبني لها و يمت طه معدن الكرم
فهل درى البيت أنى بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم
و قال الشيخ عبد الرحمن العمادى مفتى الحنفية بدمشق قديما:
فارت طيبة مشتاقا لطيبتها و جئت مكة فى وجد و فى ألم
لكن سررت بأنى بعد فرقتهما ما سرت من حرم إلا إلى حرم
و قال آخر:

إذا كنت فى القدس الشريف تشوقت إلى مكة نفسى لحج و عمره
و لو كنت فيها قالت النفس طيبة أعيش بها فى ظل دوح النبوة
و إن كنت فيها زاد للأهل شوقها فمن لى بأهلى و بالبلاد الشريفه
التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٢٠
و قال غيره فى قباء و عوالى المدينة:

إذا كنت فى أرض العوالى تشوقت لأرض قبا نفسى و فيها المؤمن
و لو كنت فيها قالت النفس لى بأرض العوالى يا خليلي منزل
فيا لى أنى كنت شخصين فيهما و يا لى فى التحقيق أن لا تعلق

أول من لقب بخادم الحرمين

إن أول من لقب بخادم الحرمين الشريفين هو السلطان سليم خان، من سلاطين الأتراك آل عثمان، فإنه لما دخلت البلاد العربية و منها

الحجاز في حكمه و تحت سلطته خوطب بلقب حامى الحرمين الشريفين، لكن السلطان سليم لم يرض بهذا اللقب و قال: إن حاميهما هو الله عز شأنه و أما أنا فخدام الحرمين الشريفين. فرحم الله سلاطين الأتراك الذين كانوا يعرفون حرمة الحرمين الشريفين، فيحترمون أهلها و يجعلون لهم مرتبات شهرية و قواعد سنوية يرسلونها إليهم في موسم كل حج تصرف لهم بواسطة ولاتهم في الحجاز. فرحمهم الله تعالى رحمة الأبرار و جزاهم عن أهل الحرمين الشريفين خير الجزاء آمين.

و يروى عن الإخشيدى الذى كان حوالى سنة (٣٣١) من الهجرة حاكما على مصر و الشام و بلاد الحرمين، كتب إلى ملك الروم يقول: "إنه لو لم يكن لى شرف إلا إمارة الحرمين لكفانى ذلك."

و نقول: لقد كان الناس لا يرفعون بيوتهم عن الكعبة المشرفة احتراماً لها، كما جاء ذلك فى تاريخ الإمام الأزرقي. و أن الناس فى العصور السابقة كانوا أكثر إيماناً و احتراماً للمسائل الدينية الدقيقة، و على سبيل المثال نقول: إن أحد سلاطين الأتراك دخل ليلاً مخدع نومه فرأى مصحفاً معلقاً فى الجدار الذى عند سريره، فلم يرقد بل ظل واقفاً إلى الصباح.

و لقد روى الإمام السيوطى رحمه الله تعالى فى كتابه "حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة": "أنه فى سنة (٧١٩) سبعمائة و تسع عشرة هجرية أمر الملك المؤيد الخطباء بالمساجد و الجوامع إذا وصلوا إلى الدعاء إليه فى الخطبة أن يهبطوا المنبر درجة ليكون اسم الله و رسوله فى مكان أعلا من المكان الذى يذكر فيه اسم السلطان، فصنع ذلك الحافظ ابن حجر بالجامع الأزهر و ابن النقاش بجامع ابن طولون، قال ابن حجر: و كان مقصد السلطان فى ذلك جميلاً. اهـ. فانظر رحمتنا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٢١

الله و إياك إلى أعمال السابقين رحمهم الله تعالى، فإذا كان هذا حال سلاطينهم و ملوكهم فكيف يكون حال علمائهم و فقرائهم. اللهم وفقنا لما تحبه و ترضاه آمين.

عادة العرب فى إصلاح ذات البين فى الحجاز

عادة العرب عندنا فى إصلاح ذات البين و فض الخصام، يعرفها جميع قبائل العرب و البدو فى القرى و البوادي، لا يشذ عنها أحد منهم. و هى:

أنه لو حصل خصام بين الوالد و ولده، أو بين ذوى الأرحام و القرابة، أو بين الأصحاب، فإن العرب و البدو لا يتركون الخصومة تسرى بينهم مدة طويلة، و إنما يقوم العقلاء و ذوى الشأن منهم، بالتدخل بينهم، لرفع الخصام، و التوسط بينهم لإصلاح ذات البين. فيعملون اجتماعاً و يحصل التحقيق بين المتخاصمين، فمن ثبت عليه التعدى و الخطأ، يفرضون عليه جزاء، و هو تقديم ذبيحة أو ذبيحتين أو أكثر، مع ما يتبعه من الرز و السكر و قهوة البن و التمر، و أحياناً يفرضون عليه فوق ذلك دفع نقود معلومة، و ذلك بحسب نوع الجريمة و قدرة المخطئ.

ثم يذهبون بالمخطئ مع هذه الأشياء، إلى بيت صاحب الحق فيدفعون كل ذلك له، فيقوم المخطئ بأخذ خاطره من تقييل رأسه أو يده و يشفع الحاضرون فيه عنده، فيسامحه و يصفح عنه. فعندئذ يذبحون الذبيحة و يطبخون أكلهم و يأكلون جميعهم فى بيت الرجل، ثم يخرجون و قد حصل العفو و التسامح و جرت المياه فى مجاريها كما ينبغى، و زال الشر.

هكذا عادة العرب فى إزالة الخصومة و العداوة و لو فى مسائل الرقاب قبل وصولها إلى الحاكم و الحكومة. و هذه العادة ما زالت موجودة فى مكة المكرمة، لكن عند أهل الحارات و مشايخها، فإنهم يعملون الصلح و يزيلون الخصومة بالطريقة المذكورة. أما الخصومة فيما بين الموظفين، فإنها قد تزال بواسطة بعضهم لبعض، هذا هو الحال عندنا فى عرب الحجاز كافة.

أما عشائر العرب فى اليمن و الشام و مصر و العراق، فأعتقد أن عاداتهم فى هذا الشأن تقارب عاداتنا، و إذا وجد فرق، فإنه فرق بسيط، و هى عادة ممدوحة شرعاً، لأنها واسطة فى إزالة الخصومات و فى الصلح، و الصلح خير. و هناك

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٢٢
عادات جميلة بين العرب، لسنا في صدد بيانها، فلو سردناها لطال بنا المقام لكثرتها.

أول من عمل مواسير المياه من العرب بمكة المكرمة

ذكر الإمام الأزرقى، رحمه الله تعالى، في كتابه "تاريخ مكة"، و في باب "ذكر ما عمل في المسجد من البرك و السقايات" ما ملخصه: أن أمير المؤمنين، سليمان بن عبد الملك بن مروان، رحمهم الله تعالى، كتب إلى خالد بن عبد الله القسرى، رحمه الله تعالى، أن أجر لى عينا تجرى من الثقبه من مائها العذب الزلال حتى تظهر بين زمزم و الركن الأسود، و يضاهى بها رغم ماء زمزم. قال:

فعمل خالد بن عبد الله القسرى البركة التى بقم الثقبه يقال لها: بركة القسرى.

و يقال لها أيضا: بركة البردى بئر ميمون، و هى قائمه إلى اليوم بأصل ثبير، فعملها بحجارة منقوشة طوال، و أحكمها و أنبط ماءها فى ذلك الموضع، ثم شق لها عينا تسكب فيها من الثقبه، و بنى سد الثقبه و أحكمه. و الثقبه شعب يفرع فيه وجه ثبير، ثم شق من هذه البركة عينا تجرى إلى المسجد الحرام، فأجراها فى قصب من رصاص حتى أظهرها فى فواره تسكب فى فسقيه من رخام، بين زمزم و الركن و المقام، حتى جرت و ظهر ماؤها، ثم أمر خالد بن عبد الله القسرى بعمل وليمة كبيرة ذبحت فيها الذبائح بسبب هذا العمل، إلى آخر ما ذكره الإمام الأزرقى فى تاريخه.

نقول: خالد بن عبد الله القسرى المذكور هنا، هو أمير مكة المكرمة فى ذلك العهد. و الثقبه بالتحريك، هو موضع فى أوائل جبل ثبير من جهة حراء، لا يبعد عن المسجد الحرام بأكثر من أربعة كيلو مترات، فمن هذا التاريخ المعتمد الموثوق، يعلم أن أول من عمل مواسير المياه من الرصاص هو أمير مكة المكرمة، خالد بن عبد الله القسرى، رحمه الله تعالى، و هو من صميم العرب من أهل مكة، و ذلك منذ أكثر من ألف سنة، فلا يظن أحد أن مخترعى مواسير المياه هم الإفرنج.

معنى مكة و معنى بكة

قال الأزرقى فى صحيفه (٢٢٨) من الجزء الثانى: و بكة الوادى الذى به الكعبة: قال الله تعالى: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِنَاكَ** مُبَارَكًا وَ هُدًى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٢٣

لِلْعَالَمِينَ. قال: و بطن الوادى الذى فيه بيوت سراج و المربع حائط بن برمك، ا.ه. و هو اليوم يقال له وادى إبراهيم.

و فى تاريخ الأزرقى أيضا: عن ابن عباس، قال: إنما سميت بكة لأنه يجتمع فيها الرجال و النساء. و عن ابن جريج أنه كان يقول: إنما سميت بكة لتباك الناس قدام الكعبة. و يقال: إنما سميت بكة لأنها تبك أعناق الجابرة. انتهى.

نقول: لا يبعد أن يكون بكة و مكة (بالباء و الميم) اسمان على مسمى واحد، و هو (البلد الأمين) الذى فيه وادى إبراهيم عليه الصلاة و السلام.

و لا يبعد أيضا أن يكون بكة (بالباء)، هو ما بين الأخشيين (جبل أبى قيس و جبل قعيقعان)، و هما جبلان متقابلان قريبان من بعض، و الكعبة المشرفة تقع بينهما. و مكة (بالميم) هو نفس البلدة الطاهرة، و الله تعالى أعلم.

و أما الحرم فلا- يطلق على بكة و لا على مكة، و إن كانتا جزءا منه، فالحرم محيط بمكة من جميع جهاتها إلى مسافات طويلة، كما سيأتى إن شاء الله تعالى بيان مقدار هذه المسافات.

و أهل مكة اليوم يطلقون الحرم على نفس المسجد الحرام، فيقول أحدهم: إنى ذاهب إلى الحرم، و جئت من الحرم. و يعنى بذلك:

المسجد الحرام.

و يدل على صحة كلامنا هذا ما جاء في مختار الصحاح: و بكه اسم بطن مكة، سميت بذلك لآزدحام الناس ... الخ. فعليه يطلق بكه (بالباء) على بطن مكة (بالميم)، و بطن مكة يعنى وسطها، و وسطها هو ما بين أخشبيها "جبل قبيس و قعيقعان"، و هو الموضع الذى فيه البيت الحرام مهما اتسع العمران، و يدل على ذلك صراحة نفس الآية: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ. فالبيت و المقام فى نفس بكه، و هى وسط مكة بلا خلاف.

و أما مكة فهى البلد الحرام كما فى مختار الصحاح، يعنى نفس البلدة مهما اتسعت.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٢٤

المراد بوادى إبراهيم

و ادى إبراهيم- أى خليل الله عليه الصلاة و السلام- جاء فى تاريخ الغازى ما يأتى:

قال العلامة الحضراوى فى نزهاء الفكر: هو من أعلا جبل النور، و هو جبل حراء ببطن مكة مسيلها إلى أسفل مكة، إلى باب الماجن و هو واد مبارك.

و قال بعضهم: هو مكة جميعها، شعابها و سهلها و ادى إبراهيم، ا هـ.

و أما المنحنى، فهو جبل بجانب وادى إبراهيم فى أعلا الأبطح، و الجبل المقابل للمنحنى يسمى حاجرا و هو على يسار الذهاب إلى حراء، و أذاخر هو المحل المعروف الآن بالمعبدة و فيها ثنية أذاخر، و الرقمتين هو محل عند جبل السليمانية جهة النقا عند قبر العباس بن مرداس السلمى قريب من الشيخ العبادى يعرفه أهل مكة. انتهى من نزهاء الفكر. ا هـ. من الغازى.

نقول: إن وادى إبراهيم هو جميع مكة لا مجرى السيل فقط، بل لا يبعد أن يشمل الوادى حدود الحرم؛ و نسبة الوادى إلى إبراهيم عليه السلام نسبة تشرىف، فإنه هو أول من أطلق على مكة كلمة (وادى) كما فى الآية: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ و أول من أتى إليه و أسكن فيه بعض ذريته.

و المعقول أن يكون وادى إبراهيم هو جميع حدود الحرم، فمن مكة المشرفة إلى عرفات شرقا، و من مكة إلى الشميسى غربا، و من مكة إلى جهة الشرائع شمالا، و من مكة إلى جهة الجنوب من طريق المسفلة إلى حدود الحرم، فكل هذه الجهات من مشاعر الحج و حدود الحرم لم تعرف إلا من خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة و التسليم. و نرى أن أصدق ما يطلق على وادى إبراهيم هو موضع سيل مكة، فإنه يأتى السيل الكبير من جهة عرفة شرقا مارا بمزدلفة فمنى فمكة، ثم يخرج من مكة إلى جهة الغرب إلى الشميسى فى طريق جدة، و ربما نزل السيل إلى جدة و صب فى البحر الأحمر إذا كان عظيما. و جميع ما ذكرناه من هذه الأطراف و الجهات لا زرع فيها و لا نبات اللهم إلا الأشجار ذات الأشواك الصالحة للاحتطاب. فسيدينا إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، قد أسكن من ذريته

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٢٥

و هو إسماعيل مع أمه هاجر عليهما السلام، فى بقعة من هذا الودى و هى التى عند بيت الله الحرام كما هو صحيح، الآية.

الكلام على قوله تعالى: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... الآية

جاء فى القرآن فى سورة إبراهيم حكاية عنه عليه الصلاة و السلام: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَهُ مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَ ارزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ* رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ مَا نُغْلِي وَ مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ.

هذا الدعاء كان عند خروج إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، من مكة بعد أن ترك بها ولده إسماعيل و أمه هاجر، فإنه بعد أن

وضعهما في مكان زمزم، خرج من مكة مسافرا إلى الشام، فتبعته هاجر بعد أن تركت ابنها في مكانه، فقالت: يا إبراهيم، إلى من تدعنا؟ فسكت حتى إذا دنا من جبل كداء، وقيل من الثنية، قال: إلى الله عز و جل أدعكم. قالت: فإله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: فحسبي تركتنا إلى كاف. وانصرفت هاجر إلى ابنها.

فلما وقف إبراهيم على كداء، و لا بناء و لا ظل و لا شيء يحول رؤيته ابنه، فنظر إليه فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمة لولده، فعندئذ قال: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... الآية.

(فإن قيل): لم دعا الله تعالى هنا و تضرع إليه، و لم يدعه حين إلقائه في النار قبل ذلك، عندما قال له جبريل: هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فسل ربك، قال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي؟

(فالجواب): أن إلقاءه في النار تتعلق بنفسه هو، و الخليل يتلقى من خليله كل أمر بقبول تام و إذعان بالغ، و الأنبياء لا يغفلون عن الله طرفه عين، و الله تعالى لا تخفى عليه خافية. لذلك قال لجبريل: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فكأن أدبه العالی مع ربه جعل النار عليه بردا و سلاما، و هل يرضى العزيز الحكيم أن يحرق خليله إبراهيم بالنار، أو يذبح بيده ولده و فلذة كبده بالسكين؟ - كلا و الله - و لكن اقتضت حكمته تعالى، أن يتلى و يختبر نبيه و خليله ليكتبه في رأس قائمه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٢٦

الصابرين المتوكلين الممثلين للأوامر الإلهية، مع علمه سبحانه و تعالى بما يكون منه، و كيف العاقل قد لا يسأل غيره حاجة لنفسه، و لكنه يسألها منه لغيره، فإبراهيم عليه السلام، لم يسأل ربه بلسانه النجاه من النار اكتفاء بعلمه تعالى، و تلك حالة نبوية خليلية لا تكون إلا من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، أما دعاؤه لغيره من أهله و أولاده و المؤمنين، فقد كان على الطبيعة البشرية، فدعا لذريته، و دعا لمكة بالأمن و الرزق، و دعا له و لوالديه و للمؤمنين عامة بالمغفرة حيث يقول:

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.

و لتكلم هنا عن آية: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... الخ بما يفتح الله به علينا من فضله الواسع، فهو الفتح العليم لا راد لفضله. فنقول و بالله التوفيق:

إن من يتدبر في الآيات الواردة في دعاء خليل الله إبراهيم، عليه السلام، يجد في كلها أو غالبها ينادى الله تعالى بقوله: "رب أو ربنا" و هذا حال العبد المقر بالربوبية و الوجدانية و حال المحب الذي لا يغفل عن محبوبه و يكثر من ذكر اسمه و في المثل: "من أحب شيئا أكثر من ذكره." و هل أحد أعرف بالله من الأنبياء - كلا- و إليك بعض ما ورد في الآيات عن نداءه لربه جل جلاله، و عظمت قدرته، و تعالت هيئته:

ففي سورة البقرة: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ... الآية.

و فيها أيضا: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ... الآية و فيها أيضا: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ... الآية و فيها أيضا: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ... الآية.

و في سورة إبراهيم: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ... الآية.

و فيها أيضا: رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ... الآية. و فيها أيضا: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... الآية. و فيها أيضا: رَبَّنَا إِنَّا نَخْفَىٰ وَمَا نَعْلَمُ ... الخ و فيها أيضا: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ*

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ. إلى غير ذلك من الآيات.

و ليس كل هذا بغريب على من قال الله في حقه: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. و قال في حقه: وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ. و قال في حقه أيضا: وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٢٧

وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. و قال في حقه أيضا: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ

وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ* وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

و يفهم من قوله: رَبَّنَا إِنِّي أَشْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي، أن إبراهيم عليه السلام هو الذى عمر مكة شرفها الله تعالى، بإسكان بعض ذريته فيها امتثالاً لأمره سبحانه وتعالى، لا أنه أتى بهم للسياحة و التزهة، فبلدة ليس بها أنيس و لا ماء و لا شجر، لا يأتى الإنسان إليها للفسحة و الاسترواح من بلاد الشام العامرة بالفواكه و الثمار و الخضرة و الأنهار.

كما يفهم من قوله: مِنْ ذُرِّيَّتِي، أنه أسكن بعضهم بمكة، و أما البعض الآخر، فقد بقوا فى بلدتهم الأصلية و لم يحضروا معه إلى مكة، لأنه عليه السلام، أحضر إلى مكة ابنه إسماعيل مع أمه هاجر فقط تنفيذاً لرغبة زوجته سارة، و امتثالاً لأمر الله تعالى الذى أمره بالهجرة إلى مكة معهما.

و يفهم صراحةً من قوله: بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ أن مكة كلها كانت قفراً لا نبات فيها و لا ماء، فليس المراد بالوادي هو مجرى السيل من شارع القشاشية الذى بقرب المسجد الحرام فقط، كما يفهمه بعضهم، بل المراد بعض مكة كلها من جميع الأطراف كما لا يخفى على المتأمل، و الله تعالى أعلم.

فإبراهيم عليه الصلاة و السلام هو أول من أطلق على مكة كلمة "وادي" كما هو صريح فى هذه الآية: بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، فنسبة وادي إبراهيم إليه نسبة تشريف، فإنه هو أول من أتى إليه و أسكن بعض ذريته فيه.

و معنى قوله: بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ أى فى بدء الأمر، و أصل الخلقه فى عهد إبراهيم و من قبل عهده، فلا محل للاعتراض إن وجد فيما بعد ماء و زرع بالإنبات، و إيصال الماء إليه و حفر الآبار، و وجود البشر و السكان فى الوادي، يقتضى إشغال الأيدي العاملة بعمارتها بالماء و الزرع و البنيان، كما هو سنة الله فى خلقه.

و بهذا المعنى ينتفى إشكال من يقول: كيف يقول: بواد غير ذى زرع، بينما مكة اليوم و لله الحمد فيها الزروع و البساتين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 528

و أيضا يمكن أن نقول: إذا قسنا اليوم ما يوجد بمكة من البساتين و الزروع، إلى ما يوجد بمصر و الشام و غيرهما من الزروع و الأنهار و البساتين و الثمار، لوجدنا أن ما هو بمكة شىء قليل و نسبة ضئيلة لا تذكر فى جانب ما هو فى الخارج، و القليل لا حكم له، فكأن مكة ليست بذات زروع و ثمار.

و يفهم من قوله: عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، أنه سبحانه و تعالى، قد أعلمه بمكان بيته الحرام بمكة قبل أن يأمره ببنائه، ليطمئن قلبه عند تركه إسماعيل و أمه بها أن لهما مستقبلاً سعيداً، و شأننا عظيماً فيما بعد.

و قوله: لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ أى إنى أسكنت من ذريتى عند بيتك المحرم ليعبدوك بإقامة الصلوات و حج البيت و أنواع البر و العبادات، فالصلاة و الصيام و الحج من العبادات التى كانت من قبل الإسلام، و إقامتها بهذه الكيفية من خصوصيات هذه الأمة المرحومة، و قوله: فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ: هذه عبارة بديعة و جملة لطيفة، فإنه لما ترك إبراهيم عليه السلام، ولده إسماعيل و أمه هاجر بمكة لا أنيس لديهما، أحب أن يرسل الله إليهما من خيار الناس و أفضلهم ليأتنسا بهم و ينسوا غربتهم، فتذهب و حشتمهم، و بالفعل فقد أرسل الله لإسماعيل عليه السلام و أمه هاجر عندما نبع لهما زمزم طائفة من أخيار قبيلة جرهم، استأذنوا هاجر فى النزول عندها، و الإقامة معها و إسماعيل كان صغيراً، فقالوا لها: أشركينا فى مائك نشاركك فى ألباننا، فأذنت لهم، فأقاموا عندها و أحبوا إسماعيل حتى زوجه بامرأة منهم.

و يؤخذ من قوله: مِنَ النَّاسِ الْمُقْصُودِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ لا- كلهم. فكلمة (من) للتبعض أى بعضهم. و لذلك قال ابن عباس، رضى الله عنهما: لو قال أفئدة الناس، لحنن إليه فارس و الروم و الناس كلهم.

و قوله: وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ هذا منتهى الرحمة و منتهى العناية و الرأفة بأهله صلى الله عليه و سلم و أولاده، فإنه قد ترك إسماعيل و أمه، بشىء من التمر و قليل من الماء فى مكان قفر لا نبات فيه و لا ماء، و لا بشر، و هم لابد و أن يحصلوا على

قوتهم من اللحم و اللبن و الثمرات، فدعا لهم بكل ذلك.

فالثمرات، و إن كانت ليس من القوت الضروري، فهي تفيد الإنسان فائدة كبرى كما لا يخفى، فأراد إبراهيم، عليه السلام، أن ينعم الله عليهم بالكماليات من الفواكه، كما ينعم عليهم بالقوت الأساسي، فدعا الله لهم أن يرزقهم من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٢٩

الثمرات ليتفكحوا بها، ثم دعا لهم ثانيا حينما أتى من الشام لزيارتهم بالبركة في اللحم و الماء، فبركة دعائه صلى الله عليه و سلم صارت مكة عامرة بكل شيء، ممتلئة بالأرزاق و الثمار في كل وقت من الأوقات و فاء لما وعد الله به أهل هذا البلد الآمن بقوله:

يُجِيبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا. فالحمد لله رب العالمين.

و أما قوله: رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا نُخْفِي وَ مَا نُغْلِي وَ مَا يُخْفِي عَلَيَّ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ، فيفهم منه أنه صلى الله عليه و سلم، كان يحمل في قلبه لوعة فراق زوجته و ولده، و يحمل همهما و ما سيؤول إليه أمرهما و قد تركهما في فلاة قفر، ليس عندهم قريب و لا غريب، امثالاً لأمر الله سبحانه و تعالى. لكنه صلى الله عليه و سلم لا يريد أن يفصح بلسانه عما في قلبه، و ذلك من كمال الإيمان و التفويض و نهاية الاستسلام و الخضوع لله الواحد القهار. و هذا من قبيل: تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ و من قبيل: إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ.

فقوله: رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا نُخْفِي وَ مَا نُغْلِي، هو عرض الحال إلى الله عز و جل، بلطيف الإشارة و بكمال الأدب و منتهى الاسترحام و الاستعطف. و لقد استجاب الله دعائه و حقق رجائه، و حفظ له أولاده، و جعلهم من المصطفين الأخيار. فجدير بأهل مكة أن يتصفوا بصفات أهل الخير و الكمال، و أن يكونوا قدوة حسنة للعالم الإسلامي إن شاء الله. و ما أحلى قول القاضي تاج الدين بن أحمد من علماء الحرم المتوفى سنة (١٠٦٦ هـ):

من كان بالوادي الذي هو غير ذي زرع و عز عليه ما يهديه

فليهدن ألفاظه الدر التي تحلو فواكهها لكل نبيه

و يؤخذ من آية: رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ...، أن يدعو الإنسان لأهله و أولاده و معارفه و أحبابه عند فراقهم بكل خير، و يتضرع إلى الله عز شأنه أن يحفظهم و يهديهم، و أن يسهل لهم سبل المعيشة برفاهية تامة.

اللهم إنى أسألك أن تيسر لنا أمورنا، و تنور قلوبنا، و تصلح أحوالنا، و ترزقنا من فضلك العظيم رزقا حلالا و اسعاً، و تسترنا في الدنيا و الآخرة، و احفظنا في أهلنا و أولادنا و اجعلهم لنا قرءة أعين، و اختم لنا بخير يا أرحم الراحمين آمين، و صلى اللهم و سلم على جميع الأنبياء و المرسلين، و آل كل منهم و صحاباتهم أجمعين، و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٣٠

بيان فضل أهل مكة من الآية الآتية

قال الله تعالى في سورة البقرة: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بئسَ الْمَصِيرُ.

يفهم من هذه الآية الكريمة عناية الله عز و جل و عظيم رحمته و فضله بأهل بلده الأمين "مكة المكرمة" سواء المؤمن منهم أو الكافر. فإن خليل الله إبراهيم، عليه أفضل الصلاة و التسليم، لما دعا لأهل مكة بالرزق من الخيرات و الثمرات، خص المؤمنين منهم فقط دون الكافرين و المشركين فقال كما حكى الله تعالى عنه:

وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ. لكن الله تبارك و تعالى، يعامل جميع خلقه و عباده في دار الدنيا باللطف و الرحمة و الفضل و الإحسان، سواء كانوا من المؤمنين أو من الكفار، لأنه عز و جل، هو ربهم و هو الذي خلقهم، فلو لم يرزق من

عباده إلا- المؤمنين، فمن يرزق الكافرين إذا، فلما خص خليله إبراهيم صلى الله عليه و سلم المؤمنين بالدعاء أجابه العزيز الحكيم الرزاق الكريم بقوله:

قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتَعَهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. أى إنى أمتع الكافرين منهم أيضا بالنعم و الثمرات فى دار الدنيا، فإذا مات على كفره و لم يؤمن، فإنى أضطره و أدفعه فى الآخرة إلى عذاب النار و بئس المصير الذى صار إليه.

قال فى تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: كان إبراهيم عليه الصلاة و السلام يحجرها- أى الدعوة- على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله تعالى و ما كفر أيضا أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقا لا أرزقهم؟ أمتعهم قليلا- ثم أضطرهم إلى عذاب النار و بئس المصير، ثم قرأ ابن عباس: كَلَّا نَمَدُّ هُوْلَاءِ وَ هُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا، رواه ابن مردويه. و روى عن عكرمة و مجاهد نحو ذلك أيضا، و هذا قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ. انتهى من التفسير المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٣١

فإذا فهمت ما تقدم، عرفت عناية الله عز و جل و عظيم رحمته بأهل مكة، و عظيم رحمته و إحسانه عليهم خاصة بمؤمنهم و كافرهم، و عظيم رحمته و إحسانه بكافة عباده المؤمنين و الكافرين عامة. فلو استجاب الله تعالى دعاء خليله إبراهيم، عليه أفضل الصلاة و التسليم، حينما قال فى الآية المذكورة: مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ لِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ، تبارك و تعالى، الكافرين منهم ثمرة واحدة من الثمرات، فالله عز و جل فضله واسع و إحسانه عميم: إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.

حكمة جعل مكة كثيرة الألبان و اللحوم

و الذى يظهر لنا، و الله تعالى أعلم بغيبه و مراده: أن مكة جعلها الله تعالى و هى بلدة الأمين، فى واد غير ذى زرع يحيط بها الجبال من جميع الأطراف، لا يكثر فيها سوى اللحوم و الألبان كدعوة إبراهيم عليه السلام لها بذلك، و لم يجعلها كمصر و الشام كثيرة الزروع و الثمار تجرى من تحتها الأنهار، لحكمة دقيقة تقصر عن إدراكها الأفهام و العقول، منها ما هو حسى و منها ما هو معنوى. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ١-١؛ ص ٥٣١

لحكمة المعنوية أن الوافدين إلى مكة لا يفدن إليها إلا للحج و العبادة فقط امتثالاً لأمر الله سبحانه و تعالى، فليس هناك ما يدفعهم للسفر إليها من المرغبات الدنيوية كالترهة و ترويح النفس بما فيها من الخضرة و البساتين و أنواع الملاهى و المسليات. و من الحكمة الحسية الظاهرة: أن الإنسان الذى يقتصر فى أكله على الألبان و اللحوم، يكون أقوى بنية و أصح بدنا ممن يكثر الأكل و يخلط تغذيته بأنواع المأكولات و الخضروات و ينغمس فى اللذائذ و المنعمات، لذلك نرى العرب و البدو و الرعاة فى القفار و الجبال لهم من الصحة و العافية ما ليس لأهل المدن، كما نرى أنهم لا- يعرفون الأمراض المنتشرة فى أهل الترف و النعيم، و لا شك أن الصحة و العافية للإنسان من أعظم نعم الله عز و جل على عباده.

و الذى يؤيد صحة نظريتنا هذه ما ذكره ابن خلدون رحمه الله تعالى فى مقدمته حيث يقول: (اعلم) أن الأقاليم ليس كلها يوجد بها الخصب، و لا كل سكانها فى رغد من العيش، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب و الأدم، و الحنطة و الفواكه لركاء المنابت، و اعتدال الطينة، و وفور العمران. و فيها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٣٢

الأرض الحارة التى لا تنبت زرعاً و لا عشبا بالجملة، فأهلها فى شظف من العيش مثل أهل الحجاز، و اليمن، و مثل الساكنين بصحراء المغرب و أطراف الرمال فيما بين البربر و السودان، فإن هؤلاء لا يفقدون الحبوب و الأدم جملة و إنما أغذيتهم و أقواتهم الألبان و قليل من اللحوم، و مثل العرب أيضا الجائلون فى القفار، فإنهم و إن كانوا يأخذون الحبوب و الأدم من التلول، إلا- أن ذلك فى

الأحايين و على الإقلال، لقله و جدهم، فلا يتوصلون منه إلى سد الخلة أو دونها، فضلا عن الرغد و الخصب. و تجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان، و تعوضهم عن الحنطة أحسن معاض، و تجد- مع ذلك- هؤلاء الفاقدين للحبوب و الأدم من أهل القفار أحسن حالة في جسومهم و أخلاقهم من المنغمسين في العيش: فألوانهم أصفى، و أشكالهم أتم و أحسن. و أخلاقهم أبعد من الانحراف، و أذهانهم أثقب في المعارف و الإدراكات هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم.

و السبب في ذلك، و الله أعلم أن أكثر الأغذية و رطوبتها تولد في الجسم فضلات رديئة، ينشأ عنها بعد إفطاره في غير نسبة، و كثرة الأخلاط الفاسدة العفنة، و يتبع ذلك انكساف الألوان و قبح الأشكال من كثرة الغذاء كما قلنا.

و تغطي الرطوبات على الأذهان و الأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبحاثها الرديئة، فتجىء البلاده و الغفلة، و الانحراف عن الاعتدال بالجملة. و اعتبر ذلك في حيوان القفر و مواطن الجذب: من الغزال و النعام و المهام و الزرافة و الحمر الوحشية و البقر، مع أمثالها من حيوان الأرياف و المراعى الخصبه، حيث تجد بينها بونا بعيدا في صفاء أديمها، و حسن رونقها و أشكالها، و تناسب أعضائها، و وحدة مداركها.

فالعزال أخو المعز، و الزرافة أخو البعير، و الحمار أخو البقر. و البون بينهما ما رأيت. و ما ذلك إلا لأن الخصب في الأودية فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة، و الأخلاط الفاسدة، ما ظهر عليها أثره. و الجوع لحيوان القفر حسن في خلقها و أشكالها ما شاء. و اعتبر ذلك في الآدميين أيضا، فإننا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع و الضرع و الأدم و الفواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة في أذهانهم، و عدم التناسب في أجسامهم، على عكس المتقشفين في عيشهم، المققتصرين على الشعير أو الذرة. فتجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم و جسومهم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 533

و اعلم أن أثر هذا الخصب في البدن و أحواله، يظهر حتى في حال الدين و العبادة، فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع و التجافى عن الملاذ أحسن دينا و إقبالا على العبادة من أهل الترف و الخصب، بل تجد أهل الدين قليلين في المدن و الأمصار، لما يعمها من القساوة و الغفلة المتصلة بالإكثار من اللحم و الأدم و لباب البر، و يختص وجود العباد و الزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي. و كذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طبيباته من أهل الحواضر و الأمصار إذا نزلت بهم السنون، و أخذتهم المجاعات، يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم، مثل أهل مدينة فاس و مصر فيما يبلغنا، لا مثل العرب أهل القفر و الصحراء، فإن هؤلاء و إن أخذتهم السنون و المجاعات، فلا تنال منهم ما تنال من أولئك، و لا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل و لا يندر.

و ما يتوهمه بعض الناس من أن الجوع مهلك، فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة، و قطع عنها الغذاء بالكلية، فإنه حينئذ ينحسم المعاء، و يناله المرض الذي يخشى منه الهلاك. و أما إذا كان ذلك القدر تدريجا و رياضة بإقلال الغذاء شيئا فشيئا، كما يفعله المتصوفة، فهو بمعزل عن الهلاك.

و هذا التدريج ضرورى حتى في الرجوع عن هذه الرياضة، فإنه إذا رجع إلى الغذاء الأول دفعة خيف عليه الهلاك، و إنما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج.

و اعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه. و أن له أثرا في الأجسام و العقول في صفائها و صلاحها كما قلنا، انتهى. على كل حال الدنيا لا قيمة لها، و ما هي إلا قنطرة للآخرة و سلم إلى الدرجات العلى "يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم".

و مما يناسب هذا المقام، ما جاء في صحيح البخارى في كتاب النكاح، في باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، حديث طويل نذكر منه ما نحن في احتياج إليه هنا للاستشهاد: عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: لم أزل حريصا على أن أسأل عمر بن الخطاب

عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى: **إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** حتى حج و حجبت معه، و عدل و عدلت معه، بأداة فتبرز ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضأ، فقلت له يا أمير المؤمنين ... إلى آخر الكلام أى إلى أن قال عمر، فنجت الغلام فقلت:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٣٤

استأذن لعمر، فدخل ثم رجع إلى فقال: قد ذكرتك فصمت، فلما وليت منصرفاً قال: إذا الغلام يدعوني فقال: قد أذن لك النبي صلى الله عليه وسلم، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه متكئاً على و سادة من آدم حشوها ليف، فسلمت عليه ثم قلت و أنا قائم: يا رسول الله أطلقت نساءك؟ فرجع إلى بصره فقال: لا، فقلت: الله أكبر، ثم قلت و أنا قائم: استأنس يا رسول الله، لو رأيتنى و كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم و سلم ثم قلت: يا رسول الله لو رأيتنى و دخلت على حفصة فقلت لها: لا- يغرنك إن كانت جارتك أوضأ منك و أحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد عائشة، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم تبسمة أخرى، فجلست حين رأيت تبسم، فرفعت بصرى فى بيته فو الله ما رأيت فى بيته شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارسا و الروم قد وسع عليهم و أعطوا الدنيا و هم لا يعبدون الله، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم و كان متكئاً فقال: أوفى هذا أنت يا ابن الخطاب، و إن أولئك قوم عجلوا طياتهم فى الحياة الدنيا، فقلت: يا رسول الله استغفر لى ... إلى آخر الحديث الذى تركنا نقله لعدم الحاجة إليه هنا.

دعاء إبراهيم عليه الصلاة و السلام لأهل مكة بالرزق

قال الله تعالى فى سورة البقرة: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بئس المصير و قال فى سورة إبراهيم: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مَنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.****

و جاء فى تاريخ الأزرقي: عن محمد بن السائب الكلبي قال: قال إبراهيم عليه السلام: **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ لَهُ، فَجَعَلَهُ بَلَدًا آمِنًا وَ أَمِنَ فِيهِ الْخَائِفُ**

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٣٥

و رزق أهله من الثمرات تحمل إليهم من الأفق، و قال مجاهد: جعل الله هذا البلد آمناً لا يخاف فيه من دخله.

قال ابن حيان: إنما اختص إبراهيم فى مسأله فى الرزق الذين آمنوا، فقال تعالى: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَارِقُهُمْ مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَكِنِّي أَمْتِعُهُمْ قَلِيلًا فِى الدُّنْيَا ثُمَّ أَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بئس المصير.**

نقول، و صريح الآية المتقدمة الدالة على هذا المعنى التى أولها: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ ...** الخ دليل على سعة فضل الله تعالى، و إحسانه العميم، و رحمته العظيمة، فلو اختصت الرحمة و الرزق بالمؤمنين فقط، فمن ذا الذى يرزق الكفرة و المشركين و عبدة الأصنام، و الله عز شأنه، قد خلق هذا الكون على نظام بديع و سنن لا تتبدل، فالدنيا دار لهو و عمار، و الآخرة دار جزاء و قرار. و قال سعيد بن السائب بن يسار: سمعت بعض ولد نافع بن جبير، بن مطعم و غيره يذكرون أنهم سمعوا أنه لما دعا إبراهيم لمكة أن يرزق أهله من الثمرات نقل الله عز و جل أرض الطائف من الشام فوضعها هنالك رزقا للحرم.

و عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام، فوجده غائبا و وجد امرأته الآخرة و هى السيدة

بنت مضاض ابن عمرو الجهمي، فوقف فسلم فردت عليه السلام واستنزته و عرضت عليه الطعام و الشراب، فقال: ما طعامكم و شرابكم؟ قالت: اللحم و الماء، قال: هل من حب أو غيره من الطعام؟ قالت: لا، قال: بارك الله لكم في اللحم و الماء، قال ابن عباس رضوان الله عليه: يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم لو وجد عندها يومئذ حبا لدعا لهم بالبركة فيه فكانت تكون أرضا ذات زرع. قال سعيد بن جبير: و لا يخلى أحد على اللحم و الماء في غير مكة إلا وجع بطنه، و إن أخلى عليهما بمكة لم يجد لذلك أذى.

و عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: وجد في المقام كتاب: "هذا بيت الله الحرام بمكة توكل الله برزق أهله من ثلاثة سبل مبارك لأهله في اللحم و الماء و اللبن لا يحله أول من أهله" هـ. و وجد في حجر في الحجر كتاب من خلقه الحجر: "أنا الله ذو بكة الحرام وضعتها يوم صنعت الشمس و القمر بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول أخشابها مبارك لأهلها في اللحم و الماء."

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٣٦

و عنه أيضا رضى الله عنهما قال: "لما هدموا الكعبة البيت و بلغوا أساس إبراهيم وجدوا في حجر من الأساس كتابا فدعوا له رجلا من أهل اليمن و آخر من الرهبان، فإذا فيه: "أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السموات و الأرض و الشمس و القمر و يوم صنعت هذين الجبلين و حففتها بسبعة أملاك حنفاء."

و عن ابن إسحاق، أن قريشا وجدت في الركن كتابا بالسريانية فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجل من اليهود قال فإذا هو: "أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات و الأرض و صورت الشمس و القمر و حففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول أخشابها مبارك لأهلها في الماء و اللبن."

و عن مجاهد أنه قال: وجد في الزبور "أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين و صنعتها يوم صنعت الشمس و القمر و حففتها بسبعة أملاك حنفاء و جعلت رزق أهلها من ثلاثة سبل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاث طرق من أعلا الوادي و أسفله و كذا و باركت لأهلها في اللحم و الماء."

انتهى كل ذلك من تاريخ الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى.

نقول: تقدم أن إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، لما دعا لأهل مكة بالرزق من الثمرات، نقل الله أرض الطائف من الشام فوضعها هنالك ليأتى منها الثمرات لأهل الحرم. فنحن نرى، أن نقل الطائف من الشام ليس على حقيقته الواقعية و إنما هو مبالغة و تشبيه حيث إن أرض الطائف و هواءها ليس مثل مكة في درجة حرارتها، و إنما الطائف بالنسبة لمكة و ما حولها كأنها قطعة من الشام في جودة تربتها و صلاحيتها للزروع و الثمار، و برودة هوائها برودة شديدة، بل هي المصيف الوحيد لأهل مكة و ما جاورها من المواضع من قديم الزمان.

فالطائف قطعة من نفس أرض الحجاز من أصل الخلقة، بدليل أن الإنسان كلما ارتفع و بعد عن الطائف نحو الحجاز، كالمواضع الشهيرة بلاد بنى سعد و ثقيف و ناصرة، و بلاد غامد و زهران، و بلاد عسير، و بلاد قحطان، وجد البرد شديدا و الماء عذبا، و وجد ثمارا كثيرة رخيصة، و أرضا طيبة زراعية.

هذا رأينا الخاص و الله أعلم بالغيب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٣٧

و ما تقدم في بعض الروايات: "مبارك لأهلها في اللحم و الماء،" و في بعضها "في الماء و اللبن" ليس فيهما اختلاف في المعنى، فحيث وجد اللحم وجد اللبن، و حيث وجد اللبن وجد اللحم.

و الحقيقة أن أهل بادية الحجاز و البدو الرحل الذين ينتجعون الكلاء، لا يعيشون إلا على اللبن و اللحم، فالحب عندهم قليل لا يأكلونه إلا إذا كانوا في المدن.

و هنا نحب أن نشير إلى حكمه دقيقة تتعلق بهذا الفضل و هي: أنه لا يخفى على المسلمين جميعا، أن الله تعالى لما فرض الحج

خامس أركان الإسلام، فرض على من ترك واجبا من واجباته الدم، وهو الفدية من الإبل والبقر والغنم، و مثل واجبات الحج قطع شجر الحرم أو الصيد فيه، ففي كل ذلك الفدية أيضا حسب ما هو مذكور في كتب الفقه. ثم إن من وجب عليه الدم "الفدية" يجب عليه ذبحها في الحرم و تفرقة لحمها على المستحقين فيه أيضا، فلا يجوز ذبح الدم الواجب في غير الحرم، فمن ذبح الفدية بجدة أو غيرها من بلاد الحجاز أو ذبح بمصر أو بالشام أو غيرهما، لا تسقط عنه الفدية، وإن كان يجوز أكلها.

فمن أمن النظر في هذه المسألة، علم أنها عناية خاصة من الله تعالى بأهل مكة و أهل حرمه، و رحمة تامة بهم و إحسان عظيم عليهم، على الدوام في كل عام بدون انقطاع إلى يوم القيامة.

فيجب عليهم معرفة هذه النعمة الكبرى و الميزة الخاصة و أن يحافظوا عليها بالحمد و الشكر و الطاعة لله جل جلاله الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف.

و من هنا بارك الله في اللحم و الماء. فاللحم لا ينقطع عن مكة مطلقا و يكثر كثرة زائدة في أيام الحج إلى درجة أن غالب الناس يكرهون اللحم و لا يحبون رائحته، و هذه الحال لا تكون إلا في مكة المشرفة فقط دون جميع بلدان العالم.

و أن أطراف مكة و جبالها إلى مسافات بعيدة ممتلئة من الأنعام يرعون الكلاء و الحشيش على الدوام، و بذلك يكثر اللبن و الجبن و السمن و الزبدة.

و أما الأرزاق و الثمار ففي مكة أضعاف أضعاف ما يتصوره العقل على صغر رقعتها و كثرة وفود الحجاج إليها كل عام، بل إن فيها من الأقمشة و الأمتعة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 538

و لوازم الإنسان الضرورية و الكمالية ما يجعل الغريب الوارد إليها في دهشة و تعجب و هذا الحجيج الأعظم يحمل منها في كل سنة من الهدايا ما لا يدخل في حساب.

و أما البركة في الماء: فهذا أمر مشاهد ملموس لا يحتاج إلى دليل، فإن قيل أن سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، دعا بالبركة في اللحم و الماء باعتبار زمانه، قلنا إن دعوته منسحجة إلى يوم القيامة، ثم إنه كان الماء في زمانه من بئر زمزم، التي أخرجها الله تعالى لابنه إسماعيل عليه السلام، و لم تكن بمكة غيرها، فبسبب دعائه، عليه الصلاة و السلام، جعل الله البركة في بئر زمزم، فهي عامرة بالماء الشافي من زمانه صلى الله عليه و سلم إلى اليوم بل إلى يوم القيامة. و ببركة هذا الدعاء المستجاب، الماء في مكة و أطرافها متوفرة و الآبار بها كثيرة، و هذه عين زبيدة، و العين العزيزية، و العيون الأخرى، تمتد مكة و من قصد مكة من الآلاف المؤلفين من الحجيج الذين يأتون إليها من كل فج عميق في كل سنة و كل عام، و هل اهتمام الملوك و السلاطين و الأمراء السابقين و اللاحقين في ماء مكة و تقوية العيون و الآبار، إلا من بركة دعاء أبي الأنبياء إبراهيم الخليل، صلوات الله و سلامه عليه، و على ذريته و آلهم أجمعين.

فمن سرح نظره بعيدا إلى زمان إبراهيم عليه الصلاة و السلام، أى إلى نحو أربعة آلاف سنة، يرى أن مكة كانت واديا حل غير ذى زرع، و لم يكن بها غير نفر من قبيلة جرهم. ثم نظر إليها في هذا العصر الحديث، الذى نحن فيه، يرى بونا شاسعا و فرقا عظيما، كما بين السماء و الأرض.

اللهم ارزقنا رزقا حلالا- بدون تعب و لا- نصب، و أنزل علينا من بركات السماء و أخرج لنا من بركات الأرض، و ألهمنا الرشد و الصواب، و وفقنا لحمدك و شكرك و حسن عبادتك، حتى تحفظ لنا ما أنعمت به علينا، و حتى تميّتنا على الإسلام و أنت راض بفضلك و رحمتك، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم.

قال ابن جبير الأندلسي في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة، يصف ما في مكة المكرمة من الخيرات و البركات. ما يأتي:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٣٩

هذه البلدة المباركة، سبقت لها و لأهلها الدعوة الخليلية الإبراهيمية و ذلك أن الله عز و جل يقول حاكيا عن خليله صلى الله عليه و سلم: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، و قال عز و جل: أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتٌ كُلِّ شَيْءٍ. فبرهان ذلك ظاهر متصل إلى يوم القيامة، و ذلك أن أفئدة الناس تهوى إليها من الأصقاع النائية و الأقطار الشاحطة، فالطريق إليها ملتقى الصادر و الوارد ممن بلغته الدعوة المباركة، و الثمرات تجبى إليها من كل مكان فهي أكثر البلاد نعما و فواكه و منافع و متاجر، و لو لم يكن لها من المتاجر إلا- أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق و المغرب فيباع فيها في يوم واحد فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة، كالجوهر و الياقوت و سائر الأحجار، و من أنواع الطيب كالمسك و الكافور و العنبر و العود و العقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند و الحبشة، إلى الأمتعة العراقية و اليمنية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية و البضائع المغربية، إلى ما لا- ينحصر و لا ينضب مما لو فرق على البلاد كلها، لأقام لها الأسواق النافعة و لعم جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن و سواها، فما على الأرض سلعة من السلع و لا ذخيرة من الذخائر إلا و هي موجودة فيها مدة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها، و آية من آياتها الشريفة التي خصها الله بها.

و أما الأرزاق و الفواكه و سائر الطيبات، فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة، فألفيناها تغص بالنعم و الفواكه كالتين و العنب و الرمان و السفرجل و الخوخ و الأترج و الجوز و المقل و البطيخ و القثاء و الخيار، إلى جميع البقول كلها كالباذنجان و اليقطين و السلجم و الجزر و الكرنب إلى سائرها، إلى غير ذلك من الرياحين العبقرة و المشمومات العطرة. و أكثر هذه البقول كالباذنجان و القثاء و البطيخ، لا- يكاد ينقطع مع طول العام و ذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده و ذكره.

و لكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد، العجب من ذلك يطول، و من أعجب ما اخترناه من فواكهها البطيخ و السفرجل، و كل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل العجيب و ذلك لأن رائحته من أعطر الروائح و أطيبها، يدخل به الداخل عليه فتجد رائحته العبقرة قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك إياه، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاب أو بجنى النحل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤٠

اللباب. و لعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض الغلو، كلا لعمر الله، إنه لأكثر مما وصفت و فوق ما قلت. و بها غسل أطيب من الماذى المضروب به المثل، يعرف عندهم بالمسعودي. و أنواع اللبن بها في نهاية من الطيب و كلما يصنع منها من السمن فإنه لا- تكاد تميزه من العسل طيبا و لذادة، و يجلب إليها قوم من اليمن يعرفون (بالسرو) نوعا من الزبيب الأسود و الأحمر في نهاية الطيب، و يجلبون معه من اللوز كثيرا. و بها قصب السكر أيضا كثيرا، يجلب من حيث تجلب البقول التي ذكرناها، و السكر بها كثير مجلوب، و سائر النعم و الطيبات من الرزق و الحمد لله.

و أما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل و السكر المعقود على صفات شتى، إنهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة و اليابسة، و في الأشهر الثلاثة، رجب و شعبان و رمضان، يتصل منها أسمطة بين الصفا و المروءة، و لم يشاهد أحد أكمل منظر منها لا بمصر و لا بسواها، قد صورت منها تصاوير إنسانية و فاكهية، و جللت في منصات كأنها العرائس، و نضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة، فتلوح كأنها الأزهار حسنا، فتقيد الأبصار، و تستنزل الدرهم و الدينار. و أما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق و ضرب على نواحي الأقطار إنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا، و ما ذاك و الله أعلم إلا لبركة مراعيها،

هذا على إفراط سمنه و لو كان سواه من لحوم البلاد ينتهى ذلك المنتهى فى السمن، للفظته الأفواه و دكا، و لعافته و تجنبتة، و الأمر فى هذا بالضد كلما ازداد سمننا زادت النفوس فيه رغبة، و النفس له قبولا، فتجده هنيئا رخيصا يدوب فى الفم قبل أن يلاك مضغا، و يسرع لخفته عن المعدة انهضاما. و ما أرى ذلك إلا من الخواص الغريبة، و بركة البلد الأمين قد تكفلت بطيبه لا شك فيه، و الخبر عنه يضيق عن الخبر له، و الله يجعل فيه رزقا لمن تشوق ببلدته الحرام، و تمنى هذه المشاهد العظام، و المناسك الكرام، بعزته و قدرته.

و هذه الفواكه تجلب إليها من الطائف، و هى على مسيرة ثلاثة أيام منها على الرفق و التؤدة، و من قرى حولها، و أقرب هذه المواضع يعرف بالهدى، هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلا، و هو من بطن الطائف و يحتوى على قرى كثيرة، و من بطن مر و هو على مسيرة يوم أو أقل من نخلة، و هى على مثل هذه المسافة، و من أودية بقرب من البلد كعين سليمان و سواها، قد جلب الله إليها من التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤١

المغاربة ذوى البصارة بالفلاحة و الزراعة، فأحدثوا فيها بساتين و مزارع، فكانوا أحد الأسباب فى خصب هذه الجهات، و ذلك بفضل الله عز و جل و كريم اعتناؤه بحرمه الكريم، و بلده الأمين. و من أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله و أجرينا الحديث باستطابته، و لا سيما لكوننا لم نعهده الرطب، و هو الذى عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجرة يجنى و يؤكل، و هو فى نهاية من الطيب و اللذاعة لا يسأم التفكه به، و بأنه عندهم عظيم يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين و العنب، ثم بعد ذلك عند تناهى نضجه ييسط على الأرض قدر ما يجف قليلا، ثم يركم بعضه على بعض فى السلال و الظروف و يرفع ... إلى آخر كلامه. انتهى من رحلة ابن جبير.

ما يزرع فى الحجاز

يزرع بالحجاز جميع الحبوب و الفواكه و الخضار، و يأتى كل ذلك إلى مكة، شرفها الله تعالى، بواسطة الجمال و الحمير و السيارات، فمما يزرع بالحجاز:

الحنطة، و الشعير، و الذرة بنوعيهما، و النخل، و العنب، و الرمان، و التوت، و التفاح، و الموز، و الكمثرى، و التين، و الجوافة، و السفرجل، و الليمون الحامض، و الليمون الحلو، و الترنج، و البرتقال، و اليوسفى، و الخوخ، و البطيخ الأخضر، و البطيخ الأصفر، و العناب، و اللوز، و الخيار، و القثاء، و البامية، و الدباء، و الكوسة، و القرع الكبير الحلو، و الملوخية، و البرسيم، و الرجل، و السبانخ، و الجزر، و البطاطا، و الباذنجان الأسود، و الباذنجان الأحمر، "القوطة"، "البصل"، و الثوم، و اللفت، و الفاصولياء الخضراء، و الفجل، و الكراث، و البقدونس، و الكزبرة الخضراء، و الشبت، و الكرفس، و الفول الأخضر بنوعيه، و الكرنب، و الفلفل بجميع أنواعه، و غير ذلك.

كما يزرع أيضا: السنمكى، و الحناء، و البلسان و يستخرج منه الزيت، و زهرة الضرم، و شيع البقر، و النعناع البرى و البستاني، و البردقوش، و الورد، و الكادى، و الياسمين، و أنواع الرياحين و المشمومات، و أشجار الظلال كالنبق، و النيم، و التمر هندی، و أشجار الزينات بأشكالها المختلفة و تزرع فى حدائق المنازل و البيوت.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤٢

و بالحجاز أيضا جميع أنواع الطيور و الدواجن. كالدجاج، و الأوز، و البط، و الحمام، و اليمام، و العصافير، و الأرناب، و الطيور المختلفة الأشكال، و الغراب، و النسر، و الصقر، و الحداء، و النحل و يؤخذ منه أنواع العسل، و الجراد، و غير ذلك. و يؤكل الجراد فى الحجاز بكثرة جدا.

و بالحجاز أيضا من الحيوانات: الخيل، و البغال، و الحمير، و الجمال، و البقر، و الغنم بنوعيه الماعز و الخرفان، و الغزلان، و القروود

بشتى الأنواع، و القطط، و الكلاب بنوعها كلاب الصيد و كلاب الشوارع.

و يوجد بالحجاز من الحيوانات الكاسرة: الأسد، و الفهد، و النمر، و الجعير و هو الذى يفترس الحمير، و الذئب، و ابن آوى "أبو الحصين" و لا يوجد بالحجاز الفيل، و الجاموس، و الكركدن، و نحوها و هذه الحيوانات المفترسة تعيش فى البرارى و الجبال بعيدا عن المدن.

و الحيوانات التى يؤكل لحمها: ترعى مما ينبت فى الأرض من الأعشاب و الحشائش، و من العجيب أن الجمال ترعى فى الفلاة من أشجار الشوك و لا- تضره، فلا تنغرز الأشواك فى فمها و ألسنتها مطلقا، بل تكون كقطعة العجين فى فمها و هى تحبها حبا جما، و تفيدها فائدة كبيرة و يكون للبنها و لحمها طعما لذيذا، و العرب تعتر بخيلها و إبلها و تعدها من كرائم الأموال. و يحبونها حبا جما و يتفننون فى تربيتها و تدليلها، و هم أعرف الناس بطباعها و أخلاقها، و لا يزال العرب على ذلك إلى اليوم.

لماذا لم تكن مكة من أجل البلدان و أغناها

وضع الله مكة المشرفة فى وسط الجبال تحيط بها من جميع جهاتها، و جعل تربتها غير صالحة للزرع و النبات، و بهذا صرح إبراهيم عليه الصلاة و السلام، كما حكى الله تعالى عنه فى سورة إبراهيم: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَّكُنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

و رب قائل يقول: لماذا لم يجعل الله بلدة الأمين، تحف به الجنان و البساتين، و تكون فيه ما تشتهيهِ الأنفس و تلذ الاعين. كالشام و مصر و غيرها من البلدان، التى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤٣

فنقول: لم يجعله كذلك، ليكون قاصده مخلصا فى عبادة الله، لا يشرك فيها التنزه و التفسح و غيرها، و أيضا أن الدنيا كلها، لا قيمة لها عند الله تعالى، و لو كانت لها قيمة عنده، لما سقى الكافر منها شربة ماء كما جاء فى الأثر، و فى الحقيقة أن الكفار يتمتعون فى الدنيا أكثر من المؤمنين. فلماذا يزينه الله بشيء حقير لا قيمة له.

و من يطلع على أحوال أنبياء الله و رسله، صلوات الله و سلامه عليهم، و على أحوال الصحابة و العلماء العاملين و الأتقياء الصالحين، يجد أنهم فى شظف من العيش و ضيق من الدنيا، و لقد خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم منها و لم يشبع من خبز الشعير.

دخل عمر بن الخطاب، رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه و سلم يوما فوجده مضطجعا على حصير و قد أثر فى جنبه الشريف، قال: فنظرت ببصرى فى خزانه رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، و مثلها قرظا فى ناحية الغرفة، و إذا أفيق معلق. قال: فابتدرت عيناي، قال: ما بيكيك يا ابن الخطاب؟

قلت: يا نبى الله و ما لى لا أبكى و هذا الحصير قد أثر فى جنبك، و هذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، و ذاك قيصر و كسرى فى الثمار و الأنهار، و أنت رسول الله و صفوته و هذه خزانتك، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة و لهم الدنيا- يعنى الروم و الفرس- قال عمر: قلت بلى."

فهذا الحديث رواه البخارى فى صحيحه فى أربعة مواضع، و أخرجه مسلم أيضا فى صحيحه عن عمر بأربع روايات معناها واحد، و إن اختلفت ألفاظها غالبا. و الأفيق بفتح الهمزة و كسر الفاء الجدل الذى لم يتم دباغه، و القرظ ورق السلم يدبغ به.

فانظر رحمك الله تعالى إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام و الصالحين الأخيار، ما كانوا ينظرون إلى الدنيا أبدا، و ما كانوا يتبلغون منها إلا بقدر ضرورة الحياة، لأنها عرض زائل و الآخرة خير و أبقى.

فمن هنا تعلم أن الله تعالى، لم يجعل الأمين الذى فيه بيته المطهر، وسط الجنان و الأنهار، تحف به الزروع و الثمار، على أنه سبحانه و تعالى، قد خص مكة بأنواع الشرف و فضلها على جميع البلدان و جعل من دخلها فى أمن و أمان، و جعل خليله إبراهيم، عليه الصلاة و

السلام، يدعو لها بالأمن و الرزق و الخير، و جعلها التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤٤ بلدة أكرم أنبيائه محمد صلى الله عليه و سلم، كما جعلها مهبط الملائكة و الأنبياء، و منبع الدين الحنيف، و مكان نزول القرآن الشريف، و مقر الأتقياء و الصالحين و العلماء المحبتين، و جعل خامس أركان الإسلام، و هو الحج، لا يكون و لا يتم إلا فيها، و لا يدخلها القادمون و الحجاج إلا محرمين و مجردين. هذه الميزات الخاصة و الشرف الرفيع، رفعت منزلة "مكة" إلى أعلا درجة في قلوب المؤمنين، لذلك تراهم ينجذبون إليها من كل فج عميق، و إن كانت واقعة وسط الصحراء و الجبال، كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس، و ما بقى لأهلها الصالحين الأتقياء، المستمسكين بالشريعة الغراء، كان أعظم و أجل يستوفونه إن شاء الله تعالى يوم الدين، يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، نسأل الله العفو و العافية، و التوفيق و الرضا، و الختم على الإيمان الكامل، إنه سميع مجيب، و بعباده لطيف خبير، و صلى الله على النبي الأُمى و على آله و صحبه و سلم.

نشأة عبادة الأصنام بمكة

جاء فى تاريخ الأزرقى ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى قال:

حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى ابن إسحاق أن بنى إسماعيل و جرهم من ساكنى مكة، ضاقت عليهم مكة فتفسحوا فى البلاد و التمسوا المعاش، فيزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيما للحرم و صبابه بمكة و بالكعبة، حيث ما حلوا وضعوه فطافوا به كالطواف بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم، إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة و أعجبهم من حجارة الحرم خاصة، حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف، و نسوا ما كانوا عليه، و استبدلوا بدين إبراهيم و إسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان و صاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات، و انتحوا ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما كان بقى منهم من ذكرها، و فيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم و إسماعيل، يتنسكون بها من تعظيم البيت و الطواف به، و الحج و العمرة و الوقوف على عرفه و مزدلفه، و هدى البدن، و الإهلال بالحج و العمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤٥

و كان أول من غير دين إبراهيم و إسماعيل و نصب الأوثان، و سيب السائبة، و بحر البحيرة و وصل الوصيلى، و خمس الحام: عمرو بن لحي.

حدثنا جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى ابن جريح قال: قال عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه - يعنى أمعاءه - فى النار، على رأسه فروة، فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: من فى النار، قال: من بينى و بينك من الأمم. و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: هو أول من جعل البحيرة و السائبة و الوصيلى، و الحام، و نصب الأوثان حول الكعبة و غير الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام. انتهى من الأزرقى.

و معنى السائبة: قيل كان الرجل إذا قدم من سفر أو شفى من مرض يسيب بعيرا يرمى و يرد الماء و لا يركبه أحد، و البحيرة بنت السائبة، و قيل البحيرة هى الناقة التى تنتج خمسة أبطن فى آخرها ذكر، فتشق أذنها و تترك فلا تركب و لا تحلب و لا تطرد عن مرعى و لا ماء، و إذا لقيها الضعيف لم يركبها.

و الوصيلى هى الشاة إذا ولدت ذكرا كان لأهتهم و إذا ولدت أنثى كانت لهم.

و الحام الفحل يولد لولد ولده فيقولون قد حمى ظهره فلا يركب و لا يستعمل و لا يطرد عن مرعى و لا ماء.

وقد اختلف أهل اللغة في معنى هذه الأشياء عند العرب اختلافا كثيرا فمن أراد الوقوف على ذلك فليراجع كتب التفسير. و أن هذه الأشياء من وضع الجاهلية و ليس من الله تعالى كما هو صريح قوله في سورة المائدة: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.

روى البخارى عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، و السائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا- يحمل عليها شىء، و الوصيلة الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل ثم تنثى بعد بأثنى و كانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحدهما بأخرى ليس بينهما ذكر، و الحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه و دعوه للطواغيت و أعفوه من الحمل فلا يحمل عليه شىء و سموه الحامى. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤٦

قال الأزرقى: عمرو بن لحي: هو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الخزاعى، و هو الذى غير دين الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، كان فيهم شريفا سيدا مطاعا، يطعم الطعام و يحمل المغرم، و كان ما قال لهم فهو دين متبع لا يعصى، و كان إبليس يلقي على لسانه الشىء الذى يغير به الإسلام فيستحسنه فيعمل به فيعمله أهل الجاهلية و هو الذى جاء بهبل من أرض الجزيرة فجعله فى الكعبة، و جعل عنده سبعة قدام يستقسمون بها، فى كل قدام منها كتاب يعملون بما يخرج فيه فإذا أراد الرجل أمرا أو سفرا أخرج منها قد حين فى أحدهما مكتوب أمرنى ربي، و فى الآخر نهانى. ثم يضرب بهما، و معهما قدام غفل فإن خرج الناهى جلس، و إن خرج الأمر مضى، و إن خرج الغفل أعاد الضرب حتى يخرج إما الناهى و إما الأمر.

ثم قال بعد بضعة أسطر: و كان عمرو بن لحي غير تلبية إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام. بينما هو يسير على راحته فى بعض مواسم الحج و هو يلبي إذ مثل له إبليس فى صورة شيخ نجدى على بعير أصهب، فسأيره ساعة ثم لبي إبليس، فقال: لبيك اللهم لبيك، فقال عمرو بن لحي مثل ذلك، فقال إبليس: لبيك لا شريك لك، فقال عمرو: مثل ذلك فقال إبليس: إلا شريك هو لك، فقال عمرو: و ما هذا؟ قال إبليس لعنه الله: إن بعد هذا ما يصلحه إلا شريك هو لك، تملكه و ما ملكك، فقال عمرو بن لحي: ما أرى بهذا بأسا، فلبها. فلبى الناس على ذلك. و كانوا يقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا هو لك، تملكه و ما ملكك. فلم تزل تلك تلبيتهم حتى جاء الله بالإسلام، و لبي رسول الله صلى الله عليه و سلم تلبية إبراهيم الصحيحة لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد و النعمة لك و الملك، لا شريك لك فلبها المسلمون. انتهى من الأزرقى.

و جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: و فى سيرة ابن هشام قال ابن إسحاق، و يزعمون أن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسماعيل أنه كان لا- يظن من مكة ضاعن منهم حين ضاقت عليهم و التمسوا الفسح فى البلاد إلا- حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه و طافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى اشتهر ذلك فيهم، إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة و أعجبهم، حتى خلفت الخلف، و نسوا ما كانوا عليه، و استبدلوا بدين إبراهيم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤٧

و إسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، و صاروا إلى ما كانت عليه الأمم السابقة من الضلالات، و منهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتمسكون بها من تعظيم البيت و الطواف به و الحج و العمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه. فكانت كنانة و قريش إذا أهلوا قالوا: لبيك اللهم لبيك، لا- شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه و ما ملكك. فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم، و يجعلون ملكها بيده، بقول الله تعالى: وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ.

و قد كان لقوم نوح أصنام قد عكفوا عليها قال الله تعالى: لَا تَدْرُنَّ آلِهَتِكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوعَاءً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَ نَسْرًا.

فكان الذين اتخذوا تلك الأصنام من ولد إسماعيل و غيرهم، و سموا بأسمائها حين فارقوا دين إسماعيل: هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر، اتخذوا سواعا فكان لهم برهات، و كلب ابن وبرة من قضاة اتخذوا ودا بدومة الجندل، و أنعم من طيء و أهل جرش من

مدحج اتخذوا يغوث بجرش، و حيوان- بطن من همدان- اتخذوا يعوق بأرض همدان من اليمن، و ذو الكلاع من حمير اتخذوا نسرا بأرض حمير. و كانت قريش قد اتخذوا صنما على بئر في جوف الكعبة يقال له هبل و اتخذوا إسافا و نائلة في موضع زمزم، ينحرون عندهما. و كان إساف و نائلة رجلا- و امرأة من جرهم، هو إساف بن بغي و نائلة بنت ديك. فوقع إساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين، و كانت اللات لثقيف بالطائف، و كانت سدنتها و حجابها بنى معتب من ثقيف، و كانت مناة للأوس و الخزرج، و من دان بدينهم من أهل يثرب على البحر من ناحية المعتل بقديد، هذا ما في سيرة ابن هشام. و في أنوار التنزيل و المدارك: العزى سمرة و أصلها تأنيث الأعز.

و في المنتقى: العزى كانت بنخلة لقريش و جميع بني كنانة، و كانت أعظم أصنامهم، و سدنتها بنو شيبان. و قد اختلفوا في العزى على ثلاثة أقوال: أحدها أنها كانت شجرة لغطان يعبدونها قاله مجاهد، و الثاني أنها صنم قاله الضحاك، و الثالث أنها بيت في الطائف كانت تعبده ثقيف قاله ابن زيد.

و في معالم التنزيل: العزى صنم اشتقوا لهما اسما من العزيز. فبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم خالد بن الوليد ليقطعها، فجعل خالد يضربها بالفأس و يقول: يا عزى كفرانك لا سبحانك، إنى رأيت الله قد أهانك. فخرجت منها شيطانة ناشرة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤٨

شعرها داعية و يلها، واضعة يدها على رأسها. و يقال إن خالدًا رجع إلى النبي صلى الله عليه و سلم و قال له: قد قلعتها. قال: هل رأيت شيئا؟ قال: لا، قال: ما قلعت.

و في رواية قال: إنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها. فعاد إليها خالد متغيظا و معه المعول، فقلعها و استأصلها، فخرجت منها امرأة عجوز عريانة سوداء ثائرة الرأس، فجعل السادن يصيح، فسلّ خالد سيفه فضربها فقتلها، و جزها باثنتين، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه و سلم فأخبره بذلك، فقال: نعم تلك العزى و لن تعبد أبدا.

و في رواية: و قد يئس أن تعبد ببلادكم أبدا. و قال الضحاك: كان أصل وضع العزى لغطان أن سعد بن ظالم الغطفاني قدم مكة و رأى الصفا و المروة، و رأى أهل مكة يطوفون بينهما، فعاد إلى بطن نخلة و قال لقومه: إن لأهل مكة الصفا و المروة، و ليس لكم. و لهم إله يعبدونه و ليس لكم. قالوا: فما تأمرنا؟

قال: أنا أضع لكم كذلك. فأخذ حجرا من الصفا و حجرا من المروة، و نقلهما إلى نخلة، فوضع الذي أخذ من الصفا فقال: هذا الصفا، و وضع الذي أخذ من المروة فقال: هذه المروة. ثم أخذ أحجار فأسندها إلى شجرة فقال: هذا ربكم.

فجعلوا يطوفون بين الحجرين و يعبدون الحجارة الثلاثة، و سموها العزى، حتى افتتح رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة فأمر برفع الحجارة و بعث خالد بن الوليد إلى العزى فقطعها.

و في رمضان هذه السنة بعث عمرو بن العاص إلى تخريب سواع، هو صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة، قال عمرو: فأنتهيت إليه و عنده السادن. فقال:

ما تريد؟ فقلت: أمرني رسول الله صلى الله عليه و سلم أن أهدمه. قال: لا تقدر. قلت: لم؟

قال: تمنع. قلت: ويحك هل يسمع أو يبصر؟ فكسرتة فأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانتة، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت و لله رب العالمين.

و في مزيل الخفا روى أنه كان لآدم عليه السلام خمس بنين يسمون نسرا و ودا و سواعا و يغوث و يعوق، و كانوا عبادا فماتوا، فحزن أهل عصرهم عليهم، فصور لهم إبليس أمثالهم من صفر و نحاس ليستأنسوا بهم، فجعلوها في مؤخر المسجد.

فلما هلك أهل ذلك العصر قال إبليس لأولادهم: هذه آلهة آبائكم فعبدوها بعدهم، ثم إن الطوفان دنفها فأخرجها للعين للعرب، فكانت و د لكلب بدومة الجندل، و سواع لهذيل بساحل البحر، و يغوث لغطان من مراد ثم لبني غطيف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٤٩

بالحوف، و في القاموس غطيف كزبير حى من العرب أو قوم بالشام، و الحوف موضع بأرض مراد، و يعوق لهمدان، و نسر لذى الكلاع و حمير.

و في المدارك: ود صنم على صورة رجل، و سواع على صورة امرأة، و يغوث على صورة أسد، و يعوق على صورة فرس، و نسر على صورة نسر. و يروى أن سواعا لهمدان، و يغوث لمذحج، و يعوق لمراد. كذا في معالم التنزيل و أنوار التنزيل و المدارك.

و في معالم التنزيل كانت للعرب أصنام أخرى: فاللات كانت لثقيف اشتقوا لها اسما من أسماء الله تعالى، قال قتادة: كانت اللات بالطائف، و قال ابن زيد: بيت بنخلة لقريش تعبده. قال ابن عباس و مجاهد و أبو صالح: بتشديد التاء. و قالوا كان رجلا يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، و كان يبطن نخلة.

و في القاموس سمي بالذى يلت السويق للحاج بالسمن ثم خفف. و العزى لسليم و غطفان و جشم، و مناة لخزاعة و كانت بقديد، قاله قتادة.

و قالت عائشة رضی الله تعالى عنها في أنصار من كانوا يهلون لمناة و كانت حذو قديد. و قال ابن زيد: بيت بالمشلل يعبده بنو بكر. و قال الضحاك: مناة صنم لهذيل و خزاعة يعبدها أهل مكة. و قال بعضهم اللات و العزى و مناة أصنام من حجارة، و كانت في جوف الكعبة يعبدونها، و أساف و نائلة و هبل لأهل مكة.

و في رمضان من هذه السنة حين فتح مكة بعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة صنم للأوس و الخزرج و من دان بدينهم من أهل يثرب على البحر من المشلل بقديد، كذا في سيرة ابن هشام. و في القاموس مشلل كمعظم جبل يهبط منه إلى قديد. و في خلاصة الوفا ثنية تشرف على قديد كان بها مناة الطاغية. و في أنوار التنزيل هي صخرة كانت لهذيل و خزاعة و ثقيف و هي فعلة من مناة إذا قطعته فإنهم كانوا يذبجون عندها القرابين و منه منى فخرج سعد في عشرين فارسا حتى انتهى إليها قال السادن: ما تريد؟ قال: هدمها. قال: أنت و ذاك. فأقبل سعد يمشى إليها، فخرجت منه امرأة عريانة سوداء نائرة الرأس تدعو بالويل و تضرب صدرها، فضربها سعد بن زيد فقتلها و انتقل إلى الصنم و معه أصحابه فهدموه و انصرفوا راجعين إلى النبي صلى الله عليه و سلم. انتهى من تاريخ الخميس.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥٠

مسح إساف و نائلة في الكعبة و عبادتهما

قال الأزرقى في تاريخه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: حدثني محمد بن إسحاق: أن جرهم لما طغت في الحرم دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة، ففجر بها، و يقال إنما قبلها فيها فمسخا حجرتين، اسم الرجل إساف بن بغاء، و اسم المرأة نائلة بنت ذئب فأخرجها من الكعبة فنصب أحدهما على الصفا، و الآخر على المروة، و إنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس و يزدجروا عن مثل ما ارتكبا لما يرون من الحال التي صاروا إليها، فلم يزل الأمر يدرس و يتقادم حتى صار بمسحان يتمسح بهما من وقف على الصفا و المروة ثم صاروا و ثنين يعبدان.

فلما كان عمرو بن لحي أمر الناس بعبادتهما و التمسح بهما و قال للناس: إن من كان قبلكم كان يعبدهما، فكانا كذلك حتى كان قصي بن كلاب، فصارت إليه الحجابة و أمر مكة، فحولهما، من الصفا و المروة، فجعل أحدهما بلسق الكعبة و جعل الآخر في موضع زمزم. و يقال: جعلهما جميعا في موضع زمزم، و كان ينحر عندهما. و كان أهل الجاهلية يمرون بإساف و نائلة و يتمسحون بهما، و كان الطائف إذا طاف بالبيت يبدأ بإساف فيستلمه، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح فكسرهما رسول الله صلى الله عليه و سلم مع ما كسر من الأصنام.

حدثني محمد بن يحيى المدني عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى، عن ابن حزم عن عمرة أنها قالت: كان إساف و نائلة رجلا و

امراً، فمسحوا حجرتين، فأخرجوا من جوف الكعبة، وعليهما ثيابهما، فجعل أحدهما بلصق الكعبة، والآخر عند زمزم، وكان يطرح بينهما ما يهدى للكعبة، ويقال أن ذلك الموضع كان يسمى (الحطيم) وإنما نصبا هنالك لاعتبر بهما الناس. فلم يزل أمرهما يدرس حتى جعلوا اثنين يعبدان، وكانت ثيابهما كلما بليت أخلفوا لهما ثيابا، ثم أخذ الذي بلصق الكعبة، فجعل مع الذي عند زمزم، وكانوا يذبحون عندهما ولم تكن تدنو منهما امرأة طامث، ففي ذلك يقول الشاعر بشر بن أبي حازم الأسدي أسد خزيمه:

عليه الطير ما يدنون منه مقامات العوارك من إساف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥١

حدثني جدتي قال حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال أخبرني ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، عن علي بن عبد الله بن عباس قال: لقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وإن بها ثلاثمائة وستين صنما قد شدها إبليس بالرصاص. وكان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيب، فكان يطوف عليها ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. ثم يشير إليها بقضيبه فتساقط على ظهورها.

حدثني جدتي، عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعنهما ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد. حدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا عبد العزيز بن عمران عن محمد بن عبد العزيز عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، منها ما قد شد بالرصاص فطاف على راحلته وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. ويشير إليها فما منها صنم أشار إلى وجهه إلا وقع على دبره، ولا أشار إلى دبره إلا وقع على وجهه، حتى وقعت كلها.

وقال ابن إسحاق: لما صلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر يوم الفتح أمر الأصنام التي كانت حول الكعبة كلها فجمعت ثم حرقت بالنار وكسرت، وفي ذلك يقول فضالة بن عمير بن الملوح الليثي في ذكر يوم الفتح:

إذا ما رأيت محمدا وجنوده بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت نور الله أصبح بينا والشرك يغشى وجهه الإظلام

حدثني جدتي عن محمد بن إدريس عن الواقدي عن ابن أبي سبرة عن حسين بن عبد الله بن عباس عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما يزيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يشير بالقضيب إلى الصنم فيقع لوجهه. فطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا على راحلته، يستلم الركن الأسود بمحجنه، فلما فرغ من سبعة نزل عن راحلته، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقام، وجاءه معمر بن عبد الله بن فضالة فأخرج راحلته والدرع عليه والمغفر وعاتمه بين كتفيه، فصلى ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال: لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لتزعت منها دلوا. فنزع له

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥٢

العباس بن عبد المطلب دلوا فشرب، وأمر بهبل فكسر وهو واقف عليه، فقال الزبير بن العوام لأبي سفيان بن حرب: يا أبا سفيان قد كسر هبل، أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم عليك. فقال أبو سفيان: دع هذا عنك يا بن العوام، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان.

حدثني جدتي، عن محمد بن إدريس عن الواقدي، عن أشياخه: قالوا كان إساف و نائلة رجلا و امرأة، الرجل إساف بن عمرو، و المرأة نائلة بنت سهيل من جرهم. فزنيا في جوف الكعبة، فمسحوا حجرتين فاتخذوهما يعبدونهما. وكانوا يذبحون عندهما ويلقون رؤوسهم عندهما إذا نكسوا، فلما كسرت الأصنام كسرا. فخرجت من أحدهما امرأة سوداء شمطاء تخمش وجهها، عريانة ناشرة الشعر، تدعو بالويل. فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك. فقال: تلك نائلة قد أيست أن تعبد ببلادكم أبدا. ويقال: رن إبليس

ثلاث رنات، رنة حين لعن فتغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورنه حين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما بمكة يصلي، ورنه حين افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة. فاجتمعت إليه ذريته، فقال إبليس: ايتسوا أن تردوا أمه محمد على الشرك بعد يومهم هذا أبدا، ولكن أفسوا فيهم النوح والشعر.

وذكر الواقدي عن أشياخه قال: نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بمكة: من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعن في بيته صنما إلا كسره. فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام.

قال: وكان عكرمة بن أبي جهل حين أسلم لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره، وكان أبو نجارة يعملها ويبيعهها، ولم يكن في قريش رجل بمكة إلا وفي بيته صنم.

وقال الواقدي: وحدثني ابن أبي سبرة، عن سليمان بن سحيم عن بعض آل جبير بن مطعم، عن جبير بن مطعم قال: لما كان يوم الفتح نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في بيته صنما إلا كسره وأحرقه، وثنمه حرام. قال جبير: وقد كنت أرى قبل ذلك الأصنام يطاف بها مكة فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم، وما من رجل من قريش إلا وفي بيته صنم، إذا دخل يمسحه، وإذا خرج يمسحه تبركا به.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥٣

وقال الواقدي: وأخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن عبد الحميد بن سهيل قال: لما أسلمت هند بنت عتبة جعلت تضرب صنما في بيتها بالقدم فلذة فلذة وهي تقول: كنا منك في غرور. انتهى من الأزرقى.

أول من نصب الأصنام في الكعبة

قال الإمام الأزرقى في تاريخه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى أحمد بن محمد قال حدثنا سعيد بن سالم القداح عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن إسحاق قال: إن البئر التي كانت في جوف الكعبة كانت على يمين من دخلها، وكان عمقها ثلاثة أذرع، يقال إن إبراهيم وإسماعيل حفرها ليكون فيها ما يهدى للكعبة. فلم تزل كذلك حتى كان عمرو بن لحي، فقدم بصنم يقال له: هبل من هيت من أرض الجزيرة، وكان هبل من أعظم أصنام قريش عندها، فنصب على البئر في بطن الكعبة، وأمر الناس بعبادته، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده، وهبل الذى يقول له أبو سفيان يوم أحد: أعل هبل - أى أظهر دينك - فقال النبى صلى الله عليه وسلم: الله أعلى وأجل.

وكان اسم البئر التي في بطن الكعبة (الأخسف)، وكانت العرب تسميها (الأخشف).

قال محمد بن إسحاق: كان عند هبل في الكعبة سبعة قداح كل قدح منها فيه كتاب. قدح فيه (العقل) إذا اختلفوا في العقل من يحمله ضربوا بالقداح السبعة عليهم، فإن خرج العقل فعلى من خرج حمله. وقدح فيه (نعم) للأمر، إذا أرادوه يضرب به في القداح، فإن خرج قدح فيه نعم عملوا به. وقدح فيه (لا) فإذا أرادوا الأمر ضربوا به في القداح فإذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر، وقدح فيه (منكم) وقدح فيه (ملصق) وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيه (المياه) فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيث ما خرج به عملوا به.

وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو ينكحوا منكحا أو يدفنوا ميتا أو شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل، وبمائه درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذى يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إلهنا هذا فلان أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحق فيه، ثم يقولون لصاحب

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥٤

القداح: اضرب. فإن خرج عليه منكم كان منهم وسيطا، وإن خرج عليه من غيركم كان حليفا، وإن خرج عليه (ملصق) كان ملصقا

على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف، وإن خرج عليه شيء مما سوى هذا مما يعلمون به (نعم) عملوا به، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى ينتهون في أمرهم ذلك إلى ما خرجت به القداح، وبذلك فعل عبد المطلب بابنه حين أراد أن يذبحه. وقال محمد بن إسحاق: كان هبل من خرز العقيق على صورة إنسان، وكانت يده اليمنى مكسورة، فأدركته قريش فرجعت له يدا من ذهب، وكانت له خزانة للقربان، وكانت له سبعة قداح يضرب بها على الميت والعذرة والنكاح، وكان قربانه مائة بعير، وكان له حاجب، وكانوا إذا جاءوا هبل بالقربان ضربوا بالقداح وقالوا:

إنا اختلفنا فهب السراحا ثلاثة يا هبل فصاحا

الميت والعذرة والنكاحا والبرء في المرضى والصحاحا

إن لم تقله فمر القداحا انتهى من الأزرقى.

الكلام على أصنام قريش التي كانت حول الكعبة

لقد بسطنا القول فيما تقدم عن أصنام قريش التي كانت حول الكعبة المشرفة بما فيه الكفاية، وهنا نحب إعادة ذكر الأصنام على صورة الحكاية صاغه بقلمه البلغ نابغة العصر وأديب مصر "الدكتور طه حسين" في الجزء الثاني من كتاب "على هامش السيرة" عند الكلام على مناقشة شباب قريش مع صاحب الحان الخمار الرومي، فقد قال بعد أن ذكر ما دار بينهم من المناقشات الأولية ما يأتي:

قال الخمار الرومي لأصدقائه من شباب قريش: "عزيز علي أن ألقاكم بما لقيتكم به من الفتور، وقد عودتكم أن أكون لكم مكرما، وبكم حفيا. و عزيز علي أن أقصر عما تقدمون عليه من هذه اللذات التي كنت أسابقم إليها فأسبقكم، و أنازعكم استمتاع بها فأكون أوفرکم منه حظا و أعظمکم منه نصيبا.

و عزيز علي أن يعديکم هذا الفتور و يبلغکم هذا القصور، فتصدون عما تحبون

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥٥

و تصرفون عما تألفون. و لكن ثقوا أنى لم أقدم على ذلك راغبا فيه، و إنما دفعت إليه مكرها عليه."

قال صفوان بن أمية: "فإننا ما نشك في أنك لم تلقنا بهذا الإعراض و الفتور إلا و قد عرض لك من الأمر ما اضطررك إلى ذلك. و قد عودناك أن نفضى إليك بأسرارنا و جلية أمورنا، لا نخفى عليك منها شيئا. فأفض إلينا بدخيلة نفسك و جلية أمرك، فلعلنا أن نكون عندما تحب من المعونة لك و الترفيه عليك."

قال صاحب الحان: "فإنى أخشى أشد الخشية ألا تملكوا لى من هذا الأمر الطارئ شيئا."

قال صفوان: "إنك ضيفنا و جارنا و صديقنا، و صاحب لذتنا و شريكنا فى هذه اللذة. فلستنا لقريش إذا أن بخلنا عليك بالمعونة، أو آثرنا أنفسنا بالأمن و الراحة و النعيم من دونك. و إنك لتعرف من قريش قراها للضيف، و وفاءها للجار، و برها بالصديق، و أداءها للحقوق."

قال صاحب الحان: "فإن هذا الأمر الطارئ ليس مما تظنون فى شيء، و إنى لا أدرى كيف أباديكم به و أتحدث إليكم فيه. و لو أن الذى عرض لى كان مما تعودتم أن تردوه عن الضيف و الجار و الصديق لما أبطأت فى أنباتكم به و إظهاركم عليه. و لكنه لون آخر من الأمر لم تتعودوا أن تروه، و ضرب آخر من الخطب لم تتعودوا أن تشهدوه. و ما أدرى أنفهمون على إن تحدثت إليكم بما عرض لى! و ما أدرى أترضون إن فهمتم ما ألقى إليكم من الحديث أم تسخطون! فإنه أمر غريب حقا! غريبا حقا!" ثم أطرق الرومي و ترك هؤلاء الفتيان من شباب قريش و قد أخذهم شيء يسير من الوجوم بهذا الحديث الغريب، و جعلوا يتقارضون فيما بينهم ألحاظا قصارا سراعا. ثم رفع الرومي إليهم رأسه، فلما رآهم على هذه الحال ابتسم لهم رفيقا بهم، و قال فى صوت هادئ بعيد: "ما أحب لكم أن تصرفوا عن أمر لذتكم إلى هذا الأمر الذى ما آراه يعنيكم من قريب أو بعيد، فعودوا إلى ما كنتم فيه موفورين. و لو استطعت

لشاركتكم في اللهو، ولأعتكم عليه، ولكن نفسي محزونة منذ الليلة حقاً."

قال صفوان: "فإننا لن نتحول عنك إلى لذتنا، ولن ننصرف عنك إلى بيوتنا حتى نعلم علمك، وحتى نرى أقادرون نحن على أن نعينك أم عاجزون عن أن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥٦

نبلغ من ذلك بعض ما نريد. فاقصص علينا أمرك ولا تبطن، فإنك قد شوقتنا إلى حديثك هذا الذي تخفيه فتمعن في إخفائه، و تلتوى به علينا أشد الالتواء."

قال الرومي: "إني لا أخفي عليكم شيئاً، ولا ألتوى عليكم بشيء، ولكني أدير هذا الأمر في نفسي ولا أعرف كيف أباديكم به." قال صفوان وهو يتكلف الضحك: "فبادنا به كيف شئت وعلى أي وجه أحببت، فإني أخشى إن طال بك هذا الصمت وألح عليك هذا الالتواء أن نشق عن صدرك لئري ما يضطرب فيه من عاطفة، ونشج رأسك لنظهر على ما تدير فيه من رأى وما تجيل فيه من حديث."

قال الرومي وهو يبتسم: "ما أوفاكم إذا للجار، وأرعاكم إذا للصديق!"

قال صفوان: "فإنك مظهرنا على أمرك طائعا أو كارها، فقد طال منكم الصمت، وطال منا الإلحاح، وقد تقدم الليل، وإنا خليقون أن نبقي حولك حتى يدر كنا الصبح نسألك ونلح عليك، فأرح نفسك وأرحنا من السؤال والإلحاح." قال الرومي وهو يظهر ترددا شديداً، ويأخذ نفسه بالعنف لأنه يقدم على أمر عظيم: "فإن الأمر الذي أهمنى لا يتصل بي وإنما يتصل بكم."

قال صفوان: "فذلك أجدى أن تبادينا به وتظهرنا عليه!"

قال الرومي: "فإنه لا- يتصل بحياتكم حين تأوون إلى بيوتكم، أو تهرعون إلى هذا الحانوت أو تضطربون في الأرض، وإنما يتصل بالهتكم."

ولم يكدهؤلاء الفتيان من قريش يسمعون هذه الجملة حتى اندفعوا إلى ضحك غليظ متصل، ثم سكت عنهم الضحك بعد حين، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض نظر المنكر لما سمع، الساخر منه، في شيء غريب من الفرح والمرح، وفي إشارة إلى الغلام أن يملأ أقداحهم. ثم نظر صفوان إلى صديقه الرومي نظراً لا تخلو من استهزاء يشوبه الإشفاق وقال: "قد كنا نحسب أن التفكير في الآلهة والحديث عنهم أمر مقصور على نفر من قريش تقدمت بهم السن وتقلبت عليهم الحياة، وفرغوا لهذا العبث، فجعلوا يخوضون فيما ليس للناس ان يخوضوا فيه. ولكن الأمر قد تجاوز هؤلاء الشيوخ من قريش إلى جيراننا من الروم. أو مستك العدوى إذا؟ أو جعلت تصبوا إلى ما يصبو إليه هؤلاء النفر من شيوخنا، وتحرص على أن تمتاز بما يمتازون به من التخرج والتكلف، وإنفاق الجهد فيما لا ينبغي أن ينفق فيه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥٧

الجهد؟! لقد جفت حلوقنا يا غلام، فأسرع إلى هذه الأقداح فاملأها، وأسرع إلى مولاك بشيء من شراب، فما نرى إلا أن نفسه قد ظمئت، وما نرى إلا أن ظمأ نفسه قد اضطرها إلى هذا الحديث."

قال الرومي: "أما إنك قد قلت الحق وأنت لا تدري! فإن نفسي لظمئة، وإن ظمأها لأشد مما تظن."

قال صفوان: "تظماً وعندك أكرم ما جادت به بيسان من نبيذ!"

قال الرومي: "ما صدفت نفسي قط عن الخمر كما تصدف عنها الآن. إني لشديد الظمأ ولكن إلى شيء آخر ما أرى أنكم تفقهونه أو تفظنون له."

قال صفوان وهو مغرق في الضحك: "إنك لظمئ إلى ما كانت تظماً إليه نفس زيد بن عمرو، فقد طلبته جاهدة فلم تظفر به، ولم

تروظماها باليقين، و إنما روته بهذا الدم الزكى الذى لم تتأثر له بعد، و الذى لا يبد من التأثر له. و إنك لظمئى إلى ما كانت تظما له نفس ورقة بن نوفل و عثمان بن الحويرث، فإن ورقة بن نوفل ليقيم منك غير بعيد فتحول إليه و استمع له، فقد يروى نفسك بما وعى من علم النصرارى، و ما حفظ من سحف الروم. و لكن لا- تنس أن تخلى بيننا و بين ما بقى لك من خمر، و أن تحكمننا فيما ستقدم عليك به العير بعد أيام. "ثم تضاحك القوم و رفعوا الأقداح إلى أفواههم، ثم ردوها و لم يذروا فيها شيئا.

قال الرومى "فأما و أنتم تفقهون أمر هؤلاء النفر من قريش، فما أشك فى أنكم ستفهمون عنى إن حدثتكم بما يضطرب فى نفسى من الأمر. و لقد أسأت بكم الظن فمعدرة إليكم. لقد رأيتكم لا- تحفلون إلا- بما يحفل به أترابكم من اللهو، و لا تقبلون إلا على ما يقبل عليه لداتكم من اللذة و النعيم."

قال صفوان "فإن لنا على ذلك عقولا تستطيع أن ترقى إلى حكمتك العليا.

و لكن ما رأيك فى أنها زاهدة فى هذه الحكمة، رغبة عنها!! فإننا لم نأتك لتتحدث إلينا عن الآلهة، و ما ينبغى لغير قريش أن تتحدث عن آلهة قريش. و لقد أطلت فينا المقام، فكنت خليقا أن تعرف من أمرنا أكثر مما عرفت. و ما نظنك إلا أدركت شيئا مما لقى زيد بن عمرو، و قد كان أوسطنا نسا، و أرفعنا حسبا.

فخذ فى حديث آخر غير حديث الآلهة، فما كنا لنكره ذلك من شيخ قرشى ثم نرضاه من رومى غريب أقبل علينا ليسقينا الخمر و يسمعنا الغناء."

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥٨

قال الرومى و قد ظهر عليه بعض الحزن "ألم أقل لكم إنى كنت مشفقا أن يسؤكم حديثى، و إنى كنت راغبا عن أن أوذيككم." قال فتى من القوم "فإنك لم تؤذنا و إن حديثك لم يسؤنا، و إنك لم تظهرنا بعد على هذا الحديث. و لكن فى صفوان حدة و سرعة إلى الغضب و سيما حين يثقل عليه الشراب، فامض فى حديثك راشدا، و أشركنا فى هذا الهم الذى غير سيرتك منذ الليلة."

قال صفوان "ما أدرى ماذا عرض لى! فإن حديثك لم يسؤنى و لم يؤذنى، و إنما أخذت فى الدعابة حين سمعتك تتحدث عن الآلهة، فما أسرع ما استحالت الدعابة إلى جد مر، فامض فى حديثك و خلاك ذم."

قال الرومى "أقبلوا على شأنكم، و خذوا فى لهوكم، أو تفرقوا إلى بيوتكم فقد تقدم الليل."

و أحس القوم أن نفس الرومى مقسمة بين الغضب و الخوف، فعادوا إلى الرق به و التلطف له، حتى ردوه الأمن و الهدوء، ثم مضوا يسألونه عن حديثه، و يلحون عليه فى أن يتمه.

قال الرومى "أتعرفون أنى نصرانى؟"

قال صفوان "نعرف أنك نصرانى كغيرك من الروم، لكننا لم نر منك قط إقبالا على الدين، و لا إمعانا فى النسك."

قال الرومى "فاعلموا أنى لست نصرانيا، أو اعلموا أنى لم أخلص للنصرانية قط، و أنى لم أقدم على بلدكم هذا النائى البعيد من بلاد الروم لأسقيكم الخمر و أسمعكم الغناء، و إنما أقبلت إليكم مهاجرا بهذه الوثنية التى كنت أخفيها فى بلادى من أرض الروم، و أجد فى إخفائها جهدا لا يحتمل، و عناء لا يطاق." فلما سمع القوم من حديث الرومى عجبوا له، و شغفت نفوسهم بالقصة فأصغوا إليه أشد الإصغاء.

قال الرومى "إنكم لا تعرفون من أمرنا نحن الروم أقله و أيسره. و إنكم لتجهلون و ثنيتنا القديمة كما تجهلون نصرانيتنا الحديثة. و لو قد علمتم من أمرنا أكثر مما تعلمون لكان فهمكم عنى أعمق و أصدق إن و ثنيتنا القديمة ليست من اليسر و السذاجة بحيث ترون ما ترون ما أنتم عليه من دين، فإن لآلهتنا القدماء

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٥٩

أخبارا طوالا و أنباء غريبة، تكلف بها النفوس، و تألفها القلوب، و تصبوا إليها الطباع. و قد كان آلهتنا القدماء أشد اختلاطا بنا، و

معاشره لنا، و اشتراكا معنا في جد الحياه و هزلها من آلهتكم. فلا جرم تمكن حبها في قلوبنا، و اختلط بنفوسنا، و جرى مع دمائنا، و كانت حاجتنا إليهم كحاجتنا إلى الهواء الذي نتنفسه، و إلى الطعام الذي نقيم به أودنا، و إلى الشراب الذي ننقع به الغله و نبل الصدى، و إلى المعرفة التي نغذو بها عقولنا، و نرقى بها قلوبنا، و ننقى بها طباعنا من الأوضار و الآثام. فلما جاء الدين الجديد، ضقتنا به أشد الضيق، و نفرنا منه أشد النفور، و قاومناه أعنف المقاومة و أقساها، و ضحينا في سبيل آلهتنا القديما بكثير جدا من النفوس و الدماء و الأموال أكثر مما تستطيعون أن تتصوروا. و لكن الإله الجديد كان أقوى من آلهتنا و أعظم سلطانا، فلم تثبت له الآلهة، و إنما انهمت أمامه و فرت من معابدها و هياكلها، و أذعن أكثرها لهذا الإله الجديد، و وفي أقلنا لأولئك الآلهة المشردين. و قد نشأت في أسرة من هذه الأسر التي توارثت الوفاء لأولئك الآلهة، و التي كانت تؤدي النصرانية لقيصر كما تؤدي له الضريبة التي يفرضها على الأموال، فإذا خلت إلى نفسها وفت لآلهتها، و أخلصت لها الدين محتاطة متحرجة، بالغه من التحرج و الاحتياط أقصى ما كانت تستطيع أن تتحمل.

و لكن قيصر قد اشتد في دينه. و لم يكتف من رعيته بالطاعة الظاهرة، و إنما أراد أن يخلص إلى دخائل النفوس و ضمائر القلوب، و أن يحاسب الناس على آرائهم كما يحاسبهم على أعمالهم. فلقينا من ذلك جهدا أشد الجهد، و عنتا أعظم العنت، حتى تحول كثير منا عما كان يضم من حب آلهتنا. و إننا لفي ذلك العناء و إذا أنا أسمع حديثا عن بلدكم هذا يغريني به و يدفعني إليه، و يخيل إلى أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد الروم إلى العرب، فأقاموا فيها، و فرغوا لأهلها يبسطون عليهم من سلطانهم العذب ما كانوا يبسطونه على الروم."

قال صفوان "و ما ذاك الحديث؟"

قال الرومي "حديث ذلك الجيش النصراني الحبشي الذي أقبل على بلدكم هذا ليهدمه و يدمره، مقدا بين يديه فيله العظيم. فما كاد يدنو من حرمكم هذا حتى رد عنه أقبح الرد و أشنعه، و حتى سلطت عليه تلك الطير التي مزقته تمزيقا."

قال صفوان "فإن رب الحرم قد زاد العدو عن الحرم، ما نجد في ذلك غرابه و عجا."

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦٠

قال الرومي "أما نحن فقد وجدنا فيه الغرابه كل الغرابه، و العجب كل العجب، و أولناه ألوانا من التأويل. فأما رهباننا و أحبارنا فقد فهموا منه شيئا آخر. ظن الأحبار و الرهبان أن هذه آية قدمتها السماء بين يدي آيات أخرى أكبر منها و أعظم خطرا. و ظن الأحبار و الرهبان أن أمور الناس ستتغير و تبدل، و أن ما أنزل على اليهود و النصراني من الدين سيتم في هذا البلد الذي رد عنه الفيل. و ظننا نحن كما قلت لكم أن آلهتنا قد هاجروا إلى هذا البلد، و أنهم قد ردوا جيش الحبشه و الروم عنه، كما ردوا جيش الفرس عن بلاد اليونان منذ قرون. و تمتلئ نفسي بحب الآلهة، و تطمئن نفسي إلى هذا التأويل، و تحدثني نفسي بالهجرة إلى بلادكم لألقى فيها آلهتنا، و لأرى فيها تماثيلهم، و لأعبدهم حرا، و أتقرب إليهم، مظهرا ذلك لا مستخيفا به و لا محتاطا فيه. و أفكر في الرحلة إلى هذه الأرض، و في الحياه التي سأحياها في هذا البلد، و في رزقي كيف أكسبه. فأتصل بالذين كانوا يقدون على بلادنا من تجاركم، فأعلم منهم علم هذه البلاد و من يعيش فيها من الناس. و أقدم مع بعض قوافلكم تاجرا أسقيكم خمر الروم، و أسمعكم غناء الروم. و إن لي في بلادكم لأربا غير هذا و ذاك. و ما أخفى عليكم أنني لم أبلغ بلادكم و لم أستقر في أرضكم حتى أدركتني خيبة الأمل، و حتى جعلت نفسي تحدثني بأن الأحبار و الرهبان ربما كانوا أدنى مني إلى الحق، و أقرب مني إلى الصواب، فقد رأيت تماثيل آلهتكم، و رأيت سيرتهم فيكم و سيرتكم فيهم، فلم أعرف من هذا كله شيء، و لم تعطف نفسي على صنم من هذه الأصنام القائمة، و لم يمل قلبي إلى وثن من هذه الأوثان المنصوبة، و لم يرتب ضميري في أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد اليونان لا ليستقروا في بلاد العرب، و لكنهم مضوا إلى وجه من الأرض أو من السماء لا نعرفه و لا نهتدي إليه.

هنالكم أخفيت أمري في مكة كما كنت أخفيه في طرسوس، و أظهرت لكم نصرانيتي هذه الرقيقة كما كنت أظهرها في أرض قيصر،

و فرغت للتجارة و تثير المال، فجعلت أسقيكم الخمر، و أسمعكم الغناء، و أفيد منكم مالا كثيرا. و لكنكم أخذتم منذ حين في هدم بيتكم هذا و تجديد بنائه، فكان ذلكم مصدر ما أنا فيه من الاضطراب."

قال صفوان "و ما ذاك؟"

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦١

قال الرومي "ألم تفكروا في أصنامكم هذه القائمة حول هذا البيت و المسندة إليه ما عسى أن تصنعوا بها أثناء الهدم و البناء؟"

هنالك نظر بعض القوم إلى بعض نظرة لا تخلو من معنى. و قال صفوان:

"و ماذا كنت تريد أن نضع بها غير ما صنعنا؟!"

قال الرومي "لم أكن أريد شيئا و إنما كنت أنتظر."

قال صفوان "كنت تنتظر كما كنا ننتظر أن تتحول الآلهة عن أماكنها، و أن تبهرنا بانتقالها إلى حيث تأمن معاول الهادمين. و لكن الآلهة لم تتحول فحولناها، و لم تنتقل فنقلناها. و إذا تم البناء فسند ما نقلناها منها إلى أماكنها الأولى فماذا تنكر من ذلك؟ إنا لم نكر منه شيئا."

قال الرومي "فقد كنتم تنتظرون من الآلهة مثل ما كنت أنتظر."

قال صفوان ضاحكا "و لكن الآلهة لم تحقق آمالنا، و لم تفعل ما كنا ننتظر منها. أفنكره الآلهة على ما لا تريد! يا غلام! قد جفت حلوقنا فاملاً الأقداح."

ثم التفت إلى الرومي و هو يقول "إنك لتعني نفسك بأيسر الأمر و أهونه. إن أخص ما يميز الآلهة أنهم يفعلون ما يريدون هم لا ما نريد نحن."

قال الرومي "و لكنهم لم يفعلوا شيئا."

قال صفوان "فمن حقهم ألا يفعلوا، كما أن من حقهم أن يفعلوا."

قال الرومي "فإذا أتممت بناء كم و بدا لكم ألا تردوا آلهتكم إلى أماكنها أتراها تترد إليها على رغمتكم؟"

قال صفوان "ما أدري و ما يعينني من ذلك شيء أنتظر حتى يتم البناء، فإن رأيت الآلهة قد ارتدت من تلقاء نفسها إلى أماكنها فقد ظهرت لك جلية الأمر."

و إن رأيتنا نحن نردها إلى أماكنها كما حولناها عنها فاعلم أنها قد أخذتنا بذلك و أردتنا عليه. و إن رأيتها قائمة حيث وضعناها و رأيتنا نتركها حيث هي فاعلم أنها تريد ذلك، و تطمئن إلى أماكنها الجديدة. و أرح نفسك كما نريح أنفسنا من التفكير في الآلهة، و أشغل نفسك كما نشغل أنفسنا عن أمور الآلهة بأمور الناس، و عن حركات الآلهة بحركات هؤلاء الإماء الثلاث اللاتي يوقعن و يغنين فيكلفننا من أمرنا شططا."

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦٢

و تفرق هؤلاء الفتيان من قريش عن صاحبهم الرومي آخر الليل، و إن بعضهم ليقول لبعض: ويلكم! لقد فطن هذا الرومي لما فطنتم له. و لئن جاز لنا نحن أن نشك في آلهتنا أو نسخر منها، فما ينبغي أن يجوز ذلك لرومي يسقينا الخمر و يسمعنا الغناء. ويلكم! ارفعوا ذلك إلى الملاء من قريش! ليدبروا أمرهم و أمر الآلهة، فإنه في حاجة إلى التدبير، و ليحتاطوا أن يشيع هذا الشك في عامة الناس وضعفائهم، و في هؤلاء الأجانب الذين يملئون مكة من الفرس و الحبش و الروم.

و لكنهم راحوا على صاحبهم الرومي من الغد ليستأنفوا عنده لهوهم و لذتهم، فلم يجدوه و لم يجدوا إماء الثلاث، و إنما وجدوا حانوتا خاليا إلا من دنان و زقاق كان فيها فضل من شراب.

و استقر حديث الرومي في نفوس هؤلاء الفتيان، و ما أدري أتحدثوا به إلى الملاء من قريش أم اخفوه عليهم، و لكنهم لم ينسوه على

كل حال، و إنما جعلوا ينتظرون أن يتم بناء البيت، و يتساءلون إذا التقوا- كما يسأل كل واحد منهم منفردا:- ماذا عسى أن يصنع الآلهة ليعودوا إلى أماكنهم؟ أيسعون إلى هذه الأماكن ليستقروا فيها، أم ينقلون إلى هذه الأماكن محمولين على الأيدي و الأعناق كما حولوا عنها محمولين على الأيدي و الأعناق حين أخذت قريش في هدم البيت؟.

و ليس من شك في أن الملاء من قريش قد فكروا في هذا الأمر كما فكر فيه الشباب، و انتظروا من الآلهة مثل ما انتظر الشباب. و لكن شيوخ قريش كان أمكر و أمهر من أن يظهروا من تفكيرهم شيئا. و كانوا أضبط لأموهم و أملاك لعواطفهم من أن يظهروا الشباب و ضعاف الناس على ما خالط قلوبهم من ريب، و شاع في نفوسهم من شك، حين رأوا آلهتهم ينقلون كما ينقل المتاع، و يرصون في أماكنهم الجديدة كما يرص الأثاث. و مهما يكن من شيء فقد أتمت قريش بناء البيت، و انتظرت بالآلهة يوما و يوما، فلما لم تجد منها إرادة و لا حركة و لا تحولا إلى أماكنها ردتها إلى تلك الأماكن ردا، و حملتها إليها حملا. و استقر في نفوس الشيوخ و الشباب شك عظيم. و ربما ظهر الأمر ببعض أولئك الشيوخ و الشباب إلى ما هو أبعد من الشك و الريب، و أدنى إلى الجحود و الإنكار. و لكن محنة قريش في آلهتها لم تقف عند هذا الحد الذي قد يفظن له أذكيا القلوب، و أصحاب العقول النافذة و الأحلام الراجحة، و لكنه يخفى عادة على

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦٣

الدهماء و يجلب عن أن تعرفه عامة الناس، و إنما جاوزته إلى شيء خطير رأت فيه قريش خطبا عظيما و افتضاحا منكرا لما لم يكن ينبغي أن يفتضح من أمر الآلهة.

فقد أسندت قريش من آلهتها إلى البيت ما أسندت، و أقامت قريش من آلهتها حول البيت ما أقامت، و خيل إليها أن قد فرغت من هذا الجهد الشاق، و خلصت من هذا العناء الثقيل. ثم اجتهد الأشراف و السادة في أن شغلوا عامة الناس و دهماءهم عن التفكير في جمود الآلهة و قصورهم، فأقاموا الأعياد، و أكثروا من التقريب للآلهة، و أسرفوا في أموالهم ليطعموا الفقراء و البائسين، و ألحوا في ذلك و أقاموا عليه حتى تجاوز كرمهم أهل مكة إلى من كان يضرب حولها من الأعراب الذين جعلوا يقدمون على مكة، يلتمسون فيها حظوظهم من هذه الإبل و الشاء التي كانت تقرب إلى الآلهة في غير انقطاع. و لكن قريشا تصبح ذات يوم فتغدو على البيت فترى، و يا هول ما ترى! ترى آلهتها مجدلين قد صرعوا حول البيت تصريعا، منهم المستلقى على ظهره، و منهم المنكب على وجهه، و منهم المضطجع على أحد جنبه. و ما أصف لك شيئا مما ملأ قلوب قريش من الروع و الهلع، فأنت قادر على تصور ذلك إذا قدرت إعظام العامة لآلهتها، و حرص الخاصة على ما ينبغي لهؤلاء الآلهة من جلال و وقار.

و تقبل قريش على آلهتها فتردهم إلى أماكنهم، و تقرهم في مواضعهم، ثم تستشير و تستخير و تدير بينها ألوان الرأي، ثم يستقر الأمر بينها على أن الآلهة لم يرضوا بعد عما نحر لهم من ضحايا و ما سفك حولهم من دماء. فتستأنف قريش ما كانت قد أخذت تعرض عنه من التضحية و التقريب. و هذه الإبل تنحر، و هذه الشاء تذبح، و هؤلاء الفقراء ينعمون بعيش رغد و سعة متصلة. و لكن قريشا تصبح من الغد فإذا آلهتها مجدلون حول البيت، قد فعلت بهم الأفاعيل!.

و يعظم لذلك هم قريش، و تمتلئ لذلك قلوب قريش حزنا و أسى، منهم الصادق المخلص، و منهم المشفق الماكر، و لكنهم على كل حال يقيمون الأصنام، و يجددون التضحية، و يستشيرون الكهان و يجدون في البحث و الاستقصاء، لعل في مكة قوما يمكرون بالآلهة، و يدبرون للحرم و أهله كيدا. و قد أقاموا الحراس حول البيت أثناء النهار، فلم ير الحراس شيئا ينكرونه. و أقاموا الحراس حول البيت آناء الليل، فقاموا حذرين أيقاظا ينتظرون، و لكن انتظارهم لم يطل و إنما هو انتصاف الليل و تقدمه بعد ذلك شيئا، و إذا بضجيج يسمع، و أصوات تفرع الأذان. و ينظر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦٤

الحراس- و يا هول ما يرون!- الآلهة و قد صرعوا حول البيت تصريعا، فيفرون و قد ملكهم الخوف و استأثر بهم الفزع.

وقد أشار الكهان على قريش بأمر عظيم وقفت له القلوب فما تخفق، وجمدت له الدماء فما تجرى، ووجمت له النفوس فما تستطيع رؤية ولا تفكيراً، وهلعت له النساء في البيوت، وأشفق منه سكان مكة جميعاً إشفاقاً عظيماً، فقد زعم الكهان لقريش أن لحوم الإبل والشاة ودماء الإبل والشاة ما كانت لترضى الآلهة بعد أن حولت عن أماكنها، وبعد أن هدم بيئتها وأعيد بناؤه. ولا بد من أن يقرب إلى الآلهة لون آخر من القربان يقنعهم بأن عبادهم من قريش لا وجودون عليهم بالأموال وحدها، وإنما يتقربون إليهم بالأنفس أيضاً. وقال الكاهن لقريش: يجب أن تقربوا لآلهتكم من أجيالكم الثلاثة رجلاً وامرأة قد تقدمت بهما السن حتى أشرفا على الموت، وفتى وفتاة في نضرة الشباب، وصبيا وصبية من الإحداث. فإن لم تفعلوا فما ندرى ماذا يصنع الآلهة، فإنهم لم يفعلوا إلى الآن أكثر من أن قدموا إليكم النذر، فأسرعوا إلى إرضائهم، فإننا نخشى أن تسؤ العاقبة، وأن تصبحوا فلا تروا آلهتكم بينكم، وألا تمضى بعد خروجهم عنكم أيام حتى يسלט عليكم شر عظيم. ولو استمع الملاء من قريش لما كانت تضطرب به نفوس الدهماء و عامة الناس لأطاعوا أمر الكهان، ولتقربوا إلى آلهتهم بهذا الإثم المنكر. ولكن الملاء من قريش كانوا أمكر من ذلك وأمهر، وكانوا أحزم من ذلك وأعزم، فقد خلصوا نجيا ذات ليلة في دار ندوتهم، وجعلوا يتشاورون ويديرون أمرهم بينهم، وليس من شك في أنهم قد تلاوموا وتلاحوا، وألقى بعضهم على بعض تبعه ما كان من هدم البيت وتجديد البناء. ولكنهم كانوا مجمعين أمرهم على ألا يذعنوا لما يأخذهم به الكهان، ولا يقدموا إلى آلهتهم أبناءهم وبناتهم، وأن أمر الآلهة في نفوس هؤلاء الشيوخ الذين عركتهم التجارب لأهون من ذلك وأيسر.

ولكن الملاء من قريش ينظرون فإذا بينهم رجل غريب ينكرونه، ثم لا يلبثون أن يعرفوه، شيخ قد تقدمت به السن، واتخذ زى النجديين، لم يكن بينهم حين اجتمعوا ولكنه ظهر فيهم فجأة، لا يدرون من أين أقبل وهم قد أقاموا على الباب حراساً يمنعون أن يقتحمه أحد أو يدنو منه أحد. ولكنهم يذكرون أنهم قد رأوا هذا الشيخ النجدى ذات يوم حين أمضى الأمين حكمه فيهم، وحين وضع الأمين الركن الأسود في موضعه من البيت. رأوه يريد أن يشارك في البناء فيرد عن ذلك رداً عنيفاً، فيظهر السخط ويعلن النذير، ثم يستخفى فلا يظهر له على أثر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦٥

فلما رأوه من تلك الليلة أقبلوا عليه يسألونه من أين جاء، ومن عسى أن يكون؟

فلا يرد على سؤالهم هذا جواباً، وإنما يقول لهم في صوت نحيف بعيد: "لقد أخذت النذر تتحقق يا معشر قريش. ألم أنهكم عن أن تحكموا بينكم رجلاً كان أصغركم سناً، وأقلكم مالا، وأشدكم إعراضاً عن آلهتكم، وأبعدكم من الاحتفاء بهم والإكرام لهم، فقد أبيت إلا أن تفعلوا، وغضبت الآلهة مما فعلتم وما أرى أن أموركم تستقيم إلا إذا نقضتم بناءكم شيئاً، فأخرجتم الركن من موضعه، ثم رددتموه إليه بعد أن تضحوا لآلهتكم بمن أمركم الكهان أن تضحوا بهم. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الآلهة، لا قبل لكم بها ولا قدرة لكم عليها. والخير يا معشر قريش أن تريحوا أنفسكم من هذا الأمين، فإنكم إن أبقيتم عليه لم يبق عليكم، وإن مددتم حياته لم يلبث أن يجذم حياتكم جذماً."

و يسمع الملاء من قريش حديث هذا الشيخ مرتاعين له، حتى إذا انقطع الصوت وهموا أن يحاوروا صاحبه نظروا فلم يجدوه بينهم، وكأنه لم يدخل عليهم ولم يتحدث إليهم.

هنالك تمتلئ قلوب القوم حيرة، ويكادون يصرفون عما كانوا فيه إلى السؤال عن هذا الشيخ: من أين جاء؟ ومن عسى أن يكون؟ ولكن الوليد بن المغيرة يقول في صوت هادئ مطمئن: "ويحكم يا معشر قريش، ما أرى إلا- أن الشيطان يريد أن يعث بكم، ويصرفكم عما ألفتكم و عما ألف الناس فيكم من الحزم والعزم، ومن الأناة والوقار. إنه الشيطان يا معشر قريش، ما أشك في ذلك، إنه قد ظهر بينكم ثم استخفى عليكم. وإنه قد أنذركم بالشر، ودعاكم إلى أمر فظيع. أرايتكم يا معشر قريش إن أخرجتم الركن عن موضعه، تستطيعون أن تردوه دون أن يشجر بينكم الخلاف، وتستيقظ فيكم الفتنة، وينصب بعضكم لبعض الحرب، ويدعو بعضكم

بعضا إلى القول؟ هل أنتم يا معشر قريش إن استمتعتم لهذا المشير الخائن، و النصيح الغاش، فبطشتم بالأمين أو حاولتم البطش به، إلا مضيعون للحق، مهترون للرحمة قاطعون للرحم، تجزون الخير بالشر، والمعروف بالمنكر! فقد حقن الأمين دماءكم، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تهدروا دمه. وقد أقر الأمين فيكم السلم، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تثيروا بينكم وبين قومكم الحرب. لا والله ما دلكم هذا الشيطان إلا على الغي، ولا دعاكم إلا إلى الإثم. ردوا عليكم فضل أحلامكم، ولا تكبروا من أمر هذه التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦٦

الأحجار غير كبير. إني والله ما أراها كلها تعدل قطرة من هذه الدماء التي ترادون على أن تسفكوها. أي أسرة قريش تريدون أن تفجعوها في كبيرها أو صغيرها؟ أيكم تطيق نفسه يا معشر قريش عن هذه التضحية بابنه أو بنته، وبأبيه أو أمه؟ إنكم لم تنسوا بعد قصة عبد المطلب وابنه عبد الله، لقد كدتم تبطشون به، لأنه كان يأبى أن يضحى بابنه للآلهة. فإنكم لا ترادون الآن على أن تضحوا بواحد من قريش، وإنما ترادون على أن تضحوا بستة من خيركم، لا تسمعوا لهذا اللغو! وأمر هذه الأحجار أيسر عليكم وأهون في نفوسكم مما تظنون، ومما يخيل إليكم الشيطان. "قال أمية بن خلف: "مهلا يا وليد! إنك لتقول الحق وتدعو إلى الرشيد. ولكن خفض من صوتك، ولتكتم على الناس هذا الحديث، فإنه إذا ذاع لم ينتج إلا شرا، والأمر بعد ذلك في حاجة إلى التدبير. فما ينبغي أن يروح الناس عن آلهتهم وهم قائمون، ثم يغدو عليهم وهم مجلدون." قال الوليد: "ما أرى إلا أن هذا الشيطان يعث بنا وبهذه الأحجار، يتخذها أسبابا ووسائل لكي يدبره، وشر يقدره. يقيمها أثناء النهار، وينمها إذا جن الليل." قال أمية: "فاقترح علينا وسيلة نخلص بها من كيد الشيطان، ونكره بها الآلهة على أن يظلوا بيوتنا كما عرفهم الناس قائمين، غير نائمين ولا مجلدين."

قال الوليد: "كلوا إلى أمر هؤلاء الآلهة، فعلى أن أجد لكم منه مخرجا." و تفرق الملاء من قريش وهم لا يدرون ماذا يريد الوليد أن يصنع. ولكن الوليد غدا على ذلك البناء القبطي الذي أقام لهم البيت، فاستشاره في ذلك، وأفضى إليه برأيه جليا صريحا في هذه الأحجار. فلما سمع منه "باخوم" أطرق شيئا، ثم قال مبتسما: "هلا صنعتم بآلهتكم ما نصنع نحن بما نريد تشييته من البناء!" قال الوليد: "و ما ذاك؟" قال باخوم وهو لا يملك نفسه من الضحك: "شددوا آلهتكم بأسباب من الرصاص." قال الوليد: "هو ذاك!"

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦٧

والغريب أن أصنام قريش ثبتت في أماكنها واستقرت في مواضعها بعد هذه الحيلة، وعجزت عن أن تخلص من قيودها الرصاصية تلك فلم تراها قريش بعد ذلك إلا قائمة مكانها، حتى كان يوم من الأيام رأتها فيه وقد تحطمت تحطيمًا.

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل الرواية في إسناد له عن ابن شهاب الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على راحلته، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول: "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا." فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع إلى قفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع. فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك: وفي الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقاب انتهى من هامش السيرة.

و لقد ذكر العلامة المسعودى فى تاريخه المسمى "بمروج الذهب و معادن الجواهر" تفصيلات وافية عن البيوت المعظمة و الهياكل و بيوت النيران و الأصنام، التى كانت عند بعض الأمم كاليونانيين و الروم و الصقالبة و الصائبية و الفرس. نذكر منها ما يناسب مبحثنا هذا فقط، فلو نقلنا عنه جميع ما ذكره لطال بنا الكلام. و إليك ما جاء فيه:

كان كثير من أهل الهند و الصين و غيرهم من الطوائف، يعتقدون أن الله عز و جل جسم و أن الملائكة أجسام لها أقدار، و أن الله تعالى و ملائكته احتجوا بالسماء، فدعاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل و أصناما على صورة البارى عز و جل، و بعضها على صورة الملائكة مختلفة القدود و الأشكال، و منها على صورة الإنسان، و على خلافها من الصور، يعبدونها و قربوا لها القرابين و نذروا لها النذور، لشبهها عندهم بالبارى تعالى و قربها منه، فأقاموا على ذلك برهة من الزمان و جملة من الأعصار، حتى نبههم بعض حكمائهم على أن الأفلاك و الكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى و أنها حية ناطقة، و أن الملائكة تختلف فيما بينها و بين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦٨

الله، و أن كل ما يحدث فى هذا العالم فإنما هو على قدر ما تجرى به الكواكب على أمر الله، فعظموها و قربوا لها القرابين لتتفهمهم. فمكتوا على ذلك دهرا، فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار و فى بعض أوقات الليل لما يعرض فى الجو من السواتر، أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناما و تماثيل على صورها و أشكالها، فجعلوا لها أصناما و تماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة، و كل صنف منهم يعظم كوكبا منها و يقرب لها نوعا من القران، خلاف ما للآخر، على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون، و بنوا لكل صنم بيتا و هيكل مفردا و سموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب.

و قد ذهب قوم إلى أن البيت الحرام على مرور الدهور معظم فى سائر الأعصار لأنه بيت زحل، و أن زحل تولاه، و لأن زحل من شأنه البقاء و الثبوت، فما كان له فغير زائل و لا دائر و عن التعظيم غير خامل، و ذكروا أمورا أعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها، و لما طال عليهم العهد عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله، و أغوا عبادة الكواكب.

فلم يزلوا على ذلك حتى ظهر يوداسف بأرض الهند، و كان هنديا خرج من أرض الهند إلى السند، ثم سار إلى بلاد ساجستان و بلاد زابلستان، و هى بلاد فيروز بن كبك، ثم دخل السند إلى كرمان فتنبأ و زعم أنه رسول الله و أنه واسطة بين الله و بين خلقه، و أتى أرض فارس و ذلك فى أوائل ملك طهمورث ملك فارس، و قيل ذلك فى جم شيد، و هو أول من أظهر مذاهب الصائبية على حسب ما قدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب.

و قد كان يوداسف أمر الناس بالزهد فى هذا العالم، و الاشتغال بما علا من العوالم، إذ كان من هنالك بدو النفوس و إليها يقع الصدر من هذا العالم، (و جدد يوداسف) عند الناس عبادة الأصنام و السجود لها، لشبه ذكرها، و قرب إلى عقولهم عبادتها بضروب من الحيل و الخدع.

و ذكر ذوو الخبرة بشأن هذا العالم و أخبار ملوكهم، أنه أول من عظم النار و دعا الناس إلى تعظيمها، و قال أنها تشبه ضوء الشمس و الكواكب، لأن النور عنده أفضل من الظلمة و جعل للنور مراتب.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٦٩

(ثم تنازع هؤلاء) بعده فعظم كل فريق منهم ما يرون تعظيمه من الأسماء تقربا إلى الله بذلك، ثم تنازعوا برهة من الزمان (و نشأ عمرو بن لحي) فساد قومه بمكة، و استولى على أمر البيت، ثم سار إلى مدينة البلقاء من عمل دمشق من أرض الشام، فرأى قوما يعبدون الأصنام، فسألهم عنها فقالوا: هذه أرباب نتخذها، نستنصر بها فننصر، و نستسقى بها فنسقى، و كل من سألها يعطى، فطلب منهم صنما يدعون "هبل" فسار به إلى مكة و نصبه على الكعبة، و معه "إساف و نائلة"، و دعا الناس إلى تعظيمها و عبادتها، ففعلوا ذلك، إلى

أن أظهر الله الإسلام، وبعث محمدا عليه السلام فظهر البلاد و أنقذ العباد.

(وقد قال هؤلاء) إن البيت الحرام من البيوت السبعة المعظمة المتخذة على أسماء الكواكب من النيرين والخمسة.

(و بيت ثان) معظم على رأس جبل بأصبهان يقال له "مارس" و كانت فيه أصنام، إلى أن أخرجها منه بستاسف الملك لما تمجس، و جعله بيت ناره و ذلك على ثلاثة فراسخ من أصبهان، و هذا البيت معظم عند المجوس إلى هذه الغاية.

(و البيت الثالث) يدعى "سندوساب" ببلاد الهند، و له قرابين تقرب، و فيه أحجار المغناطيس الجاذبة و الرافعة و المنفردة من أوصاف لا يسعنا الإخبار عنها، فمن أراد أن يبحث عن ذكرها فليبحث فإنه بيت مشهور ببلاد الهند.

(و البيت الرابع) هو "النوبهار" الذي بناه منوشهر بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر، و كان من يلي سداتنه تعظمه الملوك في ذلك الصقع، و تنقاد إلى أمره و ترجع إلى حكمه و تحمل إليه الأموال، و كانت عليه وقوف، و كان الموكل بسداتنه يدعى "البرمك" و هو سمة عامة لكل سدنته، و من أجل ذلك سميت البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت، و كان بنيان هذا البيت من أعلى البنيان تشييدا، و كان تنصب على أعلاه الرماح عليها شقاق الحرير الأخضر، طول الشقة مائة ذراع فما دونها، قد نصب لذلك رماح و خشب تدفع قوة الريح بما عليها من الحرير.

يقال و الله أعلم: أن الريح خطفت يوما من بعض تلك الشقاق و رمت به، فأصيب على مسافة خمسين فرسخا، و قيل: أكثر من تلك المسافة، و هذا يدل على زيادته في الجو و تشييد بنيانه، و كانت مسافة البحر المحيط بهذا البنيان أميالا لم نذكرها إذ كان أمر ذلك مشهورا من وصف علو السور و عرضه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-1، ص: 570

(قال المسعودي): و قد ذكر بعض أهل الرواية و التنقيح أنه قرأ على النوبهار ببلخ كتابا بالفارسية ترجمته، قال يوداسف: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال: عقل، و صبر، و مال، و إذا تحته بالعربية: كذب يوداسف الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من هذه الخصال أن لا يلزم باب السلطان.

(و البيت الخامس) بيت "غمدان" الذي بمدينة صنعاء من بلاد اليمن، و كان الضحاك بناه على اسم الزهرة، و خربه عثمان بن عفان رضى الله عنه، فهو في وقتنا هذا خراب قد هدم فصار تلا عظيما، و قد كان الوزير على بن موسى الجراح حين نفى إلى اليمن و صار إلى صنعاء بنى فيه سقاية و حفر فيه بئرا.

(و رأيت غمدان) ردما و تلا عظيما قد انهدم بنيانه و صار جبل تراب كأنه لم يكن، و قد كان "أسعد بن جعفر" صاحب قلعة كحلان المنازل بها و صاحب مخاليف اليمن في هذا الوقت و هو المعظم في اليمن، أراد أن يبني غمدان، فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسنى أن لا يتعرض لشيء من ذلك، إذ كان بناؤه على يدى غلام يخرج من أرض سبأ و أرض مأرب يؤثر في صقع هذا العالم تأثيرا عظيما، و قد ذكر هذا البيت جد أمية بن أبي الصلت أخو أمية و اسمه ربيعة في مدحه لسيف بن ذى يزن، و قيل بل الممدوح بهذا الشعر معد يكرب بن سيف حيث يقول:

اشرب هنيا عليك التاج مرتفاع برأس غمدان دارا منك محلالا

و كان أبو أمية جاهليا و هو القائل في أصحاب الفيل:

إن آيات ربنا بينات ما يمارى بهن إلا كفور

غلب الفيل بالمغمس حتى ظل يجفو كأنه مسحور

حواله من شباب كندة فتيان ملاويت في الحروب صقور

واضعا خلفه الجرار كما قطر صخر من جنب محرور

و قيل: إن ملوك اليمن كانوا إذا قعدوا في البنيان بالليل و اشتعلت الشموع رأى الناس ذلك من مسيرة ثلاثة أيام كثيرة.

(و البيت السادس "كاوسان" بناه كاوس الملك بناء عجيبا على الاسم المدبر الأعظم من الأجسام السماوية، و هو الشمس، بمدينة فرغانة من مدائن خراسان،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٧١

و خربه المعتصم بالله، و لهدمه هذا البيت خبر ظريف قد أتينا على ذكره في كتاب أخبار الزمان.

(و البيت السابع) بأعلى بلاد الصين بناه "ولد عامور بن بعويل بن يافث بن نوح" و أفرد له للعلّة الأولى، إذ كان منشأ هذا الملك و مده و باعث الأمور إليه، و قيل: إنما بناه بعض ملوك الترك من قديم الزمان و جعله سبعة أبيات في كل بيت منها سبع كوى، يقابل كل كوة صورة منصوبة على صورة من الخمسة و النيرين، من أنواع الجواهر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب من ياقوت أو زمرد على اختلاف ألوان الجواهر، و لهم في هذا الهيكل سر يسرونه في بلاد الصين، بما قد زخرف لهم فيه القول و زينه لهم الشيطان، و لهم في هذا الهيكل علوم في اتصال الأجسام السماوية و أفعالها بعالم الكون الذي تحدثه، و ما يحدث فيه من الحركات و الأفعال عند تحرك الأجسام السماوية، و قد قرب ذلك إلى عقولهم بأن جعل لهم مثلا من الشاهد يدل على ما غاب عنهم من فعل الأجسام السماوية في هذا العالم، و هو على خشب الديباج الذي ينسج فيه، فبضرب من حركات الصانع بتلك الخشب و الخيوط الإبريسم تحدث ضروب من الحركات، فإذا اتصلت أفعاله و تواترت حركاته من النسج للشوب الديباج تمت الصورة فيه، فبضرب من الحركات يظهر جناح طائر، و بآخر رأسه، و بآخر رجلاه، فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد الصانع، فجعلوا هذا المثال و اتصال الإبريسم بآلة النسج و ما يحدثه الصانع في ذلك من الأفعال، مثلا لما ذكرنا من الكواكب العلوية و هي الأجسام السماوية، فبضرب من الحركات ظهر في العالم الطائر و بضرب آخر فرخ و كذلك سائر و كذلك سائر ما يحدث في العالم و يسكن و يتحرك، و يوجد و يعدم و يتصل و ينفصل، و يجتمع و يفترق و يزيد و ينقص من جماد و نبات أو حيوان ناطق أو غير ناطق، فإنما يحدث عن حركات الكواكب على حسب ما وصفنا من نسج الديباج و غيره من الصانع، و أهل صناعة النجوم لا يتناكرون أن يقولوا أعطته الزهرة كذا أو أعطاه المريخ كذا، كالشقرة و سهوبة الشعر، و أعطاه عطارد دقة الصنعة، و أعطاه المشتري الحياء و العلم و الدين، و أعطته الشمس كذا، و أعطاه القمر كذا، و هذا باب يكثر القول فيه و يتسع وصف مذاهب الناس فيه و ما قالوه في بابه. انتهى من تاريخ المسعودي.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٧٣

انتهى بعون الله تعالى الجزء الأول و يتلوه الجزء الثاني، و أوله:

مكة في عهد إبراهيم عليه الصلاة و السلام

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٧٥

المحتويات

الموضوع رقم الصفحة مقدمة الطبعة الثانية ٣

التعريف بالمؤلف ٥

تقديم الكتاب ٤١

خطبة الكتاب ٤٢

بعض أسماء الكتب التي ألفت في تاريخ مكة ٥٠

تراجم مؤرخي مكة المشرفة في عصرنا الحاضر ٥٤

ترجمة الإمام الأزرقى المكي ٥٤

- ترجمة حسين بن عبد الله باسلامة المكي الحضرمي ٥٧
- ترجمة الشيخ عبد الله الغازي المكي ٥٧
- ترجمة الأستاذ أحمد السباعي المكي ٥٩
- ترجمة محمد طاهر الكردي المكي الخطاط ٦٢
- ذكر أسماء مكة المكرمة ٦٣
- جدول بيان قياسات بعض جبال مكة و بعض أماكنها ٦٤
- قياسات بعض الأماكن بمكة ٦٤
- المسافات بين بعض المساجد ٦٤
- مقدمة الكتاب ٦٦
- بلاد الحجاز ٦٦
- طبيعة الحجاز ٦٦
- جو الحجاز ٦٧
- أهم مدن الحجاز ٦٨
- فضل الحجاز ٧٣
- جغرافية بلاد العرب ٧٥
- منظومة فريدة في علم الجغرافيا ٧٦
- تاريخ الاكتشاف الجغرافي لبلاد العرب ٧٩
- العصر القديم ٨٠
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٧٦
- العصر الإسلامي ٨٠
- العصر الأوروبي ٨١
- تقسيم بلاد العرب من حيث الأخلاق و العادات ٨٢
- تاريخ العرب قبل الإسلام ٨٤
- تقسيم العرب إلى عاربة و مستعربة ٨٥
- العرب العاربة ٨٥
- العرب المستعربة ٨٦
- أول تسمية للبلاد العربية السعودية ٨٧
- فضل العرب على سائر الأجناس ٨٨
- مكانة العرب بين الأمم الإسلامية ٨٩
- مناظرة بين النعمان بن المنذر و كسرى أنوشروان في شأن العرب ٩٣
- نبذة من سيرة النبي صلى الله عليه و سلم ٩٩
- نسب رسول الله صلى الله عليه و سلم ١٠١
- [توحيد آبائه صلى الله عليه و سلم] ١٠٥

- ترجمة عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه و سلم ١٠٨
 نبذة يسيرة عن أحوال رسول الله صلى الله عليه و سلم ١١١
 وفاة والده صلى الله عليه و سلم ١١١
 تاريخ ولادته صلى الله عليه و سلم ١١١
 نجاه عبد الله أب النبي صلى الله عليه و سلم من الذبح ١١٢
 تزوج عبد الله بن عبد المطلب ١١٤
 موت عبد الله بن عبد المطلب أب النبي صلى الله عليه و سلم ١١٦
 ولادة النبي صلى الله عليه و سلم ١١٧
 محل ولادته صلى الله عليه و سلم و تسميته يوم السابع ١١٩
 رضاعته صلى الله عليه و سلم و مرضعته ١٢١
 قصة رضاعة حلیمة السعدية له صلى الله عليه و سلم ١٢٢
 قصة شق صدره صلى الله عليه و سلم ١٢٤
 موت أمه صلى الله عليه و سلم بالأبواء ١٢٦
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٧٧
 محل مدفن أم النبي صلى الله عليه و سلم ١٣٠
 نجاه أبوي النبي صلى الله عليه و سلم ١٣١
 الاستدلال على نجاتهما ١٣٣
 الحديث الصحيح الوارد في زيارته صلى الله عليه و سلم لأمه ١٣٦
 الكلام على قرية الأبواء و قرية مستورة ١٣٩
 كفالة عمه له صلى الله عليه و سلم ١٤٨
 رحلته مع عمه صلى الله عليه و سلم إلى الشام للمرة الأولى ١٤٨
 سفره صلى الله عليه و سلم إلى الشام للمرة الثانية ١٤٩
 تزوجه صلى الله عليه و سلم بخديجة ١٤٩
 محبة خديجة لرسول الله صلى الله عليه و سلم و محبته لها ١٥١
 عدد أزواجه و سراريه صلى الله عليه و سلم ١٥٢
 عدد أولاده صلى الله عليه و سلم ١٥٣
 كيفية بدء الوحي ١٥٤
 كيفية نزول الوحي و نزول القرآن ١٥٥
 دعوة النبي صلى الله عليه و سلم لعبادة الله تعالى سرا ١٥٩
 الجهر بالدعوة ١٦٠
 حصار النبي صلى الله عليه و سلم بشعب على بسوق الليل بمكة ١٦١
 نقض الصحيفة التي كتبها كفار قريش ١٦٢
 بعض ما لقيه رسول الله صلى الله عليه و سلم من التعب و المشقة في سبيل الدعوة إلى الله تعالى ١٦٤

القصيدة الشعبية ١٦٦

- جدول الحوادث الواقعة في سنوات الهجرة ١٦٩
- ابتداء مرضه صلى الله عليه وسلم ١٧١
- وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٧٣
- سورة النصر ونزولها بمنى في حجة الوداع ١٧٤
- فصل في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٧٦
- ابتداء مرضه صلى الله عليه وسلم الذي قبض فيه ١٧٨
- [حالة الصحابة حينما سمعوا بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم] ١٨٦
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٧٨
- [اشتغال الناس بإقامة خليفته ثم بغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنه] ١٨٨
- حكمة دفنه صلى الله عليه وسلم في اللحد ١٩٣
- [بعض ما قاله الصحابة رضي الله تعالى عنهم في رثائه صلى الله عليه وسلم] ١٩٦
- رثاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ١٩٨
- حزن الصحابة رضي الله تعالى عنهم ١٩٩
- ما يؤخذ من مرضه ووفاته صلى الله عليه وسلم من الأمور ٢٠٦
- حكمة تأخير دفنه صلى الله عليه وسلم ٢٠٩
- نبذة عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم العظيمة وسيرته العطرة ٢١٠
- ما يمتاز به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن باقي الأنبياء ٢١٣
- معجزاته صلى الله عليه وسلم ٢١٨
- نبذة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم ٢١٩
- ذكر شيء مما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٢٢
- نبذة من صفاته وشمائله صلى الله عليه وسلم ٢٢٦
- ما قاله الأستاذ الرافعي في صفته صلى الله عليه وسلم ٢٢٩
- ما قاله الأستاذ الرافعي في بلاغته صلى الله عليه وسلم ٢٣٠
- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم في مزاحه مع أصحابه ٢٣٢
- حسن معاشرته النبي صلى الله عليه وسلم لأهله ٢٣٨
- مقصورة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ٢٤٣
- الروضه الشريفه ٢٤٧
- صفه بيته صلى الله عليه وسلم ٢٤٧
- إشراق الدنيا بولادته صلى الله عليه وسلم ٢٤٩
- تحقيق ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ٢٥٦
- وصف رضاعته صلى الله عليه وسلم ٢٦٤
- محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في الأنبياء ٢٧٣

- تعبد النبي صلى الله عليه و سلم قبل البعث ٢٨٢
- موضع ولادة النبي صلى الله عليه و سلم ٢٨٥
- ترجمة الشيخ عباس القطان ٢٨٧
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٧٩
- موضع ولادة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة ٢٨٨
- تكية السيدة فاطمة رضى الله عنها ٢٨٩
- موضع ولادة على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ٢٩٠
- انشقاق القمر ٢٩١
- قصة أصحاب الفيل ٢٩٤
- صفه بناء كنيسة القليس ٢٩٦
- خروج أبرهة بالفيل لهدم الكعبة ٢٩٨
- بيت برمك ٣٠٨
- بيت غطفان ٣٠٨
- وصف قصة الفيل ٣٠٨
- نطق فيل أبرهة لعبد المطلب ٣١٣
- مسرحية شعرية فى هلاك أصحاب الفيل ٣١٦
- تراجم بعض من تقدم ذكرهم ٣٢٠
- وفاء عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه و سلم ٣٢٠
- ترجمة أبى طالب و أولاده ٣٢٠
- كفالة أبى طالب لرسول الله صلى الله عليه و سلم ٣٢١
- وفاء أبى طالب ٣٢٣
- ترجمة أم هانئ بنت أبى طالب ٣٢٣
- ترجمة عقيل بن أبى طالب ٣٢٤
- ترجمة العباس بن عبد المطلب ٣٢٤
- ترجمة أبى جهم بن حذيفة القرشى ٣٣٠
- ترجمة حكيم بن حزام ٣٣١
- الإسراء و المعراج ٣٣٣
- قصة الإسراء و المعراج ٣٣٩
- عام الإسراء ٣٤٠
- شهر الإسراء و يومه و ليلته ٣٤٠
- الموضع الذى كان منه الإسراء ٣٤١
- الاختلاف فى الإسراء هل كان بالروح أو بالجسد ٣٤٢
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٨٠

- شق صدر النبي صلى الله عليه و سلم ٣٤٤
- وصف البراق الذي ركبه صلى الله عليه و سلم ليلة الإسراء ٣٤٥
- ركوب النبي صلى الله عليه و سلم البراق و وصوله بيت المقدس ٣٤٦
- عروج النبي صلى الله عليه و سلم إلى السماء ٣٤٨
- وصول النبي صلى الله عليه و سلم إلى البيت المعمور ٣٤٩
- وصول النبي صلى الله عليه و سلم إلى الحجاب ٣٥٠
- [عدد مراكبه صلى الله عليه و سلم ليلة الإسراء] ٣٥١
- مناجاة الله تعالى مع عبده و رسوله ٣٥٢
- رؤية النبي صلى الله عليه و سلم ربه تعالى عز و جل ٣٥٣
- مراجعة موسى لنبينا محمد عليهما الصلاة و السلام بشأن الصلوات التي فرضت ٣٥٤
- مقدار مدة غيابه صلى الله عليه و سلم في الإسراء و المعراج ٣٥٦
- إنكار المشركين للإسراء و المعراج ٣٥٦
- سؤال قريش النبي صلى الله عليه و سلم عما رآه في طريق الإسراء ٣٥٧
- تحقيق موضع دار أم هانئ بمكة ٣٥٩
- فضل سيدنا إبراهيم و سيدنا موسى على الأمة المحمدية ٣٦٣
- ترجمة خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و السلام ٣٦٥
- ترجمة موسى عليه الصلاة و السلام ٣٦٦
- ما بين موسى عليه السلام و فرعون ٣٦٧
- ذكر حج موسى عليه الصلاة و السلام ٣٦٩
- معرفة كيفية الصلوات الخمس ٣٧٠
- الاستنتاج من قصة الإسراء و المعراج ٣٧٢
- الكلام على رؤية النبي صلى الله عليه و سلم ربه عز و جل ٣٨٢
- خلاصة ما ورد في كتاب الشفاء من الأقوال في الرؤية ٣٨٧
- هجرة النبي صلى الله عليه و سلم من مكة إلى المدينة ٣٨٨
- ترجمة أسماء بنت أبي بكر رضی الله عنها ٣٩٣
- ما لقيه رسول الله صلى الله عليه و سلم من التعب في طريقه إلى الغار ٤٠٠
- وقت الخروج من الغار و السفر إلى المدينة ٤٠١
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٨١
- خروج النبي صلى الله عليه و سلم و أبي بكر من الغار ٤٠٣
- [قصتهما مع أم معبد] ٤٠٨
- استقبال أهل المدينة رسول الله صلى الله عليه و سلم ٤١٣
- تاريخ الهجرة ٤١٥
- انتقاله صلى الله عليه و سلم من قباء إلى داخل المدينة ٤١٩

- [نزوله صلى الله عليه و سلم فى دار أبى أيوب الأنصارى] ٤٢٥
- ترجمة أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ٤٢٧
- إتيان رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى مسجد قباء ٤٢٩
- أحكام الهجرة ٤٣٢
- حكم إقامة المهاجر بمكة بعد انقضاء النسك ٤٤٢
- ترجمة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ٤٤٧
- فضل أبى بكر رضى الله عنه ٤٥٠
- فتح مكة المكرمة ٤٥٥
- ترجمة عتاب بن أسيد رضى الله عنه ٤٧٨
- ذكر من أهدر النبى صلى الله عليه و سلم دمهم يوم الفتح ٤٧٩
- منزل النبى صلى الله عليه و سلم بمكة عام الفتح بعد الهجرة ٤٨٦
- موضع نزول النبى صلى الله عليه و سلم بمكة و منى و مزدلفه و عرفات ٤٨٨
- معنى حديث: «و هل ترك لنا عقيل منزلا» ٤٩٤
- ترجمة عقيل بن أبى طالب ٤٩٨
- فضل مكة المشرفة ٤٩٩
- امتياز مكة عن سائر البلدان ٥٠٠
- الآيات و الأخبار الواردة فى فضل مكة ٥٠٢
- أهل مكة أدرى بشعابها ٥٠٨
- أهل مكة أهل الله عز شأنه ٥١٠
- فضل مكة المكرمة على المدينة المنورة ٥١٣
- فضل مكة لمؤلف هذا الكتاب ٥١٥
- مكانة أهل مكة بين جميع الأمم ٥١٧
- مكانة المساجد الثلاثة لدى المسلمين ٥١٩
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-١، ص: ٥٨٢
- بعض ما قيل فى المساجد الثلاثة ٥٢٠
- أول من لقب بخادم الحرمين ٥٢٠
- عادة العرب فى إصلاح ذات البين فى الحجاز ٥٢١
- أول من عمل مواسير المياه من العرب بمكة المكرمة ٥٢٢
- معنى مكة و معنى بكة ٥٢٣
- المراد بوادى إبراهيم ٥٢٤
- بيان فضل أهل مكة من الآية الآتية ٥٣٠
- حكمة جعل مكة كثيرة الألبان و اللحوم ٥٣١
- دعاء إبراهيم عليه الصلاة و السلام لأهل مكة بالرزق ٥٣٤

مكة و ما فيها من الخيرات ٥٣٩
 ما يزرع في الحجاز ٥٤١
 لماذا لم تكن مكة من أجمل البلدان و أغناها ٥٤٣
 نشأة عبادة الأصنام بمكة ٥٤٤
 مسخ إساف و نائلة في الكعبة و عبادتهما ٥٥٠
 أول من نصب الأصنام في الكعبة ٥٥٣
 الكلام على أصنام قريش التي كانت حول الكعبة ٥٥٤
 عبادة الأصنام و بيوتها لدى بعض الأمم ٥٦٧
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣

[الجزء الثاني]

إشارة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم تأليف محمد طاهر الكردي المكي الجزء الثاني طبع على نفقة معالي الدكتور/ عبد الملك بن وهيش

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥

مكة في عهد إبراهيم عليه الصلاة و السلام

إذا نظرنا إلى الورا إلى أربعة آلاف سنة بل أكثر من ذلك، وجدنا أن مكة، شرفها الله تعالى و أدام خيرها و رخاءها، كانت في عهد خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة و التسليم بل و قبل عهده في شكل غير هذا الشكل اليوم، و في صورة غير هذه الصورة التي نراها في عهدنا، بل كانت غيرها أيضا في صدر الإسلام في عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

إذا سبحنا في عالم الأفكار، و تخيلنا الدهور الماضية، و تأملنا في غابر الأزمان السحيقة، وجدنا أن مكة المكرمة كانت مليئة بأشجار الشوك و السلم، ليس فيها خضرة و لا ماء، و لا حيوان و لا نبات، و لا إنس و لا جن، و أنها كانت الجبال فيها عالية شامخة، فلقد كانت الجبال في ذلك العهد السحيق عالية مرتفعة ضعف ما عليها اليوم، فلقد ارتفعت الأرض بجميع جهات مكة عما كانت عليه في ذلك العهد البعيد، و ذلك بسبب طمر الأرض و سفوح الجبال بما تأتي به السيول من الأحجار و التراب و ما تنزلها الأمطار من الأحجار و الصخور و الأتربة من فوق الجبال فتندرج كلها على وجه الأرض و سفوح الجبال، و بما يردمه الناس من الحفر و الدمار و الحجارات فيضعون كل ذلك على الأرض و سفوح الجبال، و من هنا ظهرت جبال مكة قصيرة عما كانت عليه في زمن الخليل إبراهيم عليه الصلاة و التسليم، و لقد وقفنا في عصرنا الحاضر على هدميات المسجد الحرام من جهة جبل قيعقان أي من جهة الشامية فوجدنا أن الأرض في هذه الجهة قد ارتفعت عن أرض المسجد الحرام بأكثر من عشرين مترا- هذا و أن طرقات مكة في ذلك العهد البعيد كانت مليئة بالصخور و الأحجار و الرمال و الحصى تتخللها أشجار الشوك و العضاء، أرض قفرة فقرة، نظيفة طاهرة، ليس فيها شيء من القاذورات و النجاسات أبدا، لأنها لم تكن مسكونة بالإنسان و الحيوان- و لم تكن أرض مكة سهلة مستوية بل كانت

منخفضة مندرجة لو مشى إنسان عليها لتعب من كثرة المرتفعات و المنخفضات و ما يعترضه من الصخور و الأحجار. فأول بدء الإصلاح فيها كان فى عهد خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و السلام، منذ أن أسكن بمكة ابنه إسماعيل و أمه هاجر عليهم الصلاة و السلام، و منذ أن قدم عليهما نفر من قبيلة جرهم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦

ثم زاد الإصلاح فيها نوعا ما منذ أن بنى خليل الله إبراهيم و ابنه إسماعيل عليهما الصلاة و السلام بيت الله الحرام، فلقد استوطن مكة قبيلة جرهم، و انتشر الإسلام و تناسلوا فتكاثروا، و عرف الناس طريق مكة من الشام و اليمن، و صار سكانها أكثر من قبل، و كلما كثر السكان و المقيمون بها كثرت بيوتهم و منازلهم، و صاروا يمهدون الطرقات و يصلحونها، و يرفعون ما فيها من الأذى من الشوك و الأحجار. ثم ما زال الناس يتكاثرون بمكة من ذلك العهد إلى أول ظهور الإسلام، و بالضرورة كلما تكاثروا فيها كلما ازدادت أيدى العمران و الإصلاح.

فلما ظهر الإسلام كانت مكة المشرفة أحسن من العصور السابقة بكثير، لكن ما زالت أرضها فيها المرتفعات و المنخفضات، و فيها أشجار الشوك و السلم و العضاء مما لا يؤكل منها شىء، إذ ليست من ذوات الفواكه و الخضار، ثم ازداد سكان مكة بانتشار الإسلام فى جميع البلدان و الأقطار منذ صدر الإسلام إلى نحو ألف سنة، فازدهرت مكة بمختلف السكان من المسلمين، ازدهرت و أينتت بإقامة المسلمين فيها من جميع الأقطار، و حضورهم فيها فى مواسم الحج فى كل عام من كل فج عميق، لكنها بقيت فيها بعض الآثار القديمة من المنعرجات و المنخفضات، و أشجار الشوك و السلم التى كانت تعترض الحجاج فى طريق الحج من مكة إلى عرفات. ثم من بعد سنة (١٣٠٠) ألف و ثلاثمائة هجرية كثر الإصلاح و التعمير فيها باستمرار، خصوصا فى زماننا هذا، و نحن فى سنة (١٣٨٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و ثمانين هجرية، فلقد باسروا فى الإصلاح و التعمير و ردم المنخفضات و تكسير الصخور و رفع الأحجار، و سفلتة الشوارع و الطرقات، و قطع ما بقى من أشجار الشوك و السلم، حتى صارت مكة شرفها الله تعالى كأنها عروس البلدان كما هو مشاهد فى زماننا هذا بدون مبالغة فى القول فسبحان مغير الأحوال و مدبر الكائنات، لا إله إلا هو العزيز الغفار.

مكة فى الجاهلية و الإسلام

يقول صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد السباعى مؤرخ مكة و أديبها أمد الله فى حياته، عن نشأة مكة فى أول كتابه المطبوع "تاريخ مكة" ما يأتى:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧

تقع مكة على ٢١ درجة و نصف درجة تقريبا عرضا شماليا، و على نحو ٤٠ درجة طولاً ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٨٠ مترا. و تقع فى واد تحيط به الجبال و تنحدر سيولها فيه، و اذا عصفت الرياح فى مرتفعات الجبال اندفعت إلى بطن الوادى فيما يشبه الدوامات، و تعذر تعيين ملتقى الرياح إلا فى بعض الحالات.

وجوها حار جاف، تختلف حرارته بين ١٨ درجة فى شهور الشتاء و ٣٠ درجة فى شهور الصيف و قد ترتفع الحرارة فى بعض السنوات إلى ٣٩ درجة.

و قد سماها القرآن مكة كما سماها بكة و أم القرى و البلد الأمين.

و يذكر بعض علماء الإسلام أنها سميت مكة لقله مائها. و هم يقولون: متك الفصيل ضرع أمه إذا امتصه، و يقول بعضهم سميت مكة لأنها تمك الذنوب أى تذهب بها، أو لأنها تمك الفاجر أى تخرجه منها، كما قيل أنها سميت بكة لأن الناس فيها يبك بعضهم بعضا أى يدفع.

و ينقل مؤرخو الفرنجة أن بطليموس ذكر اسمها (مكورا) و هو مشتق من الاسم السبئى مكورابا و معناه مقدس أو حرم. و قد عرفت

مكة من أحقاب طويلة ممعنة في القدم قبل عهد إبراهيم، فقد كانت الكعبة مثابة للناس قبل بناء إبراهيم، كما تروى مصادر إسلامية كثيرة.

ولا نشك أنها كجزء من بلاد العرب استقبلت هجرات سابقة، تعدد فيها أنواع المهاجرين من أجناس البشر تعدادا لا نستطيع تعيينه، لأن المصادر التي توسعت في ذلك لا يمكن التسليم بما كتبت تسليما قاطعا، لأن أكثر كتابها عاشوا في العصر الإسلامي الأول، متأخرين عن ذلك العهد بأحقاب طويلة المدى، ولم يكن لديهم من المصادر إلا المنقول عن تشويش واضطراب.

أما التاريخ الذي أنتجته دراسة الآثار وأسفرت عنه كتابات الجيولوجيين فقد أطال في بحوثه لا عن مكة وحدها بل عن جزيرة العرب قاطبة، و كان مما ذكره أن صحاريها القفراء كانت في عهد من عهود التاريخ المجهولة مروجاً خضراء أهله بالسكان، لأن غيوم الرياح الغربية الشمالية كانت تصل إلى الجزيرة قبل أن تفقد رطوبتها، فتنهال الأمطار على قممها العالية وتجري في وديانها أنهاراً، و تروى التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨

أراضيها وتسقى مروجها- ولعل في عمق الوديان التي نشاهدها اليوم ما يشير إلى شيء من حقيقة هذا الرأي.

و هم يذكرون أن عوامل الجفاف الطبيعي ما لبثت أن حالت بالتدريج على مر الأحقاب، دون وصول هذه الغيوم رطبة فحرمت الجزيرة من أنهار جارية.

ولا أستبعد هذا لأن المشاهد أن سورة الجفاف في عهدنا الحاضرة اشتدت وطأتها عن عهود سلفت، فاختلفت واحات كثيرة كانت معروفة في عهد الجاهلي و صدر الإسلام، منها واحه (فدك) المشهورة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كما اختفى كثير من المناطق الخصبة التي كان يزرعها اليهود في المدينة، و ثقيف في الطائف، و قریش حول مكة، و نضب كثير من العيون و الآبار، و قل شأن السيول التي كان يفيض بها عقيق المدينة و الطائف و وادي إبراهيم في مكة.

و المعمرون في مكة و كثير من مدن الجزيرة يعلمون أن منسوب المياه و مساحة المناطق الخصبة كانت إلى قرن سابق أحسن منها اليوم، و أن بساتين مكة في أطرافها و ضواحيها كانت منتشرة إلى مسافات بعيدة مما لم يبق له أثر نتيجة اطراد الجفاف، و يرى بعض الجيولوجيين أن الجفاف سيضطرده أمره في الجزيرة على مر العصور، و أن نسلنا سيعانى منه أكثر مما نعانى إلا- في المناطق الجنوبية القريبة من المحيط الهندي.

و سواء صح نقل المؤرخين الإسلاميين في شأن من هبط مكة قبل عهد إبراهيم أو لم يصح، و سواء ثبت استنتاج الجيولوجيون عن خصوبة هذه الأرض في عهود مجهولة من التاريخ أو لم يثبت، فإن مما لا مجال للشك فيه أنه يصح اعتماد هجرة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام إلى مكة مبدأ واضحا لتاريخ مكة، لأن أهم ملبساتها و ظروف دقائقها وردت واضحة في القرآن، و لسنا نعى أن جميع التفاصيل التي ذكرها المؤرخون أنها لازمت هذه الهجرة أو أعقبها، كانت من الوضوح و الصحة بحيث لا يتسرب إلينا شك فيها و لكنها منقولة و حسب، كما أن بعضها أشار إليه الحديث الشريف و استكملت البعض الآخر روايات أهل الكتاب، و قد بذل المؤرخون الذين جاءوا متأخرين في تصفية ما انتهى إليهم فكان بعضهم دقيقا ما أمكنته الدقة، كما أن بعضهم لم يتحرج في إيراد ما صادفه من حشو و لغو.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٩

و إذا فسنداً كتابنا من عهد إسماعيل محاولين أن نعتمد من المصادر ما كان أقرب إلى الثقة و لا نصنع جديدا فكل ما كتبه التاريخ عن البلاد القديمة لا يمكن أن يكون أكثر من محاولات. انتهى من الكتاب المذكور.

مكة في عهد قریش

ثم يقول صديقنا الأستاذ السباعي في أوائل كتابه المذكور بعد ما تقدم عن النواحي العامة بمكة في عهد قريش ما يأتي:
 "الناحية العمرانية: "كنا في حديثنا عن جرهم و قظورا أشرنا إلى أن العمران في مكة لم يزد عن مضارب من الشعر، كانت تتلاصق أو تتباعد في حواشي الوادي و بين ليات جباله و ما أطل العهد الذي ندرسه "عهد حكومه قريش "حتى كانت المضارب من الشعر قد حلت محلها البيوت مرصوصة بالحجر أو مبنية بالطين و الحجر فيما يحاذي المسجد أو بالطين النىء وحده على حوافي الأباطح في أعلى مكة أو على شواطئ المسيل في أسفلها.

بناء البيوت و توبيها:

و كان سعد بن عمر السهمي أول من بنى بيتا بمكة و قد قيل فيه:

و أول من بوأ بمكة بيته و سور فيها مسكنا بأثافي

و كانوا يبنونها بحيث لا تستوى على سقوف مربعه كما نفع اليوم، و أول من بنى بيتا مربعا حميد بن زهير، و استهولت قريش عاقبه التريبع في هندسه البيت. فقالت: "ربع حميد بيتا إما حياة و إما موتا،" و أول من بوب في مكة (حاطب بن أبي بلتعنه). و كانوا يجعلون بين يديها العرصات ينزل الحجاج فيها و المعتمرون.

و لما شرعت بعض الدور تصنع لها أبوابا كانوا يقصرون ذلك على بعض غرفها و يتركون مداخلها شارعة على عرصاتها دون أبواب. و قد قيل إن هند بنت سهيل عند ما استأذنت عمر بن الخطاب في أن تجعل على دارها بابين أبي و قال لها: إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحجاج و المعتمرين، قالت: و الله ما أريد إلا- أن أحفظ على الحجاج متاعهم فأغفلها عليهم من اللصوص، فأذن لها فبوتها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠

و يقول أيضا عن منازل القبائل في مكة: و يستطيع الباحث أن يستنتج أن العمران في مكة في عهدنا الذي ندرسه نشط نشاطا طيبا، فبعد أن تركنا المضارب تتباعد على حوافي وادي إبراهيم من أعلى مكة إلى أسفلها ثم تعرج في ناحية منها إلى مداخل الشامية اليوم نحو قيعقان، نجدها الآن و قد اتصلت و تكاثفت و اتخذت كل قبيلة منزلها من الوادي و شعابه، و لم يزحف عمرانهم إلى مرتفعات الجبال و أكتافها كما نفع اليوم بل ظل مستويا باستواء سطح الوادي.

فقد ذكروا أن قصيا خط للكعبة ساحة توازي صحن المسجد اليوم، و أباح للناس أن يبنوا دون ذلك حول مدارها من الجهات الأربع، و كانوا لا- يبيحون لأنفسهم قبل قصى السكنى أو المييت بجوار الكعبة، ثم أمرهم أن يجعلوا بين بيوتهم مسالك يفضون منها إلى ساحة الكعبة، و أهم هذه الطرق طريق شيبه و هو في مكان باب بنى شيبه اليوم، و لم يبوب ساحة الكعبة أو يسورها، كما أمر بأن لا يرفعوا بيوتهم عن الكعبة لتظل مشرفة عليها، و كانوا يتخذون مجالسهم العامة في أفيائها، كما بنى دار الندوة لاجتماعاتهم الخاصة.

و في استطاعتنا أن نرسم خطوطا تقريبيه لخريطة مكة نبين فيها باختصار مواقع البطون في مكة يومها، و سير العمران بين شعابها، اعتمادا على ما ذكره الأزرقى في تخطيطه مواقع القبائل في كتابه أخبار مكة.

و لتوضيح ذلك في الأذهان نستطيع أن نجعل من باب بنى شيبه نقطه ابتداء لتخطيطاتهم، فقد كان موضع ارتكاز الحركة العمرانية في أم القرى، كما كان اهم مداخل المسجد الحرام، و كانت البيوت تتكاثف حوله متجهه في الشرق إلى (حصوه) باب على، و في الشمال قليلا إلى (حصوه) باب السلام تنزلها بطون من غسانه الشام و بعض السفيايين و تتخللها متاجر للعطارين، فإذا مضى بنا الخط مستقيما إلى جهه باب النبى، و اجهنا بيت العباس و دار جبير بن مطعم و دورا لبنى عامر بن لؤى، و استقام أمامنا زقاق أصحاب الشيرق، و هو إلى جانب زقاق الحجر حيث تقوم دار لابن علقمه و دور أخرى لآل عدى من ثقيف.

فإذا نفذنا من ذلك إلى شارعنا العام في القشاشية متوجهين إلى أعلى مكة، استقام أمامنا سوق كانوا يسمونه سوق الفاكهة ثم سوق الرطب، ثم رباع كانت لبعض بني عامر، وعند سوق الليل تصافحنا الدار التي كانوا يسمونها دار مال الله و كانوا ينفقون فيها على المرضى و يطعمونهم. و بالقرب من الدار يلتوى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١

شعب ابن يوسف و هو ما نسميه اليوم شعب علي و فيه دور عبد المطلب بن هاشم و دور أخرى لأبي طالب و أخرى للعباس بن عبد المطلب.

و إذا عدنا إلى استقامتنا في شارعنا العام، يضافحنا دار العاص في فوهة بني عامر، ثم يلتوى شعب بني عامر في دروب متعددة تقوم عليها دور لبني بكر و أخرى لبني عبد المطلب بن عبد مناف، و نستقيم مرة أخرى في شارعنا العام فيواجهنا ردم آل عبد الله، و كانوا يعارضون به مجرى السيل و يسمونه الردم الأدنى و عنده يقف الحمارون.

و نمضى قليلا إلى المعلاة لنجد الجزارين عن يميننا في شعب أبي دب، ثم مكان المقابر، ثم بعض بساتين تنتهي منها إلى شعبه الجن، ثم ثنية الحجون، ثم بساتين أخرى نصل بعدها إلى شعب الصفا، و هو ما نسميه اليوم المعابدة و فيه دور لبني كنانة و آل عتبة بن أبي معيط، و دور لربيعة من بني عبد شمس.

و إذا بدأنا خطا آخر من باب بني شيبه متوجهين إلى الشمال الشرقي في المسعى صادفتنا دور لبني عدى قائمة بين باب بني شيبه و رواق باب السلام، و في المسعى يتوجه درب إلى يميننا كانوا يسمونه الخزامية، كان فيه مكان للبانين و فيه سقيفة و دار الحكم بن خزام و دور يتخللها عرصات لبني سهم، و يمضى بنا الدرب إلى بيت خديجة حتى يخرج إلى مكان المدعى اليوم.

و إلى يسارنا و نحن في المسعى طريق الساعين إلى المروة، و في المروة دور لآل عتبة ابن فرقد و دار كبيرة لآل ياسر في واجهتها الحجامون و الحلاقون، و إذا مضينا في المسعى مصعدين في طريق المدعى، انتهينا إلى رحبة واسعة كانت تحط فيها غير الحنطة و السمن و العسل و الحبوب لتباع فيها، و هي ما نسميها اليوم المحنطة و فيها دور لبني عبد شمس و دور أبي سفيان و هي في مكان (القبان) اليوم. و قد أشار النبي إليها عندما قال يوم الفتح "من دخل دار أبي سفيان كان آمنا،" ثم دور لأولاد العباس تصل إلى قريب من المدعى، ثم دور لأولاد الحارث؛ ثم طريق إلى يسارنا يمضى إلى جبل الديلم و هو يشرف على القرارة اليوم، ثم نمضى في استقامتنا إلى طريق المعلاة لنمر على دور لبني غزوان و أخرى لأولاد الحارث بن عبد المطلب و نبدأ خطا ثالثا من باب بني شيبه متوجهين غربا إلى دار الندوة، لنجد أن البيوت تتكاثف إلى جانبها فدار لشيبه بن عثمان، و دار لخزانة الكعبة، و دار لصاحب البريد، و دار لبيت المال، و دار للخطاب بن نفيل، ثم نصل شمالا إلى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢

جهة الرواق الذي فيه باب الزيادة إلى باب الدريبة، فتصادفنا دور لبني خزاعة بينها زقاق الحدائين، نسلك منها إلى سويقة ثم نعطف منه إلى المروة و من جهة أخرى دور لآل زرارة من تميم، ثم يمضى بنا الشعب إلى قيععان في مداخل ما نسميه الشامية اليوم، فإذا توجهت إلى يمينك توجه بك درب إلى ناحية الديلم بالقرب من القرارة اليوم، ثم تصعد إذا شئت على تلال في مكان الفلق كانوا يصعدونها لينزلوا منها إلى مكان سوق المعلاة اليوم، و لم يفلق هذا الطرق إلا الزبير بن العوام في عصره، و سنعرف فيما بعد أنه فلقه ليتصل الطريق بين بساتينه بجوار المعلاة اليوم و بيوته التي اشتراها بجوار سويقة.

و إذا أردنا أن نتقل من شق مكة الأعلى إلى شقها الأسفل، تعين علينا أن نجعل نقطة ابتداء تخطيطنا ما نسميه اليوم مقام الحنبلي في المسجد، متوجهين إلى الشرق ثم إلى الجنوب الشرقي ثم إلى الجنوب. كانت منازل بني عائذ تبتدئ من مقام الحنبلي ممتدة غربا إلى ما يحاذي بئر زمزم، ثم تصعد في الشرق نحو باب علي و كانت دور بعض كبارهم شارع على مكان المسعى، على يسار القادم من الصفا يريد المروة أي فيما يحاذي باب علي اليوم تقريبا.

و كانت منازل عدى بن كعب تتدئ من نحو مقام الحنبلى متوجهة إلى الصفا من ناحية، و إلى أجياد من ناحية أخرى قبل أن ينقلوا إلى أسفل مكة. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم ؛ ج ١-٢ ؛ ص ١٢

فى الطريق الذى يبدأ من باب الصفا متوجها جنوبا إلى باب أجياد كانت سقيفة لبنى عائذة و سوق "البزازين"، "القماشين" و بالقرب من ذلك كان البيت الذى اتخذه النبى صلى الله عليه و سلم لتجارته قبل البعثة مع شريكه السائب بن السائب.

فإذا انتهيت إلى باب أجياد و وقفت حيث تكون القبلة فى ظهر ك و مداخل أجياد فى وجهك، امتد أمامك شعبان أحدهما على يمينك إلى ما نسميه اليوم بئر بليلة و كانوا يسمونه أجياد الكبير، و امتد الشعب الثانى على يسارك إلى ما نسميه اليوم السد و كانوا يسمونه أجياد الصغير، و لست أعنى بالامتداد ما يتبادر إلى ذهنك من نفاذ الجادة و استقامتها بامتداد الشعوب. فقد كان العمران يتخلل الجادة و يعرقل استقامتها.

و كان بنو تميم ينزلون حوالى باب أجياد، و تمتد بيوتهم من جهة الغرب إلى قبيل حدود المسجد يومها و هو حدود صحن الكعبة اليوم، و كان بنو مخزوم ينزلون فى فوهة أجياد الكبير مكان الحميدية اليوم، و كان جماعة من الأزدي ينزلون

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣

خلف ذلك مما يتصل بمكان الصحة العامة، و خلفها كان منزل أبى جهل بن هشام لا يبعد عن ذلك كثيرا، و فى أجياد الصغير إلى الجادة المتصلة بالسد كانت منازل لآل عدى بن عبد شمس، و فى أجياد مكان للحواتين و دار لعبد الله بن جدعان التى كان فيها حلف الفضول، و التى تعاقدت فيها القبائل متفقة بأن لا يقر فى مكة ظالم، و فيها دور لآل سلمة بن هشام، و فيها بئر يجمع بين أجيادين احتفراها آل سلمة مع جماعة من جيرانهم و كان يردها السكان فى فوهة بأجيادين، و أكاد أعتقد أنها البئر الموجودة اليوم أمام بازان أجياد لأنها تجمع بين طرفى أجيادين.

و إذ تركت أجيادين ماضيا فى الشارع العام إلى الجنوب نحو المسفلة بدأت بسوق الحزورة بجوار باب الوداع، و رأيت الدروب تمضى على يمينك إلى قرب المسجد عند حدود المطاف و من أشهرها درب الحناطين، و لا أعرف وجهها لهذه التسمية إلا أن يكون سوقا للحنطة، ففى اللغة أن الحناط هو كثير الحنطة و لا أستبعد مثل هذا التعليل، و أنا أعرف أن موقع هذا الدرب صالح لبيع منتوجات الجنوب من الحنطة فى مكة، و فى هذه الجهة كانت تنزل بطن من آل صيفى، و فيها دور لآل عبد الدار و أخرى لجماعة من بنى مخزوم و إذا مضيت متجها فى سوق الصغير كنت بجوار دور لبنى أسد ابن عبد العزى.

و أحسبني لا أطمع فى أن أعرف القبائل النازلة فى الشبيكة أو حارة الباب أو جرول، لأنها كانت قليلة السكان إلا فى جهات قليلة من جرول الخضراء، و هى الجزء الأدنى المتصل بأطراف المسفلة من ناحيته الخلفية، و إذا كانت الشبيكة قد سكنت فى عهدنا الذى ندرسه بجماعة لم أتبين أسماءهم فى بطون المطولات من كتب التاريخ، فلا أعتقد أنها حظيت بشيء من التكاثف الذى حظيت به المنازل الأخرى.

و قد نعثر على بعض المنازل فى سفح ذى أعاصير، و لعلنا نستنتج من قرائن الأحوال أن ذا أعاصير هو جبل عمر، و لكننا لا نستطيع أن نعتقد أن هذا الجزء حفل بالمنازل إلا فى أعوام متأخرة عن هذا العهد، لأن النزلة سميت باسم عمر بن الخطاب، و لو كانت لبطن أو قبيلة لأطلق عليها فى الغالب اسم نازلها قبل عمر بن الخطاب.

كما أننا لم نعثر إلى جانب ذلك على شيء يسير من العمران فى الثنية التى نهبط من خلفها إلى جرول، و كانوا يسمونها الحزنة و هى ضد السهلة و نسميها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤

اليوم الحفائر، و لم تكن الحفائر قد فلتت يومها لتخترم الطريق من الشبيكة إلى جرول الخلفية، لأن الذى حفرها و سهلها للمشاة هو خالد البرمكى فى عهد بنى العباس ليجعلها تختصر الطريق إلى بستان له بناه فيما بعد فى جرول الخلفية، أو جرول الخضراء كما

يسمونها.

و إذا تركنا هذا و مضينا فى طريقنا فى ظل أعاصير أى جبل عمر نحو الهجلة، صادفتنا الحتمة و هى صخرات لا بد أنها كانت سوداوات لأن الحتمة فى اللغة هى السواد، و عند هذه الصخرات كانت دار الأزلام و منها يبدأ مبطح السيل أسفل مكة.

و لعلنا إلى هذا الحد استطعنا أن نرسم خطوطا تقريبية لمكة الجاهلية، و لا يفوتنا فى أذيال هذا البحث أن نشير إلى الضواحي التى كان يحلو للمكيين أن ينتجعوها فى الأصائل من شهور القيظ، و هى عادة نرى أثرها إلى اليوم فى المنتزهين من أبناء مكة فى أطراف الضواحي، و كأنما هم يمثلون بذلك عادة عرفها أجدادهم من نحو "١٥٠٠" سنة تقريبا.

و من أشهر المنتزهات فى مكة الجاهلية الليط- و الليط فى رأى بعض المؤرخين هو أسفل مكة فيما يقرب من بركة ماجن منتزهنا اليوم، و يقول الأستاذ رشدى الصالح فى حاشيته على تاريخ الأزرقى أنه يرجح أن يكون خلف القشلاق العسكرى أى فيما يلى جرول الخلفية، و لست بالذى يستبعد صحة القولين فإن الوادى بعد بركة ماجن يتصل بالجادة التى تنتهى خلف القشلاق، فلم لا يكون الليط عبارة عن امتداد من جرول الخلفية إلى أطراف المسفلة؟.

و كانت فى الليط أقحوانة يجلس أهل مكة حولها فى العشى، يلبسون الثياب المحمرة و الموردة و المطيبة و فى هذا يقول الحارث بن خالد:

من ذا يسائل عنا أين منزلنا للأقحوانة منا منزل قمن

إذ نلبس العيش صفوا ما يكدره طعن الوشاة و لا ينبو بنا الزمن

و من منتزهاتهم شعب خم و هو يتصل بالمسفلة اليوم، و كان مزروعا فيه عدة بساتين تتصل بالليط ثم تتصل بجرول، و كانوا يخرجون إلى حائط الحمام بجوار المعلاة فقد كان لهم هناك نخيل و زروع، و كانت بساتين تمتد إلى الخرمانية بقرب ما نسميه المعابدة ثم تمضى إلى المحصب فى الطريق المؤدى إلى منى، و كان لهم فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥

المحصب دكة يجتمع المنتزهون فيها أصيل كل يوم، و كانت تشرف على نخيل باسق و بساتين تحتضنها شعاب الوادى الممتدة إلى منى.

و كانت لهم بساتين فى وادى فخ و نسميه الشهداء اليوم، و أخرى بوادى طوى فى امتداده من الحجون إلى ريع الكحل، و بساتين غير هذه فى ضواحي مكة العليا إلى مزدلفة فعرفة، و كانت المنازل فى المناطق التى ذكرناها لا تتكاثر على قاعدة المدن الحاضرة، بل تفرق و تفصل بينها مساحات خالية على عادة العرب فى بناء قراهم و مدنهم، أما الناحية المتصلة بالمسجد فكانت تضيق بنزلاتها لتنافسهم فى مجاورة الكعبة.

و قد بنى القرشيون فى أواخر عهدهم ما يشبه السور فى أعلى المدعى و بوابه و لم يثبت أنهم بنوا مثله فى ناحية أخرى منها. و قسم المؤرخون ديانة العرب الجاهلية إلى قسمين "حله و حمس" و الحمس هم أصحاب التشدد فيما يتدينون و منهم خزاعة، و أول من اتخذ الصنم هو عمرو بن لحي أمير خزاعة كما أسلفنا فى الفصل السابق، فقد أمر بعبادة صنمين كانا منصوبين على الصفا و المروة، فلما كان عهد قصى حولها من مواضعها فجعل إحداها بلبق الكعبة و الأخرى فى موضع زمزم، فكان أهل الجاهلية من قومه ينحرون عندهما و يتمسحون بهما، و اشتد شيوع عبادة الأصنام بمرور الأيام حتى كانت الأصنام يطاف بها فى مكة فيشترىها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم، و ما من رجل من قريش إلا و فى بيته صنم إذا دخل يمسحه و إذا خرج يمسحه تبركا، عدا أصنام الكعبة التى ظلت قائمة فى مواضعها من التبجيل إلى عام الفتح، و من أشهر أصنامهم "هبل" و كان منصوبا فى جوف الكعبة "و العزى" و هى بوادى نخلة فى طريق الطائف من مكة "و اللات" و هى فى الطائف "و مناة" و هى فى قرية (قديد) على ساحل البحر الأحمر شمالى مكة.

و كانوا ينحرون عند صنم لهم يقال له الغبغب، و كانت لهم أقداح فى الكعبة إذا اختصموا فى شىء أو اعترموا أمرا استقسموا بها فإذا خرج القدح مكتوبا بأمر أو نهى عملوا به كما يفعل أصحاب "الخيرة" أو القرعة اليوم.

و قسم المؤرخون ديانة العرب الجاهلية إلى قسمين "حله و حمس" و الحمس هم أصحاب التشدد فيما يتدينون و منهم قريش فى مكة، و قد بلغ من تشددهم أن الرجل إذا أحرم بالحج أو العمرة لا يدخل دارا أو فسطاطا أو حائطا "بستانا-"

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦

و قد تعرض له الحاجة فلا- يدخل بيته بل ينقب نقبا فى ظهره و ينادى بأهله ليخرجوا له ما أراد، و كانوا يحرمون بعد الإحرام على أنفسهم السمن و اللبن و الزبد، و لبس الوبر و الشعر و الاستظلال به و غزله و نسجه. و كانوا إذا وقف الحاج من العرب فى عرفات، يأبون أن يخرجوا إليها من حرمهم، فيكتفون بالوقوف عند نمرة تقديسا لحرمهم.

و كانوا يفرضون على مخالفيهم من أهل الحلة أن لا يطوفوا إلا إذا لبسوا ثوبا أحمسيا يشترونه منهم أو يستأجرونه أو يستعيرونه، فإذا لم يجدوا تعين عليهم أن يطوفوا عرايا نهارا للرجال و ليلا للنساء، و كان بعض فتيان مكة يتربص للنساء العرايا، فإذا أعجبتهم إحداهن دخل معها فى الطواف عريانا و قد يؤول أمرهما إلى الزواج و قد ألغى الإسلام هذه العادة.

و كانوا إذا بلغت الفتاة سن الزواج ألبسوها ما يزينها و خرجوا بها سافرة إلى المطاف، ثم أعادوها إلى بيتها لتبقى حبيسة فيه لا تخرج إلا- إلى بيت من تزوجها و هم يريدون بطوافها ذلك عرضها سافرة على أعين الخاطبين، و لعلمهم اختاروا المطاف ليأمنوا فى جوار البيت نظرات الفاسقين.

و كانوا يختنون أولادهم و يكفنون موتاهم و يغتسلون من الجنابة، و قد تباعدوا فى المناكح من البنت، و بنت البنت، و الأخت، و بنت الأخت، كما يتزوجون بالصداق و الشهود و يطلقون ثلاثا. و كانوا يدخلون الكعبة لابسى أحذيتهم حتى سن لهم الوليد بن المغيرة خلعها، و كانت الحوائض من نسائهم لا يدين من الكعبة و لا يتمسحن بأصنامها بل يقفن بعيدا عنها.

و شاعت إلى جانب عبادة الأصنام ديانات أخرى أهمها الدهرية التى قال أصحابها: و ما يهلكنا إلا الدهر، و الصابئة و هم عبدة الكواكب و النجوم، و دان بعضهم باليهودية و آخرون بالنصرانية.

و أنكر بعضهم ترهات قومهم من عبادة الأصنام، و كانوا ينصحون بتركها و يجاهرون بالبحث فى ألوهية واحد متفرد بالجلال و العظمة، و يعترفون بالبعث و النشور و الثواب و العقاب.

و يقول أيضا عن الناحية التجارية: كانت مكة بحكم موقعها فى طريق تجارة الطيب و الغلال و أنواع الأقمشة، بين دول الجنوب و ممالك الشمال ذات مركز استراتيجى ممتاز، و كانت أسواقها تزدهم بالتجار صاعدين فى الشمال إلى الشام

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧

أو هابطين فى الجنوب إلى اليمن، فمهرروا فى التجارة و تضخمت رؤوس أموالهم و بلغت قوافلهم التجارية ألف بعير فى عهد غزوة بدر، مضافا إليها خمسون ألف دينار منقولة بين أئقالهم، و هى نسبة لها قيمتها المادية إذا قيست بالثروات فى عهدها و بلغ من ثراء قريش أنها استطاعت فى الغزوة نفسها أن تفتدى أسراها من المكيين بأربعة آلاف درهم إلى ألف درهم، إلا من عفا عنهم النبى صلى الله عليه و سلم من المعدمين.

و يقول أيضا عن الناحية الاجتماعية: و وهم بعض المؤرخين فى إدراج مكة مدارج القبائل من أحياء العرب، و حسب آخرون أنها كانت نزلة يمضى عليها ما يمضى على نزل العرب و قراهم فى آفاق الجزيرة، و لكن شيئا من الاستقراء ينتهى بنا إلى غير هذه النتيجة، فالقرآن سماها فى أكثر من مرة (أم القرى) و فى هذا ما يشير إلى ميزتها فى مستوى من حولها من منازل الجزيرة و قراها، و القرآن خاطبها بمعان ليس من يعتقد أنها غريبة عنها، فتحدث عن المشكاة و المصباح و الزجاج، و عن المساكن يعرج إليها بالمعارج، و تحدث عن أنواع من الطيب؛ كالكافور و الزنجبيل و المسك، و أنواع من الأثاث المترف؛ كالتمارق و الزرابى و السرر و الفرش

المبطنه بالاستبرق والسندس، وأنواع الأواني من الفضة؛ كالقوارير والأكواب والكؤوس، وأنواع من الحلى؛ كالمرجان، واللؤلؤ، كما حدثهم عن القراطيس والكتب والسجلات والصحف والأقلام والمداد، وأشار في كثير من آياته إلى النحاس والحديد والفخار والصحاف والجفان والقدر- ولا يقول إنسان أن القرآن كان يخاطبهم بما لا يفهمون مدلوله من الألفاظ وأنه كان يشير إلى معان غريبة عنهم.

إذا فبيئتهم كانت تعرف هذه المعانى معرفة من اختلط بها واندمج فيها، وفي هذا من الأدلة ما يقوم بحجتنا على من وهم من المؤرخين، وفيه ما ينطق بأن مكة كانت في ذلك العهد قد أخذت بطرف غير يسير من أسباب الحضارة الخاصة بجبلها الذى تعيش فيه.

وليس فى هذا ما يدعو إلى الاستغراب، فقد كان المكيون من قريش يضربون فى مناكب الأرض بين اليمن والشام والعراق وفارس والهند ومصر والحبشة، ويتصلون فى رحلاتهم هذه بالقصور المشيدة والعمران الفخم وألوان من الحضارة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨

تعدد بتعدد الحضارات التى كانوا يختلفون إليها، فلا عجب أن تتلاقى أكثر الحضارات الشائعة فى عهدهم وفى بويتهم فى مكة وأن تبدو واضحة فى حياتهم.

وكانت مخابثهم إلى جانب هذا تكتنز بالذهب والفضة كما تكتنز بالنقد المضروب من الدينار والدرهم، وقد ذكرها القرآن فى معارض مختلفة نستطيع أن نفهم منها أنهم كانوا يعرفونها معرفة تامة.

وكانوا يستعملون الموازين فى أسواقهم والمكاييل، ويعرفون من مفردات أنقالها أنواعا كثيرة كانوا يتعاملون بها، وليس أدل على هذا من خطاب القرآن لهم وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزُّوهُمْ يُخْسِرُونَ و يسرد بعض المؤرخين بعض الحوادث الفردية التى يحسبون أنها تحدد معارف القرشيين فى علم المال أو تبين مدى حيازتهم له، فيذكرون فى رواية الصحابى الذى اشترت منه إحدى السبايا نفسها بألف درهم، أن رفاقه عندما لاموه على رخص الثمن قال لهم والله ما أعرف فوق الألف شيئا، ويريدون أن يستدلوا من هذا على تحديد معارف القرشيين فى الأموال والأرقام، ولعلمهم نسوا أن القرآن كان يخاطبهم بأرقى من هذا المستوى وهو يستعرض هول يوم القيامة فى يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ أَوْ يَسُرْدُ لَهُمْ قِصَّةَ يُونُسَ وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ و ليس من شك أن قوما أحصوا بعشرات الألوف ومئاتها كانوا على شىء من الغنى، وكان يصحبه ما يتبع الثراء من الحضارة وما فى الحضارة من ترف وما ظننا بقوم كان القرآن يعرض أمامهم فى صدد التشريع أدق من هذا، فيشير إلى النصف والثلث والربع والخمس والثلث والعشر فى أوامره بتوزيع التركات، لا ريب أنهم كانوا فى بيئة تجيد هذه الكسور ومضاعفاتها، كما تجيد إلى ذلك مستلزمات هذا التوزيع من عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة على أنواعها فى الآحاد والكسور.

واستعمل القرشيون فى مكة الثياب والسراويل والقمصان والنعال، وتختموا بالذهب والفضة واتخذوا لخواتمهم حبات اللؤلؤ، كما استعمل القرشيات الخمر والجلاليب والخلاخل التى كن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، عدا ما تحلين به من عقود وأساور وما تطيبن به من ذى أريج فواح.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩

وكان لمتريفيهم مجالس للسمر ينصبون لها أرائك ويمدون فيها الموائد، ويتفكهون بما طاب من ثمارهم ويتلذذون بفواكه الطائف الطازجة، أو مجففات الشام وفلسطين المستوردة لمتاجرهم.

وكانوا يتخذون من ثمرات النخيل والأعناب خمورا يعدونها فى مجالسهم فى آنية من فضة وأقداح من بلور، ويدور عليهم ساقينهم بها تفوح منها روائح المسك والكافور والزنجبيل.

و كانت لهم حلقات يعقدها القصاصون يتلون فيها عليهم أساطير الأولين، أو يقصون عليهم بعضا من نوادر الحياة مما يصادفه الرجل في آفاق الأرض، فيجتمع إلى هذه الحلقات كهولهم في أقيمتهم الفضفاضة و شيببتهم في ثيابهم الموردة أو المحمرة، من أعلى أنواع الحرير المجلوب من بلاد فارس أو المصنوع في العراق و الشام.

و كانت مكة في عهد قريش تضم إلى هذا ما تضمه عواصم اليوم تقريبا، من جاليات أجنبية يهبون إليها بفنونهم و أموالهم و بعض علومهم، فلا تلبث أن تتسع لما يهبط إليها و تفسح لها من المجال ما تفسحه اليوم- و كثير من كتب السير في مجموعها تحدثنا بأنه كان من سكانها نصارى الروم و وثنيون من فارس، و أنه سكنها جاليات من العراق و مصر و الحبشة و السريان، و نحن لا نستبعد أن يكون نزوح هذه الجاليات فرارا من الثورات و ألوان الاضطهاد، أو تحت عوامل أخرى شبيهة بالتي تؤثر في انتقال الموجات البشرية في كل دور من أدوار التاريخ.

و لست أرى رأى من يقول بشيوع الأمية شيوعا مطلقا في هذه البيئة التي ندرسها، و لا ممن يرى أن وسائل الكتابة يومها كانت تقتصر على العظام و الحجارة، لأن القرآن ذكر عن الصحف المنتشرة و سجلات الكتب و المداد و الأقلام، ما يشير إلى معرفتهم بها و أنهم كانوا لا يجهلونهم.

و مما يلفت النظر أن القرآن في أوائل نزوله بمكة كان يكتب و ينسخ- و يذكر ابن هشام في سيرته أن عمر دخل على شقيقته قبل إسلامه و في يدها صحيفة قرآنية، و يؤيد هذه الرواية أكثر المؤرخين، و هي تدل فيما تدل على وجود الصحف يومها و أن نسخها كانت تتداول في مكة، و لا يصح فيما أرى أن تكتب الصحف و يتداول نسخها في بيئة تشيع فيها الأمية شيوعا مطلقا، و تقتصر المعرفة فيها على أشخاص معدودين على أصابع اليد كما يذكر بعضهم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠

و نضجت الحياة العقلية في قريش نضجا نستطيع أن نلمسه في أمثالها الشائعة و حكمها المشهورة:

"من أجمل قليلا- سمع جميلا- أنفك منك و إن كان أذن، إن البلاء موكل بالمنطق، بينى قصرا و يهدم مصرا، الجزء من جنس العمل، الجهل شر الأصحاب، حسبك من شر سماعه، حظ في السحاب و عقل في التراب، ما حيلة الرامي إذا انقطع الوتر، لا يخلو المرء من ودود يمدح و عدو يقدر، من خان هان. إذا أراد الله هلاك نملة أنبت لها جناحين، كما تزرع تحصد، من سابق الدهر عثر، سلاح الضعفاء الشكاية، عند الصباح يحمد القوم السرى، رب عتق شر من رق، أعقل الناس أعذرهم للناس، لكل عود عصاره، ما كل عورة تصاب، عين الهوى لا تصدق، غدرك من ذلك على الإساءة."

و اتسعت أسواق مكة التجارية للتنافس بين مفكريها من الشعراء و أصحاب البيان، فكانت ملتقى الخطباء من سائر بلاد العرب، و كانت مجاللا- ثقافيا لم يسبق له نظير بين دول اليمن في الجنوب و حكام الحيرة و غسان في الشمال، و في مظان التاريخ المطولة من أخبار عكاظ و غيرها ما يغني عن الإفاضة.

و يقول أيضا عن الناحية الإدارية: ذكرنا أن قصيا كان أول رجل من بنى كنانة أصاب ملكا فكانت إليه الحجابة و الرفادة و السقاية و الندوة و القيادة و سمي قصي مجمعا، لأنه جمع قريشا بمكة، و سميت قريش في ذلك العام قريشا، لأنها تجمعت و التجمع القرش في بعض كلام العرب و لم يسم قرشى قبل ذلك.

و كان قصي عمليا أكثر مما كان يظنه قومه، فإنه ما كاد يستلم زمام الحكم في مكة حتى أسس دار الندوة لشورى قريش، و لم يكن يدخلها من قريش إلا من بلغ الأربعين، كما كان أورستقراطيا لأنه أباح لأولاد قصي دخولها كما شاءوا بلا فارق في السن.

و عنى قصي بسقاية الحجاج فاتخذ لهم حياضا من آدم توضع بقاء الكعبة، و يسقى فيها الماء العذب من الآبار محمولة على الإبل من أطراف مكة البعيدة، كما عنى بتتبع مظان الماء العذب في مكة، فحفر بئر العجول و هي في المكان الذي يمتد فيه رواق المسجد اليوم مما يلي باب الحميدية و باب الوداع، و حفر بئرا عند الردم بجانب مسجد الراية و هي البئر الموجودة اليوم في "الجودرية" في الزقاق

الواقع أمام قصر النيابة، وسمى بئر جبير بن مطعم لأن جبيرا هذا نثله بعد أن اندثر،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١

و اتخذت العناية بالآبار بعد قصى سنة لأولاده، فكانوا يتبعون مظان المياه العذبة و يحتفرون فيها الآبار.

و عنى قصى إلى جانب العناية بسقيا الحجاج بالرفادة، فكان على قريش خرج تخرجه من أموالها في كل موسم، فتدفعه إلى قصى يصنع به طعاما للحجاج يأكله من لم يكن معه سعة و لا زاد.

و كان يشتري بما يجتمع عنده دقيقا و يأخذ من كل ذبيحة بدنة أو بقرة أو شاة فخذها فيجمع ذلك كله ثم يجزر به الدقيق و يطعمه الحاج، و اتخذ أولاده هذه سنة بعده، حتى أن عمر حفيده اضطر عندما أصاب مكة في عهده جذب شديد، أن يجمع ما تجمع لديه من قريش و يخرج به إلى الشام فيشتري به دقيقا و كعكا، فيهشم الكعك و ينحر الجزور و يطبخه و يجعله ثريدا و يطعم الناس في مجاعتهم، و قد سمي بذلك هاشما.

و جاء الإسلام و قريش تتخذ هذه السنة عادة موسمية، فأمضاها النبي صلى الله عليه و سلم إذ أرسل بمال مع أبي بكر رضى الله عنه عندما أمره أن يحج بالناس سنة تسع للهجرة ليصنع به طعاما للحجاج، و فعل مثل ذلك في حجته للوداع، ثم أقام أبو بكر على هذا، و كذلك بقيه الخلفاء بعده- يقول أبو الوليد الأزرقى: و ظل العمل على هذا إلى أيامنا هذه يطعم الخلفاء الموسم في أيام الحج بمكة و منى حتى تنقضى أيام الموسم، و قد عاش أبو الوليد في القرن الثالث الهجرى و توفي عام ٢٢٣.

و لم أقع فيما قرأت على العهد الذى ألغيت فيه هذه العادة الحسنة، و أكبر ظنى أنها أبطلت على أثر الفتن و الحروب التى كانت السبيل تقطع فيها دون مكة، و يلفت نظرنا فى هذه السنة أنها كانت خرجا عاما تشترك فيه قريش بأموالها، و يشترك المسلمون فيه فى الصدر الأول للإسلام و أن هذا الاشتراك الشعبى ما لبث أن انتقل بتقادم العصور إلى خزائن الخلفاء أو بيوت الأموال، فهل تقاعس المكيون عن المجد؟ أم أن أموالهم ضاقت دونه؟ الواقع أن قريشا كانت من أنشط القبائل فى جزيرة العرب تجارة كما بينا ذلك فى بحث أعمالها التجارية، فكانت بذلك فى غنى تسع فضلاته إطعام الموسم، و جاء الإسلام فاتسع نشاط قريش باتساع رقعة الإسلام، و درّت الفتوحات و التجارة النشيطة عليهم الأموال الطائلة، و أخصبت أراضيهم فى الطائف و المدينة و بعض نواحي مكة و كثير من أوديتها القريبة، بتأثير نشاط المال و العناية بحفر الآبار، ثم ما لبث أن فتر النشاط و فتر بفتوره الغنى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢

و الثروة و الخصب، على إثر انتقال الصفوة الممتازة من قريش إلى الأمصار، بثرواتهم و أموالهم و كفاءتهم يتبعون مواطن الخلافة خارج الجزيرة.

انتهى من "تاريخ مكة" للسباعى.

مكة فى عهد النبي صلى الله عليه و سلم

إشارة

و يقول صديقنا الأستاذ السباعى فى أوائل كتابه المذكور بعد ما تقدم، عن مكة فى عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم ما يأتى:
كانت حياة النبي صلى الله عليه و سلم نقطة تحول فى تاريخ مكة، بل كانت بلغة أوضح من هذا فاصلا بدأت به عهدها الجديد، كقبله يتوجه إليها الملايين من المسلمين فى كل يوم خمس مرات، و محجة يهرع إليها مئات الألوف فى كل عام من شتى أصقاع الأرض.

و نحن إذ نكتب هذا عن هذه الفترة الفاصلة من تاريخ مكة و تتابع أحداث البعثة فيها، لا نعتقد أننا مطالبون بالتفصيلات الطويلة التى

توسع فيها كتاب السيرة، لأن المظان الخاصة بهذا حافلة بالكثير الذي لا نطمع إلى مزيد فيه، و بحسبنا أن نمر هنا بالحوادث مرورا سريعا لا نهدف فيه إلا إلى ربط الحوادث العامة و تسلسل نتائجها.

بعث النبي: بعث النبي في وسط كانت العقلية سائدة فيه رغم نضجها الذي ذكرناه، لا تحجر على متع الحياة و لا تفرض سلطانا على مستبيح في اللذة، و كانت القيم الأخلاقية تزن الأشياء بمعايير خاصة، فليس من السمو الإنساني في مقاييسها أن تهادن في عصبية، أو أن تنحاز إلى غير قومك مهما كان ظلمهم، أو أن تنسى تأرك مهما كان لونه، أو تسلم بقاعدة يكون الفخر فيها لغير بني أبيك. بعث النبي في وسط يعتقد هذه المبادئ و يدين بها كما يدين العابد بأقدس ما يعتقد، فلم يكن على النبي أن يقاوم ما عبدوا من أوثان أو نسكوا من نسك ضال فقط، بل عليه أن يصمد لهذه القيم الأخلاقية التي تسود المجتمع حوله، و التي لا تستسيغ الوحدة تضع فيها معالم القبيلة.

بعث النبي من بني هاشم فأى دعوة هذه الذي ينقاد إليها بنو عبد مناف، و بنو زهرة، و بنو تميم، و بنو مخزوم، و بنو أسد، و سائر البطون من قريش و القبائل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣

من كنانة، إنها الاستهانة بكيان الأفخاذ و أمجادها في عرفهم، و إنها الاستكانة لداع سيحوز الفخر لبني هاشم دونه، فما بالهم لا يقاومون و ما بال هذه القيم الأخلاقية الفاسدة لا تعارض فيما يضاد عرفها، ما بالها لا تتكبر على الدعوة و تكابر في الحق ضنا بكيان الفخذ أو البطن أو القبيلة و مجافاة لهذا الإعداد الذي سيصهرهم غدا في بوتقة تنسيهم تراث آبائهم و تضع معالمهم.

بهذا العنت قوبل النبي في فجر دعوته، و عن هذه البواعث حورب في الصور و الأشكال التي نجدها في مظانها من كتب السير، و التي لا نستدل منها إذا أردنا الاستدلال إلا على التعصب و الحزبية لأوضاع القبيلة و الفخذ و احتمل النبي صلى الله عليه و سلم ما لا يحتمله إلا صاحب عقيدة راسخة، ثم وجد أول ما وجد في مكة من استجاب لدعوته من الأفذاذ الذين تسمو عقولهم على ما ورثوا من أوضاع، و ترتفع بهم نفوسهم عن المكابرة إذا أبلج الحق، و الأفذاذ من هذا النوع ندره لا يظفر التاريخ بها إلا فيما قل - فلا عجب إذا رأيناهم حول أول ما نراهم، أقلية لا يعدون أصابع اليد.

و يسفر الدين الجديد عن تعاليم جديدة، فإذا في هذا الدين دعوة إلى التكتل و نسيان القبيلة، و إذا في الدين حد للإباحية المطلقة، و إذا فيه كبح للذائد و الشهوات، و إذا فيه تحليل و تحريم، فأية أخلاق منحلّة تقوى على التوحيد و التكتل، و أية فوضى تحتل التحديد و الكبح، إنه اختبار لا ينجح فيه شهباني، و إنها خطوة لا يستطيع أن يخطوها إلا وجدان عامر بغير الأهواء التي كان يعمر بها الوجدان في القبائل من قريش و من حولها.

لابد إذا لهذا التعصب من أن يستعر أواره، و لابد للمقاومة من أن تنشط للدفاع، لابد أن يجتمع إلى عامل المحافظة على كيان القبيلة عوامل أخرى، مبعثها قداسة التقاليد الموروثة، و الذود عن حظوظهم في الدعارة الشائعة و الإباحية المطلقة. هذه العوامل تضافرت على شخص واحد لا يملك إلا يقينه و إلا صبره و إلا بضعة نفر مستضعفين، تطاردهم قريش و تعذب بعضهم بالجلد و الحجارة المحمأة.

و لم تقتصر المقاومة على حدودها في قبائل مكة فقد بثوا حوله العيون، تترصده في المواسم كلما اتصل بقبيلة. أو بث دعوته في قوم، أو التجأ بزوار، تضييقا عليه و فتا في عضده. انتهى من الكتاب المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤

النواحي العامة بمكة في العهد النبوي

ثم يقول صديقنا الأستاذ السباعي في أوائل كتابه المذكور بعد ما تقدم، عن النواحي العامة بمكة في عهد النبي صلى الله عليه و سلم

ما يأتي:

الناحية الدينية: بدأت الحياة في مكة بعد الفتح تأخذ شكلا جديدا غير الشكل الذي كانت تعرفه قبله، فبعد أن كانت مثلها العليا تفانيا للقبيلة، و تفاخرا بالآباء، و أخذنا بالتأثر، و كرما يؤدي إلى التلف، و امتيازاً لأصحاب الصدارة، و قدرة على الثراء بالحق و الباطل. أصبحت و قد هذبها القرآن، تدين بالإخاء لله، و تعتقد بالسيادة في الدين، و أنه لا فضل لعربي على عجمي، و أصبحت الصدارة في رأيها لأصحاب التقوى، و أثر هذا في عقليتها العامة فارتسمت لها أخلاق جديدة مستوحاة من القرآن، و تفتحت أمامها آفاق لا عهد لها بها من سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم، فاندمجت فيما رأت، و نسيت نخوتها الجاهلية و عصبيتها للقبيلة، و استتبع ذلك أن ضاقت بها دائرة الشعر فلم تجد لها فيه مجالا إلا ما استمد روحه من الدين، و اصطنع بلون من أخلاق القرآن.

على أننا لا نريد أن نطلق هذا على جميع المكيين في ذلك العهد، و نحن نعلم أن مكة حفلت يومها بالمتمردين من البدو و الجفأ من الحضر، إلى جانب المؤمنين الذين أخلصوا دينهم و احترمو عقائدهم.

"و قال عن الناحية الاجتماعية: "و أحسبنا في غنى عن أن نشير إلى أن جلء المكيين، من كبار الصحابة أو البارزين في قبائلهم من السابقين الأولين إلى الإسلام، كانوا قد نفروا خفافا و ثقالا إلى المدينة محتذين حذو رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أن النبي كان قد كره لهم بعد الفتح أن يعودوا إلى الاستيطان بها برا بالمدينة و قد آوتهم، و إخلاصا لأهلها و قد ناصرهم.

أقول: لعلنا في غنى عن أن نقول هذا كله لنعرف من نتائجه ما ينبغي أن نعرفه، من أن مكة دفعت بجلء أبنائها إلى دار الهجرة، و أنها بقيت رغم هذا غاصة بسكانها الأصليين من بطون القبائل و النازحين إليها من العرب المجاورين و الموالى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥

بقيت غاصة بسكانها هؤلاء ترعى تجارتها في حدود الدين الجديد، و تستفيد من مواهب من يصل إليها في قليل من صناعاتها، و في كثير من أراضيها الصالحة للزراعة في أطراف مكة و ضواحيها.

(و قال عن الناحية العلمية): و كانت صلتها في هذه الأثناء بدوى قرابتها في المدينة من كبار المهاجرين لا تنقطع أسبابها، و قد أفادهم ذلك في كل ما يتصل بأسبابهم في المدينة، فإن كتب السيرة و المغازى و مدونى كتب الطبقات، يحدثوننا في أخبار على و ابن مسعود و ابن عباس و أبى ذر الغفارى و ابن عمر و أبى الدرداء، أنهم كانوا يترددون إلى مكة في مواسمها للحج أو غير مواسمها لأعمالهم الخاصة.

فتبين من ملابسات هذا: أن مكة كانت تستفيد من علومهم، و تتوسع معارفها الدينية بحكم هذه الاتصالات المستمرة خصوصا و نحن نعلم أن أصحاب هذه الأسماء كانوا يحتلون الدرجة العلمية الأولى بين صحابة رسول الله، و قد كانوا يقولون عن بعض هذا نفر أنه لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم بعلمه، و إذا أضفنا إلى هذا أن المكيين أنفسهم كانوا كثيرى التردد على رسول الله في المدينة، و أنهم كانوا ينزلون على من فيها من جلء المهاجرين فيجدون لديهم ما يروى غلتهم من الدين، استطعنا أن نعرف إلى حد بعيد نوعا من أنواع الاستفادة العلمية التي كانت تعتمدها مكة في عهدها هذا الذى نؤرخه.

و يحدثنا ابن هشام بعد هذا عن معاذ بن جبل فيقول: إن النبي صلى الله عليه و سلم اختاره يوم الفتح للقضاء في مكة عندما ولى أمارتها عتاب بن أسيد، و نحن إذ لا نجهل كفاية معاذ بن جبل و ميزته العلمية و إمامه الواسع، نستطيع أن نتبين نوعا آخر من أنواع الاستفادة التي اعتمدها مكة يومها في شأنها التعليمي، و إذا كانت كتب التاريخ تجمع على ندب معاذ بن جبل لتعليم اليمن، فليس في هذا ما يتنافى مع إقامته في مكة عقب الفتح مباشرة لينفع المكيين قبل انتدابه إلى اليمن، و يضيف الطبرى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أشرك معه هبيرة بن شبل.

انتهى من تاريخ السباعى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦

بعض ما قيل في حق مكة و المشاعر

قال مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط في فضل مكة المشرفة عامله الله تعالى بفضله و رحمته و لطفه و إحسانه و غفر له و لوالديه و رضى عنه و عنهما و عن جميع المسلمين آمين:

فمكة خير بلاد الله أليس فيها البيت بيت الله
 فضلتها من العصور الأول " ما الحب إلا للحبيب الأول "
 فيها الهدى و النور و الإيمان و الخير و الطاعة و الأمان
 و مهبط الوحي بها و الأنبياء فيهم فيها الأصفياء و الأولياء
 فيها مواضع الدعا المجابهة فمن دعا إلهه أجابه
 يأمن فيها الطير و الإنسان و الحيوان و كذا الغزلان
 فالحمد لله الذي جعلنا من أهلها، بفضله أكرمنا
 فمن أرادها بسوء أو بشرعاده و باله عليه بالضرر
 و اذكر دواما ما جرى للليل و قعتها أتتك في التنزيل
 و من تهاون بحق مكة يدكه الله بشر دكة
 و احذر من إيصال الأذى لأهلها و انظر بعين اللطف في حجاجها
 و لا تعامل أحدا بالمكر حتى تفوز دائما بالخير
 فالطير لا يجوز أن تنفره فكيف صفو المرء أن تعكره
 و إن رأيت الناس أساؤا الأدب فكن ليبيبا عاقلا مهذبا
 هذا هو الدين الصحيح السامى فافهم هديت لحمى الإسلام
 فمن يكن في قلبه الخير يجد خيرا أمامه عليه فاعتمد
 فإنما الأعمال بالنيات فافهم بلغت غاية الخيرات
 *** قال الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطلوسى يخاطب مكة المشرفة حرسها الله تعالى:

أمكنة تفديك النفوس الكرائم و لا برحت تنهل فيك الغمام
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧ و كفت أكف السوء عنك و بلغت مناها قلوب كى تراك حوائم
 فإنك بيت الله و الحرم الذى بعزته ذل الملوك الأعظم
 و قد رفعت منك القواعد بالتقى و شادتك أيد بره و معاصم
 و ساويت فى الفضل المقام كلاهما ينال به الزلفى و تمحى المآثم
 و من أين تعدوك الفضائل كلها و فيك مقامات الهدى و المعالم
 و مبعث من ساد الورى و حوى العلى بمولده عبد الإله و هاشم
 نبى حوى فضل النبيين و اغتدى لهم أولا فى فضله و هو خاتم
 و فيك يمين الله يلثمها الورى كما يلثم اليمنى من الملك لاثم
 و فيك لإبراهيم إذ وطئ الصفاضحا قدم برهانها متقاد
 دعا دعوة فوق الصفا فأجابه قطوف من الفج العميق و راسم

فأعجب بدعوى لم تلج مسمعى فتى و لم يعها إلا ذكى و عالم
 ألهمى لأقدار عدت عنك همتى فلم تنتهض منى إليك العزائم
 فيا ليت شعرى هل أرى فيك داعيا إذا جارت لله فيك الغنائم
 و هل تمحون عنى خطايا اقترفتها خطا فيك لى أو يعملات رواسم
 و هل لى من سقيا حجيجك شربه و من زمزم يروى به النفس حائم
 و هل لى فى أجر الملبين مقسم إذا بذلت للناس فيك المقاسم
 و كم زار مغناك المعظم مجرم فحطت به عنه الخطايا العظام
 و من أين لا يضحى مرجيك آمناو قد أمنت فيك المها و الحمام
 و لئن فاتنى عنك الذى أنا رائم فإن هوى نفسى عليك لرائم
 و أن يحمنى حامى المقادير مقدما عليك فإنى بالفؤاد لقدام
 عليك سلام الله ما طاف طائف بكعبتك العليا و ما قام قائم
 إذا نسّم لم تهد عنى تحية إليك فمهديها الرياح النواسم
 أعود بمن أسناك من شر خلقه و نفسى فما منها سوى الله عاصم
 و أهدى صلاتى و السلام لأحمد شفيع الورى، بل للنيين خاتم
 *** قال بعض الفضلاء من قصيدة طويلة فى المفاخرة بين مكة و المدينة:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨ لمكة مجد باذخ الركن و الفنن و فضل منيف باسق الدوح و الفنن
 و مكة فيها كعبة الحسن كله و زينها فى خدها خالها الحسن
 و مكة للمختار مسقط رأسه و كان له فيها احتضان لمن حضن
 و فى مكة منشأ أبيه و جده و أعمامه و الأصل و الفرع و الشجن
 و فى مكة وافاه جبريل أولا و كلمه بالوحى فى السر و العلن
 و فى مكة كانت مبادئ كلامه و إنزاله القرآن و الخير فى قرن
 و فى مكة أبدى الهدى نور وجهه و كانت بها من قبل بشرى ابن ذى يزن
 و فى مكة أسرى به الله ربه و طاف به السبع السموات فى سنن
 و فى مكة فتح مبين تنزلت به سورة بانة بفضل لها ابن
 و فى مكة كانت ولادة نسله و ما أنجبت منه خديجة فى الحجن
 و فى مكة موطن الخليل و داره و زمزمه و الحجر و المنزل الأغن
 إلى آخرها- نقلا عن الجامع اللطيف.

*** و قال بعضهم:

موضع البيت مهبط الوحى مأوى الرسل حيث الأنوار حيث البهاء
 حيث فرض الطواف و السعى و الحلق ورمى الجمار و الإهداء
 جبذا جبذا معاهد منها لم يغير آياتهن البلاء
 حرم آمن و بيت حرام و مقام فيه المقام تلاء
 فقضينا بها مناسك لا يحمد إلا فى فعلهن القضاء

و قال بعضهم:

هى البلد الأمين و أنت حل فطاها يا أمين فأنت طاها
 و وجه حيث كنت كذا إليها ولا تعدل إلى شىء سواها
 فوجه الله قبله كل حى لمن شهد الحقيقة و اجتلاها
 و هذا البيت بيت الله فيه إذا شاهدت فى المعنى سناها
 فهل عند مشهده كفاحا و زمزم عند زمزمه شفاها
 و قل بلسان عزمك فى رباها النفسى فى منى بلغت مناها
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩ إليك شددت يا مولاي رحلى جئت و مهجتي تشكو ظماها
 و ها أنا جار بيتك يا إلهى و بالأستار ممتسك عراها
 و للجيران و الضيفان حق على الجار الكريم إذا رعاها
 و قال بعضهم:

يا سائقا عن النياق و زمزما أبشر فقد نلت المقام و زمزما
 كم كنت تذكرنا منازل مكة و تقول أن بها المنى و المغنما
 برد بماء سقاية العباس ما كابدته طول الطريق من الظما
 و انهض و هرول بين زمزم و الصفا و ادخل إلى الحجر الكريم مسلما
 و مقام إبراهيم زره مبادرا و بحجر إسماعيل صل معظما
 و انظر عروس البيت تجلى حسنها للناظرين و لذ بها مستعصما
 فهى التى ظهرت فضائلها فلا تخفى و هل يخفى سنا قمر السما
 لم يلقها الإنسان إلا با كيا فرحا بها أو ضاحكا متبسما
 و النور من أحشائها لا يختفى أبدا و إن جن الظلام و أعتما
 و من العجائب أنها محروسه و الصيد فيها لا يزال محرما
 و الطير لا تعلق على أركانها إلا ليشفى إذ نجا متألما
 تختال فى حلل السواد و بابها بالنور منه مبرقعا و ملثما
 هى كعبة المولى الكريم و كل من وافى إليها حقه أن يكرما
 ما منهمو إلا ذليل خاضع باك على زلاته متندما
 يا رب قد وقفت ببابك عصبه يرجون منك تفضلا و تكريما
 ذا طالبا فضلا و ذا متقصدا مما جناه من الذنوب و قدما
 و مما جاء فى تاريخ الفاسى المسمى "شفاء الغرام" ما يأتى من القصائد و هو:
 يسوقهم طرب نحو الحجاز منهم ذروا ارتياح على أكوارها ميل
 شعت رؤوسهم بلس شفاههم حوص عيونهم غرث مهازيل
 حتى إذا لاح من بيت الإله لهم نور أذاهم على لقبرا أراجيل
 يعفرون وجوها طال ما سهمت باكين حتى أديم الأرض مبلول
 حفوا بكعبة مولاهم فكعبهم عال بها لهم طرف و تقبيل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠ و بالصفاء وقتهم صاف بسعيهم و فى منى لمناهم كان تنويل تعرفوا عرفات واقفين بهالهم إلى الله تكبير و تهليل
*** و مما جاء فيه أيضا:

أنا ما لى عن مكة براحو بها أشتفى من البرجاء
حبذا الكعبة قد تبدت و هى تزهو فى حله سوداء
فصفا سترها مساء صباح و بياض الثنا صباح مساء
قيل الخال لا أبا لكك عشرايا أخوا حياها بغير إيساء
و املاً الحجر باللالكى من الدمع عن عقيق الدماء
و اشربن من شراب زمزم كأسادب منه السرور فى الأعضاء
فهى حقا طعام طعم لجوع و لها للسقم أى شفاء
فسقى المسجد الحرام غمام و رعى عشنا على البطحاء
كم حطمنا لدى الحطيم ذنوبا كثرت عدها عن الإحصاء
صاح قم طف للاله سبعا تحظ بالأجر و المنى و الولاء
مر بالمروتين و أرق لترقى بجناب مراقى السعداء
و أكحل العين عند مسعاك بالميل ففیه شفاء ذاك العماء
ثم قف خاضعا على عرفات عل تعطى عوارف الأطاء
و أمها فى منى إلى جمرات جمرات اللظى بها فى انطفاء
*** و مما جاء فيه أيضا:

يا جيرتى بين الحجون إلى الصفاشوقى إليكم مجمل و مفصل
أهوى دياركم ولى بربوعها وجد يؤرقنى و عهد أول
و يزيدنى فيها العذول صبابه فيظل يغرينى إذا ما يعدل
و يقول لى لو قد تبدلت الهوى فأقول قد عنى الغداة تبدل
بالله قل لى كيف تحسن سلوتى عنها و حسن بصرى هل يجمل
هل فى البلاد محله معروفة مثل المعرف أو محل يحلل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣١ أم فى الزمان كليله النفر التى فيها من الله العوارف تجزل
أم مثل أيام تقضت فى منى عمر الزمان بها أعز محجل
فى جنب مجتمع الرفاق و منزع الأشواق حياها السحاب المسبل
*** و مما جاء فيه أيضا:

على الأبطح المكى طيب سلامى و أزكى تحيات كمسك ختام
و سقيا له من أدمع بهوامع تجود بحفظ الود جود كرام
فذاك هو الحى الذى طائر المنى له فيه بالاطراب سجع حمام
إذا ذكروا فى الحى طيب حديثه خلقت على السمار ثوب منام
و إن ظفرت نفسى بلثم ترابه لست بذاك اللثم خير لثام

منازل أفرأحي و أنسى و لذتى و موسم أعيادى و دار هيام
 إذا مر من بى نحوها نسمة الصبا وجدت لها بردا لحر أوامى
 متبعث فى الروح حتى أكاد أن أطير و قد قص الجناح سقامى
 فله عهد من معاهد أنه جديد و لو أبلى الممات عظامى
 فهل لى إلى تلك المواطن عودة على رغم حسادى و أهل ملامى
 و أكحل بالميل الأخيضر ناظرى يائمد ركن البيت قبل حمام
 و أنشد فى عيذى بقرب أحببى إلا أن هذا اليوم فطر صيامى
 أديروا أديروا ماء زمزم خالصا فذا خير كأس فى ألد مقام
 و نادوا على رأسى بأبواب شاربى عبيد ذليل مثقل بآثام
 عسى عطفه منكم عليه فإنه تعلق من إحسانكم بزمام
 و مما جاء فيه أيضا:

أنكرت سلمى و أياما بذى سلم لوقفه بين تعريف و عرفان
 و الدار أهله من كل مغترب يعرفو إليها بتهليل و قرآن
 و اسم الحبيب شعار العاشقين بهاتيك المشاعر من شيب و شبان
 لبيك لبيك توحيدا يؤكده توابع الشوق فى سر و إعلان
 و للإجابة سمع ليس يشغله شأن كبير من القول عن شان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢ و ينفرون إلى الزلفى بمزدلف جمعا بجمع و وجدانا بوجدان
 من لم يقف برسوم الموقفين فمامشت به قط للأحباب رجلان
 و فى منى للمنى ذاك المنال فلا تبعد بك الدار عن قرب و قربان
 و فى الإفاضة فيض الجود من ملك يلقى المسىء إذا استعفى بإحسان
 *** و مما جاء فيه أيضا:

يا طائفين بنا إنا نطوف بكم باعا بباع و وجدانا بوجدان
 مبادرين إليه السعى هرولة إليه تلقاه بشرى دون أحزان
 أما الغريب و إن عز المكان فلا يتبع بك الوهم فى تقرير إمكان
 من فاوض الركن قد فاوضته بيدى هذا يمينى فحيوها بإيمان
 من يستجر فإننا بالمستجار له نعم المجير إذ يلجا لى الجانى
 و عند ملتزم منا الملتزم لو شاء ما شاء منا غير منان
 ولى بززم سر فيه زمزمه عنوانها عند أزمات و أزمان
 هذى الأمانى لا أيام ذى سلم دار الأمانى فما دار بغمدان
 كفانى الله تبديلا بمظهرها حتى أغيب فى لحدى و أكفانى
 *** مما جاء فيه أيضا:

فشدوا مطايانا إلى الربع ثانيا فإن الهوى عن ربهم ما ثيناه
 ففى ربهم لله بيت مبارك إليه قلوب الناس تهوى و نهواه

يطوف به الجاني فيغفر ذنبه و يسقط عنه إثمه و خطاياہ
و كم لذة كم فرحة لطوافه فله ما أحلى الطواف و أهناه
نطوف كأننا بالجنان نطوفهاو لا هم لا غم جميعا نفيناہ
فيا شوقنا نحو الطواف و طيبة فذلك طيب لا يعبر معناه
فمن لم يذقه لم يذق قط لذة فذقه تذق يا صاح ما نحن ذقناه
ترى رجعة أو عودة لطوافناو ذاك الحمى قبل المنية نفشاه
فو الله لا ننسى الحمى فقلوبنا هناك تركناها فيا كيف ننساه
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣ و و الله لا ننسى زمان مسيرنا إليه و كل الركب يلتذ مسراه
و قد نسيت أولادنا و نساؤناو إخواننا و القلب عنهم شغلناه
ترأت لنا أعلام وصل على اللوى فمن ثم أمسى القلب عنهم لويناہ
جعلنا إله العرش نصب عيونناو من دونه خلف الظهور نبذناه
و سرنا نشق البيد للبلد الذى بجهد و شق للنفوس بلغناه
رجالا و ركباناً على كل ضامرو من كل فج مقفر قد أتيناہ
نخوض إليه البحر و البر و الدجاو لا مقطع إلا إليه قطعناه
و نظوى الفلا من شدة الشوق للقافنمشى الفلا نحكى السجل طويناہ
و لا صدنا عن قصدنا فقد أهلناو لا هجر جار أو حبيب ألفتناہ
و أموالنا مبدولة و نفوسناو لم نبغ شيئاً منها منعناه
*** و مما جاء فيه أيضاً:
نحج لبيت حجه الرسل قلبنا لتشهد نفعاً فى الكتاب وعدناه
دعانا إليه الله عند بنائه فقلنا له لييك داع أجبناہ
و ما زال وفد الله يقصد مكة إلى أن بدا البيت العتيق و ركناه
فحيث ضيوف الله بالذكر و الدعاو كبرت الحجاج حين رأيناہ
و قد كادت الأرواح تزهب فرحة لما نحن من عظم السرور وجدناه
و طفنا به سبعا رملنا ثلاثه و أربعة مشيا كما قد أمرناه
كذلك طاف الهاشمى محمد طواف قدوم مثل ما طاف طفناہ
و سالت دموع من غمام جفوننا على ما مضى من إثم ذنب كسبناہ
و نحن ضيوف الله حيناً لبيتته نريد القرى ينفى من الله حسناہ
فنادى بنا أهلاً ضيوف تباشروا و قروا عيوناً فالحجيج أضفناہ
فأى قرى يعلو قرانا لضيفناو أى ثواب فوق ما قد أثبناہ
فطيبوا و سيروا و افرحوا و تباشروا تيهوا و هيموا بابها قد فتحناہ
و لا ذنب إلا قد غفرناه منكم و ما كان من عيب عليكم سترناه

و مما جاء فيه أيضا:

و يوم منى سرنا إلى الجبل الذى من البعد قد حيا كما قد عهدناه
فلا حج إلا يكون بأرضه ووقوف و هذا فى الصحاح رويناه
إليه فؤاد المرء يشعر بالهنا و لولاه ما كان الحجاز سلكتاه
و بتنا بأقطار المحصب من منى فى طيب ليل بالمحصب بتناه
و سرنا إليه طالبين و قوفنا عليه و من كل الوجوه أممناه
على علميه للوقوف جلاله فلا زالتنا تحمى و تحرس أرجاه
و بينهما حزنا إليه برحمة فى طيبها ليت الزحام رجعناه
و لما رأيناه تعالى عجيجنا نلبى و بالتلهيل منا ملأناه
و فيه نزلنا بكرة بذنوبنا و ما هو من ثقل المعاصى حملناه
و بعد زوال الشمس كان و قوفنا إلى الليل نبكى و الدعا قد أطلناه
*** و مما جاء فيه أيضا:

على عرفات قد وقفنا بموقف به الذنب مغفور و فيه محونا
و قد أقبل البارى علينا بوجهه و قال أبشروا فالعفو فيكم نشرناه
و عنكم ضمنا كل تابعة جرت عليكم و أما حقنا قد وهبناه
أقلناكم من كل ما قد جنيتهم و من كان ذا عذر إلينا عذرناه
و طوبى لمن ذاك المقام مقامه و بشره فى يوم التغابن بشره
نرى موقفا فيه الخزائن فتحت و والى علينا الله منه عطايه
و دارت علينا الكأس بالوصل و الرضاسقينا شرابا مثله ما سقينا
فإن شئت تسقى ما سقينا على الحمى فخلقى التوانى و اقصد محلا حللناه
*** و مما جاء فيه أيضا:

فضل حجيج الله لليل واقفا فليل انفروا فالكل منكم قبلناه
أفيضوا و أنتم حامدون إلهكم إلى مشعر جاء الكتاب بذكره
و سيروا إليه و اذكروا الله عنده فسرنا و من بعد العشاء نزلناه
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥ و فيه جمعنا مغربا لعشائنا ترى عابد جمع بجمع جمعناه
و بتنا به و التقطنا جمارنا و ربا ذكرناه على ما هداياه
و منه أفضنا حيث ما الناس قبلنا أفاضوا و غفران إله طلبناه
*** و مما جاء فيه أيضا:

و نحو منى ملنا بها كان عيدنا و نلنا بها ما القلب كان تمناه
فمن منكم بالله عيد عيدنا فعيد منى رب البرية أعلاه
و فيها رمينا للعقاب جمارنا و لا جرم إلا مع جمار رميناه
و بالخيف أعطانا الإله أمانا و أذهب عنا كل ما نحن خفناه
وردت إلى البيت الحرام و فودنا رجعنا لها كالطير حن لمأواه

وطفنا طوافا للإفاضة حوله و لذنا به بعد الجمار و زرناه

*** و مما جاء فيه أيضا:

و من بعد ما زرناه دخلناه دخلة كأنا دخلنا الخلد حين دخلناه

و نلنا أمان الله عند دخوله كما أخبر القرآن فيما قرأناه

فيا منزلا قد كان أبرك منزلا نزلناه في الدنيا و بيت و طئناه

ترى حجة أخرى إليك و رحله و ذاك على رب العلا نتمناه

أخواننا ما كان أحلى دخولنا إليه و لبثا في حماه لبثناه

أخواننا أو حشتمونا هنيئا لكم فيا ليتكم معنا و أنا سكناه

*** و مما جاء فيه أيضا:

و بالحجر الميمون لذنا فإنه لرب السما في أرضه يمناه

نقبله من حبنا لإلهنا فكم لثمة طى الطواف لثمناه

على لثمة للشعث و الغبر رحمة فكم أشعث كم اغبر قد رجمناه

و ذاك لنا يوم القيامة شاهدو فيه لنا عهد قديم عهدناه

و نستلم الركن اليماني طاعة و نستغفر المولى إذا ما لمسناه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦ و ملتزم فيه التزامنا لذنباعهود و عفو الله فيه لزمناه

و كم موقف فيه مجاب لنا الدعادعونا به و القصد فيه نوبناه

و صلى بأركان المقام حجيجنا و فى زمزم ماء طهور و رذناه

و بين الصفا و المروة الحاج قد سقى فإن تمام الحج تكميل مسعاه

*** و مما جاء فيه أيضا:

و بينا حجيج الله بالبيت محدد و رحمة رب العرش تدنوا و تغشاه

و تداعت رفاق بالرحيل فما ترى سوى دمع عين بالدماء مزجناه

لفرقة بيت الله و الحجر الذى لأجلهما شاق الأمور شققناه

و ودعت الحجاج بيت إلهها و كلهم تجرى من الحزن عيناه

فله كم باك و صاحب حسرة يود بأن الله كان توفاه

و لا شهد التوديع يوما لبيته و إن فراق البيت مر وجدناه

و و الله لولا أن نؤمل عودة لذقنا طعام الموت حين مجعناه

و من بعد ما طفنا طواف و داعنا رحلنا إلى قبر الحبيب و مغناه

انتهى كل ما تقدم من القصائد من تاريخ الفاسى المسمى "شفاء الغرام".

*** و مما جاء فى كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام نقلا عن تاريخ الغازى ما نصه:

و من اللطائف المستملحة: أن بعض أهل المدينة فضلها على مكة فى قصيدة بعثها إلى أميرها يدعوه للإقامة عندهم، فلما سمعها أهل

مكة رد عليه أحدهم بقصيدة فى نهاية البلاغة فسمع بها رجل من جدّه فجعل نفسه حكما بينهما و لم يبخس من فضل مكة و المدينة

شيئا كما هو الواجب.

و إليك الحكاية كاملة: جاء فى تاريخ الغازى المخطوط المسمى "إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام" أن داود بن عيسى بن

موسى بن محمد ابن على بن عبد الله بن العباس عم رسول الله صلى الله عليه و سلم لما ولى مكة و المدينة فى خلافة الأمين محمد بن هارون الرشيد العباسى ولى ابنه سليمان المدينة و أقام داود بمكة فكتب إليه أهل المدينة يسألونه التحول إليهم و يعلمونه أن مقامه بالمدينة أفضل من مقامه بمكة، و أهدوا إليه فى ذلك شعرا و هو:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧ أداود قد فزت بالمكرمات و بالعدل فى بلد المصطفى و صرت ثمالا لأهل الحجازو سرت بسيرة أهل التقى و أنت المهذب من هاشم و فى منصب العز و المرتجى و أنت الرضى الذى نابهم فعدلك فىنا هو المنتهى و بالفىء أغنيت أهل الخصاص و فى كل حال فأنت الرضا و مكة ليست بدار المقام فهاجر كهجرة من قد مضى مقامك عشرون شهرا بها كثير لهم عند أهل الجحا فقم ببلاد الرسول التى بها الله خص نبي الهدى و لا يلفتك عن قربه مشير مشورته بالهوى فقبر النبي و آثاره أحق بقربك من ذى طوى

فلما ورد الكتاب و الآيات على داود بن عيسى أرسل إلى رجال من أهل مكة فقرأ عليهم الكتاب، فأجابه رجل منهم بقصيدة يرد عليهم و يذكر فيها فضل مكة و ما خصها الله تعالى بها من الكرامة و الفضيلة و يذكر المشاعر و المناقب فقال:

أداود أنت الإمام الرضى و أنت ابن عم نبي الهدى و أنت المهذب من كل عيب كبيرا و من قبله فى الصبا و أنت المؤمل من هاشم و أنت ابن قوم كرام التقى و أنت غياث لأهل الخصاص تسد خصاصتهم بالغنى أذاك كتاب حسود جحود أسا فى مقالته و اعتدى يخير يثرب فى شعره على حرم الله حيث أبتنا فإن كان يصدق فيما يقول فلا يسجدن إلى ما هنا و أى بلاد تفوق أمهاو مكة مكة أم القرى و ربي دحا الأرض من تحتهاو يثرب لا شك فيما دحا و بيت المهيمن فىنا مقيم بصلى إليه برغم العدا و مسجدنا بين فضله على غيره ليس فى ذا مرا صلاة المصلى تعادله مئين الوفا صلاة و فا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨ كذاك أتى فى حديث النبي و ما قال به يقتدى و أعمالكم كل يوم وفود إلينا شوارع مثل القطا فيرفع فيها إلهى الذى يشاء و يترك ما يشاء و نحن تحج إلينا العباد فيرمون شعنا بوتر الحصا و يأتون من كل فج عميق على أنيق ضمير كالقنا ليقضوا مناسكهم عندنا فمنهم سعاء و منهم مشا

فكم من ملب بصوت حزين ترى صوته فى الهوى قد علا
و آخر يذكر رب العبادو يثى عليه بحس الثنا
فكلهموا أشعث أغبر يؤم المعرف أقصى المدى
فظلوا به يومهم كله وقوفا يضجون حتى المسا
حفاة ضحاة قياما لهم عجيج ينادون رب السما
رجاء و خوفا لما قدمواو كلا يسأل رفع البلا
يقولون يا ربنا اغفر لنا بعفوك و الصفح عنم أسا
فلما دنا الليل من يومهم و لى النهار أجدوا البكا
و سار الحجيج له وجبة فحلوا بجمع بعيد العشا
فباتوا جميعا فلما بداعمود الصباح و لى الدجا
دعوا ساعة ثم شدوا النسوع على قلص ثم أموا منى
فمن بين ما قد مضى نسكه و آخر يبدا بسفك الدما
و آخر يهوى إلى مكة ليسعى و يدعو فيمن دعا
و آخر يرمل حول الطواف و آخر ماض يؤم الصفا
فأبوا بأفضل مما رجواو ما طلبوا من جزيل العطا
و حج الملائكة المكرمون إلى أرضنا قبل فيما مضى
و آدم قد حج من بعدهم و من بعده أحمد المصطفى
و حج إلينا خليل الإله و هجر بالرمى فيمن رمى
فهذا لعمرى لنا رفعة حباننا بهذا شديد القوى
و منا النبى نبى الهدى و فينا نبيا و منا ابتدا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩ و منا أبو بكر ابن الكرام و منا أبو حفص المرتجى
و عثمان منا فمن مثله إذا عدد الناس أهل الحيا
و منا على و منا الزبير و طلحة منا و فينا انتشا
و منا ابن عباس ذو المكرمات نسيب النبى و حلف الندى
و منا قریش و آباؤها فنحن إلى فخرنا المنتهى
و منا الذين بهم تفخرون فلا تفخرون علينا بنا
ففخر أولاء لنا رفعة و فينا عن الفخر ما قد كفى
و زمزم و الحجر فينا فهل لكم مكرمات كما هى لنا
و زمزم طعم و شرب لمن أراد طعاما و فيه الشفا
و زمزم تنفى هموم الصدور و زمزم من كل سقم دوا
و كم جاء زمزم من جائع إذا ما تضلع منها اكتفى
و ليس كزمزم فى أرضكم كما ليس نحن و أنتم سوا
و فينا سقاية عم الرسول و منها النبى امتلا و ارتوى

و فينا المقام فأكرم به و فينا المحصب و المنحنى
و فينا الحجون ففاخر به و فينا كداء و فينا كدى
و فينا الأباطح و المروتان فيخ يخ فمن مثلنا؟
و فينا المشاعر منشا النبي و أجياد و الركن و المتكا
و ثور و هل عندكم مثل ثور و فينا ثبير و فينا حرا
و فيه اختبأ نبي الإله و معه أبو بكر المرتضى
فكم بين أحد إذا جاء فخرو بين القبيس فيما نرى
و بلدتنا حرم لم تنزل محرمة الصيد فيما خلا
و يثرب كانت حلالا فلا تكذب فكم بين هذا و ذا
و حرمها بعد ذاك النبي فمن أجل ذلك جاذا كذا
و لو قتل الوحش فى يثرب لما فدى الوحش حتى اللقا
و لو قتلت عندنا نملة أخذتم بها أو تؤدوا الفدا
و لولا زيارة قبر النبي لكنتم كسائر من قد بدا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠ فإن قلت قولاً خلاف الذى أقول فقد قلت قول الخطأ
فلا تفحش علينا المقال و لا تنطقه بقول الخنا

و لا تفخرن بما لا يكون و لا ما يشنيك عند الملا
و لا تهج بالشعر أرض الحرام و كف لسانك عن ذى طوى
و إلا فجاءك ما لا تريد من الشتم فى أرضكم و الأذى
فقد يمكن القول فى أرضكم بسبب العقيق و وادى قبا
*** فأجابهما رجل من بنى ناسك كان مقيماً بجدة مرابطاً فحكم بينهما، و بين فضل البلدتين الطاهرتين "مكة و المدينة" فقال رحمه
الله تعالى:

إنى قضيت على الذين تماريا فى فضل مكة و المدينة فاسألوا
فلسوف أخبركم بحق فافهموا فالحكم حيناً قد يجوز و يعدل
فأنا الفتى العجلى جده مسكنى و خزائنه الحرم التى لا تجهل
و بها الجهاد مع الرباط و إنها لها الوقعة لا محالة تنزل
من آل حام فى أواخر دهرنا و شهيداً بشهيد بدر يعدل
شهداؤنا قد فضلوا بسعادة و بها السرور لمن يموت و يقتل
يا أيها المدنى أرضك فضلها فوق البلاد و فضل مكة أفضل
أرض بها البيت المحرم قبله للعالمين لها المساعدة تعدل
حرم حرام أرضها و صيودها و الصيد فى كل البلاد محلل
و بها المشاعر و المناسك كلها و إلى فضيلتها البرية ترحل
و بها المقام و حوض زمزم مترع و الحجر و الركن الذى لا يجهل
و المسجد العالى الممجد و الصفاو المشعران و من يطوف و يرمل

هل فى البلاد محلّة معروفة مثل المعرف أو محلّ يحلّل
أو مثل جمع فى المواطن كلها أو مثل خيف منى بأرض منزل
تلكم مواضع لا يرى بحرامها إلا الدعاء و محرم و محلّ
شرفا لمن وافى المعرف ضيفه شرفا له و لأرضه إذ ينزل
و بمكة الحسنات ضوعف أجرها و بها المسىء عن الخطيئة يسئل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١ يجزى المسىء على الخطيئة مثلها و تضاعف الحسنات منه و تقبل
ما ينبغى لك أن تفاخر يا فتى أرضا بها ولد النبى المرسل
بالشعب دون الردم مسقط رأسه و بها نشأ صلى عليه المرسل
و بها أقام و جاءه وحى السما و سرى به الملك الرفيع المنزل
و نبوة الرحمن فيها أنزلت و الدين فيها قبل دينك أول
هل بالمدينة هاشمى ساكن أو من قريش ناشئ أو مكهل
إلا مكة أرضه و قراره لكنهم عنها نأوا و تحولوا
و كذاك هاجر نحوكم لما أتى أن المدينة هجرة فتحملوا
فأجرتمو و قربتمو و نصرتمو خير البرية حقكم أن تفعلوا
فضل المدينة بين و لأهلها فضل قديم نوره يتهلل
من لم يقل أن الفضيلة فيكم قلنا كذبت و قول ذلك أرذل
لا خير فيمن ليس يعرف فضلكم من كان يجهله فلسنا نجعل
فى أرضكم قبر النبى و بيته و المنبر العالى الرفيع الأطول
و بها قبور السابقين بفضلهم عمر و صاحبه الرفيق الأفضّل
و العترة الميمونة اللاتى بهاسبت فضل كل من يتفضل
آل النبى بنو على إنهم أمسوا ضياء للبرية يشمل
يا من تبص إلى المدينة عينه فيك الصغار و صعر خدك أسفل
إننا لنهواها و نهوى أهلها و دادها حق على من يعقل
قل للمدينى الذى يزداد رداود الأمير و يستحث و يعجل
قد جاءكم داود بعد كتابكم قد كان حبلك فى أميرك يغتل
فاطلب أميرك و اشذره و لا تقم فى بلدة عظمت فوعظك أفضل
ساق الإله لبطن مكة ديمة تروى بها و على المدينة تسبل
انتهى من كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام.

نقول: لقد أجاد هذا الرجل الذى كان مقيما بجدة فى بيان فضل مكة و فضل المدينة، فرحمه الله رحمة واسعة و جزاه خير الجزاء، و
نحن ذكرنا هنا فضل مكة و لم نذكر عن فضل المدينة شيئا، لأن كتابنا هذا خاص عن تاريخ مكة، و إن شاء الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٢

إذا وضعنا كتابا عن المدينة المنورة سنتشرف بذكر فضلها و مكانتها، اللهم وفقنا للخيرات و تقبل منا صالح الاعمال آمين.

و من أطف الأقوال فى المسجدين الحرامين "بمكة و المدينة" قول السيد محمد بن عبد الله، الشهير بكبريت المدنى رحمه الله

تعالى، قال:

فارت مكة و الأشواق تجذبني لها و يمت طه معدن الكرم
 فهل درى البيت أنى بعد فرقة ما سرت من حرم إلا إلى حرم
 و قول الشيخ عبد الرحمن العمادى مفتى الحنفية بدمشق رحمه الله تعالى:
 فارت طيبة مشتاقا لطيبتها فجت مكة فى وجد و فى ألم
 لكن سررت بأنى بعد فرقتها ما سرت من حرم إلا إلى حرم
 اللهم اقبلنا أينما كنا و تداركنا برحمتك الواسعة، و لطفك الخفى يا أرحم الراحمين.

تذكر النبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه مكة بعد الهجرة

ينزع الطير إلى و كره الذى درج منه فلا يزال إن لم به الليل، و أضله الظلام- يلتمس إليه الطريق دوحه بعد دوحه- و غصنا فى أثر
 غصن. و بين ذاك ينوح بإيقاع من الحزن يزكى لهيب الأسى و يثير الشجون.
 لقد تجاوز الطير فى سبيله ما تجاوز: من رائع الزهر و يانع الورد، و وارف الورق، و داني القطوف، فما باله لم يبتغ بين كل أولئك
 مقاما، أهو واجد فى و كره ما يجده فيما حوله من ماء روى، و هواء غذى، و طعام شهى، و حب نثير، و بساط نصير، و فراش وثير، و
 هل وراء ذلك بغية لنفس.
 أجل إنه يطلب الوطن، و له بين جوانحه معنى لا- يراه فيما رآه فهو منبت نفسه، و مهبط رأسه، و مدرج طفولته، و مرتع حدائته، و
 مجمع إلقائه، و ملتقى أحبائه، فكان من الحق ألا يهيم إلا به، و لا يحن إلا إليه. انتهى.

الوطن، لشوقى بك

و جانب من الثرى يدعى الوطن ملء العيون و القلوب و الفطن
 مزين للآدمى العاقل و كل سهلى و كل عاقل
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٣ و الأسد الخادر فى البوادي و النمل فيما اتخذت من وادى
 و نزعة الناس إلى أوطانها كنزعة الإبل إلى أعطانها
 يحبه الأقوام منذ كانوا لا يساوون به مكانا
 إذا أتاهم أيسر النداء منه جروا لغاية الفداء
 أو ذكر الحنين و الحفاظلم تجر إلا باسمه الألفاظ
 و تكرم الدار على الحر الأبى كرامة الأم عليه و الأب
 و ليس من عرض و لا حریم تحميه فوق الوطن الكريم
 الجسم من تربته و مائه و الروح روح هب من سماه
 و كل ما حولك من هباته و ما وجدت فهو من نباته
 أمانة الأول عند الآخر خزانة الآثار و المفخر
 انتهى.

فالوطن عزيز على كل أحد، حتى لو كان قرية صغيرة فما بالك إذا كان الوطن بلدة كبيرة شهيرة.

(يحكى) في قديم الزمان أن رجلا- كان عنده طير وضعه في قفص من ذهب، فكان يطعمه حبا نقيا نظيفا و يسقيه ماء طهورا معطرا فاستضاف يوما أحد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلما رآه الطير صار يغرد تغريدا متواصلا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لمضيفه: أتدرى ما يقول هذا الطير؟ قال: لا، قال: فإنه يحب أن تطلقه من هذا القفص ليذهب إلى وطنه، فقد اشتاق إليه كثيرا، قال: سأطلقه يا نبي الله، ولكنى أحب أن ترسل وراءه أحد الطيور ليأتينا بخبره أين يقع وطنه. فأمر النبي الكريم طيرا من الطيور أن ينطلق وراءه ليأتى بخبره، فذهب وراءه فما زال يطيران حتى وصلا إلى موطن الطير وإذا به يقع على شجرة يابسة في وسط الصحراء قاحلة وإذا الطير يغرد تغريدا الفرح والسرور ويقول: إن هذه البقعة القاحلة الجرداء أفضل عندي من المحل الذي كنت فيه- هذه الحكاية لا تهمنى صحة روايتها بقدر ما يهمننا مغزاها ومعناها، فرحم الله من حكاها لنا و غفر لنا و له.

قال بعضهم في الوطن:

بلاد ألفتناها على كل حاله وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
و تستحسن الأرض التي لا هواؤها ولا ماؤها عذب ولكنها وطن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤ و رب امرئ ألقى هواه على امرئ فلم ير منه غير ما يورث الحزن
وقال ابن الرومي في الوطن:

ولى وطن آليت أن لا أبيعوه أن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرح الشباب منعبا بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
و حبب أوطان الرجال إليهم ما رب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهد الصبا فيها فاحنوا لذلكا
وقد ألفتة النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا

فكم تغنى الشعراء و أشاد الكتاب و الأدباء بالوطن، أى وطن كان، فما بالك بمن وطنه أشرف الأوطان و بلده أقدس البلاد و أطهرها
و هو "أم القرى بلد الله الأمين" فحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم و صحابته المهاجرين الكرام أن يشتاقوا لوطنهم العزيز
المقدس "مكة" التى فيها بيت الله عز شأنه، و فيها نزل القرآن و هبط جبريل. و فى اشتياقه صلى الله عليه وسلم إلى مكة عند هجرته
منها يقول الله عز شأنه فى آخر سورة القصص: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ.

قال بعض المفسرين: سبب نزول هذه الآية: أنه صلى الله عليه وسلم لما أذن له فى الهجرة إلى المدينة و خرج من الغار مع أبى بكر
ليلا فى غير الطريق، فلما نزل بالجحفة بين مكة و المدينة و عرف طريق مكة اشتاق إليها و ذكر مولده و مولد أبيه، فنزل عليه جبريل و
قال له: أتشتاق إلى بلدك و مولدك؟ فقال عليه السلام: نعم، فقال جبريل:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ يَعْنِي إِلَى مَكَّةَ ظَاهِرًا عَلَيْهِمْ. و سميت البلد معادا؛ لأن شأن الإنسان
أن ينصرف من بلده و يعود إليها. انتهى.

و إليك بعض ما ورد عن ذكرياتهم " و الذكريات صدى السنين الخوالى " نذكرها مختصرا من تاريخ الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى،
فقد جاء فيه:

قال ابن أبى الحمراء: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول و هو بالحزورة: و الله إنك لخير أرض الله إلى الله و لو أنى
أخرجت منك ما خرجت " -الحزورة كانت قرب باب الوداع ثم دخلت فى المسجد.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥

و عن ابن أبى نجیح قال: قالت عائشة: لولا- الهجرة لسكنت مكة، إنى لم أر السماء بمكان قط أقرب إلى الأرض منها بمكة و لم
يطمئن قلبى ببلد قط ما اطمان بمكة، و لم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة.

و عن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة و عك أبو بكر رضى الله عنه و بلال، فكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أخذته الحمى يقول:
كل امرئ مصبح في أهله و الموت أدنى من شراك نعله
و كان بلال إذا ألقع يرفع عقيرته و يقول:
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بفتح و حولى أذاخر و جليل
هل أردن يوما مياه مجنؤه و هل يبدون لى شامه و طفيل
و قد جاء هذا فى صحيح البخارى فى كتاب الطب فى باب عيادة النساء الرجال.

اللهم العن شبيهة بن ربيعة و عتبة بن ربيعة و أمية بن خلف كما أخرجونا من مكة " و المواقع المذكورة فى البيتين هى بقرب مكة. " نقول: أما فح بقاء معجمه، فهو واد فى مدخل مكة و هو عند الزاهر و الشهداء، و أما أذاخر و جليل فقد ذهبنا إلى هذين المحلين فى صباح اليوم التاسع من شهر شعبان عام ألف و ثلاثمائة و ستة و سبعين لمعرفة هذين الموقعين، فهما واقعان فى محلة المعابدة بمكة المشرفة، متصلان بخريق العشر، يدخل الإنسان فى شعب يطل عليه قلعة صغيرة قديمة البنيان تهدم نصفها المقابل للجبل، فهذا الشعب يسمى شعب "ذاخر" و هو المذكور فى البيتين، و هو شعب عامر بالعرب من سكان مكة ليس بينهم غريب، و يقع جبل حراء على يمين شعب ذاخر، لكنه لا يظهر من بطنه بسبب الجبال.

و لقد ذكر الأزرقى فى تاريخه ثنية أذاخر بصحيفة ٢٣٤ من الجزء الثانى، بقوله: ثنية أذاخر هى الثنية التى تشرف على حائط خرمان، و من ثنية أذاخر دخل النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة، و قبر عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بأصلها مما يلى مكة فى قبور آل عبد الله بن خالد بن أسيد، و ذلك أنه مات عندهم فى دارهم فدفنوه فى قبورهم ليلا. انتهى كلامه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦
فإذا واصل الإنسان السير صوب الشام، يخرج إلى فسحة أمامه فى وسطها تقع بناية جميلة حديثه تسمى "المجزرة الجديدة" بنيت فى أول العام المذكور، لكنها لم تستعمل بعد و ليس حولها بانيان، ثم إذا مشى الإنسان عن يمينه قبل الوصول إلى المجزرة الجديدة صاعدا فى أرض صخرية مرتفعة، فإنه يستقبل شعب "جليل" كما يستقبل أمامه طودا عظيما شامخا هو "جبل حراء".
فجليل واد متسع سهل غير مسكون، ليس فيه سوى محلين صغيرين و بقعة صغيرة مزروعة، و يقع شعب جليل بظهر جبل حراء من جهة الشام، و هو ظاهر أمامه بقبته الطبيعية الفريدة.

و الحق يقال أن شعب أذاخر و وادى جليل بقعتان جميلتان مباركتان، تنبسط فيهما النفس و تنشرح لذيها الصدور، و لقد ذهبنا إلى كثير من البقاع و الشعوب حول مكة فلم نجد مكانا يضاهيهما فى جمالهما الطبيعى و شدة ارتياح الإنسان إليهما، و انشراح النفس فيهما، مع أنهما لا زرع فيهما و لا شجر، إلا ما أودع الله فيهما من جمال طبيعى و روعة و صفاء، و نعتقد أن غالب أهل مكة، لم يصلوا إليهما حيث إنهما من الجهات غير المطروقة. و و الله إنه ليحق لبلال رضى الله تعالى عنه أن يتذكرهما و يحن إليهما فى غربته.

و عن طلحة بن عمرو قال: قال ابن أم كلثوم و هو آخذ بخظام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو يطوف:

حبذا مكة من وادى بها أرضى و عوادى

بها ترسخ أوتادى بها أمشى بلا هادى

نقول: هذان البيتان لأبى أحمد بن جحش، فقد جاء فى كتاب "الإصابة فى تمييز الصحابة" عند ترجمه أبى أحمد بن جحش الأسدى رضى الله تعالى عنه و هو من السابقين الأولين إلى الإسلام، كان أبو أحمد ضريرا يطوف بمكة أعلاها و أسفلها، بغير قائد، و كانت عنده الفارعة بنت أبى سفيان بن حرب، و شهد بدر و المشاهد، و كان يدور مكة بغير قائد، و فى ذلك يقول:

حبذا مكة من وادى بها أهلى و عوادى

بها ترسخ أو تادى بها أمشى بلا هادى

و أبو أحمد أخو أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنهما. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٧

وقال ابن شهاب: قدم أصيل الغفارى قبل أن يضرب الحجاب على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فدخل على عائشة رضى الله عنها فقالت له: يا أصيل، كيف عهدت مكة؟ قال: عهدتها قد أخصب جنابها و ابيضت بطحاؤها. قالت: أقم حتى يأتيك النبى صلى الله عليه وسلم فلم يلبث أن دخل النبى صلى الله عليه وسلم فقال له: يا أصيل، كيف عهدت مكة؟ قال: والله عهدتها قد أخصب جنابها و ابيضت بطحاؤها و أغدق إذخرها، و أسلت تمامها، و أمش سلمها، فقال: حسبك يا أصيل لا تحزنا. يعنى بقوله: أمش سلمها، يعنى نوايمه الرخصة التى فى أطراف أغصانه.

و كان رجل من جرهم كان بمكة على دين إبراهيم و إسماعيل عليهما الصلاة و السلام فأخرجه من مكة عمرو بن لحي، فنزل بأضم من أعراض المدينة نحو الشام، فقال و قد تشوق إلى مكة: ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلته و أهلى معى بالمأزمين حلول و هل أرين العيس تنفخ فى البرلها بمنى و المأزمين ذميل منازل كنا أهلها لم تحل بنا زمان بها فيما أراه تحول مضى أولونا راضين بشأنهم جميعا و غالتنى بمكة غول انتهى ملخصا من تاريخ الأزرقى.

و فى صحيفه ٥٥ من الجزء الأول من التاريخ المذكور جاء بهامشها عن البيت الثالث مرويا فى ياقوت هكذا:

منازل كنا أهلها فأزالنا زمان لنا بالصالحين خذول

و جاء أيضا فى تاريخ الأزرقى عن عبد الرحمن بن هشام أنه قال: خرجت غازيا فى خلافة بنى مروان فقلنا من بلاد الروم فأصابنا مطر فأوبنا إلى قصر فاستدربنا به من المطر، فلما أمسينا خرجت جارية مولده من القصر، فتذكرت مكة و بكت عليها، و أنشأت تقول: من كان ذا شجن بالشام يحبسه فإن فى غيره أمسى لى الشجن و إن ذا القصر حقا ما به وطنى لكن بمكة أمسى الأهل و الوطن إلى آخره. انتهى من الأزرقى باختصار.

و فى الأزرقى ما ملخصه:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٨

لما غلبت خزاعة جرهما و نفتهم عن مكة و من ضمنهم مضاض بن عمرو بن الحارث ملك جرهم و المطاع فيهم، مع أنه كان يعظهم و يحذرهم عاقبة البغى فى الحرم، أرسل إلى خزاعة يستأذنها فى دخول مكة و النزول فى جوارهم و قد كان اعتزل الحرب التى وقعت بينها و بين جرهم، فلم تأذن خزاعة له أن يدخل مكة، فانطلق مضاض بن عمرو نحو اليمن إلى أهله و هم يتذاكرون ما حال بينهم و بين مكة، و ما فارقوا من أمتها و ملكها، فحزنوا على ذلك حزنا شديدا، فبكوا على مكة، و جعلوا يقولون الأشعار فى مكة، فمما قاله فى ذلك قصيدة أولها:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس و لم يسمر بمكة سامر

إلى أن قال بعد أحد عشر بيتا:

و صرنا أحاديثا و كنا بغبطة كذلك عضتنا السنون الغوابر

فسحت دموع العين تبكى لبلده بها حرم آمن و فيها المشاعر

بواد أنيس ليس يؤذى حمامه ولا منفرا يوما وفيها العصافر
 وفيها وحوش لا ترام أنيسة إذا خرجت منها فما أن تغادر
 فياليت شعري هل تعمر بعدنا جياذ فمضى سيله فالظواهر
 فبطن منى وحش كأن لم يسر به مضاض و من حبي عدى عماير
 و مما قاله أيضا:

يا أيها الحى سيروا إن قصر كم أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
 إنا كما كنتموا كنا فغيرنا دهر فسوف كما صرنا تصيرونا
 حثو المطى و أرخوا من أزمته قبل الممات و قضا ما تقضونا
 قد مال دهر علينا ثم أهلكنا بالبغى فيه و بر الناس ناسونا
 إن التفكير لا يجدى بصاحبه عند البديهة فى علم له دوننا
 قضا أمور كموا بالحزم إن لها أمور رشد رشدت ثم مسنونا
 و استخبروا فى صنيع الناس قبلكم كما استبان طريق عنده الهونا
 كنا زمانا ملوك الناس قبلكم بمسكن فى حرام الله مسكونا
 انتهى باختصار من تاريخ الأزرقى.

هذا بعض ما ورد عن التشوق إلى مكة المشرفة من أهلها الذين شطت بهم الدار فى العصور السالفة، و لئن أردنا ذكر كل ما يمت إلى
 هذا الموضوع لطلال بنا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩

الكلام و المقال. و من عجيب ما روته مجلة "آخر ساعة" التى تصدر بالقاهرة فى العدد الذى صدر فى ٢١ نوفمبر عام ١٩٥٦ من
 الميلاد فقد قالت: وصلت أول طائرة إلى مطار القاهرة قادمة من سويسرا و النمسا فنزل منها مصرى من رجال الأعمال اسمه "بسيونى
 جمعة" قد احتجزته ظروف الحرب فى "أثينا"، و لم يكد الرجل المذكور يهبط فى المطار حتى نسى المستقبلين الذين كانوا
 ينتظرونه، و انحنى على الأرض، و أخذ يقبل ذرات التراب التى تكسو أرض مطار مصر، و رآه راكب آخر اسمه "عدلى عزيز" كان
 يليه فى النزول، فلم يتمالك نفسه و ارتمى على أرض بلاده و أخذ يقبل ترابها. اهـ.
 فانظر حب الوطن كيف يفعل بالأبواب.

و الحق يقال أننا لم نجد أى شخص من مكة سافر إلى الخارج، إلا و هو يهرول إليها إذا انقضت حاجته، و لقد كنا أقمنا بمصر بضع
 سنين لطلب العلم أيام الشاب، فإذا جاء موسم الحج، كنا نتشوق إلى مكة أعظم الشوق، حتى كنا نبكى أحيانا، و ليس فى ذلك من
 غرابة.

و ما أحلى كلام أمير الشعراء أحمد شوقى بك، رحمه الله تعالى فى كتابه "دول العرب و عظماء الإسلام" حيث يقول "فى الوطن:"

و جانب من الثرى يدعى الوطن ملء العيون و القلوب و الفطن

مزين للآدمى العاقل و كل سهلى و كل عاقل

و الأسد الخادر فى البوادي و النمل فيما اتخذت من وادى

و نزعة الناس إلى أوطانها كنزعة الإبل من أعطانها

يجبه الأقوام منذ كانوا لا يساوون به مكانا

إذا أتاهم أيسر الندامنه جروا لغاية الفداء

أو ذكر الحنين و الحفاظلم تجر إلا باسمه الألفاظ
 كم من دماء سلن حول حوضه و من عروض زلن دون عرضه
 و فى سبيله قضى رجال من أن يلاقوا تستحى الآجال
 و باسمه كم تاجر الفساق و انغادت الناس لهم فساقوا
 و تكرم الدار على الحر الأبي كرامة الأم عليه و الأب
 و ليس من عرض و لا حریم تحميه فوق الوطن الكريم
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٠ الجسم من تربته و مائه و الروح روح هب من سمائه
 و كل ما حولك من هباته و ما وجدت فهو من نباته
 أمانة الأول عند الآخر خزائن الآثار و المفخر
 و حوض ما جف من الشباب و قصف الدهر من الأحباب
 و رسم ما بان من الليالى و أثر الأيام فى الخيال
 و مخلق الشباب و المشيب و ملبس البالى على القشيب
 و فى ثراه البلقع اليباب ما شئت من أهل و من أحباب
 و فى له من ليس بالوفى و هشت من لم يك بالحفى
 انتهى.

اللهم إن (مكة) بلدك الحرام، و فيها بيتك المعظم، و هى مهبط أنبيائك و ملائكتك، و مستقر أصفياك و أوليائك، و مركز
 رحمتك و رضائك، فاجعلها اللهم آمنة مطمئنة رخيئة، عامرة بعبادتك و خيراتك، و أصلح أهلها و وفقهم لمرضاتك، و أمتنا فيها
 على الإيمان الكامل، حتى تبعثنا يوم القيامة من الآمنين من كل خوف و فزع، و أدخلنا الجنة بسلام آمنين مع النبيين و الصديقين و
 الشهداء و الصالحين بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين، و صلى الله على النبي الأسمى و على آله و صحبه أجمعين آمين.

مدخل مكة المشرفة

من المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم حينما بعثه الله تعالى بالرسالة إلى الناس كافة، مكث ثلاثة عشر سنة و هو يدعو قريشا
 بمكة، يدعوهم بالتبشير و الإنذار، بالقوة و القتال، فلما كثر أذى المشركين له، و دبروا أمر قتله، أمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة
 المنورة، فتوجه من ساعته إلى بيت صديقه أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، و أخبره بأن الله تعالى قد أذن له بالهجرة، فسأله أبو بكر
 الصعبة، فوصلا إلى المدينة، و نزل صلى الله عليه و سلم بقاء فى اليوم الثانى من ربيع الأول، و هو يوافق العشرين من شهر سبتمبر سنة
 (٦٢٢) اثنين و عشرين و ستمائة ميلادية كما حققه محمود الفلكى المصرى رحمه الله تعالى، فمن هذه الهجرة وضع عمر بن الخطاب،
 رضى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١

الله تعالى عنه، بدء التاريخ العربى الهجرى، و قدم ميعاد الهجرة شهرين و أياما ليكون بدؤها من شهر محرم ليتحد بدء الهجرة و بدء
 السنة الهلالية.

فابتدأ صلى الله عليه و سلم، يدعو إلى الإسلام جهرا منذ وصوله إلى المدينة، و قد أذن الله تعالى للمهاجرين بقتال المشركين حيث
 أخرجوهم من ديارهم بغير حق كما جاء ذلك صريحا فى سورة الحج: **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ***
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ و فى الحديث الشريف: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله

فإذا قالوها عصموا عنى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله."

فكان ابتداء القتال والجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى بالمدينة المنورة، وكان ذلك إما بالسرية، بكسر الرءاء المخففة، وهى قطعة من الجيش ليس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإما بالغزو وهى التى فيها النبى الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، فمكث صلى الله عليه وسلم عشر سنين بالمدينة المنورة، ثم فارق هذه الدنيا، ولحق بالرفيق الأعلى، وذلك ضحوه الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول فى السنة الحادية عشر من الهجرة، الموافق لليوم الثامن من شهر يونيو سنة (٦٣٣) ميلادية.

وغزوة فتح مكة المشرفة كانت فى السنة الثامنة من الهجرة، فقد سار النبى صلى الله عليه وسلم، فى منتصف رمضان من المدينة بعد أن ولى عليها ابن أم كلثوم، بجيش عظيم يبلغ عشرة آلاف مجاهد، فلما وصل عليه الصلاة والسلام إلى مَرَّ الظهران، وهو على مرحلة من مكة وتسمى "وادي فاطمة" أمر بإيقاد عشرة آلاف نار، فقال أبو سفيان وقد جاء مع رجلين يستطلعون الخبر، وذلك قبل أن يسلم: ما هذه لكأنها نيران عرفه، فلما أخذهم الحرس وأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلم أبو سفيان.

ثم سار النبى صلى الله عليه وسلم يريد مكة، وأمر أن تركز رايته بالحجون بمكة عند منتهى البيوت وأدناها "أى فى موضع مسجد الرابة بالجودرية اليوم." وأمر خالد بن الوليد أن يدخل بجيشه مكة من أسفلها من طريق كدى بضم الكاف بالتصغير، ودخل صلى الله عليه وسلم مكة من أعلاها من كداء بفتح الكاف والمد، وبعضهم يقول دخلها من ثنية أذاخر وهو راكب راحلته منحني على الرحل تواضعا لله وشكرا له على هذه النعمة العظمى، حتى لتكاد جبهته تمس الرحل، وأسامة بن زيد رديفه- وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان، حتى وصل إلى الحجون فى موضع رايته، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة رضى الله عنهما،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢

فاستراح قليلا، ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى بلغ البيت، وطاف سبعا على راحلته واستلم الحجر بمحجته، وكان حول الكعبة إذ ذاك ثلاثمائة وستون صنما فجعل عليه السلام يطعنها بعود فى يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل وما يبدئ الباطل وما يعيد، ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم فى أيديهما الأزام فقال عليه السلام: "قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط." وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة، وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأجناس، سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب إلا قليلا.

وقد بسطنا الكلام على فتح مكة المشرفة، إنما أتينا بهذه النبذة كمقدمة لما سيأتى من الكلام لمداخل مكة، وإليك تفصيل ذلك، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

جاء فى تاريخ الأزرقى عن مجاهد أنه قال: وجد فى بعض الزبور "أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين وصغتها يوم صغت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، وجعلت رزق أهلها من ثلاثة سبل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاث طرق، من أعلى الوادى وأسفله وكداء وباركت لأهلها فى اللحم والماء." انتهى من الأزرقى.

وقال القطبى فى تاريخه: ومكة شرفها الله تعالى، تحيط بها جبال لا يسلك إليها الخيل والإبل والأحمال إلا من ثلاث مواضع، أحدها من جهة المعلاة، والثانية الشبيكة، والثالثة من المسفلة، وأما الجبال المحيطة بها، فيسلك من بعض شعابها الرجال على أقدامهم، لا الخيل والجمال والأحمال. انتهى من القطبى.

نقول: إن الله تعالى لما أحاط بلده الأمين "مكة" بالجبال الشامخات، جعل لها من أصل الخلقة ثلاث طرق عامه يدخل الناس منها بدوابهم وأحمالهم، ولا زالت هذه الطرق العامة مستعملة مطروقة إلى اليوم، فيأتى إليها الناس ركباناً ومشاة من طريق الطائف من أعلاها وهى جهة المعلاة، ويأتون إليها أيضا من طريق اليمن من أسفلها وهى جهة المسفلة، ويأتون إليها أيضا من طريق جدة من

جهة الشبيكة.

فهذه ثلاث طرق أصلية لا زالت مستعملة من قديم الأزل إلى اليوم، و يمكن أيضا الوصول إلى مكة من جميع جهاتها، بتسلق الجبال و المشى بين الشعاب الملتوية، لكن ذلك يستلزم المشقة و التعب الشديد، و ربما ضل السائر طريقه فهلك من العطش و التعب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣

و المراد بالمعلاة و المسفلة في اصطلاح العرب القدماء هو كما يأتي:

ذكر الإمام الأزرقى في تاريخه في حد المعلاة ما نصه: قال أبو الوليد: حد المعلاة من شق مكة الأيمن ما جازت دار الأرقم بن أبي الأرقم، و الزقاق الذى على الصفا يصعد منه إلى جبل أبي قبيس مصعدا فى الوادى، فذلك كله من المعلاة و وجه الكعبة و المقام و زمزم و أعلا المسجد، و حد المعلاة من الشق الأيسر من زقاق البقر الذى عند الطاحونة، و دار عبد الصمد بن على اللتان مقابل دار يزيد ابن منصور الحميرى خال المهدي يقال لها دار العروس مصعدا إلى قعيقعان، و دار جعفر بن محمد و دار العجلة و ما حاز سيل قعيقعان إلى السويقة و قعيقعان مصعدا، فذلك كله من المعلاة.

و أما حد المسفلة، فقد قال الأزرقى في تاريخه أيضا ما نصه: قال أبو الوليد من الشق الأيمن من الصفا إلى أجيادين فما أسفل منه فذلك كله من المسفلة، و حد المسفلة من الشق الأيسر من زقاق البقر متحدرا إلى دار عمرو بن العاص و دار ابن عبد الرزاق الجمحى و دار زبيدة، فذلك كله من المسفلة، فهذه حدود المعلاة و المسفلة. انتهى من الأزرقى.

نقول: ظهر مما تقدم من كلام الأزرقى، أن موضع السعى من الصفا و ما حاذاه و قابله من جبل قعيقعان إلى جهة الشمال، يعنى الحجون فما فوق، هو حد المعلاة.

و من موضع السعى من الصفا من خلف أجياد و ما حاذاه و قابله من السوق الصغير و الشبيكة فما تحت، ذلك هو حد المسفلة. هذا بحسب الاصطلاح فى الزمن القديم، قبل أن يكثر الناس بمكة، و قبل أن تتفرغ الشوارع إلى حارات و محلات، فلما تفرعت و كثرت كما فى زماننا و من قبل زماننا سميت بمختلف الأسماء لسرعة الاهتداء إلى الأماكن و المنازل.

و لقد قمنا بجولة استطلاع عن مداخل مكة فى أواخر شعبان سنة ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف، و بصحبتنا أحد العربان الخبيرين بمدخل مكة المكرمة و الدروب الموصلة إليها، و هو عبيد بن عبد الله العدوانى من أهل المعابدة بمكة.

و إليك فى هذا الجدول ما حققنا فى هذا الموضوع بالتفصيل التام:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤

جدول مداخل مكة من جهاتها الأربعة

الجهة/ عدد المداخل/ اسم المداخل من الجهة الشرقية/ مدخلان/ درب الشرائع، و طريق منى.

من الجهة الغربية/ أربع مداخل/ باب جدة، و ريع أبى لهب، و ريع الكحل، و درب الهنداوية.

من الجهة الشمالية/ ثلاث مداخل/ ريع اللصوص، و ريع أذاخر، و درب الخانسة.

من الجهة الجنوبية أى اليمانية/ ثلاث مداخل/ طريق المفجر، و ريع كدى، و طريق المسفلة.

انظر: صورة رقم ٢١، باب جدة عند مدخل مكة بجروول

هذه المداخل المتعددة المذكورة فى هذا الجدول من الجهات الأربعة لمكة، تبعد عنها بقليل لكنها كلها واقعة فى أرض الحرم، و معنى الريع بكسر الراء طريق بين جبلين متقاربين، أما مداخلها الثلاثة التى ذكرها الأزرقى و القطبى و هى: المعلاة و الشبيكة و المسفلة، إنما هى مداخل مكة من داخلها و من بطنها لا تبعد عنها فافهم ذلك جيدا.

و ريع اللصوص المذكور فى الجدول هو مدخل مكة من الجهة الشمالية و يوصل إلى وادى أبو عشرين، و يتفرع منه الدروب للوادى و السنوسية و الجعرانة، وسمى بدرب اللصوص، لأنهم كانوا يأتون من هذا الدرب لعدم وجود الحراسة به من الجنود و العساكر (الطريق

الذى دخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم فتحها).

لقد تقدم الكلام على مداخل مكة بالتفصيل التام.

فبقى علينا أن نعرف مدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة في عام الفتح، فإنه صلى الله عليه وسلم حين وصل بجيشه إلى ذى طوى - أمر الزبير بن العوام أن يدخل مكة من طريق "كداء" بفتح الكاف وبالهمزة، و كداء هي الثنية التي بأعلى مكة التي يهبط منها إلى المقبرة المعروفة بالمعلا، ويقال لها الحجون، و يركز رايتها بأعلى الحجون و قال له: لا تبرح من حيث أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك، فسار الزبير بالناس، حتى وقف بالحجون و غرز هناك راية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

و أمر خالد بن الوليد أن يسير بمن أسلم من قضاة و بنى سليم و غيرهم، فيدخل مكة من "الليط" من أسفل مكة، و أن يركز رايته عند منتهى البيوت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥

و أذناها، و معنى دخوله من الليط، أى من طريق "كدى" بضم الكاف و تشديد الياء و بالتصغير. و هي الموضع الذى يستحب الخروج منه، و هي الثنية التي بأسفل مكة التي بنى عليها بابها المعروف بباب الشبيكة، قال الغازي: و فى شرح رسالة ابن زيدون للشيخ جعفر: لبنى كدى بالضم و القصر، اسم للثنية السفلى التي يمر عليها الداخل القادم من جدة. و تسمى اليوم ريع الرسام، تسمية قديمة لما كان يجلس عندها آخذ الرسوم من واردات مكة. انتهى.

و الذى يدلنا أن خالد بن الوليد دخل مكة من هذه الثنية، هو وجود المسجد الشهير باسمه الذى بحارة الباب إلى اليوم، فإنه بنى فى المحل الذى ركز فيه رايته رضى الله تعالى عنه.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم و من معه من الجيش فإنه دخل مكة من ثنية أذاخر، كما قاله الإمام الأزرقى و الفاسى، و ثنية أذاخر معروفة إلى اليوم و هذه الثنية متصلة بخريق العشر و بوادى جليل، و قد تكلمنا عنهما فى مبحث "تذكر النبى صلى الله عليه وسلم و أصحابه مكة".

فشعب أذاخر واقع فى آخر محلة المعابدة، فإذا وصل الإنسان من مكة بالسيارة إلى منتهى خط الإسفلت المستقيم، فإن أخذ على يمينه، فإنه يذهب به إلى طريق منى، و إن أخذ على يساره، فإنه يذهب به إلى ثنية أذاخر و طريق العشر.

و من قال إن النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة من كداء من الحجون، و هو الجبل المشرف على مسجد الحرس بأعلى مكة "أى مسجد الجن"، فربما اشتبه عليه، لأن من دخل مكة من شعب أذاخر أو من الحجون يقال إنه دخل من أعلى مكة.

و نحن نذهب مع من قال أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة من ثنية أذاخر لثلاثة أمور:

(الأول): أن النبى صلى الله عليه وسلم، قسم جيشه البالغ عددهم عشرة آلاف مجاهد بذى طوى بظاهر مكة ثلاثة أقسام، جعل قسما يدخل مكة من أسفلها، و قسما يدخل من أعلاها من الحجون، و هو صلى الله عليه وسلم، دخلها بمن معه من ثنية أذاخر، و هى أعلا مكة أيضا، لكنها واقعة بعد الحجون. و اعلم أن وادى طوى ليس المقصود منه نفس البقعة التي فيها بئر طوى، بل إنما هى مكان فسيح، يشتمل على الزاهر و الشهداء، و لذلك نزل فيه صلى الله عليه وسلم بجيشه البالغ عددهم عشرة آلاف مجاهد بأحمالهم و جمالهم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦

فإذا وصل الإنسان إلى ذى طوى، فإنه يدخل مكة من طريق العشر المؤدى إلى شعب أذاخر، أما إذا كان الإنسان وصل إلى نفس بئر طوى، فأقرب طريق يدخله إلى مكة هو طريق الحجون، أو طريق ريع الرسام من جهة حارة الباب.

(الثانى): لو قلنا أنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة من الحجون، فكأنه دخلها وراء الزبير الذى أمره أن يدخل من الحجون، فصار جيشه مقسما إلى قسمين فقط، بينما هو ثلاثة أقسام كل قسم دخل من طريق.

(الثالث): أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل من ثنية أذاخر لأمرين:

أولاً: أن ثنية أذاخر، هي منتهى مدخل مكة من أعلاها، فإذا دخل من هنا، فإنه يدخل من وراء جيشه الذي دخل من الحجون، و يستقبل جيشه الآتى من جهة المسفلة، فيحميمهم من جيش المشركين إن كمنوا وراءهم، إن هذه الخطة التي رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على مكة المشرفة من ثلاث جهات، خطة حكيمة سديدة، لا تصدر إلا من صاحب الرسالة و النبوة الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، فما أيسر ما استولى عليها، و ذلك فتح من الله و نصر قريب.

و ثانياً: دخوله صلى الله عليه وسلم من ثنية أذاخر لحكمتين معنيتين - أن يستقبل في دخوله مكة نفس الكعبة المشرفة بدون التواء و ازورار، و أن يرى من ثنية أذاخر جبل حراء الذي هبط عليه الوحي و هو فوقه، و الذي كان مكان مبعثه و موضع تعبد، فيمر في رأسه الشريف جميع الأدوار التي مرت عليه في هذه البقعة المباركة، و للذكريات عند الإنسان نشوة فرح و ساعة صفاء. فما بالك بذكريات النبوة الشريفة، و الحالات المحمدية الطاهرة.

و ما جاء في البخارى و غيره عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدخل مكة من الثنية العليا، يعنى كداء، و يخرج من الثنية السفلى يعنى كدى - يحمل دخوله مكة في غير يوم الفتح، لأن الدخول من كداء هو أقرب الطرق من الجهة العليا، و الدخول من ثنية أذاخر الواقعة خلف كداء بالمعابدة، هو أبعد الطرق و منتهى طرف مكة، فدخوله صلى الله عليه وسلم، من ثنية أذاخر يوم فتح مكة للاستيلاء عليها هو للاحتياط فى الأمر، فلا يحتمل وجود العدو وراءه. و الله تعالى أعلم بالغيب.

هذا و فى غزوة الفتح الأعظم "غزوة فتح مكة"، حصل للنبي صلى الله عليه وسلم، كثير من المعجزات كنا نتمنى درس هذه الغزوة و التأمل فيها لعددها و حصرها، و لكن ليس

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧

لنا من الفراغ ما نحقق عن هذه المسألة، فعسى الله أن يقيض من الفضلاء، من يؤلف كتابا خاصا عن هذه الغزوة الفتحية المباركة. و لا بأس أن نشير إلى ثلاثة من معجزاته صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة (إحداها) عدم معرفة قريش بأن النبي صلى الله عليه وسلم يريد فتح مكة، فلو علموا لاستعدوا للحرب، و رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يريد بها حربا حتى لا تنتهك حرمة مكة، و لذلك دعا ربه و هو بالمدينة قبل توجهه إلى مكة قائلا: "اللهم خذ العيون و الأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها،" و قد استجاب الله دعوته، و هو السميع المجيب، فنصر عبده الأواه المنيب.

(و ثانيهما): دخوله صلى الله عليه وسلم مكة و استيلاؤه عليها بدون حرب و لا قتال و لا تعب و لا مشقة، ما عدا القتال اليسير الذى كان مع خالد بن الوليد، رضى الله تعالى عنه، فكان خروجه عليه الصلاة و السلام، من المدينة لعشر مضين من رمضان، و دخوله إلى مكة كان لعشرين خلت من رمضان. فإن قلنا أنه صلى الله عليه وسلم أخذ فى الطريق بين مكة و المدينة مع تمام الراحة بجيشه و إقامته ببعض المحطات تسعة أيام و فى صباح اليوم العاشر كان بذى طوى فى طرف مكة، ثم دخلها فى ضحى هذا اليوم من غير معارض له، فكأنه صلى الله عليه وسلم فتح مكة فى يوم واحد فقط، بل فى ساعة واحدة و هى ساعة دخوله، و لا شك أن ذلك نصر من الله و فتح عظيم، و معجزة كبرى و آية عظيمة.

(و ثالث المعجزات): قوله صلى الله عليه وسلم للزبير بن العوام حينما أمره بذى طوى أن يدخل مكة من كداء و يركز رايته بالحجون "لا تبرح من حيث أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك،" ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من ثنية أذاخر، و مشى صوب وجهته إلى حيث ركزت رايته و ضربت قبته، و هذا يدل دلالة صريحة أن الله تعالى الذى بيده ملك السموات و الأرض، قد أطلع نبيه بكل ما يحصل له فى فتح مكة قبل أن يدخلها.

اللهم صل و سلم و بارك على عبدك و نبيك و رسولك سيدنا "محمد" الذى أرسلته رحمة للعالمين، و على آله و ذريته و صحابته الطيبين المباركين أجمعين، كما صليت و سلمت و باركت على نبيك و خليلك إبراهيم و على آله و ذريته و صحابته أجمعين، و

سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين. رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٨

سور مكة قديما

ما كنا نظن أنه كان لمكة سور، قبل أن نطلع على كتب التاريخ، و السبب في تسويرها، هو الاعتداءات المتكررة من الحكام في قديم الزمن على بعضهم البعض، فجعلوا لمكة سورا في جهاتها ليتحصن من كان في داخلها، ثم لم يزل السور يندثر شيئا فشيئا، حتى لم يبق له أثر الآن مطلقا، و الحمد لله إنه في عصرنا الحاضر، قد انتشر الأمن و الأمان بمحض فضل الله تعالى في بلده الأمين، بل و في جميع أنحاء المملكة العربية انتشارا تاما، بحيث لم تبق لنا حاجة للأسوار لأي بلدة، حتى أن حكومتنا السنية هدمت سور جدة منذ سنوات لعدم الإحتياج إليه.

و إليك ما جاء عن سور مكة، فقد روى الغازي في تاريخه ما نصه:

و في الإعلام. و كانت مكة في قديم الزمان مسورة، فجهة المعلى "قال العلامة الشيخ على القارى في منسكه: المعلا بفتح الميم و اللام ضد المسفلة، و اشتهر بين العامة بضم الميم و تشديد اللام المفتوحة، و له وجه في القواعد العربية، اه، "كان بها جدار عريض من طرف جبل عبد الله بن عمر إلى الجبل المقابل له، و كان فيه باب من خشب مصفح بالحديد، أهدها ملك الهند إلى صاحب مكة، و قد أدركنا منها قطعة جدار كان فيه ثقب للسيل قصير دون القامة، و كان في جهة الشبيكة أيضا، سور ما بين جبلين متقاربين، بينما الطريق السالك إلى خارج مكة، و كان ذلك السور فيه بابان بعقدين أدركنا أحد العقدين يدخل منه الجمال و الأحمال، ثم تهدم شيئا فشيئا إلى أن لم يبق منه شيء الآن، و لم يبق منه إلا فج بين جبلين متقاربين فيها المدخل و المخرج. و كان سور في جهة المسفلة في درب اليمن، لم ندركه و لم ندرك آثاره.

و ذكر التقى الفاسي نقلا عن تقدم: أنه كان لمكة سور من أعلاها، دون السور الذي تقدم ذكره، قريبا من المسجد المعروف بمسجد الرابية، و أنه كان من الجبل الذي إلى جهة القرارة، و يقال له: لعلع، إلى الجبل المقابل الذي إلى جهة سوق الليل قال: و في الجبل آثار تدل على اتصال السور بها، انتهى.

و لم يبق الآن شيء من آثار هذا السور مطلقا، و أما حدوث هذه الأسوار، فقد قال التقى الفاسي: ما عرفت متى أنشئت هذه الأسوار بمكة، و لا من أنشأها، و لا من عمرها، غير أنه بلغني: أن الشريف أبا عزيز قتادة بن إدريس

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٩

الحسنى، جد ساداتنا أشرف مكة أدام الله عزهم و سعادتهم، هو الذي عمرها قال: و ظن أن في دولته عمر السور الذي بأعلا مكة، و في دولته سهلت العقبة التي بنى عليها سور باب الشبيكة، و ذلك من جهة المظفر صاحب إربل في سنة ستمائة و سبعة، و لعله الذي بأعلا مكة. و الله أعلم.

ثم قال في كتاب إفادة الأنام المذكور ما نصه: قال في المنتقى: و كان عمل باب السور الذي جهة المعلا، بكتباية من بلاد الهند، في سنة ست و ثمانين و سبعمائة، و أهدي للسيد أحمد بن عجلان، و ركبه على باب المعلا عنان بن مغامس بن رميثة في سنة تسع و ثمانين، لما ولى إمرة مكة بعد قتل محمد بن أحمد بن عجلان، ثم أحرق ذلك الباب بالنار حتى سقط على الأرض، و كذلك هدم عدة مواضع من سور باب المعلا من جانبه. و سبب ذلك، أن عسكر السيد رميثة بن محمد بن عجلان، منعوا عسكر عمه السيد حسن من دخول مكة لما ولى إمرة مكة عوض رميثة في ثامن عشر رمضان هذه السنة، فبعض عسكر السيد حسن هدم عدة مواضع من سور باب المعلا من جانبه، و في يوم هدم ذلك، أحرق باب المعلا بالنار حتى سقط إلى الأرض، و بأمر السيد حسن كان بناء ما هدم، و

بأمره عوض عن الباب المحترق بباب جيد وركب في محله في يوم الجمعة ثاني عشر ذى القعدة من السنة المذكورة، وهذا الباب كان لبعض دور السيد حسن بمكة، و كان ينقص عن مقدار باب المعلا فزيد فيه ما كمله و أحكمت الزيادة فيه- انتهى من تاريخ الغازي.

و قال الفاسي في أول كتابه "شفاء الغرام" عن سور مكة ما نصه:

مكة المشرفة بلدة مستطيلة كبيرة، تسع من الخلائق ما لا يحصيهم إلا الله عز و جل، في بطن واد مقدس، و الجبال محدقة بها كالسور لها، و لها مع ذلك ثلاثة أسوار: سور في أعلاها و يعرف بسور باب المعلاة، و فيه بابان أحدهما لا- باب له و يكون في الغالب مسدودا، و سوران في أسفلها أحدهما يعرف بسور باب الشبيكة، و فيه باب كبير و خوخة صغيرة لا باب لها، و السور الآخر يعرف بسور باب الماجن، و يعرف أيضا بسور باب اليمن، لأنه على طريق البر إلى اليمن.

و كان أحسن هذه الأسوار على ما رأينا، سور باب الشبيكة لكماله بالبناء فيما بين الجبلين اللذين بينهما السور المذكور، و لا كذلك سور باب المعلاة،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٠

و سور باب الماجن، و الخلل في سور باب الماجن أكثر، و لقصر جدر هذين السورين في مواضع، و لا كذلك سور باب الشبيكة. و قد عمّر سور باب المعلاة، و سور باب الماجن، حتى كمل بناؤهما من الجبل إلى الجبل، إلا أن في سور باب المعلاة موضعا متخللا من البناء، مما يلي البركة المعروفة ببركة الصارم، و ارتفع جدر السورين عما كانا عليه، و يذكر أنهما يرفعان أكثر و يعمل لها شرفات، و يكمل الخلل الذي في سور باب المعلاة، و هذه العمارة في النصف الثاني من سنة ست عشرة و ثمانمائة، من جهة الشريف بدر الدين حسن بن عجلان الحسنى، نائب السلطنة ببلاد الحجاز، أدام الله له الرفعة و الإعزاز، و سبب ذلك، أن ابن أخيه السيد رميثة بن محمد بن عجلان، هجم على مكة و دخلها في طائفة من أصحابه في ضحوة يوم الخميس الرابع و العشرين من جمادى الآخر من السنة المذكورة، و مال إليه جماعة من المولدين كانوا بمكة و خرجوا جميعا منها، و لم يحدثوا بها كبير حدث، لتخوفهم من وصول السيد حسن بن عجلان إليهم فيستأصلهم لكثرة من معه و قتلهم، و كانت مدة مكثهم بمكة ساعة فلكية أو أزيد، و لما توجه رميثة لمكة لم يكن لعمه علم به، و لما علم بذلك أتى مكة مسرعا و دخلها من درب المعلاة، و رأى أوائل عسكره أصحاب رميثة خارجين من مكة، فتبعهم السيد حسن في عسكره قليلا، ثم أعرض عنهم رحمة لهم، و كان بين الفريقين بعد ذلك منازل و أمور كثيرة.

ثم إن بعض عسكر السيد حسن، هدم عدة مواضع من سور باب المعلاة من جانبه، منها موضع كبير يلي الجبل الشامى عند البرج الذى هناك، سعته نحو عشرة أذرع، حتى اتصل الهدم بالأرض و منها موضع نحوه من الجانب الآخر متصل ببركة الصارم، و ذلك في يوم الثلاثاء خامس و عشرين شوال سنة تسع عشرة و ثمانمائة، ثم أعيد بناء جميع ما تهدم من هذا السور كما كان، في بقیة شوال. و فى أول ذى القعدة من السنة المذكورة، و فى يوم هدم ذلك، أحرق باب المعلاة بالنار حتى سقط إلى الأرض، و كان عمل (بكلكته) من بلاد الهند فى سنة ست و ثمانين و سبعمائة، و أهدى للسيد أحمد بن عجلان و ركبته على باب المعلاة عنان بن مغامس بن رميثة، فى سنة تسع و ثمانين لما ولى إمرة مكة بعد قتل محمد بن أحمد بن عجلان.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦١

و كان لمكة سور من أعلاها سورها اليوم، قريبا من المسجد المعروف بمسجد الراية، و موضع باب هذا السور على ما ذكر لى غير واحد، فيما بين الدارين المتقابلتين المنسوبتين لمسعود بن أحمد المعروف بالأزرق المكي، التى ياحدهما الآن ذيب مشروعة لا سقف عليها فى محاذة ركنى الدارين مما يلي الردم، و إذا كان محل باب السور فى محاذة هذين الركنين فالظاهر، و الله أعلم، أن محل بقیة السور يحاذى بابه من جانبى الباب، و أنه من الجبل الذى إلى جهة القرارة و يقال له لعلع، إلى الجبل المقابل له الذى إلى جهة السوق، أى سوق الليل، لأن التحصين بهذا السور لا- يتم إلا بأن يكون هكذا، و فى الجبلين المشار إليهما آثار بناء تدل على

اتصال السور بهما، و بعض هذا السور الآن على ما بلغنى من بعض البيوت المحاذية له، لأن بعض الناس أرانى فى بعض الدور المنسوبة (للكابيين) جدارا عريضا، ذكر أنه من السور الذى كان هناك، و نقل ذلك عن بعض أقاربه، و يقال الآن لموضع باب السور المشار إليه الدرب الدارس، و يقال لهذا السور فيما مضى السور الجديد، لأنى وجدت بخط مسند مكة و موثقها، عبد الرحمن بن أبى حرمى الكاتب العطار، ما يقتضى ذلك.

و من موضع باب السور، المشار إليه بالأرض عند ركنى الدارين، المشار إليهما مما يلى الردم، إلى الجدار القبلى من المسجد المعروف بمسجد الراية، مائة ذراع و ثلاثة و عشرون ذراعا و ربع ذراع بالذراع الحديد، يكون بذراع اليد الآتى تحريره مائة و أربعين ذراعا و ستة أسباع ذراع. و من موضع باب السور الذى أشرنا إليه، إلى جدار باب المسجد الحرام، المعروف بباب بنى شيبه، تسعمائة ذراع (بتقديم التاء) و عشرون ذراعا و نصف ذراع بالحديد، و يكون ذلك بذراع اليد ألف ذراع و اثنين و خمسين ذراعا. و ما عرفت متى نشأت هذا الأسوار لمكة، و لا- من أنشأها و لا- من عمرها، غير أنه بلغنى أن الشريف أبا عزيز قتادة بن إدريس الحسنى، أحد أجداد السيد حسن المذكور عمرها، و الله أعلم بصحة ذلك، و أظن أن فى دولته عمر السور الذى كان بأعلى مكة، و فى دولته سهلت العقبة التى بنى عليها سور باب الشيبكة و أصلحت، و ذلك من جهة المظفر صاحب إربل، فى سنة سبع و ستمائة، و لعله الذى بنى السور الجديد الذى كان بأعلى مكة، و الله أعلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٢

و رأيت فى بعض التواريخ ما يقتضى أنه كان لمكة سور فى زمن المقتدر بالله العباسى، و ما عرفت هل هو هذا السور من أعلى مكة و أسفلها، أو من إحدى الجهتين؟ و الله أعلم. انتهى من شفاء الغرام.

و كانت ولاية الشريف قتادة المذكور على مكة سنة (٥٩٨) هجرية، و كانت ولاية المقتدر بالله العباسى المذكور سنة (٢٩٥) هجرية.

تقسيم قصى أمور مكة

لما كبر قصى بن كلاب، قسم أمور مكة الستة التى هى: السدانة، و الندوة، و اللواء، و السقاية، و الرفادة، و القيادة، بين ولديه عبد الدار و عبد مناف.

(فالأول) هو أكبر أولاد قصى و بكره، و كان محبوبا لدى أبيه قصى و أمه حتى، فأعطى عبد الدار السدانة و هى الحجابة، و دار الندوة، و اللواء. (و الثانى) قد بلغ فى حياة أبيه من الشرف و السؤدد ما لم يبلغه أحد، فأعطى عبد مناف السقاية، و الرفادة، و القيادة أى قيادة الجيش، و كان لقصى أربعة أولاد: (الأول) عبد الدار و هو أكبرهم، و منه سدانة الكعبة و من ولده عثمان بن طلحة الذى أعطاه النبى صلى الله عليه و سلم و لابن أخيه شيبه بن عثمان بن أبى طلحة مفتاح الكعبة المشرفة. (و الثانى) عبد مناف، و منه بيت النبوة (و الثالث) عبد العزى و هو جد الأسديين الذى منهم أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، رضى الله تعالى عنها (و الرابع) عدى و منه قريش الظواهر.

و نحن هنا نذكر معنى الأمور الستة التى قسمها قصى بين ولديه عبد الدار و عبد مناف و هى: السدانة، و الندوة، و اللواء، و السقاية، و الرفادة، و القيادة، ملخصا من تاريخ الأزرقى فنقول:

(فأما السدانة) و هى حجابة الكعبة المشرفة، فقد كانت لدى عبد الدار، ثم جعلها فى ابنه عثمان بن عبد الدار.

(و أما الندوة) فقد كانت لدى عبد الدار، ثم جعلها فى ابنه عبد مناف بن عبد الدار، فلم تزل دار الندوة لدى بنى عبد مناف بن عبد الدار، فكانت الجارية إذا حاضت أدخلت دار الندوة، ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف ابن عبد الدار

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٣

درعها، ثم درعها إياه و انقلب بها أهلها فحجوها. و قد ذكرنا عن دار الندوة شيئا في فصل خاص.

(و أما اللواء) فكان في أيدي بني عبد الدار كلهم، يليه منهم ذوو السن و الشرف في الجاهلية، حتى كان يوم أحد فقتل عليه من قتل منهم. نقول: إن حمل راية الجيش عمل جليل عظيم لا- يصلح لها إلا الرجل الممتاز في الشجاعة و قوة القلب، فكسر الراية كسر للجيش، و نصبها و رفعها دليل على قوته و سلامته، فمعنوية الجيش و الجنود في لوائهم و رايتهم.

(و أما السقاية) فهي حياض من آدم كانت على عهد قصي توضع بفناء الكعبة، و يسقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل و يسقاه الحاج- و صارت السقاية بعد عبد مناف إلى ابنه هاشم، ثم إلى ابن هذا عبد المطلب بن هاشم، الذي حفر زمزم، و كان لعبد المطلب إبل كثيرة، فإذا كان موسم الحج، جمعها و خلط لبنها بالعسل في حوض من آدم "أى من جلد" عند زمزم، و أيضا يشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم و يسقيه الحاج، فلما توفي عبد المطلب، قام بالسقاية بعده ابنه العباس، فلم تزل في يده حتى توفي، فوليها بعد ابنه عبد الله بن العباس رضى الله تعالى عنهما، ثم صارت إلى ذريته من بعده.

يقول الغازي رحمه الله تعالى في تاريخه، نقلا عن كتاب منائح الكرم ما نصه:

و لما أتى خبر وفاة المطلب، ولى أمر السقاية و الرفادة شيبه الحمد عبد المطلب بن هاشم، فأقام قومه على ما كانوا عليه، و كان له إبل كثيرة، فإذا كان الموسم جمعها و سقى الناس اللبن و العسل، و كان يشتري الزبيب فينبذه في ماء زمزم بعد أن حفرها، فيسقى الناس و استمر بيده إلى أن توفي، فكانت بعده في يد ابنه أبي طالب، فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم، فصرفها و جاء الموسم و لم يكن معه شيء، فطلب من أخيه العباس أربعة عشر ألف إلى الموسم القابل، فشرط عليه إذا جاء الموسم و لم يقضه أن يترك له السقاية، فقبل ذلك و جاء الموسم فلم يقضه، فترك له السقاية فكانت بيد العباس بن عبد المطلب، و استمرت السقاية بيده حتى فتحت مكة، فوليها بعده ابنه عبد الله بن العباس رضى الله عنهما، حتى توفي، فكانت في يد ابنه علي بن عبد الله بن عباس و هى لولده إلى أن انقضت خلافتهم و هم يضعون فيها نوالهم. انتهى من تاريخ الغازي.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٤

روى الأزرقى في تاريخه: أن قصي بن كلاب قال لقريش: يا معشر قريش، إنكم جيران الله و أهل الحرم، و إن الحجاج ضيفان الله و زوار بيته، و هم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاما و شرابا أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم، فيدفعونه إلى قصي فيصنعه طعاما للحجاج أيام الموسم بمكة و منى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه و هى الرفادة حتى قام في الإسلام، و هو في الإسلام إلى يومك هذا، و هو الطعام الذى يصنعه السلطان بمكة و منى للناس حتى ينقضى الحج. ٥١.

و روى فيه أيضا: أن هاشم بن عبد مناف كان يقول لقريش إذا حضر الحج:

يا معشر قريش، إنكم جيران الله و أهل بيته، خصكم الله بذلك و أكرمكم به، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فأكرموا أضيافه و زوار بيته يأتونكم شعئا غربا من كل بلد، فكانت قريش ترافد على ذلك.

حتى إن كان أهل البيت ليرسلون بالشىء اليسير رغبة في ذلك، فيقبل منهم لما يرجى من منفعتهم. انتهى من الأزرقى.

و فى تاريخ الأزرقى أيضا: اشترت رملة بنت عبد الله بن عبد الملك بن مروان، و زوجها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان الدار التى عند المروءة فى صف دار عمر بن عبد العزيز، فتصدقت بها ليسكنها الحجاج و المعتمرين، و كان فى دهليز دارها هذه، شراب من أسوقه محلاة و محمضة تسقى فيها فى الموسم.

و كان لهشام بن عبد الملك، و هو خليفة، شراب من أسوقه محمضة و محلاة يسقى فى الموسم على المروءة فى فسطاط، فى موضع الجنبذ الذى يسقى فيه الماء على المروءة، فمنع محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومى خال هشام بن عبد الملك بن مروان، و هو أمير على مكة، رملة بنت عبد الله بن عبد الملك أن تسقى على المروءة شرابها، فشكت ذلك إلى عمها هشام بن عبد الملك، فكتب لها

إذا انقضى الحاج أن تسقى في الصدر، فلم تزل تلك الدار يسقى فيها شراب رملة من وقوف وقتها عليها بالشام، و يسكن هذه الدار الحاج و المعتمرون، حتى اصطفت حين خرجت الخلافة من بني مروان، انتهى منه.

(و أما الرفادة) فهي إطعام الناس في كل موسم، بما يجتمع من ترافد قريش، فكان هاشم بن عبد مناف يشتري بما يجتمع عنده دقيقا، و يأخذ من كل ذبيحة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٥

من بدنة أو بقرة أو شاة فخذها، فيجمع ذلك كله ثم يحزر به الدقيق و يطعمه الحاج، فلم يزل على ذلك من أمره، حتى أصاب الناس في سنة جدب شديد، فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام، فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقا و كعكا، فقدم به مكة في الموسم فهشم ذلك الكعك، و نحر الجزور و طبخه، و جعله ثريدا و أطعم الناس، و كانوا في مجاعة شديدة حتى أشبعهم، فسمى بذلك هاشما و كان اسمه عمرو، فلما توفي، كان عبد المطلب يفعل ذلك، فلما توفي هذا قام بذلك أبو طالب في كل موسم، حتى جاء الإسلام و هو على ذلك- في مختار الصحاح الكعك خبز و هو فارسي معرب- قلت- قال الأزهري: الكعك الخبز اليابس، قال الليث: أظنه معربا. ١٥.

و لقد أرسل النبي صلى الله عليه و سلم بمال يعمل به الطعام للناس مع أبي بكر حين حج بالناس سنة تسع، و عمله أيضا عليه الصلاة و السلام في حجة الوداع، ثم عمله أبو بكر في خلافته، ثم عمر في خلافته أيضا، و كذلك كان الخلفاء يعملونه في موسم الحج بمكة و منى حتى تنقضي أيامه.

و ما أحلى قول القاضي تاج الدين بن أحمد، من أكابر علماء الحرم المكي، المتوفى سنة (١٠٦٦) هجرية في إكرام أهل مكة للوافدين لبيت الله الحرام و لو بالقول الحسن:

من كان بالوادى الذى هو غير ذى زرع و عز عليه ما يهديه

فليهدن ألفاظه الدر التى تحلو فواكهها لكل نبيه

(و أما القيادة) فهو قيادة الناس للحرب، فكان أول من قاد الناس بعد عبد مناف ابنه عبد شمس، و آخر من قادهم هو أبو سفيان بن حرب بن أمية فقادهم ثلاث مرات، أو أربعة، آخرها وقعة يوم الأحزاب، و كانت آخر وقعة لقريش حيث أظهر الله تعالى الإسلام و جاء فتح مكة.

هذه نبذة قصيرة تامة الفائدة عن سدانة الكعبة، و دار الندوة، و اللواء، و السقاية، و الرفادة، و القيادة، نقلناها باختصار عن تاريخ الأزرقى، فمن أراد زيادة الشرح فعليه بمراجعة كتب التاريخ.

نقول: لنقف هنا لحظة للنظر إلى هذا الفصل بعين الاعتبار و الاستبصار، حتى نرجع بحكمة دقيقة بالغه، و عظة واضحة نافعة، و هى:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٦

إن إدارة مكة، شرفها الله تعالى، كانت فى الجاهلية مقسمة إلى ستة أمور:

سدانة البيت، و الندوة، و عقد اللواء، و السقاية و الرفادة، و القيادة- و يمكن أن نعبر عن هذه الأمور الستة بحسب اصطلاح عصرنا هذا كما يأتى:

(١) الشؤون الدينية- و تدخل ضمن سدانة البيت الحرام.

(٢) مجلس الشورى، و مجلس الوزراء- و هما فى مقام دار الندوة.

(٣ و ٤) وزارة الدفاع- المعبر عنها بعقد اللواء و القيادة.

(٥ و ٦) دار الضيافة و السبيل العام- المعبر عنها بالرفادة و السقاية.

فأساس المحافظة على البلاد من عدوان الأخصام، هى هذه الأمور الستة التى ابتدعها ولاة العرب فى الجاهلية و ساروا بموجبها، فقوم

يخدمون البيت الحرام، و يساعدون الغريب و القريب بتقديم الشراب و الطعام، و يجعلون أمرهم شورى بينهم يجتمعون فى دار الندوة، و يحكمون أمر قيادة الجيش، و عقد اللواء بصدق و إخلاص، لجديرون بالنصر و العز و السؤدد و الشرف على كافة الناس، فيا حبذا لو بقيت فينا السقاية و الرفادة لإكرام الحاج أيام الموسم إلى يوم القيامة، نسأل الله أن يوفق المسلمين إلى ما فيه صلاح دينهم و دنياهم آمين.

دار الندوة

إشارة

قال فى مختار الصحاح: الندى- على فعيل- مجلس القوم و متحدتهم، و كذا الندوة "بالفتح" و النادى و المنتدى- فإن تفرق القوم فليس بندى، و منه سميت "دار الندوة"- "بفتح النون- التى بناها قصى بمكة، لأنهم كانوا يندون فيها- أى يجتمعون للمشاورة- و قوله تعالى: فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ أى عشيرته، و إنما هم أهل النادى، و النادى مكانه و مجلسه فسماه به، كما يقال تقوض المجلس و يراد به أهله الخ ... انتهى من مختار الصحاح.

بناء دار الندوة

كانت القبائل فى الجاهلية، قبل الإسلام بنحو قرنين، يسكنون فى شعاب مكة و ما حولها، لا يبنون بقرب الكعبة المشرفة منازلهم حرمة لها و تعظيماً، فلما آل أمر مكة إلى قصى بن كلاب، الجد الرابع لرسول الله صلى الله عليه و سلم، أمر قومه أن يبنوا التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٧

بيوتهم حول الكعبة حتى تهابهم الناس و لا تستحل قتالهم فقسم جهات الكعبة بين قبائل قريش فبنوا حولها، فكان أول من بدأ بالبناء هو قصى بنى دار الندوة لتكون للنظر فى كافة شؤون القبائل، فهى بمثابة "دار الشورى" تجتمع فيها قريش للمشورة و لإبرام الأمور، و سميت بدار الندوة لاجتماع النداء فيها، أى كرماء القوم و أعيانهم.

و لم يكن يدخلها من قريش إلا ابن أربعين سنة لكن أولاد قصى و هو ملكهم المطاع كانوا يدخلونها كلهم.

جاء فى تاريخ الخميس: و عن مصعب بن عبد الله قال: جاء الإسلام و دار الندوة بيد حكيم بن حزام فباعها بعد من معاوية بن أبى سفيان بمائة ألف درهم، فقال له عبد الله بن الزبير: بعته مكرمة قريش، فقال حكيم: ذهبت المكارم إلا- التقوى يا ابن أخى، إني اشتريت بها داراً فى الجنة، أشهدك أنى جعلتها فى سبيل الله عز و جل. انتهى منه.

و حكيم بن حزام ولدته أمه فى الكعبة على النطع، و كان من سادات قريش و وجوها فى الجاهلية و الإسلام.

لكن قال الأزرقى: إن معاوية ابتاع دار الندوة من ابن الرهين العبدرى و هو من ولد عامر بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار فطلب شبيهة بن عثمان من معاوية الشفعة فيها فأبى عليه، فعرها معاوية و كان ينزل فيها إذا حج الخ ... انتهى كلامه.

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه: و جعل "أى عبد الدار بن قصى" دار الندوة إلى ابنه عبد مناف بن عبد الدار، فلم تزل بنو عبد مناف بن عبد الدار يلون الندوة دون ولد عبد الدار، فكانت قريش إذا أرادت أن تشاور فى أمر فتحها لهم عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، أو بعض ولده أو ولد أخيه- و كانت الجارية إذا حاضت أدخلت دار الندوة ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف بن عبد الدار

درعها، ثم درعها إياه و انقلب بها أهلها فحجوها، فكان عامر بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار يسمى "محيضا." و إنما سميت دار الندوة لاجتماع النداء فيها يندونها يجلسون فيها لإبرام أمرهم و تشاورهم - انتهى من الأزرقى.

و لقد اختلفوا فى موضع دار الندوة، لكن الله تعالى وفقنا إلى معرفه موقعها فى المسجد الحرام، و إليك تفصيل ذلك فى المبحث الآتى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٨

و قال الأزرقى أيضا فى صحيفه أخرى عن دار الندوة بعد أن بين تقسيم قصى بن كلاب الأمور الستة بين ابنه "عبد مناف و عبد الدار" فكانت مع عبد مناف السقايه و الرفاده و القيادة، و كانت مع عبد الدار الندوة و الحجابة و اللواء - بعد ذكر الأزرقى هذا قال ما يأتى:

ثم كانت الندوة بعد إلى هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، ثم إلى ابنه عمير أبى مصعب، و عامر ابنى هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار - ثم ابتاعها معاوية بن أبى سفيان فى خلافته من ابن الرهين العبدري، و هو من ولد عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، فطلب شيبه بن عثمان من معاوية الشفعة فيها فأبى عليه، فعمرها معاوية و كان ينزل فيها إذا حج، و ينزلها من بعده من الخلفاء من بنى أمية إذا حجوا، و قد دخل بعضها فى المسجد الحرام فى زيادة عبد الملك بن مروان و ابنه الوليد و سليمان، ثم دخل بعضها أيضا فى زيادة أبى جعفر المنصور فى المسجد، ثم كانت خلفاء بنى العباس ينزلونها بعد ذلك إذا حجوا، أبو العباس، و أبو جعفر، و المهدي، و موسى الهادي، و هارون الرشيد، إلى أن ابتاع هارون الرشيد دار الإمارة من بنى خلف الخزاعيين و بناها، فكان بعد ذلك ينزلها، فلم تزل على ذلك حتى خربت و تهدمت.

قال أبو محمد الخزاعى: و رأيتها على أحوال شتى، كانت مقاصيرها التى للنساء تكرر من الغرباء و المجاورين، و يكون فى مقصورة الرجال دواب عمال مكة، ثم كانت بعد ينزلها عبيد العمال بمكة من السودان و غيرهم فيعبثون فيها و يؤذون جيرانها، ثم كانت تلقى فيها القمام و يتوضأ فيها الحاج، و صارت ضررا على المسجد الحرام.

فلما كان فى سنة إحدى و ثمانين و مائتين استعمل على بريد مكة رجل من أهلها من جيران المسجد الحرام، له علم و معرفة و حسبه و فطنة بمصالح المسجد الحرام و البلد، فكتب فى ذلك إلى الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب يذكر أن دار الندوة قد عظم خرابها، و تهدمت، و كثر ما يلقى فيها من القمام حتى صارت ضررا على المسجد الحرام و جيرانه، و إذا جاء المطر سال الماء منها حتى يدخل المسجد الحرام من بابها الشارع فى بطن المسجد الحرام، و إنها لو أخرج ما فيها من القمام و هدمت و عدلت و بنيت مسجدا يوصل بالمسجد الحرام، أو جعلت رحبه له يصلى الناس فيها و يتسع فيها الحاج، كانت مكرمه لم يتها لأحد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٩

من الخلفاء بعد المهدي، و شرفا و أجرا باقيا مع الأبد. و ذكر أن فى المسجد خرابا كثيرا، و أن سقفه يكف إذا جاء المطر، و أن وادى مكة قد انكبس بالتراب حتى صار السيل إذا جاء يدخل المسجد، و شرح ذلك للأمير بمكة بحج بن حاج مولى أمير المؤمنين، و القاضى بها محمد بن أحمد بن عبد الله المقدمى، و سألهما أن يكتبتا بمثل ذلك، فرغبا فى الأجر و جميل الذكر و كتبنا إلى الوزير بمثل ذلك.

فلما وصلت الكتب عرضت على أمير المؤمنين أبى العباس المعتضد بالله ابن أبى أحمد الناصر لدين الله بن جعفر المتوكل على الله، و رفع وفد الحجبه إلى بغداد يذكر أن فى جدار بطن الكعبه رخاما قد اختلف و تشعب، و فى أرضها رخام قد تكسر، و أن بعض عمال مكة كان قد قلع ما على عضادتي باب الكعبه من الذهب فضربه دنانير و استعان به على حرب، و أمور كانت بمكة بعد العلوى الخارجى الذى كان بها فى سنة إحدى و خمسين و مائتين، فكانوا يسترون العضادتين بالديباج، و أن بعض العمال بعده قلع مقدار الربع من أسفل ذهب بابى الكعبه و ما على الأنف، و استعان به على فتنه بين الحنطين و الجزارين بمكة سنة ثمان و ستين و مائتين، و

جعل على ذلك فضة مضروبة موهة بالذهب على مثال ما كان عليها فإذا تمسح الحاج به في أيام الحج بدت الفضة، حتى تجدد تمويهها في كل سنة، و أن رخام الحجر قد رث فهو يحتاج إلى تجديد، و أن بلاطا من حجارة حول الكعبة لم يكن تاما يحتاج أن تتم جوانبها كلها، و سألو الأمير بعمل ذلك، فأمر أمير المؤمنين كاتبه عبيد الله بن سليمان بن دهب، و غلامه بدر المؤتمر بالحضرة بعمل ما رفع إليه من عمل الكعبة و المسجد الكبير، و بعمارة دار الندوة مسجدا يوصل بالمسجد الكبير، و يعزق الوادي كله و المسعى و ما حول المسجد، و أخرج لذلك مالا كثيرا، فأمر بذلك القاضي ببغداد يوسف بن يعقوب، و حمل المال إليه. فأنفذ بعضه سفائح "جمع سفتجة، و هي الحوالة المالية،" و أنفذ بعضه في أيام الحج مع ابنه أبي بكر عبد الله بن يوسف، و كان يقدم في كل سنة على حوائج الخليفة و مصالح الطريق و عمارتها، فقدم عبد الله بن يوسف في وقت الحج، و قدم معه رجل يقال له أبو الهياج عميرة بن حيان الأسدي من بني أسد بن خزيمه له أمانة و نية حسنة، فوكله بالعمل، و خلف معه عمالا و أعوانا لذلك.

فعمل ذلك، و عزق الوادي عزقا جيدا حتى ظهرت من درج أبواب المسجد الشارع على الوادي اثنا عشره درجة. و إنما كان الظاهر منها خمس درجات، ثم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧٠

أخرج القمائم من دار الندوة و هدمت، ثم أنشئت من أساسها فجعلت مسجدا بأساطين و طاقات و أروقه مسقفة بالساج المذهب المزخرف، ثم فتح لها في جدار المسجد الكبير اثنا عشر بابا ستة كبار، سعة كل باب خمسة أذرع، و ارتفاعه في السماء أحد عشر ذراعا. و جعل بين الستة الأبواب الستة أبواب صغار سعة كل واحد منها ذراعا و نصف، و ارتفاعه في السماء ثمانية أذرع و ثلث ذراع حتى اختلطت بالمسجد الكبير.

قال أبو الحسن الخزاعي: قد كان هذا الجدار معمولا على ما ذكره عم أبي أبو محمد الخزاعي إلى أيام الخليفة جعفر المقتدر بالله، ثم غيره القاضي محمد بن موسى، و إليه أمر البلد يومئذ، و جعله بأساطين حجارة مدورة عليها ملاين ساج بطاقات معقودة بالآجر الأبيض و الجص وصله بالمسجد الكبير وصولا أحسن من العمل الأول، حتى صار من في دار الندوة من مصل أو غيره يستقبل الكعبة فيراها كلها، عمل ذلك كله في سنة ست و ثلاثمائة.

قال أبو محمد: و جعل لها سوى ذلك أبوابا ثلاثة شارع في الطريق التي حولها، منها باب بطاين على اسطوانة بالقرب من باب الطبري، مقابل دار صاحب البريد، سعته عشرة أذرع و ربع ذراع، و ارتفاعه في السماء أحد عشر ذراعا و ثلثا ذراع، و باب في أعلا هذا الطريق طاق واحد، سعته خمسة أذرع و ارتفاعه في السماء اثنا عشر ذراعا، و باب بين دور الخزاعيين ولد نافع بن عبد الحارث، بطاين على اسطوانة، يستقبل من أقب من السويقة و قعيقعان، سعته أحد عشر ذراعا و نصف، و ارتفاعه في السماء عشرة أذرع و ربع ذراع، و سوى جدارها و سقوفها و شرفها بالمسجد الكبير، و فرغ منها في ثلاث سنين، فصلى الناس فيها و اتسعوا بها، و جعل لها منارة و خزانه في زاويتي مؤخرها.

فكان ذرع طول هذا المسجد من وجهه من جدار المسجد الكبير إلى مؤخره بالأروقه أربعة و ثمانون ذراعا، و عرضه بالأروقه ستة و سبعون ذراعا، و سعة صحنه تسعة و أربعون ذراعا في سبعة و أربعين ذراعا، و عدد ما فيه من الأساطين سوى ما على الأبواب اثنتان و عشرون، و عدد الطاقات سوى الأبواب سبع و ستون اسطوانة، و على الأبواب اثنتان. و عدد الطاقات سوى الأبواب إحدى و سبعون طاقة، و على الأبواب خمس طاقات، و عدد الشرف التي تلى بطن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧١

المسجد ثمانى و ستون شرافة، و عدد السلاسل التي للقناديل سبع و ستون سلسله فيها قناديلها، آخر خبر الندوة. انتهى من تاريخ الأزرقى.

و قد ذكر القطبي عن دار الندوة ما يأتي: بنى قصى دار الندوة من الجانب الشامي، و يقال إنها محل مقام الحنيفة الذي يصلى فيه الآن

الإمام الحنفى، وقسم باقى الجهات بين قبائل قريش، فبنوا دورهم و شرعوا أبوابها إلى نحو الكعبة المشرفة، و تركوا للطائفين مقدار المطاف، بحيث يقال أنه القدر المفروش الآن بالحجر المنحوت إلى حاشية المطاف الشريف. ثم أشار القطب إلى بناية قصى هذه فقال: و ليست الزيادة هي عين دار الندوة بل محلها في تلك الأماكن، لا على التعيين، من خلف المقام الحنفى الآن إلى آخر هذه الزيادة إلى أن قال: و استمرت تلك الأساطين المنحوتة مشيدة باقية إلى أن أدركناها في عصرنا، ثم بدلت بالأساطين المنحوتة من الرخام الأبيض المرمر ما بينها، لتوثيقها أساطين منحوتة من الشمسى الأصفر، بعقود محكمة أزين من عقود الجوهر، و جعل عوض السقف الذى يبلى خشبه كل حين قبا مرفوعة نزهة للناظرين، و ذلك في زمن السلطان مراد العثمانى سنة (٩٨٤). أما زيادة المعتضد فقد كانت عام (٢٨٤)، و تعمير المقتدر بالله عام (٣٠٦ هـ) انتهى.

التحقيق عن موضع دار الندوة

اختلفوا فى موضع دار الندوة، فمنهم من قال موضعه هو محل المقام الحنفى و منهم من قال حوله، فوفقنا الله عز شأنه عن التحقيق من موضعها، فكتبنا عن ذلك مقالة بمجلة المنهل الغراء التى تصدر بمكة المكرمة، و ذلك فى العدد الممتاز لشهرى ذى القعدة و ذى الحجة سنة (١٣٦٩) هجرية و إليك نص مقالتنا فيها:

لما آل أمر مكة و البيت الحرام إلى قصى بن كلاب- الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم- بنى دار الندوة بقرب الكعبة المشرفة ليجمع فيها أعيان قريش و فضلائها لإبرام الأمور و المشاورة فيما بينهم، و كان لا يدخلها إلا من كان منهم قد بلغ أربعين سنة. هذه الدار كانت معروفة و عامرة و صارت فيما بعد دارا خاصة لتزول الخلفاء فيها إذا أتوا إلى مكة للحج، إلى أن آلت إلى الدمار و الخراب، حتى صارت ترمى فيها القمام و القاذورات. فإذا جاءت الأمطار و السيول حملت تلك الأوساخ إلى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧٢

المسجد الحرام، فرأى أمير المؤمنين المعتضد بالله العباسى أن ذلك لا يليق بكرامة المسجد الحرام، و أن المسجد قد ضاق بالمصلين فهو فى حاجة إلى الاتساع و الزيادة، فأمر رحمه الله تعالى و أحسن إليه، أن تهدم دار الندوة و تنظف و تلحق بالمسجد للصلاة و العبادة و كان ذلك سنة ٢٨١ للهجرة.

و لقد اختلف الناس فى موضع دار الندوة على ثلاثة أقوال فمنهم من يقول:

أن مكانها هو مكان المقام الحنفى، و منهم من يقول: أن مكانها لا يعرف بالضبط، و لكنها كانت واقعة بين المقام الحنفى و رواق باب الزيادة، و منهم من يقول: أن مكانها هو رحبة باب الزيادة بما فى ذلك الحصباء و الرواق.

و لقد أردنا ترجيح أحد هذه الأقوال منذ ثلاث سنوات حينما كنا نشتغل بتأليف كتابا "مقام إبراهيم عليه السلام"، و لكننا لم نهتد إلى دليل قوى لترجيح شىء منها، غير أن الله سبحانه و تعالى هدانا الآن إلى تحقيق ذلك بما لا يقبل الشك و الريب فله الحمد و الشكر فهو مفتاح العليم.

فنقول: إن محل دار الندوة و فنائها هو رحبة باب الزيادة بما فى ذلك الحصباء و الرواق و نستدل على هذا بأربعة أمور:

"الأمر الأول: "أن عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان و عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهم اشترى كل منهم فى خلافته الدور المتلاصقة للمسجد الحرام فهدمها و أدخلها فى المسجد الحرام ليتسع، فلو كانت دار الندوة فى محل المقام الحنفى لهدمت و أدخلت فى المسجد الحرام فى زمن عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان، لقرب مقام الحنفى من الكعبة و لكان من العبث و الكذب أن يقال أن المعتضد بالله أدخل دار الندوة فى المسجد الحرام.

"و الأمر الثانى: "أن أمير المؤمنين محمد المهدي العباسى زاد فى المسجد الحرام سنة ١٦٤ زيادات كثيرة، و هو الذى أمر أن يجعل

المسجد الحرام على هيئة التريبع حتى تقع الكعبة المشرفة في وسطه كما هو الآن، فلو كانت دار الندوة داخل التريبع لذكرها المؤرخون.

"و الأمر الثالث: "أن الذى أدخل دار الندوة فى المسجد الحرام هو أمير المؤمنين المعتضد بالله العباسى سنة ٢٨١ و عمارته المعروفة هى رحبة باب الزيادة، بما فيه الباب القطبى - وهذه الرحبة - هى دار الندوة، فلم يعمل المعتضد شيئاً فى داخل التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧٣

المسجد الحرام الذى هو على هيئة التريبع و الذى هو من عمل عمارة المهدي، فكيف يقال أن محل دار الندوة هو موضع المقام الحنفى الذى هو داخل المسجد و فى طرف دائرة المطاف؟.

"و الأمر الرابع: "لا يخفى أن دار الندوة التى كان يجتمع فيها صناديد قريش للمشاورة فيما يخصهم من مهمات الأمور أصبحت فيما بعد سباطة تطرح فيها الأوساخ و القمام، فإذا جاءت الأمطار و سالت السيول دخلت هذه الأوساخ و القمام إلى المسجد الحرام، فكتب قاضى مكة و أميرها أيضا مكاتبات إلى وزير المعتضد بالله يومئذ بأن دار الندوة قد تهدمت و خربت و صارت تلقى فيها القمام، حتى صارت ضرراً على المسجد الحرام و جيرانه، و إذا جاءت السيول حملتها إلى المسجد. فلو نظفت و هدمت و جعلت رحبة متصله بالمسجد الحرام يصلى فيها الناس و يتسع الحجاج بها لكانت مكرمة كبرى و منقبة عظيمة للخليفة... الخ، فأمر عندئذ أمير المؤمنين المعتضد بالله بإدخال دار الندوة فى المسجد الحرام. و انظر تفصيل ذلك فى كتب التاريخ.

فلا يعقل أن يكون محل دار الندوة هو مكان مقام الحنفى الملتصق بالمطاف و أن تلقى القمام هناك عند الكعبة المشرفة بينما موضع المقام الحنفى هو من الزيادات التى أدخلت فى المسجد الحرام فى زمن عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان رضى الله عنهما، ثم اتسع المسجد الحرام و صار على هيئة التريبع فى زمن محمد المهدي المذكور و انظر خريطة الزيادات بالمسجد الحرام فى صحيفة "٩١" من كتابنا (مقام إبراهيم) عليه السلام ليظهر لك الأمر بالمشاهدة، فعلم مما ذكرناه أن محل دار الندوة التى أدخلها المعتضد بالله فى المسجد الحرام هو رحبة باب الزيادة بما فيه من الأروقة و الحصاء و الله تعالى أعلم. انتهى.

أول دار بنيت بمكة

لقد أسعدنا الحظ بقراءة الفوائد و الطرف التى كتبها و يكتبها سعادة الأستاذ الكبير و الكاتب الشاعر القدير، الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوى تحت عنوان:

(مطالعات و تعليقات) فى جريدة حراء فى العدد الصادر بتاريخ ٣ / ١١ / ١٣٧٦.

فكان مما تناوله فى العنوان المذكور، الكلام (على أول دار بمكة) و نقل أن ياقوت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧٤

قال فى معجمه أن (دار العجلة) هى أول دار بمكة، و قد أحال الأستاذ الجليل تحقيق ذلك إلينا مع أننا نحن نستفيد من تحقيقاته و معلوماته القيمة.

فنزولا على رغبته نقدم لقراء "حراء" هذا البحث عن بدء و بناء البيوت بمكة و هو من المباحث التى سيتناولها تاريخنا الذى نعكف الآن على تأليفه بجد و إخلاص. فنسأل الله تعالى أن يديم علينا جميعاً توفيقاته و نعمه فنقول: إن ما نص عليه ياقوت فى معجمه بأن دار العجلة هى أول دار بنيت بمكة إنما هو و هم منه فأول دار بنيت بمكة هى "دار الندوة" بلا ريب.

و دار العجلة ذكرها الإمام الأزرقى فى تاريخه، و الأزرقى حجة لدى الجميع فهو المولود بمكة فى القرن الثانى للهجرة و من علمائها الأعلام و شيخ المؤرخين قاطبة و فى المثل (أهل مكة أدرى بشعابها) فقد قال رحمه الله تعالى عن دار العجلة فى تاريخه ما يأتى: دار العجلة ابتاعها عبد الله بن الزبير من آل سمير بن موهبة السهميين، و إنما سميت دار العجلة لأن ابن الزبير حين بناها عجل و بادر فى

بنائها، فكانت تبنى بالليل والنهار حتى فرغ منها سريعا، وقال بعض المكيين إنما سميت دار العجلة لأن ابن الزبير كان ينقل حجارتها على عجلة اتخذها على البخت و البقر. انتهى كلام الأزرقي.

فدار العجلة ربما كانت موجودة قبل ابن الزبير في عهد أبي بكر أو عمر رضى الله عنهما ولكن لا يمكن أن نحكم أنها أول دار بنيت بمكة مطلقا.

فمما لا شك فيه أن أول دار بنيت بمكة هي دار الندوة.

فلقد كان بناء دار الندوة لأول مرة في عهد قصي بن كلاب و بأمره بنيت هذه الدار و ذلك قبل الإسلام بنحو (١٥٠) سنة و بقيت هذه الدار إلى سنة (٢٨١) هجرية حيث خربت فأدخلها المعتضد العباسي في المسجد الحرام فيكون عمر دار الندوة نحو خمسمائة سنة و طبعاً لا تبقى على بنائها الأول و إنما يحدث فيها من الإصلاحات و تجديد البناء ما يحدث لغيرها، و كان خلفاء بني أمية و خلفاء بني العباس ينزلون فيها إذا حجوا، ثم إنها خربت و تهدمت، و تقلبت بها الأحوال فصارت بعض جهاتها تكرر للغرباء و المجاورين و يكون في بعضها دواب عمال مكة، ثم كان ينزلها عبيد العمال بمكة من السودان و غيرهم فيعشون فيها و يؤذون جيرانها، ثم كانت تلقى فيها القمامة و يتوضأ فيها الحجاج، فوصل ضرر ذلك إلى المسجد الحرام، فأمر المعتضد بالله العباسي بإدخال دار الندوة إلى المسجد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧٥

الحرام في السنة المذكورة فسبحان المتصرف في الكون و الذي بيده مقاليد السموات و الأرض.

بدء بناء البيوت بمكة

إشارة

لم تكن مكة معروفة منذ قديم الزمان، فأول من اكتشفها خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام و ذلك حينما أمره الله تعالى أن ينقل ابنه إسماعيل مع أمه هاجر إلى مكة فأتى له بالبراق فركبوا عليه من الشام قاصدين مكة يدلهم عليها و على معالم الحرم و موضع البيت جبرائيل عليه السلام، فقدموا مكة و ليس بها أحد من البشر فلا بناء و لا ماء و لا شجر مثمر، اللهم إلا أشجار العضاة بكسر العين المهملة (بوزن كتاب) و هي أشجار عظيمة ذات شوكة و هذه الأشجار لا تزال إلى اليوم موجودة في أراضي الحجاز و هي الأشجار الطبيعية التي تنبت بنفسها و تسمى شجر البادية، غير أنها كانت في تلك الأيام كثيرة وافرّة و ضخمة عظيمة لم تمتد إليها يد الإنسان بالقطع و الاحتطاب و رفعها من الطرقات و مواضع المساكن أما بعد استيطان البشر بمكة فقد نقصت هذه الأشجار الشوكية بل تكاد أن لا يوجد منها شيء في بطن مكة.

فلما أقام بمكة إسماعيل مع أمه و أظهر الله تعالى لهما ماء زمزم بفضله و كرمه حسبما اقتضته الإرادة الأزلية، وردت عليهما قبيلة من جرهم فاستأذنوهما في النزول عندهما ثم أرسلوا إلى أهليهم فقدموا إليهم ثم عمرت بهم مكة و بغيرهم من قبائل العرب، لكن كانوا يسكنون خارج مكة في أوديتها و شعابها تعظيماً لبيت الله الحرام، فلم يكن في وسط مكة من البيوت مطلقاً إلا البيت الحرام إلى أن كان زمن قصي كما سيأتي.

يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه (قصص أنبياء): و لم يبن بمكة شيء بعد البيت إلا في القرن الثاني قبل الإسلام، في عهد قصي بن كلاب. فإنه بنى دار الندوة و تبعته قريش تبنى حول المسجد و كان للمسجد ساحة فبنوا حوله و ذلك من نحو خمسين و مائة سنة قبل الإسلام. انتهى كلامه.

و لقد كانت القبائل من جرهم و العمالق و خزاعة و قريش و غيرهم يسكنون بشعاب مكة و يقطنون بظاهرها، و لا يقيمون بها إلا نهارا و لا يدخلونها على جنابة فإذا أمسوا خرجوا إلى الحل و يتركون حول الكعبة بدون بنیان احتراماً لها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧٦

و تعظيماً لشأنها فلا يجترئ أحد أن يبنى بجوارها داراً و لا جداراً- فلما آل الأمر إلى قصي بن كلاب الذي كان قبل الهجرة بنحو مائة و ثلاثين سنة، جمع قومه بطون قريش و أمرهم أن يبنوا حول الكعبة بيوتاً من جهاتها الأربعة، و قال لهم: إن سكتتم حول الكعبة هابتكم الناس و لم تستحل قتالكم و الهجوم عليكم، فبدأ هو أولاً ببناء دار الندوة في الجانب الشمالي للكعبة و هو فسحة باب الزيادة، ثم قسم قصي باقي الجهات بين قبائل قريش فبنوا بيوتهم حولها فكان ذلك أول بدء البنيان حول الكعبة، فكل من بنى بيتاً من قبائل قريش حول الكعبة سمي (قريش البواطن) و كانوا يبنون بيوتهم مدورة الشكل تعظيماً للكعبة فأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير و عندئذ قالت قريش: ربع حميد بيتاً إما حياة و إما موتاً، أي تخوفوا عليه من الانتقام الإلهي حيث خالف عادة العرب فبنى بيته مربعاً فأشبهه تربيع الكعبة. قال الأزرقى: كانت دار حميد بن زهير اللاصقة في ظهر الكعبة، كانت تفيء على الكعبة بالعشى و تفيء الكعبة عليها بالبكرة، و لقد كانوا يجعلون ارتفاع بيوتهم أقل من ارتفاع الكعبة احتراماً لها، فكان شيبه ابن عثمان لا يرى بيتاً مشرفاً على الكعبة إلا أمر بهدمه.

فعلم مما تقدم أن قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم هو الذي أمر قريشاً أن تبنى بيوتها حول الكعبة بمكة، لا تهاونا بأمرها و إنما ملاذاً بها حتى تهابهم الناس فلا يستحلون قتالهم و لا يهضمون حقوقهم، كما أنه هو أول من بنى داراً قبل قريش و هي دار الندوة لتقتدى قريش به في بناء بيوتها، و انظر إلى حكمه قصي في بدء بناء دار الندوة قبل بناء دار خاصة لنفسه، فدار الندوة هي عبارة في عرفنا و نطلق عليها في عصرنا هذا "قصر الحكم" أو "دار البرلمان" أو "مجلس الوزراء" أو "دار الإمارة" لأن دار الندوة كانت قريش لا تبرم أمراً إلا فيها و لا يقبل فيها من غير بنى قصي إلا من بلغ سن الأربعين و يدخلها بنى قصي جميعاً كبيرهم و صغيرهم، و غير ذلك من الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يكون عضواً فيها.

الابتداء ببنائة هذه الدار التي هي في مصلحة كل قبائل قريش قبل بناء بيوتهم بل حتى قبل بناء بيت لحاكم مكة هو عين الصواب و الحكمة.

و لم تكن في صدر الإسلام بيوت مكة تكرر و لا تباع. قال الإمام الأزرقى في تاريخه: عن علقمة بن فضلة: كانت الدور و المساكن على عهد النبي صلى الله عليه و سلم و أبي بكر و عمر و عثمان رضی الله عنهم ما تكرر و لا تباع و لا تدعى إلا السوايب،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧٧

من احتاج سكن و من استغنى أسكن. قال يحيى: قلت لعمر و ابن سعيد: فإنك تكرر، قال: قد أحل الله الميتة للمضطر إليها، و روى عن ابن جريج قال: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، و قال ابن جريج: أخبرني عطاء أن عمر ابن الخطاب كان ينهى أن تبوب أبواب دور مكة. ا.هـ.

فأول دار بمكة عمل لها بابان هي دار هند بنت سهيل، و ذلك كما رواه الأزرقى في تاريخ مكة أن هند بنت سهيل استأذنت عمر رضی الله عنه أن تجعل على دارها بابين فأبى أن يأذن لها، و قال: إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحاج و المعتمرين، و كان الحاج و المعتمرون ينزلون في عرصات دور مكة، فقالت هند: و الله يا أمير المؤمنين ما أريد إلا أن أحفظ على الحاج متاعهم فأغلقها عليهم من السرقة، فأذن لها فبويتها. انتهى من الأزرقى.

هذا ما كان من ابتداء البنيان و ظهور البيوت في مكة المشرفة، و لا يخفى الفرق الكبير بين تلك البيوت البدائية العربية، و بين ما فيها الآن من القصور الفخمة و العمارات الضخمة، و البيوت المكلفة بالآلاف المؤلفة. نسأل الله العزيز أن يوفقنا لشكر نعمائه ليزيدنا من فضله و إحسانه في بلدته الطاهرة المطهرة زادها الله شرفاً و أمناً و رزقاً و رخاء، و خيراً و عمراناً، و وفقنا فيها لصالح الأعمال حتى

يتوفانا بها على الإيمان الكامل آمين و صلى الله على نبينا أبي القاسم الأمين و على آله و أصحابه أجمعين.

دار العباس بن عبد المطلب

دار العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه عم النبي صلى الله عليه و سلم، كانت بالمسعى بين باب على و بين باب النبي، و هذه الدار أصبحت رباطا يسكنه الفقراء من القرن العاشر الهجرى.

ثم فى عصرنا هذا فى أواخر شهر جمادى الثانية سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف هدمت هذه الدار لتوسعة المسجد الحرام و الشوارع. و كانت إلى هذه الدار ينتهى حد المسعى عرضا من جهة باب العباسى، أحد أبواب المسجد الحرام المقابل لهذه الدار، و هذا الباب كان واقعا بين باب النبي و باب على، و كان فى هذه الدار من جهة المسعى أحد العلمين الأخضرين اللذان وضعا علامة لانتهاه الهرولة فى السعى لمن جاء من الصفا، فهدم هذا العلم تبعا لهدم الدار و إن شاء الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧٨

تعالى سيوضع علمان آخران فى موضعهما تماما للغرض المذكور، و لقد بنى أمام هذه الدار مظلة المسعى، و هى مبنية بالإسمنت و الحديد ليستظل تحتها الساعى فلا يتأذى من الشمس.

قال الأزرقى فى تاريخه عند ذكر رباع قريش و حلفائها قالوا: و كان عبد المطلب قد قسم حقه بين ولده و دفع إليهم ذلك فى حياته حين ذهب بصره، فمن صار للنبي صلى الله عليه و سلم حق أبيه عبد الله بن عبد المطلب، و للعباس بن عبد المطلب الدار التى بين الصفا و المروة التى بيد ولد موسى بن عيسى التى إلى جنب الدار التى بيد جعفر بن سليمان. و دار العباس هى الدار المنقوشة التى عندها العلم الذى يسعى منه من جاء من المروة إلى الصفا بأصلها و يزعمون أنها كانت لهاشم بن عبد مناف، و فى دار العباس هذه حجران عظيمان يقال لهما إساف و نائلة صنمان كانا يعبدان فى الجاهلية هما فى ركن الدار. انتهى كلام الأزرقى.

دار أبي سفيان بمكة

دار أبي سفيان بن حرب بمكة رضى الله تعالى عنه واقعة على يمين الصاعد من المسجد الحرام إلى المدعا محاذية للمروة، فتكون عند أول شارع المدعا الخارج من المسجد الحرام، و هذه الدار هى التى عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم فتح مكة حينما نادى مناديه "من دخل داره و أغلق بابه فهو آمن، و من دخل المسجد فهو آمن، و من دخل دار أبي سفيان فهو آمن." و كان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان من السنة الثامنة للهجرة. قال الأزرقى فى تاريخه بصحيفة (١٩٣) من الجزء الثانى ما ملخصه: أنه كان يباع فى الرحبة التى بين الدارين دار أبي سفيان و دار حنظلة بن أبي سفيان الحنظلة و الحبوب و السمن و العسل التى تحملها العير إذا قدمت مكة من السراة و الطائف و غير ذلك، فهذه الرحبة هى أشرف ربع مكة هـ.

جاء فى تاريخ الأزرقى ما نصه: لآل حرب بن أمية بن عبد شمس دار أبي سفيان بن حرب التى بين الدارين، يقال لها دار ريطه ابنة أبي العباس. و هى الدار التى قال النبي صلى الله عليه و سلم يوم الفتح: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى حدثنا عبد الرحمن بن حسن بن القاسم عن أبيه، عن علقمة بن نضلة قال: أصعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه المعلاة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٧٩

فى بعض حاجته، فمر بأبي سفيان بن حرب يهوى جملا له، فنظر إلى أحجار قد بناها أبو سفيان شبه الدكان فى وجه داره، يجلس عليه

في الغداة. فقال له عمر:

يا أبا سفيان، ما هذا البناء الذي أحدثته في طريق الحاج؟ فقال أبو سفيان: دكان نجلس عليه في فيء الغداة. فقال له عمر: لا أرجع في وجهي هذا حتى تقلعه و ترفعه، فبلغ عمر حاجته، فجاء والد كان على حاله فقال له عمر: ألم أقل لك لا أرجع حتى تقلعه؟ قال أبو سفيان: انتظرت يا أمير المؤمنين أن يأتينا بعض أهل مهنتنا فيقلعه و يرفعه. فقال عمر رضى الله عنه: عزمت عليك لتقلعه بيديك، و لتقلعه على عنقك، فلم يراجع أبو سفيان حتى قلعه بيده و نقل الحجارة على عنقه و جعل يطرحها في الدار. فخرجت إليه هند ابنة عقبه فقالت: يا عمر، أمثل أبي سفيان تكلفه هذا و تعجله عن أن يأتيه بعض أهل مهنته. فطعن بمخصرة كانت في يده في خمارها، فقالت هند و نفتحتها بيدها: إليك عنى يا ابن الخطاب، فلو في غير هذا اليوم تفعل هذا لأضطمت عليك الأخابش.

قال: فلما قلع أبو سفيان الحجارة و نقلها استقبل عمر القبلة و قال: الحمد لله الذي أعز الإسلام و أهله، عمر بن الخطاب رجل من بنى عدى يأمر أبا سفيان بن حرب سيد بنى عبد مناف بمكة فيطيعه.

ثم ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه. انتهى من الأزرقى. و معنى الدكان هنا كما فى المنجد: شىء كالمصطبة يقعد عليه و الكلمة فارسية هـ. و معنى المخصرة بكسر الميم هنا كما فى المنجد: ما يأخذه الملك بيده ليشير به إذا خاطب. اهـ.

نقول: إن دار أبي سفيان المذكورة تعرف اليوم فى زماننا بمستشفى القبان، و هى فى محلها المذكور أى فى أول المدعا، و القبان بفتح القاف و تشديد الباء. قال عنها المنجد: "آلة توزن بها الأشياء و الكلمة من الدخيل" و سبب نسبة المستشفى إلى القبان هو أنه كان فى الدار المذكورة توزن أكياس الحبوب و صفائح السمن و العسل و نحوها، بميزان طويل يثبت فيه ما يراد وزنه ثم يحمله شخصان لمعرفة مقدار الوزن فى مقابل أجر معين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨٠

اتخاذ دار أبي سفيان مستشفى

يطلق على دار أبي سفيان رضى الله عنه "القبان" بفتح القاف و تشديد الباء، و هى واقعة جهة المسعى بأول المدعى.

قال الغازى فى الجزء الثالث فى تاريخه عند ذكر ترجمته و تولية الحاج محمد حسيب باشا مكة ما نصه: ثم تولى بعد الحاج محمد شريف باشا المشير الحاج محمد حسيب باشا سنة (١٢٦٤) و قدم مكة فأحسن إلى جيران بيت الله تعالى و صرف لهم مرتباتهم، و أخذ فى مباشرة تعمیر المآثر المباركة، و زاد فى ماهيات بعض خدمة الحرم الشريف، ثم عمّر المحل المعروف الآن "بالقبان"، و جدد بنائه و جعله خلاوى لفقراء الحرم و رتب لهم عيشا و شوربه، و فى زماننا اتخذت "أى دار أبي سفيان المسمى بالقبان" ("خستخانه") و هذه كلمة تركية معناها مستشفى، لمرضى فقراء الأهالى و المنقطعين، و هى دار أبي سفيان الذى قال فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم فتح مكة: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن".

ثم ذكر الغازى بقیة ما عمله الحاج محمد حسيب باشا بمكة، و نحن اكتفينا بما ذكرناه عن أول اتخاذ القبان مستشفى للمرضى. انتهى من الغازى.

انظر: صورة رقم ٢٢، عقد باب مستشفى القبان بآخر المدعى

ثم إنه اعتنيت بهذه المستشفى أكثر مما تقدم، فإنه لما كانت سنة (١٢٨٢) اثنتين و ثمانين و مائتين و ألف أمرت "بزم عالم" والدة السلطان عبد المجيد خان من سلاطين آل عثمان بجعل هذه الدار مستشفى للمرضى فكان فيها بعض الأطباء مع ما يلزم من الأدوية،

فبطل وزن الحبوب والأشياء فيها، فنقل القبان إلى الدكاكين المجاورة للدار بالمدعا و ما زال ذلك إلى اليوم. و لهذا نسب المستشفى إلى القبان فقبل لها "مستشفى القبان".

فلما تعددت المستشفيات بالبلدة الطاهرة نقل المرضى من هذه الدار إلى بعض المستشفيات الأخرى، و جعل مستشفى القبان مستودعا للأدوية الصحية والأدوات الطبية العائدة لوزارة الصحة و ذلك ابتداء من سنة (١٣٦٤) أربع و ستين و ثلاثمائة و ألف، فصارت تعرف الآن "بمستودع وزارة الصحة".

و الظاهر من كلام الأزرقي الآتي أن جهه دار أبي سفيان هذه "أى مستشفى القبان" كانت من قديم الزمان فيها دار للمرضى أيضا، فإنه يقول فى تاريخه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨١

بصحيفة ١٩٢ من الجزء الثانى: و دار الحدادين التى بسوق الليل مقابل سوق الفاكهة، و سوق الرطب فى الزقاق الذى بين دار حويطب و دار ابن أخى سفيان بن عيينة التى بناها، و دار الحدادين هذه كانت فيما مضى يقال لها دار مال الله كان يكون فيها المرضى و طعام مال الله. انتهى كلامه- فهو يقول: دار الحدادين يقال لها دار مال الله و هى واقعة بسوق الليل و فى هذه الدار يكون المرضى فى ذلك الزمن- نقول و سوق الليل واقع وراء المدعا، و يتدئ سوق الليل من وراء مستشفى القبان كما يتدئ المدعا من هذه المستشفى.

و دار أبى سفيان المذكورة لا تبقى بعد مرور أربعة عشر قرنا عليها على ما كانت عليه فى زمنه، فلا بد أن يحصل عليها خراب فعمار مرارا عديدة، لكن لا يزال نفس المحل و الموضع معروف و محتفظ به إلى اليوم و فيه محراب ظاهر، و خلف هذا الموضع بالضبط يقع موضع ميلاد فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه و سلم و منزل أم المؤمنين خديجة رضى الله تعالى عنها.

و قد دخلنا هذه الدار فى اليوم الثامن و العشرين من شهر رجب سنة ألف و ثلاثمائة و ست و سبعين هجرية لأخذ بعض الصور الفوتوغرافية لها، و وجدنا فيها لوحة طولها نحو متر واحد و عرضها نحو نصف متر كتب فيها بخط الثلث "من دخل دار أبى سفيان فهو آمن" كتبها محمد عارف مصطفى شكرى سنة (١٣١٢) و إليك صورة هذه اللوحة.

انظر: صورة رقم ٢٣، لوحة مكتوب فيها: من دخل دار أبى سفيان كان آمنا

كما وجدنا فى الدار المذكورة بئرا قديمة جدا و هى بعيده الغور غزيرة الماء و فى طعم مائها نوع ملوحة، يقال أنه وقع فيها شخص فمات منذ خمسة عشر سنة فنزل إليها بعض الغواصين من مكة فلم يقدر أن ينتشل جثة الرجل الذى وقع فيها فأتوا بغواص من جدة من رجال البحر فنزل فيها فأخرج الجثة- فحبذا لو انتفع الناس من مثل هذه الآبار فى مصالح أخرى غير الشرب.

و ليس جميع حدود مستشفى القبان، و بعبارة أخرى "مستودع وزارة الصحة" هو حدود نفس دار أبى سفيان فى زمنه، بل إن داره القديم جزء صغير بالنسبة إلى عماره المستودع اليوم بأضعاف ما كانت عليه فى زمنه رضى الله تعالى عنه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨٢

و فى عامنا هذا (١٣٨٥) ألف و ثلاثمائة و خمسة و ثمانين هجرية بدأت الحكومة السعودية فى هدم مستشفى القبان الذى محله فى الأصل هو محل دار أبى سفيان رضى الله تعالى عنه، تريد الحكومة أن تهدمه ثم تبنيه و تجعله دار للكتب للنفع العام، و نحن الآن لا نتمكن من الكتابة عنه شىء، لأنه فى حالة هدم و هدد، لم تهياً بعد لأمر من الأمور، فنكتفى هنا بالتنبيه على ذلك للعلم به، نسأل الله تعالى أن توفق ولاة الأمور لصالح العباد و البلاد آمين.

انظر: صورة رقم ٢٤، كتابه على باب دار الأرقم بالصفاء

دار الأرقم و تسمى بدار الخيزران كانت بالصفاء عند مبدأ السعى، على يسار الصاعد إليه من الشرق، و المسافة بين جبل الصفاء، أى من موضع ابتداء السعى، و بين هذه الدار ستة و ثلاثون مترا باستقامة خط المشى، أو ثمانية و أربعون مترا، إذا انعطفت ناحية الحارة التى كانت بها الدار قبل هدمها فى التوسعة السعودية، و لقد هدمت هذه الدار فى اليوم الثامن و العشرين من شوال سنة (١٣٧٥) خمس و سبعين و ثلاثمائة و ألف، لإدخالها فى توسعة المسجد الحرام التى حصلت فى السنة المذكورة، فى عهد جلالة الملك المعظم، سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن، وفقه الله تعالى لكل خير.

و من الغريب أن يظن العلامة ابن كثير، صاحب التفسير الشهير، بأن هذه لدار دخلت فى توسعة المسجد الحرام، فقد قال فى تاريخه المسمى "بالبداية و النهاية" بصحيفة ١٦٤ فى الجزء العاشر، عند الكلام على دخول سنة ثلاث و سبعين و مائة ما نصه: "و قد اشترت الخيزران الدار المشهورة بمكة المعروفة بدار لخيزران فزادتها فى المسجد الحرام" انتهى كلامه.

فهذا الظن فى غير محله، و قد وهم ابن كثير رحمه الله تعالى، و ليس فى ذلك من بأس، فإن الإنسان معرض للخطأ و النسيان، و ليس هذا أمر يتعلق به حكم شرعى، و إننا نستدل على أن هذه الدار، لم تدخل فى المسجد الحرام فى عهد محمد لهدى العباسى بجملة أمور:

(١) أن جميع المؤرخين ذكروا أن دار الأرقم كانت بالصفاء.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨٣

(٢) روى الحاكم فى المستدرک فى الجزء الثالث بصحيفة (٥٠٢) قال: أسلم الأرقم سابع سبعة، و كانت داره على الصفاء، و هى الدار التى كان النبى صلى الله عليه و سلم، يكون فيها فى الإسلام، و فيها دعا الناس إلى الإسلام، فأسلم فيها قوم كثير و دعيت دار الإسلام، و تصدق بها الأرقم على ولده و كتب نسخة الصدقة: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قضى به الأرقم فى ربه ما حاز الصفاء أنها صدقة بمكانها من الحرم لا تباع و لا تورث ... إلى آخر ما جاء فى المستدرک.

(٣) لو دخلت دار الأرقم فى المسجد الحرام فى توسعة المهدي، أو فى توسعة من قبله، لذكر المؤرخون ذلك لأنها أهم أثر إسلامى، فإذا كان المؤرخون ذكروا أشهر الدور التى دخلت المسجد الحرام فى الزيادات التى حصلت، فدار الأرقم التى كانت تدعى "بدار الإسلام" لو دخلت فيه لكانت أولى بالذكر و البيان.

(٤) تواتر الأخبار و إجماع الأمة، من العلماء و المؤرخين و الملوك و الأمراء، حتى العوام من قديم الزمان إلى اليوم، أن محل دار الأرقم هو موضعها الآن لم يتغير مطلقا.

(٥) دار الأرقم تسمى أيضا "دار الخيزران" نسبة إلى خيزران جارية المهدي أم الرشيد، فهى التى اشترتها حينما حجت سنة (١٧١) أحد و سبعين و مائة، و بنت المسجد الذى فى هذه الدار، فلو دخلت دار الأرقم فى المسجد الحرام فى زيادة و توسعة زوجها المهدي التى حصلت سنة (١٦٤)، أو فى زيادة من تقدمه، فهل كان ذلك خافيا عليها، و على أهل زمانها، و هم قرييون من صدر الإسلام؟ كلا ثم كلا.

(٦) لا يخفى أن ما بين الصفاء و المسعى فى صدر الإسلام، كان مسيلا و واديا نازلا، قال جابر بن عبد الله و هو يحدث عن حجة النبى صلى الله عليه و سلم: "ثم نزل عن الصفاء حتى إذا انصبت قدماء فى بطن الوادى سعى حتى إذا أصدت من الشق الآخر مشى." "إذا كان الصفاء منعزلا عن جهة المسجد الحرام بسبب المسيل المعترض، فإذا قالوا أن دار الأرقم كانت بالصفاء، فهم يعنون جبل الصفاء نفسه. فعلم مما ذكرناه، أن محل دار الأرقم هو موضعه اليوم الذى عند الصفا بينهما نحو ثلاثين ذراعا، فلا صحة لقول القائل أنها دخلت فى التوسعات السابقة قبل أكثر من ألف و مائتى سنة، فهذا القول و هم و تخيل لا حقيقة له.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨٤

ثم رأينا رد الفاسى فى كتابه "شفاء المرام" بصحيفة ٢٢٦ من الجزء الأول، على ابن كثير رحمهما الله تعالى فى هذه المسألة فقال: اعلم أنه لم يزد فى المسجد الحرام بعد الأزرقى إلا الزياتين، المعروفة أحدهما بزيادة دار الندوة بالجانب الشمالى، و الثانية الزيادة المعروفة بزيادة باب إبراهيم بالجانب الغربى، و لم يزد فيه بعد المهدي غير هاتين الزياتين.

فأما قول الحافظ عماد الدين بن كثير، فى تاريخه فى أخبار سنة إحدى و سبعين و مائة، أن الخيزران أم المؤمنين خرجت إلى مكة، فأقامت بها حتى شهدت الحج، و قد اشترت الدار المشهورة لها بمكة المشرفة المعروفة بدار الخيزران، فزادتها فى المسجد الحرام، فهو غير مستقيم، لأن الدار المشهورة "بالخيزران" بمكة إنما هى عند جبل الصفا، و بينها و بين المسجد الحرام، طريق مسلوكة يزيد على مائة ذراع، على مقتضى ما ذكره الأزرقى فى مقدار ما بين باب المسجد المعروف بباب الصفا، و الصفا الذى هو مبدأ السعى و هو قرب هذه الدار، فدخولها فى المسجد الحرام غير ممكن، و أيضا قال أنه لو وقع منها ذلك لاشتهر، كما اشتهر توسعته غيرها فى المسجد الحرام، و لذكره الأزرقى فى تاريخه، كما ذكر ما وقع من غيرها من هذا الأمر و الله أعلم. انتهى من شفاء الغرام.

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه ما نصه: و ربع آل الأرقم بن أبى الأرقم، و اسم أبى الأرقم عبد مناف بن أبى جندب أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، الدار التى عند الصفا يقال لها دار الخيزران، و فيها مسجد يصلى فيه، كان ذلك المسجد بيتا كان يكون فيه النبى صلى الله عليه و سلم، يتوارى فيه من المشركين، و يجتمع هو و أصحابه فيه عند الأرقم بن أبى الأرقم، و يقرأوهم القرآن و يعلمهم فيه، و فيه أسلم عمر بن الخطاب. ا. ه.

و قال ابن فهد فى حوادث سنة (١٧١) إحدى و سبعين و مائة: فيها قدمت الخيزران أم الرشيد إلى مكة قبل الحج، فأقامت بها حتى شهدت الحج، و اشترت الدار المعروفة بمكة المشرفة بدار الخيزران عند الصفا. انتهى.

و فى البحر العميق، قال سعد الدين الإسفرائينى: و المسجد الذى فى هذه الدار بنته جارية المهدي. قال الفاسى: و طول هذا المسجد ثمانية أذرع لإقراطين، و عرضه سبعة أذرع و ثلث، الجميع بذراع الحديد. ا. ه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨٥

و يقول ابن جبير الأندلسى فى رحلته: أنه دخل دار الخيزران سنة (٥٧٨) و هى بإزاء الصفا و يلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها كان مسكن بلال رضى الله عنه ... الخ. انتهى منه.

و جاء فى كتاب الإعلام: المختبأ هو أفضل المواضع بمكة بعد دار أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها، لكثرة مكث النبى صلى الله عليه و سلم فيه، يدعو الناس للإسلام مستخفيا عن أشرار قريش الكفار، و هو الموضع الذى كان صلى الله عليه و سلم، يختبئ فيه من الكفار، و يجتمع فيه من آمن به، و يصلى بهم الأوقات الخمسة سرا، إلى أن أسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فجهر بالإسلام و بالصلاة و أعز الله الإسلام به، و دار الخيزران، هى دو حول المختبأ ملكتها أم الرشيد شراء لما حجت، و تناقلت فى يد الملاك إلى أن صارت الآن من جملة أملاك السلطان مراد خان. انتهى.

قال الزين العراقى فى ألفيته المسماة بنظم الدرر السنية فى سيرة خير البرية عن اجتماع المسلمين بدار الأرقم ما يأتى:

و اتخذ النبى دار الأرقم للصحب مستخفين عن قومهم

و قيل كانوا يخرجون تترى إلى الشعاب للصلاة سرا

حتى مضت ثلاثة سنينا و أظهر الرحمن بعد الدنيا

و صدع النبى جهرا معلنا إذا نزلت فاصدع بما فانا

و أنذر العشائر التى ذكر جمعهم إذا نزلت و أنذر

و فى كتاب الرحلة الحجازية للبتونى عند الكلام على دار الأرقم ما نصه:

أما دار الأرقم المخزومى، المشهورة بدار الخيزران، فهى فى زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا، و هى الدار التى كان يختبئ فيها

رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعثته هو ومن آمن معه، وكانوا يصلون سرا حتى أسلم عمر رضى الله عنه، فقويت به عصيتهم و جهروا بالإسلام و الصلاة، و باب هذا الدار يفتح إلى الشرق، و يدخل منه إلى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار، في عرض أربعة، و على يسارها، إيوان مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار، و في وسط الحائط التي على يمينها، باب يدخل منه إلى غرفة طولها ثمانية أمتار، في عرض نحو نصف ذلك، مفروشة بالحصير، و في زاويتها الشرقية الجنوبية، حجران من الصوان موضوعان فوق بعضهما مكتوب في أعلاهما بالحرف البارز: "بسم الله الرحمن الرحيم، في بيوت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨٦

أذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو و الآصال هذا مختبأ رسول الله و دار الخيزران، و فيها مبتدأ الإسلام، أمر بتحديده الفقير إلى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله و رسوله و الله لا يضيع أجر المحسنين."

و مكتوب في الثاني: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا مختبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف بدار الخيزران أمر بعمله و إنشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الإسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير الشام و الموصل الطالب الوصول إلى الله تعالى الراجي لرحمته أطال الله في الطاعة بقاءه و أناله في الدارين مناه في سنة خمس و خمسين و خمسمائة." انتهى من الرحلة الحجازية للبنونى.

و لقد عمّرت دار الأرقم و المسجد الذى فيه مرارا عديدة منها:

(١) عمّرتها الخيزران أم الرشيد و بنت المسجد الذى فيها سنة (١٧١) هجرية، و ستأتى ترجمتها فى آخر المبحث.

(٢) و عمّرها أمين الملك مصلح.

(٣) و عمّرها الوزير الجواد.

(٤) و عمّرها المستنصر العباسى.

(٥) و عمّرها جمال الدين شرف الإسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير الشام و الموصل سنة (٥٥٥).

(٦) و عمّرها بعض المجاورين بمكة فى آخر القرن الثامن.

(٧) و عمّرها السلطان مراد خان حينما اشتراها.

(٨) و عمّرها إبراهيم بك، جددتها من أساسها إلى فوقها، و جعل فيها قبة عظيمة و طاجين و طبطب السطح بالنورة و ذلك سنة

(١١١٢) هجرية، كما فى كتاب إتحاف فضلاء الزمن. قال الغازى رحمه الله تعالى فى تاريخه: و قد هدمت هذه القبة فى سنة (١٣٤٣)

ه. انتهى.

هذا ما وقفنا على من عمّرت دار الأرقم، و الله تعالى أعلم بمن عمرها أيضا، و قد تقدم أن هذه الدار هدمت الآن، و محى أثرها فى آخر

شوال سنة (١٣٧٥) لإدخالها فى التوسعة السعودية.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨٧

[قصة إسلام عمر]

و لنذكر هنا قصة إسلام عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى دار الأرقم "دار الخيزران" ناقلين ذلك من كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى، فقد جاء فيه ما نصه:

و دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى، كان يجتمع فيها المسلمون سرا يتعلمون الدين و يقيمون الشعائر، حتى أسلم عمر رضى الله عنه و عز به الإسلام، و جهر المسلمون بدينهم، و كان إسلام عمر بدار الأرقم، و ها نحن أولا ننقل إليك عن سيرة ابن هشام قصة إسلامه، لما فيها من العبر و المواعظ:

قال ابن إسحاق: و كان إسلام عمر فيما بلغني، أن أخته فاطمة بنت الخطاب، و كانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، و كانت قد أسلمت، و أسلم بعلمها سعيد بن زيد، و هما مستخفيان بإسلامهما من عمر، و كان نعيم بن عبد الله النحام قد أسلم و كان يخفى إسلامه فرقا "خوفا" من قومه، و كان خباب بن الأرت يختلف "يذهب" إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه و سلم و رهطا من أصحابه قد ذكر له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا، و هم قريب من أربعين ما بين رجال و نساء، و مع رسول الله صلى الله عليه و سلم عمه حمزة بن عبد المطلب، و أبو بكر بن أبي قحافة الصديق، و علي بن أبي طالب في رجال من المسلمين، رضى الله عنهم، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة و لم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقية نعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدا، هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، و سفه أحلامها و عاب دينها، و سب آلهتها فأقتله. فقال له نعيم: و الله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر. أترى لبنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض و قد قتلت محمدا، أفلا- ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم. قال: و أى أهل بيتي. قال: ختنك، أى صهرك، و ابن عمك سعيد بن زيد ابن عمرو و أختك فاطمة بنت الخطاب فقد و الله أسلما، و تابعا محمدا على دينه فعليك بهما. قال:

فرجع عمر عامدا إلى أخته و ختنه، و عندهما خباب بن الأرت مع صحيفة فيها طه يقرئها إياها، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت. و أخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة، فجعلتها تحت فخذاها و قد سمع التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨٨

عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليها، فلما دخل قال: ما هذه الهيمنة التي سمعت؟ قال له: ما سمعت شيئا. قال: بلى و الله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه. و بطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت أخته و ختنه:

نعم قد أسلمنا و آمننا بالله و رسوله فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم، ندم على ما صنع فارعوى و قال لأخته:

أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون أنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد.

و كان عمر كاتباً. فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال: لا تخافى. و حلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له: يا أخى إنك نجس على شركك و إنه لا يمسه إلا الطاهر. فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة و فيها طه فقرأها. فلما قرأ منها صدرا قال: ما أحسن هذا الكلام و أكرمه. فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر، و الله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس و هو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعمر ابن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلتنى يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم.

فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا- بيت الأرقم- معه فيه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا بالسيف، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو فزع فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف. فقال حمزة بن عبد المطلب:

فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له، و إن كان يريد شرا قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ائذن له. فأذن له الرجل، و نهض إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته- حجرة الإزار معقده- أو بمجمع رداءه، ثم جبذه جبذة شديدة- جبذه- و قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فو الله ما أرى أن تنتهى حتى لينزل الله بك قارعة. فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله و رسوله، و بما جاء من عند الله. فكبر رسول الله صلى

الله عليه و سلم تكبيره عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم أن عمر قد أسلم، فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم من مكانهم و قد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، و عرفوا أنهما التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٨٩

سيمعان رسول الله صلى الله عليه و سلم و يتصفون بهما من عدوهم. فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم. انتهى من مرآة الحرمين.

هذا ما كتبه عن دار الأرقم "دار الخيزران"، و هو تفصيل تام ربما لم يكتب عنها أحد كما كتبنا، فالحمد لله على التوفيق.

ترجمة الخيزران أم الرشيد

جاء عنها في كتاب "محاضرات الخضرى" ما يأتى:

هى أم موسى الهادى و أم هارون الرشيد اسمها الخيزران، أعتقها أمير المؤمنين محمد المهدي فى سنة (١٥٩)، و تزوجها بعد أن ولدت له الهادى و الرشيد. اه.

و فى تاريخ ابن كثير ما ملخصه: اشترى المهدي الخيزران و حظيت عنده جدا ثم أعتقها و تزوجها و ولدت له خليفين موسى الهادى و الرشيد، و لما عرضت الخيزران على المهدي ليشتريها أعجبه إلا دقه فى ساقها، فقال لها: يا جارية إنك لعلى غاية المنى و الجمال لولا- دقه ساقيك و خموشهما، فقالت: يا أمير المؤمنين إنك أحوج ما تكون إليهما لا تراهما، فاستحسن جوابها و اشتراها و حظيت عنده، و كان مغل ضياعها فى كل سنة سنة ألف ألف و ستين ألفا.

و ذكروا أنه أهدى إليها محمد بن سليمان نائب البصرة الذى مات فى اليوم الذى ماتت فيه، مائة و صيفة، مع كل و صيفة جام من فضة مملوء مسكا، فكتبت إليه تقول: إن كان ما بعثته ثمنا عن ظننا فيك فظننا فيك أكثر مما بعثت و قد بخستنا فى الثمن، و إن كنت تريد زيادة المودة فقد اتهمتني فى المودة، و ردت ذلك عليه. انتهى من ابن كثير و محمد بن سليمان المذكور جمع له المنصور بين البصرة و الكوفة و زوجه المهدي ابنته العباسة.

و فى محاضرات الخضرى: كان الهادى شديد الغيرة على حرمه و يشبه فى ذلك سليمان بن عبد الملك من بنى أمية، و قد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته، بعد أن كان لها من نفوذ الأمر فى عهد المهدي ما لم يكن لامرأة غيرها. (قالوا): كانت الخيزران فى أول خلافة موسى الهادى تفتت عليه فى أموره، و تسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر و النهي. فأرسل إليها ألا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٩٠

تخرجى من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك. و عليك بصلاتك و تسبيحك و تبتلك. و كانت الخيزران فى خلافة موسى كثيرا ما تكلمه فى الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأله، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته، و انشال الناس عليها، و طمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها. فكلتمه يوما فى أمر لم يجد إجابتها إليه سيلا، فاعتل بعلمة. فقالت: لا بد من إجابتي. قال: لا أفعل. قالت: فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك. فغضب موسى و قال: و يلى على ابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها. و الله لا قضيتها لك. قالت: إذا و الله لا أسألك حاجة أبدا. قال: إذا و الله لا أبالي. و حمى غضبه، فقامت مغضبة. فقال: مكانك تستوعبى كلامى. و الله، و قرابتي من رسول الله صلى الله عليه و سلم لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى، أو من خاصتى، أو خدمى لأضربن عنقه و لأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك. ما هذه المواكب التى تغدو و تروح إلى بابك فى كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك، ما فتحت بابك لملئى أو ذمى. فانصرفت ما تعقل ما تطأ. فلم تنطق عنده بحلوة و لا مرة بعدها. انتهى من محاضرات الخضرى.

و بعد موت موسى الهادى ولى الخلافة أخوه هارون الرشيد، و فى أثناء دولته قدمت الخيزران (أم الرشيد و الهادى) إلى مكة قبل الحج سنة (١٧١) إحدى و سبعين و مائة فأقامت بها إلى أن حجت و عملت كثيرا من الخيرات و هى التى اشترت فى هذه السنة "دار الأرقم"، و هى الدار التى كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعو فى أول الأمر إلى الإسلام سرا، كما اشترت الدور الملاصقة لدار الأرقم و أصلحتها و بنتها فسميت هذه الدار "بدار الخيزران" نسبة إليها، رحمها الله تعالى و غفر لنا و لها.

و فى تاريخ ابن كثير: لما تولى هارون الرشيد الخلافة و ولى يحيى بن خالد بن برمك الوزارة أمره أن لا يقطع أمرا إلا بمشورة والدته الخيزران، فكانت هى المشاورة فى الأمور كلها، فتبرم و تحل و تمضى و تحكم. ٥١.

قال ابن كثير: و اتفق موتها ببغداد ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة "أى سنة ثلاث و سبعين و مائة"، و خرج ابنها الرشيد فى جنازتها و هو حامل سريرها يخب فى الطين، فلما انتهى إلى المقبرة أتى بماء فغسل رجله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٩١

و لبس خفا و صلى عليها و نزل لحدها، فلما خرج من القبر أتى بسرير فجلس عليه و استدعى الفضل بن الربيع فولاه الخاتم و النفقات، و أنشد الرشيد قول ابن نويرة حين دفن أمه الخيزران:

و كنا كندمانى جذيمة برهه من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأنى و مالكالطول اجتماع لم نبت ليلة معا

انتهى من تاريخ ابن كثير.

و رأينا فى ابن كثير أن الخيزران حجت مرتين مرة سنة (١٧١) و مرة ثانية حجت فى حياة المهدي، و هل حجت غيرهما، الله تعالى أعلم بذلك.

و قد تقدم أن الخيزران لما قدمت مكة سنة إحدى و سبعين و مائة اشترت دار الأرقم بالصفاء، ذكر الفاسى فى كتابه شفاء الغرام: قال جابر بن عبد الله: كان أول من خلق المسجد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه "أى المسجد النبوى" ثم لما حجت الخيزران أم موسى و هارون فى سنة إحدى و سبعين و مائة أمرت بالمسجد أن يخلق فتولت تخليقه جاريتها مؤنسة، فخلقتها جميعه حتى الحجرة الشريفة جميعها، انتهى.

و قد اشترت الخيزران أيضا البيت الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه و سلم، لما قدمت مكة للحج، فجعلته مسجدا يصلى فيه، فقد ذكر ذلك الإمام الأزرقى فى تاريخه بصحيفة ١٦٠ من الجزء الثانى عند ذكر المواضع التى يستحب فيها الصلاة بمكة، و قد قدمنا بيان ذلك عند "موضع ولادة النبى" صلى الله عليه و سلم.

حرم مكة و أنصابه

قال الله تعالى فى سورة القصص: وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَى مَعَكَ تُنْخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِيبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. و قال عز شأنه فى سورة العنكبوت: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَ يَخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ يَنْعَمُ اللَّهُ لِيَكْفُرُوا.

قال العلامة ابن ظهيرة: حرم مكة هو ما أحاط بها من جوانبها و قد جعل الله حكمه حكم مكة تشريفا لها. ٥١.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٩٢

قال الأزرقى فى تاريخه: حدثنى جدى قال: حدثنا عبد الرحمن بن حسن ابن القاسم عن أبيه قال: سمعت بعض أهل العلم يقول: إنه لما خاف آدم عليه السلام على نفسه من الشيطان استعاذ بالله سبحانه، فأرسل الله عز و جل ملائكة حفوا بمكة من كل جانب و وقفوا حولها، قال: فحرم الله تعالى الحرم من حيث كانت الملائكة عليهم السلام وقفت.

وقال أيضا: حدثني جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم القداح عن عثمان ابن ساج عن وهب بن منبه: أن آدم عليه السلام اشتد بكاؤه و حزنه لما كان من عظم المصيبة حتى أن الملائكة لتحزن لحزنه و تبكى لبكائه، فعزاه الله بخيمة من خيام الجنة وضعها له بمكة فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة، و تلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة، و فيها ثلاثة قناديل من ذهب من تبر الجنة، فيها نور يلتهب من نور الجنة، و الركن يومئذ نجم من نجومه، فكان ضوء ذلك النور ينتهى إلى موضع الحرم.

فلما صار آدم إلى مكة حرسه الله و حرس تلك الخيمة بالملائكة، فكانوا يقفون على مواضع أنصاب الحرم يحرسونه و يذودون عنه سكان الأرض، و سكانها يومئذ الجن و الشياطين، فلا ينبغى لهم أن ينظروا إلى شىء من الجنة لأنه من نظر إلى شىء منها وجبت له، و الأرض يومئذ طاهرة نقيه طيبة، لم تنجس، و لم تسفك فيها الدماء و لم يعمل فيها بالخطايا. فلذلك جعلها الله سبحانه يومئذ مستقرا لملائكته و جعلهم فيها كما كانوا فى السماء، يسبحون الليل و النهار لا يفترن، فلم تزل تلك الخيمة مكانها حتى قبض الله تعالى آدم ثم رفعها إليه.

انتهى منه.

و فى تاريخ الأزرقى أيضا: حدثنا أبو وليد قال: حدثني جدى عبد الرحمن بن حسن بن القاسم عن أبيه قال: سمعت بعض أهل العلم يقولون: قال إبراهيم عليه السلام لإسماعيل: أبغنى حجرا أجعله للناس آية. قال: فذهب إسماعيل ثم رجع و لم يأت بشىء و وجد الركن عنده، فلما رآه قال له: من أين لك هذا؟ قال إبراهيم: جاء به من لم يكنى إلى حجرى، جاء به جبريل عليه السلام. قال: فوضعه إبراهيم عليه السلام فى موضعه هذا، فأنا شرقا و غربا و يمنا و شاما، فحرم الله تعالى الحرم من حيث أنهى نور الركن و إشراقه من كل جانب.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-2، ص: 93

قال: و لما قال إبراهيم: ربنا أرنا مناسكنا، نزل إليه جبريل، فذهب به فآره المناسك، و وقفه على حدود الحرم. فكام إبراهيم يرضم الحجارة، و ينصب الأعلام، و يجيب عليها التراب، و كان جبريل يقفه على الحدود، قال: و سمعت أن غنم إسماعيل عليه السلام، كانت ترعى فى الحرم و لا تجاوزه. و لا تخرج منه فإذا بلغت منتهاه من كل ناحية من نواحيه رجعت صاية فى الحرم.

حدثنا أبو الوليد: حدثني جدى، حدثني سعيد بن سالم عن ابن جريج قال:

كنت أسمع من أبى يزعم أن إبراهيم أول من نصب أنصاب الحرم.

حدثنا أبو الوليد: حدثنا سعيد بن سالم عن ابن جريج، عن عبد الله بن عثمان بن خيثم، عن محمد بن الأسود أنه أخبره أن إبراهيم أول من نصب أنصاب الحرم، و أن جبريل عليه السلام، دله على مواضعها، قال ابن جريج: و أخبرنى أيضا عنه أن النبى صلى الله عليه و سلم أمر يوم الفتح تميم بن أسد جد عبد الرحمن بن عبد المطلب بن تميم فجددها. انتهى منه.

و فيه أيضا: حدثنا أبو الوليد و حدثني محمد بن يحيى عن هشام بن سليمان المخزومى، عن عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن موسى بن عقبه أنه قال: عدت قريش على أنصاب الحرم فزعتها، فاشتد ذلك على النبى صلى الله عليه و سلم، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا محمد اشتد عليك أن نزع قريش أنصاب الحرم، قال: نعم. قال: أما إنهم سيعيدونها. قال: فرأى رجل من هذه القبيلة من قريش و من هذه القبيلة حتى رأى ذلك عدة من قبائل قريش قائلين يقول: حرم كان أعزكم الله به و منعكم فزعتهم أنصابه، الآن تخطفكم العرب، فأصبحوا يتحدثون بذلك فى مجالسهم فأعادوها فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا محمد قد أعادوها، قال: أفأصابوا يا جبريل؟ قال: ما وضعوا منها نصبا إلا بيد ملك.

حدثنا أبو الوليد، حدثنا محمد بن يحيى عن الواقدي، عن إسحاق بن حازم، عن جعفر بن ربيعة، عن الزهرى، عن عبيد الله بن عتبة: أن إبراهيم عليه السلام نصب أنصاب الحرم يريه جبريل عليه السلام، ثم لم تحرك حتى كان قصى فجددها، ثم لم تحرك حتى كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث عام الفتح تميم بن أسد الخزاعي فجدها، ثم لم تحرك حتى كان عمر بن الخطاب رضى الله عليه، فبعث أربعة من قريش كانوا يتبدون في بواديها فجددوا أنصاب الحرم، منهم مخزوم بن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٩٤

نوفل، و أبو هود سعيد بن يربوع المخزومي، و حويطب بن عبد العزى، و أزهري بن عبد عوف الزهري. انتهى منه.

وفيه أيضا: حدثنا أبو الوليد، حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي، حدثني خالد بن إلياس، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن أبيه قال: لما ولي عثمان بن عفان، بعث على الحج عبد الرحمن بن عوف و أمره أن يجدد أنصاب الحرم فبعث عبد الرحمن نفرا من قريش منهم حويطب بن عبد العزى، و عبد الرحمن بن أزهري، و كان سعيد بن يربوع قد ذهب بصره في آخر خلافة عمر، و ذهب بصر مخزوم بن نوفل في خلافة عثمان، فكانوا يجددون أنصاب الحرم في كل سنة، فلما ولي معاوية كتب إلى والى مكة فأمره بتجديدها.

قال: فلما بعث عمر بن الخطاب نفر الذين بعثوا في تجديد أنصاب الحرم أمرهم أن ينظروا إلى كل واد يصب في الحرم، فنصبوا عليه و أعلموه و جعلوه حرما و إلى كل واد يصب في الحل فجعلوه حلا. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم؛ ج ١-٢؛ ص ٩٤

ثنا أبو الوليد: حدثني جدى، عن محمد بن إدريس، عن محمد بن عمر، عن ابن أبي سبرة، عن المسور ابن رفاعه قال: لما حج عبد الملك بن مروان أرسل إلى أكبر شيخ يعلمه من خزاعة، و شيخ من قريش، و شيخ من بنى بكر، و أمرهم بتجديد أنصاب الحرم، قال أبو الوليد: و كل واد في الحرم فهو يسيل في الحل، و لا يسيل من الحل في الحرم إلا من موضع واحد عند التنعيم، عند بيوت غفار. انتهى كل ذلك مما تقدم من تاريخ الإمام الأزرقى.

و جاء فى هامش التاريخ المذكور هنا بصحيفة ١٠٤ من الجزء الثانى، بعد انتهاء كلام الأزرقى هذا ما نصه:

وقد جدها "أى الأعلام" عبد الملك بن مروان، و فى عام ١٥٩ لما رجع المهدي من الحج أمر بتجديدها، و كذلك جدها المقتدر بالله العباسى، و فى سنة ٣٢٥ أمر الراضى بالله العباسى بعمارة العلمين من جهة التنعيم، و فى سنة ٦١٦ أمر المظفر صاحب إربل بعمارة العلمين من جهة عرفه، ثم الملك المظفر صاحب اليمن عام ٦٨٣، و جدهما السلطان أحمد الأول ابن محمد العثمانى عام ١٠٢٣.

انتهى.

و جاء أيضا فى هامش التاريخ المذكور بالصحيفة المذكورة (١٠٤)، ما مفاده أن الأزرقى أغفل ذكر ما يسكب من أودية الحل فى الحرم، كما أغفل بحث

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٩٥

الميقات و أماكنها- لكن كاتب الهامش بينها فى ملحق الكتاب بصحيفة ٢٥٠ من الجزء الثانى- و الحق أن كلامه مفصل تفصيلا واضحا عن مواضع نصب الأعلام على حدود الحرم و عن مواقيت الحج يستحسن الرجوع إليه.

و كاتب الهامش على كتاب الإمام الأزرقى هو المحقق الباحثة صاحب المعالى الشيخ رشدى ملحق رئيس الشعبة السياسية بديوان جلاله مليكنا المعظم أكثر الله من أمثاله و أدام توفيقه.

وضع أنصاب الحرم

تقدم أن حدود الحرم الذى يطيف بمكة من جميع جوانبها كانت من قديم الزمان، أى من عهد إبراهيم الخليل أو من عهد آدم عليهما الصلاة والسلام، و ما زالت معروفة إلى اليوم و مرعية الحرمة إلى يوم القيامة.

و فى كتاب الإصابة عند ترجمه (كرز بن علقمة) أسلم يوم الفتح و عمر طويلا و كان ممن جدد أنصاب الحرم فى زمن معاوية، قال البغوى: حدثني عمى عن أبى عبيد قال: كرز بن علقمة خزاعى من بنى عبدنهم هو الذى قفى أثر النبى صلى الله عليه وسلم، و أبى

بكر حين دخلا الغار، و هو الذى أعاد معالم الحرم فى زمن معاوية رضى الله تعالى عنه، فهى إلى اليوم- و ذكر الكلبي هذه القصة فقال: عمى على الناس بعض أعلام الحرم، و كتب مروان إلى معاوية بذلك، فكتب إليه إن كان كرز حيا فسله أن يقيمك على معالم الحرم ففعل، قال: و هو الذى وضع للناس معالم الحرم فى زمن معاوية و هى هذه المنار التى بمكة إلى اليوم. ١٥ منه. و كرز هذا: هو الذى استأجره المشركون لما خرج النبى صلى الله عليه و سلم مهاجرا إلى المدينة مع أبى بكر رضى الله تعالى عنه، فانتهى إلى غار ثور ثم قال: إلى ههنا انتهى أثره كما ذكرنا ذلك فى محله.

و فى كتاب الإصابة أيضا فى ترجمته (مخرمه بن نوفل) ما خلاصته: قال الزبير بن بكار: كان من مسلمة الفتح و كانت له سن عالية و علم بالأنساب، فكان يؤخذ عنه النسب، و زاد ابن سعد: و كان عالما بأنصاب الحرم، فبعثه عمر هو و سعيد بن يربوع، و أزهري بن عبد عوف، و حويطب بن عبد العزى فجددوها، و ذكر أن عثمان بعثهم أيضا. و أخرج الزبير بن بكار من حديث ابن عباس: أن جبريل عليه السلام أرى إبراهيم عليه السلام أنصاب الحرم فنصبها، ثم جدها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٩٦

إسماعيل، ثم جدها قصى بن كلاب، ثم جدها النبى صلى الله عليه و سلم، ثم بعث عمر الأربعة المذكورين فجددوها. ١٥ منه.

قال القلقشندى رحمه الله تعالى فى كتابه صبح الأعشى عند الكلام على الحرم و مشاعر الحج الخارجة عن مكة ما نصه:

أما الحرم فهو ما يطيف بمكة مما يحرم صيده و قطع شجره و حشيشه و نحو ذلك، و قد تقدم أن الله تعالى جعل ملائكة يحرسون القبلة التى أنزلها الله تعالى إلى آدم من الجنة، و وضعت له مكان الكعبة، و جعلت الملائكة حرسا لها كى لا تقع عليها بصر الشياطين، فكانت مواقف الملائكة هى حدود الحرم. قال ابن حوقل:

و ليس بمكة و الحرم شجر يثمر إلا شجر البادية، أما خارج الحرم ففيه عيون و ثمار.

و اعلم أن مقادير جهات الحرم تتفاوت فى القرب و البعد عن مكة، و على حدوده أعلام منصوبة فى كل جهة تدل عليه. قال فى "الروض المعطار": "قال الزبير: و أول من وضع علامات الحرم و نصب العمدة عليه عدنان بن أد، خوفا من أن تندرس معالم الحرم أو تتغير. قال: وحده من التنعيم على طريق سرف إلى مر الظهران خمسة أميال، و ذكر فى موضع آخر أنها ستة أميال، وحده من طريق جدة عشرة أميال، و من طريق اليمن ستة أميال، و دوره سبعمائة و ثلاثة و ثلاثون ميلا.

انظر: صورة رقم ٢٥، المروة

ثم بحدود هذا الحرم أماكن مشهورة، يخرج إليها من مكة من أراد أن يهل بعمرة فيحرم منها أحدها التنعيم، و الثانى الحديبية و الثالث الجعرانة. و قد ذكر القلقشندى تعريف كل منها و موضعه.

ثم قال: و أما مشاعر الحج الخارجة عن مكة فثلاثة- أحدها منى، و الثانى المزدلفة، و الثالث عرفة. و قد ذكر أيضا تعريف كل منها و موضعه، لم نر ضرورة لذلك لأنها مواضع معروفة لجميع العالم الإسلامى، فلا لزوم لتطويل الكلام. انتهى من صبح الأعشى.

انظر: صورة رقم ٢٦، العلمين عند الشميسى بالحديبية بطريق جدة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٩٧

أسماء من وضع أنصاب الحرم و أعلامها

لقد بينا فيما تقدم جهات الحرم و حدوده، و هنا نذكر أسماء الذين وضعوا علامات مبنية فى حدود الحرم من جميع الجهات فنقول بالله التوفيق:

قال الغازى رحمه الله تعالى فى تاريخه ما نصه: و عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن إبراهيم عليه الصلاة و السلام نصب أنصاب الحرم يريه جبريل، ثم لم تحرك حتى كان قصى فجددها، ثم لم تحرك حتى كان رسول الله صلى الله عليه و سلم، فبعث عام الفتح

تميم بن أسد الخزاعي فجددها، ثم لم تحرك حتى كان عمر بن الخطاب فبعث أربعة من قريش كانوا يتدوون في بواديها فجددوا أنصاب الحرم، منهم مخرمه بن نوفل، و أبو هود سعيد بن يربوع المخزومي، و حويطب بن عبد العزى، و أزهري ابن عبد عوف الزهري. انتهى.

ثم قال الغازي أيضا: قال الفاسي: ثم نصبها عثمان بن عفان، ثم معاوية، ثم عبد الملك ابن مروان، ثم المهدي العباسي، ثم أمر الراضي العباسي بعمارة العلمين الكبيرين اللذين بالتنعيم في سنة خمس و عشرين و ثلاثمائة، و اسمه عليهما مكتوب. ثم أمر المظفر صاحب إربل بعمارة العلمين اللذين هما حد الحرم من جهة عرفة في سنة ست و عشرين و ستمائة، و في إتحاف الوري لابن فهد سنة ست عشر و ستمائة، ثم أمر الملك المظفر، صاحب اليمن، في سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، انتهى ... (لم يذكر الفاسي ماذا أمر الملك المظفر، و نظن أن الكاتب نسي في الكتابة شيئا).

قال ابن فهد: و في سنة خمس و ستمائة في شعبان، أنشئت الأعلام الثلاثة التي هي بين منتهى أرض عرفة و وادي عرنه، أمر بإنشائها المظفر كوكيري بن علي بكتكين صاحب إربل. انتهى. نقلنا كل ذلك من تاريخ الغازي.

و قال إبراهيم رفعت باشا في كتابه "مرآة الحرمين" ما نصه: و أول من نصب علامات على حدود الحرم إبراهيم عليه الصلاة و السلام، بإرشاد جبريل تعظيما للبيت و تشريفا، ثم قصى بن كلاب، و قيل قبله إسماعيل عليه السلام، و يروي هذا عن ابن عباس، و قيل إن عدنان بن أد أول من وضع أنصاب الحرم، و نصبها قريش بعد ذلك، و النبي صلى الله عليه و سلم، بمكة قبل هجرته، و نصبها النبي صلى الله عليه و سلم، عام الفتح، ثم عمر بن الخطاب في سنة ١٧ هـ. ثم عثمان بن عفان في سنة ٢٦ هـ. ثم معاوية التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٩٨

رضى الله عنهم، ثم عبد الملك بن مروان، ثم المهدي العباسي، ثم أمر الراضي بعمارة العلمين الكبيرين اللذين بالتنعيم في سنة ٣٢٥ هـ. قال الفاسي: و اسمه عليهما مكتوب، ثم أمر المظفر صاحب إربل، بعمارة العلمين الكبيرين اللذين هما حد الحرم من جهة عرفة سنة ٦١٦ هـ، ثم الملك المظفر صاحب اليمن سنة ٦٨٣ هـ. و هنا قال إبراهيم رفعت في هامش كتابه المذكور، لم يعثر على تاريخ الإعلام بعد ذلك مع شدة حرصنا على الوقوف عليه مع أنه لا بد من أن تكون عمرت بعد ذلك مرارا فإن بناءها القائم ليس بناء سبعة قرون أو تزيد. انتهى من كتاب مرآة الحرمين المذكور.

(و اعلم) أن أنصاب الحرم، أي العلامات الموضوعه في حدودها، ما زالت موجودة إلى اليوم، تجد في كل عصر عند حدوث تلف فيها، و هي علامات مبنية بالحجر و مجصصة بالنورة، و مواضع هذه العلامات "أي الأنصاب" كما يأتي:

(١) توجد عند التنعيم بقرب مسجده، و في الحل من هذه الجهة، أي بعد العلامات بمسافة قريبه، توجد محطة شركة الكهرباء السعودية التي تمتد مكة بالكهرباء، و بين العلامات و هذه المحطة، مخفر للشرطة للمحافظة على عدم تسرب الأجانب غير المسلمين إلى داخل حدود الحرم.

(٢) توجد عند عرفات قبل مسجد نمره بقليل للذهاب إلى عرفات.

(٣) توجد قبل مزرعة الشرائع التي بطريق السيارات للطائف و نجد.

(٤) توجد قبل محطة البيضاء التي بطريق اليمن.

(٥) يوجد علمان عند الشمسي المسمى قديما بالحديبية بطريق جدة، و هما يقابلان كيلو ١٩ قبيل مسجد الشمسي للنازل من مكة إلى جدة. و الشمسي يقع في كيلو ٢٢ فيكون الشمسي في الحل، و هذان العلمان قديمان يقعان في الطريق القديم لقافلة الجمال، ثم إنه في جمادى الأولى سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف، بنى علمان آخران في مقابلة العلمين القديمين، و بنيا في طريق السيارات "الأوتومبيلات" المعبد بالإسفلت، عند الكيلو (١٩) تسعة عشر تماما للمسافر إلى جدة، و كان ذلك بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم سعود بن عبد العزيز آل سعود، وفقه الله تعالى لكل خير.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٩٩

جدول بأسماء من جدد أنصاب الحرم

علمت فيما تقدم أول من وضع أنصاب الحرم، وأسماء من جددها- ونحن هنا نذكر ملخصين ما تقدم في جدول خاص لسرعة الاطلاع وزيادة البيان، ولم نر في التاريخ من جددها بعد الملك المظفر صاحب اليمن، فالله تعالى أعلم بمن جددها بعده- وقد يكون التجديد لجميعها، وقد يكون لبعضها في بعض الجهات لخراب حصل فيها وهذا هو الجدول:

الرقم/ اسم من جدد الأنصاب/ سنة التجديد/ الملاحظات ١/ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام // ذكرنا إبراهيم ولم نذكر آدم عليهما الصلاة والسلام على اعتبار أنه أول من بنى الكعبة منذ أربعة آلاف سنة تقريبا.

٢/ قصي بن كلاب // وقصي بن كلاب هو الجد الرابع للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو أيضا بنى الكعبة قبل قريش.

٣/ قريش/ قبل الهجرة/ وقريش جددت الأنصاب والنبي صلى الله عليه وسلم موجود بمكة قبل هجرته.

٤/ رسول الله صلى الله عليه وسلم/ عام الفتح/

٥/ عمر بن الخطاب رضي الله عنه/ ١٧/

٦/ عثمان بن عفان رضي الله عنه/ ٢٦/

٧/ معاوية رضي الله عنه // ولم نبحت في التاريخ عن سنة تجديد معاوية.

٨/ عبد الملك بن مروان // وعبد الملك، والمقتدر بالله العباسي، ونظن أن المقتدر بالله حينما أدخل في المسجد الحرام رحبة باب

إبراهيم سنة ٣٠٦

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠٠

/// جدد الأنصاب أيضا.

٩/ المهدي العباسي / ١٥٩/

١٠/ الراضي بالله العباسي / ٣٢٥/

١١/ المقتدر بالله العباسي //

١٢/ المظفر صاحب إربل / ٦١٦/ الملك المظفر صاحب إربل قيل جددتها سنة ٦١٦ وقيل سنة ٦٢٦.

١٣/ المظفر صاحب اليمن / ٦٨٣/

١٤/ السلطان أحمد الأول بن محمد العثماني / ١٠٢٣/ والله أعلم بمن جددتها أيضا.

١٥/ الملك سعود بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية / ١٣٧٦/ فقد أمر ببناء علمين عند الكيلو (١٩) للمسافر إلى جدة قبيل الشميسي (الحديبية) في مقابلة العلمين القديمين وذلك في جمادى الأولى سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف، و جدد أيضا أنصاب الحرم من جهة الشرائع في السنة المذكورة، كما جدد أيضا أنصاب الحرم من جهة عرفه سنة ١٣٨٣ هـ.

نقول: وقد جددت الحكومة السعودية بعض أعلام الحرم كأعلام الشميسي، التي تبعد عن نفس مكة نحو تسعة عشر كيلو مترا، وأعلام الشرائع. وقد وقف مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط، غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين، على تجديد هذه الأعلام بنفسه و كتب على كل علم تاريخ تجديده وهو سنة ١٣٧٦ هـ. سنة ألف وثلاثمائة وستة وسبعين هجريه، وقد جددت أيضا أعلام الحرم التي عند عرفات بعد السنة المذكورة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠١

أعلام حدود الحرم

والعلمان الجديدان الموجودان بالشمسي "الحديبية" اللذان في خط السيارات المسفلت، هما علمان يقابلان العلمين القديمين الجديدين عن يمين الذهاب من مكة إلى جدة.

والعلمان الجديدان، أمر بينائهما جلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود في سنة ١٣٧٦ ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف. وقد وقف مؤلف هذا الكتاب على بنائتهما و كتابتهما و نقشهما. فأحيانا يذهب الناس إلى جدة من طريق العلمين الجديدين، و أحيانا من طريق العلمين القديمين و المسافة بينهما عرضا مائة متر تقريبا.

و أما العلمان الموجودان في طريق الطائف جهة الشرائع، فهما قديمان لكن أمر جلالة الملك سعود بن عبد العزيز المذكور بترميمهما و إصلاحهما، و ذلك في سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف و قد وقف أيضا مؤلف هذا الكتاب على كتابتهما و نقشهما. و تسمى الأعلام بالأميال، و كثيرا ما فكرنا في سبب هذه التسمية، فلم نهتد لها. إلى علة معقولة، حتى عثرنا مصادفة على علة تسميتها بالأعلام في كتاب "قاموس الأمكنة و البقاع"، فقد جاء في مقدمته ما نصه:

قال ابن السكيت: و قيل للأعلام المبنية في طريق مكة أميال لأنها بنيت على تقدير مدى البصر من الميل إلى الميل، و لا نغنى بمدى البصر كل مرثى، فإننا نرى الجبل من مسيرة أيام، إنما نغنى أن ينظر الصحيح البصر ما مقداره ميل، و هى بنية ارتفاعها عشرة أذرع أو قريبا من ذلك، و غلظها مناسب لطولها. قال ياقوت: و هذا عندي أحسن ما قيل فيه. انتهى.

المسافات بين المسجد الحرام و أنصاب الحرم

قلنا فيما سبق، أن الحرم هو ما يحيط بمكة "بلد الله الأمين" شرفها الله تعالى، و سمي حرما لحرمة صيده و حرمة قطع شجره و حشيشه و نحو ذلك، فهذا المحيط بمكة المسمى "بالحرم" لا بد و أن يكون معروف المعالم و الحدود، و أن يوضع في التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠٢

الحد الفاصل بين الحل و الحرم علامات تسمى "أنصاب الحرم" أو أعلام الحرم، ليتجنب الناس فيه ما نهاهم الله و رسوله عنه. و لقد بين الأنمة و العلماء الأجلاء المسافات بين مكة و الحرم من جميع جهاتها بالأميال و الأذرع و الأمتار- و لنذكر هنا قياس المسافات من ثلاثة مراجع:

(أولا) من تاريخ الإمام الأزرقى الذى توفى قبيل منتصف القرن الثالث للهجرة.

(ثانيا) من كتاب "مرآة الحرمين" الذى توفى مؤلفه بمصر فى زماننا هذا.

(ثالثا) من كتاب "تاريخ عمارة المسجد الحرام" الذى توفى صاحبه فى زماننا أيضا.

ففى كل واحد من هذه المراجع الثلاثة فوائد متعددة، و إليك ما قاله كل واحد ممن ذكر فى كتابه:

(١) قال الإمام الأزرقى فى تاريخه عند حدود الحرم ما نصه: قال أبو الوليد "يعنى نفسه" من طريق المدينة دون التنعيم عند بيوت غفار على ثلاثة أميال، و من طريق اليمن طرف أضواء لبى فى ثنية لبى على سبعة أميال، و من طريق جدة منقطع الأعشاش على عشرة أميال، و من طريق الطائف على طريق عرفة من بطن نمره على أحد عشر ميلا، و من طريق العراق على ثنية خل "بخاء معجمة مفتوحة" بالمقطع على سبعة أميال، و من طريق الجعرانة فى شعب آل عبد الله بن خالد بن أسيد على تسعة أميال. انتهى من كلام الأزرقى و قياسه بالأميال.

(٢) و لنذكر كلام إبراهيم رفعت باشا المصرى صاحب كتاب "مرآة الحرمين" المتوفى فى زماننا هذا، لأنه ذكر القياس أولا بذراع

اليد، ثم حول الأذرع إلى أمتار، وبيّن في هامش كتابه المذكور مقدار الذراع فقال: ذراع الحديد ٧/ ٥٦١ سنتيا كما حررته من قياس جدر الكعبة بالمترو ومقارنتها بقياس الفاسى، و ذراع اليد ٤٩ سنتيا بالتقريب استنتجته من قياسى لبعض الأماكن بالذراعين - ذراع الحديد و ذراع اليد. ١٥.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠٣

و نحن قد أتينا بهذا البيان فى مقدمة الكلام، حتى يكون للقارئ تمام المعرفة عندما يطالع على كلامه الآتى - و إليك ما قاله صاحب الكتاب المذكور رحمه الله تعالى و هو:

قال الله تعالى: أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ.

اعلم - أنه يحيط بالكعبة ثلاث دوائر: (الأولى) دائرة المسجد الحرام، (و الثانية) دائرة الحرم، (و الثالثة) دائرة المواقيت - فلا يعدو امرؤ الدائرة الثالثة قاصدا دخول مكة، إلا إذا أحرم و أهل بالتلبية و هى ذو الحليفة على عشر مراحل من مكة و الجحفة على ثلاث و قبلها بقليل رابع و ذات عرق على مرحلتين، و كذلك قرن المنازل، و يلملم و الدائرة الثانية دائرة الحرم و قد نصبت عليها أعلام فى جهاتها الأربع، و قد ذكر المسافات بينها و بين المسجد الحرام التقى الفاسى فى كتابه شفاء الغرام و نحن نذكرها نقلا عنه مبينين مقدارها بالأمتار (فحد الحرم من جهة الطائف) على طريق عرفة من بطن عرنه (٧/ ٣٧٢١٠٢) بذراع اليد، أى (١٨٣٣٣) متر، و ذلك من جدر باب بنى شيبه إلى العلمين الذين هما علامة لحد الحرم فى طريق العراق، و اللذين هما بجادة وادى نخلة (٢٧٢٥٢) ذراع بذراع اليد، و تعادل (٥، ١٣٣٥٣) متر. (و حده من جهة التنعيم) و هى طريق المدينة و ما يليها (١٢٤٢٠) ذراع بذراع اليد، أى (٦١٤٨) متر، و ذلك من جدر باب العمرة إلى أعلام الحرم التى فى الأرض من هذه الجهة لا التى على الجبل. (و حد الحرم من جهة اليمن) من جدر باب إبراهيم إلى علامة حد الحرم فى هذه الجهة (٧/ ٢٤٥٠٩٤) ذراع بذراع اليد، تعادل ذلك (٧٥، ١٢٠٠٩) متر، و على حد الحرم من جهة الجنوب مكان يقال له "أضاء"، و من الغرب يميل قليلا إلى الشمال قرية الحديبية، و هى التى تمت بها بيعه الرضوان، و من الشرق على طريق الطائف مكان يقال له الجعرانة أحرم منه النبى صلى الله عليه و سلم، مرجعه من الطائف بعد فتح مكة. و هذه الدائرة جعلها الله مثابة للناس و أمنا، بل أمن فيها الحيوان و النبات، فحرم التعرض لصيدها و منع أن يختلى خلاها (حشيشها) أو يعضد شو كها. انتهى من مرآة الحرمين.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠٤

نقول: إن عدد الأذرع و الأمتار المذكورة هنا قد تكثر و قد تقل اليوم بسبب تعدد الطرق الموصلة إلى الأعلام بعد أن كان الطريق إليها واحدا، و لم تتعدد إلا بعد دخول السيارات (الأوتومبيلات) إلى البلاد، فليتنبه القارئ لهذه النقطة الدقيقة.

(٣) و أما ما جاء فى كتاب "تاريخ عمارة المسجد الحرام" للشيخ حسين باسلامة المكي رحمه الله تعالى عنه عن ذلك فهذا نصه:

قال التقى الفاسى: و قد ورد فى المسافة التى بين المسجد الحرام و أنصاب الحرم أقوال كثيرة.

أما حد الحرم من جهة عرفة: فذكر أبو الوليد التاجى المالكى أنه ثمانية عشر ميلا، و ذكر الأزرقي و الفاكهى و ابن حردادية الخراسانى فى المسالك و الممالك أنه أحد عشر ميلا، و ذكر ابن زيد فى النوادر أنه تسعة أميال، و ذكر الماوردى و أبو إسحاق الشيرازى و النووى أنه سبعة أميال، قال الفاسى: و فيما قالوه نظر.

و حد الحرم من جهة العراق ففيه أربعة أقوال، و هى ستة أميال، و سبعة، و ثمانية، و عشرة.

و أما حده من جهة الجعرانة ففيه قولان: أحدهما يريد، يعنى اثنتى عشر ميلا، و الثانى تسعة أميال.

و أما حده من جهة التنعيم، ففيه أربعة أقوال: ثلاثة أميال، و نحو أربعة، و أربعة، و خمسة أميال.

و أما من جهة جدة، ففيه قولان: عشرة، و نحو ثمانية عشر على ما ذكره التاجى، و أما من جهة اليمن قولان: سبعة، و ستة، ذكره

المحب الطبرى فى القرى.

ثم قال الفاسى: وقد اعتبرت مقدار الحرم من جهاته المعروفة بحبل مقدر على ذراع اليد.

فمن جدر باب المسجد الحرام بباب بنى شيبه، أى باب السلام، إلى العلمين اللذين هما علامة حدود الحرم من جهة عرفه (٣٧٢١٠) أذرع يد.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠٥

و أما حده من العراق- طريق العراق- فمن باب بنى شيبه إلى العلمين اللذين بجادة وادى نخلة (٢٧٢٥٢) ذراع يد، وادى نخلة الذى ذكره الفاسى هنا، المراد به وادى الليمون المسمى فى الوقت الحاضر (المضيق) و قديما يسمى (نخلة الشامية).

ثم قال الفاسى: و الحد من التنعيم فمن باب العمرة إلى الأعلام (١٢٥٢٠) ذراع يد، و من جهة اليمن فمن باب إبراهيم إلى الأعلام (٢٤٥٠٩) أذرع يد.

قال صاحب تاريخ المسجد الحرام: هذا ما ذكره التقى الفاسى فى العقد الثمين و لم يذكر ذرع حد الحرم من جهة جدة كما ذكره باعتبار الأميال فيما تقدم، و يظهر أنه قد ذكره، و إنما سقط على الناسخ، و ذلك لأنه قد اعتنى بذرع عموم الجهات الأخرى بذراع اليد، و من تصفح ما ذكره الفاسى يظهر أنه وقع فى المسافة التى بين باب السلام و العلمين اللذين جهة عرفه زيادة كبيرة تبلغ نحو أربعة أميال عما ذكره النووى، لأن المسافة التى ذكرها تبلغ نحو أحد عشر ميلا و النووى ذكرها سبعة أميال.

و قال صاحب تاريخ المسجد الحرام أيضا: و أما سبب الخلاف الواقع بين العلماء فى المسافة بين الحدود و المسجد الحرام فهو ناتج على ما ظهر لى من أمرين:

(أحدهما) اختلافهم فى مبدأ الذرع حيث بعضهم جعل مبدأ الحد من أبواب المسجد الحرام، و بعضهم جعله من أبواب مكة مثل باب الشبيكة الذى هو حارة الباب، و باب المعلاة الذى هو قريب من الحجون.

(و الأمر الثانى) اختلافهم فى قدر الميل، حيث بعضهم قدره بستة آلاف ذراع يد، و بعضهم قدره بأربعة آلاف ذراع يد، و بعضهم بثلاثة آلاف و خمسمائة ذراع يد، و بعضهم قدره بألفى ذراع يد. و كذلك يختلف ذراع اليد بحسب اختلاف الأجسام من الطول و القصر و هو يتراوح من (٤٦) سنتمتر إلى (٥٢) سنتمتر.

كما أن الأميال اعتبارية فيما سبق، فهى اعتبارية فى العصر الحاضر حيث أن الميل البرى، هو خلاف الميل البحرى، و كذلك الميل الجغرافى يختلف عنهما.

ثم قال: و جاء فى شرح الإيضاح لابن حجر الهيتمى المكى نقلا عن التقى الفاسى أنه قال تتمه لعبارته المتقدمة: و بما ذكر فى بيان المسافة من باب السلام أو المعلاة بالذراع، و بيان الأقوال الأربعة فى الميل، و ما يتفرع على كل منهما باعتبار التحديد من باب السلام و المعلاة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠٦

يتبين أن كل واحد من الأقوال الأربعة فى حد المسافة مبنى على واحد من الأقوال فى مسافة الميل، و لا يعارض ذلك كون القائلين بذلك يرون أن الميل ستة آلاف ذراع لأنهم هنا قلدوا المؤرخين، و كل منهم يطلق الميل على مسطحه، فإذا نظر الفقيه فى كلامه قلده من غير تحقيق لمراده إذ لا يظهر إلا بالذراع، و لم يبلغنا عن أحد من المختلفين فى هذه المسافة أنه قال إن ما ذكره كان بعد تحريره بالذراع، فتعين بعد أن علم تحريره به تأويل ما خالفه، و رد هذه الأقوال المتباينة إلى تلك الأقوال فى الميل المتباينة أيضا، على أن التحديد المذكور فى الأقوال غير مراد لما علمت أننا و إن فرعنا تلك الأقوال على الأقوال فى الميل لا يأتى إلا إذا جعلنا ذلك تقريبا، و أيضا فالزيادة و النقص قد يكونان لشدة فى المد فى الحبل المقيس به و إرخائه، أو لأصل ارتفاع الأرض و انخفاضها، أو لأجل اعتبار المسافة من محل آخر غير ما ذكر من باب السلام.

قال: فهذه الاعتبارات و التقديرات التي ذكرها التقى الفاسى، كلها وارده و من الجائز وقوعها، و لا شك أنها هي السبب الوحيد فى وقوع الخلاف بين العلماء الذين تصدوا و تحملوا المتاعب فى سبيل ذرع المسافة بين المسجد الحرام و حدود الحرم، التي أنشئت عليها الأنصاب أو الأعلام، لأجل أن يعرف حد الحرم عند كل من تجاوز ذلك الحد، سواء كان من البادية المجاورة للحرم، أو من عموم الآفاق النائيه.

و لا تزال تلك الأنصاب موجودة فى مواضعها التي قد عرفت من عهد إبراهيم الخليل صلى الله عليه و سلم و العهد النبوى إلى العصر الحاضر، و فى رأى أنه لا يمكن الجزم بصحة المسافة الواقعة بين المسجد الحرام و تلك الأنصاب، إلا إذا تشكلت لجنة من مهندسين معماريين ممن لهم علم و تخصص بفن المساحة، و من بعض من لهم علم بفن الجغرافيا، و بعض الفقهاء الذين اعتنوا بضبط حدد الحرم من الوجهة الشرعية، و عهد إليها بذرع المسافة المذكورة بالمتر، و ذراع العمل المعمارى، لأن هذين المقاسين قد عرفا، و هما لا يقبلان الشك و التردد، لأن ذراع اليد يختلف بحسب جسامه الإنسان، و هو يتراوح بين (٤٦) سنتمتر و (٥٢) سنتمتر، و هذان المقاسان لا يقبلان الزيادة و لا النقصان، و يكون مبدأ القياس من أبواب المسجد الحرام، أو من الكعبة المعظمة، و بعد ذلك تظهر الحقيقة و يعلم نوع الميل الذى قدر فيما سبق لتلك المسافة، و وجه الخلاف الذى وقع بين العلماء فى ذلك، كما قد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠٧

عملته فى ذرع المسجد الحرام، و شارع المسعى، و أظهرت سبب الخلاف الواقع فى مساحة المسجد من جهة نوع الذراع و مبدأ الذرع، حيث أن ذرع المسافة بين المسجد و حدود الحرم، لا يتأتى ضبطها من فرد، إذ ربما يقع عليه السهو و الغلط، و يدخله الشك، و أما إذا كانوا جماعة أخصائيين، فلا ريب أنهم يضبطون ذلك بكل دقة و بدون أى تردد فى صحة ذرعهم، و ليس ذلك بالأمر الصعب على من أراد تشكيل تلك اللجنة، و الله الموفق للصواب.

قال النووى فى مناسكه (الإيضاح): فحد الحرم من طريق المدينة دون التنعيم عند بيوت بنى غفار، على ثلاثة أميال من مكة. و من طريق اليمن طرف (أضاه لبن) فى ثنية لبن، على سبعة أميال. و من طريق العراق على ثنية (جبل المقطع)، على سبعة أميال من مكة. و من طريق الجعرانة فى شعب آل عبد الله بن خالد، تسعة أميال من مكة. و من طريق الطائف على عرفات من بطن نمرة، سبعة أميال من مكة. و من طريق جدة منقطع الأعشاش، على عشرة أميال من مكة.

ثم قال النووى: فهذا حد ما جعله الله عز و جل حرماً، لما اختص به من التحريم، و بائن بحكمة سائر البلاد، هكذا ذكر حدوده أبو الوليد الأزرقى فى كتابه أخبار مكة، و أصحابنا فى كتب الفقه، و الماوردى فى الأحكام السلطانية و آخرون، إلا أن الأزرقى قال فى حده من طريق الطائف أحد عشر ميلاً، و الجمهور قالوا سبعة، و لم يذكر الماوردى حده من جهة اليمن.

ثم قال النووى: فاعتمد ما ضبطته لك من حدود الحرم فما أظنك تجده أوضح و لا أتقن من هذا، و اعلم أن الحرم عليه علامات من جوانبه كلها، و منصوب عليها أنصاب و هى الآن بينه و لله الحمد. اهـ.

قال صاحب تاريخ المسجد الحرام أيضاً: و قد جزم الإمام النووى، أن ذرع المسافة الواقعة بين المسجد الحرام و الأنصاب، هى كما أوضحها، و يدل ذلك على أنه قد اطلع على الخلاف الواقع بين العلماء فى ذلك، و اختار من تلك الأقوال ما جزم به، و الظاهر أن الميل الذى اعتمد عليه النووى، هو أربعة آلاف ذراع يد، و الأربعة الآلاف الذراع اليد على حسب ما هو مقدر على الحالة الوسطى باعتباره (٤٨) سنتيمتر، يكون الميل هو عبارة عن (١٩٢٠) متراً. و الله أعلم.

و ذكر ابن حجر الهيتمى المكى، فى شرح مناسك الإيضاح، منظومة تحتوى على عموم حدود الحرم من الجهات كلها، و ها هى:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠٨ و للحرم التحديد من أرض طيبة ثلاثة أميال إذا رمت إتقانه

و سبعة أميال عراق و طائف و جدة عشر ثم تسع جعرانه

و من يمن سبع بتقديم سينهاو قد كملت فاشكر لربك إحسانه

و هذه الحدود المنظومة، هي عين الحدود الذي ذكرها النووي فيما تقدم، و الظاهر أن الشاعر نظم تلك الحدود بعينها بدون زيادة أو نقصان، و الله أعلم.

انتهى كل ذلك من كتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام.

هذا و نختم هذا الفصل باقتراح مهم عن مسألة حدود الحرم و أنصابه و هو: أن حكومتنا الموقفة، قامت الآن بتوسعة المسجد الحرام، تلك التوسعة العظيمة، التي يضرب بها المثل في أنحاء المعمورة، و قد استقدمت لهذا الغرض كبار المهندسين و الجغرافيين الشهيرين من الممالك الإسلامية.

فنترح أن تشكل لجنة كبيرة من هؤلاء المهندسين و الجغرافيين، و من كبار العلماء العارفين لمعالم البلاد و حدود الحرم و أقوال الفقهاء و المؤرخين، بل و من المعمرين من البدو و العرب المقيمين حول حدوده من جميع جهاته، فيحددوا معالم الحرم و يقيسوه بالمتري و الذراع المعماري، من مركز الكعبة المشرفة إلى انتهاء الحرم من كل جهة، لأن الكعبة لن يتغير موضعها إلى يوم القيامة. و أيضا يحددوا بناء أنصاب الحرم و علاماته بالإسمنت و الخرسانة المسلحة، و أن يكتبوا بالقر على الحجر ما يعلم منه الحدود، و يضعوا هذه الكتابة على كل علامة مبنية في جميع الأطراف.

و بهذا العمل الجليل يتبين معالم الحرم بالضبط التام من جميع الجهات، و يعرف قياس كل جهة من الحرم بالمتري أو بالذراع المعماري اللذين لا يختلفان، معرفة تامة، و بهذا يرتفع الشك و الخلاف بين العلماء و المؤرخين بعد الآن في بيان القياسات من كل الجهات. و تنفيذ هذا الاقتراح بالنسبة لحكومتنا السنية، من أيسر الأمور إن شاء الله تعالى. اللهم وفقنا لما فيه رضاؤك و اهدنا إلى طرق الاستقامة و الرشاد آمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٠٩

فضل الحرم و خصائصه و تعظيمه

قال الله عز و جل: **وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَ اتَّخَذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ بئسَ الْمَصِيرُ وَ السَّبَبُ أَن إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: وَ ارزُقُهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ وَ لَمْ يَقُلْ مِنَ الْحُبُوبِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: "لَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَ لَوْ كَانَ لَهُمْ لِدَعَا لَهُمْ فِيهِ حِينَ دَعَا لَهُمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،" رواه الشيخان. و قال عز شأنه: أَوْ لَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِن لَدُنَّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. و قال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصِدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَ الْبَادِي، وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ* وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ.**

و قد أقسم سبحانه بمكة فقال: **وَ التَّيْنِ وَ الزَّيْتُونِ* وَ طُورِ سِينِينَ* وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ.** و قال: **إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنِ اعْبُدُوا رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أَمْرُهُ أَنِ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.** و قال: **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ.** و قال: **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.** و قال: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.** و قال صلى الله عليه و سلم، في خطبته يوم فتح مكة: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات و الأرض و إنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي و لم يحل لي إلا ساعة

من نهار فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده، "إلى آخر قوله صلى الله عليه وسلم، وقال: "إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها لا- يقطع عضاهما ولا- يصاد صيدهما." والعضاء بكسر العين المهملة وتخفيف الضاد: كل شجر فيه شوك.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١٠

وقال ابن مسعود في قوله عز وجل: وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ الْآيَةَ: لو أن رجلا هم فيه بالحد وهو بعدن أبين لأذقه الله عز وجل عذابا أليما. وعدن أبين:

هو مدينة عدن المعروفة على الساحل. وهناك في جبل صبر من أعمال صنعاء قرية لطيفة تسمى عدن لاعة، قاله صاحب معجم البلدان. وفي أخبار مكة للأزرقي:

حدثنا أبو الوليد، حدثني جدى عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان يعجبهم إذا قدموا مكة أن لا يخرجوا منها حتى يخدموا القرآن. وجاء فيه: قال ابن جريج: بلغنى أن الرجل كان يلقي قاتل أخيه أو أبيه فى الكعبة، أو فى الحرم، أو فى الشهر الحرام، فلا يعرض له، أو محرما أو مقلدا هديا قد بعث به فلا يعرض له، وهم يغير بعضهم على بعض فيقتلون و يأخذون الأموال فى غير ذلك، فجعل الله ذلك قياما لهم لولا ذلك لم يكن لهم بقاء، وجاء فيه عن عكرمة ابن خالد أنه قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. وعن ابن الزبير قال: قال ابن عمر: لو وجدت فيه قاتل عمر ما ندهته، وعن ابن عباس قال: إذا دخل القاتل الحرم لم يجالس ولم يبيع ولم يؤو و يأتيه الذى يطلبه فيقول: يا فلان اتق الله فى دم فلان، و اخرج من الحرم، فإذا خرج أقيم عليه الحد. وعن عطاء أن غلاما من قريش قتل حمامة من حمام الحرم فقال ابن عباس فيه شاء. و به قال سفيان، عن يحيى ابن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: فى حمام مكة شاء. و عن جريج، عن مجاهد قال: أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بحمامة فأطيرت فوكت على المروة فأخذتها حية فجعل فيها عمر شاء. و عن جريج قال: قلت لعطائكم فى بيضة من بيض حمام مكة؟ قال: نصف درهم، بين البيضتين درهم. و قال عطاء: فى بيضة كسرت فيها فرخ درهم (و مقدار الدرهم ربع روييه هندية أو ربع ريال عربى تقريبا).

و عن عبد الله بن نافع، عن أبيه، قال: كان ابن عمر يغشاه الحمام على رحله و طعامه و ثيابه ما يطرده، و كان ابن عباس يرخص أن يكشكش.

و عن عطاء أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أبصر رجلا يعضد على بعير له فى الحرم فقال له: يا عبد الله أن هذا حرم الله، لا ينبغى لك أن تصنع فيه هذا.

فقال الرجل: إنى لم أعلم يا أمير المؤمنين. فسكت عمر عنه. و يعضد: أى يقطع.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١١

و عن ابن جريج قال: حدثني مزاحم، عن أشياخ له، عن عبد الله بن عامر، كان يقطع الدوحة من داره بالشعب من السمر و السلم، و يغرم عن كل دوحة بقرة، و عن خالد بن مضرس: أن رجلا من الحاج قطع شجرة من منزله بمنى، قال: فانطلقت به إلى عمر بن عبد العزيز فأخبرته خبره، فقال: صدق كانت ضيقت علينا منزلنا و مناخنا، فتغيظ عليه عمر ثم قال: ما رأيت إلا دينه، و فى رواية إسماعيل بن أمية: فتغيظ عليه عمر ثم أمره أن يفيدها. و جاء فيها أيضا: أن قوما انتهوا إلى ذى طوى و نزلوا بها، فإذا ظبى قد دنا منهم، فأخذ رجل منهم بقائمة من قوائمه، فقال له أصحابه: و يحك أرسله. قال: فجعل يضحك و يأبى أن يرسله، فبعر الظبى و بال، ثم أرسله، فاناموا من القابلة، فانتبه بعضهم، فإذا بحية منطوية على بطن الرجل الذى أخذ الظبى، فقال له أصحابه: و يحك لا تتحرك و انظر ما على بطنك، فلم تنزل الحية عنه، حتى كان منه من الحدث مثل ما كان من الظبى.

و جاء فيه أيضا: دخل قوم مكة تجارا من الشام فى الجاهلية بعد قصى بن كلاب، فنزلوا بذى طوى تحت سمرة يستظلون بها فاخترزوا

ملة لهم و لم يكن معهم آدم، فقام رجل منهم إلى قوسه، فوضع عليها سهما، ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم و هى حولهم ترعى فقاموا إليها فسلكوها و طبخوا لحمها ليأتمدوا به، فبينما قدرهم على النار تغلى بلحمه و بعضهم يشوى، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعا و لم تحرق ثيابهم و لا أمتعتهم و لا السمرات اللاتي كانوا تحتها. السمرات جمع سمره بفتح فسكون: شجر الطلح، و هو نوع من العضاء. و الملة بفتح الميم: قيل الحفرة التى تحفر للخبز، و قيل التراب الحار و الرماد. انتهى كل ذلك من كتاب أخبار مكة للأزرقي.

و يروى أن رجلا اصطاد بواى محسر الذى بين مزدلفه و منى، فنزلت نار فأحرقته، و لذلك يسمى أيضا بواى النار. و روى عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر قال: قدمت مع أمى أو مع جدتى مكة، فأتينا صفيه بنت شيبه، فأرسلت إلى الصفا فقطعت حجرا من جنبه فخرجنا به، فنزلنا أول منزل فذكر من علتهم جميعا، فقالت أمى أو جدتى: ما أرانا أتينا إلا أنا أخرجنا هذه القطعة من الحرم. قال: و كنت أمتلهم فقالت لى:

انطلق بهذه القطعة إلى صفيه فردها، و قل لها أن الله عز و جل وضع فى حرمه شيئا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١٢

لا- ينبغى أن يخرج منه، قال عبد الأعلى: فما هو إلا أن أتمينا ذلك فكأنما نشطنا من عقال. ا. ه. من المجموع. و صفيه هذه صحابه قرشيه. و قد روى الشافعى و البيهقى مثله لكن بلفظ آخر.

أما ما يمتاز به الحرم من الخصائص و الفضائل على غيره من الأرض، فشئ لا يمكن حصره، و لكن نذكر بعضا من ذلك ملخصا من كتاب الجامع اللطيف لابن ظهيره القرشى، مع بعض زيادات. (فمن ذلك): ما روى عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه و سلم، أنه قال: "لما عقر ثمود الناقة و أخذتهم الصيحة لم يبق منهم أحد إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله عز و جل فمنعه الحرم فقالوا: من هو يا رسول الله؟ فقال أبو رغال أبو ثقيف فلما خرج من الحرم أصابه من أصاب قومه." قوله أبو ثقيف: يعنى جدهم.

(و منها) أنه لا يدخل أحد الحرم إلا بإحرام بحج أو عمره. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: "كانت الأنبياء عليهم السلام يدخلون الحرم مشاء حفاة." و عنه أيضا أنه قال: حج الحواريون فلما بلغوا الحرم مشوا تعظيما له.

(و منها) تحريم صيده و قطع شجره و حشيشه، سواء فى ذلك أهل الحرم و غيرهم، و سواء المحرم و الحلال.

(و منها) أن يمنع الكفار من دخول الحرم، فليس على وجه الأرض بلدة خالية من الكفار سوى الحرمين الشريفين مكة و المدينة.

(و منها) تحريم إخراج أحجاره و ترابه إلى الحل، و كراهة إدخال ذلك من الحل إلى الحرم.

(و منها) أن ذبح دماء الهدايا و الجبرانات لا يجزئ إلا فى الحرم.

(و منها) أن المتمتع و القارن إذا كانا من أهل الحرم، لا دم عليهما لكونهما من حاضرى المسجد الحرام.

(و منها) أنه لا يحل حمل السلاح بالحرم لغير ضرورة عند مالك و الشافعى، لما رواه مسلم عن جابر رضى الله عنه، أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: "لا يحل حمل السلاح بمكة."

(و منها) أن الدجال لا يدخل مكة و لا المدينة كما فى الصحيح.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١٣

(و منها) أن الصلاة سواء كانت سنة الطواف و غيرها، لا تكره فى أى وقت من الأوقات فى حرم مكة سواء المسجد و غيره، لخبر: "يا

بنى عبد مناف لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت و صلى فيه أية ساعة شاء من ليل أو نهار،" رواه الترمذى و غيره، بخلاف خارج حرم

مكة و بخلاف حرم المدينة و بيت المقدس، فإن الصلاة التى لا سبب لها لا تصلى فيها فى خمسة أوقات كما هو معروف فى كتب

الفقه.

(و منها) تضاعف الحسنات في مكة و بالأخص الصلاة في المسجد الحرام كما في حديث ابن الزبير رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، و صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة في مسجدي." رواه الإمام أحمد. ١٥.

و في بعض الروايات "صلاة في بيت المقدس بخمسائة صلاة." و لا فرق في التضعيف بين الفرض و النفل. و اختلفوا في المراد بالمسجد الحرام الذى تضاعف فيه الصلاة على سبعة أقوال، قيل: الكعبة المعظمة و المسجد حولها، و قيل مكة، و قيل جميع الحرم، و قيل غير ذلك، راجع العزيز بن على الجامع الصغير، و روى مرفوعا عن ابن عباس رضى الله عنهما "من حج من مكة ماشيا حتى يرجع إلى مكة كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، قيل له و ما حسنات الحرم؟ قال: بكل حسنة مائة ألف حسنة." حسن.

و ذكر الأزرقي في أخبار مكة "أن النبي صلى الله عليه و سلم، حين استعمل عتاب بن أسيد على مكة، قال: هل تدري على من استعملتك؟ استعملتك على أهل الله فاستوصى بهم خيرا يقولها ثلاثا،" و عن ابن عباس أنه صلى الله عليه و سلم، قال لمقبرة مكة: "نعم المقبرة هذه."

و قال عليه الصلاة و السلام: "الحجون و البقيع يؤخذ بأطرفهما و ينثران في الجنة،" و هما مقبرتا مكة و المدينة. و قال: "من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا."

انتهى من كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة."

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١٤

تعظيم الحرم الشريف

جاء في تاريخ الأزرقي عند الكلام على تعظيم الحرم، و تعظيم الذنب فيه، و الإلحاد فيه ما نصه: حدثنا أبو الوليد، حدثني جدى، حدثنا سفيان، عن مسعر، عن مصعب بن شيبه، عن عبد الله بن الزبير قال: إن كانت الأمة من بنى إسرائيل لتقدم مكة فإذا بلغت ذا طوى خلعت نعالتها تعظيما للحرم. قال الغازي في تاريخه: حج أبو جعفر المنصور، سنة ست و ثلاثين و مائة، قبل أن يستخلف، فلما وصل إلى الحرم نزل و خلع نعليه و مشى حافيا تعظيما للحرم. انتهى.

قال الأزرقي: حدثنا أبو الوليد، حدثنا عمر بن حكام البصرى، عن شعبه، عن منصور، عن مجاهد، في قوله تعالى: وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدْفُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. قال: كان لعبد الله ابن عمرو بن العاص فسطاطان أحدهما في الحل، و الآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، و إذا أراد أن يصلى صلى في الحرم، فليل له في ذلك، فقال: إنا كنا نتحدث أن من الإلحاد في الحرم أن يقول: كلا و الله و بلى و الله.

حدثنا أبو الوليد، حدثني جدى، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم قال:

كان يعجبهم إذا قدموا مكة أن لا يخرجوا منها حتى يخطموا القرآن.

حدثنا أبو الوليد، و حدثني جدى، عن سفيان بن إبراهيم بن ميسرة، عن طاووس عن ابن عباس قال: استأذنى الحسين بن على في الخروج فقلت: لولا أن يرزأ بى أو بك لتشبثت بيدي في رأسك، فكان الذى رد على من قول: لأن أقتل بمكان كذا و كذا أحب إلى من أن تستحل حرمتها بى - يعنى الحرم - فكان ذلك الذى سلا نفسى عنه. قال: ثم يقول طاووس: و الله ما رأيت أحدا أشد تعظيما للمحارم من ابن عباس رضى الله عنه، و لو شاء أن أبكى لبكيت.

حدثنا أبو الوليد، قال: حدثني جدى، حدثنا يحيى بن سليم، حدثنا عبد الله بن صفوان الوهطى قال: سمعت أبى يقول: بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال:

سكن مكة حتى من العرب، فكانوا يكرون الظلال و يبيعون الماء، فأبدلها الله تعالى بهم قريشا، فكانوا يظنون في الظلال و يسقون الماء.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١٥

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي و إبراهيم بن محمد قالوا: أخبرنا مسلم بن خالد الزنجي، عن ابن أبي نجيح، عن أبيه قال: لم تكن كبار الحيتان تأكل صغارها في الحرم من زمن الغرق. قال: حدثني جدي و إبراهيم بن محمد، عن مسلم بن خالد، عن ابن خيثم قال: كان بمكة حتى يقال لهم: العماليق فأحدثوا فيها أحداثا فنفاهم الله عز و جل منها فجعل يقودهم بالغيث، و يسوقهم بالسنة، يصنع الغيث أمامهم فيذهبون فلا يجدون شيئا، فيتبعون الغيث حتى ألحقهم الله تعالى بمساقط رؤوس آباءهم و كانوا من حمير، ثم بعث الله عليهم الطوفان، قال الزنجي: فقلت لابن خيثم: و ما كان الطوفان؟ قال: الموت. انتهى منه.

و فيه أيضا حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي و إبراهيم بن محمد الشافعي قالوا: أخبرنا مسلم بن خالد، عن ابن خيثم، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، لما نزل الحجر (أى مدائن صالح) في غزوة تبوك قام فخطب الناس، فقال: يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم آية، فبعث الله لهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها، و يشربون من لبنها مثل ما كانوا يتروون من مائهم من غبها، إلا و تصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، ففقروها فوعدهم الله ثلاثة أيام، فكان موعد من الله تعالى غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة، فأهلك الله من كان في مشارق الأرض و مغاربها منهم، إلا رجلا كان في حرم الله، فمنعه حرم الله من عذاب الله، فقالوا: يا رسول الله، و من هو؟ قال: أبو رغال.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي، عن مسلم بن خالد، عن أيوب بن موسى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: أيها الناس إن هذا البيت لاق ربه فسائله عنكم ألا- فانظروا فيما هو سائلكم عنه من أمره ألا و اذكروا إذ كان ساكنه لا يسفكون فيه دما حراما، و لا يمشون فيه بالنميمة.

و فيه أيضا: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا أحمد بن ميسرة المكي، حدثنا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد عن أبيه، أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه، كان يقول: لخطيئة أصيبتها بمكة أعز على من سبعين خطيئة أصيبتها بركبة، و به قال أحمد بن ميسرة، عن عبد المجيد بن عبد العزيز، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، كان يقول لقريش: يا معشر قريش الحقوا بالأرياف فهو أعظم لأخطاركم، و أقل لأوزاركم، و به قال: حدثني أحمد بن ميسرة، عن عبد المجيد بن عبد العزيز، عن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١٦

أبيه قال: أخبرت أن سعيد بن المسيب رأى رجلا من أهل المدينة بمكة فقال:

ارجع إلى المدينة، فقال الرجل: إنما جئت أطلب العلم، فقال سعيد بن المسيب:

أما إذا أبيت فإننا كنا نسمع أن ساكن مكة لا يموت حتى يكون عنده بمنزلة الحل لما يستحل من حرمتها، و به عن عبد المجيد بن عبد العزيز، عن أبيه قال: أخبرت أن عمر بن عبد العزيز، قدم مكة و هو إذ ذاك أمير، فطلب إليه أهل مكة أن يقيم بين أظهرهم بعض المقام و ينظر في حوائجهم، فأبى عليهم، فاستشفعوا إليه بعبد الله بن عمر بن عثمان، قال فقال له: اتق الله، فإنها رعيتك و إن لهم عليك حقا، و هم يحبون أن تنظر في حوائجهم فذلك أيسر عليهم من أن يتنابوك بالمدينة، قال: فأبى عليه قال: فلما أبى له عبد الله بن عمرو: أما إذا أبيت فأخبرني لم تأبى؟ فقال له عمر: مخافة الحدث بها، و قال عبد العزيز: و أخبرت أن عمر بن عبد العزيز وافقه شهر رمضان بمكة، فخرج فصام بالطائف.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي، حدثنا يحيى بن سليم قال: سمعت ابن خيثم يحدث عن عثمان أنه سمع ابن عمر يقول: احتكار الطعام بمكة للبيع إلحاد، و به حدثنا يحيى بن سليم، حدثنا عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: بيع الطعام بمكة إلحاد، قال عثمان: يعني أن يشتريها هنا و يبيعها هنا و لا يعنى الجالب، و به حدثنا يحيى بن سليم، عن ابن خيثم، عن عبيد الله بن عياض، عن يعلى بن

منه، أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: يا أهل مكة، لا تحتكروا الطعام بمكة، فإن احتكار الطعام بمكة للبيع إلهاد. حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى، حدثنا سعيد بن سالم، عن عثمان ابن ساج قال: قال مجاهد: و من يرد فيه بالحداد بظلم يعمل عملا سيئا، و قال غيره:

المسجد الحرام و المشركون صدوا رسول الله صلى الله عليه و سلم عن المسجد، و عن سبيل الله يوم الحديبية. حدثنا أبو الوليد، حدثني جدى، عن سعيد بن سالم، عن ابن جريج فى قوله عز و جل: وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ استحلالا متعمدا، قال: و قال ابن جريج أيضا، قال ابن عباس: و الشرك. و فيه أيضا: حدثنا أبو الوليد قال: أخبرني جدى عن سعيد، عن عثمان، أخبرني المثنى بن الصباح عن عطاء بن أبى رباح، حدثني إسماعيل بن جليحه قال:

كان عبد الله بن عمر، إذا طاف بين الصفا و المروة دخل على خاله له فقال: أين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١٧

ابنك؟ فقالت: بأبى أنت و أمى يخرج إلى هذا السوق، فيشتري من السمراء و يبيعهها. قال: فمره لا يقربن من ذلك شيئا فإنه إلهاد. قال عثمان: قال مجاهد:

العاكف فيه، الساكن فيه و البادى الجالب، قال عثمان: و أخبرني محمد بن السائب الكلبي قال: العاكف أهل مكة، و أما البادى فمن أتاه من غير أهل البلد، قال عثمان: و أخبرني يحيى بن أبى أنيسة قال: قال إسماعيل: سمعت مرة الهمدانى يقول: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: ليس أحد من خلق الله تعالى يهيم بسيئته فيها، فيؤخذ بها و لا تكتب عليه، حتى يعملها غير شىء واحد، قال: ففرعنا لذلك، فقلنا ما هو يا أبا عبد الرحمن؟ فقال عبد الله: من هم أو حدث نفسه بأن يلحد بالبيت أذاقه الله عز و جل من عذاب أليم، ثم قرأ: وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، قال عثمان: و أخبرني يحيى بن أبى أنيسة قال: قال السدى: الإلهاد الاستحلال، فإن قوله عز و جل: وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ، يعنى الظلم فيه فيقول: من يستحله ظالما فيتعدى فيه فيحل فيه ما حرم الله تعالى، قال عثمان: و أخبرني المثنى ابن الصباح قال: بلغنى أن عبد الله بن عمرو بن العاص و عبد الله بن الزبير كانا جالسين، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إنى لأجد فى كتاب الله عز و جل رجلا يسمى عبد الله عليه نصف عذاب هذه الأمة، فقال عبد الله بن الزبير: لئن كنت وجدت هذا فى كتاب الله تعالى إنك لأنت هو، قال: و إنما أراد عبد الله بن عمرو بهذا أى فلا يستحل القتال فى الحرم.

حدثنا أبو الوليد، حدثنا محمد بن عبد الله بن سليمان بن منصور السهامى، حدثنا محمد بن زياد عن ابن قره، عن عثمان بن الأسود بسنده، إما عن مجاهد، و إما عن غير ذلك قال: من أخرج مسلما من ظله فى حرم الله تعالى من غير ضرورة، أخرج الله تعالى من ظل عرشه يوم القيامة.

حدثنا أبو الوليد: حدثني جدى عن سفيان بن عيينة، عن سفيان الثورى، عن جابر الجعفى، عن مجاهد و عطاء فى قوله تعالى: سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ قَالَ: العاكف أهل مكة، و البادى الغرباء سواء هم فى حرمة.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا جدى، حدثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج قال: حدثني إسماعيل بن أمية أن عمر بن الخطاب قال: لأن أخطى سبعين خطيئة بركبة، أحب إلى من أن أخطى خطيئة واحدة بمكة، قال ابن جريج، قال مجاهد:

حذر عمر قريشا الحرم، قال: و كان بها ثلاثة أحياء من العرب فهلكوا. لأن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١٨

أخطى اثنتى عشرة خطيئة بركبة، أحب إلى من أن أخطى خطيئة واحدة إلى ركنها، قال ابن جريج: بلغنى أن الخطيئة بمكة مائة خطيئة و الحسنه على نحو ذلك. و قال ابن جريج: حدثني إبراهيم حديثا رفعه إلى فاطمة السهمية عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: الإلهاد فى الحرم ظلم الخادم فما فوق ذلك.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى، حدثنا إبراهيم، حدثنا محمد بن سوقة عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: حج الحواريون فلما دخلوا الحرم مشوا تعظيما للحرم.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى، حدثنا إبراهيم بن محمد عن أبان بن أبي عياش، عن عبد الرحمن بن سابط أنه سمع عبد الله بن عمر وهو جالس فى الحجر يطعن بمخصرته فى البيت وهو يقول: انظروا ما أنتم قائلون غدا إذا سئل هذا عنكم و سئلتم عنه و اذكروا إذ عامره لا يتجر فيه بالربا، و لا يسفك فيه الدماء، و لا يمشى فيه بالنميمة.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى، حدثنا إبراهيم بن محمد قال: حدثني صفوان بن سليم عن فاطمة السهمية، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال:

الإلحاد فى الحرم شتم الخادم فما فوق ذلك ظلما. انتهى من تاريخ الأزرقى.

نقول: قال عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما: إن كانت الأمة من بنى إسرائيل لتقدم مكة، فإذا بلغت ذا طوى خلعت نعالها تعظيما للحرم. و لما حج أمير المؤمنين المنصور، رحمه الله تعالى، فى سنة (١٣٦) هجرية و وصل الحرم، نزل و خلع نعليه و مشى حافيا تعظيما للحرم.

و فى تاريخ الأزرقى عن طاووس، عن ابن عباس قال: إذا دخل القاتل الحرم لم يجالس، و لم يبائع، و لم يؤو، و يأتيه الذى يطلبه فيقول: يا فلان اتق الله فى دم فلان و اخرج من المحارم، فإذا خرج أقيم عليه الحد.

و فيه أيضا: قال ابن جريج: أخبرنى عكرمة بن خالد قال: قال عمر: لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه.

قال ابن جريج: و بلغنى أن الرجل كان يلقي قاتل أخيه، أو أبيه فى الكعبة، أو فى الحرم، أو فى الشهر الحرام، فلا يعرض له أو محرما أو مقلدا هديا قد بعث به،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١١٩

فلا يعرض له و هم يغير بعضهم على بعض فيقتلون و يأخذون الأموال فى غير ذلك، فجعل الله ذلك قياما لهم لولا ذلك لم يكن لهم بقية.

و فيه أيضا: عن عطاء عن ابن عباس، أن غلاما من قریش قتل حمامة من حمام الحرم، قال ابن عباس: فيه شاء و به قال سفيان عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: فى حمام مكة شاء.

و فيه أيضا: عن ابن جريج، عن مجاهد قال: أمر عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، بحمامة فأطيرت فوقعت على المروءة، فأخذتها حية، فجعل فيها عمر شاء.

و فيه أيضا: قال عطاء فى بيضة كسرت و فيها فرخ قال: درهم، و قال رجل لعطاء: اجعل بيضة دجاجة تحت حمام بمكة. قال: لا، أخشى أن يضر ذلك بيضاها.

و فيه أيضا: عن خالد بن مضرس، أن رجلا من الحاج قطع شجرة من منزله بمنى، قال: فانطلقت به إلى عمر بن عبد العزيز فأخبرته خبره، قال: صدق كانت ضيقت علينا منزلنا و مناخنا. فتغيظ عليه عمر ثم قال: ما رأيت إلا دينه.

و فيه أيضا: عن عبد الله بن نافع عن أبيه قال: كان ابن عمر يغشاه الحمام على رحله و طعامه و ثيابه ما يطرده، و كان ابن عباس يرخص أن يكشكش.

و عن محمد بن يزيد بن خنيس، عن عبد العزيز بن أبى داود: أن قوما انتهوا إلى ذى طوى و نزلوا بها فإذا ظبى قد دنا منهم فأخذ رجل منهم بقائمة من قوائمه، فقال له أصحابه: و يحك أرسله، قال: فجعل يضحك و يأبى أن يرسله.

فبعر الظبى و بال ثم أرسله، فناموا فى القايلة، فانتبه بعضهم فإذا بحية منطوية على بطن الرجل الذى أخذ الظبى، فقال له أصحابه: و يحك لا تتحرك و انظر ما على بطنك. فلم تنزل الحية عنه حتى كان منه من الحدث ما كان من الظبى.

وفيه أيضا: عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد: قال دخل قوم مكة تجارا من الشام في الجاهلية بعد قصى بن كلاب، فنزلوا بذي طوى تحت سمرات يستظلون بها، فاخترتوا ملء لهم (أى خبزاً لهم) ولم يكن معهم أدم، فقام رجل منهم إلى قوسه فوضع عليها سهما، ثم رمى به ظبية من طباء الحرم وهى حولهم ترعى، فقاموا إليها فسلخواها و طبخوا لحمها ليأتموا به، فبينما قدرهم على النار تغلى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢٠

بلحمه و بعضهم يشتوى، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة، فأحرقت القوم جميعا، ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات التى كانوا تحتها.

وفيه أيضا: عن سالم بن عبد الله، عن أبيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خمس من الدواب لا جناح على من قتلهن وهو محرم وفي الحرم: الغراب والحدأة والفأرة والكلب العقور والعقرب.

وفيه أيضا: عن ابن أبي رواد، عن أبيه قال: سمعت غير واحد من الفكهاء يذكرون أنه يكره أن يخرج أحد من الحرم من ترابه أو حجارته بشيء إلى الحل.

قال: ويكره أن يدخل من تراب الحل أو حجارته إلى الحرم بشيء أو يخلط بعضه ببعض.

وفيه أيضا: عن عبد المجيد، عن أبيه قال: أخبرنى بعض من كنا نأخذ عنه، أن ابن الزبير تقدم يوما إلى المقام ليصلى وراءه، فإذا حصى بيض أتى بها وطرح هنالك، فقال: ما هذه البطحاء؟ قال: فقيل له: أنه حصى أتى بها من مكان كذا وكذا خارج من الحرم.

قال، فقال: القطوه و ارجعوا به إلى المكان الذى جئتم به منه و أخرجوه من الحرم، وقال: لا تخلطوا الحل بالحرم.

وفيه أيضا: عن عبد المجيد بن أبي رواد، عن أبيه قال: و أدركتهم أنا بمكة و إنما يؤتى ببطحاء المسجد من الحرم.

انتهى كل ذلك ملخصا من تاريخ الأزرقى، و فى ذلك كفاية لمن اعتبر.

بعض ما ورد فى القرآن الكريم فى فضل المسجد الحرام

إشارة

قال الله تبارك و تعالى فى سورة البقرة: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضَلًّا وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَارِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ*

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢١

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [١٢٥-١٢٩]. و قال

عز شأنه فى سورة آل عمران: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ دَخَلَهُ

كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ [٩٦-٩٧]. و قال جل جلاله فى سورة

المائدة: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ الْهُدًى وَ الْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا

فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [٩٧]. و قال سبحانه و تعالى فى سورة إبراهيم: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ

اجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ* رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلْنِي كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* رَبَّنَا إِنِّي

أَسَكَنْتُ مِنْ دُرِّيْتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَهُ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ* رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ* الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ* رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ دُرِّيْتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ* رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ [٣٥-٤١]. وقال جل جلاله في سورة الحج: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ* وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ* ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ* حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ* ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ* لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ [٢٥-٣٣].

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢٢

ولقد أحصى الشيخ عبد الوهاب النجار، رحمه الله تعالى، سور القرآن التي ورد فيها ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام، والآيات الكريمة. وفيما يلي هذا الإحصاء، نقلناه من كتاب أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

رقم متسلسل / السورة / رقم السورة / رقم الآيات / البقرة / ٢ / ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ٢٥٨، ٢٦٠

٢ / آل عمران / ٣ / ٣٣، ٣٥، ٦٧، ٦٨، ٧٤، ٩٥، ٩٧

٣ / النساء / ٤ / ٥٤، ١٢٥، ١٦٣

٤ / الأنعام / ٦ / ٧٤، ٧٥، ٨٣، ١٥١

٥ / التوبة / ٩ / ٧٠، ١١٤

٦ / هود / ١١ / ٦٩، ٧٤، ٧٥، ٧٦

٧ / يوسف / ١٢ / ٦، ٣٨

٨ / إبراهيم / ١٤ / ٣٦

٩ / الحجر / ١٥ / ٥١

١٠ / النحل / ١٦ / ١٢٠، ١٢٣

١١ / مريم / ١٩ / ٤١، ٤٦، ٥٨

١٢ / الأنبياء / ٢١ / ٥١، ٦٠، ٦٢، ٦٩

١٣ / الحج / ٢٢ / ٢٦، ٤٣، ٧٨

١٤ / الشعراء / ٢٦ / ٦٩

١٥ / العنكبوت / ٢٩ / ١٦، ٣١

١٦ / الأحزاب / ٣٣ / ٧

١٧ / الصافات / ٣٧ / ٨٣، ١٠٤، ١٠٩

١٨ / ص / ٣٨ / ٤٥

١٩ / الشورى / ٤٢ / ١٣

٢٠/ الزخرف / ٤٣ / ٢٦

٢١/ الذاريات / ٥١ / ٢٤

٢٢/ النجم / ٥٣ / ٢٧

٢٣/ الحديد / ٥٧ / ٢٦

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢٣

٢٤/ الممتحنة / ٦٠ / ٤

٢٥/ الأعلى / ٨٧ / ١٩

الكلام على قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ... الْآيَةَ

قال الله تعالى في سورة آل عمران: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَنَاهُ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

قال الإمام الأزرقى عند الكلام على هذه الآية: حدثني جدي عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج قال: أخبرني ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت:

بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء ولأنه في الأرض المقدسة، وقال المسلمون الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فنزل: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَنَاهُ مُبَارَكًا - حتى بلغ - فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وليس ذلك في بيت المقدس، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وليس ذلك في بيت المقدس. انتهى من الأزرقى.

نقول: الذي نفهمه من هذه الآية الكريمة: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَنَاهُ هو أن الله عز شأنه، جعل بيته الشريف أول بيت بنى لعبادته جل جلاله بكيفية مخصوصة، وهي الطواف حوله واستلام الركن الأسود، والوقوف عند بابه بالملتزم بذلة وخضوع وانكسار وخشوع، واستقباله والتوجه إليه في الصلاة حال القرب والبعد، إلى غير ذلك مما اختصه الله تعالى من المزايا والأسرار.

على أن المساجد كلها تسمى بيوت الله، قال تعالى في سورة النور: فِي بُيُوتِ أَدْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ... الْآيَةَ، ولكن شأن تلك المساجد، غير شأن هذا المسجد الحرام الذي فيه بيت الله المعظم الذي يتوجه إليه كل من صلى في تلك المساجد، أو صلى في غيرها في أي بقعة من بقاع الأرض. ولقد بين الله عز وجل علامات بيته الحرام في الآية السابقة بقوله: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامٌ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢٤

إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا حتى يعرفه الناس تماما، فلا يدعى قوم بأن المراد به بعض معابد أهل الكتاب، كما بين، سبحانه وتعالى، وهو الغنى عن العالمين، بعض مزايا بيته الكريم في قوله بسورة البقرة: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

وفي قوله بسورة الحج: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، إلى آخر الآيات، أي إلى قوله تعالى: ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

ويستدل بعض العلماء والمؤرخين بآية: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ، و بآية وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ أَنَّ

إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، هو أول من بنى بيت الله المعظم. ونحن نقول: أن الآيتين المذكورتين تثبتان وقوع البناء ل خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولا يفهم منهما أنه هو أول من بناه، فقد يجوز أنه هو أول من بناه كما يجوز أن الملائكة بنته قبل البشر، و يجوز أيضا أن آدم عليه السلام أو أحدا من أبنائه الأنبياء بناه، كما يظهر ذلك لدى التأمل. فإبراهيم، صلوات الله وسلامه عليه، هو أول من اكتشف مكة، و أول من أسكن فيها ذريته، و أول من أخذ عنه الناس صنع البناء بمكة.

و إذا أنعمنا النظر فى قوله تعالى: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِنَاكَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ** * فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ظهر لنا من جملة: **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ** أن خليل الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو أول من بنى البيت، بدليل أن مقامه المذكور فى الآية لا يزال موجودا إلى اليوم عند الكعبة.

أما إن قلنا أن الملائكة أو آدم أو ابنه شيث عليهم الصلاة والسلام، هم الذين بنوا الكعبة من قبل إبراهيم عليه السلام، فيكون بناء ليس عنده المقام بالطبع.

على أنه لا مانع إن قلنا أنهم بنوا الكعبة قبل الخليل، بمعنى أنهم بنوها بناء غير بناء إبراهيم، فهذا بناها بالحجر رضما، و الملائكة رموا فى أساسها الصخور العظام

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢٥

من مختلف الجبال، و نزلت على آدم على صفة خيمة من خيام الجنة من ياقوته حمراء، و بعد موته رفعت إلى السماء، و قيل رفعت زمن الطوفان، كما ذكره الأزرقى و الله تعالى أعلم.

و إذا تأملنا فى كلمة "وضع للناس" ظهر لنا أيضا أن هذا البيت هو أول بيت وضعه الله للناس، أى للبشر فقط، و هذا يدل على أن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى هذا البيت الموضوع للناس، و الأولى هنا لا مفهوم لها، أى ليس هناك بيت ثانى و ثالث و رابع، فهذا البيت الكريم هو أول بيت و آخر بيت وضعه الله تعالى للعبادة على طريقة مخصوصة، أى بالطواف حوله و بالتوجه إليه عند الصلاة.

و إن ذهبنا مع القول القائل أن الملائكة هم أول من بنوا البيت، فيكون معناه أنهم رموا فى أساسه الأول بمكة البالغ إلى الأرض السابعة الصخور العظام من الجبال الخمسة الآتى ذكرها، و كان البيت على صفة خيمة من ياقوته حمراء نزلت من الجنة- و الله تعالى أعلم بحقيقته كل ذلك.

فالكعبة المعظمة، هى أول بيت وضع فى الأرض لعبادة الله تعالى بالكيفية التى ذكرناها، بل هى بهذه الكيفية المخصوصة، أول بيت و آخر بيت، إذ ليس لها ما يماثلها فى الأرض مطلقا.

و نفهم من هذه الآية أيضا: أن الكعبة المشرفة هى أول بيت بنى فى مكة، حيث كانت قفراء خلاء، لا ناس فيها و لا ماء و لا كلاء، و لم تعرف مكة إلا بعد أن اكتشفها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بواسطة جبريل حينما أمره الله عز و جل، أن يأخذ ابنه إسماعيل و أمه هاجر إلى مكة و يتركهما بها، فكان من أمرهما ما كان، من إخراج زمزم، ثم اهتداء قبيلة من جرهم إليهما و إقامتهم معهما، فكانوا بينون عريشا من شجر الأراك و غيره و يسكنون فيه، أو يقيمون فى مغارات الجبال و كهوفها، حتى أمر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام، ببناء بيته الحرام، فأتى إليهم بمكة و قام ببنى بيت الله عز شأنه، مع ابنه إسماعيل بعد أن كبر فى المكان الذى بوأه الله له، يبنيه بالرضم، أى بحجارة بعضها فوق بعض بدون طين و لا نورة.

فعليه تكون الكعبة هى أول بيت بنى بالحجارة بمكة، و أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أول من اكتشف مكة، و أول من اتخذها سكنا لزوجته هاجر و ولده

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢٦

إسماعيل، و هو أول من علم أهل مكة بناء البيوت بالرضم بالحجارة، فلا يزال بعض العرب بالحجاز بينون بيوتهم بالرضم إلى عصرنا

هذا.

و معنى كلمه "ببكه" المراد بها مكة كما ذكره، فهى من جملة أسمائها، و الذى نذهب إليه أن المراد "ببكه"، "البقعة التى بنيت بين أخشى مكة، و هما جبل أبى قيس و جبل قيعقان فقط، و هى البقعة التى فيها البيت الحرام، فمن تأمل قوله تعالى: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَنَىٰ لَهُ هَذَا الْمَعْنَى بوضوح.**

و لقد كان العرب منذ عهد إبراهيم عليه الصلاة و السلام، يسكنون بمكة خارج الحرم، و يأتون إلى بيت الله الحرام نهارا للطواف و العبادة، فإذا أمسوا خرجوا إلى مساكنهم البعيدة عنه، حرمة و تعظيما له، فكان البيت الحرام قائما وحده فى هذا الوادى المبارك، بين أخشى مكة، ليس حوله بيوت مطلقا، حتى زمن قصى بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم الذى كان حاكما على مكة. فإنه أمر قريشا أن يبنوا منازلهم بقرب الكعبة، و لا يتعدوا عنها حتى تهابهم العرب و تعظمهم حرمة للبيت الحرام، و خصص لكل قبيلة منهم جهة من جهات الكعبة، و هو أول من أقدم على البناء عندها، فبنى لهم "دار الندوة" فتبعته قريش فى ذلك.

فلما جمع قصى بن كلاب قريشا بمكة، سمى "مجمعا"، و فى ذلك يقول حذافه بن غانم الجمحى يمدحه:

أبوهم قصى كان يدعى مجمعابه جمع الله القبائل من فھر

همو نزلوها و المياه قليلة و ليس بها إلا كهول بنى عمرو

يعنى خزاعة.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لعبادته، و تعظيم بيته الحرام، و حرمة مكة بلده الأمين، و أن يعصمنا من الإلحاد و الظلم فيه، و أن يمتتنا به على الإيمان الكامل، على نظافة و طهارة و راحة تامة، و أن يلحقنا بالصالحين بفضلهم و رحمته، إنه بعباده لطيف خبير أمين. و الحمد لله رب العالمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢٧

زيادة التأمل

فى قوله تعالى فى سورة آل عمران: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَنَىٰ مَبَارَكًا وَ هُدًىٰ لِلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.**

لقد تقدم ما ذكرناه فى هاتين الآيتين الكريمتين، و اليوم بعد التأمل فيهما فتح الله علينا بما يأتى:

(١) قوله تعالى: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَنَىٰ مَبَارَكًا وَ هُدًىٰ لِلْعَالَمِينَ**، إن قلنا أن الملائكة الكرام أو آدم عليهم الصلاة و السلام، هم أول من بنى بيت الله الحرام "الكعبة المشرفة"، فيكون هذا البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس حقا، إذ لم يكن فى ذلك العصر الأول بشر على وجه الأرض، غير آدم عليه الصلاة و السلام و نفر من ذريته، فما كانوا يعرفون بناء البيوت و العمارات، و إنما كانوا يأوون من الشمس و الأمطار إلى ظلال الأشجار و حجور الصخار و الجبال. و هذه قصة بنى آدم المذكورة فى القرآن الكريم، شاهدته على جهل الناس فى العصور الأولى بمنافعهم الذاتية، فإنه لما قتل أحدهما الآخر، لم يدر القاتل ماذا يفعل بأخيه المقتول، و كيف يوارى سوء أخيه حتى بعث الله تعالى إليه غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوء أخيه، فتعلم ابن آدم من الغراب كيف يدفن أخاه.

(٢) و إن قلنا أن خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و التسليم، هو أول من بنى بيت الله الحرام بمكة، فيكون هذا البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس حقا بمكة، فإن مكة لم تعرف إلا بعد ما أسكن إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل و أمه هاجر فيها، كما أمره الله عز و جل، عليهم الصلاة و السلام، فمكة يومئذ لم يكن فيها إنس و لا حيوان و لا نبات و لا ماء، إلا أشجار الشوك تنبت على ماء الأمطار، فلما

سكن بها إسماعيل و أمه هاجر عليهما السلام، أخرج الله تعالى لهما ماء زمزم، و أرسل لهما نفرا من قبيلة جرهم يسكنون معهما بمكة و يقيمون بها، فكانوا يسكنون في كهوف الجبال القريبة لهم، كجبل قبيس و جبل قعقعان.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢٨

فلما أمر الله عز و جل خليله إبراهيم ببناء البيت الحرام بمكة، جاء من فلسطين لهذا الغرض إلى مكة المكرمة، فوجد فيها ابنه إسماعيل، عليه الصلاة و السلام، و قد كبر و صار رجلا كاملا نبيلًا، فقاما بينان البيت الحرام في محله الحالي بمكة، فعليه يكون هذا البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس بمكة، إذ لم يكونوا يعرفون بناء البيوت و العمارات في ذلك العصر.

فهذا البيت الحرام لم يوضع لسكنى الناس فيه، و إنما وضع لعبادتهم عنده و الطواف به، فهو بيت مبارك و هدى للعالمين، كما أخبر الله عز و جل بذلك عنه في القرآن العظيم.

(٣) و إن قيل لنا أن هذا البيت الحرام، ليس هو بأول بيت في الأرض، فلقد كانت البيوت موجودة من قديم العصور في مصر و الشام و العراق و فلسطين و غيرها.

نقول: إن البيت الحرام، هو أول بيت وضع للناس بمكة للعبادة الحقة لعبادة الله الملك الديان، إنه ليس كالبيوت المزيفة لعبادة الأصنام و الأوثان، ثم إن بيت الله الحرام، وضع للناس على أساس التوحيد و التقوى، و تكون العبادة فيه على وجه خاص ممتاز، كجعله قبله للمسلمين في مشارق الأرض و مغاربها، و كالطواف حوله سبع مرات، و كاستلام الركن الأسود منه، و كالحج إليه، و كجعل الطواف حوله ركنا من أركان الحج، ثم إن هذا البيت الحرام، هو كما وضعه الله عز و جل، في الآية المذكورة، أنه مبارك و هدى للعالمين إلى قيام الساعة.

(٤) قد أخبر الله تعالى عن هذا البيت الحرام، بأنه فيه آيات بينات مقام إبراهيم- فالبيت الحرام هو في وسط المسجد الحرام، و المسجد الحرام هو موضع المطاف القديم قبل توسعته في عصرنا الحاضر، ففي هذا البيت الحرام و بالقرب منه آيات بينات و هي مقام إبراهيم عليه الصلاة و التسليم، و المقام هو هذا الحجر الذي قام عليه عند بنائه البيت الحرام، و هو محفوظ إلى اليوم واقع أمام الكعبة المشرفة، بينه و بينها نحو عشرة أمتار- و من جملة الآيات البينات ماء زمزم الذي خرج إغاثة لإسماعيل و أمه هاجر عليهما الصلاة و السلام، و هو موجود إلى اليوم أمام الكعبة المشرفة، بينه و بينها كما بين المقام و الكعبة. و من الآيات البينات: الصفا و المروة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٢٩

و السعي بينها إلى قيام الساعة. و من الآيات البينات: أن من دخله كان آمنًا على نفسه و أهله و ماله، ليس لأحد أن يؤذى أو يسيء إلى من لاذ بالحرم.

هذا شيء من الآيات البينات الواضحة الظاهرة للناس كافة، و هناك من الأمور ما لا يظهر إلا لخواص المؤمنين.

فسبحان الله لولا هذا البيت الحرام، ما كان الحج إلى المشاعر العظام، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، و سلام على المرسلين، و الحمد لله رب العالمين.

فائدة مهمة

رأينا من المناسب أن نذكر هنا ما ورد في "نتيجة جمهوريه مصر" لسنة (١٣٧٤) من الهجرة الموافقة لسنة (١٩٥٤) ميلادية، لما لها من الفائدة المهمة، و هذا نص ما جاء فيها:

اصطلح العرب على أن اليوم يتدئ من غروب الشمس و ينتهى عند غروبها التالى. و يبدأ الشهر من ليلة الاستهلال و ينتهى باستهلال الشهر التالى. و يتعين الاستهلال شرعا برؤية الهلال، و لما كانت رؤيته تتوقف على أمور متغيرة كحالة الجو و دقة الهلال و مقدار نوره و غير ذلك و الحساب لابد أن يكون مبنيًا على أساس ثابت، لذا اعتمد الحاسبون فى تعيين أول الشهر على اجتماع الشمس بالقمر. فإذا ما وقع الاجتماع، كانت أول ليلة يغرب فيها القمر بعد غروب الشمس، هى أول الشهر، و ما قبلها يكون من الشهر الماضى. و هذا هو المتبع فى حساب الشهور العربية فى هذه النتيجة.

و قد تتفق الرؤية مع الحساب و قد يتقدم الحساب على الرؤية بيوم فى الأكثر أو بيومين فى الأقل و لا يمكن أن تتقدم الرؤية على الحساب.

و أول المحرم من السنة الأولى من التاريخ الهجرى بالحساب كانت ليلة الخميس ١٥ يوليئ سنة ٦٢٢ ميلادية و بالرؤية ليلة الجمعة ١٦ يوليئ سنة ٦٢٢ ميلادية جوليانية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣٠

مواقيت الصلاة و ارتباطها باليوم العربى و اليوم الإفرنجى

(اليوم العربى) يتدئ من غروب الشمس و ليله سابق لنهاره. و على هذا الاعتبار تكون أوقات الصلاة ساريه فيه بالتتابع هكذا: الغروب و العشاء و الفجر و الظهر و العصر.

(و اليوم الإفرنجى) يتدئ من نصف الليل. و نهاره واقع بين نصفى ليله، و على هذا الاعتبار تكون أوقات الصلاة ساريه فيه بالتتابع هكذا: الفجر و الظهر و العصر و الغروب و العشاء.

و من هنا يلاحظ أن مبدأ اليوم العربى متقدم عن مبدأ اليوم الإفرنجى بربع مدته الأولى. و فيما يختلف عنه فى اسم يوم الأسبوع و التاريخ و فى وقتى الغروب و العشاء. و يتفق معه فى ثلاثة أرباع مدته الباقية منه فى أوقات الفجر و الشروق و الظهر و العصر. نتج عن هذا البيان أن أوقات الصلاة فى اليوم العربى تبتدئ من وقت الغروب و تنتهى بانتهاء وقت العصر.

و أن أوقات الصلاة فى اليوم الإفرنجى تبتدئ من وقت الفجر و تنتهى بانتهاء وقت العشاء.

و مثال ذلك: أن هذا البيان كتب فى الساعة الثامنة أفرنجى مساء من ليلة الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هجرية الموافقة مساء يوم الأحد ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٤ ميلادية.

و صحح فى الساعة الثامنة من نهار الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة (١٣٧٤) هجرية الموافق صباح يوم الاثنين ٨ نوفمبر سنة (١٩٥٤) ميلادية. ثم كتب على الآلة الكاتبة فى الساعة العاشرة إفرنجى من صباح يوم الاثنين ٨ نوفمبر سنة (١٩٥٤) ميلادية الموافق نهار الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هجرية. و صحح فى الساعة الثامنة إفرنجى من مساء يوم الاثنين ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٤ ميلادية الموافق ليلة الثلاثاء ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هجرية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣١

(مثال اليوم العربى): يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هجرية

إشارة

الأحد ٧ نوفمبر ١٩٥٤ / الاثنين ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٤

مساء / صباحا / مساء الغروب / العشاء / الفجر / الشروق / الظهر / العصر

ق ت / ق ت / ق ت / ق ت / ق ت / ق ت / ق ت

٤، ٢٣ / ٥، ٤٥ / ٤، ١٤ / ٦، ٣٩ / ١١، ٤١ / ٢

نتيجة الحائط للسنة الهجرية: تتغير ورقة اليوم فيها من غروب الشمس فيختلف التاريخ العربي عن التاريخ الإفرنجي ليلا و يتفقدان نهارا.

(مثال اليوم الإفرنجي): يوم الاثنين ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٤ ميلادية

الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ / الثلاثاء ١٣ ربيع الأول نهارا / ليلا الفجر / الشروق / الظهر / العصر / الغروب / العشاء

ق ت / ق ت / ق ت / ق ت / ق ت / ق ت / ق ت

٤، ٢٣ / ٥، ٤٥ / ٤، ١٤ / ٦، ٣٩ / ١١، ٤١ / ٢، ٣ / ٥، ٢٢ / ٦

نتيجة الحائط للسنة الميلادية الإفرنجية: تغير ورقة اليوم فيها صباحا فيتفق التاريخ الإفرنجي مع التاريخ العربي نهارا و يختلفان ليلا. انتهى من النتيجة المذكورة.

رأينا من المناسب أن نذكر هنا الفصول و مبادئها ما ورد في "نتيجة الحكومة المصرية" السنة (١٣٦٦) هجرية الموافقة لسنة (١٩٤٦) ميلادية، لما لها من الفائدة المهمة. و هذا نص ما جاء فيها:

مبادئ الفصول و مدة أيامها الواقعة في سنة (١٣٦٦) هجرية

فصل / مبادئ بالتاريخ العربي / مبادئ بالتاريخ الإفرنجي / مدة أيام الفصل /// دقيقة / ساعة / يوم

الشتاء / يوم الأحد ٢٨ محرم سنة ١٣٦٦ الساعة ٧ و الدقيقة ٥٥ نهارا / يوم الأحد ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٦ الساعة.

و الدقيقة ٥٤ مساء / ١٩ / .. / ٨٩

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣٢

فصل / مبادئ بالتاريخ العربي / مبادئ بالتاريخ الإفرنجي / مدة أيام الفصل الربيع / يوم الجمعة ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٦ الساعة ٧ و

الدقيقة ٧ نهارا / يوم الجمعة ٢١ مارس سنة ١٩٤٧ الساعة ١ و الدقيقة ١٣ مساء / ١٩ / ٦ / ٩٢

الصيف / يوم الأحد ٣ شعبان سنة ١٣٦٦ الساعة ١ و الدقيقة ٢٠ نهارا / يوم الأحد ٢٢ يونيو سنة ١٩٤٧ الساعة ٨ و الدقيقة ١٩ صباحا /

١٠ / ١٥ / ٩٣

الخريف / ليلة الأربعاء ٩ ذي القعدة سنة ١٣٦٦ الساعة ٥ و الدقيقة ٣٧ ليلا / يوم الثلاثاء ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٧ الساعة ١١ و الدقيقة ٢٩

مساء / ١٤ / ١٩ / ٨٩

انتهى من النتيجة المذكورة.

فيعلم مما تقدم، أن الفصول الأربعة المذكورة يعرف وقت دخولها و وقت خروجها في جميع الأقطار و البلدان، و أما في بلدتنا "مكة" شرفها الله تعالى فلا يعرف ذلك من الجو و الهواء، لأن غالب أوقاتها تمضي كأيام الصيف في وقت الشتاء لا نعرف البرد الشديد الذي يعرفه العالم، فلا تعرف أوقات الفصول الأربعة عندنا إلا بالحساب. فسبحان الذي بيده ملكوت السموات و الأرض.

علة تسمية الجهات الأربعة

جاء في الجزء الأول من تاريخ المسعودي المسمى "بمروج الذهب و معادن الجوهر" عن علة تسمية الجهات الأربعة و هي: اليمن و

العراق و الشام و الحجاز ما يأتي:

تنازع الناس في اليمن و تسميته، فمنهم من زعم أنه إنما سمي يمنا، لأنه عن يمين الكعبة، و سمي الشام شاما لأنه عن شمال الكعبة، و سمي حجاز حجازا، لأنه حجاز بن اليمن و الشام، نحو ما أخبر الله عز و جل عن الفرق الذي بين بحر القلزم و بحر الروم بقوله عز و جل: وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣٣

و إنما سمي العراق عراقا، لمصب المياه إليه كالدجلة و الفرات و غيرهما من الأنهار، و أظنه مأخوذا من عراقى الدلو، و عراقى القرية، و منهم من زعم أن اليمن إنما سمي يمنا ليمنه، و الشام شاما لشؤمه، و هذا قول يعزى إلى قطرب النحوى فى آخرين من الناس - و منهم من رأى أنه إنما سمي يمنا، لأن الناس حين تفرقت لغاتهم ببابل تيامن بعضهم يمين الشمس و هو اليمن، و بعضهم تشاءم فوسم له هذا الإسم، و سنذكر تفرق هذه القبائل من أرض بابل بعد هذا الموضع، و بعض ما قالوه فى ذلك من الشعر عند سيرهم فى الأرض و اختيارهم البقاع.

و قيل: إنما سمي الشام شاما، لشامات فى أرضه بيض و سود، و ذلك فى التراب و البقاع و أنواع النبات و الأشجار، و هذا قول الكلبي، و قال الشرقى بن القطامى: إنما سمي الشام شاما، لسام بن نوح، لأنه أول من نزله و قطن فيه، فلما سكنته العرب تطيرت من أن تقول: سام فقالت: شام، و قيل: أن سامرا إنما سميت بذلك إضافة إلى سام، و قيل: إن أول من سكنها من خلفاء بنى العباس سماها بهذا الاسم و أنها سرور لمن رآها، و قد ذكر فى أسماء هذه المعامل و البقاع و الأمصار وجوه غير ما ذكرنا قد أتينا عليها فيما سلف من كتبنا.

انتهى من تاريخ المسعودى.

و بمناسبة ما تقدم عن علته تسمية الجهات الأربعة، نذكر هنا ما جاء عن علته تسمية الشرق شرقا، و الغرب غربا، نقلا عن مجلة الهلال الصادرة بمصر فى ١٦ شوال سنة ١٣٦٦ هجرية، و أول سبتمبر سنة ١٩٤٧ ميلادية، فقد كتب فيما بعضهم السؤال الآتى:

لماذا سمي الشرق شرقا، و الغرب غربا، و الواقع أن لكل بلد فى العالم، مع كروية الأرض، شرقا و غربا، و إلى أى حد من الصحة ينطبق هذا على قولنا:

الشرقيون و الغربيون. اهـ.

فأجابت مجلة الهلال على هذا السؤال بما يأتى:

كانت هذه التسمية موجودة قبل أن تكتشف أمريكا، و قبل أن تصير كروية الأرض حقيقة. فكانت الدنيا رقعة واحدة، تشرق الشمس عليها من المحيط الهادى و تغرب فى المحيط الأطلسى.

و زاد الكشف، و غير آراءنا العلم، و لكن اللغة لم تتغير.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣٤

على أنهم زادوا هذه التسمية الآن تفصيلا، فقالوا الشرق الأوسط و الأدنى و الأقصى. و تمازجت الأمم، و اتساحت الحدود بعضها على بعض، فصار كثيرا ما يطلق الشرق و الغرب على مجموعة من الآداب و العادات و الطقوس غلبت على قوم يسكنون آسيا دون أوروبا، و لو سكنوا الآن مغارب الأرض.

و أمريكا سموها غربا، لاعتبارين:

أولهما: أنهما على العرف القديم هى غرب الغرب. و ثانيهما: أن سلاطاتها من أوروبا، فهى بالجنس غربية.

و للجغرافيا رأى غير هذه الآراء، فخط الطول الرئيسى، و يسمى بخط الصفر، هو الذى يقطع بلدة جرينتش بجوار لندن. و تتوالى خطوط الطول شرقا فى أوروبا و آسيا، أى الخط ١٨٠، و هو يقع فى وسط المحيط الهادى.

و كذلك تتوالى خطوط الطول غربا فى المحيط الأطلسى فأريكا فالمحيط الهادى، حتى يلتقى خط ١٨٠ الغربى بأخيه الشرقى. و بهذه

الخطوط يتحدد الإشراق و الإغراب عند من يجوبون الأرض.

جهات المصلين إلى القبلة في جميع البلدان

من المسائل الدقيقة، التي يندر الحصول عليها، معرفة جهات المصلين إلى نقطة معينة من الكعبة المشرفة في جميع الأقطار، و أن معرفتها أو عدم معرفتها لا يترتب عليه حكم شرعي، إلا أنها من باب "العلم بالشئ و لا الجهل به."

قال ابن ظهيرة القرشي في كتابه "الجامع اللطيف في فضل مكة و بناء البيت الشريف" ناقلاً بتلخيص ما ذكره العلامة الشيخ عز الدين بن جماعة في دائرته بحذف الكواكب إذ ليس كل أحد يعرف الاستدلال بها، قال فيه ما نصه:

إن مصر و صعيدها الأعلى، و سواحلها السفلى: أسوان و أسنا و قوص و الفسطاط و الإسكندرية و الأكيدم و المحلة و دمياط و بليس، و برقة، و طرابلس، و صغد، و ساحل المغرب، و الأندلس، و ما كان على سمته جهتهم ما بين الركن الغربي و الميزاب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣٥

و أن جانب الشام الغربي، و وسط غزة، و الرملة، و بيت المقدس، و المدينة الشريفة، و دمشق، و فلسطين، و عكا، و صيدا، و ما إلى ذلك من السواحل على سمته جهتهم من قبيل ميزاب الكعبة إلى دون الركن الغربي.

و أن الشام كلها غير ما ذكر و هي: حمص و حماة و سلمية و حلب و منبج و حران و ميافارقين، و ما والاها من البلاد و سواحل الروم، جهتهم ما بين الميزاب و الركن الشامي موقفهم موقف أهل المدينة و دمشق، لكنهم يتياسرون شيئاً يسيراً، و الجهة شاملة للجميع إن شاء الله تعالى.

و أن الرها و الموصل و ملطية و سمشاط و سنجان و الجزيرة و ديار بكر، و كان على سمت ذلك، جهتهم إلى القبلة من الركن الشامي إلى مصلى آدم عليه السلام، أي قرب الحفرة التي في وجه الكعبة.

و أن الكوفة و بغداد و حلوان و القادسية و همدان و الري و نيسابور و خراسان و مرو و خوارزم و بخارى و نسا و فرغانة و الشاش، و ما كان على سمت ذلك، جهتهم ما بين مصلى آدم عليه السلام، إلى قرب باب الكعبة.

و أن البصرة و الأهواز و فارس و كرمان و أصبهان و سجستان و شمال بلاد الصين، و ما كان على سمت ذلك، جهتهم من باب الكعبة إلى الحجر الأسود.

و أن وسط بلاد الصين و الهند و المهرجان و كابل و المهديان و التتار و المغل و الخدهار، و ما والاها، و ما كان على سمتها، جهتهم من الركن الأسود إلى دون مصلى النبي صلى الله عليه و سلم.

و أن بلاد الهند و جنوب بلاد الصين و أهل التهايم و السد و البحرين، و ما والاها، و كان على سمتها، جهتهم من مصلى النبي صلى الله عليه و سلم إلى ثلثي هذا الجدار.

و أن اليمن بأسره ظفار و حضرموت و صنعاء و عمان و صعده و الشحر و سبا، و ما والاها، و ما كان على سمتها، جهتهم من دون الركن اليماني بسبعة أذرع إلى الركن اليماني.

و أن الحبشة و الزنج و زيلع و أكثر بلاد السودان و جزائر فرسان، و ما والاها من البلاد، و كان على سمتها، جهتهم من الركن اليماني إلى ثلثي الجدار، و هو آخر الباب المسدود.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣٦

و أن جنوب بلاد البجاء و دهلك و سواكن و بلاد البلين و النوبة إلى بلاد التكرور، و ما وراء ذلك، و ما على سمت من بلاد السودان و غيرهم إلى البحر المحيط، جهتهم من دون الباب المسدود إلى ثلثي الجدار.

و أن شمال بلاد البجاء و النوبة و أوسط المغرب من جنوب الواحات إلى بلاد أفريقية و أوسط بلاد بربر و بلاد الجريد إلى البحر

المحيط و هي جهة جدء و عيذاب و جنوب أسوان، جهتهم من دون الركن الغربى بثلت الجدار إلى الركن الغربى. ثم قال بعد هذا: انتهى ما لخص من الدائرة، و هذه الجهات المذكورة هي من حيث الجملة، و من أراد التحرير فى الاستقبال كما ينبغى، فليراجع كتب الميقات و ما وضع لذلك من الآلات ليقف على المراد. و الله أعلم. انتهى من الجامع اللطيف.

و قد ذكر القلقشندى مثل هذا التفصيل فى كتابه صبح الأعشى، فى الجزء الرابع بصحيفة ٢٥١، لم نر نقله اكتفاء بهذا الذى ذكرناه، و لا فرق بين كلامه و كلام ابن ظهيرة فى الجامع اللطيف، إلا فرق جزئى لا يؤثر. انظر: صورة رقم ٢٧، دليل القبلة فى جميع أنحاء العالم و صورة رقم ٢٨، اتجاه القبلة

أول ظهور بعض الأشياء بمكة المكرمة

نذكر هنا بعض الأشياء التى ظهرت بمكة المشرفة مما نتذكرها، من عهد الحكومة العربية الهاشمية، أى حكومة الأشراف، و من عهد الحكومة العربية السعودية، و نعتذر عما غاب عن ذهننا، فنقول و بالله التوفيق فهو نعم المولى و نعم النصير: عدد// السنة الهجرية ١/ أول من صلى عليه فى المسجد الحرام لما مات أبو إهاب بن عزيز ابن قيس كما فى الإصابة/ فى صدر الإسلام

٢/ أول من أدار الصفوف حول الكعبة خالد بن عبد الله القسرى سنة/ ٧٥

٣/ كان طبع النقود لأول مرة بمكة المشرفة، فى أواخر عهد الشريف الحسين بن على رحمه الله تعالى/ ١٣٤٢

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣٧

٤/ أول ما ظهر الثلج بمكة فى مصنع الثلج للحاج نسيم الشامى / ١٣٣٩

٥/ أول سيارة ظهرت بمكة هى سيارة الشريف الحسين بن على، أهداها له الكندوانى فى سنة/ ١٣٣٨

٦/ أول ظهور أقلام الجيب بمكة كان فى سنة/ ١٣٣٤

٧/ أول مرة منعت المحامل من الوصول إلى الحرمين الشريفين كان فى سنة/ ١٣٤٣

٨/ أول ظهور استعمال السيارات فى مكة و فى المملكة كلها كان سنة/ ١٣٤٦

٩/ أول ظهور الكهرباء بالمسجد الحرام كان سنة/ ١٣٤٦

١٠/ شيوع استعمال الكهرباء فى مكة و فى المملكة كلها كان من سنة/ ١٣٦٥

١١/ استعمال المراوح فى المسجد الحرام كان فى سنة/ ١٣٦٦

١٢/ استعمال مكبرات الصوت أى الميكروفون فى المسجد الحرام بمكة المشرفة كان سنة/ ١٣٦٧

١٣/ تأسست أمانة العاصمة فى سنة/ ١٣٣٢

١٤/ أول مصحف طبع بمكة المشرفة و كان بخط مؤلف هذا الكتاب و كان سنة/ ١٣٦٩

١٥/ أول ظهور سفلة الشوارع بالزفت و القير كان بجدة سنة/ ١٣٥٢

١٦/ أول ظهور مصلحة الموتى و نقلهم بالسيارات إلى المقابر و المغاسل كان سنة/ ١٣٧٦

١٧/ كثرة انتشار المدارس و شيوعها بمكة و غيرها كان من سنة/ ١٣٥٤

١٨/ كثرة إقامة الأجانب بمكة و المملكة السعودية كانت من سنة/ ١٣٥٥

١٩/ كثرة البضائع و السلع و الحاجات و الأقمشة و الكماليات كانت من سنة/ ١٣٦١

٢٠/ كثرة ظهور صالونات الحلاقة كانت من سنة/ ١٣٧٣

- ٢١/ ابتداء توسعه المسجد الحرام كان سنة / ١٣٧٥
- ٢٢/ توسعه المطاف لأول مرة في التاريخ كانت سنة / ١٣٧٧
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣٨
- ٢٣/ تجديد سقف الكعبة المشرفة كان سنة / ١٣٧٧
- ٢٤/ كثرة ظهور المساجد في جميع البلدة كانت من سنة / ١٣٧٠
- ٢٥/ انتشار العمران و بناء القصور بالإسمنت المسلح بمكة كان من سنة / ١٣٧٥
- ٢٦/ ابتداء توسعه الشوارع بمكة كان من سنة / ١٣٨٠
- ٢٧/ كثرة ظهور المستشفيات و إحصار الأطباء الأجانب كان من سنة / ١٣٧١
- ٢٨/ كثرة سفر الناس إلى الخارج من البلاد الإسلامية و الإفريقية كانت سنة / ١٣٧١
- ٢٩/ ابتداء ظهور الوزارات و مجلس الوزراء كان من سنة / ١٣٧٤
- ٣٠/ أول ظهور المدارس للبنات بجميع المملكة كان من سنة / ١٣٧٨
- ٣١/ أول ظهور استعمال دواقر القاز و البوتوقاز كان من سنة / ١٣٧٤
- ٣٢/ كثرة ظهور النساء في الشوارع و في محلات البيع و الشراء كانت من سنة / ١٣٧٤
- ٣٣/ ابتداء تعدد صلاة الجمعة بمكة المشرفة كان من سنة / ١٣٧٥
- ٣٤/ ابتداء انتقال أهل مكة من حول المسجد الحرام و السكنى في أطراف مكة و ضواحيها و كان ذلك بسبب توسعه المسجد الحرام و هدم ما حوله من المنازل و البيوت / ١٣٧٥
- ٣٥/ ابتداء ظهور المواتير الكهربائية أى الماكينات التى تشتغل بالكهرباء لسحب المياه من الآبار و خزانات المياه كان فى سنة / ١٣٦٨
- ٣٦/ انتشار محلات التصوير الفوتوغرافى كان من سنة / ١٣٥٥
- ٣٧/ ظهور علب اللبن الحليب البودرة المجفف كان من بعد سنة / ١٣٥٠
- ٣٨/ كان ظهور السمن الصناعى الذى فى العلب و الصفائح من سنة / ١٣٥٥
- ٣٩/ كان إبطال استعمال القرب للسقائين و الاستعاضة عنها بصفائح التنك / ١٣٨٢
- ٤٠/ كان إبطال بيع الرقيق و منع اتخاذ العبيد و الجوارى بمكة و فى /
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٣٩
- / جميع المملكة فى سنة / ١٣٨٢
- ٤١/ أول سيل عظيم فى عهدنا دخل المسجد الحرام و وصل إلى باب الكعبة كان فى سنة / ١٣٦٠
- ٤٢/ أول استعمال الإسمنت فى البناء كان من سنة / ١٣٥٠
- ٤٣/ أول إنزال فم بئر زمزم إلى أسفل أرض المطاف كان فى سنة / ١٣٨٣
- ٤٤/ أول نشأة مدارس البنات بمكة المشرفة و انتشارها فى جميع المملكة السعودية كان فى سنة / ١٣٧٩
- ٤٥/ أول إنشاء المطارات للطائرات بجدة و فى جميع المدن الرئيسية للمملكة كان من سنة / ١٣٥٠
- ٤٦/ أول انتشار التلغونات بمكة المشرفة كان من سنة و كان بها قبل ذلك فى عهد الشريف الحسين بن على ملك الحجاز الأسبق رحمه الله تعالى نحو عشرين تلفونا لدى كبار رجال حكومته، و اليوم تعد التلغونات بمكة بالآلاف / ١٣٥٠
- هذه بعض الأمور التى ظهرت بمكة المكرمة و بجميع المملكة على حسب ما تذكرناها، و هناك أمور أخرى لم تذكرها الآن و هى لا تخفى على المطلع الفهيم.

تجارة قريش في الجاهلية و صدر الإسلام

كان أهل مكة و كلهم من أشرف العرب و قبائل قريش، يشتغلون بالتجارة و البيع و الشراء، و كانت لهم أسواق شهيرة معروفة في الجاهلية، يقيمونها في شهور السنة و ينتقلون من بعضها إلى بعض، فيحضر هذه الأسواق سائر العرب من قرب من مكة و من بعد عنها، فيقومون في هذه الأسواق بالبيع و الشراء و الأخذ و العطاء، و يتعارفون مع بعضهم و يتفاخرون فيما بينهم بشتى المفخر و المكارم. فيخطبون هنالك و يلقون القصائد و يتناشدون الأخبار، و ذلك في الجاهلية و الإسلام، و ما زالت مثل هذه الأسواق موجودة إلى اليوم في قرى بعض البلاد الإسلامية كمصر و العراق و اليمن و غيرها، فإنه تكون لهم في كل قرية سوق عام في كل أسبوع مرة واحدة في يوم خاص، كيوم السبت أو يوم الأحد أو يوم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤٠

الاثنين أو يوم الخميس، تكون في هذه الأسواق أنواع اللحوم و الطيور و الدجاج و البيض و بعض الأطعمة و الأقمشة مما يحتاجه أهل تلك الجهة.

و لقد ذكر الله تبارك و تعالى تجارة قريش في القرآن العظيم في سورة قريش حيث يقول عز شأنه: بسم الله الرحمن الرحيم لِيَلَا فِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ. فكانت لقريش في كل عام رحلتان، رحلة الشتاء و رحلة الصيف، يذهبون فيهما للتجارة و إحضار البضائع من بعض البلدان بالجمال عن طريق البر، فكانوا يذهبون في الشتاء إلى اليمن، و يذهبون في الصيف إلى الشام، فيأتون من تلك البلاد ما يحتاجونه من أنواع الأطعمة و الزيوت و أجناس الأقمشة و البضائع، التي ليست بالحجاز. قال العلماء: و أول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف، و كانوا يقسمون ربحهم بين الغنى و الفقير، حتى كان فقيرهم كغنيهم في أخذ الربح، و اتبع هاشم على ذلك إخوته، فكان هاشم يؤالف إلى الشام و عبد شمس إلى الحبشة، و المطلب إلى اليمن، و نوفل إلى فارس، و كانت تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار تجاه هؤلاء الإخوة، أي بعهدهم التي أخذوها بالأمان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحي. هذا ما جاء في حاشية الجمل على تفسير الجلالين.

و لا يخفى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ذهب إلى الشام مرتين للتجارة، مرة ذهب مع عمه أبي طالب و كان سنة إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، و المرة الثانية ذهب صلى الله عليه و سلم للتجارة أيضا في مال أم المؤمنين خديجة بنت خويلد الأسدية رضى الله تعالى عنها، حيث انتدبته لذلك و أرسلت معه غلامها ميسرة و كان سنة الشريف حينئذ خمسا و عشرين سنة، فرجع صلى الله عليه و سلم من الشام و قد ربح ربحا عظيما في هذه التجارة الميمونة، فلما رأت خديجة رضى الله تعالى عنها بركته الظاهرة و أمانته العظيمة و سيرته العطرة أرسلت إليه تخطبه لنفسها فتزوجها عليه الصلاة و السلام فكانت أول زوجاته الكريمات.

كما لا يخفى أن غزوة بدر الكبرى التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة، كان سببها رجوع غير قريش التي تحمل البضائع العظيمة من الشام قاصدة مكة المشرفة، فكان من أمر هذه الغزوة ما كان. هكذا كانت التجارة لقريش في مكة المكرمة في الجاهلية و في صدر الإسلام.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤١

ثم بمرور الزمان و القرون و الأعوام و السنون تغيرت الأحوال و كثر سكان مكة المكرمة و اتسعت رقعتها، و تقدم العالم في أقطار الأرض في المدينة و العمران، فاتسعت أعمال التجارة بمكة المشرفة و غيرها، فصارت البضائع و الخيرات ترد إليها من جميع الجهات و الأقطار كما قد ذكرناها و فصلناها هنا في هذه المباحث الفريدة فسبحان الخلاق العظيم الذي يدبر أمر السماوات و الأرض و إليه يرجع الأمر كله، لا إله إلا هو العزيز الغفار.

إشارة

إن الله تبارك و تعالی جعل بلده الأمين "مكة المكرمة" تحيط بها الجبال من كل جانب إلى مسافات بعيدة من الكيلو مترات، و جعل بيته الحرام "الكعبة المعظمة" في وسط هذه الجبال، و جعل أرض مكة و تربتها صخرية حجرية رملية لا تصلح للنبات و الزروع، و جعل فيها المياه قليلة على قدر الاستعمال من الأمطار و الآبار المحفورة، كما جعل سكانها قليلا بالنسبة إلى البلدان في الممالك الأخرى، و جعلهم في العصور الأولى من جنس العرب من قريش، ثم جعلهم بعد ظهور الإسلام و انتشاره في ربوع الأرض من مختلف البلاد الإسلامية، كل ذلك لحكمة دقيقة لا يعلمها إلا هو العزيز الحكيم.

من هنا نعلم أن مكة المشرفة ليست موطن الصناعات و الاختراعات، و إنما هي موطن الإيمان و الإسلام و العبادات، يأتي إليها الحجيج آلافا مؤلفة في كل عام إلى قيام الساعة، و الله تعالى يرزق أهل مكة و من يأتي إليها رزقا واسعا عظيما من الحبوب و الثمار و الخضار و الأزهار، كما يرزقهم من إنتاجات الصناعات التي تأتي إليها من جميع الممالك الإسلامية و الأوروبية، فتأتيها بواسطة التجار: الأقمشة بأنواعها القطنية و الحريرية، و تأتي إليها أنواع الحبوب و الخضروات و أنواع الثمار و الفواكه، و أنواع الحلويات و السكريات، و أنواع المعلبات المأكولة. و تأتي إليها مختلف الأواني و القدور و الصحون و ما يتبع ذلك من أدوات الأكل و المطابخ، و تأتي إليها أنواع الماكينات الكهربائية بمختلف أجناسها، و السيارات الفاخرة بمختلف أنواعها، و تأتي إليها المفارش و الكراسي و السرر، و الدواليب و أدوات الزينات الممتازة، إلى غير ذلك مما يتعب الإنسان في عده، الحاصل أن مكة المكرمة قد رزقها الله تبارك و تعالی بأنواع النعم و الترف و البليغ من الكماليات

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤٢

و الضروريات، من حيث لا يتعب أهلها في الإنتاج و التصنيع، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان بفضل الله تعالى و رحمته، نسأل الله تعالى أن يزيدنا من نعمه و يوفقنا لشكره.

لكن من سنة الله عز و جل في هذا الكون، أن الحياة فيه تتطور في كل عصر و زمان بين آونة و أخرى، فكان من ذلك أن تطورت مكة المكرمة في حياتها أيضا في آخر الزمان الذي نحن فيه، فحدث فيها بعض الصناعات التي لم تكن من قبل، فهي و ان كانت قليلة بنسبة جزء من ألف من الصناعات الموجودة في الخارج، إلا أنها تسمى تطورا صناعيا، فنحن طلبنا من صديقنا الفاضل الشيخ محمد أحمد البوقري رئيس الغرفة التجارية، و هو من أفاضل تجار مكة القدماء، أن يكتب هنا نبذة عن تطور الصناعة بمكة المشرفة، فكتب لنا ما يأتي إلى آخر كلامه عن الغرفة التجارية، فنحن إذ نشكره على استجابته لطلبنا، نضع هنا نص ما كتبه و هو هذا:

الحياة الاقتصادية لمكة المكرمة

ليس من السهل التحدث عن حياة (مكة) الاقتصادية في أسطر أو في صفحات قلائل من هذا الكتاب لإعطاء القارئ فكرة شاملة عن تدرج الحياة الاقتصادية بها عبر آجال سابقة صاغت الحاضر البهيج و هيأت لمستقبل زاخر بأجمل الآمال و هو ما يحتاج منا إلى وضع أسفار ترتكز في بحوثها إلى ما يستخلص من بواطن التأريخ القديم و الحديث و لكن كل ما نستطيع الكشف عنه في كتابنا هذا إنما هو موضوع في عبارات نرجو أن تكون شاملة في معناها للعشرين عاما الأخيرة.

كانت مواسم الحج لجميع سكان أم القرى و ما جاورها هي مصدر رزقهم الوحيد و أوان حصادهم الذي هياهم لهم المولى عز و جل ليكون مؤنة عام كامل لموسم قادم من كل سنة. لقد كان لكل فرد من سكانها حيلته التي يسره الله لها في الحياة يحدوه أمل لم يخب

قط مصداقا لقوله تعالى: لِيَلْبِغَ قُرَيْشٌ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفِ صَدَقِ اللَّهِ الْعَظِيمِ. و كان الناس ينقسمون إلى حرف مختلفة يتوارثها الأبناء عن الآباء لسنين طويلة خلت يقضون أيامهم و شهورهم في التهيء

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤٣

و الاستعداد و قد تعلق آمالهم بما ستشرق به الشمس كل صباح من أيام موسم الحج المنتظر ليفوزوا بما قسم الله لهم من رزق و كانوا هم به قانعون.

كان منهم المطوف الذي كرس حياته لخدمة الحاج و إرشاده إلى نسكه من يوم وصوله إلى يوم رحيله، و منهم التاجر الذي عمل في الاستيراد من خارج البلاد لما يستهلكه المواطن لضروريات حياته و ما يأخذه الحاج كهدايا اغترابه لأهله و ولده بالوطن و هناك من احترف صناعة جمه تميزت بفتنها الجميل و اختصت بها هذه البلده الطاهره، و نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر صناعة المسابح اليسر و أخشاب الصندل و الزيتون و عظم الحوت في أشكال لا تجيدها إلا تلك الأيدي التي تخصصت في خرطها و زخرفتها بالفضه و المعدن، و كانت هناك دباغه الجلود و صناعتها في أحذية و محافظ و أحزمه يتسابق الحجاج على اقتنائها لما فيها من حسن صنع و إبداع فن و كانت هناك صناعة السرج و الأرسنه لمختلف دواب الركوب يتغالون في إخراجها، حتى كان منها ما يطعم بالفضه الخالصه و المموهه بماء الذهب و كانت هناك صناعة الهودج (الشقادف) المخروطة القوائم (الملككه) و المضفره بخيوط الخيزران، و غير ذلك من صناعات تعتبر حقا من الفنون الجميله و قد انقرضت أو تلاشت، و لم يبق منها غير ذكرى تمر باسمه إذا ما نظر إلى الأسباب و العوامل الكثيره التي غيرت وجه الحياه الاقتصادية لمكة المكرمه كما شاء لها الله عز و جل.

كان المسلمون في كافه بقاع الأرض يتمتعون بحياه رغيده و نظم سهله تكفل لهم حرية العباده و حرية التصرف بممتلكاتهم و حرية الانتقال في أسفارهم لأداء فريضة الحج، و في سياحتهم للتزود بالمعرفه، و كانوا يفتدون إلى هذه البلاد المقدسه و قد حملوا وافر المال لتمتعهم بالحج و البذل بسخاء دون قيود مفروضه أو عراقيل مصطنعه و لكن لأمر قدره الله قد تبدل حال تلك البلاد إلى خوف بعد أمن، و جزع بعد اطمئنان، و سلب للأموال و الحقوق و الحريات، و سخر الناس كآلات صماء تؤمر فطبيع، و مما يؤسف له أن كثيرا من البلاد الإسلاميه قد ابتليت بهذا الداء إلى درجه التلاعب في العقائد، حتى لم يعد أحد من المسلمين بقادر على التمتع بحريه القدوم لأداء فريضة الحج أو العمرة، و حتى من يسمح له بالقدوم يعطى له الإذن بمال لا يكاد يكفيه لقوته الضرورى في أيام اغترابه، فشحت أيدي الحجاج رغم إرادتهم مما أثر أسوأ الأثر على حياه مكة الاقتصادية، الأمر الذي

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤٤

أدى بالكثيرين من سكانها إلى سلوك طرائق أخرى من العمل غير الذي توارثوه، و أذهب عنهم الله جلت قدرته ما تصوروه من جزع و شدة بما صادفوه من نجاح أغناهم عن الاعتماد على مواسم الحج المجدبه. و يتابع المولى نعمه على سكان هذا البلد الأمين إذ أفاء جل جلاله من فضله على الدوله برزق وافر من ثروات الأرض لم تبخل به الدوله على تحسين حال الشعب عامه لتطوير حياته ففتحت المدارس و المعاهد المجانيه لأبناء الشعب في شتى مراحل العلم و صنوفه حتى لم يخل طريق في أرجاء مكة من مدرسه ثم وضعت المشاريع العمرانيه محل التنفيذ، و منها عمارة المسجد الحرام و افتتاح الطرق و تعبيدها و تخطيط المدينه و تغييرها من نظامها القديم إلى مدينه حديثه مما أوجد مجالات كثيره للأعمال و الكسب الحلال، و تفتح الوعى و ساير ركب الحضاره و خلقت صناعات و حرف شملت جميع مرافق الحياه، حتى صار الناس يرون جديدا يبشر بخير في مطلع كل صباح.

و يحق لنا أن نفخر ببعض أبناء مكة المكرمه الذين كرسوا أنفسهم للعمل الجاد و شيدوا المصانع و أنتجوا سلعا ضاهت ما كان يستورد، إن لم يفقه جوده و هو ما يوفر أموالا كانت تذهب إلى خارجها، بل و أوجد مجالا للعمل الثابت للطبقه العامله التي كانت تتعطل أكثر شهور السنه انتظارا لموسم الحج، و لا يفوتنا أن نخص بالذكر أهم هذه المصانع و التي استحققت أن يطلق عليها هذا الاسم

المشرف في سجل الخلود.

مصانع الحجاز للصاج

أقام هذه المصانع المواطن المكي الشيخ حسين محمد سعيد جستني في عام ١٣٧٣ هـ بمنطقة جرو، وقد جهزت بأحدث المكنات الضخمة المختلفة الاختصاص والمزايا وعمل الرجل بهمة لا تعرف الملل على تطوير مصانعه وزيادة اختصاصها، حتى شمل الإنتاج أشكال وأنواع لا تحصى من الخزائن والمكاتب والكراسي وخزائن المطابخ والطاولات والثلاجات والشنط وسرر النوم وخلافها من أثاث مما يصنع من الحديد بالإضافة إلى الأدوات المنزلية المصنوعة من الألمنيوم في أشكال وألوان جذابة، جميعها يغني عن استيراد مثلها من البلاد الأجنبية.

وكان الشيخ حسن جستني يعمل بالتجارة ثم اختير للعمل بالإدارات المالية بالدولة لفترة من الزمن، ثم آثر حياة الكفاح في المجال الصناعي حيث رأى أنه أقدر على

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤٥

خدمته ووطنه أجل خدمته مما لو بقي موظفا، رغم ما كان يتمتع به من مركز كبير مرموق.

مصنع البوقري للبلاستيك

أقام هذا المصنع الشاب المكي محمد أحمد بوقري في عام ١٣٨٢ هـ بمنطقة الشهداء بأحدث الآلات المستعملة في هذه الصناعة، وكانت إقامة هذا المصنع مفاجأة قوبلت بالكثير من الشك في القدرة على البقاء أمام تيار الاستيراد من البلاد المجاورة، ولكن عزيمة الشباب والرغبة في التضحية لبناء حياة أفضل، كانت الدعائم الصحيحة التي مكنت هذا المصنع الضخم من الوقوف حتى صار خطرا على تسويق ما يستورد من أصناف في مجال إنتاجه الواسع الذي شمل المسابح والأدوات المنزلية وأدوات الكهرباء وعلب الحلوى وأدوات المدارس والأدوات والحليات البنائية وقطع الأثاث، وغير ذلك كثير في كميات أغرقت الأسواق بأسعارها الزهيدة، وكان الشاب محمد أحمد بوقري لفترة من حياته مديرا بالمحلات التجارية لعائلته المعروفة باسم عمر على بوقري وإخوانه وعكف على دراسة صناعة اللدائن دراسة علمية، ثم اغترب إلى إنجلترا حيث التحق بمصانعها كعامل بأجر يومي لعدة أشهر عاد بعدها ليقوم بمصنعه. رغم ما صادف هؤلاء الرواد في مجال الصناعة من متاعب وصعاب إلا أنهم صمدوا أمام العواصف والأنواء في عناد وتصميم أكسبهم احترام المواطنين وغير المواطنين، كيف لا وقد فتحوا الطريق أمام أبناء مكة المكرمة للبذل والتضحية في سبيل الوطن ولا شك أن هناك كثيرون سيكشف عنهم المستقبل الصناعي بالاسم.

صناعات أخرى

إن تطور الحياة والأخذ بالوسائل الحديثة قد أوجد الكثير من الحرف فالتوسع العمران واتباع التصميمات الحديثة في البناء وتخطيط المدن الذي شمل مكة المكرمة بأثرها قد خلق حرفا جديدة لم تكن معروفة و طور أخرى إلى ما يتناسب والحالة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤٦

الراهنه و نذكر من ذلك هندسة البناء والنجارة والحدادة والبياض والسباكة والتمديدات الكهربائية والتلوين والزخرفة، و

باستخدام الآلة في كل هذه الحرف و وسائل النقل المتطورة ظهرت بتوسع حرف متعددة منها خراطة المعادن و سبكها و ما يتبع ذلك من حرف بسيطة الشكل و كثيرة الفائدة.

الغرفة التجارية

لا شك أن اتساع الحركة التجارية و ارتباطها بالدول الأجنبية المصدره أوجب إيجاد الوسائل التي من شأنها تنمية العلاقات الاقتصادية بمكة المكرمة و توعية المستوردين بما يتطلبونه من معلومات و أنظمة سائدة في الدول المصدره و إيجاد المصادر اللائقة للسلع اللازمة و هكذا فقد قدرت الدولة ضرورة إيجاد هذا الجهاز الاقتصادي الشعبي، و أعطته صفته و كيانه، و أصدرت ترخيصا بإنشاء الغرفة التجارية الصناعية بمكة المكرمة في عام ١٣٦٨ هـ، و قد وضعت النظم الإدارية الداخلية و صلاحيات الغرفة و جهازها بما يكفل لها أداء مهمتها في خدمة العاملين في المجال الاقتصادي، أسوة بما هو معمول به و ما تتمتع به الغرف التجارية في الدول المتطورة، بل حرصت الدولة على مد العون المادي الدائم كقاعدة سنوية لتمكين الغرفة من تقوية جهازها و هو ما يقابل بالكثير من التقدير للمسؤولين في حكومة جلاله الملك المعظم. و بكتابتنا هذه النبذة المختصرة عن الغرفة التجارية بمكة المكرمة، نرى لزاما علينا أن نذكر الشيخ حسين محمد سعيد جستنيه لما له من فضل السعي لدى السلطات حتى أدى الأمر إلى إنشاء الغرفة و هو الرجل الذي لم يترك سبيلا من سبل العمل البناء دون أن يطرقه لخير مواطنيه.

إلى هنا انتهى ما كتبه الشيخ محمد أحمد بوقري، أكثر الله تعالى من أمثاله الفضلاء العاملين، و هو نبذة لطيفة كافية بالغرض.

الحرف و الصناعات بمكة المكرمة

إن الأجانب في خارج مملكتنا و بالأخص في بلاد الإفرنج، يعتقدون أن الحرمين الشريفين بلدة "مكة المكرمة" و بلدة "المدينة المنورة" واقعتان في صحراء مفرقة، ليس فيهما من أسباب المعيشة الهنيئة، و من وسائل المدنية الحديثة شيء يذكر، و ليس فيهما من مباحج الحياة شيء يسر الإنسان، إنهم يعتقدون هذا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤٧

لأنهم بعيدون عنا غير مختلطين بنا، و ليس لديهم من الصحفيين المختصين للكتابة في مثل هذا الأمر على الدوام، فإذا كتب أحدهم في جرائدهم و مجلاتهم باللغة الانكليزية، أو باللغة الفرنسية، أو باللغة الأمريكية، أو باللغة الإيطالية، أو باللغة الألمانية، أو غيرها، إذا كتب أحدهم عن بلدنا شيئا، فإنما يكتب نبذة قصيرة في كل بضع سنوات مرة واحدة، و هذا كما لا يخفى على العاقل المثقف لا يكفي للإحاطة بأحوال الأمم الأخرى البعيدة عنهم.

لذلك فقد كتبنا في تاريخنا هذا بعض أحوالنا و صناعاتنا، ثم خطر في بالنا أن نستعين بصدقنا الكريم سعادة الأستاذ عبد الله عريف، لأنه حفظه الله تعالى، هو شيخ الصحافة و الأدب، و أنه أيضا هو رئيس أمانة العاصمة، أي "رئيس بلدية مكة المكرمة" فهو إذا أدرى بمثل هذه الأمور، فكتبنا لسعادته بريقة "تلغرافا" نطلب منه إفادتنا عن الحرف و الصناعات الموجودة بمكة المكرمة- فبادر سعادته

مشكورا بإجابة طلبنا و أرسل لنا الجواب الآتي المؤرخ في العاشر من شهر صفر سنة (١٣٨٥) هجرية و برقم ٨٢٢/خ و هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيلة الشيخ محمد طاهر كردى المحترم

بعد التحية، أرجو لكم دوام الصحة و العافية

إشارة لبرقيتكم المؤرخة ١٣٨٥ / ٢ / ١ ه بشأن طلبكم بيان أسماء الحرف و مشائخها، نبعث إليكم طيه البيان الوارد إلينا من إدارة مراقبة الأسواق رفق خطابها رقم ٦٠ و تاريخ ١٣٨٥ / ٢ / ٨ ه و الموضح فيه كافة أسماء الحرف مع أسماء مشايخها. فأرجو الاطلاع و الإحاطة. و تقبلوا تحياتي.

أمين العاصمة عبد الله عريف

و إليك البيان المشار إليه بنصه و ترتيبه:

عدد/ اسم الطائفة/ اسم شيخها ١/ السماسرة و دلالي السيارات/ سعود عاشور

٢/ الحدادين/ محمد كدوان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤٨

٣/ عربات الكارو/ سراج يحيى دواس

٤/ دلالي الحراجات/ داود وصفي

٥/ الساعاتية/ أحمد صالح فقيها

٦/ الحلاقون/ محمد علي بن حسن

٧/ البنشر و البطاريات/ السيد هاشم علوانى

٨/ المنقلين/ مكى طاشكندى

٩/ السبحية/ خليل حسن رفيع

١٠/ الحباية/ عبد الله برديسى

١١/ الجوهرجية/ محمد علي فارسى

١٢/ الوزانة/ صدقة أمين وزان

١٣/ ناقش الأختام/ على أحمد الباز

١٤/ المهندسين/ أحمد عبد الله أبو رويس

١٥/ القهوجية/ السيد على حسن معتوق

١٦/ الخياطين/ محمد تاج جلال

١٧/ دلالي العقار/ جميل بغدادى

١٨/ العقلجية/ صالح عبد الرحمن أبو الريش

١٩/ الخضريه و الفكهانية/ سليمان غباشى

٢٠/ اللبانه/ علاء الدين أبو النجا

٢١/ الأجور و الطوب/ بدوى عساس

٢٢/ النجارة/ أحمد نحاس

٢٣/ السائقين/ حامد محمد خوجه

٢٤/ الطهاة و أتباعهم/ حسين عشى

٢٥/ الغسالين/ عبده قاسم

٢٦/ السمانه/ حسين شايب

٢٧/ السقطية/ على حسن رواس

٢٨/ العطاره و البقاله/ على مصلح صبغه

٢٩/ جزاره الفدو/ على حسين البشى

٣٠/ البنائين/ عبد القادر وزيره

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٤٩

٣١/ دلالى الأغنام و البقر/ سعد محمد ربيقان

٣٢/ النحاسين/ عبد الوهاب مؤمنه

٣٣/ الجزائريين/ على درويش زيدان

٣٤/ الفخرانيه/ على شريف

٣٥/ الشبارى و عربات السعى/ سعيد الغامدى

٣٦/ الفرانه/ عبد الله كعكى

٣٧/ الصيارف/ حسن محمد ملطاني

٣٨/ مهندسى الراديو/ طاهر لنقا

٣٩/ الكحلجيه/ على بوصى

٤٠/ دلالى الحلقات/ حسن حكى

٤١/ القطانه/ عبد الحميد قطان

٤٢/ السماكره/ سينتخب لهم شيخ

هذه هي البيانات التي وردت إلينا من أمانة العاصمة بمكة المكرمة، و يلاحظ فيها عدم وجود بعض الحرف كبائعى الكتب و المطبوعات و بائعى الصحف و المجلات، و بائعى أدوات الكتابة من الحبر و الورق و الأقلام، و بائعى الخردوات اللطيفة اللازمة للنساء و غيرهن، و بائعى الأدوات المنزلية و الكماليات من السرر و الكنبات و المكاوى و الثلاجات الكهربائية، و بائعى الأدوات الكهربائية، و بائعى أدوات التليفونات و السيارات و مكائن المياه و غيرها، و كبائعى الأقمشة بأنواعها العادية و الممتازة من القطن و الحرير و الصوف، و كبائعى البطانيات و أنواع الصوف و الملابس، و كبائعى أنواع مكائن البوتوكاز و أدواتها و كمحترفى إصلاح كل هذه الأشياء و غيرها و توجد بمكة طائفة الصاغة يصنعون من الذهب و الفضة أنواع الحلى من الخواتم و الأسورة، و العقود التي توضع فى جيد النساء و يصنعون جميع أنواع الزينة بالذهب و الفضة و يزينونها بمختلف أنواع الفصوص و الأحجار الكريمة، من اللؤلؤ و المرجان و العقيق و الياقوت و غيرها.

و هناك كثير من بائعى الحلويات البلدية و الخارجية و بائعى أدوات النجارة و الأقفال و المسامير و الأسلاك و بائعى أدوات الحمامات و بائعى الموبليات و المرايات و البزاييز، و بائعى الملابس الجاهزة و بائعى الصحون الصينى، و الكاسات

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥٠

و البلورات، و بائعى المكسرات من الحمص و اللوز و الجوز و عين الجمل، و الصنوبر و الزبيب و غيرها، و بائعى أنواع المفارش و السجاجيد الجميلة و غيرها، و بائعى الألعاب للأطفال، و بائعى الإسمنت و الحديد و المواسير و أدوات العمارة و البناء، إلى غير ذلك مما يطول شرحه و بيانه، و هناك كراجات للسيارات و ورشات لإصلاحها و إصلاح الآلات الكهربائية و ورشات للحام الأكسوجين و نحوه، إلى غير ذلك مما يطول شرحه و بيان.

كما عندنا مستشفيات و أطباء كثيرون و صيدليات و أجزاء لبيع الأدوية منتشرة فى طول البلاد و عرضها، و عندنا وزارة تجارة تنظر فى شؤون التجار و أحوال التجارة، و عندنا وزارة الصحة تنظر فى أحوال الأمة الكريمة من الناحية الصحية، و عندنا وزارة الزراعة

تنظر في شؤون الزراعة، إلى غير ذلك من الوزارات المختلفة كل وزارة تنظر في أمور اختصاصها. الحاصل أنه يوجد في مكة المكرمة و المدينة المنورة و كل بلدان مملكتنا السعودية جميع الكماليات و مباحج الحياة، إن الحياة في الحرمين الشريفين تسر الناظرين و يرتاح إليها جميع الموسرين، سواء من الناحية الدينية لمن أراد الآخرة، أو سواء من الناحية الدنيوية لمن أراد التمتع بقدر سعة رزقه، أو من الناحيتين لمن وفقه الله تعالى كما قال الشاعر: (ما أحسن الدين و الدنيا إذا اجتمعا). فالحمد لله الذى جعل (مكة و المدينة) من أفضل أفضل البلدان و أشرف البلدان من الناحية الدينية و من أحسن البلدان و أكمل البلدان من الناحية الدنيوية، فبلد الله تعالى و بلد رسوله الكريم، و بلد القدس هى من خير بقاع الأرض، فالحمد لله رب العالمين.

صناعة النجارة الفنية بمكة

كان أهل مكة يعرفون فى صناعة النجارة الفنية معرفة تامة، فكانوا بأنفسهم يعملون سقوف المنازل و القصور و يزخرفونها زخرفة عجيبة، و كانوا يصنعون لها الأبواب و الشبائيك العجيبة الصنع، كل دار بما يليق بها و ما يناسبها بحسب المصاريف و النفقات قلة و كثرة، أى على قدر ما يرغب صاحبها من جمال الشكل و حسن المنظر، و لهم فى صنع الطيق، بكسر الطاء المهملة و فتح الياء المثناة، جمع طاقة، و هى الشباك، بتشديد الباء الموحدة، مهارة عجيبة لم نجد من يماثلهم فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥١

الخارج، و لقد كانوا يصنعون الشبائيك الداخلية للمنازل الكبيرة بشكل يدعو إلى الإعجاب، بقوة و استمساك و ينقشون بواطن السقوف و الدواوين بنقوش بديعة، و أحيانا ينقشون بعض الآيات الكريمة حول السقوف من الداخل، أو بعض القصائد و الحكم، و يعملون من الرواشين المطللة على الشوارع العامة ما يدهش الناظر و يسلب له، و ما زالت بعض المنازل و القصور القديمة ناطقة بمهارتهم و شاهدة على تفوقهم فى الفنون، و لكن مع الأسف لم يبق من أولئك الرجال من يعرف ذلك، و لم يبق من المنازل المصنوعة بالوصف المذكور شىء، لأنها هدمت فى التوسعة السعودية التى حصلت سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، ثم فى وقتنا هذا أى من بعد السنة المذكورة و فد على مكة المكرمة كثير من النجارين و من مختلف الصناعات من مصر و الشام و غيرها.

انظر: صورة رقم ٢٩، شباك زخرفى مفرغ من صنع النجارين بمكة المكرمة

صناعة التنجيد بمكة

صناعة تنجيد القطن معروفة بمكة المشرفة من قديم الزمان، و يأتى إليها القطن من الخارج، من مصر و الهند و اليمن و غيرها، فيحشونه بعد تنظيفه و تنجيده فى الطرايح و هى جمع طراحة، بضم الطاء المهملة و تشديد الراء المفتوحة، و تسمى بمصر المرتبة التى ينام فوقها، كما يحشونه فى المخدات و اللحافات و غيرها، و فى السنوات الأخيرة أى من سنة (١٣٨٠) ألف و ثلاثمائة و ثمانين هجرية أحضروا إلى مكة بعض الماكينات الكهربائية للتنجيد، فصاروا يشتغلون بها فى تنظيف القطن و تنجيده و إصلاحه.

أما حشو المساند و الأرائك و الطواويل فيحشونها بالطرف بكسر فسكون، و هو حبوب صغيرة كحبوب الكسلسوه أو البرغل، لكنه خفيف جدا كالقطن يتطاير من النفخ و الهواء، و يخرج من بعض أشجار الحجاز و هو كثير بها، و لم نجد مثله فى الخارج و استعمال الطرف فى الحشو أمر شائع عندنا لكنه خاص بحشو المساند و الطواويل و هى جمع طواله، بضم الطاء المهملة و تشديد الواو المفتوحة، و هى تشبه الطراحة و المرتبة سواء بسواء، غير أن الطواله لا تحشى بالقطن فسبحان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥٢

من جعل لكل بلدة ميزة خاصة و لبلده الأيمن ميزات كثيرة بها تمتاز عن جميع البلدان- أدام الله تعالى عليها النعم، و أدام أمنها و أمانها و خيرها و رخاءها آمين.

صناعة الحصر و الزنايل و المراوح الخوص بمكة

إن صناعة الحصر و يسمى عندنا "الخصف" بفتح أوله و ثانيه، و صناعة المراوح الخوص و كذلك صناعة الزنايل الصغيرة و الكبيرة بأنواعها هي صناعة موجودة بمكة المشرفة من قديم الأزمان يستغلها أهل السودان (التكارنة) المولدون بمكة المكرمة من خوص النخل و كذلك يشتغلها النخاولة بالمدينة المنورة و أحسن أنواع جميع الحصر ما يصنعه أهل قرية الأبواء التي فيها قبر آمنه بنت و هب أم رسول الله صلى الله عليه و سلم و هذه القرية واقعة في منتصف طريق مكة و المدينة، إنهم يعملون أطرف أنواع الحصر و أرقها و أقواها، و لو وجدوا تشجيعا و عناية لتقدموا في صناعتها في مدة يسيرة.

فحبذا لو أن وزارة الحج و الأوقاف أخذت منهم كمية وافرة من الحصر، لفرشها في المساجد الكثيرة لديها، لأن الحصر المعمول بالأبواء أجمل و أحسن و أقوى من حصر التكارنة و من حصر الخارج، فحبذا لو عملت الوزارة باقتراحنا هذا، فإنها بذلك تحسن صنعا للصناعة الوطنية، و تدفعها إلى التقدم و حسن الإنتاج.

صناعة الشراب أي القل

الشراب، بكسر الشين المعجمة، جمع شربة بالفتح و يسمونها بمصر القلة بالضم، و هي إناء من الطين في حجم البطيخة يضعون فيها الماء ليبرد، إن صناعتها بمكة من قديم الأزمان تصنع من ترابها، و تصنع في أحجام مختلفة منها الصغير و الكبير و المتوسط، و كانوا إلى سنة (١٣٦٠) ألف و ثلاثمائة و ستين هجرية يعتنون بصنعها و صنع الأزيار الصغيرة أيضا، فيزخرفونها و يجعلونها في شكل جميل بديع، كما كانوا يصنعون الأزيار الكبار أيضا، و كان كل ذلك يعرض في الدكاكين بكثرة وافرة، و كذلك أباريق الوضوء من الطين، و لكن قلت عنايتهم بصنع ذلك بعد السنة المذكورة شيئا فشيئا، بسبب وجود مصانع الثلج و آلات التبريد.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥٣

و أن أحسن أنواع الشراب، شراب المدينة المنورة لأنها تبرد الماء سريعا، و أن لونها بيضاء جميلة، فتراب المدينة أحسن و أقوى من تراب مكة.

أدام الله تعالى خيرهما و رخاءهما.

صناعة الحلاوة الطحينية بمكة

الحلاوة الطحينية لذيذة جدا و هي في نفس الوقت كالطعام تؤكل بالخبز، و هي تعمل من السكر و الطحينية و هي السمسم المطحون، و الحلاوة الطحينية، كانت تعمل بمكة المكرمة من قديم الأزمان، و لها طابع خاص و هو كونها سمراء يتخللها خيوط السكر كالشعر، و يعملها الهنود المولدون بمكة و يتقنونها جدا، و أهل مكة يحبونها كثيرا، و بعضهم لا بد له أن يأكل منها كل ليلة بعد العشاء بعد خلطها بحلاوة الهريسة، و هذا الخليط لذيذ قوى جدا، أما الحلاوة الطحينية البيضاء فهي تأتي من الخارج في صفائح من مصر و الشام

فبعضهم يحب البيضاء و بعضهم يحب السمراء، و فى الأمثال: و للناس فيما يعشقون مذاهب.

استخراج زيت السمسم بمكة

و توجد بمكة طاحونة أو طاحونتان لاستخراج الزيت من السمسم، فمنذ قديم الأزمان إلى اليوم يستخرجون الزيت من السمسم، و ما يخرج من السمسم المعصور يباع فيكون طعاما دسما قويا لبعض الحيوانات كالبقر و الغنم مع العلم أن زيت السمسم و غيره من أنواع الزيوت يأتيان من الخارج أيضا فى صفائح من التنك، كما يأتيان أيضا من الخارج السمسم المعصور و نظن يسمونه "الكسب"، بضم فسكون و فى آخره باء موحدة، و يباع طعاما للغنم و البقر.

طحن الحبوب بالرحى بمكة

طحن الحبوب من الحنطة و الذرة و الدخن و الحمص و نحوها بالرحى بمكة، من الأمور القديمة من أيام عرب الجاهلية، فلقد كان الناس من قديم العصور يقتنون فى بيوتهم رحى لطحن بها زوجاتهم الحبوب و يعملون من دقيقها الخبز، و الرحى عبارة عن حجرين كبيرين مستديرين يوضع أحدهما فوق الثانى ثم يدار الحجر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥٤

الأول عند الطحن، و كانت ابنة رسول الله صلى الله عليه و سلم فاطمة رضى الله تعالى عنها، تطحن بيدها على الرحى جبهها. فالرحى كانت موجودة فى كثير من بيوت مكة من قديم العصور إلى عام (١٣٤٠) ألف و ثلاثمائة و أربعين هجرية، ثم قل استعمالها شيئا فشيئا فى المنازل، حتى لم يكن لها وجود فى وقتنا الحاضر فى البيوت، اللهم إلا القليل جدا مما يوجد عند البعض، و سبب ذلك هو اختراع ماكينات الطحن الكهربائية التى تطحن كميات عظيمة من الحبوب فى زمن يسير، و لقد أدركنا ماكينه واحدة للطحن كانوا يسمونها بمكة "بابور الطحين" و ذلك فى آخر عهد الدولة العثمانية التركية، و كانت بمحلة الفلق، و نظن أن صاحبها هو فهمى أفندى قرملى التركى، و كانت تدار بالماتور.

و لكن كان بمكة كثير من طواحين الحبوب بالرحى الكبيرة التى يديرها الحمير، و كانت فى كل محلة طاحونة يديرها الحمار، أما فى وقتنا الحاضر فلم يبق للطواحين وجود، اللهم إلا بضع طاحونات صغيرة تدار بالكهرباء و ذلك بسبب ورود الدقيق من الخارج بكميات كبيرة. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم ؛ ج ١-٢؛ ص ١٥٤

وجود الأفران لعمل الخبز بمكة

الأفران جمع فرن، بضم الفاء، و هو مكان لخبز أقراص العيش، لقد كانت الأفران بمكة كثيرة جدا، ففى كل محلة يوجد فرن أو فرنان، لأن جميع الناس كانوا يعجنون دقيقهم فى بيوتهم و يعملونه أقراصا متعددة، فيضعونها فوق لوح من الخشب، حتى إذا اختمرت و حان وقت خبزها، بعثوا بها مع أولادهم أو خدمهم إلى الفرن لتخبز، فتدحم ألواح العيش فى الفرن من الصباح إلى قرب المغرب، فجميع الناس لا- يأكلون إلا من خبز بيوتهم، و لا يشتري الخبز من السوق إلا النادر، و إلا من كان من طبقة العمال و الفقراء، و هذه الأفران كلها كانت توقد بالحطب الكثير.

ثم بمرور الزمن تطور الناس فى أعمالهم و معاشهم فيما جاءت سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، إلا- و قد

هدمت الأفران و ما جاورها من المنازل و البيوت و بنيت فى أماكنها العمارات الشاهقة و القصور الفخمة، فلم يبق بمكة إلا قليل من الأفران تعد على الأصابع، و هذه الأفران قد تطورت إلى أفران التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥٥

فنية توقد بالكاز بدلا من الحطب، و صار أقرص العيش فيها مخبوزة خبزا طيبا، فإنها مستوية لذيذة للغاية، فصار جميع طبقات الناس يشترى خبزهم من هذه الأفران الفنية، و بطلت عادة عمل أقرص العيش فى البيوت، فصار الغنى و الفقير و الأمير و الوزير يأكلون من خبز هذه الأفران الحديثة لطيبها و لذتها و نظافتها- مع العلم بأن بناء الأفران ليس من السهل، بل يحتاج إلى معرفة و خبرة، و كل ذلك كان من عمل أهل مكة المكرمة الكرام.

صناعة القدور و الأواني النحاسية بمكة

صناعة القدور و الأواني النحاسية قديمة العهد بمكة المكرمة مثل بقية البلدان و الممالك، و لا يعرف بمكة صناعة القدور و الأواني من الفخار و الطين، لأن لهذه الأواني طين خاص، و تراب مكة لا يصلح لمثل هذه الأشياء، أما فى مصر فيصنعون القدور و الأواني الفخارية الطينية صناعة ممتازة جدا إلى اليوم مع كثرة وجود الأواني النحاسية أيضا، و لذلك يصنعون فى بلاد اليمن القدور و الأواني الفخارية من الطين بل و يصنعون منه أدوات الشاى و القهوة و الفناجين، إنهم هناك يعملونها بكثرة زائدة إلى اليوم، و الحقيقة أن لذة الأكل و الطبخ فى القدور و الأواني الفخارية الطينية مع الحطب و الفحم، تفوق بكثير على لذة الأكل و الطبخ فى القدور النحاسية فوق دافور الكاز أو البوتوكاز، و لا زالت صناعة القدور و الأواني النحاسية و تبييضها موجودة إلى اليوم بمكة المكرمة بمختلف أحجامها و أنواعها.

أما القدور و الأواني و الملاعق من الألمنيوم المسمى عندنا بالحجاز التوتوه، فأول ما ظهر ذلك فى الدنيا منذ سنة (١٣٣٠) ألف و ثلاثمائة و ثلاثين هجرية، و ما زالت صناعتها تتقدم و تتزايد إلى اليوم حتى غزت الأسواق فى جميع البلدان و الممالك، و قد وردت بكثرة فائقة قدور الألمنيوم و أوانيها إلى الحجاز من بعد سنة (١٣٦٠) ألف و ثلاثمائة و ستين هجرية. و ما زالت الدكاكين مملوءة بها إلى يومنا هذا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥٦

تجار الساعات بمكة المكرمة

لم يكن موجودا بمكة المكرمة إلا أنواع قليلة من الساعات، و كان أشهرها و أغلاها و أضبطها ساعة الجيب المعروفة "بالراسكوف"، و كان لا ينقص ثمنها عن جنيه من الذهب، و ذلك من نحو خمسين سنة، ثم بدوران الزمن و تقدم الرقى و التمدن، تطور صناعة الساعات فظهر لها من الأشكال و الأنواع ما يدهش العقول و يجذب الأنظار، فوردت إلى مكة المكرمة جميع هذه الأنواع و الأشكال من الساعات، سواء ساعات الجيب أو ساعات اليد أو ساعات الحوائط و الجدران، و ذلك ابتداء من سنة (١٣٦٠) ألف و ثلاثمائة و ستين هجرية، فلقد غزت هذه الساعات جميع الأسواق المحلية و الخارجية، فبعد أن كان المستوردون لها بمكة المكرمة بضعة أشخاص، أصبح المستوردون لها اليوم عددا وفيرا.

و لا ننسى الدولة التركية العثمانية عندما كانت متوجة بغز الخلافة الإسلامية، ما كانت تستورده من بلاد سويسرا موطن مصانع الساعات، من ساعات الجيب الجميلة الدقيقة، و كانت تمتلئ من ظهرها بواسطة مفتاح منفصل عنها طوله نحو اثنين سنتي، و غلظه

كغلب عود الكبريت، و ما زال منها إلى اليوم بقايا في بلاد العراق.

هذا و إن بلاد سويسرا هي شهيرة بصنع أنواع الساعات كلها من قديم الزمن، كما أن بلاد ألمانيا شهيرة بصنع ساعات الحائط الكبيرة بغاية الجودة، كما أنه توجد مصانع الساعات في بلاد فرنسا و بلاد اليابان، و أن أجود الساعات لصغيرة اليدوية و الجيبية هي كما يأتي:

(١) ساعات أوميغا.

(٢) ساعات لونجين.

(٣) ساعات رولكس.

(٤) ساعات رومر.

(٥) ساعات زينيت.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥٧

هذا ما حضرنا من أسماء الساعات الراقية الجيدة، و هناك أصناف أخرى لا نتذكرها، و كل هذه الأصناف و غيرها من أنواع الساعات العجيبة موجودة بمكة المكرمة.

و هنا يجب أن نذكر ما يحضرنا من أشهر تجار الساعات بمكة المكرمة، و هم كما يأتي:

(١) الشيخ محمد صادق المجددي.

(٢) الشيخ محمد حبيب الجوهرجي.

(٣) الشيخ محمد بن معروف باجمال.

(٤) الشيخ محمود حسن غباشي.

(٥) الشيخ عبد الرحمن المدني.

(٦) السيد بكر تونسي.

(٧) الشيخ سعيد قطب.

(٨) الشيخ هاشم إبراهيم ناقدو.

(٩) الشيخ جميل خوقير (ياك محل).

(١٠) الشيخ عبد الرحمن بخشي و إخوانه.

(١١) الشيخ عبد الرحيم الساعاتي.

هذا ما خطر في بالنا من أسماء تجار الساعات المستوردين لها، و نرجو المعذرة ممن غاب عنا أسماءهم.

و هناك كثيرون ممن يحترفون إصلاح الساعات بجميع أنواعها الكبيرة و الصغيرة لا تحضرنا الآن أسماءهم.

هذا و بمناسبة الكلام على الساعات، نقترح على حكومتنا السعودية و فقها الله تعالى: أن توصي مصانع الساعات الكبيرة ساعات الحائط، أن تعمل مائة ساعة كبيرة دقاقتها، لوضعها في المسجد الحرام من الداخل و الخارج، و على الصفا و المروة، و على مسجد جبل أبي قبيس الذي في أعلاه، و على جبل الهندي، و في مداخل ميادين مكة، و في شوارعها الكبيرة، و في منى، و في غير ذلك من المحلات التي يكثر مرور الناس منها، كل ذلك ليعرف الناس الأوقات من هذه الساعات

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥٨

المطلقة عليهم، و لتكون هذه الساعات زينة للبلدة المقدسة، تظهر أمام الحجاج الكرام في كل موسم، و مائة ساعة ليست كثيرة على مكة المشرفة بعد أن اتسعت رقعتها، و كثرت شوارعها و ميادينها، فإن المسجد الحرام وحده يحتاج إلى ثلث هذا العدد في الطابق العلوي و الطابق الأرضي.

و الله الموفق للصواب.

الكتيبة بمكة المكرمة

يوجد كثير من دكاكين بيع الكتب الدينية و العربية و الكتب العصرية و الجرائد و المجلات من قديم الأزمان، و أغلب هذه الدكاكين كان حول المسجد الحرام و عند أبوابه، كباب السلام الكبير و باب السلام الصغير، و باب الزيادة و باب إبراهيم و باب العمرة و باب الدريية، ثم لما حصلت التوسعة في المسجد الحرام و الشوارع بمكة المكرمة، و هدمت المحلات و البيوت التي حول المسجد الحرام، انتقلت الدكاكين و المحلات القديمة إلى بعض الجهات بمكة المكرمة.

فما يوجد الآن بمكة المكرمة من دكاكين بيع الكتب المختلفة و في مقدمتها المصاحف الشريفة، ما يأتي في هذا الجدول:

عدد/ اسم المكتبة/ اسم صاحبها/ الجهة التي تقع فيها ١/ مكتبة المعارف/ للشيخ أحمد سعيد حلواني/ بالصف

٢/ مكتبة العرابي/ للشيخ عبد الله عرابي/ بالصف

٣/ المكتبة التجارية/ للشيخ نبيل مصطفى الباز/ بالصف

٤/ مكتبة دار التعاون/ للشيخ عباس أحمد الباز/ بالمروة

٥/ مكتبة ميرو/ للشيخ مصطفى ميرو و أولاده/ بالمروة

٦/ مكتبة الثقافة/ للشيخ صالح محمد جمال/ بسوق الليل

٧/ مكتبة النهضة الحديثة/ للشيخ عبد الشكور فدا/ بسوق الليل

٨/ مكتبة المرزا/ للشيخ عبد العزيز مرزا و أولاده/ بالمروة

٩/ المكتبة السلفية/ للشيخ صالح الباز و أولاده/ بالقشاشية

١٠/ مكتبة النهضة/ للشيخ علي الباز و أولاده/ بالصف

١١/ المكتبة العلمية/ للشيخ عبد الفتاح فدا و أولاده/ بباب السلام

١٢/ مكتبة التقدم العلمية/ للشيخ عبد الحميد فدا/ بالصف

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٥٩

هذا ما يوجد بمكة المشرفة من المكتبات التي تباع فيها المصاحف الشريفة و كتب التفسير و الحديث، و كتب اللغة و الأدب و الدواوين الشعرية، و كتب التاريخ و الفنون، و الكتب العصرية الحديثة، و كتب القصص و الحكايات و الروايات، و المجلات و الصحف المحلية و غيرها، و هناك مكتبات أخرى لم نتذكرها يباع فيها الأدوات الكتابية من الأقلام و الأوراق و الظروف و الحبر، و كل ما يستلزمه الكتابة، فلا يحتاج أحد إلى شيء إلا و وجدته. و أسماء المكتبات المذكورة كتبها لنا الشيخ عبد الشكور فدا.

منجر الأخشاب بمكة المكرمة

كان نشر الأخشاب بمكة المكرمة يكلف عناء عظيما و تعباً كبيراً للعمال الذين ينشرونها، علاوة على ما في نشرها بالأیدی من تكاليف باهظة، و من أخذ وقت طويل في إنجازها و إتمامها، و لقد كانوا ينشرون ألواح الأخشاب العريضة السميكة بكيفية عجيبة فريدة، و هي أنهم كانوا يضعون اللوح الثخين المتين فوق نحو سلمين على ارتفاع قامه فأكثر، ثم يطلع فوق اللوح رجل و يقف تحته على

الأرض رجل آخر، ثم يأتيان بمنشار كبير طوله نحو مترين، و قد جعلوا في طرفه الأول خشبا بالعرض و في طرفه الثاني كذلك، فيجر الأول المنشار على اللوح إلى أعلا، ثم يجر الثاني المنشار على اللوح إلى أسفل، و هكذا يستمر نشر اللوح حتى ينتهي قطعه، و كلما نشروا جزءا من اللوح وضعوا قطعة صغيرة من الخشب بوسط الشق ليسهل النشر و يسهل جر المنشار، و هذه القطعة تسمى عندهم بالخابور، و هلم جرا في نشر جميع الألواح الخشبية الكبيرة.

أما نشر الألواح الصغيرة و مسحها بالفارة و تقطيعها إلى أجزاء حسب الرغبة، فإن ذلك يكون بالمناشير الصغيرة بعمل نجار واحد فقط، و كل ذلك يستلزم التعب و المشقة و تكاليف زائدة كما يأخذ وقتا أكثر.

فلما انتعش الناس و ازداد العمران بمكة المشرفة في العهد السعودي، استحضر بعضهم منجرا لنشر الأخشاب و قطعها و مسحها بالكهرباء، و يسمى عندنا "بالمنجر" أو "بالورشة الكهربائية للنجارة"، و أول من أحضر منجرة بمكة المكرمة هو الشيخ أحمد نحاس رئيس طائفة النجارين، فلقد أحضرها إلى مكة المشرفة في سنة (١٣٥٨) هجرية، ثم بعده أحضر الناس كثيرا من المناجر الكهربائية لنشر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦٠

الأخشاب، حتى صار يوجد منها الآن بمكة المكرمة ثلاثون منجرة كهربائية، كما أخبرنا بذلك رئيس طائفة النجارين المذكور، و هي كما يأتي:

- (١) منجرة الشيخ أحمد نحاس.
- (٢) منجرة الشيخ محمد عبد الواحد.
- (٣) منجرة الشيخ صالح ناقور.
- (٤) منجرة الشيخ محمد طائفي.
- (٥) منجرة الشيخ صديق نجوم.
- (٦) منجرة الشيخ عربي مغربي.
- (٧) منجرة الشيخ شكري نجوم.
- (٨) منجرة الشيخ حسن وهبو.
- (٩) منجرة الشيخ حسن حموده.
- (١٠) منجرة الشيخ محمود موسى.
- (١١) منجرة الشيخ أحمد كسوره.
- (١٢) منجرة الشيخ صدقة و سراج كعكي.
- (١٣) منجرة الشيخ سليمان غباشي.
- (١٤) منجرة الشيخ أحمد رزق.
- (١٥) منجرة الشيخ عبد القادر صعذر.
- (١٦) منجرة الشيخ حجي عباسي البخاري.
- (١٧) منجرة الشيخ أحمد مكي.
- (١٨) منجرة الشيخ أحمد داغستاني.
- (١٩) منجرة الشيخ أحمد و محمد كعكي.
- (٢٠) منجرة الشيخ علي علوش.

(٢١) منجرة الشيخ أحمد مشيع الغامدى و شريكه أحمد بكرى.

(٢٢) منجرة الشيخ عايض الغامدى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦١

(٢٣) منجرة الشيخ سعد الغامدى.

(٢٤) منجرة الشيخ عمر خوقير.

(٢٥) منجرة الشيخ عباس رشوان.

(٢٦) منجرة الشيخ صالح كسار.

(٢٧) منجرة الشيخ محمد سعيد أخضر.

(٢٨) منجرة الشيخ سليمان كسار.

(٢٩) منجرة الشيخ سعيد عجب نور.

(٣٠) منجرة الشيخ عبد الله كعكى.

نقلنا هذه الأسماء كما جاءتنا من رئيس طائفة النجارين عندنا، بدون مراعاة للترتيب و الأسبقية لإحضار الورشة، نسأل الله تعالى التوفيق و السداد.

المصورتية بمكة المكرمة

لم يكن بمكة المشرفة فى سابق الأزمان أحد من المصورتية يأخذ صوراً فتوغرافية للناس، فلما جاءت الحكومة السعودية و تطورت الحياة عندنا و تقدمت الحرف و الصناعات، ظهرت بعض المصورتية بمكة المكرمة من سنة (١٣٥٠) ألف و ثلاثمائة و خمسين هجرية، لأخذ صور المسافرين إلى الخارج، و لأخذ صور الذين يطلبون التابعيات من أهل البلاد، و لأخذ صور الذين يطلبون عمل الإقامات من الأعراب، و لأخذ صور بعض الحفلات، مع العلم بأن أخذ صور النساء عندنا فى جوزات السفر أو للتابعيات أو للإقامات ممنوع منعا باتا مطلقا إلى يومنا هذا.

ثم بعد ذلك كثر المصورتية عندنا من أهل البلاد و من غيرهم كثرة زائدة شيئا فشيئا، حتى صار يوجد بمكة اليوم و نحن فى سنة (١٣٨٥) هجرية طائفة من المصورتية، نذكر منهم ما يأتى:

عدد/ اسم المصورتى / بعض الملحوظات /١/ صبرى بوشناق/ هو من مكة المكرمة، يشتغل فى التصوير قديما

٢/ جميل بوشناق/ هو من مكة المكرمة، يشتغل فى التصوير قديما

٣/ محمود شفيق/ هو من مكة المكرمة، يشتغل فى التصوير قديما

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦٢

٤/ سعيد شاوولى/ هو من مكة المكرمة، يشتغل فى التصوير قديما

٥/ الزبير/ إنه من الهند، يشتغل فى التصوير من سنة ١٣٦٥ تقريبا

٦/ استوديو الشباب/ لصاحبه على هزاع، يشتغل بمكة من سنة (١٣٨٣) هجرية

٧/ صاحب استوديو الشرق/ إنه من حضرموت، يشتغل بمكة من سنة ١٣٧٩ تقريبا

٨/ صاحب استوديو أكفا/ إنه من جاوة، يشتغل بمكة من سنة ١٣٧١ تقريبا

٩/ صاحب استوديو الشمس/ إنه من الهند، يشتغل بمكة من سنة ١٣٨١ تقريبا

١٠/ صاحب استوديو العلم الأخضر/ لم نعلم شيئا عن صاحبه، يشتغل بمكة من سنة ١٣٨٢ تقريبا

١١/ صاحب استوديو النصر/ إنه من جاوة أو من الهند، اشتغل بمكة من سنة ١٣٨٣ تقريبا

١٢/ محمد سليمان الكثيري/ إنه من حضرموت، اشتغل بمكة من سنة ١٣٧٤ تقريبا

١٣/ استوديو العاصمة/ لصاحبه أحمد محمد العدني، اشتغل بمكة من سنة ١٣٨٢ تقريبا

هذا ما يحضرنا من أسماء المصورين بمكة المكرمة، و يوجد بها غيرهم أيضا لكن لم نقدر على البحث عن محلاتهم، و فيما ذكرناه كفاية لمن أراد الوقوف على سرعة التطور الحديث عندنا، مع العلم بأن غالب المتعلمين المثقفين لديهم آلات التصوير يأخذون صور ما يرغبون من الأشخاص و المناظر الطبيعية. و مما يجدر بالذكر: إن لفضيلة العلامة الجليل شيخنا الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية الأسبق رحمه الله تعالى، رسالة فريدة قيمة جدا اسمها "الجواب الشافي في التصوير الفتوغرافي" أفتى فيها بحل التصوير، و هي رسالة طبعت في حياة مؤلفها عليه الرحمة و الرضوان، و نظنها أنها مطبوعة منذ سنة (١٣٤٦) هجرية، فجزى الله تعالى صاحبها عن الإسلام و المسلمين خيرا، و نحن نعتقد أنه لم يوجد في عصرنا الحاضر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦٣

أخذ مثله ممتلئ من العلم و الفضل و الصلاح، فقد كان رحمه الله تعالى بحرا لا ساحل له، كانت تأتيه الأسئلة في مختلف العلوم و الفنون من جميع الممالك الإسلامية و هو يرد عليها بالأجوبة الشافية الوافية بما يقنع السائلين من جميع الوجوه.

الآلات الكاتبة بمكة المكرمة

الآلة الكاتبة ظهرت لأول مرة في الوجود في سنة (١٨٦٦) ميلادية، اخترعها كرسنوفر لاثام شولز من مدينه بنسلفانيا، بمساعدة صديقه صامويل سول- فلما علم بهذا الاختراع (رمنجتون و أولاده) بنيويورك في أمريكا و هو رجل له خبرة بصنع الماكينات و عنده خبراء موظفون في هذا الشأن. لما علم (رمنجتون) و أولاده باختراع الآلة الكاتبة قابل هذا المشروع بحماسة زائدة، و اشترى هو و أولاده امتياز هذا المشروع من مخترعه شولز و صديقه صامويل سول، و انضم لهم ثالث اسمه دنسمور، ثم ما زالت التحسينات تدخل على الآلة الكاتبة، حتى بلغت اليوم درجة الكمال و صارت الآلة الكاتبة في عصرنا الحاضر تشغل جزءا هاما من حياتنا العملية.

و لم تكن مكة المكرمة فيما مضى من العصور و الأزمان تعرف الآلات الكاتبة، فإن جميع أهلها كانوا يكتبون بأيديهم بأقلام القصب و بالحبر الأسود، سواء في الأعمال الشخصية و التجارات، أو في الأعمال الرسمية في دوائر الحكومات- هكذا كان الحال في مكة المشرفة و جميع الممالك و الأقطار.

فلما اخترعوا الآلات الكاتبة في قرننا هذا، القرن الرابع للهجرة، ظهرت في بعض الأقطار العربية، ثم انتشرت و شاع استعمالها تدريجيا كما هو سنة التطور، فكان أول ظهورها بكثرة في مكة المكرمة في العهد السعودي، و كانت ذلك أول الأمر في سنة (١٣٥٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و خمسين هجرية تقريبا، في ديوان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله تعالى، و في ديوان سمو ولي عهده، ثم انتشرت الآلات الكاتبة في جميع دوائر الحكومة عندنا و في جميع الدوائر التجارية و غيرها، و أول مدرسة فتحت لتعليم الكتابة على الآلات الكاتبة بمكة المكرمة، كانت في سنة (١٣٦٩) ألف و ثلاثمائة و تسع و ستين هجرية. و الله الموفق للصواب و إليه المرجع و المآب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦٤

إن مكة المكرمة لا تنزل فيها الأمطار إلا قليلا، أما الثلج فلا ينزل فيها من السماء مطلقا كما ينزل في بلاد روسيا و الأتراك و الأكراد و العراق و غيرها، نعم ينزل بمكة البرد مع الأمطار في بعض الأوقات و بعد مرور عدة سنوات، و يكون حجم البرد بمقدار حبات العنب بل أصغر، و لقد سمعنا أن البرد في بلاد اليمن يكون بحجم البرتقال و الرمان. و البرد بفتحتين شيء ينزل من السحاب يشبه الحصى و يسمى حب الغمام و حب المزن كما في المصباح المنير، و إذا نزل البرد عندنا بمكة مع المطر يفرح به الصبيان، و بعضهم يجمع مقدارا من هذا البرد ثم يضعه في كأس من الماء ليبرد ثم يشربه.

هذه حالة مكة المكرمة "بلد الله الأمين"، إنها لا تعرف الثلج الإلهي و لا الصناعي في سابق العصور و الأزمان، ثم بدأ ظهور الثلج الصناعي بمكة المشرفة و صار فيها خمس مصانع كما يأتي:

(١) مصنع الحاج نسيم الشامي أقامة في سنة (١٣٣٨) هجرية تقريبا، بجهة سوق المعلا في طرف مقبرة المعلا من الخارج، ثم اشتراه منه الشيخ عبد الله باحمدين رحمه الله تعالى و أبقاه في محله المذكور بالمعلا، ثم نقل المصنع إلى أم الدود في طريق جدة.

(٢) و مصنع الثلج للأخوين الشقيقين الشيخ صدقة و الشيخ سراج كعكي، و كان ابتداء تشغيل هذا المصنع في سنة (١٣٧٠) ألف و ثلاثمائة و سبعين هجرية، و هو واقع بجهة جروول.

(٣) و مصنع الثلج للشيخ عبد الله كعكي، و قد أقامه في سنة (١٣٧٥) هجرية تقريبا، و هو واقع بجهة المسفلة.

(٤) و مصنع الثلج للشيخ طه خياط، و قد أقامه سنة (١٣٧٧) هجرية تقريبا، و هو واقع بجهة الششة فيما بين مكة و منى.

(٥) مصنع الثلج للشيخ محمد عمر سعيد عيد، و قد أقامه في سنة (١٣٧٩) هجرية تقريبا، و هو واقع في حوض البقر بين مكة و منى. و الله تعالى أعلم عدد ما يكون من مصانع الثلج أو غيره في بلده الأمين (مكة المكرمة) أدام الله أمنها و أمانها و خيرها و رخاءها و بارك في طعام أهلها و معيشتهم آمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦٥

الكاكولا بمكة المكرمة و غيرها من المشروبات الحلوة اللذيذة

كانت العادة بمكة المكرمة من قديم الأزمان، أن يقدموا للزوار و الضيوف في مناسبات أفرح في الأعياد و الزواج و الختان، و عندما يختم أطفالهم في الكتابات القرآن الكريم نظرا أو غيبا، أن يقدموا للحاضرين في بيوتهم الشربات، و هي عبارة عن إذابة السكر في الماء في أزيار من الطين أو في مواعين نحاسية، و يخلطون فيها قليلا من الصباغ الملون إما أصفر و إما أحمر أو الأخضر أو الأزرق، و يضعون فيها قليلا من ماء الورد أو ماء الكادي أو المصطكي، و قد يضعون في هذا الماء ملح الليمون أو يعصرون فيه نفس الليمون، ثم يسكبونه في أكواب و كاسات من الزجاج البلور، ثم يقدمونها للزوار و الضيوف، و تقديمها ضروري للضيوف في هذه المناسبات، و كذلك الشاي.

و لقد قال أحد شعراء مكة المكرمة، و هو الشيخ أحمد بن أمين بيت الخال المتوفى في سنة (١٣٠٥) هجرية تقريبا:

إذا زار من تهواه يوما مودة و قد أيقنت بالود منك نفوسه

فإن رمت أن تحظى بلطف حديثه و بادرت بالشاهي يطول جلوسه

و إن تسقه الشربات يا صاح إنه يقوم إذا دارت عليه كؤوسه

فمن هنا يعلم أن أهل الحجاز كانوا و لا يزالون يحبون شرب الشاي في كل الأوقات، أما الشربات فما كانوا يقدمونها للضيوف إلا في المناسبات التي ذكرناها، مع العلم بأن الشربات قبل وجود الثلج عندنا بمكة المكرمة كانوا يعملونها بالماء البارد الذي يبرد في الهواء

فقط.

لقد كانوا يعملون أنواع الشرابات من الأشياء الآتية: من التمر الهندي، و من الزبيب، و من التمر اليابس، و من الخرنوب، و من عصير الليمون، و من السويبا، و هو عبارة عن منقوع الخبز اليابس بعد تصفيته، و كانوا يضعون كل ذلك في أزيار معمول من الطين، و كانت تبرد في الهواء الطبيعي في الأسواق، و كانوا ينقون بزر الريحان في الماء، فإذا طلب أحدهم أن يشرب كأسا من هذه الشرابات، وضع البائع في كأسه ملعقة من منقوع بزر الريحان فيكون لذيذا سهل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦٦

الهضم، و كان هناك شراب ممتاز جيد للهضم يسمى "القازوزة" يباع مع الشرابات المذكورة، و كان للقازوزة قوارير خاصة توضع فيها كل قارورة مفتوحة من جانبي رقبتها، و في داخل كل قارورة قزازة صغيرة كروية الشكل بحجم حبة العنب لا تخرج من فم القزازة لضيق رقبتها، ثم بطلت هذه الشرابات البلدية من نحو ثلاثين سنة تقريبا، و استعوض عنها بالشرابات الخارجية. ثم وجدت في الأسواق قوارير الشرابات المختلفة الأنواع، من شراب الورد و شراب البرتقال، و شراب التوت، و شراب المانقا المسمى بالأنبا، و شراب الرمان، و غيرها، كانت تأتي من الخارج من مصر و الآستانة و سوريا و غيرها.

ثم لما ظهر الثلج الصناعي بمكة المكرمة و كثر وجوده، ظهر عندنا شراب "الكاكولا" و هو متخذ من الشاي و قهوة البن، مع خلطه بشيء من الصودا أو الكربون من الأشياء المهضمة، و ظهر ذلك عندنا من بعد سنة (١٣٧٠) من الهجرة تقريبا، ثم بعد ظهور الكاكولا عندنا بسنوات، ظهر شراب الليمون، و شراب البرتقال، و شراب البيبسي، و شراب ميراندا، و شراب التفاح، و شراب الفرتبول، و شراب سينالكو، و توضع كل هذه الأشربة بقواريرها في الثلج لتبرد ثم تشرب- و قد ظهر شراب الكاكولا و هذه الأشربة في الممالك الأخرى قبل ظهورها عندنا بسنوات معدودات، و مصانع هذه المشروبات اللذيذة موجودة بجدة و لكن أصحابها من أهل مكة المكرمة، و هم كما يأتي: الشيخ صدقة و الشيخ سراج كعكي و هما أخوان شقيقان لهما مصنع الكاكولا، و الشيخ عطا إلياس له مصنع الفرتبول، و كذلك الشيخ بكر تونسي- نسأل الله تعالى التوفيق لكثير من الأمور النافعة.

مصنع الحلويات بمكة المكرمة

لم يكن بمكة المكرمة مصنع للحلويات كما في الخارج، و إنما كان أهلها من جنس الهندود يصنعون بها الحلويات البلدية، كالحلاوة الحمصية و حلاوة اللدو، و حلاوة الهريسة، و حلاوة المشبك "بتشديد الباء الموحدة"، و الحلاوة اللبنيّة و غيرها، ثم وردت إلينا الحلويات المنوعة من الخارج حتى كادت هذه الحلويات البلدية أن تندثر الآن.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦٧

ثم إنه في سنة (١٣٧٤) تقريبا، فتح الشيخ عبد الله كعكي شيخ الفرانة عندنا أول مصنع بمكة المكرمة للحلويات كما في الخارج، فصار هذا المصنع يخرج لنا من الحلويات أصنافا كثيرة، و قد سمعنا أيضا أنه يوجد مصنع آخر اسمه "مصنع حلويات الحرمين" و هو واقع فيما بين مكة و جدة و إلى مكة أقرب، و نظن أنه واقع في أم الدود أو في حدة "بالحاء المهملة"، و إن شاء الله تعالى ستتوالى المصانع المختلفة عندنا، ففي المثل "أول الغيث قطر ثم ينهمر" نسأل الله تعالى أن يكثر علينا الخيرات و البركات آمين.

الصياغة بمكة المكرمة

الصياغة من الأمور الضرورية للبشر، لما فيها للنساء من التحلية و التزين بالذهب و الفضة و اللآلي و الجواهر، فهي من الصياغات

القديمة المعروفة في جميع بلدان العالم و منها الحرمان الشريفان "مكة المكرمة و المدينة المنورة".
 و من الأدلة الواضحة المكشوفة على أن الصياغة قديمة العهد، ما نراه في المتاحف و دور الآثار بمصر من الحلوى و أنواع الأشياء الذهبية و الفضية الخالصة الجميلة البراقة، و من التوابيت الذهبية المحفوظة التي تدهش الناظر و تأخذ بالألباب، إنهم عثروا عليها في الحفريات في القطر المصري و هي مصنوعة من منذ خمسة آلاف سنة بل أكثر، و مثل ذلك يوجد أيضا في بلاد اليمن و في بلاد العراق و في بلاد الأردن و غيرها من البلدان. و لقد اطلعنا على الآثار و المتاحف الموجودة بمصر، عندما كنا هناك من سنة (١٣٤٠) ألف و ثلاثمائة و أربعين هجرية، عند ما كنا نطلب العلم في الأزهر الشريف المعمور، زاده الله تعالى علماء و خيرا و بركة.
 فمكة المشرفة تعرف الصياغة من قديم الأزمان و العصور، و في عصرنا هذا، عصر التقدم و التمدن برع أناس من أهل مكة في صنعة الصياغة إلى درجة عظيمة، لأن فيهم ذكاء و نشاطا فطريين، و لأهل الصياغة عندنا سوق معروفة خاصة، و عليهم شيخ من أهل الصنعة، و في دكاكينهم أنواع كثيرة مختلفة من الحلوى، كالعقود اللؤلؤية، و الأسورة الذهبية، و الخواتيم المحلاة بالأحجار الكريمة، و غير ذلك من المصوغات.

و هناك طائفة منهم عريقون في صنعة الصياغة أبا عن جد بالوراثة، و بعضهم مستجد مارس هذه المهنة اللطيفة النظيفة بنفسه عن رغبة و شوق فصار يشار إليه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦٨

بالبنان- الحاصل أن مكة المكرمة لا توجد صنعة في الدنيا إلا و فيها مثلها و لله الحمد، و لا غرو فهي بلد الله الأمين، و بلد رسوله العزيز المكين، ففيها نبع الإسلام، و إليها يعود الإيمان، فهنيئا لأهلها و من كان فيها، إنها البلدة الطاهرة الزاهرة، المشرفة الآمنة العامرة. نسأل الله تعالى التوفيق و صلاح الحال و الأحوال آمين.

مزارع الدواجن بمكة المكرمة

تقدم أن ذكرنا عن الدجاج الخارجي بمكة المكرمة، و هنا نذكر أيضا بصورة مختصرة عن مزارع الدواجن بمكة، فإنه يوجد بمكة شرفها الله تعالى ثلاث مزارع، (الأولى) مزرعة فقيه للدواجن و هذه المزرعة أقدم المزارع (و الثانية) مزرعة الشيخ عبد الله كعكي، (و الثالثة) مزرعة الشيخ عبد الله كوير.

و تسمية كل واحدة منها بمزرعة من باب اللطافة، فإنه ليست مزرعة بالعنى الحقيقي، غير أن هذه الأماكن الثلاثة، يوجد في كل واحدة منها قليل من الرياحين و الزروع الخفيفة، كما أن تسميتها بالدواجن من باب التشهير فقط، إذ ليس بها شيء من الدواجن غير الدجاج الخارجي.

و من عجيب الأمر الذي يلفت النظر، أن البيض الخارجي موجود عندنا بكثرة، أما البيض البلدى فإنه يكاد يندم من البلاد، مع أنه كان في الأزمنة الماضية يوجد بكثرة وافر في الأسواق، فالأمر لله عز و جل.

زيت المازولا بمكة المكرمة

لم يكن بمكة المكرمة من سابق الأزمان غير زيت الزيتون و زيت السمسم، ثم جاءها من الخارج زيت المازولا، بضم الزاى، و ذلك في سنة (١٣٧٦) ألف و ثلاثمائة و ست و سبعين هجرية تقريبا، و هو زيت مستخرج من الضرة الحبشى، بضم الضاد و تخفيف الراء و فتحها، و هو الضرة التي تشوى فوق الجمر، إنه زيت خفيف جدا على القلب و المعدة لعدم وجود الدهن فيه إلا بقله، لذلك الأطباء

يصفونه للمرضى الذين هم ممنوعون من أكل السمن و الدهن، و هذا الزيت يأتي في زجاجات و في علب. هذا و الله تعالى أعلم ماذا سيظهر من الزيوت في الدنيا، و ربما ظهر زيت صناعي كما ظهر سمن صناعي، أما زيت الأخشاب فهو موجود

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٦٩

في الخارج بكثرة، و هو يستعمل في بعض المأكولات و في قلى بعض الأشياء، و هذا الزيت رخيص، كما ظهر في الوجود زيت السمك، و هو زيت عظيم النفع لا يستعمل إلا في بعض الأمراض بنقط معدودة، مثله أيضا زيت صفار البيض، و قد سمعنا أنهم في الخارج يحاولون استخراج الزيت من الماء، و ربما يستخرجون أيضا زيت بعض الحبوب و الخضار و الفواكه، و زيت القطن موجود بمصر. أما زيت الزيتون و زيت السمسم فهما معروفان من قديم الدهور و العصور خصوصا زيت الزيتون، و لهما من المنافع و الفوائد ما لا يخفى.

صالونات الحلاقة بمكة المكرمة

لم تكن بمكة صالونات الحلاقة، و إنما كان الحلاقون يفتحون دكانا صغيرا للحلاقة في أنحاء مكة، و أكثر دكاكين الحلاقة كانت مجموعة بجوار بعض في نهاية المسعى عند المروة، حيث ينتهي عندها الساعون المحرمون بالحج أو بالعمرة فيحلق هناك رأسه أو يقصر، فكان الناس يذهبون إلى دكاكين الحلاقة ليحلقوا رؤوسهم أو يصلحوا ذقونهم، و بعضهم يتفق مع الحلاق ليذهب إلى بيته في كل أسبوع مرة ليحلق له، و كان جميع الناس حتى تلامذة المدارس يحلقون رؤوسهم بالموسى من قديم الأزمان إلى سنة (١٣٦٠) هجرية تقريبا.

ثم بعد هذه السنة المذكورة كثر وجود الأعراب بمكة المكرمة كثرة فاحشة من كافة الأجناس و الطبقات، فتعلم أهل البلدة الطاهرة من هؤلاء تربية شعر الرأس و التواليت، خصوصا و أن بعض هؤلاء الأعراب افتتحوا صالونات جميلة للحلاقة في الشوارع، في دكاكين مزينة بأدوات الحلاقة الحديثة، حتى صاروا يحلقون الذقون بالمكائن الكهربائية. و أغلب هؤلاء الحلاقين من سوريا و فلسطين و الأردن، و هكذا تطورت البلاد في كل الحالات.

الدجاج الخارجي بمكة المكرمة

لم يكن في سابق الأزمنة يأتي دجاج من الخارج إلى مكة المكرمة، و لكنه في الوقت الحاضر، أي من سنة (١٣٧٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاث و سبعين هجرية تقريبا أحضر بعضهم إلى مكة من الخارج صغار الدجاج المسماة عندنا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧٠

(بالفرايج)، و المسماة بمصر (بالكتاكت)، أحضر منها كثرة و فيرة لتربيتها بمكة و بيعها إذا كبرت، و أحضر معها أطعمتها الخاصة التي يطعمونها في بلادها، و وضعها في حديقة صغيرة وسط غرفة باردة، و وضع عليها من يطعمها و يسقيها بصورة فنية، و وضع بعضها بأعلا مكة عند حوض البقر، و بعضها في الحفائر بأسفل مكة، فما كبر منها و صار صالحا للأكل أنزلها إلى السوق للبيع.

و لما كانت هذه الدجاجات في أرض مزروعة ببعض الرياحين و الزهور أطلقوا على موضعها مزرعة الدواجن مع أنه ليس فيها سوى الدجاج، قال في مختار الصحاح: و الدجاج معروف، و فتح الدال أفصح من كسرهما، الواحدة دجاجة ذكرا كان أو أنثى، و الهاء للإفراد كحمامة و بطء، انتهى منه. و من هنا يعلم أن نطقنا الدجاجة بضم الدال خطأ محض.

الحوت و السمك الطرى بمكة المكرمة

الحوت و السمك عندنا بالحجاز بمعنى واحد، و فى الخارج فى بعض الممالك يقولون للحوت صغار سمك و للسمك الكبار حوت.

و الحوت فى مدن الحجاز التى على ساحل البحر الأحمر كثير، كجدة و رابغ و ينبع و ما بينها من المحطات و المواقع و الليث و غيرها. لم يكن فى العصور الماضية يوجد بمكة المكرمة شىء من الحوت الأخضر، أى الحوت الطرى الجديد الخارج من البحر، و إنما كان المعروف من الحوت فى مكة نوعان من الحوت فقط، و هما الحوت المقلى بالزيت و هذا كان يأتى إليها من جدة مقلية، و كانوا يضعونه فى أفاص من جريد النخل ليتخلله الهواء فى نقله من جدة إلى مكة، و كانوا يرسلونه إلى مكة مع الحمارة، بتشديد الميم، فيصل إليها من جدة فى ليلة واحدة فقط، أى كانوا يرسلونه قبيل المغرب من جدة فيصل إلى مكة فى الصباح، فالحمار الجيد يقطع المسافة من جدة إلى مكة فى ليلة واحدة، و ما كانوا يرسلونه على الجمال لأنها تقطع المسافة بين البلدين فى ليلتين، و لأن الجمالة بتشديد الميم لا- يمشون بالنهار مطلقا خوفا من حرارة الشمس، فهم بالنهار يقلبون فى قرية بحرة و هى منتصف الطريق بين مكة و جدة، فكان الحوت المقلى إذا وصل إلى مكة المكرمة قله مرة أخرى فى الدكاكين ثم يبيعه خوفا من تغيره و خرابه، هذا الحوت المقلى هو الذى يعرفه أهل مكة من قديم العصور و الأزمان.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧١

فلما ظهرت السيارات و شاع استعمالها فى جميع مدن المملكة السعودية، و كثر انتقالها و سفرها بين بلدان المملكة، و ظهرت أيضا الثلاجات الكهربائية و مصانع الثلج بمكة، قام بعضهم بجلب الحوت الأخضر أى الطرى من جدة و رابغ و مستورة إلى مكة المكرمة، فيصيدون الحوت من البحر الأحمر من هذه الأماكن ليلا، ثم يرسلونه طريا فى الصباح المبكر من جدة بالسيارة فيكون بمكة فى وقت الضحى، و يعرض حين وصوله للبيع فى الدكاكين التى بالمشية بزقاق الوزير، و قد يمكث هذا الحوت فى الصناديق المثلجة يومين أو ثلاثة، ثم يتجدد إحضاره أيضا، فربما أحضروا الحوت الطرى من جدة فى كل يوم مرة، و ربما أحضروه يوما بعد يوم بحسب سرعته ببعه أو عدمه.

و يوجد عندنا نوع ثالث من الحوت و هو الحوت الناشف أى اليابس و هو كثير، فإنهم يبيسونه بيسا تاما فيبقى أشهر عديده معروضا فى الدكاكين من غير أن يحصل عليه تغير، حتى إنهم يبيسون الجمبرى و يسمى عندنا "الريان"، بضم الراء و سكون الباء الموحدة. و أهل مكة يطبخون الحوت بأنواع مختلفة و أحيانا يأكلونه مقلية، و أهل جدة لهم ولع كبير بأكل الحوت، و لهم طرق كثيرة فى طبخه لا يتقنه غيرهم، و الحق يقال: أن أكل الحوت لذيد سهل الهضم، إنه ألد من لحم الدجاج و الطيور، و يكفى فيه قوله تعالى فى سورة فاطر: وَ مَا يَسْتَوِي الْبُحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ مِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا.

هذا و بمناسبة كلامنا على وجود الحوت الطرى الجديد بمكة المكرمة، نذكر ما جاء فى صحيح البخارى عن عثور الصحابة رضى الله تعالى عنهم على حوت كبير فى البحر، و لغرابه كبره نذكره هنا. فقد روى البخارى فى صحيحه فى كتاب الوكالة فى باب الشركة و النهى و العروض: عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم، بعثا قبل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح و هم ثلاثمائة و أنا فيهم فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله فكان مزودى تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلا قليلا حتى فنى، فلم يصيبنا إلا تمره تمره، فقلت: و ما تغنى تمره، فقال: لقد وجدنا فقدنا حين فنى، قال: ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الطرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بصلعين من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧٢

أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة فرحلت، ثم مرت تحتها فلم تصبهما. انتهى من صحيح البخارى.

و معنى الظرب فى اللغة: ما تنأ من الأرض كالراية. قال فى القاموس المحيط:

الظرب ككتف ما تنأ من الحجاره و حد طرفه، أو الجبل المنبسط أو الصغير، جمع ظرايب. اه. فىكون معنى الجملة التى فى الحديث "

فإذا حوت مثل الظرب " أى حوت كبير ناتى و بارز من البحر كأنه الجبل الصغير.

فانظر رحمتنا الله تعالى و إياك إلى كبر هذا الحوت العظيم الذى أكل منه ثلاثمائة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مدة

ثمانية عشر يوما.

و الظاهر، و الله تعالى أعلم، أنهم وجدوا هذا الحوت فى سواحل البحر الأحمر، من جهة ينبع و رابغ و مستورة و ما بين ذلك فى طريق

الساحل، فالبحر الأحمر صغير بالنسبة لبحار المحيطات الكبيرة، فإنه يوجد فى هذه المحيطات من الحوت، ما هو أعظم من هذا الحوت

عشرات المرات، فإنه لا يعلم ما فى البحر من المخلوقات إلا رب العرش العظيم، فسبحان القادر على كل شىء.

كثره الأسفار إلى خارج بلادنا

لم يكن أهل الحرمين الشريفين "مكة المكرمة و المدينة المنورة" يعرفون السفر إلى الممالك الأخرى منذ قديم العصور إلا قليلا، و

لا يسافرون إلا لأمر ضرورى كالسعى وراء الرزق من تجارة، أو ربط معاشات شهرية لهم من بعض أرباب الدولة أو من بعض الأثرياء

المعروفين بعمل الخيرات، و لا يسافرون إلا إلى البلدان الإسلامية فقط، كدار الخلافة استامبول، مصر و الشام و العراق و بلاد المغرب

و هندستان، و ما كانوا يعرفون السفر إلى الأقطار الإسلامية للمعالجة من الأمراض قط، فكل مريض يعالجه أهله فى نفس بلدتهم و

على حسب ما يوجد فيها من الأدوية و العقاقير و الأطباء القليلين، أما السفر إلى بلاد أوروبا فما كانوا يعرفونه قط، مع العلم بأنه لم يكن

فى تلك الأزمان تعب فى استخراج جوازات السفر، و لم تكن قوانين تحتم على المسافر أخذ تأشيرة إقامة مدة سيره معلومة فى البلدة

التي يسافر إليها، بل يكفى للمسافر أن يحمل معه بطاقة شخصية رسمية من ميناء بلدته لا تتجاوز قيمة هذه البطاقة أكثر من نصف

ريال.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧٣

كان السفر إلى خارج الحرمين قليلا كما قلنا، إلى سنة (١٣٣٤) أى إلى سنة نهضة الشريف الحسين بن على ملك الحجاز الأسبق

رحمه الله تعالى، حيث فى هذه السنة المذكورة و هى سنة ألف و ثلاثمائة و أربع و ثلاثين هجرية، حصل قيام جميع ممالك العرب

على الدولة التركية العثمانية، فكانت الحرب دائرة ضدها فى جميع البلدان و منها مكة و المدينة، فقد تعب أهل هاتين البلدين أثناء

المحاربة، فسافر بعضهم إلى مصر و أغلبهم سافروا إلى الشام خصوصا أهل المدينة المنورة لقربها منهم، و لوجود السكة الحديدية من

المدينة إلى الشام، و مكث هناك بعضهم سنوات عديدة، و بعد أن استقرت الأمور بالحجاز رجعوا إلى أوطانهم. ثم بعد نحو عشر

سنوات من السنة المذكورة أى فى سنة (١٣٤٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاث و أربعين هجرية، وقعت حرب أخرى بين الشريف الحسين

بن على ملك الحجاز المذكور و بين سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمهما الله تعالى و غفر لهما، فزحف الثانى

من نجد على الحجاز و استولى عليها، فحصل رعب عند الناس أيضا و خافوا على أنفسهم، فسافروا إلى مصر و الشام و غيرهما، فلما

استقر الأمر فى الحجاز، رجعوا مرة ثانية إلى الحجاز كل واحد استقر فى بلدته.

فمن هاتين الوقعتين تعلم أهل الحرمين و غيرهم السفر إلى الخارج، حيث صار لهم هنالك معارف و أصدقاء علاوة على معرفتهم

بالحجاج الذين يحضرون إليهم فى كل عام فى مواسم الحج.

ثم من بعد سنة (١٣٥٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و خمسين هجرية، كثر السفر من عندنا تدريجيا إلى جميع الممالك الإسلامية و

غيرها، و من بعد سنة (١٣٧٠) ألف و ثلاثمائة و سبعين هجرية، ألقوا السفر إلى البلاد الأوروبية بكثرة فائقة و سهولة و يسر كأنهم ينتقلون من قرية إلى قرية، و نعزو ذلك إلى الأمور الآتية:

- (١) كثرة الأموال الموجودة عندنا بالمملكة.
- (٢) معرفتهم باللغات الإفرنجية التي تعلموها عندنا في المدارس.
- (٣) معرفتهم بأساليب التجارة أكثر من ذي قبل.
- (٤) كثرة وسائل التنقلات السهلة، من السيارات و الطائرات و البواخر و السكك الحديدية و غيرها.
- (٥) وجود البنوك في جميع الممالك و الأقطار و سهولة تحويل المبالغ الطائلة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧٤

هذه هي الأمور و الوسائل الأساسية لسرعة التنقلات بين البلدان الشرقية و الغربية، علاوة على انتشار الأمن و الأمان في جميع الممالك و الأقطار، و علاوة على إمكان سرعة اتصال المسافرين بأهليهم و أقاربهم، إما بالتليفون أو بالتلغراف أو بالبريد الجوي، بل يمكن أن يصل المسافر من بلاد أوروبا إلى مكة المشرفة في بضع ساعات بالطائرات براحة تامة، بينما كان السفر إلى تلك الجهات يستغرق أشهرا عديدة قبل قرن واحد، قبل وجود الطائرات و البواخر، حتى أن الحجاج كانوا يصلون من بلاد مصر إلى مكة المكرمة في أربعة أشهر تقريبا من طريق البر بالدواب و الجمال، كما بينا ذلك في محله من هذا الكتاب، و الله تعالى أعلم بما سيحدث من وسائل التنقلات في مستقبل الأيام.

المكتبات العامة بمكة المكرمة

المكتبات العامة التي يقصدها أهل العلم من الطلبة و العلماء بمكة المكرمة اثنتان فقط، و هما كما يأتي:

(الأولى) مكتبة الحرم المكي، و هي قد أسست منذ عدة قرون، أسسها أحد سلاطين آل عثمان الأتراك، و كان محلها في الأول أمام بئر زمزم في غرفة فوقها قبة صغيرة، فلما جددت الدولة التركية بناء المسجد الحرام بالقباب بدل السقوف الخشبية، جعلوا هذه المكتبة في مكان خاص بباب الدريبة بداخل المسجد الحرام.

ثم لما قامت الحكومة السعودية بتوسعة المسجد الحرام ابتداء من سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، و هدموا باب الدريبة جعلوا هذه المكتبة في محل خاص أيضا جهة باب السلام، و هذه الجهة لا تبعد عن الجهة الأولى إلا بنحو مائة متر، بل أقل. (و الثانية) مكتبة مكة المكرمة، و هي تقع الآن في محل ولادة النبي صلى الله عليه و سلم بشارع الغزوة، و قد أنشئت قريبا منذ سنوات، و كل واحدة مزودة بكتب قيمة و إن كانت قليلة بالنسبة لبعض مكتبات الممالك الأخرى، إلا أنه في عزم حكومتنا الناهضة إمدادها بكثير من الكتب الأخرى، و ستتحقق هذه النية قريبا بتوفيق الله تعالى و فضله.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧٥

الأربطة بمكة المكرمة

الأربطة جمع رباط، و الرباط عندنا بمكة المكرمة مبنى خاص لسكنى الفقراء و الغرباء و طلاب العلم من غير أكل و لا شرب لهم، فبعض الأربطة يكون للنساء و بعضها يكون للرجال، و العادة أن تكون كل غرفة لشخص واحد. و الأربطة بمكة المكرمة كثيرة و كلها كانت وقفا على الفقراء و طلاب العلم، و هي ما زالت موجودة إلى اليوم. لكن لما شرعت الحكومة السعودية في توسعة المسجد الحرام و في توسعة شوارع مكة المكرمة، و ذلك ابتداء من سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، فما كانت من

الأربطة بجوار المسجد الحرام، أو في طريق الشوارع التي لا بد من توسعتها فقد هدمتها الحكومة هدمًا تامًا لإدخال أرضها في التوسعة، فبعض الأربطة دفعت الحكومة السعودية مبلغًا معينًا من المال تعويضًا عنها لبناء غيرها في أمكنة أخرى بمكة، و بعض الأربطة الأخرى لم تدفع الحكومة عنها تعويضًا، فمحييت من الوجود بتاتا و لم يجدد بدلها شيء - فمن الأربطة التي لم تدفع الحكومة عنها تعويضًا ما يأتي:

- (١) رباط محمد باشا، و كان بباب الزيادة.
 - (٢) رباط آخر، و كان بباب الزيادة أيضا.
 - (٣) رباط الداودية، و كان في باب العمرة في المسجد الحرام.
 - (٤) رباط السلیمانيه، و كان بباب الدريبه.
 - (٥) رباط آخر، و كان في باب العمرة من جهة الشارع.
 - (٦) رباط آخر، و كان بباب الزماميه بين باب العتيق و باب العمرة.
- هذا ما نحفظه من الأربطة التي لم تدفع الحكومة عنها تعويضًا ليبنى بدلها غيرها، و كل هذه الأربطة التي لم تدفع عنها تعويضًا قد مضى على بنائها أربعمائه سنه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧٦

الحمامات بمكة المكرمة

الحمامات بتشديد الميم الأولى، جمع حمام بالتشديد أيضا، و الحمام في اصطلاح عصرنا هو مبنى خاص للاغتسال، تكون فيه عدة غرف و أحواض، كما تكون فيه مياه باردة و ساخنة، و تكون أرض الحمام من المرمر الرخام. لم يكن بمكة المكرمة من الحمامات سوى حمامين فقط، (الأول) كان في باب العمرة، (و الثاني) كان في آخر القشاشيه من جهة المسجد الحرام، هذان الحمامان بنتهما الحكومة التركيّه عندما كانت تحكم الحجاز و جميع الممالك الإسلامية، بنتهما منذ أربعمائه سنه.

هدم الحمام الأول الذي بباب العمرة سنه ١٣٧٥ هجرية بسبب توسعه المسجد الحرام في عهد الحكومة السعودية. و أما الحمام الثاني الذي في القشاشيه، فهو الآن مقفول معطل ليس فيه ماء و لا شيء به من أدوات الحمامات. إنه في النية هدمه و إنشاء منزل في مكانه، و الله تعالى أعلم.

الحاصل أنه اليوم لم يبق بمكة المكرمة شيء من الحمامات فسبحان المتصرف في الكون، لا إله إلا هو العزيز الغفار.

القهاوى التي بمكة

القهاوى عندنا بمكة المكرمة، بل و بجميع الحجاز، كالمدينه المنوره و مدينه الطائف و مدينه جدّه و مدينه رابغ و مدينه ينبع و غيرها، و في المحطات التي بين البلدان خصوصا في طرقات الحج و الزيارة، في هذه الجهات كلها القهاوى كثيره جدا. و القهاوى جمع قهوة نسبة إلى عمل قهوة البن فيها، و لكنها تجمع بين عمل قهوة البن و الشاي و الشيشه و لمن أراد في القهاوى يمكن إحضار الطعام إليها، خصوصا الطعام الخفيف كالجبين و الزيتون و الحلاوة الطحينيه و الفول المدمس و الخبز بأنواعه.

و لا ندرى تاريخ إنشاء القهاوى بالحجاز و غيرها من الممالك و البلدان الأخرى، و الظاهر أن وجود القهاوى في داخل البلدان و في المحطات قديم العهد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧٧

من خمسمائة سنة أو أكثر، لأن حاجة الإنسان ماسة إلى الجلوس في المجتمعات العامة كالقهاوى لما فيها من أسباب راحته من الطعام والشراب وأنواع المسليات، فالقهاوى هي بمثابة النوادي العامة، يقصدها الإنسان للاستجمام والراحة هرباً من متاعب البيوت والمنازل. كما يقصد الرجل الصالح المساجد للعبادة من الصلاة والتسبيحات وقراءة القرآن، هرباً من عناء الدنيا وأشغالها، فوجود القهاوى أمر ضروري يأوى إليها عامة الناس خصوصاً طبقات العمال والصناع.

انظر: صورة رقم ٣٠، إحدى القهاوى الحجازية

والقهاوى في غير الحجاز كمصر والشام وبلاد الإفرنج هي نوعان:

(النوع الأول) القهاوى العامة، ويقصد العامة من طبقات العمال والصناع، حيث يجدون فيها راحة أجسامهم ويتداولون بينهم الحكايات والمضحكات، مع وجود الأكل والشرب فيها بقيمة زهيدة فلا يتكلفون مصاريف كثيرة، وهذا النوع من القهاوى عندنا بالحجاز كثير جداً، بل لا يوجد غيره فيها.

انظر: صورة رقم ٣١، مقهى بلدى

(و النوع الثانى) القهاوى الخاصة الممتازة، وهذه لا يدخلها إلا الأعيان والأغنياء والكبراء والوزراء، ومن فى طبقتهم من أهل الغنى والثراء، حيث يجدون فيها من أطيب الطعام وأنواع المشروبات الروحية وغيرها، وحيث يجدون فيها أنواع المسليات، ويتسامرون فيما بينهم بأنواع القصص والأخبار، فتستريح أفكارهم وأعصابهم فيها من العناء والأعمال المرهقة فى داخل الدواوين والدوائر.

ولقد يبلغ قيمة الفنجان الواحد من الشاى أو القهوة فقط بدون طلب شىء آخر، فى هذا النوع من القهاوى الممتازة نحو عشرة ريالات سعودية أو جنيهاً مصرياً تقريباً، وليس ذلك لنفس الشاى أو القهوة فقط، فهذه لا تتعدى قيمتها بضعة قروش، ولكن هذه القيمة الفاحشة والغلاء الكبير، إنما هي لنفس الجلوس فى هذه القهاوى الممتازة، فإنها مؤثثة بأثاث فاخر كبيوت الأغنياء، والخدمة فيها ممتازة جداً، ونفس الخدم فيها على أحسن حاله من النظافة والأدب والتربية الممتازة، ثم إن نفس القهاوى تقع فى أجمل الشوارع والمحلات، وربما كانت على ضفاف البحور والأنهار، وداخل القهوة مزين بالصور والرسوم البديعة، وفيها من مراكن الزروع والرياحين والأزهار العطرة ما يجلب السرور والراحة التامة، ومن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧٨

هنا نفهم سبب الغلاء وارتفاع قيمة المطاعم والمشروبات فى هذه القهاوى الخاصة، فهذا النوع من القهاوى الممتازة كالنوع الخاص من الفنادق الممتازة.

وليس عندنا بالحجاز قط شىء من هذه القهاوى الخاصة الممتازة، فإن من فتح عندنا مثل هذه القهاوى يخسر ولا يربح، لقله الرواد والقاصدين إليها.

فالقهاوى العامة من النوع الأول عندنا بالحجاز يمتاز عن مثلها فى البلدان الأخرى بما يأتى:

- (١) كراسى قهاوينا طويلة على قدر طول الإنسان، فيمكن أن يجلس على كرسى واحد ثلاثة أنفار أو أربعة فقط.
- (٢) الكراسى كلها قوائمها وأرجلها من أعواد الخشب، أما موضع الجلوس فمشغول بشرائط طويلة فى عرض البنصر كالحبال، تتخذ من خوص النخل يشتغلها التكارنة السودانيون، ولهم فى صنعها مهارة فائقة.
- (٣) ينام الناس على هذه الكراسى إذا أرادوا فى ليل أو نهار، وفى الشتاء أو فى الصيف، ولدى أصحاب القهاوى عندنا الفرش واللحف والمخدات لهذا الأمر.

(٤) الكراسى عالية عن الأرض بمقدار تسعين سنتيمتراً، فحبذا لو كان ارتفاعها نصف متر تقريباً لثلا يتعب قصير القامة عند جلوسه فوقها.

(٥) الأباريق الموجودة بهذه القهاوى كلها من الطين كالشراب و بعضها من التنك و هو الصفيح.

(٦) الشيشات الموجودة عندنا فى القهاوى و المنازل يختلف شكلها عن شكل الشيشات فى الممالك الأخرى، و عندنا شيشات خاصة لشرب التبناك، و شيشات خاصة لشرب الجراك، بضم الجيم و فتح الراء و تخفيفها، و الجراك هو معجون يتخذ من التبناك و بعض الفواكه المتعددة، و نظن أنه من صنع الهند و ليس فيه شىء من المخدرات و المسكرات مطلقا.

و القهاوى عندنا مفتوحة ليلا و نهارا، و بسبب كثرة الحجاج عندنا صارت القهاوى كثيرة جدا، فطرق الحج و الزيارة بمكة و المدينة و جدة و الطائف و رابغ و ينبع و ما بين هذه البلدان من الطرق و المحطات، كلها مليئة بالقهاوى، و فيها الاستعدادات الكافية لراحة الحجاج و المسافرين من الأكل و الشرب، و الماء و الثلج، و الحوت و السمك، و الفول المدمس و البيض، و الرز و العدس و السمن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٧٩

و اللحم، و الفواكه و غيرها، فيستريح الإنسان من عناء السفر فى هذه المحطات و القهاوى أعظم راحة، و هو فى غاية الاطمئنان و الأمان، فإن الأمان و الأمان فى جميع مملكتنا أصبح مضرب الأمثال و لله الحمد.

و الحق يقال: أن لهذه القهاوى فى الحجاز فوائد كبيرة جدا يعرفها جميع الناس، و بالأخص القهاوى التى تكون فى أيام الحج بمنى و مزدلفة و عرفات، ففى هذه المشاعر تمتلى جميع القهاوى الموجودة بها من الحجاج من أهل البلاد و من الأعراب، تمتلى على سعتها ليلا و نهارا بهم، حتى أن بعضها لا يبقى فيه مكان خال من كثرة ازدحام الناس للجلوس فيها.

هذا و لقد ذكرنا نبذة عن القهاوى فى رسالتنا المطبوعة المسماة "أدبيات الشاى و القهوة و الدخان" فراجعها إن شئت الوقوف على هذه المشروعات اللطيفة.

نقل الحلقة التى بالمعلا إلى جهة جردول

حلقة اللحم و الخضار التى بالمعلا هى محلها منذ مدة طويلة جدا، و كانت هذه الحلقة "بفتحات" يأتى إليها البدو بجميع الفواكه و الخضروات عند صلاة الفجر على ظهور الجمال قبل وجود السيارات، يأتون بهذه الخضراوات و الفواكه من القرى و الأماكن القريبة من مكة المشرفة بنحو مرحلة أو مرحلتين بالجمال، أى بنحو ليلة أو ليلتين بسير الإبل، كوادى فاطمة و وادى الزيمه و الشرائع و خليص "بكسر أوله و ثانيه" و من جهة عسفا و طريق جدة و الطائف و طريق اليمن و غيرها.

فكان يأتى إلى الحلقة التى بالمعلا بمكة المكرمة طوائف البدو و الجمالة من كل حذب و صوب من أطراف مكة، ينزلون أحمالهم فى وسط الحلقة عند طلوع الفجر، فيصلون الصبح بمكة ثم يفطرون الفول بالسمن أو يفطرون باللبن و التمر، ثم يشربون الشاهى أو القهوة، فإذا باعوا ما عندهم من الفواكه و الخضار، ذهبوا إلى الأسواق يشترون الأقمشة و الطعام من الحبوب و التمر و غيرها، ثم يرجعون إلى أهلهم فى أطراف مكة بعد العصر بنحو ساعة، عند ما تنكسر حرارة الشمس و تميل إلى الغروب.

كانوا يأتون معهم بالموز و اللوز و الرمان و البرتقان و العنب و البلح و التمر و الرطب و المشمش و الخوخ و التفاح و الخريز و الحجب، و هذان هما البطيخ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨٠

الأصفر و البطيخ الأخضر و غير ذلك. و من الخضروات: الدباء و الكوسة و البطاطس و الباذنجان الأحمر و هو القوطة و الباذنجان الأسود و الفاصوليا و الباميا و الملوخية و الرجله و الزبناخ و السلق و الكرنب و الكرات و البصل و البقدونس و الكزبرة و الليمون و الليم و الفلة و الجزر التمرى و الجزر اليماني و هو البطاطا، و غير ذلك من الخضروات.

و كانوا يأتون أيضا بالسمن و العسل فى قرب صغيرة، و بالحشيش للبهائم، و بالفحم و الحطب، و الدجاج و بعض الحيوانات و الطيور الصغيرة التى يصطادونها من خارج الحرم بأطراف مكة المشرفة، كالغرى و العصافير الملونة و الحمام و القمارى، و أحيانا يأتون بأبى

الحصين "الثعلب" و الذئب الصغير، و القنفذ و الكروان و اليمام و غير ذلك - كل هذا يأتون به إلى الحلقة على ظهور الجمال. فلما ظهرت السيارات في مكة المكرمة ابتداء من سنة (١٣٤٦) ألف و ثلاثمائة و ست و أربعين هجرية، ثم كثرت في وقتنا هذا و هو سنة (١٣٨٥) كثرة رائدة بحيث بطل استعمال الجمال التي كانت تحمل الأثقال من بلد إلى بلد، صار إحضار الفواكه و الخضروات بواسطة السيارات إلى الحلقة بمكة المكرمة من كل القرى و البلدان، بل صار بعض الفواكه و الخضروات تأتي إلينا من البلدان البعيدة، كالمدينة المنورة و جدة و الطائف، و من بلاد نجد كالحسا و حائل و تبوك و غيرها، و من البحرين و الكويت، فسبحان الرزاق الذي يبعث لأهل بلده الأمين بجميع أنواع الفواكه و الثمار و الحبوب و الخضار، و بجميع أنواع الأقمشة و الألبسة الجاهزة، و أنواع التجارة و العطارة، كل ذلك ببركة دعاء خليله "إبراهيم" عليه أفضل الصلاة و التسليم.

ثم لما امتد العمران إلى أطراف مكة المشرفة بنحو خمسة كيلو مترات أو أكثر، و كثر سكانها أضعافا مضاعفة عما كانت عليه في الأزمان السابقة، رأت الحكومة السعودية نقل حلقة مكة التي بالمعلا إلى جهة جروم بمكة أيضا، في محل بستان الشريف عون رحمه الله تعالى بعد خرابه، فنقلت الحلقة إلى هذه الجهة في أوائل سنة (١٣٨٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و ثمانين هجرية، نقلت لأن المصلحة اقتضت ذلك، لقد كانت حلقة المعلا منذ مئات السنين عامرة بالفواكه و الخضراوات و اللحوم و الدواجن ليلا و نهارا، و اليوم أصبحت خاوية خالية خربة دامرة.

فسبحان مغير الحال و الأحوال، لا إله إلا هو الكبير المتعال.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨١

بدء ظهور المطابع و وجودها بمكة المكرمة

قبل أن نتكلم على ظهور المطابع، لابد لنا أن نأتي بمقدمة تبين فضل الطباعة و المطابع - فنقول و بالله تعالى التوفيق. اعلم أنه قبل اختراع المطبعة و انتشارها، كانت جميع الكتب و المؤلفات تنسخ بالأيدي، و لا يخفى أن ذلك يستلزم وقتا طويلا و نفقات كبيرة، فمثلا نسخ متن الألفية لابن مالك في النحو، فإن نسخة واحدة منه يحتاج لكتابتها باليد و تصحيحه شهرا واحدا على الأقل، فلو كان عندنا خمسون طالبا مثلا، لاحتاجوا إلى خمسين نسخة منه، و هذا العدد يحتاج إما إلى خمسين كاتباً ينسخونها في مدة شهر واحد، أو يحتاج إلى خمسين شهرا إذا طلبناها من كاتب واحد، و طبعا كل كاتب يأخذ أجرا على كتابته ما يكفي لنفقته شهرا واحدا بل أكثر، لأن الكاتب في العصور الماضية، كان ينقطع للكتابة فقط لا يشتغل بغيرها، و كان الخطاطون ممن يتقنون حسن الخط، يتخصصون في الغالب في كتابة المصاحف الكريمة، و الأحاديث النبوية الشريفة، و بعضهم كانوا يتخصصون في كتابة السيرة النبوية و المدائح المحمدية و بعضهم يتخصصون في كتابة دواوين الأشعار، و القصائد التي تقال قديما و حديثا، و بعضهم كان يتخصص للكتابة لدى الملوك و الأمراء و الوزراء و الأثرياء، ينقطع لخدمتهم يكتب لهم ما شاءوا، و في أواخر الأزمان أي إلى آخر عهد الخلافة الإسلامية في الدولة التركية، و هو سنة (١٣٣٤) ألف و ثلاثمائة و أربع و ثلاثين هجرية، كان بعضهم يتخصص لكتابة فرمانات السلطانية، أي لكتابة الأوامر السلطانية و المراسيم الملوكية بالتولية و العزل أو بالإنعام و الإكرام، و كان لهؤلاء الخطاطين من المرتبات الضخمة و الإكرام الزائد، ما يجعلهم إلى أولاد الأولاد في معيشة رغدة و في ترف و نعيم كبير، و قد يكتب أحدهم للسلطان مصحفا واحدا، فيعطيه هذا ما يغنيه مدة عمره، كما بينا ذلك في كتابنا المطبوع بمصر المسمى "تاريخ الخط العربي و آدابه".

ثم لما ظهرت المطابع في الوجود و انتشرت في جميع الممالك و البلدان الإسلامية و غير الإسلامية، صار الناس يطبعون مؤلفاتهم و كتبهم بواسطتها، كل أمه تطبع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨٢

كتبها بلغتها، لأن هذه المطابع تتوفر لديها الأحرف العربية و الفارسية و الهندية و التركية و الجاوية و السريانية و العبرية و اللاتينية و

الإنكليزية و الفرنسية و الألمانية و غيرها- فإذا أردنا أن نطبع في المطابع العربية متن الألفية لابن مالك في النحو، نريد أن نطبع منه عشرة آلاف نسخة، فإننا نأخذ من المطبعة هذا العدد الضخم من النسخ جاهزة مجلدة بعد شهر واحد بل أقل من هذه المدة، مع جمال الطبع و حسن التجليد و النظافة التامة، فإذا قارنت بين عمل المطبعة و عمل الإنسان بيده تجد فرقا عظيما بينهما، فالمطبعة سريعة الإنتاج و قليلة التكاليف، شأنها شأن جميع المكين الآلية.

و مع ما للمطابع من المنافع العديدة، فإن لها مضره واحدة فقط لكنها في جوهر الموضوع و صميم الأثر و هي: أن الناس في كافة الممالك و البلدان، كانت كتاباتهم و خطوطهم جميلة حسنة، لأنهم كانوا ينسخون جميع مؤلفاتهم بأيديهم، و كان بعضهم ينقطع للكتابة و نسخ المؤلفات ليس له شغل غيرها، و هذا من أقوى الأسباب لتحسين الخط و جمال الكتابة، أما اليوم، و قد كثرت المطابع و كثرت الآلات الكاتبة، صارت خطوط الناس و كتابات أيديهم ضعيفة جدا لا تكاد تقرأ، لأنهم اعتمدوا على المطابع، و لأن جميع ما يدور من المعاملات الرسمية في دوائر الحكومات في جميع الممالك و البلدان، صار يكتب على الآلات الكاتبة، و بهذا بطل استعمال الأيدي في الكتابة، و لله الأمر من قبل و من بعد.

و حيث علمت هذه المقدمة، فلنشرع الآن في الكلام على ظهور المطابع فنقول:

لقد تكلمنا عن ظهور المطابع لأول مرة في كتابنا المطبوع بمصر المسمى (تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه)، و لا بأس أن ننقل هنا في تاريخ مكة ما كتبناه هناك في كتابنا المذكور تاريخ القرآن الكريم للفائدة العامة و هو هذا بنصه مع تصرف بسيط:

كان أول اختراع المطابع في ألمانيا سنة (١٤٣١) ألف و أربعمئة و إحدى و ثلاثين ميلادية، و بالضرورة قد مضت مدة طويلة حتى أتقنت صناعتها و ظهرت صلاحيتها التامة لدى جميع أجناس البشر، فدخلت المطبعة أولا في بلاد إيطاليا، ثم في فرنسا، ثم في إنجلترا. ثم انتشرت في جميع البلدان، و أن أول طبع للقرآن العظيم بالحروف العربية، كان في مدينة همبرج بألمانيا، و ذلك في سنة (١١١٣) التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨٣

هجريه، و يوجد من هذه الطبعة مصحف واحد بدار الكتب المصريه بالقاهرة، كما يوجد بها مزامير داود عليه الصلاة و السلام بأربع لغات مع تفسير لاتيني، طبعت بجنوة بإيطاليا سنة (٩٣٥) هجريه، ثم بعد سنة (١٥١٦) ميلادية طبع المصحف الكريم أيضا في البندقية بإيطاليا، و سبب طبع المصحف الكريم في همبرج و البندقية وجود المطابع فيهما دون البلاد الإسلامية كما هو ظاهر.

و من العجيب، أنه عند أول ظهور المطبعة بإيطاليا طعن علماءهم فيها طعنا جارحا، حتى قالوا عنها إنها بدعة همجية ألمانية، و نادى كهنتهم: لنهدم كيان الطباعة أو تهدم هي كياننا، و في ابتداء ظهور الكتب المطبوعة لم يقبل الناس على شرائها. و لما دخلت المطبعة إلى تركيا في زمن السلطان أحمد الثالث، أفتت مشيخة الإسلام بجواز استعمالها إلا أنه بقي طبع المصحف ممنوعا، ثم عادت الدولة العثمانية فمنعت المطبعة، ثم جاء السلطان عبد الحميد الأول فأعادها، و جاء السلطان محمود الأول فاهتم بها أكثر، فأول كتاب طبع بالآستانه هو "صحاح الجوهري" قيل أنه في سنة (١١٢٩) هجريه أفتى شيخ الإسلام بالآستانه عبد الله أفندي بجواز طبع كتب غير الدينية، ثم فيما بعد سنة (١١٤١) هجريه طبعت كتب هامة في اللغة و الأدب و التاريخ باللغة العربية و التركية و الفارسية، ثم استصدروا الفتوى بطبع كتب الدين و تجليد القرآن الكريم، و إن من أشهر مطابع الآستانه القديمة مطبعة الجوائب.

و إن أول من أدخل المطبعة إلى الديار التونسية محمد باشا باي، و هو الذي تولى إمارة تونس عام (١٢٧١) هجريه، و أن أول مطبعة ظهرت في حلب كان سنة (١٦٩٨) ميلادية، و إن من أقدم المطابع في لبنان مطبعة "قزحيا" و كانت حروفها سريانية، ثم صارت عربية، و مطبعة الشوير و طبع فيها المزامير سنة (١٧٣٣) ميلادية، و أقدم المطابع في بيروت هي مطبعة القديس جاورجيوس فإنها أنشئت سنة (١٧٥٣) ميلادية، و بعدها المطبعة الأميركية أنشئت في مالطة سنة (١٨٢٢) ميلادية، ثم نقلت إلى بيروت سنة (١٨٣٤) ميلادية، و بعدها المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، فقد تأسست عام (١٨٤٨) ميلادية، و كانت تطبع على الحجر ثم صارت تطبع على الحروف سنة (١٨٥٤) ميلادية، و هي أكبر المطابع و فيها حروف عربية و إفرنجية و يونانية و سريانية و عبرانية و أرمنية.

التاريخ القومي لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨٤

و إن أول مطبعة ظهرت بمصر هي مطبعة الحملة الفرنسية جاء بها بونابرت معه سنة (١٧٩٨) ميلادية، لطبع المنشورات و الأوامر باللغة العربية، و قد سميت بالمطبعة الأهلية و كانت بالقاهرة إلى شهر يونيو سنة (١٨٠١) ميلادية حين انسحاب الفرنسيين من مصر، و بعد ذلك ظلت مصر نحو عشرين عاما بغير مطبعة، حتى استقر الأمر لمحمد علي باشا والى مصر، فأنشأ هذه المطبعة الأهلية سنة (١٨٢١) ميلادية، و تعرف بمطبعة بولاق لأنها وضعت أخيرا فى جهة بولاق، و أول ما طبع فيها قاموس إيطالى عربى سنة (١٨٢٢) ميلادية، و قد اشغلت هذه أكثر من تسعين عاما و كانت أكبر مطبعة عربية فى العالم و هى التى سميت فيما بالمطبعة الأميرية، ثم كثرت المطابع بمصر الآن على مختلف أنواعها و أدخلت عليها تحسينات عظيمة جدا حسب التطور الحديث.

أما المطابع بمكة المكرمة: فإنه أول مطبعة ظهرت بمكة شرفها الله تعالى و أدام أمنها و أمانها و خيرها و رخاءها، هى المطبعة الأميرية التى سميت فيما بعد "مطبعة أم القرى" و نطلق عليها الآن "مطبعة الحكومة" و هذه المطبعة استحضرها عثمان باشا نورى الذى كان واليا على الحجاز مع الأشراف فى عهد الدولة التركية العثمانية، أتى بها فى سنة (١٣٠٣) هجرية تقريبا، و جعلها بقرب المسجد الحرام فى أول محلة أجياد و كان فى بادئ أمرها صغيرة الحجم، ثم اهتمت الحكومة السعودية بها و زودتها بآلات و أدوات كثيرة حديثة.

ثم فى عام (١٣٢٧) من الهجرة استحضر الشيخ محمد ماجد الكردى رحمه الله تعالى مطبعة على حسابه الخاص سماها "المطبعة الماجدية"، و جعلها فى داره الواسعة التى بالفلق، و قد طبع بها كثير من الكتب. ثم استحضر الشيخ محمد صالح نصيف فى عام (١٣٤٥) من الهجرة مطبعة سماها "المطبعة السلفية" ثم باعها. و للشركة العربية للطبع و النشر مطبعة تسمى "المطبعة العربية" و كان يطبع بها جريدة "صوت الحجاز" التى سميت فيما بعد بجريدة البلاد السعودية، ثم سميت "جريدة البلاد" فقط. ثم استحضر بعضهم من أهل مكة مطابع الندوة، و ذلك فى سنة (١٣٧٣) تقريبا ثم استحضر الأستاذ صالح محمد جمال مطبعة لطبع الكتب و هى مطبعة كاملة الأدوات. ثم استحضر الأستاذ أحمد السباعى مطبعة و سماها "مطبعة قريش" ثم أنشئت مطبعة تسمى "مطبعة مصحف مكة المكرمة" فى سنة (١٣٦٨) هجرية تقريبا. و هناك بمكة مطابع أخرى صغيرة لم نذكرها لعدم

التاريخ القومي لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨٥

استعدادها لطبع الكتب و الصحف و المجلات، كمطبعة الوفاء المحمدية، لصحابها الشيخ عبد الرحيم ملاه و إخوانه، و كمطبعة الشيخ عبد الله الكردى، و المطبعة الوطنية.

هذا و من أراد التوسع فى البحث عن تاريخ الطباعة العربية، فليراجع كتابا خاصا طبع فى هذا الشأن اسمه (تاريخ الطباعة فى الشرق العربى) للدكتور خليل صابات- طبع بدار المعارف بمصر. أو يراجع الجزء الرابع من كتاب "تاريخ آداب اللغة العربية" للجورجى زيدان، و مجلة الهلال لسنة ١٩٠٩ و ١٩٢٢ ميلادية، و مجلة المشرق لسنة ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ميلادية، و مجلة المقتطف لسنة ١٩٠٧ ميلادية، و تاريخ جودت الجزء الأول.

الجرائد و المجلات بمكة المكرمة

كانت منذ سنوات قليلة تصدر بمكة المكرمة و تطبع بها بعض الجرائد و المجلات، كجريدة البلاد السعودية، و جريدة الندوة التى تسمى من قبل جريدة "حراء" و جريدة أم القرى و هى التى كانت تسمى فى عهد الشريف الحسين ملك الحجاز الأسبق رحمه الله تعالى "جريدة القبلة"، و مجلة المنهل، و مجلة الحج، و جريدة قريش.

ثم منذ سنة (١٣٨١) هجرية أو فى التى يليها انتقل طبع بعض الجرائد إلى جدة، فضارت تطبع هناك و تصدر منها إلى كافة بلدان المملكة العربية السعودية، و بعضها قد ألغيت، و البعض الآخر ما زال يطبع بمكة المشرفة و تصدر منها إلى الآن، و هى كما يأتى:

(١) جريدة أم القرى، و هى أقدم الجرائد عندنا.

(٢) جريدة الندوة.

(٣) مجلة الحج.

هذه هي الجرائد و المجلات التي تطبع بمكة و تصدر منها فقط. و لا نريد أن نخوض في مختلف الجرائد و المجلات التي تطبع في بعض بلدان المملكة السعودية، لأن هذا الكتاب خاص بتاريخ مكة المكرمة، لكن لصديقنا الكريم و زميلنا في عهد الدارسة الأولى بمدرسه الفلاح بمكة الأستاذ محمد سعيد العامودي رسالة قيمة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨٦

اسمها "من تاريخنا" ذكر فيها نبذة طيبة عن الجرائد و المجلات في مبحث بعنوان "من تاريخ الصحافة في بلادنا" آثرنا أن نذكره بنصه للفائدة العامة، و هو هنا:

يقول المعنيون بتاريخ الصحافة، إن أول صحيفة عربية صدرت في العالم العربي هي صحيفة "الحوادث اليومية" التي أنشأها نابليون بونابرت في القاهرة عام ١٧٩٩ م.

و أول صحيفة صدرت في لبنان هي "حديقة الأخبار" عام ١٨٥٨ م ثم صدرت في دمشق جريدة "سوريا" عام ١٨٥٦ م و في العراق جريدة "الزوراء" عام ١٨٦٩ م و في اليمن جريدة "صنعا" عام ١٨٧٩ م و في فلسطين جريدة "النفيير العثماني" عام ١٩٠٤ م.

فما هي أول صحيفة صدرت في هذه البلاد؟

في بحث قيم للأستاذ البحاث رشدي ملحس عن تاريخ الطباعة و الصحافة في الحجاز يقول: "إن أول صحيفة صدرت في مكة هي جريدة "الحجاز" و هي جريدة أدبية علمية أسبوعية تصدر باللغتين العربية و التركية أصدرتها الحكومة العثمانية عام ١٣٠١ هـ و استمر صدورها إلى عام ١٣٣٤ ثم انقطعت عن الصدور حين خروج الحكومة التركية من هذه البلاد."

و يقول الأستاذ: "و كان يتولى الأشراف عليها أي جريدة الحجاز هذه (مكتوبجي) الولاية و اشترك في تحرير قسميها العربي و التركي كل من أحمد جمال أفندي منشئ ديوان الولاية، و أحمد حقي أفندي الكاتب في الديوان المذكور و الشيخ محمود شلهوب، و غيرهم، و كانت تطبع بأربع صفحات في المطبعة الأميرية" هـ.

و من الواضح أن الحالة الفكرية العامة في البلاد في تلك الفترة لم تكن تسمح بوجود أكثر من هذه الصحيفة، غير أنه منذ عام ١٣٢٧ هـ أي بعد الانقلاب العثماني المشهور بدأت الصحف في الظهور، فصدرت في تلك السنة في جدة جريدة "الصفاء" باللغة العربية غير أن هذه الصحيفة لم يصدر منها سوى عدد واحد فقط. ثم صدرت بعدها في جدة في نفس السنة جريدة "الإصلاح" لصاحبها "راغب مصطفى توكل" و كان يتولى تحريرها صحفى لبناني هو "أديب هراوى" و استمر صدورها بضعة أشهر ثم توقفت عن الصدور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨٧

و في عام ١٣٢٧ أيضاً صدرت في مكة جريدة يومية باسم (شمس الحقيقة) و كانت تصدر باللغتين العربية و التركية مرة كل أسبوع مؤقتا لصاحب امتيازها و مديرها المسؤول "محمد توفيق مكى" و نائب مديرها "إبراهيم أدهم" و كانت هذه الجريدة لسان حال جمعية الاتحاد و الترقى بمكة، و قد توقفت عن الصدور أيضاً بعد أن ظلت تصدر بضعة شهور.

و صدرت في المدينة المنورة أثناء الحرب العالمية الأولى جريدة باللغة التركية لم أطلع عليها و لا أذكر اسمها بالتأكيد.

هذه هي كل الصحف في العهد العثماني، فإذا استثنينا أولها و هي التي استمرت من حين صدورها إلى عام ١٣٣٤- لأنها الجريدة الرسمية- تبين لنا أنه يكن هناك صحافة سوى ما ظهر منها خلال بضعة أشهر من عام ١٣٢٧ هـ، و مع ذلك لم يكن لهذه الصحف أية قيمة أدبية أو سياسية، أو أثر في تكوين الوعي، أو توجيه التفكير.

و مما يلفت النظر أنه لم تظهر طيلة العهد العثماني كله مجلة واحدة للعلوم و الآداب و ما من شك في أن السبب في ذلك يعود إلى قلة انتشار التعليم، و اعتماد المدرسه الرشديه- و لعلها المدرسه الحكوميه الوحيدة في مكة إذ ذاك- اعتمادها في التعليم على اللغة

التركية وحدها.

و إليك أنموذجا من تحرير صحافة ذلك العهد. نقله عن العدد الخامس من جريدة "شمس الحقيقة" الصادر في يوم الثلاثاء غرة ربيع الأول عام ١٣٢٧ فقد جاء في صدر العدد المذكور، و في مكان الافتتاحية بعنوان "تنبيه" ما يأتي:

"ينبغي لمن شاء أن يكتسبنا في موضوع أن ينبذ وراءه المصلحة الذاتية فإن الأفكار الراقية التي لا تعميها الأغراض الشخصية و لا الأطماع الذاتية تنظر بنور الله إلى مصلحة الوطن العمومية.

ألا ترى سيدنا موسى الكليم عليه السلام قال: أ خَرَقْتُهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا و لم يقل لتغرقني نظر في ذلك لغيره و قدمه على شخصه في وقت الغرق الذي لا يعرف الإنسان فيه إلا نفسه فليخش الله المكاتبون، و ليق الله المحررون، و لا يحرروا لجريدتنا سوى الحقيقة لأنها "شمس الحقيقة" ثم ليكتبوا في دائرة واجبات الصحافة الحرة التي ذكرناها سابقا لأن جريدتنا تنزه عن المثالبه و ما ضاها. نسأل الله التوفيق لسعادة الوطن."

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨٨

و لعل النبذة الآتية تدل على ما كانت عليه حالة التعليم في الحجاز في ذلك العهد فقد جاء في هذه الصحيفة في عددها الثاني عشر الصادر في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ ه بعنوان "هل ترقى الحجاز قبل السودان"؟ ما يأتي:

"ظهرت جريدة في الخرطوم بالسودان تسمى "الخرطوم" غايتها أن تبذل السعي في ترقى أبناء ذلك الوطن ففرح بها أهل السودان و نحن نتمنى لها دوام الانتشار و نستلفت أنظار أولى الأمر بالتسريع في أمر ترقى الحجاز من تأسيس المكاتب- يقصد المدارس- و غير ذلك فإن دوائر الحكومة لو احتاجت إلى كاتب للزم جلبه من خارج الولاية. أهلك الله الاستبداد ما أشد تدميره!"

و بمقارنته صحيفة شمس الحقيقة هذه بصحيفة الإصلاح التي كانت تصدر في جدة تبدو هذه الأخيرة أرقى من حيث التحرير و من حيث الطباعة عن زميلتها الأولى. بل و من صحيفة الحجاز أيضا. الصحيفة الرسمية للحكومة التركية.

و لم أطلع على العدد الوحيد الذي صدر في جدة من جريدة "الصفاء" و ربما كانت هذه الصحيفة تشارك زميلتها الإصلاح من حيث رونق الطباعة و اتساق التحرير.

و الواقع أنه لم يكن غريبا أن تكون صحافة بلادنا في ذلك العهد بدائية إلى هذا الحد ... لم يكن غريبا أن يكون هذا حال الصحافة في بلاد لم يكن فيها مدارس للتعليم سوى مدرسة واحدة للحكومة يتلقى التلاميذ فيها قشورا من المعلومات الأولية باللغة التركية و سوى مدرسة أهلية دينية ... هي المدرسة الصولتية.

و هكذا ...!

و هكذا ظل الحجاز، و ظلت جميع أنحاء الجزيرة العربية طيلة العهد العثماني ...

لا صحافة و لا مدارس و لا تعليم بالمعنى الصحيح لكلماتي مدارس و تعليم!

و كانت النهضة العربية في عام ١٣٣٤ ه فيصلا بين عهدين "تابعية عثمانية"، و عهد استقلال ... إلا أن الواقع أثبت مع الأسف الشديد أن تلك النهضة كانت "ضئيلة الأثر" من ناحيتها الاجتماعية و الثقافية، و لهذا كان أثرها ضئيلا أيضا في الميدان الصحفي ... و قد صدرت جريدة "القبلة" في أولى سنوات النهضة و بتعبير أدق سنة ١٣٣٤ ه و كان يساهم في تحريرها نخبة من صفوف أدباء العرب يكفي أن نذكر منهم السيد فؤاد الخطيب الشاعر الكبير المعروف، و السيد محب الدين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٨٩

الخطيب، و أحمد شاكر الكرمي و غيرهم ... و الحق أقول أنه كان يمكن أن يكون لجريدة القبلة إذ ذاك شأن مرموق في عالم الصحافة العربية لولا بعض عوامل و قفت بها في بداية الطريق.

و صدرت في عام ١٣٣٨ جريدة باسم الفلاح لصاحبها السيد عمر شاكر، و كانت هذه الصحيفة تصدر في سوريا قبل دخول الفرنسيين

إليها فهاجر بها صاحبها من سوريا إلى الحجاز.

و في عام ١٣٣٨ أيضاً، صدرت المجلة الزراعية و هي مجلة شهرية كان يتولى تحريرها طلاب المدرسة الزراعية بمكة، و قد ظهرت الأعداد الثلاثة الأولى من هذه المجلة في صورة لا بأس بها من حيث الإنشاء و التحرير فلو أن هذه المجلة أتيح لها أن تستمر، بل لو أنه أتيح للمدرسة الزراعية التي كانت تقوم بإخراجها أن تستمر لكانت الحال غير الحال و لكن ...

و في عام ١٣٤٣ صدرت في جدة جريدة "بريد الحجاز" ثم توقفت عن الصدور في نفس العام بعد أن صدر منها (٥٢) عددا و قد كانت هذه الصحيفة أسبوعية و هي آخر صحيفة ظهرت في عهد الحكومة الهاشمية.

و في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ في أول عهد حكومة المغفور له الملك عبد العزيز صدر العدد الأول من جريدة "أم القرى"، و كان يرأس تحريرها في أول ظهورها معالي الأستاذ الشيخ يوسف ياسين ثم الأستاذ رشدي ملحس ثم تولى تحريرها فترة من الزمن المرحوم محمد سعيد عبد المقصود، فالأستاذ عبد القدوس الأنصاري و يرأس تحريرها الآن الأستاذ الطيب الساسي.

ثم صدرت بعد ذلك مجلة الإصلاح عن شعبة الطبع و النشر بمديرية المعارف في عام ١٣٤٧ و كان يديرها الأستاذ محمد حامد الفقى و هي مجلة دينية أخلاقية كانت تصدر مرة في الشهر، ثم توقفت عن الصدور في عام ١٣٤٩ هـ.

و في عام ١٣٥٠ صدرت جريدة "صوت الحجاز" لصاحب امتيازها الوجه الشيخ محمد صالح نصيف و رئيس تحريرها الأستاذ عبد الوهاب آشي، و قد تعاقب عليها فيما بعد رؤساء تحرير عديدون أذكر منهم الأساتذة "أحمد إبراهيم الغزاوي" و "السيد حسن الفقى" و "محمد سعيد العامودي" و "محمد حسن عواد" و "أحمد السباعي" و "محمد علي رضا" و "محمد علي مغربي" و غيرهم ثم انتقل امتياز هذه الصحيفة في عام ١٣٥٤ إلى شركة الطبع و النشر العربية و ظلت تصدر أسبوعياً،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩٠

ثم مرتين في الأسبوع، ثم توقفت عن الصدور في بعض سنوات الحرب الأخيرة بسبب قلة الورق، ثم عادت إلى الصدور أسبوعياً عام ١٣٦٥ باسم "البلاد السعودية" و تولى رئاسته تحريرها الأستاذ عبد الله عريف.

و قد تمكنت جريدة البلاد السعودية من الصدور مرتين في الأسبوع و أخيراً ثلاث مرات في الأسبوع و هي في طريقها إلى الصدور يومياً في القريب العاجل إن شاء الله، و قد صدرت يومياً ابتداء من شهر ربيع الثاني من السنة (١٣٧٣) هـ.

و قد راجت هذه الصحيفة في السنوات الأخيرة رواجاً أكثر من أي عهد مضى، و أصبح لها قراء من كل الطبقات و هي لا ينقصها إلا زيادة العناية بالأخبار الخارجية و المحلية، ثم الإقلال من المواضيع الأدبية بقدر الإمكان لعلاقتها هذه المواضيع بالمجلات أكثر من علاقتها بالصحف الإخبارية.

و في عام ١٣٥٥ هـ صدرت مجلة "المنهل" في المدينة المنورة و هي مجلة شهرية للآداب و العلوم لصاحبها و رئيس تحريرها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، و هي ثانياً مجلة شهرية صدرت في هذه البلاد بعد المجلة الزراعية التي أسلفنا الإشارة إليها و قد تطورت هذه المجلة بحيث أصبحت لا- تقل في مادتها و في أسلوبها عن مثيلاتها من المجلات الأدبية الراقية في العالم العربي، و أصبحت تصدر في مكة منذ عام ١٣٥٦.

و مجلة المنهل تعتبر المجلة الأدبية الأولى في المملكة السعودية.

و في عام ١٣٥٥ صدرت جريدة المدينة المنورة لصاحبها الأستاذين الشقيقين علي و عثمان حافظ و هي جريدة أسبوعية نشيطة تعنى بالأخبار أكثر من عنايتها بالمقالات و البحوث، و بالأخبار العربية و الإسلامية على وجه الخصوص.

و كانت تصدر قبل الحرب الأخيرة مجلة النداء الإسلامي لصاحبها الأستاذ مصطفى أندرقيرى ثم توقفت عن الصدور.

ثم صدرت في غرة رجب من عام ١٣٦٦ مجلة الحج و هي مجلة شهرية إسلامية تتولى إصدارها إدارة شؤون الحج و كان يرأس تحريرها في أولى سنواتها الأستاذ السيد هاشم زواوي، ثم كاتب هذه السطور منذ أول عام ١٣٧٠ هـ و تعنى هذه المجلة بالمواضيع

الإسلامية بصورة عامة ثم بكل ما يتصل بشؤون الحج والحجاج.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩١

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى ظهور مجلة جديدة راقية و تلك هي "اليمامة" لصاحبها ومؤسسها الأديب الباحث المعروف الأستاذ حمد الجاسر، و اليمامة تصدر في الرياض و هي أسبوعية أدبية علمية، غير أنها تصدر الآن مرة في الشهر مؤقتا و قد كانت الأعداد التي صدرت منها حافلة بأجود المقالات و البحوث في مختلف موضوعات اللغة و الدين و الأدب و التاريخ و بأقلام سعودية ناضجة مما يبشر بأن لهذه المجلة الناهضة مستقبلا مجيدا إن شاء الله.

و بعد ... فهذه الإمامة موجزة عن تاريخ الصحافة في هذه البلاد، و لئن كان من واجبنا أن نقرر هنا أن صحافتنا في كل من عهدتها التركي و الهاشمي لم يكن لها أثر يذكر ... فإن من واجبنا أيضا أن نقول أنها قد بدأت الآن تشق الطريق ... و الأمر الذي لا يختلف فيه اثنان أنها في حاضرها قد أصبحت شيئا آخر يختلف كل الاختلاف عما كانت عليه فيما مضى ...

و الأمل بعد و في هذا العهد الباسم السعيد العظيم في أن تخطو صحافتنا خطوات واسعة و سريعة ... نحو القوة و الازدهار! انتهت من الرسالة المذكورة "من تاريخنا."

إنارة مكة المكرمة بالكهرباء

كانت مكة المشرفة تنار شوارعها و أزقتها ليلا- في أول الأمر بالزيت كما هو الشأن في جميع الأقطار في بادئ الأمر، ثم صار أهلها يستعملون الشموع، ثم صاروا يستعملون زيت النفط و هو الكاز، فينبون منازلهم و غرفهم و شوارعهم بفوانيس الكاز، و هذه الفوانيس أنواع متعددة، ثم صاروا يستعملون الأتاريك التي فيها فتائل حريرة و هي تشعل بالكاز.

ثم صارت الإنارة في وقتنا الحاضر بواسطة الكهرباء، فلقد امتدت الأسلاك الكهربائية في جميع منازل مكة المكرمة و في شوارعها و أزقتها و جميع مرافقها، و قبل كل شيء إنارة المسجد الحرام بالكهرباء، و لقد ذكرنا بالتفصيل تدرج الإنارة بالوقود و الشموع و الزيوت ثم الكهرباء، و ذلك عند الكلام على إنارة المسجد الحرام من هذا الكتاب فراجع هنا. اللهم نور قلوبنا و أبصارنا و أسماعنا و بصائرنا بفضلك و رحمتك آمين.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩٢

ظهور بوليس النجدة بمكة المكرمة

كان ظهور بوليس النجدة لأول مرة بمكة المكرمة في أول عام (١٣٨٥) من الهجرة، و لقد انتشر بوليس النجدة في جميع الممالك و الأقطار العربية و غير العربية، و لقد خصص لبوليس النجدة أربع سيارات بمكة المكرمة، و هي مزودة بضباط و شرطة، و في كل سيارة تليفون أوتوماتيكي رقم كل تليفون (٩٩) فإن حصل أى حادث يطلب الإنسان بوليس النجدة بهذا الرقم، فيحضرون بسياراتهم إلى مكان الحادث في أقرب وقت، فيأخذون أصحاب الحوادث إلى مركز الشرطة للتحقيق و إجراء اللازم نحوهم.

الإطفاء بمكة المكرمة

لقد تكلمنا بالإسهاب و التفصيل عن وجود الإطفاء بمكة المكرمة في غير هذا المحل، و هنا نكرر الكلام عنه باختصار زيادة في الإشعار و التنبيه فنقول: لقد أوفدت الحكومة السعودية عن طريق أمانة العاصمة بمكة المشرفة، و ذلك قبل سنة (١٣٦٧) أول بعثة للتمارين على إطفاء الحرائق و طرق الإنقاذ، و إليك أعضاء هذه البعثة:

- (١) على عوض.
 - (٢) إبراهيم فرحات.
 - (٣) عبد الكريم مرزا.
 - (٤) محيي الدين صواف.
 - (٥) عبد العزيز مراد.
- وقد أتم هؤلاء دراستهم بنجاح باهر فعادوا إلى بلادهم لخدمتها. انتهى من كتاب "من وحى البعثات السعودية" لصديقنا الأستاذ صالح جمال الحريري، و من أراد زيادة البحث عن الإطفاء قديما و حديثا فلينظر في محله في هذا الكتاب.

البريد و التلغراف و التليفون بمكة المكرمة

- يتبع وزارة المواصلات عندنا أربع إدارات و هي كما يأتي:
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩٣
- (١) إدارة البريد.
 - (٢) إدارة التليفونات.
 - (٣) إدارة التلغرافات "البرقيات".
 - (٤) إدارة أعمال الطرق و إصلاحها.
- و إن الذى يرأس وزارة المواصلات شاب أديب شهير، و ذكى له نشاط كبير، ألا و هو صديقنا الأستاذ محمد عمر توفيق أدام الله تعالى توفيقه.
- أما أعمال الطرق و إصلاحها و تسهيل المواصلات بين جميع بلدان مملكتنا العربية السعودية، فإننا نقول باختصار: أنه لم تعرف المملكة كلها سفلة الطرق و إصلاحها بالإسفلت إلا فى زمن الحكومة السعودية، و أن أول ما بدأت الحكومة بإصلاح الطرق، هو طرق الحرمين الشريفين، لتيسير أداء الحج و الزيارة للحجاج الكرام، كما تكلمنا عن ذلك فى هذا الكتاب فى مواضع عديدة حسب ما تقتضيه المناسبات، ثم امتدت أيدي العمال لسفلة طرقات المدن الأخرى من المملكة، و أن لدى وزارة المواصلات مشاريع عديدة، لا تتمكن من الكلام عنها و لا من حصرها، لأنها كثيرة متعددة الجوانب.
- لكن سنتكلم عن الإدارات الأخرى و هي (البريد- و التلغراف- و التليفون) نتكلم عن كل إدارة منها بنبذة صالحة مفيدة، للإحاطة بها على وجه العموم، و إن كان فى كل إدارة مشاريع كثيرة هي أدرى بها.
- و قبل أن نذكر عنها شيئا، نضع هنا صورة صديقنا الفاضل معالى الأستاذ محمد عمر توفيق وزير المواصلات، و وزير الحج و الاوقاف أيضا بالنيابة، و هي هذه.
- و إليك الآن الكلام على البرق و البريد و التلغراف، و نذكرها بالنسبة لمكة المكرمة، لأن هذا التاريخ خاص لنفس هذه البلدة الطاهرة المقدسة، و إن كانت هذه الإدارات فى جميع مدن المملكة.
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩٤

البريد و تطوره بمكة المكرمة

قال فى المصباح المنير: البريد الرسول، و منه قول بعض العرب: الحمى بريد الموت، أى: رسوله ثم استعمل فى المسافة التى يقطعها و

هي اثنا عشر ميلا، و يقال لدابة البريد بريد أيضا لسيره في البريد، فهو مستعار من المستعار، و الجمع برد بضمين، انتهى المراد منه. و قال في مختار الصحاح ما ملخصه: و البريد المرتب يقال: حمل فلان على البريد، و البريد أيضا اثنا عشر ميلا و صاحب البريد قد أبرد إلى الأمير فهو مبرد و الرسول بريد، قلت: قال الأزهري: قيل لدابة البريد بريد لسيره في البريد، و قال غيره: البريد البغلة المرتبة في الرباط تعريب بريده دم، ثم سمي به الرسول المحمول عليها ثم سميت بن المسافة. انتهى منه.

و جاء في بعض كتب الفقه أن مقدار الميل الواحد هو ستة آلاف ذراع بذراع اليد فإذا ضربنا ١٢ ميلا * ٦٠٠٠ ذراع فيكون حاصل الضرب (٧٢٠٠٠) ذراع و هذا هو مقدار البريد بذراع اليد. و الميل يساوي (٢) كيلو متر إلا قليل، فيكون البريد يساوي ثلاثا و عشرين كيلو متر تقريبا، أي تكون مسافة البريد من مكة المكرمة إلى ما بعد الشمسي في طريق جدة بنحو خمس كيلو مترات تقريبا. و يطلق البريد في عصرنا الحاضر على (البوسطة) و هي كلمة تركية أو فارسية، و هي الكتب أو الخطابات أو الأشياء الواردة من بلدة إلى بلدة أو من قطر إلى قطر بانتظام مرتب، إما في كل يوم أو في كل أسبوع أو في مدة أقل أو أكثر.

قالوا: و أول من وضع البريد في الإسلام هو سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فكانوا في القرون الأولى للإسلام يخصصون دوابا من الخيل و البغال و الحمير لحمل البريد. فكانوا يجعلون في كل ثلاث و عشرين كيلو مترا بعضا من الدواب المذكورة لحمل البريد. فمثلا يجعلون عند كل ثلاث و عشرين كيلو مترا مكانا خاصا لوقوف دواب البريد، فإذا سارت الدابة من مكة مثلا إلى مسافة ثلاث و عشرين كيلو مترا أي إلى ما بعد الشمسي تقف عندها ثم تحمل عنها البريد دابة أخرى من هذا المكان فتسير إلى أن تصل إلى مسافة ست و أربعين كيلو مترا فتقف هناك و تحمل عنها البريد دابة ثالثة فتسير إلى مسافة تسع و ستين كيلو مترا أي تصل إلى جدة و هكذا الحال في جميع البلدان في حمل البريد ذهابا و إيابا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩٥

هذا و لقد كانوا في الأزمان الماضية يخصصون حمام الزاجل لحمل الرسائل في الأمور المهمة، في الحروب و غيرها لأن لهذا النوع من الحمام ذكاء خارقا و هو يطير في اليوم الواحد نحو ألف فرسخ، و الفرسخ في كتب الفقه ثلاثة أميال، و الميل أربعة آلاف خطوة و الخطوة ثلاثة أقدام. و الميل الواحد يساوي اثنين كيلو مترا إلا قليلا.

فإذا علمنا هذا و قلنا أن الحمام الزاجل يطير في اليوم الواحد ألف فرسخ- و الفرسخ يساوي خمس كيلو مترات و أربعين مترا- فإنه يكون مسافة ما يطير الحمام الزاجل في اليوم الواحد هي خمسة آلاف و أربعين كيلو مترا، و إذا علمنا أن المسافة بين مكة المكرمة و المدينة المنورة هي أربعمئة و سبع و تسعين كيلو مترا، فإنه يطير الحمام الزاجل في اليوم الواحد بمقدار عشر مرات من المسافة ما بين مكة المكرمة و المدينة المنورة.

لذلك كان ثمن الحمامة الواحدة من حمام الزاجل قد بلغ سبعمائة دينار ذهباً في الأزمنة الماضية. و قد ذكر المؤرخون أن حمامة من هذا النوع طارت من خليج القسطنطينية إلى البصرة فبلغ ثمنها ألف دينار من الذهب الخالص. و قالوا إن ثمن بيضتي الحمامة الفارسة من النوع الزاجل تساويان عشرين دينارا من الذهب. و هذا كلام معقول مقبول لبيض هذا الطائر الفريد النبيل. و لقد بلغ من عناية الأقدمين بهذا النوع من الحمام الزاجل أنهم حافظوا على أنساب هذا الطائر الميمون فاتخذوا لها دفاتر و سجلات لتقيد أفراخها و أولادها فيها كما حافظوا على أنساب العرب و أنساب خيولهم الأصيلة.

و لقد ذكر المؤرخون أيضا أن السلطان نور الدين الشهير رحمه الله لما فتح كثيرا من البلدان اتخذ حمام الزاجل لإرسال الخطابات معه إلى من يدين له بالولاء و إلى من هو تحت حكمه ليقف على أخبار الحروب و الممالك و ذلك في عصر الحروب الصليبية و قد اتخذ لهذا الحمام في كل جهة و بلدة أبراجا و أقام لها حفظة و حراسا للعناية بطعامه و شرابه و نظافة أمكنته و مراقبه وصول المسافرين منه، و أخذ الرسائل التي يحملها تحت جناحه أو في رجله. و كان كل برج من أبراجه يبعد عن الآخر بنحو اثني عشر ميلا، و كان ينفق في سبيل هذا الحمام الزاجل أموالا طائلة.

و كان حارس كل برج يقيد ساعة وصول الحمامة على ظهر الرسالة التي يحملها.

و هذا النوع من الحمام لا يولد متعلما، و إنما الرجال المتخصصون في ذلك يعلمونه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩٦

و يدرّبونه على الأعمال و ولاء الأمور كانوا لا يهتمون أمر هذا الطائر بل يراقبون وصوله و سفره بدقة تامة و عناية عظيمة لأن بعض شئون الدولة متعلقة به في رسائله التي يحملها. و لقد استعمل السلطان صلاح الدين بن أيوب حمام الرسائل أي حمام الزاجل في حصار عكا الذي استمر مدة سنتين. و لقد ألف العلماء و الأدباء في ذلك العصر في حمام الزاجل رسائل قيمة، منها (تمائم الحمام) و منها "مسابقة البرق و الغمام في سعة الحمام".

هذا و إن أول من أرسل الحمام لاستكشاف الأخبار سيدنا نوح عليه الصلاة و السلام. فقد روى الإمام الأزرقى رحمه الله في أول تاريخه ما يأتي: عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا معهم أهلهم و أنهم كانوا أقاموا في السفينة مائة و خمسين يوما و أن الله تعالى وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها الله تعالى إلى الجودي. قال: فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوق على الجيف و أبطأ عنه فبعث الحمامة فأثته بورق الزيتون و لطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضبت فهبط إلى أسفل الجودي. انتهى من تاريخ الأزرقى.

نقول إن إرسال سيدنا نوح عليه الصلاة و السلام الحمامة لتأتيه بخبر انحصار الماء عن الأرض إنما هو من معجزاته عليه الصلاة و السلام. و لا يبعد أن يكون حمام الزاجل من نسل حمام هذه السفينة. و الله تعالى أعلم بغيبه، و لا يبعد أن يكون إطلاق الناس على الحمام (حمامة السلام) استنتاجا من قصة حمامة نوح عليه الصلاة و السلام.

هذا ثم لما تقدم الناس في عصرنا الحاضر في المدينة و الحضارة و العمران و اخترعوا آلات التلغراف "البرق" و التلغرافات و غير ذلك من الاختراعات العجيبة التي لا تعد و لا تحصى، استغنوا عن استعمال حمام الزاجل و إرساله بالرسائل و صاروا يرسلون الرسائل و الخطابات بواسطة البريد المسجل المضمون في البر و البحر و الجو، و من كان مستعجلا في أمر أرسل برقية إلى البلدة التي يريدتها سواء كانت في البلاد الإسلامية أو في البلاد الأوروبية. و ما كان من الأمور المهمة السرية يرسلون برقياتهم بالشفرة و الرموز. و بذلك بطلت عادة إرسال حمام الزاجل بالرسائل لكثرة وسائل المواصلات السريعة. و مع ذلك فإن جنس الحمام

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩٧

الزاجل لم ينقرض، بل ما زال شيء من حمام الزاجل موجودا إلى اليوم في بعض الأقطار كمصر و الشام و العراق و بعض البلدان الأوروبية و يحافظون على هذا النوع من الحمام كمحافظة على الآثار ... هكذا كان حال البريد في العصور الماضية.

ثم تدرج حال البريد شيئا فشيئا و تطور تطورا عظيما في عصرنا الحاضر حتى صار له أدق النظمات و أحكم القوانين كما هو معروف لدى جميع العالم. و إن أول من وضع أساس إدارات البريد و إدارات التلغراف و البرقيات و إدارات التليفونات الدولة التركية العثمانية ... وضعتها عندنا بمكة المكرمة، و بسائر مدن الحجاز بل و سائر البلدان و الممالك الإسلامية التي كانت كلها تحت حكمها. فلما استقلت هذه الممالك كلها بنفسها و زال حكم الأتراك عنها حافظت على هذه الإدارات و صارت كل مملكة تزيد في أنظمتها و قوانينها ما تراه صالحا لخدمة الجمهور حتى وصلت حالتها اليوم شأوا بعيد المدى.

هذا و لقد أدركنا رسائل البريد و الأمانات تذهب بالحمير في كل يوم قبل وجود السيارات و الطائرات من مكة المكرمة إلى جدة، و إلى الطائف و إلى المدينة المنورة و إلى ما حول ذلك من القرى، و كانوا يسمون ذلك (بوستة الحمامة) بتشديد الميم، فإذا وصلت هذه الرسائل و الأمانات إلى البلدة أخذ الرجال الموظفون المختصون بهذا الأمر جميع الرسائل و الأمانات و سلموها إلى أصحابها بأمانة تامة، لا- يحصل فيها شيء من الخيانة و التغيير، حتى لقد كانت ترسل معهم صرر الفلوس من الريالات الفضية و الجنيهات الذهبية. و إذا حصل أمر مهم يقتضى سرعة إرسال الرسائل و الأمانات بغاية الاستعجال فإنهم كانوا يرسلونها مع النجاب، بفتح النون و

تشديد الجيم، و هو رجل سريع الذهاب و العدو فيمشى على رجليه مهرولا- من مكة إلى جدة أو من الطائف إلى مكة فيسلمها لأصحابها فيصل هذا النجّاب إلى البلدة قبل وصول الحمارة بكثير، و عندنا في العرب بعض الرجال معروفون بالعدو السريع. هذه الحالة كانت معروفة عندنا إلى أوائل العهد السعودي أي إلى سنة (١٣٤٧ هـ) ألف و ثلاثمائة و سبع و أربعين هجرية. ثم من بعد هذه السنة المذكورة كثرت السيارات عندنا، فصار البريد يرسل بالسيارات إلى جميع المدن، كما يرسل بالطائرات إلى داخل المملكة و خارجها. و تطور عندنا نظام البريد تطورا عظيما فاستراح الناس فيه راحة تامة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩٨

هذا و لقد طلبنا من سعادة الشيخ عبد الله عبد الرحمن طيب مدير بريد مكة المكرمة أن يفيدنا بالتفصيل عن تطور حالة البريد عندنا بمكة، فجاءنا منه الجواب الآتي في منتصف جمادى الأولى سنة (١٣٨٥) هجرية.

البريد في مكة

عرفت مكة إدارة البريد منذ العهد العثماني باسم "البوستة" و قد كانت خدمات البوستة ضيقة في حدود معينة لا تعدو عن نقل بعض خطابات عادية و مسجلة بين مدن الحجاز، بين مكة و جدة، و بين مكة و المدينة و بينها و الطائف. و من الوسائل التي كانت تستعمل لنقل البريد "الحمير" و كان ساعى البريد الذى ينقل الخطابات يطلق عليه (موزع الحمارة) بتشديد الميم، و ظل موزع الحمارة اسما معترفا به في البريد إلى عهد قريب جدا. و من المباني التي عرفتها إدارة البريد بمكة مبنى الإسعاف الخيري فهو أول مبنى شبه أنموذجي تأسس لإدارة بريد مكة و البرق و التلفون و اللاسلكي و كان يدير العمل فيه موظفان اثنان. و العمل عبارة عن جمع أعمال البرقيات و الخطابات و التلفونات و بعض موزعين.

و صدرت طوابع بريديّة حجازية في عهد الحسين بن علي ثم و شحت هذه الطوابع في أوائل العهد السعودي بجملته "سلطنة نجد و الحجاز" و لم تلبث أن صدرت طوابع سعودية باسم المملكة العربية السعودية ... في بداية العهد الجديد الذى أخذت المرافق العامة كلها تحظى بعناية الدولة. و تكونت إدارة عامة لمصلحة البرق و البريد و اللاسلكي تحت إدارة مديرها العام الشيخ عبد الله كاظم و اتخذ لهذه المصلحة مبنى كبير فى القشاشية ثم انتقل البريد بعد أن توسعت أعماله و تحسنت خدماته العامة و تعددت أقسامه إلى عمارة الأشراف فى أجياد و فى أوائل عام ١٣٧٩ هـ ابتاعت وزارة المواصلات المبنى الحالى بسوق المعلا.

تتكون إدارة البريد حاليا من أكثر من خمسة عشر قسما أهمها أقسام الواردة و الصادرة و الحوالات و المؤنات و الترحيل و التوزيع ... و يوجد للبريد الحالى ثمانية شعب منبثة فى مختلف أنحاء مكة ... أهمها شعبة القشاشية و أجياد و المسفلة و الشبيكة و جرول ... و قد تطورت إدارة بريد مكة تطورا ملحوظا فى الأيام

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ١٩٩

الأخيرة و تحسنت الخدمة البريدية تحسنا ملموسا حتى أن ذلك دعى إلى تسيير بريد متنقل أيام الحج، و لا سيما أيام التشريق بمنى ليسهل الخدمة البريدية للحجاج.

و قد بلغ مجموع ما استقبلته إدارة البريد من خطابات فى اليوم الواحد فى أيام موسم الحج عام ١٣٨٤ هـ مائة و خمسين ألف خطاب صادرة من مكة إلى مختلف أقطار الأرض كما استلمت من الخطابات الواردة ما يربو عن مائتى ألف رسالة فى يوم واحد. و من منذ سنة تقريبا تم الاتصال المباشر بين بريد مكة و بعض المراكز البريدية العالمية و العربية، منها الهند و باكستان و إندونيسيا و مصر، و بعض دول أوروبا، و الدول العربية. و قد كان قبل هذا الاتصال يتوسط مركز بريد جدة بين مكة و بقية المراكز العالمية.

و إدارة بريد مكة تتصل اتصالا مباشرا فى مهامها بوكالة المصلحة لمنطقة مكة و وكيل المدير العام فى هذه الوكالة هو الأستاذ جعفر

ثابت، و في عهد سعادته خطت مصلحة البريد خطوات واسعة المدى في سبيل التطور و تيسير الخدمة البريدية. و ميزانية البريد بمكة جزء من ميزانية المصلحة التي هي جزء من ميزانية وزارة المواصلات.

و لم تعرف مكة عهدا مثل هذا العهد بالنسبة للخدمات البريدية العامة و تسهيلها و دقتها. و الفضل في ذلك يعود إلى ما متع الله به هذه البلاد من استقرار و أمن في عهد مليكها و رائدها جلالة الملك فيصل المعظم أطال الله عمره و أبقاه.

١٥ جمادى الأولى ١٣٨٥ هـ

مدير البريد بمكة المكرمة

عبد الله عبد الرحمن طيب

التلغراف بمكة المكرمة

لقد بدأ في اختراع التلغراف "البرق" ثلاثة أشخاص من أوروبا، و ذلك في سنة (١٨٣٢) ألف و ثمانمائة و اثنتين و ثلاثين ميلادية، و هم:

(١) صامويل ف. ب. مورس و هو من أمريكا. (٢) مستر رونالدز و هو من لندن. (٣) وليم فوز- رجل كوك- و هو من أوروبا. فهذا الشخص الثالث و هو "وليم" كان ضابطا في جيش المدوراس و هو من أهل أوروبا، و كان له ذكاء و نشاط، يقضى أيامه في التجول في دور المتاحف و الكليات العلمية، فبينما كان في

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠٠

إحدى الصالات بمدينة (هدالبرج) إذ رأى جهازا مخصصا لتوضيح بعض نقاط المحاضرات التي تلقى عن الكهرباء، و فيه مفتاح لإرسال أو إمساك التموجات الكهربائية، فقال كوك في نفسه: و لماذا لا يمكن إرسال هذه التموجات بهيئة علامات مصطلح عليها، إلى مسافات بعيدة. فلما وصل إلى لندن، كان من حسن حظه أن استمال إليه أحد أساطين العلوم العملية في هذا العصر، و هو الأستاذ (آلان سير) تشارس و تيسن مخترع آلة (السبكر سكوب)، و عمل كلاهما على تحقيق فكرة إنشاء التلغراف و حصلا على امتياز به ليحمياه من سطو بعض الأديعاء. و حصلت أول تجربته عمومية في ٢٥ يوليو سنة (١٨٣٧) و قد وقف أحد هذين المخترعين في مدينة "كامدن" و وقف الآخر في "بوستن" و كانت النتيجة نجاحا باهرا، و وصلت بينهما الإشارة المتفق عليها.

و لنعد إلى ذكر الشخص الأول و هو "صامويل مورس" فلقد كان مسافرا في سفينة صغيرة من ميناء "الهافر" فاصدا نيويورك في شهر أكتوبر من عام (١٨٣٢) ميلادية، و اجتمع مع بعض الرجال الكهربائيين فعلمت بذهنه إرسال الموجات و الرموز في سلك من التيار الكهربائي. ثم لما قفل راجعا من سفرته إلى بيته عكف على دراسة الكهرباء و استولى على فكرة اختراع آلة التلغراف، و اهتم بهذا اهتماما عظيما، و طبعاً لقي في سبيل ذلك صعوبات جمّة و تعباً عظيماً و إرهاقا فكريا لا يتصور، لكنه في آخر الأمر نجح نجاحا باهرا في اختراع التلغراف.

و كان لابد للتلغراف من عمل محطة صالحة لإرسال الإشارات و تلقيها.

فمكث "صامويل مورس" يعمل مدة سنتين بغير انقطاع حتى أتم عمل محطة جيدة صالحة. ثم إنه في سنة (١٨٣٧) ميلادية، دعا مورس بعض أصدقائه و معارفه إلى الاستديو لمشاهدة التلغراف الذي صنعه، فأسفرت التجربة عن نجاح بعيد المدى، و اقتنع الحاضرون بفائدة هذا المشروع العظيم. فقدم له شخص ميكانيكي ماهر من الذين شاهدوا اختراعه، أموالا كثيرة و آلات متعددة، و طلب منه أن يدخل في اختراعه هذا تحسينات عظيمة، و بذلك تمكن صامويل مورس من إتمام اختراعه على أكمل وجه و أحسنه، ثم سعا في أمريكا و في الممالك الأخرى للحصول على الامتياز، فتمكن من حصوله في سنة (١٨٤٠) ميلادية. ثم عرض أمر التلغراف الذي صنعه على البرلمان الأمريكي، و طلب مساعدته بمبلغ و فير لإنشاء خط

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠١

تلغرافي من واشنطنون إلى بلتيمور، فساعدوه بإعطائه ثلاثين ألف دولار، وذلك في سنة (١٨٤٣) ميلادية.

فقام مورس يضع أسلاك التلغراف تحت الأرض، ثم عدل عن هذه الطريقة فجعل الأسلاك على أعمدة مرتفعة عن الأرض، فهذا العمل أكثر نفعاً وأقل نفقة، وركب على رؤوس الأعمدة عازلات زجاجية لمنع التيار الكهربائي من التسرب إلى أجسام الأعمدة فتبدد في الأرض، فلما تم إنشاء هذا الخط، صار أمر التلغراف مشهوراً لدى الشعب الأمريكي.

ثم في أوائل شهر إبريل سنة (١٨٤٥) كان الخط التلغرافي قد فتح للجمهور وتعين له عمال وكتاب وإدارات، ثم ما زال التلغراف يدخل فيه التعديلات والتحسينات، حتى وصل اليوم إلى أرقى درجات الكمال. وقد امتدت خطوط التلغرافات إلى جميع الممالك والبلدان، حتى صار التلغراف أمراً لازماً من ضروريات الحياة لا يستغنى عنه الأفراد ولا الحكومات في جميع أقطار الأرض.

هذا فالتلغراف كان موجوداً بمكة المكرمة منذ زمن طويل، من عهد الدولة التركية العثمانية، ولقد توسعت إدارته عندنا توسعاً عظيماً حسب ازدياد السكان في البلاد- ولقد أصدرت وزارة المواصلات عندنا في المملكة العربية السعودية من نحو خمس سنوات، كتاباً صغيراً، بينت فيه نشاط الوزارة وأعمالها في خدمة الجمهور من ناحية المواصلات، سواء كانت بواسطة البريد، أو بالتلفون، أو بالتلغراف، وهذا الكتاب على صغره فيه معلومات هامة قيمة.

هذا ما ذكرناه عن اختراع التلغراف ولقد طلبنا من سعادة مدير البرق واللاسلكي بمكة المشرفة نبذة عن التلغراف واللاسلكي بمكة المشرفة، فأرسل لنا البيان الآتي:

اهتمت حكومتنا السنية بهذا البلد المقدس ونهضت به إلى أعلى القمم لما له من قداسة في قلب أسد الجزيرة وإمام المسلمين صاحب الجلالة الملك فيصل خاصة وفي قلوب العالم الإسلامي عامة وأن صاحب الجلالة أول ما اهتم به النهوض بكافة المشاريع الحيوية في هذا المضممار وأعنى الأهم منها إدارة البرق والبريد واللاسلكي لما لهذا القسم من أهمية عظيمة في عالم اليوم لما يقوم به من خدمات عامة باستقبال كافة البرقيات الداخلية والخارجية والقيام بتسليمها لأصحابها من المواطنين والدوائر الحكومية والوفود لهذه الأراضي المقدسة في أقرب وقت ممكن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠٢

واهتمام المسؤولين بإيجاد الآلات الفنية للاستقبال السريع وتأمين وسائل النقل الحديثة علماً أنه كان العمل سابقاً جارياً بأبسط الآلات السلوكية وتوالي السنين، وتوفر أحدث الأجهزة الفنية تطور حقل البرق والبريد وانتشرت المراكز اللاسلكية في كافة أنحاء المملكة شرقها وغربها وشمالها وجنوبها حتى أصبحت كل مدينة وقرية بها مركزاً لاسلكياً حديثاً.

إضافة على اهتمام المسؤولين بتأمين أحدث الآلات المبرقة الحديثة لتأمين المخبرات فيما بين جدة ومكة والطائف والتي كانت سابقاً تؤمن بطريق اللاسلكي (المورس) وزيادة على ذلك إيجاد الوسائل بتشجيع أبناء الوطن بالتمارين والعمل على الآلات الحديثة حتى أصبح كافة القائمين بالعمل بهذا المرفق هم من رعايا الحكومة السنية وأن هذا بفضل الله ثم بفضل (صاحب الجلالة) حامى الحرمين وحرص المسؤولين بهذه المصلحة. ونستمد من المولى جلت قدرته العون في المضي في أعمالنا لما يحقق ازدهار البلاد ورفيها في كافة مرافق الحياة تحت ظل صاحب الجلالة (الملك فيصل المعظم) وباللّه التوفيق والهادي إلى سواء السبيل.

مدير البرق واللاسلكي بمكة المكرمة عمر عراقي

٥ جمادى الثانية سنة ١٣٨٥

انتهى ما ذكره سعادة مدير البرق واللاسلكي بمكة المكرمة.

كان الكسندر جراهام بل، هو أول مخترع للتليفون، اخترعه في فبراير سنة (١٨٧٦) ميلادية، وقد ولد الكسندر بل المذكور في سكوتلاندا و تلقى تعليمه في إنكلترا، ثم سافر هو و أبوه إلى كندا ثم ذهب إلى بوستن لتعليم الصم البكم ثم اشتغل بدراسة الأصوات و بممارسته لتعليم تلامذته الصم علم كثيرا عن الأصوات التي تؤثر على طبله الإذن الغضه، فصنع قرصين جديدين يشبهان طبله الأذن، و وصل بينهما بسلوك كهربائي، فكانت الأصوات التي ترسل من أحدهما تتصل بالقرص الثاني بواسطة السلك، و القرص الثاني يرددها كما هي. و قد نجح في إنشاء هذه المواصلة التلغرافية بهذا الشكل البدائي على مسافات قصيرة، ثم عكف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠٣

على تعلم الكهرباء، ثم بعد تجارب كثيرة و أتعاب مضية، توصل إلى اختراع التلغراف و نقل الأصوات فيه بوضوح تام، فظن بعض رجال الأعمال أن هذا من قبيل لعب الأطفال و ذلك في سنة (١٨٧٦) ميلادية. و قد ظهرت شركة لإظهار هذا الاختراع العظيم، اختراع التلغراف، فصار اليوم للتلفونات فوائد كبيرة أعظم من فوائد الرسائل البريدية.

هذا و قد أوفدت حكومتنا السعودية، عن طريق مديرية البرق و البريد العامة أول بعثة للتلفونات الفنية، و كان ذلك قبل سنة (١٣٦٧) و إليك أعضاء هذه البعثة:

(١) محمد كاظم، (٢) أسعد قنق، (٣) عبد الواحد خوج، (٤) يحيى عبد الجبار، (٥) سعيد حمزة، (٦) عبد الكريم بشاوري، (٧) و جدى طحلاوي، (٨) فريد توفيق، (٩) رشاد زبيدي، (١٠) محمد نور سلامة.

و لقد أتم هؤلاء دراساتهم في أعمال هندسة التلفونات الأتوماتيكية و غيرها، ثم عادوا إلى بلادهم و تسلموا أعمالهم الرسمية، كما ذكرهم صديقنا الفاضل الأستاذ صالح جمال الحريري، وفق الله تعالى العاملين لخدمته بلادهم و إخوانهم آمين.

عدد التلفونات بمكة المكرمة

وجود التلغراف و التلغراف بمكة المشرفة و في غيرها من البلاد قديم يرجع عهده إلى زمن الأتراك العثمانيين، لكن عدد التلفونات بمكة شرفها الله تعالى في زمن الشريف الحسين بن علي ملك البلاد الحجازية الأسبق رحمه الله، لا يتجاوز العشرين من التلفونات فقط، و ذلك عند كبار موظفي حكومته، إلى أن انتهى مدة حكمه رحمه الله تعالى و ذلك في أوائل سنة (١٣٤٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاث و أربعين هجرية، فمكة كانت في ذلك الزمن صغيرة الرقعة قليلة السكان.

فلما استولت الحكومة السعودية على الحجاز في السنة المذكورة، تقدمت مكة المكرمة شيئا فشيئا في جميع مرافق المدينة و العمران، حتى بلغت في سنتنا الحاضرة سنة (١٣٨٥) خمس و ثمانين و ثلاثمائة و ألف، مساحتها شيئا كثيرا بحيث

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠٤

امتد العمران في جميع نواحي مكة، و صارت المنازل و الدكاكين فيها أضعاف أضعاف الأزمان السابقة، و كذلك كثرت فيها محلات التجارة كثرة محسوسة ملموسة، و بالطبع أن كل هذه المنازل و المحلات التجارية و الدوائر الحكومية المتعددة، في حاجة شديدة إلى تلفونات عديدة، فصار عدد التلفونات بمكة المكرمة في زماننا هذا أي إلى السنة المذكورة خمسة آلاف تليفون تقريبا، و هي متفرقة بين الدوائر الحكومية و المحلات التجارية و المنازل الأهلية، فسبحان مغير الأحوال، لا إله إلا هو الكبير المتعال، و هذه التلفونات هي التي تستعمل بواسطة المراكز و السنترالات و قد بلغنا أنه ستبدل هذه التلفونات قريبا بتلفونات تستعمل بواسطة الأرقام و النمر.

البنوك بمكة المكرمة

إشارة

لم يألف الناس في الأزمان السابقة وضع نقودهم و أماناتهم في البنوك، و إنما كانوا يحفظونها في منازلهم في الصناديق و الدواليب، و إذا سافروا إلى جهة من الجهات، في داخل البلاد أو خارجها، أخذوها معهم، و بعضهم كانوا يحولون نقودهم إلى الخارج بواسطة التجار، فلما ظهرت البنوك و وجدت و سارت أمورها بانتظام، صار الناس يحولون نقودهم إلى أى جهة من الجهات بواسطة، و بذلك تفادوا كثيرا من الأخطار التي كانت تعترض أموالهم، بل إن تحويل النقود بواسطة البنوك أضمن لوصل الحوالات إلى أصحابها، لتحققهم من الشخص الذي يستلمها.

فأول ما ظهرت البنوك بمكة المكرمة، كان في محرم (١٣٧٤) عام ألف و ثلاثمائة و أربع و سبعين هجرية. فأول بنك أنشئ في مكة المكرمة، هو البنك الأهلي التجاري، و بعده و في جمادى الآخرة من السنة المذكورة، أنشئ البنك الثاني و اسمه البنك العربي، و أخيرا أنشئ البنك الثالث و اسمه بنك الرياض، و ذلك في ربيع الثاني عام ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية (١٣٧٧). و ساعدت هذه البنوك على خدمة حجاج بيت الله الحرام على أكمل وجه، حيث يستطيعون بهذه البنوك تسلم و تحويل نقودهم من جميع أنواع العملات من مختلف بقاع الأرض بسهولة و يسر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠٥
و هذه المعلومات عن البنوك بمكة المكرمة، أخذناها مع الشكر من الأستاذ حسين غيث الأردني، الموظف في بنك الرياض بمكة المكرمة.

ثم كتبنا لمدير البنك الأهلي التجاري بمكة المكرمة، و هو الشيخ سعيد بامحفوظ، ليخبرنا عن البنوك بمكة المكرمة فقط، و عن نبذة صغيرة من أعمالها، فأرسل لنا الجواب الآتي بتاريخ غرة ربيع الثاني سنة (١٣٨٥) هجرية، و برقم (١٥٥٤٩)، و هذا نص جوابه:
حضرة المكرم الفاضل الشيخ محمد طاهر الكردي المحترم
تحية و سلاما

و بعد: تلقينا بمزيد السرور خطابكم المؤرخ ٨ / ٣ / ٨٥ المحتوى على استفساراتكم عن البنوك الموجودة بمكة المكرمة. و ننقل لكم فيما يلي المعلومات التي استفسرتم عنها:

عدد البنوك

١- مؤسسة النقد العربي السعودي فرع مكة

٢- البنك الأهلي التجاري فرع مكة

٣- البنك العربي فرع مكة

٤- بنك الرياض فرع مكة

تواريخ تأسيسها:

باستطاعتنا إفادتكم عن تاريخ تأسيس فرعنا البنك الأهلي التجاري و هو أول محرم عام ١٣٧٤ هـ. و أما تواريخ البنوك الأخرى الموجودة هنا في إمكانكم معرفتها إذا كتبت إلى كل بنك منها.

أعمال هذا البنك:

- إن أعمال هذا البنك متعددة و متشعبة نورد لكم فيما يلي بعضا من أعماله بطريقة مختصرة جدا على سبيل الإلمام:
- ١- منذ أن بدأت أعمال توسعة الحرم المكي الجبارة التي أخذت حكومتنا الرشيدة على عاتقها القيام بها فقد تم صرف جميع التعويضات التي تبلغ مئات الملايين عن طريق هذا البنك الذي قام بهذا العمل خير قيام.
 - التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠٦
 - ٢- يقوم هذا البنك بأعمال تحويل المبالغ داخل و خارج المملكة، فعندما يرغب مواطن في أن يحول مبلغا ما إلى خارج أو داخل المملكة فإن أمامه ٣ طرق يستطيع البنك أن يحول بواسطة أية واحدة منها. فهو إما أن يحول المبلغ برقيا أو خطايا أو أن يتسلم المحول شيكا من البنك و يبعثه هو بنفسه بداخل خطاب مسجل.
 - ٣- يقوم هذا البنك بأعمال التحصيل. فتجار السيارات أو الأثاث المنزلية مثلا الذين يبيعون بضائعهم بالتقسيط يبعثون بكمبيالاتهم الموقعة من قبل عملائهم إلى البنك ليقوم البنك باستحصال قيمة الكميالة في موعد استحقاقها. و المصدرون الذين يبيعون بضائعهم على أساس دفع المبلغ مقابل تسليم لمستندات يبعثون بمستندات البضاعة التي يصدرونها يبعثونها إلى البنك لاستحصال قيمتها من المسحوب عليه.
 - ٤- يقوم البنك أيضا بفتح الاعتمادات بكافة أنواعها المستندية و الشخصية و خلافهما. فالبنك في هذه الحالة يقوم مقام الواسطة بين المستورد و المصدر. فيأتي المستورد إلى البنك و يملأ استمارة فتح الاعتماد و يضمّن بها كافة مواصفات و شروط البضاعة حسب المتفق بينه و عميله المصدر و يدفع التأمين ثم يبلغ البنك مراسله في الخارج ليقوم الأخير بدوره بتبليغ المصدر بفتح الاعتماد و مواصفاته و شروطه.
 - و عند ما يتم شحن البضاعة يقدم المصدر المستندات إلى البنك المراسل و يستلم في مقابلها القيمة و يبعث المراسل بالمستندات بعد أن يحسم القيمة من حسابنا ولدى وصولها نستوفي باقي القيمة من الفاتح.
 - ٥- كذلك يقوم البنك بتقديم الضمانات.
 - ٦- و من أعماله قبول أموال عملائه الذين يودعون أموالهم لدى البنك.
 - و في الختام نتمنى لكم التوفيق في مهمتكم و الله ولي التوفيق.
 - عن البنك الأهلي التجاري- بمكة

عدد نزول المطر في سنة ١٣٨٥ بمكة

- إن الأمطار تنزل بمكة قليلا، يعنى ينزل المطر بها في كل عام مرة أو مرتين تقريبا، و إذا نزل فلا يدوم نزوله أكثر من ساعة أو ساعتين، و في النادر جدا يكون
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠٧
- نزوله مدة ست ساعات تقريبا، أي من الصباح إلى الظهر مثلا تكون هذه الحالة بعد عدة سنوات، و في هذه الحالات يكثر جريان السيل بمكة المشرفة.
- لكن في سنة (١٣٨٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و ثمانون هجرية، نزل المطر فيها مرارا عديدة، ففي شهر ربيع الثاني نزل المطر بمكة أربع مرات، و في شهر جمادى الثانية نزل بها ست مرات، و في شهر رجب نزل المطر بها ثلاث مرات، و في شهر شعبان نزل المطر بها ثلاث مرات، و في شهر رمضان نزل المطر بها ثلاث مرات، و في رابع يوم من شهر شوال نزل المطر بها عند الظهر. ثم لم نحسب نزول المطر بعد هذه المرة، لأننا أرسلنا هذا المبحث إلى المطبعة، و الله تعالى أعلم بعدد نزوله في بقية السنة المذكورة.

ففى كل هذه المرات تكون مدة نزول المطر نصف ساعة أو أقل أو أكثر، و نزول المطر عدة مرات بمثل هذه الحالات فى العام الواحد، يكون بعد عدة سنوات من بعد نحو خمس عشر سنة فأكثر، و يفرح الناس عندنا بنزول المطر كثيرا، لأن الجو يتلطف، و الهواء يتغير، و ترق النسومات، و تكثر الخضراوات، و تنبت الحشائش و الزروع، و يكون المرعى للمواشى طيبا، و تكثر الألبان و الجبن، نسأل الله تعالى أن يزيدنا من نعمائه و خيراته بفضلته و رحمته آمين.

الأمطار بمكة فى سنة ١٣٨٦ هجرية

لقد تقدم ذكر الأمطار بمكة المشرفة فى سنة ١٣٨٥ هجرية، و الآن نكتب هنا الأمطار عندنا فى سنة ١٣٨٦ هجرية، فقد نزلت الأمطار عندنا كما يأتى:

عدد/ وقت نزول المطر/ ملحوظات ١/ فى ليلة ٦/ ٥/ ١٣٨٦/ نزل فى الساعة الرابعة ليلا و كان رشاشا قليلا.

٢/ فى يوم ٢١/ ٥/ ١٣٨٦/ نزل فى الساعة التاسعة قبل العصر و دام نحو ثلاث ساعة.

٣/ فى يوم ٢٩/ ٥/ ١٣٨٦/ نزل فى الساعة الحادية عشر قبل المغرب و كان رشاشا خفيفا.

٤/ فى آخر يوم ٣٠/ ٥/ ١٣٨٦/ نزل مع أذان المغرب نزل بقوة و دام نصف ساعة.

٥/ فى يوم ٣/ ٦/ ١٣٨٦/ نزل قبل المغرب بنصف ساعة و كان رشاشا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠٨

// خفيفا.

٦/ فى يوم ٤/ ٦/ ١٣٨٦/ جاء بعد العصر بنصف ساعة.

٧/ فى يوم ١١/ ٦/ ١٣٨٦/ جاء بعد العصر و كان رشاشا خفيفا.

٨/ فى يوم ١٢/ ٦/ ١٣٨٦/ جاء بعد العصر و نزل نصف ساعة.

٩/ فى يوم ١٧/ ٧/ ١٣٨٦/ نزل مطر قوى من قبل الظهر بساعة إلى العصر.

١٠/ فى يوم ٢١/ ٧/ ١٣٨٦/ نزل قليلا من بعد المغرب.

١١/ فى يوم ٢٧/ ٧/ ١٣٨٦/ نزل من العصر إلى قبل المغرب بساعة و كان قويا.

١٢/ فى يوم ٩/ ٨/ ١٣٨٦/ نزل قبل العصر و دام قبيل المغرب.

١٣/ فى يوم ١١/ ٨/ ١٣٨٦/ نزل قبيل المغرب إلى الساعة السابعة ليلا و كان غزيرا.

١٤/ فى يوم ١٢/ ٨/ ١٣٨٦/ نزل قبل العصر بساعة و دام إلى قبل المغرب بساعة و ربع.

١٥/ فى ليلة ١٣/ ٨/ ١٣٨٦/ نزل من بعد العشاء بساعة و دام إلى نصف الليل.

١٦/ فى يوم ١٣/ ٨/ ١٣٨٦/ نزل مطر عند أذان الظهر و دام إلى بعد الظهر بساعة، و هذه أربعة أيام متوالية تنزل فيها الأمطار، و مثل هذا يكون عندنا نادرا.

لقد عددنا مرات نزول الأمطار بمكة المشرفة فى سنتين فى وقتنا الحاضر و هما سنة (١٣٨٥) و سنة (١٣٨٦) من الهجرة، لأن نزولها فى كل عام قليل جدا، أما بالنسبة للممالك الأخرى من البلاد الإسلامية و غيرها، فإن نزولها فى مواسمها كثير جدا، و كل ذلك لحكمة لا يعلمها إلا من بيده الأمر كله مدبر أمور السموات و الأرض، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

جوازات السفر و رخص الإقامات و إحصاء النفوس بمكة المكرمة

لم تكن في العصور المتقدمة تعرف إحصاء النفوس، ولا جوازات السفر بمكة المشرفة، كما كان الشأن في جميع الممالك والبلدان، وغاية الأمر أن الناس كانوا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٠٩

يعرفون أهل بلدتهم، وما كان يترتب على ذلك شيء لو أخطأوا، وكان السفر من بلدة إلى أخرى، ومن قطر إلى قطر في غاية اليسر والسهولة، خصوصا في جميع الممالك الإسلامية، وأن المسافر إلى جهة من الممالك، لا يحتاج إلى أكثر من حمل ورقة صغيرة لإثبات شخصيته وأنه تابع للدولة العلية العثمانية التركية، وبموجبها يمكنه السفر إلى أي جهة كانت، وقطع تذكرة سفره في البواخر إن أراد السفر من البحر، أو السفر بالدواب من قطر إلى قطر. كان هذا هو الحال في جميع الممالك الإسلامية التي كانت كلها تابعة للدولة التركية العثمانية، فلما زالت عنها الخلافة الإسلامية، وزال حكمها عن جميع الممالك والأقطار التي كانت تابعة لها، ظهرت في كل مملكة وقطر قوانين و دساتير مختلفة، وأخرجت كل مملكة منها جوازات السفر خاصة باسمها، وذلك من سنة (١٣٣٤) ألف و ثلاثمائة و أربع و ثلاثين هجرية تقريبا، وبذلك صار السفر من مملكة إلى مملكة، ومن قطر إلى قطر صعبا، بالنسبة لاستخراج جواز السفر من بلدة المسافر، ثم حصول التأشيرة عليه من قناصل و سفراء الدولة التي يسافر إلى بلادها، ثم الحصول على تأشيرة الدخول و الخروج منها، لأن كل ذلك يحتاج إلى إجراءات مع دفع الرسوم اللازمة، وبغير هذا لا يمكنه السفر إلى البلاد التي يريدتها.

و أنه بعد زوال حكم الأتراك عن الحرمين الشريفين وغيرهما في السنة المذكورة، وتويع الشريف الحسين بن علي، رحمه الله تعالى، ملكا على الحجاز، أمر بإصدار جوازات السفر باسم حكومته (الحكومة العربية الهاشمية) فكانت جوازات السفر هذه هي أول جوازات تصدر بمكة المكرمة بل بالحجاز.

و أما إدارة إحصاء النفوس لأهل البلاد، أي التابعة التي تعطى لهم، وكذلك إعطاء الجنسيات والإقامات للأغراب، بحسب الترتيبات والإجراءات الموجودة اليوم، فلم تكن معروفة في زمن الأتراك ولا في زمن الشريف الحسين المذكور، ملك الحجاز الأسبق. إن كل ذلك لم يعرف عندنا إلا في أوائل العهد السعودي، أي من سنة (١٣٥٠) ألف و ثلاثمائة و خمسين هجرية تقريبا، لكن إدارات الإقامة و إحصاءات النفوس، كانت معروفة من قبلنا بسنوات في البلدان الأخرى، فظن أن بدء إحصاءات النفوس في الممالك والأقطار، كان معروفا من بعد سنة (١٣٠٠) ألف و ثلاثمائة من الهجرة، و أن بدء إدارات الإقامة للأجانب كان من سنة (١٣٥٠) ألف و ثلاثمائة و خمسين تقريبا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١٠

فصار سفر الناس من بلادهم إلى بلاد أخرى بالجوازات صعبا نوعا ما، وكذلك إقامتهم في بلاد أخرى صارت شاقة، لما يحتاج ذلك من الإجراءات و من الأسئلة و الأجوبة الكثيرة، و ما يدفعونه في سبيل ذلك للحكومات المختلفة من المال. و أن من قرأ رحلة ابن جبير و ابن بطوطة رحمهما الله تعالى، اللذين كانا قبلنا بقرون عديدة، إن من قرأ رحلتهم، علم ما كان الناس يتمتعون بحرية التنقل و الأسفار بين المشرقين و المغربيين، و إن كانت الأسفار في تلك القرون السابقة و العصور الماضية لا تخلو من أخطار قطاع الطرق و القراصنة. و في عصرنا الحاضر زالت الأخطار و المشقات في الأسفار و لله الحمد. إن لكل عصر و زمان مزاياه و مساوئه، و لكل مضاره منافع.

و الظاهر و الله تعالى أعلم أن جميع الحومات الإسلامية و الإفرنجية، لم تتخذ جوازات السفر و الإقامة إلا زيادة في محيط الأمن العام، حتى تشل من حركات الجواسيس و المجرمين، و إن كانت لا تخلو بلدة من البلدان منهم، لكن ذلك أفضل من ترك الجبل على الغارب، فالعمل على تقليل الشرور واجب، إن لم يمكن حذفها بتاتا، فإنه ليس بمستطاع البشر رفع الشر و الفساد من الأرض، و لو شاء الله لهدى الناس جميعا، و لكن فريق في الجنة و فريق في السعير. نسأل الله تعالى الهداية و التوفيق بفضله و رحمته آمين.

استعمال الحطب و الفحم و غيرهما بمكة

كان العرب و جميع الناس منذ العصور القديمة الأولى، لا يستعملون فى طبخهم و تدفئتهم غير الحطب المقطع من الأشجار و الفحم المتخذ من الحطب.

فالفحم و الحطب هما أساس الوقود منذ قديم الأزمان، كما أخبر الله عز و جل عن ذلك فى آخر سورة يس بقوله: **الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ.**

لقد كان استعمال الحطب و الفحم سائدا على وجه الأرض فى جميع بلاد العالم إلى أول القرن الثالث عشر للهجرة، أى إلى سنة (١٣٠٠) هـ، فلما ظهرت المدينة الحديثة و تقدم الناس فى اختراع أنواع وسائل الحياة المعيشية، اختلفت عاداتهم التى درجوا عليها. فمن ذلك استبدلوا استعمال الحطب و الفحم بالكهرباء و أنواع الزيوت و الغاز، و اخترعوا لذلك من الآلات و الأدوات ما يحير العقول.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١١

و بطبيعة الحال كان أهل أوروبا هم أول الناس إقداما على تبديل الأمور المعيشية، لأنهم هم المخترعون لوسائلها من الآلات و الأدوات، ثم أخذ الناس عنهم ذلك تدريجيا و كان لابد للبلاد العربية نصيب من تلك الأمور. و لا نريد أن نسرد ما ظهر من المخترعات فذلك مما يطول شرحه و بيانه، و لكن نتكلم فيما نحن بصدده من الكلام عن الوقود فنقول:

كان الناس فى بلاد الحجاز و فى مكة المشرفة يستعملون الفحم و الحطب فى الطبخ و الخبز و التدفئة أيام البرد، و كانوا يجعلون فى بيوتهم و منازلهم و أفرانهم مكانا خاصا للفحم و الحطب، كان هذا عاداتهم و ديدنهم إلى سنة (١٣٤٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاث و أربعين هجرية، ثم تغيرت الحالة تدريجيا فى الحرمين الشريفين لوجود الكهرباء و أنواع الغاز، فما جاءت سنة (١٣٧٣) هجرية إلا و قل استعمال الفحم و الحطب، و صار بدلتهما استعمال الكهرباء و أنواع الغاز و البوتوغاز، و حتى صارت الأفران أيضا تستعمل فيها الكهرباء و الغاز، و ما بقى أحد يستعمل الفحم إلا لشوى اللحم و عمل الكباب، أو لتعمير رأس الشيشة لشرب التباك و الجراك، و صار أصحاب المنداة و البخارية الذين يخبزون التميز يستعملون الحطب فى تحميه أزيارهم. أما عرب البادية و البدو الذين يعيشون فى الصحارى و القرى، فإنهم ما زالوا يستعملون الفحم و الحطب، لكثرة الأشجار الموجودة فى باديتهم و قراهم، و لعدم قدرتهم على شراء أدوات الغازات الوقودية، و لعدم وجود الكهرباء فى محلاتهم و باديتهم. إن دوافير الكاز و الطباخات التى تشتعل بالفتايل لم تعرف عندنا و لم تكثر إلا من بعد سنة (١٣٦٠) ألف و ثلاثمائة و ستين هجرية. و الله تعالى أعلم ما يكون بعدنا من وسائل المدينة و العمران. فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء و إليه ترجعون.

أول مصحف يطبع بمكة المكرمة

كان مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر الكردى المكى الخطاط، هو أول من فكر فى كتابه و طبع مصحف شريف بمكة المشرفة موضع نزول القرآن الكريم، فقام بكتابته من أول سنة (١٣٦٢) ألف و ثلاثمائة و اثنتين و ستين هجرية، و قد مكث سنوات فى كتابته ثم فى تصحيحه بدقة تامة و عناية بالغة، ثم تألفت شركة بمكة لطبعه، فطبع فى سنة (١٣٦٩) ألف و ثلاثمائة و تسع و ستين هجرية فى عهد الملك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١٢

عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله تعالى و أحسن إليه، ثم أعيد طبعه مرات عديدة بأحجام مختلفة، فكان هذا المصحف الكريم و اسمه (مصحف مكة المكرمة) أول مصحف يكتبه خطاط مكي و أول مصحف يطبع بمكة المكرمة، فغفر الله تعالى لكتابه المذكور و لمن قام بطبعه و تصحيحه و لمن قرأ فيه و نظر إليه آمين. و الحمد لله رب العالمين.

انظر: صورة رقم ٣٢، أول صحيفه من هذا المصحف الكريم من طبعته الأولى

الفنادق في الحجاز

الفنادق "بالفتح" جمع فندق، والأوتيلات "بالضم" جمع أوتيل، ومعناها "الخان"، و"الخان" كما في المنجد محل نزول المسافرين و تعنى "الفندق" و"الجمع خانات و الكلمه دخيله. و الخان أيضا لقب السلطان عند الأتراك. انتهى من المنجد. فالفندق فى اصطلاح عصرنا عبارة عن قصر كبير به غرف عديده متجاورة بكامل مرافقها، و هو مبنى بشكل خاص غير طراز المنازل و البيوت، و يتكون من طابقين أو أكثر، و فى بعض الفنادق نحو ثلاثين غرفة و فى بعضها نحو ثلاثمائة غرفة أو أكثر، بحسب صغر الفندق و كبره و بحسب كثرة المسافرين و السواح و قلتهم. و قد يكون فى كل غرفة سرير واحد و قد يكون أكثر.

و هذه الفنادق أو الأوتيلات تبنى خاصة للإيجارات العامه للنزلاء فيها، و قد تكون للإيجارات يومية و قد تكون بالشهر، و قد تكون الأجرة للنوم و الراحة فقط، و قد تكون لهما مع تقديم الطعام حسب رغبة النزيل فيها، و قد تكون الأجرة فى بعضها قليلة مناسبة لحالة الفقراء و الضعفاء، و قد تكون فى بعضها مرتفعة غالية تناسب مع حالة الأمراء و الوزراء و الأغنياء، و هى الفنادق العظيمة الممتازة ذات الأثاث الفاخر.

و لم تكن الفنادق و الأوتيلات موجودة فى الحجاز قبل العهد السعودى الزاهر مطلقا لا صغيرة و لا كبيرة أى قبل سنة (١٣٥٢) ألف و ثلاثمائة و اثنتين و خمسين هجرية، و إنما كان الناس إذا نزلوا من مكة إلى جدة أو طلعوا منها إلى مكة أو سافروا إلى المدينة المنورة أو غيرها، نزلوا فى بيوت بعضهم على وجه الضيافة إذا كانت لهم بأصحابها معرفة، أو أنهم ينزلونها بالإيجار لمدة قصيرة أو طويلة. و إذا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١٣

كان المسافر له منزله حكوميه فانه ينزل فى دار الضيافة الحكوميه الرسميه، أما الحجاج فإن المطوفين و وكلاءهم هم المسئولون عن إسكانهم و راحتهم.

و فى هذا المعنى قال الأديب المصرى الكبير الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى رحمه الله تعالى فى كتابه "رحلة الحجاز" التى كانت قبل السنه المذكوره، حينما وصل هو و رفقاؤه من مصر إلى جدة ما يأتى:

"و ليس فى جدة فنادق ينزل فيها القاصدون إليها، و إنما ينزل الناس فى بيوت الأهالى، فمن شاء استأجر منزلا بأسره، و من كان لا يسعه ذلك قنع بغرفة مؤثته على مثال "البنسيون" فى مصر مع فروق طبيعیه ... الخ. "انتهى كلامه.

نقول: أما اليوم فإن الفنادق و الأوتيلات قد انتشرت فى جميع المملكه العربيه السعوديه، لكثرة السكان عن الأعوام السابقه و كثرة القادمين و المسافرين إليها لمختلف الأعمال الكثيرة و الأشغال المتنوعه، و توجد منها بمكة شرفها الله تعالى نحو أربعة فنادق، و أول فندق بنى بمكة كان سنة (١٣٥٥) خمس و خمسين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة، و هو أجمل و أكبر فندق بها، و يقع فى محله أجياد أمام وزارة المالية، قام بينائه على طراز الفنادق الحديثه "بنك مصر" لكن على حساب وزارة المالية، ثم إنه فى سنة (١٣٦٦) ست و ستين و ثلاثمائة و ألف هجرية اشترى هذا الفندق الشيخ صدقه كعكى و لا يزال فى حوزته إلى اليوم، و هو أحسن و أفخم أوتيل بمكة.

أما بالمدينة المنورة ففيها ثلاث فنادق أو أربعة، و أما بجدة ففيها نحو عشرة فنادق بعضها فخم محترم.

و فى بعض البلدان بالمملكة توجد بعض الفنادق لسنا فى صدد الكلام عنها و تعدادها.

الفنادق بمكة المكرمة

لم يكن بمدن الحجاز كلها فنادق لنزول المسافرين و إنما كانوا ينزلون عند بعض معارفهم، أو ينزلون كما ينزل الضيف عند ذوى المروءات- أما فى مكة المكرمة فالحالة كذلك، غير أن الحجاج ينزلون عند مطوفيهم- كانت هذه الحالة جارية عندنا من قديم العصور إلى سنة (١٣٥٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و خمسين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١٤

هجريه تقريبا، ثم تطورت أحوالنا حسب التمدن الحديث، فأنشئت بمكة الفنادق تدريجيا، فأول فندق كان بمكة المكرمة هو فندق مصر أنشئ فى السنة المذكورة تقريبا، حتى صار اليوم عندنا بمكة من الفنادق ثمانية و هى كما يأتى بدون مراعاة لترتيب الإنشاء:

(١) فندق مصر.

(٢) فندق التيسير.

(٣) فندق السلام.

(٤) فندق شبرا.

(٥) فندق الحرم.

(٦) فندق أم القرى.

(٧) فندق عرفات.

(٨) فندق مكة بالاس.

و معنى بالاس باللغة الإنكليزية: القصر، و جميع هذه الفنادق يأوى إليها المسافرون القادمون فى مختلف الأوقات، و كلها تمتلئ بالحجاج فى كل موسم، و الله أعلم بما سيحدث فى المستقبل من الفنادق.

جاء فى كتاب التراتيب الإداريه فى آخر الجزء الأول عن الفنادق ما يأتى:

"باب فى الخانات" الفنادق لنزول المسافرين- قد استنبط بعضهم ذكر الخانات من قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ذَكَرَهُ غَيْرِ وَاحِدٍ، مِنْهُمْ الرُّوضَى فى شرح الأنموذج، و فى طبقات ابن سعد و اتخذ عمر دار الرقيق و قال بعضهم الدقيق فجعل فيها الدقيق و السويق و التمر و الزبيب و ما يحتاج إليه، يعين به المنقطع و الضيف ينزل بعمر ... الخ، انتهى من الكتاب المذكور.

و سبب نزول آية: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ وَ هى فى سورة النور- أن أبا بكر رضى الله عنه لما نزلت آية الاستئذان، قال: يا رسول الله كيف بالبيوت التى بين مكة و الشام على ظهر الطريق و الخانات أفلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت هذه الآية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١٥

جاء فى تفسير الألوسى عند هذه الآية: بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ أى: موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة فقط، بل لىتمتع بها من يحتاج إليها كائنا من كان من غير أن يتخذها سكنا، كالرباط و الخانات "بالخاء المعجمة" و الحوانيت و الحمامات و غيرها فإنها معدة لمصالح الناس كافة. انتهى من الألوسى.

نقول: يعلم مما تقدم أن الخانات كانت موجودة من قديم الزمان فيما بين البلدان، و لكنها كانت على صفة بدائية غير منظمة بل كانت هذه الخانات "بالخاء المعجمة" فى العصور السابقة مبنية على صفة تتسع للمسافرين و دوابهم من الجمال و البغال و الحمير، و لابد أنهم كانوا مستعدين لإطعام دواب المسافرين، و هذه الخانات كانت منتشرة فى الممالك الأخرى بكثرة. أما فى الحجاز فلم يكن لها ذكر لقبولهم للضيافات حسب العادة العربية، فلما تدرج الناس فى التمدن و فى معرفه كيفية التمتع بنعائم الله تعالى، عرفوا كيف ينظمون أمر هذه الخانات و يرتبون مرافقها على حسب سنن تطور العصور، حتى وصلوا فى تنظيمها إلى يومنا هذا كما نرى. كما يؤخذ مما تقدم من اتخاذ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه دار الدقيق لضيافة من يرغب به، و اتخاذ الحكومات دارا

للضيافة ينزل بها القادمون باسم الحكومة، و سواء كانت هذه الدار خاصة للضيوف أو أن الحكومة تأمر بإنزالهم في الفنادق الكبيرة المحترمة، و هي تقوم بدفع نفقات ضيافتهم كما تقضى بذلك الواجبات الرسمية.

جاء في الجزء الأول من كتاب "الترايب الإدارية" عند الكلام على اتخاذ الدار لنزول الوفد في زمانه عليه الصلاة و السلام ما يأتي: "زقلت" في الوفاء للسيد السهمودي صحيفه ٥٥٥ من الجزء الأول، ذكر ابن شبة في دور بني زهرة، أن من دور عبد الرحمن بن عوف التي اتخذها الدار التي يقال لها الدار الكبرى دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف، و إنما سميت بالدار الكبرى لأنها أول دار بناها أحد المهاجرين بالمدينة، و كان عبد الرحمن ينزل فيها ضيوف رسول الله صلى الله عليه و سلم فكانت تسمى أيضا دار الضيفان، فسرق فيها بعض الضيفان فشكى ذلك عبد الرحمن إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قد بنى عليه السلام فيها بيده فيما زعم الأعرج ١٥ منها، و اختصر ذلك السهمودي في خلاصة الوفا راجع ص (١٨٧) منها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١٦

ذكر أبو الربيع الكلاعي في الاكتفاء عن الواقدي أن حبيب بن عمرو كان يحدث قال: قدمنا وفد سلمان على رسول الله صلى الله عليه و سلم و نحن سبعة نفر، فانتبهنا إلى باب المسجد فصادفنا رسول الله صلى الله عليه و سلم خارجا منه إلى جنازة دعى لها، فلما رأيناه قلنا: يا رسول الله السلام فقال رسول الله: و عليكم السلام من أنتم؟ قلنا: قوم من سلمان قدمنا عليك لنبايعك على الإسلام و نحن على من ورائنا من قومنا، فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال: أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد، فخرج بنا ثوبان حتى انتهى بنا إلى دار واسعة و فيها نخل و فيها وفود من العرب و إذا هي دار رملة بنت الحارث النجارية و ساق الحديث. (زقلت) و قد ترجم في الإصابة لحبيب بن عمرو المذكور و أورد قصته هذه و ساق سند الواقدي فيها و أفاد أن قدومه كان في شوال سنة عشر من الهجرة. انتهى من الكتاب المذكور.

أسماء الحارات و المحلات بمكة قديما و حديثا

كانت لمكة، زادها الله تعالى شرفا و أمنا و رخاء و خيرا، من زمن الجاهلية حارات و محلات و أسواق، كسوق الليل، و سوقه، و القرارة، و أجياد، إذ لا بد لكل قرية أو بلدة مهما صغرت أن تكون بها محلات و حارات تعرف بها منازلهم و يهتدى إلى أماكنهم. و كانت لمكة المكرمة من قديم الزمن إلى آخر عهد الأشراف في زمننا هذا، أى إلى أن استولى عليها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله تعالى في سنة (١٣٤٣) ثلاث و أربعين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة، من الحارات و المحلات ما يأتي:

(١) سوق الليل (٢) و شعب على (٣) و شعب عامر (٤) و السليمانية (٥) و المعابدة (٦) و جروم (٧) و النقا (٨) و الفلق (٩) و القرارة (١٠) و الشامية، و يدخل فيها قاعة الشفا (١١) و أجياد (١٢) و القشاشية (١٣) و الشبيكة و يدخل فيها الهجلة (١٤) و حارة الباب، و يدخل فيها ريع الرسام (١٥) و المسفلة.

هذه هي الحارات القديمة الأصلية لمكة.

ثم في العهد السعودي في عصرنا الحاضر أيضا بعد أن كثر المال في أيدي الناس، اتسعت رقعة مكة اتساعا عظيما فامتد العمران و المنازل إلى أطراف مكة من جميع جهاتها، و كثر بها استيطان الأجانب من كافة الأقطار الإسلامية - صار

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١٧

من الضروري حدوث محلات و حارات جديدة حوالى مكة المشرفة، و لا بد من إطلاق أسماء على هذه المحلات لمعرفة مواقعها و سرعة الاهتداء إلى منازل المقيمين بها، و يعتبر اتساع العمران بمكة و ازدياد سكانها بشكل ملموس من سنة (١٣٦٠) ستين و ثلاثمائة و ألف هجرية تقريبا، و لا زال العمران و السكان في ازدياد إلى اليوم بمكة و في غير مكة.

فعليه تكون الحارات و المحلات المستحدثة بمكة في عصرنا الحاضر هي كما يأتي:

(١) العتيبية (٢) و الهنداوية (٣) و حوض البقر و يسمى الآن بحى العزيزية (٤) و حى الشَّشَّة (٥) و حى الروضة (٦) و حى الخانسة (٧) و حى الزاهر (٨) و حارة الطندباوى و فيه شارع المنصور (٩) و محلة الرصيفة (١٠) و محلة المشعلية (١١) و محلة الزهراء. و إليك صورة عمدة كل محلة، و ليعذرنا من لم تصلنا منه صورته لوضعها هنا و نسأل الله تعالى التوفيق و السداد للجميع.

استعمال أقلام الجيب فى الحجاز

كانت الدوائر الحكومية كلها بالحجاز تستعمل أقلام البوص "القصب"، و كذلك جميع المحلات التجارية بل و أفراد الأمة، و كانوا يكتبون بالحبر الأسود لا يعرفون غيره، حتى كتابة الحجج فى المحاكم الشرعية كانت تكتب بذلك، أما العلماء و المؤلفون فكانوا يستعملون الحبر الأسود و الأحمر أيضا لكتابة عناوين مؤلفاتهم و أبوابها و فصولها و وضع العلامات و الإشارات فوقها. و بهذا كان لدى كل فرد منهم "مطوة" و تسمى بالحجاز "مقلمية" لبرى الأعلام، و دواية للحبر الأسود، و كانت الدوايات على أشكال و أحجام مختلفة بعضها ذات قيمة ممتازة، يتفنن فى صنعها الفابريقات، و كانوا يستعملون الرمل فى تشييف حبر الأوراق المكتوبة "أى فى تجفيفها" رملا خصوصا يأتى إلينا من الخارج، و يكون ملونا منه الأحمر و الأخضر و الأزرق، و هذا الرمل يكون لدى خواص الناس و الكتّاب، أما العوام فإنهم يجففون الحبر بالتراب يضعونه فوق الورق

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١٨

المكتوب ثم يفضونه. و لقد ورد فى ذلك حديث ضعيف رواه الترمذى و هو "إذا كتب أحدكم كتابا فليتربه فإنه أنجح لحاجته." ثم بعد الحرب العالمية الأولى أى منذ سنة (١٣٣٠) ثلاثين و ثلاثمائة و ألف هجرية بدأ استعمال أقلام الجيب فى الحجاز مع ما يتبعه من الحبر الخاص له بجميع الألوان، و لا يزال يكثر استعماله حتى انقرضت الآن أقلام القصب من السوق، و كاد الحبر الأسود أن ينقرض الآن أيضا، فقد بطل استعماله بتاتا من الدوائر الحكومية و المحلات التجارية و من جميع الناس، و لا يستعمله مع أقلام القصب غير الخطاطين فقط، و بالطبع انقرضت الدوايات الخاصة بالحبر الأسود، فجميع العالم يستعمل أقلام الجيب، و هو من الكثرة و رخص السعر بحيث صار الفقير يمكنه شراؤه- أما استعمال الرمل أو التراب فى تجفيف الحبر فلم يبق له أثر مطلقا فى جميع البلدان، بسبب ظهور ورق النشاف.

استعمال الآلات الكاتبة فى الحجاز

لم يكن استعمال الآلات الكاتبة شائعا بالحجاز إلى سنة (١٣٤٥) خمس و أربعين و ثلاثمائة و ألف تقريبا، فجميع كتّاب الدوائر الحكومية و المحلات التجارية كانوا يكتبون مذكراتهم الرسمية و أعمالهم التجارية و مخاطباتهم الشخصية، بأيديهم سواء بالحبر الأسود أم بالحبر الأزرق.

و منذ السنة المذكورة ابتدأ الناس بالحجاز فى استعمال الآلات الكاتبة بالتدريج حتى أنه الآن عم استعمالها جميع الدوائر الرسمية و الدواوين الحكومية و المحلات التجارية و حتى الأفراد يستعملونها لمصالحهم الشخصية.

و الحقيقة أن الكتابة بالآلات تمتاز بشيئين: النظافة و السرعة، و لكن ينشأ عنها من إهمال عام فى تحسين الخط، و لذلك نرى تلامذة المدارس أصبحت خطوطهم ضعيفة غير حسنة، لأنه كانوا يشترطون فى الوظائف حسن الخط، و الآن بانتشار الآلات الكاتبة أصبح هذا الشرط فى حكم الإلغاء، لهذا لا يعتنى بتعليم الخط و تحسينه على الوجه المرضي، و عدم الاعتناء بتدريس الخط فى المدارس يؤدى إلى ضياع رونقه و جماله، و ربما فى المستقبل بعد مضى قرن أو قرنين لا نجد من الخطاطين من يحسن الكتابة بقواعد الخط المعروفة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢١٩

على أن لجميع أنواع الآلات الميكانيكية التي تستعمل في مرافق الحياة اليوم، لها منافعها و لها مضارها. و هذا شأن الحياة الدنيا في كل شيء.

نسأل الله السلامة من كل شر و التوفيق لكل خير آمين.

أول من فرض العشور بمكة

المراد بالعشور وضع الضريبة على البضائع والأشياء الواردة للبلاد، فالعشور هو ما نسميه باصطلاحنا في عصرنا الحاضر الجمرک، و تسمى العشور بالمكس و بالجباية، و بالخراج. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ١-٢؛ ص ٢١٩ ان أول من فرض العشور بمكة المكرمة و أخذها شخصان من أولاد إسماعيل بن خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة و السلام، (فالأول) مضاض بن عمرو الجرهمي و هو ملك جرهم، و كان بأعلا مكة، و كان يأخذ العشور ممن يدخل مكة من أعلاها و (الثاني) سميدع، و هو ملك قسطورا، و كان يأخذ العشور ممن يدخل مكة من أسفلها. فمضاض و سميدع كانا من ولاة مكة المكرمة و من حكامها بعد نبي الله تعالى إسماعيل عليه الصلاة و السلام، و ذلك قبل مبعث نبي آخر زمان نبينا "محمد" صلى الله عليه و علي آله و صحبه و سلم بنحو ثلاثة آلاف سنة. و لكن لما بعث الله تعالى نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم، بدين الحق و هو دين الإسلام الحنيف أبطل العشور و الجمارك و نهى عن أخذها لأنها تؤخذ ظلما بدون حق شرعي.

و الملوك و الحكومات كانت تأخذ العشور و تضع الجمارك على البضائع الواردة للاستعانة بما يجمعونه من هذه العشور على تقوية الجيوش لمقاتلة أعداء الإسلام على أنه وجد في التاريخ أن بعض الملوك قد أبطل العشور و الجمارك، بل إنه يوجد عمود من أعمدة المسجد الحرام بمكة المشرفة التي عليه قباب المسجد و هو يقع بقرب باب العمرة على يسار الداخل من هذا الباب إلى المسجد الحرام، قد كتب على هذا العمود أي السارية و هو من الحجر المرمر الرخام أن أحد ملوك المسلمين قد أبطل أخذ العشور من جميع البضائع و من جميع أنواع الأطعمة من اللحوم و الفواكه و الثمرات و الخضروات، و من جميع أنواع الحبوب الواردة إلى مكة المكرمة، كتب ذلك نقرا على نفس حجر المرمر و قد نشرنا كل ذلك منذ أربع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٠

سنوات في إحدى الجرائد بمكة المكرمة، و لولا أنني مريض في هذا الوقت لنقلت كل ما كتب على هذا العمود المرمر الرخام. فحبذا لو أن جميع الحكومات الإسلامية اتفقت كلمتهم على إبطال المكوس و هي العشور و الجمارك، من جميع الممالك الإسلامية، خصوصا و قد فتح الله تعالى على كثير من الحكومات كنوز الأرض من ينابيع البترول و مختلف أنواع المعادن و الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

ذكر المكوس و العشور و إبطالها

جاء في تاريخ الغازي عن ذلك نقلا عن خلاصة الكلام ما نصه: و في أيام الشريف مكتر بن عيسى أمير مكة أبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر المكس المأخوذ من الحجاج في البحر عن طريق عيذاب و كان من لم يؤد بعيذاب يؤخذ منه بجدة و هو سبعة دنانير مصريه على كل إنسان و كان يأخذ ذلك أمير مكة و كان سبب إبطاله أن الشيخ علوان الأسدي الحلبي حج. فلما وصل إلى جدة طولب بذلك فأبى أن يسلم لهم شيئا و أراد الرجوع فإلطفوه و بعثوا إلى صاحب مكة و كان الشريف مكتر بن عيسى فأمر بإطلاقه و مسامحته فلما طلع إلى مكة اجتمع به و اعتذر إليه بأن دخول مكة لا يفى بمصالحنا و هذا الحامل لنا على هذا فكتب الشيخ علوان إلى السلطان صلاح الدين و ذكر له حاجة أمير مكة و عرفه أن البلد ضعيفه و أنها ما تدخل ما يكفيه و أن ذلك هو الذي حمله

على هذه البدعة الشنيعة فأنعم عليه مولانا السلطان صلاح الدين بثمانية آلاف إردب قمح و قيل بألفي دينار و ألفي إردب قمح و أمره بترك هذه المظلمة جزاه الله خيرا، انتهى.

و قال ابن فهد: ذكر الشيخ كمال الدين عمر بن العديم في تاريخه لحلب في ترجمة الشيخ أبي عبد الله علوان بن الأستاذ عبد الله ابن علوان الأسدي الحلبي أنه هو الذي أبطل المكس عن أهل مصر و المغاربة فإن العادة كانت جارية عندهم أنهم يخرجون إلى جدة و يأخذون على كل إنسان سبعة دنانير و يهينوهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء. فلما بلغه ذلك قال للملك الناصر: سيرني في مركب و مر صاحب المركب متى قلت له ارجع يفعل ذلك. فسير في مركب صغير فلما وصلوا إلى المرسى جاءهم إنسان أسود من مكة و معه ميزان و طالبهم بذلك المعهود

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢١

من المكس. فقال: أدوا الحق فقال له علوان: ويلك و ما الحق؟ فقال الحق على كل رأس سبعة دنانير فلطمه و قال: تسمون المظالم حقا؟ و قال لصاحب المركب ارجع فعاد فاستغاثوا إليه على رسلك يعلم الأمير فوقف إلى أن طلوعوا لصاحب مكة بأمره فقال أطلقوه و جميع من معه في المركب ففعلوا ذلك. فلما وصل مكة اجتمع به صاحب مكة و اعتذر له و قال: نحن قوم ضعفاء و ما لنا إلا هذه الجهة و الملوكة قد استولوا على البلاد لا يبرونا بشيء. فعند ذلك كتب الشيخ علوان إلى الملك الناصر يعني صلاح الدين بن أيوب فشفع فيهم و طلب لهم منه شيئا فأقطعهم الإقطاع المعروف بهم بمصر و بطل ذلك المكس الذي يؤخذ من الحاج و لله الحمد انتهى. و في تاريخ العصامي: و في سنة (٥٥٢) اثنين و خمسين و خمسمائة أسقط السلطان صلاح الدين المكس عن الحجاج إلى مكة على طريق عيذاب لأنه كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حجاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب الضرائب و المكس و من دخل منهم و لم يفعل ذلك حبس حتى يفوته الوقوف بعرفة و لو كان فقيرا لا يملك شيئا. ثم ذكر ابن جبير شيئا من أخبار هذا المكس فقال: إنه كان يؤخذ من كل إنسان سبعة دنانير مصرية و نصف فإن عجز عن ذلك عوقب بأنواع العذاب الأليم من تعليقه بالخصيتين و غير ذلك و كانت هذه البلية في دولة العبيدين المتخلفين بمصر جعلوها معلوما لأمير مكة فأزالها الله تعالى على يد السلطان صلاح الدين و عوض أمير مكة ما تقدم ذكره. انتهى.

و في تحصيل المرام: و في سنة (٧٥٧) سبع و خمسين و سبعمائة أسقط المكس المأخوذ بمكة من الحب و التمر و الغنم و السمّن و ارتفع من مكة الجور و الظلم و انتشر العدل كل ذلك بهمة السلطان حسن بن قلاوون صاحب مصر بتجهيزه العساكر إلى مكة و إصلاح أمرها من أشرف مكة حكاة الفاسي. و في سنة ستين و سبعمائة رسم السلطان حسن بن قلاوون بإسقاط المكوس من مكة و رتب لصاحب مكة ثمانية و ستين ألف درهم من بيت المال بمصر و ألف إردب حب و قرر ذلك في ديوان السلطان المذكور و أمضى ذلك الولاية بالديار المصرية إلى تاريخه و كتب ذلك في أساطين المسجد الحرام جهة باب الصفا و غيره فطابت نفس أمير مكة المشرفة و عمل به هو و من بعده من أمراء مكة. انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٢

و في المنتقى: و في سنة (٧٦٦) ست و ستين و سبعمائة رسم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر بإسقاط ما على الحجاج من المكوس بمكة في سائر ما يحمل إليها من المتاجر سوى الكارم و تجار الهند و تجار العراق و أسقط المكس المتعلق بالمأكولات و بلغنا أن المكس الذي كان يؤخذ من المأكولات بمكة مد حب جدى و هو مدان مكى من كل حمل حب يصل من جدة و مد مكى و ربع من كل حمل حب يصل من جهة الطائف و بجيلة و ثمانية دنانير مسعودية على كل حمل من التمر اللبان الذي يصل إلى مكة و ثلاثة دنانير مسعودية على كل حمل تمر محشى يصل إلى مكة و ستة دنانير مسعودية على كل شاة تصل إليها و سدس ثمن ما يباع بمكة من السمّن و العسل و الخضر و ذلك أن يحصى ثمنها مسعودية فإذا عرف أخذ على كل خمسة دنانير دينار مسعودي و يؤخذ أيضا دينار مسعودي من ثمن السلّة التمر إذا بيعت بالسوق من النهار الذي

باعها يتعيش فيها والمأخوذ على التمر أولا من جالبه إلى مكة و يؤخذ بشيء مما يباع في السوق من غير ما ذكرناه و كان الناس يقاسون شدة بحيث بلغنا أن بعض الناس جلب شاة فلم تسوى المقدار المقدر عليها فسمح بها في ذلك فلم تقبل منه فأزال الله جميع هذا الباطل على يد الأمير بلسفا المعروف بالخاسكى مدير المملكة الشريفة في دولة الملك الأشرف المذكور بتبنيه بعض أهل الخير له على ذلك و عوض صاحب مكة عن ذلك ثمانية و ستين ألف درهم من بيت المال المعمور بالقاهرة و ألف إردب قمحا و قرر ذلك في ديوان السلطان المذكور و أمضى ذلك الولاة بالديار المصرية إلى تاريخه و كتب خبر هذا الإسقاط في أساطين المسجد الحرام في جهة باب الصفا و غيره.

و في درر الفرائد: و في سنة (٧٦٩) سبعمائة و تسع و ستين اتفق الحال مع الشريف عجلان صاحب مكة أن يرتب له من بيت المال في كل سنة مائة و ستون ألف درهم نقرة تحمل إليه من مصر و ألف إردب قمح و يترك الجبا من مكة في كل ما يوكل و يجلب إليها من الحبوب و الخصروات و الثمار و الغنم و الخشب و السمن و العسل و أشهد على نفسه بذلك و كتب ثلاث محاضير يجعل واحد بمكة و واحد بالمدينة و واحد بقلعة الجبل بالقاهرة و قيد ذلك في ديوان الأشرف شعبان و أمضى الولاة بعد ذلك إلى أن انقطع. انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٣

و في إتحاف الوري: و في سنة (٨٠٤) أربع و ثمانمائة في صفر حصل للسيد حسن بن عجلان خمسة و ستون ألف مثقال و أزيد فيما قيل عن القاضي شهاب أحمد بن القاضي برهان الدين المحلى و جماعة من تجار الكام لأن المركب الذين كانوا فيه انصلح بقرب مكة فأعطوه هذا المقدار عوضا عن الربع الذى يأخذه ولاة البلد فيما ينصلح في بلادهم من الجلاب و اشتد غضب القاضي برهان الدين المحلى بسبب ذلك على السيد حسن و سعى في إرسال شخص من خواص السلطان بمصر يطالبه بذلك فوصل إليه في آخر رجب و بلغ رسالته فاعتذر بتفرق ذلك من يده و وعده بالخلاص و ماطل فيه. انتهى.

و في الإعلام: أن السلطان أبا الفتح سيف الدين خطر الظاهرى قرر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان ألف دينار ذهب تحمل له من خزينة مصر في كل عام و جعل ذلك في مقابلة ترك المكس على الخضرة و الفواكه و الحبوب و غيرها بمكة و أمر أن يكتب عهده و اعترافه بذلك على سوارى المسجد الحرام من ناحية باب السلام و من ناحية باب الصفا بإسقاط المكس الذى كان يؤخذ على الخضرة و الفواكه من المأكولات و أن لا يكلف شريف مكة على أخذ القرض منهم و السوارى المكتوبة بهذا العهد موجودة في المسجد الحرام إلى الآن. انتهى.

قال البتونى في الرحلة الحجازية على بعض عمد الحرم كتابة محفورة فيها تدل على ما كان لبعض الملوك من العماره في المسجد أو من الأعمال التى فيها نفع للمسلمين كإبطال المكوس و نحو ذلك و من هذه الأعمدة بقرب باب الحزورة لا يزال منقوشا عليه عهد كتبه الأشرف شعبان سلطان مصر بإبطال المكوس التى كانت تأخذها أشراف مكة على الحجيج و أغلب هذه العمدة مطلى بالجبس لأن بعض أمراء مكة سامحهم الله كانوا إذا أرادوا نقض العهود المحفورة عليها عمدوا إلى تلك النقوش و كسوها بعجينه من الجبس فلا يظهر لها أثر. اهـ.

و فيه أيضا: و فى أول ولاية السلطان قايتباى أرسل إلى مكة مراسيم تتضمن بإبطال جميع المكوسات و المظالم و أن ينقر ذلك على أسطوانة من أساطين الحرم الشريف فى باب السلام. انتهى.

و فى إتحاف الوري: و فى سنة (٨٢٨) ثمان و عشرين و ثمانمائة بلغ صاحب مصر وصول مراكب من الهند إلى بندر جدة فأحب أخذ مكوسها فبعث بعض مسالمة القبط سعد الدين بن المرة فقدم مكة و صادف وصول أربعة عشر مركبا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٤

موسوقه بضائع من الهند فأخذ منها العشر و هذا أول ما أخذ العشر لصاحب مصر بجدة و سبب وصول المراكب الهندية إلى جدة أنها

كانت تأتي عدن و تنجل أمتعتها من عدن في الجلاب إلى جدة فكثر الظلم عليهم في عدن فتركوه و صاروا يعدون إلى بندر جدة فاستمر بندر جدة يعمر و يتلاشى أمر عدن إلى أن ضعف بسبب ذلك صاحب اليمن و قل مدخوله و ضعف متحصله و كان المتحصل في هذه السنة من عشور بندر جدة ما ينوف عن سبعين ألف دينار ذهباً حملت إلى خزينة مصر. انتهى.

و في تاريخ السنجاري: و في سنة (٨٢٨) ثمانمائة و ثمان و عشرين أحدث الأشرف برسباني مظلمة العشور بجدة لما سمع بورود المراكب الهندية فبعث بعض مسالمة القبط و هو سعد الدين إبراهيم لذلك فقدم مكة و صحبته الأمير رأس نوبه أو نبغا و شاد الديوان شاهين العثماني إلى ساحل جدة فصادف وصول إبراهيم الناخودة من بلاد الهند في أربعة عشر مركبا موسقة بضائع من أصناف المتاجر فأخذ منها العشور فقط لأمر السلطان بذلك و وجد التجار راحة بجدة بخلاف ما كانوا يجدونه بعدن من المظالم فتركوا بندر عدن و اتخذوا جدة بندرا و لم يزل جدة تتراين في العمارة و يتلاشى أمر عدن و صار قطر جدة وظيفه سلطانية يخلع على متوليها و يتوجه إليها في كل سنة و إن وردوا المراكب إليها متول جديد و يأخذ ما على التجار من العشور و يحضر بها إلى القاهرة، و بلغ ما حمل إلى الخزانة من ذلك زيادة على سبعين ألف دينار ذهب. قال القطب الحنفي: و زادت هذه مظلمة في زماننا حتى ما يؤخذ من الواردين ما يزيد على العشر بكثير قلت: قال السنجاري: و في زماننا هذا زادت زيادات كثيرة و صار صاحب جدة يأخذ ما يريد و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم. انتهى ما في تاريخ السنجاري.

و قال ابن فهد بعد ذكر هذه الواقعة: فجاء الناس ما لا عهد لهم قبله فإن العادة لم تزل من قديم الدهر في الجاهلية و الإسلام أن الملوكة تحمل الأموال الجزيلة إلى مكة تفرق في أشرفها و مجاوريها فانعكست الحقائق و صار المال يحمل من مكة و يلزم أشرفها بحمله و مع ذلك منع التجار أن يسيروا في الأرض يبتغون من فضل الله و كلفوا أن يأتوا إلى القاهرة حتى يؤخذ منهم المكوس على أموالهم فإن في هذه السنة في أيام الموسم منع التجار أن يتوجهوا من مكة إلى بلاد الشام بما ابتاعوه من أصناف تجارات الهند و أزموا أن يسيروا مع الركب إلى مصر حتى يؤخذ منهم التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٥

مكوس ما معهم فتوجهوا مع الحاج فلما نزل الحجاج بركة الحاج خارج القاهرة خرج مباشرة و الخاص و أعوانهم و استقصوا تفتيش محايير القادمين من الحجاج و التجار و أحمالهم و أخرجوا سائر ما معهم من الهدية و أخذوا مكسها حتى أخذوا من المرأة الفقيرة مكس النطع الصغير عشرة دراهم فلوس. انتهى.

و في درر الفرائد المنظمة: و من الغرائب إجهار النداء في يوم عرفه بالموقف الأعظم لجميع الناس عامة من اشترى بضاعة للبحر و سافر بها إلى غير القاهرة حل دمه و ماله للسلطان فسافر التجار القادمون من الأقطار مع الركب المصري ليؤخذ منهم مكوس بضائعهم بها ثم إذا سافروا من القاهرة إلى بلادهم يؤخذ منهم المكس بالشام أيضا و غيرها فلا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم. انتهى. ذكر ابن فهد أنه كان ذلك في سنة ثلاثين و ثمانمائة.

و في سنة (٨٣٢) ثمانمائة و اثنين و ثلاثين في يوم الخميس تاسع ربيع الأول وصلت المراسم من الأشراف صاحب مصر بالألغام على الشريف بركان بن حسن بثلاث ما يتحصل من عشور المراكب الهندية و أن الثلثان يحملان إلى الخزانة فحصل للشريف بذلك غاية السرور.

و في سنة (٨٣٠) ثمانمائة و ثلاثين كتب السلطان صاحب مصر بأن يؤخذ من التجار الشاميين و المصريين إذا وردوا جدة ببضائع اليمن عشرين و أن من قدم إلى جدة من التجار اليمنيين ببضاعة يؤخذ ببضاعته بأجمعها للسلطان من غير ثمن يدفع له عنها و سبب ذلك أن تجار الهند في هذه السنين صاروا عند ما يعبرون من باب المنذب يجوزون عن بندر عدن حتى يرسو بساحل جدة فأقفر عدن عن التجار و انضع حال ملك اليمن لقلته متحصله و صارت جدة هي بندر التجار و يحصل لسلطان مصر من عشور التجار مال كبير و صار

نظر جدّه وظيفه سلطانيه فانه يؤخذ من التجار الواردين من الهند عشور بضائعهم و يؤخذ مع العشور رسوم تقررت للنظر والشاد و شهود القبان و الصيرفي و نحو ذلك من الأعوان و غيرهم و صار يحمل من قبل سلطان مصر مرجان و نحاس و غير ذلك مما يحمل من الأصناف إلى بلاد الهند فيطرح على التجار و يتشبه به في ذلك غير واحد من أهل الدوله فضايق التجار بذلك ذرعا و نزل جماعة منهم في السنه الماضيه إلى عدن فتنكر السلطان بمصر عليهم لما فاته من أخذ عشورهم و جعل عقوبتهم أن من اشترى بضاعه من عدن و جاء بها إلى جدّه إن كان من الشاميين أو المصريين أن يضاعف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٦

عليه العشر بعشرين و إن كان من أهل اليمن أن تؤخذ بضاعته بأسرها فمن لطف الله تعالى بعباده أنه لم يعمل بشيء من هذا الحادث لكن قرأت هذه المراسم تجاه الحجر الأسود فراجع السيد بركات أمير مكة السلطان صاحب مصر في ذلك حتى عفى عن التجار و أبطل ما رسم به، كذا في إتحاف الوري.

و في سنه (٨٤٠) ثمانمائه و أربعين وصل قاصد من مصر للسيد بركات و معه كتاب من صاحب مصر مذكور فيه أنه أنعم عليه بنصف عشور جدّه من المراكب الهنديه.

و في سنه (٨٤٣) ثمانمائه و ثلاث و أربعين وصلت مراسيم تتضمن أن جميع الجلاب الواصله من البحر إلى جدّه من سائر البلاد ليس لصاحب مكة من عشرها إلا الربع و الثلاثه الأرباع تحمل لصاحب مصر و أن جميع من مات بمكة من غير أهلها ليس لصاحب مكة من تركه شيء و كله لصاحب مصر و أن صاحب مكة ليس له إلا تركه من مات من أهل مكة و أن السيد بركات قد أعفاه السلطان من تقبيل خف الجمل الذي يأتي بالمحل و أن لا يأخذ من التجار الواردين غير العشر فقط و يؤخذ صنف المال من كل عشر و أن يبطل ما كان يأخذه غيره العشر من الرسوم، كذا في تاريخ السنجاري.

و في تاريخ ابن فهد: و في سنه (٨٤٣) ثلاث و أربعين و ثمانمائه وصل صحبه الحاج إلى مكة المشرفه مرسوم يتضمن إعفاء السيد بركات من تقبيل خف الجمل المحل فشكر هذا من فعل السلطان و أن لا يؤخذ من التجار الواردين في البحر إلى جدّه سوى العشر فقط و يؤخذ صنف المال من كل عشره واحد و أن يبطل ما كان يؤخذ سوى العشر من رسوم المباشرين و نحوهم و أن يمنع الباعه من المصريين الذين سكنوا مكة و جلسوا بالحوانيت في المسعى و حكروا المعاش و تلقوا الجلب من ذلك و أن يخرجوا من مكة فشكر ذلك أيضا لأن هؤلاء البياعين كثر ضررهم و تقووا بحمايه المماليك لهم فغلو الأسعار و أحدثوا بمكة إحدانا لم يعهد لها و عجز الحكام عن منعهم لتقويه المماليك المجردين لهم بما يأخذونه منهم من المال.

و في سنه (٨٨١) إحدى و ثمانين و ثمانمائه ثانی عشر ذی القعدة وصل إلى مكة المشرفه نائب جدّه قراجا عتيق الدوادار الكبير جاني بك و معه مراسيم للشریف محمد بن بركات و قاضي القضاة برهان الدين الشافعي و أخيه القاضي كمال الدين و باش الترك قايتباي فدخلوا جميعا إلى المسجد الحرام و جلسوا بالحطيم فقري

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٧

مرسوم الشریف ثم برهان الدين ثم أخيه ثم باش الترك و تاريخ المراسيم رابع عشر شوال من السنه و مضمونهم واحد و هو أن الواصل إلى مكة من المرجان و غيره مما هو من بضائع الهند لا يترك شيء منه يذهب به إلى اليمن حتى لا تبقى المراكب الهنديه تدخل اليمن و الواصل من اليمن من بضائع الهند يكون بين السلطان و بين الشریف نصفين و لم تجر بذلك عادة قبل ذلك بل كان ذلك مما يختص بالشریف و من مات بجدّه و مكة و لم يكن له وارث يكون من أشرفي إلى ألف أشرفي للشریف و ما فوق ذلك للسلطان و من مات و له وارث غائب لم يختم على مال الميت القاضي على العادة بل ذلك إلى نائب جدّه قراجا و الفلفل الواصل إلى جدّه من الهند يؤخذ منه للسلطان بسعر العام الماضي و الذي قبله و لا يعارض نائب جدّه في شيء مما يريده و التوصيه عليه و أنه من المقربين. انتهى من الغازي.

نقول: و بمناسبة ذكر المكوس و العشور و إبطالها نذكر: أنه يوجد في أحد أعمدة المسجد الحرام الرخامية الواقع بين باب الباسطية و بين باب العمرة، مكتوب على هذا العمود أن بعض الملوك و السلاطين أمر بإبطال المكوس و العشور في الحرمين الشريفين خصوصا في مكة المشرفة فلا يؤخذ شيء على البضائع الواردة إليهما بكافة أنواعها من الأطعمة و الأقمشة و اللحوم و الألبان و الزروع و الثمار و الحيوانات و الدواجن و غير ذلك، و قد كتبنا مقالة في هذا الصدد في الجرائد و الصحف المحلية بمكة المكرمة، و نحن لم تتمكن من قراءة اسم الملك المكتوب على العمود الرخامي لطوله و ارتفاعه عن الأرض فنظن أن ذلك كان من نحو خمسمائة سنة تقريبا فجزى الله تعالى ولاء المسلمين الأقدمين الذين كانوا يقيمون الشريعة و حدود الله و كانت سريرتهم بيضاء و قلوبهم خاشعة لذكر الله و عفا الله تعالى عن أهل زماننا و عاملنا بما هو أهل له لا بما نحن أهل بفضله و رحمته آمين.

إحصاء الحجاج القادمين إلى مكة المشرفة في بعض الأعوام

إشارة

قد يظن بعض الناس إذا سمع أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في حجة الوداع ألفا أو أكثر كما تقدم تفصيله، أنه عدد تقريبي حيث أن العرب ما كانوا يعدون الحجاج أو ما كانوا يعدون بعضهم عند اللزوم. و الحقيقة أن العرب كانوا يعرفون العد و الحساب، بل في صدر الإسلام عند ما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدخل الحرب و يغزو القبائل، كانوا يعرفون عدد جيوشهم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٨

و جيوش أعدائهم و كم قتل أو جرح من الطرفين، و هذا شيء كان يعرف عندهم بالسليقة و طبيعة الأمر فلا يتوقف على التعليم أو الدرس لأن النفوس جبلت على معرفة ما لديها من مال أو نعم أو جيش. فلقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الوصايا في باب كتابة الإمام الناسي: عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

"جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله إني كتبت في غزوة كذا و كذا و امرأتى حاجة، قال: ارجع فحج مع امرأتك" فهذا دليل واضح أنهم يكتبون أسماء الجنود في الحرب و الغزوات.

و لقد أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بإحصاء المسلمين. فقد جاء في صحيح البخاري في الكتاب المذكور و في الباب المذكور أيضا: عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه و سلم: "اكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس فكتبنا له ألفا و خمسمائة رجل، فقلنا: نخاف و نحن ألف و خمسمائة، فلقد رأينا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده و هو خائف" و في رواية أبي حمزة عن الأعمش فوجدناهم خمسمائة، قال أبو معاوية: ما بين ستمائة إلى سبعمائة.

و جاء في صحيح مسلم في كتاب الإيمان في باب جواز الاستمرار للخائف:

عن حذيفة قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: احصوا لى كم يلفظ الإسلام، قال: فقلنا: يا رسول الله أتخاف علينا و نحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟ قال:

إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا قال: فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلى إلا سرا.

قال في كتاب "مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار" عند هذا الحديث في آخر الشرح ما يأتي: فإن قلت ما وجه الجمع بين هذه الروايات قلت أجيب بأن المراد بقولهم خمسمائة: المقاتلون، و بقولهم ما بين ستمائة إلى سبعمائة الرجال خاصة، و بقولهم ألف و خمسمائة النساء و الصبيان و الرجال، لكن هذا الجواب باطل لأنه قد جاء برواية البخاري في أواخر كتاب السير "فكتبنا له ألفا و

خمسائة رجل" فالجواب الصحيح و الله تعالى أعلم أن يقال لعلهم أرادوا بقولهم ما بين ستمائة إلى سبعمائة رجال المدينة خاصة، و بقولهم فكتبنا له ألفا و خمسمائة إياهم مع من حولهم من المسلمين. انتهى من الكتاب المذكور.

من المستحيل إحصاء الحجاج الذين يقفون بعرفات كل عام، سواء كانوا من داخل البلاد أو خارجها منذ ظهور الإسلام إلى اليوم، لأن ولاة مكة المكرمة لم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٩

يكن يهتمهم ذلك لأمرين (الأول) عدم وجود جوازات السفر للمسافرين، (و الثاني) عدم أخذ الرسوم من القادمين الحجاج، فلماذا يحصونهم و لماذا يكتبون أسماءهم في السجلات و الدفاتر؟.

فلما تقدم الناس في وسائل المدينة و مرافق الحياة، تنبهوا لإحصاء الحجاج و القيام بخدماتهم اللازمة و مصالحهم العامة لقاء أجر معلوم، و نحن نذكر هنا عدد الحجاج الذين أمكن إحصاؤهم في بعض الأعوام من أوائل القرن الرابع عشر للهجرة. و قد ذكر المؤرخون: أنه في السنة الثالثة عشر من البعثة قبيل هجرته صلى الله عليه و سلم إلى المدينة المنورة، وقف في حج هذه السنة من المشركين من الأوس و الخزرج خمسمائة نفر، ثم انصرفوا إلى المدينة، و لم يكن الحج قد فرض على المسلمين، فإنه فرض في السنة الخامسة من الهجرة، لكن لا بد أنه وقف أيضا من قريش نحو ألف نفر، و الله تعالى أعلم.

و ذكروا أيضا: أن عدد من خرج مع النبي صلى الله عليه و سلم، من المدينة من المسلمين في حجة الوداع تسعون ألفا، و يقال مائة ألف و أربعة عشر ألفا، و يقال أكثر كما حكاه البيهقي، هذا ما ذكره صاحب تاريخ الخميس.

و لكن لا ندري هل ذكر المؤرخون عدد من وقف معه صلى الله عليه و سلم بعرفات في حجة الوداع، أم لا؟ فإننا لم نبحث عن ذلك، و لا بد أنه قد تجمع من الطريق و من مكة و أطرافها و من الممالك الأخرى من المسلمين عدد غير قليل، ليحجوا و يقفوا بعرفات مع رسول الله، صلى الله عليه و سلم. فتأمل كيف كان المسجد الحرام يسع هذا العدد الكبير، مع أنه كان صغيرا غير متسع في زمنه، صلى الله عليه و سلم. و لا يبعد أنهم كانوا يأتون إليه زمرا زمرا، و فوجا فوجا، من المحل الذي نزلوا فيه مع رسول الله صلى الله عليه و سلم بظاهر مكة و هو البطحاء جهة الحجون، بل ورد ذلك صريحا في تاريخ الأزرقى عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، و جده، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم، مضطربا بالحجون في الفتح يأتي لكل صلاة. اهـ. أى يأتي المسجد الحرام لكل صلاة، و معنى مضطربا بالحجون أن النبي صلى الله عليه و سلم لما أتى مكة، أبى أن ينزل في بيوتها، و إنما نزل بالحجون و ضربت له الخباء هناك. ثم تأمل و قارن بين عدد من وقف من المسلمين بعرفات في حجة الوداع، و عدد من يقف من المسلمين من جميع الأقطار في عصرنا الحاضر. و من غرائب الأمور ما ذكره رفعت باشا في كتابه (مرآة الحرمين) في أول الجزء الثاني منه،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣٠

قال: إنهم لما وصلوا مكة في غرة ذي الحجة عام (١٣٢٠)، ذهبوا لزيارة شريف مكة الشريف عون الرفيق، فقال لهم: إني مسرور من قلة الحجاج في هذا العام مراعاة للحالة الصحية. اهـ. فكأنهم كانوا يحجون قلة الحجاج خوفا من حدوث الأمراض، أما في زماننا هذا، فلا يوجد أحد بمكة إلا و يجب كثرة الحجاج، و ازدياد عددهم في كل سنة، و سنذكر هنا إن شاء الله، عدد الحجاج في زمن صاحب مرآة الحرمين.

و ها نحن نذكر لك هنا عدد الحجاج الواردين إلى مكة من مختلف البلدان و الأقطار، و لنبدأ بعامي (١٣١٥) و (١٣١٦) نقلا عن تاريخ الغازي المخطوط و هو نقلا عن مجلة "المنار" التي كانت تصدر بالقاهرة بمصر. و إليك ما ذكره.

جاء في تاريخ الغازي، في الجزء الثاني بصحيفة ٤٢٨ عند الكلام على إحصاء الحجاج لعام ١٣١٥ للهجرة ما نصه:
 ذكر العلامة السيد محمد رشيد رضا في مجلته، أي "المنار": "بلغ عدد الحجاج الذين مروا من قناة السويس جاثين من طريق بور سعيد والاسكندرية "٨٣٥٢" عثمانيا و (١١١٣) إيرانيا، والذين جاؤا من طريق البصرة إلى السويس و مروا من القنال (١٩٠)، والذين لم يملوا منه "١٥٣"، وبلغ عدد الحجاج من بوسنة وهرسك "٨٦" و من مغاربة الجزائر "٢٧"، و ذلك لأن فرنسا أحصرت مسلمي بلادها منذ خمس سنوات، و من مغاربة الدولة العلية "١٤١" و بلغ عدد الروسيين الذين جاؤا عن طريق الاسكندرية "٢٠٩"، و بلغ عدد المصريين "٤٥٤١" وزد على ذلك "٢٤٠" حاجا من المغاربة و التكارنة و السودان سافروا من وابورات الشركة العثمانية مجانا لأنهم فقراء، ذكرت جريدة المؤيد بهذا الإحصاء بزيادة تفصيل، و قال إنه أضبط إحصاء حصل للحجاج. بلغ عدد الحجاج الذين غادروا منى بعد التضحية مائتي ألف نفس.

إحصاء الحجاج لعام ١٣١٦ هـ

و جاء فيه أيضا لعام ١٣١٦ للهجرة ما نصه:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣١

من طريق مصر بلغ عدد الحجاج الذين قصدوا الأقطار الحجازية عن طريق الاسكندرية لغاية ١٦ ذى القعدة "٧٦٠٢"، و الذين برحوا هذا الثغر في ذلك اليوم فقط "٨٠١" منهم "٥٠٩" عثمانيون، و "١٢٦" مصريون، و "٥٨" روسيون، و "٤٠" فارسيون، و "٢٩" من اليزولوس، و "٣٦" من البوسنيين، و "٣" من البرتغاليين. أما الذين سافروا من القاهرة فيبلغ عددهم إلى اليوم نحو الثلاثمائة حاج المؤيد. انتهى. انتهى نقلا من تاريخ الغازي. هذا ما ورد في العامين المذكورين (١٣١٥) و (١٣١٦).

ثم اطلعنا على الجزء الثاني من كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا، رحمه الله تعالى، فوجدنا أنه ذكر فيه عدد الحجاج الذين كانوا مع المحمل في عامي (١٣٢١) و (١٣٢٥) هجرية حينما ركبوا الباخرة من السويس فأحبينا نقله هنا، و هذا نصه:
 قال في صحيفة ٥٨: "تمام الساعة الخامسة بعد ظهر الاثنين ٢١ ذى القعدة سنة ١٣٢١ هجرية، ٨ فبراير سنة ١٩٠٤، أقلت باخرة الرحمانية من السويس قاصدة جدة و كان بها من الحجاج ٥٩٩ منهم ٢٤ في الدرجة الأولى و كلهم من موظفي المحمل عدا ثلاثة، و منهم ثلاثة و ثلاثين في الدرجة الثانية من بينهم ٧ من موظفي المحمل، و منهم ٥٤٢ في الدرجة الثالثة من بينهم ٢٩٦ تبع موظفي المحمل و الباقي من الأهالي و من هؤلاء ٩١ من محافظة مصر و ٤ من المنوفية و ٤ من الجيزة و ١٨ من محافظة دمياط و ٢ من محافظة السويس و ١٤ من المنيا و ٢١ من الغربية و ٩٢ من القليوبية. أما باخرة مسير فإنها قامت من المرفأ في الساعة ١٢ و الدقيقة ٣٥، و كان بها من الحجاج ٤٤٨ منهم ٢٤ في الدرجة الأولى من بينهم ٤ من موظفي المحمل و تابعيهم و منهم ٩ في الدرجة الثانية بينهم ٤ من موظفي المحمل و باقي الركابيين في الدرجة الثالثة و عددهم ٤١٥ منهم ١٩ موظفون في المحمل و الباقي ٢٥ من محافظة مصر و ٥٨ من المنوفية و ١٥٣ من الشرقية و ٩٦ من الدقهلية و ٤٤ من الغربية و على ذلك فجملة الحجاج (١٠٤٧) من بينهم ٣٥١ موظفون في المحمل أو تابعون لموظفيه. هـ."

و قال في صحيفة (١٨٥) إن حجاج ركب المحمل في سنة (١٣٢٥) بلغوا "٢٤٠٠" انتهى كل ذلك من مرآة الحرمين.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣٢

هذا ما ذكره صاحب مرآة الحرمين عن عدد الحجاج الذين رافقوا ركب المحمل و لم يذكر عدد الحجاج الذين لم يرافقوا المحمل. ثم رأينا أيضا في الجزء الثاني من مرآة الحرمين أيضا بصحيفة ٢٦٠ بيانا لعدد الحجاج لست سنوات، من سنة ١٩٠٣ ميلادية إلى سنة ١٩٠٨، المرافقين للمحمل و غير المرافقين. و نحن قد وضعنا السنة العربية بجانب السنة الإفرنجية زيادة في الإيضاح و هذا هو البيان:

السنة الهجرية/ السنة الميلادية/ جملة الحجاج المصريين/ الحجاج الذين سافروا برفقة المحمل/ الحجاج الذين سافروا بغير مرافقة
المحمل ١٣٢١/١٩٠٣/-/٢٨-
٩٦٢٣/١٩٠٤/١٠٣١٩/١٠٣١٩/١٩٠٤/١٠٣١٩/١٠٣١٩
١٢٧٦١/١٩٠٥/١٤٣٦٦/١٩٠٥/١٦٠٥/١٦٠٥
١٠٧٦٨/١٩٠٦/١١٦١٥/١١٦١٥/٨٤٧/٨٤٧
١٦٥٨٦/١٩٠٧/١٨١٧٠/١٨١٧٠/١٥٨٤/١٥٨٤
١٤٠٢٧/١٩٠٨/١٥٨٥٦/١٥٨٥٦/١٨٢٩/١٨٢٩

و تجد في هذا البيان أنه في سنة ١٣٢١ هـ، الموافق لسنة ١٩٠٣ م لم يسافر أحد إلى الحج بغير مرافقة المحمل، و سبب ذلك: أن مجلس النظار المصري أصدر قرارا بمنع الحج لكل من يتوجه برفقة المحمل، و ذلك خوفا من عودة الوباء للقطر المصري- انتهى من مرآة الحرمين.

هذا، و لا يفوت القارئ النبيه، أن ابتداء السنة الهجرية لا تتفق مع ابتداء السنة الميلادية، فلا بد أن تسبق إحداهما الأخرى. و نحن في هذا البيان أضربنا عن ذكر الفرق الذى بينهما خوف التشويش.

و لقد وقف بعرفات عام ١٣٧٢ من الهجرة، خمسمائة ألف حاج أتوا: من طريق البحر (١١٨٢٠٠) شخص، و من طريق الجو (١٦٩١٧) شخصا، و من طريق البر ما عدا اليمن (١٠٠٣٢) شخصا، و من طريق البر من اليمن (١٦٠٠٠) شخص، و الباقيون وردوا من أطراف المملكة العربية السعودية حسبما ذكرته جريدة أم القرى بعد حج عام (١٣٧٢) هجرية.

و هنا نذكر إحصاء عاما بعدد الحجاج الواردين من خارج المملكة العربية السعودية بشتى وسائل المواصلات سواء كان عن طريق البر و البحر و الجو، و لا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣٣

نذكر من وقف بعرفات من أهل مملكتنا من جميع الجهات لأنه يتعذر إحصاؤهم.

و هنا نذكر عدد الحجاج ابتداء من سنة (١٣٤٣) لغاية (١٣٧٣) هجرية نقلا عن جريدة البلاد السعودية الصادرة بمكة في ٢٠ ذى الحجة سنة (١٣٧٢) و هو هذا:

السنة الهجرية/ عدد الحجاج ١٣٤٣ / ١٠٠٠٠٠

١٥٠٠٠٠ / ١٣٤٤

١٩٠٦٦٢ / ١٣٤٥

٩٦٢١٢ / ١٣٤٦

٩٠٧٦٤ / ١٣٤٧

٨١٦٦٦ / ١٣٤٨

٣٨٠٤٥ / ١٣٤٩

٢٩٠٦٥ / ١٣٥٠

٢٠١٨١ / ١٣٥١

٢٥٢٩١ / ١٣٥٢

٣٣٨٩٨ / ١٣٥٣

٢٣٨٣٠ / ١٣٥٤

٤٩٥١٧ / ١٣٥٥

٦٧٢٢٤ / ١٣٥٦

٥٩٥٧٧ / ١٣٥٧

السنة الهجرية / عدد الحجاج ٣٢١٥٢ / ١٣٥٨

٩٠٢٤ / ١٣٥٩

٢٣٨٦٣ / ١٣٦٠

٢٤٧٤٣ / ١٣٦١

٦٢٥٩٠ / ١٣٦٢

٣٧٨٥٧ / ١٣٦٣

٣٧٦٣٠ / ١٣٦٤

٦١٣٨٦ / ١٣٦٥

٥٥٢٤٤ / ١٣٦٦

٧٥٦١٤ / ١٣٦٧

٩٥٠٣٣ / ١٣٦٨

١٠٧٦٥٢ / ١٣٦٩

١٠٠٥٧٨ / ١٣٧٠

١٤٨٥١٥ / ١٣٧١

١٤٩٨٤١ / ١٣٧٢

و لقد ذكرت مجلة الحج التي تصدر بمكة المشرفة في عدد شهر محرم عام ١٣٧٢ هـ إحصاء عاما مثل إحصاء جريدة البلاد السعودية، غير أن هناك فرقا بسيطا بينهما في تعداد الحجاج في بعض السنوات، و ليس ذلك بمهم، حيث أننا في معرض التشويق و الترغيب، لا في معرض التحقيق و التدقيق.

و نذكر هنا أيضا إحصاء لأجناس الحجاج عن الثلاث السنين الأخيرة و هي ١٣٧٠ و ١٣٧١ و ١٣٧٢ هجرية نقلا عن جريدة البلاد السعودية الصادرة أيضا في التاريخ المذكور آنفا، و هو هذا:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣٤

أجناس الحجاج / عددهم في عام ١٣٧٠ / عددهم في عام ١٣٧١ / عددهم في عام ١٣٧٢ مصريون / ٢٢٩١٦ / ٢٧٦١١ / ٢١٦٧٥

سوريون / ٢٣٧٩ / ٥٦١٩ / ٣٥٧١

لبنانيون / ٥٧٨ / ١٧٣٣ / ٨٧٦

فلسطينيون / ١٣٠ / ٣٧٩ / ١١٩٥

عراقيون / ١٨٥٨ / ٢٦٤٠ / ٢٨٠٤

مغاربة / ٥٢٨٤ / ٧٨٦٨ / ٧٣٠٦

بخارية / ٣٢٨ / ٩٥ / ١٦٧

إيرانيون / ٦٩٥ / ٣٥٦٩ / ١٧٢٣

أتراك / ٤٢٣ / ٩٦٢٣ / ١١٣٢٩

- شرق الأردن / ١٣٩ / ٩١٤ / ٤٨٨
 يمنيون / ١٨ / ١١٧٨٥ / ١٤٣٩٣
 حضارمة / ٧٨٧ / ٣٦٢٠ / ٣٦٩٢
 عدنيون / ١٢١ / ٤٠٩ / ٢٣١
 يوغنده / ١٤١ / ٧٥ / ١٧٥
 تكارنة / ١٧١٥ / ٧٣٧٧ / ٢١٥٣٧
 شناقطة / ٦٣ / ١٣٤ / ٢١٣
 سودانيون / ٥٥٣٥ / ٩٢٣٣ / ٦٣٩٤
 سنغال / ٥٧٠ / ٨٥٣ / ٨٤٩
 صومال و أريتريا و مصوع / ٦٤ / ٥٥١ / ٢٠٨
 كبتون / ١٠٠ / ١٤٧ / ١٤٧
 أثيوبيا، أحباش / ٣٢٠ / ٢٦٩ / ٥٢٨
 زنجبار / ٢٧٠ / ٣٣ / ٥٨
 مقديشو / ٧١ / ٦٢ / ٤١
 صينيون / ٦ / ٢٢ / ٥٨
 نيجريا و ليقوش / ٤٤٣ / ١٠٥٥ / ١٠٦
 لبيون / - / - / ٢٨٣
 جيوتى / - / ٣٠ / ٢١
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣٥
 أفغانيون / ٦٤٩ / ١٦٣٤ / ٢٢٠٤
 سواحل / - / - / ٣٨
 بورما / ١٣ / ٢٢ / ٦٢
 باكستانيون / ٣١٣٣٩ / ١٨٣١٤ / ١٣٣٠٥
 مسلمو الهند / ١١٨٣١ / ١٠٢١٨ / ٨٨٦٥
 سيلان / - / ٥٣ / ٩٤
 إندونيسيون / ١٨٥٦ / ١٠٦٤٥ / ١٣٩٣٨
 سيام / ١٢٧٠ / ٦١٠١ / ١٣٧٦
 ملايو / ٥٧٦٧ / ٣٨٣١ / ٥٩٦٧
 فلبينيون / ٢٢٧٧ / ٦٦٧ / ٧٩٨
 كويت / ١٩٠ / ٨٠٨ / ١٦٧٥
 بحرین / ١١٥ / ٣٤٦ / ٦٩٥
 مسقط / ٣ / ١١٧ / ١٧٢
 دبی / ١١٦ / ٥٣ / ١١٩

موريس /-/-/ ١٥

الهند الصينية /-٢١/ ١٤

الخليج الفارسي /-١٤٠/ ٤٣

قطر /١٠٠/ ٢٠ / ٣٧٤

مسلمو أمريكا /-١/ ١

تركستان الشرقية /-١/ ١٨

ممباسا (الحبشة) /١٦/ ٤٠-

مسلمو ألمانيا /-١/ -

تنجانيقا /-١٦/ -

كنديون /-٢/ -

مدغشقر /-٤/ -

المجموع /١٠٠٥٧٨ / ١٤٨٥١٥ / ١٤٩٨٤١

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣٦

إحصاء الحجاج في سنة (١٣٧٣) هجرية

أجناس الحجاج / عدد الحجاج مصر / ٢٠٧٥٥

السودان / ٦٠١٥

فلسطين / ٢٧٣٦

تونس و الجزائر / ٤٢٠٣

تركيا / ١١٧٠٨

الأردن / ٤٣٦٣

الهند / ٧٨٩٤

باكستان / ١٩٣٥٢

ملايا / ٥٦٥٨

إندونيسيا / ١٠٢٣٤

إيران / ٣٩٨١

العراق / ١٤٢٥

الكويت / ٣٣٦

حضر موت / ١٩٨٣

سوريا / ٧٦٤٨

أفريقيا / ١٦٩٥١

اليمن / ٢٧٨٦٦

لبنان / ١٩٦٣

أفغانستان / ١٧٧٧

كبتون / ٧٢

زنجبار / ١٢١

السنغال / ١٢٦٩

مقديشو / ٤٣

أفريقيا الغربية / ٣٢٢

الفرنسية /

ليبيا / ٦٤٠

بخارى / ١١١

الصومال / ٢٤٥

أثيوبيا / ٣٧١

كينيا / ٣٨

أوغندا / ٣٣٥

مبابسة / ٣٦

قبرص / ٤

الصين / ١٤

جزيرة موريس / ١٩

نيجريا / ١٥

بورما / ٤٠

سيلان / ٦٣

سيام / ٤٦٤

الهند الصينية / ٢١

البحرين / ١٣٣

دبي / ١٣

الشارقة / ١٩

الفلبين / ٥

مدغشقر / ٨

يوغسلافيا / ٣

المجموع / ١٦٤٠٧٢

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣٧

إلى هنا قد ذكرنا إحصاء الحجاء بأجناسهم المختلفة مفصلاً، و سنذكر إن شاء الله تعالى فيما يأتي من السنين عددهم إجمالاً بدون تفصيل حتى لا يطول بنا الكلام:

السنة الهجرية/ عدد الحجاج بالأرقام/ عددهم بالأحرف ١٣٧٤/ ٢٣٢٩٧١/ مائتان و اثنان و ثلاثون ألفا و تسعمائة و واحد و سبعون
 ١٣٧٥/ ٢٢٠٧٢٢/ مائتان و عشرون ألفا و سبعمائة و اثنان و عشرون
 ١٣٧٦/ ٢١٥٥٦٥/ مائتان و خمسة عشر ألفا و خمسمائة و خمسة و ستون
 ١٣٧٧/ ٢٠٩١٩٧/ مائتان و تسعة آلاف و مائة و سبعة و تسعون
 ١٣٧٨/ ٥٥٧٨٠١/ خمسمائة و سبعة و خمسون ألفا و ثمانمائة و واحد
 ١٣٧٩/ ٥٣٢٢٠٠/ خمسمائة و اثنان و ثلاثون ألفا و مائتان
 ١٣٨٠/ ٢٨٥٩٨٤/ مائتان و خمسة و ثمانون ألفا و تسعمائة و أربعة و ثمانون
 ١٣٨١/ ٢١٦٤٥٥/ مائتان و ستة عشر ألفا و أربعمائة و خمسة و خمسون
 ١٣٨٢/ ١٩٧٠٣٩/ مائة و سبعة و تسعون ألفا و تسعة و ثلاثون
 ١٣٨٣/ ٢٦٠٢٨٤/ مائتان و ستون ألفا و مائتان و أربعة و ثمانون
 ١٣٨٤/ ٢٨٣٣٣٩/ مائتان و ثلاثة و ثمانون ألفا و ثلاثمائة و تسعة و ثلاثون
 هذا ما أمكن لنا إحصاء الحجاج إلى سنة طبع هذا الكتاب ما عدا من يحج من أهل البلاد، و بعد ذلك فليعددهم من شاء فيما يأتي من
 الأعوام الآتية، و لا نظن القارئ يجد في غير هذا الكتاب إحصاء الحجاج بدقة تامة للأعوام السابقة.

أسباب قلة الحجاج و كثرتهم

إذا أمعنا النظر نجد أن عدد الحجاج في الجاهلية في عهد قريش، لا يتجاوز بضعة آلاف ممن يقف بعرفات و مزدلفة، بل ما كان
 الواقفون يزيد عددهم عن عشرة آلاف شخص بل أقل، و كلهم من كفار قريش من مكة، فإن أهل الجاهلية كانوا يحجون كل عام.
 ثم لما أشرقت شمس الدين الإسلامي الحنيف، و دخل الناس في دين الله أفواجا، زاد عدد الواقفين بعرفات، و كان رسول الله صلى
 الله عليه و سلم، يرسل من المدينة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣٨

المنورة بعض كبار أصحابه ليقوم للناس الحج و يعلمهم أحكامه، فلما كان في حجة الوداع في السنة العاشرة خرج الناس مع رسول الله
 صلى الله عليه و سلم يريد الحج معه، فكان عدد الواقفين مع النبي عليه الصلاة و السلام، بعرفات تسعين ألفا، و قيل:
 أكثر من ذلك إلى مائة و أربعين ألفا، كلهم من عرب الحجاز من مكة و المدينة و ما حولهما، لأن المدن و الأقطار لم تفتح بعد، فما
 فتحت إلا في عهد الخلفاء الراشدين و من بعدهم، و ما زالت الفتوحات في عهدهم تتوالى و تكثر، و يدخل من الممالك و الأقطار
 في دين الإسلام إلى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة، أي: إلى ما بعد سنة (١٣٠٠) ألف و ثلاثمائة هجرية بقليل، لأن جميع سلاطين
 الأتراك العثمانيين الذين كانت فيهم الخلافة، كانوا يقاتلون الكفار الذين يجاورونهم و يغزون ملوك الإفرنج، و لذلك كان يلقب
 كل سلطان منهم يخرج للغزو في سبيل الله "بالغازي"، و أغلبهم كان يغزو عاما و يحج عاما، فلما ذهب الخلافة منهم في سنة (١٣٣٤)
 ألف و ثلاثمائة و أربعة و ثلاثين هجرية، و صار كل قطر و مملكة إسلامية مستقلا بذاته و تفرقت كلمة المسلمين و اختلفوا فيما بينهم،
 لم يعد هناك غزو من المسلمين على بلاد الإفرنج و أوروبا، و كل هذه التفرقة بين المسلمين كانت من سياستهم و مكرهم، فإن
 الإفرنج و بلاد أوروبا جميعا كانوا يشتغلون بأسباب تفرقة المسلمين منذ مئات السنين، و ما زالوا كذلك إلى اليوم، و سيرد الله تعالى
 كيدهم في نحرهم بفضلهم و رحمته، و من أراد البحث في هذا الموضوع فعليه بكتاب "حاضر العالم الإسلامي" ففيه ما يشفي الغليل.
 و من بعد الفتوحات الإسلامية صار يأتي بالحج آلاف مؤلفة من كل فج عميق من كافة أقطار الأرض و جهاتها، و صار يزداد عدد
 الحجاج في كل عصر و زمان بحسب تيسير وسائل السفر و أسبابه، من أعداد المحطات في طريق الحج، و من الدواب من البغال و

الحمير و الجمال، و من تعميم خزانات المياه، و حفر الآبار و تجهيز الأطعمة اللازمة، و تأمين طرقات الحج و وضع الحراسة الكافية فيها، و كل هذا عن طريق البر في الأزمان الماضية، و أما عن طريق البحر، فيأتون بواسطة المراكب الشراعية التي تمشى بسبب الهواء و الرياح، و سواء كان طريق الحج من البر أو من البحر، فقد كان السفر في غاية المشقة و التعب، مع طول الطريق، فلقد كان بعض الحجاج لا يصل من بلاده إلى مكة المشرفة بأقل من ثلاثة أشهر، و مثل ذلك للعودة، و أن بعضهم يصل إلى مكة في ستة أشهر، و بعضهم أكثر من ذلك،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٣٩

و يحتاجون إلى مثل هذه المسافة في العودة، لذلك كان عدد الحجاج في العصور الماضية أقل بكثير من عصرنا الحاضر. أما في وقتنا هذا فإن عدد الحجاج يكاد يكون بدون حساب، و ذلك بسبب توفر وسائل الانتقال و السفر، فإن في عصرنا الحاضر قد اخترعت الطائرات العظيمة التي تحمل كل طائرة منها نحو مائة و خمسين شخصا بجميع حوائجهم و أثقالهم، و هي تصل من أقصى الدنيا، من الهند و السنند و الصين و أمريكا و إيطاليا و فرنسا و إنكلترا، إلى جدة في نحو سبع ساعات أو ثمانية، و تصل من مصر و العراق و الشام و اليمن في نحو ساعتين أو ثلاثة، أى: يقوم الإنسان من بلاده في الصباح عند شروق الشمس بالطائرة، فيصل إلى مكة المكرمة قبل الظهر. كما اخترعت البواخر التي تحمل كل باخرة منها أكثر من ألفى شخص مع أثقالهم و حوائجهم، فتسير بهم في وسط البحور العميقة، فتصل من بلادهم إلى جدة في أيام قلائل. و كذلك اخترعت السيارات الكبيرة الثقيلة، فتحمل كل سيارة منها نحو خمسين راكبا بل أكثر، فتسير بهم في البراري و القفار، فتصل من العراق مثلا في ثلاثة أيام إلى مكة المكرمة.

و من هنا كان عدد الحجاج في وقتنا الحاضر كثيرا جدا، فلقد وصل إلى مكة في سنة (١٣٨٤) ألف و ثلاثمائة و أربعة و ثمانين هجرية، نحو ثلاثمائة ألف حاج بالطائرات و السيارات و البواخر، و كلما ظهرت المخترعات العجيبة السريعة من وسائل النقل، ازداد عدد الحجاج على ممر السنين و الأعوام، و الله تعالى أعلم ماذا يحدث في مستقبل الأيام.

لقد كان عدد الحجاج كبيرا في السنة المذكورة أى سنة (١٣٨٤) هـ بحيث امتلأت بيوت مكة و شوارعها منهم و من سياراتهم، و لقد كانوا يبيتون أيام الحج بمنى في خارجها من الجهتين، أى من جهة مكة بعد جمرة العقبة بمسافة بعيدة، و من جهة مزدلفة بعد حد منى بمسافة أيضا، و لا يخفى أن هاتين الجهتين لا يجوز المبيت فيهما أيام الحج، فإنه لا بد من المبيت ليلا في نفس منى. و الله تعالى أعلم ماذا يحدث في مستقبل الأيام إذا كثرت الحجيج بسبب اختراع أحدث وسائل النقل السريعة المدهشة، و لا يبعد أن تفكر الحكومة في بناء طبقة متسعة فوق أرض منى ليشغلها قسم من الحجاج. و الله تعالى هو المدبر لأمر خلقه في السموات و الأرض.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤٠

لقد ذكرنا عدد الحجاج فيما تقدم في السنة المذكورة، و إذا حسبناهم مع من حج من أهل المملكة العربية السعودية فيكون عدد من وقف في السنة المذكورة بعرفات هو مليون شخص.

و إن العاقل المفكر إذا رأى هذا العدد الهائل للحجاج الكرام، ليندهش و تأخذه الحيرة، إذا فكر في أكلهم و شربهم و راحتهم، و يقول في نفسه كيف يكفيهم الأكل و الشرب في بلدة صغيرة كمكة شرفها الله تعالى، و أدام أمنها و أمانها و خيرها و رخاءها، و لكنه إذا نظر إلى قوله تعالى: **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا**، إذا نظر المؤمن العاقل في هذه الآية الكريمة آمن بمضمونها و سلم الأمر إلى الله عز و جل. فمكة بلدة الأمين، و فيها بيته الحرام المطهر، و العباد عباده أتوا من كل فج عميق لزيارة بيته الحرام، فهم إذا ضيوف الله تعالى، و الله عز و جل هو أكرم الأكرمين و أرحم الراحمين، لا بد أن يضيفهم و يكرمهم و يقبلهم و يغفر لهم ذنوبهم، حتى يرجعوا إلى بلادهم و هم مطهرون على أحسن حال، إنه بعباده لطيف خبير.

نعم لو ذهب هذا العدد الهائل إلى أكبر بلدة لما كفاهم الخبز و الماء، فوجود هذه النعم و الخيرات في مكة المشرفة و هي واد غير ذى زرع، أمر خارق للعادة، إنه دعوة أبى الأنبياء خليل الله إبراهيم كما جاء في الآية الكريمة **رَبَّنَا إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ دُرِّيْتِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي**

زَرَعَ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. فالحمد لله رب العالمين.

هذا ولقد سمعنا أنه في سنة (١٣٧٠) ألف و ثلاثمائة و سبعين هجرية، وصل إلى الحديدية من أطراف اليمن نحو خمسة آلاف شخص يريدون الحج و انتظروا فيها خمسة أيام لورود باخرة تحملهم إلى جدة، ففي هذه الأيام الخمسة انعدم الخبز من أسواق الحديدية، حتى أنهم ما كانوا يجدون الخبز إلا بصعوبة، فكيف لو انكب عليهم هذا الحجيج الأعظم و لمدة طويلة.

فالسبب الأساسية لكثرة الحجاج ثلاثة: (الأول) كثرة وسائل النقل الحديثة، و (الثاني) الأمن و الأمان في طرقات الحج من جميع الجهات، و (الثالث) كثرة توفر الزاد و الأغذية في الحرمين الشريفين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤١

هذه هي الأسباب الأساسية لورود الحجاج بكثرة ووفرة، و كلها متوفرة عندنا في وقتنا هذا و لله الحمد. فالحمد لله الذي خص بلده الأمين بأمر كثيرة خارقة، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

إقامة المظلات و القهاوى في طريق الحج

و من حسنات حكومتنا الموقفة عمل المظلات العامة في طريق الحج، فيما بين منى و عرفات ليستظل تحتها مشاة الحجاج و ضعفائهم، أما ما بين مكة و منى فلا يحتاج لإقامة المظلات لأن دور مكة و بيوتها كادت أن تصل إلى منى، و عند هذه المظلات الماء و الثلج مسبل لوجه الله تعالى، يشرب الحجاج الماء المثلج في هذه الصحراء و يستريحون، ثم يستأنفون السير صوب و جهتهم.

هذا غير ما يوجد في الطريق من القهاوى العديدة المتخذة من العشاش و الخيام، فيها الأكل و الشرب و القهوة و الشاي و المثلجات و الفواكه، كل هذا موجود في طريق الحج، من عرفات إلى مكة، و منها إلى جدة، و منها إلى المدينة المنورة مثنى رسول الله صلى الله عليه و سلم.

فوجود هذه الاستراحات لا شك أنها عمل إنسانى جليل، و بالأخص وجودها في وقت الحج في أطراف هذه الصحراوات الواسعة و مرور آلاف الحجاج في الطريق.

جاء في كتاب التراتيب الإدارية، في آخر الجزء الأول ما يأتى: و فى طبقات ابن سعد أن عمر، رضى الله تعالى عنه، استأذنه أهل الطريق بينون ما بين مكة و المدينة، فأذن لهم و قال: ابن السبيل أحق بالماء و الظل. ١٠٥. ص ٢٢٠ ج ٣.

انتهى من الكتاب المذكور.

فرضى الله عن عمر و رضى عن جميع الصحابة الذين جعلوا لكل مسألة أساسا و لكل مبحث مسلكا، حتى نهتدى بهديهم و نسير على سنهم، فلو مشينا على طريقتهم لم تتشعب بنا الأهواء، و لم نركن إلى زخارف الدنيا، لكان لنا اليوم شأن غير هذا الشأن. نسأل الله الرضا و التوفيق، و السلامة من الفتن ما ظهر و ما بطن.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤٢

سيول مكة العظيمة

إشارة

إن مكة، شرفها الله تعالى، واقعة في واد تحف به الجبال من كل جانب، فإذا نزلت الأمطار عليها بشدة نزلت المياه من جميع الجبال و

من المرتفعات وغيرها إلى المواضع المنخفضة بمكة فتجمعت في أزقتها و شوارعها، و نزلت مع المياه من الجبال و الأماكن الحجارات و الأتربة، و إذا زادت الأمطار في ضواحيها جاءت السيول من أعاليها من جهة منى إلى داخل مكة، و جرفت معها ما كان في طريقها، فتدخل المسجد الحرام، فتحدث به أضرارا كثيرة، كما تحدث أضرارا في بيوت مكة القديمة.

لذلك كانوا يعملون سدودا من قديم الزمان، كسد عمر رضى الله عنه، و ما عمله من الردم عند المدعا حيث كانت الكعبة ترى من هذا الموضع لعلوه، و ذلك صونا للمسجد الحرام من دخول السيل، فتحول مجرى السيل بسبب ذلك إلى وادى إبراهيم، بعد أن كان السيل ينحدر من المدعا إلى المسعى من ناحية المروة، و كان ذلك سنة (١٧) سبع عشرة من الهجرة، بعد انتهائه من وضع مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام في موضعه، و بعد انتهائه أيضا من عمارة المسجد الحرام و الزيادة فيه. و لقد كان سد عمر، رضى الله عنه، سدا عظيما محكما، بناه بالصفائر و الصخور العظام و كبسه بالتراب، فلم يعله سيل بعد ذلك مدة مائتى سنة تقريبا، و يسمى هذا الردم ردم "بنى جمح"، و سمي بذلك ربما لأن منازل بنى جمح كانت بهذا الموضع، و هذا الردم هو أول سد عمل بمكة المكرمة. قال الإمام الأزرقى في تاريخه: و كل واد في الحرم فهو يسيل في الحد، و لا يسيل من الحل في الحرم إلا من موضع واحد عند التنعيم عند بيوت غفار. انتهى.

و ذكر السيول التي جاءت إلى مكة من عهد الجاهلية إلى اليوم بالتفصيل مما يطول شرحه، و لكن نذكرها هنا باختصار مع بيان السنين، ملخصا من تاريخ الأزرقى و ملحقاته، و مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا رحمهما الله تعالى.

و إليك بيان ذلك في هذا الجدول:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤٣

جدول سيول مكة

الرقم المتسلسل / اسم السيل / السنة / ملاحظات / ١ / سيل / فى الجاهلية / جاء فى زمن جرهم حينما كانوا ولاة البيت فهدم الكعبة فبنتها جرهم.

٢ / سيل فارة / فى الجاهلية / ذكر الأزرقى أن هذا السيل كان زمن خزاعة، و فارة اسم امرأة ماتت فى هذا السيل فسمى باسمها.

٣ / سيل آخر / فى الجاهلية / ذكر الأزرقى فى أن هذا السيل كسا ما بين الجبلين.

٤ / سيل أم نهشل / ١٧ من الهجرة / جاء فى خلافة عمر رضى الله عنه فاقتلع مقام إبراهيم عن موضعه، و أم نهشل اسم امرأة ماتت فيه فسمى باسمها.

٥ / سيل الجحاف / ٨٠ من الهجرة / جاء فى خلافة عبد الملك بن مروان، كان سيلا عظيما جاء دفعه واحدة فجر يوم التروية و الحجاج آمنون فذهب بأمتعتهم، و كان يحمل الجمال و عليها الأحمال فدخل المسجد الحرام و هدم الدور على الناس فقتلهم ورقى الناس الجبال و اعتصموا بها.

٦ / سيل / ٨٨ من الهجرة / جاء على إثر دعاء عمر بن عبد العزيز و دعاء من معه حينما وصل إلى التنعيم.

٧ / سيل / ١٢٠ من الهجرة / جاء فى ولاية هشام بن عبد الملك.

٨ / سيل المخبل / ٨٤ من الهجرة / سمي بذلك لأنه أصاب الناس منه شبه الخبل كما أصابهم المرض فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤٤

/// جسادهم و ألسنتهم، و كذلك حصل سيل آخر فى هذه السنة، قيل كان سيل المخبل عام ١٠٤ و الله أعلم.

٩ / سيل ابن حنظلة / ٢٠٢ من الهجرة / سمي بذلك نسبة إلى أمير مكة يومئذ يزيد بن محمد بن حنظلة، و ذلك فى خلافة المأمون و

هدم الدور و ذهب بناس كثير، و أصاب الناس بعده مرض شديد.

١٠ / سيل / ٢٠٨ من الهجرة/ جاء في خلافة المأمون أيضا و الناس غافلون و هذا أعظم من سيل ابن حنظلة فامتلا المسجد الحرام بالطين و البطحاء فكان أهل مكة و من فيها من الحجاج يخرجون ذلك بأيديهم حتى كانت النساء و العواتق يخرجن التراب التماس الأجر و البركة.

١١ / سيل / ٢٢٥ من الهجرة/ و بسبب هذا السيل كثر ماء زمزم بعد أن كانت قليلة.

١٢ / سيل / ٢٤٠ من الهجرة/ و هذا السيل هدم كثيرا من المنازل و خرب مسجد الخيف بمنى.

١٣ / سيل / ٢٥٣ من الهجرة/ دخل هذا السيل المسجد الحرام و أحاط بالكعبة و هدم دورا كثيرة.

١٤ / سيل / ٢٧٩ من الهجرة/ و جاء سيل آخر في السنة التي بعدها

١٥ / سيل / ٢٨٠ من الهجرة/ أيضا ٢٨٠ و كان سيلا عظيما فكثر ماء زمزم و ارتفع حتى قارب رأسها، فلم يكن بينه و بين شفتها العليا إلا نحو سبعة أذرع و عذبت ماؤها حتى كان أعذب مياه مكة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤٥

١٦ / سيل / ٢٦٢ من الهجرة/ بسبب هذا السيل ذهب بحصباء المسجد الحرام كلها.

١٧ / سيل / ٢٩٧ من الهجرة/ كان سيلا عظيما حتى بلغ باب الكعبة و حتى فاضت بئر زمزم.

١٨ / سيل / ٣٤٩ من الهجرة/ قال في مرآة الحرمين: لما برز الحج قافلا جاءهم سيل فأخذهم عن آخرهم و ألقى بهم في البحر و ما أتى مصر منهم أحد، نسأل الله السلامة و العافية.

١٩ / سيل / ٤١٧ من الهجرة/ هذا السيل لما دخل المسجد الحرام وصل إلى خزائن الكتب فأتلف كثيرا منها.

٢٠ / سيل / ٤٨٩ من الهجرة/ جاء بقرب وادى نخلة فذهب بكثير من الأنفس و الأموال.

٢١ / سيل / ٥٢٨ من الهجرة/ تضرر كثير من الناس بمكة بسبب هذا السيل و المطر.

٢٢ / سيل / ٥٤٩ من الهجرة/ أسال وادى، و نزل من المطر برد بقدر البيض.

٢٣ / سيل / ٥٦٩ من الهجرة/ كان سيلا كبيرا دخل المسجد الحرام من باب بنى شيبه.

٢٤ / سيل / ٥٧٠ من الهجرة/ كثرت الأمطار و السيول هذا العام حتى سال وادى إبراهيم خمس مرات.

٢٥ / سيل / ٥٩٣ من الهجرة/ قيل جاء هذا السيل عام "٥٩٣"، كان سيلا عظيما حتى دخل الكعبة فبلغ قريبا من الذراع و وصل الماء إلى فوق القناديل التي في وسط المسجد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤٦

/// و طاف بعضهم سباحة و هدم دورا كثيرة.

٢٦ / سيل / ٦٢٠ من الهجرة/ كان سيلا كبيرا دخل الكعبة و مات منه جماعة و بعضهم وقعت عليه الدور.

٢٧ / سيل / ٦٥١ من الهجرة/ لم يذكر عنه المؤرخون تفاصيل وافية.

٢٨ / سيل / ٦٦٩ من الهجرة/ كان سيلا كبيرا عظيما لم يسمع بمثله، دخل المسجد الحرام كالبحر.

٢٩ / سيل / ٦٨٧ من الهجرة/ جاء في حسن المحاضرة أنه في رابع عشر ذى القعدة في السنة المذكورة جاء سيل عظيم بحيث دخل المسجد الحرام و دخل الكعبة المشرفة و هدم جملة من أساطين المسجد الحرام و وجد في المسجد من الغرقاء سبعون إنسانا و خارج المسجد خمسمائة نفس، فكان ارتفاع السيل في المسجد سبعة أذرع و ثلث ذراع، و مكث الماء في المسجد من يوم الأربعاء إلى يوم السبت و لم تصل الجمعة فيه، و قد أخرج كثيرا من بيوت مكة، قالوا: و لم يعهد مثل هذا السيل لا في الجاهلية و لا في الإسلام.

٣٠ / سيل / ٧٣٠ من الهجرة/ جاء هذا السيل من غير مطر و ملأ المسجد الحرام و أقام الماء فيه يومين.

- ٣١ / سيل / ٧٣٢ من الهجرة/ فى أواخر ذى الحجة وقعت أمطار
التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤٧
/// و سيول و صواعق قتل بها خمسة من الرجال.
- ٣٢ / سيل / ٧٣٨ من الهجرة/ جاءت أمطار كأفواه القرب و سيل و غيم و رعود مزعجة و بروق مخيفة.
- ٣٣ / سيل / ٧٥٠ من الهجرة/ نزل مطر و صاعقة و ريح سوداء أوقعت جميع أعمدة المطاف المتجددة.
- ٣٤ / سيل / ٧٧١ من الهجرة/ هذا السيل دخل المسجد الحرام و وصل إلى قفل باب الكعبة و قد نزل مع المطر برد كبير و هدم نحو ألف بيت و قتل نحو ألف نسمة. و حمل قافلة بأربعين جملا.
- ٣٥ / سيل / ٨٠٢ من الهجرة/ كان سيلا عظيما دخل المسجد الحرام فوصل إلى باب الكعبة بل علا عتبتها بقدر ذراع و خرب عمودين فى المسجد و خرب دورا كثيرة سقط بعضها على سكانها، و مات بسبب ذلك نحو ستين نفرا.
- ٣٦ / سيل / ٨١٤ من الهجرة/ جاء هذا السيل وقت الظهيرة فهدم سدود العين.
- ٣٧ / سيل / ٨٢٥ من الهجرة/ جاء عقب صلاة الصبح و دخل المسجد الحرام فوصل إلى باب الكعبة و هدم دورا كثيرة و خرب سور المعلاة.
- ٣٨ / سيل / ٨٢٧ من الهجرة/ جاء هذا السيل بعد الغروب عقب مطر غزير و دخل المسجد الحرام و قارب الحجر الأسود.
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤٨
- ٣٩ / سيل / ٨٣٧ من الهجرة/ دخل المسجد الحرام فوصل إلى محاذة باب الكعبة و خرب نحو ألف دار.
- ٤٠ / سيل القناديل / ٨٣٨ من الهجرة/ كان سيلا عظيما دخل المسجد الحرام و كسر باب زمزم و خرب ما يقرب من ثمانمائة دار.
- ٤١ / سيل / ٨٤٥ من الهجرة/ دخل المسجد الحرام و بلغ الماء نحو نصف ذراع من عتبة الكعبة و علا على خرزة زمزم مقدار ذراع.
- ٤٢ / سيل / ٨٤٧ من الهجرة/ وقع مطر غزير عقبه سيل دخل المسجد الحرام من جميع أبوابه الشرقية و اليمانية و علا الماء على عتبة الكعبة ذراعا و نصف.
- ٤٣ / سيل / ٨٧١ من الهجرة/ دخل المسجد الحرام و دخل الكعبة و زمزم و خرب دورا كثيرة.
- ٤٤ / سيل / ٨٨٠ من الهجرة/ هذا السيل كان من أعظم السيول التى وقعت فى الجاهلية و الإسلام و كانت الخسائر كبيرة فى النفس و النفيس و قد مات بسببه فى المسجد الحرام فقط مائة و ثمانون نسمة، و قد انفرد أيوب صبرى باشا صاحب مرآة الحرمين بذكر هذا السيل نقلا عن السمهودى (ج ١، ص ٦٨٢).
- ٤٥ / سيل / ٨٨٣ من الهجرة/ فى الخامس عشر و فى الثالث و العشرين من رمضان من السنة المذكورة جاء سيلان بعد المطر.
- ٤٦ / سيل / ٨٨٧ من الهجرة/ وقعت أمطار شديدة فى رابع ذى القعدة فجاء هذا السيل فمات به
التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٤٩
- الرقم المتسلسل / اسم السيل / السنة / ملاحظات /// خلائق لا تحصى و تهدمت دور كثيرة.
- ٤٧ / سيل / ٨٨٨ من الهجرة/ مات فى هذا السيل مائة نسمة.
- ٤٨ / سيل / ٨٨٩ من الهجرة/ حصلت بسبب هذا السيل خسائر كبيرة.
- ٤٩ / سيل / ٨٩٥ من الهجرة/ دخل المسجد الحرام و وصل إلى نحو الحجر الأسود و وقعت دور كثيرة.
- ٥٠ / سيل / ٨٩٧ من الهجرة/ هذا السيل دخل المسجد الحرام بعد مطر شديد.
- ٥١ / سيل / ٩٠٠ من الهجرة/ كان سيلا كبيرا حتى وصل إلى باب الكعبة المشرفة و تهدمت دور كثيرة.
- ٥٢ / سيل / ٩٠١ من الهجرة/ وقع مطر شديد جاء على إثره هذا السيل فدخل المسجد الحرام و وصل إلى ما بين قفل الكعبة و الحلق و

غرقت قناديل المطاف.

٥٣/ سيل / ٩٢٠ من الهجرة/ دخل المسجد الحرام و علا باب الكعبة نحو ذراع و ملأ قناديل المطاف و زمزم.

٥٤/ سيل / ٩٣١ من الهجرة/ جاء بعد مطر و نزل فيه برد كبير الحجم فوق العمرة في طريق الوادى فتكدس حتى صار أكواما و كان الجمالون يجلبون للبيع في مكة مدة أسبوعين لما انتهى.

٥٥/ سيل / ٩٧١ من الهجرة/ بلغ هذا السيل إلى قفل باب الكعبة و بقى يوما و ليلة.

٥٦/ سيل / ٩٨٣ من الهجرة/ بلغ إلى ما يحاذى قفل باب الكعبة.

٥٧/ سيل / ٩٨٤ من الهجرة/ دخل المسجد الحرام و علا باب

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥٠

/// الكعبة ثم انحدر عنها و انساب إلى أسفل مكة.

٥٨/ سيل / ٩٨٩ من الهجرة/ نزلت أمطار غزيرة و الحجاج بمنى فانحدرت السيول من كل جانب و ذهب بكثير من الأمتعة.

٥٩/ سيل / ١٠٠٩ من الهجرة/ وقع مطر كثير يرافقه سيل عظيم.

٦٠/ سيل / ١٠١٩ من الهجرة/ جاء هذا السيل عقب مطر قوى فدخل المسجد الحرام.

٦١/ سيل / ١٠٢١ من الهجرة/ أشار إلى هذا السيل إبراهيم رفعت باشا صاحبة مرآة الحرمين و لم يذكر تفاصيله.

٦٢/ سيل / ١٠٢٣ من الهجرة/ هذا السيل جاء عقب مطر و نزل معه برد كبار.

٦٣/ سيل / ١٠٢٤ من الهجرة/ تهدمت بعض البيوت في هذا السيل.

٦٤/ سيل / ١٠٣٣ من الهجرة/ وقع في السابع من جمادى الثانية و بلغ الحجر الأسود.

٦٥/ سيل / ١٠٣٩ من الهجرة/ وقع مطر غزير بمكة و ضواحيها لم يسبق له مثل فجاء هذا السيل فدخل المسجد الحرام و دخل الكعبة و

بلغ الماء إلى القناديل المعلقة حول المطاف و مات في هذا السيل نحو ألف نسمة، و بسببه هدمت الكعبة المشرفة عصر اليوم التالي

فبناها السلطان مراد الرابع رحمه الله تعالى كما هو مفصل في التاريخ.

٦٦/ سيل / ١٠٥٣ من الهجرة/ وقع هذا السيل بعرفة و الحجاج و قوف هنالك فاستمر الناس و قوفا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥١

/// إلى آخر الليل حيث خف السيل فقطعوه بالمشقة.

٦٧/ سيل / ١٠٥٥ من الهجرة/ دخل المسجد الحرام حتى علا عتبة الكعبة بذراع كما علا بئر زمزم بنحو قامه. و صار المسجد كالبحر

الزاخر و لم يحدث ضرر في الأنفس.

٦٨/ سيل / ١٠٧٣ من الهجرة/ هجم السيل على المسجد الحرام فبلغ الماء أعلا من قفل باب الكعبة بذراع.

٦٩/ سيل / ١٠٨١ من الهجرة/ دخل المسجد الحرام و بلغ الماء باب الكعبة.

٧٠/ سيل / ١٠٩٠ من الهجرة/ ذكره أيوب صبرى و حصلت بسببه خسارة في الأمتعة.

٧١/ سيل / ١٠٩١ من الهجرة/ دخل المسجد الحرام و بلغ الماء نصف الكعبة، و من غريب الاتفاق أن السيل حمل جملا بحمله و دخل

به المسجد الحرام، فلم يزل السيل يدفعه حتى رقى على منبر الخطيب بعد أن انقطع حمله و لم يزل به إلى صباح اليوم التالي. و مما هو

جدير بالذكر أنه كان جهة المعلا شجرة جوز كبيرة تقوم على جوانبها مقاه، فلما جاء السيل كان في تلك المقاهى نحو مائة و خمسين

رجلا فتسلقوا الشجرة خوف الغرق، و لكن السيل كان قويا فاقتلع الشجرة بمن عليها فجر ففهم حتى باب الصفا، و جرف

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥٢

/// السيل أيضا نحو خمسة آلاف حيوان.

٧٢/ سيل / ١١٠٨ من الهجرة/ أمطرت السماء مطرا غزيرا كأفواه القرب فبلغت المياه إلى قرب باب الكعبة.

٧٣/ سيل / ١١٥٣ من الهجرة/ كان سيلا كبيرا وصل إلى نحو باب الكعبة.

٧٤/ سيل / ١١٥٩ من الهجرة/ جاء هذا السيل بعد مطر شديد أيام منى و الحجاج فيها، و كان ذلك آخر الليل و أظلمت الدنيا حتى لم يعد يرى الإنسان ما بجانبه.

٧٥/ سيل أبو قرنين / ١٢٠٨ من الهجرة/ دخل المسجد الحرام و بلغ قفل باب الكعبة.

٧٦/ سيل / ١٢٤٢ من الهجرة/ خرب بسبب هذا السيل دبول عين زبيدة.

٧٧/ سيل / ١٢٧٨ من الهجرة/ هجم هذا السيل و دخل المسجد الحرام دفعة واحدة قبل صلاة الصبح، فوصل الماء إلى قناديل الحرم و طفحت بثر زمزم و تعطلت الجماعة خمسة أوقات و قد غرق فيه جماعة خارج المسجد و داخله.

٧٨/ سيل / ١٢٩٣ من الهجرة/ جاء هذا السيل على إثر مطر و كان أقل شأنا من سابقه.

٧٩/ سيل / ١٣٢٥ من الهجرة/ فى ٢١ ذى الحجة من السنة المذكورة نزل مطر شديد فجرى السيل من كل جهات مكة بشكل لم يسبق له مثيل و كان أشبه بماء النيل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥٣

/// المنحدر، و دخل المسجد الحرام من أبوابه، و انقطع المرور من الطرق إلا بالسباحة، و كانت رحال الإبل و الشقادف سابحة فى الماء.

٨٠/ سيل الخديوى / ١٣٢٧ من الهجرة/ نسبته إلى خديوى مصر (أى حاكمها) و هو عباس حلمى باشا الثانى، الذى حج فى السنة المذكورة، جاء هذا السيل فى الثالث و العشرين من ذى الحجة فدخل المسجد الحرام و ملأه بالتراب و الماء نحو قامتين و سد دبول عين زبيدة بالأتربة حتى انقطع الماء عن مكة.

و لم ير خديوى مصر عباس حلمى باشا المذكور هذا السيل حيث إنه بعد أن حج خرج من مكة يوم ١٤ ذى الحجة قاصدا المدينة المنورة.

٨١/ سيل / ١٣٢٨ من الهجرة/ جاء هذا السيل من طرف وادى نعمان بقوة حتى دخل مكة.

٨٢/ سيل / ١٣٣٠ من الهجرة/ جاء هذا السيل أيضا من وادى نعمان.

٨٣/ سيل / ١٣٣٥ من الهجرة/ فى هذه السنة دخل إلى مكة سيلان فى محرم و فى شعبان.

٨٤/ سيل / ١٣٤٤ من الهجرة/ جاء هذا السيل أيضا من وادى نعمان.

٨٥/ سيل / ١٣٥٠ من الهجرة/ هطلت الأمطار بمكة كأفواه القرب و استمر نزولها ثلاث ساعات و نصف، فسال على إثره وادى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥٤

/// إبراهيم بسيل عظيم، و دخل المسجد الحرام و بلغ ارتفاع الماء فى صحن المطاف ما يقرب من متر و نصف، و قد أحدث المطر و السيل أضرارا جممة فى الأموال و البيوت.

٨٦/ سيل الربوع / ١٣٦٠ من الهجرة/ بدأ نزول المطر فى شهر ربيع الأول ألف و ثلاثمائة و ستين هجرية، من الصباح حتى بعد العصر فكان مطرا غزيرا قويا جاء السيل على إثره فدخل المسجد الحرام و وصل إلى باب الكعبة و تعذر الصلاة فيه و الطواف بالكعبة لأن المسجد الحرام امتلأ بالماء حتى صار كالبحر الزاخر و امتلأ المسجد بالأتربة كما امتلأت الشوارع بها أيضا.

و قد ذهب هذا السيل بأمته كثيرة مما كان فى الدكاكين و سوق الحراج و خربت قبور المعلا و تهدمت المنازل القديمة و قد كان مؤلف هذا الكتاب، محمد طاهر الكردى الخطاط، أحسن الله تعالى إليه و غفر له، بمكة حيث انتقلت وظيفته من جدة إليها فى أول السنة المذكورة، فشاهد المطر و السيل و ما حدث بسببهما من الخراب.

٨٧/ سيل / ١٣٧٦ من الهجرة/ جاء مطر غزير في السنة المذكورة و هي ألف و ثلاثمائة و ست و سبعين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥٥

/// هجرية، و كان ذلك عند توسعه المسجد الحرام، و سال السيل بحاله متوسطه و لم يحصل منه ضرر.

٨٨/ سيل / ١٣٨٢ من الهجرة/ أتانا مطر غزير و سال السيل في السنة المذكورة و هي سنه ألف و ثلاثمائة و اثنتين و ثمانين هجرية، و

كان السيل أقل من السيل السابق.

٨٩/ سيل / ١٣٨٤ من الهجرة/ ابتدأ المطر بمكة في يوم الأربعاء قبل العصر بساعة واحدة في الخامس من شهر شعبان من السنة

المذكورة، و هي سنه ألف و ثلاثمائة و أربع و ثمانين هجرية فنزل بغزاره من الساعة الثامنة و النصف قبل العصر إلى ما بعد الساعة

الرابعة ليلا، فسال منه السيل و كان أقوى من السيلين السابقين و لم يحصل منه ضرر.

اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا فأرسل السماء علينا مدرارا، اللهم ارزقنا من الأمطار ما تنبت لنا من الزرع و تدر لنا الضرع، و أنزل

علينا من بركات السماء و أنبت لنا من بركات الأرض و اكشف عنا من البلاء و الغلاء ما لا يكشفه غيرك، اللهم اسقنا غيثا هنيئا مريئا

سحا عاما غدقا طبقا إلى يوم الدين، اللهم اسقنا الغيث و لا تجعلنا من القانطين، اللهم إن رحمتك أوسع من غضبك و عفوك أعظم

من عقوبتك فارحمنا رحمه الأبرار و اجعلنا من عبادك الأخيار بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين، و صلى الله على سيدنا محمد

و على آله و صحبه أجمعين.

هذا ما ورد عن سيول مكة المشرفة، ذكرناها بصورة مختصرة كما جاء في التاريخ، و ربما كانت هناك سيول لم يذكرها المؤرخون

لعدم علمهم بذلك، و الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥٦

سبحانه و تعالى أعلم بغيه، فهو علام الغيوب و كاشف الكروب، لا إله إلا هو إليه المصير.

و قد ذكر إبراهيم باشا رفعت رحمه الله تعالى "أنه في سنة (١٠٩٣) ألف و ثلاث و تسعين هجرية عملت في المسفلة (أى أسفل

مكة) قناة عظيمة لتصرف السيل إلى بركة ماجن. "ه.

فانظر رحمك الله تعالى، كيف اعتنى المؤرخون ببلد الله الحرام بذكر أمطارها و سيولها و أحوالها و أمورها، فلا توجد في أقطار

الأرض بلدة اعتنى الناس بها كاعتنائهم بمكة. اللهم زدها شرفا و رزقا و أمنا و خيرا و نوالا، و وفق أهلها لمرضاتك و اغفر لهم و

ارحمهم فإنك أنت الغفور الرحيم، و صلى الله على النبي الأُمى و على آله و صحبه و سلم آمين.

أنظر: صورة رقم ٣٣، مياه السيل و قد غطت أرض المطاف و الطائفون حوله

أنظر: صورة رقم ٣٤، مياه السيل و قد غمرت رحاب المسجد الحرام (١٣٨٠ هـ)

أنظر: صورة رقم ٣٥، مياه السيل داخل المسجد الحرام

مجرى السيل بمكة

كان قديما ينزل السيل من جهة منى و من جهة حراء إلى مكة، فيمر بالمحصب فالحجون، ثم ينزل إلى بطن الوادى من طريق المدعا

أى من الموضع الذى كان يرى منه البيت الحرام، و كان هذا الموضع فى عهده صلى الله عليه و سلم غير مرتفع، و لم يرتفع إلا بعد أن

ردمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بالصفائر و الصخور العظام ليمنع السيل عن المسجد الحرام، و يسمى هذا

الردم بردم بنى جمح "بضم الجيم و فتح الميم."

فاتمنع السيل من الدخول إلى المسجد الحرام من جهة المدعا بعد ردم عمر رضى الله عنه، لكنه يدخل من الشارع العام من سوق الليل

و من جهة الغزة الذى يقع فى يسار المدعا لمن يأتى من المعلا، إلى جهة المسجد الحرام و ينحدر منها إلى جهة المسفلة.

أنظر: صورة رقم ٣٦، مياه السيل محيطة بالكعبة المشرفة

أنظر: صورة رقم ٣٧، السيل بالمسجد الحرام

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥٧

جاء فى تاريخ القطبى المسمى "بالإعلام بأعلام بيت الله الحرام" ما نصه: و لما ردم هذا المكان "أى مكان ردم عمر رضى الله عنه بالمدعا" صار السيل إذا وصل من أعلا مكة لا يعلو هذا المكان، بل كان ينحرف عنه إلى جهة الشمال للبناء الذى بناه عمر رضى الله عنه، فلا يصل هذا السيل إلى المسعى و لا إلى باب السلام إلى الآن، و صارت هذه الجهة من يومئذ إلى أثناء هذا مرتفعه عن ممر السيل، و صار السيل الكبير كله ينحدر إلى جهة سوق الليل، و يمر بالجانب الجنوبي من المسجد إلى أن يخرج من أسفل مكة. و هذا سيل وادى إبراهيم، و يكاد يمنع جريان هذا السيل إلى مكة سيل آخر يعترضه يسمى "سيل جياذ" و يمر عرضا إلى أن يصدم الركن اليماني من المسجد، و ينحرف إلى أسفل مكة، و قوة جريان هذا السيل يمنع من جريان سيل وادى إبراهيم، فيعقف و يتراكم و يدخل المسجد الحرام.

و يقع مثل هذه السيول بمكة فى كل عشرة أعوام تقريبا مرة، فيدخل المسجد الحرام و يحتاج الناس إلى التنظيف و تبديل الحصا و نحو ذلك، و قد عمل المتقدمون و المتأخرون لذلك طرقا و اهتموا لذلك تمام الاهتمام، ثم اندثرت أعمالهم لطول الزمان، و لم يتفطن الملوك بعدهم لذلك، فاستمرت السيول العظيمة بعد كل مرة تدخل المسجد الحرام، و لسنا الآن بصدد شرح ذلك. انتهى ما قاله العلامة قطب الدين صاحب التاريخ المذكور.

نقول: إن ما ذكره القطب فى تاريخه من أن السيول تدخل المسجد الحرام فى كل مرة، هو مطابق للحقيقة الواقعة، فالعلامة قطب الدين توفى فى سنة (٩٨٨) ثمان و ثمانين و تسعمائة من الهجرة، فمن عصره بل من قبل عصره و السيول لا تزال تدخل المسجد الحرام إذا عظمت و قويت إلى عصرنا هذا، أى إلى سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية.

ثم لما ابتدأوا بتوسيع المسجد الحرام فى السنة المذكورة عملوا نفقا خاصا للسيول خلف المسعى من جهة الصفا تمر منه السيول و تخرج إلى المسفلة من جهة السوق الصغير، فلا تدخل المسجد الحرام، اللهم إلا ما يتجمع من مياه الأمطار النازلة عليه. فلما صدر أمر جلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود بتوسعة المسجد الحرام، و باشروا العمل فعلا فى أول سنة (١٣٧٥) خمس و سبعين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥٨

و ثلاثمائة و ألف، جعلوا ممر السيل عن طريق الهجلة بالمسفلة تحت الأرض فى نفق خاص لذلك.

عمل السدود بمكة

إشارة

مكة شرفها الله تعالى و أدام أمنها و رخاءها، ليست فى شكلها و صورتها كالبلدان الأخرى سهلة منبسطة، و إنما خلقها الله، عز و جل صخرية حجرية التربة، فى أرضها انخفاض و ارتفاع، و بسط و انحدار، تكتنفها الجبال الصخرية الصماء، العاليات الشاهقات السماء، و الكعبة المشرفة واقعة بالمسجد الحرام فى وسط هذه الجبال فى قلب مكة، تدور حولها البيوت اليوم من كل جانب فى وادىها و جبالها، و قد ارتفعت أرضها الآن عما كانت عليه قديما بنحو ثلاثة أمتار، بسبب ما تأتى به الأمطار و السيول من الأتربة و الأحجار و الرمال. و إذا علمنا أن المسجد الحرام، و ما حوله، كان من أصل الخلقة منخفضا بوسط الجبال، و إذا علمنا أيضا أن مكة تنقسم إلى قسمين:

(الأول): المعلاة، و هي من المدعا و القشاشية إلى جهة الحجون فما فوقها إلى منى فعرفات، هذه الجهات عالية عن المسجد الحرام، لذلك تسمى عوالي مكة.

(الثاني): المسفلة، و هي من المسجد الحرام إلى جهتي بركة ماجن و الشبيكة فما بعدها إلى الشمسيس فجدة، هذه الجهات أسافل مكة، لذلك تسمى المسفلة.

إذا علمنا كل ذلك، عرفنا أن مياه الأمطار و السيول تنحدر من أعالي مكة من جهات منى و جبل حراء و الحجون و تنزل إلى وسط مكة و المسجد الحرام، حتى تخرج من المسفلة و ربما تصب إلى بحر جدة إن كانت كثيرة قوية. يقول الأزرقى بصحيفة ٢٢٩ من الجزء الثاني من تاريخه "و الجمار كلها تسكب في بكة، و بكة الوادي الذي به الكعبة." ه. و يقصد بالجمار الجمرات الثلاثة التي بمنى، أي أن سيل منى يسكب في بكة، و هو كلام صحيح إلى اليوم. و بطبيعة الحال تجرف هذه السيول كل ما تصادفه في طريقها من كل شيء، كما أنها تهدم البيوت و المنازل و تحدث بالناس أضرارا جممة، و تسوق أمامها أتربة الوديان و حولها، و أحجار الجبال و صخورها، و قد تحدث خرابا في مجارى المياه و العيون، لذلك كله يجب اتخاذ السدود و الحواجز لدى مجارى السيول و أماكنها، لعدم حدوث

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٥٩

الأضرار بالناس، و محافظة على بناء الكعبة و المسجد الحرام، فكم مرة هدمت الكعبة و حصل خراب بالمسجد الحرام بسبب دخول السيول.

و إليك بعض السدود التي حصلت:

١- سد خزاعة

و دخول السيل إلى قلب مكة معروف في الجاهلية و الإسلام، فمن سيول مكة في الجاهلية "سيل فارة"، فقد كان هذا السيل سيلا عظيما، و ذلك زمن خزاعة، فإنها كانت تلى أمر الكعبة، فقد أحاط بالكعبة و رمى بالشجر في أسفل مكة، و جاء برجل و امرأة ميتين، أما الرجل فلم يعرف، و أما المرأة فهي من بنى بكر اسمها (فارة)، فلذلك نسب السيل إليها، ف قيل "سيل فارة". فعندئذ بنت خزاعة حول الكعبة بناء أداروه عليها و أدخلوا في هذا البناء حجر إسماعيل، و ذلك ليحصنوا البيت الحرام من السيول. فهذا البناء الذي عملته خزاعة لتحصين البيت، هو ما يقال له السد، و ربما كان هذا أول سد عمل بمكة.

(فإن قيل): لماذا بنت خزاعة هذا السد حول الكعبة فقط، و لم تجعله بأعلا مكة لتحصين مكة و بيوتها من دخول السيل؟ (نقول): في زمن خزاعة لم يكن الناس بكثرة في مكة، و أن خزاعة ما كانت تسكن حول الكعبة تعظيما لها، فكانت تسكن بين الجبال و الوديان، و من المعلوم أن بيوت العرب كانت من شعر أو من الأخيصة التي هي من الوبر أو الصوف على عمودين أو ثلاثة، أو أنهم يسكنون بقرب الجبال أو في المغارات، فإذا ما شعروا بخطر أو أرادوا سفر طووا بيوتهم و أحبيتهم و حملوها على الابل و ساروا. فما دامت حياتهم على هذه الصفة فهم في غير حاجة إلى تحصين البلدة و بيوتهم من السيل أو من غيره، مع العلم بأنه لم تكن لديهم من الأشياء الثقيلة ما لدينا نحن اليوم من نحو الفراش و الأواني و الصناديق و الدواليب.

٢- سد عمر رضى الله عنه

و من السيول الشهيرة في الإسلام "سيل أم نهشل" و ذلك في خلافة عمر رضى الله عنه، فقد أقبل هذا السيل من أعلى مكة و دخل

المسجد الحرام و اقتلع مقام إبراهيم عليه السلام، و ذهب به إلى أسفل مكة، كما ذهب بامرأة يقال لها أم التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦٠

نهشل بنت عبيد إلى أسفل مكة أيضا و لذلك نسب السيل إليها فليل سيل أم نهشل.

فلما بلغ خبر ذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، و هو بالمدينة، خرج فزعا فدخل مكة بعمره فى شهر رمضان، و ذلك سنة سبع عشرة من الهجرة، فأتى بالمقام و وضعه فى مكانه الموجود فيه اليوم، ثم بعد فراغه من أمر المقام عمل الردم المعروف بردم عمر برأس المدعا، و بناه بالضفائر و الصخور و العظام و كبسه بالتراب و الأحجار، و هو الذى نقول له السد، فلم يعمل هذا الردم سيل بعد ذلك مع كثرة ما جاء من السيول العظام، و دام هذا السد و لم ينكشف إلا فى سيل ابن حنظلة، و ذلك سنة اثنتين و مائتين.

فانظر رحمك الله تعالى إلى قوة سد عمر بن الخطاب، و مكته هذه المدعة الطويلة لا تخربه السيول و لا تعلقه، مع أنه كبسه بالتراب و الأحجار، بدون نورة و لا- حص و لا- إسمنت مسلح، و لا- بناء بالآلات الفنية و المقاييس المبتكرة الحديثة، و ما كان عنده من المهندسين الفنيين المتخرجين من أوروبا و أمريكا، و إنما بناه بإخلاص النية و التقوى، و بناه بأيدى عمال خير القرون، رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

٣- سد ابن الزبير

قال الأزرقى فى تاريخه بصحيفة ٢٣٩ من الجزء الثانى: و عند السويقة " و هى على فوهة قعيقعان " ردم عمله ابن الزبير حينه بنى دوره بقعيقعان ليرد السيل عن دار حجير بن أبى إهاب و غيرها، و فوق ذلك ردم بين دار عفيف و ربع آل المرتفع ردم عن السويقة، و ردم الخزاعيين، و دار الندوة، و دار شيبه بن عثمان. انتهى كلام الأزرقى.

٤- سد معاوية بن أبى سفيان

ذكر الأزرقى ضفاير معاوية رضى الله عنه التى عملها عند دار أويس جهة سوق الصغير، و ذكره ضمنا بصحيفة ١٣٦ عند الكلام على سيل الجحاف.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦١

٥- سد عبد الملك بن مروان

و من السيول الشهيرة " سيل الجحاف " و كان ذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان سنة ثمانين من الهجرة فى يوم التروية أى فى اليوم الثامن من ذى الحجة، و قد نزل الحجاج فى وادى مكة و اضطربوا الأبنية، فجاءهم السيل العظيم دفعة واحدة قبل صلاة الصبح، فذهب بهم و بمتاعهم و دخل المسجد الحرام، و أحاط بالكعبة و هدم الدور و الشوارع على الوادى، و قتل ناس كثير فى الهدم، و رقى الناس فى الجبال و اعتصموا بها، و جرف كل شىء أمامه و ذهب به، فلذلك سمي " سيل الجحاف ".

فكتبوا بذلك إلى عبد الملك بن مروان، ففزع لذلك، و بعث بأموال عظيمة إلى عامله بمكة يأمره بعمل ضفاير و حواجز للدور الشارعة على الوادى، و يعمل ردم على أفواه السكك يحصن به دور الناس من السيول، و بعث رجلا نصرانيا مهندسا فى عمل ضفاير

المسجد الحرام، و عمل ضفاير للدور الواقعة على جانبى الوادى، فنقلوا الصخور العظام على العجل، و كانت الإبل و الثيران تجر تلك العجل، حتى ربما أنفق فى المسكن الصغير لبعض الناس مثل ثمنه مرارا، و لقد بقيت آثار السد و الردم الذى عمله عبد الملك إلى زمن الأزرقى كما صرح بذلك فى تاريخه.

٦- سد الحجاج بن يوسف

لا ندرى أين عمل الحجاج بن يوسف السد، فقد ذكر الإمام الأزرقى فى تاريخه بصحيفة ٢٢٧ من الجزء الثانى أنه عمل الحجاج ثلاثة سدود تحبس الماء.

لكن لم نفهم شيئا من كلامه، فمن أراد الوقوف عليه فليراجع الصحيفة المذكورة.

٧- سد خالد بن عبد الله القسرى

لما أمر سليمان بن عبد الملك بن مروان خالد بن عبد الله القسرى أن يجرى عينا من الماء العذب تخرج من الثقبه و تظهر عند بئر زمزم بالمسجد الحرام، عمل خالد القسرى ما أمره به سليمان بن عبد الملك، فأخرج الماء من الثقبه فى بركة هناك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦٢

تسمى بركة القسرى، و شق من هذه البركة عينا تجرى إلى المسجد الحرام فى قصب من الرصاص، ثم بعد ذلك بنى سد الثقبه و أحكمه إحكاما.

و الثقبه، بفتح أوله و ثانيه و ثالثه، ثنيه بأصل جبل ثبير جهه حراء، و بويج بالخلافه لسليمان بن عبد الملك فى سنه ست و تسعين و مات فى سنه تسع و تسعين.

و خالد القسرى كان أمير مكة، و توفى فى سنه مائه و خمس و عشرين تقريبا.

و هذا السد الذى عمله خالد القسرى بقى إلى زمن المأمون، قال الأزرقى: و فى خلافة المأمون جاء سيل أعظم من سيل ابن حنظله فى شوال سنه ثمان و مائتين و الناس غافلون، فامتلا السد الذى بالثقبه، فلما فاض انهدم السد فاجتمعت السيول و جاءت جملة، فافتحم المسجد الحرام و أحاط بالكعبه، و رفع المقام من مكانه خوفا عليه أن يذهب، فكبس المسجد و الوادى بالطين و البطحاء ... الخ.

نقول: ربما كان أصل السد القديم الموجود الآن عند حراء مبنيا فى مكان هذا السد الذى عمله خالد القسرى و الله تعالى أعلم.

و يظهر مما تقدم من أول هذا المبحث إلى هنا، أن عمل السدود ما زال يرتفع من ناحية المسجد الحرام شيئا فشيئا، حتى وصلت إلى ناحية جبل حراء كما هى فى هذه الناحية إلى اليوم، و ذلك تبعاً لامتداد بيوت مكة و عمرانها.

جاء فى تاريخ الغازى نقلا عن بلوغ القرى فى ذيل إتحاف الورى: و فى سادس رمضان سنه (٩١٦) ست عشرة و تسعمائة، جاء أمر السلطان إلى الأمير باش خير الدين بك المعمار، بعمل السد الذى عند جبل حراء، حتى لا يدخل السيل مكة، و إن دخلها كان دخوله ضعيفا، و اسم السلطان قانصوه الغورى.

٥١

و جاء فيه أيضا فى موضع آخر نقلا عن سلاح العده:

و من مآثر الأمير شبكه سنجق و أمير بجده الذى كان مستمرا فيها إلى عام إحدى و خمسين و تسعمائة بناء السد الذى عند جبل حراء.

٥١

و جاء فيه أيضا: نقلا عن السنجاري في حوادث (١٠١٩) تسع عشرة و ألف: أن سليمان آغا ميرياخور السلطان محمد خان زاد في درج أبواب المسجد الحرام من الخارج حتى تمنع السيل من الدخول، كما أنه عمر الأماكن المأثورة. انتهى من تاريخ الغازي.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦٣

نقول: ويفهم من نص ما أورد الغازي أن بناء السد الذي عند جبل حراء بواسطة الأمير باش خير الدين المعمار و بواسطة سليمان آغا ميرياخور السلطان محمد خان، إنما حصل في مكان السد القديم الذي كان قبلهما، لا أنهما عملا سدا جديدا، و نظن أن هذا السد هو نفس السد الذي عمله خالد بن عبد الله القسري، و الله تعالى أعلم بالغيب.

٨- سد أجياد

و يوجد إلى يومنا هذا سد قديم بأجياد، و يسمى سد أجياد، و هو سد معروف عمل في سفح الجبل ليرد السيل النازل منه إلى الشارع العام، و لولا هذا السد لكان السيل قويا من هذه الجهة.

و لا ندرى متى بنى هذا السد، و نظن أن بناءه يرجع إلى مائة سنة أو مائتين، و الله تعالى أعلم.

بقي علينا أن نقول: إن ما نراه الآن من السيل في داخل مكة، ليس بسيل قوى يخاف منه، لأنه لم يأتها من خارجها، لأن السيل بعد عمل السد جهة حراء إذا جاء إنما يتحول أكثره من السد المانع له من الدخول إلى ناحية جدة، و ربما يمشى حتى يصب إلى بحر جدة إذا كان قويا.

فالسيل الذي في داخل البلدة إنما يتكون من الأمطار النازلة على نفس مكة، و على ما في داخلها من الجبال، فتتكون مياه الأمطار مع جزء من السيل الآتي من جهة حراء مما يلي السد و تجرى في الشوارع العامة حتى تخرج من المسفلة.

و يتكون السيل بمكة سريعا جدا من مياه الأمطار لأن تربة أرضها حجرية لا تشرب كثيرا من المياه، بخلاف البلدان الأخرى كمصر و الشام و العراق، فإن أراضيها الزراعية صالحة لشرب مياه الأمطار و ابتلاعها، و إذا كانت شوارع بعض البلدان مرصوفة مسفلته كالاسكندرية، فإن مياه الأمطار تنصرف سريعا إلى البحر مع البلايع و المجارى الخاصة بذلك.

"و لله ملك السموات و الأرض يخلق ما يشاء."

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦٤

المدعا و فيه ردم عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمنع السيول عن المسجد الحرام

المدعا: مكان معروف عال قريب من نفس المروة، و في المدعا عمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الردم المعروف باسمه، و بناه بالصفائر و الصخور العظام، صونا للمسجد الحرام أن تدخله السيول، فلم يعله سيل بعد ذلك، و يسمى هذا الردم بردم بنى جمح، بضم الجيم و فتح الميم، و هم بطن من قريش نسبوا إلى جمح بن عمرو بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك.

و قال القطبي في تاريخه: أقول المراد بهذا الردم الموضع الذي يقال له الآن المدعا، و هو مكان يرى منه البيت أول ما يرى، و كان الناس يرونه خصوصا من يريد الحج من ثنية كداء، و هى الحجون، إذا وصلوا هذا المحل شاهدوا منه البيت الشريف، و الدعاء مستجاب عند رؤية بيت الله تعالى و كانوا يقفون هناك للدعاء، و أما الآن فقد حالت الأبنية عن رؤية البيت الشريف، و مع ذلك يقف الناس للدعاء فيه على العادة القديمة، و عن يمينه و يساره ميلان للإشارة إلى أنه المدعا.

قال مولانا القاضي جمال الدين محمد أبو البقاء بن الضياء الحنفى، فى كتاب البحر العميق فى مناسك الحج إلى بيت الله العتيق: أنه يرى فى زمانه رأس الكعبة لا كلها من رأس الردم يعنى المدعا، فإذا ظهر له يقف و يدعو و يسأل الله حوائجه، فإن الدعاء مستجاب عند رؤية البيت، و كان القاضي أبو البقاء بن الضياء المذكور من أواسط المائة التاسعة و وفاته فى سنة أربع و خمسين و ثمانمائة. و لا شك أن من عهد الصحابة، رضى الله عنهم، إلى زمانه، كان الناس يقفون و يدعون عنده لمشاهدتهم الكعبة، و لا أعلم هل وقف النبى صلى الله عليه و سلم أم لا؟

و كان ذلك المحل غير مرتفع فى عهده، عليه الصلاة و السلام، و ما رفعه إلا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بالردم الذى بناه، فارتفع عن الأرض، فصار البيت الشريف يشاهد منه حينئذ، فوقف الناس عنده بعد ذلك لمشاهدة البيت الكريم منه، و إننى أنظر فى جميع عمرى فى المدعا يوقف فيه تبركا، فاللائق استمرار

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦٥

و قوف الناس بهذا المحل الشريف، و الدعاء فيه تبركا بوقوف من سلف للدعاء فيه، و الله تعالى أعلم. انتهى ما ذكره العلامة قطب الدين الحنفى فى تاريخه.

نقول: الذى نراه فى زماننا وقت تأليف كتابنا هذا و هو يوافق سنة (١٣٧٨) من الهجرة، أنه لا- يسن الوقوف لداخل مكة من جهة الحجون و المعلا- عند رأس المدعا لأجل الدعاء فيه، لأن البيت الحرام لا يظهر من المدعا مطلقا لا كله و لا جزء منه، بسبب إحالة الأبنية الكثيرة التى بينه و بين المدعا، و حيث ان سنية الوقوف فى المدعا لأجل الدعاء كانت من أجل رؤية البيت، فلا يسن الوقوف هناك للدعاء إذا لم يظهر شىء من البيت عند حيلولة المنازل و الأبنية من رؤيته، هذا ما نراه و الله تعالى أعلم.

جاء فى تاريخ القطبى: و لما ردم هذا المكان "أى المدعا" الذى ردمه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، صار السيل إذا وصل من أعلا- مكة لا- يعلو هذا المكان بل ينحرف عنه إلى جهة الشمال للبناء الذى بناه عمر رضى الله عنه، فلا يصل هذا السيل إلى المسعى و لا إلى باب السلام إلى الآن، و صارت هذه الجهة من يومئذ إلى أثناء هذا مرتفعه عن ممر السيل، و صار السيل الكبير كله ينحدر إلى جهة سوق الليل و يمر بالجانب الجنوبى من المسجد إلى أن يخرج من أسفل مكة.

و هذا السيل وادى إبراهيم، و يكاد يمنع جريان هذا السيل إلى مكة سيل آخر و يعترضه يسمى سيل جياذ، و يمر عرضا إلى أن يصدم الركن اليمانى من المسجد و ينحرف إلى أسفل مكة، و قوة جريان هذا السيل، يمنع من جريان سيل وادى إبراهيم، فيعقف و يتراكم و يدخل المسجد الحرام.

و يقع مثل هذه السيول بمكة فى كل عشرة أعوام تقريبا مرة، فيدخل المسجد الحرام و يحتاج الناس إلى التنظيف و تبديل الحصا و نحو ذلك، و قد عمل المتقدمون و المتأخرون لذلك طرقا، و اهتموا لذلك تمام الاهتمام، فاندثرت أعمالهم لطول الزمان. و لم يفتن الملوك بعدهم لذلك فاستمرت السيول العظيمة بعد كل مرة تدخل المسجد، و لسنا الآن بصدد شرح ذلك.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦٦

نقول: و بالمدعا كان قبل خمسين سنة، أى قبل عام (١٣٣٥) هجرية، يباع فيه السمن بالجملة، و كان السمن يوضع فى القرب و تطرح فى الشارع، فمن أراد شراء شىء منه أخذ قربة من القرب و وزنها و اشتراها بما فيها و بالمدعا بجهة الحرم توجد دار أبى سفيان، التى تسمى مستشفى القبان، بتشديد الباء و فتح القاف، و بالفعل كان فيها مرضى و أطباء، و اليوم هى مخزن أدوية لوزارة الصحة. و نسبة المستشفى للقبان، نسبة إلى ميزان القبان، و هو ميزان خاص يوضع بوسط خشبة قوية و يثبت طرفه المتدلى بكيس الدقيق أو الرز أو الحب أو صفيحة السمن أو القربة و نحو ذلك، فيرفعها رجلان ثم ينظرون إلى رمانة الميزان فيعرفون بها مقدار وزن المرفوع.

أنظر: صورة رقم ٣٨، ميزان القبان بالمدعى

لكن مع الأسف ليس بالمدعا اليوم شىء من السمن و الجبن أو الحبوب، فسبحان مغير الأحوال. لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ذكر بعض البساتين الموجودة بمكة المكرمة

البستان و الحديقة بمعنى واحد، و هو كما جاء في المنجد: أرض أدير عليها جدار و فيها شجر و زرع. ١ هـ. جمع الكلمة الأولى بساتين، و جمع الثانية حدائق.

و مكة حرسها الله تعالى و أدام عليها الأمن و الرخاء، لم تكن من أصل الخلقة ذات زروع و ثمار و مياه و أنهار، و إنما صارت في عصرنا الحاضر بفضل الله تعالى، و بسبب تطور البشر من حسن إلى أحسن في تقدم مستمر من جميع النواحي العمرانية، و من ذلك البساتين التي أنشئت فيها، و لنذكر هنا تسجيلا للتاريخ، فالله أعلم بما ستؤول إليه حالة مكة في المستقبل الآتي من الناحية الزراعية و العمرانية فنقول: تحيط بمكة البساتين الآتية و كلها في داخل الحرم، و هي:

(١) البستان الذي عمره خوجه قيني محمد بن حمود أفندي قاضي مكة المشرفة سنة (٩٦٧) سبع و ستين و تسعمائة، ثم قدمه لخاتم سلطان بنت الوزير الأعظم رستم باشا و أمها والده السلاطين خاصكي سلطان، و قد كان أصل هذا البستان سيلا و حوضا ينتفع بهما الناس و البهائم على يمين الصاعد إلى المعلاة، بناهما بيرام خوجه الناظر على المسجد الحرام و ذلك سنة (٨٥٠)، ثم صارا فيما بعد بستانا كما تقدم. ذكر ذلك القطبي في تاريخه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦٧

أنظر: صورة رقم ٣٩، بستان عين زبيدة بعرفات، المؤلف مع بعض شخصيات مكة

(٢) بستان عثمان حميدان و كان في المعابدة، و عثمان حميدان هو وزير أمير مكة الشريف سعد حوالي سنة (١١٠٥) خمس و مائة و ألف، و كان بستانه كبيرا و اسعا عامرا من كل الزروع و الثمار، و كان عثمان حميدان يقيم فيه كثيرا من المآدب و الضيافات للعرب و أصدقائه. انتهى من تاريخ الغازي من الجزء الثاني بصحيفة (٢٥١) بتصرف و زيادة، و لكن اليوم ليس لهذا البستان من أثر و لا خبر.

(٣) بستان الشريف مسعود بن إدريس الذي توفي سنة (١٠٤٠) أربعين و ألف، و كان بستانه في المعابدة أيضا عند حوض أبي طالب، ثم اشتراه دخيل الله العواجي، فسماه الناس بستان العواجي. و لم يبق اليوم لهذا البستان من أثر أيضا كما ذكره السباعي في تاريخه.

(٤) بستان شيخ السادة بمحلة الهجلة بين الشبيكة و المسفلة، و شيخ السادة هو السيد إسحاق العلوي و كان في زمن الشريف عبد المطلب و الوالي كامل باشا و ذلك سنة (١٢٧٠) سبعين و مائتين و ألف، كما ذكره السباعي في تاريخه، و لم يبق له أثر اليوم.

(٥) بستان بركة ماجن، و هو بالمسفلة، بينه و بين المسجد الحرام أقل من اثنين كيلو متر، و نعتقد أنه أقدم بستان بمكة، لأن بركة ماجن، بركة قديمة غزيرة الماء يرجع عهدا إلى القرن الثامن للهجرة، و ربما كانت موجودة قبل ذلك، و لا بد أن أطراف هذه البركة العظيمة كانت مزروعة بالخضار التي تمون مكة من قديم الزمن، ثم انتقلت ملكية الأراضي التي بجوار البركة من أناس إلى أناس إلى زماننا هذا، و اليوم لا زال هذا البستان عامرا بالزروع و يسقى من هذه البركة و لا ندري من الذي يملكه الآن.

قال الغازي في تاريخه نقلا عن تحصيل المرام: و من البرك بأسفل مكة، بركة يقال لها بركة الماجن. ١ هـ. أقول: هي الآن عمار ملائنة، و بجانبها بستان للشريف علي بن المرحوم مولانا الشريف عبد الله يستقى منها، و قد رفع الشريف على جداراتها الأربع في سنة "لم تذكر السنة" بحيث لا يقدر أحد على النزول إليها، و كان الناس قبل ذلك ينزلون فيها، و يغتسلون منها، و كثيرا منهم كانوا يغرقون

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦٨

و يعطون فيها، و أما الآن فسلمت نفوس الناس عن الهلاك. و قد عمرت و نظفت هذه البركة في سنة ثمان و أربعين و ثمانمائة.

(قال ابن فهد): و في سنة ثمان و أربعين و ثمانمائة عمّر السيد حسن ناظر الاسكندرية البركة بأسفل مكة المعروفة ببركة الماجن، و أخرج ما كان فيها من التراب و رفع جداراتها الأربع. انتهى من تاريخ الغازي.

(٦) بستان الوزير عثمان نوري باشا، والي مكة من قبل الدولة العثمانية التركية- كان في أوائل تولية الشريف عون إمارة مكة، و هو

أول من أنشأ بستانا بمكة، و أباحه لأهلها يتنزهون فيه و أنفق عليه آلاف الجنيهات الذهبية. و كان بستانه مزدهرا بأنواع المزروعات، و كان بجرول، بينه و بين المسجد الحرام أقل من ثلاث كيلو متر، ثم حصل بينه و بين الشريف عون تنافر فسعى الشريف لدى السلطان حتى جاء الأمر بعزله و تخريب بستانه، فلم يبق له من أثر. و كان هذا حوالي سنة (١٣٠٥) تقريبا سنة ألف و ثلاثمائة و خمس من الهجرة.

(٧) بستان الشريف عون الرفيق، الذى تولى إمارة مكة سنة (١٢٩٩) من الهجرة. ولد بمكة سنة (١٢٥٦)، و توفى بالطائف سنة (١٣٢٣). و البستان بجرول بينه و بين المسجد الحرام أقل من ثلاث كيلو متر، و كان عامرا بكل أنواع الثمار و المزروعات يضرب به المثل، أنشأه بعد بستان الوزير عثمان باشا نورى أى حوالي سنة (١٣١٠) تقريبا سنة عشر و ثلاثمائة و ألف، و قد بقى هذا البستان عامرا إلى سنة (١٣٥٠) تقريبا، ثم خرب بتاتا حتى لم يبق فيه أثر للزروع مطلقا.

و قد اشترى أرضه من آل عون حضرة صاحب السمو الملكى الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود و سنتكلم عنه فى آخر هذا الفصل. (٨) بستان الشهداء، واقع فى طريق التنعيم بينه و بين المسجد الحرام أقل من خمس كيلو متر، و هو عامر إلى اليوم، و نظن أنه أنشئ من نحو أربعين سنة و لا ندرى من يمتلكه الآن.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٦٩

(٩) بستان معالى الشيخ عبد الله السليمان، وزير المالية السابق، و قد أنشأه حينما بنى بيته الذى بجرول سنة (١٣٥٣) تقريبا، بينه و بين المسجد الحرام نحو اثنين كيلو متر و هو عامر إلى اليوم.

(١٠) بستان معالى الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية و الاقتصاد الوطنى حاليا، و هو واقع عند أم الدرج على طريق جدة، بينه و بين المسجد الحرام أكثر من أربعة كيلو متر، و هو بستان جميل حاو لجميع المزروعات، و قد بنى فيه معاليه مسكنا صغيرا لطيفا لراحته. (١١) بستان الشيخ عبد الله الكعكى. واقع بالمسفله، بينه و بين المسجد الحرام نحو أربعة كيلو متر، و هو بستان عامر لطيف يقصده الناس للزهوة و ترويح النفس.

أنشأه المذكور فى عام (١٣٦٩).

انظر: الصور رقم ٤٠، ٤١ و يرى المؤلف مع عبد الستار الهندى فى بستان الشهداء و الصورة رقم ٤٢، و هى لأحد بساتين مكة.

(١٢) البستان الذى على يسار الذاهب من منى، و كان فيه عدة أبيار و غرس فيه كثير من الأشجار، حتى شجر التمر هندی. و الذى بناه و عمله و وقف عليه مسقافا بمكة، إما جاني بك الذى كان مشدا على جدة، أو أمير الترك بمكة شبيك الصوفى و طوغان شيخ الحرم و محتسبه كما هو مذکور بصحيفة (١٩٣) من تاريخ القطبي، فإننا لم نفهم كلامه حيث أنه كان مشوشا. انتهى.

راجع منظر ٥٦، و هو صورة لبعض بساتين مكة. و منظر ٥٧، و هو صورة لمحمد طاهر كردى فى بستان بمكة.

هذه هى بعض البساتين الموجودة بمكة و الله تعالى أعلم عما سيحدث فيها من البساتين أيضا. أما البساتين البعيدة عن مكة، كبستان عرفه، فما نريد البحث و الكلام عنها. و لما كان بستان الشريف عون الرفيق مذكورا فى كتب التاريخ، صار من اللازم علينا ذكره بصفة خاصة. و إليك الكلام عنه تفصيلا.

وصف بستان الشريف عون بمكة

الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون، تولى أمر مكة سنة (١٢٩٩) هجرية، و توفى بالطائف سنة (١٣٢٣) هجرية. قال عنه البتونى فى كتابه "الرحلة الحجازية" أنه هو الذى أمر بتوسيع باب غار جبل ثور، الذى خيم على بابه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧٠

العنكبوت حينما آوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رفيقه أبي بكر، رضى الله عنه، عند هجرتهما إلى المدينة. وكان أباه لا يسع إلا نفرا واحدا يدخل منه زاحفا على بطنه. ثم قال: وأنه استقدم أتوموبيلاً (سيارة) من أوروبا كان يركبه في طريق الطائف. اهـ. فعليه تكون سيارة الشريف عون هي أول سيارة دخلت الحجاز، والثانية هي سيارة الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق، ثم دخلت السيارات بدون حساب. لقد أنشأ الشريف عون الرفيق بستانه الشهير بمكة شمال محلة جرول، ولم نعلم متى أنشأه، لكن المظنون أنه كان قبل وفاته بنحو عشر سنين، والله تعالى أعلم. أخبرنا الشيخ حسن العشى أن الشريف عون صرف على بستانه هذا مائة وتسع وستين ألف جنيه ذهباً، وناهيك بقيمة الذهب في ذلك الوقت.

كان هذا البستان آية من الآيات وجنة من الجنات موضوعه بمكة، لم يسبق له نظير في ذلك العهد، وإليك وصفه التام الذي ذكره المرحوم إبراهيم رفعت باشا في كتابه "مرآة الحرمين"، فقد قال عن هذا البستان ما يأتي:

هو حديقة غناء بجهة جرول، مستطيلة الشكل، طول ضلعها البحري (٢٧٠) متراً، والغربي (١٨٠) متراً، وارتفاع سورها المحيط بها متران، وفي وسطها خزان للماء مربع الشكل طول ضلعه ٦١ متراً، وسمك حائطه من الأعلى ثلاثة أمتار وربع، وارتفاعه أربعة أمتار، وهي مبنية بالحجر الأزرق، وجدره من الداخل والخارج مجصصه بالجير المخروط بمسحوق الآجر، ويصعد إليه من الجهة الشمالية أولاً على أربع درجات ثم بعدها ١٦ درجة عن اليمين ومثلها عن اليسار، وله سلمان الأربعة الأولى، وفي آخر السلم درجة كبيرة في مستوى أعلى الخزان، والسلم مصنوع من حجر متين زادته الصنعة رونقا وجمالا. وفي زوايا الخزان الأربع من الداخل درج منتظم على شكل ربع الدائرة، كل زاوية فيها ١٤ درجة، طول العليا منها متر، والسفلى ستة أمتار ونصف، وهذا الدرج للنزول منه إلى قاع الخزان، وفي منتصف كل جدار من جدار الخزان بحذاء الأرض فتحتان، ارتفاع كل فتحة ثلاثة أرباع المتر في عرض نصفه، ولذلك لتصريف المياه منها إلى البستان. وهذا الخزان الكبير لا مثيل له في الأقطار الحجازية لهذا عينا بوصفه، وبالبستان أيضا خزانان بينهما أربعة أمتار، ارتفاع كل منهما ستة أمتار، وبأعلى كل منهما فتحتان تقذفان المياه إلى بركة يشرب منها الناس

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧١

و يغسلون أوانيهم و ثيابهم منها، و ترى الماء حين نزوله أبيض اللون يمثل قطعاً فضية تلاحق رميها، و إنه لمنظر جميل في بلاد قفرة، قلت فيها المياه.

و المزروع من أرض البستان نحو الربع، و فيه شجر الجوافه و الجوز الهندي و البرتقال و الليمون و النخيل و العنب و الورد و البرسيم الحجازي و الكرنب و الكرات و الباذنجان و الطماطم إلى غير ذلك. و لا يفوتنا ذكر ما فيه من شجر الكادي، الذي يستخرج منه عطر الكادي، ذو الرائحة الجميلة، و شكل الشجر كالصبارة إلا- أن طولها يفوق المترين و لها جذوع كثيرة ضاربة في الأرض، و ورقها عريض أشبه بسعف النخل من جانبه العريض و له شوك كثير.

و قد أذن لنا دولة الشريف عون بدخوله و الاستظلال بشجرة في ساعات القيلولة، و كان معسكرنا بحذائه و شددت طناب بعض الخيام بجداره، و قد تناولنا من الجوافه التي كانت به وقت لبثنا بمكة. انتهى من مرآة الحرمين.

و صاحب مرآة الحرمين إبراهيم رفعت باشا، رحمه الله تعالى، كان أمير الحج المصري ثلاث سنوات، و كان قومندان حراس المحمل، أي قائده، سنة واحدة و هي سنة (١٣١٨) كما ذكره بنفسه في أول كتابه المذكور، لذلك يقول هنا:

"و كان معسكرنا بحذائه و شددت طناب بعض الخيام بجداره."

و يقول المذكور في كتابه: إن أول بستان كان بمكة، البستان الذي أنشأه الوزير عثمان باشا نوري بالقرب من معسكر المحمل، و كان بستاناً بهجة للناظرين، أنشأه و أباحه لأهل مكة يتنزّهون فيه، و أنفق عليه آلاف الجنيهات فما كان من الشريف عون إلا أن سعى به لدى الخليفة فعزله و أمر بإزالة البستان الذي أنشأه. اهـ.

نقول: إن بستان الشريف عون المذكور، قد خرب الآن منذ سنوات عديدة، لا ماء فيه و لا شجر، و قد بنى على جزء منه مستشفى

للولادة، و في عام (١٣٦٧) اشترى هذا البستان صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبد العزيز من آل عون. فسبحان من بيده ملكوت كل شيء.

و البركة التي في وسط هذا البستان هي متصلبة بعين زبيدة، و بجوارها مقسم العين ليجري الماء إليها دائما، فكانت مملوءة بالماء على الدوام، و منها يسقى هذا البستان.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧٢

و البركة مربعة الشكل متساوية الأضلاع واسعة عظيمة لا توجد بركة بمكة إلى اليوم أعظم منها و لا أقوى منها في البناء، فطول كل ضلع من أضلاعها الأربعة (٥٩) تسعة و خمسون مترا، و عمقها خمسة أمتار، و عرض جدرانها ثلاثة أمتار. و في كل ركن من أركانها الأربعة درج نازلة إلى بطنها، و عدد درج كل ركن خمسة عشر درجة.

و أرض البركة من الداخل مفروشة بالطباطب حتى لا تشرب الأرض الماء الذي بداخلها. و لقد اندثر هذا البستان ما عدا هذه البركة، فهي محفوظة إلى الآن كما هي سليمة صحيحة، غير أنه في هذه السنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف بدأوا في هدمها، و من شهر جمادى الأولى و إلى آخر رمضان من السنة المذكورة، لم يهدموا منها سوى جهة واحدة فقط، لقوة بنائها مع أنها مبنية بالنورة البلدية فقط و الحجارة الجبلية، و الحق أنها بناية تستحق الإعجاب و الفخر، فرحم الله من بناها و من اشتغل فيها. و قد اشتغلوا في هدمها نحو ثلاث سنوات حتى أتموا هدمها تماما و تساوت بالأرض، فسبحان مغير الأحوال و العادات.

هذا، و قد كثرت الحداثق في أطراف مكة المشرفة من بعد سنة (١٣٧٥) تقريبا و لا داعي لإحصائها و ذلك لكثرة توفر المياه فيها، من العيون التي تمد عين زبيدة، فسبحان مغير الحال و الأحوال.

و مما يجدر ذكره، أن الناس بعد ما سكنوا في نواحي مكة المكرمة، و ذلك من سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، أي من ابتداء هدم البيوت و المحلات لتوسعة المسجد الحرام، ذهب كثير من الناس إلى أطراف مكة و نواحيها، و بنوا فيها منازل بالإسمنت على الطراز الحديث، و جعلوا في منازلهم حدائق، فصار كثير من المنازل و البيوت فيها حدائق و زروع لتلطيف الجو و تجميل المنظر، فكثرة الحداثق اليوم في المنازل في نواحي مكة المشرفة، راجعة لأمرين: (الأول) اتساع الأراضي هناك، (و الثاني) كثرة المياه عندنا. فالحمد لله رب العالمين.

الحجارات الطوال التي كانت باب السلام سابقا

كانت على باب السلام قبل التوسعة السعودية حجارات طوال، ثم رفعت هذه الحجارة و أزيلت في أوائل سنة (١٣٧٥) خمس و سبعين و ثلاثمائة و ألف

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧٣

لتوسعة المسجد الحرام. و لقد ذكر الإمام الأنزرقى هذه الحجارات الطوال بهذه الحكاية أيضا في تاريخه عند الكلام على الزيارة الأولى للمهدى في المسجد الحرام، و الظاهر أن ابن فهد نقل عن الأزرقى، ثم نقل الغازى عن ابن فهد رحمهم الله تعالى. و اشتهرت لدى الناس بأن هذه الأحجار كانت تعبد في الجاهلية. و لكن هذا غير صحيح، و إليك ما يؤيد ذلك.

جاء في تاريخ الغازى عند الكلام على أبواب المسجد الحرام، نقلا عن ابن فهد ما نصه: و كان يقال له "أي لباب السلام" باب بنى عبد شمس. و يعرف بباب بنى شيبه الكبير، و هو ثلاث طاقات، و فيه اسطوانتان، و فى عتبة الباب حجارة طوال مفروش بها العتبة، و هى حجارة كانت فضلت مما قلع القسرى لبركته التى يقال لها بركة البردية بقم الثقبه. و أصل ثبير كانت حول البركة مطروحة حتى نقلت حين بنى المهدي المسجد الحرام، فوضعت هناك. و من قال إن هذه الأحجار الطوال كانت أوثانا فى الجاهلية تعبد، فهذا لا علم له. انتهى منه.

و جبل ثبير بقرب منى عند حراء، و هو الذى أهبط عليه الكبش الذى فدى به إسماعيل عليه الصلاة و السلام، و تقول العرب "أشرق ثبير كيما نغير"، و قد فسره الأزرقى بقوله: أى أشرق بالشمس حتى ندفع من المزدلفة.

و قصة بركة خالد القسرى، و هى كما ذكر الغازى فى تاريخه نقلا عن ابن فهد، قال: كتب سليمان بن عبد الملك بن مروان، أن أجر عينا تخرج منه ثقبه من مائها العذب الزلال حتى تظهر بين زمزم و الركن الأسود، فعمل خالد البركة التى بقم الثقبه يقال لها بركة القسرى، و هى قائمه إلى اليوم بأصل ثبير، فعملها بحجارة منقوشة طوال و أحكمها و أنبط مائها فى ذلك الموضع، ثم شق لها عتب تسكب فيها من الثقبه، و بنى سدا للثقبه و أحكمه.

و الثقبه لشعب يفرع فيه وجه ثبير، ثم شق فى هذه البركة عتب تجرى إلى المسجد الحرام، فأجراها فى قصب من رصاص حتى أظهرها فى فوررة تسكب فى فسقية من رخام بين زمزم و الركن و المقام، فلما أن جرت و ظهر ماؤها أمر المقرى بجزر فتحرت بمكة، و قسيمت بين الناس، و عمل طعاما فدعى عليه الناس، و أمر مناديا فنادى: هلموا إلى الماء العذب، و اتركوا أم الخنافس "يعنى زمزم". ثم أمر صائحا فصاح: الصلاة جامعة. ثم أمر بالمنبر فوضع فى وجه الكعبة، ثم صعد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧٤

فحمد الله و أثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، احمداوا الله تبارك و تعالى، و ادعوا لأمر المؤمنين الذى سقاكم الماء العذب الزلال النقا بعد الماء المالح الأجاج الذى لا يشرب إلا صبيرا "يعنى زمزم". قال: ثم يفرغ تلك الفسقية فى شرب من رصاص، تخرج إلى وضوء كان عند باب الصفا، فى بركة كانت فى السوق فكان الناس لا يقفون على تلك الفسقية و لا يكاد أحد يأتيها، و كانوا على شرب ماء زمزم أرغب ما كانوا فيها، فلما رأى خالد صعد المنبر فتكلم بكلام يؤنب فيه أهل مكة. انتهى من الغازى.

و قد تولى خالد القسرى إمارة مكة فى عهد سليمان بن عبد الملك سنة (٩٩) تسع و تسعين من الهجرة، كما كان تولاها قبل ذلك زمن الوليد بن عبد الملك.

و ذكر أيضا: أنه فى سنة اثنين و ثلاثين و مائة رفع داود بن على العباسى، أثر قدومه إلى مكة، الفسقية التى جعلها خالد القسرى فى ولايته لمكة بأمر سليمان بن عبد الملك، و قيل بأمر أخيه الوليد بن عبد الملك بين زمزم و الركن و المقام، و هدم البركة التى جعلها خالد أيضا عند باب الصفا، و صرف العين إلى بركة كانت بباب المسجد فسر الناس بذلك سرورا عظيما. انتهى منه.

و داود المذكور، هو الذى تولى إمارة مكة و المدينة و اليمن و اليمامة فى السنة المذكورة من قبل السفاح.

و يظهر أن بركة القسرى كانت كبيرة جدا، حتى كان فيها السمك، كما جاء ذلك فى تاريخ الأزرقى حيث يقول فى مبحث ما يؤكل من الصيد فى الحرم، و ما دخل فيه حيا مأسورا، ما نصه:

عن ابن جريج أنه قال: سألت عطاء عن ابن الماء أصيد بر أو صيد بحر و عن أشباهه، قال حيث يكون أكثره صيدا. قال ابن جريج: و سأل إنسان عطاء و أنا حاضر عن حيتان بركة القسرى، و هى بركة عظيمة فى الحرم بأصل ثبير، فقال:

نعم و الله لوددت أن عندنا منها، و سألته عن صيد الأنهار و قلات المياه أليس من صيد البحر؟ قال: بلى، و تلا: هذا عذب فُرات سائغ شرابه و هذا ملح أجاج و من كل تأكلون لَحْمًا طَرِيًّا. انتهى من تاريخ الأزرقى.

و يقال لبركة القسرى بركة البردى، بفتح أوله و ثانيه. و لقد ذكر الأزرقى أيضا بركة خالد القسرى فى تاريخه عند الكلام على ما عمل فى المسجد من البرك و السقايات.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧٥

بمكة حمام مملوك و حمام غير مملوك، أما الحمام المملوك فأجناس مختلفة و أشكال متباينة يقتنيه الناس كما فى البلدان الأخرى. و أما الحمام غير المملوك، فهو حمام الخرم الذى نعقد له هذا الفصل، و قد أطلق عليه "حمام الحرم" لكثرتة، و عدم تعرضهم له بالصيد و الذبح لا فى الحرم و لا فى الحل، و إن كان يجوز أكله فى الحل لغير المحرم. و لهذا الحمام شكل خاص لا يختلف و خلقته لا تتغير و لا تتبدل، و لونه واحد لا يختلف ما دام من جنس نسله، أما إذا كان أحد الأبوين من حمام الحرم، و الثانى من الحمام المملوك، فإن لونه و شكله يتغير.

انظر: صورة رقم ٤٣، حمام المسجد الحرام

و إليك وصف حمام الحرم: فمن رأسه إلى رقبته شديد الزرقه و البروق، و طرف جناحيه و ذنبه أسود، و باقيه أزرق يضرب إلى البياض، و فى جناحيه مما يلي ذنبه خطان أسودان لا يوجدان فى غير حمام الحرم، فهما له بمثابة "ماركة مسجلة" و شارة خاصة، و يقال لحمام الحرم حمام مكة و حمام رب البيت، و هو منتشر بالحجاز و بالأخص بمكة المشرفة، فإنها تكاد تكون موطنه و منبعه. أما فى غير الحجاز، فقد يوجد بها نادرا، فقد رأينا منه بمصر قليلا، و يسمونه الحمام البرى، و رأينا منه فى بلد الموصل بالعراق. و هو فى غير مكة لا يأوى كثيرا إلى المساجد، و إنما يكون مملوكا. و يقال إنه يوجد فى بعض جهات الهند من هذا الحمام، بعضه مملوك، و بعضه وحشى يصاد، و كذلك يوجد منه فى إيطاليا و غيرها من البلدان الإفرنجية.

و لقد تكلم بعضهم عن بدء وجود الحمام بمكة، كالإمام الأزرقى، فإنه قال، رحمه الله تعالى، إنه أول ما كانت بمكة حمام اليمام، حمام مكة الحرمية ذلك الزمان "أى زمان حادثة الفيل الشهيرة"، يقال إنها من نسل الطير التى رمت أصحاب الفيل حين خرجت من البحر فى جدة. هذا ما ذكره الأزرقى عن بعض المكيين. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ١-٢؛ ص ٢٧٦

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧٦

لكن نحن نرى أن كل ما ذكره، إنما هو من باب الحدس و التخمين، فإن الكلام عن بدء وجود أى حيوان فى بلدة ما، لا بد من استناده إلى دليل قاطع و برهان ساطع، حتى لا يتطرق الشك و الاحتمال إليه.

نعم يمكننا أن نقول: إن الحمام مطلقا أى الحرمية و غير الحرمية، كان موجودا بمكة أيام الجاهلية، أما كون حمام الحرم متى نشأ بمكة، و متى جاء إليها، و هل هو من نسل الطير التى رمت أصحاب الفيل، أو من نسل الحمامتين اللتين عششتا على غار ثور حينما اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم مع صاحبه أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، فكل ذلك لا يعلمه إلا الله سبحانه و تعالى.

و لما كان الدين الإسلامى الحنيف منع الصيد فى الحرم، صار هذا الحمام لا يخاف من الناس، بل يقرب منهم، و ربما وقع على رأس بعضهم أو كتفه إذا كان فى يديه حب يلقيه إليه. و كان ابن عمر يغشاه الحمام على رجله و طعامه و ثيابه فلا يطرده، و أن رجلا قال لعطاء: اجعل بيضة دجاجة تحت حمام مكة، قال:

لا، أخشى أن يضر ذلك بيضها. و قتل غلام من قريش حمامة من حمام الحرم، فقال ابن عباس: فيها شاء.

فهذا مما جعل حمام مكة لا يستوحش من الناس، و ياليتة ابتعد عنهم بعد الصقر و الغراب، فقد تضرروا منه ضررا بليغا، فإنه يدخل عليهم فى منازلهم و يقع على طعامهم و يلوث بذرقه الأرض و الفراش، و كلما طردوه رجع إليهم ما دام يرى عندهم ما يؤكل. و هو يرى كثيرا فى طريق مكة و جدة، حيث يركب فوق الجمال المحملة بالحنطة و الحبوب، و يخرق أكياسها بمنقاره القوى، و لا يطير حتى يشبع.

و قد لا حظنا على حمام الحرم فقط بمكة جملة أمور، منها:

(١) أن حمام الحرم لا يألف حماما من غير جنسه و لا يتزاوج منه إلا إذا حبس شخص حمامة من حمام الحرم يشارك المملوك فى أكله و شربه، إذا وجد إلى ذلك سبيلا بخلاف العكس.

(٢) حمام الحرم أشد منهما وأكثر أكلا من الحمام الآخر، وإذا طرد حين يأكل فلا يطير سريعا ويرجع حالا إذا طار.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧٧

(٣) حمام الحرم أعظم نشاطا وأسرع حركة من الحمام المملوك سواء في طيرانه، وحدة نظره، وخصامه مع جنسه، وانقضاضه لالتقاط الحبوب، فلا تفوته الفرصه قط.

(٤) إذا نثر أحد حبوبا في المسجد الحرام أو في أى مكان تجد حمام الحرم يسقط لالتقاطها بالآلاف من غير عدد ولا تجد بينها حمامة واحدة من غير جنسه.

(٥) إذا نثر شخص حبوبا أياما متواليه في مكان مخصوص وفي وقت معلوم، فإن حمام الحرم يأتي إلى ذلك المكان في نفس الوقت المحدد على الدوام.

(٦) حمام الحرم إذا بنى عشه لبيضه وفراخه، لا يبنيه في الخرابات والجبال، وإنما يبنيه في وسط العمران ومنازل الناس، وفوق الأبواب والطاقات، وبين الفجوات.

(٧) حمام الحرم له شكل خاص وخلقته ثابتة لا تتغير ولا تتبدل على ممر السنين والأعوام، ما دام محافظا على نسل جنسه. أما إذا سافد غير جنسه من الحمام الأبيض أو الملون، فإن شكله يتغير بدون شك، كما ذكرنا في أول الكلام.

بهذه الأمور يمتاز حمام الحرم عن غيره، ويشترك معه في الصفات الخاصة بمطلق حمام، كاتخاذ زوجة واحدة، وغيرته على أنثاه، وهيامه بها، وشوقه وحنينه إليها ... الخ.

ما جاء في كتاب الرحلة الحجازية عن حمام الحرم أيضا

ويقول الأستاذ محمد لبيب البتونى المصرى، رحمه الله تعالى، عن حمام المسجد الحرام فى كتابه "الرحلة الحجازية" ما نصه: حمام الحرم المشهور بحمام الحى يملأ سطوح المسجد الحرام ومناذره وطاقاته، فتجده معششا هنا وهناك، ويجتمع زرافات فى جهات كثيرة من صحن الحرم، وعلى الخصوص فى الجهة الشرقية، وله فيها مكان مخصوص فيه أحواض لشربه، و بجواره مكان يلقى فيه حب القمح المرتب له فى أوقات مخصوصة. وكثيرا ما تراه فى الجهة الغربية، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يعين حب القمح للحجاج والزوار بقصد إلقائه إلى جيوش هذه الحمامات المستأنسة، التى تكاد ترفرف على رؤوس الناس، لأنها لم تعرف منهم فى حياتها إلا كل لطف وأنس. وليست هذه الخصيصة قاصرة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧٨

على نوع الحمام، بل كل حيوان دخل الحرم فهو آمن، حتى ذهب بعضهم إلى عدم قتل الحية أو العقرب فى الحرم، احتراماً له وإكراماً لها فيه. وانفراد الحمام بوجوده فى الحرم لا-أظنه إلا-لسهولة أنسه، وقله جفائه. ومن أغرب ما يروى عنه أنه مع كثرتة فى الحرم، لم يشاهد منه شىء على الكعبة إلا نادرا جدا. وفى الجهة الشرقية من مكة، تحت جبل أبى قبيس، بئر يقال لها بئر الحمام، يجتمع عندها كثير منه ليشرب بحرية، ثم يذهب إلى حيث أراد. وهذه البئر قديمة جدا، وأظنها من زمن الجاهلية. كما أنى أظن أن احترام الحمام هنا أيضا من زمن بعيد. وعلى كل حال فهو مكرم للبيت، سواء قبل الإسلام وبعده. والقول بأنه من نسل تلك الحمامة التى عششت فى الغار على النبى صلى الله عليه وسلم، إنما يزيد فى احترامه وإعظامه. وليس الحمام بمحترم فقط هنا، بل هذه عادة قديمة جدا فبنو نوح كانوا يكرمونه لأنه أول من بشرهم بظهور الياضة مدة الطوفان. واحترامه عند النصارى يقرب من درجة التقديس، لأنه يمثل عندهم روح القدس، ويقولون أنه عندما كانوا يغسلون المسيح فى نهر الأردن، وهو صغير، جاءت حمامة وحطت على رأسه، لذلك يرسمونها فى كنائسهم، وعلى صورهم الدينية بكثرة.

و من هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية في كنائس القوم في أوروبا، و خصوصا في كنائس إيطاليا و النمسا و بعض كنائس فرنسا، و قد تعدى هذه الكنائس إلى منافذ المساكن و أسطحها و أشجار الشوارع العمومية و بساقتها. فإذا ذهبت إلى فينا أو روما مثلا وجدته هنا و هناك في كل مكان من غير أن يؤذيه أى إنسان، و أثر هذه العقيدة باق في الحمام الذى لا يزال في مدينة القسطنطينية إلى يومنا هذا، و تراه على الخصوص في مسجد بايزيد و مسجد أبى أيوب الأنصارى. غير أن أهل الآستانة قد بالغوا في إكرامه حتى حرموا ذبحه، منهم لا يأكلونه أبدا سواء في ذلك مسلموهم و نصاراهم و يهودهم.

أما ما ذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الآستانة من ذرية حمام الغار، الذى يقولون عنه أنه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعل المشركون، فإنه لا أصل له عندهم، كما أن لا أصل في دينهم لتلك المأمرية التى كان يؤديها حمام الغار. و الشيعة من العجم يعتقدون مثل هذا الاعتقاد في حمام الحرم، و يزعمون أنه هو الذى أخبر أهل المدينة المنورة بقتل الحسين، رضى الله عنه، و الصينيون يستعملون الحمام من زمن بعيد في استكشاف بختهم على مثل ما يستعمله بعض

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٧٩

الأروام الآن في طرقات مصر، فيأتون للحمام بطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها شيء من الخير و الشر، فتأتى الحمامة و تستخرج بمنقارها واحدة يكون منها فالهم، و يسمون هذه الحمامة باك- كوب- بن، يعنى الحمامة ذات الورقة البيضاء.

و لقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للإله غشطورت، و كان عند الفينقيين و اليونانيين و السوريين يمثل السماء و النجوم. و أظن أن احترامه عند العرب في الجاهلية لم يأت إلا- من هذا الطريق. و لذلك كانوا يضعون تمثال حمامة داخل الكعبة بجوار تمثال هبل. و لقد ورد في سيرة ابن هشام عن صفية بنت شيبه، أن النبى صلى الله عليه و سلم لما نزل مكة بعد الفتح و طاف بالبيت، دعا عثمان بن طلحة و أمره بفتح الكعبة، فلما دخلها، وجد فيها حمامة من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها. على أنا لو صرفنا النظر عن كون الحمام لطيفا في شكله، أنيسا في نوعه، جميلا في صورته، نظيفا في لباسه، يمثل في عائلته المحبة الحقيقية و الشفقة الحسية، فإننا نرى فيه درسا عائليا كبيرا، نرى الذكر منه مع أنثاه يعملان لحياتهما و حياة عائلتهما عمل المجدين المجتهدين، حتى إذا فرغا من واجبهما الأهلى تفرغا إلى حياتهما الزوجية، فتراهما بين توافق و تعاشر و تعانق، لا ينفصلان إلا ليتصلا و لا يفترقان إلا ليجتمعا، في جلايب جمال، و أساليب دلال، مما لا يرى له مثال، في زوجين من غير نوعهما على كل حال، على أن الحمام له على الإنسان خدمة تذكر فتشكر: فقد كان من القرن الثامن قبل المسيح إلى منتصف القرن التاسع عشر يؤدي وظيفة التلغراف بين الأمم المختلفة، حتى أعلن مرسى و وطسون سنة ١٨٤٤ م تلغرافهما الكهربائى، الذى لا يشك أحد في أنه أفاد العالم بأسره فائدة جسيمة، و كان من أكبر الأشياء التى ساعدت على التمدن العصرى و انتشاره بسرعة، و لكن هل هذه الفوائد الجسم تنسينا فضل ذلك الحمام؟

و لتكمله الفائدة نقول لك: إن أول من استعمل الحمام في الزجل، هو رجل من جزيرة أوجين (من جزر اليونان)، أتى في سنة ٧٧٦ قبل المسيح إلى آثينا ليحضر الألعاب الأولمبية، و استحضر معه حمامة كانت عنده أخذها من بين أفرانها. فلما برز في هذه الألعاب أرسل الحمامة فذهبت إلى عشها، و فى قدومها علم أهل الرجل بنجاحه فى مأموريته. و من ثم استعمله اليونان و الرومان و العرب

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨٠

و المصريون فى مراسلاتهم. و كان لمصر، و خصوصا زمن الأيوبيين و الفاطميين مصلحة للرسائل، و كان بها فى كل جهة بيت للحمام، و كله غريب من جهات متعددة، فكانوا إذا أرادوا إرسال مكتوب إلى أى مكان، أرسلوه على جناح حمامة مأخوذة من هذه الجهة. إلا أنهم كانوا يرسلون الخبر من صورتين على حمامتين بعد الذى حصل فى حصار الفرنجة لعكا، ذلك أن المسلمين فى عكا، أرسلوا رسالة إلى صلاح الدين الأيوبي بواسطة حمامة من حمامهم فتبعها طير جارح و ضربها، فسقطت فى معسكر العدو الذى عرف منها مواقع الضعف من عدوه. و لعلك تذكر لما نزل لويس التاسع ملك فرنسا إلى دمياط سنة ١٢٧٠ م، و سار بجنده إلى المنصورة، أخذ ملك مصر الملك الكامل خبره بواسطة الحمام الزاجل، فسير إليه جيوشه لوقفه فأوقفه عند حده، و كان ما كان من انهزام جنوده

عند المنصورة، و أسر لويس و سجنه بها، إلى أن تم الصلح بينه و بين ملك مصر، فأطلقه و سافر إلى تونس و مات بها. و فى حسبه يقول بعضهم:

قل للفرنسييس و إن أنكروا حبس لويس فى مقال صحيح

دار ابن لقمان على حالهاو القيد باق و الطواشى صحيح

و الحمامة تقطع فى طيرانها من سبعين إلى ثمانين كيلو مترا فى الساعة، و لها صبر على الجوع جملة أيام، و لكنها لا- تصبر على العطش.

و كان لهذا الحمام فى حصار ألمانيا لباريس، بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧١ أكبر فضل فى ربط أجزاء المملكة الفرنسية بعاصمتها. و ربما كانت هذه الحكومات قد قضت أن لا- يمس جنس الحمام بسوء، حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لأذى الصيادين و خلافهم، فيؤدى مأموريته و هو فى غاية الهدوء و الطمأنينة.

و لقد كان عباس باشا الأول، و الى مصر، رجع إلى تربية هذا الحمام و استكثر من أنواعه. و لكنه مات، رحمه الله، قبل أن يتم غرضه. و أخذ بعض ذوات القاهرة عنه هذه الفئة، و لكنهم اختصروا على تربيته و تطيره فى محيط ديارهم، و قد يعلمه بعضهم الصبر على الطيران حتى إذا التحم بحمام غريب طار معه إلى أن تنفذ قواه، ثم يرجع به إلى صاحبه، الذى يكون فرحه به لا- يقدر. و للحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها: الجزغندى، و الريحان، و المزرزر، و القزازى، و الأبلق، و العنبرى، و الفزار، و العشاقى و غيرها، إلا أن هذه الفئة لم تقف عند أफीئة الأغنياء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨١

بل تعدتهم إلى الفقراء، و هم إلى الآن يضيعون فيها وقتهم الذى هم و عيالهم فى حاجة إليه لعمل حيوى مفيد. و لقد شاهدت فى بستان سراى يلدز الداخلى، بعد خلع السلطان عبد الحميد، دارا كبيرة من السلوك و فيها ما لا يحصى من أنواع الحمام، و هو من جمال الخلقه بمكان عظيم. و ربما كان يتسلى به فى سجنه الذى قضى على نفسه به طول حياته، سامحه الله. انتهى من كتاب الرحلة الحجازية.

وقوع الحمام على الكعبة المعظمة

كثير من الناس يظن أن حمام مكة لا يعلو الكعبة المشرفة حرمة لها، و إن وقع عليها فإنما ذلك للاستشفاء من مرض أصابه. فهذا الظن فى غير محله، لأن حمام الحرم قد يقع على الكعبة فى النادر كما نشاهده، أما غيره من الحمام الأبيض و بقيه الطيور، فلا يقع على الكعبة مطلقا، بل لا يأتى المسجد الحرام على سعته، و السبب فى عدم وقوع الحمام على الكعبة المعظمة بكثرة هو ما يأتى:

(١) أن الحمام يتطلب العلو و الكعبة المشرفة بالنسبة لما حولها من البيوت قصيرة.

(٢) جميع الطيور من الحمام أو غيره، لا يحب الجلوس على سطح مستو ناعم مفروش بالرخام، إلا إذا كان فوقه حب فىأكله و يطير، و إنما يحب الجلوس على ما برز من الأخشاب و الأعواد و الحجارة و الشرفات و الأغصان الممدودة و غيرها من كل ما يمكنه أن يستمسك عليه بمخبله، كما يحب المشى و الوقوع على التراب، و الكعبة ليس بها شىء بارز يستمسك عليه، بل إنها مغطاة بالكسوة الحريرية، و سطحها مفروش بالرخام الأملس معرض لحرارة الشمس المحرقة، و ليس عليه حبوب حتى يلتقطها الحمام، أما ميزابها فالحمام يقع أحيانا لبروزه.

(٣) الحمام من طبعه أن يدخل فى كل فجوة و فى كل خرق بين الشبائيك و الجدران، و ليس فى الكعبة شىء من ذلك يجلب إليها الحمام.

انظر: صورة رقم ٤٤، الكعبة و فوق سطحها حمامة، و حمامتان طائرتان فوقها

و أما قولهم إذا شاهدوا حمامة فوق الكعبة أنها ما وقعت عليها إلا للاستشفاء، فهو غير صحيح و غير معقول لما يأتي:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨٢

(١) أن جميع الحيوانات لا- يعقلون، فكيف نسند إليهم طلب الاستشفاء، و أيضا أنهم غير مكلفين، فكيف نقول أن الحمام لا- يعلو

الكعبة حرمه لها، ثم من أين لنا أن نحكم بذلك و نحن لا نفهم لغتها، و هي لا تفهم لغتنا؟

(٢) لو كان وقوع الحمامة فوق الكعبة للاستشفاء، يكون معناه أنها عرفت قدسيه الكعبة و شرف المكان، فكيف إذا ترمى ذرقها عليها

و على كسوتها و على أرض المسجد الحرام؟

(٣) لو كانت الحيوانات تعرف حرمه الكعبة فكيف إذا كانت القطة تصيد الحمام من المسجد، ثم تدخل في جوف الكعبة فتأكله و

تتلوث أرضيتها الطاهرة بدمه و ريشه، و ذلك حينما هدمها السيل سنة ١٠٣٩ هجرية و قبل أن يشرع السلطان مراد في عمارتها، و قبل

أن يجعل أمير مكة يومئذ ستاره من الخشب و غيره حول ما سقط من البيت الشريف مؤقتا إلى أن تتم عمارته، كما ذكره الغازي في

تاريخ إفادة الأنام، نقلا عن رساله للشيخ محمد علي ابن علان الصديقي الشافعي، في عماره البيت الحرام.

و لقد روى الإمام الأزرقى أن الحمام كان يقع على الكعبة فتتناثر حجارتها، و ذلك حينما احترقت أيام ابن الزبير رضى الله عنهما.

(٤) إذا دقق الإنسان النظر في علو ثوب الكعبة مما يلي سطحها لوجد عليه كثيرا من ذرق الحمام، فلو عقل الحمام حرمه الكعبة، لما

رمى بذرقه على ثوبها.

فعلم مما ذكرناه أن ما يشاع لدى الناس بأن حمام الحرم لا يعلو الكعبة المشرفة و إن علاها فإنما هو للاستشفاء وهم لا حقيقة له، و

دعوى لا دليل عليها. و لقد شاهدنا بأنفسنا جلوس الحمامة على بيضها في طيات ستاره باب الكعبة حتى أنها لتأتى بالقش لتبيض فوقه

و تفرخ، و لولا أن السيد محمد نوري الذي يخطط الكعبة لا يترك بيض الحمامة على ستاره باب الكعبة، لشاهد الناس فراخها على

الستاره.

تنظيف المسجد الحرام من الحمام

لم يتخذ الحمام المسجد الحرام مسكنه و مأواه في صدر الإسلام، حيث كان صغيرا، و لم يكن له سور و لا سقف، أما الآن، ففي

المسجد الحرام من الحمام ما

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨٣

لا يحصى و لا يعد، لا تساعه العظم و لكثرة ما فيه من الأروقه و الشرفات البارزة و الأعواد الممدودة و الفجوات العديدة، و الذي

يغلب على الظن، أن الحمام لم يستوطن المسجد الحرام إلا في عهد الدولة العثمانية، حيث أنها خصصت له كل عام كمية كبيرة من

الحبوب تشر له في أرض المسجد و لا- يزال الناس إلى اليوم يرمون له الحبوب فيه، خصوصا الحجاج، فأصبح المسجد الحرام مرعى

خصبا للحمام فيه الأمن و الطعام و الماء و المسكن.

و من المؤلم حقا أن نرى هذا المسجد الأعظم الذي هو أفضل المساجد على الإطلاق، و الذي فيه أول بيت وضع للناس، و فيه آيات

بينات مقام إبراهيم، ملوثا بذرق هذا الحمام، و مستقذرا بخرئه النجس في بعض المذاهب حتى كاد أن يتعذر فيه المشى و الصلاة،

فتضايق الناس منه، و قد ينبعث من المسجد رائحة كريهة بسبب خرئه إذا نزل المطر و لو كان قليلا، و كم سمعنا من كبار الحجاج و

أعيان الوافدين إلى بيت الله الحرام الشكاية من هذه الحالة، و هم يقولون لنا: أفلا تجدون لتنظيف المسجد الحرام من وساخة الحمام

و غيره من علاج، و العالم في تقدم سريع مستمر نحو كل ما يهيم الإنسان و ينفعه.

و لئن مضى على هذا الحال زمن طويل فقد آن الأوان إن شاء الله تعالى للعمل على تنظيف المسجد الحرام من الحمام، كما آن الأوان في توسعته هذه التوسعة الكبرى. لذلك نتقدم بهذا الاقتراح الآتي لترحيل الحمام من المسجد الحرام، أعظم مساجد الدنيا و أشرفها، و هو أن ترحيل الحمام منه يكون بالطرق الآتية:

(١) منع الناس و الحجاج من رمي الحبوب داخل المسجد بصورة صارمة حازمة.

(٢) التنبية على خدمة المسجد بطرد الحمام من المسجد، بأن يمسك كل فرد منهم بجريدة من النخل فيطوفون بأحاء المسجد لطرده و تنفيره في كل وقت.

(٣) تخصيص كيس أو كيسين من الحبوب يوميا ترمى للحمام خارج بلدة مكة، إما على طريق جدة أو على طريق عرفات، مع جعل أحواض تملأ بالماء في تلك الجهات، فإن الحمام تأوى إلى نفس المكان الذى تجد فيه الماء و الطعام. قال الشاعر:

و الطير يسقط حيث يلتقط الحب و تغشى موائد الكرماء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨٤

(٤) بناء مئات الأبراج للحمام خارج مكة في الموضع الذى فيه الماء و الطعام، لتأوى إليها ليلا و نهارا.

هذه الوسائل الأربعة، لو عملنا بها، لرحل الحمام عن المسجد الحرام بطوعه و اختياره، و بسلام و أمان، بدون ضرر و لا إضرار، و استراح الناس من أذاه، نحمدنا العالم الإسلامى الذى يحج إلينا فى كل عام، و يصلى بالمسجد الحرام، إلى قيام الساعة. فحبذا لو قامت مديرية الأوقاف المشرفة على شؤون المسجد الحرام بطرد الحمام منه، من غير وصول ضرر إليه، بالكيفية التى ذكرناها، و بذلك يستريح الناس من أذاه، و ينظف المسجد العتيق المكرم من و ساخته، و يسان من قذارته. فإن المساجد بيوت الله يذكر فيها اسمه، فحقها التنظيف و التجميل و التطهير و التبخير، و أخرى بذلك المسجد الحرام.

و اعلم أنه لا حرج فى طرد الحمام و نحوه للمصلحة العامة أو الخاصة، ففى القاعدة الفقهية "الضرورات تبيح المحظورات"، فيجوز طرد الحمام و نحوه من بقعة فى الحرم إذا تضرر منه الإنسان، بشرط أن لا يحصل للحمام و نحوه تلف فى نفسه أو بيضه أو فرخه، فإن حصل فى إبطائه و طرده تلف له ضمن ذلك بالجزاء المعروف فى كتب الفقه، بدون أن تقع عليه حرمانية، أما إذا طرده الإنسان من غير أن يتضرر منه فتلف بسببه حرم عليه ذلك و عليه الجزاء أيضا.

فقد جاء فى كتاب "القرى لقاصد أم القرى" تأليف الحافظ الطبرى، عن مالك بن دينار، قال: دخلت على مجاهد، بيته مكة، فرأيت فى يده سعة يطرد بها الحمام. أخرجه سعيد بن منصور. و جاء فيه أيضا عن نافع بن عبد الرحمن، أن عمر دخل دار الندوة فعلق زاده، فوقع عليه طائر، فخاف أن ينجسه فطيره، فنهشته حية، فقال: أنا طيرته حتى نهشته الحية، فسأل من كان معه أن يحكموا عليه، فحكموا عليه بشاة. أخرجه الشافعى.

و روى الإمام الأزرقي، عن عبد الله بن نافع، عن أبيه، قال: كان ابن عباس يرخص أن يكشكش للحمام. و روى أيضا عن مجاهد، قال: أمر عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، بحمامة فأطيرت فوقعت على المروءة، فأخذتها حية، فجعل فيها عمر شاة. قال: و أمر عثمان، رضى الله عنه، بحمامة فأطيرت من واقف، فوقعت على واقف فأخذتها حية، فدعا نافع بن الحارث الخزاعى فحكمما فيها عنزا عفراء. اهـ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨٥

فهذا دليل واضح على جواز طرد الحمام و نحوه فى الحرم من غير أن يطرد إلى خارجه، و من غير أن يلحقه أذى و لو لم يكن ذلك جائزا لما رخص ابن عباس أن يكشكش للحمام، و لما أمر عمر و عثمان بإبطائه، أما كوننا ضمنا الحمامتين بشاة و عنز فلموتهما بسبب الإطارة، فطرد الحمام شىء، و تلفه شىء آخر، فحكم الأول الجواز، و حكم الثانى الجزاء. قال العلامة المحقق الشيخ عبد الغنى بن ياسين اللبدي النابلسى الحنبلى، رحمه الله، فى كتابه "دليل الناسك لأداء المناسك" ما نصه: و يسن قتل كل مؤذ مطلقا، أى لمحل و محرم فى الحل و الحرم، فعلى هذا إذا حصل الأذى من الحمام الموجود فى مكة المكرمة فى بعض البيوت، فإنه يكثر ذرقه و

يوسخ بعض الأماكن، بحيث يعجز أصحابها عن إزالة ذلك لكثرة و دوامه، و لا سيما عند من يرى نجاسة ذلك. فالظاهر جواز طرده، فإن لم يزل بالطرد، فله قتله أو مسكه و ذبحه و هل يجوز أكله حينئذ محل نظر، و الله تعالى أعلم، انتهى كلامه.

رمز الحمام

و يرمز الناس إلى السلم و السلام بصورة الحمام، و يقولون عنه أنه رسول السلام، و لم نجد لهذا علّة نستأنس إليه، إلا ما رواه الإمام الأزرقى، الذى توفى فى القرن الثالث للهجرة، فقد قال فى الجزء الأول من تاريخه ما يأتى:

عن عكرمة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: كان مع نوح، عليه الصلاة و السلام، فى السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلهم، و أنهم كانوا أقاموا فى السفينة مائة و خمسين يوماً، و أن الله تعالى، ووجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها الله تعالى إلى الجودي، قال: فاستقرت عليه.

فبعث نوح عليه السلام، الغراب ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوقع على الجيف و أبطأ عنه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون و لطخت رجليها بالطين، فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية و سماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم و قد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغةً إحداها العربية.

قال: فكان لا يفقه بعضهم عن بعض، و كان نوح عليه السلام يعبر عنهم. انتهى كلام الأزرقى رحمه الله تعالى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨٦

نقول: لهذا صار الحمام رمزا للأمن و السلام، و لهذا أيضا يرسمون حمامة و هى تحمل ساقا صغيرة من النبات، فالحمام حيوان أليف محبوب، و شكله جميل، و هديله و حركاته تثير شجن العشاق، و الهديل صوت الحمام، قال فى مختار الصحاح: "و الهديل أيضا فرخ كان على عهد نوح، عليه الصلاة و السلام، فصاده جرح من جوارح الطير، قالوا: فليس من حمامة إلا و هى تبكى عليه. ..."

و انظر إلى ذكاء الحمامة التى أرسلها نوح، عليه الصلاة و السلام من سفينته لتأتيه بخبر الأرض، فجاءت إليه، و قد لطخت رجليها بالطين، إشارة إلى أن الماء قد غار فى الأرض و انتهى أمر الطوفان، و حملت إليه ورق الزيتون دون غيره من الأشجار، لأن الزيتون شجرة مباركة ينتفع بثمرها و ورقها و زيتها و خشبها.

و انظر إلى الغراب بعثه نوح عليه السلام، فوقع على الجيف و أبطأ عليه، فالغراب خسيس أحرق، لا يالف و لا يؤلف، لحمه لا يؤكل لخبثه، و هو من الفواسق الخمس. فقد قال رسول الله، صلى الله عليه و سلم: "خمس من الدواب كلهن فواسق يقتلن فى الحل و الحرم: الغراب، و الحدأة، و العقرب، و الفارة، و الكلب، و الكلب العقور،" رواه البخارى و مسلم عن عائشة، رضى الله تعالى عنها.

ففرق كبير بين الحمام رسول السلام، و بين غراب البين الذى يشاء منه.

و من أطف ما قيل فى الحمام، ما جاء فى تاريخ المسعودى: أن ابن السماك دخل على الرشيد، و بين يديه حمامة تلتقط حبا، فقال له صفها و أوجز، فقال:

كأنما تنظر من ياقوتتين، و تلتقط بدرتين، و تطأ على عقيقتين، و أنشدونا لبعضهم:

هتفت هاتفة أذنها ألف بين

ذات طوق مثل عطف الذون أبنى الطرفين

و تراها ناظرة نحوك من ياقوتتين

ترجع الأنفاس من تقبين كاللؤلؤتين

و ترى مثل البساتين لها قادمتين

و لها لحيان كالصدغين من عرعرتين
 نسجت فوق جناحيها برنوستين
 و هي طاووسية اللون بيان المنكين
 تحت ظل من ظلال الأيك يك صافى الكتفين
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨٧ فقدت ألفا فناحت من تباريح و بين
 فهي تبكيه بلا دمع جمود المقلتين
 و هي لا تصبغ عيناها كما تصبغ عيني
 و الحمام رمز للسلام، و رمز للحب و العشق و إظهار معانيهما بأجلى الحركات، و لقد تمثل الشعراء به لذلك قديما و حديثا، و قالوا
 فيه كثيرا من الأشعار، و لولا خوف الإطالة لأتينا بأقوالهم، و لكن لا بأس بذكر أربعة أبيات فقط و هي:
 و رب حمامة في الدوح صارت تجيد النوح فنا بعد فن
 أقاسمها الهوى مهما اجتماعفمنها النوح و العبرات منى
 و باللغة العامية المصرية:
 الليل بهمومو جاني يا حمام نوح و ياي
 نوح و اذكر أشجاني دا جواك من جنس جواي
 و فيما تقدم تفصيل واف عن مسألة حمام الحرم من جميع النواحي، فافهم كل ذلك فإنك لا تجده في كتاب، و الله الموفق للصواب،
 و إليه المرجع و المآب، لا إله إلا هو العزيز الغفار.

عدد المستشفيات بمكة المكرمة

لم يكن بمكة المشرفة في عهد الأتراك العثمانيين، و في عهد الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق، رحمه الله تعالى، من
 المستشفيات إلا مستشفى أجياد، و مستشفى القبان بالمدعا فقط، و بهما من الأطباء نحو خمسة أنفار فقط، و كان فيهما الأدوية اللازمة
 للمرضى، و لم يكن بمكة من الأجزاخانات سوى أجزاخانة واحدة، هي أجزاخانة "حسين" بالمروءة. ثم كان في محل "قاعة الشفا"
 بجوار المسجد الحرام باب القطبي و باب الباسطية، بضعة دكاكين عطارة، يباع فيها شيء من الأدوية المستخرجه من الأعشاب و
 الحبوب الهنديه، و فيها بعض الأطباء الهنود الذين يعالجون المرضى بالعقاقير اليونانية، و لما كانت رقعة مكة صغيرة و سكانها قليلين،
 كان هذا القدر من الأطباء و العقاقير الهنديه اليونانية كافيا لهم،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨٨

علاوة على حسن نيتهم، و قلة الأمراض الناتجة من حسن توكلهم على الله تعالى، و عدم انتشار الفساد بينهم.

ثم لما كان زمن الحكومة السعودية، اتسعت رقعة مكة المكرمة اتساعا عظيما فامتد العمران في جميع النواحي، و كثر الناس بها كثرة
 عظيمة، و هذا يستلزم انتشار الأمراض المختلفة، كما يستلزم هذا كثرة وجود الأطباء و الدكاترة المتعلمين في البلاد الأوربية،
 فاستحضرت الحكومة السعودية كثيرا من الأطباء من مختلف الأجناس و فتحت مستشفيات عديدة، و صيدليات كثيرة، و فيها من
 الأدوية المستحدثة الشيء الكثير الذي يدهش المطلع عليها.

فيوجد في مكة المكرمة و حدها فقط: مستشفى الزاهر و فيه من الأطباء نحو ستة عشر طبيبا مختصين في مختلف الأمراض، و به أكثر
 من مئة سرير، و يراجعه يوميا من المرضى نحو ألف شخص، و هو مجهز بكافة الأدوية و اللوازم. أما في موسم الحج فيكون
 المراجعون له من المرضى كثيرين لوجود الحجاج بمكة.

كما يوجد بمكة أيضا مستشفى أجياد وفيه من الأطباء و السرر و الأدوية و اللوازم بقدر ما يوجد في مستشفى الزاهر، و كلاهما من المستشفيات الكبيرة المهمة، و في مكة أيضا يوجد مستشفى واحد للولادة، مزود بالأطباء و الأدوية و اللوازم و إن شاء الله تعالى سينشأ بمكة قريبا مستشفى خاص للرمد، و هناك في كل محلة بمكة مستوصف خاص، فيه طبيب أو طيبان و فيه من الأدوية و اللوازم ما يكفي المراجعين. كما توجد في مكة من الصيدليات و مخازن الأدوية أكثر من خمسة عشر صيدلية في مختلف الجهات. و الله المستعان، و هو اللطيف بعباده.

جمعية الإسعاف بمكة المكرمة

إشارة

لقد كنا كتبنا لمدير جمعية الإسعاف بمكة المشرفة، ليخبرنا عن تأسيس هذه الجمعية في البلاد، ف جاء الجواب من سعادة الدكتور عبد العزيز مدرس، رئيس جمعية الهلال الأحمر السعودي، نبذة عن هذه الجمعية منذ تأسيسها عندنا في سنة (١٣٥٤) هجرية، ثم طرأت عليها تطورات تقدمية حتى صار اسمها (جمعية الهلال الأحمر)، و قد اعترف بها دوليا، و أصبحت هيئة مساعدة للقوات المسلحة السعودية في السلم و الحرب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٨٩

و إليك نص ما كتبه لنا سعادة رئيسها المذكور:

نبذة تاريخية

لقد كان حجاج بيت الله الحرام في الماضي، يلاقون صعوبات جمه من ناحية العلاج و الوصول إلى المستشفيات لأخذ العلاج اللازم، لذلك فكر المحبون للخير بإنشاء جمعية أهلية لتقديم الإسعافات الأولية و الخدمات الصحية، و كان من بينهم المرحوم طلعت حرب باشا، الذي تبرع بسيارة إسعاف للمشروع، و تكونت جمعية الإسعاف الخيرية في عام ١٣٥٤ هـ حين صدر القرار السامي رقم ٣٣٠٦ في ٢/٣/٥٤ هـ بتشكيل الجمعية تحت رعاية جلاله المغفور له الملك عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية، و برئاسة سمو ولي العهد المعظم الأمير فيصل بن عبد العزيز. و تعتبر هذه الجمعية أول نواة لجمعية الهلال الأحمر السعودية. و قد استمرت جمعية الإسعاف الخيرية الوطنية في القيام بواجبها الإنساني في تدعيم الخدمات الطبية، و إغاثة المصابين من ضحايا الحوادث بشتى أنواعها و في حدود إمكانياتها، معتمدة في ذلك على مواردها الغير ثابتة التي تعتمد على الإعانة الملكية، و على التبرعات من الحجاج و المواطنين، و ما تقدمه وزارة المالية. و قد استمرت الجمعية في أعمالها مدة طويلة، فافتتحت العيادات الخارجية لهذا الغرض حتى أنه في عام ١٣٧٧ بلغ عدد المستفيدين من خدمات الجمعية ٨٥٣٣٢ شخصا.

و في أول عام ١٣٧٨ هـ تعطل بند التبرعات الذي كان أكبر مورد تعتمد عليه الجمعية في أعمالها، فتقلص نشاطها و أصبحت ملزمة بمجابهة الكثير من صرفياتها نظير ما تقدمه من خدمات إنسانية و نظرا لذلك فقد أصدر المقام السامي أمره الكريم لزيادة بند المساعدة الذي تقدمه الدولة، و قد استمرت في أداء رسالتها حتى انبثقت فكرة تطوير الإسعاف الخيرية إلى جمعية الهلال الأحمر لتمكن الجمعية من تقديم خدماتها على نطاق واسع وفقا للنظم الدولية الخاصة بالصليب و الهلال الأحمر، لذلك صدر المرسوم الملكي رقم ١/١٦/٣٨٣ هـ بإنشاء جمعية الهلال الأحمر، و كان لذلك أكبر الأثر في نفوس العالم الخارجي، و على إثر ذلك

فقد تقدمت الحكومة بطلب رسمي للانضمام إلى منظمة الصليب و الهلال الأحمر العالمى، و بذلك أصبحت العضو الواحد و التسعين فى منظمات الصليب و الهلال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩٠

الأحمر، و اعترف بها، و كان ذلك بتاريخ ١٨ / ٨ / ١٩٦٣ م. و ساهمت الدولة بمبالغ كبيرة فى تأسيس جمعية الهلال الأحمر و مساعدته، فصدر المرسوم الملكى رقم ١٥ و تاريخ ٢٦ / ٦ / ٣٨٣ هـ بر صد مليون ريال فى الموازنة العامة للدولة من بند التبرعات كإعانة للجمعية.

بدأت الجمعية بتأسيس المركز العام الموجود بالرياض، و الذى يتولى إدارة المكاتب الرئيسية للجمعية فى كل من المنطقة الغربية و الوسطى، كما أن جمعية الهلال الأحمر السعودى بدأت بتقوية المراكز الإسعافية السابقة و تدعيمها بجميع ما يلزم و تعميم مراكز الإسعاف فى المملكة و لذلك افتتح مركز للإسعاف بمدينة الرياض، و آخر بالمنطقة الشرقية فى الدمام، و فى بقية المدن الكبيرة بالمملكة، بجانب ستة مراكز ثابتة موجودة فعلا فى مناطق الحج، و هى: (مكة، جدة، المدينة، الطائف، بحرة، رابغ)، و مركزين مؤقتين بجدة أحدهما بالميناء البحرى، و الآخر بالميناء الجوى، و أيضا عشرة مراكز مؤقتة فى كل من عرفات و مزدلفة و طرق الحج. و من برامج الجمعية مستقبلا هو:

١- (أ) نشر التوعية الصحية بواسطة أجهزة الإعلام كالإذاعة و الصحافة و عرض الأفلام و النشرات، و قد جرى اتصال بهذا الخصوص بمنظمة الصليب الأحمر الدولى لمد الجمعية بالأفلام الثقافية و الصحية اللازمة، كما أن ممثل هيئة الأمم المتحدة الموجود بالمملكة أبدى استعدادة لتزويد الجمعية بالأفلام اللازمة.

(ب) تدريس مبادئ الهلال الأحمر لطلبة المدارس و الكشافة.

(ج) تنظيم فروع تدريبية للمتطوعين لعمليات الإسعاف.

٢- كما أن الجمعية ماضية بسبيل إعداد مخازن تشمل مهمات الإغاثة من خيام و بطاطين و ملابس لمساعدة الضحايا أثناء النكبات العامة كالأطوار و السيول و الحرائق.

٣- نظرا لقله هيئة التمريض بالمملكة، و نظرا للحاجة إليهم فقد درست الجمعية موضوع افتتاح مدارس للتمريض و ستبدأ فى السنة القادمة بهذا الخصوص، حتى تؤهل أكبر عدد ممكن لسد حاجة البلاد.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩١

٤- كما أن الجمعية ماضية فى دراسة افتتاح مراكز لنقل الدم، و تعميمها فى المدن الكبرى بالمملكة، و قد حصل اتصال بالجمعيات التى باشرت العمل فى مثل هذه المشاريع و عند الانتهاء من دراستها سوف يبدأ التنفيذ.

٥- كما أن الجمعية بسبيل افتتاح مستشفى نموذجى لكى يساعد الطلبة على مباشرة الدروس العملية به، و أيضا تقديم الخدمات للجمهور. انتهى.

المحجر الصحى و الكورنتينات

كثيرا ما كنا نحب الوقوف على تاريخ المحجر الصحى و الكورنتينات، و من أى زمن ابتداء ذلك، و كان من حسن المصادفات أن وجدنا البحث الوافى عنه فى كتاب "الرحلة الحجازية" للأستاذ محمد لبيب البتونى المصرى، فقد قال فيه رحمه الله تعالى، ما نصه:

لفظ كورنتينة أو كارانتينة أصله فرنساوى (Quarantaine) و معناه الشىء الذى يبلغ عدده تقريبا إلى أربعين. و الفرنج فى جمهورية فينسيا (البندقية) لما رأوا أن الأوبئة كانت تأتى إلى أوروبا من طريق الشرق و من بلاد المغرب بشمال إفريقيا، اهتمت لهذا الأمر لأن مرآكباها هى التى كانت تصل الشرق بالغرب، و عينت لأول مرة سنة ١٣٤٨ مسيحية، أى ميلادية، ضباطا صحيين، كانوا

يقومون بتفتيش السفن التي كانت تأتي من الخارج إلى ثغورها البحرية. و في سنة ١٤٠٣ أقامت أول محجر صحي سمته لازاريت (lazarette) وجعلته في جزيرة صغيرة قريبة منها بالبحر الإديراتيكي، اسمها سانت ماري دو نازاريه، و كانت تحجر فيها على البضائع والأشخاص القادمين على بلادها من الشرق. و مشى على إثرها في القرن الرابع عشر و الخامس عشر ثغور البحر الأبيض المتوسط العظمى، فأقامت جنوة محجرا صحيا سنة ١٤٦٧، و أقامت مرسلية محجرا في سنة ١٥٢٦. و أول من اتخذ الاحتياطات الصحية ضد الطاعون في بلاده هو الملك رينيه، ملك نابولي، في سنة ١٤٧٦ م و زادت العناية بها في سنة ١٤٥٦ م التي فشا الطاعون فيها ببلاد إيطاليا كلها، حتى أنهم كانوا يحرقون الموتى لعدم استطاعتهم دفنهم.

و لما ظهر الوباء الأصفر في كاتالونيا (مقاطعة أسبانيا عاصمتها برشلونه)، اهتمت أوروبا لهذا الأمر و عملت فرنسا قانونا للكورنتينات في ٣ مارس سنة ١٨٢٢ و هو أساس النظمات الصحية للمحاجر. و قد أدخل على هذا القانون

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩٢

تعديلات مهمة في ١٧ أغسطس سنة ١٨٤٧، ثم في ١٠ أغسطس سنة ١٨٤٩، ثم في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٥٠.

هذا ما كان في أوروبا بخصوص الكورنتينات، أما بمصر فإن (محمد علي) ذلك المصلح الكبير، فكر في ضرورة إنشاء مجلس صحي بها، و شكل في سنة ١٨٢٠ ميلادية مجلسا كان أعضاؤه من حكماء الجيش و صيدليه، و في سنة ١٨٢٥ أدخل كلوت باشا على هذا المجلس نظمات جمعة و سماه مجلس الصحة العمومي. و لما دخلت الكوليرا في مصر سنة ١٨٣١ زادت عناية محمد علي بهذا المجلس، و أدخل إليه نظمات الكورنتينات بأوروبا خدمة للأمر الصحية و التجارية في جميع البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، فجمع قناصل الدول و شكل منهم لجنة للنظر في الأمور الخاصة بالكورنتينات، و أصدر بذلك دكرتو في ٨ أكتوبر سنة ١٨٣١، و في سنة ١٨٣٢ بنى بالاسكندرية أول محجر صحي (lazarette) في الشاطبي و لا يزال الاسكندريون يسمونها مظريطة أو الأظاريطة إلى الآن.

و كان من ضمن هذا المجلس، عضو مصري اسمه طاهر بك، و كانت له الكلمة العليا في أعمال المجلس لثاقب فكره و كبير همته و العناية التي كان يبذلها في مصادمته ذلك الوباء، الذي ذهب بأغلب السكان في الوجه البحري. و في أواخر سنة ١٨٣٩، ألغى محمد هذا المجلس القنصلي، و لم يحفل باحتجاجات الدول عليه في هذا الصدد، و شكل إدارة الصحة العمومية بمصر، و جعل رئيسها ناظر الأشغال العمومية و التجارة، و جعل لها سبعة أعضاء: منهم طاهر بك السابق ذكره، و ستة انتخبتهم الحكومة المصرية من أعيان التجار. و في مدة عباس باشا الأول أهملت هذه النظمات الصحية، فطلبت منه الدول الرجوع إلى النظمات الأولى القنصلية، فلم يجب طلبها بل و لم يعرها أية التفاتة.

فأخذت فرنسا تسعى جهدها في تشكيل مؤتمر دولي صحي من الدول ذوات المصلحة في البحر الأبيض المتوسط، فتم لها ذلك، و اجتمع هذا المؤتمر في باريس، و كان فيه أعضاء من فرنسا و مرسلية و النمسا و أسبانيا و إيطاليا و اليونان و البرتغال و سردينية و روسيا و تسكانيا و تركيا، و عملوا قانونا في ٤ يونية سنة ١٥٨٣ راعوا فيه السهولة في الحجر خصوصا على البضائع، لأن العلم كان قد وصل باكتشافاته

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩٣

المفيدة، إلى أن أغلب الأوبئة ليست معدية. و لم توافق إنكلترا على قرارات المؤتمر و اتخذت احتياطات خصوصية لموانئها. و كان من نتيجة هذا القانون أن تشكل مجلس صحي دولي في الآستانة و مجلس في الاسكندرية و وظيفتهما إعلان أمر الأوبئة عند ظهورها، و عمل الاحتياطات اللازمة للوقوف في وجهها حتى لا تصل إلى أوروبا، و لقد تقرر أيضا تعيين بعض أطباء يركبون البحر على الدوام إلى الشرق الأقصى ليرسلوا إلى المجلسين بملاحظاتهم الصحية على البلاد التي يمرون عليها.

و عليه فقد اهتم سعيد باشا و شكل في سنة ١٨٥٤ مجلسا صحيا و ألحقه بنظارة الداخلية في ٢١ إبريل سنة ١٨٥٧، و جعل من حقه

النظر في الأمور الصحية من داخل البلاد، كما شكل لجنة للنظر في الأمور البحرية الصحية (الكورنتينية)، و كانت يد هذه المصلحة الأخيرة مغلوقة عن التصرف، بدون إرادة الحكومة المصرية إلى سنة ١٨٨١ التي صدر في ٣ يناير منها دكرتو بفصل إدارة المصلحتين عن بعضهما، و ذلك بناء على اتفاق من الدول مباشرة، و سميت الأولى مصلحة الصحة العمومية و جعل مقرها مصر، و سميت الثانية مجلس الصحة البحرية و الكورنتينات المصرية و جعل مقره بالاسكندرية، ثم تغير هذا الدكرتو بدكرتو آخر صدر بتاريخ ١٩ يونيه سنة ١٨٩٣ بناء على قرارات مؤتمر باريس، المنعقد في السنة المذكورة.

و هذه الكورنتينات كلها، لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج لأن سفرهم من و إلى مكة كان عن طريق البر، و كانوا يفتكرون أن طول مسافة هذا السفر مطهرة لهم من الأوبئة، إلا أن شدة كوليرا سنة ١٨٥٨ في بلاد الحجاز جعلت أغلب الناس يفر منها إلى مصر من طريق البحر على القصير، فاحتاطت الحكومة المصرية لهذا الأمر، و ضربت الحجر على الحجاج لأول مرة في بئر عنبر وسط المسافة بين القصير وقتنا. أما الحجاج الذين سافروا مع القافلة عن طريق القصبة فإنها منعهم من الدخول إلى السويس، و ضربت عليهم الحجر في عجرو.

و من هذا العهد رأوا ضرورة إقامة محجر صحي في الطور، إلا أن مؤتمر القسطنطينية رأى الاستعاضة عن الطور بالوجه، لأن سواد الحجاج كان يسافر عليه برا، و استمر الحجر فيه أو في رأس ملعب على ركان القوافل، و في الطور أو

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩٤

عيون موسى على ركاب البحر، كلما كانت تقضى بذلك الضرورة إلى سنة ١٨٧٧، التي من ابتدائها كثر سفر الحجاج من طريق البحر. و هنالك أخذت الحكومة المصرية في إكمال الاستعدادات في الطور حتى صارت في سنة ١٨٩٣ وافية بالغرض منها. و من ثم أصبحت هي المكان الوحيد الذي تعمل فيه الكورنتينا على الحجاج المصريين، أو الذين يمرون على مصر، و لا تزال الاصلاحات تدخل إليه من وقت إلى آخر.

و من المعجب أنه قد ورد في مادة (لزيطه) بقاموس لاروس الكبير، أن بعض الإفرنج قال إن أصل هذا اللفظ آتى من الكلمة العربية (الأزهرية)، و ذلك لأن الأزهر بمصر إنما هو ملجأ للعميان و الشيوخ و المتقاعدين، و هو كلام أساسه الجهل المطبق، أو التحامل على الأزهر و الأزهرين، و لو أنصف القوم لعرفوا لهذه الجامعة الإسلامية حقها في خدمة العلوم على اختلاف أنواعها. فكم لها آيات من العرفان على بنى الإنسان تذكر فتشكر. و لا غرو فاهتمام الجناب العالي الخديوى و حكومته السنية بالأزهر الآن، لابد و أن يجعله يوما من الأيام، في مصاف الجامعات الكبرى نظاما و أحكاما.

أما كلمة لازاريت فهي لاتينية معناها (ليدر) يعنى الأبرص أو المجذوم.

و كانت الدولة الرومانية تبالغ في الحجر على المجذومين، بل كانوا يضعونهم تحت الحجر طول حياتهم، و كان عقاب من يخرج عن نطاقه منهم أن يضرب بالرصاص، و هو قانون حق، لولا أنه مبالغ في شدته، و قد ورد في الحديث الشريف: "فر من الجذوم فرارك من الأسد." و قد أقام الوليد بن عبد الملك الملاجئ في أنحاء دولته و جمع إليها المجذومين، و أجرى عليهم الأرزاق، و هو أول من أقام الملاجئ من هذا القبيل.

هذا هو تاريخ الحجر الصحي عند الإفرنج. و لكن يرى المطلعون على التاريخ، أن المسلمين رأوا ضرورة هذا الحجر قبلهم. فقد ورد في تاريخ ابن الاثير، في أخبار السنة الثامنة عشرة من الهجرة ما نصه:

و كان عمر بن الخطاب قدم الشام في مدة ذلك الطاعون (و هو طاعون عمواس الذي فتك بأهل الشام فتكا ذريعا)، فلما كان يسرع و هو موضع قرب الشام، بين المغيثة و تبوك لقيه أمراء الأجناد منهم أبو عبيدة الجراح، فأخبروه بالوباء و شدته، و كان معه كثير من المهاجرين و الأنصار، لأنه خرج بهم غازيا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩٥

فجمع المهاجرين الأولين والأنصار فاستشارهم، فاختلفوا عليه، فمنهم القائل:

خرجت لوجه الله، فلا يصدك عنه هذا. ومنهم القائل: إنه بلاء و فناء، فلا نرى أن تقدم عليه. فقال لهم قوموا. ثم أحضر مهاجرة من قريش فاستشارهم، فلم يختلفوا عليه، وأشاروا بالعود، فنأدى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر، فقال أبو عبيدة: أفرار من قدر الله؟ فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة (يعني لانتقمت منه)، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أريت لو كان لك إبل فهبطت واديا له عدوتان: إحداهما مخصبه والأخرى مجدبه، أليس إن رعيت المخصبه رعيتها بقدر منه، وإن رعيت المجدبه رعيتها بقدر منه؟ و كان عبد الرحمن بن عوف غائبا فحضر، فأخبر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم حديثا في ذلك وهو قوله، صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا- تقدموا عليه، وإذا وقع ببلد و أنتم به فلا- تخرجوا فرارا منه." فكان ذلك الحديث موافقا لما رآه عمر، رضى الله عنه، فانصرف الناس بالناس إلى المدينة.

وقد ورد هذا الحديث بالبخارى فى الجزء الرابع بكتاب الطب بهذا النص:

حدثنا حفص ابن عمر، حدثنا شعبه، قال: أخبرنى حبيب بن أبى ثابت، قال سمعت أسامة بن زيد يحدث سعدا عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: "إذا سمعتم بالطاعون بأرض، فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض و أنتم بها فلا تخرجوا منها." وقال شراح الحديث، إن المنع من الدخول، لا يتناول من كانت للمرضى مصلحة فى دخوله كالأطباء وغيرهم. و هل هذا الحديث الشريف إلا قانونا صحيا وضع للناس قبل أول قانون وضعته فينسيا (البندقية) بثمانية قرون. انتهى كل ذلك من الرحلة الحجازية للبتونى.

و من اللطائف قول بعض شعراء عصرنا، و نظن أن الشاعر كان من لبنان:

فهواك قد نال السبقا بسواه لسانى ما نطقا

و فؤداك قبلا ما عشقا لکن مذ مر به علقا

فكان هواك "كرنتينا" قال العلامة المحدث الشهير، السيد الكتانى، فى كتابه القيم العجيب، الذى لم يؤلف مثله المسمى "بالترايب الإدارية" بصحيفة ٤٦٦، من الجزء الأول ما نصه:

"باب فى أصل ما يعرف الآن فى الإدارات الصحية بالكرتينة" فى الصحيحين وغيرهما عن عبد الرحمن بن عوف قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "إذا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩٦

كان الوباء بأرض و أنتم بها، فلا تخرجوا فرارا منه، و إذا سمعتم به فى أرض، فلا تقدموا عليها."

وقد رجع عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، بسبب هذا الحديث لما خرج إلى الشام و أخبر أن الوباء قد وقع بها، و أن عمر حمد الله و انصرف.

قال ابن طرخان: فى نهيه صلى الله عليه وسلم، عن الدخول للأرض التى حلها الطاعون فائدتان:

إحداهما: لئلا يستنشقوا الهواء الذى قد عفا و فسد فيمرضون.

و الثانية: لئلا يجاورون المرضى الذين قد مرضوا بذلك فتتضاعف عليهم البلية، و قد روى عن النبى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "من القرف تلف،" و فسر بأنه ملبسة الداء و مداناة المرضى.

و بالجملة قوله: "لا تقدموا عليها" إثبات للحذر و النهى عن التعرض للتلف، و حديث أبى داود المذكور من حديث فروة بن مسيكة، قال: قلت: يا رسول الله أرض عندنا يقال لها أرض أبيق "قريه إلى جانب البحر من ناحية اليمن" و هى أرض ريفنا- كل أرض فيها زرع و نخل- و فرتنا- الطعام المجلوب من بلد إلى بلد- و أنها و بئ- كثيرة الوباء- فقال صلى الله عليه وسلم: و باؤها شديد، فقال عليه السلام:

دعنها عنك فإن من القرف، ملبسة الداء و مداناة المرضى- التلف- الهلاك.

قال الخطابي وابن الأثير: ليس هذا من باب الطير والعدوى، وإنما هذا من باب الطب، لأن استصلاح الهواء من أعون الأشياء على صحة الأبدان، وفساد الهواء من أضرها وأسرعها إلى إسقام البدن عند الأطباء، وكل ذلك بإذن الله تعالى ومشيتته. اهـ. ومن هذا الباب ما أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي، كان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا أرمدت عين امرأة من نسائه لم يأتها حتى تبرأ عينها.

ومن العجب ما وقفت عليه في مکتوب السلطان أبي العباس المنصور كتب لولده أبي فارس وهو خليفته على مراکش بتاريخ (١٠١١) في أمر وباء حدث إذ ذاك بسوس، قال فيه ما نصه: و البطاقة التي ترد عليكم من سوس من عند أعمامكم، أو ولد خالككم، لا تقرأ ولا تدخل دارا، بل تعطى لكاتبكم وهو يتولى قراءتها، ويعرفكم مضمونها، ولأجل أن كاتبكم يدخل مجلسكم، ويلابس التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩٧

مقامكم، حتى هو لا يفتحها إلا بعد أن تغمس في خل ثقيف وتشر حتى تيبس، وحينئذ يقرؤها ويعرفكم بمضمونها إذ ليس يأتيكم من سوس ما يوجب الكتمان عن مثل كاتبكم. اهـ.

وهذا هو عمل الإفرنج اليوم في تحفظهم من الوباء المسمى عندهم بالكرنيتية، المعروفة في باب الوقاية ودوائر الصحة، وقد كانت وقعت المحاورة بين عالمي تونس أبي عبد الله محمد المناعي المالكي، والشيخ أبي عبد الله محمد بيرم الحنفي في إباحتها وحظرها، فألف الأول في الحرمه وألف الثاني في الجواز، مستدلا، على ذلك بنصوص من الكتاب والسنة، انظر رحلة الشيخ رفاعه الطهطاوي لباريز.

وفي إرشاد الساري، في تفسير سورة النساء، لدى قوله تعالى: وَخُذُوا حِذْرَكُمْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى وَجوب الحذر من جميع المضار المظنونة. ومن ثم علم أن العلاج بالدواء، والاحتراز عن الوباء، والتحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب. اهـ. وانظر كلاما لصاحب الاستقصاء في النازلة، جعل ذلك مقيدا بالوجه الذي ليس فيه مفسدة شرعية، والله أعلم. انتهى من كتاب التراتيب الإدارية. ومما يجب ذكره في هذا المبحث، هذه الحادثة الآتية التي تدل على مبلغ قوة إيمان أهل الزمن السابق الذين كانوا يتحصنون بالآيات، و يلتجئون إلى الله تعالى في المحادثات.

قال الغازي رحمه الله تعالى في تاريخه نقلا عن الحضراوي، في تاج تواريخ البشر: وفي سنة (١٢٨٨) ثمان وثمانين ومائتين وألف، كان بمدينة خير الأنام، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، وباء حتى مات جملة من الزوار في شهر رجب من أهل مكة وغيرهم، فصدرت أوامر الدولة العلية والمصرية بإرسال حكماء الصحة لعمل كرنيتية على القادمين في تلك البطاح المعطرة بوادي الزاهر من أرض مكة المشرفة، فصدر أمر أمير مكة، سيدنا الشريف عبد الله باشا بن المرحوم الشريف محمد بن عون، بعد حضوره من الطائف إلى أربعة من الفقهاء، بقراءة ختمه قرآن مدارس مرتلة، يدورون بها حول مكة المشرفة، تحويطا لها من سوء، مبتهلين إلى الله تعالى في قبول ذلك.

فابتدأوا من ناحية المصافي "بجباد"، "جاعلين دور مكة على اليسار، مارين بحدودها من أعالي الجبال، إلى أن وصلوا إلى جبل حراء، ثم انحدروا على طريق

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩٨

العشر إلى أن نزلوا من أعالي الزاهر، فمسكوهم العساكر المحافظين للصحة في تلك الجهات، وتعلقوا بهم ظنا أنهم ممن ينبغ عليهم المحافظة، فخلصهم السيد هاشم بن شرف العبدلي لأنه كان مأمورا عليهم، وما زالوا سائرين إلى أن طلوعوا من خلف الحفاير من أعالي الزاهر، ثم نزلوا على بركة الماجن بأسفل مكة، ثم ختموا بالمصافي، من حيث ابتدؤوا.

ثم في ثاني الأيام، جاؤوا إلى حجر إسماعيل عليه السلام و بجوار البيت المعظم، و قرأوا سورة يس و سورة الأنعام.

ثم صدر الأمر العالي من حضرة صاحب الإمارة الجليلة، على سائر علماء الحرم، بقراءة صحيح البخاري تجاه البيت المعظم، و ابتهلوا

إلى الله تعالى أن يدفع الله السوء عن أهل هذا البلد، و عن سائر المسلمين و جلسوا الزوار ثلاثة أيام بالزاهر، ثم دخلوا مكة المشرفة، و قد حفظ الله الأول منهم و الآخر، و صرف الله السوء. انتهى ما ذكره الغازي.

فانظر أيها القارئ الكريم كيف كانوا في الزمن السابق يتضرعون إلى الله تعالى في النوازل و الشدائد، أما في زماننا هذا فإن الناس يهرعون إلى الأطباء و الدكاترة عند شعورهم بأى ألم بسيط. نسأل الله العفو و العافية و الصحة التامة.

لقد بحثنا مسألة الكرنينة في الزمن السابق، أما مسألتها في زماننا هذا فإليك نبذة مختصرة عنها:

قامت حكومة جلاله الملك سعود بن عبد العزيز، بكافة ما يلزم لحجاج بيت الله الحرام خير قيام، فكان من ضمن ذلك وضع المحاجر الصحية الفنية بمدينة "جدة"، "لحماية الحجاج و السكان من الأمراض و الأوبئة المعدية، و قد كان في جده من قبل محجر صحي لا تزال آثاره موجودة إلى اليوم، في مكان من البحر يسمى "بالجزيرة" بقرب جدة، و ذلك من أيام عهد الأتراك.

و هنا يسرنا أن نذكر بعض ما جاء عن محجرة جده نقلا عن النشرة اللطيفة التي طبعتها وزارة الصحة السعودية، بمناسبة افتتاح "مدينة المحاجر بجده" رسميا في ٢١ شعبان سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، التي توافق ٣ إبريل (١٩٥٦) ميلادية، فقد جاء فيها ما خلاصته:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٩٩

كانت عمليات الحجر الصحي في الماضي تجري عند الحاجة إليها في جزيرتين صغيرتين بالقرب من ساحل جدة، و كانت إحداهما للإدارة و فيها أماكن لحجز ركاب الدرجتين الأولى و الثانية و الجزيرة الأخرى معدة لركاب الدرجة الثالثة، و كانت هذه الأماكن مزودة بالاستعدادات التي لا غنى عنها لمواجهة الطوارئ، كالمباخر و الوحدة الكهربائية، و جهاز تكتيف المياه.

و قد استخدمت هذه المحاجر في مناسبات كثيرة قبل سنة ١٩١١ ميلادية، ثم انقطعت الحاجة إليها بفضل التقدم الصحي، و إحكام الرقابة الصحية، فلم تدع الظروف لاستعمالها إلا عندما ظهرت الكوليرا في مصر سنة ١٩٤٧ ميلادية، فاستخدمت هذه المحاجر لحجز القادمين من مصر الذين لم يكونوا قد أتموا دور الحصانة عند وصولهم إلى هذه البلاد، فكان هذا الحاجز آخر ما استخدمت فيه مرافق هاتين الجزيرتين آنذاك.

و كانت الحكومة العربية السعودية قد طالبت بإلغاء بعض المواد في الاتفاقية الصحية الدولية لعام ١٩٢٦ من الميلاد، المبرمة في باريس، و تعديل بعض المواد الأخرى منها، بالنظر لعدم مطابقتها للأوضاع الفنية. على إثر ذلك وصلت إلى المملكة لجنة خبراء دوليين زارت المنشآت الكورنتينية في جدة، و قررت أن المنشآت المذكورة على استعداد كاف للقيام بالخدمات المحجرية اللازمة لاستقبال الحجاج، و اقترحت توسعه المنشآت المذكورة، و إدخال بعض التحسينات على المرافق الصحية، و كانت الحكومة العربية السعودية قد باشرت تطبيق برنامجها الصحي الطويل الأمد، و من أهم مشروعات هذا البرنامج إنشاء المحجر الصحي بجدة.

أما محجر جزيرة "كمران" فإنه في سنة ١٩٥١ ميلادية تقرر إلغاء هذا المحجر الذي كان يقوم بعمليات التفتيش الصحي على السفن و الحجاج القادمين إلى جدة من الجنوب، و ذلك بناء على تعهد الحكومة العربية السعودية بأن تتولى عملية التفتيش المشار إليها، بواسطة سلطاتها الصحية في ميناء جدة التي يمكن أن تحل محل محجر "كمران".

و محجر جدة يتألف من ١٥٠ مبنى، أقيمت على ٢٢٩٠٠٠ متر مربع تقريبا، في مكان على بعد كاف من العمران و أحيط بأسلاك شائكة لمنع الاختلاط، و يتصل هذا المحجر بالشاطئ بطريق خاص.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠٠

و تضاء جميع أبنية المحجر بالكهرباء، و يوجد فيه مكاتب الإدارة، و سنترال التليفونات، و مستودعات السيارات و الحديدية، و ورشة النجارة، و الحمامات، و دورة المياه، و المطابخ، و المغاسل، و المباخر، و مبنى المخبر مزود بكافة الآلات و الأجهزة اللازمة، و هو مكيف تكييفًا مركزيًا بالأجهزة الخاصة، و فيه مدرسة التدريب الصحي، و في غرب هذه المدرسة يقع مبنى التلاجات المخصصة

بعضها لحفظ اللقاحات و الأمصال و نحوها، و البعض الآخر لحفظ اللحوم و الخضروات و الفواكه اللازمة لنزلاء المحجر. و بالمحجر مستشفى عام، و صيدلية ممتازة، و قسم للأشعة، و غرف للمرضى، و مساكن للأطباء و الموظفين، إلى غير ذلك مما هو من مستلزمات المحاجر و المستشفيات.

نسأل الله تعالى العفو و العافية و الصحة التامة، و التوفيق إلى كل عمل ديني و إنساني، و الله في عون المرء ما دام المرء في عون أخيه.

أول ظهور الجدري و الحصبة بأرض الحجاز

ذكر الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى رحمه الأبرار، في كتابه تاريخ مكة: أن أول ما رؤيت الحصبة و الجدري بأرض العرب في عام حادثة الفيل، و أنه أول ما رؤى بها من مراير الشجر الحرمل و الحنظل و العشر، في العام المذكور. انتهى منه.

و العشر بضم أوله و فتح ثانيه، هو نبات مر معروف عندنا.

نقول: إن أصحاب الفيل قد أهلكهم الله تعالى بالمغمس، و هو بعد عرفات بضع كيلو مترات إلى جهة الزيمة، فهذه الأمور التي ظهرت بأرض العرب، يكون ظهورها طبعا بمكة المكرمة، قبل جميع أراضي العرب، لقرب هلاك أصحاب الفيل من مكة المشرفة، و لا يبعد أن يكون ذلك من الوباء الذي وقع عن تعفن جثثهم، و الله تعالى أعلم.

على كل حال هذه العلل و الأمراض، لا بد أن يكون لها سبب من الأسباب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠١

التقارير الصحية بنظافة الحج

جرت العادة في عصرنا الحاضر أن ترفع التقارير الصحية بنظافة الحج من الأوبئة و الأمراض المعدية، و ترسل بذلك البرقيات إلى الجهات المختصة لعمل الترتيبات اللازمة من قبل الكورنيتين و المحاجر الصحية، لتسهيل مرور الحجاج و دخولهم البلدان لخلوهم من الأمراض الوبائية، فلو وجد فيهم شيء من ذلك لا قدر الله، فإن المحاجر الصحية تحجزهم لديها أياما و تعالجهم إلى أن تتحقق من نظافتهم، فعند ذلك تسمح لهم بالسفر إلى بلادهم.

و إليك التقرير الصادر من وزارة الصحة بمكة المشرفة بنظافة حج عام ١٣٧٧ هـ و سلامته من الأمراض:

جاء في جريدة البلاد السعودية، في العدد الصادر بتاريخ ١٥ ذى الحجة ألف و ثلاثمائة و سبعة و سبعين من الهجرة، ما يأتي:

يسر وزارة الصحة بعد اطلاعها على قرار الهيئة الطبية العليا لحج عام ١٣٧٧ هـ الموافق ١٩٥٨ م ميلادية، و على تقارير المؤسسات، و الوحدات، و المراكز الصحية المعنية بشؤون الحج أن تعلن نظافة حج عام ١٣٧٧ هـ الموافق ١٩٥٨ م و سلامته من جميع الأوبئة و الأمراض المحجرية (الكورنيتين) و تحمد الله على ذلك.

و لم تكن هذه العادة جارية في العصور السابقة، غير أن عادتهم كانت بإرسال المبشر بسلامة الحجاج. فقد ذكر الإمام السيوطى في كتابه "حسن المحاضرة" ما يأتي:

ذكر قدوم المبشر سابقا يخبر بسلامة الحاج، كان ذلك في عهد الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان فمن بعدهم، و له حكمه لطيفة قل من يعرفها، قال الحافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه في قصته: حصر عثمان رضى الله عنه، و استمر الحصار بالديار المصرية، حتى مضت أيام التشريق و رجع البشير من الحج، فأخبر بسلامة الناس، و أخبر أولئك بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفوهم عن أمير المؤمنين. و أخرج مالك في الموطأ عن ابن دلائن عن أبيه: أن رجلا من جهينة كان يشتري الرواحل، فيتغالى بها، ثم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠٢

يسرع السفر فيسبق الحاج، فأفلس، فرفع أمره إلى عمر، فقال: أما بعد أيها الناس إن الأسيفع أسيفع جهينه رضى من دينه و أمانته أن يقال سبق الحاج، ألا و إنه ادان معرضا، فأصبح و قد رين به فهمد، فمن كان له عليه دين فليأته بالعداء، فقسم ماله بين غرمائه، ثم كمل الدين. انتهى من الكتاب المذكور.

و الأسيفع طائر كالعصفور يكون بقرب الماء، و هو أيضا المتباعد عن الأعداء و الحسد، و الأسيفع تصغير أسفع أطلق على الرجل لسرعة رحيله و مفارقتة الحاج.

فائدة جاء في تاريخ الغازي المسمى إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، في الجزء الأول ما نصه:

و ذكر الحضراوى فى تاج تواريخ البشر، و فى سنة ١٢٨٨، كان بمدينة خير الأنام، عليه أفضل الصلاة و أتم السلام، و بآء حتى مات جملة من الزوار فى شهر رجب من أهل مكة و غيرهم، فصدرت أوامر الدولة العلية التركية و المصرية، بإرسال حكماء الصحة لعمل كرتينة على القادمين فى تلك الأباطح المعطرة بوادى الزاهر من أرض مكة المشرفة، و بادر أمر أمير مكة سيدنا الشريف عبد الله باشا بن المرحوم الشريف محمد بن عون، بعد حضوره من الطائف إلى أربعة من الفقهاء لقراءة ختمة قرآن مدارس مرتلة يدورون بها حوالى مكة المشرفة، تحويطا لها من سوء، مبتهلين إلى الله تعالى فى قبول ذلك، فابتدؤا من ناحية المصافى جاعلين دور مكة على اليسار، مارين بحدودها من أعالى الجبال إلى أن وصلوا إلى جبل حراء، ثم انحدروا على طريق العشر إلى أن نزلوا من أعالى الزاهر، فمسكوهم العساكر المحافظين للصحة من تلك الجهات و تعلقوا بهم ظنا أنهم ممن ينبغى عليهم المحافظة، فحصلهم السيد هاشم بن شرف العبدلى، لأنه كان مأمورا عليهم، و ما زالوا سائرين إلى أن طلوعوا من خلف الحفاير من أعالى الزاهر، ثم نزلوا على بركة الماجن بأسفل مكة، ثم ختموا بالمصافى من حيث ابتدؤا، ثم فى ثانى الأيام جاؤا إلى حجر إسماعيل عليه السلام، بجوار البيت المعظم، و قرأوا لديه سورة يس و سورة الأنعام، ثم صدر الأمر العالى من حضرة صاحب الإمارة الجليلة على سائر علماء الحرم بقراءة صحيح البخارى تجاه البيت المعظم، و ابتهلوا إلى الله تعالى، أن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠٣

يدفع الله سوء عن أهل هذا البلد و عن سائر المسلمين، و جلس الزوار ثلاثة أيام بالزاهر، ثم دخلوا مكة المشرفة، و قد حفظ الله الأول منهم و الآخر، و صرف الله سوء. انتهى.

الجمال و السيارات بمكة المكرمة

بلاد العرب قاطبة كانت موطن الجمال و الخيول و البغال و الحمير، و بالأخص بلاد الحجاز، لكثرة الواردين إليها من الحجاج، قال الله تعالى فى كتابه العزيز:

وَ الْخَيْلِ وَ الْبِغَالِ وَ الْحَمِيرِ لَتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَ قَالَ فى أول سورة النحل: وَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفءٌ وَ مَنَافِعٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ* وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ* وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيهِ إِلَّا يَشِقُّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ.

إن بلاد الحجاز و خاصة أهل الحرمين الشريفين كانوا يعتنون بالجمال و الخيل و الحمير أشد العناية فى أكلها و شربها و راحتها، أما البغال فهى قليلة لديهم و لا يستعملونها إلا فى جر العربات، و فى الخارج يستعملونها فى جر العربات أيضا و فى حمل أجزاء المدافع الثقيلة، و الطلوع بها إلى الجبال للعساكر، و فى بلاد اليمن، البغال كثيرة هنالك، يستعملونها فى أسفارهم و حمل أمتعتهم.

و فى بادية الحجاز، عند العرب، اعتناء عظيم بالجمال، و لهم بها ولع شديد، و لهم بأجناسها معرفة عظيمة، كمعرفتهم بأجناس الخيل، خصوصا فى بادية نجد و الأحساء، فمن الجمال ما يجعل للأسفار البعيدة، و تسمى بالركائب أو النجائب أو الهجن "بضمتين"، و هذه

لا يركب عليها إلا شخص واحد أو شخص آخر يركب في مؤخراتها جهة ذيولها، ولا يحمل عليها إلا الأمتعة الخفيفة اللطيفة، فهذه الركائب سريعة المشى بطبيعتها الحال، فهي تقطع المسافات في أقل من الجمال العادية. ومن الجمال ما يجعل لحمل الأثقال والأمتعة الكثيرة الثقيلة، وقد يجعل لركوب شخصين أو ثلاثة في هودج أو شقدف، وهو منفصل إلى قسمين كالسريرين بطول الإنسان، يكون في كل قسم شخص واحد، ويكون الجمال في وسط الشقدف، أي بين القسمين منه، وربما جلس على ظهر الجمال شخص ثالث، وهذا الشقدف يسير بفراش من الحنابل وغير بحيث يقى الجالس فيه الشمس نهارا، والهواء البارد ليلا، كما يقىه الأمطار عند نزولها حال مسيرهم،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠٤

ومن الجمال ما لا يركب عليها عادة بل تحمل عليها الأمتعة والصناديق وأكياس الحبوب ونحوها، وهذه الجمال والتي قبلها بطيئة المشى، ولو لم يكن عليها حمل، فهي تقطع المسافة التي بين مكة وجدة في ليلتين، وتمكث نهارا في منتصف الطريق بينهما و يسمى "بحرة"، مع أصحابها وركابها من أول النهار إلى قرب المغرب ثم تستأنف السير، و يسمى عندنا مسير ليلته بالمرحلة، كما تقطع ما بين مكة المشرفة والمدينة المنورة في إحدى عشرة ليلة، تسير بالليل وتقبل بالنهار.

هكذا كانت وسائل النقل والانتقال والأسفار، بواسطة الحيوانات المذكورة، في جميع الممالك والبلدان على وجه الأرض، منذ العصور القديمة الأولى، إلى أن اخترعت القطارات والسيارات والطائرات في أوائل القرن العربي الحالي، أي إلى أوائل سنة (١٣٠٠) ألف و ثلاثمائة هجرية، فإنه من بعد هذه السنة المذكورة استبدل الناس في جميع الممالك تدريجيا النقل والانتقال بواسطة هذه المخترعات الحديثة وتركوا ما ألفوه من الانتقال بالحيوانات المذكورة، فتطور الكون وهو من سنة الله تعالى في خلقه.

أما الحجاز وفي مقدمتها "مكة والمدينة"، فلم يكن العرب يعرفون وسائل الانتقال إلا الجمال فقط، فكانت تجد بمكة المشرفة في موسم الحج الذي كان يبدأ في ذلك الزمن في شهر رجب من كل عام، آلافا مؤلفة من الجمال، أتى بها أصحابها من الصحراء والبادية لحمل الحجاج إلى مشاعر الحج، من ينبع ورايح و جدة، فمكة المكرمة و منى و مزدلفة و عرفات، ثم الرجوع منها بعد الوقوف إلى مكة المكرمة، ثم منها إلى المدينة المنورة، كل ذلك بطريق البر من المحطات المعروفة من قديم الزمن.

إنك أيها القارئ الكريم لو كنت معنا في ذلك الزمن المبارك، ورأيت تلك الآلاف المؤلفة من الحجيج على مختلف أجناسهم، فلقد كان أول من يأتي من الحجاج إلى مكة، شرفها الله تعالى، هم حجاج جاوا، وكان يأتي منهم في بعض الأعوام سبعون ألفا من الحجاج، وكانوا في أول شهر رجب يحضرون إلى مكة المكرمة و يصومون رمضان بها، كما كان يأتي من الحجاج المصريين نحو أربعين ألفا، وقس على ذلك بقية أجناس المسلمين.

ولو كنت معنا في ذلك الزمن المبارك، ورأيت الآلاف المؤلفة من الحجاج يمشون في بطن مكة و يختلطون بأهلها، ولو رأيت أيضا الآلاف المؤلفة من الجمال

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠٥

والحمير والشقادات والصناديق التي في بطونها أمتعة الحجاج، والآلاف المؤلفة من المطوفين والخدم والحشم والجمالة رؤسائهم، كل ذلك لو رأيته في أيام الحج قبيل الوقوف ببضعة أيام، ولو رأيت معنا أيضا كيف كان ماء زبيدة تكفى هذا الحجيج الأعظم بدوابهم وحيواناتهم، وكيف كانت بطاح مكة وبيداء منى و مزدلفة، و ساحة عرفات، تعج بهم عجيجا و تتجاوب الجبال والصخور والأحجار مع تليبتهم و تهليلهم و تسيحهم، و مكة في ذلك العهد صغيرة الرقعة، كثيرة المنعطفات والتعاريج، ضيقة الشوارع والحارات، فكيف كانت تسع تلك الجموع الزاخرة التي تشبه المحشر يوم القيامة، إنه أمر الله تعالى وإرادته. لو رأيت أيها القارئ الكريم كل ذلك معنا في ذلك الزمن الفات، لأخذك العجب العجاب، ولما وسعك بعد أن تشهد إلا أن تقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له بالملك، وله الحمد، يحيى ويميت، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله الكبير المتعال، له ما في

السموات و ما فى الأرض، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء و إليه ترجعون.

و من أراد زيادة الإيضاح و البيان عن الجمال و الشقادف، و طريق الحج بالبر، و المحطات للقوافل، و عن عوائد العرب و البدو، و عن الحجاج فى كل عام، فليراجع كتاب "مرآة الحرمين للإبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى.

هذا، و إننا و لله الحمد و الشكر، رأينا تلك الأيام المباركة و رأينا هذه الأيام الزاهرة، فهناك فرق كبير بين العهدين، و بون شاسع بين الزمنين، فأين ذهبت تلك الجمال و تلك الشقادف و الهودج، فأليك تفصيل ذلك:

سبق أن ذكرنا أن الناس كانوا ينتقلون منذ العصور القديمة بواسطة الحيوانات و الأنعام، فلما اخترعت الوسائل الحديثة من القطارات و السيارات و الطائرات، صاروا ينتقلون بهذه الوسائل المبتكرة، و لكن لم يكن شىء من تلك الوسائل وصلت إلى الحجاز بعد. ففى سنة (١٣٤٠) ألف و ثلاثمائة و أربعين هجرية، وصلت أول سيارة لملك الحجاز الأسبق الشريف الحسين بن على بمكة المكرمة، رحمه الله تعالى، قدمها إليه هدية التاجر الهندى المسمى "بالكندوانى"، لكنه رحمه الله تعالى، ما كان يستعملها إلا نادرا، حيث لم تكن الطرقات معبده و حيث لم يألف إلا ركوب الخيل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠٦

فلما استولى جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، رحمه الله تعالى، على الحجاز فى سنة (١٣٤٣) هجرية، شاء الله عز و جل، أن تتطور البلاد من حالة إلى حالة أعظم فى المدنية و العمران، فكان أول بادرة لهذا التطور، وجود السيارات بمكة المشرفة و جدة و المدينة المنورة و غيرها، و ذلك فى سنة (١٣٤٦) فتألفت من أهالى البلاد بعض الشركات لإحضار السيارات من الخارج، فاشتغلوا بها برهه من الزمن، و الأرض لم تتعبد بالإسفلت لسير السيارات، فكانت الجمال إذا رأت هذه السيارات و سمعت صوتها، نفرت عنها و هربت من طريقها سواء كانت داخل البلدة أو خارجها، ثم أخرجت الأرض كنوزها من معدن الزيت، حتى صارت الحكومة السعودية من أغنى الحكومات العربية، فتقدمت حياة الناس فى جميع المرافق تقديما محسوسا ملحوظا.

فكانت الحكومة تستورد الكثير من السيارات على اختلاف أنواعها، لجميع أفراد الأسرة المالكة كبيرا كان أم صغيرا و لموظفى الحكومة أيضا، و قامت الشركات و بيوت التجارة تستورد منها أنواعا مختلفة لبيعها من الناس، و قامت الحكومة تعبد الطرقات و الشوارع و المسالك بالإسفلت، حتى صارت جميع مدن المملكة مرتبطة ببعضها، و استغنى الناس عن ركوب الحيوانات، و هجروا استعمال الجمال و الخيل و الحمير. أما وجود البسكليتات و الدراجات النارية، فقد كانت موجودة قبل سنة (١٣٤٣) هجرية بالحجاز، لكن بصورة قليلة جدا بعدد الأصابع، فكان الناس يسمون البسكليتات حمار الشيطان، لأنها تمشى بسرعة و على عجلتين، فلما أصلحت الطرقات و الشوارع و عبت بالإسفلت، و كثرت السيارات، كثرت أيضا البسكليتات و الدراجات النارية.

فما أتت علينا سنة (١٣٧٣) هجرية، و هى السنة التى توفى فيها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله تعالى، إلا و ليس بالحرمين الشريفين جمال و شقادف لنقل الحجاج مطلقا، حتى لقد صارت كلمة "شقدف" من الكلمات الغريبة التى تحتاج إلى شرح و بيان، أما الشقادف فهى معمولة من أعواد الخشب و الحبال، فقد ذابت أو صارت طعمه للنيران، و لكن أين ذهبت تلك الآلاف المؤلفة من الجمال التى كانت تحمل الحجاج قبل السيارات؟ إنها ذهبت فى بطون الأودية و شعاب الجبال، تذبح فتؤكل لحومها، أو تحمل ضعاف البدو من مكان إلى مكان، فلم تبق لهم بها عناية كعنايتهم السابقة، فسبحان الكبير المتعال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠٧

رب العزة و الجلال، الذى له ملك السموات و الأرض، لا إله إلا هو العزيز الجبار.

و مما يجب ذكره: أن مكة شرفها الله تعالى و أدام أمنها و أمانها كانت من سنة (١٣٤٨) ألف و ثلاثمائة و ثمان و أربعين هجرية، فما قبلها إلى العصور السابقة، إلى عصر الإسلام و ما قبله أيضا، يسودها الهدوء و السكينة فى جميع أنحاء ليل و نهارا. فلما كثرت بها السيارات من بعد السنة المذكورة إلى الآن، كثر الضوضاء فيها و زاد الضجيج بها من هدير السيارات و أصوات عجلاتها، فسبحان مغير

الأحوال.

انظر: صورة رقم ٤٥، ناقتان على كل منهما راكب من العرب.

و انظر: صورة رقم ٤٦، جملان يقودهما أحد الأعراب.

و انظر: صورة رقم ٤٧، الجمال باركة بشارع المعلا بمكة و بجوارها السيارات.

و انظر: صورة رقم ٤٨، بعض الجمال وفوقها أكياس الحبوب بالمدينة المنورة.

و انظر: صورة رقم ٤٩، قافلة من الجمال تمشى في أحد شوارع منى.

و انظر: صورة رقم ٥٠، جزء من قافلة الحجاج وهم على الشقادات فوق الجمال في أحد شوارع جدة قاصدين مكة المشرفة قبل سنة

١٣٤٥ هـ.

و انظر: صورة رقم ٥١، الجمال وهي محملة بالشقادات يجلس فيها الحجاج.

و انظر: صورة رقم ٥٢، رتل من السيارات ناقلات الحجاج.

المشقات التي كانت تعترض الحجاج سابقا و بيان مسافات الطرق

مما لا جدال فيه، أن طريق الحج من جميع جهات مملكتنا في عهدنا الحاضر السعيد، طريق معبد للمسير و السيارات ممهد بجميع اللوازم و الضروريات التي قد يحتاج إليها الحاج، من زاد و ماء و وقود و إسعافات، أما الأمن و الأمان، و الأرزاق الوافرة بدون حساب، فحدث عنها و لا حرج، و قد شاع ذلك في الخافقين، كل هذا أولا بفضل الله عز شأنه و برحمته العميمة، ثم بعناية حكومه جلالة ملكنا الملك فيصل بن عبد العزيز، زاده الله توفيقا و عزا.

أما في الأزمان السابقة و العصور الماضية، فقد كانت طريق الحج محفوفة بأنواع المخاطر و المشقات، و لنذكر ما حكاه بعض المؤرخين عن ذلك فنقول:

قال صاحب الرحلة الحجازية، الذي حج في عام (١٣٢٧) هـ، في كتابه المذكور

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠٨

عند الكلام على الطريق إلى الحرمين ما نصه: كانت طريق الحجيج إلى بيت الله الحرام كلها مشقات و أخطارا في الزمن السابق، بما كانت تلقيه يد الطبيعة في سبيلهم من الشدائد الطبيعية التي كانت تفتك بسوادهم في الطريق من حر الصيف وقر الشتاء، أو جفاف ماء الآبار في هذه الصحراء المحرقة، و ما كان يدهمهم فيها من السيول التي أشد ما حصلت في سنة (١١٩٦)، حيث اجتاحت نصف الحجيج المصري بين مكة و المدينة، و عدا هذه الشدائد الطبيعية، فكثيرا ما كانت توقع بهم يد أشرار الأعراب، و أفص ما وقع لهم في سنة (١٢٠٠)، و كان أمير الحج المصري أمسك بعض لصوص حرب في طريق المدينة، و وسهم بالنار على خدودهم فصرخت صرختهم، و تلاحقت به قبائل حرب، و حملوا عليه، فهرب مع عسكره، و وقعت الحجاج بين أيديهم فأفنوهم عن آخرهم، و أخذوا ما كان معهم من سلب و ذخيرة. و كثيرا ما كان تجاذب السلطة بيد أشرف مكة و بعضهم، أو حربهم مع قبائل الأعراب، أو اختلاف أهل مذهب مع أهل مذهب آخر، يقفل في وجوه الحجاج أبواب مكة أو المدينة بعد وصولهم إلى هذه أو تلك، فيرتدون عن الأولى من غير تأدية المناسك، و عن الثانية بدون زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه و سلم و يعودون إلى بلادهم، و قد أضافوا على متاعبهم الأولى مشقات جديدة تزيد في شدتها عليهم آلامهم المعنوية من حرمانهم من أمنيته، فتضعف قواهم و تخور عزائمهم، و غالبا ما كانت تشتتهم يد الفوضى و تعرض بهم حال الضعف إلى النهب و السلب، كل ذلك كان يحصل لحجاج بيت الله الحرام.

و الناس لا يمنعهم عنه مانع و لم يسمع أنهم انقطعوا عنه من أنفسهم في سنة من السنين، اللهم إلا ما قعد ببعضهم من غير جزيرة العرب أيام القرمطي و الوهابي، لأن الطريق كانت مقطوعة عليهم، و لم يسمع بأن جميع المسلمين أهملوا هذا الواجب مطلقا، و لم يقف أحد

منهم بعرفه من مبدأ الإسلام إلى الآن، إلا في سنة (٦٥٤) التي لم يحج فيها أحد للفتنة التي كانت بين الأشراف على إمارة مكة. لذلك كان الحجاج إذا طلوعوا إلى أداء هذه الفريضة كانوا أول ما يستعدون على سلاحهم كأنهم سائرون إلى دار حرب، لا إلى دار قد أمن الله فيه حياة الإنسان والحيوان، بل وحياة الأشجار، فإذا عادوا إلى بلادهم استقبلهم أهلهم وذوهم بالطبول والزمور، فيقيمون لهم الأفراح والليالي الملاح، بعد أن يعدوا لهم كل ما فيه راحتهم ورفاهيتهم، من نقش الدور وتجديد ما قدم عهده فيها من فرش وغيره، لا فرق في ذلك بين أمير أو فقير. وكانت الطبقة الصغرى، وهي سواد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٠٩

الحجاج وأكثرهم مشقة طبعاً، تزوق لهم واجهات منازلهم: فيرسمون عليها صورة المجلد و قافلته و حرسه، و يرسمون إلى جانبها نخلة قد ربط إلى جذعها سبع و ضبع في سلسلتين من حديد، و بقرب منهما رجل قد أشهر سيفه في يده إشارة إلى أن صاحبنا حفظه الله، تغلب بقوته و شجاعته على ما صادفه في طريقه هذا من المخاطر و المهالك.

لذلك كان و لا يزال لقب الحاج عند سواد المسلمين أشرف الألقاب التي يتحلى بها صدر أسماء الطبقة الصغرى، و هو يدل على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبان، فإذا قيل لواحد منهم: يا حاج فلان، يعني يا أيها الشهم الشجاع، أما إذا لقب به الشيوخ و الكهول، فإنما يكون ذلك إشارة لكمال يقينهم و متانة دينهم الذي تحملوا في طريقه الأهوال التي تشيب منها الأطفال.

على أن طريق الحاج أصبح اليوم أقل صعوبة منه في أمسه، لذلك ترى الحاج في عودته بأبسط مما كان يستقبل به في الزمن السابق. و قليلاً ما تراهم بمصر يرسمون شيئاً على دور الطبقة الفقيرة، اللهم إلا محملاً يسير في جنده و إلى جانبه مركب بخارى، أو قطار سكة حديد، مما لا شيء فيه من معنى المشقة التي كان يصادفها الحاج في طريقه في الزمن السابق. و في الحقيقة فإن طريق الحاج اليوم أقل صعوبة و أكثر أمناً منه بالأمس، بل لا نسبة بين الحالتين بالمره، ما دام طريق الحرمين أصبح محل اهتمام دولتنا العلية، فلا بد أن يأتي يوم قريب يتذلل ما بقى فيه من الصعوبات، خصوصاً إذا تحقق خبر تسيير الطريق الحديدي بين المدينة و مكة، و بين هذه و جدة، و الله الهادي إلى سواء السبيل. انتهى من الرحلة الحجازية.

فحمد الله تعالى الذي أذهب تلك المشقات عن طريق الحج في عهدنا الزاهر الميمون، و جعله سهلاً مسوراً لكل قاصد من غنى أو فقير، اللهم أكثر علينا من خيراتك و فضلك، و عاملنا بإحسانك و رحمتك، و أصلح أحوالنا باطنا و ظاهراً حتى نكون أهلاً لرضائك و إكرامك بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣١٠

الطريق من مكة إلى المدينة سابقاً

إشارة

نذكر هنا الطريق التي كان الحجاج يسلكونها من مكة إلى المدينة في العصر السابق، لأن في ذكرها معرفة الأماكن التي هجرت اليوم، بسبب وجود السيارات (الأتومبيلات) و التي لها طريق ممهدة بالإسفلت، و بسبب الطائرات أيضاً.

قال البتوني في كتابه "الرحلة الحجازية" عن ذلك ما يأتي:

تقوم قوافل الحجاج من مكة إلى المدينة المنورة، فيسيرون في واحدة من أربع طرق، على حسب تبعية المقوم و الجمالة إليها، و هذه الطرق هي: السلطاني، و الفرعي، و الغاير، و الشرقي.

و الطريق السلطاني هو أحسنها سيرا و أكثرها ماء. فإذا قامت القافلة منه خرجت من باب العمرة، و سارت إلى الشمال الغربي، و تمر

على المحطات الآتية:

وادي فاطمة/ و يجري فيه ماء عذب يأتي من السيول التي تنزل من جبال الطائف، و به مزارع كثيرة، و يسكن فيه عرب الأشراف، من ذوى حسين و ذوى غالب، و يسكن في المنطقة التي بينه و بين مكة إلى بحرة بنو لحيان.

عسفان/ ماؤها قليل، و في طريقها عقبه لا تسع إلا جملا جملا، و العرب الذين يسكنون في هذه الجهة بشور (بشر) و حمران.

خليص/ بها بئر التفل، و ماؤها غزير و يسكنها قبائل زبيد، و بقرب منها واحة بها مياه جارئة، و فيها بساتين و نخل.

القديمة/ (القضية) قرية على البحر، و مساكنها أكواخ صغيرة، و ماؤها من الحفر التي يخزنون فيها ماء الأمطار، و أهلها من زبيد، و يشتغلون في الغالب بصيد البحر، و منها يتجه الطريق نحو الشمال.

رابغ/ و هي قرية على البحر الأحمر، و فيها قلعة بها بعض الجند العثماني، و ماؤها من الحفر و الآبار، و أهلها من زبيد. و يأتي إلى مياهها بعض السفن الصغير ليشتري ما يصيده أهلها من الأصداف و غيرها، و ينزلون إليها خفية كثيرا من الدخان و غيره من الأشياء الممنوعة، و على الخصوص الأسلحة و ما يلزمها من ذخيرتها، و يبعونها بأثمان رخيصة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣١١

/ جدا.

مستورة/ ماؤها غض (و منها طريق إلى بدر، إلى الصفراء و يسمونه الملف)، و يسكن هذا الطريق قبائل صبح في بدر، و الأحامدة في الصفراء.

بئر الشيخ/ و تسكنها قبائل صبح. و المياه على طول هذا الساحل لا ترعى الصابون.

ديار بنى حصاني/ ماؤها غض، و يسكنها صبح و الحوازم.

الحمران/ و هي قرية بها نهر عذب، و فيها بساتين و نخيل، و يكثر فيها البرتقال و الليمون و الموز و الحناء، و يزرع بها كثير من الخضر كالقتاء و البطيخ و غير ذلك، و يسكنها الحوازم، و منها ينثنى الطريق إلى الشمال الشرقي.

الجديدة/ و هي قرية ماؤها عذب، و بها قبر ولى الله سيدى عبد الرحيم البرعى المصرى، و تسكنها قبائل الحوازم و الأحامدة. و منها يميل الطريق قليلا نحو الشرق.

بئر عباس/ و يسكنها جانب من الحوازم و صبح و الأحامدة، و ماؤها قليل، و منها يميل الطريق إلى الشرق قليلا.

بئر درويش/ و يسكن هذه الجهة قبائل الأحامدة و الرحلة (بكسر الراء و فتح الحاء).

آبار على/ و يسكنها قبائل عوف و عمرو، و ماؤها عذب و هي على مسافة نحو خمسة كيلو مترا من المدينة، و تترك فيها القوافل شقادفهم و سحالبهم حتى لا يدفعوا عليها قوشانات في دخولها على المدينة، و من يريد أن يدخلها بمحملة دفع عليه الرسوم المعتادة من جيبه، و ربما طلب منه الجمال أكثر من اللازم فليتدبر.

الطريق الفرعى

و الطريق الفرعى يبتدى من رابغ متجها إلى الشمال الشرقي، و يمر على المحطات التالية: وادي حرشان.

نقر الفار- و هو محجر ضيق منحدر، تمر منه الجمال جملا جملا، و يسكنه بنو سالم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣١٢

بئر رضوان- و ماؤها عذب.

أبو ضباع أو أم ضباع- و ماؤها عذب، و يسكنها بنو عوف.

الرياض أو وادى الريان- و ماؤها عذب و شجرها كثير، و يسكنها بنو عمرو.
الغدير- و فيه مجرى ماء.
وادى المعظم- ماؤه عذب.
بئر الماشى- ماؤها عذب حلو، و يسكنها بنو عوف.

طريق الغاير

و طريق الغاير يبتدى من رابع أو من مستورة، و يقطع جبل الغاير إلى الشمال، و هو أقل هذه الطرق مسافة فإذا وصل المسافر إلى الغاير صعد من عقبة عالية تشرف على هاوية عميقة طريقها ضيق جدا، بحيث لا يسع إلا دابة دابة. و هذا الطريق خطر فى صعوده و هبوطه و خصوصا على الركاب، و مع ذلك تسير فيه الدواب بسهولة لأنها متعودة عليه، و مسافة الصعود إلى ظهر هذه العقبة لا تقل عن ست ساعات. و يسكن الغاير و منحدراته قبائل اللهبه و مسروح، و هما شر العرب على الحجاج. و هذا الطريق يسمونه الطريق المدنى، لأن أهل المدينة يستسهلونه فى حجهم لقربه، فيركبون هجنهم أو حميرهم أو خيلهم و يسرون فيه قوافل قوافل. و لهم منازل ينزلون فيها حيث يكون الماء، و يقيمون فيها ريثما يأكلون و يصلون، ثم يستأنفون السير إلى مكة. و كثير من الحجاج الأقوياء الخفاف الأثقال، و خصوصا من المصريين، كانوا يصحبونهم من المدينة إلى مكة، و من مكة إلى المدينة عقب أيام التشريق مباشرة، و ينتظرون بالمدينة، حتى إذا جاءت القوافل إليها انصرفوا معها إلى ينبع.
و كانت حارة من المدينة تكون قافلة تسير تحت زعامة شيخ هذه الحارة، و يسمون ذلك ركبا فيقولون "ركب فلان حضر إلى مكة، أو قام منها فى يوم كذا" و كذلك الحال فى زيارة أهل مكة للمدينة المنورة قبيل شهر رجب.
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-2، ص: 313

الطريق الشرقى

و الطريق الشرقى يخرج من مكة من باب المعلى، و يتجه إلى البياضية، ثم يسير فى طريق، شمال طريق منى، و يتجه إلى الشرق، و يمر على المحطات الآتية:
بئر البارود/ ماؤها عذب.
وادى الليمون/ و يكثر فيه شجر الليمون و النارنج و الليمون الحار، و يزرع فيه البطيخ و الخضر. و فيه ماء جار ينزل إليه من جبال الهدى، و يسير فى مجرى مبنى إلى بساتينه و غياضه. و منه يتجه الطريق نحو الشمال.
الحفاير/ (الضريبة) مياهها عذبة، و قريبة من سطح الأرض.
بركة سمره/ لا ماء فيها مدة الصيف.
بركة المسلح/ (حارة) ماؤها غزير و بساتينها كثيرة.
الحيط/ (الضبعة).
سفينة/ (سفينة) و بها نخل و آبار عذبة.
السويرجية/ (السويرقية) قرية يسكنها سادات من بنى حسين و بها آبار و مزارع كثيرة.
الحجرية/ و يبعد الماء عنها بنحو ربع ساعة.

غرابه/ أو غراب، وفيها مياه كثيرة على عمق ذراع أو ذراعين من سطح الأرض.
الغدير/ أو الحنك، وبعضهم يكتبها الحنق، وفيها بركة كبيرة تملأ من مياه الأمطار.
سيدنا حمزة./ المدينة المنورة.

وعربان هذا الطريق من التريود واللهبة وعتيبة ومطير والرحلة، وهم أبعد العرب عن الحضارة.
انتهى من الرحلة الحجازية للبنونى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣١٤

نظام القوافل

ثم بعد ما تقدم من الكلام، قال صاحب الرحلة الحجازية المذكور تحت عنوان "نظام القوافل" ما يأتي:

قلنا أن الحجاج لا يخرجون من مكة إلى المدينة إلا في ركب القافلة التي تكون جمالتها من أهل الطريق الذي يسرون فيه، وغالبا ما تكون جمال الحجاج تابعة لجمال واحد، وهو الأحسن، أما لو كانت تابعة لجمالين، فتكون مشغوليته أكبر، وتعبه بينهما أعظم. وعلى كل حال فعلى الحاج أن يجتهد في تخفيف أحماله و أثقاله، فإذا كملت شحنة القافلة، نهضت الجمال بجمالهم، وأخذوا يقطرونها في بعضها قطارا واحدا أو قطارين بجوار بعضهما، وفي المقدمة يكون غالبا أكبر الركب وجاهة و عصبية، و جمال كل رجل تسير من خلفه مقطورة في جملة، و منهم من يرى تقدمها على جملة حتى تكون على الدوام تحت نظره، خوفا عليها من عبث العابثين.
و الجمل عندهم ينقسم إلى قسمين، جمل الشقذف: و يركبه اثنان و معهما اللازم من فراشهما و مؤنتهما اليومية، و جمل الحمل، و يقال له العصم، يحمل المتاع و يركب فوقه رجل واحد أو رجلاين، إن كان المتاع قليلا. و أجره العصم في الغالب ثلثا أجره جمل الشقذف الذي يكون من الجمال المتينة القوية، حتى يتيسر له حمل ما فوقه. و ليس لهذه الأجرة من رابطة، بل يقدرها الشريف كل سنة باتفاقه مع الوالى، على حسب أهوائهما و تحت رحمتها بضيوف الله، ثم ينادى بها المنادى فى الأسواق، و لذلك تراها كالترموتر ترتفع و تنخفض على نسبة مطامع و لاء الأمور بمكة. و لقد كانت أجره الشقذف فى سنة ١٣٢٨ ست ليرات عثمانية من مكة إلى المدينة إلى ينبع، أما قبل الدستور فقد بلغت ١٣ جنيها مصريا و نصف، كانت تؤخذ من الحاج فى مكة بواسطة المطوف، و هذا عدا ما كان يصيبه من الجمال فى طريقه من طلبه زيادة على الأجرة المذكورة مدعيا بأنه لم يصله شىء من أجرته.
و عليه، فإذا كان الحاكمون فى بلاد العرب من الأخيار البعيدين عن المطامع، كانت الجمال على أخلاقهم، و العكس بالعكس، (و الناس على دين ملوكهم).

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣١٥

و المطوفون بعد أن يتفقوا مع الجمال على حمل حجاجهم يسافرون غالبا إلى المدينة فى قافلتهم بحجة المحافظة عليهم، و كثيرا ما يغمر الجمال بضعايف الحجاج، ف يأخذون الأجرة منهم، و يخبرونهم بأن الجمال خارج البلد، و يرجونهم فى أخذها من هناك حتى يوفروا عليهم دفع القوشان (كلمة تركية معناها المكس، و هو عوائد تأخذها الحكومة على الجمال الخارجة من مكة أو جدة أو المدينة أو ينبع، و ليست لها قيمة مخصوصة، بل ترتفع و تنخفض على نسبة مطامع ذوى الكلمة هناك، و ربما بلغت ريالين أو أكثر قبل الدستور، مع أن الذى يرد لخزينة الدولة منها ستة قروش فقط)، فإذا خرج الحجاج المساكين من مكة لا يجدون إلا جمالا ضعيفة ضئيلة ينالهم منها مشقات جسيمة، و كثيرا ما يتركونها و يسرون على أقدامهم جل مسافة الطريق أو كلها.

و القافلة لا تنتظم عادة إلا بعد أول محطة، حيث ينظم الجمال جمالهم، و يرتبون قطاراتهم التى لا يخالفونها طول سفرهم.

و الجمال فى الغالب نحيفو الجسم رفيعو الساقين قصار القامة، يكاد أن لا يكون فى جسمهم عضل بالمره، أما عظمهم فهو الحديد أو أشد صلابه، و لهم قدرة على العدو بحيث لا يلحقهم فيه أحد، و لقد رأيت رجلا منهم يعدو وراء جمل شارد، حتى تعلق بذيله فعاقه

عن الجرى، ثم أمسك بزمامه، أما ملابسهم فهي قميص عليه حزام من الجلد به عادة سكين طويلة أو سيف صغير، و في أيديهم عصا غليظة قصيرة، يسمونها المطرقة، و على رؤوسهم تلك الصمادة "الكوفية" التي يلفونها عليها بأشكال مختلفة، و بعض عرب الشروق و اليمن يستعملون غير الطاقية شيئا من الخوص يشبه البرنيطة الواسعة، إن لم تكن هي، و يسمونها الظلة.

و بعض الجمال يلبس نعلا في رجله تقيها من حرارة الأرض و حصائها. أما نظافة ملابسهم، فلا يمكنني أن أقول لك عنها غير أنها إذا اتصلت بجسومهم لا- يخلعونها مطلقا حتى تنخلع هي عنها، و هذا لا- يكون إلا إذا أكل عليها الدهر و شرب، و المترفون منهم يغيرون ملابسهم كل سنة مرة في موسم الحج، و بعضهم يلبس عباءة من الصوف أيام الشتاء تقيهم شدة البرد يسمونها مشلحا، و لون هذه الملابس كلون الجبال أو الرمال، فتراها صفراء قاتمة أو حمراء طويية، و ربما كان اختيارهم لهذه الألوان حتى لا ترى بسهولة من بعد، بل يشكل فيها الأمر على

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣١٦

الرائي، و في ذلك ما لا يخفاك من الفكرة التي أساسها الخبث و الغدر، و ربما أخذ من هذا تغطية الاستحکامات الجديدة في أوروبا بطبقة ترايبية، تشبه أرض المنطقة المحيطة بها، و بعض كبراء الحجيج يعطون جمالهم عباءة من الجوخ الأحمر، فيفرحون بها فرحا عظيما، و تقع في نفوسهم موقعا حسنا، و يتباهون بها على اقرانهم ... إلى آخر كلامه الطويل عن وصف الجمال التي أضربنا عنها صفحا، لعدم احتياجنا إليها، مكتفين بما ذكرناه. انتهى من الرحلة الحجازية للبتوني.

الطريق المسلوك من مصر إلى مكة

و بمناسبة كلامنا عن طريق الحج، نذكر أيضا ما جاء في كتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة" للإمام السيوطي رحمه الله تعالى، للإحاطة و التبصرة. فقد قال فيه ما يأتي: ذكر الطريق المسلوك من مصر إلى مكة، شرفها الله تعالى. قال ابن فضل الله في المسالك: المحامل السلطانية و جماهير الركبان لا تخرج إلا من أربع جهات و هي: (مصر، و دمشق، و بغداد، و تعز اليمن)، قال: فيخرج الركب من مصر بالمحمل السلطاني، و السبيل المسبل للفقراء و الضعفاء و المنقطعين بالماء و الزاد و الأشربة و الأدوية و العقاقير و الأطباء و الكحالين و المجبرين و الأدلاء الأئمة و المؤذنين و الأمراء و الجند و القاضى و الشهود و الدواوين و الأمناء و مغسل الموتى، في أكمل زى و أتم أبهة، و إذا نزلوا منزلا أو رحلوا مرحلا تدق الكوسات و ينفر النفير ليؤذن الناس بالرحيل و النزول. فإذا خرج الركب من القاهرة، نزل البركة على مرحلة واحدة، فيقيم بها ثلاثة أيام أو أربعة، ثم يرحل إلى السويس في خمس مراحل، ثم إلى نخل له خمس مراحل، و قد عمل فيها الأمير إلى ملك الجو كندار المنصوري، أحد أمراء المشورة في الدولة الناصرية ابن قلاوون بركا، و اتخذ لها مصانع، ثم يرحل إلى أيلة في خمس مراحل و بها العقبة العظمى، فينزل منها إلى حجز بحر القلزم، و يمشى على حجزه حتى يقطعه من الجانب الشمالي إلى الجانب الجنوبي، و يقيم به أربعة أيام أو خمسة، و به سوق عظيم فيه أنواع المتاجر، ثم يرحل إلى حفل مرحلة واحدة، ثم إلى بر مدين في أربع مراحل، و به مغارة شعيب عليه الصلاة و السلام، و يقال إن مأوها هو الذى سقى موسى، عليه الصلاة و السلام غنم بنات شعيب. ثم يرحل إلى عيون القصب في مرحلتين، ثم إلى المويحة في ثلاث مراحل، ثم إلى الأزلم في أربع مراحل، و مأوه من أقبح

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣١٧

المياه، و هناك خان بناه الأمير إلى ملك الجو كندار و عمل هناك بئرا أيضا. ثم إلى الوجه في خمس مراحل و مأوه من أعذب المياه، ثم إلى أكرى في مرحلتين و مأوه أصعب ماء في هذا الطريق، ثم إلى الحوراء، و هي على ساحل بحر القلزم، في أربع مراحل، و مأوها شبيه بماء البحر لا يكاد يشرب. ثم إلى نبط في مرحلتين و مأوه عذب، ثم إلى ينبع في خمس مراحل و يقيم عليه ثلاثة أيام، ثم إلى الدهنا في مرحلة، ثم إلى بدر في ثلاث مراحل، و هي مدينة حجازية و بها عيون و جداول و حدائق و بها فرضة المدينة الشريفة.

ثم يرحل إلى رابغ في خمس مراحل، و هي بإزاء الجحفة التي هي الميقات، ثم يرحل إلى خليص في ثلاث مراحل، و بها بركة عملها الأمير أرغون الناصري، ثم إلى بطن مر في ثلاث مراحل، و في طريقه بئر عسفان، ثم يرحل من بطن مر إلى مكة المشرفة مرحلة واحدة، ثم يرجع في منازلها إلى بدر فيعطف إلى المدينة الشريفة، فيرحل إلى الصفراء في مرحلة إلى ذي الحليفة في ثلاث مراحل، ثم إلى المدينة الشريفة في مرحلة، ثم يرجع إلى الصفراء و يأخذ بين جبلين في فجوة تعرف بنقب علي، حتى يأتي ينبع في ثلاث مراحل، ثم يستقيم على طريقه إلى مصر. انتهى من حسن المحاضرة.

و جاء في الجزء الرابع عشر من كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي، الذي فرغ من تأليفه سنة (٨١٤) أربع عشرة و ثمانمائة من الهجرة، عن المراحل الموصلة إلى الحرمين ما يأتي:

معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة المشرفة و المدينة النبوية

على ساكنها سيدنا محمد أفضل الصلاة و السلام و التحية و الإكرام، إذا كانت من تمتة الطرق الموصلة إلى بعض أقطار المملكة و كما ضبطت تلك بالمراكز فقد ضبطت هذه بالمراحل، و عادة الحجاج أنهم يقطعون في كل يوم و ليلة منها مرحلتين بسير الأثقال و ديبب الأقدام، و يقطعونها كلها في شهر بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة و ينبع نحو ستة أيام، أما من يسافر على النجب مخفا مع الجد في السير، فإنه يقطعها في نحو أحد عشر.

ثم ذكر القلقشندي أسماء المراحل من مصر إلى مكة، و نحن نذكرها هنا عنه، لكن لا على ترتيب كتابه، و إنما نحن جعلناها على شكل جدول، و هو هذا:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣١٨

عدد/ أسماء المراحل / ملاحظات ١/ من القاهرة إلى البركة/ و هي معرفة ببركة الحاج

٢/ البويب/ و هي معرفة ببركة الحاج

٣/ الطليحات/ و هي معرفة ببركة الحاج

٤/ المنفرح/ و هي معرفة ببركة الحاج

٥/ مراكع موسى/ و هي معرفة ببركة الحاج

٦/ عجرود/ و بها بئر و مصنع ماء متسع يملأ منها

٧/ المنصرف/ و بها بئر و مصنع ماء متسع يملأ منها

٨/ وادي القباب/ و هو كبير الرمل

٩/ أول تيه بني إسرائيل/ و هو واد أفيح متسع

١٠/ العنق/ و هو واد أفيح متسع

١١/ نخل/ و بها ماء طيب

١٢/ جسد الحي/ ...

١٣/ بير بيدرا/ ...

١٤/ تمد الحصا/ ...

١٥/ ظهر العقبة/ ...

١٦/ سطح العقبة/ و هو عرقوب البغلة على جانب طرف بحر القلزم، و فيها ماء طيب من الحفائر

١٧/ حفن/ على جانب بحر القلزم " و هو البحر الأحمر " و فيها ماء طيب من الحفائر

- ١٨/ عش الغراب / ...
- ١٩/ آخر الشرفة / ...
- ٢٠/ مغارة شعيب / و بها ماء و مصنع
- ٢١/ وادى عفان / ...
- ٢٢/ ذات الرخيم / ...
- ٢٣/ عيون القصب / و به ماء نابع، و أجمه قصب نابتي فيها
- ٢٤/ المويلحة / و بهاء ماء فى آبار
- ٢٥/ المدرج / ...
- ٢٦/ سلمى / مجاور بحر القلزم، و بهاء ماء ملح
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣١٩
- ٢٧/ الأتيلات / ...
- ٢٨/ الأزمن / و الناس يقولون الأزلم باللام بدل النون، و به آبار بها ماء ردىء يطلق بطن من شربه، لا يسقى منه غالبا إلا الجمال، و هو نصف الطريق
- ٢٩/ وادى عنتر / ...
- ٣٠/ الوجه / و به آبار قليلة الماء و هو داخل الوادى يعز الماء فيه غالبا و لا يوجد فيه إلا حفائر، و يقال إنه إذا طلعت الشمس عليه نضب ماؤه، و فيه يقول من حج من الشعراء و عز عليه وجود الماء فيه: إذا قلّ ماء "الوجه" قلّ حياؤه و لا خير فى (وجه) بغير حياء، و الحيا المطروفة تورية. و فى رواية: إذا قلّ ماء "الوجه" قلّ حياؤه و لا خير فى "وجه" إذا قلّ ماؤه.
- ٣١/ المحاطب / ...
- ٣٢/ أكر / ...
- ٣٣/ رأس القاع الصغير / ...
- ٣٤/ قبر القروى / ...
- ٣٥/ كلخا / ...
- ٣٦/ آخر القاع الصغير /
- ٣٧/ الحوراء / و بهاء ماء غير صالح
- ٣٨/ العقيق / بضم العين تصغير عقيق بفتحها، و هو مضيق صعب
- ٣٩/ مغارة نبط / و بها ماء عذب ليس بطريق الحجاز أطيب منه
- ٤٠/ وادى النور /
- ٤١/ قبر أحمد الأعرج الدليل /
- ٤٢/ آخر وادى النور / ...
- ٤٣/ رأس السبع و عرات /
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢٠
- ٤٤/ دار البقر /
- ٤٥/ ينبع / و هى النصف و الربع من الطريق، و بها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها، و بها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العود و

يستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم.

٤٦/ المحاطب في الوعر/

٤٧/ رأس وادي بدر/ و هي منزلة حسنة بها عيون تجرى و حدائق

٤٨/ رأس قاع البزوة/

٤٩/ وسط قاع البزوة/

٥٠/ رابع/ و هو مقابل الجحفة التي هي ميقات الإحرام لأهل مصر، و بها يحرم الحجاج و لا يغشون الجحفة، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه و سلم، بنقل حمى المدينة إليها بقوله "و انقل حماها إلى الجحفة، فلو مر بها طائر لحم."

٥١/ قديد/ بضم القاف

٥٢/ و عقبه السويق/

٥٣/ خليص/ و به مصنع ماء

٥٤/ عسفان/ ...

٥٥/ مدرج على/ و هو كثير الوعر

٥٦/ بطن مر/ و العامة يقولون "مرو" بزيادة الواو، و به عيون تجرى و حدائق

٥٧/ مكة المشرفة/ شرفها الله تعالى و عظمها

٥٨/ منى/ و بها ماء طيب من آبار تحفر

٥٩/ المشعر الحرام المزدلفة/ ...

٦٠/ عرفة/ و هي الموقف و إليها ينتهي سفر الحجاج

انتهى كل ما ذكر من كتاب صبح الأعشى، و نحن قد وضعنا نص كلامه على هذه الصورة في هذا الجدول.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢١

الطريق من مصر إلى الحرمين قديماً و حديثاً

تختلف المدة اللازمة للإنسان ليصل إلى الحرمين الشريفين من بلدته بحسب قرب الأقطار أو بعدها، فقد ذكر العلامة الباجوري، رحمه الله تعالى أن عادة أهل مصر الخروج منها للحج في اليوم السابع و العشرين من شوال، و عوده إليها في آخر شهر صفر هـ. يعنى: أن الحاج المصرى يقضى في طريق الحج أربعة أشهر كاملة ذهاباً و إياباً في عصر لم تكن فيه بواخر سريعة و لا قطارات و لا سيارات و لا طائرات، فإذا كانت المدة تطول إذا أتى الحاج من البلاد البعيدة و الأقطار النائية، كمن يأتى من أقصى السودان و أقصى العراق و تركستان و بخارى و الهند و السند و الصين و جاوة و غير ذلك، و بالضرورة تكون النفقات اللازمة كثيرة أيضاً، بحسب بعد المسافات و قربها، و بحسب وسائل الركوب القديمة و الحديثة. ذكرت جريدة المدينة المنورة بعددها (٦٤٣) في ٦ ذى الحجة عام ١٣٧٥ هـ أن رجلاً من البنقال من باكستان الشرقية وصل إلى المدينة حاجاً ماشياً على قدميه من بلاده، و قد مر بصحراء راشبوتا بالهند، و صحراء بلوجستان الخطيرة، و صحراء دشتبلوت بـ إيران، و قدم المدينة عن طريق النجف و حائل، و غادر المدينة إلى مكة ماشياً أيضاً، و قد قال هذا الحاج إن له أكثر من ستين و نصف و هو يمشى قاصداً الحج هـ. و ليس بمستغرب أمر هذا الرجل حيث لم يستعمل شيئاً من وسائل الركوب.

أما المسافر بوسائل الركوب الحديثة العصرية الآن، كالتائرات و السيارات و القطارات و البواخر العظيمة السريعة، فيكفى أسبوع واحد أو أقل للحاج المستعجل لقدمه و رجوعه إذا ركب طائرة، و الله تعالى أعلم بما سيحدث في المستقبل من الاختراعات العجيبة، التي

لم تكن تخطر بالبال.

ولنذكر هنا كيفية الوصول سابقا من مصر إلى الحرمين الشريفين "مكة و المدينة"، وقد اختصنا الكلام عن مصر دون سائر البلدان لأمرين: الأول: لما لمصر من المكانة المرموقة الثابتة في قلوب جميع الأمم. والثاني: لأن حجاج أغلب الممالك كانوا في السابق يخرجون من بلادهم فيهبون مصر أولا، ثم يسرون إلى الحرمين، كبلاد المغرب و السودان و السنغال و بلاد التكرور و بلاد الشام و الترك و القوقاز و بخارى و غيرها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢٢

و لنقل هنا ما جاء عن طريق الحج في الأزمان السابقة من كتابين:

(الأول): كتاب تاريخ مكة المطبوع سنة ١٣٧٢ هـ و يقع في ٤٥٠ صحيفة، و مؤلفه صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد السباعي المكي، فقد ذكر طريق الحج في كتابه في أربعة مواضع بصورة مختصرة مفيدة.

(الثاني): كتاب الرحلة الحجازية للأستاذ محمد لبيب البتونى المصرى، و قد طبع للمرة الثانية سنة (١٣٢٩)، و يقع في ٣٣٤ صحيفة، و قد ذكر طريق الحج و طريق المدينة بصورة مطولة مفيدة فائدة جليئة.

و لنبدأ بما جاء في كتاب تاريخ مكة المذكور لما فيه من الاختصار المفيد الذى يرسخ سريعا فى الأذهان، فنقول: جاء فيه بصحيفة ١٤٧ ما نصه:

و قد كان الحجاج أغلب ما يفدون فى هذا العهد "أى عهد الفاطميين" من طريق مصر، يصلون إليها من الأندلس و المغرب و إفريقيا، برا و بحرا، كما يصلون إلى الشام من بلاد الترك و القوقاز و بخارى و القرم و القازان و شمال روسيا و سيبيريا و جزائر البحر الأبيض، ثم يسافرون إلى مصر ليجتمعوا مع من اجتمع فيها من غيرهم بالقاهرة، و من ثم يفصل بعضهم بعد شهر رمضان إلى السويس، حيث تقلهم المراكب الشراعية إلى جدة، و يمضى الكثيرون مصعدين فى الصعيد إلى قوص برا، أو من طريق النيل و يستغرق ذلك نحو عشرين يوما، ثم يتجهون إلى عيذاب أو القصير فى أعلى الصعيد على شاطئ البحر الأحمر، حيث ينتظرون المراكب التى تقلهم إلى جدة، و قد يستغرق انتظارهم فى الميناء نحو شهر، كما يستغرقهم السفر منها إلى جدة عشرة أيام.

و كانوا يستقلون مراكب غير محكمة و أشرعتها من حصير، و أصحابها يتعسفون بالحجاج، و يشحنون فيها أكثر من حمولتها، و لذلك كانوا يتعرضون لأخطار البحر، كما أن بعض المراكب كان يغرق بالفعل.

و كان يحكم عيذاب و القصير بدوى من عرب البجاه، و مندوب يمثل حكومة مصر، و كان الحاكمان يتوليان استيفاء رسوم الحجاج فى عيذاب، نيابة عن صاحب مكة و يقتسمان معه الواردات.

و كان عرب البجاه يتولون كذلك نقل الحجاج فى صحراء الصعيد فوق جمالهم، و فى البحر إلى جدة على مراكبهم الشراعية، و كانوا يرهقون الحجاج

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢٣

باستغلالهم، و ربما عرضوهم للطريق المعطش ليموتوا فيستولوا على متاعهم.

انتهى.

و عرب البجاه أو البجه، يقال إنهم من البربر و كانوا يسكنون فى صحراء مصر الشرقية من سواكن إلى قرية يقال لها الحزبة فى صحراء قوص، ا.هـ.

و جاء فيه أيضا بصحيفة ١٦٩ ما نصه: و فى هذا العهد "أى عهد الأيوبيين"، بدأ سبيل الحج يتحول معظمه من طريق عيذاب و القصير فى الصعيد، إلى العقبة شرقى مصر حيث ينحدرون برا إلى شمالى الحجاز، فقد سافرت شجرة الدر على رأس قافلة من الحجاج من ذلك الطريق، فتحولت القوافل إليه، و كان يقلها (محمل) على شكل هودج، اتخذ فيما بعد شعارا لقافلة المصريين، ثم قلدهم فيه

بعض الأمم من المسلمين.

وحج ابن جبير في هذا العهد من طريق عيذاب، فوصف القوافل التي كانت تسير بين قوص وبينها، وقال إن المترفين فيها كانوا يمتطون (الشقاديف) وهي أشباه المحامل، يوصل منها اثنان بالجبال وتوضع على البعير ولها أذرع قد وضعت بأركانها، ويكون عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عديله، يطالع فيها متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب، ومن شاء فمن يستجير اللعب بالشرنج أن يلاعب عديله تفكها.

والذي أقوله، أن هذا الوصف يشبه وصف (الشقاديف) التي كنا نركبها فوق الإبل ولا تزال بقاياها إلى اليوم. ويفهم من هذا أن استعمال الشقاديف لم يكن خاصا بالحجاز، بل كان مستعملا في مصر، انتهى.

نقول: قال في كتاب قاموس الأمكنة و البقاع، لجامعه على بهجت، وكيل دار الآثار العربية بمصر، عن عيذاب ما يأتي: قال ياقوت: هي بليدة على ساحل بحر القلزم "البحر الأحمر"، وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد، ومنها تعدى إلى جدة. وقال المقریزی: وهي ثغر على البحر الأحمر مسامه تعوص بينهما مسيرة سبعة عشر يوما، وكانت من أعظم مراسى الدنيا، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحاج الصادرة والواردة، وكان لأهلها من الحجاج والتجار فوائد لا تحصى، وكان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقررة وكانوا يكارونهم الجلاب (مراكب مخصوصة) التي تحملهم إلى جدة، ومن جدة إلى عيذاب، فيجتمع لهم من ذلك مال كثير.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢٤

وفي بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ في جزائر قريبة منها، يخرج إليها الغواصون في وقت معين من كل سنة في الزوارق فيقيمون هنالك أياما، ثم يعودون بما قسم لهم من الحظ. والمغاص فيها قريب القاع، وكان تجار الهند واليمن والحبشة متى وصلوا ببضائعهم إلى عيذاب، يسلكون الصحراء إلى قوص، ومنها يبحرون إلى مدينة مصر، فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة أهله بما يصدر أو يرد من قوافل الحاج والتجار، حتى كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحوهما توجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لا يتعرض لها أحد، إلى أن يأخذها صاحبها، أقول وقد دثرت هذه المدينة. انتهى من كتاب قاموس الأمكنة و البقاع.

وجاء في تاريخ مكة أيضا، بصحيفة ٢٣١ ما نصه: وكان طريق الحجاج قد انتقل في أواخر عهد الأيوبيين من القصير و عيذاب إلى طريق العقبة، كما أسلفنا ذلك، ثم ما لبث أن أخذ هذا الطريق أهميته في عام (٦٦٠)، حيث سير الظاهر بيبرس البندقداري قافلة الحجاج منه، وأرسل معها كسوة الكعبة ومفتاحها الذي صنعه لها. ثم عنى الشركسة بتنظيم السير في هذا الطريق عما كان في عهد الأيوبيين، وأول من نظم شؤون السير، هو أحد الأمراء المصريين واسمه جمال الدين، فقد سافر والده أميرا للمحمل في عام (٨٠٩)، فعنى الولد بترتيب القافلة عند وصولها إلى عجرة وهي محطة قبيل السويس، فأمر بكتابة أكابر الحجاج، ورتب سيرهم في مكان معين من القافلة، بعد أن ضبط طليعة القافلة وساققتها بجماعة من العسكر، وجعل الأموال تتوسطها.

والطريق بين السويس والعقبة شاق جدا، تسوخ في رماله خفاف الجمال، وبتيه في بيئاته المسافرون فلا يهتدون إلا بأنصاب من الحجر بنيت على الطريق لهدى المسافرين، وكان الحجاج يعانون فيه من قلة الماء ما يعانون، وكانت المسافة بين السويس والعقبة زهاء (٣٠٠) كيلو، تقطعها قافلة المحمل، وهي أسرع القوافل سيرا، في أكثر من عشرة أيام. وتصدد القوافل في العقبة وتنيخ في مدينتها للراحة، فقد كانت محطة من محطات الحج المصري في هذا العهد الذي ندرسه، وكانت مصر تحشد من جنودها في قلعتها ما يكفي لتأمين طريق الحجاج، وكانت العقبة إلى ذلك ملتقى الحج السورى بالمصرى، فقد كانت قوافل السوريين تصل إليها من غزة، فتلتقى بقوافل المصريين، ثم ينحدرون إلى قرية أيلة، وهي المدينة القديمة التي اندثرت وقامت العقبة على أنقاضها.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢٥

وتنتقل قوافل الحجاج بعد ذلك إلى مدينة الوجه، فتصلها في أقل من نصف شهر، وكان في الوجه محافظ يحكم المدينة من

الشراكسة، و قاض ينظر في قضاياهم الشرعية، و جند يحافظون على الأمن، و سوق عام تعرض فيه السلع الواردة من الشمال و الجنوب و الغرب، و كان الطريق يتشعب بعد الوجه إلى العلا شرقا و ينبع جنوبا و المدينة المنورة من الناحية الجنوبية الشرقية، و بذلك كان سير القافلة يستغرق في العادة نحو شهر و نصف إلى المدينة أو مكة، و ذلك للقافلة ذات السير السريع.

و كانت ثمة طرق أخرى أكثرها برية تمضى فيها قوافل الشام و القدس، أهمها طريق العريش و طريق العلا، و هو الطريق الذى يقطعه المحمل الشامى من دمشق إلى المدينة في مدة لا تقل عن أربعين يوما.

و ظلت هذه الطرق عامرة بقوافل الحجاج إلى سنة (١٣٠١ هـ) حيث اتخذ الحج المصرى طريقه من السويس إلى جدة في المراكب الشراعية قبل استعمال البواخر كما سيأتينا. انتهى.

و جاء فيه أيضا بصحيفة ٣٢٨ ما نصه: و ظل طريق الحجاج طوال هذا العهد (أى عهد العثمانيين الأول) على حاله في عهد المماليك يأخذ سبيله من العقبة إلى الشام أو مصر، و قد عنى الخلفاء من بنى عثمان بمحطاته على طول الطريق، و كانوا ينفقون على تحصين القلاع في العقبة و المويلح و ضبا و الوجه من أموال الخزينه التركيه المصريه. و قد ظلت على ذلك إلى العهد العثمانى الثانى، حيث انتقل فيه طريق الحج من السويس بحرا في سنة (١٣٠١)، و استحوذ العثمانيون على قلاع العقبة و الوجه، ثم ألحقوها بإمارة مكة سنة (١٣١٠) ألف و ثلاثمائة و عشرة، و كان حجاج الهند يصلون إلى مكة برا من إيران و العراق، ثم ركبوا السفن الشراعية في أوائل هذا العهد من ميناء سورت بجوار بومباى.

انتهى كل ما ذكرناه من (تاريخ مكة) للأستاذ أحمد السباعى، و هو كما لا يخفى، كلام مختصر مفيد.

أما ما جاء في "الرحلة الحجازية"، فإنه كلام مطول مفيد جدا، لا يستغنى عنه الباحث المستقصى، حتى أنه جاء فيه أسماء المحطات التى كان يقطعها الحاج في طريق البر من القاهرة إلى مكة المشرفة، و المسافة التى بين كل محطة و أخرى مبينة بالساعات، ففى كل ذلك من الفوائد المتعددة ما لا يخفى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢٦

و إليك ما جاء فيها بصحيفة ٢٧ و هذا نصه:

كانت مصر، و لا تزال، طريق المسلمين إلى حج بيت الله الحرام، و زيارة نبيه عليه الصلاة و السلام، فى نصف الكرة الأرضية الغربية، باعتبار أن مكة المكرمة هى قلب العالم، أو النقطة المركزية التى تنبعث منها أنصاف أقطار إلى محيط جميع دائرة الأقطار، فالأندلسى الذى كان يسكن فى غرب أوربا، و المغربى الذى فى غرب إفريقيا، و ما دونه من مسلمى البربر فالسنغال، فبلاد التكرور، و السودان الغربى و الشرقى، كانوا إذا قصدوا الحج إلى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم إلى مصر بحرا أو برا، و لهذه الغاية كان يقصدها كذلك كثير من أهالى الشام و الترك و القوقاز و القريم و بخارى و قازان، و غيرهم من مسلمى شمال روسيا و سيبيريا و جزائر البحر الأبيض المتوسط. و يجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان، ثم يسرون منها إلى قوص، و مسافتها ٦٤٠ كيلو مترا كانوا يقطعونها برا أو فى النيل فى نحو عشرين يوما، ثم تسافر قوافلهم منها فى الصحراء الشرقية مدة ١٥ يوما، يقطعونها فى نحو ١٦٠ كيلو مترا إلى عيذاب أو إلى القصير على البحر الأحمر.

و كان كل من هاتين القريتين ميناء لمصر الشرقية من قديم الزمان، أى أنهما كانتا من مصر بالأمس مكان ميناء السويس الآن. و كانت الأولى منهما أهم من الثانية، و كلتاها كانتا فى أيدي عرب البجاه الذين كانوا يتولون نقل الحجاج.

قال صاحب الرحلة بصحيفة ٢٨: قبائل البجاه أو البجه يقال إنهم من البربر، و كانوا يسكنون فى صحراء مصر الشرقية من سواكن إلى قرية يقال لها الحذية فى صحراء قوص، و هذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد و الذهب و الفضة و الحديد، و فيها مغاير و آبار قديمة لاستخراجها، و هى طبعاً من عهد قدماء المصريين، و بعضها من عمل محمد على باشا والى مصر، و كانت العرب تستخرج منها المعادن و خصوصا (التبر) فى القرن الأول و الثانى للهجرة، و ذلك باتفاق مع ملك البجه الذى كان مقره (أسوان) ... الخ. ثم ذكر ما

كان بين ملك البجة وبين عبد الله بن الجهم الذى أرسله إليه أمير المؤمنين المأمون، و نص الاتفاق الذى حصل بينهما. و لم نقل ذلك حتى لا يطول بنا الكلام.

(و لرجع إلى موضوعنا) ليتصل الكلام بعضه ببعض قال صاحب الرحلة: على إبلهم فى هذه الصحراء و كانت أخلاقهم على غاية من الفطاعة، لا شفقة فيهم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢٧

و لا رحمة، و ربما بلغ بهم الأمر إلى تغيير طريق الماء على القافلة لغرض شنيع، و هو أن ركابها يموتون عطشا، فيستولون على متاعهم. و فى هذه الصحراء قبر العارف بالله أبي الحسن الشاذلى قرب مكان يقال له (أمتان)، توفى فيه سنة ٦٥٦ فى طريقه من المغرب الأقصى إلى الحجاز و دفن به.

و أهل هذه الجهة يعملون له مولدا سنويا من أول ذى الحجة إلى التاسع منه، و يقصد زيارته فى هذا المولد كثير من أهل الصعيد، و العربان المغاربة.

و كان الحجاج يقيمون فى عيذاب أو القصير نحو شهر من الزمان فى انتظار الفلايك التى تحملهم إلى جدة، و يسمونها جلابيا (واحدتها جلبة)، و هى سفن صغيرة غير محكمة الصنع، و شراعها فى الغالب من الحصير. و كان أصحابها يتعسفون بالحجاج، فيشحنونها بأكثر من حمولتها، و كثيرا ما كانت تغرق فى وسط البحر بمن عليها من الحجيج، الذين يذهبون ضحية مطامع أولئك الأشرار، و من وصل به طول عمره إلى جدة، وصلها فى نحو أسبوعين، يتقلب فى أثنائها بين تحكم الملاح، و تبرم الرياح، و انزعاج الماء و اضطراب الهواء.

و لقد حج من هذه الطريق ابن جبير الأندلسى سنة ٥٧٩، فقطع المسافة بين القاهرة و جدة فى نحو شهرين و نصف، قضاها فى أسوأ حال، بين مشقات و أهوال، مما هو مبين فى رحلته، و فى سنة ٧٢٥ سافر ابن بطوطة من مصر إلى عيذاب، و لكنه لم يجد فيها مركبا تحمله إلى جدة مع من قصدها من الحجاج، لأن السفن التى كانت بمينائها أحرقت فى واقعه حصلت هناك بين الترك و عرب البجاه، فعاد منها إلى مصر، و منها إلى بلاد الشام، ثم إلى بغداد و سافر منها مع المحمل العراقى فى السنة التالية. و كان يسكن فى هذه القرية (عيذاب) حاكمان:

حاكم بدوى من طرف شيخ قبائل الباجه، و آخر تابع لحاكم مصر و كانا يأخذان عوائد مرور عشرة جنيهات عن كل حاج مغربى، و سبعة على الحجاج الآخرين، و يقتسمان ما يتحصل بينهما و بين أمير مكة!! و استمرت هذه المكوس حتى أبطلها صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٩٠، زمن الشريف مكث بن عيسى، و رتب له شيئا عوضا عن نصيبه، ثم أعادها الأشراف من بعده على الداخلين من الحجاج إلى مكة، حتى ألزم الملك الناصر محمد بن قلاوون الشريف عطيفة بن أبى نمى سنة ٧٢١ بإبطالها، فى نظير ما رتبته إليه من القمح الذى كان يحمل إليه من مكة كل سنة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢٨

و الطريق بين قفط و القصير قديم جدا، فتحه رمسيس الثالث فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، لتداول التجارة بين مصر و بلاد اليمن و الهند و بلاد العرب، الذين كانوا كثيرا ما يهاجرون منها إلى مصر طلبا للتجارة أو للعيش فيها. و فى سنة ٣٢٠ قبل المسيح، أخذت هذه الطريق أهمية عظمى زمن بطليموس فيلادلفوس، و صارت القصير هى الميناء الوحيدة التى تصل تجارة البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندى و بالعكس، و هو الذى حفر أغلب الآبار التى فى هذه الطريق و بنى على طولها مخازن للتجارة، و أقام بجوارها قلاعا و رتب لها الخفر اللازم لحراستها، و هو الذى بنى مدينة بيرنيس، و قامت على أنقاضها فيما بعد قرية عيذاب (انظر عيذاب فى الخطط التوفيقية). و فى هذه الجهة إلى الآن أطلال مدينة قديمة، ذهب بعضهم إلى أنها أطلال مدينة أوفير التى كان سليمان بن داود يرسل بنى إسرائيل إليها، فى القرن العاشر قبل المسيح لاستخراج الذهب من ضواحيها و ورد ذكرها فى التوراة فى الإصحاح التاسع من أخبار

الملوك الأول.

و ما زال هذا الطريق هو الطريق الوحيد للحجاج المصري من القرن الأول إلى سنة ٦٤٥، التي سافرت فيها شجرة الدر مع قافلة الحاج إلى مكة لأول مرة عن طريق البر على العقبة. و في سنة ٦٦٠، أخذ هذا الطريق الأخير أهمية حيث سير الظاهر بيبرس البندقداري قافلة الحاج منه، و أرسل معها الكسوة التي عملها للكعبة، و المفتاح الذي أمر بصنعه لبابها الشريف، و من ثم أخذ يقل ذهاب الحجاج عن طريق عيذاب، و لكنها استمرت طريقا للتجارة بين الشرق و الغرب.

و يظهر أن عيذاب ابتدأت تسقط أهميتها شيئا فشيئا، بنسبة زيادة أهمية القصير، نظرا لأن لها خليجا طبيعيا يجعل مياهها على الدوام في أمن من التغيرات البحرية، حتى تلاشى أمرها بالمرءة، و لا تزال أنقاضها في جنوب القصير بمسافة عشرة كيلو مترات. و لقد اهتم العزيز محمد على باشا بطريق القصير عند سوق العساكر المصرية إلى بلاد الحجاز لحرب الوهابية، فمهد سبله، و أصلح آباره، و استمرت عنايته به بعد ذلك لاشتغاله باستخراج ما فيه من معادن الذهب و النحاس.

و هذا الطريق مطروق إلى الآن، و به دروب كثيرة تسمى مطارق، و أول محطة له بئر عنبر، و يسير إليها المسافر من قنا أو من قفط. و هذه البئر كانت ساقية قديمة أصلحها المرحوم إبراهيم باشا نجل محمد على باشا، و بنى بجوارها سيلا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٢٩

لسقى المواشى، و إلى جانبها مكانا له قباب معقودة لاستراحة المسافرين، و قرر في الرزنامجه إلى خادم هذه البئر ستة جنيها سنويا، لا تزال تصرفها المالية إلى من يقوم بأمرها. و من هنا يسير الطريق إلى الشمال الشرقي في درب يسمى مطرق جيف الكلاب (لأن هناك مغاير مصرية قديمة كان بها جثث كلاب كثيرة محنطة)، حتى يصل إلى محطة اللقيطة، و يقيم بها أناس من قبيلة العشابات من عرب العباددة، و هم فخذ من البجاه، و في هذه المحطة نخيل و جملة آبار، بعضها من عهد البطالسة. و لا يزال الطريق حتى يصل إلى محطة الوكالة، و بها آثار قديمة. و منها يسير في مطرق يسمى مطرق جيف العجول (و هناك مغاير كانت بها عجول كثيرة محنطة من التي كان يقدسها قدماء المصريين)، ثم في مطرق الحمامات و فيه خزانات مياه طبيعية، ثم في مطرق الكافر (و فيه آثار فرعونية و بئر حلزونية من الرخام، ينزل إليها بمائة و ثلاثة و أربعين درجة)، و من هناك يستمر الطريق إلى بئر الإنكليز (التي حفروها عند ما وصلت جنودهم بحرا إلى القصير، و منها ساروا إلى تلك الجهة متعقبين عساكر الفرنسيين وقت احتلالهم لمصر)، و ماء هذه البئر يبعد عن سطح الأرض بنحو أربعة أمتار. و منها يسير الطريق إلى العنجة، و بها نبع معدني مياهه كبريتية، و يقصده بعض الناس للاستشفاء به، و هناك مستنقعات كثيرة ينبت فيها السمار و الحكومة تبيعه سنويا للمصريين، و منها يستمر الطريق إلى القصير. و لقد كانت هذه المدينة في القرن الماضي عامرة، أهله بالسكان الذين كانوا يزيدون عن عشرين ألف نفس، و كانت من ضمن محافظات القطر المهمة.

و ما زالت طريق القصير مستعملة للتجارة، حتى عملت السكة الحديدية من القاهرة إلى السويس، في مدة سعيد باشا، عوضا عن العربات التي كان يسيرها محمد على باشا سنة ١٨٤٥ م بواسطة الخيل في طريق الصحراء لحمل السياح من القاهرة إليها، و كان لها ديوان مخصوص، يسمى ديوان المرور على يسار الداخل إلى الموسكى، و هو معروف الآن بسوق الخضار القديم. و مع كل هذا فقد استمرت القصير ميناء مهمة بين مصر العليا و الحجاز تنقل منها الحبوب إلى جدة، و ينقل من هذه السجاد و الفلفل و البن و السننا المكى، و خلاف ذلك من واردات الهند و غيرها. و كانت لها سوق كبيرة في قنا، حتى إذا حفر قنال السويس، و صارت ترسل كل هذه المحاصيل إلى أوروبا رأسا، قلت أهميتها، و أصبحت من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣٠

نحو عشرين سنة مأمورية صغيرة تابعة لمديرية قنا و إن كانت إدارتها في يد مصلحة خفر السواحل.

و كان بعض الحجاج يسافرون من السويس إلى جدة بواسطة المراكب الشراعية، فيقطعون مسافتها في نحو عشرين يوما، و لكن غالبهم

كان يسير برا عن طريق العقبة مع المحمل، أو مع غيره من القوافل التي كانت تقوم بها عربان مصر من أولاد على وغيرهم، فيصل إلى مكة في نحو خمسين يوما. و أول من رتب ركب الحاج على هذا الطريق و عقبه عند رحيلهم من البركة، الأمير جمال الدين الاستادار، عند ما سافر ولده شهاب الدين أميرا للمحمل سنة ٨٠٩، فكان إذا وصل الركب إلى عجرود (و هي محطة قبيل السويس) يأمر الأمير بكتابة أكبر الحاج، و يرتب كلا في مكان معين من القافلة و ذويه و خدمته، ثم يجمع الركب من الطليعة إلى الساقية، و يضبط أطرافه و نواحيه بجماعة من العسكر، بعد أن يسير أصحاب الحمول و الأموال في وسط الركب.

و طريق البر شاق جدا، و خصوصا في المنطقة التي بين السويس و العقبة، و هي لا تقل عن ثلاثمائة كيلو متر، كلها أرض رملية ناعمة، تسوخ فيها اخفاف الجمال قبل أقدام الرجال، و لا يهتدون فيها إلى الطريق إلا بواسطة نواطير أشبه شىء بطواحين الهواء أقيمت لهذه الغاية، و ماء هذا الطريق قليل و عناؤه كثير، و قد كان في بعض القرى التي عليه، مخازن للميرة و الذخيرة و مؤن الجمال و أمتعة الحجاج الذى كانوا يرسلونها إليها قبل سفرهم على سبيل الأمانة، في نظير أجره مخصوصه، تتوفر بها عليهم مشقة حملها في الطريق، و كان في هذه القرى فرق من الجند لحراستها. و بالجملة فإننا نورد لك أسماء المحطات التي كان يقطعها الحاج في طريق البر من القاهرة إلى مكة، و مسافة الركوب بين كل محطة و التي تليها بقافلة المحمل، التي هي أسرع من القوافل الأخرى لانتظام سيرها، و إحكام أمرها، و جودة جمالها.

ساعة/ من القاهرة ٦/ إلى بركة الحاج.

١٤/ إلى الدار البيضاء، و بها قصر عباس باشا الأول و يليها الدار الخضراء.

١٢/ إلى عجرود، و توجد في الجنوب الغربى من السويس على مسافة عشرين كيلو متر منها، و من هناك كان يرجع المرضى المنقطعون و المتعبون.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣١

٠٨/ إلى الناطور الأول، و الثانى و الثالث، و الأرض في هذه المسافة رملية ناعمة متقلبة من جهة إلى جهة أخرى عند هبوب الرياح بشدة.

٠٦/ إلى العلو.

١١/ إلى جنادل حسن، و أرضها رملية.

١٢/ إلى قرية نخل، و فيها نخل و شجر و قلعة و خان من عمل الغورى، و ساقية من عمل الملك الناصر حسن، و إلى جانبها ثلاثة أحواض تسع ٣٠٠٠ قرية تملأ في زمن الحج. و كان يرسل إليها أربعة من الثيران من طرف الحكومة، فلا تزال تدور في الساقية لملئ الحيطان حتى ترجع مع قوافل الحاج إلى مصر.

١٢/ إلى بئر قريص، و سميت أخيرا بئر أم عباس، لأن والده عباس باشا الأول أصلحتها، و ماؤها عطن.

٠٧/ إلى العقبة، و يصعد إليها المسافر بمنحه من مسافة طويلة من الغرب، حتى يصل إلى قمته، فإذا أراد أن ينزل إلى الجهة الشرقية، صار نازلا صاعدا و صاعدا نازلا في أرض حجرية تارة، و أخرى رملية ناعمة، و أخرى خشنة أو زلطية، إلى أن يمر في مضيق لا يسع إلا جملا جملا، و يسمى قطع لاز.

و طريق هذا القطع حلزوني تقريبا، أصلحه ابن طولون في القرن الثالث الهجرى، ثم محمد بن قلاوون في القرن الثامن، ثم عباس باشا الأول في القرن الثالث عشر، و مع ذلك فإن المسافر فيه لا بد أن ينزل عن دابته، و يسير على قدميه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولا، و ضعفها صعودا، و من دون هذه العقبة قرية العقبة و يسمونها أيلة، و فيها يفصل الحاج جميع المقطوعين الذين لا يمكنهم الاستمرار على السفر لمرضهم أو لفقيرهم، و يعطيهم المؤنة اللازمة من البقسماط، ثم يستأجرون لهم سنبوكا يسيره بهم إما إلى مصر أو إلى جدة، و كثيرا ما كانوا يصلونها بعد نزول الناس من عرفة. و من العقبة يتجه الحاج إلى جهة الجنوب.

٩/ إلى ظهر حمار، و في طريقها بين جبلين على البحر، لا يسع إلا جملا جملا.

١٤/ إلى الشرفا، و يسمونها أم العظام.

١٢/ إلى مغاير شعيب، و بها نخل و بساتين و مياه عذبة.

١٤/ إلى عيون القصب، و بها ماء و نخل و شجر سنط و عبل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣٢

١٢/ إلى المويلح، و فيها قلعة أنشأها السلطان سليم العثماني، بها بعض الجند لحراستها، و مناخها رطب غير جيد للصحة، و سكانها

يتجرون في الفحم الذي يصنعونه من شجر الطرفا الذي ينبت بكثرة في الوديان المجاورة لها.

و منها طريق إلى تبوك مسافة مائة كيلو متر.

١٢/ إلى سلمى (كفافه) و في طريقها مضيق شق العجوز، تسير فيه الجمال جملا جملا، و بهذا الوادي شجر الدوم و السنط و الطرفا.

١٢/ إلى اصطلب عنتر، و هو مكان متسع محاط بالجبال و فيه ثلاثة آبار.

١٢/ إلى الوجه، و سيأتي عليه في طريق المدينة، و منه يتشعب الطريق إلى العلا شرقا، و إلى ينبع جنوبا، و إلى المدينة المنورة جنوبا

بشرق.

١٦/ إلى عكرة، و لا ماء فيها.

١٢/ إلى الحنك، و لا ماء فيها.

١٢/ إلى الحوراء و فيها مضيق تسير فيه الجمال جملا جملا، و أرضها ذات رمل ناعم.

١٥/ إلى الخضيرة، و فيها معادن نحاسية و أرضها صلبة.

١٠/ إلى ينبع، و يدخلها المحمل و اكبا باحتفال عظيم، و هي ثغر المدينة المنورة على البحر الأحمر، و سنتكلم عليها في طريق المدينة.

١٨/ إلى السقيفة، و ماؤها مالح.

١٠/ إلى مستورة، و ماؤها حلو.

١٤/ إلى رابع، و هي قرية بينها و بين البحر نصف ساعة، و فيها قلعة بها بعض الجند لحراستها، و فيها مخازن تحفظ بها مؤن ركب

المحمل و ذخائره، و فيها صهاريج عذبة، و هي الميقات لمكة، و منها يتفرغ الطريق إلى المدينة ثلاثة أفرع: الطريق السلطاني، و

الطريق الفرعي، و طريق الغاير.

١٢/ إلى بئر الهندي أو القضيمة (و بعضهم يكتبها القديمة)، و هي قرية على البحر الأحمر ماؤها مالح، و منها يتجه الطريق إلى الجنوب

الشرقي.

٠٦/ إلى خليص، و بالقرب منها عيون ماء كثيرة تحيط بها مزارع و بساتين.

٠٨/ إلى عسفان، و هناك بئر ماؤها حلو يسمونها بئر التفل، و يقولون إن ماؤها كان مرا، فتفل فيه النبي صلى الله عليه و سلم، فصار

عذبا، و في طريقها ممران على طول نحو كيلو متر لا يسعان إلا جملا جملا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣٣

١٥/ إلى وادي فاطمة (وادي مر) أو مر الظهران، و منه إلى قبر السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه و سلم ثم إلى العمرة الجديدة

(التنعيم) و هي حد الحرم من هذه الجهة، و أقرب حدوده إليه، و منه إلى الزاهر ثم إلى مكة المكرمة.

٣٣٧/ المجموع

و على حساب أن الجمل يقطع في الساعة الواحدة أربعة كيلو مترات، تكون المسافة من مصر إلى مكة من طريق البر ألفا و أربعمائة

كيلو متر تقريبا، كانوا يقطعونها في نحو أربعين يوما على الأقل.

أما الآن، فالحاج المصري يركب السكة الحديدية إلى السويس و يبحر منها إلى جدة بغاية الراحة، و منها إلى مكة، فيصل إليها في أقل من أسبوع، و من الناس من يسافر إلى المدينة أولا بطريق السكة الحديد الحجازية، و بعد الزيارة يسافر مع القافلة إلى مكة، أو يرجع إلى مصر و منها إلى جدة، و منهم من يسافر بعد الحج إلى المدينة بطريق البر، و منها يعود إلى ينبع فالطور، أو يركب السكة الحديد الحجازية إلى الشام، و لكنه في هذه الحالة يصادف كثيرا من المشقة في ضرورة عودته إلى الطور لقضاء الحجر الصحي هناك. لذلك يرى الكثيرون أن أحسن حل للصعوبة التي في طريق الزيارة أنهم يعودون بعد الحج إلى مصر، و بعد انقضاء مدة الحج التي يلزمها الحجر الصحي عادة، يسافرون إلى المدينة بالطريق الحديدية، و يعودون منها إلى مصر مباشرة، انتهى كل ذلك من الرحلة الحجازية للبتونى.

و لا يخفى أن كلام صاحب الرحلة الحجازية، كلام طويل، لكنه واف بالغرض، و فيه جملة فوائد للمتأمل المفكر، فإين تلك الأحوال من الحالة التي نحن عليها اليوم، من انتشار الطائرات، و سير السيارات و القطارات و الباخرات، و الله يعلم ما سيحدث في المستقبل من وسائل التنقلات، فسبحان الذى بيده ملكوت السموات و الأرض، و هو الغنى عن العالمين.

كيفية مسير الحجاج من الشام إلى مكة قبل إنشاء الخط الحديدية

جاء فى الجزء الرابع من تاريخ الغازى عن ذلك ما نصه:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣٤

و ذكر الفاضل الشيخ محمد كرد على، فى كتابه خطط الشام، كيفية مسير الحجاج من الشام إلى مكة قبل إنشاء السكة الحديدية، و كيفية إنشائها فنذكر هنا ما ذكره بحذف و اختصار:

قال المذكور: كان الحجاج المسلمون يأتون ألوفا من جميع الأقطار الإسلامية إلى دمشق و يجتمعون فيها بانتظار سفر موكب الحج، و كان يتألف هذا الموكب فى دمشق، و يسير منها متوجها نحو البلاد المقدسة تحت إدارة حاكم عثمانى يلقب بأمر الحج، و كانت العادة أن يرحل أمير الحج من دمشق فى الخامس من شهر شوال، فى ركب مؤلف من جيش صغير مجهز بالأسلحة الكاملة، و المدافع الصغيرة، و يتبعه الحجاج زرافات و وحدات، و الدمشقيون يقومون بتشييعهم إلى قبر أحمد باشا فى الميدان إلى جامع العسالى، و تجرى المراسم العسكرية و الاحتفالات تكريما لهذا الركب العظيم، و كانت الحكومة فى دمشق تهتم اهتماما زائدا بتشييعه، و يسير الموظفون و أصحاب الرتب العالية بألبستهم الرسمية أمام المحمل تحيط بهم صفوف الجند و هجانة البدو حتى نهاية طريق الميدان، و كانت الموسيقى تصدح أثناء الموكب، و المدافع تطلق حين خروجه و عند وصوله إلى القدم، و بعد ذلك يسير الركب فى تقدم إلى الكسوة، ثم يسير إلى المزيريب، فىبقى فيها أربعة أو خمسة أيام، و عندئذ يتألف الركب عسكريا و على رأسه أمير الحج، فيسير قسم من الجيش فى المقدمة و القسم الآخر يقوم بحفظ جناحى الركب. و فى كل صباح و مساء تطلق ثلاث طلقات نارية إعلاما بوقت المسير و الوقوف، و كثيرا ما يبلغ طول هذا الركب ثلاثة أو أربعة كيلو مترات.

و كانت المسافة بين دمشق و مكة المكرمة تقدر بأربعمئة و تسعين ساعة، و بأربعين مرحلة منها ٩٠ ساعة من المزيريب إلى معان، و يجتاز الركب من المزيريب المغرق و عين الزرقاء و البلقاء و القطرانة، و هنا يشتد عليه الدرب صعوبته، و يدب الرعب و الخوف فى قلوب الحجاج، و ذلك لأنه كانت المضايق غاصة بعصبات من اللصوص، و الماء للشرب قليل، فإذا بلغ الركب مدينة معان يستريح فيها قليلا و يتابع سيره، فيقطع العقبات المؤدية إلى النفود و هذا المضيق الصعب يبعد ثلاث عشرة ساعة من معان، فيترجل الحجاج عن دوابهم مشاء أمام أمير الحج الذى يصعد على رأس جبل صغير، و يجلس مشاهدا الجموع تمر أمامه، و بعد ذلك يسير الركب و لا يشاهد فى طريقه سوى الرمال فى سهل النفود القاحل حتى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣٥

مدائن صالح مدة (١١٤) ساعة، وفيها كثير من الآثار النبطية، فمنها يسير الراكب إلى المدينة المنورة، وبعدها إلى مكة المكرمة. هكذا كانت حالة الطريق المؤدية إلى البلاد المقدسة، وهذه هي المشقات التي كان يلاقيها الحجاج في طريقهم، وهذا ما دعا الحكومة العثمانية في ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لإزالة هذه الصعوبات، فاهتم السلطان عبد الحميد الثاني، وقرر سنة ١٩٠٠ م مد خط حديدى يصل الشام بالحجاز، ويسهل السفر على الحجاج، ويأتى بالفوائد المادية والمعنوية على البلاد والدولة، ولم تبدأ الحكومة بالعمل إلا بعد أن أعلنت عزمها على ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية مما هو داخل تحت سيطرتها أو خارج عنها، وأبانوا ما ينتج عن ذلك من التسهيل لرواد الحج، واستمرت أكف المسلمين تعضيدا لهذا المشروع الدينى المحض، وبدأت الاكتتابات ترد من جميع البلدان الإسلامية.

انتهى من الغازى.

سفر الحجيج من المدينة المنورة إلى مصر

لقد ذكر الأستاذ محمد لبيب البتونى، صاحب الرحلة الحجازية، الذى حج فى سنة ١٣٢٧ هجرية سبع وعشرين و ثلاثمائة و ألف، الطريق الذى يسلكه الحجاج حين عودتهم من المدينة المنورة إلى بلادهم، ونحن ننقل هنا كلامه فى الرحلة الحجازية، للمقارنة بين زماننا و زمانه و لما فى كلامه من الفوائد المتعددة فقد قال رحمه الله تعالى، بصحيفة ٣٠١ ما نصه:

الطريق من المدينة ينقسم بالنسبة للحجاج إلى أربعة طرق، طريق نجد و لا يسلكه الآن إلا عرب تلك الجهات غالبا، و طريق الوجه: و هو الذى سلكه المرحوم سعيد باشا و الى مصر سنة ١٢٧٧ هجرية، حينما قصد زيارة قبر النبى المصطفى، عليه الصلاة و السلام. و محطات هذا الطريق هى: المدينة المنورة ثم آبار عثمان (و فيها ماء و مزارع و بساتين)، ثم محطة الضعين (و ماؤها قليل)، ثم محطة المليح (و ماؤها حلوى)، ثم محطة الشجوى (و ماؤها كثير)، و كانت مجتمع و مفترق المحملين الشامى و المصرى فى سفرهما معا برا، ثم محطة أبى الحلوى (لحلاوة مائها)، ثم محطة الفقارات (و لا ماء فيها)، ثم محطة الفقير (و ماؤها عذب) ثم محطة مطر (و لا ماء فيها) ثم محطة الخوثة (و ماؤها عذب)، ثم محطة أم حرز (و لا ماء فيها)،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣٦

ثم قرية الوجه. و منها كانوا يسيرون إلى السويس برا و بحرا. و طريق ينبع: و هو الطريق الأ-كثر استعمالا، و منه يرجع سواد الحجيج المصرى و الروسى و المغربى و السودانى و اليمنى و الجاوى و الهندى و غيرهم، و هذا الطريق ينقسم إلى شعبتين:

شعبة قبيل الحمراء تمر على ينبع النخل، و منها إلى ينبع البحر، و عربان هذا الطريق من جهنية، و أرضه رملية ناعمة، و الشعبة الأخرى بعد الحمراء و تمر على نقب الفار (نقب على)، و هو ممر صعب بين جبلين شاهقين، فى طريقه كثير من الأحجار الضخمة على طول نحو ٢ كيلو متر، و لا تمر منه الجمال إلا جملا جملا، و فى الغالب ينزل عنها ركبها لتعسر السير عليها فيه، و يسمون هذا النقب بقلعة حرب، لمنعة الجبال التى تشرف عليه، و منه يخرج المسافر إلى الصحراء التى توصله إلى ينبع البحر.

و هذا الطريق من الحمراء نصفه الشرقى للحوازم، و نصفه الغربى للأحامدة، و متوسط المسافة بين المدينة المنورة و ينبع ٢٣٠ كيلو متر، فإذا أضفنا إليها ٤٥٠ كيلو مترا ما بين المدينة و مكة، و ٤٠ من مكة إلى عرفه ذهابا و إيابا، و ٨٠ من جدة إلى مكة، يكون مجموعها ثمانمائة كيلو متر، و هى كل ما يركبه الآن الحاج المصرى برا، فإذا وصل الحجاج إلى ينبع انتظروا بها المراكب التى تقلهم إلى بلادهم، و غالبا ينتظرون فيها أياما كثيرة لعدم انتظام حركة نقلهم الناشئ عن قلة المراكب. و هناك يكثر عناؤهم و يسوء حالهم، و تشتد فاقتهم، و تفتك فيهم الأمراض لكثرة الأقدار التى تحيطهم من فضلاتهم، و خصوصا من عدم صلاحية مياه الشرب.

و قد رتبت الحكومة المصرية لهم كونداسة فى زمن الموسم ترشح لهم ماء البحر، و لكن عملها غير منتظم، و ماؤها لا يصرف إلا بإذن خصوصى لا يصل إليه فقراء الحجيج. و لا أظن إلا أن هذا من تعنت العمال الذين يجدر بحكومتنا السنية أن تشدد عليهم كل

التشديد في القيام بواجبهم.

و يا حبذا لو انتبعت إلى ذلك الحكومة العثمانية الجديدة، و أسعفتها شركات السفن و خصوصا الشركة الخديوية فإنهم يخففون عن الحجاج المساكين كثيرا من عناءهم مما تشكرهم عليه الإنسانية.

و من ينبع يصل حجاج مصر إلى الطور لتمضية أيام الكورتينا، إن كان هناك حجر صحي: و هو مكان فسيح على طول ٣٣ درجة و ٣٧ دقيقة، و عرض ٢٨

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣٧

درجة و ١٤ دقيقة، و بينه و بين السويس ١٢٥ ميلا، و من هناك تأتي بشائر الحجاج بوصولهم إلى مصر بالسلامة على لسان البرق أو البريد، و كانت قبلهما تصل عن يد بعض الأفراد الذين كانوا يحضرون من مصر لهذا الخصوص و يعودون من الطور أو الوجه بما يبشر أهل الحجاج بسلامتهم، نظير البقاشيش التي كانوا يأخذونها.

و الطور قرية صغيرة على شاطئ خليج السويس الشرقى، و أغلب سكانها من الأقباط و الأروام، و فى ضواحيها كثير من البدو، و يقرب منها عين ماء ساخن، عليها بناء لعباس باشا الأول يسمونه حمام موسى، و يقولون إنه نافع للأمراض الروماتيزمية، و على مسافة يومين بالجمال من هذه القرية دير الطور المشهور، و فيه بساتين تنتج كثيرا من الفاكهة، و فى شماله بشرق جبل المناجاة الذى كلم الله عليه موسى و ذكره فى القرآن الكريم فى غير موضع، و يقصد هذا الدير حجاج الروس بعد نزولهم من بيت المقدس، فيزورونه ثم يرجعون إلى بلادهم. و فى شرق هذه القرية محجر الطور، و هو فى نقطة صحية جدا، و فيه مباحر وافية بالغرض و أحذية مرتبة، و بناؤها نظيف، و فيه استشفيات (أى مستشفيات) على غاية من النظام، و لكل مرض قسم مخصوص منها. و لقد أصبح هذا المحجر بعناية الحكومة المصرية أحسن محجر صحي فى العالم. و لا شك أن بعض الصعوبات التى يلاقيها فيه الحجاج لابد و أن تزول قريبا بحسن عناية الحكومة و استمرارها على الاهتمام براحة الحجاج.

أما الطريق الرابع، فهو طريق السكة الحديدية إلى الشام، و هو الذى افتتحته الدولة العلية رسميا بأول قطار للمدعوين إلى هذا الاحتفال، و وصل المدينة المنورة فى ثالث شعبان سنة ١٣٢٦ هجرية، الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٨ ميلادية.

و تسافر عليه الآن حجاج الشام و الترك و الروسيا، و كثير من المصريين و خصوصا برسم الزيارة.

و إنا تميمنا للفائدة نقول لك: إن المسافة بين المدينة المنورة و دمشق الشام تبلغ ١٣٠٢ كيلو متر، و إلى حيفا ١٣٣٣ كيلو متر، تقطعها الوابورات فى أربعة أيام تقريبا، و متوسط سيرها فيها ٨٠ ساعة. و سير القطارات من الشام إلى معان على متوسط ٣٠ كيلو فى الساعة، و من معان إلى المدينة على متوسط ١٥ كيلو فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣٨

الساعة. و أجزتها فى الدرجة الأولى، من حيفا إلى المدينة، ذهابا و إيابا، أربعة عشر جنيها، و فى الدرجة الثالثة نصف هذا القدر، و ليس فيها درجة ثانية.

إلا أن عربات الدرجة الأولى ضيقة، و فى كل عين منها ستة مقاعد منفصلة بحواجز (مساند) ثابتة، و المسافر فيها إلى المدينة المنورة يعانى مشقات كبيرة، و خصوصا فى الليل الذى يقضيه كما يقضى النهار جالسا، و كان الأولى بها أن تكون ذات أربع مقاعد يمكن تجهيزها ليلا إلى أربعة أسرة لنوم المسافرين فيها.

لذلك ترى كثيرا من الركاب يفضلون ركوب الدرجة الثالثة، و خصوصا عربات البضاعة حيث يمكنهم أن يفرشوا بها فراشهم و ينامون و يجلسون على راحتهم.

و أملنا فى رجال الدولة، حرسها الله، أن يفكروا فى ذلك حتى تكون عربات الدرجة الأولى وافية براحة المسافرين فى هذه المسافة الطويلة.

و هاك جدولاً بمحطات الطريق الحديدي من دمشق إلى المدينة:

أسماء المحطات / المسافة بالكيلو / ارتفاع عن سطح البحر / الماء قدم شريف / ... / ١٩٨٦

كسوة / ٢١ / ٧٣٥

دير على / ٣١ / ٧٠٠

مسجد / ٥٠ / ١٦٢٠

جباب / ٦٣ / ١٦٤٣

خبب / ٦٩ / ١٦٢٤

محجة / ٧٨ / ١٦٠١

شفرة / ٨٥ / ١٥٩٩

أذرع / ٩١ / ١٥٨٧

خربة الغزالة / ١٠٦ / ١٥٧٥

الدرعا / ١٢٣ / ١٥٢٩

حالات عمار / ١٥٩٥ / ٧٦١

ذات الحج / ١٦٠٨ / ١٦٩١

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٣٩

ذات الحج / ١٦٠٨ / ١٦٩١

بئر هرماس / ١٦٣٢ / ٧٤٧

الهضم / ١٦٥٤ / ٧٥٤

المحطب / ١٦٧٧ / ٧٥٠

تبوك / ١٦٩٢ / ٧٧٥

وادي الأثيل / ٧٢٠ / ٨٤٤

دار الحج / ٧٤٤ / ٩٠٤

مستبقة / ٧٥٥ / ٩٥٠

الأخضر / ٧٦٠ / ٨٨٢

جميس / ٧٨٢ / ٩٠٨

نصيب / ١٣٦ / ٥٨٦

المفرق / ١٦٢ / ٧١١

خربة السمراء / ١٨٥ / ٥٥٨

الزرقاء / ٢٠٣ / ١٦٧

عمان / ٢٢٢ / ٧٣٧

القصر / ٢٣٤ / ٩٤١

لوين / ٢٤٩ / ٧٧٢

الجيزة / ٢٦٠ / ٧٢١

الضبعة / ٢٧٩ / ٧٥٢

خان زبيب / ٢٩٥ / ٧٨٢

دى يسعد / ٨٠٥ / ٩٦٤

المعظم / ٨٢٢ / ٩٨١

خشتم صنعاء / ٨٥٣ / ١٠٣٣

الدار الحمراء / ٨٨٠ / ١١٠٣

المطلع / ٩٠٤ / ١١٥١

أبو طاقة / ٩١٨ / ٩٦٦

المرجم / ٩٣٠ / ٩١٤

مدائن صالح / ٩٥٥ / ٧٨١

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٤٠

البدائع / ٩٩٩ / ٦٠٣

سواق / ٣٠٩ / ٧٥٨

قطرانة / ٣٢٦ / ٧٨٣

منزل / ٣٠٨ / ٨٤٠

فريفة / ٣٦٧ / ٨٩٣

الحسا / ٣٧٨ / ٨٢٢

جروف الدراويش / ٣٩٧ / ٩٥٨

عنزة / ٤٢٣ / ١٠٥١ / التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم ؛ ج ١-٢ ؛ ص ٣٤٠

دى الجردون / ٤٤٠ / ١٠٨٠

معان / ٤٥٩ / ١٠٨٤

غدير الحج / ٤٧٥ / ١٠٠٠

بئر الشيدية / ٤٨٧ / ٩٩٦

عقبة / ٥١٤ / ١١٥٢

بطن الفول / ٥٢٠ / ١١٢٥

وادي الرتم / ٥٣٠ / ٩٩٤

تل الشحم / ٥٤٦ / ٨٥٠

الرملة / ٥٥٥ / ٨٠٦

المدورة / ٥٧٢ / ٧٣٤

مشهد / ١٠١٢ / ٦٧٠

سهل المطران / ١٠٣٤ / ٦٠٠

زمرد / ١٠٤٩ / ٧١٤

البتري الجديد / ١٠٧٢ / ٧٣٩

- الطوية / ١٠٩٠ / ٦٧٠ /
 المدرج / ١١١٦ / ٤٦٠ /
 هدية / ١١٣٣ / ٣٨٥ /
 جداعة / ١١٥٥ / ٤٥٧ /
 أبو النعم / ١١٤٣ / ٤١٨ /
 اصطبل عنتر / ١١٨٩ / ٥٣٠ /
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٤١
 اصطبل عنتر / ١١٨٩ / ٥٣٠ /
 بوير / ١٢٠٨ / ٤٧٢ /
 ديار ناصف / ١٢٢٨ / ٤٨٩ /
 بواط / ١٢٤٧ / ٥٣١ /
 الحفيرة / ١٢٤٨ / ٥٤٠ /
 المحيط / ١٢٨٧ / ٧٥٠ /
 المدينة المنورة / ١٣٠٢ / ٦١٩ /
 انتهى كل ذلك من الرحلة الحجازية.

المسافات بين مكة و المدن الإسلامية الكبرى

إشارة

حسن جدا أن يذكر إبراهيم رفعت باشا، رحمه الله تعالى، في كتابه (مرآة الحرمين) في الجزء الأول، بصحيفة ٣٦٧، مقدار المسافات بين مكة المكرمة، و كبرى المدن الإسلامية في جدول خاص.
 قال: و هذا الجدول نقلناه عن درر الفرائد، المؤلف في القرن العاشر، و الذي عندنا منه نسخة خطية.
 قال: و بمقارنته ما ذكر هنا عن المسافة بين مكة و المدينة بما نذكره بعد عن المسافة بينهما، يمكنك أن تعرف مقدار الميل في القرن العاشر. هـ.

جدول المسافات بين مكة و أمهات المدن الإسلامية

أمهات المدن / ميل / الموقع بالنسبة لمكة المدينة / ١١٢ / في شمالها
 القدس / ٨٤٠ / في شمالها الغربي /
 الفسطاط / ٨٥٤ / ...
 دمشق / ٧٢٧ / في الشمال
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٤٢

بغداد/ ٦٤٢ في الشمال الشرقي

تعز/ ٤٧٦ في الجنوب

زبيدة/ ٤٧٦ في الجنوب الغربي

البلقاء/ ٦٨٠ في الشمال الغربي

الموصل/ ٧٨٤ في الشمال

أصفهان/ ٩٤٠ في الشمال الشرقي

السلطانية/ ١٠٦٤ ...

توريز/ ١٠٨٠ ...

نيسابور/ ١١٠٠ ...

هراة/ ١٣٤٤ ...

بلخ/ ١٥٩٠ ...

غزنة/ ١٧٣٨ ...

مرو الشاهجان/ ١٣٠٠ ...

هرمز/ ٢٠٧٠ ...

كابل/ ١٦٤٢ ...

الملتان/ ١٦٥٢ ...

رلى/ ٣٢٢٠ ...

الأحساء/ ٣٣٣ في الشرق

مهرة/ ٥٢٨ في الجنوب الشرقي

الطائف/ ٤٠ في الجنوب الغربي

البصرة/ ٦١٠ في الشمال الشرقي

الكوفة/ ٥١٠ ...

عيزاب/ ١٢٤ في الغرب

الطور/ ٨٠٠ في الشمال الغربي

بلاد صاعون/ ١٩٧٤ في الشمال الشرقي

كاشغر/ ١٩٧٤ ...

اسفيجاب/ ١٩٠٤ ...

فرغانة/ ١٧٤٠ ...

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٤٣

أطرا/ ١٣٩٠ ...

أسروسنة/ ١٧٨٠ ...

بدخشان/ ١٧٥٦ ...

ترمد/ ١٥٩٦ ...

- بخارى / ١٢٨٨ / ...
- سمرقند / ١٦٣٨ / ...
- كر كاج / ١٣٢٥ / ...
- السراى / ١٢٤٦ / ...
- البلغار / ٢٠١٦ / ...
- القرم / ١٥٧٠ / فى الشمال الغربى
- تانه / ١٤١١ / فى الشمال الشرقى
- كنايت / ١٨٠٦ / ...
- الكولم / ٣٧٨٠ / فى الجنوب الشرقى
- سرنديب / ٣٠٥٢ / ...
- الخنسا / ٥٤٣٢ / ...
- الزيتون / ٢٦٣٠ / ...
- خان بالق / ٣٩٣٤ / فى الشمال الشرقى
- قراقرم / ٤٩٩٨ / فى الشمال الغربى
- أشيليه / ٣٣٦٠ / ...
- قرنيطة / ٣٢٦٦ / ...
- أسنى / ٣٨٨٨ / ...
- سبته / ٣٢٢٠ / ...
- مراكش / ٢٦٣٢ / ...
- فاس / ٢٤٤٨ / ...
- تلمسان / ١٧٧٤ / ...
- طرابزون / ١٣٥٠ / فى الشمال الغربى
- كسطنونية / ١٥١٢ / ...
- قمصون / ١٤٢٨ / ...
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٤٤
- قونية / ١٢٣٢ / ...
- القسطنطينية / ١٦١٠ / ...
- رومية / ١٩٣٢ / ...
- غرناطة / ٣٢٥٠ / ...
- تونس / ٢٠٧٢ / ...
- غانة / ٢٢٤٠ / فى الجنوب الغربى
- جيمى / ٢٤٤٠ / ...
- جزمى / ١٠٢٢ / ...

أوقات / ١٣٣٠ / في الشمال الغربي

بيدسو / ١١٤٨ / في الجنوب الشرقي

قافه / ١٤١١ / ...

انتهى جدول المسافات بين مكة و أمهات المدن الإسلامية، من كتاب (مرآة الحرمين)، ولا يخفى على القارئ الكريم غرابة أسماء بعض البلدان في هذا الجدول التي لم نسمع بها في عصرنا، بينما توجد الآن كثيرا من البلدان الإسلامية الشهيرة لم تذكر في هذا الجدول.

وقد قال صاحب كتاب مرآة الحرمين، أنه نقل هذا الجدول من كتاب "درر الفرائد" المؤلف في القرن العاشر.

و في سنة (١٣٦٨) تقريبا، طبعت رسالة بمكة المكرمة في مسافات الطرق بين بلدان المملكة العربية السعودية مبين فيها جميع المدن و المحطات بالكيلومتر، أحببنا أن نقلها هنا، و لكن لطول الشرح تركنا ذلك، غير أننا نقلنا منها ما هو ضروري لازم للحجاج و أهل البلاد، و هو كما يأتي:

عدد/ المسافة بين البلدان/ كيلو متر ١/ بين مكة و جدة/ ٧٤

٢/ بين مكة و الطائف/ ١٣٥

٣/ بين مكة و منى / ٨

٤/ بين منى و مزدلفة/ ٥

٥/ بين مزدلفة و جبل الرحمة بعرفات/ ١٢

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٤٥

٦/ بين مزدلفة و مسجد نمره/ ٨

٧/ بين مكة و رابغ/ ٢١٢

٨/ بين رابغ و مستورة/ ٤٠

٩/ بين مستورة و المدينة المنورة/ ١٩٨

١٠/ بين مكة و المدينة المنورة/ ٥٠٠

١١/ بين مكة و الرياض/ ٩٥٧

بناء البيوت و المقاولات عليها بمكة

بناء البيوت و القصور بمكة المشرفة عمل معروف من قديم الزمان، و ربما تكلمنا عنه في مبحث الكلام على أمانة العاصمة أو في غيره، فبناء البيوت و القصور القديمة الموجودة منها إلى اليوم هو من عمل أهل مكة، فالبناؤون المكيون قد عرفوا عمل البناء على أكمل وجه بالتمرين و الممارسة العملية، لا- بالتعليم في المدارس، ففيهم من البنائين الحذاق و المهندسين المفكرين المهرة، من يفوقون الرجال المتعلمين في الخارج، بل إن هؤلاء ليقفون حيارى أمام معرفة البنائين الجهلاء و المهندسين الأميين، و هذه أعمالهم في بناء المنازل و القصور قائمة إلى اليوم و شاهدة على ذلك، و ليس هذا بمستغرب على أهل مكة الفضلاء النبلاء، الذين نشأوا حول بيت الله الحرام، و وقفوا على المشاعر العظام، و شربوا من ماء زمزم شراب الأبرار الكرام، و نسأل الله تعالى لنا و لهم حسن الختام، و السداد على الدوام.

انظر: صورة رقم ٥٣، الفن المعماري القديم في المملكة العربية السعودية

إن البنائين و العمال الذين يشتغلون تحت أيديهم و بإرشادهم، لهم درجات و ألقاب بينهم، فلا ينتقل أحدهم من عمل إلى عمل

أرقى، إلا بعد إذن من المعلم الكبير، وإذا صلح أحدهم بعد التمرين والعمل الكثير لأن يكون بناء يستقل في بناء البيوت بنفسه، أذن له المعلم الكبير بذلك بعد أن يشرب الجميع عنده قهوة اللوز المعمولة بالحليب. وكانوا إلى سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية يبنون من حجارات جبال مكة بعد تكسيها، فلما جاء الإسمنت إلى البلاد صاروا يبنون به.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٤٦

أما بناء البيوت و المنازل الحديثة الموجودة اليوم، و عمل المقاولات على هندستها و بنائها على الطراز الإفرنجي، فإنها لم تكن إلا من بعد ورود الإسمنت من الخارج إلى المملكة، و ذلك من سنة (١٣٦٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و ستين هجرية، حيث كثرت الأموال لدى الناس كثرة زائدة فائقة عن العهود الماضية، و بذلك تطورت أحوالهم و معيشتهم، و خصوصا بعد سفرهم إلى البلاد الأوروبية و مشاهدتهم هنالك مختلف الأمور و الأحوال، و من طبيعة الإنسان أن لا يصبر على حالة واحدة، مع العلم بأن البيوت المبنية بالإسمنت أشد حرارة من البيوت المبنية بالحجارة و الطوب.

انظر: صورة رقم ٥٤، الشيخ على هليكة من مشاهير المعلمين في البنايات القديمة و ألقاب الذين يشتغلون في بناء البيوت و العمارات بمكة المشرفة كالاتي:

(١) الرئيس و هو مهندس المنازل و العمارات، و تحت إمرته جميع العمال، و كلهم يشتغلون بأمره، و الرئيس و جميع أنواع العمال كلهم من مكة المشرفة ليس بينهم أحد غريب، و هذا قبل عصرنا الحاضر.

(٢) و المعلم و هو الذي يشتغل بيده في البناء، و هو المسؤول عن قوة البناء و ضعفه، يشتغل في البناء حسب ما رسمه له الرئيس من الهندسة و التخطيط.

(٣) و القراري و هو الذي يصلح الأحجار المأخوذة من الجبال، بمعنى أنه يكسر من أطراف الحجر كل ناتئ منه، و كل ما ضعف من أجزائه المستدقة، حتى يبقى نفس الحجر صلبا من جميع الأطراف كالمخدة.

(٤) الفلاتي بفتح الفاء و اللام المخففة، و هو الذي يأتي بالأحجار عند القراري ليصلحها.

(٥) المروّج بضم الميم و فتح الراء و كسر الواو المشددة، و هو الذي يناول المعلم النقل، بفتح النون و القاف، و هو الذي يناول المعلم الحجارات الصغار، و الحجارات الخفيفة الرقيقة ليضعها تحت الحجارات الكبيرة أو بينهما، حتى تستقيم و لا تتحرك.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٤٧

(٦) الخلاط و هو الذي يخلط التراب بالنورة و يعرف قياسهما و مقدارهما، ثم يعجن ذلك بالماء و يجعله طينا صالحا للبناء.

(٧) الطيان بتشديد الياء المفتوحة، و هو الذي يناول الطين للمعلم ليبنى به، يناوله في المكن بكسر الميم و سكون الراء، و هو ماعون خاص يوضع فيه الطين بقدر ما يحتمله الرجل و يمكنه رفعه و مناولته للمعلم.

كل هذه الأمور كانت في عمل بناء البيوت و العمارات بالأحجار الجبلية و النورة البلدية بمكة المكرمة المشرفة، و قد تغيرت بعض الأوضاع في العمارات الحديثة التي بالإسمنت المسلح، بل لقد اندثر العمل و البناء بالأحجار و النورة البلدية، فأصبحت البنايات كلها بالإسمنت و الحديد، و ياليت البناء بالإسمنت منع عن مكة المكرمة حتى لا يدخل شيء يماثل التراب كالإسمنت من خارج البلاد إلى حرم مكة المكرمة.

هذا، و كان نقل الحجارات التي تكسر من جبال مكة المكرمة، لبناء البيوت و العمارات في داخل البلدة، بواسطة الحمير، فيعملون لكل حمار من أخشاب الأشجار القوية، أربع مثلثات متساويات الساقين، ثم يجعلون كل مثلثين متقابلين بينهما نحو نصف متر، ثم يوصلون رأسهما بخشبة، كما يوصلون رؤوس ساقيهما بخشبة أيضا، ثم يجعلون بين ساقيهما خشبتين أيضا، فيكون كل مثلثين بمثابة قطعة واحدة وسطها خال، ثم يضعون كل مثلثين في جانبي الحمار من فوق البردعة، بعد ربط أطراف ساقيهما ببعض بحبل غليظ قوي، ثم يجعلون قطع الأحجار المكسرة من الجبال في داخل المثلثين من الجانبين، في كل جانب نحو أربعة أحجار أو خمسة بحسب كبر

الحجارة و صغرها، ثم يأتون بها فوق الحمير من محل تكسير الجبال إلى داخل البلدة في محل البناء. وكذلك كان نقل النورة بواسطة الحمير بعد وضعها في كيس من الخش، هكذا كان الحال في بناء المنازل و البيوت قبل وجود الإسمنت و وجود السيارات، فمنذ وجودهما عندنا، و بناء العمارات و البيوت بالإسمنت المسلح، بطل أخذ الحجارات من الجبال، و بطل استعمال الحمير، فله الأمر من قبل و من بعد.

انظر: صورة رقم ٥٥، عقد لديوان فنى جميل فى أحد بيوت مكة المكرمة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٤٨

بناء الصنادق و العشاش بمكة

الصنادق جمع صندوق، و هى صفائح من التنك تسمر على أعواد من الخشب، و تكون كهيئة الألواح الطويلة العريضة، طول بعضها أربعة أمتار و عرضها متران، و قد تزيد و قد تنقص، فتعمل من هذه الصناديق محلات و غرف أرضية بطبقة واحدة فقط، فتكون من هذه الصنادق مساكن شرعية كاملة تامة، و لهم فى عملها مهارة تامة.

أما العشاش فجمع عشة، و أطلق عليها ذلك تشبيها لها بعش الطائر، لأنها سهلة البناء و العمل، كما أنها سهلة الهدم و التخريب. و هذه العشاش تعمل من جريد النخل أو من أعواد الأخشاب و الحطب الطويلة، و تكون كل عشة على هيئة القبة و أسفلها واسع بمقدار أربعة أمتار من جميع أطرافها المستديرة، و قد يعمل بعضهم على الأرض حوشا واسعاً، و يبنى فيه عشاشا متعددة، فعشة للرجال، و عشة للنساء، و عشة لخبز الأظعمة، و عشة للنوم و هكذا، و بعضهم قد يزرع فى الحوش بعض الرياحين و شجرة النبق، و يحاط هيكل العشة و سقفها بالحصير، و لهم فى عملها مهارة فائقة، بحيث لو جاءت الأمطار لم ينزل عليهم من العشة شىء من الماء، اللهم إلا بعض قطرات.

و عمل العشاش و الصنادق بمكة المكرمة قديم من الأزمان الماضية، و قد كانت إلى عهد قريب محلة المسفلة، و محلة جروول، مليتان بالعشاش و الصنادق، و لزال فيهما بقية من ذلك، و غالب سكان هذه العشاش و الصنادق من السودانيين و الهنود، و قد زال كثير من هذه العشاش و الصنادق من مكة المكرمة منذ سنة (١٣٧٠) ألف و ثلاثمائة و سبعين هجرية، فلم يبق اليوم منها إلا القليل فى أطراف محلة جروول و محلة المسفلة، و هى على و شك الزوال أيضا.

و لا ندرى بالضبط من أين أتت إلينا صناعة العشاش و الصنادق، و الظاهر أنها أتت من أهل السودان "التكارنة"، و من أهل جاوه، و من أهل الهند، فإن فقراءهم يعملون هذه العشاش و هذه الصنادق، و قيل لنا إن بعض أهل جاوه يصنعون بيوتهم فى بلادهم من الخشب لسهولة نقلها من مكان إلى مكان، حيث تأتيهم المياه فى بعض الأوقات بكثرة، و الله تعالى أعلم بالغيب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٤٩

من علامات الساعة ظهور بناء البيوت على الجبال المحيطة بالكعبة المعظمة و كثرة وجود المياه بمكة المشرفة

علامات اقتراب قيام الساعة كثيرة، صرح ببعضها الأحاديث الواردة الصحيحة و قد جمع علاماتها بعض العلماء، و بعضهم ألف فى ذلك كتابا، ككتاب (الإشاعة فى أشراط الساعة) للعلامة البرزنجى، و لبعض عرب قريش بمكة المكرمة فى صدر الإسلام، نظريات صائبة و فرائد قوية، فلقد روى الإمام الأزرقى فى تاريخه فى الجزء الأول فى آخر ما جاء فى أسماء الكعبة، و لم سميت الكعبة ما نصه:

حدثنى جدى عن مسلم بن خالد عن ابن خيثم، عن يوسف بن ماهك قال:

كنت جالسا مع عبد الله بن عمرو بن العاص في ناحية المسجد الحرام، فنظر إلى بيت مشرف على أبي قبيس، فقال: أبيت ذلك؟ قلت: نعم. قال: إذا رأيت بيوتها- يعني بذلك مكة- قد علت أخشبيها وفجرت بطونها أنهارا، فقد أظف الأمر. قال أبو الوليد: قال جدى: لما بنى العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس داره التي بمكة على الضيافة، حيال المسجد الحرام، أمر أقوامه أن لا يرفعوها، فيشرفوا بها على الكعبة، و أن يجعلوا أعلاها دون الكعبة، فتكون دونها إعظاما للكعبة أن تشرف عليها، قال جدى: فلم تبق بمكة دار لسلطان ولا غيره حول المسجد الحرام تشرف على الكعبة إلا هدمت، أو خربت، إلا هذه الدار، فإنها على حالتها إلى اليوم. انتهى من تاريخ الإمام الأزرقى، رضى الله تعالى عنه.

فانظر، رحمنا الله وإياك إلى عظيم أدبهم و حرمتهم للكعبة المعظمة بيت الله الحرام، و ذلك منذ أيام الجاهلية و فى صدر الإسلام، و ما بعده، إلى ما بعد القرون الثلاثة التى هى خير القرون، و انظر إلى قلبه أدبنا و تهاوننا بحرمه الكعبة المشرفة و المشاعر العظام، بل و تهاوننا بأمر ديننا الحنيف فى هذا الزمن العصيب.

و انظر أيضا كيف امتلأت جبال مكة المشرفة على الكعبة المعظمة بالبيوت و المنازل، حتى علت على الكعبة، و كيف امتدت مواسير المياه فى بطون أرض مكة المكرمة، و كثرت خزانات المياه فيها، فلقد جرت المياه فى مكة فى زماننا هذا كالأنهار، بعد أن لم يكن بمكة فى الجاهلية و صدر الإسلام، غير ماء زمزم و بضعة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥٠

آبار فى أطرافها، لقد صدق كلام عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله تعالى عنه، و وقع ما أخبر به، و هو كان فى أول ظهور الإسلام، فلو كان حيا يرزق بيننا ماذا كان يحكم علينا؟ لقد اقتربت الساعة و الله، و كادت القيامة أن تقوم، فلقد ظهر إلى عصرنا الحاضر كثير من علامتها، فلم يبق منها إلا بعض العلامات الكبرى.

نسأل الله تعالى أن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها و ما بطن، و أن يختم حياتنا على الإيمان الكامل و العمل الصالح، و هو عنا راض بفضله و رحمته آمين.

نحت الحجارات من جبال مكة لبناء المنازل

بناء المنازل و القصور بمكة المكرمة يكون من الحجارات الصماء، المأخوذة من جبال مكة المشرفة و بينونها من تراب مكة و نورتها، و بقدر ما يزداد من النورة فى البناء تكون البيوت أقوى و أشد و مناجم النورة فى مكة كثيرة. و للعمال من أهل مكة مهارة فائقة فى تكسير الجبال و الصخور بالحديد و الألغام منذ زمن بعيد، و كانوا يبيعون الحجارات لعمل البناء بالمئات، فالمائة من الحجارة كانت تساوى كذا من الريالات، و كانوا ينقلون هذه الحجارات على ظهور الحمير من الجبال القريبة من مكة إلى نفس محل العماره بها، و كان هذا حالهم إلى سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمسة و سبعين هجرية، و هى السنة التى ورد فيها الإسمنت إلى مكة المشرفة بكثرة و افرة، و بعد السنة المذكورة صار الناس يبنون بيوتهم بالإسمنت، و أهملوا عمارتها بالحجارات، و بذلك بطل تكسير الجبال و أخذ الحجارة منها للعمارات.

و لأهل مكة مهارة عجيبة فى نحت الحجارات الصماء، و تكييفها بالشكل الذى يريدونه، فمنها الملساء، و منها الخشن، و منها للمستدير، و منها المربع، و منها الأسطوانى، و منها المخروطى، و منها الطويل، و منها القصير، و منها الغليظ، و منها الرفيع، و منها المنقوش المزخرف، و منها السادة التى لا نقش فيها.

الحاصل، ما كان يوجد من يعرف ذلك فى بلدة من البلدان، مثل معرفة أهل مكة، و مثلهم فى ذلك أهل المدينة المنورة، و لبت هذه الصناعة لم تندثر.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥١

منجم النورة البلدية بمكة المكرمة

يوجد بمكة المكرمة منجم عظيم للنورة البلدية، يبدأ من بعد عمرة التنعيم بمسافة طويلة، أى يبدأ أول المنجم من نحو خمسة عشر كيلو مترا من المسجد الحرام، أى من بعد قبر أم المؤمنين ميمونة رضى الله تعالى عنها، و يمتد فى باطن الأرض ببضع كيلو مترات من جهة الشمال الغربى على اليسار، و معه أيضا منجم آخر للرخام البلدى، و لا يقصد به حجر الرخام الصلب الذى تفرش به أرضية المساجد، و المنازل و أسطحها، فالرخام يطلق عندنا بمكة على الأحجار المأخوذة المكسورة من مناجمه، و هى إذا وضعت فى الماء تفور و تغلى حتى تصبح الماء حامياً جداً، بحيث لا يمكن أن يلمسه إنسان حتى يبرد، فإذا طرحت أحجار الرخام فى الماء تفتت و اختلطت به، فالمرخمون يأتون بأحجار الرخام و يضعونها فى برميل مملوء بالماء، و يضعون أيضا فيه ملح الطعام مقدارا معلوما لديهم، ثم يتركونه ليلة واحدة ليختمر، فإذا أصبحوا، حركوا ما فى داخل البرميل من أحجار النورة و الملح حتى تختلط بالماء اختلاطا تاما و يكون لونه كاللبن، ثم يأخذون من هذا الماء، فيرخمون المنازل من الداخل و الخارج، كما يرخمون جميع غرفها، و يأخذون من هذا الماء بالمكنسة أو بفرشاة كبيرة، فيرشون بها الجدران، فإذا نشفت بيضت الغرف و الجدران.

و منجم النورة و الرخام المذكور، كالعروق فى باطن الأرض، تمتد من منبعها إلى مسافات طويلة، و لا تنفذ مهما أخذ منه، و أهل مكة يأخذون الرخام لتبييض المنازل، و يأخذون النورة فيخلطونها بتراب مكة، ثم يعجنون الخليط بالماء حتى يكون طينا، فيبنون به جميع البيوت و العمارات، هذه عاداتهم من قديم الأزمان.

و النورة قوية جداً، تمسك الطين فلا تفتت سريعا إذا وضع بمقدار معلوم، و لكن مع الأسف حل محل النورة البلدية عندنا، النورة الإفنجية- و هى المسماة بالإسمنت- و ذلك ابتداء من سنة (١٣٧٠) ألف و ثلاثمائة و سبعين هجرية تقريبا. و ياليت أن الإسمنت لم يدخل إلى حرم مكة المشرفة، حتى لا- يكون فيه شىء من البلاد الأجنبية- مراعاة لبعض أقوال العلماء- فالنورة و الرخام المذكورتان هنا، تشبهان الجبس و الجير المعروفان بمصر، مع فارق بينهما.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥٢

صناعة الآجر و مراكن الزرع بمكة

الآجر و يسمى عندنا باللغة العامية "الآجور"، و هو الذى يسمونه بمصر "الطوب"، يصنع بمكة المكرمة من ترابها من قديم الأزمان، و يعمل فى قوالب خاصة، ثم يوقد عليه بالحطب حتى يحرق و يستوى. و منذ سنوات قليلة بدأوا يعملوا الطوب من الإسمنت المخلوط بالرمل، لكن لم يتقنوا صناعته، لأن الطوب الإسمنت يفتت و ينكسر بسرعة، مع أن الإسمنت فى غاية من القوة و المتانة، و عما قريب سيحسنون صنعه، و كذلك يعملون مراكن الزرع من طين مكة، فيزرعون فيها أنواع الرياحين و النرجس و الأزهار.

إنارة شوارع مكة بالكهرباء

كانت شوارع مكة المكرمة و حاراتها تضاء ليلا بلمبات الكاز أى النفط، منذ قديم العصور كبقية جميع الأقطار و الممالك، فكانت اللمبات توضع فى داخل الفوانيس و تعلق على جدران المنازل و البيوت فى الحارات و الشوارع، فلما انتشر الكهرباء و عم جميع المملكة استبدلت الفوانيس باللمبات الكهربائية، و طبعا كان ذلك بالتدريج أى شيئا فشيئا، فما جاءت سنة (١٣٨٤) ألف و ثلاثمائة و أربع و ثمانين هجرية إلا و قد عم الكهرباء جميع مساجد مكة المكرمة و شوارعها و حاراتها و أزقتها، بل و جبالها المسكونة أيضا، أما المسجد الحرام فلقد تكلمنا عن تدرج إضاءته و إنارته إلى وجود الكهرباء فى مبحث آخر، فإنارة جميع مكة كانت فى العهد

السعودى الزاهر، و كذلك زيادة العمران و ازدياد السكان، و سفلته الشوارع و الميادين و جميع الطرقات التى تصل بين البلدان و المحطات فى كافة أطراف المملكة العربية السعودية. فسبحان مدبر الأمور و مغير الأحوال.

عدم مرور الطائرات من هواء مكة

هذا، و من الجدير بالذكر أن الطائرات قلما تمر من سماء مكة المشرفة، احتراماً لبيت الله الحرام الكعبة المعظمة، فربما مرت طائرة من الطائرات فى هواء مكة المكرمة فى العام أو العامين مرة واحدة قاصدة بعض الجهات، كمدينة الطائف.

نعم لقد قامت طائرة من مدينة جدة قاصدة مكة المشرفة لأخذ مساحه جوية لها،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥٣

و تصويرها بالفوتوغراف من الجو، و ذلك فى اليوم الحادى عشر من شهر شوال سنة (١٣٨٤) ألف و ثلاثمائة و أربع و ثمانين هجرية، و لبثت أسبوعاً واحداً تأتى إلى مكة المكرمة متواليه، حتى أتمت مهمتها ثم انقطعت، فلا توجد حول مكة مطارات لنزول الطائرات، كما أنه ليس لها طريق فى سماء مكة لتمر منه إلى بعض الجهات، فسبحان الذى شرف بلده الأمين، و آمن أهله من الخوف و الجوع، فالحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة و ما فيها من النعم و البضائع

مكة المكرمة، بلد الله الأمين و بلد خاتم النبيين، و مهبط جبريل الأمين، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، هى منبع الأنوار و الخيرات، و مركز الرحمت و البركات، فيها من الأرزاق و الخيرات و الثمرات ما يحير الألباب، مع أنها واد غير ذى زرع، و هذه بركة إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام لأهلها، حيث قال فى سورة إبراهيم: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَّكُنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

و الله إن رزق أهل مكة ليأتيهم من كل مكان، و فى كل زمان و مكان، نسأل الله تعالى أن يرضى عنا، و يوفقنا لطاعته، و لشكر نعمه و فضله.

إن مكة المكرمة مرزوقه على الدوام بالخضروات المتنوعة و بالفواكه و الخيرات و الثمرات. كما أن فيها من أصناف البضاعات و أنواع التجارات ما لا- يوجد فى غيرها، مع أنها أرض قاحله ناشفه صخرية، تحيط بها الجبال من كل مكان. إن فيها أنواع الأقمشة القطنية و الصوفية و الحريرية، و أنواع المصاعغات الذهبية و الفضية و مختلف الجواهر و الحلى من المرجان و الياقوت و الزمرد و اللآلىء الأصلية و الصناعية، و الجواهر المختلفة، و الألماس و البرلنت و العقيق و الأساور و الخواتم و عقود الجيد، و أنواع الملابس للرجال و النساء و الأطفال و الشيوخ و الشبان ما لا يدخل تحت الحساب.

و توجد فيها من أنواع الحبوب كالأرز و الحنطة و الدقيق و العدس و الحمص و الفول و البازليا و الدخن و الذرة و اللوبيا و غيرها، و فيها من أنواع العيش، أى الخبز، شىء كثير، و فيها من الأطعمة المعلبة و غيرها، و فيها أنواع كثيرة من الجبن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥٤

و الزيتون و الطرشى الإفرنجى و غيره، و فيها كثير من أنواع علب السردين و التونه بل حتى السمك الطرى الأخضر، يأتيها من جدة و السواحل الغربية منها.

الحاصل يوجد بمكة المكرمة أنواع الخضروات و الثمار و الفواكه و الرياحين و العطورات البلدية و الهندية و الإفرنجية، و أنواع المأكولات من الحبوب و غيرها، و أنواع الملابس و الأقمشة و المجوهرات و المصاعغات، كل ذلك يأتيها من الهند و السند و

الصين و مصر و الشام و اليمن و العراق، و من بلاد الإفرنج كإنكلترا و أمريكا و فرنسا و إيطاليا و أستراليا و روسيا و العجم، و من بلاد جاوة و السودان و الحبشة و غير ذلك من جميع أقطار الأرض، لذلك توجد بمكة المكرمة أطعمة بلدية و أطعمة جاوية و أطعمة مصرية و أطعمة بخارية و أطعمة يمنية و أطعمة هندية و أطعمة إفريقية، و كلها جاهزة حاضرة يستطيع كل إنسان أن يأكل ما يشتهي و يهوى، و فيها من أنواع السيارات و أدواتها، و أدوات الكهرباء و أنواع أجهزة الراديو، و أنواع المكائن الكهربائية و الماتورات الكماليات، ما لا يدخل في حساب، فلا يقدر أحد أن يحصى الخيرات و النعم التي في بلد الله الأمين.

لقد كتبنا هذه النبذة الصغيرة للعلم بها في الجملة. فإن كثيرا من الأجانب البعيدين عن الحجاز يعتقدون أن بلادنا خالية من الأمور الحيوية، ليس فيها من النبات إلا العشب، و لا من الأطعمة إلا الخبز و التمر، و هؤلاء معذرون لأن الكتابة عن مرافق حياة بلادنا في الجرائد و الصحف الأجنبية معدومة.

فسبحان القادر على كل شيء، يرزق من يشاء بغير حساب، لا إله إلا هو العزيز الغفار، و صلى الله على سيدنا "محمد" و على آله و صحبه و سلم.

صلاة الجمعة في المسجد الحرام

صلاة الجمعة هي بضم الميم و إسكانها، و تسمى الصلاة بالجمعة لاجتماع الناس لها، و هي من خصوصيات هذه الأمة المحمدية، و هي فرض عين لقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ، و هذا الأمر هنا للوجوب، قيل أول من سماه بالجمعة كعب بن لؤي، و هو أول من جمع الناس بمكة و خطبهم و بشرهم ببعث النبي صلى الله عليه و سلم، و أمرهم باتباعه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥٥

و صلاة الجمعة فرضت مع الصلوات ليلئ الإسرائ بمكة، و لم يصلها رسول الله صلى الله عليه و سلم لأنه كان مستخفيا لا يتمكن من إظهارها و القيام بخطبتها علنا في المسجد الحرام، و أول من فعلها بالمدينة المنورة قبل الهجرة سعد بن زرارة رضى الله تعالى عنه، و هو من السابقين في الإسلام، فقد أسلم يوم العقبة الأولى مع رفقة حينما حضروا من المدينة إلى مكة، و كانوا اثني عشر رجلا. و لما هاجر الرسول صلى الله عليه و سلم، و وصل إلى قباء بالمدينة أقام فيها أياما أسس فيها مسجد قباء، و هو المسجد الذي أسس على التقوى، ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم، تحول من قباء إلى قلب المدينة المنورة، و الأنصار محيطون لديه، و يمشون في ركابه صلى الله عليه و سلم، متقلدى سيوفهم، و أهل المدينة في سرور عظيم مستبشرين بمقدمه صلى الله عليه و سلم عليهم، فسار النبي صلى الله عليه و سلم، و الناس وراءه ما بين ماشى و راكب يتنازعون زمام ناقته، كل واحد منهم يريد أن يكون رسول الله صلى الله عليه و سلم نزيهه. فأدرته عليه الصلاة و السلام، صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف، فنزل و صلاها، فهذه أول جمعة صلاها رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه و سلم. و بعد الصلاة سار صلى الله عليه و سلم و الناس معه، و كلما مر على دار من دور الأنصار تضرع إليه أهلها أن ينزل عندهم و يأخذون بزمام ناقته، و هو عليه الصلاة و السلام يتسم لهم و يقول: "دعوها فإنها مأمورة" فلم تزل ناقته سائرة حتى بركت أمام دار أبي أيوب الأنصاري رضى الله تعالى عنه، فاحتمل أبو أيوب رحله و وضعه في منزله، فرحا مستبشرا، و جاء سعد بن زرارة رضى الله تعالى عنه، و أخذ بزمام ناقته صلى الله عليه و سلم، فكانت عنده و عم الفرخ أهل المدينة، و خرجت و لاند بني النجار يقلن:

نحن جوار من بني النجاريا حبذا (محمد) من جار

ثم بعد أن استراح رسول الله صلى الله عليه و سلم، قام يبني مسجده الشريف في قلب المدينة المنورة، و من يومئذ انتشر الإسلام، فكان المسلمون يقيمون صلاة الجمعة بمسجده صلى الله عليه و سلم، و يقتدون به في جميع الصلوات، حيث إنه لم يكن هناك

مسجد غير هذا المسجد النبوي الكريم. ثم انتشرت المساجد بالمدينة المنورة شيئا فشيئا إلى عصرنا الحاضر و ما زال الناس إلى يومنا هذا يقيمون صلاة الجمعة بالمسجد النبوي الشريف، فلا تتعدد صلاة الجمعة بالمدينة المنورة لصغرها. نعم، تقام صلاة الجمعة بالمدينة المنورة في مسجد قباء و هو بعيد عن قلب المدينة، تقام فيها الجمعة منذ قديم الأزمان إلى يومنا هذا، و السبب في ذلك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥٦

أمران، أحدهما: أن قباء بعيد عن قلب المدينة، و ثانيهما: لأن مسجد قباء هو الذي قال الله تعالى عنه في سورة التوبة: لَمَسِجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ، فمسجد قباء له شرف عظيم، فإنه أول مسجد بناه رسول الله صلى الله عليه و سلم عند وصوله المدينة المنورة، ثم تحول منه بعد أيام إلى قلب المدينة فبنى مسجده النبوي المطهر.

ثم لما كثر سكان المدينة و ازداد العمران صارت صلاة الجمعة تقام في مواسم الحج في عصرنا الحاضر في المساجد الآتية:

(١) مسجد المصلى - و هو المعروف بمسجد الغمامة.

(٢) مسجد السبت - و هو واقع خارج باب الشامي.

(٣) مسجد الخريجي - الواقع في المناخة.

كما أفادنا بذلك فضلية الشيخ عبد العزيز بن صالح، إمام و خطيب المسجد النبوي و رئيس المحاكم الشرعية بالمدينة المنورة في وقتنا الحاضر. و مسجد الخريجي نسبة إلى تاجر معروف في زماننا بالمدينة المنورة، بناه فنسب إليه، و تقام صلاة الجمعة بالمدينة أيضا في مسجد ذى الحليفة بضم الحاء، دائما و أبدا لأن ذى الحليفة موضع يبعد كثيرا عن المدينة و هو ميقات الإحرام لأهلها أو من يأتي منها، و ذو الحليفة بضم الحاء المهملة و فتح اللام، هو المعروف اليوم بآبار على.

أما عندنا بمكة المشرفة، فإنه بعد أن فتحها رسول الله صلى الله عليه و سلم، في السنة الثامنة للهجرة، و دخل الناس في دين الله أفواجا و عبدوا الله تعالى جهارا ليلا و نهارا أقيمت فيه صلاة الجمعة كبقية الصلوات، فكان الناس منذ العهد الأول يقيمون صلاة الجمعة بالمسجد الحرام إلى عصرنا الحاضر، فلا تتعدد صلاة الجمعة بمكة المشرفة أبدا. و كان الناس يحضرون إلى المسجد الحرام لصلاة الجمعة من أماكن بعيدة، كالمعلا و الحجون و المعابدة، و كالمسقلة و جرول، يحضرون إلى المسجد الحرام بحب و رغبة صيفا و شتاء، و لو في شدة الحر و القيظ، بواعز نفسى و دافع دينى، مع وجود مساجد كثيرة في مكة المكرمة.

ثم لما كان في عهد الحكومة السعودية، أى في سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، أى لدى ابتداء توسعه المسجد الحرام، صارت مكة المشرفة فسيحة الأرجاء واسعة الأطراف، حتى وصل العمران و البنيان فيها إلى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥٧

أكثر من خمسة كيلو مترات في جميع أطرافها، و بطبيعة الحال و مقتضيات الضرورة أنشئت فيها مساجد كثيرة يبلغ عددها (١٥٠) مسجدا، فسمحت الحكومة السعودية من السنة المذكورة بإقامة صلاة الجمعة في بعض مساجد مكة تيسيرا على الناس، و من هذا الوقت تعددت صلاة الجمعة في مكة المكرمة.

نسأل الله تعالى القبول و العفو و الغفران مع مزيد من الفضل و الإحسان، إنه بعباده لطيف خبير.

و المساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة بمكة المكرمة في الوقت الحاضر ابتداء من سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، كما أخبرتنا بها أوقاف العاصمة بمكة المشرفة في مذكرتها المؤرخة في ٤ ذى القعدة سنة (١٣٨٤) هي كما يأتي:

عدد/ اسم المسجد/ المكان /١/ مسجد الجن / بالشارع العام بمحلة السليمانية

٢/ مسجد الجميزة/ بأول محلة المعابدة

- ٣/ مسجد الأميرة حصّة / بالحجون
- ٤/ مسجد حمدان الفرخ / بالعتيبة
- ٥/ مسجد ابن رشد الهمزاني / بمحلة المعابدة
- ٦/ مسجد الملك عبد العزيز / بمحلة المعابدة بجوار القصر العالى
- ٧/ مسجد حى التوفيق / بمحلة جرول خلف ورشّة خميس نصار
- ٨/ مسجد الملك عبد العزيز / بمحلة الزاهر
- ٩/ مسجد بئر الحمام / بمحلة شعب عامر
- ١٠/ مسجد الأمير بندر / بمحلة المعابدة
- ١١/ مسجد حسن آل الشيخ / بشارع المنصور
- ١٢/ مسجد الكويّتى / بشارع المنصور
- ١٣/ مسجد الطيشى / بجرول خلف القشلة
- ١٤/ مسجد الكعكى / بجرول بجوار المنطقة الخامسة
- ١٥/ مسجد البدوى / يسمى مسجد الجودرية بمحلة الجودرية قبيل المدعا و هذا المسجد يسمى أيضا بمسجد الراية و هذا صحيح كما تحققتنا من ذلك، و قد سبق

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥٨

// الكلام عليه فى هذا الكتاب فى غير هذا المحل.

هذه المساجد فقط هى التى تقام فيها صلاة الجمعة بمكة المشرفة منذ السنة المذكورة أعلاه، أما المسجد الحرام و هو أول المساجد العظام، فإنه تقام فيه صلاة الجمعة منذ الفتح الأعظم لمكة المكرمة فى عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى قيام الساعة.

الصلاة فى الطابق الأعلى من المسجد الحرام

كانت جميع الصلوات فى المسجد الحرام بمكة المكرمة تقام فى الطابق الأرضى من المسجد الحرام، فلم يكن أحد يصلى الفرائض مؤتما بإمام المسجد الحرام فى موضع مرتفع يصعد إليه بدرج، إلا فى موضعين فقط، الأول فى المقام الشافعى الذى كان بأعلا بئر زمزم، و الثانى فى مقام الحنفى الذى كان بآخر حدود الطائف القديم، بجهة باب الزيادة، و هذان الموضعان يصعد إليهما بدرجات قليلة لا يتجاوز عددها إحدى عشر درجة، و مساحة كل موضع منهما نحو أربعة أمتار عرضا فى سبعة أمتار طولاً تقريبا، و عدد من يصلى فى كل واحد من الموضعين، لا يتجاوز الخمسين شخصا، غير أن المقام الحنفى كان أوسع من المقام الشافعى بقليل، أما المقام الحنبلى و المقام المالكى، فلم يكونا مرتفعين عن الأرض بل كانا على الأرض فى حدود المطاف القديم.

فلما ابتدأت توسعة المسجد الحرام فى سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، فى عهد الحكومة السعودية، أزيلت هذه المقامات الأربعة بتاتا، ثم بنيت عمارة تحيط بالمسجد الحرام من جميع جوانبه، و كانت فى هذه العمارة الجديدة طابق علوى. و عندما تمت هذه العمارة صار بعض الناس يصعدون إلى فوقها، و يقيمون الصلوات المفروضة من الجمعة، و الجماعات فى هذا الطابق العلوى مؤتمين بإمام المسجد الحرام، و بعضهم يقيمونها فى نفس أرض المسجد الحرام، و ذلك ابتداء من سنة (١٣٧٩) ألف و ثلاثمائة و تسع و سبعين هجرية، و كان قبل هذه السنة، و هذه العمارة السعودية تقام الصلوات المفروضة فى نفس أرض المسجد الحرام.

نسأل الله تعالى القبول و التوفيق و الفضل و الإحسان و صلاح الحال و الأحوال، بفضلته و رحمته، إنه بعباده لطيف خبير.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٥٩

افتتاح طريق الطائف من جبل كرا بعد إصلاحه و سفلته لأول مرة فى التاريخ

مدينة الطائف أعظم مصيف فى الحجاز، و أهل مكة لا يستغنون عن الطائف فى الصيف مطلقا، و للطائف طريقان: طريق قديم، و هى عن طريق السيل، و هى طريق اليمانية، فبين مكة و الطائف عن هذه الطريق بالجمال ثلاثة أيام، و لا تزال السيارات إلى اليوم تسير فى هذه الطريق أيضا، أما سير الجمال و الدواب فقد بطل مسيرها.

و للطائف أيضا طريق قديم عن طريق الهدى بفتح أوله و ثانيه، و طريق الهدى يمر من عرفات فشداد فالكر بضم الكاف و تشديد الراء، فجبل كرا بفتح أوله و ثانيه، فالهدى بفتح أوله و ثانيه، فعلو وادى محرم فبحرة قرن بفتح أوله و سكون ثانيه فجباجب فمسر فمعشى فالطائف.

فتكون المسافة بين مكة و الطائف، عن طريق كرا الجديد، حوالى ٨٥ خمسة و ثمانون كيلو مترا.

ثم ان الحكومة السعودية افتتحت طريقا جديدا بين مكة و الطائف عن طريق كرا، افتتحها جلاله الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود فى اليوم الثالث من شهر صفر سنة (١٣٨٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و ثمانين هجرية.

انظر: صورة رقم ٥٦، أحد الشوارع الجديدة الجبلية بالطائف

انظر: صورة رقم ٥٧، مدخل مسجد عبد الله بن عباس رضى الله عنهما بالطائف

انظر: صورة رقم ٥٨، مسجد عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما بالطائف

و هذا الطريق الجديد يمر من عرفات فشداد فالكر، فكرا فالهدى فوادى محرم فبحرة قرن فجباجب فمسر فمعشى فالطائف. فطريق كرا الجديد هو المشى فى نفس جبل كرا، و كل الجبل ملفات مسفلته بالإسفلت.

و أسماء القرى الواقعة فى الطريق القديم هى كما يأتى:

من مكة: (١) بعض قرى بنى صخر، (٢) و قرية الغشامرة، (٣) و قرية القصران، (٤) و قرية الكمل بتشديد الميم، (٥) و قرية الأعمق و منها قرية الذراوة،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦٠

(٦) و قرية الحصيان، (٧) و قرية المطرة بكسر الميم، (٨) و قرية الشنبان بضم الشين المعجمة، (٩) و قرية المغارية، (١٠) و قرية البنى، (١١) و قرية الحجران.

و هذه القرى واقعة على الطريق القديم.

و أما القرى الواقعة على الطريق الجديد فهى: (١) قرية ابن مسعود بكسر الواو، (٢) و قرية بنى صخر، (٣) و قرية الغربية بكسر أوله و فتح ثانيه، (٤) و قرية اللمضة بكسر اللام و فتح الميم و الضاد، (٥) و قرية الخولة و بيت القزاز.

و اعلم بأن جبل "كرا" هو أعلا جبل بين مكة و الطائف، فإنه يرتفع عن سطح البحر بنحو ستة آلاف قدم، حتى أن بحر جده كان يرى من قمته إذا كان الإنسان قوى النظر، و إذا نظر فى الصباح الباكر قبيل طلوع الشمس، فإذا طلعت فإن شعاعها يحجب رؤية بحر جده لبعده المسافة، و قد رأى البحر من فوق جبل كرا بعض أصدقائنا ممن لا نشك فى صدقهم، فرؤية البحر من أعلى الجبل حقيقة لا وهمية، و لا من فعل السراب، فإن السراب لا يظهر إلا بعد الضحى العالى عند اشتداد الحر.

انظر: الصور أرقام ٥٩، ٦٠، ٦١ و هى للطريق المسفلت بجبل كرا عام ١٣٨٥ هـ

و المسافة من مكة إلى الطائف تبلغ نحو خمسة و ثمانون كيلو مترا، و هذا عن طريق كرا من عرفات، و الطريق من مكة إلى الطائف كلها مسفلته بالإسفلت، و طول جبل كرا نحو خمسة عشر كيلو مترا، فالسيارات تسير الآن بعد إصلاح الطريق و سفلته فى وسط هذا

الجبل الأشم الأصم الصلد، و يبلغ عرض الطريق المسفلت في وسط هذا الجبل نحو اثني عشر مترا، و طول الجبل كما هو مذكور، و لقد مكثوا في إصلاح هذا الجبل العظيم العالى نحو سبع سنوات، و ما كان هذا العمل في هذا الجبل يخطر على بال أحد في الأزمنة السابقة. إن جبل كرا كان في سالف العهود مملوءا بالقروء، ينزلون إليه من الطائف و الجبال المجاورة، فلما بدئ العمل في إصلاح الجبل بالألغام هربت القروء منه، فسبحان الله مغير الحال و الأحوال.

و الحق يقال أن إصلاح طريق جبل كرا هو من فكرة جلاله مليكنا المعظم الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، فلقد فكر في إصلاحه منذ أن كان وليا للعهد، فلما اختمرت الفكرة في رأسه أظهرها للوجود، فأمر بالبدء في العمل منذ سنوات، و خصص مبالغ طائلة لهذا المشروع العظيم الجبار، فما مرت سنة واحدة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦١

على توليته الملك، إلا- و قد انتهى العمل في هذا الجبل العالى العظيم، فافتتحه بنفسه في التاريخ المذكور و الفرحة تغمره و تغمر الناس جميعا، فسبحان الموفق للخيرات و الملمه للصواب، و فقه الله تعالى لصالح العباد و البلاد بفضلله و رحمته، إنه جل جلاله هو البر الرحيم.

هذا، و لقد أخرج القائمون بتنفيذ هذا المشروع كتابا قد بينوا فيه خلاصة العمل في إصلاح جبل كرا، و وضعوا فيه بعض الصور و الرسوم، فنحن ننقل منه النبذة الآتية و هي:

كيلو متر/ بيان الموضوعات ٨٩/ طول الطريق من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى الطائف ٢١/ طول الطريق من مكة إلى عرفات.

٢٣/ طول الطريق من عرفات إلى الكز، و هو بأسفل الجبل

٢٢/ و نصف طول الطريق من الكز إلى قمة جبل كرا، أى إلى الهدى

٢٠/ و نصف طول الطريق من الهدى إلى الطائف

٢٠/ ترتفع مكة المكرمة عن سطح البحر (٢٩٠) مترا

٢٠/ و ترتفع عرفات عن سطح البحر (٣٢٠) مترا

٢٠/ و يرتفع الكز في سفح الجبل عن سطح البحر (٧٥٠) مترا

٢٠/ و يرتفع الهدى عن سطح البحر (١٩٥٠) مترا و مثله ارتفاع كرا

٢٠/ و يرتفع الطائف عن سطح البحر (١٥٥٠) مترا، فالطائف أقل من الهدى

و بلغت تكاليف إصلاح هذا الطريق مائة و ثمانون مليون ريال سعودي، و إن شاء الله تعالى ستجنى البلاد من فتح هذا الطريق خيرا كثيرا بفضل الله تعالى و رحمته، و الحق يقال أن إصلاح الطرقات و سفلتها في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية في الحجاز و نجد، لم تكن إلا في عهد الحكومة السعودية، وفق الله تعالى العاملين لكل خير آمين.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦٢

تاريخ الإذاعة السعودية

إشارة

أصدرت صحيفة "الأضواء"، التي تصدر بجدة، عددا خاصا عن وثبة الإذاعة السعودية، اقتبسنا منه و مما جاء فيه من مقالات و

تحقيقات عن تاريخ الإذاعة السعودية ما يأتي:

إن الحقيقة التي يجب أن تعرف و أن تسجل على صفحات التاريخ، هي أن الإذاعة السعودية، مدينة في مولدها و نشأتها إلى جلالة الملك سعود.

فعند ما كان وليا للعهد تبنى فكرة إنشاء إذاعة عربية سعودية، إيماناً منه بخطر الإذاعة و أهميتها في العصر الحديث، من حيث كونها لسان حال الحكومة و مظهر وعى الشعب و تقدمه، و من حيث كونها صلة الشعب بغيره من الشعوب من جهة، و صلة الشعب ببعضه من جهة أخرى.

فكان مولد الإذاعة العربية السعودية في أواخر عام (١٣٦٨) هـ، الموافق (١٩٤٩) م، و مع بزوغ فجر يوم عرفات المبارك من تلك السنة، انطلق أول صوت في الأثير يحيى العالم الإسلامي و العربي: (هنا مكة المكرمة ... أيها المسلمون في مشارق الأرض و مغاربها ... سلام الله عليكم من الأرض الطاهرة).

فبدأت الإذاعة السعودية عهداً مثلماً تبدأ كل إذاعة في العالم حين تأسيسها ... بدأت طفلاً وليداً يحبو، و لكنه يترعع و ينمو و يكبر، فيستكمل عناصر قوته و حيويته.

فكانت تبث برامجها في ذلك الوقت بمرسلة قوتها (٣) كيلوات فقط. و بقيت قوتها كذلك، حتى وفق الله تعالى مليكنا إلى إصدار مرسومه الملكي في السادس و العشرين من شهر شوال سنة ١٣٧٤ هـ بإنشاء مديرية عامة تسمى "المديرية العامة للإذاعة و الصحافة و النشر"، و أسند رئاستها إلى سكرتير جلالته الأستاذ عبد الله بلخير، فكان ذلك بداية عهد جديد للإذاعة السعودية، إذ أخذ سعادة الأستاذ بلخير على عاتقه النهوض بالإذاعة و تقوية إرسالها، فخطى سعاده بها خطوات سريعة واسعة، و كانت خطوته الأولى في عام (١٣٧٥ هـ)، الموافق لعام (١٩٥٥ م)، إذ تمكنت المديرية المشار إليها من إنشاء مرسلة جديدة بقوة (١٠) كيلوات حتى تستطيع بث البرامج المتعددة المتنوعة إلى نطاق أوسع من ذي قبل.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦٣

و كان من البديهي أن توسع الاستديوهات مع زيادة البث، و لذلك ابنت المديرية استديوهين جديدين في جدة، إلى جانب الاستوديو القديم.

أما خطوته الثانية، فكانت في عام ١٣٧٧ هـ الموافق لعام ١٩٧٥ م، و في شهر صفر بالتحديد، إذ افتتح جلاله مليكنا المرسلة الجديدة قوة خمسين كيلوات.

و هذه المرسلة الجديدة مفخرة من مفاخر الإذاعة السعودية، و طاقة جبارة تضع الإذاعة السعودية في مصاف أقوى الإذاعات في الشرق الأوسط.

و ستتع هذه الخطوة خطوات، و ما هذه القوة ذات الخمسين كيلوات إلا جزءاً بسيطاً من مشروع ضخم كبير يكلف تحقيقه مئات الألوف.

و المديرية العامة للإذاعة و الصحافة و النشر جادة في سبيل إنجاز هذا المشروع الكبير، و العمل قد بدأ بعد أن أقره جلاله الملك، و أمر بتنفيذه في الحال.

و هذا المشروع سيرفع من قوة الإذاعة فيجعلها بقوة أربعمائه و خمسين كيلوات ... و بذلك يكون للملكة العربية السعودية إذاعة عالمية تنقل رسالتها إلى الدنيا كلها.

و لن تمضي سنتان و نصف حتى يكون المشروع قد أنجز بأكمله، و عندها تحقق معجزة عالمية في الأثير، هي من صنع جلاله الملك فيصل المعظم أدامه الله و وفقه لكل ما يحب و يرضى، إنه السميع المجيب.

و مما يجدر ذكره، أن الإذاعات لما انتشرت في الممالك و الأقطار، و حضرت الأجهزة إلى المملكة السعودية، كان فتحها لسماع

الأغاني ممنوعا منعاً باتاً، و من فتح الراديو و استمع إلى الأغاني تعاقبه الحكومة السعودية و تكسر له الراديو، ثم ما زالوا يتساهلون في الأمر تدريجياً حتى وصلت الحالة عندنا إلى ما نراه اليوم.

قال الأستاذ سراج خراز من مكة المشرفة في تحية الإذاعة السعودية قصيدة طويلة نقتطف منها ما يأتي:

حَيِّ الإذاعة معلنا إكبارها و أنشد على مر الزمان فخارها!

فأحق بالإعجاب منك إذاعة شادت على أسس الثقافة دارها

في الصبح و الإساء تسجع طيرها فاسمع فديتك فيهما أطيّارها

ألقت بسمع الكون ما هاجت به شجو النفوس و حركت أوتارها

هي منبر صدحت به أقلامهم أسمع في جنباته قيثارها؟

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦٤ تهب الكبار من العقول معارفنا و تمد بالقصص البديع صغارها

فتداعب الأطفال فرحة باسم مرح، زوت عنه الدنيا أكارها

إن الإذاعة إن دعتمكم إنماتدعو البلاد لمجدها أحرارها

هي رمز نهضتنا الفتية فاحذروا أن تطفئوا بأكفكم أنوارها

فقفوا لنصرتها الجهود و راقبوا نحو التقدم و العلا أطوارها

انظر: صورة ٦٢، المؤلف و موظف الإذاعة و آخرين بالقرب من منى عام ١٣٧٥ هـ

قصيدة في تحية دار الإذاعة

احتفلت دار الإذاعة المصرية في شهر إبريل سنة (١٩٣٧) ميلادية، بانتهاء العام الثالث من إنشائها، و دعت لذلك نخبة من رجال العلم و الأدب في مصر، ليذيع كل منهم كلمة في هذا الصدد، فقال الأستاذ على الجارم رحمه الله تعالى، هذه القصيدة:

دار الإذاعة أنت بنت ثلاثة مرت كومض البارق اللماح

كم فيك للقرآن رنة قارئ تحلو لدى الإساء و الإصباح

كشفت عن النفس الملول حجابها فتوجهت للخالق الفتاح

الدين سلوى النفس في آلامها و طبيبها من أدمع و جراح

دار الإذاعة كم نشرت ثقافة جلت مآثرها عن الإفصاح

كم جاز صوتك من بحار سجرت و فدادن شعث الفجاج فساح

أصبحت أستاذ الشعوب و كافحت نجواك جيش الجهل أي كفاح

و ملأت بالعلم البلاد فنوره في كل منعطف و بهرة ساح

تتلقف الدنيا حديثك مثلما يتلقف الأبرار و حي ألواح

دار الإذاعة أنت أمرح أيكة صدحت فكانت أيكة الأفراح

صاحت بلا بلك الحسان فأخملت في الجو صوت البلب الصياح

من كل شادية كأن حنينها همس المنى لليأس الكداح

الليل إن نادته ماس بعطفه فتراه بين المنتشى و الصاحي

كم فيك من لهو ري النهي و فكاهة محبوبه و مزاح

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦٥ النفس تسأم أن تطاول جدها فاكشف سأمه جدها بمباح

زمر الشباب ولى ملامه ناصح لو تسمعون نصيحة الناصح
بالعلم "مركونى" تسلق للعلاو بعزمه الوثابة الطماح
رجل عصامى الأرومة لم ينل مجدا "بآمون" و لا "بفتاح"
تتطلع الدنيا إليه و تمتطى ذكرى ماثره متون رياح
إن التفاخر بالقديم تعله و الجهل للمجد المؤثر ماحى
و العلم مصباح الحياة فنقبوا من قبل أن تشبوا عن المصباح
بلى السلاح مع القديم و عهده و الآن صار العلم خير سلاح
اليوم فكرة عالم فى مصنع تغنى عن الأسياف و الأرماع
و تصد كل كتيبة موارد خضراء تقذف بالكماة رداح
أمضوا الجهود و أخلصوا لبلادكم فى الجد و الإخلاص كل نجاح
لا يرتجى من أمة مفتونة باللهو و التسوييف أى فلاح
خوضوا الصعاب و لا تملوا إنمانييل المنى بالصبر و الإلحاح

وصف الحاكي أى "الفنوغراف"

و مما يناسب مبحث الكلام على الإذاعة، ما جاء فى كتاب المحفوظات المختارة عن وصف "الفنوغراف" بفاء و نون مضمومتين، و قد كان اختراعه قبل اختراع الراديو بنحو خمسين سنة تقريبا، و هو ما يأتى:

مثال القوة الناطقة، من غير إرادة سابقة، يقطف الألفاظ اقتطافا، و يختطف الصوت اختطافا، مطبعة الأصوات و مرآة الكلمات، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية، نقل كلام عمر إلى سارية أشد من الصدى فى فعله، فى إعادة الصوت إلى أصله.

يحفظ الكلام و لا يبیده و متى استعدته منه يعيده من غير أن يبقى لفظا فى صدره، أو كتم شيئا من أمره، كأنما حفظ الوديعه فى نفسه طبيعة، فلو تقدم له الوجود فى مرتبة الزمن ما احتجنا فى الأخبار إلى عنعنه و لا فى الدعاوى إلى بينه، بل كان يسمعنا كلام السيد المسيح فى المهده، و صوت عازر من اللحد، و كانت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦٦

الفلاسفة استودعته حكمتهم، و أنشدهو كلمتهم، فرأينا به غرائب اليونان، و بدائع الرومان، و ربما سمعنا خطب سحبان و شعر سيدنا حسان بذلك اللسان، و أصبح وجود الإنسان غير محدود بزمن من الأزمان.

لله دره من تلميذ يستوعب ما عند المعلم و يستخلصه فى لحظة معيدا قوله، ناقلا صوته و لفظه.

نديم ليس فيه هفوة النديم، و سمير لا ينسب إليه تقصير، تسكنه و تستعيده و تنقصه و تستزيده، و هو فى كل هذه الأحوال، راض بما يقال، لا يكل من تحديث و لا يمل من حديث. نام، كما ينم لك ينم عيك، و ينقل لغيرك كما ينقل إليك، فهو المصور لكل فن، المتكلم بكل لغة، المحدث عن كل إنسان، المؤرخ لكل زمان، الشاعر الناثر المغنى العارف، لا تعجزه العبارة، و لا تجهده الإدارة، و لا يضره اختلاف شكل، و لا تباين أصل. انتهى.

الحاكي

هل علم الغريد فى و كره شأن الذى خفض من قدره

و هل درى المطرب ماذا الذى يسترجع الملحود من قبره
يا عجباً من ناطق صامت تأتلف الألحان فى صدره
يستخرج اللحن بمسنونه تزيل ذاك اللبس من أمره
تخط فى أعطافه أحرفاً كأنما تبحث عن سره
يروى أحاديث أناس مضوا كأنها مرت على فكره
انتهى.

ظهور التلفزيون

أما اختراع (التلفزيون) فأول من فكر فيه رجل إنكليزى اسمه كامبل سويتون، و ذلك سنة (١٩٠٨) ميلاديه، و لكن هندسه صنع الصمام اللاسلكى فى ذلك الوقت لم تكن متقدمه تقديماً كافياً، فلم تتحقق فكرته. ثم فى سنة (١٩٢٥) ميلاديه، عرض (ج- ل بيرد) أول تلفزيون فى العالم، إلا أن الصور لم تكن واضحة، و منذ ذلك الوقت أخذت هندسه التلفزيون فى تقدم مطرد.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦٧

و قد ظهر التلفزيون لأول مرة فى مصر سنة (١٣٧٨) هجرية، الموافقة لسنة (١٩٥٩) ميلاديه.

و بالطبع كان ظهوره فى أوروبا قبل ظهوره فى بلاد الإسلام. أما التلفزيون فى البلاد السعوديه، فإلى طبع كتابنا هذا لم يكن له ظهور عندنا، و لقد سمعنا أن الحكومه السعوديه ستعمل و تحقق ظهور التلفزيون عندنا فى العام الآتى، أى فى سنة (١٣٨٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و ثمانين هجرية، و الله تعالى أعلم.

و لقد أخذت الحكومه السعوديه فى نشر التلفزيون بالمملكه، و ربما ظهر التلفزيون عندنا قبل شهر رمضان من هذه السنه، و هى سنة (١٣٨٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و ثمانين هجرية. و الله تعالى أعلم بما سيحدث فى مستقبل الأعوام، من أنواع الراديو و التلفزيون و غيرهما.

فى شهر ربيع الثانى سنة (١٣٨٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و ثمانين هجرية، ظهر بمكة المكرمه التلفزيون و عرضه فى بعض المعارض، و هو فى دور التكوين و الإصلاح و التجربة، فلا يمر هذا العام إلا و قد انتشر فى جميع بلدان المملكه العربيه السعوديه.

الميكرفون فى المسجد الحرام

كان لكل مناره فى المسجد الحرام مؤذن واحد بل أكثر، و كان الذى يقيم الصلاة و يبلغ حركات الإمام للمؤمنين، يطلع إلى المقام الحنفى لهذا الأمر، ثم لما ظهر فى عصرنا الراديو و الميكرفون، استعملوا الميكرفون لسماع خطب الوعظ و الإرشاد و إلقاء المحاضرات و التنبيهات و التعليمات، حيث إنه يكبر الصوت و يوصله إلى أماكن بعيدة، فإنه يكفى أن يقف رجل واحد أمام آلة الميكرفون، فيلقى ما شاء من الخطب و التعليمات، ليسمعه آلاف الناس فى الميادين و المحلات، و حين رأى الناس فائدة الميكرفون وضعوه فى المساجد و فى المآذن و عند المحراب ولدى المبلغين و أمام قراء القرآن و المنشدين و نحو ذلك، حتى يسهل سماع القرآن و الخطب لجميع الناس.

و لقد سمحت الحكومه السعوديه باتخاذ الميكرفون فى المسجد الحرام و المسجد النبوى، و وضعوه على المنارات و مقامات المبلغين و عند الإمام وقت الصلوات و على المنبر، و كان وضعه فى المسجد الحرام فى أول عام (١٣٨٦) ثمان و ستين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦٨

و ثلاثمائة و ألف، و قد وضع فى المقام الحنفى جهة باب الزيادة، لأن فى هذا المقام يبلغ حركات الإمام للمؤمنين.
و الحق أن للميكرفون فائدة كبرى، لا ينكرها إلا كل أحرص أصم.

الجبال و فوائدها و ألوانها

الجبال فى الأرض موضع التأمل و النظر لدى أهل الفكر و ذوى الألباب، فهى دلالة على قدرة الله عز شأنه، الذى قال فى سورة الغاشية: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ* فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ.

و قال تبارك و تعالى فى سورة النبأ: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا* وَ الْجِبَالَ أَوْتَادًا* وَ خَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا. و قال جل جلاله فى سورة فاطر: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَ مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَ غَرَابِيبٌ سُودٌ* وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ.

فالله تبارك و تعالى، الذى له الحكمة البالغة، لما جعل الأرض مهياً لنا لنتمتع بها من جميع الوجوه، كالمهد الذى يفرش و يهيا للصبي ليرتاح فيه، جعل الجبال عليها أوتادا تستقر و ترسو كما يرسو البيت بالأوتاد، قال الشاعر:

و البيت لا يبنى إلا له عمدو لا عماد إذا لم ترس أوتاد

و فى الحديث، خلق الله تعالى الأرض، فجعلت تميد فوضع عليها الجبال فاستقرت، فقالت الملائكة: ربنا هل خلقت خلقا أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد. فقالت: ربنا، هل خلقت خلقا أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار.

فقالت: ربنا، هل خلقت خلقا أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. فقالت: ربنا، هل خلقت خلقا أشد من الماء؟ قال: نعم، الهواء. فقالت: ربنا، هل خلقت خلقا أشد من الهواء؟ قال نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفى ذلك عن شماله.

فالجبال علاوة على أنها جعلت أوتادا على الأرض، فإن فيها منافع كثيرة، منها الاستظلال حولها إذا سلطت الشمس حرارتها على الأرض، و منها تخرج المياه أحيانا من بين حجارتها عذبة صافية كالماء المقطر، و منها أن فى الجبال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٦٩

كهوفا و مغاور طبيعية تصلح للسكن و الراحة التامة فيها، و منها أنهم كانوا يتخذون بيوتا فى الجبال يعملونها نحتا بأيديهم كما قال الله تعالى عنهم فى سورة الأعراف: وَ أَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. و قال سبحانه فى سورة الحجر: وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ* وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ* وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ. و قال أيضا فى سورة النحل: وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ، و قال فيها أيضا: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا.

قيل: كانوا ينحتون الجبال بيوتا لطول أعمارهم، و كانت الأبنية تبلى قبل أن تبلى أعمارهم.

يظن بعض الناس أن الجبال اسودت و اغبرت من تأثير حرارة الشمس القوية التى مرت عليها آلاف الأجيال، و هذا الظن ليس فى محله، إذ لو كان الأمر كذلك لوجدنا باطن الجبال بلون غير لون ظاهرها، و الحال أن باطنها و ظاهرها بلون واحد.

فلقد خلق الله تعالى الجبال بألوان مختلفة، ففيها البيض و فيها السود و فيها الحمر و فيها الخضمر و فيها غير ذلك من الألوان كما فى الآية المتقدمة، و معنى كلمة "و غرابيب سود" الغريب هو الذى أبعد فى السواد و أغرب فيه، و منه الغراب لأنه شديد السواد، و من الجبال ما هو صلب شديد و رخو فتيت، و ما هو مدور و ما هو مستطيل، و ما هو صغير و ما هو كبير، و ما هو وحده مستقل، و ما هو متصل بغيره متسلسل ممتد إلى أميال بعيدة، و ما هو كالقطعة الواحدة، و ما هو متكون من أحجار و صخور بعضها فوق بعض من أصل الخلقة و الطبيعة، و ما هو منقور منحوت، و ما هو مخروق ذو منافذ و طرائق، و ما هو أملس ناعم، و ما هو خشن يابس، و منها ما

هو أهل بالسكان و ما هو خال من العمران، و منها ما فيه أنهار و زروع و ثمار، و منها ما لا ينبت فيها زرع و لا يصلح للعمار، و بين هذا و ذاك سبل و وديان ينتفع منها الإنسان و الحيوان.

و من الجبال ما هو شامخ عال. قال تعالى في سورة المرسلات: وَ جَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧٠

و أعلى جبال الأرض جبال هماليا و إفريقيا، فإن هذه الجبال قل من وصل إلى قمته من البشر، لعلوها الشامخ و استمرار الثلوج عليها صيفا و شتاء.

و في الجبال نقطة دقيقة و طرفه فية عجيبة تغيب عن كثير من الناس، و هي أن الله تعالى، جلت قدرته خلق الجبال على أحسن صورة و أجمل منظر، فهي على تباينها و اختلاف أشكالها و تفرق مواضعها، و عدم تنظيمها، تجد فيها روعة و جلالا تأخذ بمجامع القلوب، و تشرح الأفئدة و الصدور، تجد هنا جيب صغير و تلال صغيرة، و تجد هناك جبالا مرتفعة و صخورا ناتئة، و تجد أمامك سلسلة جبال تسد الطريق، فإذا وصلت إليها وجدت الطريق بينها مسلوكا و تجد نفسك أحيانا محصورا تحيط بك الجبال في دائرة ضيقة، إذا بك تخرج من بينها في فضاء فسيح، و قد تفرقت الجبال عنك، و تجد قمم الجبال و رؤوسها مختلفه متنوعه، كما تجد ظهورها و تسنمها بأشكال متباينه، و تجد في تعاريجها و تلافيفها و ارتفاعها صعوبة الرقى، لكنها تغري الناظر بالصعود، فإذا رقى عليها و رأى ما تحتها و ما حولها، انشرح صدره و ود لو لم ينزل عنها، و ما أحلى منظر الجبال في البكور و الأصيل و الليالي المقمرة، و لا يعرف متعة الصحراء إلا أهل الصحراء، و لا يفهم كلامنا إلا من رأى البلاد التي تكثر فيها الجبال، و تتجلى هذه المعاني بوضوح لمن كان مسافرا ما بين مكة و جدة، و ما بينها و بين المدينة، أو مسافرا حوالى البلاد الحجازية.

فلو اجتمع أهل الرسم و التصوير، و نبغاء الفنون و الابتكار من أطراف العالم، على أن يعملوا جبالا صناعية فيها هذه الروعة و الجلال و المناظر و الجمال، لباؤا بالفشل و رجعوا بخيبة الأمل. فسبحان مبدع الكائنات الذي أحسن كل شيء خلقه، و الذي وضع في كل شيء من الجاذبية و القوة الكامنة و الحكمة البالغة ما يحير ذوى العقول و الأبواب فسبحان الله رب السموات و رب الأرض و رب العرش العظيم.

وصف الصحراء

جاء في الجزء الثالث من كتاب "المطالعة العربية" عن الصحراء نقلا عن كتاب "صحراء ليبيا" تأليف أحمد حسنين، ما يأتي:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧١

قد يكون للصحراء متاعبها، و لكن لها أيضا مفاتنها، تستهوى عشاقها و تجذبهم إليها، افتتن بها كل من جاب نواحيها، افتتن بعظمتها المتمثلة في فضائها الواسع، و سكونها العميق، و حياة التنقل المحفوفة بالمخاطر.

تبسم الصحراء فما أحلى ابتسامها، و تعبس فما أقيح عبوسها، تضحك نجومها فتستهوى عابرها، و يحتكم فضاؤها في القلب، فتوقعه في أسرها فيسير مغتبط النفس هانيتها، سير المطمئن، المؤتنس بها، المولع بجمالها، و لكن شيمتها الغدر، فلقد تريك غاية الغضب و القسوة التي لا تتجاوز بعدها، بعد أن تضيى عليك السرور، و ترضيك تمام الرضا.

الصحراء ساحرة جذابة، إذا عرفتها تعلقت بها نفسك أبد الدهر، و لكن ليس من السهل أن تدرك سر سحرها، و لا سبب خلابتها و كل ما تعرفه أنها تناديك، فينفذ نداؤها إلى صميم قلبك، و تدعوك فلا تلبث أن تشد الرحال إليها راضيا مغتبطا، يسوقك الحنين و تدفعك الذكرى.

تلازم القافلة ساجى العينين، تجر قدميك المقروحتين على وقع خطا الإبل، و قد جف الريق، و تشقق الحلق، و لا أثر لبثر، يسير رفقاؤك في هدوء و سكون قد خفت أصواتهم، و قلص الجهد وجوههم، و حالت إلى لون الدم عيونهم، ملؤها اليأس، تستطلع الأفق

و تستوضح ذلك الخط الذي تلتقى عنده زرقة السماء و صفرة الرمال، فإذا هو دائما ناصل بعيد السكون شامل، لا تشقه إلا خضخضة النزر اليسير من الماء في القرب المتهدلة على جوانب الإبل المتهالكه، إننا في الصحراء لا نتحدث كثيرا، فالصحراء تعلم الصمت و الوجوم، و إذا أحدق الخطر بنا تحامينا أن ينظر بعضنا إلى بعض، و ساد السكوت، و ماذا يجدى الكلام، كل منا يعرف ما هو واقع، و كل منا يحتمله بصبر و جلد، إذا التضجر ضرب من السخط، و السخط معصية لا يقدم عليها بدوى، ففي عقيدته أن الله كتب عليه هذه الحياة، و قدر عليه سلوك هذه الطريق، و قد تودى به فلا بد من الرضا، و البدوى يقول: لا مفر مما كتبه الله و قدره أينما تكونوا يدر ككم الموت و لو كنتم في بروج مشيدة. و في مثل هذه الساعات تقطع على نفسك العهود و المواثيق، ألا تعود إلى الصحراء أبدا إذا قدر الله لك أن تخرج منها حيا.

ثم ينتهى اليوم، و تحط الرحال، و لا تنصب الخيام، لأن الرجال مجهدون غافلون عن التفكير في أنفسهم، و كأن الشمس قد نالها ما نالنا من التعب، و كأنما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧٢

النهار الذى قطعته معنا فى نضال الصحراء أدمى وجهها فإذا قرصها يرسل أشعة حمراء، كأنها خيوط الدم، و كأنما الشمس قد عمدت مثلنا إلى الانزواء، تضمد نخين جروحها و تجدد منهوك قواها، حتى إذا تم لها ذلك عادت وعدنا فى نورها إلى مصارعة الصحراء، و لكن الصحراء لا تلبث أن تصرعنا و تصرعها ... قصة كل يوم.

يهبط الظلام شيئا فشيئا، تطارد طلائعه فلول النور، و يسجو الليل، زاهر النجوم، أو وضاح البدر، و ربما كان ليل الصحراء أعجب نواحي الحياة فيها، يسرى نسيم الليل عليلًا، فينعش روح القافلة و لا تمضى دقائق حتى يبدأ النقر على الصفائح الفارغة، و يدور الرقص و الغناء، و يتجمع شمل الرجال حول النار الخائبة، فيتوسم كل منهم وجوه رفقاءه، ليطمئن عليهم، و يستيقن سلامتهم، و يحاول كل منهم أن يكون أشد بهجة من جاره، ليقوى عزيمته و يجدد فى نفسه الثقة و الأمل و الطمأنينة. و قد نعدنا إلى مغالطة أنفسنا بأن نبعث فى ظلام صيرتنا و متاعنا نورا فيقول أحدنا: "إن جمال القافلة بخير،" و يقول آخر: "لقد تعهدت الجرح، فإذا به أخف مما كنت أظن،" و يقول ثالث إنه رأى ثارة البئر على مقربة إلى اليمين، و هكذا نستدرج أنفسنا لنقنعها بأن كل شىء على ما نود و نرغب، و ربما كان هذا كله تغريرا منا بأنفسنا أمام الصحراء التى خلبت ألبابنا، و تغلب سحرها على عقولنا، تبسم لك الصحراء ليلا، فتنسى كل شىء، تنسى متاعبك و آلامك.

تنسى الصعاب التى لاقتك، و المشقات التى تنتظرك، تنسى كرب الحر و العطش و تنسى أنك كنت قد أشرفت اليوم على الهلاك، و أن الموت يرقبك غدا، و أنه كامن لك فى كل خطوة، تبسم لك الصحراء، فلا يبقى بعدها مكان أجدر بأن تعيش فيه، و لا تطيب لك الحياة فى غيرها، تبسم الصحراء فيعاودك جيبها، و تقبل عذرها، و تغفر ذنبها، و تنقض عهد هجرانها. قليل من أهل المدن يدركون لذة الجلوس فى حلقة الظلام و رعى النجوم، و لا عجب إن كان العرب أساتذة علم الفلك، فالأعرابي إذا انتهى من عمل يومه، خلا- إلى نفسه، و انقطع إلى ترسم حركات النجوم و إمتاع روحه، بما تبعته فيه من الراحة، و الشعور بالسمو إلى ما فوق العالم الأرضى، و تقع النجوم من نفسه موقع الأصدقاء الأقربين الذين يلقاهم كل يوم حتى إذا دارت قبة الفلك لم تغب فجأة، و إنما تحتجب تدريجا كما يتوارى الراحل عن مودعه على أمل اللقاء القريب.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧٣

و ينصل الليل، فينبعث من أول متيقظ من رجال القافلة: "حى على الصلاة، الصلاة خير من النوم،" فيستيقظ القوم، و كأنهم يجمعون عظامهم، و مع ذلك، فما أعظم ما طرأ عليهم، سرى فيهم الأمل و تولدت الثقة بل قد يعتقدون فى ضمائرهم أن سيجرى كل شىء على ما تهوى نفوسهم و الدنيا بعد فضاء مكفهر رطب، و نيران الصباح وحدها تذهب ببرودة نسيم الشمال، فإذا كان الجو صحوا، لا سحاب فيه و لا مطر، انتشر فى السماء نور ضئيل يرمى خلف الرجال و الإبل ظللا مستطيلة رواغة تدق حتى ما تكاد تسميها ظللا، ثم

يتخضب الفضاء بحمرة تبعث الدفء حتى إذا ما بدت ذكاء، لم يبق في الصحراء إلا ذلك المنبسط السحيق من زرقة و صفرة، ثم تنصل الزرقة شيئاً فشيئاً، حتى إذا انتصف النهار أمحت الألوان من السماء.

و يخلق الصباح قوة جديدة، تلك هي الساعات التي يتجلى فيها للإنسان سحر الصحراء و جمالها، في سكون هذا الفضاء المتسع يدق الإحساس و يرهف، حتى ليشعر قاطع الصحراء أحياناً بقرب (واحة) عامرة و تغلب غريزته أيضاً، فيحس بمئات الأميال التي تبعده عن كل كائن حي، و في تلك اللانهاية الساكنة، يصحو الجسم، و تصفو الروح فيشعر الإنسان بأنه أقرب إلى الله عز و جل، و يحس قوة قاهرة، ليس لقوة أخرى أن تحول قلبه عنها، و يتسرب إلى نفسه الإيمان بالقدر الغالب فيصبح شديد الاستسلام، حتى يهون عليه بذل حياته للصحراء دون تبرم، و هناك حقاً أوقات يشعر الإنسان فيها بأن الحياة قليلة الوزن حينئذ، و تكشف الصحراء من الإنسان عن جوانبه الشريفة، فإنك إذا واجهت أهل المدن بالخطر، ناضل كل عن نفسه، أما في الصحراء فتسمو النفس، و تختفي الأثرة و يبدو الإيثار، فيفرغ كل قصارى جهده في خدمة زملائه، فإذا هدد الخطر قافلة من القوافل، و عنّ لأحد أفرادها سبيل النجاة، تنكب عنها، و لم يترك رفقاءه لينجو بنفسه. و أشد ما يهولك في الصحراء أن يقل الماء، و ربما دار بخلدك في مثل هذه الحال أن تستبقى لنفسك ما لديك منه، و لكنك بدلاً من هذا لا تلبث أن تجدك حاملاً زجاجة الماء، و هي إذ ذاك أثمن ما تملك، تدور بها على الرفاق، تسأل كل منهم، هل يريد جرعة، تسألهم غير آبه و لا مكترث، كأنما خيل إليك أن الماء موفور غزير فائض عن حاجتك، تسألهم دون أن تفكر في سلامتك، و هكذا يكون الإيثار، و تكون التضحية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧٤

لا يزال يزداد الإعجاب بالبدوي، كلما فكرنا في ثباته و سكينته و شجاعته التي لا يزعزعها شيء، يدخل البدوي الصحراء و عماده ثلاثة: الجمال، و الماء، و الدليل. أما الجمال، فقد يخور أقواها، و ينفق لغير سبب ظاهر، و يقوم أضعفها يتمايل تحت حملة، يقارب في خطواته، حتى يبلغ آخر الشوط، و موت جمل من جمال القافلة كارثة في إلقاء جل أحماله، إن لم يكن كلها. أما الماء فيحمل أكثره في قرب، و قد تتصدع القربة، أو يبخر منها الماء، و ربما اصطدم جملان، فتنتشق قربة أو قربتان، و هذه هي الطامة الكبرى. بقي الدليل، فقد يقول- و الأسباب كثيرة- أن الأرض تدور برأسه، و أن رأسه طاح، و قد يضل الطريق إذا غامت السماء بضع ساعات، أو أخطأ في ترسم معالمه.

عماد البدوي في اجتياز الصحراء، كما قدمت، الجمال و الماء و الدليل، و لكنها جميعاً لا تغني عن شيء آخر هو الإيمان، الإيمان الثابت الذي لا يتزعزع، الإيمان الراسخ الوطيد، و لو رجع كل رحالة إلى نفسه، ما استطاع أن يقول: فعلت، بل كل ما يستطيع أن يقوله: وفقت، و ما التوفيق إلا من عند الله.

قد تتجمل الصحراء و يلين مهادها، و قد يكون رجال القافلة متهللين نضر الوجوه، و قد تعبس الصحراء، فإذا تهدلت رؤوس الإبل من العطش و الإعياء، و نزر الماء، و ما من أثر لبئر قريبة، و وجم رجالك، و تطرق اليأس إلى نفوسهم، و سألت دليلك، فهز كتفيه و قال: الله أعلم، و ذرعت بنظرك الأفق، فإذا هو ذلك الخط الغائم المضطرب، و جلت ببصرك في كل ما يحيط بك، فما رأيت شارة و لا علامة تبعث على بصيص من الأمل، و ضاقت دائرة الأفق، حتى أصبحت على رجبها طوقاً يضيق حول عنقك، فهنا يشعر البدوي بافتقاره إلى القدرة القادرة، و هنا يجأر باستدرار رحمه الله و لطفه، حتى إذا ضلت دعواته، ضم جسده الداوي، و تهالك على الرمال ينتظر الموت المحتوم في سكينته و استسلام، هذا هو الإيمان الذي لا بد منه لمجتاز الصحراء. انتهى من كتاب المطالعة الوافية.

ذكر بعض أشهر جبال مكة

جاء في كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى ما نصه: قال الله تعالى:
وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ، قال المفسرون: خلق الله عز وجل،
التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧٥

الأرض على الماء فمادت و تكفأت، كما تتكفأ السفينة، فأثبتها بالجبال، و لولا ذلك ما أقرت عليها خلقا.
و روى أبو حاتم في كتاب العظمة، أن النبي صلى الله عليه و سلم، قال: إن الله تعالى، لما خلق الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال
فألغاهما عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من خلق الجبال، و قالت: يا رب هل خلقت خلقا أشد من الجبال؟ قال:
الحديد، قالت: فهل من خلق أشد من الحديد؟ قال: النار، قالت: فهل من خلق أشد من النار؟ قال: الماء، قالت: فهل من خلق أشد من
الماء؟ قال: الريح، قالت: فهل من خلق أشد من الريح؟ قال: ابن آدم، يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله.
و عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات و الأرض. فبعث الله ريحا فعصفت الماء،
فأبرز من حشفة في موضع البيت، فدحا الأرض من تحتها، فمادت فأوتدها بالجبال.
فكان أول جبل وضع، جبل أبى قبيس، و هو الجبل المطل على الكعبة، انتهى من كتاب نهاية الأرب.
و من قول السموال في الجبال:

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف و هو كليل

رسا أصله تحت الثرى و سما به إلى النجم فرع لا ينال طويل

نقول: إن الحرم في أطراف مكة و جهاتها متسع، فحدود الحرم المكي يحرم التعرض لصيده و نباته للآتى من جهة التنعيم ثلاثة أميال،
و من العراق و الطائف سبعة أميال، و من الجعرانة تسعة أميال، و من جدة عشرة أميال. و هذه الحدود لها من الحكم ما لمكة لأنها
محيطه بها، و هذه الحدود غير حدود المواقيت.

فمكة و ما يتبعها من الحرم ملائنه بالجبال، و نرى من العسير جدا عدها و إحصاءها، فكيف أمكن للإمام الأزرقى أن يعدها و أن
يحصرها في اثني عشر ألف جبل.

و نحن مع كثرة مطالعتنا لتاريخ الإمام الأزرقى، لم نر فيه أنه ذكر عدد جبال الحرم، فما ندرى في أى صحيفه منه وجد الغازى رحمه
الله، أنه ذكر عدد جبال الحرم حتى نسبها إليه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧٦

هذا و لا نريد إطالة الكلام عن جبال مكة و ذكرها جبالا، ففي كتب التاريخ بيان كل ذلك، و لكن لا بد لنا من ذكر أهم جبالها
و أشهرها، و لنقتصر من ذلك على سبعة جبال فقط و هى:

(١) جبل أبى قبيس- و يقع في الجهة الشرقية للمسجد الحرام.

(٢) و جبل قعيقعان- و يقع في الجهة الغربية، و هذان الجبلان هما أخشبا مكة.

(٣) و جبل حراء- و يقع في الشمال الشرقى، و فيه أول ما نزل من القرآن.

(٤) و جبل ثور- و يقع في الجهة الجنوبية، و فيه اختفى النبي صلى الله عليه و سلم مع أبى بكر حين الهجرة.

(٥) و جبل خندمة- و يقع خلف جبل أبى قبيس.

(٦) و جبل عمر- و يقع في الجهة الغربية تقريبا.

(٧) و جبل ثبير- و يقع في الجهة الشرقية.

و اعلم أن مكة شرفها الله تعالى و أكثر رزقها و خيرها و رخص أسعارها، و زادها أمنا و أمانا و برا و إحسانا، و غفر لأهلها و وفقهم

لمعرفة فضلها والأدب فيها، وأدام رضاءه و توفيقه عليهم، و على من جاورهم ليقوموا بطاعته خير قيام كلها محاطةً بالجبال الشامخة، و هذه الجبال متصلة بعضها ببعض، و ما نراه في بعض الأماكن المسكونة من استواء الأرض، إنما حصل بفعل البشر من إصلاح الطرق و مواضع المساكن، و الإفنى أصل الخلقه بعض أراضيها غير مستوية بهذا المقدار، خصوصا ما كانت محيطه بالمسجد الحرام و مطلة عليه.

قال الغازي في الجزء الأول من تاريخه بصحيفة ٣٤٢: قال الإمام الأزرقي: و بحرم مكة، شرفها الله تعالى، اثنا عشر ألف جبل.

جبل أبي قبيس و ارتفاعه ٤٢٠ مترا

روى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال "أول بقعة وضعت من الأرض موضع البيت، ثم مدت منه الأرض، و إن أول جبل وضعه الله تعالى على وجه الأرض أبو قبيس، ثم مدت منه الجبال." قال العزيمي في شرحه على الوقع الصغير، قال الشيخ: حديث صحيح لغيره ٥١.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧٧

و روى الإمام الأزرقي في تاريخه: عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، أنه قال: لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات و الأرض، بعث الله تعالى ريحا هفافة فصفت الماء، فأبرزت عن خشفة في موضع هذا البيت كأنها قبة، فدحا الله الأرضين من تحتها فمادت ثم ماتت، فأوتدها الله تعالى بالجبال، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس، فلذلك سميت مكة أم القرى ٥١. و جبل أبي قبيس هو أحد أخشبى مكة، و كان أبو قبيس يسمى فى الجاهلية الأمين، لأن الركن الأسود كان فيه مستودعا عام الطوفان، فلما بنى إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام البيت نادى أبو قبيس أن الركن منى بموضع كذا و كذا، و قيل أتى به جبريل عليه السلام من الجبل و سلمه إلى إبراهيم.

أما الأخشب الثانى فهو جبل قعيقعان الذى نسميه الآن "بجبل هندی" و سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى.

قال الأزرقي: و بلغنى عن بعض أهل العلم من أهل مكة أنه قال: إنما سمي أبو قبيس أن رجلا أول من نهض بالبناء فيه كان يقال له أبو قبيس، فلما صعد فيه بالبناء، سمي جبل أبي قبيس، و يقال كان الرجل من إباد، و يقال اقتبس منه الركن فسمى أبو قبيس، و الأول أشهرهما عند أهل مكة. ٥١.

و اعلم أنه يمتاز جبل أبي قبيس عن بقية الجبال بما يأتى:

(١) أنه أول جبل وضع على وجه الأرض.

(٢) أن الله تعالى استودعه الحجر الأسود زمن طوفان نوح عليه السلام.

(٣) أنه يشرف على الكعبة المعظمة، بل إن الربوة التى بنيت عليها الكعبة تتصل بأصل جبل أبي قبيس.

(٤) أن انتشار الدعوة إلى الإسلام جهرا لأول مرة، كان فى الدار التى أسفل أبي قبيس المسماة "بدار الأرقم" و الشهيرة بدار الخيزران، فقد كان النبي صلى الله عليه و سلم يختبئ فيها هو و من آمن معه، و يصلون بها سرا، حتى أسلم عمر رضى الله عنه، فجهروا بالإسلام، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه: و ما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر.

(٥) أن أصل الصفا الذى يبدأ السعى منه يقع فى أسفل أبي قبيس فى مقابلة ركن الحجر الأسود.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧٨

(٦) أن انشقاق القمر حصل عليه، و ذلك معجزة لرسول الله صلى الله عليه و سلم.

(٧) كان نصب المنجنيق زمن محاربة ابن الزبير رضى الله عنهما، على أبى قبيس و على قعيقعان.

و كفى بجبل أبى قبيس شرفاً أنه بمكة مطل على بيت الله الحرام، بينهما أمتار معدودة، و مع هذا نوجب كيف لم تؤخذ منه الصخور و الأحجار لأساس الكعبة و بنائها كما أخذت من الجبال الأخرى. مع أنه هو أول جبل وضع على وجه الأرض ثم منه امتدت الجبال. قال الغازى فى تاريخه فى الفصل الأول، عند ذكر جبال مكة ما نصه:

(فمنها) الجبل المعروف بأبى قبيس، و هو الجبل المشرف على الصفا، و هو أحد أخشى مكة، و سمي بأبى قبيس باسم رجل من إباد يقال له أبو قبيس، ذكره الأزرقى، و قيل إن الرجل من مذحج، ذكره ابن الجوزى، و قيل سمي بأبى قبيس باسم رجل من جرهم كان قد وشى بين عمرو بن مضاى و بين ابنة عمه مية فنذرت أن لا تكلم، و كان شديد المحبة لها، فحلف ليقتلن قبيسا فهرب منه فى الجبل المعروف به، و انقطع خبره. و قال الأزرقى: الأول أشهر عند أهل مكة، و قيل إنه اقتبس منه الحجر، و كان يسمى فى الجاهلية الأمين لأن الحجر الأسود استودعه الله فيه من الطوفان على قول، فلما بنى الخليل الكعبة نادى أبو قبيس:

الركن منى بمكان كذا و كذا. و قيل إن آدم اقتبس منه نار الدنيا، و عن مجاهد:

أول جبل وضع على وجه الأرض أبو قبيس، ثم مدت الجبال منه، ذكره الأزرقى و الواحدى، كذا فى تحصيل المرام. و قال أيضاً: و فى الإعلام: سمي بأبى قبيس لأن رجلا من إباد يكنى أبا قبيس، سعد فيه، و بنى فيه بناء فعرف به. قال الفاكهى: اعلم أن الدعاء فيه يستجاب، و أن وفد عاد قدموا إلى مكة للاستسقاء لقومهم، فأمروا بالطلوع إلى أبى قبيس للدعاء، و قيل لهم: لم يعله خاطئ يعرف الله منه الإنابة إلا جابه إلى ما دعاه إليه. و فيه على إحدى الروايات قبر آدم و حواء و شيث عليهم السلام، قال الذهبى فى تاريخ مدة آدم و بنيه ما نصه: و خلف بعده شيث ابنه و نزلت عليه خمسون صحيفة و عاش تسعمائة سنة، و دفن مع أبويه فى غار أبى قبيس، انتهى.

و قال وهب بن منبه: حفر لآدم فى موضع من أبى قبيس فى غار يقال له غار الكنز، قال الفاسى: و هذا الغار لا يعرف الآن، فاستخرجه نوح عليه السلام يوم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٧٩

عرفه، فجعله فى تابوت معه فى السفينة، فلما نضب الماء رده إلى مكانه، انتهى.

و قيل غير ذلك، و فيه موضع يزعم الناس أن القمر انشق فيه للنبي صلى الله عليه و سلم، و ليس لذلك صحة، كذا ذكره السيد التقى الفاسى، قال: و هو أول جبل وضعه الله تعالى فى الأرض، انتهى ما فى الإعلام.

و فى تحصيل المرام قال القرشى: كون وقع انشقاق القمر فى الموضع الذى يقوله الناس اليوم، فلم أر ما يدل على ذلك، انتهى. قال: و اعتادت الناس أكل الرأس فوقه، و يظنون أنه سنة و يأكلون ذلك فى رأس الجبل، و فى وسط صهريج معد للماء لما كان على رأسه قلعة لبعض ملوك مكة بناها مكتر أخو داود بن عيسى يتخلص بها عند انهزامه من أخيه داود، ثم بعد ذلك نقضها مكتر لما ولى مكة بدل أخيه داود، و ذلك فى سنة خمسمائة و ثمان و ثمانين، كذا فى تاريخ مصطفى الشهرى بجناى، و عامة الناس يسمون ذلك المحل حبس الحجاج و ليس كذلك، و هو الآن خراب قد انهدم سقفه.

و فوق أبى قبيس مسجد مشرف على الكعبة و الحرم بناه رجل هندى كما أخبرنى بذلك والدى سنة ألف و مائتين و خمس و سبعين، و كانت حجارة مرضومة فى ذلك المحل يقال إنه مسجد إبراهيم و ليس هو خليل الرحمن و إنما هو رجل آخر.

و فى ذلك المحل شبح صخرة من جهة المشرق يقول الناس أن هذا المحل كان الحجر الأسود فى زمن الطوفان إلى زمن إبراهيم عليه السلام، فأخذه من هذا المحل، و لم أر أثرا و لا خبرا صحيحا ما يدل على ذلك أنه كان فى هذا المحل بعينه، و الله أعلم. انتهى ما فى تحصيل المرام.

و ذكر السيد أحمد دحلان فى سالناماته الحجازية أن الفزوينى ذكر فى عجائب المخلوقات أن من خواص جبل أبى قبيس أن من

أكل فيه الرأس المشوى يؤمن من وجع الرأس، فصار كثير من الغرباء يحرصون على فعل ذلك، لا سيما حجاج الجاوا. قال العلامة المنلا على القارى فى شرح اللباب أن ذلك كلام باطل لا أصل له. انتهى من تاريخ الغازى.

وجاء أيضا فى كتاب "الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها و بناء البيت الشريف"، للعلامة ابن ظهيره القرشى عن جبل أبى قبيس ما نصه: الجبل المعروف بأبى قبيس أحد أخشى مكة المشرف على الصفا، و هو مشهور لا يحتاج إلى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨٠

بيان، و يروى عن وهب بن منبه رضى الله عنه، أن قبر آدم صلوات الله عليه فى غار فى جبل أبى قبيس، يقال له غار الكنز بالنون و الزاء المعجمة، و أن نوحا عليه السلام لما جاء الطوفان استخرجه من الغار و جعله فى تابوت حمله فى السفينة، فلما غيض الماء أعاده إلى الغار، و الله أعلم بذلك، و هذا الغار لا يعرف الآن، و قيل إن قبره بمسجد الخيف بعد أن صلى عليه جبريل عند باب الكعبة، و قيل بيت المقدس، و قيل ببلاد الهند، و صحح الحافظ ابن كثير فى تفسيره، و نقل عن الذهبى أن قبر حواء و شيث فى جبل أبى قبيس، و الله أعلم بالحقائق.

و من فضائله: أنه كان يدعى الأمين فى الجاهلية، لأن الحجر الأسود استودع فيه عام الطوفان، فلما بنى الخليل الكعبة ناداه الجبل: الركن منى بمكان كذا و كذا، فجاء به جبريل فوضعه موضعه.

(و منها): أنه أول جبل وضع على وجه الأرض حين مات، روى ذلك عن ابن عباس و مجاهد.

(و منها): أن الدعاء يستجاب فيه كما ذكره الفاكهى، و استشهد لذلك بحكاية الوفد الذين استسقسوا فيه، فأجيب لهم و سقوا.

(و منها): انشقاق القمر عليه كما ذكره القطب الحلبي و غيره، و نقل عن بعض العلماء أنه أفضل جبال مكة حتى حراء، و علل بكونه أقرب الجبال إلى الكعبة الشريفة، قال الفاسى رحمه الله، و فى النفس شىء من تفضيله على حراء لكونه صلى الله عليه و سلم كان يكثر إتيانه للعبادة، و يقيم به لأجلها شهرا فى كل عام، و فيه أكرم بالرسالة، و لم يتفق له صلى الله عليه و سلم مثل ذلك فى جبل سواه، و ذلك مما يقتضى امتيازاه بالفضل. و الموجب لتفضيل دار خديجة رضى الله عنها، على غيرها من دور الصحابة طول سكناه عليه السلام بها، و نزول الوحي عليه فيها، لا لأجل القرب من الكعبة إذ كثير من البيوت أقرب إليها منه، كدار العباس بالمسعى، و دار الأرقم بالصفا، و الله أعلم. انتهى.

ثم فى تسميته بأبى قبيس أقوال أرجحها أنه سمي باسم رجل من إياد يقال له أبى قبيس بنى فيه.

(فائدة) نقل القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات من خواص جبل أبى قبيس، أن من أكل فيه الرأس المشوى يأمن أوجاع الرأس، و كثير من الناس يفعلون، و الله أعلم بحقيقته ذلك. انتهى من الكتاب المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨١

جبل قعيقان (أى جبل هندى)

جبل قعيقان ارتفاعه (٤٣٠) مترا، هو الجبل الثانى من أخشى مكة، و الأخشب الأول جبل أبى قبيس، و قعيقان هو ما نسميه اليوم "بجبل هندى"، و سمي بقعيقان لتقعع السلاح به فى حرب جرهم مع قطورا، و هما يومئذ أهل مكة، فكانت جرهم بأعلا مكة و قعيقان و ملكهم يسمى مضاض بن عمرو، و كانت قطورا بأسفل مكة و أجيادين و ملكهم يسمى السמידع.

و قيل: سمي بقعيقان لوجود سلاح تبع به حينما قدم مكة، و كان خيل تبع بأجياد فلذلك سميت أجيادا.

و فى الحقيقة الأخشب الثانى هو الجبل الصغير الذى بأسفل قعيقان المطل على الكعبة، و هو الذى كان يسمى "بالأحمر"، كما كان يسمى بالجاهلية "بالأعرف" و لكن لما كثر السكان و البيوت بالجبل اختلطت الجبلان ببعض فصارا كالجبل الواحد، و فيه كانت بيوت

و دور عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما، و عليه نصب المنجنيق أيضا فى محاربتة مع الحجاج، فإن وجهه الشرقى يطل على الكعبة و المسجد الحرام و يقال جبل أبى قبيس. و جبل قعيقعان جبل عظيم طويل ممتد، و فى أصله تقع المروة من جهة المدعى أى فى الشمال الشرقى للمسجد الحرام، قال صاحب العقد الفريد: الواقف على درج المروة يرى ميزاب البيت و ما اتصل به. و من عجب ما رواه الغازى فى تاريخه ناقلا- عن ابن فهد، أنه قال: و فى سنة (٨١٧) سبعة عشر و ثمانمائة أنشأ عطية المطير سبيلا بالمروة و كان موضع هذا السيل قبل ذلك معدا للشئق، فقال شعبان الآثارى فى ذلك:

بمكة دار كان للشئق ركنها فأضحت سبيلا بعد كل بلية

و أضحى لسان الحال منها يقول قدرضيت من المولى بخير عطية

و قال بعضهم أيضا:

بمسعى رسول الله دار معدة لشئق فصارت للأنام سبيلا

و اليوم جبل قعيقعان جميع جهاته و أطرافه و رأسه عامرة بالمنازل و البيوت و السكان من جميع الأجناس، ففيها من أهل الحجاز و من أهل اليمن و من أهل الترك و الهنود و الشوام و غيرهم. انتهى من الغازى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨٢

قال الغازى فى تاريخه: جبل قعيقعان هو جبل مشرف على مكة و وجهه إلى أبى قبيس، ذكره الياقوت فى معجم البلدان. جبل الأحمر ذكره الأزرقى فى ذكر أخشبي مكة و قال: الجبل الذى يقال له الأحمر، و كان يسمى فى الجاهلية الأعراف، و هو الجبل المشرف و وجهه على قعيقعان و على دور عبد الله بن الزبير، و فيه موضع يقال له الجبر و الميزاب، إنما سمي الجبر و الميزاب لأن فيه موضعين يمسكان الماء إذا جاء المطر يصب أحدهما فى الآخر، فسمى الأعلى منهما الجبر، و الأسفل منهما الميزاب، و فى ظهره موضع يقال له قرن أبى ريش، و على رأسه صخرات مشرفات يقال لها الكبش عندها موضع فوق الجبل الأحمر يقال له قرارة المدحا، كان أهل مكة يتداحون هناك بالمداحى و المراضع. انتهى من تاريخ الغازى.

الدور التى بقعيقعان لابن الزبير

قال الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى فى تاريخه: و لعبد الله بن الزبير الدور التى بقعيقعان الثلاث المصطفة، يقال لها دور الزبير، و لم يكن الزبير يملكها، و لكن عبد الله ابتاعها من آل عفيف بن نبيه السهميين و من ولد منبه، و فيها دار يقال لها "دار الزنج"، و إنما سميت دار الزنج لأن ابن الزبير كان له فيها رقيق زنج، و فى الدار العظمى منهن بير حفرها عبد الله بن الزبير، و فى هذه الدار طريق إلى الجبل الأحمر و إلى قرارة المدحا، موضع كان أهل مكة يتداحون فيه بالمداحى و المراضع، و كانت لعبد الله بن الزبير أيضا دار بقعيقعان يقال لها "دار الحشنى" و كانت له دار البخاتى كانت بين دار العجلة و دار الندوة، و كانت إلى جنبها دار فيها بيت مال مكة، كانت من دور بنى سهم، ثم كان عبد الملك بن مروان قبضها بعد من ابن الزبير، ثم دخلت الدار التى كان فيها بيت المال فى دار العجلة حين بناها يقطين بن موسى للمهدى أمير المؤمنين، و صارت الأخرى للربيع، ثم هى اليوم فى الصوافى، و هى التى يسكنها صاحب البريد، و إنما سميت تلك الدار دار البخاتى لأن ابن الزبير جعل فيها بخاتيا كان أتى بها من العراق، و لهم دارا مصعب بن الزبير اللتان عند دار العجلة كانتا للخطاب بن نفيل العدوى، و لهم دار العجلة ابتاعها عبد الله بن الزبير من آل سمير بن موهبة السهميين، و إنما سميت دار العجلة لأن ابن الزبير حين بناها عجل و بادر فى بنائها، فكانت تبنى بالليل و النهار، حتى فرغ منها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨٣

سريعا، و قال بعض المكين: إنما سميت دار العجلة لأن ابن الزبير كان ينقل حجارتها على عجلة اتخذها على البخت و البقر.

انتهى كلام الإمام الأزرقي.

جبل عمر

جبل عمر يمتد من الشبيكة إلى المسفلة، وهو أهل بالسكان، وغالب حجاج اليمن يسكنون به اليوم، وهو جبل واقع من الجهة الغربية لمكة

قال الغازي في تاريخه: وفي تحصيل المرام وهذا الجبل يعرف الآن بجبل عمر، وهو الجبل المشرف على الهجلة، ومسجده قد بناه بعض تجار الهنود. انتهى من الغازي.

نقول: الهجلة محلة تحت جبل عمر، وهي من الأماكن التي كان يباع بها الحطب سابقا.

قال الغازي: وفي هذا الجبل موضع يقال له مولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وأهل مكة يسمونه جبل النوبى، اهـ.

وقال عنه القطبي: ومنها موضع فى أعلا جبل يقال له جبل النوبى، يقال أنه مولد سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يطلع الناس إليه للسير والفرجة، اهـ. انتهى.

قال الفاسي عن مولد عمر بن الخطاب بجبل النوبى "جبل عمر" ولا أعلم فى ذلك شيئا يستأنس به اهـ.

نقول، وهذا هو الحق، فمن أين نعلم موضع ولادة عمر، رضى الله تعالى عنه.

ويقول الأزرقي عن جبل عمر فى صحيفه (٢٣٦) من الجزء الثانى: جبل عمر الطويل المشرف على ريع عمر، اسمه العاقر، وقد قال الشاعر:

هيئات منها إن ألم خيالها سلمى إذا نزلت بسفح العاقر

ويقول عنه فى صحيفه ٢٣٩: جبل عمر، الجبل المشرف على حق آل عمر، وحق آل مطيع بن الأسود، وآل كثير بن الصلت الكندى، وعمر الذى ينسب

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨٤

إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكان يسمى فى الجاهلية ذا أعاصير. انتهى كلام الأزرقي.

نقول: إن ما يشاع على ألسنة العوام أنه على ظهر هذا الجبل موضع يسمى "ميرك الناقة" أى ميرك ناقة عمر رضى الله عنه، فهذا من الخرافات التى اخترعها الدجاجلة.

جبل ثور

إشارة

جبل ثور، بالثاء المثلىة، واقع جهة المسفلة على طريق اليمن وارتفاعه (٧٥٩) مترا، ويبعد هذا الجبل عن المسجد الحرام بثلاث كيلو مترات أو أربعة، وفى هذا الجبل الغار الذى اختفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع صاحبه أبى بكر رضى الله تعالى عنه، حينما قصد الهجرة إلى المدينة، قال البتوني: ومساحة الغار نحو مترين مربعين.

جاء فى تاريخ الخميس: وفى القاموس يقال له ثور أطحل، واسم الجبل أطحل نزله ثور بن عبد مناف، فنسب إليه ذلك الجبل. انتهى منه.

و جاء فى تاريخ الأزرقي ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى محمد بن أبى عمر العدنى عن سعيد بن سالم القداح، عن عمر بن

جميل الجمحي، عن ابن أبي مليكة أن النبي صلى الله عليه وسلم، لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور جعل أبو بكر يكون أمام النبي صلى الله عليه وسلم، وخلفه مرة، قال: فسأله النبي صلى الله عليه وسلم، عن ذلك، فقال: إذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك وإذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك، حتى انتهى إلى الغار وهو في ثور، قال أبو بكر رضى الله عنه، لما انتهى: حتى أدخل يدي فأحسسه، فإن كانت فيه دابة أصابتنى قبلك، قال: وبلغنى أنه كان فى الغار جحر فألقم أبو بكر رضى الله عنه، رجله ذلك الجحر فرقا أن يخرج منه دابة أو شيء يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، انتهى منه.

ولقد ورد خبر الغار فى القرآن الكريم، فقد قال تعالى: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا الْآيَةَ.**

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨٥

وورد فى الصحيحين عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما."

قال شيخنا، الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى، فى شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم" عند هذا الحديث ما خلاصته:

وسبب هذا الحديث كما فى الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبى بكر رضى الله عنه، قال، نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن فى الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما." قال القرطبي: والحديث ظاهر فى قوة توكله صلى الله عليه وسلم، وعظم منزلته أبى بكر رضى الله عنه بهذا القول، والغار المذكور فى القرآن، وفى قول الصديق ونحن فى الغار، هو كما قاله السهيلي وغيره: غار بجبل ثور أحد جبال مكة شرفها الله تعالى، وقد زرتة وبت فيه بعض الليالى تبركا بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، على عادة السلف الصالح كابن عمر رضى الله عنهما، وقرأت فيه تفسير قوله تعالى: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا الْآيَةَ.**

وحديث الهجرة من صحيح البخارى بطوله وسأذكره هنا للمناسبة عن قريب، إن شاء الله تعالى.

وكان من حديث الغار، كما قاله عياض وغيره: أن المشركين اجتمعوا لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيتوته، فأمر عليا أن يرقد على فراشه وقال: إنهم لن يضرؤك، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم على الباب ولم يروه، ووضع على رأس كل واحد التراب، وانصرف عنهم إلى غار ثور فاختموا فيه، وأخبروا أنه قد خرج عليهم ووضع التراب على رؤوسهم، فمدوا أيديهم إلى رؤوسهم فوجدوا التراب، فدخلوا الدار فوجدوا عليا على الفراش، فلم يتعرضوا له، ثم خرجوا فى كل وجه يطلبون النبي صلى الله عليه وسلم، ويقفون أثره بقائف معهم إلى أن وصلوا الغار، فوجدوا العنكبوت قد نسجت عليه.

(قال الأبي): قال السهيلي: ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار تقدم أبو بكر رضى الله عنه فى الدخول ليقية بنفسه، ورأى فيه جحرا فألقمه عقبه لثلا يخرج منه ما يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ثابت فى الدلائل: ولما دخلاه أنبت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨٦

الله سبحانه وتعالى، على بابه الرأء بالمد، وهى شجرة من غلاة الشجر تكون مثل قامة الإنسان، لها خيطان وزهر أبيض يحشى به المخاد كالريش فى خفته ولينه. وفى مسند البزار: أن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فعششتا على فم الغار، وأن ذلك مما صد المشركين عنه، وأن حمام مكة من نسل تينك الحمامتين، وأن قريشا لما انتهى بهم القائف إلى فم الغار، وجدوا ما ذكر على فم الغار، فحين رأهم أبو بكر رضى الله عنه، اشتد خوفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم

سلم، و قال: إن قتلت فإنما أنا رجل، و إن قتلت أنت هلكت الأمة، فحينئذ قال صلى الله عليه و سلم لأبي بكر: لا تحزن إن الله معنا، أى بالحفظ و الكلاءة. اهـ.

نقول: إن شجر الرء المذكور هنا الذى له زهر أبيض يحشى به المخاد كالريش - هو المسمى عندنا بالحجاز "بالطرف" بكسر الطاء و إسكان الرء، و نحن أيضا إلى اليوم نحشى به المخاد و الفراش أى المساند و الطواويل - و الحكمة فى ظهور هذا النبات على فم الغار دون غيره من النباتات، هى أن نبات الرء "الطرف"، شجر لين خفيف ينكسر سريعا بأقل لمس، فبقاؤه سليما صحيحا يدل على أنه لم يدخل الغار أحد، كما دل على ذلك نسيج العنكبوت و وجود الحمامتين، و الله تعالى أعلم.

ثم قال: أما حديث الهجرة فيناسب أن أذكر قبله ما أخرجه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين و مات و هو ابن ثلاث و ستين. و حديث الهجرة الطويل، هو ما أخرجه البخارى بلفظ: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث بن عقيل، قال ابن شهاب: فأخبرنى عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه و سلم قالت: لم أعمل أبوى قط إلا و هما يدينان الدين، و لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم، طرفى النهار بكرة و عشية. فلما ابتلى المسلمون، خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة، و هو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجنى قومي، فأريد أن أسيح فى الأرض و أعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج و لا يخرج، إنك تكسب المعدوم و تصل الرحم و تحمل الكل و تقرى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨٧

الضيف و تعين على نوائب الحق، فأنا لك جارا ارجع و اعبد ربك ببلدك، فرجع و ارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله و لا يخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم و يصل الرحم و يحمل الكل و يقرى الضيف و يعين على نوائب الحق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، و قالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره، فليصل فيها و ليقرأ ما شاء الله و لا يؤذينا بذلك و لا يستعلن به، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا و أبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره و لا يستعلن بصلاته و لا يقرأ فى غير داره، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره، و كان يصلى فيه و يقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين و أبناءهم، و هم يعجبون منه و ينظرون إليه، و كان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك عينه إذا قرأ القرآن، و أفرغ ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرين أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجدا بفناء داره، فأعلن بالصلاة و القراءة فيه، و إنا قد خشينا أن يفتن نساءنا و أبناءنا فانه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل، و إن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإننا قد كرهنا أن نخفرك، و لسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال: علمت الذى عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، و إما أن ترجع إلى ذمتى، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإنى أرد إليك جوارك، و أرضى بجوار الله عز و جل، و النبى صلى الله عليه و سلم يومئذ بمكة، فقال النبى صلى الله عليه و سلم للمسلمين: إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين، و هما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة، و رجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، و تجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم:

على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى، فقال أبو بكر: و هل ترجو ذلك، بأبى أنت و أمى، قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه و سلم ليصحبه و علف راحلتين كانتا عنده ورق السمر و هو الخبط أربعة أشهر.

قال ابن شهاب، قال عروة، قالت عائشة: بينما نحن يوما جلوس فى بيت أبى بكر فى نحو الظهرية، قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم، متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فدى له أبى و أمى، و الله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستأذن، فأذن له فدخل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨٨

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: فإني قد أذن لى فى الخروج، فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بالثمن. قالت عائشة:

فجهزنا هما أحث الجهاز و صنعنا لهما سفرة فى جراب، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق.

قالت: ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر بغار فى جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر، وهو غلام شاب ثقف لقن، فیدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبانت، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل وهو لبن منحتهما ورضفيهما حتى ينفق بها عامر بن فهيرة بفلس، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث، واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الديل، وهو من بنى عبد بن عدى هاديا خزيتا، والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفا فى آل العاص بن وائل السهمى، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفع إليه راحلتيهما و وعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما صبح ثلاث، و انطلق معهما عامر بن فهيرة و الدليل فأخذ بهم طريق السواحل.

قال ابن شهاب: وأخبرنى عبد الرحمن بن مالك المدلجى وهو ابن أخى سراقه بن مالك بن جعشم، أن أباه أخبره أنه سمع سراقه بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبى بكر دية كل واحد منهما من قتله أو أسره، فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومي بنى مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقه إني قد رأيت آنفا أسودة بالساحل أراه محمدا وأصحابه، قال سراقه: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا و فلانا انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم، ثم لبثت فى المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى، وهى من وراء أكمة، فتحبسها على، وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجة الأرض و خفضت عاليه، حتى أتيت فرسى، فركبتها فرفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى فخررت عنها فقممت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٨٩

أكره، فركبت فرسى و عصيت الأزلام تقرب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغت الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عناء ساطع فى السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذى أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسى حتى جئتهم، و وقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديه، و أخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، و عرضت عليهم الزاد و المتاع، فلم يرزآنى و لم يسألانى إلا أن قال: أخف عنا، فسألته أن يكتب لى كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى ورقة من أديم، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن شهاب: فأخبرنى عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام، فكسى الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بيض، و سمع المسلمون بالمدينة، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، من مكة فكانوا يفتدون كل غداة إلى الحره، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهره، فانقلبوا يوما بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أوتوا

إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه مبسطين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بظهر الحرّة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف. وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس و جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك، فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ركب راحلته فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، بالمدينة، وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذة مسجدا، فقالا: لا بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩٠

صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدا، و طفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن في بنيانه، ويقول وهو ينقل اللبن:

هذا الحمال لا حمال خيب هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى. قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت اه بطوله، بلفظ البخارى في صحيحه. انتهى من شرح زاد المسلم.

ولقد أخرج البخارى أيضا حديث الهجرة في مناقب المهاجرين وفضلهم، وفي علامات النبوة قصة حديث الهجرة مختصرة، لا ضرورة لذكرها، ففي الحديث المتقدم كفاية تامة. وقد قدمنا الكلام على الهجرة في فصل خاص في أوائل الكتاب عند سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وإليك صورة جبل ثور و صورة الغار.

انظر: صورة رقم ٦٣، لغار ثور من كتاب مرآة الحرمين لمؤلفه إبراهيم رفعت باشا

هذا و نكتفى هنا بالحديث الطويل الصحيح المذكور، وقد ذكرنا هذا الحديث أيضا مع التفصيل التام عن اختفاء النبي صلى الله عليه وسلم بجبل ثور عند الكلام على هجرته إلى المدينة. فلنذكر الآن شيئا يتعلق بنفس جبل ثور و الغار الذى فيه:

فقد قال الغازى في تاريخه: ومنها جبل ثور "بالثاء" وهو بأسفل مكة، و سماها البكرى أبو ثور، و المعروف فيه ثور كما ذكره الأزرقى و المحب الطبرى، و هو من مكة على ثلاثة أميال، على ما ذكره ابن الحاج و ابن جبير، و قال البكرى أنه على ميلين من مكة و فوقه الغار الذى دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم و الغار ثقب فى أعلى ثور، و ثور جبل على مسيرة ساعة من مكة، و فى القاموس يقال له ثور أطحل، و اسم الجبل أطحل نزله ثور بن عبد مناف، فنسب إليه، و فى المعجم أنه من مكة على ميلين و ارتفاعه نحو ميل و فى أعلاه الغار الذى دخله النبي صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر و هو المذكور فى القرآن فى قوله تعالى: تَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، و قصته مشهورة فى السير، كذا فى تحصيل المرام.

و فى شفاء الغرام ذكر ابن جبير فى رحلته أن طول الغار ثمانية عشر شبرا، و طول فمه الضيق خمسة أشبار، وسعته و ارتفاعه عن الأرض مقدار شبر، فى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩١

الوسط منه و في جانبه ثلثا شبر، و على الوسط منه يكون الدخول، و سعة الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار، انتهى. و قد وسع بابه في عصرنا الحاضر لأن بعض الناس ولج منه، فانحبس فيه، فنحت عنه الحجر حتى اتسع إليه، و ذلك في سنة ثمانمائة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل، انتهى.

و قال ابن فهد: و في سنة عشر و ثمانمائة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل، سد الأمير تغرى برمش التركمانى الباب الضيق من الغار الشريف بجبل ثور بأسفل مكة، لكون كثير ممن يريد دخوله من بابه الضيق انحبس فيه لما ولج منه، و انتقد عليه كثيرا إمام الحنفية بالمسجد الحرام الشيخ شمس الدين المصيد، و منعه من الأخذ عنه حتى يزيل ما سده، و يحدث توبة لبيب ذلك، انتهى.

و ذكر الإمام أبو محمد على بن أحمد بن حزم الظاهري، المتوفى سنة (٤٥٦) ست و خمسين و أربعمائة، في الجزء الثاني من كتاب الفصل في الملل و الأهواء و النحل، في ذكر معجزاته صلى الله عليه و سلم، و رميه بتراب عم عيونهم، و خروجه بحضرة مائة من قريش و هم لا يرونه، و دخول الغار و هم عليه لا يرونه، و فتح الباب في حجر صلد في جنب الغار لم يكن فيه قط، و لو كان هنالك يومئذ لما أمكنه الاختفاء فيه لأنه ليس بين البابين إلا- أقل من ثمانية أذرع، و هو ظاهر إلى اليوم، كل عام و كل حين يزوره أهل الأرض من المسلمين، و لو رام فتح الباب الثاني في ذلك الحجر أهل الأرض ما قدروا على إزاحته سالما عن مكانه، و لو كان ذلك الباب هنالك يومئذ لراه الطالبون له بلا- مؤنة لأنهم لم يكونوا إلا جموع قريش لعلمهم مؤن كثيرة، و آثار رأسه المقدس في ذلك الحجر، و آثار كتفيه و معصم و ظاهر يده باقية إلى اليوم، انتهى.

و في الإعلام: قال المرجاني في بهجة النفوس: ذكر لي أن رجلا كان له أموال و بنون، و أنه أصيب بذلك، فلم يحزن، و لم يزغ على مصابه لقوة صبره و تحمله، فسأله عن ذلك فقال: روى أنه من دخل غار ثور الذي كان أوى إليه النبي صلى الله عليه و سلم، و صاحبه أبو بكر رضى الله عنه، و سأل الله تعالى أن يذهب عنه الحزن لم يحزن على شيء من مصائب الدنيا، و قد فعلت ذلك فما وجدت قط حزنا. قال المرجاني: هذه الخاصية من تأثير قوله تعالى: ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩٢

و هذا الغار مشهور معروف يتلقاه الخلف و السلف و يزوره الناس، و يدخلون إليه من بابه الكبير الذي يروى أن جبريل عليه السلام، ضربه بجناحه، ففتحه و قل أن يدخل إليه أحد من بابه الضيق، لأن الدخول منه عسر و يحتاج إلى فطنة، و المشهور عند العوام أن من احتبس فيه لا يكون ابن أبيه و ذلك كلام باطل لا أصل له، و قد تعوق فيه قديما و حديثا، و في عصرنا حبس فيه كثير من الناس و أخذ لهم حجارون من مكة، فقطعوا عنه، و تكرر ذلك كثيرا في كل عصر، و مع ذلك لم يتسع كثيرا، بل يتعوق الناس فيه للجهل بكيفية الدخول، خصوصا إذا كان شخصا بطينا، و طريق الدخول فيه أن الداخلة إليه ينطح على وجهه و يدخل رأسه و كتفيه، ثم يحيل إلى جانب يساره فلا يجد ما يعوقه، و ليسلك مائلا إلى اليسار، و أما من لا يعرف طريق الدخول، يدخل رأسه و كتفيه و يستمر داخلا بباقي جسده، فتعديه صخرة أمامه و تعوقه، فيرفع رأسه إلى فوق و يحبس بوسطه، فلا يمكنه الولوج لسمنه، و كلما شدد في الدخول تعوق، و ينحبس فيحتاج إلى حجار يقطع قليلا ليخلصه و لا يتفطن للميل إلى الجهة اليسرى ليخلص بسهولة، و لكن الحدق قد اتسع كثيرا الآن، انتهى.

قال الفاسي: و فيه من كل نبات الحجاز و شجره، و فيه شجر البان، و فيه شجرة من حمل منها شيئا لم تلدغه هامة، و نقل في بعض الروايات عن ابن عباس أن قاتل قابيل أخاه هاويل كان في جبل ثور. انتهى.

انتهى من الغازي.

نقول: ما ذكره هنا من أن قابيل قتل أخاه هاويل في جبل ثور غير صحيح، و يبعد أن يقع أول قتل في الأرض في جبل ثور، الذي هو واقع في أشرف بقعة في حدود الحرم بمكة، و من يعلم في أى بقعة من الأرض كان قابيل و هاويل في العصر الأول من عهد آدم عليه السلام، لكن إذا صحت الرواية القائلة بذلك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه و عن أبيه العباس آمنة و صدقنا، فأين الدليل و أين

السند؟ وما ذكره بأنه يوجد في هذا الجبل من كل نبات الحجاز و شجره، هذا أمر لا وجود له اليوم، فليس حول هذا الجبل شجر ولا نبات مطلقاً، فربما كان ذلك في عهد الجاهلية، والله تعالى أعلم.

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم، قد خلع نعليه في طريق الغار، و كان يمشى على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثرهما على الأرض حتى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩٣

حفيت رجلاه "أى: رقنا من كثرة المشى" فلما رآه أبو بكر و قد حفيت رجلاه حمله على كاهله، و جعل يشد حتى أتى الغار. كذا في دلائل النبوة.

ثم جاء فيه بعد هذا الكلام ببضعة أسطر ما يأتي: و روى عن أبي بكر أنه قال لعائشة: لو رأيتنى و رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ صعدنا الغار، فأما قدما رسول الله صلى الله عليه و سلم فتفطرتا، و أما قدماى فعدتا كأنهما صفوان، قالت عائشة: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يتعود الحفية و لا الرعية. و روى عن أبي بكر أنه قال: نظرت إلى قدمى رسول الله صلى الله عليه و سلم في الغار، و قد فطرتا دما فاستبكت، فعلمت أنه صلى الله عليه و سلم لم يتعود الحفاء و لا الحفوة، قال ابن هشام: و حدثنى بعض أهل العلم، أن الحسن البصرى قال: انتهى رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر إلى الغار قبل رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلمس الغار لينظر فيه سيع أو حية ليقى رسول الله صلى الله عليه و سلم بنفسه.

و فى معالم التنزيل: قال أبو بكر: يا رسول الله مكانك حتى أستبرئ الغار، و كان الغار مشهوراً بكونه مسكن الهوام و الوحش، قال: ادخل، فدخل فرأى غاراً مظلماً فجلس و جعل يلتمس بيده، و كلما وجد جحراً أدخل فيه إصبعه حتى انتهى إلى جحر كبير فأدخل رجله إلى فخذه فأخرجه.

و فى رواية: كلما وجد جحراً شق ثوبه فألقمه إياه حتى فعل ذلك بثوبه كله، فبقى جحر فألقمه عقبه.

و فى الرياض النضرة: فجعل الحيات و الأفاعى يضربنه و يلسعنه، انتهى. و على كل التقديرين لدغته الحية تلك الليلة. قال أبو بكر: فلما ألقمت عقبى الجحر لدغتنى الحية و إن كانت اللدغة أحب إلى من أن يلدغ رسول الله صلى الله عليه و سلم. انتهى. ثم قال أبو بكر: ادخل يا رسول الله فى إنى سويت لك مكاناً، فدخل فاضطجع، رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أما أبو بكر فكان متألماً من لدغة الحية، و لما أصبح رأى النبى صلى الله عليه و سلم على أبي بكر أثر الورم فسأل عنه، فقال: من لدغة الحية، فقال النبى صلى الله عليه و سلم:

هلا أخبرتنى، قال: كرهت أن أوقظك، فمسحه النبى صلى الله عليه و سلم بيده فذهب ما به من الورم و الألم، ثم قال: فأين ثوبك يا أبا بكر؟ فأخبره بما فعل، فعند ذلك رفع النبى صلى الله عليه و سلم يديه فقال: اللهم اجعل أبا بكر فى درجتى يوم القيامة، فأوحى الله إليه قد استجاب لك، كذا فى المنتقى، خرجه الحافظ أبو الحسين بن بشر و الملا فى سيرته عن ميمون بن مهران عن بن محصن القنوني.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩٤

و عن ابن عباس: قال له رسول الله صلى الله عليه و سلم، رحمك الله صدقتنى حين كذبتى الناس، و نصرتنى حين خذلتى الناس، و آمنت بى حين كفر بى الناس، و آنستنى فى وحشتى، فأى منة لأحد على مثلك، خرجه فى فضائله، ذكره فى الرياض النضرة.

و فى معالم التنزيل قال رسول الله صلى الله عليه و سلم، لأبى بكر: أنت صاحبى فى الغار، و صاحبى فى الحوض.

قال الحسن بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم فهو كافر لأنكاره نص القرآن، و فى سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً لا كافراً، انتهى من تاريخ الخميس.

لم يتمكن إلى اليوم من الصعود إلى جبل ثور "بالتاء"، حتى نصف الغار وصف مشاهدته، فوصفنا له الآن على حسب ما جاء في كتب التاريخ على حد قول القائل:

و إذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار
فنقول و بالله التوفيق:

إن الغار يقع فوق جبل ثور، و باب الغار يكون في أعلا-الغار لا في جانبه، و ذلك زمن رسول الله صلى الله عليه و سلم، أى قبل توسعه باب الغار، كما يدل على ذلك ما يأتي:

ذكر الغازي في تاريخه نقلا عن البكري، أن جبل ثور على ميلين من مكة، و فوقه الغار الذي دخله رسول الله صلى الله عليه و سلم، و الغار ثقب في أعلا ثور، و ثور جبل على مسيرة ساعة من مكة هـ.

و الذي يدل على أن الباب في علو الغار، ما جاء في الصحيحين و اللفظ لمسلم عن أبي بكر رضى الله تعالى عنه، قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا و نحن في الغار، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما، انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩٥

قال الغازي: و في شفاء الغرام: ذكر ابن جبير في رحلته أن طول الغار ثمانمائة عشر شبرا، و طول فمه الضيق خمسة أشبار، و سعته و ارتفاعه عن الأرض مقدار شبر في الوسط منه، و في جانبيه ثلثا شبر، و على الوسط منه يكون الدخول، و سعة الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار، انتهى. و قد وسع بابه في عصرنا لأن بعض الناس ولج منه فانحبس فيه، فنحت عنه الحجر حتى اتسع عليه، و ذلك في سنة ثمانمائة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل، انتهى من الغازي.

و قد تقدم هنا ما ذكره ابن فهد في تاريخه: أنه في سنة عشر و ثمانمائة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل سد الأمير تغرى برمش التركمانى الباب الضيق من الغار الشريف بجبل ثور، لكون كثير ممن يريد الدخول من بابه الضيق انحبس فيه لما ولج منه ... الخ كلامه المذكور في هذا الباب.

و قال ابن ظهيرة في كتابه "الجامع اللطيف": "و للغار الذى فى جبل ثور بابان واسع و ضيق، و كثير من الناس يتجنب دخوله من الباب الضيق لما يقال أن من لم يدخل منه و تعوق فليس لأبيه، و هو باطل لا أصل له، و قد وسع الباب الضيق فى حدود عام ثمانمائة لأن بعض الناس أراد الدخول منه فانحبس، فنحت منه حتى اتسع و تخلص. انتهى.

و فى عصرنا هذا وسع باب غار ثور الشريف عون الرفيق بعد توليته إمارة مكة شرفها الله تعالى، فقد قال البتونى فى كتابه "الرحلة الحجازية": "إن شريف مكة، الشريف عون الرفيق ابن محمد بن عون، الذى تولى إمارة مكة سنة (١٢٩٩) هجرية، أمر بتوسيع باب غار ثور "بالتاء"، و هو الذى خيم على بابه العنكبوت بعدما أوى إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم، مع رفيقه أبى بكر عند هجرتهم من مكة إلى المدينة، و كان بابه لا يسع إلا نفرا واحدا يدخل منه زاحفا على بطنه- و كان الناس يزعمون أن لا يدخله إلا السعيد و أما الشقى فلا- فأراد الشريف عون بتوسيع هذا الباب إزالة هذا الوهم الفاسد، إلا أنه لم يكن له على كل حال أن يغير شكل أثر طبيعى مثل هذا من أجل الآثار و من الأشياء التى كان الإنسان يقدر فيها تلك المعجزة التى خدمت الطبيعة فيها أشرف مخلوق حتى حيل بينه و بين أعدائه. انتهى من الرحلة الحجازية.

و قال إبراهيم رفعت باشا فى كتابه "مرآة الحرمين" و هو يصف ذهابه إلى جبل ثور مع رفقائه: فخرجنا من مكة قبل فجر يوم ١٨ ذى الحجة سنة ١٣١٨ ثمانية

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩٦

عشر و ثلاثمائة و ألف (٨ إبريل سنة ١٩٠١)، قاصدين زيارة هذا الغار، و كان بصحبنا صاحبا الفضيلة الشيخ محمد طوموم و الشيخ محمد أحمد السيوطى صهرانا و جملة من الحجاج و ثلة من الجنود نتقى بهم أشرار الأعراب فى سبيل لا يمر به إلا القليل، و قد انتحينا ناحية الجنوب فى سيرنا، و صلينا فرض الصبح قبل الوصول إلى الجبل، و قد قطعنا المسافة بينه و بين معسكرنا بالشيخ محمود بجرول فى ساعة و ٢٠ دقيقة بسير الخيل المعتاد، و هى قريبة من خمسة أميال و نصف، و الطريق من مكة إلى الجبل تحفه الجبال من الجانبين و به عقبه صغيرة يرتفع إليها الإنسان و ينحدر منها، و لم يستغرق قطعها إلا (٣) دقائق، و بالطريق سبعة أعلام مبنية بالحجر و مجصصة فوق نشوز من الأرض يبلغ ارتفاع الواحد منها ثلاثة أمتار و قاعدته متر مربع، و تنتهى بشكل هرمى، و هذه الأعلام على يسار القاصد للجبل، و بين كل اثنين منها بعد يتراوح بين ٢٠٠ و ١٠٠٠ متر، و كل واحد منها وضع عند تعريجه حتى لا يضل السالك عن الجبل، و ساعة بلغنا الجبل قسمنا قوتنا قسمين، قسم صعد معنا إلى الجبل، و الآخر وقف بسفحه يرد عنا عادية العربان إن هموا بالأذى.

و قد تسلقنا الجبل فى ساعة و نصفها، بما فى ذلك استراحة دقيقة أو اثنتين كل خمس دقائق، بل فى بعض الأحيان كنا نستريح خمس دقائق لأن الطريق و عر حلزونى، و قد عددت (٥٤) تعريجه إلى نصف الجبل، و كنا آونة نصعد و أخرى ننحدر حتى وصلنا الغار بسلام، و لولا الاصلاح الذى أحدثه المشير عثمان باشا نورى الذى ولى الحجاز سنة (١٢٩٩ هـ) تسع و تسعين و مائتين و ألف، و المشير السيد إسماعيل حقى باشا الذى كان واليا على الحجاز و شيخا للحرم سنة (١٣٠٧ هـ) ألف و ثلاثمائة و سبع، لازدادت الصعوبة و ضل السائر عن الطريق، و لم يهتد إلى الغار لعظم الجبل و اتساعه و تشعب مسالكه (منظر رقم ٨٢)، و كان من أثر إصلاحها جعل الطريق بهيئة سلالم تارة تتصعد و أخرى تنحدر، على أنه مع ذلك لا يزال العروج صعبا، فقد رأيت بعض الصاعدين امتقع لونه و خارت قواه فوقع على الأرض مغشيا عليه، و لولا أننا تداركناه بجرعة من الماء شربها و صبابة منه سكبناها على رأسه حتى أفاق لباغته المنية، و لهذا ننصح للزائرين بأن يتزودوا من الماء ليقوا أنفسهم شر العطب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩٧

و لما بلغنا الغار وجدناه صخرة مجوفة فى قنة الجبل أشبه بسفينه صغيرة ظهرها إلى أعلى و لها فتحتان فى مقدمها واحدة و فى مؤخرها أخرى، و قد دخلت من الغربية زاحفا على بطنى ماذا ذراعى إلى الأمام، و خرجت من الشرقية التى تتسع عن الأولى قليلا- بعد أن دعوت فى الغار و صليت، و الفتحة الصغيرة عرضها ثلاثة أشبار فى شبرين تقريبا، و هى الفتحة الأصلية التى دخل منها النبى صلى الله عليه و سلم، و هى فى ناحية الغرب، أما الفتحة الأخرى فهى فى الشرق، و يقال إنها محدثة ليسهل على الناس الدخول إلى الغار و الخروج منه، و الغار من الجبل فى الناحية الموائية لمكة، و قد وجدنا بجانبه رجلا عربيا يتناول الصدقات من الزائرين فى مواسم الحج و يرشدهم إلى الغار إذ توجد هناك صخور تشبه صخرته، و لكنها لا تماثلها تماما، و قد مكثنا فوق ظهر الجبل ساعتين أكلنا فيهما و شربنا و تناولنا الشاى و تفقدنا كثيرا من نواحي الجبل، و قد نزل فى خلالها القسم الذى زار و جاء القسم الذى تركناه بسفح الجبل ليزور، و قد قدم علينا و نحن على ظهر الجبل نحو عشرين من حجاج الداغستان، ففرحوا بنا و رافقونا إلى أن رجعنا إلى مكة. و لا يقصد زيارة هذا الغار و غار حراء إلا قليل من الأتراك و المغاربة و الداغستانيين، و لم يسبقنا إلى هذه الزيارة أحد من المصريين بل و لا من المكيين إلا ما ندر، و قد بلغنى من أناس يقيمون بمكة منذ أربعين سنة، أنهم لم يصعدوا إلى هذين الجبلين و لا رأوا من المصريين أو مرافقى المحمل من قصدهما، فله المنه علينا. (انظر الغار فى منظر ٨٣) الذى أهدها إلينا فى سنة (١٣٤٢) حضرة أحمد أفندى صابر ناظر التكية المصرية بمكة، فله منا الشكر الجزيل على هذه الهدية القيمة.

و ارتفاع جبل ثور يزيد على ٥٠٠ متر، و الواقف فى أعلاه يشرف على كل ما حواليه من الجبال، و يرى مكة و ما حولها واضحة ظاهرة، و كذلك يرى حدة (بالحاء المهملة) بنخلها، و بأعلى ثور علم يسترشد به الناس لمعرفة هذا الجبل، و هو مبنى بالحجر و مبيض بالجص، و يشبه الأعلام التى وصفناها قبلا فى طريقه، و الجبل ذو ألوان مختلفة من ذهبى و فضى و فحمى و ما يشبه الإسمنت و ما يماثل المرمر، و ربما كانت له ألوان أخرى فى جهات لم أرها. انتهى من مرآة الحرمين.

وقد سبق الكلام أيضا على اختباء رسول الله صلى الله عليه و سلم في غار جبل ثور بتفصيل تام و ذلك عند الكلام على الهجرة، فراجعه إن شئت.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩٨

نقول: إن أمر اختباء رسول الله صلى الله عليه و سلم مع صاحبه أبي بكر، رضى الله تعالى عنه، في غار ثور في ظاهره أمر عادي يمكن حصوله لأي أحد، لكنه في الحقيقة أمر غير عادي، بل فيه عدة من المعجزات له عليه الصلاة و السلام، و هي كما يأتي:

(١) الاهتداء في ظلام الليل إلى هذا الجبل بالنفس، بينما أهل مكة اليوم لا يهتدون إليه بالنهار إلا بدليل لأنه تكتنفه عدة جبال، فليس من السهل الاهتداء إليه.

(٢) الاهتداء في ظلام الليل إلى نفس هذا الغار في رأس الجبل، بينما نحن لا نعرفه إلا بدليل يدلنا إليه.

(٣) الطلوع إلى هذا الغار في ظلام الليل لا يتمكن لكل أحد، فإن الطلوع إلى هذا الغار في عصرنا هذا، و في وضوح النهار و من طريق خاص معروف، يحتاج إلى نحو ساعتين من الزمن، بمعنى أن الإنسان إذا بدأ في طلوع الجبل من أذان العصر فإنه يصل إلى الغار مع غروب الشمس تقريبا، كما يحتاج في نزوله من الجبل إلى مثل هذا الوقت أيضا، فتصور كيف تيسر ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم في ظلام الليل.

(٤) الاهتداء إلى باب هذا الغار الضيق. و قد عرفت فيما سبق صعوبة الدخول فيه بالنهار، فكيف بمن يدخله في ظلام الليل.

(٥) وصول المشركين إلى فم الغار نهارا يبحثون عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و صاحبه فلم يروهما مع أنهما كانا أمامهم، فالله تعالى أعمى أبصارهم.

(٦) أمر الله تعالى العنكبوت، فنسجت سريعا على باب الغار، تضليلا للمشركين.

(٧) أمر الله تعالى حمامتين و حشيتين فعششتا و باضتا على فم الغار، تضليلا للمشركين أيضا.

إلى غير ذلك من المعجزات التي وقعت له و هو في طريقه إلى المدينة المنورة، و ما أحلى كلام بعض الشعراء رحمه الله تعالى حيث يقول:

و ما حوى الغار من خير و من كرم و كل طرف من الكفار عنه عمى

فالصدق في الغار و الصديق لم يرماو هم يقولون ما بالغار من أرم

ظنوا الحمام و ظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج و لم تحم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٣٩٩ وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدرود و عن عال من الأطم و يقول أيضا:

ويح قوم جفوا نيبا بأرض ألفتها ضبابها و الظباء

و سلوه و حن جذع إليه و قلوبه و وده الغرباء

أخرجوه منها و آواه غار و حمته حمامة و رقاء

و كفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء

و اختفى منهم على قرب مرآه و من شدة الظهور الخفاء

و نحا المصطفى المدينة و اشتاقت إليه من مكة الأنحاء

و تغنت بمدحه الجن حتى أطرب الإنس منه ذاك الغناء

و اقتفى أثره سراقه فاستهوته في الأرض صافن جرداء

ثم ناداه بعد ما سيمت الخسف و قد ينجد الغريق النداء ... إلخ

و ما أَلطف قول بعضهم:

و دود القر إن نسجت حريرايجمل لبسه فى كل شى

فإن العنكبوت أجل منها بما نسجت على رأس النبى

اللهم صلى و سلم و بارك على هذا النبى الكريم، نبينا و شفيعنا محمد الذى هو بالمؤمنين رؤوف رحيم، و على آله و أصحابه و أزواجه و ذريته، صلاة و سلاما دائمين إلى يوم الدين، آمين آمين آمين.

جبل ثبير

و من الجبال الشهيرة بمكة "جبل ثبير"، و هذا الجبل على يسار الذهاب من مكة إلى منى، و هو يقابل جبل حراء، و يمتد منه إلى أن يصل إلى أواخر منى، لذلك فهو يقسم إلى عدة أثيرة كثيرة غيناء و ثبير النخيل و ثبير النصح و ثبير الأعرج، كما سيأتى بيان كل ذلك. و جبل ثبير هو الذى أهبط عليه كبش الفداء لإسماعيل عليه الصلاة و السلام، و بأصل هذا الجبل بقم الثقبه عمل خالد بن عبد الله القسرى بركته التى يقال لها بركة القسرى، و يقال لها أيضا بركة البردى "بفتح أوله و ثانيه"، و كانت هذه البركة عظيمة بحيث صارت الحيطان تترى فيها، عملها بحجارة طوال منقوشة و أحكمها و أخرج ماءها فى ذلك الموضع، ثم شق من هذه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠٠

البركة عينا تجرى إلى المسجد الحرام، و أجزاها فى قصب من رصاص حتى أخرجها من فواره تسكب فى فسقينه من الرخام بين زمزم و الركن و المقام، و ذلك فى عهد سليمان بن عبد الملك بن مروان فى القرن الأول من الهجرة. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ١-٢؛ ص ٤٠٠

ظر: صورة رقم ٦٤، للطريق المسفلت المار بين الجبلين المقابلين لجبل حراء

جاء فى تاريخ الأزرقى: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم، لما تجلى الله عز و جل للجبل تشظى، فطارت لطلعته ثلاثة أجبل فوقعت بمكة، و ثلاثة أجبل فوقعت بالمدينة، فوقع بمكة حراء و ثبير و ثور، و وقع بالمدينة أحد و ورقان و رضوى. ٥.

و رضوى جبل بالقرب من ينبع، و ينبع قريب من المدينة.

و من ضمن جبل ثبير ما يسمونه الآن "جبل الرخم"، و هو الذى يرى من المعابدة، قمته العليا التى فيها بياض، و سمي بجبل الرخم لأن الطيور المسماة بالرخم تقع عليه فى المساء، و البياض الذى على قمته أثر ذرق الرخم، هذا ما يقوله الناس، و لكننا نرى أن هذا البياض هو بياض أصلى طبيعى بالجبل، و ليس هو بذرق الطيور، فلو كانت كذلك لمسحته الأمطار التى تنزل عليه، و إليك صورة جبل الرخم و ترى عليه القمة العليا.

انظر: صورة رقم ٦٥، جبل الرخم بأعلا جبل ثبير بآخر المعابدة بمكة

و من معنى امتداد جبل ثبير الذى بيناه يفهم الكلام الآتى:

قال الغازى فى تاريخه: و فى الجامع الصغير ثبير اسم لثمانية أماكن، سبعة جبال منها بمكة و حرماها، و هى: (١) ثبير الأثيرة، (٢) و ثبير الزنج، (٣) و ثبير الأعرج، (٤) و ثبير الأحذب و يقال له الأحيدب بالتصغير، (٥) و ثبير الخضراء، (٦) و ثبير النصح، (٧) و ثبير غينا، (٨) و هذا الثامن اسم لماء فى بلادنا مزينة أقطعه النبى صلى الله عليه و سلم لشريس بن ضمرة المزنى، و سماه شريحا بحاء مهملة. انتهى.

فأما ثبير الأثيرة فهو على يسار الذهاب إلى عرفه الذى قال عنه الفقهاء:

يستحب للحاج إذا طلعت الشمس عليه أن يسير من منى إلى عرفه، و أما ثبير غيناء و ثبير الأعرج، فهما بمنى يصب بينهما واد من منى

يقال له أفاعيه "بضم الهمزة." قال الأزرقى: ثبير الأعرج هو المشرف على حق الطارقين بين المغمس و النخيل، النخيل هي بساتين ابن عامر التي كانت في جهة عرفة بقرب عرفات.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠١

وقال أيضا في موضع آخر من تاريخه: جبل الأعرج في حق آل عبد الله بن عامر، مشرف على شعب أبي زياد و شعب ابن عامر، و الأعرج مولى لأبي بكر الصديق رضی الله عنه، كان فيه فسمى به و نسب إليه.

وقال عن ثبير غيناء: هو المشرف على بير ميمون، و قلته مشرفة على شعب على رضی الله عنه، و على شعب الحضارمة بمنى. و جاء في هامش الأزرقى عند ثبير غيناء أنه الجبل المشرف على حراء و بين الجبلين طريق العدل.

و أما ثبير النصح - بكسر النون - فهو جبل مطيف بمزدلفة على يسار الذهاب إلى منى. و هو الذى كانوا يقولون فى الجاهلية إذا أرادوا الدفع من مزدلفة:

"أشرق ثبير كيما نغير،" و لا يدفعون حتى يرون الشمس عليه كما قال الأزرقى.

و أما ثبير الأخضر، فقال الفاسى: هو الجبل المشرف على الموضع الذى يقال له الخضراء بطريق منى.

و أما ثبير الزنج، فهو جبل النوبى المعروف بأسفل مكة من جهة الشبيكة، و سمي بذلك لأن سودان مكة كانوا يلعبون عنده.

و أما ثبير الأحذب أو الأحيدب، فهو جبل بمنى يقال له الأحيدب مقابل مسجد الخيف، بالقرب من ثبير الأثرية على يسار الذهاب إلى عرفة، كما قال ابن ظهيرة رحمه الله تعالى.

و جاء فى الجزء الأول من شفاء الغرام للفاسى عن جبل ثبير ما نصه:

و من الجبال المباركة بحرم مكة جبل ثبير، لأننا روينا فى تاريخ الأزرقى، قال:

حدثنى محمد بن عيسى، قال: حدثنا عبد العزيز بن عمران عن معاوية بن عبد الله الأزدي، عن معاوية بن قره، عن الخلد بن أيوب، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لما تجلى الله عز و جل للجبل تشظى، فطارت لطلعته ستة أجبل فوقت بمكة ثلاثة و بالمدينة ثلاثة، فوقع بمكة حراء و ثبير و ثور، و وقع بالمدينة أحد و ورقان و رضوى.

و قال أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات: جبل ثبير بمكة بقرب منى، هو جبل مبارك يقصده الزوار، و هو الذى أهبط عليه الكبش الذى جعله الله تعالى فداء لإسماعيل عليه السلام، و العرب تقول "أشرق ثبير كيما نغير."

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠٢

ف قوله بمكة: سبق إليه الجوهرى و هو تجوز لكونه بقرب مكة، و قوله بقرب منى، ينبى على قول من قال أنه جبل بالمزدلفة و هو قول مرجوح، و يؤيده ما ذكره من أنه أهبط عليه الكبش الذى فدى به إسماعيل، فلم يختلفوا فى أن هذا الجبل بمنى، و هو على يسار الذهاب إلى عرفات. انتهى و الله أعلم.

و قال شيخنا قاضى القضاة مجد الدين الشيرازى فى كتابه "الوصل و المنى فى فضل منى: "أن أبا بكر النقاش المفسر قال فى منسكه: إن الدعاء يستجاب فى ثبير، يعنى ثبير الأثرية الذى بلحفه مغارة الفتح، لأن النبى صلى الله عليه و سلم كان يتعبد فيه قبل النبوة و أيام ظهور الدعوة، و لهذا جاورت به عائشة أم المؤمنين، و ذكر أن بقرب المغارة التى أنشأها بلحف ثبير معتكف عائشة انتهى بالمعنى، و يعرف هذا الموضع بصخرة عائشة و الله أعلم بحقيقة ذلك. انتهى كل ذلك من شفاء الغرام.

نقول، معنى قول القائل جبل ثبير بالمزدلفة: أن هذا الجبل ممتد إلى أواخر منى إلى قرب مزدلفة فيظهر منها، لذلك كانت العرب فى الجاهلية إذا باتوا بمزدلفة بعد رجوعهم من عرفات تقول "أشرق ثبير كيما نغير،" أى أشرق بالشمس حتى ندفع من المزدلفة. فمن قال أن جبل ثبير بالمزدلفة نظر إلى هذه العبارة، و الحقيقة أنه يمتد من جهة حراء بمكة حتى أواخر منى بما يقرب من المزدلفة، فإن

بعض الجبال تمتد إلى مسافات بعيدة، و امتداده ليس على استقامة واحدة بل بتعاريج و انزواءات، لذلك يتخلله شعاب و أمكنة بين الجبال الواقعة بقربه و المحيطة به.

جبل خندمة

الخندمة: هو بفتح الخاء المعجمة و سكون النون و فتح الدال، جبل معروف بمكة إلى اليوم، و هو الجبل الذى يمتد من أبى قبيس إلى المعلا، على طول شعب على المسمى شعب بنى هاشم، و على طول شعب عامر. جاء فى آخر تاريخ القطبى المسمى "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" ما نصه: و منها جبل الخندمة، و هو جبل كبير خلف أبى قبيس، قال الفاكهى: حدثنى أبو بكر أحمد بن محمد المليكى، حدثنا عبد الله بن عمر أسامة، قال: حدثنا أبو صفوان عن ابن جريج، عن عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، قال: ما مطرت مكة قط إلا و كان الخندمة غرة، و ذلك أن فيها قبر سبعين نبيا، انتهى. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠٣ و هى مشرفة على أجياد الصغير و شعب عامر، معروفة الآن عند الناس بمكة. انتهى من تاريخ القطبى.

نقول: (فإن قال قائل) لا يوجد أى أثر لقبر من تلك القبور فى هذا الجبل.

(نجيبه): أنه إذا صحت هذه الرواية عن ابن عباس رضى الله عنهما فتكون هذه القبور فى أسفل الجبل تحت الأرض، فإن جبال مكة لم تبق على حالتها الطبيعية، فقد طمرت من الجبال نحو نصفها، و ذلك من أثر مرور آلاف السنين عليها، فنزول الأمطار و جريان السيول مما يسبب تدحرج الصخور و الأحجار من فوق الجبال إلى أسفلها، و بتراكم الأتربة و تعمير الناس للمنازل و البيوت ترتفع الأرض، و هذه الكعبة المشرفة قد بناها سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام، على أكمة مرتفعة عن الأرض. و هذا المسعى لم تكن أرضه مستوية كما هى اليوم. انتهى.

و قال الأزرقي فى تاريخه عن جبل خندمة ما نصه: و الخندمة جبل فى ظهر أبى قبيس من ظهرها المشرف على دار أبى صيفى المخزومى فى شعب آل سفيان دون شعب الخوز، و ذلك الموضع عن يمين من انحدر من الثنية التى يسلك فيها من شعب ابن عامر إلى شعب آل سفيان ثم إلى منى ... الخ كلامه. و قال فى موضع آخر من تاريخه: الخندمة الجبل الذى ما بين حرق السويداء إلى الثنية التى عندها بير بن أبى السمير فى شعب عمرو، مشرفة على أجياد الصغير و على شعب ابن عامر، و على دار محمد بن سليمان فى طريق منى إذا جاوزت المقبرة على يمين الذهاب إلى منى، و فى الخندمة قال رجل من قريش لزوجته و هو يبرى نبلا- له، و كانت أسلمت سرا، فقالت له: لم تبرى هذا النبل؟ قال: بلغنى أن محمدا يريد أن يفتح مكة و يغزونا، فلئن جاؤنا لأخدمنك خادما من بعض من نستأسر، فقالت: و الله لكأنى بك قد جئت تطلب محشا أحشك فيه لو رأيت خيل محمد، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم الفتح أقبل إليها فقال: و يحك هل من محش؟

فقالت: فأين الخادم؟ قال لها: دعيني عنك، و أنشأ يقول:

و أنت لو أبصرتنا بالخندمة إذ فر صفوان و فر عكرمة

و أبو يزيد كالعجوز المؤتممة قد ضربونا بالسيوف المسلمة

لم تنطقى باللوم أدنى كلمة التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠٤

قال: و أبو زيد سهيل بن عمرو، قال: و خبأته في مخدع لها حتى أومن الناس.

و روى ياقوت الأبيات كما يلي:

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان و فر عكرمة
و حيث زيد قائم كالمؤتمه و استقبلتنا بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد و جمجمة ضربا فلا تسمع إلا غمغمة

لم تنطقى في اللوم أدنى كلمة انتهى من تاريخ الأزرقى. و في بعض التواريخ ورد البيت الأخير هكذا:

لهم نهيت خلفنا و همهمة لم تنطقى في اللوم أدنى كلمة

و الرجل المذكور الذى قال هذه الأبيات هو حماس بن قيس، أخو بنى بكر، و كان ممن تصدى لقتال خالد، فلما هزمهم فر إلى بيته،
و قال لامرأته: أغلقى على بابى، فقالت له فى ذلك، فقال الأبيات المذكورة.

و صفوان و عكرمة المذكوران فى الأبيات هما: صفوان بن أمية و عكرمة بن أبى جهل و سهيل بن عمرو، هؤلاء كانوا قد جمعوا ناسا
من بكر و الأحابيش و غيرهم بجبل خندمة ليقاتلوا المسلمين و يصدوهم عن دخول مكة يوم الفتح.

و الأحابيش هم بنو الهون بن خزيمه، و بنو الحارث بن عبد مناف ابن كنانة، و بنو المصطلق بن خزيمه، و سموا بذلك لأنهم تحالفوا
مع قريش على من عاداهم تحت جبل بأسفل مكة يقال له حبش، فسموا أحابيش قريش. ثم أسلم صفوان بن أمية و عكرمة بن أبى
جهل، و لم نبحث عن سهيل بن عمرو هل أسلم أم لا.

و جبل خندمة معروف، و هو عامر بالسكان اليوم، و لما كان هذا الجبل بوسط مكة وضع المشركون أناسا ليقاتلوا المسلمين حين
دخولهم مكة و جها لوجه، و لكن الله عز شأنه نصر رسوله و فتح له فتحا مبينا، ليتحقق الرؤيا التى رآها رسول الله صلى الله عليه و
سلم، المذكورة فى القرآن الكريم فى آية: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِذَا شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ
رُؤُوسَهُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠٥

ثنية كداء

ثنية كداء- بفتح الكاف و الدال ممدودة "أى فى آخرها همزة- " و تسمى بالحجون، هى الطريق المؤدية من وسط مقبرة المعلا من
الجبل المنحوت إلى جهة جروم، و لقد شق الطريق بين الحجون ملك الحجاز الأسبق الشريف الحسين بن على، رحمه الله تعالى، و
ذلك فى سنة (١٣٣٨) ألف و ثلاثمائة و ثمانية و ثلاثين تقريبا، ثم وسعت الحكومة السعودية هذا الطريق الذى بين جبلين بأكثر مما
سبق و عبدته بالإسفلت. و بنت على الجانبين من الجبل جدارين لرد الحجارات النازلة من الجبل و ليكون منظر الجبل جميلا.

قال الفاسى عنها فى شفاء الغرام ما يأتى: الخامس عشر "كداء" الموضع الذى يستحب للمحرم دخول مكة منه، و هو الثنية التى بأعلا
مكة، التى يهبط منها إلى المقبرة المعروفة بالأبطح، و يقال لها الحجون الثانى، و ما ذكرناه فى تعريف كداء هذا، ذكر الفاكهى ما
يوافقه لأنه قال فى تعريفه لما فى شق معلاة مكة الشامى كداء: الجبل الشارع على المقبرة و الوادى، و له يقول حسان بن ثابت يوم
الفتح:

عدمت ثنيتى إن لم تروهاتشير النقع عن كتفى كداء

و قال الفاكهى بعد أن ذكر شعب المقبرة فى هذه الجهة و شيئا من خبره: و من ثنية المقبرة، دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم فى
حجة الوداع، و قال بعضهم: قيل: إن ثنية المقبرة هو كداء، و هو مشعر بتضعيف هذه المقالة لكونها حكيمة بصيغة التمريض، لأن النبى

صلى الله عليه وسلم إذا كان دخل من هذه الثنية كداء، فلأن الأخبار وافرة صحيحة في أن النبي صلى الله عليه وسلم حين حج من المدينة دخل إلى مكة من كداء، وفي تاريخ الأزرقى ما يوافق ما ذكره الفاكهي من دخول النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع من هذه الثنية، وذلك يقتضى أن تكون هذه الثنية كداء للمعنى السابق، والله أعلم.

وفي كلام غير واحد من المتأخرين تسمية هذه الثنية بكداء، منهم سليمان بن خليل، والمحب الطبرى، والنوى، وقال المحب: هي بالفتح والمد تصرف على إرادة الموضع وبتركه على إرادة البقعة، انتهى. وقد ذكر الأزرقى شيئاً من خبر هذه الثنية، وهي الآن بحاميم الأحداث التي بين دار السرى إلى ثنية المقبرة، وهي التي قبر أمير المؤمنين أبي جعفر بأصلها، قال: يعرفها بالحاميم وأولها القرن التي ثنية الدمسين على رامسه بيوت ابن أبي حسين النوفلى، والذي يليه القرن المشرف التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠٦

على دار منارة الحبشى، فيما بين ثنية الدمسين، وهي التي كان ابن الزبير مصلوباً عليها، وكان أول من سهلها معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه، ثم عملها عبد الملك بن مروان. ثم كان آخر من بنى ضفائرها ودرجها وجدرها المهدى، انتهى. وذكر ذلك الفاكهي لأنه لم يجزم بكون معاوية أول من سهل هذه الثنية، وحكى بصيغة التمريض، وقال أيضاً: يقال إن ابن الزبير أول من سهلها، انتهى. فيستفاد مما ذكره الأزرقى والفاكهي قولان في أول من سهل هذه الثنية، والله أعلم بالصواب.

وفي سنة إحدى عشرة وثمانمائة سهل بعض المجاورين بمكة، أثابه الله، في النصف الثانى من سنة سبع عشرة وثمانمائة طريقاً في هذه الثنية غير الطريق المعتادة وهذه الطريق تكون على يسار الهابط من هذه الثنية إلى المقبرة والأبطح، وكانت حرجة ضيقة جداً، فتحت ما يليها من الجبل بالمعاول حتى اتسعت، فصارت تسع أربعة مقاطير من الجمال محملة، وكانت قبل ذلك لا تسع إلا واحداً، و سهلت أرضها بتراب ردم فيها حتى استوت و صار الناس يسلكونها أكثر من الطريق المعتادة، وجعل بينهما حاجزاً من حجارة مرصوفة، وكانت في بعض هذه الطريق قبور فأخفى أثرها. انتهى من شفاء الغرام.

ثنية كدى

ثنية كدى - بضم الكاف وبتحتين على الدال مقصورة - وقيل - بضم الكاف وفتح الدال وتشديد الياء مصغراً، لا يعلم موضعها تماماً. فبعض المؤرخين قال عنها: إنها طريق الخارج من مكة من جهة الشبيكة، وهذا يقتضى أنها تمتد من الشبيكة إلى آخر ريع الرسام. وبعضهم قال: إنها بأسفل مكة يخرج منها إلى اليمن، وهذا يقتضى أنها تمتد من السوق الصغير إلى جهة بركة ماجن بالمسفلة.

وإليك ما جاء عنها في شفاء الغرام وهو: السادس عشر "كدى" الموضع الذى يستحب الخروج منه لمن كان في طريقه هو الثنية التي بأسفل مكة، التي بنى عليها بابها المعروف باب الشبيكة، على ما يقتضيه كلام المحب الطبرى في شرح التنبيه لأنه قال فيه: وكدى التي يخرج منها الحاج مضمومة مقصورة، وقد بنى عليها باب مكة الذى يتوجه منه إلى عمرة التنعيم، انتهى. و باب مكة الذى أشار إليه المحب، هو باب الشبيكة لأن الناس تتوجه منه إلى عمرة التنعيم غالباً، وذكر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠٧

النوى ما يؤيد ما ذكره المحب الطبرى في ضبطها ومكانها، لأنه قال في الإيضاح، فى الباب الثالث: الرابعة: السنة أن يدخل مكة من ثنية كداء بفتح الكاف والمد، وهي بأعلى مكة ينحدر منها إلى المقابر، وإذا خرج راجعاً إلى بلده، خرج من ثنية كدى بالضم والقصر والتونين، وهي بأسفل مكة بقرب جبل قعيقعان، وإلى صوب ذى كوى، انتهى. وذكر القاضى بدر الدين بن جماعة فى منسكه ما يقتضى أن كدى هذه، هي الثنية التي عندها الموضع المعروف بقبر أبى لهب بطريق العمرة، ونص كلام ابن جماعة: وإذا

خرج من ثنية كدى بالضم والقصر، من أسفل مكة و هي الثنية التي يخرج إليها بياب مكة، المعروف بياب الشبيكة، و هي الثنية التي يخرج منها إلى المرجم المعروف بقبر أبي لهب، يسلك منه إلى الزاهر المتقدم ذكره وغيره، و منه يخرج المعتمرون انتهى.

و كلام ابن جماعة ثم يخالف ما ذكره المحب الطبري الذي يعتد به في معرفة ذلك، و الله أعلم بالصواب. و من هذه الثنية دخل قيس بن سعد بن عبادة يوم فتح مكة، على ما ذكر الأزرقى، و ذكر ما يقتضى أن حسان بن ثابت عنها بقوله السابق في كداء بالفتح، و أنشد على غير ما أنشده الفاكهي، لأنه قال:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء انتهى.

و بأسفل مكة ثنية يقال لها: كدى، بالضم و تشديد الياء و توينها، يخرج منها إلى جهة اليمن، ذكر ذلك المحب الطبري، قال: و قد بنى عليها باب مكة الذي يدخل منه أهل اليمن و يخرجون، هكذا قال في شرح التنبيه، و قال في القرى:

و الثالثة كدى، بالضم و تشديد الياء مصغر، موضع بأسفل مكة، و الأوليان هما المشهورتان، و هذه يخرج منها إلى جهة اليمن، هكذا ضبط عن المحققين و منهم أبو العباس أحمد بن أحمد العذري، فإنه كان يرويه على أهل المعرفة بمواضع مكة من أهلها، حكاه عنه الحميدى، انتهى. و ما ذكره من أنه بنى على الثنية التي يقال لها كدى بالتصغير، باب مكة الذي يدخل منه أهل اليمن و يخرجون، يخالف ما يقوله الناس فيها، لأنهم يذكرون أنها الثنية التي يهبط منها إلى خم، و خم: شعب مشهور، و ليس هو الخم الذي قال النبي صلى الله عليه و سلم عند غديره: من كنت مولاه فعلى مولاه الوارد في فضل على بن أبي طالب، فإنه موضع عند الجحفة و بينها و بين باب مكة، الذي أشار إليه المحب الطبري، غلوتان، و الله أعلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠٨

و ممن ذكر هذا الموضع سليمان بن خليل لأنه قال: و أما كدى بالتصغير بضم الكاف و فتح الدال، فإنه جبل بأسفل مكة، يخرج منها إلى اليمن انتهى.

و ما ذكرناه في ضبط كداء العليا و كدى السفلى، التي بنى عليها باب الشبيكة، هو الصواب، و ضبط بعضهم العليا بالضم، و هذه السفلى بالفتح. و نسب النووى قائل ذلك إلى الغلط و التصحيف، و ذكر صاحب المطالع ما يشهد لمن ضبط العليا بالضم، و لكن المشهور فيها الفتح، و الله أعلم.

و ذكر الفاكهي ما يقتضى أن بأعلى مكة موضعا آخر يقال له كداء، غير كداء الذي هو ثنية المقبرة لأنه قال: كداء: الجبل المشرف على الوادى مقابل مقبرة أهل مكة، اليوم تحته بيوت عبد الرحمن بن يزيد، و ابن خلف مولى العباس بن محمد، و هو ممتد إلى دار الأراكة، انتهى. ذكر هذا في تعريفه لما في شق معلى مكة اليماني، و ذكر ما سبق في كداء الذي هو ثنية المقبرة في شق معلاة مكة الشامي، و تغاير الشقتين يقتضى مغايرة المكانين.

و ذكر في موضع آخر ما يقتضى أن كدا موضعا بأعلى مكة، غير كداء الذي هو ثنية المقبرة، و لم يتعرض لضبط ذلك، فبقيت المواضع أربعة، اثنان لا تعلق لهما بالمناسك، و اثنان لهما تعلق بالمناسك، و هما كداء الذي هو ثنية المقبرة، و كدى الذي هو في طريق المدينة، و إنما استحب الخروج منه و الدخول إلى مكة من أذاخر، لكون النبي صلى الله عليه و سلم فعل ذلك في حجة الوداع، و أما في فتح مكة فدخل من ثنية أذاخر بأعلى مكة، على ما ذكره ابن إسحاق في سيرته و الأزرقى.

و ذكر موسى بن عقبه ما يقتضى أن النبي صلى الله عليه و سلم دخل مكة يوم الفتح من كداء بأعلى مكة، و كذلك الزبير بن العوام رضى الله عنه، و الله أعلم بالصواب. و أما عمرته من الجعرانة، فدخل صلى الله عليه و سلم مكة من أسفلها و خرج من أسفلها، كذا في خبر ذكره الفاكهي بإسناده، و فيه من لم أعرفه، و الله أعلم. انتهى من شفاء الغرام.

جبل حراء

جبل حراء بأعلى مكة، على يسار الذهاب منها إلى منى، يرتفع (٦٣٤) متراً، و عامه أهل مكة يسمونه "جبل النور". "جاء في الجامع اللطيف في فضل مكة و أهلها و بناء البيت الشريف، للعلامة ابن ظهيرة القرشي، ما نصه: جبل حراء و هو ممدود فمن ذكره صرفه، و من أنه منعه من الصرف و يسمى جبل النور

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٠٩

بالتون، و كأن ذلك لكثرة مجاورة النبي صلى الله عليه و سلم و تعبد فيه، و ما خصه الله به فيه من الإكرام بالرسالة و نزول الوحي عليه في الغار الذي بأعلاه، كما في صحيح البخاري، حتى فجأه الحق، و هو في غار حراء، و هو معروف مشهور يآثره الخلف عن السلف، و يقصده الناس بالزيارة، ذكر الأزرقى أن النبي صلى الله عليه و سلم اختبأ فيه من المشركين، و كذا ذكره الفاكهي، قال أيضاً: و المعروف أن النبي صلى الله عليه و سلم لم يختبئ من المشركين إلا في غار ثور، لكن يتأيد ما ذكر بما قاله القاضي عياض و السهيلي في روضه: أن قريشا حين طلبوا رسول الله صلى الله عليه و سلم كان على ظهر ثبير، فقال له:

اهبط عني يا رسول الله فإني أخاف أن تقتل و أنت على ظهري، فيعذبني الله تعالى، فناده حراء إلى رسول الله، و جمع القاضي تقي الدين رحمه الله، فقال:

إن صح اختفاؤه صلى الله عليه و سلم بحراء، فهو غير اختفاؤه بثور، و الله أعلم، فيكون في حراء أولاً، و في ثور حين الهجرة، و ذكر بعض العلماء أن السر في كونه صلى الله عليه و سلم، لازم التعبد فيه دون غيره من الجبال من حيث إن فيه فضلاً زائداً: منه أن يكون فيه منزواً مجموعاً لتعبده، و هو يشاهد بيت ربه، و النظر إلى البيت عبادة، فحصل له اجتماع ثلاث عبادات: الخلو، و التعبد، و النظر، و مجموع ذلك أولى من الاقتصار على البعض، و غيره من الأماكن ليس فيه ذلك المعنى، و أيضاً أن هذا الجبل كان يختلي فيه أجداده صلى الله عليه و سلم، (أقول): و فيما ذكر نظر لأن غيره من الجبال يتأتى فيه ما ذكره من اجتماع العبادات الثلاث كأبي قبيس مثلاً، و يزيد بقره من البيت، فكان أولى أن يتعبد فيه، و إن كان المراد البعد عن الناس لخلو البال في التعبد، فالجبال البعيدة كثيرة، اللهم إلا أن يقال إن الغار الذي بحراء مستقبل الكعبة من غير انحراف، و ليس غيره كذلك فله وجه، و الأحسن أن يقال أن جبل حراء متعبد أجداده، فاقتدى بهم في ذلك، و الله الموفق.

انتهى من الجامع اللطيف المذكور.

انظر: صورة رقم ٦٦، جبل حراء و بأعلاه الغار

انظر: صورة رقم ٦٧، جبل حراء و مدخله. و يرى المؤلف في صفحه

و جبل حراء: بكسر الحاء المهملة و فتح الراء الممدودة، هو اسم قديم له، و أهل مكة يسمونه الآن "جبل النور" لظهور النبوة منه، و هو على يسار الذهاب إلى منى، و هو جبل معروف عال، قمته تشبه الطربوش الذي يلبس في الرأس، أو كسنام الجمل الأصيل السمين، أو كالقبة الملساء، فلا يوجد جبل بمكة و لا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١٠

بالحجاز و لا بالدنيا كلها يشبه جبل حراء، فهو بين الجبال فريد الشكل و الصورة، و الأساس الأول للكعبة من حجارتها، فهو جبل معظم حتى في الجاهلية، فقد قال أبو طالب فيه في قصيدته التي ذكرناها في غير هذا المكان:

و ثور و من أرسى ثبيراً مكانه و راق ليرقى في حراء و نازل

و لقد ورد ذكر حراء في بعض الأحاديث الصحيحة، (فمن ذلك) ما جاء في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: "جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادي فنوديت، فنظرت أمامي و خلفي و عن يميني و عن شمالي فلم أر أحداً، ثم نوديت

فنظرت فلم أر أحدا، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء، يعنى جبريل عليه السلام، فأخذتني رجفة شديدة فأنتيت خديجة فقلت: دثروني، فدثروني فصبوا على ماء، فأنزل الله: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ. "

(و منها) ما جاء في الصحيحين أيضا عن جابر رضى الله عنه: "بيننا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذى جاءني بحراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض، فجت منه فرقا، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فدثروني فأنزل الله: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. "

(و منها) ما جاء في صحيح البخارى فى أول الجزء الأول منه عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء، و كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، و هو التعبد الليالى ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله و يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق و هو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة و أخبرها الخبر: لقد خشيت على

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١١

نفسى، فقالت خديجة: كلا و الله، ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، و تحمل الكل و تكسب المعدوم و تقرى الضيف و تعين على نوائب الحق ... إلى آخر الحديث.

(و منها) ما جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه: "أسكن حراء فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد. و عليه النبى عليه السلام، و أبو بكر و عمر و عثمان و طلحة و الزبير و سعد بن أبى وقاص، و يروى: "أهدأ و عليه أبو بكر و عمر و عثمان و على و طلحة و الزبير. "قال فى كتاب "مبارق الأزهار فى شرح مشارق الأنوار: "يعنى روى بعض الرواة لفظ أهدأ مكان اسكن، و ذكر عليا مكان سعد، قاله عليه الصلاة و السلام، لما تحرك حراء و كان النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه المذكورين عليه. انتهى منه.

(و منها) ما جاء فى الأزرقى عن ابن أبى مليكة يقول: جاءت خديجة إلى النبى صلى الله عليه وسلم بحيس و هو بحراء، فجاءه جبريل فقال: يا محمد هذه خديجة قد جاءت تحمل حيسا معها، و الله يأمرك أن تقرأها السلام و تبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه و لا نصب، فلما أن رقيت خديجة قال لها النبى صلى الله عليه وسلم: يا خديجة إن جبريل قد جاءني و الله يقرئك السلام، و يبشرك ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه و لا نصب، فقالت خديجة: الله السلام و من الله السلام و على جبريل السلام. انتهى من تاريخ الأزرقى، قال فى مختار الصحاح: الحيس بفتح الحاء تمر يخلط بسمن و أقط، اه.

نقول: و قد جاء فى الصحيحين: "بشروا خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه و لا نصب، "رواه عائشة و عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما.

فما أسعد خديجة بخدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، و حبها العظيم له، و ما أسعدها بإقراء السلام لها من الله تعالى و من جبريل، فهنيئا لها ذلك البيت فى الجنة و هنيئا لها برضاء الله و رسوله عنها، اللهم ارض عنها و عن أزواج نبيك، و ارض عنى و اغفر لى بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين.

و يمتاز جبل حراء عن بقية الجبال بما يأتى:

(١) كان الأساس الأول القديم للكعبة من حجارة جبل حراء.

(٢) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه قبل البعثة.

(٣) كان بدء الوحى فى غار حراء.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١٢

(٤) وقوف جبريل عليه السلام، فى غار حراء وضمه النبى صلى الله عليه وسلم و إقرائه له أول آية نزلت من القرآن أقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.

(٥) ظهور جبريل عليه السلام للنبى صلى الله عليه وسلم جالسا على كرسى بين السماء والأرض فى بطن وادى حراء.

فما أبرك هذا الجبل، و ما أسعد هذا الغار، و الحقيقة أن حراء، و ما حول حراء، لمكان منور مبارك إلى يوم القيامة، يعرف ذلك كل من أنار الله قلبه و بصره.

و قال إبراهيم رفعت باشا فى كتابه "مرآة الحرمين" و هو يصف صعوده إلى جبل حراء:

و هذا الجبل يقع فى شمالى مكة، على يسار الذهاب إلى عرفات، بعيدا عن جادة الطريق بنحو ميل، و قال ياقوت فى معجمه أنه على ثلاثة أميال من مكة، و أنه جبل شامخ أعلى من ثبير، و فى أعلاه قله شامخة زلوج (انظر الجبل فى منظر ٨٦) و فى مسيرة القمة نفس غار حراء.

و قد سعدنا هذا الجبل فى ٣٥ دقيقة مع أن ارتفاعه حوالى ٢٠٠ متر، ولكنه يكاد يكون عموديا، فلذا كان صعب المرتقى، و اضطررنا إلى الاستراحة مرتين أثناء الصعود و أغمى على بعض الضباط، و لولا ما معنا من الماء الذى رششنا به وجهه لحصل ما لا تحمد عقباه، و لذا يجمل بمن رام صعوده أن يستصحب بعض المياه خصوصا فى آونة الحر. و قبل أن نصل إلى قنة الجبل بثلاث دقائق وجدنا خزاننا نحت بالجبل لحفظ مياه المطر يبلغ طوله ٨ أمتار فى عرض ٦ و عمق ٤، و له درج للوصول إلى قاعه، و كان خاويا من الماء، و وجدنا بجانبه امرأة عربية تصنع القهوة و الشاى للزائرين فى موسم الحج و تبيعهما بالثمن، و قد تناولنا من شايتها و قهوتها، و فرشت لنا بساطا من الصوف، و مكثنا فى حضرته نصف ساعة و نقدناها الثمن مضاعفا مكافأة على ما قدمت، ثم تسمننا ذروة الجبل، و إذا فيها بناء متين تعلوه قبة طولها ٦ أمتار فى مثلها عرضا فى ٨ ارتفاعا.

ثم قال بعد عدة أسطر ما نصه: و فى الجهة الجنوبية من القبة غار حراء، الذى كان يتعبد فيه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، على ما أسلفنا لك، و الإنسان ينحدر إليه من قنة الجبل على درج حجرى غير منتظم أشبه بالسلم، و البعد بينه و بين قمة القبة نحو ٥٠ مترا، و هذا الغار عبارة عن فجوة بابها نحو الشمال، تسع نحو خمسة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١٣

أشخاص جلوسا، و ارتفاعه قائم متوسطة، و قد صلينا فيه و دعونا، و وجدنا هنالك بعض الحجاج من الأتراك يزورون هذه الآثار، و الواقف على قنة هذا الجبل يرى مكة و أبنيتها العظيمة و قلاعها الحصينة، كما يرى جبل ثور، و لون الجبل ذهبى حتى لو حدقت النظر فى قطعة منه تخالها ذهبا إبريز، و لذلك إذا سطعت عليها الشمس ترى له منظرا من أجمل المناظر و أبهجها، انتهى باختصار من مرآة الحرمين.

نقول: القبة التى ذكرها هنا صاحب مرآة الحرمين، و التى كانت على الغار فوق الجبل، قد هدمت سنة (١٣٤٣) ثلاث و أربعين و ثلاثمائة بعد الألف، و الظاهر من قول الغازى فى تاريخه نقلا عن كتاب بلوغ القرى لابن فهد، أن أول قبة بنيت على جبل النور كانت سنة (٩١٦) ست عشر و تسعمائة، ثم تجدد بناؤها بعد ذلك إلى أن هدمت فى زماننا فى السنة المذكورة. و الله تعالى أعلم.

و قال المرجانى فى فضل حراء:

تأمل حراء و هو فى حال محياه فكم من أناس فى حلا حسنه تاهوا

فمما حوى من جا لعلياه زائرا يفرج عنه الهم فى حال مرقاه

به خلوة الهادى الشفيح محمدو فيه له غار فقد كان يرقاه

و قبلته للقدس كانت بغاره و فيه أتاه الوحي في حال مبداه
 و فيه تجلى الروح في الموقف الذي به الله في وقت البداءه سواء
 و تحت تخوم الأرض في السبع أصله و من بعد هذا اهتز بالسفل أعلاه
 و لما تجلى الله قدس ذكره لطور تشظى فهو أحد شظاياها
 و منها ثبير ثم ثور بمكة كذا قد أتى في نقل تاريخ مبداه
 قال صديقنا العزيز السيد أحمد العربي في حراء:

هذا الحجاز تأملوا صفحاته سفر الخلود و معهد الآثار
 في كل سطر من سطور سجله عبر تفيض بأروع الأسرار
 و مواقف لم يشهد التاريخ مثل خلالها في أمجد الأعصار
 جنمت على تلك الأباطح و الهضاب و أشرفت ترنو إلى الأقدار
 و مضت تقص على العصور حديثها و القوم في لهو و في إدبار
 ثبتت على رغم الكوارث و الخطوب تعيد سيرة مجدنا المنهار
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١٤ و تهيب بالهمم الأبية أن تهب لبعث كنز تراثنا المتواري
 هذا حراء سائلوه يجيبكم فلعله سفر من الأسفار
 و استلهموا مواقف الوحي التي شع الهدى منها على الأقطار
 و سلوه ماذا قد أقل من البطولة و الحجا أكرم به من غار
 أخلق بغار حراء أن يزهو على الإيوان و الأهرام و الآثار
 كم بين صاحبه و بين بنائها من فارق أربى على الأقدار
 شتان بين محرر الأقوام و المتعبدين سلاسل الأحرار
 و قال أمير الشعراء شوقي بك رحمه الله تعالى في حراء في كتابه "دول العرب و عظمة الإسلام:"

كان ابتداء الوحي في حراء فاتحة الرسالة الغراء
 الله خير خلقه أعطاه و حمل الأمر العظيم "طه"
 أرسله قلادة النظام عصماء عقد الرسل العظام

(فإن قيل): فما حكمه ذهاب رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى جبل حراء للتعبد في غاره، مع أنه جبل يبعد عن الكعبة المعظمة
 بنحو أربعة كيلو مترات، و مع أن البيوت في أيام الجاهلية حول الكعبة بما لا يتجاوز عن مائتي متر تقريبا، أى ما كانت البيوت تبلغ
 محلة المدعا من الناحية الشمالية، و مثلها من جميع الجهات- فلو أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ذهب إلى جبل أبي قبيس أو إلى
 جبل قعيقعان و هما أخشا مكة، أو إلى جبل أجياد أو إلى جبل بقرب المعلا لكان أيضا بعيدا عن أعين الناس في ذلك الزمن؟
 (نقول): إن ذهاب رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى جبل حراء للتعبد في غاره قبل بعثته، إنما هو بتوجيه من الله تبارك و تعالى
 فقط، لحكمه يعلمها جل جلاله، و أيضا لقد اطلعنا أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة و السلام كانوا إذا وصلوا إلى مكة ذهبوا إلى هذا
 الجبل للتعبد، مع العلم بأن الملائكة الكرام عليهم السلام، كانوا يأخذون الحجارة من هذا الجبل فيرمونها في أساس الكعبة المعظمة
 عند بنيانهم لها لأول مرة قبل آدم عليه الصلاة و السلام، فأساس الكعبة إلى تخوم الأرض، هو من خمسة جبال منها جبل حراء، كما
 ذكرنا ذلك بالتفصيل، في محله من هذا الكتاب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١٥

فعليه يكون جبل حراء من الجبال المباركة، العريقة في البركة والخير، و من هنا يسمى أهل مكة أدام الله تعالى رضاه عليهم جبل حراء بجبل النور، و لهم الحق في ذلك، فقد انبثق نور الحق و القرآن من هذا الجبل المبارك العظيم، إن هذا الجبل و ما حوله من الجبال و الأراضي إلى حدود الحرم من جميع الجهات كلها مباركة طيبة منيرة، أليست كلها من مكة المكرمة، و في حرمها الآمن المستنير.

و قد طلع رسول الله صلى الله عليه و سلم مرة بعد بعثته، و ربما بعد هجرته، إلى المدينة المنورة على جبل حراء، كما جاء ذلك في صحيح مسلم في الباب السادس من كتاب الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين، فعن أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان على جبل حراء فتحرك، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: اسكن حراء، فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد. عليه النبي صلى الله عليه و سلم، و أبو بكر و عمر و عثمان و على و طلحة و الزبير و سعد بن أبي وقاص رضى الله عنهم، و جاءت عن أبي هريرة أيضا في صحيح مسلم في هذا الباب رواية أخرى اكتفينا بما ذكرناه، كما جاء في ابن ماجه رواية تماثل ما ذكرناه. و مثل ما جاء في جبل حراء بمكة جاء أيضا في جبل أحد بالمدينة، و ذلك في صحيح البخارى.

و ما أحلى قول بعض الأعلام عندما وصل إلى غار حراء:

أمرغ في حراء أديم وجهى و أبصر فيه من نور بهى

لعلى أن أمس بحرّ وجهى ترابا مسه قدم النبي

فكم من ذكريات كان فيه و كم فيه من الفضل الخفى

ألم يك ساس بيت الله منه قدما قبل بنيان النبي

أليس المصطفى قد كان يرقى عليه للتعبد بالعشى

و ذلك قبل بعثته إينا كما هو ظاهر عند الذكى

فأول رؤية للوحى كانت له فى داخل الغار الجلى

تبدى جبريل و قال اقرأ باسم الله مولانا العلى

إلى آخر القصيدة.

هذا، و الحق يقال أن جبل حراء و ما حوله فيه من الأنوار المعنونة ما لا يخفى على أولى البصائر و أرباب القلوب، بل و جميع مكة المكرمة إلى حدود الحرم من جميع الجهات كذلك، و يعرفه أهل الذوق و الإشارات لا من كثفت طباعه و غلظت حواسه، و كيف لا تكون هذه الأماكن الشريفة كذلك، أليست هى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١٦

محل نزول القرآن غضا طريا من السماء إلى الأرض المباركة؟ أليست هى محلات تشرفت بوطئ أقدام رسول الله صلى الله عليه و سلم، و تشرفت بنسمات جبريل و الملائكة الكرام عليهم السلام؟

إن من طلع فوق جبل حراء، و دخل ذلك الغار المبارك، و نظر إلى ما حوله من الجبال و السهول، يتجلى له روعة المكان و جمال المنظر و بهاء الأثر على حقيقته، و يتملكه شعور الأنا و الصفاء كل واحد بحسب استعداده النفسى. إن لجبل حراء طابع خاص، إنه كجبل من جبال مكة المشرفة، و لكن الله تعالى خلق قمته التى بها الغار الشريف كالقبة الجميلة، إنه جبل فريد لا يماثله من الجبال لا بمكة و لا غيرها. فسبحان الكبير المتعال لا إله إلا هو العزيز الغفار.

عدد السماوات و الأرضين

نعقد هذا الفصل بمناسبة أن أساس الكعبة المعظمة واصل إلى تخوم الأرض السفلى، فنقول و بالله القوة و التوفيق:

إن عدد السموات سبع، كما ورد ذلك في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وما حديث الإسراء والمعراج بخاف على الناس الذي فيه التفصيل التام في عروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات السبع صحبة جبريل وكان يستفتح له أبوابها سماء سماء إلى السماء السابعة، والحديث المذكور في الصحيحين وأوله «بينما أنا في الحطيم مضطجعا إذ أتاني آت ... إلى آخره».

و السموات كلها مملوءة بالملائكة يعبدون الله لا يفترون. ففي الحديث:

«أطت السماء ويحق لها أن تئط والذى نفس بيده ما فيها موضع شبر إلا وفيه جبهه ملك ساجد يسبح الله بحمده» رواه ابن مردويه في تفسيره عن أنس بن مالك، قال العزيزي و رمز المؤلف لضعفه. ١٥.

و المعنى صوت السماء و حنت من ثقل ما عليها من ازدحام الملائكة، و هو كناية عن ثقلها بكثرة الملائكة.

و اعلم أن عدد الأرضين سبع أيضا كعدد السموات، و قد ورد ذلك صريحا في قوله سبحانه و تعالى، في سورة الطلاق: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمَنْ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١٧

الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.

جاء في تفسير الصاوي عند الآية المذكورة ما نصه: اعلم أن العلماء أجمعوا على أن السموات سبع طباقا بعضها فوق بعض، و أما الأرضون فالجمهور على أنها سبع كالسموات بعضها فوق بعض، و في كل أرض سكان من خلق الله، و عليه دعوة الإسلام مختصة بأهل الأرض العليا لأنه الثابت و المنقول، و لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم و لا أحد ممن بعده، نزل إلى الأرض الثانية و لا غيرها من باقى الأرضين و بلّغهم الدعوة. و هل جعل الله لما تحت الأرض العليا ضوء آخر غير الشمس و القمر، أو يستمدون الضوء منهما؟ قولان للعلماء. و قيل: إنها طباق ملزوقة بعضها ببعض، و قيل: ليست طباقا، بل منبسطة تفرق بينها البحار، و تظل الجميع السماء، و الأول هو الأصح. انتهى من الصاوي.

و جاء في تفسير الجمل المسمى «بالفتوحات الإلهية» في تفسير سورة الطلاق عند قوله تعالى أيضا: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمَنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ مَا نصه:

أما كون السموات سبعا بعضها فوق بعض فلا خلاف فيه لحديث الإسراء وغيره، و أما الأرضون فقال الجمهور: إنها سبع أرضين، طباقا بعضها فوق بعض، بين كل أرض و أرض مسافة، كما بين السماء و الأرض، و في كل أرض سكان من خلق الله، و قال الضحاك: إنها سبع أرضين، و لكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات. قال القرطبي: و الأول أصح، لأن الأخبار دالة عليه. و في كتاب الفردوس عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما بين السماء إلى السماء خمسمائة عام، و عرض كل سماء و ثخانته كل سماء خمسمائة عام، و ما بين السماء السابعة و بين الكرسي و العرش مثل ذلك، و ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام، و الأرضون و عرضهن و ثخانتهن مثل ذلك. ١٥.

قال الماوردي: و على أنها سبع أرضين، تختص دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا و لا يلزم من فى غيرها من الأرضين و إن كان فيها من يعقل من خلق مميز.

و فى مشاهدتهم السماء و استمدادهم الضوء منها قولان: أحدهما أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم و يستمدون الضياء منها، قال ابن عادل: و هذا قول من جعل الأرض مبسوطة. الثانى: أنهم لا يشاهدون السماء،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١٨

و أن الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه، قال ابن عادل: و هذا قول من جعل الأرض كروية.

و حكى الكلبي عن ابن صالح ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض، تفرق بينها البحار، و تظل جميعهم السماء، فعلى هذا إن لم يكن لأحد من أهل الأرض وصول إلى أرض أخرى، اختصت دعوة الإسلام بهذه الأرض، و إن كان لقوم منهم

وصول إلى أرض أخرى احتمال أن تلزمهم دعوة الإسلام، لإمكان الوصول إليهم، لأن البحار إذا أمكن سلوكها لا يمنع من لزوم ما عم حكمه، و احتمال أن لا تلزمهم دعوة الإسلام لأنها لو لزمتهم لكان النص بها واردا، و لكان النبي صلى الله عليه و سلم بها مأمورا. و قال بعض العلماء: السماء في اللغة عبارة عما علاك، فالأولى بالنسبة إلى السماء الثانية أرض و كذلك السماء الثانية بالنسبة إلى الثالثة أرض، و كذلك البقية بالنسبة إلى ما تحته سماء، و بالنسبة إلى ما فوقه أرض، فعلى هذا تكون السموات السبع و هذه الأرض الواحدة سبع سموات و سبع أرضين. اه بحروفه. انتهى من تفسير الجمل.

و ليس في القرآن آية تدل على عدد الأرضين غير الآية السابقة التي في سورة الطلاق على ما نظن، و أما الأحاديث فقد ورد عددها صريحا. روى البخارى في كتاب المظالم عن ابن عمر، رضى الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «من أخذ من الأرض شيئا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين».

و جاء في الصحيحين «من أخذ شبرا من الأرض ظالما فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين» رواه سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة رضى الله تعالى عنهم. أخرجه البخارى في كتاب بدء الخلق في باب ما جاء في سبع أرضين، و قول الله تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... الْآيَةَ.

و أخرجه أيضا في كتاب المظالم، و أخرجه مسلم في آخر كتاب البيوع في باب تحريم الظلم و غضب الأرض بأربع روايات كلها عن سعيد بن زيد رضى الله تعالى عنه.

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى في شرحه لكتابه «زاد المسلم بما اتفق عليه البخارى و مسلم» عند هذا الحديث المذكور في صحيفه ٢١٣ من الجزء الرابع ما نصه:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤١٩

و في هذا الحديث إثبات سبع أرضين كما هو ظاهر قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ. و المراد بقوله عليه الصلاة و السلام، من سبع أرضين أن كل واحدة فوق الأخرى. و في حديث أبى هريرة عند أحمد مرفوعا أن بين كل أرض و التى تليها خمسمائة عام.

قال القاضى عياض: الأرضون سبع طباق و إنما الخلاف هل فتق بعضها من بعض؟ فقال الداودى: الحديث يدل على أنها لم تفتق؛ لأنها لو فتقت لم يطوق بما ينتفع به غيره، و جاء فى غلظهن و فيما بينهن خبر ليس بصحيح.

قال الأئبي: و تقرير استدلال الداودى أن الرتق اتصال الشىء بالشىء، و الفتق: فصل بعضه عن بعض، فإذا لم تفتق فمن ملك شبرا من أرض أمكنه أن ينتفع بما تحته من الأخرى لتلاصقهما، و إذا فتقت و صار بين الأرضين خلاء، فلا يمكن الانتفاع بما يقابله من الأرض التى تحتها، و إنما ينتفع به غيره من ساكن تلك الأرض إن قدر أن بها ساكنا.

قال القاضى عياض: و استدل به بعضهم على أن من ملك ظاهر الأرض يملك ما تحته مما يقابله، فله منع من تصرف فيه أو يحفره. و قد اختلف العلماء فى هذا الأصل، فيمن اشترى دارا فوجد فيها كنزا أو وجد فى أرضه معدنا، فقيل له، و قيل للمسلمين، و وجه الدليل من الحديث أنه غضب شبرا فعوقب بحمله من سبع أرضين.

قال الأئبي: أما التمثيل بمن ملك الظاهر هل ملك الباطن فى المعدن فين، لأن المعدن من جنس الأرض، و أما بمن اشترى دارا فلا؛ لأن الكنز إن كان من دفن الإسلام فلقطه، و إن كان من دفن الجاهلية فركاز. قال القاضى عياض: و كذلك يملك ما قابل ذلك من الهواء يرفع فيه من البناء ما شاء ما لم يضر بأحد. و تأول بعضهم الحديث على أن المراد بالسبع أرضين السبعة أقاليم، و هو تأويل أبطله العلماء، لأنه لو كان المراد ذلك لم يطوق من غضب شبرا من إقليم شبرا من إقليم آخر، بخلاف طباق الأرض، فإن من ملك شبرا من أرض ملك ما تحته. انتهى من شرح زاد المسلم.

(نقول): الأئبي المذكور (هو بضم الهمزة و كسر الباء المشددة) أحد العلماء الذين شرحوا صحيح مسلم، و نعتقد أن هذا الشرح مطبوع

فى القرن السادس أو

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٢٠

السابع الهجرى، و لم نبحت عن ترجمته، رحمه الله تعالى لكن نزن أنه مغربى أو شنيطى، و الله تعالى أعلم.

لقد علمت فيما سبق أن عدد الأرضين سبع بصريح الآيات و الأحاديث، و من غريب المصادفات أن نطلع فى «مجله الهلال» التى صدرت بمصر بتاريخ شهر شعبان سنة ١٣٧٢ هـ. و شهر مايو سنة ١٩٥٣ م. و فى الصفحة ٢٩، على مقاله مأخوذة عن كتاب «ما وراء الدنيا» بعنوان (باطن الأرض مأهول بالسكان) و أن هناك ثلاث نظريات عن تكوين الأرض، و إليك نص المقالة: «النظرية الأولى» فى أوائل القرن الماضى أرسل ضابط أمريكى خمسمائة رسالة مطبوعة لأعضاء الكونغرس و مديرى الجامعات الأمريكية و المعاهد الأوربية و ليف من العلماء البارزين جاء فيها:

«سانت لويس، بشمال أمريكا فى ١٠ إبريل ١٨١٨»

أعلن أهل الدنيا جميعا أن الكرة الأرضية مجوفة، و أن باطنها أهل بالسكان، و أنها تحتوى على عدد من الكرات الواحدة داخل الأخرى، و كل منها لها فتحتان عند قطبيها الشمالى و الجنوبى. و أنا واثق من صحة هذه النظرية، و مستعد لإثباتها عمليا و كشف باطن الأرض المجهول إذا عاونتنى الهيئات العلمية و مكنتنى من القيام بهذا الكشف. «ج. كليفن. سيمز» و أرفق بكل رسالة منشورا آخر جاء فيه: إن نجاح المشروع يقتضى معاونه مائة متطوع مغامر مزودين بجميع معدات السفر، و سنبدا الرحلة من سيبيريا فى نهاية هذا الفصل حيث تغطى الثلوج الفتحة العليا للكرة الأرضية، و التى يمكن الوصول عن طريقها إلى الكرات الداخلية حيث الدفاء و الثروة الزراعية و الحيوانية، ثم نعود فى الربيع المقبل.

و أرفق بهذين الخطابين شهادة تدل على سلامة عقل صاحبها. و كان هذا الضابط لا يفتأ يتكلم عن دنياه الجديدة فى كل وقت، و لكنه لم يكن موفقا فى تدعيم كلامه بحجج أو أدلة منطقية، و لم يؤلف كتابا فى تأييد نظريته و إنما كانت حجته البالغة، أن سنة الطبيعة جرت بأن يكون كل شىء مجوفا، فعظام الحيوانات و الطيور و شعر الرأس و سيقان القمح و غيرها من النبات كلها جوفاء، و إذن فلا بد أن تكون الكواكب مجوفة كذلك، و أن الأرض خمس كرات الواحدة داخل الأخرى كما يبدو فى الرسم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٢١

«و عمل خمس دوائر داخله فى بعضها» و هى جميعا مأهولة بالكائنات الحية من الداخل و الخارج، و لكل منها فتحتان عند قطبيها، بحيث يستطيع سكان كل كرة أن يسافروا إلى أى مكان فيها فى داخلها أو خارجها، مثلهم فى ذلك مثل نملة تدب على جدار و عاء مفتوح من ظهره لبطنه و من بطنه لظهره، و كان صاحب هذه النظرية يقضى الساعات الطوال يصف لسامعيه الأجناس و المخلوقات العجيبة التى كان يقول: أنها تعيش داخل هذه الكرات و خارجها.

و كان «سيمز» يرى أن القشرة الخارجية للكرة التى نعيش عليها، يتراوح سمكها بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ ميل، و أن قطر فتحتها العليا التى تكسوها ثلوج القطب الشمالى يبلغ نحو ألفى ميل، و قطر الفتحة السفلى ثلاثة آلاف ميل، و أنهما منحرفتان عن الوسط قليلا، و كان الرجل متحمسا لنظريته حماسه دفعته إلى القيام بحملات للدعاية لها أشبه بالحملات السياسية، فكان يجوب البلدان المختلفة ليلقى المحاضرات و يعقد المؤتمرات الصحفية، كى يجيب عن الأسئلة التى توجه إليه، و الطريف أنه كلما طلب منه دليل على صحة ما يقول أجاب: بأنه كرجل من رجال الجيش المشهود لهم بالإخلاص و الصدق و لا يمكن أن يكذب و أنه يؤمن كل الإيمان برأيه.

و طبيعى أن رجال العلم فى أمريكا و أوروبا سخروا منه، و لكن الروس، قد كانوا يتوقون لكشف أراضي سيبيريا الشاسعة المجهولة، أظهرها اهتماما بالغا بالأمر، و عرضوا على «سيمز» معاونته فى رحلته إلى سيبيريا لبدأ من هناك بحثه، و لكن الرجل ما لبث أن أصيب بمرض لم يمهل طويلا، و دفن باحتفال عسكري، و قد ترك عدة صناديق مليئة بقصاصات الصحف و المذكرات، و ربما كان من مخلفاته أيضا ذلك النموذج الخشبى للكرة الأرضية كما كان يتصورها، و المعروف الآن فى أكاديمية العلوم الطبيعية بفيلادلفيا. و قد

ورث ابنه إيمانه بنظريته، فحاول بعد وفاته عبثاً أن يجمع مذكراته في كتاب، وقد أضاف على نظرية أبيه أنه يعتقد أن الشعوب و القبائل التي ورد ذكرها في بعض الكتب المقدسة، و التي يظن أنها بادت و اندثرت، لا بد أنها دخلت إلى باطن الأرض من إحدى فتحتها، و إننا لا بد سنلقاها هناك لو دخلنا إليها.

(النظرية الثانية) و بعد وفاة «سيمز» بسنوات أعلن طبيب يدعى «سيروس ريد» عن نظرية جديدة، زعم أن الوحي الإلهي هبط عليه في عام ١٨٦٩ و هو ما

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٢٢

يزال شاباً، و كان هذا الطبيب يكتب عن نظريته في الصحف و غيرها من المطبوعات بالاسم المستعار «كورش» و تلخص النظرية في أن طبقات الجو المحيطة بنا تشبه مجموعة من العدسات تعكس الإشعاعات الصادرة من النجم الكائن في جوف الأرض، فيتراءى لنا ما نتوهمه قمراً و كواكب، و يرجع تعاقب الليل و النهار و اختلاف الفصول إلى حركات هذا النجم، و كان «ريد» يقدر سمك القشرة الأرضية بنحو مائة ميل، و أنها تتألف من سبع طبقات من المعادن، و خمس طبقات صخرية، و خمس أخرى «جولوجية».

(النظرية الثالثة) و ظهرت نظرية ثالثة في أواخر عام ١٩٢٠ في ألمانيا، تزعمها رجل يدعى «كارل نيوبرت» و تلخص في أن الأرض فقاعة كروية، و أن الجغرافيين قاسوا أطوالها قياساً دقيقاً و رسموا لها خرائط صحيحة، و لكنهم أخطأوا في قولهم، بأننا نعيش على سطحها الخارجي في حين أننا في الواقع نعيش في باطنها. و فوق رؤوسنا ثلاثة أجرام تتحرك بالقرب من مركز هذه الفقاعة هي الشمس و القمر و السماء، و هي كرة ذات لون أزرق داكن تلمع فوقها أضواء يحسبها بجوها، و الليل ينشأ من اعتراض هذه الكرة لأشعة الشمس و هي في طريقها إلى الأرض، و كان «نيوبرت» يقول: أن الجغرافيين يخطئون، إذ يقولون أن الأشعة الضوئية تسير في خط مستقيم، و الواقع أنها مقوسة، و أن الأشعة البنفسجية أكثر تقوساً و انحناء من الأشعة الحمراء، و الطريف أن كثيرين كانوا يؤمنون بصحة هذه النظريات حتى وقت قريب. انتهى من مجلة الهلال.

نقول: إن كاتب هذه المقالة يعتقد أن طبقات الأرض خمس كما صرح بذلك في مقالته، و اعتقاده هذا بناه على ما ظهر له من النظريات. و أما نحن المسلمين، فإننا نعتقد سبع أرضين كالسموات السبع، بدليل صريح القرآن الكريم و الحديث الشريف، و نحن مأمورون بالإيمان بذلك، و لسنا مأمورين بالبحث عن كيفية الأرضين السبع، و لا بمعرفة أنواع سكان كل طبقة من الأرض، إذ أن الوصول إلى نتيجة البحث مستحيل تقريباً، فنكل علم كل ذلك إلى الله تعالى الذي يعلم ما في السموات و ما في الأرض، لا إله إلا هو العزيز الغفار.

و لئن قام الأفرنج الآن ببعض الاستكشاف عن الأرض، فإن الإسلام قد أوضح كل ذلك من قديم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٢٣

خلق موضع الكعبة

قال الإمام الأزرقى أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد في أول كتابه «أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار» ما ملخصه: قال كعب الأحبار: كانت الكعبة غطاء على الماء قبل أن يخلق الله عز و جل السموات و الأرض بأربعين سنة و منها دحيت الأرض، و الغطاء بالضم و المد ما يحمله السيل من القماش كما في مختار الصحاح.

و قال مجاهد: لقد خلق الله عز و جل موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفى سنة، و إن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى.

و قال ابن عباس رضى الله عنه: لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات و الأرض بعث الله تعالى ريحا هفافة فصفت الماء فأبرزت عن خشفه في موضع هذا البيت كأنها قبة فدحا الله الأرضين من تحتها فمادت ثم ماد، فأوتدها الله تعالى بالجبال

فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس، فلذلك سميت مكة أم القرى. انتهى باختصار من تاريخ الأزرقى. روى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أول بقعة وضعت من الأرض موضع البيت، ثم مدت منها الأرض، وإن أول جبل وضعه الله تعالى على وجه الأرض أبو قبيس، ثم مدت منه الجبال». قال العزيزى فى شرحه على الجامع الصغير: قال الشيخ: حديث صحيح لغيره. ١٥٠.

نقول: و مما تقدم أخذ بعضهم أن مكة المكرمة قلب الدنيا ووسطها و موضع الكعبة هو نقطة مركز دائرتها. قال البتوني فى كتابه: «الرحلة الحجازية»: و اليهود يقولون إن قلب العالم فى المكان الذى به تابوت العهد بالقدس، و النصرى يقولون: إنما هو فى كنيسة القيامة ببيت المقدس، و فيها كرة من الرخام يبلغ قطرها نحو ثلاثين أو أربعين سنتيمترا، مرفوعة على قاعدة من الرخام أيضا، و يزعمون أن هذه الكرة موضوعة فى المركز الحقيقى للكرة الأرضية. انتهى كلامه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٤

و رأينا فى مسألة موضع وسط الدنيا أننا لا نميل إلى أحد الأقوال المتقدمة، حيث إنه لم يرد نص صريح على ذلك فى ديننا الحنيف و الدنيا واسعة عظيمة لم يحط أحد بعلم جزء صغير منها تمام الإحاطة فضلا عن جميعها، فالأحسن و الأولى تفويض ذلك إلى الله عز شأنه علام الغيوب و الخلاق العظيم لا إله إلا هو الكبير المتعال.

بنايات الكعبة المعظمة

بنيت الكعبة المعظمة إحدى عشرة مرة بنتها: (١) الملائكة (٢) ثم آدم (٣) ثم شيث (٤) ثم إبراهيم (٥) ثم العمالق (٦) ثم جرهم (٧) ثم قصى (٨) ثم قريش (٩) ثم عبد الله بن الزبير (١٠) ثم الحجاج (١١) ثم السلطان مراد ابن السلطان أحمد من سلاطين آل عثمان، و ذلك سنة أربعين و ألف هـ، و قد نظم بعضهم أسماء هؤلاء فقال:

بنى الكعبة الغراء عشر ذكرتهم و رتبهم حسب الذى أخبر الثقة
ملائكة الرحمن، آدم، ابنه كذاك خليل الله، ثم العمالق
و جرهم يتلوهم قصى، قريشهم كذا ابن الزبير، ثم الحجاج لا حقه
و من بعدهم آل عثمان قد بنى «مراد» حماه الله من كل طارقه
و قال بعضهم أيضا:

بنى البيت خلق و بيت الإله مدى الدهر من سابق يكرم

ملائكة آدم، ولده خليل، عمالق، جرهم

قصى، قريش، نجل الزبير و حجاج، بعدهم نعلم

و سلطاننا الملك المرتضى «مراد» هو الماجد المكرم

و ها نحن نذكر جميع ذلك بالتفصيل التام و بالترتيب المذكور. فتأمل كل بناية فى عهدا مزيد التأمل، ليظهر لك الأمر جليا واضحا فإليك ذكر ذلك.

الدليل على بناء الكعبة قبل إبراهيم عليه الصلاة و السلام

اختلف المؤرخون في أول من بنى الكعبة المعظمة، فقبل أول من بناها خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقيل أول من بناها الملائكة عليهم السلام، ولم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٢٥

يأت نص صريح في ذلك من كتاب أو سنه، و القرآن الكريم ذكر فقط إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، رفع قواعد البيت مع ابنه إسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، وقد أجمع المؤرخون قديما وحديثا أن الكعبة بنيت قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنتها أولا الملائكة، ثم آدم، ثم ابنه شيث، ثم إبراهيم على جميعهم الصلاة والسلام ... الخ. هذا الذي أتى لنا التاريخ ونحن نروى ما روى التاريخ.

هذا: ونحن نوافق على ما ذكره المؤرخون حيث يطمئن إليه قلبنا ونستدل على ذلك بما ذكره الإمام الأزرقى وهو إمام في العلم والحديث والتاريخ وهو من علماء مكة ومن أهل القرن الثاني للهجرة، وتاريخه هو أول تاريخ لمكة المشرفة وصل إلينا ويعتمد عليه وكفى به حجة. فقد قال عند بناء إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، الكعبة ما نصه:

يقول ابن عباس: فقام- أى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام- يحضران عن القواعد ويقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ويحمل له إسماعيل الحجارة على رقبته ويبنى الشيخ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ... الخ.

وروى أيضا في موضع آخر عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أنه أخبره قال: لما ابتعث الله تعالى إبراهيم خليله ليبنى له البيت طلب الأساس الأول الذى وضع بنو آدم فى موضع الخيمة التى عزى الله بها آدم عليه السلام من خيام الجنة حيث وضعت له بمكة فى موضع البيت الحرام، فلم يزل إبراهيم يحفر حتى وصل إلى القواعد التى أسس بنو آدم فى زمانهم فى موضع الخيمة، فلما وصل إليها أظلم الله له مكان البيت بغمامة ... الخ، ويقصد الإمام رحمه الله تعالى بقوله: «التي أسس بنو آدم فى زمانهم» آدم وابنه شيث عليهما الصلاة والسلام. ولقد ذكر الإمام رحمه الله، تعالى فى أول تاريخه أيضا عن بناء الملائكة و آدم عليهما الصلاة والسلام: أن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت على الأرض السفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلا ... الخ.

و ذكر الإمام الأزرقى أيضا عند الكلام على بناء عبد الله بن الزبير، رضى الله تعالى عنهما الكعبة فقال ما نصه: فلما هدم ابن الزبير الكعبة وسواها بالأرض، كشف عن أساس إبراهيم فوجدوه داخلًا فى الحجر نحوًا من ستة أذرع و شبر،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٢٦

كأنها أعتاق الإبل أخذ بعضها بعضا كتشبيك الأصابع بعضها ببعض، يحرك الحجر من القواعد فتحرك الأركان كلها. فدعا ابن الزبير خمسين رجلا من وجوه الناس وأشرفهم وأشهدهم على ذلك الأساس، قال: فأدخل رجل من القوم كان أيدا يقال له: عبد الله بن مطيع العدوى، عتلة كانت فى يده فى ركن من أركان البيت فتزعزت الأركان جميعا، ويقال إن مكة كلها رجفت رجفة شديدة حين زعزع الأساس وخاف الناس خوفا شديدا حتى ندم كل من كان أشار على ابن الزبير بهدمها وأعظموا ذلك إعظاما شديدا وأسقط فى أيديهم فقال لهم ابن الزبير:

اشهدوا ثم وضع البناء على ذلك الأساس. انتهى منه.

فمثل هذه الحجارات الضخمة وإلقائها فى أساس الكعبة وتشابكها مع بعضها كتشابك الأصابع أى كقطع العجين إذا رميت بعضها فوق بعض واشتبكت وتداخلت فى بعضها، لا يكون من فعل بنى آدم قط. وسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنى الكعبة على الأساس السابق الذى كان قبله، و ردم بفعل الأمطار والسيول أو بفعل طوفان نوح، عليه الصلاة والسلام، ولا شك أن الملائكة لم تساعده فى رفع قواعد أو رفع أساسه- الله تعالى أعلم بالغيب- فعلم من كل ذلك أنه لا مانع بالقول أن الكعبة المشرفة بنيت قبل خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مع العلم بأن هذه المسألة لها تعلق بالدين، نعم من أنكر بناء إبراهيم الكعبة يعد كافرا، إن

تعتمد ذلك، لأنه ثابت بنص القرآن الكريم. والله تعالى أعلم بالغيب.

البنية الأولى: بناء الملائكة عليهم السلام الكعبة

أول من بنى البيت الحرام هم الملائكة و ذلك قبل خلق آدم عليه السلام، و تفصيل ذلك نقله من أقدم كتب التاريخ الذى وصل إلينا و هو كتاب «أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار» للإمام الجليل أبى الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى، المولود فى القرن الثانى للهجرة.

قال رحمه الله تعالى فى كتابه المذكور عن بناء الملائكة ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى على بن هارون بن مسلم العجلي عن أبيه قال: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن الأنصارى قال: حدثنى محمد بن على بن الحسين قال: كنت مع التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٢٧

أبى على بن الحسين بمكة فبينما هو يطوف بالبيت و أنا وراءه إذ جاءه رجل شرجع من الرجال يقول طويل، فوضع يده على ظهر أبى. فالتفت أبى إليه فقال الرجل:

السلام عليك يا ابن بنت رسول الله. إنى أريد أن أسألك، فسكت أبى و أنا و الرجل خلفه حتى فرغ من أسبوعه، فدخل الحجر. فقام تحت الميزاب، فقامت أنا و الرجل خلفه فصلى ركعتى أسبوعه ثم استوى قاعدا فالتفت إلى فقامت إلى جنبه فقال: يا محمد فأين هذا السائل؟ فأومأت إلى الرجل فجاء فجلس بين يدى أبى. فقال له أبى: عم تسأل؟ قال: أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت لم كان و أنى كان و حيث كان و كيف كان؟ فقال له أبى: نعم من أين أنت؟ قال: من أهل الشام. قال: أين مسكنك؟ قال: فى بيت المقدس. قال فهل قرأت الكتابين؟ (يعنى التوراة و الإنجيل) قال الرجل: نعم. قال أبى: يا أبا أهل الشام احفظ و لا تروين عنى إلا حقا أما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تبارك سبحانه و تعالى قال للملائكة: إنى جاعل فى الأرض خليفة فقالت الملائكة:

أى رب أخليفة من غيرنا ممن يفسد فيها و يسفك الدماء و يتحاسدون و يتباغون؟

أى رب اجعل ذلك الخليفة منا فنحن لا- نفسد فيها، و لا- نسفك الدماء، و لا نتباغض، و لا نتحاسد، و لا نتباغى، و نحن نسبح بحمدك، و نقدر لك، و نطيعك، و لا نعصيك. فقال الله تعالى: إنى أعلم ما لا تعلمون قال: فظنت الملائكة أن ما قالوا ردا على ربهم، عز و جل، و أنه قد غضب من قولهم، فلاذوا بالعرش و رفعوا رؤوسهم و أشاروا بالأصابع يتضرعون و يبكون إشفافا لغضبه و طافوا بالعرش ثلاث ساعات فنظر الله إليهم فتزلت الرحمة عليهم فوضع الله تعالى تحت العرش بيتا على أربع أساطين من زبرجد و غشاهن بياقوته حمراء و سمي ذلك البيت الضراع ثم قال الله تعالى للملائكة: طوفوا بهذا البيت و دعوا العرش قال: فطافت الملائكة بالبيت و تركوا العرش و صار أهون عليهم من العرش و هو البيت المعمور الذى ذكره الله، عز و جل، يدخله فى كل يوم و ليلة سبعون ألف ملك لا- يعودون فيه أبدا، ثم إن الله سبحانه و تعالى بعث ملائكة فقال لهم: ابنوا لى بيتا فى الأرض بمثاله و قدره، فأمر الله سبحانه من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. فقال الرجل: صدقت يا ابن رسول الله صلى الله عليه و سلم هكذا كان. انتهى من تاريخ الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٢٨

و روى فى موضع آخر منه أيضا عن محمد بن المنكدر أنه قال: كان أول شىء عمله آدم عليه السلام، حين أهبط من السماء، طاف بالبيت فلقيته الملائكة فقالوا: بر نسكك يا آدم، طفنا بهذا البيت قبلك بألفى عام.

و روى أيضا عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: حج آدم، عليه السلام، و طاف بالبيت سبعا فلقيته الملائكة فى الطواف. فقالوا: بر حجك يا آدم، أما إنا قد حججنا قبلك هذا البيت بألفى عام، قال: فما كنتم تقولون فى الطواف؟ قالوا: كنا نقول سبحان الله و الحمد

لله ولا إله إلا الله و الله أكبر، قال آدم: فزيدوا فيها «و لا حول و لا قوة إلا بالله» قال: فزادت الملائكة فيها ذلك. قال: ثم حج إبراهيم عليه السلام، بعد بنيانه البيت، فلقيته الملائكة فى الطواف فسلموا عليه. فقال لهم إبراهيم: ما ذا كنتم تقولون فى طوافكم؟ قالوا: كنا نقول قبل أبيك آدم، سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر. فأعلمناه ذلك. فقال آدم عليه السلام: زيدوا فيها و لا حول و لا قوة إلا بالله، فقال إبراهيم: زيدوا فيها «العلی العظيم» قال: ففعلت الملائكة ذلك. انتهى من الأزرقى. و يقال إن الملائكة هم الذين أسسوا المسجد الأقصى لأول مرة، و قيل آدم، عليه السلام، و قيل سام بن نوح عليه السلام، و قيل يعقوب عليه السلام، و قيل داود عليه السلام، و قيل سليمان عليه السلام، و قيل إبراهيم عليه السلام، و قيل إن الأخيرين جددا ما خرب منه فقط و أما وضع أساسه فقد كان قبلهما و الله تعالى أعلم.

البنية الثانية: بناء آدم عليه السلام الكعبة

إشارة

(الثانى) ممن بنى البيت الحرام، أبونا آدم عليه الصلاة و السلام، قال الإمام الأزرقى فى تاريخه ما نصه: حدثنا أبو الوليد حدثنا جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم عن طلحة بن عمرو الحضرمى عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة كان رأسه فى السماء و رجلاه فى الأرض و هو مثل الفلك من رعدته قال: فطأ الله عز و جل منه إلى ستين ذراعاً، فقال: يا رب ما لى لا أسمع أصوات الملائكة و لا أحسهم؟ قال: خطيبتك يا آدم. و لكن اذهب فابن لى بيتا التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٢٢٩

فطف به و اذكرنى حوله كنعو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطا فطويت له الأرض و قبضت له المفاز فصار كل مفازة يمر بها خطوة و قبض له ما كان من مخاض ماء أو بحر فجعله له خطوة و لم تقع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عمراناً و بركة حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام و إن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت على الأرض السفلى فقدفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلاً و أنه بناه من خمسة أجبل من لبنان، و طور زيتا، و طور سينا و الجودى، و حراء حتى استوت على وجه الأرض. قال ابن عباس: فكان أول من أسس البيت و صلى فيه و طاف به آدم عليه السلام حتى بعث الله الطوفان قال:

و كان غضبا و رجسا قال: فحيث ما انتهى الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام قال: و لم يقرب الطوفان أرض السند و الهند قال: فدرس موضع البيت فى الطوفان حتى بعث الله تعالى إبراهيم و إسماعيل فرفعا قواعد و أعلامه و بنته قريش بعد ذلك و هو بحذاء البيت المعمور لو سقط، ما سقط إلا عليه.

حدثنا أبو الوليد حدثنا مهدي بن أبى المهدي قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم الصنعانى عن عبد الصمدى ابن معقل عن وهب بن منبه أن الله تعالى لما تاب على آدم عليه السلام أمره أن يسير إلى مكة فطوى له الأرض و قبض له المفاز فصار كل مفازة يمر بها خطوة و قبض له ما كان فيها من مخاض ماء أبو بحر فجعله له خطوة فلم يضع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عمراناً و بركة حتى انتهى إلى مكة.

و كان قبل ذلك قد اشتد بكاؤه و حزنه لما كان فيه من عظم المصيبة حتى إن كانت الملائكة لتحزن لحزنه و لتبكى لبكائه فعزاه الله تعالى بخيمة من خيام الجنة و وضعها له بمكة فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة و تلك الخيمة ياقوته حمراء من يواقيت الجنة فيها ثلاثة قناديل من ذهب من تبر الجنة، فيها نور يلهب من نور الجنة، و نزل معها الركن و هو يومئذ ياقوته بيضاء من ربض الجنة و كان كرسيا لآدم عليه السلام يجلس عليه، فلما صار آدم عليه السلام بمكة و حرس له تلك الخيمة بالملائكة كانوا يحرسونها و

يذودون عنها ساكن الأرض، و ساكنها يومئذ الجن و الشياطين فلا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة لأنه من نظر إلى شيء من الجنة و جبت له، و الأرض يومئذ طاهرة نقيه لم تنجس، و لم تسفك فيها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٣٠

الدماء، و لم يعمل فيها بالخطايا، فلذلك جعلها الله مسكن الملائكة و جعلهم فيها كما كانوا في السماء يسبحون الله الليل و النهار لا يفترون، و كان وقوفهم على أعلام الحرم صفا واحدا مستديرين بالحرم الشريف كله، الحل من خلفهم و الحرم كله من أمامهم فلا يجوزهم جن و لا شيطان و من أجل مقام الملائكة حرم الحرم حتى اليوم، و وضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة و حرم الله عز و جل على حواء دخول الحرم و النظر إلى خيمة آدم عليه السلام من أجل خطيئتها التي أخطأت في الجنة فلم تنظر إلى شيء من ذلك حتى قبضت، و أن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليلم بها للولد خرج من الحرم كله حتى يلقاها فلم تزل خيمة آدم عليه السلام مكانها حتى قبض الله آدم و رفعها الله تعالى و بنى بنو آدم بها من بعده مكانها بيتا بالطين و الحجارة فلم يزل معمورا يعمرونه هم و من بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق و خفى مكانه. فلما بعث الله تعالى إبراهيم خليله عليه السلام طلب الأساس فلما وصل إليه ظلل الله تعالى له مكان البيت بغمامة فكانت حفاف البيت الأول ثم لم تزل راكدة على حفافه تظل إبراهيم و تهديه مكان القواعد حتى رفع الله القواعد قامه ثم انكشفت الغمامة فذلك قول الله عز و جل: **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَي: الغمامة التي ركبت على الحفاف لتهديه مكان القواعد فلم يزل يحمد الله منذ رفعه الله معمورا.** قال وهب بن منبه: و قرأت في كتاب من الكتب الأولى ذكر فيه أمر الكعبة فوجد فيه أن ليس من ملك من الملائكة بعثه تعالى إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت فينقض من عند العرش محرما ملييا حتى يستلم الحجر ثم يطوف سبعا بالبيت و يركع في جوفه ركعتين ثم يصعد.

و حدثني محمد بن يحيى عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن عبد الله بن لبيد قال: بلغني أن ابن عباس قال: لما أهبط الله سبحانه آدم عليه السلام إلى الأرض أهبطه إلى موضع البيت الحرام و هو مثل الفلك من رعدته ثم أنزل عليه الحجر الأسود- يعنى الركن- و هو يتلأل- من شدة بياضه فأخذ آدم عليه السلام فضمه إليه أنسا به ثم نزلت عليه العصا فقليل له: **تخط يا آدم فتخطا فإذا هو بأرض الهند و السند فمكث بذلك ما شاء الله ثم استوحش إلى الركن فقليل له: احجج قال:** فحج فلقيته الملائكة فقالوا: **برحجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام.**

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٣١

و حدثني جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن إسحاق قال: بلغني أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض حزن على ما فاتته مما كان يرى و يسمع من الجنة من عبادة الله فبوا الله له البيت الحرام و أمره بالسير إليه فسار إليه لا ينزل منزلا- إلا- فجر الله له ماء معينا حتى انتهى إلى مكة فأقام بها يعبد الله عند ذلك البيت و يطوف به فلم تزل داره حتى قبضه الله بها.

و حدثني جدى قال: حدثني سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: بلغني أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال لكعب: يا كعب أخبرني عن البيت الحرام قال كعب: أنزله الله تعالى من السماء ياقوته مجوفة مع آدم عليه السلام فقال له: يا آدم إن هذا بيتي أنزلته معك يطاف حوله كما يطاف حول عرشى و يصلى حوله كما يصلى حول عرشى. و نزلت معه الملائكة فرفعوا قواعد من الحجارة ثم وضع البيت عليه فكان آدم عليه السلام يطوف حوله كما يطاف حول العرش و يصلى عنده كما يصلى عند العرش فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الله إلى السماء و بقيت قواعده.

حدثني جدى قال: و حدثني إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن أبان بن أبي عياش قال: بلغنا عن أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل كعبا ثم نسق مثل الحديث الأول. و حدثني جدى قال: و حدثني إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس رضوان الله عليه قال: كان آدم عليه السلام أول من

أسس البيت و صلى فيه حتى بعث الله الطوفان. حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن أبان: أن البيت أهبط ياقوته لآدم عليه السلام أو درة واحدة. و حدثني جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم القداح عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه قال: كان البيت الذى بوأه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ ياقوته من يواقيت الجنة حمراء تلتهب، لها بابان أحدهما شرقى و الآخر غربى و كان فيه قناديل من نور آنتيتها ذهب من تبر الجنة و هو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض، و الركن يومئذ نجم من نجومه و هو يومئذ ياقوته بيضاء.

حدثنا جدى قال: حدثني إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى قال: حدثنا المغيرة بن زياد عن عطاء بن أبي رباح قال: لما بنى ابن الزبير الكعبة أمر العمال أن يبلغوا فى الأرض فبلغوا صخرًا أمثال الإبل الخلف قال فقالوا: إنا قد بلغنا صخرًا معمولا التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٣٢

أمثال الإبل الخلف قال: قال: زيدوا فاحفروا، فلما زادوا بلغوا هواء من نار يلقاها فقال: ما لكم؟ قالوا: لسنا نستطيع أن نزيد، رأينا أمرا عظيما فلا نستطيع، فقال لهم: ابنوا عليه، قال: فسمعت عطاء يقول: يرون أن ذلك الصخر مما بنى آدم عليه السلام. و حدثني جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن الزهرى عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس، عليه السلام، خر آدم ساجدا يبكى فهتف به هاتف فقال: ما يبكيك يا آدم؟ قال: أبكاني أنه حيل بينى و بين تسيح ملائكتك و تقديس قدسك قيل له: يا آدم قم إلى البيت الحرام، فخرج إلى مكة فكان حيث يضع قدميه يفجر عيوننا، و عمرانا، و مداين، و ما بين قدميه الخراب و المعاطش. فبلغنى أن آدم عليه السلام تذكر الجنة فبكاء فلو عدل بكاء الخلق ببكاء آدم حين أخرج من الجنة ما عدله و لو عدل بكاء الخلق و بكاء آدم عليه السلام ببكاء داود حين أصاب الخطيئة ما عدله. انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقي.

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه:

و عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، أن الله تعالى أوحى إلى آدم أن لى حرما بحيال عرشى فانطلق فابن لى بيتا فيه ثم حف به كما رأيت الملائكة يحفون بعرشى فهنا لك أستجيب لك و لولدك من كان منهم على طاعتى. فقال آدم: أى رب و كيف لى بذلك لست أقوى عليه و لا أهتدى لمكانه، فقيض الله له ملكا فانطلق به نحو مكة فكان آدم عليه السلام إذا مرّ بروضة أو مكان يعجبه قال للملك: انزل بنا هاهنا فيقول له الملك: أمامك حتى قدم مكة فبنى البيت من خمسة أجبل من طور سيناء و حراء و طور زيتا و من لبنان و الجودى.

و فى رواية و هب بن منبه: و ثبير واحد بدل لبنان و الجودى. انتهى.

و بنى قواعده من حراء فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التى يفعلها الناس اليوم.

و فى رواية قال ابن عباس: إنما سمي عرفات جمعا؛ لأنه اجتمع بها آدم و حواء.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٣٣

و فى أنوار التنزيل: إنما سمي الموقف عرفه لأن آدم و حواء التقيا فيه فتعارفا، أو لأنه نعت لإبراهيم عليه السلام، فلما أبصره عرفه أو لأن جبريل كان يدور به من المشاعر فلما رآه قال: عرفت أو لأن الناس يتعارفون فيه.

و عرفات للمبالغة فى ذلك و هى من الأسماء المرتجلة إلا أن يجعل جمع عرفه.

فحج آدم و أقام المناسك.

قال و هب بن منبه: تلقته الملائكة بالأبطم فرحبت به و قالت: يا آدم إنا لنتظرك و لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام ثم قدم به الملك مكة فطاف بالبيت أسبوعا ثم رجع إلى أرض الهند فمات بها. انتهى من تاريخ الخميس.

و جاء فى تاريخ الخميس ما نصه:

قال أبو جهم: و إن آدم عليه السلام أمر بأساسه فبناه هو و حواء و أسساه بصخر أمثال الخلفات يعنى النوق التى فى بطونها أجنة

واحدتها خلفه أذن الله للصخر أن يطيعهما ثم نزل البيت من السماء من ذهب أحمر و وكل به من الملائكة سبعون ألف ملك فوضعه على أسس آدم عليه السلام و نزل الركن و هو يومئذ درة بيضاء فوضع موضعه اليوم من البيت و طاف به آدم و صلى فيه فلما مات آدم عليه السلام و ليه بعده ابنه شيث فكان كذلك حتى حجه نوح عليه السلام فلما كان الغرق يعنى الطوفان بعث الله تعالى سبعين ألف ملك فرفعوه إلى السماء كى لا يصيبه الماء النجس و بقيت قواعده و جاءت السفينة فدارت به سبعا ثم دثر البيت فلم يحجه من بين نوح و بين إبراهيم أحد من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام.

و فى شفاء الغرام عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«بعث الله عز و جل جبريل إلى آدم و حواء فقال لهما: ابنا لى بيتا فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر و حواء تنقل التراب حتى أصابه الماء نودى من تحته حسبك يا آدم فلما بناه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به و قيل له: أنت أول الناس و هذا أول بيت تناسخته القرون. انتهى من تاريخ الخميس.

جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: قال وهب: إن آدم لما صار بمكة حرسه الله و حرس تلك الخيمة بالملائكة يحرسونه و يذودون عنه سكان الأرض، و سكانها يومئذ الجن و الشياطين فلا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شىء من الجنة لأن من ينظر إلى شىء من الجنة و جبت له الجنة، و الأرض يومئذ طاهرة نقيه طيبة لم تنجس و لم يسفك فيها الدماء و لم تعمل فيها الخطايا فمن أجل ذلك جعلها الله مستقرا التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٣٤

للملائكة، و جعلهم فيها كما كانوا فى السماء يسبحون الليل و النهار لا يفترون، و كان موقفهم على أعلام الحرم صفا واحدا مستديرا محيطا بالحرم، و الحل كله من خلفهم، و الحرم كله دونهم، و قال ابن عباس: إن للحرم حرمة البيت إلى السموات ثم إلى العرش و إلى الأرض السفلى، فلا يجوزها جن و لا شيطان، من أجل مقام الملائكة حرم الله الحرم حتى اليوم و وضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة. انتهى من تاريخ الخميس.

نقول: ما ذكر فيما تقدم من أن البيت الحرام رفع زمان الطوفان إلى السماء يفسر بالرواية التى تقول: إن البيت أنزل على آدم عليه السلام من الجنة و هو خيمة من خيامها ياقوتة حمراء من يواقيتها فيها ثلاثة قناديل من ذهب الجنة فيها نور يذهب من نور الجنة. فعلى هذه الرواية لا يبعد أن يرفع البيت زمن الطوفان إلى السماء لترجع هذه الخيمة التى نزلت من الجنة إلى مكانها الأول فى الجنة، فما كان أصله من الجنة يكون مآله إلى الجنة و لو بعد حين كالحجر الأسود فإنه يرفع أيضا فى آخر الزمان.

أما لو فسرنا رفع البيت إلى السماء زمن الطوفان بالرواية التى تقول إن آدم عليه السلام بنى البيت بالطين و الحجارة، فهذا بعيد غير معقول، لأن ما كان من الأرض ليس من الشرافة و القداسة حتى يرفع إلى السماء، و البيت الحرام هدم و بنى مرارا و استبدلت حجاراته المهذومة بحجارات جديدة منحوتة من الجبال، فليس فى البيت الحرام اليوم حجر مقدس لذاته غير الحجر الأسود فهو الذى من الجنة و مآله إلى الجنة بدون شك.

فتأمل فى هذا المبحث النفيس فالحمد لله على التوفيق.

ما جاء فى حج آدم عليه الصلاة و السلام

قال الإمام الأزرقى رحمه الله فى تاريخه ما نصه:

حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: حدثت أن آدم عليه السلام خرج حتى قدم مكة فبنى البيت فلما فرغ من بنائه قال: أى رب إن لكل أجير أجرا و إن لى أجرا قال: نعم فأسألنى قال: أى رب تردنى من حيث أخرجتنى، قال: نعم! ذلك لك قال: أى رب و من خرج

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٣٥

إلى هذا البيت من ذريتي يقر على نفسه بمثل الذي قررت به من ذنوبي أن تغفر له قال: نعم! ذلك لك. حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا محمد بن يحيى عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن أبي المليح أنه قال: كان أبو هريرة يقول: حج آدم عليه السلام ففضى المناسك فلما حج قال: يا رب إن لكل عامل أجرا قال الله تعالى:

أما أنت يا آدم فقد غفرت لك و أما ذريتك فمن جاء منهم هذا البيت فبأذن غفرت له، فحج آدم عليه السلام فاستقبلته الملائكة بالروم فقالت: بر حجك يا آدم قد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام، قال: فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا:

كنا نقول سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. قال: فكان آدم عليه السلام إذا طاف بالبيت يقول هؤلاء الكلمات و كان طواف آدم عليه السلام سبعة أسابيع بالليل و خمسة أسابيع بالنهار، قال نافع: كان ابن عمر رحمه الله يفعل ذلك.

حدثني محمد بن يحيى قال: حدثني هشام بن سليمان المخزومي عن عبد الله بن أبي سليمان مولى بني مخزوم أنه قال: طاف آدم عليه السلام سبعا بالبيت حين نزل، ثم صلى تجاه باب الكعبة ركعتين، ثم أتى الملتزم فقال: اللهم إنك تعلم سريرتي و علانيتي فأقبل معذرتي و تعلم ما في نفسي و ما عندي فاغفر لي ذنوبي و تعلم حاجتي فأعطني سؤلي، اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبي و يقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا- ما كتبت لي و الرضا بما قضيت علي، قال: فأوحى الله تعالى إليه يا آدم قد دعوتني بدعوات فاستجبت لك، و لن يدعوني بها أحد من ولدك إلا كشفت غمومه و همومه و كفت عليه ضيقته، و نزت الفقر من قلبه، و جعلت الغناء بين عينيه، و تجرت له من وراء تجارة كل تاجر، و أته الدنيا و هى راغمة و إن كان لا يريد لها. قال: فمد طاف آدم عليه السلام كانت سنة الطواف. انتهى من تاريخ الأزرقى.

و يقال أن آدم عليه الصلاة و السلام هو أول من أسس المسجد الأقصى، و قيل غيره. و الله تعالى أعلم.

مقدار طول آدم عليه السلام

لقد اختلف الناس فى طول آدم و حواء من الإفرنج فذهبوا مذاهب شتى، فقال المستشرق المسيو «هانريون» العضو فى المجمع العلمى الفرنساوى، أن طول آدم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٣٦

كان (١٢٣) قدما و تسع بوصات أى (٣٧ مترا تقريبا)، و أن طول حواء كان (١١٨) قدما و ثلاثة أرباع البوصة (انظر مادة آدم فى معجم لاروس الكبير) هذا ما هو مذكور فى كتاب (الرحلة الحجازية) فهؤلاء المستشرقون أخذوا استنتاجهم من الموميات و الهياكل التى يعثرون عليها فى بطون الأرض.

و نحن المسلمون يجب علينا ألا- نتبع آراءهم و أقوالهم فيما يمس بالدين، و لقد ورد عندنا الأثر الصحيح عن طول أبينا آدم عليه السلام و لم يرد عن طول حواء شىء، و لا بد أن طولها و خلقتها متناسبان مع شكل آدم عليه الصلاة و السلام.

و لنذكر فيما ورد فى طول آدم، فقد جاء فى الصحيحين و فى مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «خلق الله آدم على صورته ستون ذراعا ثم قال اذهب فسلم على أولئك النفر و هم من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك و تحية ذريتك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك و رحمة الله فزادوه و رحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فى طول ستين ذراعا، فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن».

قال العزيرى على الجامع الصغير عند هذا الحديث: و عند أحمد عن أبى هريرة مرفوعا، كان طول آدم ستين ذراعا فى سبعة أذرع عرضا. اهـ.

و ما ذكره ابن بطوطة فى رحلته من أن طول قدم آدم الموجودة على الصخرة بحبل سرنديب أحد عشر شبرا معقول بالنسبة لطوله المذكور هنا فى الحديث.

والذى نفهمه من هذا الحديث الصحيح ثلاثة أمور و هى:

(الأول) أن الله تعالى خلق أبانا آدم على الصورة التى نحن عليها من الشكل و الهيئة الحسنه كما قال تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، و فى هذا البرهان القاطع على أن بنى آدم منذ خلق أبيهم آدم لم يتغير شكلهم و هيئتهم و لن يتغير ذلك أبدا إلى يوم القيامة.

و لقد ظهر بعض الإفرنج فى عصرنا يقولون إن أصل الإنسان كان شكله كشكل القردة فى سابق العصور، ثم إنه تطور بمرور الزمن حتى وصل إلى الشكل الذى نحن فيه.

فعجبا لهؤلاء الخياليين الوهميين من الإفرنج و من تبعهم من الغوغاء، كيف يعتقدون ذلك؟ و كيف ينسبون أصلهم إلى القرد، فهل يحب الإنسان المثقف أن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٣٧

ينتسب إلى أصل شريف لطيف أو إلى أصل وضيع خسيس؟ فكل من يرى هذا الرأى فهو بنفسه قرد ممقوت.

فإن قيل: إن رأيهم هذا مبنى على عثورهم فى بطون الأرض على هياكل إنسانيه تشبه هياكل القردة.

نقول: على فرض عثورهم على هذه الهياكل فقد تكون هياكل بشريه مسخها الله تعالى قردة و خنازير لما كفروا بأنبيائهم و طغوا و اعتدوا فى يوم السبت كما قال تعالى: وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَقْنَا لَهُمُ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ قال قتاده: صار الشبان قردة و الشيوخ خنازير. هـ.

مع العلم بأنه لم يبق للممسوخين نسل و لا عقب، و القردة و الخنازير جنس من المخلوقات، و قد كانوا موجودين من قبل من مسخ من بنى إسرائيل، قال عليه الصلاة و السلام «إن الله تعالى لم يجعل لمسوخ نسلا و لا عقبا، و قد كانت القردة و الخنازير قبل ذلك» رواه مسلم و أحمد.

فلو قرأ الإفرنج دين الإسلام و تعمقوا فى فهمه لما ذهبوا مع خيالاتهم و توهماتهم كل مذهب، بل لبادروا إلى اعتناقه و استظلوا برايته، فالحمد لله الذى هدانا للإسلام و ما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، و الحمد لله الذى وفقنا للعمل بأحكامه و فهمنا دقائق أسرارها، اللهم ثبت قلوبنا على دينك و اختم حياتنا بالعمل الصالح و ارضى عنا، يا أرحم الراحمين.

و نرى أن هذا الحديث الشريف الذى جاء فى الصحيحين هو من معجزاته صلى الله عليه و سلم حيث يكون برهانا صادقا قويا عن نشأة أصل الإنسان لدى قوم من الإفرنج يظهرون بعد أربعة عشر قرنا يعتقدون أن أصلهم من القرد، فهؤلاء يستحقون أن يمسخوا قردة.

و لا شك أن المؤمن المسلم بعد أن قرأ قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ و قرأ الحديث الشريف المتقدم الذى فى الصحيحين، لا يرى رأى الإفرنج، و لا يرضى أن ينسب أصله إلى الحيوان و البهائم.

(الثانى) نفهم من هذا الحديث أن طول آدم ستون ذراعا، بذراعنا نحن لا بذراع نفسه، فإن بعضهم يظن أن المراد بالذراع المذكور فى الحديث ذراع نفس آدم عليه السلام.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٣٨

والذى يؤيد قولنا، هو أن المراد من الحديث بيان خلقه آدم و مقدار طوله، فإذا فرضنا قياس طوله بذراع نفس آدم عليه السلام، فإن الغموض لم يزل حاصلًا و الطول لم يزل مبهما، فإننا لا نعلم مقدار قياس ذراعه، فلو فرضنا أن قياس ذراعه ألف متر أو أكثر أو أقل فكم يكون طوله و إلى أى حد يصل؟ أما لو قلنا أن المراد بالذراع هو ذراعنا المتعارف فقد انتهى الإشكال و ظهر حد طوله لكل إنسان.

و المقام فى الحديث مقام شرح و بيان.

(و الثالث) نفهم من قوله صلى الله عليه و سلم: «فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن» أنه صريح فى أن الإنسان و الحيوان أيضا "أى

كل ذى روح كان في قديم الزمان من لدن آدم عليه السلام، أضخم أجسادا بأضعاف أضعاف ما نحن عليه و الحيوانات في زماننا، و أن هذه الضخامة و العظم نقصت بمرور الزمن شيئا فشيئا حتى وصل إلى ما نحن عليه، بل كذلك كان حجم الحبوب و الثمار، كما تدل على ذلك الهياكل الضخمة التي يعثر عليها الباحثون عن الآثار في طيات الأرض و ثنايا الصخور للحيوانات التي كانت و انقرضت.

و في شرح الجامع الصغير ما يأتي:

ذكر المقریزی أن بعض الثقات أخبره، أنه سار في بلاد الصعيد على حائط العجوز و معه رفقة فاقطلع أحدهم منها لبنه فإذا هي كبيرة جدا، فسقطت فانفلقت عن حبة فول في غاية الكبر و كسروها فوجدوها سالمة من السوس، كأنها كما حصدت، فأكل كل منهم قطعة و كأنها ادخرت لهم من زمن فرعون، فإن حائط العجوز بنيت عقب غرقه، فلن تموت نفس حتى تستوفى رزقها. انتهى.

و نعتقد أنه انتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة المحمدية المرحومة، و استقر الأمر على ذلك فلا ينقص بنى آدم عما نحن عليه، لأننا نحن في آخر الزمان فإن نبينا محمدا صلى الله عليه و سلم و هو خاتم الأنبياء و قد بعث مع الساعة كما جاء في الصحيحين و غيرهما «بعثت أنا و الساعة كهاتين، و أشار بالسبابة و الوسطى» و إن شاء الله تعالى سيأتي الكلام على قياس قدم أبينا آدم عليه الصلاة و السلام في آخر مبحث مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام فراجع إن شئت.

و لا يخفى أن آخر الزمان ليس كأوله. نسأل الله أن يختم حياتنا بالإيمان الكامل و العمل الصالح، و أن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها و ما بطن. آمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-2، ص: ٢٣٩

قبر أمنا حواء بجدة

و بمناسبة ذكرنا طول أبينا آدم عليه الصلاة و السلام نذكر أيضا قبر حواء بجدة فنقول:

اشتهر لدى الناس أن قبر أمنا حواء بجدة في الجبانة المعروفة، و كانت عليه قبة مشيدة من قديم الزمان، و اشتهار قبرها لا يستند إلى دليل شرعى قاطع، و لا إلى تاريخ صحيح ثابت، و نحن نعتقد أن هذا كذب اختلقه المرتزقة منذ قرون مضت فرسخ ذلك في أذهان العامة. و سنتكلم عليه بما يشفى الغليل إن شاء الله تعالى.

قال البتوني في كتابه «الرحلة الحجازية» عن قبر أمنا حواء ما نصه:

أما مدافن المسلمين فإنها في جهة جدة الشرقية على مسافة نحو كيلو متر من بابها الشرقي الذي يسمونه «باب مكة» و عليها سور يفتح بابه للغرب ترى في مدخله، زمن الحج، كثيرا من الشحاذين صغارا و كبارا من الأعراب و الأعراب، فإذا دخلت من هذا الباب وجدت أمامك رأس قبر طويل ضارب إلى الشمال بمسافة مائة و خمسين مترا على ارتفاع متر و في عرض نحو ثلاثة أمتار، و هو ما يسمونه قبر أمنا حواء، و هو أشبه شئ بقناة مسدودة من طرفها الجنوبي بثلاث حوائط من مربع يتقصه الحائط الشمالي الذي هو من جهة القبر، و طول كل حائط أربعة أمتار في ارتفاع مثلها و في كل منها شباك تخرج منه فروع عوسجة كبيرة تكاد تسد فراغ هذا المربع الذي هو مكان الرأس عندهم. و في نهاية هذا المستطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار و في وسطه من أعلاه شرفة تحتها شباك يطل على القبر من جهة القدمين، و عند نهايتي القبر ترى أناسا متطوعين لإرشادك عن مكان الرأس أو القدم و أيديهم ممدودة للسؤال، و في نحو ثلثي طوله من جهة الرأس قبة يفتح بابها إلى الغرب، و فيها شباك يشرفان على جهتي القبر، و في وسطها مقصورة من الخشب عليها ستر من الجوخ فيها باب مقابل لباب القبة، فتحه لنا خادم المقصورة قائلا: هذا مكان الصرة الشريفة، فنظرت فوجدت فيه حجرا من الصوان يبلغ طوله نحو متر، محفورا من وسطه.

ثم قال البتوني بعد صحيفه واحدة: و لا يبعد أن قبر حواء كان من الهياكل المقدسة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام و محا أثر الشرك

من هذه البلاد، و دالت به دولة الوثنية، و هدمت هياكلها التي كان من ضمنها بالطبع هذا الهيكل، بقى أثره

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤٠

فى نفوس القوم برا بحق الأمومة، و أقاموا له قبة (لا ندرى متى كان تشييدها) لتكون مزارا للناس كما كانوا يقيمون المزارات لآل بيت النبوة عليهم و على جدهم الصلاة و السلام.

و لقد ذكر هذه القبة ابن بطوطة فى رحلته المشهور فى القرن السابع للهجرة و لم يذكر شيئا عن القبر. و من أكبر الأدلة على أن هذا القبر حادث لا محالة، ما ذكره ابن جبير فى رحلته التى قام بها سنة ٥٨٧ للهجرة قال رحمه الله: «و بها (بجدة) موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر أنه كان منزلا لحواء أم البشر عند توجهها إلى مكة، فبنى ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته و فضله و الله تعالى أعلم» انتهى من الرحلة الحجازية.

و رأينا فى قبر أمنا حواء بجدة، و الله تعالى أعلم بالغيب: أن وجود هذا القبر و بناء القبة عليه حادث لا محالة، و أنه كذب مفتعل احتال على عمله بعض الدجالين المرتزقة لجمع الصدقات من الجهلة الذين تجوز عليهم الخرافات، و بمرور الزمن الطويل على ذلك و لعدم إجراء تحقيق عليه، صار عامة الناس يعتقدون أن فى هذا القبر دفنت أمنا حواء.

و نستدل على هذا بأنه لما اشتكى الناس إلى عثمان بن عفان، رضى الله تعالى عنه، الشدة التى يعانونها فى ميناء الشعبة ما فيها من الشعاب، و طلبوا منه نقل هذا الميناء إلى جدة، ذهب رضى الله عنه، فى جمع من الصحابة لمعاينة مكان جدة فوجده أحسن من الشعبة، فأمر بجعله ثغرا لمكة و سموه «جدة» حيث لم تكن معروفة بهذا الاسم من قبل. و لم ينقل عنه و لا عن أحد من الصحابة عن معرفتهم لقبر حواء بجدة و عثورهم عليه، فلو كان قبرها الطويل العريض معروفا لديهم لنقله التاريخ عنهم.

نعم! ذكر بعضهم أن إبليس هبط بأبلىء و هبطت حواء بجدة و هبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود، و هو بأعلى الهند نحو الصين، جبل عال يراه البحريون من مسافة أيام، و فيه أثر قدم آدم عليه السلام، مغموسة فى الحجر. و هذا الكلام الله أعلم بصحته.

و هل كانت جدة معروفة فى تلك الأيام؟ كلا، فجدة لم تسكن إلا فى زمن عثمان بن عفان، رضى الله تعالى عنه، فهو الذى جعلها ميناء بدلا عن الشعبة كما هو معروف.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤١

ثم إن ما بين هبوط آدم و حواء عليهما السلام، و بين زماننا هذا، لا ندرى كم مضى من السنين و أن ما يقوله بعضهم بأن عمر الأرض مائة مليون سنة أو ألف مليون سنة أو أكثر أو أقل مردود غير مقبول لا يقبله عاقل و لا يصدقه باحث محقق، إذ لا يستند إلى دليل قوى من كتاب أو سنة، فما هو إلا- رجم بالغيب و تخمينات و همية و تخيلات ظلالية نشأت من انعكافهم على دراسة الآثار القديمة و قياسات بعض الأشياء على بعض. قال بعض علماء الشنافة:

و كل ما ورد مما حدالهذه الدنيا يرد ردا

إذ لم يرد حد عن المعصوم فى خبر بسند قويم

فلا يعلم كل ذلك إلا الخلاق العظيم الذى بيده ملكوت السموات و الأرض فهو جل جلاله يعلم وحده مبدأ الكائنات و يعلم منتهاها. فعليه من الذى أخبرنا بأن قبر حواء فى ذلك الموضع بجدة و على أى دليل يستند، ثم أليس الطوفان الذى عم الدنيا مسح عن الأرض كل أثر و غير كثيرا من الأمور عن مواقعها و أمكنتها، فلم يبق على وجه الأرض من يتنفس إلا من كان فى سفينة نوح، عليه الصلاة و السلام فلا يمكن أن نصدق مثل هذه الأمور إلا إذا ورد شئ عن الصادق المعصوم صلى الله عليه و سلم.

أمر الكعبة بين نوح و إبراهيم عليهما الصلاة و السلام

قال الإمام الأزرقي في تاريخه ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى عن سعيد بن سالم عن ابن جريح عن مجاهد أنه قال: كان موضع الكعبة قد خفى ودرس في زمن الغرق بين نوح وإبراهيم عليهما السلام قال: وكان موضعه أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه وكان يأتيه المظلوم والمتعوز من أقطار الأرض، ويدعو عنده المكروب فقل من دعا هنالك إلا استجيب له. وكان الناس يحجون إلى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام لما أراد من عمارة بيته وإظهار دينه وشرائه فلم يزل منذ أهبط الله آدم عليه السلام إلى الأرض معظما محرما بيته تتناسخه الأمم والملل، أمة بعد أمة ومله بعد ملة قال: وقد كانت الملائكة تحجه قبل آدم عليه السلام. انتهى من الأزرقي.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤٢

ولقد ذكر بعض المؤرخين: أن بين وفاة آدم وولادة نوح (١٢٦) سنة، وأن بين ولادة نوح وولادة إبراهيم (٨٩٠) سنة، فتكون ولادة إبراهيم قبل موت نوح بستين سنة وأن عمر نوح (٩٥٠) سنة، وكان الطوفان في السنة الأولى بعد ستمائة من ولادة نوح كما في التوراة، وأن إبراهيم اختن وعمره (٩٩) سنة مع إسماعيل وعمره (١٣) سنة، وأن بناء إبراهيم للكعبة كان حينما بلغ إسماعيل من العمر عشرين سنة وقيل أكثر.

فيكون ما بين الطوفان وبين ولادة إبراهيم (٢٩٠) سنة، وما بين الطوفان وبين بناء إبراهيم الكعبة (٤٠٠) سنة تقريبا هذا إذا فرضنا أن إبراهيم بنى الكعبة وعمره مائة وعشرة سنوات. والله تعالى أعلم.

وجاء في شرح كتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم» بصحيفة ١٥٨ من الجزء الثانى ما نصه:

قال ابن هشام: لم يكن بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، إلا هود وصالح عليهما السلام، وكان بين إبراهيم وهود ستمائة سنة و ثلاثون سنة، وبين نوح وإبراهيم ألف ومائة وثلاثة وأربعون سنة. وقال الثعالبي: وكان بين مولد إبراهيم وبين الطوفان ألف سنة ومائتا سنة وثلاث وستون سنة، وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة سنة وسبع وثلاثين، وكان مولد إبراهيم في زمن نمرود بن كنعان لعنه الله تعالى ولكن اختلفوا في أى مكان ولد فقيلاً: ببابل من أرض السواد مدينة نمرود قاله ابن عباس، وعن مجاهد بكوثى محلة بكوفة وعن عكرمة بالسوس وعند السدى بين البصرة والكوفة وعن الربيع بن أنس بكسكر ثم نقله أبوه إلى كوثى وعن وهب بحران والصحيح الأول، وقال محمد بن سعد فى الطبقات كنية إبراهيم أبو الأضياف وقد سماه الله تعالى بأسماء كثيرة منها: الأواه والحليم والمنيب قال الله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ومنها الحنيف وهو المائل إلى الدين الحق ومنها القانت والشاكر إلى غير ذلك، قلت هذه أوصاف له فى الحقيقة، ومات إبراهيم وعمره هو ابن مائتى سنة وهو الأصح ويقال مائة وخمس وسبعون سنة قاله الكلبي وقال مقاتل: مائة وتسعون سنة (و دفن بالمغارة التى فى حبرون) وهى الآن تسمى بمدينة الخليل. انتهى من كتاب زاد المسلم المذكور.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤٣

نبذة عن ترجمة إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام

بمناسبة تأليفنا هذا الكتاب الذى يبحث عن تاريخ مكة «بلد الله الأمين» وعن بناء الكعبة «بيت الله المطهر» صار من اللازم أن نذكر فى الأول ترجمة مكتشف مكة و البانى الأول لبيت الله الكريم، أبى الأنبياء سيدنا «إبراهيم الخليل» عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم فنقول وبالله التوفيق:

لا ندرى ماذا نقول فى ترجمة خليل الله المقرب، ونبيه الكريم المفضل، مكتشف مكة ومعمرها، و بانى الكعبة ومطهرها، ماذا نقول ومقام الأنبياء لا- يحيط به أمثالنا، ماذا نقول فيمن قال الله تعالى فى حقه ... وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وقال فى حقه: وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ وقال فى حقه ... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ وقال فى حقه:

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَقَالَ فِي حَقِّهِ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِبَاءً وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ وَقَالَ فِي حَقِّهِ: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَقَالَ فِي حَقِّهِ: وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَقَالَ فِي حَقِّهِ: قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ فِي حَقِّهِ: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ وَقَالَ فِي حَقِّهِ: وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ وَقَالَ فِي حَقِّهِ: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ إِلَى غير ذلك من فضائله التي لا يمكن حصرها.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤٤

وهنا نشرف بذكر نبذة من ترجمته العالمة المباركة من حيث ولادته، ووفاته وهجرته وما وقع له من الأمور التي هي عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن تفكر وتدبر، فنقول وبالله التوفيق:

فضل إبراهيم الخليل على الأمة المحمدية

إن فضل إبراهيم الخليل وإحسانه، عليه الصلاة والسلام، واضح كالشمس على العرب والأمة المحمدية وبالأخص على أهل مكة وفقهم الله للخيرات.

فأما فضله على العرب والأمة المحمدية، فدعاؤه لهم بالهداية والتوفيق كما جاء ذلك في القرآن الكريم رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.

وأما الفضل الخاص على أهل مكة: فإنه أول من اكتشفها ونزل بها وعرها، وأسكن فيها ابنه إسماعيل وأمه هاجر، اللذين بسببهما ظهر ماء زمزم، وعلى يدي إبراهيم وإسماعيل بنيت الكعبة المعظمة، وأن إبراهيم ترك لديهم مقامه الكريم المحترم، وحرّم مكة وصيرها مأمنًا، ودعا لأهلها، وهو الذي أذن في الناس بالحج ودعاهم إليه، فصاروا يقصدون مكة في أيام معلومات من كل فج عميق، وبذلك اتسعت عمرانها وكثرت أرزاقها وخيراتها، كما أتى كل ذلك صريحاً في القرآن الكريم.

ففي سورة البقرة: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلْنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَشِيكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

ولقد استجاب الله تعالى منه جميع دعائه بفضله ورحمته، فجزاه الله عنا ما هو أهله.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤٥

نسب إبراهيم عليه السلام وموطنه

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تاريخه: إبراهيم عليه السلام هو ابن تسارخ بن ناحور بن ساروع بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وقيل: اسم أبيه تاريخ بالخاء المعجمة وبالحاء المهملة أيضاً، قال ابن جرير: والصواب أن

اسم أبيه آزر و لعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب و الآخر علم، قال ابن كثير: و هذا الذى قاله محتمل. و الله تعالى أعلم. و يكنى إبراهيم عليه السلام أبا الضيفان، قيل إنه ولد بغوطه دمشق فى قرية يقال لها: برزة، فى جبل يقال له: قاسيون، و الصحيح أنه ولد ببابل فى أرض الكلدانيين، و إنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معينا لابن أخيه لوط عليه السلام.

و بعد أن تزوج إبراهيم سارة، بتخفيف الرء و قيل بتشديدها خرج بها من أرض بابل مع ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر، قاصدين أرض الكنعانيين، و هى بلاد بيت المقدس، و تسمى بلاد التيمن فأقاموا بحران من أرض الشام، و كانوا يعبدون الأصنام و الكواكب السبعة و كل من على وجه الأرض، كانوا كفارا سوى إبراهيم الخليل عليه السلام و امرأته سارة و ابن أخيه لوط عليه السلام.

ثم إنه حصل عندهم قحط و شدة فارتحلوا إلى مصر و دخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل له: إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال: إنها أختى، قال: فأرسل بها قال:

فأرسل بها إليه، و قال لها: لا تكذبنى. قولى إنك أختى فإنى قد أخبرته بذلك، و إنه ليس على الأرض مؤمن غيرى و غيرك، و إنك أختى، فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تتوضأ و تصلى و تقول: (اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك و برسولك و أحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على هذا الكافر). قال:

فغط حتى ركض برجله، فقال لها: ادعى الله لى و لا أضرك فدعت له فأرسل (و معنى غط تردد نفسه صاعدا إلى حلقه حتى يسمعه من حوله أى أصابه شبه الصرع) ثم قام إليها أيضا فأخذ مثلها أو أشد منها، فأرسل ثلاث مرات، ثم دعا أدنى حشمه فقال: ما أرسلتم إلى إلا شيطانا أرجعوها إلى إبراهيم و أعطوها «هاجر» فرجعت إلى إبراهيم و قالت له: كفانى الله كيد الظالم، و أخذ منى هاجر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤٦

هدية و قد كان وقت ذاك إبراهيم عليه الصلاة و السلام يصلى لله و يدعو أن يحفظ أهله من هذا الملك الفاجر الجبار، فعصمها الله منه، و كشف الحجاب عن إبراهيم فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه ليكون ذلك أطيب لقلبه و أقر لعينه، و قصة الخليل صلوات الله و سلامه عليه و زوجته سارة مع ذلك الجبار المذكورة فى الصحيحين، فمسلم ذكرها فى كتاب الفضائل و البخارى ذكرها فى كتاب «بدء الخلق» و فى كتاب النكاح، و فى الهبة و الإكراه، و فى كتاب البيوع فى باب شراء المملوك. و إلى هذا يشير صاحب نظم عمود النسب بقوله:

و مر فى فراره على الذى غصب سارة و لم تستنقد

إلا بشل يده و صرعه و عصمت سارة من طبعه

و من وراء الحجب الخليل عاين أن عصمها الجليل

و أتحت الملك زوجة الخليل بهاجر و أتحت بها الخليل

و الطبع بفتح الباء الدنس قاله فى المصباح المنير، و ناظم عمود النسب هو العلامة الشيخ أحمد البدوى الشنقى المتوفى سنة (١٢٢٠) هجرية تقريبا.

ثم إن إبراهيم عليه السلام رجع إلى الأرض المقدسة التى كان فيها و معه أنعام و عبيد و مال كثير، و صحبتهم هاجر القبطية المصرية، و كانت زوجته سارة عاقرا لا يولد لها، فقالت لإبراهيم: إن الله قد أحرمنى الولد فادخل على أمتى هذه لعل الله يرزقنا منها ولدا، فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام فحملت منه، ثم وضعت إسماعيل عليه السلام و لإبراهيم من العمر ست و ثمانون سنة، و ذلك قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة، و لما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يشره بإسحاق من سارة فخر لله ساجدا.

و لما ولدت هاجر إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها و طلبت من إبراهيم أن يغيبها عنها، فذهب بها و بولدها إسماعيل و هو رضيع إلى مكة المشرفة، كما أمره الله تعالى كما سيأتى بيانه، و لقد ابتلى إبراهيم صلوات الله و سلامه و على جميع الأنبياء و المرسلين بثلاث مصائب كل واحدة أكبر من أختها.

(الأولى) أراد ذلك الجبار الكافر اغتصاب زوجته سارة فعصمها الله تعالى منه، فرجعت إليه طاهرة نقيه منصوره إكراما له عليه السلام، فإنه كان يحبها حبا شديدا لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤٧

(الثانية) أمره الله عز وجل بذبح ولده فاستسلم لأمر الله هو وابنه فحين أضجعه كما تضجع الذبائح وأمر السكين على حلقه لم تقطع شيئا، فعند ذلك فداه الله تعالى برحمته بكبش أبيض أعين أقرن. قد رعى في الجنة أربعين خريفا هبط عليه من ثبير، وله ثغاء، فذبحه بمنى، فهذا هو البلاء المبين، وقد ورد ذلك صريحا في القرآن الكريم، والثغاء: صوت الشاة والمعز وما شاكلها، والثاغية: الشاة، والراغية: البعير، قاله في مختار الصحاح، و ثبير جبل بين مكة و منى، و يرى من منى، و هو على يمين الداخل منها إلى مكة، قاله في المصباح المنير.

(الثالثة) إلقاءه في النار بسبب مناظرته لأهل بابل الذين كانوا يعبدون الأصنام، وقد كانت مناظره عقلية مفحمة انتصر بها عليهم حتى رجعوا إلى أنفسهم وقالوا إنكم أنتم الظالمون، ثم انقلبوا فقالوا إن وجدنا آباءنا لها عابدين، ثم أجمعوا على إحراقه بالنار، فرموه فيها فكانت عليه بردا وسلاما لم يمسه سوء، بل كان على أحسن حال مدة إقامته فيها، والقصة مذكورة في القرآن العظيم. وكذلك وقع لإبراهيم عليه السلام، كثير من الأمور العظيمة المدهشة منها:

(١) مناظرته مع نمرود المذكورة في القرآن حيث يقول الله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ... الآية.

(٢) طلبه من الله تعالى، أن يريه كيف يحيى الوتى كما هو صريح في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّ نُوْمُنٌ قَال بلى وَ لَكِن لِيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ ... الآية.

(٣) أنه أول من عمر مكة وأسكن فيها من ذريته وبنى بها الكعبة المعظمة، قال الله عز شأنه: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَاأْتُوكَ رِجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ... الخ. و سيأتى تفصيل بنائه لبيت الله الحرام.

توفى إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، عن مائة وخمس و سبعين سنة، وقيل وتسعين سنة، وقيل عاش مائتي سنة، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق، عليهما الصلاة والسلام، ودفن عند امرأته سارة وكانت توفيت قبله بقرية (حبرون) بفتح

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤٨

الحاء المهملة ثم موحده ساكنه، وهى البلدة المعروفة بالخليل اليوم، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة، فحزن عليها إبراهيم واشترى من رجل من بنى حيث يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربعمائة مثقال ودفن فيها سارة هنالك. فيكون قبره وقبر زوجته سارة وقبر ولده إسحاق وقبر ولد ولده يعقوب فى المربعة التى بناها سليمان بن داود، عليهما السلام، ببلدة (حبرون) المذكورة من غير خلاف، فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن المعصوم، فينبغى أن تراعى تلك المحلة، وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجل وأن تجل عن أن يداس فى أرجائها، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، تحتها. انتهى جميع ما ذكر من تاريخ ابن كثير، رحمه الله، باختصار وزيادة سيرة.

و ابن كثير هو الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة سبعمائة وأربع و سبعين هجرية، كان محدثا متقنا و فقيها بارعا، و له جملة تصانيف منها تفسيره المعبر، و تاريخه المحرر، و هما شهيران و مطبوعان.

قيل: إن يوسف بن يعقوب مدفون معهم أيضا، وقد جزم كثير من العلماء المحققين أن قبورهم فى داخل الدائر الذى بناه عليهم سليمان بن داود فى الغار الذى فى وسط مسجد الخليل الآن، صلوات الله و سلامه عليهم و على جميع الأنبياء و المرسلين، أما قبر إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، فسيأتى أنه دفن بالحجر بمكة.

و كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يشبه نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كما ورد ذلك صريحا في بعض الأحاديث المذكورة في صحيح مسلم، فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة، رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليلة أسرى بي رأيت موسى وإذا هو رجل ضرب رجل كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولد إبراهيم به، ثم أتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، فقال: اشرب أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته، فقيل: أخذت الفطرة، أما أنك لو أخذت الخمر غوت أمتك».

و إن إبراهيم عليه السلام، أول من أضاف الضيف و أول من رأى الشيب و أول من قص شاربه و أول من اختتن و أول من استحد و أول من لبس السراويل.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٤٩

قال ابن عباس، رضى الله عنهما: الإسلام ثلاثون سهما و ما ابتلى أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم. قال تعالى: وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى فكتب الله له براءة من النار، و عن ابن عباس أيضا فى قوله تعالى: وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ قَالَ: ابتلاه الله عز و جل بالطهارة، خمس فى الرأس و خمس فى الجسد، فى الرأس:

قص الشارب و المضمضة و الاستنشاق و السواك و فرق الرأس. و فى الجسد: تقليم الأظفار و حلق العانة و الختان و نتف الإبط و غسل أثر الغائط و البول بالماء. اهـ من تاريخ الطبرى.

و اعلم أن إبراهيم عليه السلام هو جد غالب الأنبياء والمرسلين، قال ابن كثير فى تاريخه: فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، و كل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله و عقبه خلعه من الله تعالى و كرامه له. اهـ.

قال بعض العلماء: إن عدد الأنبياء الذين ليسوا من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، ثمانية ذكرهم شيخنا العلامة المحدث الشهير محمد حبيب الله الشنقيطى، رحمه الله تعالى، فى قصيدته التى مدح بها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حيث يقول:

هو قدس بغير شك لقدس هو جد لجل رسل الجليل

لم يحد عنه غير رسل كرام لم يكونوا من نسله عن دليل

هو أبو الخلق آدم ثم شيث ثم إدريس ذو المكان الجميل

ثم نوح الذى أجيب سريعا إذ دعا الله بعد صبر طويل

ثم هود فيونس ثم لوط صالح ثامن لرسول الوكيل

و سواهم من أنبياء كرام هم بنوه أولو الثناء الأصيل

و لقد جمعهم أيضا صاحب نظم عمود النسب فى قوله:

وحاد عنه آدم شيث الوصى إدريس نوح هود يونس يصى

لوط و صالح فهم ثمان حادوا عن الخليل و استبانوا

قوله: يصى أى: يصل، و قيل: إن يونس من ذريته، عليهما و على جميع الأنبياء الصلاة والسلام. و الله تعالى أعلم بالغيب.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥٠

تقدم أن ذكرنا نسب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، و موطنه و ارتحاله إلى مصر، ثم رجوعه إلى الأرض المقدسة و ما حصل له من الابتلاء، كما ذكرنا بعض صفاته الكريمة، و أنه عليه الصلاة والسلام جد غالب الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين.

و الآن نذكر هنا ما اطلعنا عليه فى كتاب «إبراهيم الخليل أبو الأنبياء» للأستاذ محمد حسنى عبد الحميد، فيما يتعلق بالصحف التى أنزلت إليه، و بمدفنه و المغارة التى هو و بعض الأنبياء فيها.

فقد جاء فى الكتاب المذكور عند صحف إبراهيم بصحيفة ١٥٢ و ما بعدها ما نصه:

كانت صحف إبراهيم أمثالا و لم نعثر مع الأسف الشديد فى المراجع التى اطلعنا عليها و المؤلفات التى رجعنا إليها و اقتبسنا منها على هذه الأمثال كلها و كم كنا نود أن نقرأ و يقرأ الناس صحف إبراهيم لكن شاء الله أن تختفى تلك الصحف عن الأنظار لتتقدم العهد و أن تصبح فى غير متناول الأيدي.

روى الثعلبى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه و سلم، يا رسول الله كم من كتاب أنزل الله عز و جل:

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أنزل الله تعالى مائة كتاب و أربعة كتب، أنزل الله تعالى على آدم، عليه السلام، عشر صحائف، و على إبراهيم الخليل عشر صحائف، و على شيث خمسين صحيفة، و على إدريس ثلاثين صحيفة، و أنزل الله تعالى على التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان قال قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالا.

و لم يرو الرواة هذه من الصحف غير مثالين فقط من تلك الأمثال و ما أظن مؤرخا أو راويا جاء بالأمثال كلها و فيما يلى نص المثالين: (١) أيها الملك المغرور المبتلى إنى لم أبعثك لتجمع بعضها إلى بعض و لكن بعثتك لتنصر دعوة المظلوم فإنى لا أردّها و إن كانت من كافر.

(٢) على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات، ساعة يناجى فيها ربه و يتفكر فى صنع الله، و ساعة يحاسب نفسه فيما قدم و آخر، و ساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال لا من الحرام فى المطعم و المشروب و غيرهما،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥١

و على العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه، و من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

عن أبى ذر رضى الله عنه قال: دخلت المسجد فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن للمسجد تحية. فقلت: و ما تحيته يا رسول الله؟ قال: ركعتان تركعهما. قلت:

يا رسول الله هل أنزل الله عليك شيئا مما كان فى صحف إبراهيم و موسى؟ قال:

يا أبا ذر اقرأ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * يَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ * وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى قَالَ: كانت عبرا كلها:

(عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجبت لمن رأى الدنيا و قلبها كيف يطمئن إليها، عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل).

و بعد، فمما لا ريب أن صحف إبراهيم ثروة تاريخية لم يوفق للعثور عليها المؤرخون و لو أنهم وفقوا لمعرفةا كلها لسدوا نفصا ظاهرا يثمر به المتعمق فى الدراسات التاريخية الإسلامية القديمة.

و جاء فيه أيضا من صحيفة ١٦٥ إلى صحيفة ١٧١ عند الحرم الخليلى و مدينة الخليل ما نصه:

و قد سميت مدينة الخليل حبرون قبل أن يضع عليها شرف اسمها الكريم "الخليل" و يكاد أن ينعقد الإجماع على أن سيدنا إبراهيم الخليل صلى الله عليه و سلم ثاو تحت ثراها فى الحرم الخليلى بمكان تحته.

الحرم اسمه المغارة و بهذه المغارة يرقد إسحاق و يعقوب، عليهما السلام، و سارة رضى الله عنهم. عن كعب الأحبار رضى الله عنه قال: أول من مات و دفن فى حبرون سارة و ذلك أنها لما ماتت خرج الخليل عليه الصلاة و السلام، يطلب موضعا ليدفنها فيه و رجا أن يكون موضعا بقرب حبرى فمضى إلى عفرون، و كان مالك الموضع و كان مسكنه حبرى، فقال له إبراهيم: بعنى موضعا أقبر فيه من مات من أهلى، فقال المالك قد أبحثك، فادفن موتاك حيث شئت من أرضى، فقال إبراهيم عليه الصلاة و السلام: إنى لا أحب ذلك إلا بالثمن، فقال له: أيها الشيخ الصالح ادفن حيث شئت فأبى عليه و طلب منه المغارة فقال له: أبيعكها بأربعة آلاف درهم كل درهم وزن خمسة دراهم و كل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥٢

مائة درهم ضرب ملك، وأراد بذلك التشديد عليه كيلا يجد شيئاً من ذلك فيرجع إلى قوله. فخرج إبراهيم الخليل من عنده فإذا جبريل عليه السلام واقفاً، فقال له:

يا إبراهيم إن الله سمع مقالة المالك لك، وهذه الدراهم ادفعها إليه فإنها كما طلب، فأخذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم الدراهم فدفعها إلى مالك الأرض فقال له: من عند من؟

قال: من عند إلهي وخالقي ورازقي، فأخذها منه وحمل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سارة ودفنها في المغارة، فكانت أول من دفن فيها وتوفيت ولها من العمر مائة وسبعة عشر سنة، وقيل: مائة وسبع وعشرون سنة.

ثم توفي الخليل عليه الصلاة والسلام ودفن بإزائها من جهة الغرب، ولما توفيت رفقة رضى الله عنها، زوجة إسحاق عليه السلام، دفنت تجاه سارة من جهة المحراب، ولما توفي إسحاق عليه السلام، دفن تجاه زوجته من جهة الغرب، ثم توفي يعقوب عليه السلام، فدفن عند باب المغارة، وهو إزاء قبر الخليل عليه الصلاة والسلام، من جهة الشمال، ثم توفيت لائقة زوجة يعقوب فدفنت بإزائه من جهة الشرق، ثم اجتمع أولاد يعقوب عليه السلام، وقالوا: ندع باب المغارة مفتوحاً، وكل من مات منا دفناه فيها، ثم أقاموا حول المغارة سوراً، وأنشأوا علامات القبور في كل موضع وكتبوا على كل قبر اسم صاحبه وخرجوا من المغارة، وطبقوا الباب إلى أن جاء الروم فبنوا هناك كنيسة ما لبث المسلمون حتى هدموها.

حدث محمد بن بكران بن محمد خطيب مسجد الخليل، عليه الصلاة والسلام يقول: خرجت مع القاضي أبي عمر و عثمان بن جعفر بن شادان إلى قبر الخليل عليه السلام، فأقمنا به ثلاثة أيام فلما كنا في اليوم الرابع جاء إلى النقش المقابل لقبر رفقة زوجة إسحاق عليه السلام، فأمر بغسله حتى ظهرت كتابته وتقدم إلى أن نقل ما هو مكتوب في الحجر فنقلته ورجعنا إلى الحرملة فأحضر أهل كل لسان ليقروا عليه فلم يمكن أحداً أن يقرأه، ولكنهم أجمعوا على أن هذا باللغة اليونانية القديمة، فإنهم لا يعلمون أنه لقي أحداً يقرؤه غير شيخ كبير بحلب فعمدوا إلى إحضاره، فلما حضر عنده أحضرنى فإذا شيخ كبير فأملى على الشيخ المحضر من حلب ما نقلته في الدرج على التمثيل، أوله: بسم إله العرش القاهر الهادي الشديد البطش العليم الذي لا يحد، هذا قبر إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم والعلم الذي بحذائه من جهة الشرق قبر زوجته سارة، والعلم الأقصى الموازي لقبر إبراهيم الخليل قبر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥٣

يعقوب، والعلم الذي يليه من الشرق قبر إيليا زوجته صلوات الله عليهم أجمعين.

٥١

ولقد أسعدني الله بزيارة الرجل الوقور صاحب السماحة الشيخ يوسف طهوب، عضو المجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين، وتحدثنا عن الخليل وبركاته، فروى لي الشيخ قصة هزت وحركت مشاعري، فقد صور الشيخ لي فيها سيدنا إبراهيم في لحيته البيضاء العظيمة المرسله نائماً على مقعد مرتفع ونسيم المغارة المتشرفة بجسده الطاهر يلاعب لحيته ويحركها تحريكاً لطيفاً، ولقد تصورت هذا المشهد وظل ماثلاً في خاطري حتى رأيت هذه الصورة في القول الآتي الذي دونه قاضي القضاة أبو اليمن محيي الدين الحنبلي في كتابه «الأنس الجليل» كما رواه بعض الرواة في كتب أخرى قال: قال الحافظ ابن عساكر: قرأت في كتب أصحاب الحديث ونقلتها منها. قال محمد بن بكران بن محمد خطيب مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام: وكان قاضياً بالرملة في أيام الراضي بالله في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وما بعدها وله رواية في الحديث سمع من جماعة وحدث عن جماعة من أهل العلم. قال: سمعت محمد بن أحمد بن علي بن جعفر الأنباري يقول: سمعت أبا بكر الإسكافي يقول صح عندي أن قبر إبراهيم عليه السلام، في الموضع الذي هو الآن فيه، ولما رأيت وعانيت ذلك أنني وقفت على السدنة وعلى الموضع أوقافاً كثيرة تقرب من نحو أربعة آلاف دينار رجاء ثواب الله عز وجل وطلبت أن أعلم صحة ذلك حتى ملكت قلوبهم بما كنت عملت معهم من الجميل والكرامة والملاطفة و

الإحسان إليهم و أطلب بذلك أن أصل إلى ما يصح، و جال في صدري، فقلت لهم يوما من الأيام و قد جمعتهم عندي: أسألكم أن توصلوني إلى باب المغارة كي أنزل إلى حضرة الأنبياء صلوات الله عليهم و أشاهدهم. فقالوا: قد أجبناك إلى ذلك، لأن لك علينا حقا واجبا، و لكن لا يمكن في هذا الوقت لأن الطارق علينا كثير و لكن حتى يدخل الشتاء، فلما دخل كانون الثاني خرجت إليهم، فقالوا أقم عندنا حتى يقع الثلج، فأقمت عندهم حتى وقع الثلج و انقطع الطارق عنهم، فجاؤوا إلى صخرة ما بين قبر إبراهيم الخليل و قبر إسحاق عليهما السلام، و قلعوا البلاطة و نزل رجل منهم يسمى (صعلوك) و كان رجلا صالحا، فيه خير و لين، فنزلت أنا معه، فمشى و أنا من ورائه، فنزلنا اثنتين و سبعين درجة، فإذا عن يمين أريكة عظيمة من حجر أسود، و إذا عليها شبح خفيف العارض طويل اللحية ملقى على ظهره، و عليه ثوب

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥٤

أخضر، فقال لي صعلوك: هذا إسحاق عليه السلام، ثم سرنا غير بعيد، و إذا بأريكة أكبر من الأولى، و عليها شبح ملقى على ظهره و له شبيهة، قد أخذت ما بين منكبيه أبيض الرأس و اللحية و الحاجبين و أشفار العينين و تحت شيبته ثوب أخضر قد حلل بدنه، و الرياح تلعب بشيبته الجليلة يمينا و شمالا، فقال لي صعلوك:

هذا إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة و أتم التسليم، فسقطت على وجهي، و دعوت الله عز و جل، لما فتح علي و أقمت من مكاني، ثم سرنا و إذا بأريكة لطيفة و عليها شبح لطيف آدم شديد الأدمة كثر اللحية، و تحت منكبيه ثوب أخضر قد جلله فقال لي صعلوك: هذا يعقوب النبي، ثم إننا عدلنا يسارا لننظر إلى الحرم، فحلف أبو بكر الإسكافي، ما إن أتممت الحديث، قال: فقامت من عنده في الوقت الذي حدثني فيه من وقتي إلى مسجد إبراهيم عليه السلام، فلما وصلت إلى المسجد سألت عن صعلوك، فقيل لي إنه الساعة يحضر، فلما جاء قمت إليه و جلست عنده و طارحته بعض الحديث، فنظر إلى بعين منكورة للحديث الذي سمعه، فأومأت إليه بلطف تخلصت به من الإثم، ثم قلت له: إن أبا بكر الإسكافي عمي فأنس عند ذلك فقلت: يا صعلوك بالله عليك لما عدلتما نحو الحرم ماذا كان، ما الذي رأيتما؟ فقال: ما حدثك أبو بكر، فقلت: أريد أن أسمع منك أيضا، فقال: سمعنا من نحو الحرم صائحا يصيح و هو يقول: تجنبوا الحرم رحمكم الله، فوقعنا مغشيا علينا، ثم أقفنا و قد يئسنا من الحياة و أيست الجماعة منا. قال:

فقال لي الشيخ: و عاش أبو بكر الإسكافي بعد ما حدثني زمنا يسيرا، و مات و كذلك صعلوك رحمهما الله. اه.

و هذه الرواية يعرفها كل خليلي من سكان تلك المدينة التي شرفها الله بالحرم الخليلي و قد قصها علي أيضا المرحوم الشيخ عبد الله طهوب مفتي الخليل، و قد ذهب معي سماحته إلى المكان الذي يقع فيه باب المغارة لمشاهدته، و قال لي: إنه على إثر حادث صعلوك هذا عمد القائمون على أوقاف الخليل إلى مد باب المغارة بالبناء حتى لا يجسر أحد على النزول إليها.

و نميل إلى تصديق هذه الرواية بعد أن قص علينا علماء فلسطين الكثير عن حوادث مثلها جرت لزائرين معاصرين لا أرى بي حاجة إلى ذكرها هنا، لأن كل ما يروى عن تكريم الله سبحانه لخليله إبراهيم في حياته و بعد مماته لا يستغرب، فليس يستغرب أن يرى المتشرفون بزيارة المغارة جسد أبي الأنبياء على أريكة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥٥

عظمية، و أن لحيته البيضاء مرسله يلاعبها النسيم و أن يروا جثمانه الطاهر و وجهه الطلق الشريف، فإن أجسام الأنبياء لا تبلى كما هو معروف.

روى الحسن بن عبد الواحد بن عبد الرزاق قال: قدم أبو زرعة القاضى بفلسطين إلى مسجد إبراهيم عليه السلام، فجئت لأسلم عليه، و قد قعد عند قبر سارة في وقت الصلاة، فدخل شيخ فدعاه، فقال له: يا شيخ أيما هو قبر إبراهيم بين هؤلاء؟ فأومأ الشيخ بيده إلى قبر إبراهيم عليه السلام، ثم مضى الشيخ و جاء شاب فدعاه و قال له مثل ذلك، فأشار إلى قبر إبراهيم عليه السلام و مضى، ثم جاء صبي فدعاه و قال له مثل ذلك، فأشار إلى قبر إبراهيم عليه السلام، فقال أبو زرعة: أشهد أن هذا قبر الخليل عليه أفضل الصلاة و السلام، و

لا شك فيه ولا خفاء، نقله الخلف عن السلف كما قال مالك بن أنس رضى الله عنه، أن نقل الخلف عن السلف أصح الحديث، لأن الحديث ربما يقع فيه الخطأ، والنقل لا يقع فيه الخطأ، ولا يطعن فيه إلا صاحب بدعة ومخالف، ثم قام ودخل إلى المقام فصلى الظهر ثم رحل من الغد.

وقال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسى فى كتاب البدائع فى تفصيل مملكة الإسلام: حبرى هى قرية إبراهيم الخليل عليه السلام، فيها حصن عظيم يقولون إنه من بناء الجن من حجارة منقوشة ووسطه فيه حجارة إسلامية على قبر إبراهيم عليه السلام وقبر إسحاق قدام فى المغطى، وقبر يعقوب فى المؤخر، وعند كل نبى امرأته، وقد جعل الحصن مسجداً، وبنيت حوله دور للمجاورين به، واتصلت العمارة به من كل جانب، ولهم قناة ماء ضعيفة، وبهذه القرية ضيافة دائمة وطباخ وخباز وخدام مرتبون، وهم يقدمون العدىس بالزيت لكل من يأتى ويحضر عندهم من الفقراء، ويقدم إلى الأغنياء إذا أخذوا.

ولقد أتيت لى أن أرى هذه الصورة التى رسمها أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسى فى كتاب البدائع، رأيتها بعينى رأسى، ورأيت الأحجار الضخمة التى فى السور المحيط بالمقام الطاهر، التى قيل أن الجن قد بنوها بأمر سليمان عليه السلام، ورأيت أشجار الفاكهة يعج بها الطريق إلى مدينة الخليل،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥٦

والكروم الجبلية النابتة بين صخور الجبال تنتج الأعناب التى لا تقارن بها أعناب تنبت فى أى بلد آخر.

وإنك لتسمع من كل خليلى إذا رأته و صفا لعنب الخليل و افتخارا بهذا اللون من الفاكهة التى يظهرها الله لا على كرم عال بل على كرم ملاصق للأرض متغلغل فى أحشاء الجبل، ويسقى بماء من عند الله حيث لا جدول يسقيه ولا نهر يرويه، بل الطبيعة تظهره و تنميه شهياً للآكلين. و أخبرنى سماحة مأمور أوقاف الخليل أنه قد جرت العادة أن تولم مأمورية الأوقاف وليمه أسبوعية فى يوم الأربعاء تقدم فيها حساء الخليل للفقراء و المساكين، و يصفونها بكونها أطيب ما عرف الناس من ألوان الحساء، و تمنى الرجل على أن أزور مدينة الخليل فى يوم الأربعاء لأرى بنفسى إقبال الناس عليها فقراء و أغنياء، لأن الأغنياء يحرصون على أن يشتركوا فى تذوقها و لو القليل منها تيمناً و تبركاً، و تمنى سماحته أن أشهد معه وليمه الحساء فأذوق طعمها، و أنعم بيمينها و بركتها، و لولا اضطرارى للسفر فى يوم الثلاثاء إلى بيروت لبقيت على مقربة من مدينة الخليل حتى يوم الأربعاء، و كان لى شرف شهود الوليمة التقليدية التى هى رمز لذلك الكرم المشهور الذى اتصف به خليل الله إبراهيم.

حكى الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة فى تاريخه فى وقائع سنة ثلاثة عشر و خمسمائة أن فى تلك السنة ظهر قبر إبراهيم عليه السلام و قبر ولديه إسحاق و يعقوب عليهما السلام أيضاً بالقرب من بيت المقدس، و رأهم كثير من الناس لم تبل أجسادهم و عندهم فى المغارة قناديل من ذهب و فضة.

و جاء فيه أيضاً بصحيفة (١٧٣) عند السور السليمانى ما نصه:

لما أتم سليمان عليه السلام تشييد بيت المقدس و بناء هيكله بالمسجد الأقصى، أمره الله سبحانه و تعالى أن يقصد إلى حيث يرقد خليله إبراهيم عليه الصلاة و السلام، فيقيم سورا حول قبره الشريف فذهب سليمان و معه رجاله و جنوده إلى تلك البقعة من أرض كنعان باحثاً منقبا عن قبر الخليل فلم يهتد إليه، فعاد إلى بيت المقدس، فنزل عليه و حى الله أنه حيث يرى عموداً من نور هابطاً من السماء إلى الأرض يقع قبر إبراهيم، فقصد سليمان مرة أخرى إلى ذلك المكان، و هناك خيل إليه أنه يرى نورا فى موضع اسمه (الرامة) بالقرب من مدينة الخليل من جهة الشمال قبلى قرية حلحول، و هناك أمر الجنود فبنوا سورا على مقربة من قبر يونس عليه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥٧

السلام، فأوحى الله إليه أن ليس المكان الذى بنى عنده السور قبر إبراهيم، و أمره أن يتعقب النور المتدلى من السماء إلى الأرض، و

أن يبنى السور حوله، فأخذ سليمان يبحث و ينقب حتى اهتدى إلى المكان على مرتفع من الأرض في مدينة حبرون، و تعقب النور فوجده هو و تثبت منه، فأمر رجاله من الإنس و الجن، فبنوا السور العظيم الذى يعد من العجائب بما حوى من الأحجار التى تذهل الناظر ضخامتها و قد اعتبر الحرم المحاط بالسور مسجداً.

و قد روى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال: إن آدم عليه السلام، رأسه عند الصخرة الشريفة و رجلاه عند مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام، و لمسجد الخليل عليه الصلاة و السلام، ما لكل المساجد من حق صلاة الجماعة فيه و جواز الاعتكاف به، و تحريم المكث على الحائض، و تحريم دخول الجنب الخ، بل إنه أعمر بيوت الله و أكثرها بركة بمن رقد تحته من السادة الأنبياء سلام الله عليهم.

قال قاضى القضاة أبو اليمن القاضى الحنبلى: و هذا المقام الكريم الذى هو داخل السور السليمانى طوله فى سعته قبله بشمال من صدر المحراب الذى عند المنبر إلى صدر المشهد الذى به ضريح سيدنا يعقوب عليه السلام، ثمانون ذراعاً بذراع العمل ينقص يسيراً نحو نصف ذراع أو ثلثى ذراع تقريباً، و عرضه شرقاً يقرب من السور الذى به باب الدخول إلى صدر الرواق الغربى الذى به شباك يتوصل منه إلى ضريح يوسف عليه السلام، نحو ثلث ذراع أو نصف ذراع تقريباً بذراع العمل المذكور، و هو الذراع الذى تدرع به الأبنية فى هذا العصر، و سمك السور ثلاثة أذرع و نصف من كل جانب و عدد مداميكه فى البناء خمسة عشر مدامكاً من أعلى الأماكن، و هو الذى عند باب القلعة من جهة الغرب إلى القبلة، و ارتفاع البناء عن الأرض من المكان المذكور ست و عشرون ذراعاً بذراع العمل، و يوجد غير البناء الرومى الذى فوق السليمانى حجر عند مكان الطبلخانة طوله أحد عشر ذراعاً و عرض كل مدامك من البناء السليمانى نحو ذراع و ثلثى ذراع و على السور المذكور مغارتان إحداهما من جهة الشرق مما يلي القبلة، و الثانية من جهة الغرب مما يلي الشمال و بناؤها فى غاية اللطف.

يشتمل المسجد على بناء معقود من داخل السور على نحو النصف من جهة القبلة إلى جهة الشمال، و البناء من عهد الروم و هو ثلاثة أكوار الأوسط منها مرتفع عن الكورين الملاصقين له من جهة الشرق و الغرب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥٨

و يرتفع السقف على أربعة أسوار محكمة البناء، و فى صدر هذا البناء المعقود تحت الكور الأعلى يوجد المحراب إلى جانبه المنبر، و هو مصنوع من الخشب الفاخر، و يعد آية من آيات الصناعة المتقنة و الجمال الفنى، و قد وضع فى زمن المستنصر بالله أبى تميم معد الفاطمى، خليفة مصر، بأمر بدر الجمالى مدير دولته، و قد تم صنع المنبر فى سنة أربع و ثمانين و أربعمائة، و قد كتب عليه تاريخ صنعه بالخط الكوفى، و قد أمر بنقل المنبر إلى مسجد الخليل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، و توجد تجاه المنبر أريكة للمؤذنين قائمة على عمد رخامية تعتبر نموذجاً للصنع الباهر الجميل.

و على الجدران من الجهات الأربع رخام مستدير، و قد صنع فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة.

و تقع قبور الأنبياء صلوات الله عليه و سلامه، تحت بناء المسجد على النظام الآتى: إلى جانب السارية التى عند المنبر قبر إسحاق عليه السلام، و أمامه قبر زوجته رفقاً أو ريقه رضى الله عنها، إلى جانب السارية الشرقية، و يمكن اعتباره بناء قائماً بذاته.

و لهذا البناء ثلاثة أبواب تنتهى إلى صحن المسجد، أحدها و هو الأوسط ينتهى إلى الحجرة الخليلية الجليلية و هو مكان معقود على جدرانته رخام مستدير به إلى جهة الغرب الحجرة الشريفة التى بداخلها قبر الخليل صلى الله عليه و سلم، و تجاهه شرقاً قبر زوجته السيدة سارة رضى الله عنها، و فى آخر الساحة شمالاً ضريح يعقوب عليه السلام، و أمامه شرقاً قبر زوجته لائقة رضى الله عنها. و بداخل السور أيضاً مقام ليوسف الصديق عليه السلام، و قد قيل إنه مدفون خارج المغارة و لكن لم يصح أى دليل على أن قبر يوسف الصديق بهذا المكان.

والأرضية التي بداخل السور مفروشة كلها بالبلاط السلیمانی البديع، و يوجد بظاهر السور السلیمانی شرقا مسجد جميل بناه أبو سعيد سنجر الجاولی ناظر الحرمین الشریفین نائب السلطنة في زمانه، فعرف هذا المسجد باسم الجاولية، و هو من العجائب لأنه قائم في الجبل، و قد قيل إنه كان مقبرة يهود قائمة على هذا الجبل، فحرف الجاولی مكانها بعد أن هدمها و بنى سقفا و قبة و أحالها مسجدا، و قد كتب على أحد جدرانها أن سنجر عمر هذا المسجد من حر ماله، و لم ينفق عليه شيئا من مال الحرمین.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٥٩

و يوجد قبلى الجاولية مطبخ تطهى فيه أكلة الدشيشة لزوار الخليل، عليه الصلاة و السلام، و على باب المطبخ تدق الطبلخانة (الطبول) في كل يوم بعد صلاة العصر عند مد السماط الكريم، و هذا السماط من عجائب التقاليد إذ يقد إليه سكان البلدة و ضيوفها، و يصنع فيه خبز يوزع يوميا ثلاث مرات: الأول في الصباح الباكر، و الثانية بعد الظهر، و الثالثة بعد العصر.

و قد تقدم القول أن الأصل في هذا السماط و دق الطبول لدعوة الناس إليه، إذ أن إبراهيم صلى الله عليه و سلم، كانت تفد إليه جموع الضيافة من كل مكان، فيصنع لهم الطعام و يوزعهم على عدة منازل للإقامة فيها، فإذا حان وقت تناول الطعام دقت لهم الطبول إشعارا لهم بأن الطعام مهيبا للضيوف في رحابه الفسيحات صلى الله عليه و سلم.

انتهى كل ذلك من كتاب أبى الأنبياء إبراهيم الخليل، عليه الصلاة و السلام.

نقول: إن ما ذكره من وجود إبراهيم الخليل، عليه الصلاة و السلام، و من معهم من الأنبياء، عليهم الصلاة و السلام، في المغارة غير بعيد الوقوع مطلقا، فإننا قد شاهدنا في زماننا هذا و سمعنا كثيرا عن وجود بعض أمواتنا في قبورهم بكامل أجسادهم و أكفانهم لم يمسه البلاء، نعم إن الكثير و الغالب من الأموات يفنون بعد مدة من دفنهم حتى لا يبقى لهم أى أثر، و الله سبحانه و تعالى أكرم من أن يسلب على أجساد أنبيائه و أصفياه من العلماء العاملين و العباد المخلصين الأرض و الأرضة.

فقد جاء في كتاب «وفاء الوفاء» و روى البخارى في الصحيح من حديث هشام بن عروة عن أبيه قال: لما سقط عنهم الحائط زمان الوليد بن عبد الملك أخذوا في بنائه، فبدت لهم قدم، ففزعوا و ظنوا أنها قدم النبي صلى الله عليه و سلم، فما وجدوا أحدا يعلم ذلك، حتى قال لهم عروة: لا و الله ما هي قدم النبي صلى الله عليه و سلم، ما هي إلا قدم عمر.

و يستفاد مما تقدم أن السبب في هذا البناء سقوط الجدار المذكور بنفسه، و لعله بسبب المطر المشار إليه في الرواية المتقدمة، و يخالفه ما رواه أبو بكر الأجرى من طريق شعيب بن إسحاق عن هشام بن عروة قال: أخبرنى أبى قال: كان الناس يصلون إلى القبر، فأمر به عمر بن عبد العزيز فرفع حتى لا يصل إليه أحد، فلما هدم بدت قدم بساق و ركب، ففزع عمر بن عبد العزيز، فأتاه عروة فقال: هذا ساق عمر و ركبته، فسرى عن عمر بن عبد العزيز، انتهى من الكتاب المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦٠

و جاء أيضا في الجزء الأول من تاريخ الخميس ما يأتى:

قال ابن إسحاق: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال يومئذ: - أى يوم دفن قتلى أحد- حين أمر بدفن القتلى، انظروا عمرو بن الجموح و عبد الله بن عمرو بن حرام، فإنهما كان متصافيين في الدنيا فاجعلوهما في قبر واحد.

و ذكر مالك بن أنس في موطنه: أن السيل حفر قبرهما بعد زمان فحفر عنهما ليغرا من مكانهما فوجدا لم يتغيرا كأنما ماتا بالأمس، و كان أحدهما قد جرح فوضع يده على جراحته فدفن و هو كذلك فأميطت يده عن جرحه فانبعث الدم ثم أرسلت فرجعت كما كانت، و كان بين يوم أحد و بين يوم حفر عنهما ست و أربعون سنة.

و فى الصفوة عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: لما أراد معاوية أن يجرى عينه التى بأحد، كتب إلى عامله بالمدينة بذلك، فكتبوا إليه، إنا لا نستطيع أن نخرجها إلا على قبور الشهداء، فكتب معاوية: انبشوهم، قال جابر: فلقد رأيتهم يحملون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، و أصابت المسحاة طرف رجل حمزة فانبعثت دما، و فى المنتقى مثله. انتهى من تاريخ الخميس.

و على كل حال مسائل البرزخ و القبور من الغيبات التي ينبغي عدم الخوض فيها إلا بمقدار ما ورد به الشرع الشريف صريحا. نسأل الله عز شأنه أن يكرمنا في الحياة و في الممات بما هو أهله بفضلله و رحمته إنه بعباده لطيف خبير. سبحان ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

البنية الثالثة: بناء شيت عليه الصلاة و السلام الكعبة

بعد موت آدم عليه الصلاة و السلام، بنى الكعبة الغراء ولده شيت عليه السلام، لكن الإمام الأزرقى لم يذكر ذلك باسمه الصريح، و إنما ذكر أن أبناء آدم بنوا الكعبة من بعده إلى زمان الطوفان.

و هذا نص ما ذكره الأزرقى في تاريخه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أنه قال: لما رفعت الخيمة التي عزى الله بها آدم من حلية الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت و مات آدم، عليه السلام، فبنى بنو آدم من بعده مكانها بيتا بالطين و الحجارة فلم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦١

يزل معمورا يعمرونه هم و من بعدهم حتى كانوا زمن نوح، عليه السلام، فنسفه الغرق و غير مكانه حتى بوئ لإبراهيم عليه السلام. انتهى ما ذكره الأزرقى.

و وهب بن منبه المذكور كان من أحبار اليهود ثم أسلم فأخذت الصحابة عنه أخبار من سلف من الأمم.

قال صاحب «تاريخ الكعبة المعظمة»: ذكر السهيلي في «روض الأنف» أن أول من بنى البيت شيت ا.ه. و المعنى أن أول من بناه بعد آدم من أولاده شيت عليهما السلام. انتهى.

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: و في الاكتفاء: أن شيت بن آدم هو أول من بنى الكعبة و أنها كانت قبل أن يبنها خيمة من ياقوته حمراء يطوف بها آدم و يأنس بها لأنها أنزلت إليه من الجنة فرفعت و كان قد حج إلى موضعها من الهند. انتهى من الكتاب المذكور. و شيت هو ابن آدم و هو نبي أنزل الله عليه خمسين صحيفة، فلا يستبعد أن يأمره الله تعالى ببناء البيت بعد أبيه آدم، و قد مات أبونا آدم و عمره ألف سنة، و قيل: تسعمائة و ثلاثون سنة على ما في التوراة، و لقد ولد شيت و عمر آدم مائة و ثلاثون سنة.

جاء في تاريخ ابن كثير المسمى «البدایة و النهایة» ما نصه: قال محمد بن إسحاق، و لما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيت و علمه ساعات الليل و النهار، و علمه عبادات تلك الساعات، و أعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك. قال:

و يقال أن انتساب بنى آدم اليوم كلها تنتهى إلى شيت و سائر أولاد آدم انقرضوا و بادوا. و الله تعالى أعلم. انتهى.

البنية الرابعة: بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة

إشارة

قبل أن نتكلم على نفس بناء إبراهيم خليل الله الكعبة يجب أن نذكر طرفا من هجرته بابنه إسماعيل و أمه هاجر إلى مكة شرفها الله تعالى لأول مرة، حتى يكون الكلام كله منسقا مربوطا ببعضه ببعض، و لقد جاءت في كل ذلك روايات مختلفه الألفاظ لكنها متحدة المعنى و النتيجة، و نحن نأتى هنا بما هو مختصر مفيد كنا ذكرناه في كتابنا «مقام إبراهيم عليه السلام» المطبوع بمصر و هو هذا:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦٢

هجرة إبراهيم إلى مكة لأول مرة

كانت لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام جارية اسمها «هاجر» (في القاموس هاجر بفتح الجيم أم إسماعيل صلى الله عليه وسلم ويقال لها آجر أيضا) وهي قبطية مصرية أهداها لها ذلك الملك الجبار الذي تقدم ذكره، فوهبتها لزوجها إبراهيم فولدت منه إسماعيل فكان أول ولده وبكره، فغارت سارة منها، لأنها لم تكن قد ولدت قط، ثم ولدت سارة إسحاق بعد ثلاث عشرة سنة من ولادة إسماعيل عليهما السلام، (و سارة بتخفيف الراء وقيل بتشديدها. قال في تاريخ الكامل لابن الأثير: إن سارة اسمها في التوراة سار أي أول الأمر، ثم سميت سارا لأن الهاء آخر الكلمة في العبرية لا ينطق بها، ونصها في العبرية ١٦٦ و معناه الأميرة و مذكوره ٤٢٢٢). ثم أنشدته سارة بالله أن يخرجها من عندها، فأمره الله عز وجل أن ينقلها إلى مكة، و أتى بالبراق فركب عليه هو و هاجر و إسماعيل و كان صغيرا يرضع، فخرج من الشام و معه جبريل عليه السلام يدله على موضع البيت و معالم الحرم حتى قدم مكة، و ليس بها أحد و لا بناء و لا ماء، و ما كانت مكة يومئذ إلا عشاء من سلم و سمر فوضعها عند البيت و معها جراب من تمر و سقاء من ماء ثم انصرف إبراهيم راجعا إلى الشام فبعته هاجر و قالت له: إلى أين تذهب، و إلى من تتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أحد؟ قال: إلى الله عز وجل. قالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قال: إذا لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم ثم رفع يديه بالدعاء و قال: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ و أَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

(و هنا نكتة لطيفة) و هي أن أم إسماعيل عليه السلام، اسمها هاجر فكان لاسمها نصيب من الهجرة، فهاجرت من مصر إلى الشام و فلسطين ثم إلى مكة، فاستقرت بها و دفنت بأشرف مكان فيها. و في المثل «لكل مسمى من اسمه نصيب» اللهم اجل لنا من اسمنا أوفى نصيب بفضلك و إحسانك آمين يا رب العالمين.

ثم جلست هاجر مع ابنها إسماعيل تحت شجرة كبيرة في مكان بئر زمزم حتى إذا نفذ ذلك التمر و الماء عطشت هي و ولدها عطشا شديدا، فخافت على ولدها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦٣

الهلاك، فمشت بين الصفا و المروة سبع مرات و هي ترمل لعلها ترى أحدا، فعند ذلك جاء جبريل عليه السلام و ضرب بجناحيه مكان زمزم فخرج الماء فجعلت تحوط عليه و تقول: زمي زمي. و في الحديث: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عينا معينا» ثم مرت بها قبيلة من جرهم فاستأذنها في النزول عندها و قالوا لها: أشركينا في مائك نشاركك في ألباننا ففعلت فتزلوا و أرسلوا إلى أهلهم فقدموا إليهم فتعلم إسماعيل منهم العريية، و كان يخرج معهم للصيد فأحبوه و زوجته بامرأة منهم، ثم ماتت أمه بعد ما تزوج و دفنت في الحجر و ذلك قبل بناء الكعبة.

جاء في صحيح البخاري في باب الشرب: عن ابن عباس رضى الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت عينا معينا، و أقبل جرهم فقالوا أتأذنين أن ننزل عندك قالت: نعم و لاحق لكم في الماء قالوا: نعم.

إن في قصة هاجر عبرة كبرى لأولى الألباب، إن من قوة إيمانها بالله تعالى، و تفويض الأمر إليه، بلا مناقشة زوجها، و من صبرها على الإقامة بمكة و حيدة فريدة لا أنيس معها و لا جليس و لا ماء و لا طعام، في هذا الفقر الموحش و في هذه البيداء الصامتة و الجبال المحيطة الشامخة، إن في ذلك عبرة لمن كان له قلب، و ذكرى لمن كان له سمع، لا- يمكن التعبير عنها بالقلم و لكن إذا وضع الإنسان نفسه مكانها و تصور حالته و هو في وسط هذه الصحراوات، و حيدا فريدا، ليل نهار، بلا طعام و لا ماء، و لا بيت يأوى إليه، و لا طير و لا وحش و لا طارق يطرق عليه، و لا يدرى ما الله صانع به، فإنه يخرج من تأملاته بنتيجة يسطرها بماء الذهب. فتأمل جيدا و تصور طويلا فإن ذلك مما يزيد الإنسان إيمانا بالله و ثقة برحمته الله و اطمئنانا إلى لطف الله و فضله.

إكرام إبراهيم عليه السلام لزوجته سارة

كان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يحب زوجته سارة لقرباتها منه ولدينها وحسبها وجمالها، فكان يكرمها ويعتنى بأمرها كثيرا، حتى إنه ما كان يأتي مكة لزيارة ابنه إسماعيل وأمه هاجر إلا بعد أن يستأذن سارة فتأذن له وتشتط عليه أن لا ينزل عندها فيوفى لها بهذا الشرط كما تقدم. وليس معنى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦٤

ذلك أنه كان تحت أمر زوجته سارة خاضعا لإرادتها كما يخضع أهل زماننا لزوجاتهم في كل شيء، فإن ذلك لا يجوز عليه، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزهون عن الخضوع والطاعة لزوجاتهم لمجرد الهوى وحب النفس، وبالأخص خليل الله الذي أعطى النظر في ملكوت السموات والأرض، وإنما كان استئذانه منها لزيارة ابنه إسماعيل وأمه هاجر لأمر أربعة: (الأول): أن بينه وبين زوجته سارة صلة قرابة وكانت ذات دين وحسب.

(الثاني): أن هاجر كانت أمه مملوكة لسارة فوهبتها لزوجها إبراهيم فدخل بها فحملت منه بإسماعيل.

(الثالث): لما ولدت هاجر إسماعيل اشتدت غيرة سيدتها سارة منها؛ لأنها لم تكن قد ولدت بعد، وهذا أمر طبيعي في جميع النساء، فطلبت من زوجها أن يبعدها عنها، فأمره الله تعالى أن ينقل هاجر بابنها إسماعيل إلى مكة.

(الرابع): أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لعل خلق عظيم وشماثل سامية، وفي الحديث الشريف: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» فليس من اللائق أن يزور إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل وأمه هاجر بمكة من غير أن يخبر بذلك زوجته سارة التي هي سيدة هاجر وهي التي وهبتها له. فهذه الأمور مما يدعو إبراهيم عليه السلام إلى جبر خاطر زوجته بالاستئذان منها للزيارة.

ثم إن سارة الكثيرة الغيرة من أمتها لا تلام إذا اشترطت على زوجها، في زيارته لها ولولدها بمكة، أن لا ينزل من البراق بل يكتفى برؤيتهما ليطمئن عليهما ثم يرجع من ساعته، وسارة كانت واثقة تمام الثقة من وفاء زوجها بما اشترطته عليه، ولا يبعد أن يكون كل ذلك بأمر الله عز وجل بدليل أن هاجر ما كانت تتألم وتشكو من هذه المعاملة، ونبي الله إبراهيم ما كان يتبرم من سارة لقسوتها على أمتها هاجر، وجبريل الذي يدل على الطريق بالبراق ويلزمه في سفره ذهابا وإيابا ما كان ليأمره بمخالفة زوجته سارة واللبث عند هاجر ولو يوما واحدا، فحالات الأنبياء لا تقاس على أحوالنا، ولقد كانت عاقبة صبر هاجر محمودة، فجاءها خير كثير، والظاهر، والله تعالى أعلم بالغيب، أن سارة كانت تخشى إن نزل زوجها عند هاجر أن يقربها فتحمل منه ثانيا فتلتهب سارة غيرة منها، ومن هنا يفهم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يقرب هاجر منذ أن أسكنها مكة والله أعلم، على أنه دام الاشتراط عليه حتى بعد وفاة هاجر فما كان ينزل عند

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦٥

إسماعيل ولا عند زوجته لا الأولى ولا الثانية. وأما نزوله الأخير عند ولده إسماعيل فلم يكن هناك شرط عليه لأن نزوله كان بأمر الله تعالى لبناء بيته الحرام، ولا ندرى أكانت سارة في هذه المرة الأخيرة على قيد الحياة أم أنها كانت توفيت.

ثم إن إبراهيم خليل الله عليه السلام، لا يعقل بعد أن قبل اشتراط زوجته سارة في عدم النزول عند أمتها هاجر بمكة أن يخونها بالغيب فينزل عندها، لأن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجل من ذلك. ومن أوفى من الأنبياء الكرام بالوعد، وبالأخص من قال الله عز وجل في حقه: وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى.

هذه جملة أتينا بها استطرادا خوفا من أن تزل قدم من لم يتمكن من معرفة مقامات الأنبياء المعصومين، عليهم الصلاة والسلام، فيظن أن خليل الله إبراهيم أبا الأنبياء كان يخضع لأوامر زوجته اتباعا لهوى النفس وهو الذي قام بتنفيذ أمر الله تعالى في ذبح ابنه إسماعيل. نسأل الله السلامة من الخطأ والزلل، والحفظ من الفتن الظاهرة والباطنة، وأن يفتح علينا فتوح العارفين، وأن ينعم علينا بما

أنعم به على عباده الصالحين آمين، و صلى الله على سيدنا محمد أبو القاسم الأمين و على آله و صحبه أجمعين.
ثم إن إبراهيم عليه الصلاة و السلام جاء من الشام يقول حتى أطالع تركتى فقدم مكة فوجد امرأة إسماعيل فسألها عنه فقالت: هو غائب و لم تحسن مقابلته و لم تضيفه و قالت له: نحن فى ضيق شديد و شكنت إليه. فقال لها: قولى لإسماعيل قد جاء بعدك شيخ كذا و كذا و هو يقرأ عليك السلام و يقول لك: غير عتبه بيتك.

فقالت ذلك لإسماعيل فقال لها: أنت عتبه بيتى فارجمى إلى أهلك ثم تزوج بأخرى، ثم جاء إبراهيم إلى مكة فوجد إسماعيل غائبا و وجد امرأته الأخرى و هى رعله بنت مضاض بن عمرو الجرهمى و قد جاءته باثنى عشر ابنا. و مضاض هو أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت بن إسماعيل، عليه السلام، و كان ملك جرهم و المطاع فيهم، فسألها عنه فقالت له: ذهب إسماعيل يتصيد و هو يجيء الآن إن شاء الله فانزل يرحمك الله فلم ينزل فجاءته بحجر (قيل و هو المقام) فوضعتة عن شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولته إلى شقه الأيسر فبقى أثر قدميه على الحجر ثم أضافته و أكرمته و عرضت عليه الطعام و الشراب. فقال: ما طعامكم و ما شرابكم؟ قالت: اللحم و الماء. قال: هل من حب أو غيره من الطعام؟ قالت: لا. قال: بارك الله لكم فى اللحم و الماء. قال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦٦

ابن عباس يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم: لو وجد عندها يومئذ حبا لدعا لهم بالبركة فيه فكانت أرضا ذات زرع. قال سعيد بن جبير: و لا يخلى أحد على اللحم و الماء فى غير مكة إلا وجع بطنه و إن أخلى عليهما بمكة لم يجد كذلك أذى. ا ه من الأزرقى. ثم رجع إبراهيم و قال لها: قولى لإسماعيل قد جاء بعدك شيخ فقال:

إنى وجدت عتبه بيتك صالحه فأقررها. فلما رجع إسماعيل إلى أهله قال: هل جاءكم بعدى أحد؟ قالت: نعم قد جاء بعدك شيخ كذا و كذا و أشفقت عليه و يقول لك: إنى وجدت عتبه بيتك صالحه فأقررها. قال لها: ذاك أبى و أمرنى أن أمسكك، و كان إبراهيم عليه السلام، يأتى مكة كل مرة راكبا البراق و جبريل يده على الطريق. انتهى كل ذلك من كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام.

و قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام، مع ذلك الجبار المتقدم ذكره الذى وهب هاجر لساره مذكوره فى البخارى و مسلم و نحب ذكر الحديث الصحيح هنا زيادة فى البيان و الفائدة، و نقله من بعض الشرح من كتاب شيخنا العلامة المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى، المسمى «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم» و قد شرحه شيخنا المذكور أيضا و هو هذا:

جاء فى الصحيحين و اللفظ للبخارى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة و السلام إلا ثلاث كذبات، اثنتين منهن فى ذات الله عز و جل قوله: إني سَيِّئٌ و قوله: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، و قال: بينا هو ذات يوم و ساره إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن ههنا رجلا- معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختى فأتى ساره فقال: يا ساره: ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى و غيرك و إن هذا سألتى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبنى فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال:

ادعى الله لى و لا أضرك. فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعى الله لى و لا أضرك، فدعت الله فأطلق. فدعا بعض حجبه فقال: إنكم تأتونى بإنسان أتيتونى بشيطان. فأخدمها هاجر فأتته و هو قائم يصلى فأوماً بيده مهيم قال: رد الله كيد الكافر أو الفاجر من نحره و أخدم هاجر» رواه أبو هريرة، رضى الله تعالى عنه.

و لفظ الكذب فى الحديث ليس على ظاهره إذ يستحيل على الأنبياء، عليهم الصلاة و السلام الكذب، و إنما أطلق عليه الكذب تجوزا لمجيئه على صورة الكذب

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦٧

لا حقيقة. و الكذب ينقسم على أقسام حكم الشرع الخمسة كما هو مفصل فى محله.

و معنى كلمة «مهيم» الواردة في الحديث أى ما الخبر، و هى بفتح الميم و سكون الهاء و فتح الياء و سكون الميم، و فى رواية «مهيا» بالألف و فى أخرى «مهين» بالنون و كلها بمعنى واحد، و يقال: إن إبراهيم الخليل عليه السلام، أول من قال هذه الكلمة، و معنى إبراهيم بالسريانية أب رحيم، و اسم ذلك الجبار صادوق فيما ذكره ابن قتيبة و هو ملك الأردن أو سنان أو سفيان بن علوان فيما ذكره الطبرى أو عمرو بن امرئ القيس بن سبأ و كان على مصر فيما ذكره السهيلي.

و إلى قصة هذا الحديث الصحيح أشار صاحب نظم عمود النسب بقوله:

و مر فى فراره على الذى غضب سارة و لم تستنقد

إلا بشل يده و صرعه و عصمت سارة من طبعه

و من وراء الحجب الخليل عاين أن عصمه الجليل

و أتحت الملك زوجة الخليل بهاجر و أتحت بها الخليل

و سببت من ملك القبط ابنته هاجر ذى و أنجبت ريحاته

إذ ولدت أبا عمود النسب و لا محيد عنه للمستعرب

قوله: من طبعه هو بفتح الباء مصدر من باب تعب، و هو الدنس أى:

عصمت من دنسه، و قوله: إذ ولدت أبا عمود النسب، أى: عمود نسب نبينا محمد صلى الله عليه و سلم و هو إسماعيل عليه السلام و هو أبو عدنان جميعا بالاتفاق، و لذا قال: و لا محيد عنه للمستعرب أى للعرب المستعربة جميعا.

انتهى من كتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم» و قد شرح هذا الحديث شرحا وافيا شيخنا صاحب الكتاب المذكور، فمن أراد زيادة الإيضاح فليرجع إليه.

قال الأزرقي فى تاريخه: حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى محمد بن إسحاق قال: لما أمر إبراهيم خليل الله تعالى أن يبنى البيت الحرام أقبل من أرمينية على البراق معه السكينة لها وجه تتكلم، و هى بعد ريح هفافة، و معه ملك يدلّه على موضع البيت حتى انتهى إلى مكة و بها إسماعيل و هو

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦٨

يومئذ ابن عشرين سنه و قد توفيت أمه قبل ذلك و دفنت فى موضع الحجر، فقال:

يا إسماعيل إن الله تعالى قد أمرنى أن أبني له بيتا، فقال له إسماعيل: و أين موضعه؟

قال: فأشار له الملك إلى موضع البيت قال: فقاما يحفران عن القواعد ليس معهما غيرهما فبلغ إبراهيم الأساس، أساس آدم الأول فحفر عن ربض فى البيت فوجد حجارة عظاما ما يطبق الحجر منها ثلاثون رجلا، ثم بنى على أساس آدم الأول و تطوقت السكينة كأنها حية على الأساس الأول، و قالت: يا إبراهيم: ابن على، فبنى عليها، فلذلك لا يطوف بالبيت أعرابى نافر و لا جبار إلا رأيت عليه السكينة. فبنى البيت و جعل طوله فى السماء تسعة أذرع و عرضه فى الأرض اثنين و ثلاثين ذراعا من الركن الأسود إلى الركن الشامى الذى عند الحجر من وجهه و جعل عرض ما بين الركن الشامى إلى الركن الغربى الذى فيه الحجر اثنين و عشرين ذراعا، و جعل طول ظهرها من الركن الغربى إلى الركن اليمانى أحد و ثلاثين ذراعا و جعل عرض شقها اليمانى من الركن الأسود إلى الركن اليمانى عشرين ذراعا، فلذلك سميت الكعبة لأنها على خلقه الكعب. قال: و كذلك بنى أساس آدم عليه السلام، و جعل بابها بالأرض غير مبوب حتى كان تبع (أسعد الحميرى) هو الذى جعل لها بابا، و غلقا فارسيا، و كساها كسوة تامه، و نحر عندها.

نقول: قال الأزرقي فى صحيفة ٢٧ من تاريخه: إن إبراهيم عليه الصلاة و السلام لما بنى الكعبة جعل طولها فى الأرض أحد و ثلاثين ذراعا، و قال فى صحيفة ١٩٤ جعل طولها فى الأرض من ثلاثين ذراعا، فتنبه لذلك مع العلم بأن الفرق بين عبارتيه قليل جدا.

ثم قال الأزرقي: و جعل إبراهيم عليه السلام الحجر إلى جنب البيت عريشا من أراك تفتحمه العنز، فكان زربا لغنم إسماعيل، قال: و

حفر إبراهيم عليه السلام جبا في بطن البيت على يمين من دخله يكون خزانه للبيت يلقي فيه ما يهدى للعكبة و هو العجب الذي نصب عليه عمرو بن لحي، هبل، الصنم الذي كانت قريش تعبده و يستقسم عنده بالأزلام حين جاء به من هيت من أرض الجزيرة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٦٩

قال: و كان إبراهيم يبنى و ينقل له إسماعيل الحجارة على رقبته فلما ارتفع البنيان قرب له المقام فكان يقوم عليه و يبنى و يحوله إسماعيل في نواحي البيت حتى انتهى إلى موضع الركن الأسود. قال إبراهيم لإسماعيل: يا إسماعيل ابغني حجرا أضعه هاهنا يكون للناس علما يتدثون الطواف. فذهب إسماعيل يطلب له حجرا و رجع و قد جاءه جبريل بالحجر الأسود و كان الله عز و جل استودع الركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح، و قال: إذا رأيت خليلي يبنى بيتي فأخرجه له. قال: فجاءه إسماعيل فقال له: يا أبة من أين لك هذا؟ قال: جاءني به من لم يكلني إلى حجر ك جاء به جبريل. فلما وضع جبريل الحجر في مكانه و بنى عليه إبراهيم و هو حينئذ يتلأأ تلاًأ من شدة بياضه فأضاء نوره شرقا، و غربا، و يمنا، و شاما. قال: فكان نوره يضيء إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية من نواحي الحرم. قال: و إنما شدة سوداه لأنه أصابه الحريق مرة بعد مرة في الجاهلية و الإسلام.

فأما حريقه في الجاهلية، فإنه ذهبت امرأة في زمن قريش تجمر الكعبة فطارت شرارة في أستار الكعبة فاحترقت الكعبة و احترق الركن الأسود، و اسود و توهنت الكعبة، فكان هو الذي هاج قريشا على هدمها و بنائها. و أما حرقه في الإسلام ففي عصر ابن الزبير أيام حصاره الحصين بن نمير الكندي، احترقت الكعبة و احترق الركن فتفلق بثلاث فلق حتى شد شعبه ابن الزبير بالفضة فسواده لذلك. قال: و لولا ما مس الركن من أنجاس الجاهلية و أرجاسها ما مسه ذو عاهة إلا شفى. قال سعيد بن سالم: قال ابن جريج: و كان الزبير بنى الكعبة من الذرع على ما بناها إبراهيم عليه السلام قال: و هي مكعبة على خلقه الكعب فلذلك سميت الكعبة. قال: و لم يكن إبراهيم سقف الكعبة و لا بناها بمدر و إنما رضمها رضمًا.

حدثني جدى قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن نجيح عن مجاهد قال:

السكينة لها رأس ك رأس الهرة، و جناحان. حدثني مهدي بن أبي المهدي قال:

حدثنا بشر بن السرى قال: حدثنا قيس بن الربيع عن سلمة بن كهيل عن أبي الأحوص عن علي بن أبي طالب قال: السكينة، لها رأس ك رأس إنسان ثم هي بعد ريح هفافة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٧٠

حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا الغزاري عن جوير عن الضحاك قال: السكينة الرحمة. انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقى.

قصة إبراهيم عليه الصلاة و السلام و بناء الكعبة

جاء في صحيح البخارى في كتاب الأنبياء في باب يزفون النسلان في المشى:

عن سعيد بن جبيرة قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسماعيل و هي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد، و ليس بمكة يومئذ أحد، و ليس بها ماء فوضعها هنالك، و وضع عندهما جرابا فيه تمر، و سقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب و تتركنا بهذا الوادى، الذى ليس فيه إنس و لا شىء، فقالت له ذلك مرارا و جعل لا يلتفت إليها. فقالت له: الله الذى أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت:

إذا لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات و رفع يديه فقال: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ حَتَّى بَلَغَ: يَشْكُرُونَ، و جعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل و تشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت و عطش ابنها، و جعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت

الصفاء أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فذلك سعى الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه تريد نفسها ثم سمعت، فسمعت أيضا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه و تقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها و هو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٧١

من الماء لكانت زمزم عينا معينا» قال: فشربت و أرضعت ولدها، فقال لها الملك:

لا- تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله بينى هذا الغلام و أبوه، و إن الله لا يضيع أهله، و كان البيت مرتفعا من الأرض كالراية تأتبه السيول، فتأخذ عن يمينه و شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى و ما فيه ماء، فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: و أم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، و لكن لا حق لكم فى الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: فألقى ذلك أم إسماعيل و قد أحبت الأناج، فنزلوا و أرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، و شب الغلام و تعلم العربية منهم، و أنفسهم و أعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم، و ماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يتغنى لنا، ثم سألتها عن عيشهم و هيئتهم، فقالت: نحن بشر نحن فى ضيق و شدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، و قولى له يغير عتبه بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم! جاءنا شيخ كذا و كذا فسألنا عنك فأخبرته، و سألتى كيف عيشنا، فأخبرته أنا فى جهد و شدة، قال:

فهل أوصاك بشىء؟ قالت: نعم! أمرنى أن أقرأ عليك السلام، و يقول: غير عتبه بابك، قال: ذاك أبى و قد أمرنى أن أفارقك، الحقى بأهلك فطلقها، و تزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يتغنى لنا، قال: كيف أنتم؟ و سألتها عن عيشهم و هيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، و أثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شربكم. قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم فى اللحم و الماء.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «و لم يكن لهم يومئذ حب، و لو كان لهم دعا لهم فيه»، قال:

فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، و مريه يشب عتبه بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٧٢

قالت: نعم: أتانا شيخ حسن الهيئة و أثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشىء؟ قالت: نعم! هو يقرأ عليك السلام، و يأمرك أن تثبت عتبه بابك، قال: ذاك أبى و أنت العتبه أمرنى أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك، و إسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحه قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد و الولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: و تعيننى قال: و أعينك، قال: فإن الله أمرنى أن أبني هاهنا بيتا، و أشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة و إبراهيم

يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له فقام عليه و هو بينى و إسماعيل يناوله الحجارة و هما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم قال: فجعلنا بينان حتى يدورا حول البيت و هما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. و جاءت هذه القصة فى البخارى أيضا برواية أخرى، و هى:

حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، قال: حدثنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما كان بين إبراهيم و بين أهله ما كان، خرج بإسماعيل و أم إسماعيل، و معهم شنة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة، فيدر لبنها على صبيها، حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحه، ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل، حتى بلغوا كداء، نادته من ورائه يا إبراهيم، إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيت بالله، قال: فرجعت فجعلت تشرب من الشنة و يدر لبنها على صبيها، حتى لما فنى الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحدا، قال:

فذهبت فصعدت الصفا فنظرت و نظرت هل تحس أحدا، فلم تحس أحدا، فلما بلغت الوادى سعت و أتت المروة ففعلت ذلك أشواطاً، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل - تعنى الصبى - فذهبت فنظرت فإذا هو حاله كأنه ينشغ للموت، فلم تقرها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت، لعلى أحس أحدا، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت و نظرت فلم تحس أحدا، حتى أتمت سبعا، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل فإذا هى بصوت، فقالت: أغث إن كان عندك خير، فإذا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٧٣

جبريل قال فقال بعقبه هكذا، و غمز عقبه على الأرض، قال فانبثق الماء، فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفر.

قال: فقال أبو القاسم صلى الله عليه و سلم: لو تركته كان الماء ظاهرا، قال: فجعلت تشرب من الماء و يدر لبنها على صبيها، قال: فمر ناس من جرهم ببطن الوادى، فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذاك، و قالوا: ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء، فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها، فقالوا: يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك أو نسكن معك، فبلغ ابنها فنكح فيهم امرأة.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إنى مطلع تركتى، قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، قال: قولى له: إذا جاء، غير عتبه بابك، فلما جاء أخبرته قال: أنت ذاك فاذهبى إلى أهلك.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله إنى مطلع تركتى، قال: فجاء فقال:

أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد فقالت: ألا تنزل فطعم و تشرب؟

فقال: و ما طعامكم و ما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم و شرابنا الماء. قال: اللهم بارك لهم فى طعامهم و شرابهم، قال: فقال أبو القاسم صلى الله عليه و سلم: «بركة بدعوة إبراهيم» قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله: إنى مطلع تركتى فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلا له. فقال: يا إسماعيل إن ربك أمرنى أن أبنى له بيتا.

قال: أطلع ربك، قال: إنه قد أمرنى أن تعينى عليه، قال: إذا أفعل، أو كما قال، قال: فقاما فجعل إبراهيم بينى و إسماعيل يناوله الحجارة و يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم قال: حتى ارتفع البناء، و ضعف الشيخ على نقل الحجارة، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة و يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. انتهى من صحيح البخارى.

و قال الشيخ عبد الله الغازى رحمه الله تعالى فى تاريخه ما نصه: و فى تفسير معالم التنزيل للعلامة أبى محمد الحسين بن محمد البغوى رحمه الله، قال الرواة: إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل و إسحاق ببناء بيت يذكر فيه فسأل الله تعالى عز و جل أن يبين له موضعه، فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت و هى ریح خجوج لها إنسان شبيه الحية. فأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة فتطوفت السكينة على موضع البيت كتطوف الحنفه هذا قول على و الحسن. قال ابن عباس: بعث الله أنه سبحانه على قدر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٧٤

فجعلت تسير و إبراهيم يمشى فى طلبها إلى أن وافق مكة و وقفت على موضع البيت فنودى منها إبراهيم أن ابني على ظلها لا تزد و تنقص، و قيل: و أرسل الله جبريل ليدله على موضع البيت فذلك قوله تعالى: **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ** فبنى إبراهيم و إسماعيل البيت، فكان إبراهيم بينه و إسماعيل يناوله الحجر، فذلك قوله تعالى: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ** يعنى أسها واحد لنا قاعدة، و قال الكسائى: بصدد البيت قال ابن عباس: إنما بنى البيت من خمسة أجبل: طور سيناء و طور زيتا و لبنان، و هو جبل بالشام، و الجودى و هو جبل بالجزيرة، و بنيا قواعده من حراء، و هو جبل بمكة، فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود و قال لإسماعيل: ائتنى بحجر حسن يكون للناس علما فأتاه بحجر.

فقال: ائتنى بأحسن من هذا فمضى إسماعيل بطلبه، فصاح أبو قبيس: يا إبراهيم إن لك عندي وديعة فخذها، فأخذ الحجر الأسود فوضع مكانه. انتهى من تاريخ الغازى.

و جاء فى تاريخ الخميس ما نصه: و قال أهل الأخبار: إن هاجر كانت لسارة فوهبتها لإبراهيم إذ لم يولد له ولد منها، و قالت: عسى الله أن يرزقك منها ولدا.

فحملت هاجر بإسماعيل. فلما ولدته كان نور محمد صلى الله عليه و سلم لا معا من جبهته كما مر، فغارت سارة و قيل: إن إبراهيم أخبر سارة بأن الله وعده أن يرزقه ولدا طيبا و كانت ترجو أن يكون الولد منها فلما حملت هاجر بإسماعيل و ولدته و ظهر نور محمد صلى الله عليه و سلم فى وجهه، اغتمت سارة و حزنت حزنا شديدا و غارت عليها غيره ضاق بها صدرها، فناشدت إبراهيم أن يخرجها من عندها و جوارها فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن يطيع سارة فى كل ما تقول و تأمر فى هاجر و إسماعيل، و حلفت سارة على أن تقطع ثلاثة من أعضاء هاجر، فلما علمت به هاجر تمنطقت و تهيأت للفرار.

قال ابن عباس: أول من اتخذ من النساء المنطقه أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة، فأمر إبراهيم سارة أن تبر قسمها بثقب أذنيها و خفاضها ففعلت فصار ثقب الأذان و الخفاض سنة من النساء. كذا فى شفاء الغرام. انتهى من تاريخ الخميس. و المنطق على وزن منبر شقة تلبسها المرأة و تشد وسطها فترسل الأعل على الأسفل إلى الأرض و الأسفل ينجر على الأرض. و جاء فى تاريخ الخميس أيضا ما نصه:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج 1-2، ص: ٤٧٥

و فى معالم التنزيل، فوضعهما إبراهيم عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى أعلا المسجد، و ليس بمكة يومئذ أحد و ليس بها ماء و لا عمارة و لا زراعة.

و فى روايه، و وضعهما عند تل ستنى الكعبه عليه. و فى الاكتفاء: فلما أراد إبراهيم أن يخرج و رأت أم إسماعيل أنه ليس بحضرتها أحد من الناس و لا ماء ظاهر تركت ابنها فى مكانه و تبعت إبراهيم، فقالت: يا إبراهيم إلى من تدعنا؟ فسكت عنها حتى إذا دنا من كداء قال: إلى الله عز و جل أدعكم قالت: فالله أمرك بهذا؟

قال: نعم! قالت: فحسبى تركتنا إلى كاف. و انصرفت هاجر إلى ابنها و خرج إبراهيم حتى وقف على كداء و لا بناء و لا ظل و لا شئ يحول دون ابنه، فنظر إليه فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمه لولده فقال: **رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيَتِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.** و فى روايه: فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيه حيث لا يرونه استقبل بوجهه إلى البيت بهذه الدعوات، و عن مجاهد: لو قال: أفئدة الناس لرحمتكم عليه فارس و الروم. و فى الكشاف قيل لو لم يقل "من" لآزدهموا عليها حتى الروم و الترك و الهند، و فى أنوار التنزيل: لحجت اليهود و النصارى و المجوس. و فى الاكتفاء: ثم انصرف إبراهيم راجعا إلى الشام و رجعت أم إسماعيل إلى ابنها و عمدت هاجر فجعلت عريشا فى موضع الحجر من سمر و تمام ألقته عليه و معها شن فيه ماء، و فى روايه: وضع عندهما جرابا فيه تمر و سقاء فيه ماء. انتهى منه.

و جاء فى تاريخ الأزرقى «أخبار مكة» ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال:

حدثني جدي قال: حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير قال: حدثنا عبد الله بن عباس قال: لبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم جاء الثالثة فوجد إسماعيل عليه السلام قاعدا تحت الدوحة التي بناحية البير يبرى نبلا أو نبالا له، فسلم عليه و نزل إليه، ففعد معه فقال إبراهيم: يا إسماعيل إن الله تعالى قد أمرني بأمر، فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك، فقال إبراهيم: يا إسماعيل أمرني ربي أن أبني له بيتا، قال له إسماعيل: و أين؟ يقول ابن عباس: فأشار له إلى أكمة مرتفعة على ما حولها عليها رضراض من حصباء يأتيها السيل من نواحي و لا يركبها، يقول ابن عباس: فقاما يحفران عن القواعد و يحفرانها و يقولان: ربنا تقبل منا إنك سميع الدعاء، ربنا تقبل منا إنك أنت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٧٦

السميع العليم، و يحمل له إسماعيل الحجارة على رقبتة و يبني الشيخ إبراهيم. فلما ارتفع البناء و شق على الشيخ إبراهيم تناوله قرب له إسماعيل هذا الحجر- يعني المقام- فكان يقوم عليه و يبني و يحوله في نواحي البيت حتى انتهى إلى وجه البيت. يقول ابن العباس: فلذلك سمي مقام إبراهيم لقيامه عليه. ا.ه.

ثم قال الأزرقى: حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعاني عن معمر بن أيوب السختياني و كثير بن كثير- يزيد أحدهما على صاحبه- عن سعيد بن جبير في حديث حدث به طويل عن ابن عباس قال: فجاء إبراهيم و إسماعيل يبرى نبلا له أو نباله تحت الدوحة قريبا من زمزم. فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد لولده و الولد بوالديه. قال معز: و سمعت رجلا يقول: بكيا حتى أجاتهما الطير. قال سعيد: فقال: يا إسماعيل إن الله عز و جل قد أمرني بأمر. قال: فأطع ربك فيما أمرك قال: و تعينني قال: و أعينك قال: فإن الله تعالى قد أمرني أن أبني له بيتا هاهنا فعند ذلك رفع إبراهيم القواعد من البيت.

حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم قال: أخبرني ابن جريج قال: قال مجاهد: أقبل إبراهيم و السكينة، و الصرد و الملك من الشام فقالت السكينة: يا إبراهيم ارض على البيت فلذلك لا يطوف بالبيت ملك من هذه الملوك و لا أعرابي نافز إلا رأيت عليه السكينة قال: و قال ابن جريج: أقبلت معه السكينة لها رأس كراس الهرة و جناحان. ا.ه.

ثم قال الأزرقى: و حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن ابن جريج قال: قال علي بن أبي طالب: أقبل إبراهيم عليه السلام و الملك و السكينة و الصرد دليلا- حتى تبوأ البيت الحرام كما تبوأ العنكبوت بيتها، فحفر فأبرز عن ربض في أسها أمثال خلف الإبل لا يحرك الصخرة إلا ثلاثون رجلا قال: ثم قال لإبراهيم: قم فابن لي بيتا قال: يا رب و أين؟ قال: سنريك قال: فبعث الله تعالى سحابة فيها رأس، تكلم إبراهيم فقال: يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تخط قدر هذه السحابة، فجعل ينظر إليها و يأخذ قدرها فقال له الرأس: أقد فعلت؟ قال: نعم؟ فارتفعت السحابة فأبرز عن أس ثابت من الأرض فبناه إبراهيم عليه السلام، قال: و حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن أبان عن ابن إسحاق السبيعي عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب في حديث حدث به عن زمزم قال: ثم نزلت السكينة كأنها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٧٧

غمامة أو ضبابة في وسطها كهيئة الرأس يتكلم يقول: يا إبراهيم خذ قدرى من الأرض، لا تزد و لا تنقص، فخط فذلك بكه و ما حواله مكة. ا.ه.

ثم قال أيضا: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أنه أخبره قال: لما ابتعث الله تعالى إبراهيم خليله ليبنى له البيت طلب الأساس الأول وضع بنو آدم في موضع الخيمة التي عزى الله بها آدم عليه السلام من خيام الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت الحرام، فلم يزل إبراهيم يحفر حتى وصل إلى القواعد التي أسس بنو آدم في زمانهم في موضع الخيمة. فلما وصل إليها أظلم الله له مكان البيت بغمامة، فكانت خفاف البيت الأول، ثم لم تزل راكدة على حفافه تظل إبراهيم و تهديه مكان القواعد حتى رفع القواعد قامه ثم انكشطت الغمامة فذلك قوله عز و جل: وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَى:

الغمامة التي ركدت على الخفاف ليهتدى بها مكان القواعد فلم يزل و الحمد لله منذ يوم رفعه الله معمورا. اه.

ثم قال الأزرقى: حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله مولى بن هاشم قال: أخبرنا حماد عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعره عن علي بن أبي طالب في قوله عز وجل: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَكَتْهُ مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** * فيه آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبراهيمَ و مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا قال:

إنه ليس بأول بيت. كان نوح في البيوت قبل إبراهيم و كان في البيوت و لكنه أول بيت وضع للناس فيه آيات بينات مقام إبراهيم و من دخله كان آمنا. هذه الآيات قال: إن إبراهيم أمر ببناء البيت فضاق به ذرعا فلم يدر كيف يبني فأرسل الله تعالى السكينة و هي ريح خجوج لها رأس حتى تطوقت مثل الحجفة فبنى عليها و كان يبني كل يوم سافا و مكة يومئذ شديدة الحر، فلما بلغ موضع الحجر قال لإسماعيل: اذهب فالتمس حجرا أضعه هاهنا ليهدي الناس به فذهب إسماعيل يطوف في الجبال، و جاء جبريل بالحجر الأسود و جاء إسماعيل فقال: من أين لك هذا الحجر؟ قال: من عند من لم يتكل على بنائى و بنائك، ثم انهدم فبنته العمالقة، ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم، ثم انهدم فبنته قريش. فلما أرادوا أن يضعوا الحجر تنازعوا فيه فقالوا: أول رجل يدخل من هذا الباب فهو يضعه، فجاء رسول الله، صلى الله عليه و سلم فأمر بثوب فبسط ثم وضعه فيه ثم قال: ليأخذ من كل قبيلة رجل من ناحية الثوب. ثم رفعوه ثم أخذه رسول الله صلى الله عليه و سلم فوضعه. اه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٧٨

ثم قال الأزرقى: حدثني جدى قال: حدثني سفيان بن عيينة عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب قال: أخبرني علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: أقبل إبراهيم من أرمينية معه السكينة تدله حتى تبوأ البيت كما تبوأ العنكبوت بيتها فرفعوا عن أحجار الحجر يطيقه أو لا يطيقه ثلاثون رجلا.

حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن قتادة في قوله عز وجل: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ** قال:

التي كانت قواعد البيت قبل ذلك. قال الخزاعي: و حدثناه أبو عبيد الله بإسناد عن سفيان مثله.

حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله مولى بنى هاشم قال: حدثنا أبو عوانة عن ابن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أما و الله ما بنياه بقصة و لا مدر و لا كان معهما من الأعوان و الأموال ما يسقفانه و لكنهما أعلماه فطافا به: اه.

نقول: إن إبراهيم الخليل عليه السلام، لم يضع باب الكعبة في وسط جدارها الشرقى بل وضعها قريبا من ركن الحجر الأسود أى في موضعها الحالي الذي فيه الآن، ليكون ما بين الباب و الركن ملتزما للدعاء. و الله تعالى أعلم بحكمة ذلك. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم؛ ج ١-٢؛ ص ٤٧٨

قال الأزرقى: حدثني جدى، قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن مجاهد عن الشعبي قال: لما أمر إبراهيم أن يبني البيت و انتهى إلى موضع الحجر، قال لإسماعيل: اثنتى بحجر ليكون علما للناس يبتدون منه الطواف، فأتاه بحجر فلم يرضه فأتى إبراهيم بهذا الحجر، ثم قال: أتانى به من لم يكن على حجر.

حدثني جدى قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن بشر بن عاصم قال: أقبل إبراهيم من أرمينية معه السكينة و الملك و الصرد دليلا- يتبوأ البيت كما تبوأ العنكبوت بيتها فرفع صخرة فما رفعها عنه إلا ثلاثون رجلا، فقالت السكينة: ابن على فلذلك لا يدخله أعرابي نافز و لا جبار إلا رأيت عليه السكينة.

حدثني مهدي بن أبي المهدي، قال: حدثنا بشر بن السرى البصرى عن حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابه قال: قال الله تعالى: يا آدم إنى مهبط معك بيتى يطاف حوله كما يطاف حول عرشى، و يصلى عنده كما يصلى عند عرشى، فلم يزل كذلك حتى كان

زمن الطوفان فرفع، حتى بوأ لإبراهيم مكانه فبناه من خمسة أجبل من حراء، و ثبير، و لبنان، و الطور، و الجبل الأحمر.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٧٩

حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عمر بن سهل عن يزيد بن نافع عن سعيد عن قتادة في قوله عز وجل: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ قَالَ: ذَكَرْنَا أَنَّهُ بَنَاهُ مِنْ خَمْسَةِ أَجْبَلٍ مِنْ طُورِ سَيْنَا، وَ طُورِ زَيْتَا، وَ لَبْنَانَ، وَ الْجُودَى، وَ حِرَاءَ، وَ ذَكَرْنَا أَن قَوَاعِدَهُ مِنْ حِرَاءَ.**
حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا مروان بن معاوية الغزاري قال:

حدثنا العلاء عن عمر بن مرة عن يوسف بن ماهك قال: قال عبد الله بن عمرو إن جبريل عليه السلام، هو الذي نزل عليه بالحجر من الجنة، و إنه وضعه حيث رأيتم، و إنكم لن تزالوا بخير ما دام بين ظهرانكم، فتمسكوا به ما استطعتم فإنه يوشك أن يجيء فيرجع به من حيث جاء به. انتهى كل ذلك من الأزرقى.

دعاء إبراهيم لأهل مكة بالأمن و الرزق

قال الله تعالى في سورة البقرة: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالتَّوْحِيدِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.**
قال الإمام الأزرقى، رحمه الله تعالى، في تاريخه عند ما سأله إبراهيم خليل الله عليه الصلاة و السلام، الأمن و الرزق لأهل مكة ما نصه:

حدثنا أبو الوليد قال: و أخبرني جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني موسى بن عبيدة الربذى عن محمد بن كعب القرظى قال:

دعا إبراهيم عليه السلام، للمؤمنين و ترك الكفار لم يدع لهم بشيء فقال الله تعالى: **وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ،** و قال زيد بن أسلم: سأل إبراهيم عليه السلام ذلك لمن آمن به ثم مصير الكافر إلى النار، قال عثمان: و أخبرني محمد بن السائب الكلبي قال: قال إبراهيم صلى الله عليه و سلم: رب اجعل هذا بلدا آمنا و ارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله و اليوم الآخر، فاستجاب الله عز و جل له فجعله بلدا آمنا، و آمن فيه الخائف و رزق أهله من الثمرات، تحمل إليهم من الأبق، قال عثمان: و قال مقاتل بن حيان: إنما اختص إبراهيم في مسألته في الرزق للذين آمنوا فقال تعالى: **الَّذِينَ كَفَرُوا سَأْرزُقُهُمْ مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَكِنْ أَمْتَعَهُمْ قَلِيلًا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ أَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ،** قال عثمان: و قال مجاهد: جعل الله هذا البلد آمنا لا يخاف فيه من دخله.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٨٠

و حدثني جدى قال: حدثني إبراهيم بن محمد بن المنتشر قال: حدثني سعيد بن السائب بن يسار قال: سمعت بعض ولد نافع بن جبير بن مطعم و غيره يذكرون أنهم سمعوا أنه لما دعا إبراهيم لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات نقل الله عز و جل، أرض الطائف من الشام فوضعها هنالك رزقا للحرم.

ثم قال الأزرقى في موضع آخر: حدثني جدى قال: حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:

جاء إبراهيم يطالع إسماعيل، عليهما السلام، فوجده غائبا و وجد امرأته الآخرة و هى السيدة بنت مضاض بن عمرو الجهمي، فوقف فسلم، فردت عليه السلام و استنزته و عرضت عليه الطعام و الشراب، فقال: ما طعامكم و شرابكم؟ قالت: اللحم و الماء، قال: هل من حب أو غيره من الطعام؟ قالت: لا، قال: بارك الله لكم في اللحم و الماء. قال ابن عباس رضوان الله عليه: يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم: لو وجد عندها يومئذ حبا لدعا لهم بالبركة فيه، فكانت تكون أرضا ذات زرع.

حدثني جدى عن سعيد بن سالم عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير مثله و زاد فيه قال سعيد بن جبير: ولا يخلى أحد على اللحم و الماء بغير مكة إلا- وجع بطنه و إن أخلى عليهما بمكة لم يجد كذلك أذى، قال سعيد بن سالم: فلا أدري عن ابن عباس يحدث بذلك سعيد بن جبير أم لا يعنى قوله: و لا يخلى أحد على اللحم و الماء بغير مكة إلا وجع بطنه.

ثم قال الأزرقى فى موضع آخر أيضا: حدثني جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: و أخبرني ابن جريج: قال أخبرنا مجاهد قال: إن فى حجر فى الحجر «أنا الله ذو بكة صفتها يوم صفت الشمس و القمر و حففتها بسبعة أملاك حنفاء، مبارك لأهلها فى اللحم و الماء، يحلها أهلها، و لا يحلها أول من أهلها» و قال: لا تزول حتى يزول الأخشبان. قال أبو محمد الخزاعى: الأخشبان يعنى الجبلين، قال: و أخبرني جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال:

أخبرني ضعيف بن عبد الرحمن عن مجاهد قال: وجد فى بعض الزبور: أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين و صفتها يوم صفت الشمس و القمر و حففتها بسبعة أملاك حنفاء و جعلت رزق أهلها ثلاثة سبل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاث طرق من أعلى الوادى و أسفله، و كداء، و باركت لأهلها من اللحم و الماء. انتهى من تاريخ الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٨١

ذكر حج إبراهيم عليه الصلاة و السلام

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه «أخبار مكة» ما نصه:

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن إسحاق قال: لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن من بناء البيت الحرام جاءه جبريل فقال: طف به سبعا فطاف به سبعا هو و إسماعيل يستلمان الأركان كلها فى كل طواف. فلما أكمل سبعا هو و إسماعيل صليا خلف المقام ركعتين قال: فقام معه جبريل، فأراه المناسك كلها، الصفا و المروة و منى، و مزدلفة، و عرفه قال: فلما دخل منى و هبط من العقبة تمثل له إبليس عند جمرة العقبة، فقال له جبريل: ارمه، فرماه بسبع حصيات فغاب عنه ثم برز له عند الجمرة الوسطى فقال جبريل: ارمه، فرماه بسبع حصيات فغاب عنه، ثم برز له عند الجمرة السفلى، فقال له جبريل: ارمه، فرماه بسبع حصيات مثل حصى الخذف فغاب عنه إبليس، ثم مضى إبراهيم فى حجه و جبريل يوقفه على المواقف و يعلمه المناسك حتى انتهى إلى عرفه. فلما انتهى إليها قال له جبريل: أعرفت مناسكك؟ قال إبراهيم: نعم قال: فسميت عرفات بذلك لقوله: أعرفت مناسكك؟ قال: ثم أمر إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج قال: فقال إبراهيم: يا رب ما يبلغ صوتي؟ قال الله سبحانه: أذن و على البلاغ، قال: فعلا- على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال و أطولها فجمعت له الأرض يومئذ سهلها و جبلها و برها و بحرها و إنسها و جنها حتى أسمعهم جميعا، قال: فأدخل أصبعيه فى أذنيه و أقبل بوجهه يمنا و شاما و شرقا و غربا و بدأ بشق اليمن فقال: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم، فأجابوه من تحت التخوم السبعة و من بين المشرق و المغرب إلى منقطع التراب من أقطار الأرض كلها، لييك اللهم لييك قال: و كانت الحجارة على ما هى عليه اليوم إلا أن الله عز و جل أراد أن يجعل المقام آية فكان أثر قدميه فى المقام إلى اليوم قال: أفلا تراهم اليوم يقولون لييك اللهم لييك قال: فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاز إبراهيم و إنما حجهم على قدر إجابتهم يومئذ فمن حج حجتين فقد كان أجاز مرتين، أو ثلاثا فثلاثا، و على هذا قال: و أثر قدمي إبراهيم فى المقام آية و ذلك قوله تعالى: فيه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٨٢

آياتٌ بيناتٍ مقام إبراهيم و مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا و قال ابن إسحاق: و بلغني أن آدم عليه السلام كان استلم الأركان كلها قبل إبراهيم و حجه إسحاق و سارة من الشام، قال: و كان إبراهيم عليه السلام يحجه كل سنة على البراق، قال:

و حجت بعد ذلك الأنبياء و الأمم.

حدثني جدى قال: حدثنا ابن عيينة عن ابن ابي نجيح عن مجاهد قال: حج ابراهيم و اسماعيل ماشيين، قال ابو محمد عبيد الله المخزومي: حدثنا ابن عيينة باسناده مثله.

حدثنا الأزرقى قال: و حدثني جدى قال: حدثنا يحيى بن سليم عن ابن خيثم قال: سمعت عبد الرحمن بن سابط يقول: سمعت عبد الله بن ضمرة السلولى يقول: ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة و تسعين نبيا جاءوا حججا فقبروا هنالك. انتهى من تاريخ الأزرقى.

و إلى معنى قوله: فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب ابراهيم عليه السلام، أشار ناظم أنساب العرب فى طليعة نظمه بقوله:
و حين بالحج الخليل أذناو فى كلا أذنيه إصبعا ثنى
أيضا كأطوال الجبال ارتفعابها و كل من يحج أسمعا

الخلاصة فى كيفية بناء ابراهيم عليه السلام

فخلاصة الكلام المتقدم، كما ذكرناها فى كتابنا «مقام ابراهيم عليه السلام» هى أن ابراهيم الخليل بنى الكعبة الغراء بالرضم أى بحجارة بعضها فوق بعض من غير طين و لا جص، و بناها على ربوة حمراء تأتيها السيول فتأخذ عن يمينها و شمالها- و الربوة المكان المرتفع- و حفر فى باطنها على يمين من دخلها حفرة عميقة كالبر يلقى ما يهدى إليها تكون خزائنه لها و كان عمقها ثلاثة أذرع كما ذكره الأزرقى، و لم يجعل للكعبة سقفا و لا بابا من خشب أو غيره و إنما ترك لمكان الباب فتحة فى جدارها الشرقى للدلالة على وجه البيت.

و السبب فى ذلك أنهم كانوا على الفطرة لا يعرفون الخيانة و لا السرقة، و ما كان عندهم من الأموال و الذهب و الفضة ما يسرق، و ما كانوا يسكنون فى تلك العصور الأولى كما نسكن نحن فى البيوت و القصور المشيدة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٨٣

و قد كان بناء ابراهيم للكعبة من خمسة جبال من طور سينا و طور زيتا و لبنان و الجودى و حراء، و كانت الملائكة تأتيه بالحجارة من تلك الجبال، فكان هو يبنى و اسماعيل يناوله الحجارة فبناها على أساس آدم، و هذا الأساس حجارته من جبل حراء، كانت الملائكة تأتي بها و تقذف فيه و هو المسمى «بالقواعد»، و قد جعل ابراهيم عليه السلام، للكعبة ركنين فقط: الركن الأسود و الركن اليمانى، و لم يجعل لها أركانا من جهة الحجر بل جعلها مدورة على هيئة نصف دائرة كجدار الحجر و جعل الحجر إلى جانبها عريشا من أراك تقتمه غنم اسماعيل، فكان زربا لغنمه. و جعل الباب لاصقا بالأرض و غير مبوب و جعل ارتفاعها من الأرض إلى السماء تسعة أذرع، و جعل عرض جدار و جهها الذى فيه الباب اثنين و ثلاثين ذراعا، و عرض الجدار المقابل له إحدى و ثلاثين ذراعا، و عرض الجدار الذى فيه الميزاب جهة الحجر اثنين و عشرين ذراعا، و عرض الجدار المقابل له عشرين ذراعا، و ما ذكره صاحب كتاب تاريخ الكعبة المعظمة بأن ابراهيم عليه السلام، جعل لها أبوابا، هو و هم منه، و الصواب أنه جعل لها بابا واحدا فقط كما يظهر ذلك عند التأمل فى كتب التاريخ.

و قد يتساءل بعضهم: لماذا بنى ابراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام، الكعبة المعظمة بالرضم من غير طين و لا جص؟ و لم يجعل لها سقفا و بابا من الخشب أو غيره؟ و لم يجعل لها بابين أحدهما للدخول و الآخر للخروج؟ و لم جعل حجر اسماعيل مدورا و جعله من شجر الأراك و لم يبنه بالرضم؟ و لماذا لم يكس البيت الحرام بعد الفراغ من بنائه؟

فالجواب: و الله تعالى أعلم بالصواب: هو أن ابراهيم عليه الصلاة و السلام بنى الكعبة الغراء بالرضم من غير طين و لا جص و من غير سقف و لا باب، لأن ذلك العصر القديم لم يكن فيه شىء من وسائل البناء و أسباب الحضارة. فمن أين يأتى بالأدوات الحديدية و الآلات المختلفة لحفر الأرض و خلط الطين و نشر الخشب و دق المسامير؟

و ما دام لم يكن بمكة سوى إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام، و نفر من قبيلة جرهم، و ما دام باطن الكعبة ترابا، و جدرانها من حجارة الصخور، فلا لزوم لعمل سقف لها و لا لعمل باب يعلق عليها، كما لا لزوم لعمل مدخلين فيها للدخول و للخروج لقله السكان بمكة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٨٤

و أما جعله حجر إسماعيل مدورا كما هو الآن، فليتناسب شكله بشكل جدار الكعبة المقابل للحجر الذي كان مدورا أيضا و لينتهي إليه حدود البيت. و أما جعله من شجر الأراك من غير أن يجعله مبنيا بالرضم، فليعلم أنه تابع للبيت و من حدوده و من غير أن يدخل في ذات بنائه. و لم يكس البيت لأنه لم يؤمر بذلك، ثم لم تكن مكة عامرة بالناس إنما بها نفر من جرهم و ما كانوا يعرفون صناعة النسيج في ذلك الزمن حتى يخطوا له ثوبا.

و على كل حال، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا يعملون شيئا مما له مساس في الدين إلا بأمر الله تعالى هذا ما ظهر لنا و الله أعلم بالغيب.

ارتفاع أرض مكة عما كانت عليه قديما

تقدم أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، بنى الكعبة الغراء فوق ربوة مرتفعة تأتيها السيول فتأخذ عن يمينها و شمالها، لأن وادي إبراهيم محاط بالجبال، و الكعبة على ربوة مرتفعة فلا تصل السيول إليها، و هذا كان بطبيعة الأرض القديمة، ثم بمرور السنين و الأجيال، أي من نحو أربعة آلاف سنة، تغيرت و ارتفعت، و لقد تكلمنا عن هذه المسألة في كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام، و إليك نص ما جاء فيه:

أما الآن فقد انخفضت أرض المسجد الحرام و ارتفعت أرض الشوارع المحيطة به بنحو ثلاثة أمتار و في بعض الجهات بأكثر بسبب ما تأتي به الأمطار و السيول من الأتربة و الحجارة من رؤوس الجبال و بطون الأودية و عدم إخراج ذلك.

أما في الزمن السابق أي قبل أربعمئة سنة فقد كان مجرى السيل من الجهة الشمالية أي جهة باب الزيادة و من الجهة الجنوبية أي جهة باب أجياد يقطع و يحمل ترابه إلى خارج البلدة جهة المسفلة في كل عشرة أعوام مرة حتى لا تدخل السيول في المسجد الحرام، ثم أهمل ذلك حتى ارتفعت الطرقات و لقد كان الخارج من المسجد الحرام من باب إبراهيم ينزل نحو خمس عشرة درجة حتى يصل إلى أرض الشارع أما الآن فإنه لم يبق منها سوى ثلاث درجات و الباقي مطمور تحت الأرض و كان الخارج من المسجد من باب الزيادة ينزل ثلاث عشرة درجة حتى يصل إلى أرض الشارع أي بعدد درجات المسجد من الداخل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٨٥

ثم ارتفعت الأرض بسبب ما تأتي به السيول من الطين و غيره فدفن منها ست درجات و ذلك قبل سنة ألف و ثلاثمئة و أما الباقي و هو سبع درجات فقد أدركناها و كنا نرقى عليها حتى نصل إلى باب المسجد ثم إنه في آخر شهر شعبان سنة ست و ستين و ثلاثمئة و ألف هجرية فرشت أرض باب الزيادة بالتراب و الحصى و بلطت بالنورة الإفرنجية المسماة «بالإسمنت» و بذلك دفن أيضا خمس درجات منها فصار الباقي الآن درجتين فقط يصعد الناس منهما إلى المسجد.

و ذكر ابن حجر في حاشيته على إيضاح النووي أنه كانت على الصفا اثنتا عشرة درجة و على المروة خمس عشرة درجة و أن الفرسان كانت تمر في المسعى و الرماح قائمة فلا يرى من المسجد إلا رؤوسها. و ذكر الأزرقى في تاريخه أن أول من بنى درج الصفا و المروة عبد الصمد بن علي في خلافة أبي جعفر المنصور.

انتهى من كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام.

و نقول أيضا: إن في عصرنا هذا بل منذ سنة (١٣٧٥) التي بدأ فيها بتوسعة المسجد الحرام بمكة و توسعة الشوارع، و الناس يشاهدون

ارتفاع الأرض في محل من المحلات و انخفاضها في محلات أخرى بل يشاهدون إزالة بعض الجبال و تنحية الصخور عن أماكنها، فسبحان من له الدوام و إليه يرجع الأمر كله و لا ينقص من ملكه شيء جل جلاله و لا إله غيره و الله أكبر.

مميزات بناء إبراهيم الكعبة

- (١) كانت بناية إبراهيم الكعبة على أساس بناية آدم عليهما الصلاة و السلام.
 - (٢) و كانت بناية الكعبة، بالرضم حجارة بعضها فوق بعض من غير طين و جص و لا نورة.
 - (٣) و كانت الكعبة مستطيلة الشكل.
 - (٤) و كانت مدورة من جهة حجر إسماعيل التي فيها الميزاب و ليس بها سوى الركن الأسود و الركن اليماني.
 - (٥) و كان بها حفرة على يمين الداخل عمقها ثلاثة أذرع- و تسمى جب الكعبة و خزانتها.
 - (٦) و كان بها باب واحد فقط من الجهة الشرقية كما في عصرنا الحاضر، أى جعل بها فتحة للباب و لم يكن بها باب يفتح و يغلق لا من الخشب و لا من غيره.
 - (٧) و كان الباب لاصقا بالأرض غير مرتفع.
 - (٨) و كان حجر إسماعيل مدورا من شجر الأراك.
 - (٩) و لم يكن للكعبة سقف. و طبعا لا يكون لها ميزاب إن لم يكن هناك سقف.
 - (١٠) و لم تكن لها كسوة، و إنما أول من كساها تبع الحميري و هو أول من جعل لها بابا.
 - (١١) و قد جعل ارتفاعها من الأرض نحو السماء تسعة أذرع.
 - (١٢) و جعل عرض جدار وجهها الذي فيه الباب اثنين و ثلاثين ذراعا.
 - (١٣) و جعل الجدار المقابل له أحدا و ثلاثين ذراعا.
 - (١٤) و جعل عرض الجدار الذي فيه الميزاب جهة الحجر اثنين و عشرين ذراعا.
 - (١٥) و جعل الجدار المقابل له عشرين ذراعا.
 - (١٦) و كانت بناية إبراهيم عليه الصلاة و السلام، منذ أربعة آلاف سنة.
- (تنبيه) الذراع المذكور هنا هو نفس ذراع إبراهيم الخليل، عليه الصلاة و السلام، و ذراعه كذراع أهل عصرنا لأن طوله عليه السلام، كان كطولنا، بدليل وجود أثر قدميه في مقامه صلى الله عليه و سلم الذي هو عند الكعبة المشرفة، و قدماه كأقدامنا سواء بسواء و قد رأيناها و لله الحمد مرارا، و ألفنا في مقامه كتابا سميناه «مقام إبراهيم عليه السلام» و هو مطبوع بمصر بمطبعة البابي الحلبي و أولاده.

ذكر الأنبياء الذين ربتهم أمهاتهم

إذا تأملنا في قصة «هاجر و ابنها إسماعيل» نجد أن نبي الله إسماعيل عليه السلام، تربى بواسطة أمه فقط، ليس لأبيه شأن في تربيته، بل ما اجتمع مع أبيه و هو كبير بلغ مبلغ الرجال، و لقد كان هذا الحال أيضا شأن ثلاثة من الأنبياء، عليهم الصلاة و السلام، و هم «موسى و عيسى و محمد» و رابعهم و هو الأول «إسماعيل» فكل واحد من هؤلاء الأنبياء الأربعة، عليهم الصلاة و السلام، قد عهد الله تعالى بتربيته إلى أمهاتهم الزاهرات الطاهرات، فقمنا نحو أبنائهن بواجبات الأمومة و واجبات الأبوة خير قيام، و في ذلك من الحكم و الأسرار ما لا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٨٧

يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ولكل من هؤلاء الأنبياء الأربعة «إسماعيل و موسى و عيسى و محمد» عليهم الصلاة والسلام، شأن عظيم و حياة شريفة ناصعة مليئة بعظائم الأمور و جليل الأعمال.

فإسماعيل بن خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، بعد أن كان وحيدا مع أمه «هاجر» بمكة في ذلك القفر الموحش و الصحراء الجرداء، لا- أنيس معهما و لا- جليس، و قد تعرض هو و أمه في صغره بعد وصولهما لمكة للموت و الهلاك، من العطش و الجوع لنفاد ما كان معهما من ماء قليل و طعام من تمر يسير، إذا به قد صار بعد مدة من الزمن أمه من الأمم، العريقة في الحسب و النسب، بل صار أبا للعرب المستعربة و أصلا ثابتا ينتسبون إليه.

كما كان هو أول من بنى مع أبيه إبراهيم الخليل، عليهما الصلاة والسلام، بيت الله الحرام قبله كافة المسلمين، فما أعظمه من شرف ثابت قائم إلى يوم الدين.

و موسى كليم الله، عليه الصلاة والسلام، بعد أن ألقى في اليم و هو حديث عهد بالولادة، خوفا عليه من فرعون ليذبحه كما ذبح آلافا من الأولاد، فحفظه الله من الغرق و رده إلى أمه كي تفر عينها و لا- تحزن، فتولت هي إرضاعه و تربيته و نشأ في قصر عدوه اللدود فرعون. و بعد أن هرب منه في كبره خوفا عليه من القتل، و عمل أجيرا عدة سنوات، إذا به يصطفيه الله تعالى بكلامه و برسالته و يختاره لبني إسرائيل نبيا و زعيما، و ينصره على عدوه فرعون ياغراقه مع قومه في البحر.

و قد جاء في سورة القصص آيات كثيرة في قصته عليه الصلاة والسلام، منها و أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَاتَّقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَ قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٨٨

وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

و عيسى عليه الصلاة والسلام، ليس له أب لذلك ينسب إلى أمه فيقال:

«عيسى ابن مريم» و قد جعله الله تعالى آية للناس و رحمته، و في سورة مريم جاءت قصته واضحة صريحة، و في الآيات الآتية ما تكلم به عيسى عليه السلام، و هو رضيع في المهد و هي: قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا * وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أُمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ.

لقد فرت مريم بابنها عيسى إلى مصر لكي تنجو من الكيد و الأذى، فأقامت هناك اثني عشر عاما ترعى ابنها، و كانت تغزل الكتان و تلتقط السنابل في أثر الحصادين.

و يروي المؤرخون عن عنايتها بابنها «عيسى» أنها أخذته صغيرا إلى الكتاب و أقعدته بين يدي المؤدب، حتى أذن لها فعادت به إلى أورشليم «القدس».

و لما بلغ عيسى عليه الصلاة والسلام، ثلاثين سنة أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل، فانصرف عن أمه العزيزة الكريمة ليتفرغ بالدعوة، و في ذلك يقول الله تبارك و تعالى، في سورة المؤمنون: وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ يَقُولُ أَيُّضًا فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: وَ الَّتِي أَحْصَيْتُ

فَرَجَّهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ وَيَقُولُ أَيْضًا فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا.

و أما نبينا «محمد» صلى الله عليه و سلم الذى هو آخر الأنبياء، فقد مات بالمدينة أبوه عبد الله بعد أن حملت به أمه الكريمة آمنه بنت وهب بشهرين، فلما تمت مدة الحمل و أشرقت الدنيا بنور محياه، استبشر به جده عبد المطلب و فرح به فرحا شديدا و سماه «محمد»، ثم إن أمه «آمنه بنت وهب» أسلمته إلى المرضعة «حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية» ليتربى فى البادية على حسب عادة العرب فى مواليدهم، فمكث عندهم نحو أربع سنوات، ثم جاءت به مرضعته «حليمة السعدية» إلى أمه «آمنه»

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٨٩

فأخذته منها و توجهت به إلى المدينة لزيارة أحوال أبيه، و بينما هى عائده إلى مكة أدركتها منيتها فى الطريق فماتت بالأبواء، فحضنته «أم أيمن» و كفله جده عبد المطلب و كان يحبه أشد الحب، فلما بلغ عمره ثمانى سنوات مات جده عبد المطلب، فكفله عمه شقيق أبيه «أبو طالب» فكان يحبه و يكرمه إكراما عظيما، و حينما بعته الله تعالى إلى الناس كان أبو طالب يحوطه بالرعاية و ينصره و يحميه من كفار قريش، ثم لما بلغ صلى الله عليه و سلم نحو تسع و أربعين سنة و بضعة أشهر مات عمه أبو طالب.

إن رسول الله صلى الله عليه و سلم فقد والديه فى صغره و لم يرث منهما شيئا، و لما كبر و قدر على العمل صار يعرى الغنم لأهل مكة على قراريط كما ذكره البخارى فى صحيحه، ثم بعد ذلك صار يتجر و كان شريكه فى التجارة السائب بن أبى السائب، و ذهب إلى الشام بالتجارة لخديجة، رضى الله تعالى عنها، و لما رأت خديجة أمانته و بركته و ما امتاز به من الكمال و الفضل و الأخلاق اختارته زوجا و خطبته لنفسها ففازت بسعادة الدارين.

و قد امتن الله عز و جل عليه بما اختصه به و أنعم عليه فى سورة الضحى بقوله: وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ * وَمَا قَلَى * وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ.

هذه السورة الكريمة فيها كثير من المسائل، و فيها شفاء لصدور العلماء و الصالحين ممن زوى الله عنهم الدنيا، و لا نريد شرح ذلك خوفا من الخروج مما نحن بصدده، و هو لا يخفى على المتأمل الذكى و اللبيب العاقل.

فانظر رحمك الله تعالى إلى حال من ذكرناهم من الأنبياء الأربعة و هم «إسماعيل، و موسى، و عيسى، و محمد» عليهم الصلاة و السلام، تجد أن الله تعالى و كل أمر تربيتهم و هم صغار إلى أمهاتهم، ثم كانوا فى شظف من العيش و حاله من الفقر بحيث كانوا يعرون الغنم لأهل بلدتهم، بل ما من نبى إلا و قد رعى الغنم كما هو ثابت فى صحيح البخارى، لأن فى رعيها جملة أمور:

(١) منها: البعد عن الخلق فى طلبهم الرعى فى البرارى و القفار، و بذلك يأنسون إلى الوحدة فيعبدون الله تعالى بطمأنينة و راحة قلب، و يتفكرون فى خلق

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩٠

السموات و الأرض - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقتنا عذاب النار - و فى الغالب أول ما ينزل عليهم الوحي ينزل فى الخلاء.

(٢) و منها: أن رعى الغنم يستدعى استعمال الرأفة و اللطف و المشى معها بالهون و السكينة.

(٣) و منها: أن فى رعى الغنم تدربا لرعى الخلائق و رعايتهم و حسن سياستهم و دعوتهم إلى الله بالحكمة و الموعدة الحسنه.

(٤) و منها: معرفتهم لأحوال البادية كما عرفوا أحوال المدن، إلى غير ذلك من الحكم التى لا يعلمها إلا الله سبحانه و تعالى.

و الحقيقة أن المشاهدة التى لا تنكر: أننا نرى كثيرا من فطاحل العلماء، و كبار الفنانين النبلاء، و مشاهير المخترعين العظماء، قد لاقوا فى أول حياتهم من الفقر المدقع و المصائب ما يشيب لها الأطفال، ثم تداركهم الله تعالى بلطفه و رحمته حتى أصبحوا من عظماء الرجال و مشاهير الأجيال، و كانوا موضع فخر أمتهم و سببا فى مجد أفعالهم، و خدمتهم التاريخ فسجل أسماءهم و أعمالهم، و من قرأ

كتب التراجم و الطبقات، عرف ما لاقى هؤلاء في حياتهم الأولى من التعب و المشقات، ثم ما وصلوا إليه من الشهرة و رفيع الدرجات، و بعض هؤلاء لا يظهر فضلهم إلا بعد الممات و إلى هذا يشير القائل:

فترى الكريم كشمعة من عنبر ضاءت فإن طفئت تضيوع نشرها

فحالات الدنيا في تغير «فلا فقر يدوم و لا غناء» و من صبر نال ما تمنى، قال الشاعر:

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فالرجل العظيم كعود العطر لا تظهر رائحته الزكية إلا بعد إحراقه، كذلك الأفاضل من الرجال لا يظهر فضلهم و نبوغهم إلا بعد أن يذوقوا مرارة العيش و يحترقوا بنار الفاقة و الابتلاء.

و يسأل بعضهم لماذا لا نرى النبغاء و المشاهير في العلوم و الفنون من الأغنياء، و لماذا اختص الفقراء بذلك؟ فنقول:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩١

لما كان المال من زينة الحياة الدنيا، و الدنيا بنفسها دار لهو و غرور، صار الأغنياء و أولادهم منغمسين في الشهوات، متنعمين بما لديهم من الملذات، و كانت أفكارهم محصورة في استثمار الأموال و إنفاقها في لهوهم فنقول:

و أما الفقراء فليس لديهم من المال و الدنيا ما يلهيهم و يشغلهم، فإذا ما وجدوا القوت الضروري حمدوا الله تعالى و سكنوا إلى الراحة و خلوا بأنفسهم، فإذا طرأ على بال أحد منهم أمر، وجد في نفسه فراغا و نشاطا لبحث هذا الأمر من جميع نواحيه، فإذا اتجهت نفسه للعلم تفرغ له، و إذا اتجهت للفنون الجميلة أشبع رغبتها، و إذا اتجهت إلى اختراع ما ينفع الإنسانية انقطع إليه، حتى إذا استكمل بغيته و بلغ أمنيته إذا به في مصاف النبغاء و العظام.

نعم إننا لا ننكر أن بين الأغنياء نوابغ في العلوم و الفنون، و لكن ذلك قليل و نادر و النادر لا حكم له، قال الشاعر:

ما أحسن الدين و الدنيا إذا اجتمعوا أقبح الكفر و الإفلاس في الرجل

على أن بعض الأغنياء قد نبغوا في ناحية استثمار أموالهم، و نهضوا بأعمال تعود بالنفع إلى أمتهم و قومهم، كإنشاء المصانع، و افتتاح البنوك، و قيام الشركات، و توسيع تجارتهم بمختلف أنواعها، فهؤلاء أيضا لهم قيمتهم و مكانتهم التي لا تنكر، و يعدون أيضا من أفاضل الرجال.

نسأل الله تعالى أن يزيد في الأمة الإسلامية من الرجال العاملين و العمال المخلصين، حتى تزدهر بهم الحياة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، و قد قال سبحانه: **وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ.**

الكلام على زمزم و خروجه لإسماعيل و أمه عليهما الصلاة و السلام

إشارة

لما كان ماء زمزم بمكة المشرفة، من أقدم المياه، و كان عند الكعبة في حد المسجد الحرام بينهما بضعة أمتار، و كان هو شراب الأنبياء و الأصفياء و الأبرار، و قد جاءت في فضله عدة أحاديث، «بأنه طعام طعم و شفاء سقم و هو لما شرب له» بل وضع فيه بعض المؤلفات منها (رسالة الجوهر المنظم في فضائل ماء زمزم) تأليف العلامة الشيخ أحمد بن محمد بن شمس الدين المكي، رحمه الله تعالى،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩٢

و جب أن نتكلم عنه بما يشفي الغليل من كافة الوجوه، فنقول و بالله التوفيق و منه نستمد العون و السداد:

قال الإمام الأزرقى في تاريخه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى قال:

أخبرني مسلم بن خالد عن ابن جريج عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير قال:

حدثنا عبد الله بن عباس أنه حين كان بين أم إسماعيل بن إبراهيم وبين سارة امرأة إبراهيم ما كان أقبل إبراهيم نبي الله بأم إسماعيل وهو صغير ترضعه حتى قدم بهما مكة ومع أم إسماعيل شنة فيها ماء تشرب منه وتدر على ابنها وليس معها زاد، ويقول سعيد بن جبير: قال ابن عباس: فعمد بهما إلى دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد - يشير لنا بين البير وبين الصفة - يقول فوضعها تحتها، ثم توجه إبراهيم خارجا على دابته واتبعت أم إسماعيل أثره حتى أوفى إبراهيم بكدا يقول ابن عباس: فقالت له أم إسماعيل إلى من تركنا وابنها؟ قال: إلى الله عز وجل، قالت: رضيت بالله، فرجعت أم إسماعيل تحمل ابنها حتى قعدت تحت الدوحه فوضعت ابنها إلى جنبها وعلقت شنتها تشرب منها وتدر على ابنها حتى فنى ماء شنتها فانقطع درها فجاج ابنها فاشتد جوعه حتى نظرت إليه أمه يشمط قال:

فحسبت أم إسماعيل أنه يموت فأحزنها، يقول ابن عباس: قالت أم إسماعيل: لو تغيبت عنه حتى يموت لا أرى موته، يقول ابن عباس: فعمدت أم إسماعيل إلى الصفا حين رآته مشرفا تستوضح عليه - أي ترى أحدا بالوادي - ثم نظرت إلى المروة فقالت: لو مشيت بين هذين الجبلين تعلت حتى يموت الصبي ولا - أراه يقول ابن عباس: فمشت بينهما أم إسماعيل ثلاث مرات أو أربع ولا تجيز بطن الوادي في ذلك إلا رملا، يقول ابن عباس: ثم رجعت أم إسماعيل إلى ابنها فوجدته ينشع كما تركته فأحزنها فعادت إلى الصفا تتعلل حتى يموت ولا - تراه، فمشت بين الصفا والمروة كما مشت أول مرة، يقول ابن عباس: حتى كان مشيها بينها سبع مرات، قال ابن عباس: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: فلذلك طاف الناس بين الصفا والمروة، قال: فرجعت أم إسماعيل تطالع ابنها فوجدته كما تركته ينشع، فسمعت صوتا قد أب عليها ولم يكن معها أحد غيرها فقالت: قد أسمع صوتك فأغثنى إن كان عندك خير قال: فخرج لها جبريل عليه السلام، فاتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر - يعني زمزم - فظهر ماء فوق الأرض حيث فحص جبريل، يقول ابن عباس: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: فحاضته أم إسماعيل بتراب ترده خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشنها (يقول أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: ولو تركته أم إسماعيل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩٣

كان عينا معينا جري)، يقول ابن عباس: جاءت أم إسماعيل بشنتها فاستقت وشربت ودرت على ابنها.

فبينما هي كذلك إذ مر ركب من جرهم قافلين من الشام في الطريق السفلى فرأى الركب الطير على الماء فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادي من ماء ولا أنيس، يقول ابن عباس: فأرسلوا جريين لهم حتى أتيا أم إسماعيل فكلماها ثم رجعا إلى ركبهما فأخبراهم بمكانها. فرجع الركب كلهم حتى حيوها فردت عليهم وقالوا: لمن هذا الماء؟ قالت أم إسماعيل: هو لى، قالوا لها: أتأذنين لنا أن نسكن معك عليه؟ قالت: نعم! يقول ابن عباس: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: ألقى ذلك أم إسماعيل وقد أحبت الأنس فنزلوا وبعثوا إلى أهلهم فقدموا وسكنوا تحت الدوح، واعتروشوا عليها العرش فكانت معهم هي وابنها.

وقال بعض أهل العلم: كانت جرهم تشرب من ماء زمزم فمكثت بذلك ما شاء الله أن تمكث، فلما استخفت جرهم بالحرم، و تهاونت بحرمه البيت، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها سرا وعلاية، و ارتكبوا مع ذلك أمورا عظاما، نصب ماء زمزم و انقطع، فلم يزل موضعه يدرس و يتقادم و تمر عليه السيول عصرا بعد عصر حتى خفى مكانه. و قد كان عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي قد وعظ جرهما فى ارتكابهم الظلم فى الحرم و استخفافهم بأمر البيت و خوفهم النقم، و قال لهم: إن مكة بلد لا تقر ظالما فالله الله قبل أن يأتىكم من يخرجكم منها خروج ذل و صغار فتمنوا أن تتركوا تطوفون بالبيت فلا- تقدرنا على ذلك، فلما لم يزدجروا و لم يعون وعظه عمد إلى غزالين كانا فى الكعبة من ذهب و أسياف قلعية كانت أيضا فى الكعبة، فحفر لذلك كله بليل فى موضع زمزم و دفنه سرا منهم حين خافهم عليه، فسلط الله عليهم خزاعة فأخرجتهم من الحرم و وليت عليهم الكعبة و الحكم بمكة ما شاء الله أن تليه، و موضع زمزم فى ذلك لا- يعرف لتقادم الزمان حتى بوأه الله تعالى لعبد المطلب بن هاشم لما أراد الله من ذلك

فخصه به من بين قريش. انتهى من تاريخ الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩٤

الكلام على بئر زمزم

جاء فى تاريخ ابن كثير المسمى «البدایة و النهایة» فى الجزء الأول عند الكلام على ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل و أمه هاجر إلى جبال «فاران» و هى أرض مكة ما نصه:

قال البخارى: قال عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن أبى شيبة: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أيوب السختياني و كثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسماعيل و هى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى أعلى المسجد و ليس بمكة يومئذ أحد و ليس بها ماء فوضعها هنالك و وضع عندهما جراباً فيه تمر و سقاء فيه ماء ثم قضى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب و تتركنا بهذا الوادى الذى ليس به إنس و لا شىء؟ فقالت له ذلك مراراً و جعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟

قال: نعم! قالت: إذا لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات و رفع يديه فقال: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

و جعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل و تشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت و عطش ابنها و جعلت تنظر إليه يلتوى أو قال: يتلطب فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها و نظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبى صلى الله عليه و سلم: فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها ثم سمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث فإذا هى بالملك عند موضع زمزم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩٥

فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه و تقول بيدها هكذا و جعلت تغرف من الماء فى سقائها و هى تفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبى صلى الله عليه و سلم: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معنا» فشربت و أرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيت الله بينى هذا الغلام و أبوه و إن الله لا يضيع أهله و كان البيت مرتفعا من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه و عن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقاً من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائراً عاتفاً فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادى و ما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال و أم إسماعيل عند الماء فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت:

نعم! و لكن لا حق لكم فى الماء قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عباس: قال النبى صلى الله عليه و سلم: فألقى ذلك أم إسماعيل و هى تحب الأنس فنزلوا و أرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم و شب الغلام و تعلم العربية منهم و أنفسهم و أعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم و ماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته فقالت: خرج يبتغى لنا، ثم

سألها عن عيشهم و هيتهم فقالت: نحن بشر في ضيق و شدة و شكت إليه ... إلى آخر القصة. انتهى المراد من تاريخ ابن كثير. (فإن قيل): حيث إن ماء زمزم خرجت لأم إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، على وجه الأرض فأحاطته بالتراب حتى لا تجرى، فمن الذى حفر بئر زمزم و بناها كما نراها اليوم؟

(نقول): إن غور بئر زمزم كان بسبب تعدد حفرها، فإنه لما تهاونت جرهم بحرم البيت و الحرم نصب ماء زمزم و انقطع، فلم يزل موضعه يدرس و يتقادم. ثم إن عمرو بن الحارث ابن مضاخ لما وعظ جرهما ليرتدعوا عن الظلم و الاستخفاف بأمر البيت فلم يزدجروا، حفر بئر زمزم و عمد إلى الغزالين اللذين كانا فى الكعبة فدفنهما فيها. فما زالت زمزم مدروسة حتى جاء عبد المطلب بن هاشم فحفرها و أخرج الغزالين الذهب كما أخرج منها سيوفا و دروعا و سلاحا، قال الأزرقى: فحفر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩٦

حتى أنبت الماء فى القرار ثم بحرهما حتى لا- ينزف، ثم بنى عليها حوضا فطفق هو و ابنه ينزعان فيملآن ذلك الحوض فيشرب منه الحاج.

ثم بعد ذلك تعاقب الإصلاح على بئر زمزم فى كل عصر و وقت إلى يومنا هذا، فبنت البئر مرارا من أعلاها و أسفلها، و حفر قعرها و نظف، و قد فصلنا كل ذلك فى هذا الباب كما سيقف القارئ الكريم عليه.

و فى صحيح مسلم عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: لما سمعت خبر النبى صلى الله عليه و سلم أتيت مكة فسألت عن مكانه، فمال على أهل الوادى و كانوا يضربوننى حتى خررت مغشيا على، ففررت منهم و اختفيت بين أستار الكعبة، فرأيت فى بعض الليالى رسول الله يطوف فحييت تحية الإسلام، فقال لى: مذ متى كنت هنا؟

قلت مذ ثلاثين يوما، قال: فمن يطعمك؟ قلت: ما كان لى طعام إلا ماء زمزم.

فقال عليه الصلاة والسلام: إنها مباركة إنها طعام طعم. و معنى الطعام ما يؤكل، و الطعم بضم فسكون مصدر بمعنى الأكل و الذوق أى إنه طعام مشبع. اهـ.

و قد جاء فى الصحيحين عن خروج زمزم لإسماعيل و بناء إبراهيم الكعبة، عليهما الصلاة والسلام، و بناء قريش لها أيضا و فى غيرهما من كتب الأحاديث فراجعها إن شئت.

و جاء فى تاريخ الخميس عند ما وصل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بابنه إسماعيل و أمه هاجر إلى مكة المشرفة ما نصه:

و فى معالم التنزيل: فوضعهما إبراهيم عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى أعلا المسجد و ليس بمكة يومئذ أحد و ليس بها ماء و لا عمارة و لا زراعة.

و فى رواية: وضعهما عند تل سبئى الكعبة عليه. و فى الاكتفاء: فلما أراد إبراهيم أن يخرج و رأت أم إسماعيل أنه ليس بحضرتها أحد من الناس و لا ماء ظاهر تركت ابنها فى مكانه و تبعت إبراهيم فقالت: يا إبراهيم إلى من تدعنا؟ فسكت عنها حتى إذا دنا من كداء قال: إلى الله عز و جل أدعكم. قالت: فالله أمرك بهذا؟ قال: نعم! قالت: فحسبى تركتنا إلى كاف، و انصرفت هاجر إلى ابنها و خرج إبراهيم حتى وقف على كداء و لا بناء و لا ظل و لا شئ يحول دون ابنه فنظر إليه فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمة لولده فقال: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩٧

و فى رواية: فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه إلى البيت بهذه الدعوات.

و عن مجاهد: لو قال: أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس و الروم.

و في الكشف قيل: لو لم يقل: «من» لآزدهموا عليها حتى الروم و الترك و الهند.

و في أنوار التنزيل: لحجت اليهود و النصرى و المجوس.

و في الاكتفاء: ثم انصرف إبراهيم راجعا إلى الشام و رجعت أم إسماعيل إلى ابنها و عمدت هاجر فجعلت عريشا في موضع الحجر من سمر و تمام القنء عليه و معها شن فيه ماء. و في رواية: وضع عندها جرابا فيه تمر و سقاء فيه ماء.

و في الاكتفاء: فلما نفذ الماء عطش إسماعيل و عطشت أمه فانقطع لبنها فأخذ إسماعيل كهينه الموت فظنت أنه ميت فجزعت و خرجت جزعا أن تراه على تلك الحالة و قالت: يموت و أنا غائبة عنه أهون على و عسى الله أن يجعل لى فى ممشأى خيرا، فانطلقت فنظرت إلى جبل الصفا فأشرفت عليه تستغيث ربهأ و تدعوه ثم انحدرت إلى المروء فلما كانت فى الوادى خبت حتى انتهت إلى المروء.

و فى رواية: لما بلغت بطن الوادى غاب الولد عن عينها فرفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروء فقامت عليها، قال ابن عباس: قال النبى صلى الله عليه و سلم: فلذلك سعى الناس بينهما، يعنى صار ذلك من شعائر الحج. و فى الاكتفاء: فعلت ذلك مرات كلما أشرفت على الصفا نظرت إلى ابنها فترأه على حاله و إذا أشرفت على المروء فمثل ذلك، و كان ذلك أول سعى بين الصفا و المروء و كان من قبلها يطوفون بالبيت و لا يسعون بين الصفا و المروء و لا يقفون المواقف حتى كان إبراهيم، فلما كان الشوط السابع و يئست سمعت صوتا فاستمعت، فلم تسمع إلا الأول فظنت أنه شىء عرض لسمعها من الظمأ و الجهد، فنظرت إلى ابنها فإذا هو يتحرك فأقامت على المروء ثم سمعت الصوت الأول فقالت: إنى سمعت صوتك فأعجبنى، فإن كان عندك خير فأغثنى، فإنى قد هلكت و هلك ما عندى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩٨

و فى رواية، قالت: أيها الذى قد سمعت إن كان عندك غوث فأغثنى، و كان الصائت جبريل انتهى. فخرج الصوت يصوت بين يديها و خرجت تتلوه قد قويت له نفسها حتى انتهى الصوت عند رأس إسماعيل، ثم بدا لها جبريل فانطلق بها حتى وقف على موضع زمزم فضرب بعقبه مكان البئر، فظهر الماء فوق الأرض حين فحص بعقبه. و فى الحدائق: فبحث بعقبه أو قال بجناحه على شك الراوى و فارت بالروء و جعلت أم إسماعيل تحظر الماء بالتراب و تحوضه خشية أن يفوتها قبل أن تأتى بشنها فاستقت و بادرت إلى ابنها فسقته. قال ابن عباس: قال النبى صلى الله عليه و سلم: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت عينا معينا.

و فى الاكتفاء: فشربت فإذا ثدياها يتقطران لبنا فكان ذلك اللبن طعاما و شرابا لإسماعيل و كانت تجترئ بماء زمزم فقال الملك: لا تخافى أن ينفذ هذا الماء، و أبشرى فإن ابنك سيسب، و يأتى أبوه من الشام فيبنون هاهنا بيتا يأتية عباد الله من أقطار الأرضين، مليون لله جل ثناؤه فيطوفون به و يكون هذا الماء شرابا لضيفان الله عز و جل الذين يزورون بيته. فقالت فى جوابه: بشرك الله بكل خير. و طابت نفسها و حمدت الله تعالى و أقبل غلامان من العماليق يريدان بعيرا لهما أخطأهما، و قد عطشا و أهلها بعرفة، فنظرا إلى طير تهوى قبل الكعبة فاستنكرا ذلك و قالوا: إنما يكون الطير على غير ماء. فقال أحدهما لصاحبه: أمهل حتى نبرد ثم نسلك فى مهوى الطير. فأبرد ثم تروحا فإذا الطير ترد و تصدر، فاتبعا الواردة منها حتى وقفا على أبى قبيس فنظرا إلى الماء و إلى العريش فنزلا و كلمأ هاجر و سألاها متى نزلت؟ فأخبرتهما و قالوا: لمن هذا الماء؟ فقالت: لى و لابنى. فقالا: من حفرة؟ فقالت: سقانا الله عز و جل. فعرفا أن أحدا لا يقدر أن يحضر هناك ماء و عهدهما بما هناك قريب و ليس به ماء، فرجعا إلى أهلها من ليلتهما فأخبراهم فتحولوا حتى نزلوا معها على الماء، فأنست بهم و معهم الذرية فنشأ إسماعيل مع ولدانهم و كان إبراهيم يزور هاجر فى كل شهر على براق يغدو غدوة فيأتى مكة ثم يرجع فيقبل من منزله بالشام فزارها بعد و نظر إلى من هناك من العماليق و إلى كثرتهم و غماره الماء فسر بذلك. و لما بلغ إسماعيل أن يسعى مع إبراهيم فى أشغاله و يعينه فى حوائجه و أعماله و ذلك حين كان ابن ثلاث عشرة سنة، و قيل ابن سبع

سنين، وقيل أربع سنين رأى إبراهيم في المنام أن يذبحه. انتهى من تاريخ الخميس.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٤٩٩

حفر عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم زمزم

لما استخفت جرهم بحرمه الكعبة و الحرم و طغوا و بغوا، غاص ماء زمزم و درس موضعه حتى صار لا- يعرف، و قيل: إن جرهما طمست البئر حين نفيت من مكة، ثم بعد ذلك استخرجها عبد المطلب بعد أن أهده الله تعالى إلى مكانه، قال الفاسي في شفاء الغرام: و روينا في تاريخ الأزرقى عن الزهرى ما يقتضى أن حفر عبد المطلب لززم كان بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الأزرقى روى بسنده إلى الزهرى أن حفر عبد المطلب لززم كان بعد الفيل، و النبي صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل على الصحيح و الله تعالى أعلم. انتهى.

و لقد ذكر الإمام الأزرقى في تاريخه قصته في حفر زمزم، فقد قال بعد أن ساق خبر إخراج جبريل زمزم لأم إسماعيل ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن الزهرى قال: أول ما ذكر من عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشا خرجت فارة من أصحاب الفيل و هو غلام شاب فقال: و الله لا أخرج من حرم الله أبتغى العز في غيره قال: فجلس عند البيت و أجلت عنه قريش فقال:

لا هم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليهم و ضلالهم عدوا محالك

قال: فلم يزل ثابتا في الحرم حتى أهلك الله الفيل و أصحابه فرجعت قريش و قد عظم فيها لصره و تعظيمه محارم الله عز و جل. فبينما هو في ذلك و قد ولد له أكبر بنه فأدرك و هو الحارث بن عبد المطلب فأتى عبد المطلب في المنام فقيل له:

احفر زمزم خبئة الشيخ الأعظم فاستيقظ فقال: اللهم بين لى، فأتى في المنام مرة أخرى فقيل له: احفر زمزم بين الفرت و الدم عند نقرة الغراب في قرية النمل مستقبلة الأنصاب الحمر، فقام عبد المطلب فمشى حتى جلس في المسجد الحرام ينظر ما سمي له من الآيات فنحرت بقرة بالحزورة فانفلتت من جازرها بحشاشة نفسها حتى غلبها الموت في المسجد في موضع زمزم، فجزرت تلك البقرة في مكانها حتى احتمل لحمها، فأقبل غراب يهوى حتى وقع في الفرت. فبحث عن قرية النمل فقام عبد المطلب فحفر هنالك فجاءته قريش فقالت لعبد المطلب، ما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٠٠

هذا الصنيع؟ إنا لم نكن نزنك بالجهل لم تحفر في مسجدنا؟ قال عبد المطلب: إني لحافر هذا البير و مجاهد من صدني عنها، فطفق هو و ابنه الحارث و ليس له ولد يومئذ غيره فسفه عليهما يومئذ ناس من قريش فنازعوهما و قاتلوهما و تناهى عنه ناس من قرش لما يعلمون من عتق نسبه و صدقه و اجتهاده في دينهم يومئذ، حتى إذا أمكن الحفر و اشتد عليه الأذى نذر إن وفي له عشرة من الولد أن ينحر أحدهم ثم حفر حتى أدرك سيوفا دفنت في زمزم حين دفنت فلما رأت قريش أنه قد أدرك السيوف قالوا: يا عبد المطلب: أجزنا مما وجدت. فقال عبد المطلب: هذه السيوف لبيت الله الحرام، فحفر حتى أنبط الماء في القرار ثم بحرهما حتى لا يتزف ثم بنى عليها حوضا فطفق هو و ابنه يتزعان فيمالآن ذلك الحوض فيشرب به الحاج فيكسره ناس من حسدة قريش بالليل، فيصلحه عبد المطلب حين يصبح، فلما أكثروا فساده دعا عبد المطلب ربه، فأرى في المنام فقيل له: قل: اللهم إني لا أحلها لمغتسل و لكن هي للشارب حل و بل ثم كفيتهم، فقام عبد المطلب- يعنى حين اختلفت قريش في المسجد- فنادى بالذى أرى ثم انصرف فلم يكن يفسد حوضه ذلك عليه أحد من قريش إلا رمى في جسده بدءا حتى تركوا حوضه و سقايته.

ثم تزوج عبد المطلب النساء فولد له عشرة رهط فقال: اللهم إني كنت نذرت لك نحر أحدهم و إني أقرع بينهم فأصب بذلك من

شئت، فأقرع بينهم.

فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب و كان أحب ولده إليه فقال عبد المطلب: اللهم أهو أحب إليك أم مائة من الإبل؟ ثم أقرع بينه و بين المائة من الإبل، فكانت القرعة على المائة من الإبل، فنحرها عبد المطلب.

حدثني محمد بن يحيى عن الثقة عنده عن محمد بن إسحاق قال: حدثني غير واحد من أهل العلم أن عبد المطلب أرى في منامه أن يحفر زمزم في موضعها الذي هي فيه فحفرها بين إساف و نائلة الوثنيين اللذين كانا بمكة فلما استقام حفرها و شرب أهل مكة و الحاج منها عفت على الآبار التي كانت بمكة قبلها لمكانها من البيت و المسجد و فضلها على ما سواها من المياه، و لأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم في الموضع الذي ضرب فيه جبريل برجله فهزمه و نبع الماء منه، قال ابن إسحاق:

و كان سبب حفرها أن عبد المطلب بن هاشم بينا هو نائم في الحجر فأمر بحفر زمزم في منامه و هو دفين بين صنمى قريش: إساف و نائلة، عند منحر قريش،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٠١

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرشد بن عبد الله عن عبد الله بن يزيد اليافعى، أنه سمع على بن أبي طالب رضى الله عنه يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها قال: قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال: احفر طيبة قال: قلت: و ما طيبة؟ قال: ثم ذهب عنى فرجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال: احفر برة، قال: قلت: و ما برة؟ قال: ثم ذهب عنى فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال: احفر زمزم، قال: قلت: و ما زمزم؟ قال: لا تنزف أبدا و لا تدم، تسقى الحجيج الأعظم عند قرية النمل، قال: فلما أبان له شأنها و دل على موضعها و عرف أنه قد صدق، غدا بمعوله و معه ابنه الحارث بن عبد المطلب ليس له يومئذ ولد غيره، فحفر. فلما بدا لعبد المطلب الطى كبر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر إسماعيل و إن لنا فيها حقا فأشركنا معك فيها.

فقال عبد المطلب: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر خصصت به دونكم و أعطيته من بينكم. قالوا: فأنصفنا إنا غير تاركيك حتى نحاكمك فيها. قال: فاجعلوا بينى و بينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنه بنى سعد بن هذيم، قال: نعم، و كانت بأشراف الشام.

فركب عبد المطلب و معه نفر من بنى عبد مناف و ركب من كل قبيلة من قريش نفر. قال: و الأرض إذ ذاك مفاوز فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض المفاوز بين الحجاز و الشام فنى ماء عبد المطلب و أصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة و استسقوا ممن معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم و قالوا: إنا فى مفاوز نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم و ما يتخوف على نفسه و أصحابه قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك فأمرنا بما شئت قال: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلا واحدا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعا. قالوا: سمعنا ما أردت. فقام كل رجل منهم يحفر حفرته ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا. ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: و الله إن إلقاءنا بأيدينا لعجز. لا نبتغى لأنفسنا حيلة. فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد. ارتحلوا فارتحلوا حتى إذا فرغوا و من معهم من قريش ينظرون إليهم و ما هم فاعلون، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعث به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب. فكبر عبد المطلب و كبر أصحابه ثم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٠٢

نزل فشرب و شربوا و استسقوا حتى ملأوا أسقيتهم. ثم دعا القبائل التى معه من قريش فقال: هلم إلى الماء فقد سقانا الله عز و جل فاشربوا و استقوا. فاشربوا و استقوا فقالت القبائل التى نازعته: قد و الله قضى الله عز و جل لك علينا يا عبد المطلب و الله لا نخاصمك فى زمزم أبدا الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة، هو الذى سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدا. فرجع و رجعوا معه و لم يمضوا إلى الكاهنة و خلوا بينه و بين زمزم.

قال ابن إسحاق: وسمعت أيضا من يحدث في أمر زمزم عن علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، أنه قيل لعبد المطلب حين أمر بحفر زمزم: أذع بالماء الرواء غير الكدر، فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش، فقال: أتعلمون أنى قد أمرت أن أحفر زمزم؟ قالوا: فهل بين لك أين هي؟ قال: لا، قالوا: فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت إن يكن حقا من الله بين لك، وإن يكن من الشيطان لم يرجع إليك. فرجع عبد المطلب إلى مضجعه، فنام فأرى فقيل:

احفر زمزم إن حفرتها لم تدم و هي تراث أبيك الأعظم. فلما قيل له ذلك قال:

و أين هي؟ قال: قيل له: عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غدا، قال: فغدا عبد المطلب و معه ابنه الحارث و ليس له يومئذ ولد غيره فوجد قرية النمل و وجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين: إساف و نائلة. فجاء بالمعول و قام ليحفر حيث أمر فقامت إليه قريش حين رأوا جده فقالت: و الله لا ندعك تحفر بين و ثنا هذين اللذين ننحر عندهما. فقال عبد المطلب للحارث: دعنى أحفر و الله لأمضين لما أمرت به. فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه و بين الحفر و كفوا عنه فلم يحفر إلا يسيرا حتى بدا له الطى، طى البئر، فكبر و عرف أنه قد صدق. فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب - و هما الغزالان اللذان دفنت جره من مكة - و وجد فيه أسيافا قلعية و أدراعا و سلاحا فقالت له قريش: إن لنا معك فى هذا شركا و حقا قال: لا، و لكن هلم إلى أمر نصف بينى و بينكم نضرب عليها بالقداح، قالوا: و كيف نصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين، و لى قدحين، و لكم قدحين، قالوا: أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة، و قدحين أسودين لعبد المطلب، و قدحين أبيضين لقريش. ثم قال: أعطوها من يضرب بها عند هبل و قام عبد المطلب فقال:

لاهم أنت الملك المحمود ربى و أنت المبدئ المعيد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٠٣ من عندك الطارف و التليد فأخرج لنا الغداة ما تريد

فضرب بالقداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة و خرج الأسودان على الأسياف و الدرور لعبد المطلب و تخلف قدحا فضرب عبد المطلب الأسياف على باب الكعبة و ضرب فوقه أحد الغزالين من الذهب فكان ذلك أول ذهب حلته الكعبة و جعل الغزال الآخر فى بطن الكعبة فى الجب الذى كان فيها يجعل فيه ما يهدى إلى الكعبة، و كان هبل صنم قريش فى بطن الكعبة على الجب فلم يزل الغزال فى الكعبة حتى أخذه النفر الذى كان من أمرهم ما كان، و هو مكتوب أخذه، و قصته فى غير هذا الموضع، فظهرت زمزم فكانت سقاية الحاج ففيتها مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس، يمدح عبد المطلب:

فأى مناقب الخيرات لم تشدد به عضدا

ألم تسق الحجيج و تنحر المدا لبة الرفدا

و زمزم من أرومته و تملأ عين من حسدا

و كان عبد المطلب قد نذر الله عز و جل عليه حين أمر بحفر زمزم لئن حفرها و تم له أمرها و تتام له من الولد عشرة ذكور ليذبحن أحدهم لله عز و جل فزاد الله فى شرفه و ولده، فولد له عشرة نفر: الحارث و أمه من بنى سواة بن عامر أخو هلال بن عارم، و عبد الله، و أبو طالب، و الزبير و أمهم المخزومية، و العباس و ضرار و أمهما النمرية، و أبو لهب، و أمه الخزاعية، و الغيداق و أمه الغبثانية خزاعية، و حمزة و المقوم و أمهما الزهرية.

فلما تتام له عشرة من الولد و عظم شرفه و حفر زمزم و تم له سقيها، أقرع بين ولده أيهم يذبح فخرجت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب أبى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقام إليه ليذبحه، فقامت له أخواله بنو مخزوم و عظماء قريش و أهل الرأى منهم و قالوا: و الله لا تذبحه فإنك إن تفعل تكن سنة علينا فى أولادنا و سنة علينا فى العرب و قامت بنوه مع قريش فى ذلك فقالت له قريش: إن بالحجاز عرافة لها تابع فسلها أنت على رأس أمرك إن أمرتك بذبحه ذبحته، و إن أمرتك بأمر لك فيه فرج قبلته، قال: فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوا المرأة فيها يقال لها تخيير، فسألوها و قص عليها عبد المطلب خبره فقالت: ارجعوا اليوم عنى حتى يأتينى تابعى

فأسأله. فرجعوا عنها حتى كان الغد ثم غدوا عليها فقالت: نعم! قد جاءني الخبركم الديئة فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل قال: و كانت كذلك، قالت:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-2، ص: 504

فارجعوا إلى بلادكم و قربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها بالقداح و على صاحبكم، فإن خرجت على الإبل فانحروها و إن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل عشرا ثم اضربوا بالقداح عليها و على صاحبكم، حتى يرضى ربكم، فإذا خرجت على الإبل فانحروها فقد رضى ربكم و نجا صاحبكم.

قال: فرجعوا إلى مكة فأقرع عبد المطلب على عبد الله و على عشر من الإبل فخرجت القرعة على عبد الله، فقالت قريش لعبد المطلب: يا عبد المطلب: زد ربك حتى يرضى، فلم يزل يزيد عشرا عشرا و تخرج القرعة على عبد الله، و تقول قريش: زد ربك حتى يرضى ففعل حتى بلغ مائة من الإبل، فخرجت القداح على الإبل فقالت قريش لعبد المطلب: انحرها فقد رضى ربك و قرعت، فقال: لم أنصف إذا ربي حتى تخرج القرعة على الإبل ثلاثا. فأقرع عبد المطلب على ابنه عبد الله و على المائة من الإبل ثلاثا كل ذلك تخرج القرعة على الإبل.

فلما خرجت ثلاث مرات نحر الإبل في بطون الأودية و الشعاب على رؤوس الجبال لم يصد عنها إنسان و لا طائر و لا سبع، و لم يأكل منها هو و لا أحد من ولده شيئا و تجلبت الأعراب من حول مكة، و أغارت السباع على بقايا بقيت منها، فكان ذلك أول ما كانت الديئة مائة من الإبل، ثم جاء الله بالإسلام فثبتت الديئة عليه، قال: و لما انصرف عبد المطلب ذلك اليوم إلى منزله مر بوهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب و هو جالس في المسجد، و هو يومئذ من أشرف أهل مكة، فزوج ابنته آمنه عبد الله بن عبد المطلب. انتهى كل ذلك من تاريخ الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى.

و في ذلك قالت آمنه بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه و سلم عند وفاتها و هي تنظر إليه صلى الله عليه و سلم و هو ابن خمس سنين، جالسا عند رأسها:

بارك الله فيك من غلام يا من الذي من حومة الحمام

نجا بعون الملك العلام فدى غداة الضرب بالسهم

بمائه من إبل سوام إن صح ما أبصرت في المنام

فأنت مبعوث إلى الأنام من عند ذى الجلال و الإكرام

تبعث في الحل و في الحرام تبعث بالتحقيق و الإسلام

دين أبيك البر إبراهيم فالله أنهاك عن الأصنام

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج 1-2، ص: 505

أن لا تواليا مع الأقوام

ثم قالت: و كل حى ميت، و كل جديد بال، و كل كثير يبنى، و أنا ميتة و ذكرى باق، و قد تركت خيرا، و ولدت طهرا. ثم ماتت، رضى الله تعالى عنها، فما أبركها من امرأة، و ما أسعدها من أم أنجبت سيد ولد آدم فبعثه الله رحمة للعالمين، صلى الله عليه و على آله و أصحابه و ذريته و سلم تسليمًا كثيرا. انتهى من تاريخ الخميس.

مسرحية شعريّة تمثيلية في قصة عبد المطلب عند إرادته لذبح ولده

إشارة

عثرنا فى إحدى مجلات الإذاعة السورية لسنة (١٣٧٧) هجرية على مسرحية شعريّة تمثيلية للأستاذ محيى الدين الدرويش، و هى تقع فى فصل واحد و خمسة مشاهد، تتضمن كيفية هلاك أصحاب الفيل، و نذر عبد المطلب بذبح أحد أولاده العشرة. فرأينا أن ننقل هنا من المجلد المذكورة ما يختص بقصة عبد المطلب فقط، أما فيما يختص بقصة أصحاب الفيل، فقد ذكرناه عند الكلام على قصتهم، إننا قسمنا المسرحية إلى قسمين: الأول فيما يختص بأصحاب الفيل، و الثانى فيما يختص بقصة عبد المطلب، و هو كما يأتى:

المشهد الثانى

عبد المطلب لابنه عبد الله:

بنى أرى فى الغيب نورا سيشرق و أنسامه فى كل أرض ستعقب

هو الأمل المرجو عبد الله:

بوركت يا أبى كأنك من نفسى تقول و تنطق

عبد المطلب:

و لكننى أخفى كوامن فى الحشاسراها بمكنون الضمير معلق

تذكرت نذرا ند عنى و إننى لأحرى بأن أرضى النذور و أخلق

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٠٦ لئن سلم البيت الحرام فإننى سأذبح منكم واحدا أنت مطلق

أبو طالب:

لك الأمر فافعل ما تراه و لا تحدعن الحق يوما إنه بك أليق

عبد المطلب:

سأقسم أقداحى عليكم فأيكم تميل إليه فهو للذبح أسبق

عبد الله:

سمعنا و أذعنا لأمرك كلنا فعجل بما ترضاه أنت الموفق

المشهد الثالث

أمام الكعبة يبدو عبد المطلب مع أولاده و أمهاتهم و أقاربه و الجزع باد على الجميع

يا عالما بالسر و الجهر يا كاشف الآلام و الضر

أنت المؤمل فى نوائبنا فاجبر بحدوك دائما كسرى

أنت العليم بما نذرت و قد أمسيت فى لبس من الأمر

اسكب على اللطف أخط به فى ساعة الأواء بالصبر

إلى ضارب الأقداح:

ألق القداح سريعا صاحب القداح:

لم تلف إلا سميعا منعه زوجة عبد المطلب:

رحماك يا رب فينا كن حافظا و معينا

واكلاً بنى بلطف قد كنت فيه قمينا

الفرعة زوجته الثانية:

يا رب لا تمنحني بحادث مرجحن

وصن حياة غلام كالفتن المطمئن

سعدى زوجته الثالثة:

يا رب صن ولدناو امنن بلطف عليا

فالقلب أمسى حريباو الدمع بات عصيا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٠٧

فاطمة زوجته الرابعة:

يا ويح عبد مناف الطاهر الأواه

و ويح نور تهادى فى وجه عبد الله

أحد اليهود المتلصصين لنفسه:

ليت القداح بعبد الله قد نزلت فإنه خطر تخشى قوارعه

عنه تحدثت الآثار من قدمو أن مولوده حانت مطالعه

عبد المطلب:

يا ضارب القداح ماذا جرى يا صاح

ما خنجرى بالصاح ظمآن للجراح

ضارب القداح:

تبينت الحقيقة لا خفاء و (عبد الله) قد كان الفداء

أبو طالب:

أخى: لا: لن يموت و قد بقينا سابدل دونه منى دماء

أيقضى صاحب النور المرجى و من يضى على الكون الرواء؟

فاطمة أم عبد الله:

و اكبدى و أين منى كبدى و اولدى و أين منى و لى

لا .. لن يموت قبل يوم مصرعى دمي فداؤه و ما تحوى يدي

عكرمة:

سأشير بالرأى الصواب و الحق ما فيه ارتياب

سيروا لكاهنة لهارأى يجيء على حساب

هى (أم ملخان) و قد عمت ماثرها الشعاب

المشهد الرابع

"فى صحراء نائية جرداء يبدو منزل أم ملخان الكاهنة"

أم ملخان:

يا مرحبا بالفتية الأخيار الساكنى البيت مع الأستار

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٠٨ خذوا بقول صح في الآثار أنبئكم بالعلم و الأخبار في مائة من إبل كبار تفديء للولد المختار لعل أن يجعل فيها البارى تحقيق ما قد وسعت آثارى

المشهد الخامس

"امام الكعبة و قد رميت القداح فخرجت على الإبل"
لنا البشارة أن السهم قد رسما على الجمال و (عبد الله) قد سلما
فليهنأ الكون إيدانا بمولد من يعيد شمل نظام العرب ملتتما
عبد المطلب و قد ساد الفرح الجميع:
لك الحمد رب الكون قد وضح الأمر و أشرقت الدنيا و لاح بها الفجر
و صان إله العرش بيتا محببا قواعده قد شادها السادة الغر
و قرت بعبد الله عيني فإنه حشاشة قلبى فيه يزدهر العمر
ستكتمل الأفراح يوم ولادة «لآمنة» الحسناء من صاغها الطهر
هاتف:

ما على المضنى إذا ما سفحا أدمع الأشواق فى ذكرى الحبيب
لا تلوموا مغرما قد فرحافنه من لاعج الشوق المذيب
و إذا المحبوب عنا نزح اعظم الشوق إليه و النحب
كيف أسلو و فؤادى أغرما بمفيض النور ماحى الغلس
سيد الدنيا و رأس العظماهى من مولده فى عرس

العيون التى فى قعر زمزم

قال الأزرقى فى تاريخه عند ذكر غور زمزم: و فى قعرها ثلاث عيون: عين حذاء الركن الأسود، و عين حذاء أبى قبيس و الصفا، و عين حذاء المروءة.

و فى تاريخ الغازى ما نصه: قال فى تحصيل المرام: أما ماؤها فإنها تثور من ثلاثة عيون، ذكر القرشى من رواية الدارقطنى أنه قد وقع فيها عبد حبشى، فنزحت من أجله فوجدوا ماءها يثور من ثلاث أعين أقواها و أكثرها ماء عين من ناحية الحجر الأسود، و ذكر الفاسى فى شفاء الغرام أن العباس بن عبد المطلب سأل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٠٩

كعب الأحبار: أى عيونها أغزر؟ قال: العين الذى تجرى من جهة الحجر، قال:

صدقت. و ذكر القرشى و الحلبي أن العيون التى فى قعرها ثلاثة: عين حذاء الركن الأسود و عين حذاء الصفا و أبى قبيس و عين حذاء المروءة.

قال: و فى نزهة الفكر فيما مضى من الحوادث و العبر: روى القرطبي فى تفسيره عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما: أن فى زمزم عينا من الجنة من قبل الركن الأسود. و فى منسك ابن أمير الحاج قال: قال ابن شعبان: العين التى تلى الركن من زمزم من عيون الجنة.

و روى ابن أبي شيبة عن ابن عدى قال: ضع دلوك من قبل العين التي تلى البيت فإنها من عيون الجنة. انتهى من تاريخ الغازي.

فضل ماء زمزم وميزته

بئر زمزم واقعة بجوار مقام إبراهيم أمام الكعبة المشرفة مما يلي الحجر الأسود، على بعد (١٨) مترا منه كما ذكره صاحب مرآة الحرمين. وهذه البئر هي حد المسجد الحرام في صدر الإسلام من الجهة الشرقية قبل توسعته الأولى.

ولم تكن زمزم معروفة في عهد آدم ولا في عهد نوح، وإنما كانت في عهد إبراهيم الخليل، عليهم الصلاة والسلام، حينما وصل إلى مكة بابنه إسماعيل وأمه «هاجر» وتركهما عند مكان البيت. فلما نفذ الماء التي في سقائهما وعطشا شديدا خصوصا إسماعيل عليه السلام الذي أشرف على الهلاك من العطش، ضرب جبريل عليه السلام بجناحه الأرض فخرج الماء في مكان هذه البئر الموجودة اليوم، فشربا حتى ارتويا وفاض لديهما الماء ولم ينقطع عنهما بعد ذلك كما سيأتي بيانه، و سبب تسميته بزمزم: أنه لما خرج الماء جعلت هاجر تحوط عليه وتقول: «زَمْي زَمْي» وفي الحديث: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكنت عينا معنا».

ولقد فضل ماء زمزم على بقية المياه من عدة وجوه:

١- كان سبب وجوده ونبعه هو إسماعيل عليه السلام وأمه «هاجر».

٢- كان إخراجه بواسطة جبريل عليه السلام.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١٠

٣- خروجه في أقدس بقعة على وجه الأرض أمام الكعبة المشرفة في المسجد الحرام.

٤- منبعه تحت الأرض من ثلاث جهات من أشرف البقاع، جهة الركن الأسود وهو أفضلها، و جهة الصفا، و جهة المروة.

٥- زمزم شرب منه الأنبياء والأصفياء والأتقياء والأبرار.

٦- زمزم غسل به قلب النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين «بينما أنا في الحطيم مضطجعا .. الخ».

٧- لما نزعوا للنبي صلى الله عليه وسلم دلوا شرب منه ثم معج في الدلو ثم صبه في البئر. كما جاء ذلك في رواية الطبراني وغيره.

٨- الأحاديث الواردة في فضله، كما ستأتي.

فماء بهذه الصفة جدير بأن يكون ماء طيبا مباركا، فماء زمزم أفضل المياه بعد الماء التابع من أصابعه صلى الله عليه وسلم و يليه ماء

الكوثر ثم نيل مصر، وقد نظم التقى السبكي ذلك بقوله:

وأفضل المياه ماء قد نبع من بين أصابع النبي المتبع

يليه ماء زمزم فالكوثر فيل مصر ثم باقى الأنهر

قال العلامة الشيخ أحمد بن محمد بن شمس الدين المكي الحنفي في رسالته المسماة «بالجوهر المنظم في فضائل ماء زمزم» ما يأتي:

فائدة: إن قيل هل الفضيلة الثابتة لماء زمزم لعينه أم لأجل البقعة؟ (أجيب) بأنها له. إذ لو لم يكن كذلك للزم فيما إذا حفرت بئر

أخرى في المسجد الحرام ثبوت ما يثبت لزمزم من الفضائل لها. وليس كذلك. ثم إن من القواعد الاستجابية عندنا أن كل طواف

بعده سعى ينبغى لطائفه إتيان زمزم بعد إتمام ركعتي طوافه والشرب منها ثم العود إلى الحجر الأسود واستلامه والخروج إلى الصفا

من بابه للخروج عن عهدة السعى. وكذا يندب للواردين إلى بيت الله الحرام من الحجاج بعد فراغهم من طواف الصدر وهو طواف

الوداع أن يأتوا زمزم فيتصلعوا منها مع مراعاة آداب الشرب المتقدم ذكرها آنفا و يصبون منها على وجوههم و إن أمكنهم الاغتسال

من غير ضرر اغتسلوا وإلا فلا. انتهى من الجوهر المنظم.

وما أحلى قول العلامة الشيخ بدر الدين أحمد بن محمد المصري في زمزم:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١١ لزمزم نفع في المزاج وقوة تزيد على ماء الشباب لدى فتك

و زمزم فاقت كل ماء بطيهاو لو أن ماء النيل يجرى على مسك

هذا و إن بعض الأطباء الفضلاء قد كتب عن خواص ماء زمزم و منافعه، لم ننقله هنا خوف التطويل، فإن من لم يقتنع بقول رسول الله صلى الله عليه و سلم فيه، فلا يقتنع بقول الأطباء، و إن اقتنع بقول هؤلاء من منافعه الصحية و لم يشربه اقتداء بالنبي صلى الله عليه و سلم فأين ذهب إيمانه و إسلامه؟ و مما يمتاز به ماء زمزم: أنه لا يوجد فيه ديدان و لا حشرات مطلقا لا صغيرة و لا كبيرة كما توجد في غيره من مياه الآبار و العيون.

ما جاء في تاريخ الأزرقى عن زمزم

قال الإمام الأزرقى في تاريخه: حدثنا أبو الوليد، حدثني جدي قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن وهب بن منبه أنه قال في زمزم: و الذي نفسى بيده إنها لفي كتاب الله مضمونة و إنها لفي كتاب الله تعالى بره و إنها لفي كتاب الله سبحانه شراب الأبرار و إنها لفي كتاب الله طعام طعم و شفاء سقم.

حدثني جدي عن الزنجي عن ابن خيثم قال: قدم علينا وهب بن منبه فاشتكى، فجنناه نعوذ فإذا عنده من ماء زمزم قال: فقلنا: لو استعذبت فإن هذا ماء فيه غلظ، قال: ما أريد أن أشرب حتى أخرج منها غيره. و الذي نفسى بيده إنها لفي كتاب الله، زمزم، لا تنزف و لا تدم، و إنها لفي كتاب الله بره شراب الأبرار، و إنها لفي كتاب الله مضمونة، و إنها لفي كتاب الله طعام طعم و شفاء سقم، و الذي نفسى بيده لا يعمد إليها أحد فيشرب منها حتى يتضلع إلا نزعته منه داء و أحدثت له شفاء.

حدثني جدي قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن عن عبيد الله بن أبي يزيد عن عبيد بن عمير عن كعب أنه قال لزمزم: إنا لنجدها مضمونة صن بها لكم، أول من سقى ماءها إسماعيل عليه السلام طعام طعم و شفاء سقم.

حدثني جدي قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال:

ماء زمزم لما شرب له، إن شربته تريد شفاء شفاك الله، و إن شربته لظماً أرواك الله، و إن شربته لجوع أشبعك الله، و هي هزمة جبريل بعقبه و سقيا الله إسماعيل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١٢

عليه السلام، قال أبو الوليد: و الهزمة الغمزة بالعقب في الأرض، و قال: زمزم شقت من الهزمة.

حدثني جدي قال: حدثنا سفيان عن فرات القزاز عن أبي الطفيل قال: سمعت عليا يقول: خير و ادين في الناس و ادى مكة و واد بالهند الذي هبط به آدم عليه السلام و منه يؤتى بهذا الطيب الذي يتطيون به، و شر و ادين في الناس واد بالأحقاف و واد بحضر موت يقال له: برهوت، و خير بير في الناس بير زمزم، و شر بير في الناس بلهوت و إليها تجتمع أرواح و هي في برهوت.

حدثنا جدي عن سفيان عن إبراهيم بن نافع عن ابن أبي حسين أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، بعث إلى سهيل بن عمرو يستهديه من ماء زمزم فبعث إليه براويتين و جعل عليهما كراغوطيا.

حدثنا جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن ابن جريج قال:

حدثني ابن أبي حسين أنه قال: كتب رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى سهيل بن عمرو، إن جاءك كتابي هذا ليلا فلا تصبحن، و إن جاءك نهارة فلا تمسين حتى تبعث إلى بماء زمزم، فاستعانت امرأته أثيلة الخزاعية جدة أيوب بن عبد الله فأدلجتها و جواريهما فلم يصبحا حتى قرنا مزادتين و فرغتا منهما فجعلهما في كرين غوطيين ثم ملأهما و بعث بهما على بعير.

حدثني جدي قال: حدثنا عبد الجبار بن الورد، حدثنا عبد الملك بن الحارث بن أبي ربيعة المخزومي عن عكرمة بن خالد قال: بينما أنا ليلة في جوف الليل عند زمزم جالس، إذ نفر يطوفون عليهم ثياب بيض لم أر بياض ثيابهم لشيء قط، فلما فرغوا صلوا قريبا مني فالتفت بعضهم فقال لأصحابه: اذهبوا بنا نشرب من شراب الأبرار، قال: فقاموا و دخلوا زمزم فقلت: و الله لو دخلت على القوم فسألتهم،

فقلت فدخلت فإذا ليس فيها من البشر أحد.

حدثني جدى قال: حدثنا عبد الجبار بن الورد عن رجل يقال له رباح مولى لآل الأحنس أنه قال: أعتقني أهلى فدخلت من البادية إلى مكة فأصابني بها جوع شديد حتى كنت أكوّم الحصا ثم أضع كبدى عليه، قال: فقامت ذات ليلة إلى زمزم فترعت فشربت لبنا كأنه لبن غنم مستوحمة أنفاسا.

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن ابن أبي سبرة عن عمر بن عبد الله القيسى عن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم عن عبد الله بن غنم عن العباس بن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١٣

عبد المطلب، قال: تنافس الناس فى زمزم فى الجاهلية حتى إن كان أهل العيال يقدون بعيالهم فيشربون منها فتكون صبوحة لهم و قد كنا نعدّها عوناً على العيال.

حدثني محمد بن يحيى عن سليم بن مسلم عن سفيان الثورى عن العلاء بن أبى العباس عن أبى الطفيل قال: سمعت ابن عباس يقول: كانت تسمى فى الجاهلة شباعة- يعنى زمزم- و يزعم أنها نعم العون على العيال.

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن عبد الحميد بن عمران عن خالد بن كيسان عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: التطلع من ماء زمزم براءة من النفاق.

و حدثني جدى عن سعيد بن عثمان قال: حدثنا أبو سعيد عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: علامة ما بيننا وبين المنافقين أن يدلوا دلوًا من ماء زمزم فيتضلعوا منها، ما استطاع منافق قط يتضلع منها. و عن الواقدي عن الثورى عن مغيرة بن زياد عن عطاء أن كعب الأحبار حمل منها ثنتى عشرة راوية إلى الشام، و عن الواقدي عن ثور بن يزيد عن مكحول عن كعب الأحبار أنه كان يحمل معه من ماء زمزم يتزوده إلى الشام، و عن الواقدي عن ثور بن يزيد عن مكحول عن كعب الأحبار أنه كان يحمل معه من ماء زمزم يتزوده إلى الشام، و عن الواقدي عن ابن أبي ذؤيب عن القاسم بن عباس عن باباه مولى العباس بن عبد المطلب قال: جاء كعب الأحبار بإداوة من ماء إلى زمزم و نحن ننزع عليها فنحنياها عنها، فقال العباس رضى الله عنه: دعوه يفرغها فيها و استقى منهما إداوة و قال: إنهما ليتعارفان- يعنى إيليا و زمزم-.

حدثني جدى قال: حدثنا عيسى بن يونس قال: حدثنا عنبسة بن سعيد الرازى عن إبراهيم بن عبد الله الخاطبي عن عطاء عن ابن عباس قال: صلوا فى مصلى الأخيار، و اشربوا من شراب الأبرار، قيل لابن عباس: ما مصلى الأخيار؟ قال: تحت الميزاب، قيل: و ما شراب الأبرار؟ قال: ماء زمزم.

حدثني جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني ابن جريج قال: سمعت أنه يقال: خير ماء فى الأرض ماء زمزم و شر ماء فى الأرض ماء برهوت- شعب من شعاب حضر موت- و خير بقاع الأرض المساجد و شر بقاع الأرض الأسواق.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١٤

حدثني جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني ابن جريج قال: حدثني عبد الله بن أبى بريدة عن عبد الله بن إبراهيم بن قارظ أن زبيد بن الصلت أخبره أن كعبا قال لزمزم مرة: مضمونه ضن بها لكم أول من أخرجت له إسماعيل و نجدها طعام طعم و شفاء سقم. قال ابن جريج: و أخبرني يزيد بن أبى زياد عن شيخ من أهل الشام قال: سمعت كعبا يقول: إنى لأجد فى كتاب الله تعالى المنزل أن زمزم طعام طعم و شفاء سقم.

حدثني جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني الكلبى عن عون بن حميد بن مل عن عبد الله بن الصامت ابن أبى ذر أنه قال: قال لى عمى أبو ذر: يا ابن أخى فى حديث حدث به عن مقدم أبى ذر مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، و كان فى حديثهما أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال: متى كنت ها هنا؟

قال: قلت: أربع عشرة بين يوم و ليلة و ما لى طعام و لا شراب إلا ماء زمزم فما أجد على كبدى سخفه و جع و لقد تكسرت عكن بطنى فقال: إنها طعام طعم.

حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج أخبرنى عبد العزيز بن أبى رواد قال: أخبرنى رباح عن الأسود قال: كنت مع أهلى بالبادية فابتعت بمكة فاعتقت فمكثت ثلاثة أيام لا أجد شيئاً آكله، قال: فمكثت أشرب من ماء زمزم فانطلقت حتى أتيت زمزم فبركت على ركبتي مخافة أن أستقى و أنا قائم فيرفعنى الدلو من الجهد، فجعلت أنزع قليلاً قليلاً حتى أخرجت الدلو فشربت فإذا أنا بصريف اللبن بين ثناياى فقلت: لعلى ناعس فضربت بالماء على وجهى و انطلقت و أنا أجد قوة اللبن و شبعه.

حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى عبد العزيز بن أبى رواد أن راعياً كان يرعى و كان من العباد فكان إذا ظمى وجد فيها لبناً و إذا أراد أن يتوضأ وجد فيها ماء.

حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى مقاتل عن الضحاک بن مزاحم قال: بلغنى أن التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق، و أن ماءها يذهب بالصداع و أن الاطلاع فيها يجلو البصر، و أنه سيأتى عليها زمان يكون أعذب من النيل و الفرات، قال أبو محمد الخزاعى: و قد رأينا ذلك فى سنة إحدى و ثمانين و مائتين، و ذلك أنه أصاب مكة أمطار كثيرة فسال وادىها بأسيال عظام فى سنة تسع و سبعين و سنة ثمانين و مائتين، فكثر ماء زمزم و ارتفع حتى كان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١٥

قارب رأسها فلم يكن بينه و بين شفتها العليا إلا سبعة أذرع أو نحوها، و ما رأيتها قط كذلك و لا سمعت من يذكر أنه رآها كذلك، و عذبت جدا حتى كان ماؤها أعذب من مياه مكة التى يشربها أهلها، و كنت أنا و كثير من أهل مكة نختر الشرب منها لعذوبته و إنا رأيناها أعذب من مياه العيون و لم أسمع أحداً من المشايخ يذكر أنه رآها بهذه العذوبة، ثم غلظت بعد ذلك فى سنة ثلاث و ثمانين و ما بعدها، و كان الماء فى الكثرة على حاله و كنا نقدر أنها لو كانت فى بطن وادى مكة لسال ماؤها على وجه الأرض لأن المسجد أرفع من الوادى و زمزم أرفع من المسجد، و كانت فجاج مكة و شعابها فى هاتين السنتين و بيوتها التى فى هذه المواضع تتفجر ماء. انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقى.

ماء زمزم لا تؤثر فيه الجراثيم و الميكروبات

يقول بعض الأطباء فى زماننا أنهم قد حللوا ماء زمزم، فوجدوا فيه بعض الجراثيم و الميكروبات التى تحمل بعض الأمراض، تأتى إلى بئر زمزم من السيول و الأمطار و من بعض ما يتسرب إليها من رطوبات المنازل المجاورة لها، فهو إذن لا يصلح للشرب. هكذا يحكمون على ماء زمزم.

فنحن نرد عليهم بما يأتى: إن ماء زمزم قد وجدت بمكة المشرفة منذ أربعة آلاف سنة فى هذا القفر من الصحراء الواسعة الأطراف، أخرجته الله تعالى لنبيه الكريم إسماعيل و أمه هاجر، عليهما الصلاة و السلام، حينما أتى بهما خليل الله تعالى إبراهيم، صلوات الله و سلامه عليه، و تركهما فى هذا المكان القفر و حدهما كما أمره الله عز و جل بذلك حسبما ذكرنا قصتهم حينما كان طفلاً رضيعاً. إن ماء زمزم يمتاز عن مياه الدنيا بما يأتى:

- (١) أن ماء زمزم أخرجته جبريل عليه السلام، بأمر ربه لنبي الله إسماعيل بن إبراهيم، عليهما الصلاة و السلام.
- (٢) أنه ماء ينبع من تحت الكعبة المعظمة بيت الله الحرام، و من جهة الصفا و جهة المروة و هما من المشاعر العظام.
- (٣) لقد كان نبينا (محمد) صلى الله عليه و سلم يطلبه من مكة بعد هجرته إلى المدينة.
- (٤) أن رسول الله صلى الله عليه و سلم حث على شربه و التضلع منه بأن يملأ الإنسان ضلوعه منه أى يشرب منه كثيراً.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١٦

(٥) لقد ورد في فضل ماء زمزم بعض أحاديث منها. قوله صلى الله عليه وسلم: «ماء زمزم لما شرب له» رواه الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (ماء زمزم لما شرب له فإن شربته تستشفى به شفاك الله، وإن شربته مستعيذا أعاذك الله، وإن شربته لتقطع ظمأك قطعه الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وهي هزئة جبريل وسقيا إسماعيل). رواه الدار قطنى وغيره.

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (ماء زمزم شفاء من كل داء). ومعنى هزئة جبريل بفتح الهاء وسكون الزاى أى: غمزته بعقب رجليه. ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق) رواه الإمام الأزرقى فى تاريخ مكة. ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم) رواه البيهقى.

(٦) أن ماء زمزم قد غسل به صدر نبينا (محمد) صلى الله عليه وسلم، غسله جبريل عليه السلام، بعد شقه كما هو ثابت فى الصحيحين.

(٧) أن ماء زمزم قد شرب منه الأنبياء الأخيار الذين اصطفاهم الله تعالى، وشرب منه العلماء العاملون والأئمة الأبرار، وشرب منه الأولياء الصالحون وأولو الهداية والأسرار، ويشرب منه فى كل وقت وحين جميع المؤمنين إلى أن تقوم الساعة يشرب الجميع بإيمان ويقين وصدق وإخلاص، وحب ورغبة، والشرب بالدلو من نفس بئر زمزم أحلى وأصفى وألذ وأطعم، كما هو مجرب عند جميع الناس، ومن عجيب أمر ماء زمزم أن لونه كلون جميع مياه الدنيا ولكن طعمه يختلف عنها، إن طعمه لذيد سائغ للشاربين، إنه يمتاز بطعمه الخاص ومنافعه الخاصة.

فماء زمزم هذه ميزاته وهذه صفاته كيف تؤثر فيه الجراثيم والميكروبات كما يقوله الأطباء، وهل هذه الجراثيم والميكروبات هى من مخلوقات زماننا هذا أم كانت موجودة من الأزمان القديمة؟ إننا لم نسمع قط من قديم العصور والدهور أن أحدا ممن كان يشرب من ماء زمزم قد أصابته الأمراض الخبيثة بسبب وجود الجراثيم والميكروبات فى ماء زمزم الذى شربه، بل إننا سمعنا كثيرا من قديم العصور والأزمان، أن كثيرا من المؤمنين بالله ورسوله كانوا يشربون من ماء زمزم بنية الشفاء من الأمراض، أو بنية التوفيق والتوبة، أو بنية العلم والفهم، أو بنية إذهاب الهم والغم وإزالة الكرب، إلى غير ذلك مما شربوه لأجله، فنالوا بغيتهم وتحصلوا على مطلوبهم، بل وفى زماننا هذا ومن أهل مكة وغيرهم قد جربوه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١٧

وشربوه لمختلف المقاصد فنالوا مآربهم، وقصصهم موجودة فى بطون الكتب والأخبار لا ينكر ذلك إلا جاهل بأمر دينه ومكابر لا يؤمن بالغيب وإنما يؤمن بالمحسوسات والمشاهدات.

إننا نعتقد اعتقادا جازما أن الميكروبات والجراثيم إذا دخلت مع السيول والأمطار فى بئر زمزم، أو أن شخصا أتى بها فى قارورة أو إناء وصبها ورمها فى بئر زمزم، أنها تتلاشى مفعولها ويذهب تأثيرها بقدرة الله الواحد الأحد حتى ولو كانت هذه الجراثيم والميكروبات فى هيئة أجسام ظاهرة ملموسة، لا نعدم تأثيرها وذهب ضررها بمجرد رميها فى بئر زمزم وملاستها للماء، وعندنا بعض الأدوية الشديدة الحساسية يقول عنها الأطباء: «احذروا عند استعمالها أن تلمسوها بأجسامكم أو تقع على فراشكم، فإنها إذا حصل ذلك لها بطل نفعها بتاتا فلا فائدة من استعمالها- فإذا قرر الأطباء هذا، أفلا نقول ونحن المؤمنون بقول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، أن الجراثيم والميكروبات إذا وجدت فى ماء زمزم لا تأثير لها ولا مفعول.

إن بئر زمزم فى هذه الأزمنة المتأخرة أكثر صيانة وحفظا وقاية من الأزمنة الماضية، إن بئر زمزم فى العصور الأولى منذ آلاف السنين، كانت فى خلاء صحراوى، وكان الذين يستقون منها من الأعراب الأجلاف، على اختلاف طبقاتهم فى نظافة أجسامهم وثيابهم، وكانوا يحضرون إلى البئر بمواشيهم لسقيها، فهل ورد فى الأخبار والتواريخ أنهم أو مواشيهم أصيبوا بالأمراض الخبيثة لأنهم شربوا من بئر زمزم؟ كلا والله لم يرد ذلك قط. بل ورد عكس هذا الأمر من الشفاء.

عجبا و الله لقول الأطباء و أكثرهم لا- يؤدون فرائض الله تعالى يقولون إن ماء زمزم لا يصلح للشرب لوجود الجراثيم و الميكروبات فيه، فهل نسمع لقولهم و هم لا- يعرفون من الدين إلا- اسمه، أم نسمع نبينا الحبيب (محمد) صلى الله عليه و سلم، و هو الصادق الصدوق الذى لا ينطق عن الهوى. كيف تؤثر الميكروبات و الجراثيم فى ماء أخرجه جبريل لإسماعيل و شرب منه إبراهيم الخليل و الأنبياء من بعده على جميعهم أفضل الصلاة و أتم السلام؟ كيف تؤثر هذه الجراثيم و الميكروبات غير الظاهرة فى ماء شرب منه نبينا الأعظم صلى الله عليه و سلم؟ شرب من دلو البئر ثم طرح هذا الدلو و ما فضل فيه فى نفس هذا البئر الطاهر الشريف. كيف تؤثر هذه الجراثيم و الميكروبات فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١٨

ماء غسل به صدر نبينا (محمد) صلى الله عليه و سلم، غسله جبريل عليه السلام، فى طست من الذهب كما هو ثابت فى كتب الحديث. كيف تؤثر هذه الجراثيم و الميكروبات فى ماء ينبع من تحت الكعبة المعظمة و المسافة بينهما منذ آلاف السنين إلى اليوم لا تتجاوز اثنى عشر مترا. كيف تؤثر الجراثيم و الميكروبات فى ماء ينبع من تحت جبل الصفا و جبل المروة بقرب الكعبة و هما من المشاعر العظام؟ لا- و الله يستحيل تأثير الجراثيم و الميكروبات فى ماء زمزم و هو أفضل مياه الدنيا على الإطلاق، و الله سبحانه و تعالى لقادر على دفع جميع الأمراض و العلل من ماء زمزم.

إننا نخشى على الطبيب الذى يقول بوجود الجراثيم و الميكروبات فى ماء زمزم و ينفّر الناس من شربه، نخشى عليه من انتقام الله عز و جل. و لو قاله الأطباء فى غير ماء زمزم لما أنكرنا عليهم ذلك، أما شرب ماء زمزم فهو من الأمور الدينية التى تحتاج إلى إيمان و يقين، و الإيمان أقوى سلاح فى يد الإنسان و فى هذا المبحث قد ظهر لك الحق من الباطل، فاختر لنفسك ما يحلو، و الله الموفق للصواب و إليه المرجع و المآب، و الحمد لله رب العالمين.

التضلع من ماء زمزم

روى الإمام الأزرقي فى تاريخ مكة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: «التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق». و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن التضلع من ماء زمزم علامة ما بيننا و بين المنافقين»، و روى الطبرانى و غيره: أنه صلى الله عليه و سلم جاء إلى زمزم فزرعوا له دلوفا فشرب ثم مج فى الدلو ثم صبه فى زمزم، ثم قال: لولا أن تغلبوا عليها لتزعت معكم، و فى رواية أنه غسل وجهه و تمشمض منه ثم أعاده فيها. ٥١.

و التضلع هو الشرب من ماء زمزم حتى تمتلئ أضلاعه و هذا كناية عن الشبع منه، ففى مختار الصحاح، تقول تضلع الرجل أى امتلأ شبعاً و رياً. ٥١.

و لقد ألفت بعضهم رسائل فى ماء زمزم منها رسالة (الجوهر المنظم فى فضائل ماء زمزم) للعلامة الشيخ أحمد بن محمد ابن شمس الدين المكي رحمه الله تعالى و هذه الرسالة مطبوعة بمصر سنة (١٣٣٢) هجرية مطبوعة ضمن ثلاث رسائل:

(الأولى): منح المعين فى شرح الأربعين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥١٩

(و الثانية): الإتحاف فى فضل الطواف.

(و الثالثة): الجوهر المنظم فى فضائل ماء زمزم.

فالتضلع من ماء زمزم هو كالتضلع من شرب اللبن الحليب، و للتضلع من ماء زمزم فوائد عظيمة خصوصا إذا كان الشرب من دلو بئر زمزم و فى الصباح الباكر قبل أن يأكل الإنسان شيئا، و أهل مكة يتضلعون من ماء زمزم كثيرا، فالتضلع من ماء زمزم يذهب كثير من الأمراض الباطنية كوجع البطن و المغص و تفتيت الحصا من المثانة، و إطلاق البول و غير ذلك، و من تضلع من ماء زمزم فى الصباح

الباكر يلين البطن كالشربة و كل هذا معروف مشهور عندنا بمكة، و لقد حصل لبعضهم قبض شديد فى بطنه حتى أنه لم يتبرز أياما، فذهب إلى المسجد الحرام و بعد صلاة الفجر ذهب إلى بئر زمزم فشرّب منه كثيرا حتى امتلأت أضلاعه، فما كان بعد ساعتين أو ثلاثة إلا- و جاءه الفرج فانطلقت بطنه و خرج منه كل غثاء، فاستراح راحة تامة و ذهب عنه جميع الآلام و الأوجاع و قد حصل لكثير من الرجال مثل ذلك.

و الحكايات فيه شفاء المرضى و بلوغ المقاصد بعد أن تضلعوا من ماء زمزم مرارا بإخلاص و صدق و عزيمة كثيرة جدا لو أحصيناها لطل بنا المقام، و لا غرابة فى ذلك أليس رسول الله صلى الله عليه و سلم قال و هو الصادق المصدوق: (ماء زمزم لما شرب له) و المؤمن ألا- يصدق نبي الرحمة و رسول الأمة و هو الذى لا- ينطق عن الهوى صلى الله عليه و سلم و على آله و أزواجه و ذريته و صحابته أجمعين، إنه عليه الصلاة و السلام، قد حث أمته المرحومة على شرب ماء زمزم و رغبهم فيه، أفلا يصدق المؤمن هذا النبي الكريم، عليه الصلاة و التسليم، الذى لا ينطق عن الهوى؟ بلى و الله إنه يصدق رغم أنفه و لو أخبر عن حتفه، و إننا نحذر كل طبيب يقول بوجود الجراثيم و الميكروبات فى ماء زمزم و ينفر الناس عن شربه، أن مثل هذا القول يتعارض مع قول رسول الله صلى الله عليه و سلم. و أى مسلم تطيب نفسه أن يعارض النبي الكريم عليه الصلاة و التسليم، فى أقواله الكريمة و أفعاله الشريفة. و فى المبحث السابق أبطلنا تأثير الجراثيم و الميكروبات فى ماء زمزم، فإنه من الجائز أن الله سبحانه و تعالى يجعل فى ماء زمزم خاصية تدفع عنه كل الجراثيم و الميكروبات دفعا قويا سريعا، منذ ظهوره فى أيام إسماعيل عليه السلام، إلى قيام الساعة و الله على كل شىء قدير.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢٠

ففى جميع المخلوقات من الحيوانات و الجمادات، من الحكم و الأسرار ما لا يعلمها إلا الله الواحد القهار. هذا و إننا نشبه قول الأطباء الذين يقولون بوجود الجراثيم و الميكروبات فى زمزم بصفة الدجال الذى أخبرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم عنه. فقد جاء فى أواخر صحيح مسلم فى باب ذكر الدجال أن الدجال يخرج و أن معه ماء و نارا فأما الذى يراه الناس ماء فناره تحرق و أما الذى يراه الناس نارا فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع فى الذى يراه نارا فإنه ماء عذب طيب. ٥١.

نقول: إن هذا الحديث الصحيح هو أعظم امتحان يميز المؤمن من الكافر فى آخر الزمان، فالمؤمن يطأطئ رأسه بإيمان و يقين فى نار الدجال ليجده ماء عذبا باردا، فكذلك المؤمن بقول رسول الله صلى الله عليه و سلم فى ماء زمزم فإنه يشربه و يتضلع منه غير ناظر إلى قول الأطباء بوجود الجراثيم و الميكروبات فيه فاختر لنفسك ما يحلو.

أما التضلع بغير ماء زمزم فإنه يضر، لأن الشرب من المياه العذبة الأخرى يكون بقدر الحاجة، فإن زاد عن الحاجة ضر و لم ينفع، كما هو مجرب واقع معروف لدى جميع الناس، و هذا لا يحتاج إلى دليل و لا برهان و لا تطويل الكلام، و التجربة أكبر برهان لكل إنسان. و الله الموفق للصواب و إليه المرجع و المآب.

و الحمد لله أننا لم نجد فى جميع البلاد و جميع الحجاج فى كل عام من يستمع لقول الأطباء و توهماتهم فى ماء زمزم بل جميع الناس يهجمون على ماء زمزم بإيمان و إخلاص و شوق و رغبة، فيشربون منه ملء بطونهم و يتضلعون منه ملء أضلاعهم ما داموا فى مكة المكرمة.

قال مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردى الخطاط غفر الله تعالى له، فى ماء زمزم و فضله:

زمزم خارج بأمر الله أغاثه لابن خليل الله

و أمه هاجر حين سكنابمكة و بعده زال العنا

و الابن هذا هو إسماعيل ذاك النبي الصادق النبيل

ابن خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة و التسليم

و كان إسماعيل و هو يرضع عند خروج الماء و هو ينبع

قد وصلت حالته من الضرر من عطش في منتهى من الخطر
خافت عليه أمه الموت و لا أنيس و لا وحش لديهم لا و لا
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢١ قامت لتسعى سعيها في الوادي فرما يغيثها منادى
إذ سمعت صوتا كصوت شخص فهرولت تسعى أشد الحرص
فرأت الماء يفور جاريا صارت تحوطه ليبقى باقيا
أخرجه جبريل رفقا بهما صلى عليه ربنا و سلما
في ذلك العهد من الزمان بأمر رب الملك الديان
فشربت هاجر بعد أن سقت وليدها فرويا و فرحت
أغاثها رب العباد المنعم و صانها من الردى المحتم
بذا أتى الحديث في الصحيح فلا تمل عن قولنا الصحيح
و البئر عن محله القديم بقرب بيت ربنا الكريم
لم تنتقل بل هي باق لم تزل فهذه حكمته عز و جل
فماء زمزم تجد فيه الشفا من فاته منه الشراب أسفا
فاشرب بأى نية أردتها فإن شربت صادقا و جدتها
فاشرب هنيئا و تضلع منه بكثرة لتستفيد منه
هذا هو الوارد في الحديث فاسع إليه سعيك الحثيث
فالمؤمن الصادق في الإيمان ينفعه حديث أهل الشان

من تحت بيت الله يأتي الماء لبئر زمزم فنعم الماء
كذاك يأتي الماء من تحت الصفا و أسفل المروة عذبا و صفا
مسافة البيت لبئر زمزم عشرة أمتار أخى فافهم
فهو لذاك أفضل المياه و ليس في ذا مطلق اشتباه
ماء لطيف سائغ شرابه من ذاقه دام له شرابه
فاشرب و اتحف جارك الحبيبا و ضيفك العزيز و القريبا
اشرب و لا تنظر لقول قائل من الأطباء و أهل الباطل
بأن ماء زمزم ملوث بالميكروبات إن زالا يحدث
و بالجراثيم التي فيها ضرر في قولهم هذا عليهم الضرر
إذ أنهم ينفرون الناس من شربه فيهم التباسا
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢٢ أما رسولنا الحبيب المصطفى قد قال ماء زمزم فيه الشفا
ما بعد قول صاحب الشريعة قول فكل قوله خديعة
ما قد سمعنا في العصور الأول من قوله كمثل قول القائل
فاشرب هنيئا منه فهو ماء ما مثله ماء فنعم الماء
فليس في الدنيا كثر زمزم بئر يدانى ماؤها لززم

موضعها في أشرف البقاع يشرب منها الناس بالصواع
 بقرب بيت الله في المطاف فيا لها من شرف الأوصاف
 فشرب زمزم كذا التضلع براءة من النفاق فاسمعوا
 و إنه شاف من الأسقام و مشبع لجائع الطعام
 ياذن رب الملك الكبير و راحم الضعيف و الأمير
 بذا أتى الحديث من خير البشر للمسلمين فاعرفوا هذا الخبر

يا أهل مكة و يا خير الأمم يا من لهم فضل و عز و شمم
 قد أنعم الله عليكم بنعم كثيرة و فيرة و بالكرم
 فبادروا بشكر رب البيت يرزقكم من الحلال البحت
 و بالصبر و الصلاة و الصيام و الحج و الزكاة و القيام
 لكل خير و لكل برفانتموا أهل لكل بر
 و إنما الأعمال بالنيات و إنما الأجر على الثبات
 «و الله لولا الله ما اهتدينا و لا تصدقنا و لا صلينا»
 فامن علينا بالرضا و العافية و العفو و الغفران فهي الشافية
 و اختم حياتنا على الإيمان و العمل الصالح و الإحسان
 و الحمد لله على الختام ثم صلاة الله بالسلام
 على نبينا الحبيب المصطفى و آله و صحبه أولى الوفا
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢٣

بقاء ماء زمزم إلى يوم القيامة

روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن مقاتل عن الضحاک بن مزاحم، قال: إن الله عز و جل يرفع المياه العذبة قبل يوم القيامة، و تغور المياه غير زمزم و تلقى الأرض ما في بطنها من ذهب و فضة، و يجيء الرجل بالجراب فيه الذهب و الفضة، فيقول: من يقبل هذا مني؟ فيقول: لو أتيتني به أمس قبلته. انتهى منه.

تحريم العباس رضي الله تعالى عنه الاغتسال بماء زمزم

روى الإمام الأزرقي في تاريخه، عن زر بن حبیش قال: رأيت عباس بن عبد المطلب في المسجد الحرام و هو يطوف حول زمزم يقول: لا أحلها لمغتسل و هي لمتوضئ و شارب حل و بل، قال سفيان: يعني لمغتسل فيها، و ذلك أنه وجد رجلا من بني مخزوم، و قد نزع ثيابه و قام يغتسل من حوضها عريانا. انتهى منه.
 و معنى: حل، أي: محلل.

نقول: إن العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، قد حرم الاغتسال من ماء زمزم عند ما رأى رجلا عريانا يغتسل منه و هو في داخل المسجد الحرام قريبا من الكعبة المشرفة، و له الحق في ذلك غير أنه على حرمة المسجد الحرام و حرمة الكعبة المشرفة و حرمة فضل ماء زمزم. فهذا التحريم منه على مذهبه الخاص.

والمعتمد عند من أتى بعده من أصحاب المذاهب الأربعة أنه يجوز الاغتسال من ماء زمزم والأولى والأفضل ترك ذلك مراعاة لشرف ماء زمزم وفضله. لا زال ماء زمزم جاريا نابعا إلى يوم القيامة بفضل الله تعالى ورحمته.

سقاية العباس

جاء في كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا ما نصه: سقاية العباس حجرة كبيرة شرقي الكعبة و جنوبي زمزم ذات نوافذ، و سقفها جملي (جملوني) بارز عن جدرها ليستظل به الناس، و قد وصفها الناس في وقته فقال: إنها بيت مربع في أعلاه قبة كبيرة و في جهاتها الأربع عدا الجنوبي منها شباييك من حديد و في جانبها الشمالي من الخارج حوضان بينهما الباب، و في وسط البيت بركة كبيرة تملأ بالماء من زمزم بواسطة قناة سماوية من زمزم إلى جدر البيت ثم يسلك

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢٤

قناة أرضية إلى البركة، فيخرج منها الماء على شكل فوارة و قال: إنها عمرت في سنة ٨٠٧ هجرية. و قد كان العباس بن عبد المطلب يسقى فيها الحجيج، و قد ذكر الناس: أن مقدار ما بين هذه السقاية و الحجر الأسود ثمانون ذراعا بالذراع الحديد ٥٦ سنتيما و سبعا. انتهى من مرآة الحرمين.

جاء في تاريخ الغازي ما نصه: قال العلامة ابن فهد: سقاية العباس كانت بين الركن و زمزم بالقرب من مجلس سيدنا عبد الله بن عباس فأخرها عبد الله بن الزبير إلى موضعها الآن و كانت قبتها من خشب ثم عمرت بالحجر في زمن الخليفة المعتمد أحمد بن المتوكل العباسي في عام تسعة و خمسين و مائتين.

و قال شهاب الدين أحمد بن حسن: عمرها محمد بن هارون بن عباس بن إبراهيم لما حج بالناس من خشب العاج و سقفها به على حكم المقعد الظريف في بيت التبريع مزخرفا بماء الذهب و جعل البركة كلها من رخام منقوش و كتب اسمه في نقش الرخام و استمر بناؤه إلى سنة ثلاثمائة و خمسين، فحج بالناس أحمد بن محمد بن عيسى العباس فهدم ذلك و بناه على أربعة أعمدة مفتحة من سائر الجوانب الأربعة و سقفها بالخشب المذهب و أبقى البركة على بنائها الأصلية و استمر بناؤه إلى سنة ثلاثمائة و ثلاثين و سبعين.

و لما حج بالناس جعفر بن علي بن سليمان العباسي، سقفها لسقوطها و انهدامها و جعلها من حجر و نورة و استمر ذلك إلى سنة أربعمئة و ثلاثين، فحج بالناس عمر بن الحسن و قد انهدم ذلك البناء فبناها كلها على صفة بيت مربع و جعل لها بابان شرقي و غربي و أحسن عمارتها و استمر ذلك البناء إلى سنة خمسماية و عشرين فجددها إبراهيم العباسي.

قال ابن فهد: ثم عمرها الجواد الأصفهاني صاحب الموصل في أول القرن السادس.

قال الفاسي في العقد الثمين: و آخر عهد عمرت فيه هذه السقاية سنة ثمانمائة و سبعة بعد سقوط القبة التي كانت بها و كانت من خشب من عمل الجواد الأصفهاني فعملت من حجر و قد عمرها وزير صاحب الموصل و أم الخليفة الناصر لدين الله العباسي.

قال ابن فهد في لطائفه: المستكفي في سنة خمسماية و تسعة و الملك المظفر عمر في سنة ستمائة و أربع و سبعين و أحمد بن عمر المرجاني في سبعماية و عشرين،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢٥

قال ابن فهد: ثم عمرها محمد بن قلاوون في سبعماية و ستة ثم في زمن الظاهر برقوق في ثمانمائة و سبعة و سبب هذه العمارة سقوط القبة، قال الفاسي: و قد عمرها قايتبائي في سنة ثمانمائة و أربع و سبعين ثم عمرت في سنة ثمانمائة و أربع و تسعين.

قال الشيخ عبد العزيز بن عمر بن فهد في بلوغ القرى: و في يوم الأحد رابع عشر شهر رجب سنة (٨٩٣) ثلاث و تسعين و ثمانمائة شرع في هدم قبة الشراب التي يقال لها قبة العباس. فهدمت إلا الجانب التي يلي بيت الزيت فترك و هدم أيضا الشراريف التي فوق بيت الزيت بل و هدمت الدرجة التي به و هدم جوانب البركة و بعض القائم التي بوسطها و أذيب الرصاص في المسجد الحرام و جعل بين

الحجارة التي في المطاف و ما يتصل به، و في يوم الاثنين خامس عشر الشهر شرع في بنائها و فرغ منها في رمضان و عمل لها بوابة عظيمة مبنية بحجارة صفر منحوتة ملونة من داخلها و خارجها و بوسطها بركة كبيرة و لها شبابيك ثلاثة من حديد و حوضان بيزابيز يشرب منها الأنام و علوها قبة عظيمة شاهقة مستقيمة.

و في شهر رمضان من السنة المذكورة كمل عمل قبة العباسي و تبييضها و أعيدت على هيئته إلا أنها كانت مربعة فجعلت مثنمة و كان بها ستة شبابيك فجعلت أربعة و جعل عند سطحها أربع طاقات للنور و جعل لها شراريف و لم يجعل لبيت الزيت شراريف حتى لا يعلو و صفر جدر البركة ليتسع بطن القبة و لم يقدروا على إعادة بيزابيز الفوارة التي بوسط البركة فإنهم كسروه قصدا و جعل تحت الشباكين اللذين بجنب الباب حوضين بيزابيز يشرب منها الناس و على الأربعة الشبايك التي بالقبة أربعة شبابيك حديد ثم في خلفها أربعة شبابيك خشب للأربعة الطاقات المناور التي في أعلا القبة و في هذا الشهر جعل في زمزم العمودان الرخام و كأنهما دعامة واحدة و يقال إن أحدهما كان بمكة و الآخر جيء به من المدينة. انتهى.

قال في تحصيل المرام: و ممن عمرها بالنورة و أحدث فيها دكة و جدد هلالها الوزير حسن باشا في حال وروده مكة من اليمن قاصدا البلاد الرومية أوسط ربيع الأول سنة مائة و ستة عشرين بعد الألف و بنى قبل هذه السنة مكانا للوقادين بآخر المسجد عند باب بازان ذكره الشيخ خليفه الزمزمي ثم قال: و أما صفتها الآن فهي قبة كبيرة مثنمة إلى نصفها يدخلها الإنسان من باب شامي له عبتان و على يمين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢٦

الداخل دكة كبيرة إلى نصف القبة من دائر و لها شباك غربي و شباك آخر يشرف جهة باب على و بوسطها بركة مثنمة باشرت زرعها بيدي فوجدت طولها خمسة أذرع لإقراطين بالذراع الحديد و عرضها دائر اثنا عشر ذراعا و أربعة عشر قيراطا و عمقها زيادة عن قامه و في وسط البركة عمود يصل إليه الماء من خشبة في زمزم يصب الماء فيها ثم ينزل في حاصل و منه لدليل يحازي بطرف قبة الفراشين إلى باطن العمود المذكور فيفيض الماء فيه و يملأ البركة المذكورة فتدخل الناس و تشرب من البركة بمغاريف انتهى.

و قال الشيخ عبد الرؤوف المنادي: سقايه العباس كانت حياضا بالمسجد الحرام و الآن تسقى في بركة و أصلها بيد قصي ثم لابنه عبد مناف ثم لابنه هاشم ثم لابنه عبد المطلب ثم لابنه عباس ثم لابنه عبد الإله بن عباس ثم لابنه علي و هكذا ثم صارت لغيرهم. و قال الجلال السيوطي في رسالته الأساس في مناقب بني العباس: ثم من بعد علي بن عبد الله صارت لابنه محمد ثم لابنه عبد الإله ثم لابنه المنصور أبي جعفر ثم لابنه المهدي بن عبد الله محمد ثم لابنه أبي جعفر هارون الرشيد إلى أن قال: ثم لابنه الموفق علي إلى أن قال: ثم ليعقوب المقتدر بأمر الله ثم لابنه عز الدين المستنجد بأمر الله. انتهى.

و كانت لهم نواب إلى أن بقيت في ذرية أولاد الشيخ علي بن محمد بن داود البيضاوي المعروفين الآن ببيت الريس، و قد تركت الآن سقايه العباس و صارت الحجاج و الناس يشربون من دوارق و أزيار توضع بالمسجد محبة من أهل الخير.

قال ابن حجر: و سقايه العباس لآل العباس أبدا و كانت لهم نواب. انتهى ما في تحصيل المرام.

و في السالنامة الحجازية: و في سنة ألف و مائتين و تسع و خمسين صدر الأمر من مولانا السلطان عبد المجيد بوضع كتبخانه في المسجد الحرام لأجل أن يراجع فيها العلماء و طلبه العلم و ينتفعون بها و أرسل من دار السلطنة كتبا كثيرة فوضعت في القبة التي في المسجد و كانت تلك القبة تسمى سقايه العباس و جعلوا لتلك الكتب حافظا ناظرا عليها و معه معاونون و رتبوا لهم معاشات جزيلة وافية و أجره مسكن لرئيسهم و تعيينات.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢٧

و كانت المصاحف و الكتب الموقوفة موجودة في زمن الشيخ تابت بن إسماعيل الزمزمي في قبة السقايه في سنة ٨٨٧ سبع و ثمانين و ثمانمائة كما يفهم من عبارة ذكره العلامة الحضراوي رحمه الله في تاج تواريخ البشر و هذه عبارته: نقل الشيخ العارف بالله تعالى أبو

الفتح أحمد بن أبي الفتح الزمزمي في أول ديوان عمه الشيخ ثابت الزمزمي من أنه وقع سيل كبير دخل المسجد الحرام و كان الشيخ بسقاية ثابت بسقاية سيدنا العباس رضى الله عنه على عادة سلفه يرفع المصاحف و الكتب التي كانت موقوفة بالقبه المذكوره فداركه السيل و دخل عليه فيها من الباب و الشباييك و أتلف ما فيها من الكتب و المتاع و دخل زمزم و فاض منها الماء و ذلك في يوم الخميس ليلة الجمعة خامس عشر ذى القعدة الحرام سنه سبع و ثمانين و ثمانمائة. انتهى.

و صدر الأمر أيضا من مولانا السلطان عبد المجيد بوضع ساعات فلكية في المسجد الحرام أرسلت من دار السلطنة في قبه أخرى في المسجد و كانت تلك القبه تسمى قبه الفراشين و أقاموا موقتا لها و معاونوا بمعاشات فحصل من تلك الكتب و الساعات منفعة كثيرة للناس. انتهى.

و في تحصيل المرام: ورد في جمادى الأول سنه ألف و مائتين و ثمانيه و ثمانين خطاب من الدولة العلية إلى سيدنا الشريف عبد الله بن الشريف محمد بن عون لما بلغها من معمر باشا أن هذه القبه أى قبه الكتب و التي بجانبها تمنع مشاهد الكعبه لمن بتلك الجهة فورد ذلك الخطاب بالكشف عن ذلك الأمر فعقد مجلسا على ذلك بيته التي بالغزه و فيه العلماء فأخبروه أن أحد القبب سقاية العباس يعين محلها فقال: نجعل محلها قبه صغيرة على أربعة أعمدة و فيها حوض باسم مولانا السلطان بحيث أن تلك القبه لا تمنع مشاهد البيت لمن بتلك الجهة. فاستحسن ذلك القول فله ما أحسن رأيه الذى وافق على ما كانت عليه في زمن أحمد بن محمد العباسي فكتب بذلك إلى الدولة و لم يأت بعد ذلك خبر بالهدم.

ثم في سنه ثلاثمائة و ألف ورد الأمر بهدمهما و ذلك في سلطنة مولانا المعظم السلطان عبد الحميد بن السلطان عبد المجيد خان و أمير مكة يومئذ الشريف عون بن الشريف محمد بن عون و كان والى الحجاز و شيخ الحرم الوزير المعظم عثمان باشا، فكان ابتداء الهدم بعد صلاة الجمعة اثنا عشر صفر و شاهد الهدم الشريف المومأ إليه و الوزير عثمان باشا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢٨

و ذكر السيد أحمد دحلان في سالنامته: و في سنه ثلاثمائة و ألف هدمت القبتان الكائنتان في المسجد و هما قبه الكتب و قبه الساعات و ذلك لتضيقة المسجد و للخوف من السيل لأنه دخل سنه ثمان و سبعين و مائتين و ألف و حصل تلف في الكتب و وضعت الساعات بمحل عمل بها في هواء المسجد الحرام بين باب على و باب بازان.

و نقلت الكتب في القبه المتصلة بمدرسة السليمانية عند باب دربيه و هذا في مدة إمارة الشريف عون باشا بن المرحوم محمد بن عون و ولاية الوزير المفخم السيد عثمان نوري باشا. انتهى من تاريخ الغازي.

أول من عمل بابا لززم و أعطى مفتاحه لبيت الريس

جاء في تاريخ الغازي: قال الشيخ خليفه بن فرج بن محمد الزمزمي البيضاوي في كتابه «نشر الآس في فضائل زمزم و سقاية العباس» كان بيت زمزم ليس له باب و لا- غلق إنما هو مفتوح لمن دخل و ورد إليها و مع ذلك كان التكلم للجد عليها بطريق النيابة عن الخلفاء العباسيين. فلما صار أمر البير إلى الشيخ عبد السلام بن أبي بكر الزمزمي أنهى بمحضر إلى خليفه ذلك الزمن العباسي بأن زمزم في أوقات الصلاة تكثر فيها الناس و الازدحام فيشوشون على الإمام و المصلين و طالما دخلت الكلاب و البس بالليل فيطرحون فيها و القصد بابا يجعل عليها يمنع ما ذكر.

فأجابه إلى سؤاله و جعل عليها بابا ثم أنه لما صار أمر زمزم بالسقاية إلى ذرية الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام المذكور أنهى إلى خليفه زمنهم المتوكل العباسي أن ييدهم خدمة زمزم و سقاية العباس و القصد أن يجعلوا ضبة على باب زمزم يصكونها الليل و في أوقات الصلاة و أن يكون المفتاح عند الأكبر منهم ثم من ذريتهم فأجابهم خليفه زمنهم بمرسوم شريف عال، و هذه صورته.

رسم بالأمر الشريف العالى المولوى الإمام الأعظم الهاشمى العباسى سيدنا و مولانا الإمام الأعظم و الخليفه المكرم المتوكل على الله

أمير المؤمنين و إمام المسلمين و ابن عم سيد المرسلين و سليل الخلفاء الراشدين و الأئمة المهديين أعز الله به الدين و أمتع ببقائه الإسلام و المسلمين: إنه لما حضر إلى أبوانا الشريفة و أعتابنا العالية المنيفة الشيخ الفاضل سراج الدين عمر بن الشيخ عبد العزيز الزمزمي مفتي مكة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٢٩

المشرفة و القائم عنا بخدمة زمزم الشريفة و سقاية جدنا العباس و عرفنا أن باب زمزم لم يكن عليه ضبة يغلق بها و لا يفتح إلا بعصفور من داخلها يفركه الداخل و الخارج و قصده بوضع الضبة خشية على المكان المشار إليه من دخول ما فيه ضرر على المسلمين مما يحصل منه نجاسات و أن في وضع الضبة نفع من حيث ذلك فأردنا جبر خاطره و إخوته بما قصدوه و الإنعام عليهم مما رجوه من فضلنا و أمولوه و صحبناه مرسوم شريف ثاني إلى مكة المشرفة زادها الله شرفا للجناب العالي و الأميري الكبير مغلباي الأمير بمكة المشرفة و ناظر الحسبة الشريفة عظم الله شأنه بامتثال ما بيد الشيخ عمر المذكور من مرسومنا الشريف المسطور و عدم التعرض له في ذلك و أن يباشر بنفسه وضع الضبة المذكورة هناك و يعمل بيد الشيخ عمر مفتاح و يقيموا من شاءوا من جهتهم من يتولى غلق الباب و فتحه لمن يقصد زمزم فليعتمد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه و يعمل بحسبه و مقتضاه حرر في العشرين من شوال سنة (٨٢٦) ستة و عشرين و ثمانمائة. انتهى.

و فيه أيضا أصل دخول وظيفة زمزم و سقاية العباس على جدنا الأكبر على بن محمد البيضاوي (بيضا أحد بلاد فارس قرية من شيزار) قدم مكة عام ثلاثين و ستمائة و توفي في حادي عشر ربيع الآخر سنة خمس و ثمانين و ستمائة بمكة المشرفة و دفن بالمعلاة. و لما قدم مكة من العراق باشر عن الشيخ سالم بن ياقوت المؤذن خدمة زمزم فلما ظهر له خيره نزل له عنها و زوجته ابنته فولدت منه أولادا و صار لهم أمر البئر و سقاية العباس. انتهى من الغازي.

انظر: صورة رقم ٦٨، المؤلف على باب زمزم قبل هدمه سنة ١٣٦٨ هـ

خلاصة أمر السقاية

و خلاصة الكلام على من تولى سقاية زمزم إلى اليوم هو كما يأتي: جاء في هامش تاريخ الأزرقى بعد الكلام على صفة سقاية العباس: ذكر المؤرخون أنه لما توفي عبد المطلب بن هاشم، تولى أمر السقاية ابنه أبو طالب فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم، فصرفها، و جاء الموسم و لم يكن معه شيء فطلب من أخيه العباس أربعة عشر ألف درهم إلى الموسم القابل، فشرط عليه إذا جاء الموسم و لم يقضه أن يترك له السقاية فقبل ذلك، و جاء الموسم و لم يقضه فترك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣٠

له السقاية، فكانت بيد بني العباس بن عبد المطلب فابنه إلى أن انقضت خلافتهم و هم يضعون عليها نوابهم. قال أيوب صبري: و لما تولى بنو العباس الخلافة، حالت أعمال الملك دون قيامهم بأمر السقاية، فكانوا يعهدون إلى آل الزبير المتولين التوقيت في الحرم الشريف القيام بأعمال السقاية بالنيابة، ثم طلب الزبيريون من الخلفاء العباسيين ترك السقاية لهم، فتركوها لهم بموجب منشور إلا أنه نظرا لكثرة الحجاج قد أشركوا معهم آخرين في العمل باسم «الزمامة» انتهى. قلنا: ثم إن الأتراك العثمانيين أثبتوا آل الزبير في عمل السقاية و لا تزال رآستها بيدهم إلى اليوم، و آل الزبير هؤلاء يعرفون اليوم «بيت الريس» انتهى من هامش تاريخ الأزرقى.

تعمير فم بئر زمزم و وضع الشباك في داخلها بناء تنور بئر زمزم

يقول ابن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى، في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة هجرية عن بناء تنور بئر زمزم و

هو وجه زمزم و فمه الذى يدور عليه ما يأتى:

و من أغرب ما اتفق لأحد دهاة الأعاجم- و هو من ليس من جنس العرب- ذوى الملك و الثراء أنه وصل إلى الحرم الكريم مدة جد الأمير مكتر بن عيسى (و هو الأمير فليته الذى توفى سنة ٥٢٧) فرأى تنور بئر زمزم و قبته على صفة لم يرضها فاجتمع بالأمر و قال له: أريد أن أتأثق فى بناء تنور زمزم و طيه و تجديد قبته و أبلغ فى ذلك الغاية الممكنة و أنفق فيه من صميم مالى و لك فى ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك الغرض المقصود، و هو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة فى ذلك فإذا استوفى البناء التمام و انتهت النفقة منتهاها و تحصلت محصلة بذلك، لك مثلها جزاء على إباحتك لى ذلك. فاهتر الأمير طمعا و علم أن النفقة فى ذلك تنتهى إلى آلاف من الدنانير على الصفة التى وصفها له فأباح له ذلك و ألزمه مقيدا يحصى قليل الإنفاق و كثيره و شرع الرجل فى بنائه و احتفل و استفرغ الوسع و تأثق و بذل المجهود، فعل من يقصد بفعله ذات الله عز و جل و يقرضه قرضا حسنا و المقيد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣١

يسود طواميره بالتقييد و الأمير يتطلع إلى ما لديه و يؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط يديه إلى أن فرغ البناء على الصفة التى تقدم ذكرها أولا عند ذكر بئر زمزم قبته فلما لم يبق إلا أن يصبح صاحب النفقة بالحساب و يستقضى منه العدد المجتمع فيها خلا منه المكان و أصبح فى خير كان و ركب الليل جملا و أصبح الأمير يقرب كفيه و يضرب صدره و لم يمكنه أن يحدث فى بناء وضع فى حرم الله تعالى حادثا يحيله أو نقضا يزيله و فاز الرجل بثوابه و تكفل الله به فى انقلابه و تحسين ما به و ما أنفقتم من شىء فهو يخلفه و هو خير الرازقين و بقى خبر هذا الرجل مع الأمير يتهادى غرابه و عجبا و يدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك. انتهى من رحلة ابن جبير.

قال ابن جبير الأندلسى أيضا فى رحلته التى كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة يصف بئر زمزم حينما وصل إلى مكة فى السنة المذكورة ما يأتى:

و قبة بئر زمزم تقابل الركن الأسود و منها إليه أربع و عشرون خطوة، و المقام المذكور أى مقام إبراهيم عليه السلام، الذى يصلى خلفه عن يمين القبة و من ركنها إليه عشر خطوات «قال ابن جبير قبل هذا الكلام بورقة: الخطوة كلها ثلاثة أشبار» و داخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض، و تنور البئر المبارك فى وسطها مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذى يقابل البيت المكرم و عمقها إحدى عشر قامة حسبما ذرعناه و عمق الماء سبع قامات على ما يذكر و باب القبة ناظر الشرق و باب قبة العباس و قبة اليهودية ناظران إلى الشمال و الركن من الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبة المنسوبة إلى اليهودية يتصل بالركن الأيسر من الصفح الأخير الناظر إلى الشرق من القبة العباسية فبينهما هذا القد من الانحراف و تلى فيه بئر زمزم و من ورائها قبة الشراب و هى المنسوبة للعباس رضى الله عنه، و تلى هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة تنسب لليهودية و هاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف و كتب و أنوار شمع و غير ذلك و القبة العباسية تخل من نسبتها الشرايبية لأنها كانت سقاية الحاج و هى حتى الآن يبرد فيها ماء زمزم و يخرج مع الليل ليسقى الحاج فى قلال يسمونها الدوارق كل دورق منها ذو مقبض واحد و تنور بئر زمزم من رخام قد ألصق بعضه ببعض إصاقا لا تحيله الأيام و أفرغ فى أثنائه الرصاص و كذلك داخل التنور و حفت به أعمدة الرصاص الملتصقة إليه إبلاغا فى قوة لزه و رصه اثنان و ثلاثون عمودا قد خرجت لها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣٢

رؤوس قابضة على حافة البئر دائرة بالتنور كله و دوره أربعون شبرا و ارتفاعه أربعة أشبار و نصف و غلظه شبر و نصف و قد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر و عمقها نحو شبرين و ارتفاعه أربعة أشبار و نصف و غلظه شبر و نصف و قد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها و عمقها نحو شبرين و ارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء و حولها مسطبة دائرة يرتفع الناس إليها و يتوضؤون عليها.

تعمير فم البئر و وضع شباك فى داخلها

قال الغازى فى تاريخه: و فى تاج تواريخ البشر نقلا من كلام الشريسي شارح المقامات (فائدة): بئر زمزم من عند الماء أسفل إلى فوق بالحجر المبلط بالنورة المحكمة و الجبس و من الأرض من محل البنيان إلى المحل الذى يقوم عليه الجابد رخام قائم و فى أعلا هذا البنيان دائر من رصاص أيضا و منه إلى الأرض عمد لطيفة من رصاص لحفظ الرخام لصغره من السقوط فى البئر ثم من محل وقوف الجابد إلى نصف قامته عمد لطيفة من نحاس بين كل واحد فتحه نحو ذراع بطوق دائر عليها من فوق مسبوك فيه رصاص و هذا البناء من عمل الوالى الأجل خوشكلدى فى زمن المرحوم السلطان الأعظم سليمان، عليه رحمة الملك الرحمان، و ذلك فى أوسط سنة (٩٧٣) ثلاثة و سبعين و تسعمائة.

ثم قال: أقول و هذا الذى ذكره قد أزيل و تجدد الدائر و الرصاص برخام و حديد فى زمن مولانا السلطان عبد الحميد خان ثم فى زمن مولانا السلطان عبد المجيد خان عليهما رحمة الرحيم المنان، انتهى ما ذكره الحضراوى.

و فى إتخاف فضلاء الزمن: و فى سنة اثنتا عشر و مائة و ألف عمر إبراهيم بيك دائرة بئر زمزم بالتليس و التبييض خارجا و داخلا ثم غير الرفوف الخارج على بئر زمزم مما يلى مقام الحنبلى و جددوا أخشابه و لبسوها ألواح الرصاص و زينوها بأنواع الدهانات و منها مقام الحنفى نقضوا جميع أخشابه التى على الطبقة العليا محل المكبرين و جددوا ما كان يحتاج إلى التغيير و طلوا حلتها بالذهب و جددوا المقامات و سقاية العباس فإنها خربت من كثرة الأهوية و تطاول السنين و نقضوا القبة جميعها إلى الساسى و جددوها بالحجارة الشمسية و زينوها بأنواع التبييض و جعلوا لها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣٣

خزانتين و فتحوا لها طاقه من الجهة الشرقية و جعلوا لها من باطن الطاقه حوضا للسبيل و رمموا الحاصل الذى ملاصق بالقبة. انتهى.

و قال العلامة الدحلان فى سالنامته: و فى مدة السلطان عبد الحميد الأول فى سنة ألف و مائتين حصل تعمير فى المسجد الحرام بتعديل بعض العواميد المائلة و تعمير بعض القبة التى فى سقف المسجد و تعمير بئر زمزم و تعمير أيضا فى بعض منائر المسجد منها منارة باب العمرة و ذلك كله فى مدة السلطان المذكور و مدة إمارة الشريف سرور بن الشريف مساعد و لذا كتب على بئر زمزم ثلاثة أبيات للعلامة الشيخ محمد طاهر سنبل هى هذه:

سرور لسلطان البرية و الورى عبد الحميد البر بحر المكارم

و نصر له أيضا و فتح و رفعه بتجديد هذا المآثر المتقارم

حضيرة إسماعيل أعنى ابن هاجرو ركضه جبريل على عهد آدم

و مكتوب على الشباك الشرقى مما يلى باب القبة من الجهة الشمالية (ماء زمزم شفاء من كل داء)، و مكتوب أيضا (آية ما بيننا و بين المنافقين أنهم لا- يتصلعون من زمزم)، و مكتوب تحت الحدِيثين السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١، و مكتوب على الشباك الجنوبى مما يلى باب قبة زمزم أيضا (ماء زمزم لما شرب له) (لا يجمع ماء زمزم و نار جهنم فى جوف عبد) السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ هجرية.

و مكتوب على جدار قبة زمزم الشمالية مما يلى الجهة الغربية و سِقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً، و كتب أيضا على حجر قديم ألصق على الجدار الشمالى بقبة زمزم بالخط البارز أمر بترخيم المقام الشريف و هذا الحطيم المعظم السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور خان خادم الحرم الشريف فى سنة أربع و عشرين و سبعمئة. انتهى كذا من تاريخ عمارة المسجد الحرام.

و قال العلامة المذكور أيضا فى سالنامته: صدر الأمر من السلطان أحمد بن السلطان محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثانى بن سليمان الأول بن سليم الأول فاتح مصر بعمل شباك حديد يجعل فى بئر زمزم يمنع الغرق عن وقوع فى البئر المذكورة فجعل على

قدر تدوير البئر و جعل له ست سلاسل و ربطت بالحديد في دائرة البئر الأعلى و جعل الشباك المذكور في داخل البئر و صار الماء فوقه قدر ثلثي

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣٤

قامه فصار من يقع في البئر يمنعه الشباك من الغرق و الهلاك، و قبل وضعه كان من يقع في البئر يغرق و يموت. انتهى.

و من تاج تواريخ البشر و تمته جمع السير: اعلم أنه ورد الأمر السلطاني الأحمدي العثماني على يد الباشا الأعظم حسن أفندي بفعل شباك حديد يمنع ما يطيح فيها من آدمي و غيره فجعل الشباك المذكور في مدة مديدة و جعله من حديد و نحاس ممتدة في بعضه البعض على قدرته و يرغم بئر زمزم المباركة من أسفل بستة سلاسل غلاظ مسبوكة في الحديد الفوقاني الدائر على فمها مشاهدة لكل واحد طول كل واحد منهن اثنين و عشرين ذراعاً و ربع ذراع بذراع اليد و صار الماء طافياً على الشباك المذكور نحو ثلثي قامه و ركب في زمزم المباركة ضحوة يوم الأحد تاسع عشرين من شعبان المعظم سنة ١٠٢٥ خمس و عشرين بعد الألف ثم وقع في رابع عشرى ذى الحجة الحرام سنة سبع و عشرين بعد الألف تغير ماء زمزم من الحديد و النحاس المجعولين في الشباك و السلاسل ثم إذا وقع الدلو أسفل الشباك أمسكه عن أن يصعد فاتفق مجيء الأفندي السيد الشريف محمد بن السيد مصطفى القناوى ليلة من الليالي فأنكر طعم الماء و سأل عن الحال فأخبر بأنه بسبب الشباك و السلاسل و وقع للدلو ما وقع فاشتبك و لم يطلع فعدى إلى الجهة الأخرى فوقع ما أراه الله سبحانه و تعالى كذلك و زاد طعم الحديد و النحاس في الماء فأمر صبيحته بقلعه و إخراجها من زمزم هو و السلاسل و ألقى عند قبة العباس و السلاسل في داخلها مرة من الزمن ثم أخذت و صار الشباك ملقى على حاله إلى الآن و زال ذلك الطعم و تيسر طلوع الدلو و نزوله. انتهى من تاريخ الغازي.

أول من عمل الرخام في زمزم

قال الغازي في تاريخه: و أول من عمل الرخام على زمزم و على الشباييك و فرش أرضها بالرخام أمير المؤمنين أبو جعفر في خلافته ثم عمل المهدي في خلافته ثم غير في خلافة أمير المؤمنين المعتصم سنة عشرين و مائتين و كانت مكشوفة قبل ذلك إلا قبة صغيرة على موضع البئر فغيرها عمر بن فرج فسقف زمزم كلها بالساج المذهب من داخلها و جعل عليها من ظهرها الفسيفساء و أشرع لها جناحاً صغيراً كما تدور بتربيعها و جعل في الجناح كما يدور سلاسل فيها قناديل يستصبح بها في الموسم و جعل على القبة التي بين زمزم و بين الشراب الفسيفساء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣٥

و كانت قبل ذلك تزوق في كل موسم عمل ذلك في سنة عشرين و مائتي سنة. انتهى.

و قال القرشي في البحر العميق: الحجر التي فيها بئر زمزم في زماننا فهو بيت مربع مسقف في جدرانها تسعة أحواض للماء تملأ من بئر زمزم يتوضأ الناس منها و الخلوة التي جانب هذه الحجر عملت على ما هي عليه اليوم في سنة سبعة و ثمانمائة و كانت قبل ذلك على غير هذه الصفة و إنما بنيت الأحواض على هذا الموضع الآن ليتوضأ الناس من البرازيل التي عملت في أسفلها. انتهى.

قبة بئر زمزم

قال الغازي في تاريخه: و قد غيرت قبة زمزم، غيرها السلطان أحمد خان على يد سليمان بيك شيخ الحرم الشريف سنة ألف و اثنين و سبعين. انتهى.

قال صاحب تحصيل المرام: و هي الموجودة الآن في زماننا و هي بيت مربع و في جدرانها ثمانية شباييك ثلاثة مواجها الكعبة و ثلاثة

جهة المدرج واثان بجانب الباب و الباب في وسط و في هذين الشباكين حوضان تملآن من زمزم للشراب و فوق قبة البير بيت آخر مقام على أعمدة لشيخ زمزم أي: رئيس المؤذنين يصعد إليه بدرج من جهة مقام الحنبلى فيطلع رئيس المؤذنين و هو شيخ زمزم ليؤذن و يتبعه سائر المؤذنين في جميع الأوقات.

قال: و قد جدت في زماننا شبابيك بيت زمزم و رخام أرضها و أصلح فمها و الدرابين الذى على فم البير كل ذلك على يد سيدنا الشريف عبد الله بن الشريف محمد بن عون و الحاج عزت باشا فى سلطنة السلطان عبد العزيز خان و كان ذلك العمل فى سنة ألف و مائتين و تسعة و سبعين. انتهى.

و قال السنجارى فى منائح الكرم: و فى سنة ثمانمائة و سبعة عشر عمرت ظلّة المؤذنين التى فوق زمزم، و كانت من خشب فبنيت بالحجر الصوان و فرغ منها فى رجب من العام المذكور. انتهى من تاريخ الغازى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣٦

الغرفة التى بجوار زمزم

جاء فى تاريخ الغازى: قال فى نزهاء الفكر: نقل ابن فهد أن الخلوّة التى بجانب زمزم كان يجلس فيها سيدنا عبد الله بن العباس، رضى الله عنه، و أيضا التقى الفاسى ذكر مثله بقوله: و فى المحل الذى بجانب زمزم و هى الخلوّة كان يجلس فيها الحبر سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما على مقتضى ما ذكره الأزرقى و الفاكهى. و قيل: إنها محل سقاية العباس و إنما حولها عن هذا المكان ابن الزبير لما كثر الناس و قيل بناه المهدي لابنته زبيدة تكون به إذا أرادت الشرب من زمزم و الغسل فيه ذكره المراكشى فى الروض الجامع. انتهى.

و فى الأرجح المسكى: أفاد التقى الفاسى أنه كان إلى جانب زمزم خلوّة فيها بركة للماء تملأ من زمزم و يشرب بها من دخل إلى الخلوّة و كان لها أى الخلوّة باب إلى جهة الصفا ثم سد و جعل فى موضع الخلوّة بركة مقبوة و فى جدرها الذى يلي الصفا بزاييز يتوضأ الناس منها على أحجار نصبت عند البزاييز و فوق البركة المقبوة خلوّة فيها شباك إلى الكعبة المشرفة و شباك إلى جهة الصفا و طابق صغير إلى البركة و كان عمل ذلك على هذه الصفة فى سنة سبع و ثمانمائة ثم إنه هدم ذلك حتى بلغ الأرض فى العشر الأول من ذى الحجة الحرام سنة سبع عشرة و ثمانمائة لما قيل إن بعض الجهلة يستنجى هناك و عمر عوض ذلك سبيل السلطان الملك المؤيد أبى النصر شيخ ينتفع الناس بالشراب منها و جاءت عمارته حسنة و فرغ منها فى رجب سنة ثمانية عشر و ثمانمائة و ابتدأ عمله فى أثر سفر الحج و فى موضع هذه الخلوّة كان يجلس سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، على مقتضى ما ذكره الأزرقى و الفاكهى قلت: و هذه الخلوّة التى أشار إليها السبيل المعروف الآن بسبيل الخاصكية. انتهى.

و فى تاريخ عمارة المسجد الحرام للشيخ باسلامة أمر جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل السعود أن يعمل على حسابه الخاص سبيلان أحدهما بالجهة الشرقية مما يلي باب قبة زمزم على الجناح الجنوبية، و الثانى بجوار حجرة الأغوات من الجهة الجنوبية لبيت زمزم بجانب السبيل القديم على نحو السبيلين اللذين سيعملان باسمه الخاص فعمل السبيل الذى بجوار باب قبة زمزم بالحجر الرخام المرمر و جعل له ستة فوهات و عمل السبيل الثانى بجوار حجرة الأغوات

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣٧

و جعل له ثلاث فوهات و جدد عمارة السبيل القديم و قد كتب على السبيل الأول هذا السبيل أنشأه الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود. و كتب على الثانى أنشأ هذا السبيل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود و كتب على الذى يليه جدد هذا السبيل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود و تم إنشاء السبيل الذى يلي حجرة الأغوات سنة ١٣٤٥، و تم عمل السبيل الذى يلي باب قبة زمزم سنة ١٣٤٦.

انتهى.

وصف بئر زمزم في عصرنا

أما بئر زمزم في عصرنا الحاضر، فهو كما يصفها الشيخ حسين باسلامة المكي رحمه الله تعالى، مؤلف «تاريخ عمارة المسجد الحرام» بصحيفة ١٨١ فقد قال فيها ما نصه:

أما حالة بئر زمزم التي عليها اليوم فهو بئر مدور الفوهة عليه قطعة من الرخام المرمر على قدر سعة فمه و يبلغ ارتفاعها عن بلاط الأرض التي حول البئر من داخل القبلة ذراعين و نصف ذراع اليد أو ١٢٠ سنتم تقريبا و أرض بيت زمزم و داخل قبة زمزم مفروش بالرخام الأبيض و يحيط بقم البئر من أعلاه دريزين معمول من الحديد التخين و فوق الدر بزین شبكة من حديد وضعت فوق ذلك الدريزان سنة ١٣٣٢ و كان السبب في وضعها هو أن رجلا من الأفغان ألقى بنفسه في بئر زمزم فلما أخرج اهتتمت الحكومة التركية لذلك الحادث و خشيت من تكراره فارتأت أن تعمل حائلا يمنع من أراد أن يلقي نفسه في البئر فتقرر عمل الشبكة المذكورة وقاية لذلك و وضعت بسرعة و قد شاهدت ذلك بنفسى.

و أما البناء القائم على بئر زمزم فهو بناء مربع الشكل من الداخل طول كل ضلع منه أحد عشر ذراعا بذراع اليد و سطح البئر مغموس بالحجر و النورة و في الجهة الشرقية باب قبة زمزم و على جناح الباب الشمال طاقة عليها شباك تخين و كان في جدار الطاقة سبيل قديم ثم أبطل عمله و كذلك على جناح الباب الجنوبي طاقة عليها شباك تخين و كان أيضا في جدار الطاقة سبيل قديم قد أبطل عمله من الجهة الشمالية ثلاث منافذ عليها ثلاثة شبايك لكل منفذ شباك، و من الجهة الغربية مما يلي الكعبة المعظمة ثلاث منافذ و لكل منفذ شباك تخين و على نحو نصف سطح البئر من الجهة الغربية المقابلة للكعبة المعظمة مظلة قائمة على أربع يتر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣٨

بنيت في النصف الأمامي من سطح البئر و على أربع أساطين لطاف وضعت اثنان منها على جدار البئر الأمامي مما يلي الكعبة المعظمة و اثنان على حد منتصف سطح البئر من الجهة الشرقية، و أما نصف السطح الشرقي فهو شمس ليس عليه ما يظله و فوق هذه المظلة الأمامية سقف معمول من الخشب القوى و فوق السقف جملون مصفح بألواح من الرصاص على شكل بديع و يحيط بالظلة من جهاتها الثلاث:

الشمالي و الغربي و الجنوبي خمسة شبايك أحدها من جهة الشمال و ثلاثة من الجهة الغربية و واحد من الجهة الجنوبية و ذلك معمول من السلك الحديد الدقيق و المظلة مدهونة بصباغ أخضر.

و هذه المظلة خاصة برئيس الموقتين الذى يبلغ المؤذنين الأذان في الأوقات الخمسة و هم على منابر المسجد الحرام السبعة المحاطة به، و هو أيضا يبلغ عموم المبلغين في الصلاة الجمعة و العيدين و يبلغ كل إمام يؤم الناس خلف مقام إبراهيم في بعض الصلوات الخمس و هذه العائلة يطلق عليها (آل الرئيس) و رئيسها الحالى الشيخ عبد العزيز بن على ريس.

و من ضمن بيت زمزم حجرة واقعة في الجهة الجنوبية تابعة لأغوات الحرم يضعون فيها أدوات تنظيف صحن المطاف المدار المرصوف بالحجر الصوان الذى عليه المقامات الثلاثة و كذلك الشموع (الشماعدين) التى توضع كل ليلة على باب الكعبة من الغروب إلى بعد صلاة العشاء و من الفجر إلى الإسفار و غير ذلك من لوازمهم و بجانب حجرة الأغوات المذكورة باب الدرجة المصعدة إلى المظلة التى يعلو بئر زمزم.

قال: و مما هو جدير بالذكر أنه قد أمر جلالة ملك المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل السعود أن يعمل على حسابه الخاص سيلاين أحدهما بالجهة الشرقية مما يلي باب قبة زمزم على الجناح الجنوبية، و الثانى بجوار حجرة الأغوات من الجهة الجنوبية لبيت زمزم بجانب السبيل القديم المعمول فى زمن سلاطين آل عثمان و أن تجدد عمارة السبيل القديم

على نحو السيلين اللذين سيعملان باسمه الخاص و قام بهذا العمل الشيخ عبد الله الدهلوى فعمل السيل الذى بجوار باب قبة زمزم بالحجر الرخام المرمر على شكل بديع الصنع و جعل له ستة فوهات و عمل السيل الثانى بجوار حجرة الأغوات كذلك بشكل بديع و جعل له ثلاث فوهات و جدد عمارة السيل القديم و عمله بشكل بديع يماثل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٣٩

الذى بجواره و قد كتب على السيل الأول الذى يلى باب زمزم هذا السيل أنشأه الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود، و كتب على الذى يلى حجرة الأغوات أنشأ هذا السيل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود، و كتب على الذى يليه جدد هذا السيل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود، و كانت هذه الكتابة بخط عربى بديع بارز قد خطت بعلو كل سيل من هذه الثلاث و طلى ذلك بالذهب و الألوان البديعة و صارت هذه السبل الثلاثة سهلة لمن يريد شرب ماء زمزم من الحجاج و المواطنين و المجاورين آناء الليل و أطراف النهار و قد صرف على إنشائها ما يربو على ثلاثمائة جنيه ذهب و تم إنشاء السيل الذى يلى حجرة الأغوات سنة ١٣٤٥ و تم عمل السيل الذى يلى قبة زمزم سنة ١٣٤٦. انتهى من تاريخ عمارة المسجد الحرام.

نقول: و لقد حصلت بنائية جديدة صغيرة أمام باب بئر زمزم و فى جزء من جانيه، و هى عبارة عن جدران مسقوفة، فيها فتحات بشبابيك من الحديد ليستظل الشاربون تحتها و موضوع فى جانيها عدة بزاييز «حنفيات» يشرب الناس منها ماء زمزم. قد عمل الدرج الموصل إلى أعلا البئر من الخارج بعد أن كان قبل ذلك فى أصل البناء القديم و له باب.

و كانت هذه البنائة الجديدة الصغيرة سنة (١٣٧٤) أربع و سبعين و ثلاثمائة و ألف.

صورة رقم ٦٩، المؤلف فوق مظلة بئر زمزم الجديد قبل هدمها فى سنة ١٣٨٣ هـ

ثم إنه فى عام ١٣٨٣ هـ. هدموا بنائة زمزم لتوسعة المسجد الحرام، و أزالوا قسم البئر و غطوه حتى يتساوى بأرض المطاف، ثم فتحوا بابا آخر للبئر من الجهة الشمالية من أسفل الأرض، و ما زال العمل جاريا إلى اليوم.

ما جاء من الأحاديث فى زمزم

لقد وردت فى ماء زمزم عدة أحاديث، فرأينا أن نقلها مما جمعه الحضراوى فى كتابه «العقد الثمين فى فضائل البلد الأمين» فإنه قال فى الفصل السادس ما يأتى:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤٠

اعلم أن العلماء رحمهم الله تعالى أجمعوا على أن ماء زمزم أفضل من جميع المياه على الإطلاق إلا الماء الذى نبع من بين أصابعه صلى الله عليه و سلم، كما هو مقرر فى أماكنه. فعن أم أيمن حاضنة رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه صلى الله عليه و سلم ما اشكى جوعا قط و لا عطشا، كان يغدو إذا أصبح، فيشرب من ماء زمزم شربة فربما عرضنا عليه الغداء فيقول: أنا شعبان، رواه القرشى، و عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ماء زمزم لما شرب له، فإن شربته تستشفى شفاك الله، و إن شربته مستعيذا أعاذك الله، و إن شربته لتقطع ظمأك قطعه، ذكره القرشى أيضا، و كان ابن عباس رضى الله عنهما إذا شرب زمزم قال: اللهم أسألك علما نافعا و رزقا واسعا و شفاء من كل داء، رواه الحاكم فى المستدرک و هذا لفظه و الدار قطنى. قال ابن العربى:

و هذا موجود فيه إلى يوم القيامة، يعنى العلم و الرزق و الشفاء لمن صفت نيته و سلمت طويته و لم يكن به مكذبا، و لا يشربه مجربا، فإن الله مع المتوكلين و هو يفضح المجرمين، و فى حديث إسلام أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: إنها مباركة، إنها طعام طعم، رواه مسلم و أبو داود و زاد: و شفاء سقم. و عن عبد الله ابن المؤمل عن ابن الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «زمزم لما شرب له» أخرجه أحمد و ابن ماجه و البيهقى.

و روى أن عبد الله بن المبارك أتى زمزم فاستسقى منه شربة ثم استقبل الكعبة فقال: اللهم إن أبا الموالى، حدثنا عن محمد بن

المنكدر عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ماء زمزم لما شرب له وهذا أشربه لعطشى يوم القيامة ثم شرب»، أخرجه الحافظ شرف الدين الدمياطي وقال: إنه على رسم الصحيح، وفي مناسك ابن العجمي والبحر العميق للقرشي نقلا عنه ينبغي لمن أراد شربه للمغفرة أن يقول عند شربه: اللهم إنه بلغني أن رسولك صلى الله عليه وسلم قال: «ماء زمزم لما شرب له، اللهم وإني أشربه لتغفر لي اللهم فاغفر لي». وإن شربه للاستشفاء به من مرض قال:

اللهم إني أشربه مستشفيا به، اللهم فاشفني. وذكر القرشي حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاء إلى زمزم فنزعوا له دلوا فشرب ثم مچ في الدلو ثم صبوه في زمزم ثم قال: «لولا تغلبوا عليها لتزعت يدي» رواه الطبراني وغيره.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق» رواه الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤١

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يجتمع ماء زمزم و نار جهنم في جوف عبد أبدا» رواه الشيخ محب الدين الطبري وغيره، ويروى أن مياه الأرض العذبة ترفع قبل يوم القيامة غير زمزم، حكاه القرشي، وفي الصحيح أنه لما قدم أبو ذر ليسلم أقام ثلاثين بين ليلة و يوم و ليس له طعام إلا زمزم، فسمن حتى تكسرت عكن بطنه، و لم يجد على بطنه سخفه جوع. وقيل لابن عباس رضي الله عنهما: أين مصلى الأخيار؟ قال: تحت الميزاب، قيل له: و ما شراب الأبرار؟ قال: ماء زمزم. رواه الحسن البصري، و عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الحمه من فيح جهنم فأبردوها من ماء زمزم» رواه أحمد و أبو بكر بن أبي شيبة و ابن حبان في صحيحه و انفرد به البخارى بإخراجه و قال: فأبردوها بماء أو بماء زمزم.

وعن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فرج سقفي بيتي و أنا بمكة فتزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلى حكمة و إيمانا فأفرغهما في صدرى ثم أطبقه». رواه البخارى، و عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خمس من العبادة: النظر إلى المصحف، و النظر إلى الكعبة، و النظر إلى الوالدين، و النظر في زمزم و هى تحط الخطايا، و النظر إلى وجه العالم» رواه الفاكهي.

و عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خير بئر على وجه الأرض ماء زمزم. أخرجه ابن حبان و الطبري بسند رجاله ثقات، و عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يتحف الرجل سقاه من ماء زمزم. رواه الحافظ شرف الدين الدمياطي و قال: إسناد صحيح.

و عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تحمل ماء زمزم و تخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحمله. رواه الترمذى.

و عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن في زمزم عينا من الجنة من قبل الركن. رواه القرطبي في التفسير و في مناسك ابن الحاج. قال ابن شعبان: العين التى تلى الركن من زمزم من عيون الجنة، و عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم قال: كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما فجاء رجل فقال: من أين جئت؟ قال: من زمزم، قال فشربت منها كما ينبغي؟ قال: فكيف؟ قال: إذا شربت منها فاستقبل القبلة و اذكر اسم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤٢

الله تعالى و تنفس ثلاثا و تضلع فإذا فرغت فاحمد الله عز و جل فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: آية ما بيننا و بين المنافقين لا يتصلعون من زمزم. رواه ابن ماجه و هذا لفظه و الدار قطنى و الحاكم فى المستدرک و قال: إنه صحيح على شرط الشيخين. و التضلع: الإمتلاء حتى تمتد الأضلاع. و المراد من التنفس ثلاثا: أن يفصل فاه عن الإناء مرات يتددى كل مرة بيسم الله و يختم بالحمد لله. هكذا جاء مفسرا فى بعض الطرق.

و عن السائب أنه كان يقول: اشربوا من سقاية العباس فإنه من السنة. رواه الطبراني فى الكبير و حكاه ابن المنذر فى الترغيب.

و عن أبي الطفيل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا نسميها شباعة يعنى زمزم و كنا نجدها نعم العون على العيال. رواه الطبراني

فى الكبير و هو موقوف صحيح الإسناد.

و يجوز إخراج مائها و غيره من مياه الحرم و نقله إلى جميع البلدان. لما روى أن النبى صلى الله عليه و سلم كتب إلى سهيل بن عمرو يستهديه من ماء زمزم فبعث إليه براويتين.

رواه الأزرقي و القرشى و تقدم حديث عائشة رضى الله عنها، أنها كانت تحمل ماء زمزم و تخبر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يحمله. رواه الترمذى، و يجوز التوضؤ و الاغتسال من غير كراهة فيه و يكره الاستنجاء به لأنه يجلب داء البواسير. و من عجائب ماء زمزم أنه يذكر بعض العامة أن من كان أكلًا يشرب منه و يتضلع و فى نفسه يقول: يا زمزم زمى فإنه يقل أكله و يستريح جسمه و يستفيق فى نفسه و هو مجرب. انتهى كل ذلك من العقد الثمين.

صورة رقم ٧٠، دوارق زمزم

و بمناسبة الحديث «ماء زمزم لما شرب له» و ما ورد عن زمزم أنه طعام طعم و شفاء سقم. أن أحد أطباء الإفرنج ألف كتابا فى عصرنا الحاضر يقول فيه:

إذا اقتصر الإنسان المريض بالروماتزم و غيره على شرب الماء فقط بدون طعام و لا شراب أبدا بحيث لا يدخل فى جوفه سوى الماء لمدة عشرين يوما أو لمدة أربعين يوما فإنه يشفى بإذن الله تعالى من جميع الأمراض التى يشكو منها، و بشرط أن يتعاطى المسهل فى كل خمسة أيام مرة، فإذا انتهت المدة المذكورة و أراد أن يأكل فلا بد أن يأكل تدريجيا قليلا قليلا جدا فى كل مرة، لأن الصائم على هذه الحالة تكون أمعاؤه شبه ضامرة و ضعيفة، فليقتصر لمدة أيام على السوائل:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤٣

كعصير الفواكه و الشوربات، فإذا اشتدت قوة معدته بعد أيام فليأكل ما شاء حسب عادته و ذلك بعد اطمئنان على قوة صحته. و لقد أخبرنا من جرب هذا ممن نثق فى كلامه أنه صام على هذه الحالة فشفى من أمراض كثيرة بإذن الله تعالى، و الله على كل شىء قدير فإذا كان هذا الاقتصار على الماء العادى فقط، فالشفاء محقق إن شاء الله تعالى مع الاقتصار على ماء زمزم، شراب الأبرار، و هذا الذى ينبع من تحت أرض الكعبة المشرفة فنحن نعتقد اعتقادا جازما أن الاقتصار على ماء زمزم فقط مدة أسبوعين أو ثلاثة يشفى من الأمراض و العلل مهما كانت عسيرة، أى أن المريض يتعاطى ماء زمزم فقط، بدون أن يخلط معه شيئا من أنواع الطعام و الفواكه لا قليلا و لا كثيرا حتى أنه لا يتعاطى الخبز أيضا إذ ربما بعض الأطعمة لا تتفق مع المرض فى الحالة كالطبيب الذى يعطى الدواء للمريض و يمنعه من بعض الأطعمة و الفواكه. و الله تعالى أعلم و هو الشافى بدون دواء إذا شاء و هو اللطيف الخبير.

صورة رقم ٧١، أحد الزمامة يحمل دورقين مملوئين من ماء زمزم

طعم ماء زمزم

يذكر الناس أن ماء زمزم فيها ملوحة، و نحن نقول: أن ماء زمزم له طعم خاص غير طعم جميع مياه الدنيا، لذلك من ألف شربه و عرف طعمه يميزه عن بقية المياه سريعا و لو مرت عليه أعوام عديدة لم يذقه، و الحقيقة أنه يصعب وصف طعمه، فلا هو بالمالح الممجوج و لا هو بالمالح الممزوج، لا يعرفه إلا من ذاق طعمه بنفسه. نعم فيه ملوحة خفيفة لكنها مستملحة مقبولة محببة إلى نفس المؤمن، و فى هذه الملوحة سر إلهى دقيق. و هو أن هذه الملوحة الخفيفة يعود طعمه للمؤمنين الموقنين حلوا لذيذا سائغا شرابه كطعم اللبن الحليب تقريبا، و لذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما عن ماء زمزم: أنه شراب الأبرار.

و قد تكون هذه الملوحة الخفيفة على من كان شاكا فيه ضعيف الإيمان ماء أجاجا لا يستسيغ شربه فتعافه نفسه و لا يشربه، و لذلك قال صلى الله عليه و سلم: «آية ما بيننا و بين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم» و قال أيضا: «إن التضلع من ماء زمزم علامة ما بيننا و بين المنافقين».

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤٤

و من اللطائف قول العلامة الشيخ محمد بن علان في ملحوظة زمزم:

و زمزم قالوا فيه بعض ملحوظة منه مياه العين أحلى و أملح

فقلت لهم قلبي يراها ملاحفة فلا برحت تحلو لقلبي و تملح

و من اللطائف ما رواه الغازي في تاريخه عن ملحوظة ماء زمزم فإنه قال: قال العلامة السنجاري رحمه الله تعالى في منائح الكرم-

لطيفة- ذكر العلامة الباغوني أنه كتب لوالده يسأله عن تعليل ملحوظة زمزم، فأجابته و ذكر ذلك في أبيات، قال:

سألت أبا العباس و الديق الذي على فهمه في المشكلات يعول

سؤالاً لطيفاً قد تعسر فهمه على إلى أن خلته لا يؤول

فقلت أطال الله عمرك في الوري و أبقاك في عز به الخير موصل

تفكرت يا مولاي في بير زمزم بمكة أرض فخرها لا يمثل

و كون ما فيها من الماء مالحاً على أنها من سائر الماء أفضل

و قلت له: هل من جواب مبين و هل عندكم فيه مقال فينقل

فإنى لقلّ اتبعت فكري له فماظفرت بما فيه يقال و ينقل

فإن كان فيه عندكم من لطيفة بروحي أفديكم على تفضلوا

و منّوا بإبداء الجواب تكرماً و فضلاً كما عودتموني عجلوا

فقال أمد الله في عمره على البديهة قولاً للجواهر يخجل

نعم عندنا فيه الجواب و إنه لكالسحر أو كالدر أو هو أمثل

جواب غداً مثل النسيم لطافة أزال عن الأفهام ما كان يشكل

فلا تعجبوا منه فذلك ظاهر كشمس الضحى يبدو لمن جاء يسأل

فمكة عين الأرض و العين ماؤها كما قد علمتم مالحاً ليس يجهل

كيفية شرب النبي صلى الله عليه و سلم من ماء زمزم

قال الإمام الأزرقى في تاريخه: حدثنا أبو الوليد، قال: أخبرني جدى قال حدثنا مسلم بن خالد الزنجى عن عبد الرحمن بن الحارث بن

عباس عن زيد بن على

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤٥

عن أبيه عن عبد الله بن أبي رافع عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، فى حديث حدث به عن النبي صلى الله عليه و سلم ثم أفاض

رسول الله صلى الله عليه و سلم فدعا بسجل من ماء زمزم فتوضأ به ثم قال: انزعوا عن سقايتكم يا بنى عبد المطلب فلولا أن تغلبوا

عليها لنزعت معكم.

حدثنى جدى قال: أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج قال: أخبرنى ابن طاوس عن طاوس قال: أمر النبي صلى الله عليه و سلم

أصحابه أن يفيضوا نهاراً و أفاض فى نسائه ليلاً فطاف بالبيت على ناقته ثم جاء زمزم فقال: ناولونى فنول دلوا فشرّب منها ثم تمضمض

فمخ فى الدلو ثم أمر بما فى الدلو فأفرغ فى البير ثم قال: لولا أن تغلبوا عليها لنزعت معكم، قال ابن جريج: أخبرنى من سمع طاوساً

يقول: جاء النبي، صلى الله عليه و سلم زمزم فقال: ناولونى فنول دلوا فشرّب منها ثم تمضمض ثم مخ فى الدلو ثم أمر بما فى الدلو

فأفرغ في البير ثم قال نحو ما قال ابن طاوس في النزع، ثم مشى إلى السقاية سقاية النبيذ ليشرب فقال العباس: إن هذا قد ساطته الأيدي منذ اليوم وقد أنفل و في البيت شراب صاف، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرب إلا منه، فعاد عباس لذلك القول فأبى النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرب إلا- منه حتى عاد عباس ثلاث مرات فأبى النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرب إلا منه فسقى منه قال: فكان طاوس يقول: الشرب من النبيذ من تمام الحج، قال ابن جريج: وأخبرني ابن طاوس عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب من النبيذ و من ماء زمزم و قال: لولا أن يكون سنة لنزعت، قال ابن عباس: ربما فعلت أي ربما نزعت.

حدثنا ابن جريج أيضا عن عطاء قال: رأيت عقيل بن أبي طالب شيخا كبيرا يفتل الغرب، و كانت عليها غروب و دلاء، فرأيت رجلا منهم بعد ما معهم مولى، في الأرض يلقون أرديتهم فينزعون في القمص حتى أن أسافل قمصهم لمبتلة بالماء، فينزعون قبل الحج و أيام منى و بعده. قال ابن جريج: و أخبرني حسين بن عبد الله بن عباس عن داود بن علي بن عبد الله بن عباس، أن رجلا نادى ابن عباس و الناس حوله فقال: سنة تتبعون بهذا النبيذ أم هو أهون عليكم من العسل و اللبن؟ فقال ابن عباس: جاء النبي صلى الله عليه وسلم عباسا فقال: اسقونا، فقال: إن هذا شراب قد مغث و مرث أفلا نسقيك لبنا و عسلا؟ فقال: اسقونا مما تسقون منه الناس، قال: فأتى النبي صلى الله عليه وسلم و معه أصحابه من المهاجرين و الأنصار بعساس النبيذ، فلما شرب النبي صلى الله عليه وسلم عجل قبل أن يروى فرغ رأسه فقال: أحستتم هكذا اصنعوا،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤٦

فقال: ابن عباس: فريضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أحب إلينا من أن تسيل شعابنا علينا لبنا و عسلا، قال ابن جريج قال عطاء: فلا يخطنني إذا أفضت أن أشرب من ماء زمزم، قال: و قد كنت فيما مضى أنزع مع الناس الدلو التي أشرب منها اتباع السنة فأما مذ كبرت فلا أنزع، ينزع لى فأشرب و إن لم يكن لى ظمأ اتباع صنيع محمد صلى الله عليه وسلم قال: فأما النبيذ فمرة أشرب منه و مرة لا أشرب منه.

حدثني جدى قال: حدثنا سفيان عن ابن طاوس عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أفاض في نسائه ليلا و طاف على راحلته يستلم الركن بمحجنه و يقبل طرف المحجن، ثم أتى زمزم فقال: انزعوا فلولا أن تغلبوا عليها لنزعت، فقال العباس، رضى الله عنه: إن يفعل فربما فعلت فداك أبي أمى، ثم أمر بدلو فنزع منها فشرب فمضمض ثم مج في الدلو و أمر به فأهريق في زمزم ثم أتى السقاية فقال: اسقوني من النبيذ، فقال عباس: يا رسول الله إن هذا شراب قد مغث و ثفل و خاضتته الأيدي و وقع فيه الذباب و في البيت شراب أصفى منه، قال: منه فاسقنى، يقول ذلك ثلاث مرات، و أعاد النبي صلى الله عليه وسلم قوله ثلاث مرات كل ذلك يقول: منه فاسقنى، فسقاه منه فشرب، قال ابن طاوس: فكان أبى يقول: هو فى تمام الحج.

حدثني جدى قال: حدثنا ابن عيينة عن عاصم الأحول عن الشعبي عن ابن عباس قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم نزع له دلو من ماء زمزم فشرب قائما.

حدثني جدى قال حدثنا ابن عيينة عن مسعر بن عبد الجبار بن وائل بن حجر عن أبيه، أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بدلو من ماء زمزم فاستثر خارجا من الدلو و مضمض ثم مج فيه، قال مسعر: مسكا أو أطيب من المسك.

حدثني جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان قال: أخبرني حنظلة بن أبي سفيان الجمحي أنه سمع طاوسا يقول: أتى النبي صلى الله عليه وسلم السقاية فقال: اسقوني، فقال عباس: إنهم قد مرثوه و أفسدوه أفاسقيك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اسقوني منه فسقوه منه ثم نزعوا له دلو فغسل فيه وجهه و تمضمض فيه فقال: أعيدوه فيها، ثم قال: إنكم على عمل صالح لولا أن يتخذ سنة لأخذت بالرشاء و الدلو.

حدثني جدى عن عبد المجيد عن عثمان بن الأسود عن مجاهد عن ابن عباس قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة زمزم، فأمر بدلو فنزعت له من البير فوضعها على شفة البير ثم وضع يده من تحت عراقى الدلو ثم قال: بسم الله ثم كرع فيها فأطال ثم

أطال فرفع رأسه فقال: الحمد لله، ثم عاد فقال: بسم الله

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤٧

ثم كرع فيها فأطال و هو دون الأول، ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله ثم كرع فيها فقال، بسم الله فأطال و هو دون الثاني، ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله ثم قال، صلى الله عليه و سلم: علامة ما بيننا و بين المنافقين لم يشربوا منها قط حتى يتصلعوا. انتهى كل ذلك من الأزرقى.

مميزة ماء زمزم

أما ميزته فقد ميزه الله تعالى بطعم عجيب لذيذ، يعرفه من ذاقه و لو نقل من بلد إلى بلد بخلاف المياه الأخرى. فمن عجيب أمره: أنه ألد ما يكون و أطعم ما يكون في الفجر و عند نزحه من البئر و الشرب من نفس الدلو، فإنه يكاد يكون طعمه كطعم اللبن الحليب، و أن طعمه يختلف باختلاف بعض العوامل، فمثلاً: طعمه من الدلو حال خروجه من البئر غير طعمه من الدوارق و القليل إذا برد فيها، و طعمه فيها غير طعمه بوضع الثلج فيه، و من عجيب أمره: أن الإنسان إذا شرب منه كثيراً حتى تضلع و امتلأ بطنه في الصباح الباكر قبل أن يأكل شيئاً فإنه يلين بطنه كالشربة الخفيفة، و إذا ملأ بطنه في الصباح من ماء آخر حصل له الضرر، و من عجيب أمره أيضاً: أن الصائم بمكة يشتهي ماء زمزم شهوة قوية و تنفذ رائحته في أنفه قبل الإفطار، و ما أحلى الإفطار في رمضان بالمسجد الحرام على التمرة و ماء زمزم.

روى عن أبي الطفيل قال: سمعت ابن عباس يقول: كانت تسمى في الجاهلية شباغة- يعني زمزم- و يزعم أنها نعم العون على العيال. و من ميزة ماء زمزم بقاؤه إلى قيام الساعة. فقد روى الإمام الأزرقى في تاريخه عن الضحاك بن مزاحم: إن الله تعالى يرفع المياه العذبة قبل يوم القيامة و تغور المياه غير زمزم، و تلقى الأرض ما في بطنها من ذهب و فضة و يجيء الرجل بالجراب فيه الذهب و الفضة فيقول: من يقبل هذا مني؟ فيقول: لو أتيتني به أمس قبلته. انتهى.

الحكايات الواردة عن بعض الناس عن شربهم لماء زمزم

و بمناسبة طعم ماء زمزم و لذته نروى بعض ما جاء من الحكايات:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤٨

جاء في العقد الثمين في فضائل البلد الأمين حكي الياغى عن بعض الصالحين أنه قال: بينما أنا جالس عند الكعبة إذ جاء شيخ قد شال ثوبه على وجهه و دخل إلى زمزم، فاستقى بركوة كانت معه و شرب، فأخذت فضلته و شربت، فإذا هو ماء مخلوط بعسل لم أذق أطيب منه، قال: فالتفت لأنظره فإذا هو قد ذهب، قال: ثم عدت من الغد فجلست عند البئر و إذ الشيخ قد أقبل، و ثوبه مسدول على وجهه، فدخل من باب زمزم، فاستقى دلوا و شرب. فأخذت فضلته فشربت فإذا لبن ممزوج بسكر لم أذق شيئاً أطيب منه. انتهى. نقول: إن مثل هذه الحكاية لا تستبعد أن تقع لبعض عباد الله الصالحين، فإن بعض الأمور الغريبة لا تقع لعامة الناس و إنما تقع للخواص.

و لقد وقع لنا من ماء زمزم أمر عجب، و ذلك أنه كانت إقامتنا بجدة في سنة (١٣٥١) إحدى و خمسين و ثلاثمائة و ألف، و في خامس ذى الحجة من السنة المذكورة خرجنا من جدة مع بعض الرفاق محرمين بالحج، و لقد كنت أنا مؤلف هذا الكتاب محموماً في الطريق، فلما وصلنا مكة نزلنا في بيت من البيوت، فطلبت أن يؤتى لى بماء زمزم فى زير صغير، فأحضروا لى زمزم بعد العشاء فشربت منه و أبقيت الباقي لأشربه فى الصباح، ثم إنى قمت قبيل الفجر من النوم، فشربت من ماء زمزم حتى رويت لكنى وجدت حلاوة فى طعمها ما لم أجده قط فيها، و لم يتكرر لى هذا الحال فى زمزم إلى اليوم.

و الظاهر و الله تعالى أعلم أن هذا الحال لا- يكون مع كل أحد، و لا يكون في كل وقت، بل في وقت دون وقت، و كل ذلك تبع لتصحيح النية و قوة الإيمان «و لله خرق العوائد».

و مما يحكى: ما جاء في رسالته «الجوهر المنظم في فضائل ماء زمزم» عن عبد الرحمن بن يعقوب قال: قدم عليه شيخ من هرات يكنى بأبي عبد الله، و كان شيخ صدق قال: دخلت المسجد الحرام في السحر فجلست إلى زمزم فإذا الشيخ قد دخل من باب زمزم و قد سدل ثوبه على وجهه، فأتى البئر فنزع بالدلو فشرب فأخذت فضلته فشربتها فإذا سويق لوز لم أذق قط أطيب منه. ثم التفت فإذا الشيخ قد دخل فأتى البئر فنزع بالدلو فشرب فشرب فضلته فإذا ماء مضروب بعسل لم أذق أطيب منه، فأخذت بلحفته فلففتها على يدي و قلت: يا شيخ بحق

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٤٩

هذه البنية عليك من أنت؟ قال: تكتم عنى حتى أموت؟ قلت: نعم! قال: أنا سفيان بن سعيد الثوري.

و في الجوهر المنظم أيضا: ما أخرجه الأزرقى من أن أبا ذر الصحابي رضى الله تعالى عنه قال: لما قدمت مكة مكثت أربعة عشر يوما بلياليها و ما لى طعام و لا شراب إلا ماء زمزم حتى تكسرت عكن بطني و ما أجد على كبدي سخفه جوع يعنى رقه و هزاله و قيل: هى الخفة التى تعترى الإنسان إذا جاع و العكنة الطى الذى فى البطن من السمن. انتهى من الجوهر المنظم.

نقول: و قد ورد فى العقد الثمين أنا أبا ذر أقام ثلاثين يوما، و نص عبارته:

و فى الصحيح أنه لما قام أبو ذر ليسلم أقام ثلاثين بين ليلة و يوم و ليس له طعام إلا زمزم فسمن حتى تكسرت عكن بطنه و لم يجد على بطنه سخفه جوع. انتهى.

و جاء فى تاريخ الغازى: قال الواقدى: و حدثنا عبد الملك بن وهب عن عطاء بن أبى هارون قال: رأيت الرجل من أصحاب الزبير و ما يستطيع أن يحمل السلاح كما يريد و ما كانوا يستغيثون إلا بززم. انتهى. و ذلك أن الأسعار غلت بمكة فى حصار عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، و قد تعب من كان معه حتى بلغ بهم من الجوع أنهم لا يقدرون على حمل سلاحهم.

و جاء فى صحيح مسلم فى كتاب فضائل الصحابة فى باب فضائل أبى ذر، عن أبى ذر رضى الله عنه قال: لما سمعت خبر النبى صلى الله عليه و سلم أتيت مكة فسألت عن مكانه فمال على أهل الوادى و كانوا يضربونى حتى خررت مغشيا على ففررت منهم و اختفيت بين أستار الكعبة، فرأيت فى بعض الليالى رسول الله يطوف فحيته تحية الاسلام فقال: «مذ متى كنت هنا» قلت: مذ ثلاثين يوما، قال:

«فمن كان يطعمك» قلت: ما كان لى طعام إلا ماء زمزم، فقال عليه الصلاة و السلام: «إنها مباركة إنها طعام طعم يعنى زمزم».

و فى الجوهر المنظم أيضا: و ما أخرج الأزرقى أيضا عن بعض العبّاد من الرعاة أنه كان إذا حصل له ظمأ، و شرب من ماء زمزم وجد الماء لبنا، و إذا أراد أن يتوضأ وجده ماء.

و فيه أيضا و ما أخرجه الأزرقى عن بعض الموالى أنه قال: كنت مع أهلى بالبادية فابتعت بمكة ثم أعتقت فمكثت ثلاثة أيام لا أجد شيئا آكله، فانطلقت إلى زمزم فبركت على ركبتي مخافة أن أستقى و أنا قائم، فيرفعى الدلو من الجهد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥٠

فجعلت أنزع قليلا حتى أخرجت الدلو فشربت فإذا أنا بصريف اللبن فقلت:

لعلى ناعس، فضربت بالماء على وجهى، و انطلقت و أنا أجد قوة اللبن و شبعه.

و معنى صريف اللبن ساعة يصرف عن الضرع. و أخرجه أيضا عن عكرمة بن خالد قال: بينما أنا ذات ليلة فى جوف الليل عند زمزم جالس إذا بنفر يطوفون عليهم ثياب لم أر بياضها بشىء قط. فلما فرغوا صلوا قريبا منى فالتفت بعضهم فقالوا لأصحابهم: اذهبوا بنا نشرب من شراب الأبرار، و دخلو زمزم، فقلت: لو دخلت على القوم فسألتهم، فدخلت: فإذا ليس فيها من البشر أحد، نفعنا الله من بركاتهم فى الدارين بجاه سيد الكونين.

و مثله ما جاء في تاريخ الغازي ما نصه: و في تاريخ الأزرقى عن عكرمة بن خالد قال: بينما أنا ليلة في جوف الليل عند زمزم جالس إذ نفر يطوفون، عليهم ثياب بيض، لم أر بياضا أبيض من ثيابهم شيء قط. فلما فرغوا صلوا قريبا مني فالتفت بعضهم فقال لأصحابه: اذهبوا بنا نشرب من شراب الأبرار، قال: فقاموا فدخلوا زمزم، فقلت و الله لو دخلت على القوم فسألتهم، فقلت، فدخلت: فإذا ليس فيها أحد من البشر.

و عن رباح مولى لآل الأحنس أنه قال: أعتقني أهلى فدخلت من البادية إلى مكة، فأصابني بها جوع شديد حتى كنت أكون الحصا ثم أضع كبدى عليه، قال: فقلت ذات ليلة إلى زمزم، فنزعت، فشربت لبنا كأنه لبن غنم مستوجمة أنفاسا. انتهى منه. و فيه أيضا: ما نقله الفاسى عن الفاكهى: أن رجلا- شرب سويقا و كان فى السويق إبرة فنزلت فى حلق الرجل و اعترضت و صار لا يقدر يطبق فمه فأتاه آت قال له: اذهب إلى زمزم، فاشرب من مائها، و أسأل الله الشفاء. فدخل إلى زمزم، فشرب منها و ما ساغه إلا بعد جهد و مشقة من ألم تلك الإبرة ثم خرج و هو على تلك الحالة فأنتهى إلى أسطوانة من أساطين المسجد و استند إليها فغلبته عيناه فنام ثم انتبه من نومه و لم يجد من ذلك الألم شيئا. انتهى من الجوهر المنظم.

إهداء ماء زمزم

لما كان لماء زمزم من الفضل و المنافع ما هو مشهور معروف لدى الناس، فقد قال صلى الله عليه و سلم فيه: «إنه طعام طعم» كما فى حديث أبى ذر فى صحيح مسلم و من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥١

طريق آخر: «و شفاء سقم» و قال: «ماء زمزم لما شرب له» كما فى مستدرک الحاكم. صار الحجاج يحملونه من هدايا لأهلهم و أولادهم و لمن يحبونه و ليس فى هذا بأس بل هو من أفضل الهدايا، ففى الحديث أن النبى صلى الله عليه و سلم كان إذا أراد أن يتحف الرجل بتحفة سقاه من ماء زمزم، و أنه صلى الله عليه و سلم بعث إلى سهيل بن عمرو يستهديه من ماء زمزم، فبعث إليه براويتين و جعل عليهما كراغوطيا (الكر بضم الكاف و تشديد الراء جنس من الثياب الغلاظ منسوبة إلى غوطه دمشق) و أن عائشة رضى الله عنها، حملت من ماء زمزم فى قوارير و قالت: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم حمله فى الأداوى و القرب (أخرجه الترمذى فى جامعهم، الأداوى تفتح الألف و الواو المقصورة: جمع إداوة بكسر الهمزة و هى المطهرة).

و روى أن كعب الأبحار حمل من ماء زمزم اثنى عشر راوية إلى الشام، و الراوية كما جاء فى المصباح: البعير أو البغل أو الحمار الذى يستقى عليه. ٥١.

فعلم مما تقدم أن ما يحمله الحجاج من ماء زمزم إلى بلادهم و يهدونه لأهلهم و أصدقائهم ليس فيه شيء بل هو مطلوب و مرغوب، لكن نحب أن يحمله الحجاج فى أوانى لا- يتغير فيها ماء زمزم كالزجاج، أما ما يحملونه منه فى نحو علب الصفيح «أى التنك» فإن ذلك يضر بشاربه إذا مكث الماء فيها أياما حيث يتغير طعمه و لونه من الصدأ الناشئ من الصفيح، ففى هذه الحالة يحصل منه ضرر لشاربه، بل إذا تحقق حصول الضرر يحرم شربه، فليتنبه إخواننا الحجاج إلى هذا الأمر المهم.

أسماء زمزم

ذكر بعضهم لزمن أكثر من ثلاثين إسما، و إطلاق أى اسم عليها يكون بحسب صفتها و نعتها، كشباعة العيال، و شراب الأبرار، و حفيرة العباس، و هذا ناتج عن كثرة حبهم لزمن. قال الشاعر:

و اعلم بأن كثرة الأسماء دلالة أن المسمى سام

و المشهور من الأسماء: زمزم، و هو أول اسم لها فإنها لما انبعثت من تحت قدمى إسماعيل بضربة جبريل، عليهما السلام، و رأتها أمه

«هاجر» جعلت تحوط عليه و تقول: «زَمْي زَمْي» وهذا هو الأصل في تسميتها «بزمزم».

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥٢

و من أسمائها الشهيرة: هزْمَةُ جبريل، لأن جبريل ضرب بجناحه مكان زمزم، فخرج الماء لإسماعيل و أمه.

و من أسمائها الشهيرة: شراب الأبرار، و ذلك أن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: صلوا في مصلى الأخيار و اشربوا من شراب الأبرار.

ف قيل: ما مصلى الأخيار؟ قال: تحت الميزاب، قيل: و ما شراب الأبرار؟ قال: ماء زمزم.

و قد نظم بعضهم جملة من أسماء زمزم فقال:

لزمزم أسماء أتت و هى برء و سيدة بشرى و عصمة فاعلم

و نافعة مضمونة عونى الورى و مروية سىا و ظبية فافهم

و هزْمَةُ جبريل و هزمته كذامباركة أيضا شفاء لا سقم

و مؤنسة ميمونة حرميه و كافيء شباعه بتكرم

و مغذية عدت و صافية غدت و سالمه أيضا طعام لا طعم

شراب لأبرار و عافية بدت و طاهرة تكتم فأعظم بزمزم

غور زمزم و قياس ذرعه

قال الإمام الأزرقى: كان ذرع زمزم من أعلاها إلى أسفلها ستين ذراعا، و فى قعرها ثلاث عيون: عين حذاء الركن الأسود، و عين حذاء

أبى قبيس و الصفا، و عين حذاء المروة. ثم كان قد قل ماؤها جدا حتى كانت تجم فى سنة ثلاث و عشرين و أربع و عشرين و مائتين،

قال: ف ضرب فيها تسعة أذرع سحافى الأرض فى تقوير جوانبها. ثم جاء الله بالأطار و السيول فى سنة خمس و عشرين و مائتين فكثر

ماؤها، و قد كان سالم بن الجراح قد ضرب فيها فى خلافة الرشيد هارون أمير المؤمنين أذراعا و كان قد ضرب فيها فى خلافة المهدي

أيضا. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم؛ ج ١-٢؛ ص ٥٥٢

كان عمر بن ماهان- و هو على البريد و الصوافى- فى خلافة الأمين محمد بن الرشيد قد ضرب فيها و كان ماؤها قد قل حتى كان

رجل يقال له: محمد بن مشير من أهل الطائف يعمل فيها، فقال: أنا صليت فى قعرها، فغورها من رأسها إلى الجبل أربعون ذراعا،

ذلك كله بنيان و ما بقى فهو جبل منقور و هو تسعة و عشرون ذراعا، و ذرع حبك زمزم فى السماء ذراعان و شبر، و ذرع تدوير فم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥٣

زمزم أحد عشر ذراعا، و سعة فم زمزم ثلاثة أذرع و ثلثا ذراع، و على البير ملبن ساج مربع فيه اثنتا عشرة كرة يستقى عليها.

و أول من عمل الرخام على زمزم و على الشباك و فرش أرضها بالرخام أبو جعفر أمير المؤمنين فى خلافته ثم عملها المهدي فى

خلافته، ثم غيره عمر بن فرج الرخجى فى خلافة أبى إسحاق المعتصم بالله أمير المؤمنين سنة عشرين و مائتين، و كانت مكشوفة قبل

ذلك إلا قبة صغيرة على موضع البير و فى ركنها الذى يلى الصفا على يسارك كنيسة على موضع مجلس ابن عباس، رضى الله عنه،

غيرها عمر بن فرج، فسقف زمزم كلها بالساج المذهب من دخلها و جعل عليها من ظهرها الفسيفساء و أشرع لها جناحا صغيرا كما

يدور تريعتها، و جعل فى الجناح كما يدور سلاسل فيها قناديل يستصبح فيها فى الموسم، و جعل على القبة التى بين زمزم و بين بيت

الشراب الفسيفساء، و كانت قبل ذلك تزوق فى كل موسم عمل ذلك كله فى سنة عشرين و مائتين. انتهى من الأزرقى.

قال القزوينى فى كتابه: «عجائب المخلوقات» عن بئر زمزم بعد أن ذكر سبب خروجها لأجل إسماعيل، عليه الصلاة و السلام. و قال

محمد بن أحمد الهمداني: كان ذرع زمزم من أعلاها إلى أسفلها أربعين ذراعا و فى قعرها عيون تجرى: عين حذاء الركن الأسود، و

عين حذاء أبى قبيس و الصفا، و عين حذاء المروة. ثم قل ماؤها فى سنة أربع و عشرين و مائتين فحفر فيها محمد بن الضحاك تسعة

أذرع فزاد ماؤها ثم جاء الله تعالى بالأمطار والسيول في سنة خمس وعشرين ومائتين فزاد ماؤها وذرعا من رأسها إلى الجبل المنقور فيه أحد عشر ذراعا وسعة فمها ثلاثة أذرع وثلثا ذراع، وعليها ميلان من ساج مربعة فيها اثنا عشرة بكرة يستقى عليها، وأول من عمل عليها الرخام وفرش به أرضها المنصور.

وقال مجاهد: ماء زمزم إن شربت منه تريد شفاء، شفاك الله تعالى، وإن شربته لظمًا، أرواك الله، وإن شربته لجوع، أشبعك الله. وقال المسعودي: وإن ملوك الفرس يزعمون أنهم من أولاد الخليل من سبي بني إسرائيل وكانوا يحجون البيت ويطوفون تعظيما لجدهم، وكان آخر من حج منهم أردشير بن بابك، طاف بالبيت وزمزم على البئر، وزمزمه المجوس قراءتهم عند صلواتهم وطعامهم. انتهى من الكتاب المذكور.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥٤

ذرع بئر زمزم

قال الغازي في تاريخه: وفي تحصيل المرام قال الأزرقى: كان ذرع زمزم من أعلاها إلى أسفلها ستين ذراعا وفي قعرها ثلاث عيون، عين حذاء الركن الأسود، وعين حذاء أبي قبيس والصفاء، وعين حذاء المروة، ثم كان قد قل ماؤها جدا حتى كادت تجم فضررب فيها تسعة أذرع سحافي الأرض في تقوير جوانبها، قال:

فغورها من رأسها إلى الجبل أربعون ذراعا كل ذلك ببيان وما بقى فهو جبل منقور وهو تسعة وعشرون ذراعا، قال: و ذرع حنك زمزم في السماء ذراعان وشبر، و ذرع تدوير فم البير أحد عشر ذراعا وسعة فم زمزم ثلاثة أذرع و ثلثا ذراع.

وقال المرحوم إبراهيم رفعت باشا في كتابه مرآة الحرمين ما نصه: بئر زمزم تقع جنوبى مقام إبراهيم بحيث إن الزاوية الشمالية الغربية من البناء القائم عليها محاذية للحجر الأسود على بعد (١٨) مترا منه، وماؤها طعمه قيسونى والبناء القائم عليها مربع من الداخل طول ضلعه (٥، ٢٥) أمتار وهو مفروش بالرخام، وهذا البناء طبقتان: فى الأولى منها خدمه البئر، وفى الثانية خدمه من الخصيان (الأغوات) و يصعد إليه من يريد الاستحمام على سلم من الخشب.

وهى بئر قديمة العهد ترجع إلى زمن إسماعيل عليه السلام، فإن أمه هاجر لما نزلت به فى مكان البيت و ظمى ولدها إسماعيل طلبت الماء فلم تجده، فجاء جبريل عليه السلام، و بحث الأرض بعقبه- وفى رواية غمزها بعقبه و كلتاها فى صحیح البخارى- فنبع الماء على وجه الأرض، فكان ذلك نشأة زمزم، و أدارت هاجر عليه حوضا خيفة أن يفوتها الماء قبل أن تملأ قربتها، قالوا: و لو تركت لكنت زمزم عينا تجرى على وجه الأرض، على ما ورد فى الصحيح. و ذكر الفاكهى ما يدل على أن إبراهيم عليه السلام، حفر بئر زمزم بعد أن نبعت العين. و إذ ذاك بدأت عمارة مكة و لم يكن لأحد فيها قبل ذلك قرار فسكنتها قبيلة جرهم رغبة فى مائها، و قد غلب ذو القرنين إبراهيم على زمزم ردحا من الزمن و ما زال ماؤها ينتفع به سكان مكة حتى استخفت جرهم بحرمه الكعبة و حرمها فدرس موضعه حتى صار لا- يعرف، و قيل إن جرهما طمست البئر حين نفيت من مكة، و لما كان زمن عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه و سلم، أرى فى المنام مكان زمزم فاستبانها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥٥

و حفرها قبل مولد النبى صلى الله عليه و سلم و بعد مدة طويلة أخذ ماؤها يقل حتى كان ينقطع فى سنة ٢٢٣ هـ. لأن البئر أهملت و هدم كثير من جوانبها، فأخذ رجل من أهل الطائف يقال له محمد بن مشير يعمل فيها.

قال الأزرقى: و قد صليت فى قعرها: و فيه ثلاث عيون: عين حذاء الركن الأسود، و عين حذاء أبي قبيس و الصفاء، و عين حذاء المروة، قال: و كان ذرع غورها من أعلاها إلى أسفلها ٦٩ ذراعا، منها ٤٠ مبنية و ٢٩ نقر فى الجبل من أسفلها، قال التقى الفاسى: و قد قيس بحضورى ارتفاع فم البئر عن سطح الأرض و قطره و محيطه فكان الارتفاع ذراعين إلا ربعا و القطر أربعة و نصفا و المحيط خمسة

عشر ذراعا إلا قيراطين و ذلك بذراع الحديد ٧/١، ٥٦ سنتيما. قال التقى الفاسي - أوائل القرن التاسع -: و زمزم الآن داخل بيت مربع في جدرانها تسعة أحواض للماء تملأ من بئر زمزم ليتوضأ الناس منها، و في الحائط المقابل للكعبة شبابيك، و فوق هذا البيت ظلّة للمؤذنين و لم أدر من أقام ذلك على هذه الصفة. ثم ذكر أنه في سنة (٨٢٢) هـ أجرى إصلاح كبير بل عمارة جديدة في هذا البيت و أحواضه و الظلّة التي فوقه للمؤذنين و أن ذلك كان على نفقة الجنب العالى الكبير الشيخ على بن محمد بن عبد الكريم الجيلاني نزيل مكة.

و في سنة ٩٣٣ هـ عمل لدائر بيت زمزم طراز مذهب و كتب فيه اسم مولانا السلطان الملك المظفر سليمان نخبة آل عثمان. و في سنة ٩٤٨ هـ جدد بيت زمزم على يد الأمير خشقلدى فرخمت أرضه و جعل عليه سقف فوقه مظلة مسقوفة بالخشب المزخرف عليه جملى (جملون) و في وسطه قبة مصفحة بالرصاص.

و في سنة ١٠٢٠ هـ وضع بأمر السلطان أحمد خان شبكة من الحديد بداخل البئر و منخفضة عن سطح الماء بمترا، لأن بعضا من المجاذيب كانوا يلقون أنفسهم فيها ليموتوا فداء حسب تصورهم و تجد الآن - ١٣١٨ - مكتوبا على الشباك الشمالى من جهة الباب: «ماء زمزم شفاء من كل داء»، «آية ما يننا و بين المنافقين أنهم لا يتصلعون من زمزم» السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ هـ. و تجد مكتوبا على بابها ما يأتي:

سرور لسلطان البسيطة و الورا عبد الحميد البر بحر المكارم
و نصر له أيضا و فتح و رفعة بتعمير هذا المأثر المتقادم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥٦ حفيرة إبراهيم يوم ابن هاجرو ركضة جبريل على عهد آدم و على الشباك القبلى «ماء زمزم لما شرب له. لا يجمع ماء زمزم و نار جهنم في جوف عبد» (السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ هـ). انتهى من مرآة الحرمين.

الحفر في قعر زمزم إذا قل ماؤها

مما يستحسن تعهد قعر بئر زمزم بالتنظيف و إخراج الأتربة منها إذا قل ماؤها بين آونة و أخرى خصوصا إذا مرت سنوات عديدة عليها، ففي ذلك فائدتان:

تنظيف محلها و جوانبها، و تصفية مائها و غزارتها، فبئر زمزم شأنها شأن الآبار الأخرى فيما يحدث لها و إن كانت تفضلها جميعا. قال الإمام الأزرقى في تاريخه: ثم كان قد قل ماؤها جدا حتى كادت أن تجم في سنة ثلاث و عشرين و أربع و عشرين و مائتين، فضرب في جنبها تسعة أذرع سحافى الأرض في تقوير جوانبها ثم جاء الله بالأمطار و السيول في سنة خمسة و عشرين و مائتين فكثر ماؤها، و قد كان سالم بن الجراح قد ضرب فيها في خلافة هارون الرشيد أذراعا، و ضرب فيها في خلافة المهدي، و كان عمر بن ماهان قد ضرب فيها و كان ماؤها قد قل حتى كان رجل يقال له محمد بن مشير من أهل الطائف يعمل فيها، فقال: أنا صليت في قعرها.

و قال الغازى في تاريخه: و قال العلامة الحضراوى رحمه الله تعالى في تاج تواريخ البشر: و في شهر رمضان سنة (١٠٢٨) ثمان و عشرين بعد الألف وقع في بئر زمزم أحجار كثيرة من الجهة الشامية و الغربية مما فوق الماء و تحته و تغير طعم زمزم التغير الكثير و زادت ملوحته الزيادة الكثيرة الشديدة مع رزنه و قلّة القدرة على إساغته فتصدى لإصلاح هذا الأمر و القيام به شيخ الحرم المكى و هو الآغا حسين الحبشى، رحمه الله تعالى بعد أن عرض هذا الأمر على مولانا السيد الشريف إدريس بن الحسن، فحضر شيخ الحرم المذكور يوم الاثنين رابع شهر شوال و حاكم البلد و المهندسين و نزل المعلم و ابتداء في عمارتها بعد ضحوة نهار يوم الاثنين المذكور و تم البناء يوم سادس عشر شوال فما باشر الماء جعل رضما من غير جبس و لا نورة و ما لم يباشر الماء جعل بالنورة و الجبس.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥٧

وقال الغازي في تاريخه: وفي سنة ثمان وستين بعد الألف قلّ ماء زمزم في شهر القعدة الحرام ثم في شهر ذي الحجة إقلالاً زائداً ولم يكن يطلع سوى الطين في الدلو ثم نزلوها وحفروا فيها المرة بعد المرة وتكرر ذلك المرات الكثيرة وصارت في الموسم تغلق ليلاً لأجل أن تجم شيء من النهار لأجل الحجاج ويكاد يقل في النهار ثم ينزلونها ويزيلوا ما فيها من الطين وغيره وتغلق من الصباح إلى الظهر ومن العصر إلى العشاء ومنه إلى شروق الشمس ومع هذه فلا تجم إلا بالقليل وما رجعت بعادتها الأولى إلا بعد مضي المحرم ولم يعهد ولم يعرف وقوع هذا الحال قط فيها بل كان يكثر الماء فيها خصوصاً في زمن الموسم ويفيض جداً مع كثرة الجبد عليها والنزح منها ولم يكن بها إقلالاً أبداً إلا في هذه السنة، ذكره الفاضل العلامة خليفة بن أبي الفوز بن محمد الزمزمي الشافعي البيضاوي في كتابه نشر الآس في فضائ زمزم وسقاية العباس كذا في نزهة الفكر. انتهى من الغازي. ومعنى قوله: أن تجم أي: تجتمع.

حوض زمزم في عهد ابن عباس

قال الإمام الأزرقى في تاريخه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى قال:

أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج قال: قال لى عطاء: وإنما كانت سقائتهم التي يسقون بها، قال: كان لزمن حوضان في الزمان الأول، فحوض بينها وبين الركن يشرب منه الماء، وحوض من ورائها للوضوء، له سرب يذهب فيه الماء من باب وضوئهم من البير قال الخزاعي: وفي ذلك يقول الشاعر:

كأنى لم أظن بمكة ساعة ولم يلهنى فيها ربيب منعم

و لم أجلس الحوضين شرقى زمزم وهيهات أنى منك لا أين زمزم

قال: ولم يكن عليها شباك حينئذ قال: وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يسقى في دار الندوة، فأرسل إليه ابن عباس، رضى الله عنه، أن ليس ذلك لك فقال:

صدق. فسقى حينئذ بالمحصب ثم رجع فسقى عنى، قال مسلم بن خالد: كان موضع السقاية التي للنبذ بين الركن وزمزم مما يلي ناحية الصفا فنحاهما ابن الزبير إلى موضعها الذي هي فيه اليوم. وقال غير واحد من أهل العلم من أهل مكة:

كان موضع مجلس ابن عباس في زاوية زمزم التي تلى الصفا والوادي وهو على يسار من دخل زمزم، وكان أول من عمل على مجلسه القبة سليمان بن علي بن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥٨

عبد الله بن عباس، وعلى مكة يومئذ خالد بن عبد الله القسرى عاملاً لسليمان بن عبد الملك ثم عملها أمير المؤمنين أبو جعفر في خلافته، وعمل على زمزم شباكاً ثم عمله المهدي وعمل شباكاً زمزم أيضاً، فعمل في مجلس ابن عباس كنيسة ساج على رف في الركن على يسارك. أخبرني جدى قال: أول من عمل القبة، التي على الصخرة التي بين زمزم وبين بيت الشراب، المهدي في خلافته عملها لهم أبو بحر المجوسى النجار كان جاء به عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس إلى مكة من العراق، فعمل له سقوفاً في داره التي عند المروة وباب داره، سنة إحدى وستين ومائة، قال أبو محمد الخزاعي: سمعت شيخاً قديماً من أهل مكة يذكر أن المهدي ومن كان أشار عليه بعملها إنما تحروا بها موضع الدوحة التي أنزل إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه هاجر تحتها فبنيت هذه القبة في موضع الدوحة والله عز وجل أعلم.

انتهى من الأزرقى.

كان ماء زمزم إلى سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة فيها نوع من الملوحيه و شىء من الثقل ما كنا نعلم سببه، فلما قررت الحكومة العربية السعودية توسعة المسجد الحرام، و ابتدؤا فى هدم المنازل المحيطة به من جهة المسعى فى سنة (١٣٧٥) هـ، ثم بدؤا فى السنة التى بعدها أى سنة (١٣٧٦) هـ فى وضع أساسات البنيان من المروة إلى الصفا، بل إلى ما فوق الصفا إلى باب الوداع، انقطعت الصلة تماما بحفر الأساسات إلى عمق كثير، بين المنازل القديمة و آثارها و بين المسجد الحرام، فعندئذ بدأ ماء زمزم فى الحلاوة و الصفاء، حلاوة محسوسة ملموسة ظاهرة كالشمس.

و ذلك لأن البيوت و المنازل القديمة المحيطة بالمسجد الحرام، كان فيها بيوت الخلاء و المطاهر، و هذه ليست لها مجارى لتصريف القاذورات إلى خارج مكة، و إنما العادة عندنا فى مكة أن تحفر فى أرض كل بيت حفرة تتجمع الفضلات فيها، ثم فى كل عام أو عامين يأتون بعمال ينحون هذه الفضلات فيخرجونها إلى مكان آخر، فى حفرة يحفرونها أمام المنازل و البيوت ثم يطمرونها بالتراب.

فبيوت الخلاء فى المنازل القديمة التى كانت محيطة بالمسجد الحرام من الجهة الشرقية، و الميضأة التى كانت بقرب المسجد الحرام فى أول أجياد، و الميضأة التى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٥٩

كانت بقرب باب على من أبواب المسجد، و الميضأة التى كانت فى باب السلام من أبواب المسجد أيضا، و وجود الفرع الثانى من بير يا خور التى تتجمع فيها فضلات بعض البيوت فتجرى من شارع المسعى بجوار المسجد الحرام إلى أن تخرج من آخر المسفلة، كل هذه الميضآت و بيوت الخلاء و بير يا خور كانت مياهها تتسرب من جوف الأرض و تختلط طبعاً بماء زمزم، فكان ذلك سبباً قويا فى تغيير طعم ماء زمزم.

فلما هدمت هذه المنازل و البيوت و الميضآت و بير يا خور التى كانت تجرى تحت الأرض بعمق عشرة أمتار و رفعت أنقاض هذه المحلات و نظفت و حفرت أراضيها إلى عمق كثير و دكت دكا جيدا لبناء أساسات توسعة المسجد الحرام، انقطعت صلة بئر زمزم بهذه المحلات بتاتا، و انعدمت المياه التى كانت تتسرب إليها من هذه الجهة انعداماً كلياً. كل ذلك كان فى سنة (١٣٧٦) ست و سبعون و ثلاثمائة و ألف هـ. فصارت ماء زمزم حلوة نظيفة و صارت هذه الحلاوة فيها ملموسة لكل الناس، حتى صار بعضهم يظن إذا شرب ماء زمزم أنها خلطت بالماء العادى و ليس كذلك، فالحمد لله رب العالمين على هذه النعمة الكبرى.

و يمكن لنا أن نستنتج من هذا الأمر: أن ماء زمزم فى بدء أمرها حينما أخرجها جبريل عليه السلام لإسماعيل و أمه هاجر منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، لا يبعد أن تكون أعذب و أصفى ماء فى الدنيا على الإطلاق لتقوم لهما مقام الطعام و الشراب حيث لم يبق لديهما ماء و لا طعام، ثم طرأ فيما بعد على هذه البئر المباركة ما يطرأ على مثلها، فتغير طعمها عما كانت عليه فى بدء أمرها، فإن جرهما لما استخفت بحرمة البيت انقطع ماء زمزم ثم طمرت و درس موضعه، ثم إن عمرو بن مضاض الجهمى بعد أن لم يستمع قومع لكلامه و وعظه عمد إلى الغزالين من الذهب و الأسياف التى كانت فى الكعبة فوضعها فى بئر زمزم بعد أن حفرها ثم طمرها و ردمها، ثم إن عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه و سلم اهتدى إلى مكان بئر زمزم فحفرها و أخرج الغزالين و الأسياف و الدروع و حفر حتى وصل إلى قرارها، فخرج الماء، فبنى عندها حوضاً كان هو و ابنه يملآنه فيشرب منه الحاج كما تقدم بيان ذلك، ثم جاءت القرامطة بعد الإسلام إلى مكة فقتلوا الناس و ملأوا بئر زمزم بجمث القتلى ثم أخرجت هذه الجمث، و نظفت، ثم طرأ عليها تسرب مياه المنازل المحيطة بالمسجد الحرام - حتى رفعت البيوت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦٠

و هدمت المنازل فى زماننا هذا لتوسعة المسجد الحرام، فحليت زمزم و صارت سائغا للشاربين كالماء العذب الصافى، و لولا أن الله

تعالى خصها بنوع من الطعام لما ميز الشارب بينها و بين الماء العادى. فالحمد لله رب العالمين.

عدم فيض زمزم ليلة نصف شعبان

كثير من الناس يعتقدون أن ماء زمزم يفيض و يزيد ليلة النصف من شهر شعبان، و يزيد فى كل ليلة جمعة، فهذا زعم باطل و وهم و خيال لا صحة له بتاتا مطلقا. نعم إن ماء زمزم قد تزيد فى بعض السنين و ذلك بسبب كثرة نزول الأمطار و دخول السيول إلى نفس المسجد الحرام و ارتفاعها إلى أن تصل إلى باب الكعبة و أكثر، فبطبيعة الحال تدخل مياه الأمطار و السيول إلى جوف زمزم من فمها و بذلك تفيض إفاضة زائدة كما هو الشأن فى الآبار من هذا السبب.

و لقد حقق ابن جبير الأندلسى رحمه الله تعالى هذه المسألة بنفسه حينما وصل إلى مكة و كتب عنها فى رحلته «رحلة ابن جبير» التى كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة هـ. فأحببنا نقل كتابته زيادة فى البحث و التدقيق. فإنه قال ما يأتى:

و فى يوم الجمعة أصبح بالحرم - أى بالمسجد الحرام - أمر عجيب و ذلك أنه لم يبق بمكة صبي إلا و صبحه، و اجتمعوا كلهم فى قبة زمزم و ينادون بلسان واحد هللوا و كبروا يا عباد الله فيكبرون، و ربما دخل معهم من عرض العامة من ينادى معهم بندائهم و الناس و النساء يزدهمون على قبة البئر المباركة لأنهم يزعمون بل يقطعون قطعاً جهلياً لا قطعاً عقلياً بأن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان و كانوا على ظن من هلال الشهر لأنه قيل إنه رؤى ليلة الجمعة فى جهة اليمن، فبكر الناس إلى القبة، و كان فيها من الازدحام ما لم يعهد مثله و مقصد الناس فى ذلك التبرك بذلك الماء المبارك الذى قد ظهر فيضه و السقاء فوق التنور يستقون و يفيضون على رؤوس الناس الماء بالدلاء قذفاً، فمنهم من يصيبه فى وجهه و منهم من يصيبه فى رأسه إلى غير ذلك، و ربما تمادى لشدة نفوذه من أيديهم و الناس مع ذلك يستريدون و يبكون، و النساء من جهة أخرى يساجلنهم بالبكاء و يطارحنهم بالدعاء، و الصبيان يفلجون بالتهليل و التكبير، فكان مرأى هائلا و مسموعاً رائعا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦١

لا يتخلص للطائفين بسببه طواف و لا للمصلين صلاة لعلو تلك الأصوات و إشغال الأسماع و الأذهان بها.

و دخل إلى القبة المذكورة أحدنا ذلك اليوم فكابد من هذا الزحام عنتاً و مشقة، فسمع الناس يقولون: زاد الماء سبعة أذرع، فجعل يقصد إلى من يتوسم فيه بعض عقل و نظر من ذوى السبال البيض، فيسأله عن ذلك فيقول و أدمعه تسيل، نعم زاد الماء سبعة أذرع لا شك فى ذلك، فيقول: أعن خبره و حقيقة؟

فيقول نعم، و من العجيب أن كان منهم من قال أنه بكر سحر يوم الجمعة المذكور فألقى الماء قد قارب التنور بنحو القامة، فيا عجباً لهذا الاختراع الكاذب، نعوذ بالله من الفتنة.

و كان من الاتفاق أن اعتنينا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التى سمعناها فى ذلك و استمرارها مع سوائف الأزمة عند عوام أهل مكة، فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه فى البئر المباركة إلى أن ضرب فى صفح الماء، و انتهى الحبل إلى حافة التنور، و عقد فيه عقدا يصح عندنا القياس به فى ذلك، فلما كان فى صبيحتها و تادى الناس بالزيادة الظاهرة، خلص أحدنا فى ذلك الزحام على صعوبته و معه من استصحب الدلو و أدلاه، فوجد القياس على حاله لم ينقص و لم يزد بل كان من العجب أن عاد للقياس ليلة السبت، فألفاه قد نقص يسيراً لكثرة ما أمتاح الناس منه ذلك اليوم فلو امتيح من البحر، لظهر النقص فيه، فسبحان من خص ذلك الماء بما خص به من بركة و وضع فيه المنفعة.

و فى صبيحة يوم السبت الخامس عشر منه، تتبعنا هذا القياس استبراء لصحة الحال فوجدناه على ما كان عليه و لو أن لفظ ذلك اليوم بأنه لم يزد، لصب فى البئر صبا أو لداسته الأقدام حتى تذيبه، نعوذ بالله من غلبات العوام و اعتدائها و ركوبها جوامح أهوائها. و هذه الليلة المباركة، أعنى ليلة النصف من شعبان، عند أهل مكة المعظمة للأثر الكريم الوارد فيها يبادرون فيها إلى أعمال البر من

العمرة و الطواف و الصلاة، أفرادا و جماعة ينقسمون في ذلك أقساما مباركة. انتهى من رحلة ابن جبير. نعلم مما تقدم أن زيادة ماء زمزم في ليلة النصف من شعبان لا صحة لها مطلقا، وإنما هو من معتقدات العوام التي لا أصل لها، و ما يعترى بقية الآبار من زيادة أو نقص بسبب إحدى العوامل الطبيعية، يعترى بئر زمزم كذلك.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦٢

حكم بئر زمزم و حريمها هل هي من المسجد الحرام أم لا

إشارة

قال الغازي في تاريخه ما نصه: (الفائدة الثالثة): ذكر الشيخ خليفة بن فرج بن محمد الزمزمي في كتابه «نشر الآس في فضائل زمزم و سقاية العباس»: اعلم أني رفعت سؤالا إلى علماء وقتنا أدام الله بقائهم للإسلام، هذه صورته:

الحمد لله ما قولكم، رضى الله عنكم، و نفع المسلمين بعلومكم، هل بئر زمزم و كذا حريمها و هو البناء الدائر على فم البئر ليست من المسجد فلا يحرم على الجنب المكث فيه و لا البصاق و لا الغسل و لا غير ذلك مما يحرم فعله في المساجد، أم من المسجد فله حكم المسجد من أنه يجوز فيه الاعتكاف و يحرم دخوله جنبا و المكث فيه و استحباب تقديم اليمنى للدخول و ركعتي التحية إن أمكن فعلها فيه؟

أفتونا مأجورين.

جواب الشيخ محمد بن عبد الله الطبري الشافعي

أجاب شيخنا الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطبري الشافعي، رحمه الله تعالى بقوله: الحمد لله رب العالمين لم أر لأحد في ذلك نقلا إلا ما ذكره جدى شيخ الإسلام ابن حجر فى التحفة بعد قول السبكي، إذا رأينا مسجدا أو صورة مسجدا يصلى فيه من غير منازع و لا علمنا له واقفا، فليس لأحد أن يمنع منه لأن استمراره على حكم المساجد دليل على وقفه كدلالة اليد على الملك، فدلالة يد المسلمين على هذا للصلاة فيه، دليل على ثبوت كونه مسجدا. انتهى كلام السبكي. قال: وقد يؤخذ منه أن حريم زمزم تجرى عليه أحكام المسجد، قلت: و يؤيد ذلك ما ذكر المحب الطبري فى القرى عن ابن عباس، أنه بلغه أن رجلا من بنى مخزوم اغتسل فى زمزم، فوجد من ذلك العباس و جدا شديدا، فقال: ما أحلها لمغتسل، قال: يعنى فى المسجد و هى لشارب و متوضئ، يعنى حلا و بلا، قال سفيان: يقول: حل محلل و الظاهر أنه يريد الغسل من الجنابة لمكان تحريم اللبث فى المسجد على الجنب، و فى قوله فى المسجد تنبيه عليه. انتهى.

فأفهم مما ذكر أنها ليس لها حريم و أن ما حولها له حكم المسجد و الله سبحانه و تعالى أعلم. و كتبه الفقير إلى الله تعالى محمد بن عبد الله الطبري الإمام

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦٣

الحسينى الشافعي عفى الله عنهما و المسلمين آمين، و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم.

جواب الشيخ عبد العزيز الزمزمي الشافعي

الحمد لله، و لا حول و لا قوة إلا بالله، صريح كلام جدى خاتم المحققين الشهاب ابن حجر رحمه الله فى التحفة، أن حريم بئر زمزم من المسجد و قضية عبارتها أن البئر كذلك، إذ القول بعدم مسجديتها مع القول بمسجديتها ما أحاط بها، ربما تستحيله العادة و إن جاز عقلا. فيجرى عليهما أحكام المساجد من صحة الاعتكاف، و صلاة التحية، و حرمة البصاق، و جلوس الجنب فى شىء منها أو من

هوئهما. و تقديم اليمنى عند الدخول لمحل البئر فلا- يسن إذ هو جزء من المسجد و لا- تفاوت بين أجزاءه و إنما يراعى ذلك في غيرها معها و الله سبحانه و تعالى أعلم، و كتبه الفقير إلى الله تعالى عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى، عفى الله عنهما و المسلمين، و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم.

جواب الشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد الحنفى

و أجاب الحنفى: الحمد لله سبحانه، لا- علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، لم نر من تعرض لذلك من علماء مذهبنا بنفى و لا إثبات لا فى كتب المناسك و لا غيرها، و العلم أمانة و الله سبحانه و تعالى أعلم. و كتبه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد الحنفى، لطف الله بهم و المسلمين، و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم.

جواب الشيخ أبى السعود بن على الزمزمى المالكى

و أجاب شيخنا المالكى بقوله: الحمد لله الذى هدانا لهذا و ما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، نعم! بئر زمزم مع حريمها ليست من المسجد و علوه بأن تحبيسها سابق عن تحبيس المسجد، فيباح للجنب المكث و الغسل، و لا تصح الجمعة و لا الاعتكاف لكون المسجد شرطاً فيهما و لا فى علوها، و يقدم الداخل يسراه و يمانه خروجاً و لا تحية. و أما البصاق فجائز إلا إن كان يؤدي إلى تأذى الناس و تعلقه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦٤

بثيابهم و أرجلهم و تنكف أنفسهم عند الشرب فيجتنب، و الله سبحانه و تعالى أعلم. و كتبه الفقير إلى الله تعالى أبو السعود بن على الزمزمى المالكى، لطف الله بهما و المسلمين، و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم.
أقول: «أى يقول الغازى المتوفى سنة ١٣٦٥»: و كذلك رفع هذا السؤال بعينه فى وقتنا هذا بعض الفضلاء من بيت الرئيس إلى المفاتى الثلاثة: الحنفى و الشافعى و المالكى بمكة شرفها الله تعالى فكتبوا عليه جواباً و هذا نص جوابهم:

جواب مفتى الأحناف الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن سراج

(المتوفى سنة أربع و ستين و ثلاثمائة و ألف) الحمد لله من ممد الكون أستمدهم التوفيق و العون قال العلامة ابن عابدين فى حاشية رد المحتار على الدر المختار ما لفظه: و فى حاشية المدنى عن الفتاوى العفيفة: و لا يظن أن ما حول بئر زمزم يجوز الوضوء أو الغسل من الجنابة فيه، لأن حريم زمزم يجرى عليه حكم المساجد، فيعامل بمعاملتها من تحريم البصاق و المكث مع الجنابة فيه و من حصول الاعتكاف فيه و استحباب تقديم اليمنى، بناء على أن الداخل من مسجد ليس له ذلك. انتهى.

قال العلامة الشيخ محمد بن على ابن علان الصديقى الشافعى فى كتابه الدر المنظم فى فضائل ماء زمزم ما نصه: و فى فروع العلامة محمد بن أبى بكر الأشخر اليمنى قال ابن حجر بعد كلام ذكره: و يؤخذ من هذا أن حريم زمزم يجرى عليه أحكام المسجد، و كون حريم البئر لا يصح وقفه مسجلاً أنى ينظر فيه إن علم أنها خارجة عن المسجد القديم و لم يعلم ذلك بل يحتمل أنها محفورة فيه و عضده إجماعهم على صحة وقف ما أحاط بها و إلا فوقف الممر للبئر كوقف حريمها إذ الحق فيه للمسلمين. انتهى كلامه.

قلت: و يؤيده ما تقدم من حديث الزهرى من قول قريش لعبد المطلب لما شرع فى حفر بئر زمزم ما هذا الصنع إننا لم نكن نربك أى نتهمك بالجهل لم تحفر فى مسجدنا انتهى. و حيث علم مسجدياً ما ذكر فليعامل معاملة المساجد من تحريم البزاق و المكث مع الجنابة فيه و من حصول الاعتكاف فيه و فى استحباب تقديم اليمنى لدخوله، بناء على أن الداخل من مسجد لمسجد يسن له ذلك و غيره من أحكام المسجد فافهم. انتهى كلام الصديق كذا نقله عنه العلامة الشيخ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦٥

عبد الله العفيف الكازروني المكي و أقره و يؤيده ما في البحر العميق عن أبي هريرة أنه قال: إنا لنجد في كتاب الله أن حد المسجد الحرام من الحزورة إلى المسعى و عن عمرو بن العاص أساس المسجد الذي وضعه إبراهيم، عليه السلام، من الحزورة إلى المسعى انتهى. و ما نقل من فتوى الشيخ أبي السعود بن علي الزين المالكي بأن بئر زمزم مع حريمها ليست من المسجد فبعيد عن الصواب لما ذكره الحطاب المالكي في شرحه على مختصر العلامة خليل عند قوله: و جاز أي الطواف بسقائف لرحمة و إلا أعاد و لم يرجع له و لآدم قولين مشهورين أحدهما كون بئر زمزم من المسجد الأصلي كالمقام و هو ما يسند في الطراز و ثانيهما كونه ليس من المسجد الأصلي كالسقائف و هما للخمي و غيره. انتهى. و ما ذكره من التعليل بأن تحييسها سابق على تحييس المسجد فهو إن صح لا يوصل إلى مطلوبه لجواز أخذ الملك و الوقف بقيمتها لجهة المسجد لتوسعته كما هو منصوص عليه في غير ما كتاب و الله أعلم. أمر برقمه خادم الشريعة و المنهاج عبد الله بن عبد الرحمن سراج الحنفي قاضي القضاء و مفتي الأقطار العربية بمكة المحمية كان الله لهما حامدا مصليا مسلما.

جواب مفتي الشافعية السيد عبد الله بن السيد محمد صالح الزواوي

(المتوفى سنة ثلاث و أربعين و ثلاثمائة و ألف) بسم الله سبحانه و تعالى أبتدئ الجواب و أستمد منه الهداية للصواب. بئر زمزم هو قطعا ليس من المسجد بل كان متصلا به و رحبة البئر تتبعه في الحكم و لا يصح وقفها مسجدا لأنها لا تملك لأحد بل هي تابعة للبئر و كل ما لا يملك لا يوقف. و قد نص فقهاؤنا على أن حرم المعمور لا يملك و البئر متى عمرت و صارت وقفا فحريمها يتبعها و لا يجوز لأحد التعرض له بوقفه مسجدا أو غيره بل يبقى تبع البئر إن كانت وقفا فوقف و إن كانت مملوكة فهو كذلك، و بئر زمزم وقف بالاتفاق فحريمها يتبعها في الحكم و لا يصح إدخاله في المسجد و لا في حكمه و للبئر و رحبته حرمة عظيمة لقربه من بيت الله الحرام و جواره للمسجد المعظم و قربه من بابه المشهور بباب السلام المعروف بباب بني شيبه و أحكام المسجد لا تثبت للأرض القريبة منها أو المتصلة بها بل لا يثبت حكم المسجدية إلا بنية الوقف عند تحديدها و بنائها مسجدا كما صرح الفقهاء بذلك، و ما نقل العلامة الطبري

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦٦

من أن ابن عباس، رضى الله عنه، قال: رأيت عباس بن عبد المطلب في المسجد الحرام و هو يطوف حول زمزم و يقول: لا- أحلها لمغتسل و هي للمتوضى و الشارب حل. قال سفيان يعني لمغتسل فيها لأنه وجد رجلا من بني مخزوم و قد نزع ثيابه و قام يغتسل من حوضها عريانا فذلك لا لكون البئر مسجدا بل لكونه كان تحت يده و في حوزته، فمنعه للغسل منه احتراماً لمائه و لكون المغتسل أساء الأدب بغسله من الحوض عريانا و هذا هو الظاهر، و مكث الجنب الممنوع للمسجدية هو في المسجد فعلا المحتاط بالبئر الذي لا يمكن الوصول إليه إلا منه، فالذي يقصد الغسل من البئر و يمر بالمسجد و يمكث فيه يمنع، و أما مكث الجنب في البئر و حريمه الذي حدثت به الجنابة فيه مثلا، فلا يحرم بل يكره لحرمة الموضع و ينبغى له أن يغتسل فورا. و كذا لا يسن الاعتكاف فيه و يؤيد ما ذكرته في كون البئر و حريمه ليس من المسجد لتعليل مفتي المالكية العلامة أبو السعود بن عبد العزيز المالكي في عدم مسجدية البئر و رحبته بقوله إن تحييس بئر زمزم سابق عن تحييس المسجد فلا- يثبت لها حكم المسجد و يباح للجنب المكث و الغسل فيه و يقدم الداخل سراه خروجاً و لا تحية. اهـ.

و أما ما أفتى به العلامة مفتي الشافعية الشيخ عبد العزيز الزمزمي من كون البئر و رحبته مسجدا فلم يذكر له سندا غير ما ذكره عن العلامة الطبري من قوله و الظاهر أنه يريد الغسل من الجنابة لمكان اللبث في المسجد على الجنب، و لا أرى هذا يكون سندا للمطلوب لأنه قال الظاهر فقط و السند الذي ذكره العلامة أبو السعود أقوى و حيث جزمها بعدم مسجدية البئر و رحبته و جواز مكث الجنب فيه

مع الكراهية، فالبصاق جائز كذلك إلا إذا كان يؤدي إلى تأذي الداخلين إلى البئر و تعلقه بشياهم و أرجلهم فيجتنب، و هذا هو الذى ظهر لى و الله أعلم. أمر برقمه مفتى الشافعية بمكة المحمية و الأقطار الحجازية الراجى غفران المساوى عبد الله بن السيد محمد صالح الزواوى كان الله لهما أمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦٧

جواب مفتى المالكية الشيخ عابد بن حسين المالكي

(المتوفى سنة اثنتين و أربعين و ثلاثمائة و ألف) بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله، رب زدنى علما. حكى الخطاب فى شرحه على مختصر العلامة خليل عند قوله: و جاز أى الطواف بسقائف لرحمة و إلا أعاد و لم يرجع له و لآدم قولين مشهورين:

أحدهما: كون بئر زمزم من المسجد الأصيل كالمقام و هو ما أسند فى الطراز و اختاره ابن عرفة، و ثانيهما كونه ليس من المسجد الأصيل كالسقايف و هما للخمى و غيره و جعله ابن الحاجب الأشهر ١٥.

و يؤيد الأول حديث الزهرى أن قريشا قالت لعبد المطلب لما شرع فى حفر بئر زمزم: ما هذا الصنع؟ إنا لم نربك أى تهتمك بالجهل لم تحفر فى مسجدنا كما نقله الكازرونى الحنفى فى تذكرته عن ابن علان الصديقى الشافعى. و قول الإمام أبى عبد الله المقرئ سألت الشيخ خليل بن عبد الرحمن بن محمد المالكي مفتى مكة و هو أعلم من لفيق بالمناسك دراية و رواية و مشاهدة و أمام الوقفة بعرفات عن حدود المسجد الحرام فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم، فأشار إلى الخشب المطيفة بالبيت و المقام و زمزم من جميع الجهات فقلت: و لم تصلى خارجا عنها و أنت تعلم ما فى إلحاق الزيادة فى الفضيلة بالأصل من الخلاف، فقال: أهل مكة يقولون الحرم كله مسجد كما فى نيل الابتهاج لسيدى أحمد بابا التنبكتى و أما بالنسبة للمسجد الحرام فى هذا الوقت فهو منه و له حكمه بدون أدنى شك لأمرين الأول: أنه قد صار الآن فى وسطه و العادة تجهل خروجه و عدم إعطائه حكمه حينئذ سيما و فى المذهب قول مشهور بكونه من المسجد الأصيل كالمقام و قد علمت تأييده.

الثانى: أن فى تاريخ الخميس عن البحر العميق للقرشى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، إنا لنجد فى كتاب الله أن حد المسجد الحرام من الحزورة أى باب الوداع إلى المسعى و عن عمرو بن العاص، رضى الله عنه، أساس المسجد الذى وضعه إبراهيم، عليه السلام، من الحزورة إلى المسعى أفاده خاتمة المحققين السيد أحمد بن زينى دحلان عما كتبه العلامة السيد أحمد جمل الليل المدنى عن الشيخ إبراهيم الخليل فى شرحه على مولد الأهدل قال: و فى كلام غيره ما يؤيده ١٥.

و رأيت مثله فى تاريخ العلامة الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦٨

و أما فتوى أبى السعود ابن على الزين المالكي بأن بئر زمزم مع حريمها ليست من المسجد و عللوه بأن تحبيسها سابقه على تحبيس المسجد فيباح للجنب المكث بها و الغسل و لا- تصح الجمعة و لا الاعتكاف بها لكون المسجد شرط فيها و لا فى علوها و يقدم الداخل يسراه و يمناه خروجا و لا- تحية و أما البصاق فجائز إلا إن كان يؤدي إلى تأذي الناس و تعلقه بشياهم و أرجلهم و تنكف أنفسهم عند الشراب فيجتنب كما فى نشر الآس فى فضائل زمزم و سقاية العباس فهى باطله من وجوه:

الوجه الأول: أنه لا صحة لدعواه أن أهل المذهب عللوا مسجديتها و حريمها بأن تحبيسها سابقه الخ. إذ كيف تصح و قد قال الشيخ عبد الباقي الزرقانى على مختصر خليل و استثنى من بيع العقار الحبس خرب أم لا. قوله إلا أن يباع لتوسيع كمسجد للجماعة كما فى النص تقدم على العقار أو تأخر و طريق و مقبرة فيجوز بيع حبس غير هذه الثلاثة لتوسيع الثلاثة أو واحد منها أى يؤذن فيه و لو جبرا و أمروا أى المحبس عليهم بجعل ثمن الحبس الذى يبع لتوسيع أحد الثلاثة لغيره أى يشتري بالثمن عقار مثله و يجعل حبسا مكانه من

غير قضاء على المشهور لأنه لما جاز بيعه اختل حكم الوقفية. اهـ.

الوجه الثالث: أن تقديم الرجل اليسرى في الدخول واليمينى في الخروج إنما عدوه من الآداب فى نحو الكنيف من كل دنىء كحمام وبيت ظالم وليس منه بئر زمزم حتى فرض عدم دخوله فى المسجد إذ كيف تصح دعوى دناءته وقد قالوا إن النظر فى بئر زمزم عبادة تحط الأوزار والخطايا لخبر خمس من العبادات تحط الخطايا: النظر فى المصحف والنظر إلى الكعبة والنظر إلى الوالدين والنظر فى زمزم والنظر إلى وجه العالم رواه الأزرقى.

قال بعضهم: ويختار له النظر فيها ثلاثا ويستقبل القبلة عند شربها لأنها أشرف الجهات إذا علمت ذلك تعلم أن ما أفتى به أبو السعود بهتان عظيم وجهل فاضح سقيم، فلا يحل لامرئ أن يلتفت لمثله فضلا عن أن يعتمد عليه فى فتواه، والله الهادى إلى الصواب وإليه المرجع والمآب. أمر برقمه مفتى المالكية حالا بالأقطار الحجازية عبده تعالى حامدا مصليا مسلما محمد عابد بن حسين.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٦٩

حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام

إشارة

الحجر بكسر أوله له عدة معان، والمراد به هنا هو نصف الدائرة الذى يحيط بالجانب الشمالى بالكعبة المعظمة من جانب الميزاب، و حجر إسماعيل أصله من عمل أبيه إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، فقد جعله من شجر الأراك.

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه عند بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة:

وجعل إبراهيم عليه السلام الحجر إلى جنب البيت عريشا من أراك تقتحمه العنز، فكان زربا لغنم إسماعيل اهـ. ومعنى الزرب حظيرة الغنم، والزرب والزريبة بمعنى واحد، أى أن حجر إسماعيل قد عمله إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، ليكون موضعا لغنم ابنه إسماعيل، وإذا نظرنا إلى ذلك العصر البعيد قبل أربعة آلاف سنة، حين لم تكن بمكة دور ولا بيوت إلا السكنى فى كهوف الجبال والجلوس تحت ظلال الأشجار، ولم يكن فى عصر النبيين الكريمين، عليهما الصلاة والسلام، بمكة إلا نفر من قبيلة جرهم، علمنا أن احتجاز حجر إسماعيل لغنمه عند هذا البيت الكريم الذى هو أول بيت وضع للناس بركة أمر عادى، وإذا علمنا أيضا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، خصوصا خليل الله عز وجل الذى بنى هذا البيت الكريم، لا يفعلون شيئا من عند أنفسهم بل لابد من الإذن الإلهى فى ذلك. وما المانع فى ذلك؟ والخليل وابنه إسماعيل، عليهما السلام، هما اللذان بنيا الكعبة فالبيت بيت الله، وإبراهيم خليل الله، وإسماعيل نبي الله، وماء زمزم خرجت كرامة له من الله، والكعبة كانت مبنية بالرضم على أكمة صغيرة حولها الحصباء والمدر، فسكنى إسماعيل عليه الصلاة والسلام، ومكان عبادته وموضع غنمه عند الكعبة المشرفة، وما أحلى ذلك الزمن عند هذه البنية الطاهرة والأرض الطيبة النظيفة والجبال الشامخة اللطيفة، والسماء الصافية والأمطار المباركة النازلة منها والأفق البعيد الخالية من عبادة الأصنام والأوثان، إن من يتخيل فى ذهنه ذلك الزمن السحيق المبارك ثم ينظر فيما حوالية الآن من تغير الأرض والأبنية والمسالك، ليرى فى مكة المشرفة بونا شاسعا وفرقا عظيما فى طبيعة الأرض وصورها وطبيعة بنى الإنسان وتطوره، فسبحان الكبير المتعال.

صورة رقم ٧٢، الكعبة ويظهر عندها حجر إسماعيل عليه السلام

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧٠

ثم بتقادم العهد ومرور العصور تغير علامة حجر إسماعيل التى كانت من شجر الأراك، إلى رضم بالحجارة، ثم إلى بناء بالطين، ثم إلى بناء برخام المرمر، كما جاء فى عصرنا الحاضر لكن لم يتغير موضع الحجر ومكانه عن الحد الأول الذى كان فى عهد إبراهيم و

إسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، أبدا. قال العلامة البجيرى فى حاشيته على شرح الخطيب على أبى شجاع: أول من رخم الحجر المنصور العباسى فى سنة أربعين و مائة، ثم بعده مرارا. اهـ.

و اعلم أن فتحى الحجر بكسر الحاء المهملة ليستا حديثين، بل هما قد كانا من عهد خليل الله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فقد تقدم أنه عمل الحجر مدورا من شجر الأراك لغنم ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، تدخل إليه من الفتحتين. فلما تطور بناء الحجر من الأراك إلى البناء حافظوا على الفتحتين أيضا كما حافظوا على مدوره تماما، فالفتحتان كانتا موجودتين أيضا فى زمن نبينا «محمد» صلى الله عليه وسلم و فى زمن الجاهلية، و لا يخفى ما فى الفتحتين من الفائدة الكبرى قديما و حديثا و هى دخول الناس منهما إلى الحجر للصلاة و الدعاء عند الكعبة المشرفة من جهته.

و اعلم أيضا بأن حجر إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، محسوب من البيت لما روى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها قالت: «كنت أحب أن أدخل البيت فأصلى فيه، فأخذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم بيدي فأدخلنى الحجر و قال: «صلى فيه إن أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت».

نقول: إن هذا الحديث يدل صراحة على أن حجر إسماعيل، عليه السلام كله من البيت الحرام، و يدل على هذا أيضا طوافه صلى الله عليه وسلم، بالبيت من وراء جدار الحجر، فلذلك لو طاف شخص حول الكعبة المشرفة بحيث يدخل من الفتحة الشمالية للحجر يخرج من الفتحة الجنوبية المقابلة لها أى لم يطف من وراء جدار الحجر لم يصح طوافه.

فإن قال قائل: لقد كان البيت الحرام داخل فى الحجر ستة أذرع و شبرا، فإذا طفنا بالبيت من نصف أرض الحجر فإنه يصدق علينا أننا طفنا بجميع بناية الكعبة قبل نقض قريش الأذرع المذكورة منها، فهل يصح طوافنا على هذه الصفة أم لا؟

نقول: إن الطواف على هذه الصفة لا يصح لعدم حصول الطواف من وراء جدار الحجر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه، قد طافوا بالبيت من وراء جدار

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧١

الحجر، و نحن مأمورون بالاتباع لا بالابتداع، و الله الموفق للصواب و إليه المرجع و المآب.

و الذى نراه فى جعل إبراهيم حجر إسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، من الأراك ليكون حريما للكعبة فقد جاء فى مختار الصحاح أن حريم البئر و غيرها ما حولها من مرافقها و حقوقها. انتهى منه.

فعليه يكون حجر إسماعيل تابعا للكعبة و هو من مرافقها و حقوقها، فاحترامه كاحترام الكعبة و العبادة فيه كالعبادة فى الكعبة، و الطواف حوله كالطواف حول الكعبة. و الله تعالى أعلم.

قال فى المصباح المنير: «و الحجر حطيم مكة و هو المدار بالبيت من جهة الميزاب اهـ». و قال فى مختار الصحاح: و الحجر أيضا حجر الكعبة و هو ما حواه الحطيم المدار بالبيت جانب الشمال. اهـ. و المعنى فى العبارتين واحد.

جاء فى شفاء الغرام: روى الفاكهى بسنده من طريق الواقدى عن أبى جهم بن حذيفة خبرا فى قدوم إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام، قال فيه: فعمد إبراهيم إلى موضع الحجر فأنزل فيه هاجر و إسماعيل و أمر هاجر أن تتخذ فيه عريشا.

انتهى.

قال: و ذكر الأنزرقى ذلك فيما رواه بسنده عن ابن إسحاق لأنه قال فى خبر رواه فى هذا المعنى: فعمد فيهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه و أمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشا. انتهى.

انتهى كل ذلك نقلا عن شفاء الغرام للفاسى.

و قد ورد فى بعض الروايات: أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، جاء بهاجر و ابنها إسماعيل و هى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى أعلا المسجد.

فهذه الروايات و إن اختلفت عباراتها فالمعنى بينها متقارب، لأن ما بين زمزم و بين حجر إسماعيل بضعة أمتار، و كل منهما قريب من الآخر لا تباعد بينهما، و الفرق القليل ليس له حساب.

فحجر إسماعيل هو حائط قصير دون القامة على شكل نصف دائرة من جهة ميزاب الكعبة، و ينسب الحجر إلى إسماعيل لأن أباه إبراهيم، عليهما الصلاة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧٢

و السلام، هو الذى جعل الحجر إلى جنب البيت جعله عريشا من شجر الأراك تقتحمه غنم إسماعيل فكان زربا لغنمه أى حظيرة لغنمه. و لا اعتراض فى ذلك فإن خليل الله إبراهيم، صلوات الله و سلامه عليه و على جميع الأنبياء و المرسلين، لا يفعل شيئا إلا بأمر ربه. فبقى الحجر على أساسه من ذلك العهد محترما محسوبا من البيت فلا- يصح الطواف إلا- من ورائه، لذلك نسب الحجر إلى إسماعيل عليه السلام. و لقد كان البيت فى بنائه عليه السلام طويلا- يصل إلى منتصف أرض الحجر تقريبا فى زماننا اليوم أى كان الحجر ضيقا، و قد بقى كذلك إلى أن بنت قريش الكعبة فأخرجته منها لقله النفقة الحلال، و ذلك أنهم لما أرادوا بناء البيت الحرام جمعوا له من أطيب أموالهم فلم يدخلوا فيه مالا من ربا و لا مالا من ميسر و لا مهر بغى، و لكن ما جمعه من النفقة لم يكف لعمارة البيت كله، فاستقصروا فى بنائه على القواعد و تركوا بقيته فى الحجر و أداروا عليه جدارا يطوف الناس من ورائه.

(فإن قيل): هل عمل البابين للحجر الشرقى و الغربى كان فى بناء قريش للكعبة تركوا فى طرفى الحجر بمثابة البابين، أم كانا فى بناء إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، و بقيا كذلك إلى اليوم؟

(فنقول) و الله تعالى أعلم بغيبه: إن الفتحيتين اللتين فى طرفى الحجر كانتا فى عهد سيدنا إبراهيم الخليل، فإنه لما جعل الحجر عريشا لغنم ابنه إسماعيل، عليهما السلام، لا بد و أن يترك للغنم فى الحجر موضعين لدخولها و خروجها و هذا أمر مسلم به عقلا، و كان يكفى فتحة واحدة لدخولها و خروجها، و لكن عليه السلام، جعل فتحيتين فى طرفى الحجر الشرقى و الغربى لسهولة دخولها و خروجها، و لا يخفى أن مكان الكعبة كان ربوة عالية و حولها الوادى فإذا طلعت الغنم إلى عريشها من أى الجهات وجدت لها منفذا مفتوحا، ثم بقيت الفتحتان اللتان بمثابة البابين للحجر إلى يومنا هذا و قد وجد الناس إلى اليوم راحة كبرى فيهما لدخولهم و خروجهم عند إرادتهم الصلاة فى حجر إسماعيل، و لا شك أن هذا من بركات نبي الله و خليله إبراهيم عليه و السلام، و لم نجد أحدا تكلم عن هذه المسألة فالحمد لله على توفيقاته المتتالية و نعمائه المتواليه.

روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: كنت أحب أن أدخل البيت فأصلى فيه فأخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم ييدى فأدخلنى الحجر فقال لى: «صلى فى الحجر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧٣

إذا أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت و لكن قومك استقصروا حين بنو الكعبة فأخرجوه من البيت».

و جاء فى كتاب القرى للطبرى أن عائشة قالت: يا رسول الله كل نسائك دخل البيت غيرى، قال: فانطلقى إلى قرابتك شبيهة يفتح لك الكعبة فأتته فأتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: و الله ما فتحت بلبق قط فى جاهليته و لا إسلام و إن أمرتنى أن أفتحها فتحتها، قال: لا، ثم قال: «إن قومك قصرت بهم النفقة فقصروا فى البنيان و إن الحجر من البيت فاذهبي فصلى فيه». اهـ.

و عن عروة عن عائشة قالت: ما أبالى فى الحجر صليت أم فى البيت. انتهى.

فمقدار سعة الحجر فى زماننا اليوم هو مقداره تماما حينما بنت قريش الكعبة فى عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل أن يبعث بخمس سنين على الأشهر. و سندكر قياسه إن شاء الله تعالى.

أما مقدار سعته فى بناء إبراهيم عليه الصلاة و السلام، و فى بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، فإنه كان أضيق أى كان بمقدار نصف سعته اليوم تقريبا، لأن الكعبة كانت داخله فى الحجر ستة أذرع و شبرا.

قال إبراهيم رفعت باشا في كتابه «مرآة الحرمين» عن الحجر ما نصه: يطلق على حجر إسماعيل الحطيم، وقيل الحطيم هو الجدار المطيف بالحجر. وجاء في الكتاب المذكور ما نصه:

وقد ذكر الأزرقى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، جعل الحجر إلى جنب البيت عريشا من أراك يقتحمه العز و كان زربا لغنم إسماعيل، وقد تقدم أن قريشا أدخلت في الحجر أذرعاً من الكعبة حين بنتها لما قصرت عليهم النفقة الحلال التي أعدوها لعمارة الكعبة عن إدخال ذلك فيها، وأن ابن الزبير أدخل ذلك في الكعبة حين عمرها وأن الحجاج أخرجه منها واستمر ذلك ليومنا، و على ذلك فبعض الحجر من الكعبة وبعضه ليس منها، ويدل لذلك ما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا استقصرتها حيث بنت الكعبة»، وفي رواية فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأرها قريباً من سبعة أذرع.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧٤

وفي مسلم عن عطاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت من الحجر خمسة أذرع. وذكر عطاء أن ابن الزبير زاد في البيت خمسة أذرع من الحجر، وأنه بدا له أساس نظر إليه الناس فبنى عليه، وأما ما رواه الشيخان من حديث عائشة قالت:

سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الحجر أمن البيت؟ قال: نعم! قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة الخ، فلا يعارض ما ذكرنا من أن بعضه من البيت لأن حديث عائشة هذا مطلق وأحاديثها السابقة مقيدة، والمطلق يحمل على المقيد وقد اختلف الفقهاء هل يصح من الحجر بعد السبعة الأذرع من البيت أم لا يصح الطواف إلا من وراء الحطيم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال كثيرون بالأول وقال آخرون بالثاني. انتهى من كتاب مرآة الحرمين.

حكم حجر إسماعيل في الطواف

من واجبات الطواف في مذهب الإمام الشافعي أن يكون الإنسان في طوافه خارجاً بجميع بدنه عن جميع البيت الحرام، فلو طاف في حجر إسماعيل لم يصح طوافه، لأنه طاف في الحجر لا في البيت والله تعالى أمر بالطواف بالبيت والحجر من البيت، ففي صحيح مسلم عن عائشة، رضي الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ستة أذرع من الحجر من البيت، وفي رواية له إن من الحجر قريباً من سبعة أذرع من البيت.

قال الإمام النووي في الإيضاح في هذا المقام ما نصه: وأما حديث عائشة، رضي الله عنها، فقد قال الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح، رحمه الله تعالى:

قد اضطربت الروايات. ففي رواية في الصحيحين الحجر من البيت، وروى ستة أذرع من الحجر من البيت، وروى ستة أذرع أو نحوها، وروى خمسة أذرع، وروى قريباً من سبعة أذرع. قال: وإذا اضطربت الروايات تعين الأخذ بأكثرها ليسقط الفرض بيقين. قلت: ولو سلم أن بعض الحجر ليس من البيت، لا يلزم منه أنه لا يجب الطواف خارج جميعه، لأن المعتمد في باب الحج الاقتداء بفعل النبي صلى الله عليه وسلم فيجب الطواف بجميعه سواء كان من البيت أم لا. والله تعالى أعلم.

انتهى كلام النووي.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧٥

نقول: يجب الطواف من خارج الحجر، بكسر الحاء المهملة أي: خارج حجر إسماعيل، سواء كان كله من البيت أم بعضه من البيت، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت من خارج الحجر، وقد قال في حجة الوداع: «خذوا عني مناسككم» كما في صحيح

مسلم، ولأن الخلفاء الراشدين و الصحابة أجمعين و من بعدهم طافوا كلهم من خارج الحجر.

جاء في صحيح البخارى فى باب مناقب الأنصار فى القسامة فى الجاهلية:

حدثنا عبد الله بن محمد الجعفى حدثنا سفيان أخبرنا مطرف سمعت أبا السفر يقول: سمعت ابن عباس، رضى الله عنهما، يقول: «يا أيها الناس اسمعوا منى ما أقول لكم، و أسمعوني ما تقولون، و لا- تذهبوا فتقولوا قال ابن عباس، قال ابن عباس: من طاف بالبيت، فليطف من وراء الحجر، و لا تقولوا الحطيم فإن الرجل فى الجاهلية كان يحلف فيلقى سوطه أو نعله أو قوسه. انتهى.

الجلوس فى الحجر و فى المطاف

كان حجر إسماعيل و المطاف زمن الجاهلية مجلسا عاما يجتمعون فيهما و يجلسون بفناء الكعبة و ظلها يتذاكرون فى مختلف شؤونهم، روى الأزرقى فى تاريخه عن محمد بن سوفة قال: كنا جلوسا مع سعيد بن جبير فى ظل الكعبة فقال: أنتم الآن فى أكرم ظل على وجه الأرض، و قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنها: سمعت أبى يقول: كان عبد المطلب أطول الناس قامه و أحسن الناس وجهها، ما رآه قط شىء إلا أحبه، و كان له مفرش فى الحجر لا يجلس عليه غيره و لا يجلس معه عليه أحد، و كان الندى من قریش حرب بن أمية فمن دونه يجلسون حوله دون المفرش، فجاء رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو غلام يدرج ليجلس على المفرش فيجذوه فبكى، فقال عبد المطلب و ذلك بعد ما حجب بصره: ما لابنى يبكى؟ قالوا له إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه، فقال عبد المطلب: دعوا ابنى فإنه يحس بشرف أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربى قط، قال: و توفى عبد المطلب و النبى صلى الله عليه و سلم ابن ثمان سنين و كان خلف جنازته يبكى. انتهى من تاريخ الأزرقى.

و معنى الفناء، بكسر الفاء ما امتد من جوانب البيت و بالفتح ضد البقاء، و الندى الجواد، تقول: فلان ندى الكف أى سخى، و حرب بن أمية هو جد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧٦

معاوية بن أبى سفيان و كان يسمر مع عبد المطلب و بينهما ألفه كبيرة، و معنى جذوه جذبوه مقلوب منه، و حرب بن أمية المذكور هو أول من أدخل الكتابة إلى مكة و كان تعلمها فى أسفاره كما ذكرنا تفصيل ذلك فى كتابنا «تاريخ الخط العربى و آدابه» المطبوع بمصر بمكتبة الهلال.

قياس حجر إسماعيل بالأمتار

قال إبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى فى كتابه «مرآة الحرمين» ما نصه:

حجر إسماعيل و يسمى «بالحطيم» هو بناء مستدير على شكل نصف دائرة و ارتفاعه من الداخل (١٢٣) سنتيمتر، و عرض جداره من الأعلى (١٥٢) سنتيمتر، و من أسفل (١٤٤) سنتيمتر، و هذا البناء مغلف بالرخام و أحد طرفيه محاذ للركن الشامى و الآخر محاذ للركن الغربى و سعة الفتحة التى بين طرفه الشرقى و آخر الشذروان ٣٠، ٢ متر، و سعة الفتحة الأخرى التى بين طرفه الغربى و نهاية الشاذروان ٢٣، ٢ متر و المسافة التى بين طرفى نصف الدائرة ثمانية أمتار، و وراء الحطيم بمسافة اثنى عشر مترا المطاف. و الأرض التى بين جدار الكعبة الشمالى و بين الحطيم هى المعروفة بالحجر، و يدخل إليها من الفتحتين السالفتين و هى مفروشة بالرخام و المسافة من منتصف جدار الكعبة الشمالى و وسط تجويف الحطيم من الداخل ٤٤، ٨ أمتار. انتهى من كتاب مرآة الحرمين.

و صاحب الكتاب المذكور الذى توفى فى زماننا، رحمه الله تعالى، قد أخذ القياس بنفسه بالأمتار المستعملة فى عصرنا، أما فى العصور السابقة فقد كان قياسهم بالأذرع، لذلك رأينا أن نذكر قياسه بالأذرع أيضا زيادة فى المعرفة و الفائدة.

صورة رقم ٧٣، الكعبة المشرفة و جدار حجر إسماعيل عليه السلام

صورة رقم ٧٤، حجر إسماعيل من الداخل. و المؤلف يشير على حجر خاص

قياس حجر إسماعيل بالأذرع

قال الإمام الأزرقى، رحمه الله تعالى فى تاريخه عند صفة حجر إسماعيل و ذرعه ما نصه: الحجر مدور و هو ما بين الركن الشامى و الركن الغربى، و أرضه مفروشة برخام و هو مستو بالشاذروان الذى تحت إزار الكعبة و عرضه من جدر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧٧

الكعبة من تحت الميزاب إلى جدر الحجر سبعة عشر ذراعا و ثمان أصابع، و ذرع ما بين بابى الحجر عشرون ذراعا و عرضه اثنان و عشرون ذراعا، و ذرعه من داخله فى السماء ذراع و أربعة عشر إصبعا، و ذرعه مما يلى الباب الذى يلى المقام ذراع و عشر أصابع و ذرع جدر الحجر الغربى فى السماء ذراع و عشرون إصبعا و ذرع طول جدر الحجر من خارج مما يلى الركن الشامى ذراع و ستة عشر إصبعا، و طوله من وسطه فى السماء ذراعا و ثلاث أصابع، الرخام من ذلك ذراع و أربع عشرة إصبعا، و عرض الجدار ذراعا و ثلاث إصبعين و الجدر ملبس رخاما، و فى أعلاه فى وسط الجدار رخامة خضراء طولها ذراعا و ثلاث إصبعين و عرضها ذراع و ثلاث أصابع، قال أبو محمد الخزاعى: و قد حوت هذه الرخامة فجعلت تحت الميزاب مما يلى الكعبة، قال أبو الوليد: و ذرع باب الحجر الذى يلى المشرق مما يلى المقام خمسة أذرع و ثلاث أصابع و فى عتبة هذا الباب حجران ارتفاعهما من بطن الحجر أربع أصابع و ذرع باب الحجر الذى يلى المغرب سبعة أذرع و فى عتبة بابه أربعة أحجار و ارتفاعها من بطن الحجر أربع أصابع و مخرج سيل ماء الحجر من وسطه من تحت الحجارة فى ثقب بين حجرين، قال أبو محمد الخزاعى: قد كان على ما ذكره أبو الوليد ثم كان رخامه قد تكسر من وطء الناس فعمل فى خلافة المتوكل على الله و أمير مكة يومئذ أبو العباس عبد الله بن محمد بن داود فرفعت أرض الحجر شيئا حتى كان ماؤه يخرج من فوق الأحجار التى فى عتبة الباب الغربى فكان كذلك حتى عمّر فى خلافة أمير المؤمنين المعتضد بالله فأشرف العمال فى رفع أرضه حتى صارت أرفع من حجارة عتبتى البابين حتى احتاجوا إلى أن يكسروا طرفى العمل المشرف على بابى الحجر و لو كانوا جعلوه مستويا مع العتبتين كان أصوب، قال أبو الوليد: و ذرع تدوير الحجر من داخله ثمانية و ثلاثون ذراعا و ذرع تدوير الحجر من خارجه أربعون ذراعا و ست أصابع، و ذرع ما بين حدات الحجر من شق المغرب إلى حد الركن اليمانى اثنان و ثلاثون ذراعا، و ذرع طوف واحد حول الكعبة مائة ذراع و ثلاثة و عشرون ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا، و ذرع طواف سبع حول الكعبة ثمانمائة و ستة و ستون ذراعا و عشرون إصبعا. انتهى من تاريخ الأزرقى. فقياس الحجر فى أيامه و قياسه فى أيامنا واحد لا يتغير، أما قياس الحجر فى زمان بناء إبراهيم عليه السلام، و فى زمان بناء ابن الزبير فنصف هذا القياس تقريبا لدخول البيت فيه فافهم ذلك.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧٨

و ما ذكره الأزرقى من أن رخام الحجر قد تكسر من وطء الناس فعمل فى خلافة المتوكل على الله هذا الرخام المتكسر عمله أمير المؤمنين محمد المهدي سنة ١٦١ هـ. فبقى على حالته إلى زمن المتوكل على الله فلما رأى أنه رث و تكسر قلعه و أبدله برخام حسن و ذلك سنة ٢٤١ هـ. فيكون رخام الحجر الذى عمله المهدي دام فيه ثمانين سنة. جزاهم الله عن الإسلام و المسلمين خيرا و رحمهم رحمة واسعة.

كسوة حجر إسماعيل

لم تجر العادة من قديم الزمان إلى اليوم أن يغطى حجر إسماعيل عليه السلام، بالكسوة، غير أنه فى القرن التاسع الهجرى أى عام اثنين و خمسين و ثمانمائة وصلت كسوتان من قبل السلطان جقمق الجركسى لجدار الحجر الدائر فوضعوا إحداهما عليه من داخله و الثانية من خارجه، و كانتا من الحرير الأسود ككسوة الكعبة المشرفة. ثم لم يكس جدار الحجر بعد ذلك فكانت هذه الكسوة هى الأولى و

الأخيرة.

قال العلامة القطب في كتابه «الإعلام»: و وصل في ذلك العام أى عام (٨٥٢) كسوة لحجر إسماعيل مع كسوة البيت الشريف لأنه لم تجر بذلك عادة قبل هذا و وضعت في البيت الشريف ثم كسى بها الحجر من داخله في العشر الأخير من ذى الحجة سنة ثلاث و خمسين و ثمانمائة (٨٥٣) بعد أن حفظت في جوف البيت الشريف سنة كاملة. انتهى كلامه.

نقول: إن وضع كسوة على جدار حجر إسماعيل لا- بأس بها، فالحجر إنما هو قطعة من البيت، و لذلك كان الطواف من خارجه أى من وراء جدار الحجر، فتغطيته بالكسوة من الأمور التى لا- يمنعها العلماء و إن لم تجر العادة بذلك، و قد يستظرفها أهل الذوق الحسن، فللعين حظ النظر.

فرش حجر إسماعيل بالبلاط

لم يكن حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام، مفروشا بالبلاط و الرخام فكان أول من وضع عليه حجارة الرخام الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور سنة مائة و أربعين هجرية، فإنه لما حج و طاف دعا زياد بن عبد الله الحارثى، و هو يومئذ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٧٩

أمير مكة، فقال له: إنى رأيت الحجر حجارتة بادية، فلا أصبحن حتى يستر جدار الحجر بالرخام. فدعا زياد بالعمال فعملوه على السرج قبل أن يصبح، و كان قبل ذلك مبنيا بحجارة بادية ليس عليها رخام.

ثم إن الخليفة محمد المهدي العباسى فى سنة مائة و إحدى و ستين و أربع و ستين زاد فى المسجد الحرام، و أمر بتجديد رخام الحجر، ففرشوه بالرخام المرمر بإتقان تام، و كان رخاما أبيض و أخضر و أحمر، و صرف فى ذلك مبالغ طائلة، ثم إن الخلفاء و السلاطين عملوا فيه و فى المسجد الحرام عمارات ليس هنا محل بيانها و لا بأس أن نشير بأن السلطان مراد خان الرابع هو أول من جدد عمارة حجر إسماعيل من آل عثمان حينما بنى الجدار الشامى من البيت، و ذلك سنة أربعين و ألف، ثم عمره السلطان عبد المجيد خان سنة ستين و مائتين و ألف، ثم حصل تجديد نصف أرض الحجر من جهة مقام الحنفى، و ذلك فى عهد السلطان عبد العزيز خان العثمانى سنة ثلاث و ثمانين و مائتين و ألف.

المدفونون فى حجر إسماعيل

لا يخفى أن مكة بلد الله الأمين أتى إليها كثير من الأنبياء، عليهم الصلاة و السلام، بعد بناء سيدنا إبراهيم الخليل البيت الحرام و ربما قبله أيضا، فقد ورد فى الحديث «كان النبى من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة، فيتعبد فيها و من معه حتى يموت فيها، فمات بها نوح و هود و صالح و شعيب و قبورهم بين زمزم و الحجر».

و عن عبد الرحمن بن سابط يقول: سمعت عبد الله بن ضمرة السلولى يقول: ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة و تسعين نبيا جاؤوا حجاجا فقبروا هنالك.

و عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: صلى فى مسجد الخيف سبعون نبيا كلهم مخطمون بالليف. يعنى رواحلهم.

و عن مجاهد أنه قال: حج خمسة و سبعون نبيا كلهم قد طاف بالبيت و صلى فى مسجد منى فإن استطعت أن لا تفوتك صلاة فى مسجد منى فافعل.

و عن مجاهد أنه قال: حج موسى النبى على جمل أحمر فمر بالروحاء عليه عباءتان قطوانيتان، مترر بإحداهما، مرتد بالأخرى، فطاف بالبيت ثم طاف بين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٨٠

الصفا و المروة. فبينما هو بين الصفا و المروة إذ سمع صوتا من السماء و هو يقول:

ليبيك عبدى أنا معك فخر موسى ساجدا. انتهى ما ذكر من الأزرقى.

فإذا أنعمنا النظر و رجعنا إلى الورا إلى عهد إبراهيم عليه الصلاة و السلام، و بنائه البيت الحرام، علمنا أنه لم يكن بمكة إلا قليل من قبائل العرب الأقدمين و قد كانوا يسكنون خارج الحرم تعظيما للبيت الحرام و كانوا يأتون نهارا للطواف.

و علمنا أيضا أن أطراف البيت كان خاليا و محله كان ربوة و حولها مسالك الجبال و وادى إبراهيم و بئر زمزم عند الكعبة فى محله الآن فإذا جاء النبى إلى مكة بمن آمن معه، و مات بها، قبر حيث مات. فى الحديث: «لم يقبر نبى إلا حيث يموت» رواه الإمام أحمد عن أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، قال العلامة الحنفى فى حاشيته على العزيرى عند هذا الحديث: أى يقبر فى المحل الذى خرجت روحه فيه فلا يجوز نقله إلى غيره، و لذا دفن صلى الله عليه و سلم فى حجرة عائشة التى قبض فيها. انتهى كلامه.

فإذا مات أحد الأنبياء، عليهم الصلاة و السلام، عند الكعبة فى المطاف أو فى الحجر أو عند زمزم أو عند أبى قبيس أو بمسجد الخيف بمنى أو بغيره، دفنوه حيث مات فى هذه المحلات الطاهرة الشريفه، إذ لم تكن مقبرة خاصة بمكة فى تلك الأزمنة الغابرة لقله السكان بها.

و لقد ذكر أكثر العلماء أن إسماعيل عليه السلام و أمه هاجر مدفونان بالحجر، و كذلك عذارى بنات إسماعيل كما رواه الإمام الأزرقى، فقد جاء فى تاريخه أن الزهرى سمع ابن الزبير على المنبر يقول: إن هذا المحدودب قبور عذارى بنات إسماعيل عليه السلام، يعنى مما يلى الركن الشامى من المسجد الحرام ... الخ. اهـ.

و علة اختصاص الدفن فى الحجر للعذارى أنهن مقيمات مع أبيهن حيث لم يتزوجن، أما التى تزوجت منهن فتتبع زوجها أينما ذهب و أقام. و الله أعلم.

و ما المانع أن يدفن نبى الله و ابن خليله مع بعض من أهله فى أشرف بقعة على وجه الأرض، و هو أول من نزل بها و عمرها و بنى فيها مع أبيه، عليهما الصلاة و السلام بيت الحرام، و أن أمه هاجر توفيت قبل بناء الكعبة فدفنت عند محلها، فإذا كان إبراهيم عليه السلام، جعل الحجر عريشا لغنم إسماعيل تأوى إليه عنزه بجنب البيت، فهل ينكر أن يدفن فيه صاحب الغنم ابنه إسماعيل، عليه السلام، الذى أرسله الله إلى أهل مأرب من اليمن و حضر موت - كلا و الله - فجميع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٨١

الأنبياء مطهرون مشرفون ظاهرا و باطنا حسا و معنى، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين.

روى الأزرقى فى تاريخه أن المبارك بن حسان الأنماطى قال: رأيت عمر بن عبد العزيز فى الحجر فسمعتة يقول: شكنا إسماعيل عليه السلام، إلى ربه عز و جل حر مكة، فأوحى الله تعالى إليه أنى أفتح لك بابا من الجنة يجرى عليك من الروح إلى يوم القيامة و فى ذلك الموضع توفى. قال خالد فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربى فيه قبره. انتهى.

فنستنتج مما تقدم أنه لم يدفن فى نفس الحجر إلا إسماعيل و أمه هاجر و بناته العذارى فقط و لم يدفن معهم نبى آخر، و لا غرابه فى ذلك أليس الحجر ينسب لإسماعيل، ثم أليس هو أول من عمر مكة و أقام بها و بنى مع أبيه البيت الحرام فكان إليه أمر البيت و مكة ثم لبنيه من بعده. فيحق له أن يدفن هو و بعض أهله فى أشرف بقعة بجانب البيت لا يشاركهم فى الدفن فيه غيرهم.

و مما يناسب هذا الباب ما رواه الغازى فى تاريخه نقلا عن تحصيل المرام و عن تاريخ ابن سنان الشهير بجنايى: أنه لما كانت سنة خمس و ستين و تسعمائة أمر الملك المجاهد سليمان بن سليم خان بعمل المنبر الذى بالمسجد الحرام و أن يعمل من رخام فى طرز بديع، فلما حفروا مكان الأساس ظهر رجلان ميطان مدفونان بما عليهما من السلاح و لم يفقد منهما شىء، فاختلف الناس فى أمرهما، و أما أنا فلم أشك فى كون أحدهما عبد الله بن عثمان لأنه استشهد مع ابن الزبير و خفى أثره و دفن فى المسجد خوفا أن ينبشه أصحاب الحجاج و الآخر عبد الله بن صفوان و العلم لله. انتهى من الغازى. و المراد بالمنبر الذى ذكره هو هذا المنبر الرخام الموجود

فى عصرنا هذا بالمسجد و الذى هو بجوار مقام إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، فقد مرّ عليه أكثر من أربعمائه سنة.

مكان الدفن فى الحجر

بقيت علينا نقطة دقيقة جدا جدا و هى فى غاية الأهمية لم نجد أحدا تعرض لها قبلنا و هى: قالوا إن إسماعيل عليه السلام و غيره مدفونون فى الحجر، فالمراد بالحجر فى زمانه ما جعله إبراهيم عليه الصلاة و السلام عريشا لغنم إسماعيل، فىكون قياس الحجر فى زمانهما نصف قياسه تقريبا فى زماننا الحاضر، أى النصف الأخير المقابل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٨٢

للجدار الدائر عليه الذى هو من جهة مقام الحنفى، أما النصف الأول منه المقابل لجدار الكعبة و الذى فيه البابان «الفتحتان» فهو من الكعبة بدون شك و لا ريب لأن بناءها كان ينتهى إليه فى عهد إبراهيم عليه السلام، و فى عهد ابن الزبير، رضى الله عنهما. فعليه لم يدفن أحد فى هذا النصف الأول من الحجر.

روى الأزرقى فى تاريخه: حفر ابن الزبير الحجر فوجد فيه سफطا من حجارة خضر. فسأل قريشا عنه، فلم يجد عند أحد منهم فيه علما فأرسل إلى عبد الله بن صفوان فسأله، فقال: هذا قبر إسماعيل عليه السلام، فلا تحركه، فتركه. ا.ه.

فىكون موضع هذا القبر و السفط فى النصف الأخير من الحجر المقابل للجدار الدائر عليه من جهة الشمال.

فإذا قيل: إن إسماعيل عليه السلام، دفن بالحجر أى: دفن فى أرض الحجر فى زمانه أى فى النصف الأخير منه المقابل لجداره الدائر، و معنى ذلك: أنه لم يدفن أحد فى جوف الكعبة المشرفة بيقين، لا إسماعيل عليه السلام، و لا غيره.

إذا فهمنا هذا الكلام تمام الفهم، نعلم علم اليقين أن ما ذكره ابن ظهير القرشى فى كتابه «الجامع اللطيف» بأن العلامة الكبير المحب الطبرى سئل رحمه الله تعالى عن الرخامة الخضراء التى بالحجر فقال هى قبر إسماعيل و يشبر من رأسها إلى ناحية الركن الغربى مما يلى باب بنى سهم ستة أشبار فعند انتهائها يكون رأس إسماعيل عليه السلام. ا.ه.

هذا الجواب خطأ محض لا صحة له أصلا، و المحب الطبرى مع جلاله قدره و علمه الغزير توهم أن الرخامة الخضراء ما وضعت إلا لتدل على قبر إسماعيل عليه السلام، مع أن ذلك خلاف الواقع، و سنبين فى آخر هذا الفصل إن شاء الله تعالى أصل هذه الرخامة و سبب وضعها فى هذا المكان من الحجر.

و أيضا أن المحب الطبرى أجاب بهذا الجواب لعلمه أن إسماعيل مدفون بالحجر، لكن غاب عليه أن يحدد قياس الحجر فى عهده عليه السلام و قياسه فى عهد قريش حين بنت الكعبة الذى قياسه فى عهدهم هو قياسه اليوم بالضبط، فلو تنبه رحمه الله تعالى إلى القياسين لما أجاب بهذا الجواب، و نحن أيضا وقعنا فى هذا الغلط فى كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام، المطبوع بمطبعة الحلبي بمصر و ذلك بصحيفتى ١٣٧ و ١٤٠ تمشيا مع كلام الطبرى رحمه الله تعالى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٨٣

و ما وقع فيه المحب الطبرى وقع فيه بعض أهل القرن الثانى أو الثالث للهجرة كما يعلم ذلك مما ذكرناه عن الإمام الأزرقى فيما تقدم هنا من شكايه إسماعيل لربه عز و جل حرمكة فأوحى الله تعالى إليه أنى أفتح لك بابا من الجنة فى الحجر يجرى عليك منه الروح إلى يوم القيامة و فى ذلك الموضع توفى. قال الأزرقى قال خالد: فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربى فيه قبره.

انتهى منه. و فى هذا الخطأ وقع أيضا ابن جبير الأندلسى كما ذكره فى رحلته و كانت رحلته سنة (٥٧٨).

فقول خالد أن قبر إسماعيل عليه السلام، ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربى خطأ أيضا فإسماعيل الذى بنى البيت مع أبيه إبراهيم، عليهما الصلاة و السلام، دفن بالحجر منذ تلك العصور الغابرة التى تقرب من أربعة آلاف سنة، و الحجر فى زمانه كان صغيرا ضيقا

بمقدار نصف مساحته اليوم من جهة جداره الدائر و لم يزل كذلك إلى زمن بناء قريش فاتسع الحجر بهذا القدر الموجود في عصرنا لأن قريشا نقصوا من طول الكعبة من جهة الحجر، فمن الذي زحزح إسماعيل عليه السلام عن قبره فدفنه عند البلاطة الخضراء تحت الميزاب، مع أنه عند بنائه البيت لم يكن له سقف حتى يوضع عليه الميزاب.

هذا ما فتح الله علينا في هذه المسألة الدقيقة، فله مزيد الحمد و الشكر و إليه يرجع الأمر كله، لا إله إلا هو عليه توكلت و إليه أنيب، اللهم ارحم المحب الطبري و الإمام الأزرقى و ارحمنى معهما و اغفر لى و لهما و لوالدينا و لمشايخنا و لجميع المؤمنين و المؤمنات و المسلمين و المسلمات الأحياء منهم و الأموات و اختم لنا بخير يا أرحم الراحمين و صلى الله و سلم على النبى الأمى و على آله و صحبه أجمعين.

قبر إسماعيل عليه الصلاة و السلام فى الحجر

لقد قدمنا الكلام على دفن إسماعيل، عليه الصلاة و السلام بالحجر، و هنا نذكر عن هذه المسألة بيانا يكون أكثر وضوحا مما تقدم. فنقول و بالله التوفيق:

تقدم أن حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام الذى هو حائط على شكل نصف دائرة من جهة ميزاب الكعبة، أنه من نفس البيت الحرام، و أن أصل هذا الحجر وضعه خليل الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة و السلام و جعله من شجر الأراك تقتحمه العنز، فكان زربا لغنم ابنه إسماعيل، عليهما الصلاة و السلام، كما ذكره

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٨٤

الإمام الأزرقى فى كتابه تاريخ مكة أحسن الله تعالى إليه، و معنى الزرب بسكون الراء هى الزريبة و هى حظيرة المواشى.

روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: «كنت أحب أن أدخل البيت و أصلى فيه، فأخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم يدي فأدخلني البيت، فقال لى صلى فى الحجر إذا أردت دخول البيت، فإنما هو قطعة من البيت، و لكن قومك استقصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت. و لقد قدمنا الكلام على هذا بالتفصيل عند مبحث بناء قريش الكعبة المعظمة فراجعه هناك.

و هنا يجب التنبيه على مسألة دقيقة فى مذهب الإمام الشافعى، رضى الله تعالى عنه، و هى: أن من استقبل فى صلاته حجر إسماعيل فقط لا تصح صلاته، لأن كون الحجر من البيت مظنون لا مقطوع به، لأنه إنما ثبت بالآحاد، كما أفاده العلامة الخطيب الشافعى، رحمه الله تعالى فى كتابه «الإقناع على أبى شجاع».

هذا و قد ذكر كثير من العلماء: أن قبر إسماعيل عليه الصلاة و السلام، و قبر أمه هاجر و قبور عذارى بناته موجودة بالحجر، كما ذكره الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى فى تاريخه. فقد جاء فيه: أن الزهرى سمع ابن الزبير يقول: إن هذا المحدودب قبور عذارى بنات إسماعيل عليه الصلاة و السلام، يعنى مما يلى الركن الشامى من المسجد الحرام ... الخ. و جاء فيه أيضا: أنه مات بمكة: نوح و هود و صالح و شعيب، و قبورهم بين زمزم و الحجر، و قيل إن هود أو صالحا لم يحجا فقد تشاغلا- بأمر قومهما، و الله أعلم، و ورد فى الحديث: «كان النبى من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة، فيتعبد فيها و من معه حتى يموت فيها».

و جاء فى تاريخ الأزرقى أيضا: أن المبارك بن حسان الأنماطى قال: رأيت عمر بن عبد العزيز فى الحجر فسمعتة يقول: شكنا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز و جل حر مكة، فأوحى الله تعالى إليه أنى أفتح لك بابا من الجنة فى الحجر يجرى عليك منه الروح إلى يوم القيامة، و فى ذلك الموضع توفى، قال خالد: فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربى و فيه قبره. هـ منه.

و اختلف بعض العلماء فى دفن إسماعيل عليه الصلاة و السلام أو أحد من أهله فى الحجر، و رأينا الخاص فى ذلك: أنه قد يجوز أن يكون قبر إسماعيل عليه السلام، أو قبر أمه أو قبر أحد من أولاده و بناته فى الحجر، و ما المانع فى ذلك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٨٥

الزمان الأول أن يدفن نبي الله و ابن خليله عليهما الصلاة و السلام أو أحد من أهله بلصق الكعبة المشرفة، في الحجر، و هو الذي قام مع أبيه الخليل بنائها، كما هو الذي نزل مع أمه هاجر بمكة و هو صغير يرضع حين لم يكن بها بشر و لا حيوان، فإذا كان غنم إسماعيل عليه السلام، تأوى إلى عريش الحجر، أفلا يأوى إليه هو و أهله بعد الممات، بلى و الله إنه لا مانع من ذلك خصوصا و أن أمه هاجر ماتت قبله و هو الذي دفنها هناك بإذن ربه عز و جل، فجميع الأنبياء عليهم الصلاة و السلام لا يأتون شيئا و لا يفعلون شيئا إلا بأمر الله عز و جل، نعم نحن الآن لا نقدر أن نضع حاجة في بيت أحد من أصحابنا إلا بعد إذنه و رضائه، فهل يمكن لإسماعيل و هو نبي و ابن نبي أن يدفن أمه عند بيت الله الحرام قبل أن يأذن له ربه عز و جل؟ كلا و الله. و نحن إذا نظرنا إلى زمانه و رأينا أنه، عليه الصلاة و السلام، كان مسكنه عند الكعبة المشرفة و عند زمزم مع أهله و مواشيه، و أنه لم يكن يقيم معه بمكة إلا نفر من جرهم، لا نقول بأن قبورهم كانت بعيدة عنهم كمقبرة المعلا في زماننا هذا.

نعم نحن الآن نستعظم الدفن في المطاف أو في المسجد الحرام، لأن المكان لا يخلو لحظة واحدة من الطائفين أو المصلين و العاكفين ليلا و نهارا، و شريعتنا الغراء تحرم اتخاذ القبور مساجد و الدفن فيها. و الله تعالى أعلم بالصواب و إليه المرجع و المآب، و لم يأت في موضع دفنهم و قبورهم خبر و لا أثر.

و هنا نقطة دقيقة و هي: إن قلنا أن قبر إسماعيل عليه الصلاة و السلام أو قبر أحد من أهله في الحجر، فتكون قبورهم في نصف الحجر الذي يلي جداره المستدير مما يلي الغرب لأن الحجر في عهد إبراهيم و إسماعيل عليهما الصلاة و السلام كان ضيقا أى كان إلى وسط أرض الحجر في زماننا هذا تقريبا، فإنه لم يتغير الحجر إلا في عهد قريش قبل البعثة بخمس سنوات، حيث إنهم لما بنوا الكعبة المعظمة نقصوا من جدارها مما يلي الحجر أقل من سبعة أذرع، فمن هنا صارت أرض الحجر واسعة. فافهم هذه النقطة الدقيقة فإننا لم نر من بينها و أوضحها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٨٧

انتهى بعون الله تعالى الجزء الثانى و يتلوه الجزء الثالث، و أوله:

عمارات حجر إسماعيل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٨٩

المحتويات

الموضوع رقم الصفحة مكة في عهد إبراهيم عليه الصلاة و السلام ٥

مكة في الجاهلية و الإسلام ٦

مكة في عهد قريش ٩

مكة في عهد النبي صلى الله عليه و سلم ٢٢

النواحي العامة بمكة في عهد النبوى ٢٤

بعض ما قيل في حق مكة و المشاعر ٢٦

تذكر النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه مكة بعد الهجرة ٤٢

الوطن، لشوقى بك ٤٢

مدخل مكة المشرفة ٥٠

سور مكة قديما ٥٨

تقسيم قصى أمور مكة ٦٢

- دار الندوة ٦٦
- بناء دار الندوة ٦٦
- التحقيق عن موضع دار الندوة ٧١
- أول دار بنيت بمكة ٧٣
- بدء بناء البيوت بمكة ٧٥
- دار العباس بن عبد المطلب ٧٧
- دار أبي سفيان بمكة ٧٨
- اتخاذ دار أبي سفيان مستشفى ٨٠
- دار الأرقم ٨٢
- [قصة إسلام عمر] ٨٧
- ترجمة الخيزران أم الرشيد ٨٩
- حرم مكة و أنصابه ٩١
- وضع أنصاب الحرم ٩٥
- أسماء من وضع أنصاب الحرم و أعلامها ٩٧
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٩٠
- جدول بأسماء من جدد أنصاب الحرم ٩٩
- أعلام حدود الحرم ١٠١
- المسافات بين المسجد الحرام و أنصاب الحرم ١٠١
- فضل الحرم و خصائصه و تعظيمه ١٠٩
- تعظيم الحرم الشريف ١١٤
- بعض ما ورد في القرآن الكريم في فضل المسجد الحرام ١٢٠
- الكلام على قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ...
الآية ١٢٣
- زيادة التأمل ١٢٧
- فائدة مهمة ١٢٩
- مواقيت الصلاة ١٣٠
- علة تسمية الجهات الأربعة ١٣٢
- جهات المصلين إلى القبلة في جميع البلدان ١٣٤
- أول ظهور بعض الأشياء بمكة المكرمة ١٣٦
- تجارة قريش في الجاهلية و صدر الإسلام ١٣٩
- النهوض بالصناعات بمكة المكرمة ١٤١
- الحياة الاقتصادية لمكة المكرمة ١٤٢
- مصانع الحجاز للصاج ١٤٤

- مصنع البوقرى للبلاستيك ١٤٥
صناعات أخرى ١٤٥
الغرفة التجارية ١٤٦
الحرف و الصناعات بمكة المكرمة ١٤٦
صناعة النجارة الفنية بمكة ١٥٠
صناعة التنجيد بمكة ١٥١
صناعة الحصر و الزنايل و المراوح الخوص بمكة ١٥٢
صناعة الشراب أى القلل ١٥٢
صناعة الحلاوة الطحينية بمكة ١٥٣
استخراج زيت السمسم بمكة ١٥٣
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٩١
طحن الحبوب بالرحى بمكة ١٥٣
وجود الأفران لعمل الخبز بمكة ١٥٤
صناعة القدور و الأواني النحاسية بمكة ١٥٥
تجار الساعات بمكة المكرمة ١٥٦
الكتيبة بمكة المكرمة ١٥٨
منجر الأخشاب بمكة المكرمة ١٥٩
المصوراتية بمكة المكرمة ١٦١
الآلات الكاتبة بمكة المكرمة ١٦٣
مصانع الثلج بمكة المكرمة ١٦٤
الكاكولا بمكة المكرمة ١٦٥
مصنع الحلويات بمكة المكرمة ١٦٦
الصياغة بمكة المكرمة ١٦٧
مزارع الدواجن بمكة المكرمة ١٦٨
زيت المازولا بمكة المكرمة ١٦٨
صالونات الحلاقة بمكة المكرمة ١٦٩
الدجاج الخارجى بمكة المكرمة ١٦٩
الحوت و السمك الطرى بمكة المكرمة ١٧٠
كثرة الأسفار إلى خارج بلادنا ١٧٢
المكتبات العامة بمكة المكرمة ١٧٤
الأربطة بمكة المكرمة ١٧٥
الحمامات بمكة المكرمة ١٧٥
القهاوى التى بمكة ١٧٦

- نقل الحلقة التي بالمعلا إلى جهة جرد ١٧٩
- بدء ظهور المطابع ١٨١
- الجرائد و المجلات بمكة المكرمة ١٨٥
- إنارة مكة المكرمة بالكهرباء ١٩١
- ظهور بوليس النجدة بمكة المكرمة ١٩٢
- الإطفاء بمكة المكرمة ١٩٢
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٩٢
- البريد و التلغراف و التليفون بمكة المكرمة ١٩٢
- البريد و تطوره بمكة المكرمة ١٩٤
- البريد في مكة ١٩٨
- التلغراف بمكة المكرمة ١٩٩
- التليفونات بمكة المكرمة ٢٠٢
- عدد التليفونات بمكة المكرمة ٢٠٣
- البنوك بمكة المكرمة ٢٠٤
- عدد نزول المطر في سنة ١٣٨٥ بمكة ٢٠٦
- الأمطار بمكة في سنة ١٣٨٦ هجرية ٢٠٧
- جوازات السفر و رخص الإقامة و إحصاء النفوس بمكة المكرمة ٢٠٨
- استعمال الحطب و الفحم و غيرهما بمكة ٢١٠
- أول مصحف يطبع بمكة المكرمة ٢١١
- الفنادق في الحجاز ٢١٢
- الفنادق بمكة المكرمة ٢١٣
- أسماء الحارات و المحلات بمكة قديما و حديثا ٢١٤
- استعمال أقلام الجيب في الحجاز ٢١٧
- استعمال الآلات الكاتبة في الحجاز ٢١٨
- أول من فرض العشور بمكة ٢١٩
- ذكر المكوس و العشور و إبطالها ٢٢٠
- إحصاء الحجاج القادمين إلى مكة المشرفة في بعض الأعوام ٢٢٧
- إحصاء الحجاج لعام ١٣١٥ هـ ٢٣٠
- إحصاء الحجاج لعام ١٣١٦ هـ ٢٣٠
- إحصاء الحجاج في سنة (١٣٧٣) هجرية ٢٣٦
- أسباب قلة الحجاج و كثرتهم ٢٣٧
- إقامة المظلات و القهاوى في طريق الحج ٢٤١
- سيول مكة العظيمة ٢٤٢

- مجرى السيل بمكة ٢٥٦
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٩٣
- عمل السدود بمكة ٢٥٨
- المدعا و فيه ردم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٢٦٤
- ذكر بعض البساتين الموجودة بمكة المكرمة ٢٦٦
- وصف بستان الشريف عون بمكة ٢٦٩
- الحجارات الطوال التي كانت بباب السلام سابقا ٢٧٢
- حمام الحرم ٢٧٥
- وقوع الحمام على الكعبة المعظمة ٢٨١
- تنظيف المسجد الحرام من الحمام ٢٨٢
- رمز الحمام ٢٨٥
- عدد المستشفيات بمكة المكرمة ٢٨٧
- جمعية الإسعاف بمكة المكرمة ٢٨٨
- نبذة تاريخية ٢٨٩
- المحجر الصحى و الكورنتينات ٢٩١
- أول ظهور الجدري و الحصبة بأرض الحجاز ٣٠٠
- التقارير الصحية بنظافة الحج ٣٠١
- الجمال و السيارات بمكة المكرمة ٣٠٣
- المشقات التي كانت تعترض الحجاج سابقا ٣٠٧
- الطريق من مكة إلى المدينة سابقا ٣٠٩
- الطريق الفرعى ٣١١
- طريق الغاير ٣١٢
- الطريق الشرقى ٣١٢
- نظام القوافل ٣١٣
- الطريق المسلوك من مصر إلى مكة ٣١٦
- معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة المشرفة و المدينة النبوية ٣١٧
- على ساكنها سيدنا محمد أفضل الصلاة و السلام و التحية و الإكرام، إذا كانت من تمتع الطرق الموصلة إلى بعض أقطار المملكة
- الطريق من مصر إلى الحرمين قديما و حديثا ٣٢١
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٩٤
- كيفية مسير الحجاج من الشام إلى مكة قبل إنشاء الخط الحديدي ٣٣٣
- سفر الحجيج من المدينة المنورة إلى مصر ٣٣٥
- المسافات بين مكة و المدن الإسلامية الكبرى ٣٤١
- بناء البيوت و المقاولات عليها بمكة ٣٤٥

- بناء الصنادق و العشايش بمكة ٣٤٨
- من علامات الساعة ظهور بناء البيوت على الجبال ٣٤٩
- نحت الحجارات من جبال مكة لبناء المنازل ٣٥٠
- منجم النورة البلدية بمكة المكرمة ٣٥١
- صناعة الآجر و مراكن الزرع بمكة ٣٥٢
- إنارة شوارع مكة بالكهرباء ٣٥٢
- عدم مرور الطائرات من هواء مكة ٣٥٢
- مكة المكرمة و ما فيها من النعم و البضائع ٣٥٣
- صلاة الجمعة في المسجد الحرام ٣٥٤
- الصلاة في الطابق الأعلى من المسجد الحرام ٣٥٨
- افتتاح طريق الطائف من جبل كرا ٣٥٩
- تاريخ الإذاعة السعودية ٣٦٢
- قصيدة في تحية دار الإذاعة ٣٦٤
- وصف الحاكي أي "الفنوغراف" ٣٦٥
- ظهور التلفزيون ٣٦٦
- الميكروفون في المسجد الحرام ٣٦٧
- الجبال و فوائدها و ألوانها ٣٦٨
- وصف الصحراء ٣٧٠
- ذكر بعض أشهر جبال مكة ٣٧٤
- جبل أبي قبيس و ارتفاعه ٤٢٠ مترا ٣٧٦
- جبل قعيقعان (أي جبل هندی) ٣٨١
- الدور التي بقعيقعان لابن الزبير ٣٨٢
- جبل عمر ٣٨٣
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٩٥
- جبل ثور ٣٨٤
- باب غار ثور و توسيعه ٣٩٤
- جبل ثبير ٣٩٩
- جبل خندمة ٤٠٢
- ثنية كداء ٤٠٥
- ثنية كدى ٤٠٦
- جبل حراء ٤٠٨
- عدد السماوات و الأرضين ٤١٦
- خلق موضع الكعبة ٤٢٣

- بنايات الكعبة المعظمة ٤٢٤
- الدليل على بناء الكعبة قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ٤٢٤
- البنائية الأولى: بناء الملائكة عليهم السلام الكعبة ٤٢٦
- البنائية الثانية: بناء آدم عليه السلام الكعبة ٤٢٨
- ما جاء في حج آدم عليه الصلاة والسلام ٤٣٤
- مقدار طول آدم عليه السلام ٤٣٥
- قبر أمنا حواء بجدة ٤٣٩
- أمر الكعبة بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ٤٤١
- نبذة عن ترجمة إبراهيم خليل الله ٤٤٣
- عليه الصلاة والسلام ٤٤٣
- فضل إبراهيم الخليل على الأمة المحمدية ٤٤٤
- نسب إبراهيم عليه السلام و موطنه ٤٤٥
- البنائية الثالثة: بناء شيث عليه الصلاة والسلام الكعبة ٤٦٠
- البنائية الرابعة: بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة ٤٦١
- هجرة إبراهيم إلى مكة لأول مرة ٤٦٢
- إكرام إبراهيم عليه السلام لزوجته سارة ٤٦٣
- قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام و بناء الكعبة ٤٧٠
- دعاء إبراهيم لأهل مكة بالأمن و الرزق ٤٧٩
- ذكر حج إبراهيم عليه الصلاة والسلام ٤٨١
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٩٦
- الخلاصة في كيفية بناء إبراهيم عليه السلام ٤٨٢
- ارتفاع أرض مكة عما كانت عليه قديما ٤٨٤
- مميزات بناء إبراهيم الكعبة ٤٨٥
- ذكر الأنبياء الذين ربتهم أمهاتهم ٤٨٦
- الكلام على زمزم و خروجه لإسماعيل و أمه ٤٩١
- الكلام على بئر زمزم ٤٩٤
- حفر عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه و سلم زمزم ٤٩٩
- مسرحية شعرية تمثيلية ٥٠٥
- العيون التي في قعر زمزم ٥٠٨
- فضل ماء زمزم و ميزته ٥٠٩
- ما جاء في تاريخ الأزرقى عن زمزم ٥١١
- ماء زمزم لا تؤثر فيه الجراثيم و الميكروبات ٥١٥
- التضلع من ماء زمزم ٥١٨

- بقاء ماء زمزم إلى يوم القيامة ٥٢٣
- تحريم العباس رضى الله تعالى عنه الاغتسال بماء زمزم ٥٢٣
- سقاية العباس ٥٢٣
- أول من عمل بابا لززم و أعطى مفتاحه لبيت الرئيس ٥٢٨
- خلاصة أمر السقاية ٥٢٩
- بناء تنور بئر زمزم ٥٣٠
- تعمير فم البئر و وضع شباك فى داخلها ٥٣٢
- أول من عمل الرخام فى زمزم ٥٣٤
- قبة بئر زمزم ٥٣٥
- الغرفة التى بجوار زمزم ٥٣٦
- وصف بئر زمزم فى عصرنا ٥٣٧
- ما جاء من الأحاديث فى زمزم ٥٣٩
- طعم ماء زمزم ٥٤٣
- كيفية شرب النبي صلى الله عليه و سلم من ماء زمزم ٥٤٤
- ميزة ماء زمزم ٥٤٧
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٩٧
- الحكايات الواردة عن بعض الناس عن شربهم لماء زمزم ٥٤٧
- إهداء ماء زمزم ٥٥٠
- أسماء زمزم ٥٥١
- غور زمزم و قياس ذرعه ٥٥٢
- ذرع بئر زمزم ٥٥٤
- الحفر فى قعر زمزم إذا قل ماؤها ٥٥٦
- حوض زمزم فى عهد ابن عباس ٥٥٧
- حلاوة زمزم ٥٥٨
- عدم فيض زمزم ليلة نصف شعبان ٥٦٠
- حكم بئر زمزم و حريمها هل هى من المسجد الحرام أم لا ٥٦٢
- جواب الشيخ محمد بن عبد الله الطبرى الشافعى ٥٦٢
- جواب الشيخ عبد العزيز الزمزمى الشافعى ٥٦٣
- جواب الشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد الحنفى ٥٦٣
- جواب الشيخ أبى السعود بن على الزمزمى المالكى ٥٦٣
- جواب مفتى الأحناف الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن سراج ٥٦٤
- جواب مفتى الشافعية السيد عبد الله بن السيد محمد صالح الزواوى ٥٦٥
- جواب مفتى المالكية الشيخ عابد بن حسين المالكى ٥٦٧

- حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام ٥٦٩
 حكم حجر إسماعيل في الطواف ٥٧٤
 الجلوس في الحجر و في المطاف ٥٧٥
 قياس حجر إسماعيل بالأمتار ٥٧٦
 قياس حجر إسماعيل بالأذرع ٥٧٦
 كسوة حجر إسماعيل ٥٧٨
 فرش حجر إسماعيل بالبلاط ٥٧٨
 المدفونون في حجر إسماعيل ٥٧٩
 مكان الدفن في الحجر ٥٨١
 قبر إسماعيل عليه الصلاة والسلام في الحجر ٥٨٣
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٥٩٩

ملحق الصور

- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٠١
 منظر رقم ١٦

صورة الملك عبد العزيز الرحمن آل سعود ملك البلاد العربية السعودية و مؤسسها المتوفى في شهر ربيع سنة ١٣٧٣ هـ رحمه الله تعالى و غفر لنا و له

- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٠٢
 المغفور له الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٠٣
 جلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٠٤
 المغفور له الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ١-٢، ص: ٦٠٥
 حضرة صاحب الجلالة الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).
 قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرِ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثَّقَافِي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللهُ - كان أحدًا من جُهَابِذَةِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، الَّذِي قَدِ اشْتَهَرَ بِشَعْفِهِ بِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ (صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ) وَ لَاسِيَّمَا بِحَضْرَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرُّضَا (عَلَيْهِ السَّلَام) وَ

بِسَاحَةِ صَاحِبِ الزَّمَانِ (عَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)؛ وَ لِهَذَا سَيَسَّ مَعَ نَظَرِهِ وَ دِرَايَتِهِ، فِي سَنَةِ ١٣٤٠ هِجْرِيَّةِ الشَّمْسِيَّةِ (= ١٣٨٠ هِجْرِيَّةِ الْقَمْرِيَّةِ)، مَوْسَسَةٌ وَ طَرِيقَةٌ لَمْ يَنْطَفِئِ مِصْبَاحُهَا، بَلْ تُتَبَّعُ بِأَقْوَى وَ أَحْسَنِ مَوْقِفٍ كُلِّ يَوْمٍ.

مركز "القائمة" للتحرى الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامى - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرى الأذق للمسائل الدينية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتى المتبدلة أو الرديئة - فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعته ثقافية على أساس معارف القرآن و اهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة فى الجامعه، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التى يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - فى آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - فى أنحاء العالم - من جهة أخرى.
- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنون كتب، كتيبه، نشره شهرية، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبيه، قابله للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمة" www.Ghaemiyeh.com و عدة مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية

(و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الدينية كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين فى الجلسة

(ى) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسى: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / "ما بين شارع" پنج رمضان " و مفترق "وفائى" / "بنايه" القائمة "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنّها لا تُوفّي الحجم المتزايد و المتسعّ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحبَ هذا البيتِ (المُسمّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجه الشّريف) أن يُوفّق الكلَّ توفيقاً متزائداً لِعانتهم - في حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصححان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩